تيسير القرآن الكريم

للقراءة والفهم المستقيم

من سورة الروم إلى سورة الناس

الجزء الثالث

لفضيلة الأستاذ الشيخ

عبد الجليل عيسى

شيخ كلية اللغة العربيّة

بالأزهر الشريف (سابقا)

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٩

عيسى، عبد الجليل، ١٩٧٢ - ....

تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم/ عبد الجليل عيسى. - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩

مج ٣ ؛ ٢٨ سم.

المحتويات: من سورة لقمّان إلى آخر سورة الناس.

تدمك ٨ ٧٦٢ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القرآن - تفسير.

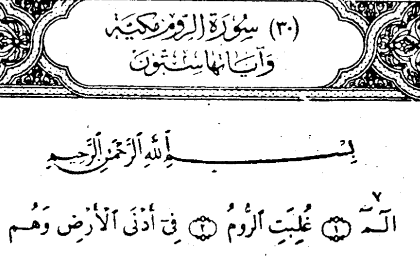
أ - العنوان.

رقم الايداع بدار الكتب ٥٥٢٢/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 762 - 8

ديوى ٢٢٧

دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ
مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا
جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿الم﴾: تقرأ ألفْ بفتح فكسر فسكون، لامْ بسكون آخره ميمْ بسكون آخره أيضًا.

﴿الروم﴾: هى أمة عظيمة من ولد روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وكان ملكهم فى عصر النبوة هرقل بكسر ففتح فسكون، وكانت دولتهم تشمل الشام والعراق العربى، وكانوا نصارى أهل كتاب.

﴿أدنى الأرض﴾: أقرب بلاد الروم بالنسبة لأهل مكة.

المعنى: ﴿الم﴾ تقدم معناها أول سورة البقرة. غلبت الفرس الروم فى أقرب الأرض إلى العرب، وكانت الفرس والروم أقوى دول العالم فى ذلك الوقت، وكانت الفرس وثنية ليس لها كتاب، وكانت تقيم فى غرب آسيا ويمتد ملكها إلى جزء من العراق المسمى بالعراق العجمى وفى هذا الجزء التقى الدولتان فى حرب سنة عشر من البعثة النبوية، فانهزمت الروم وفرح مشركو مكة بانتصار المشركين على أهل الكتاب وشمتوا بالمسلمين، وقالوا نحن وفارس سواء ليس عندنا كتاب، وقد انتصرت فارس، وسننتصر عليكم إذا هممتم بحرب، فأنزل الله تعالى هذه الآيات تطمينا للمسلمين، فأعلنها أبو بكر، فكذبه أبى بن خلف، فراهنه أبو بكر على أن النصارى سيغلبون الفرس وجعل الرهان مائة ناقة، وفى سنة ست من الهجرة انتصرت الروم فأخذ أبو بكر الإبل وتصدق بها، وكان ذلك قبل تحريم القمار.

(١) ألف . لام . ميم.

مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ
مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ
اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ
لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ
غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى
وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا
أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ

المفردات: ﴿غلبهم﴾: المراد مغلوبيتهم أى انكسارهم وهزيمتهم.

﴿بضع﴾: البضع ما بين الثلاث إلى التسع.

﴿ظاهرا من الحياة الدنيا﴾: هو كل ما يفيدهم فى تمتعهم بها دون النظر إلى أنها مطية الآخرة.

﴿إلا بالحق﴾: تقدمت فى الآية (٣) من سورة النحل صفحة ٣٤٥.

﴿أجل مسمى﴾ تقدم فى صفحة ٥٢٨.

﴿أثاروا الأرض﴾ أى حرثوها للزرع، انظر الآية (٧١) من سورة البقرة صفحة ١٤.

﴿عمروها﴾: بالزرع والغرس والبناء.

﴿البينات﴾: أى المعجزات.

المعنى: إن الروم من بعد غلبة فارس لهم سيغلبون فارس فى مدة لا تتجاوز تسع سنين، وقد حصل ذلك فعلا سنة ست من الهجرة كما تقدم. ثم أراد سبحانه أن يبين أن ذلك كان بتقدير إلهى لحكمة يعلمها سبحانه، أشار إليها فى قوله ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ الآية (١٤٠) من سورة آل عمران صفحة ٨٥ فقال: ولله الأمر من قبل حصول كل شىء ومن بعده، ومنه قبل الغلب وبعده، أى فكل شىء بقضاء وقدر، ويوم يتغلب الروم على الفرس يفرح

(١) ظاهر (٢) الحياة (٣) الآخرة (٤) غافلون
(٥) السموات (٦) بلقاء (٧) لكافرون
(٨) عاقبة (٩) بالبينات (١٠) عاقبة

المؤمنون بنصر الله لمَنْ لهم كتاب على المشركين الذين لا كتاب لهم، لما فيه من التفاؤل وغيظ المشركين، وصدق ما وعدوا به. ثم أكد سبحانه ما قرره من أن الأمر كله له بقوله: ﴿ينصر مَنْ يشاء﴾ إلخ: أى ينصر مَنْ يشاء أن ينصره على عدوه.

وهو العزيز أى الغالب الذى لا يغلب، الرحيم بعباده المخلصين فيجعل العاقبة لهم. وعد الله، أصلها وعد الله المؤمنين بهذا النصر وعدا، وهو سبحانه لا يخلف وعده أبدا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لجهلهم بقدره تعالى، وبما وضعه من أسباب النصر، وأهمها طاعة أوامره ظاهرا وباطنا، فحصر هؤلاء الجاهلون كل همهم فى مظاهر الحياة الدنيا، وحصروا جميع أغراضهم فى لذائذها، ولم يجعلوا منها زادًا لآخرتهم، فكانوا كالحيوانات التى لا تدرك من الدنيا إلا ما يملأ البطون، وهى فى غفلة من مصيرها، فهؤلاء الكفار أتعس حالا من الحيوانات لأنهم إذا رحلوا عن الدنيا إلى الآخرة وجدوا خرابا وعذابا أليما. ثم أراد سبحانه أن ينبه المشركين إلى أدلة وجوده وحكمته، وأنه لابد أن يبعث الناس للجزاء، فقال ﴿أو لم يتفكروا﴾ إلخ.

أى هل غفل هؤلاء المكذبون بالبعث من قومك أيها النبى ولم يتفكروا فى خلق الله لهم بعد أن لم يكونوا شيئا، فيعلموا أن القادر على ذلك قادر على إعادتهم، ويعلموا أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لحكمة، وأن لهذه الدنيا وقتا محددا لا تتعداه. وأن كثيرا من الناس بلقاء جزاء ربهم بعد انقضاء أجل الدنيا لكافرون، أى جاحدون ظانين أن الدنيا أبدية وأن الآخرة لا تكون؛ لذلك نجوا فى أعمال الشرور.

وبعد ذلك أرشدهم سبحانه إلى السير فى الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم، وأنهم كانوا أشد منهم قوة، وحرثوا الأرض وعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون، وجاءتهم رسلهم بالبراهين الدالة على صدقهم فكذبوهم، فأهلكهم الله، وما كان سبحانه بظالم لهم بهذا العقاب، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم. ثم أبرز سبحانه هذه النهاية المحزنة فقال: ﴿ثم كان عاقبة الذين﴾ ... إلخ.

ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ[1] ٱلسُّوٓأَىٰٓ[2] أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ[3] ٱللَّهِ وَكَانُواْ
بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ[4] ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ[5] ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾
وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ[6] شُفَعَٰٓؤُاْ[7] وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ[8]
كَٰفِرِينَ[9] ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ[10] وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[11] فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ
يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا[12] وَلِقَآئِ[13]
ٱلْـَٔاخِرَةِ[14] فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ[15]
ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[16] وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾
يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ[17]

المفردات: ﴿السوءى﴾: تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ﴿يبدأ الخلق ثم يعيده﴾: تقدمت فى صفحة ٥٠٢. ﴿يبلس المجرمون﴾: ييأسون من النجاة. انظر الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩. ﴿يومئذ﴾: الأصل يوم إذ تقوم الساعة. وبما أن ﴿إذ﴾ ظرف زمان فتكون إضافة يوم وهو زمان أيضا لها من إضافة للخاص مثل إضافة ﴿شجر رمان﴾ أى شجر مبين بأنه رمان. فالمعنى هنا يوم مبين بأنه زمن قيام الساعة. ﴿روضة﴾: أرض ذات أشجار وأنهار.

﴿يحبرون﴾: من الحبور أى يسرون وتتهلل وجوههم.

﴿محضرون﴾: أى تحضرهم الملائكة لا يفلتون من العذاب. انظر الآية (٦١) من سورة القصص صفحتى ٥١٥، ٥١٦.

﴿فسبحان الله﴾: تنزيها لله عما لا يليق به.

﴿عشيا﴾: هو ما بعد العصر إلى الغروب.

﴿تظهرون﴾: تدخلون فى وقت الظهر.

﴿يخرج الحى من الميت﴾: تقدم فى صفحة ١٧٨.

(١) أساءوا (٢) السوءى (٣) بآيات (٤) يستهزءون (٥) يبدءوا
(٦) شركائهم (٧) شفعاء (٨) بشركائهم (٩) كافرين (١٠) آمنوا
(١١) الصالحات (١٢) بآياتنا (١٣) ولقاء (١٤) الآخرة (١٥) فسبحان
(١٦) السموات (١٧) آياته.

المعنى :. ثم كان عاقبة الذين عملوا السيئات أقبح العواقب، وذلك بالقتل والخزى فى الدنيا، والعذاب الدائم فى الآخرة. وسبب ذلك أنهم كذبوا بآيات الله المتلوة، والتى أيد بها رسله، وكانوا يستهزئون بها، وكانوا يسمونها سحرا وخرافات الأولين كبرا وعنادا. ثم شرع سبحانه فى إقامة الدليل على قدرته على البعث مع بيان بعض ما سيلاقيه هؤلاء فقال ﴿الله يبدأ الخلق﴾ إلخ: أى الله وحده هو الذى يبدأ خلق الناس ثم يعيد هذا الخلق بعد موتهم كما بدأهم أول مرة. ثم وجه سبحانه الخطاب لكفار مكة لشدة الزجر فقال ﴿ثم إليه ترجعون﴾ للحساب والجزاء.

ثم بين سبحانه ما سيحصل فى يوم البعث من الهول للمسيئين والسرور للمؤمنين فقال تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ إلخ: أى فى هذا اليوم ييأس المجرمون وتنقطع حجتهم ولا يوجد لهم شفيع ممَّنْ كانوا أشركوهم مع الله ليشفعوا لهم ويتحقق لهم حينئذ كفرهم بهم واعتقادهم عدم نفعهم ويتبرءون منهم، انظر الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤. ويوم تجئ الساعة التى يحشر فيها الخلق إلى الله يومئذ يتفرق أهل الموقف إلى فريقين: مؤمن وكافر؛ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضات الجنات يمرحون، وأما الذين كفروا بالله أو بأحد من رسله وأنكروا البعث بعد الموت فهؤلاء تحضرهم الملائكة فى مكان العذاب لا يغيبون عنه أبدا. ثم أرشد سبحانه إلى ما يهيئ العبد للحالة الأولى ويبعده عن الثانية وهو مداومة تنزيهه سبحانه عما لا يليق به وحمده والثناء عليه بما هو أهله فى كل وقت، خصوصا حين تدخلون فى وقت المساء وفيه صلاة المغرب والعشاء، وحين تدخلون فى الصباح وفيه صلاة الصبح، ثم وسط سبحانه بين هذه الأوقات ما يرشد عباده المميزين من أهل السموات والأرض إلى حمده سبحانه على ماهم فيه من النعم، ثم قال سبحانه ﴿وعشيا﴾ أى سبحوه فى العشى وفيه صلاة العصر، وحين تدخلون فى وقت الظهر. ثم بين سبحانه بعض مظاهر قدرته مقدمة لإثبات قدرته على البعث فقال: يخرج الشىء من ضده كالحى من كل حيوان يخرجه من التراب الميت، وكالتراب الميت من كل حى، ويحيى الأرض بالنبات بعد موتها باليبس والجفاف، وستخرجون من قبوركم كهذا الإخراج، فهما فى قدرته تعالى متساويان. وبعد ما بين سبحانه آثار قدرته فى كل حى أراد أن يثبت قدرته على البعث بدليل خاص بهؤلاء المنكرين وظاهر لهم فى أنفسهم فقال ﴿ومن آياته﴾ إلخ...

أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠)
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ
أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً
مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

المفردات :. ﴿إذا﴾ : تقدم معنى الحرف فى الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩.

﴿بشر﴾ : أى إنسان يقال للواحد والأكثر.

﴿تنتشرون﴾ : تتفرقون فى الأرض طلبا للرزق، انظر الآية (١٠) من سورة الجمعة صفحة ٧٤٢.

﴿لتسكنوا إليها﴾ : لتستريح نفوسكم بالميل إليها.

﴿مودة﴾ : محبة. ﴿رحمة﴾ : شفقة من أن يصيب أحدكم سوء.

﴿منامكم بالليل والنهار﴾ إلخ: إذا اطلعنا على الآيات (١٢) من سورة الاسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦، و (٤٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥، و (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧، و (١٠، ١١) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، نعلم أن الأصل فى التركيب هنا ليتفق مع كل ما سبق أن يكون هكذا (ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار) ولكنه سبحانه جاء به على هذه الصورة ليفيد أن كلا من هذين الزمانين وإن اختص بأحد الشيئين: الراحة والعمل، فهو صالح للآخر عند الحاجة.

﴿ابتغاؤكم﴾ : أى طلبكم.

---

(١) آياته (٢) أزواجا (٣) لآيات (٤) آياته
(٥) السموات (٦) واختلاف (٧) وألوانكم
(٨) لآيات (٩) للعالمين (١٠) آياته
(١١) بالليل (١٢) لآيات (١٣) آياته
(١٤) فيحيى (١٥) لآيات (١٦) آياته

﴿خوفا وطمعا﴾ : لإخافتكم من الصواعق المهلكة، ولإطماعكم فى المطر الذى يحيى الأرض بالنبات.

﴿تقوم الساعة﴾ : تبقى قائمة على حالها ونظامها. انظر الآية (٢) من سورة الرعد صفحتى ٢٢٠، ٢٢١.

﴿بأمره﴾ : بإرادته انظر الآية (٦٥) من سورة الحج صفحتى ٤٤٢، ٤٤٣ .

المعنى : . ومن أدلة قدرته سبحانه على ما يشاء من إيجاد وإفناء أنه خلقكم وأنتم لحم فيه حياة من تراب ليس فيه شىء من مظاهر ذلك، ثم بعد إخراجكم من هذا التراب إذا أنتم بشر حى تنتشرون فى الأرض لمطالبكم المختلفة.

ومن دلائل قدرته أنه خلق لكم من جنس أنفسكم لا من جنس آخر أزواجا لتسكنوا إليها. وجعل بينكم توادا وتراحما لتدوم العشرة وتكون مبعث سعادة: إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ليصلوا إلى ما فى ذلك من الحكم.

ومن دلائل قدرته تعالى خلق السموات والأرض على هذا النظام البديع، واختلاف لغاتكم اختلافا لاحد له مع اتحاد أصلكم، واختلاف ألوانكم كذلك : إن فى كل ذلك لآيات لكل عالم يتأمل فى أسرار الوجود فيخشى ربه. انظر الآية (٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥.

ومن دلائل قدرته وحكمته أن يهيئ لكم النوم بالليل للراحة، والسعى فى طلب الرزق فى النهار: إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون مواعظ الله فيتعظون بها.

ومن آياته أنه يريكم البرق فتخافون مما فيه من الصواعق، وتطمعون فيما يجلبه من المطر: إن فى ذلك لآيات لقوم يستعملون عقولهم، ومن آياته قيام السموات والأرض بإقامته لهما على نظامهما المتقن، ثم تكون النهاية أنه إذا دعاكم سبحانه من القبور للبعث إذا أنتم تخرجون بلا تأخير، انظر الآية (٥٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١، ولا عجب فكل من فى السموات والأرض ملكه يتصرف فيه كما يشاء.

وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ
أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ
فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ
وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ
ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾
* مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا

المفردات: . ﴿قانتون﴾ : منقادون لما يريده فيهم كالموت والحياة والبعث.

﴿يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ : تقدم فى صفحة ٥٠٢.

﴿المثل الأعلى﴾ : المراد الوصف البديع الذى ليس لغيره ما يدانيه كالقدرة الشاملة والحكمة التامة.

﴿ضرب لكم مثلا﴾ : جعل لكم مثلا، انظر صفحتى ٢٥٥، ٤٤٤.

﴿هل لكم﴾ : ﴿هل﴾ حرف استفهام يراد به التوبيخ والإنكار أى النفى.

﴿من شركاء﴾ : ﴿من﴾ لتأكيد عموم النفى فيما بعدها.

﴿سواء﴾ : أى مستوون. ﴿خيفتكم﴾ : أى خوفكم.

﴿أنفسكم﴾ : أى الأحرار مثلكم.

﴿بل اتبع﴾ : ﴿بل﴾ حرف يدل على الانتقال إلى كلام آخر.

﴿فمن يهدى﴾ : ﴿مَنْ﴾ حرف استفهام يراد به النفى، والمراد لا أحد يهدى.

﴿أقم وجهك للدين﴾ : المراد : خلص توجهك وقصدك لعبادة الله وحده، انظر الآية (١٠٥) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

(١) قانتون (٢) بيدأ (٣) السموات (٤) مما
(٥) أيمانكم (٦) رزقناكم (٧) الآيات
(٨) ناصرين (٩) فطرة (١٠) الصلاة.

﴿حنيفا﴾ : مائلا عن الباطل إلى الحق، انظر الآية (١٣٥) من سورة البقرة صفحة ٢٦.
﴿فطرة﴾ : يقال فطر الله الشىء أى أوجده على نظام بديع انظر الآية (١) من سورة فاطر صفحة ٥٧١، والآية (٢٢) من سورة يسٓ صفحة ٥٨١، والفطرة الحالة التى خلق الله الناس عليها، والمراد بها ما استقر فى طباعهم من الخضوع لإله قادر حكيم، ومن الميل إلى الحق وكل مكارم الأخلاق التى تقرها العقول السليمة حيث لو تركوا بدون تدخل الشياطين لما تحولوا عنها: ولهذا قال بعض السلف : الفطرة هى المبادئ العامة للإسلام. انظر الآية (١٣٨) من سورة البقرة صفحتى ٢٦، ٢٧، وشرح الآية (٨٠) من سورة آل عمران صفحة ٧٦.
﴿القيم﴾: المستقيم الذى لا عوج فيه. انظر صفحة ٣٨٠. ﴿منيبين إليه﴾ : أى راجعين إليه بالتوبة وفى كل شئونكم.

﴿فرقوا دينهم﴾ : أى مزقوه قطعا تبعا لأهوائهم. انظر الآية (١٠٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٠، والآية (١٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٩١.

﴿شيعا﴾ : أى فرقا وأحزابا.

المعنى : - وله سبحانه كل مَنْ فى السموات والأرض خلقا وملكا وعبيدا كل له خاضعون. يحيى ويميت، ويبعث مَنْ يشاء من القبور للحساب والجزاء.

ثم قرر البعث بأسلوب آخر فقال ﴿وهو الذى يبدأ الخلق﴾ إلخ: أى هو وحده الذى يبدأ هذا المخلوق من العدم ثم يعيده للحياة بعد موته، وإعادته ثانيا أسهل عليه على حسب تصور الناس، وإلا فهو سبحانه يستوى عنده كل شىء فليس عنده سهل وأسهل. وله سبحانه الصفة العليا التى لا يشاركه فيها غيره. وهو العزيز الغالب فى ملكه الحكيم فى صنعه.

وبعدما أقام الدليل على قدرته على البعث شرع فى إقامة الدليل على وحدانيته بمَثَل يحسونه من أنفسهم فقال: ﴿ضرب﴾ أى جعل لكم ربكم أيها المشركون مثلا منتزعا من أنفسكم وما تحسونه، ثم بيَّن المثل فى أسلوب استفهام توبيخى فقال: هل لكم أيها الأحرار شركاء من عبيدكم المملوكين لكم يشاركونكم فى أموالكم التى رزقناها لكم فأنتم وهم فى

التصرف فى هذا المال على قدم المساواة تخافون من التصرف دونهم كما يخاف الحر من المماثل له؟ والمعنى إذا كنتم لا ترضون بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا له بعض عبيده شركاء له؟ كهذا التفصيل والبيان البديع نفصل الآيات الدالة على العبر لقوم يعقلون ضرب الأمثال.

ولما لم يتنبهوا أعرض عن مخاطبتهم مبينا سبب جحودهم فقال: بل اتبع الذين ظلموا أنفسهم بالشرك كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠ شهوات أنفسهم جاهلين العاقبة، وإذا صمم الشخص على العناد والكفر فلا أحد يهديه إذا عاقبه الله تعالى بزيادة ضلاله، وليس له مَنْ ينصره من عذابه، انظر شرح ما سبق فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، ثم أمر نبيه بالاهتمام بنفسه وبالمؤمنين معه وعدم انمبالاة بهم فقال ﴿فأقم وجهك للدين﴾ إلخ: أى أخلص قصدك للدين الحق حال كونك بعيدا عن الباطل الذى هم فيه. وألزم فطرة الله التى فطر الناس عليها، ولا يقدر أحد أن يغير خلق الله بوضع فطرة أخرى مغايرة لما خلقها، ذلك الدين المأمور بإقامته هو دين الله المستقيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون مزيته لعدم تدبرهم. حافظوا أيها المؤمنون على هذا الدين حال كونكم راجعين إلى ربكم فى كل شىء، وخافوا عقابه، وحافظوا على الصلاة، ولا تكونوا كالمشركين الذين حرموا أنفسهم نعمة رضا الله تعالى عنهم، وهم الذين فرقوا دينهم تبع شهواتهم. وكانوا فرقا تشايع كل فرقة أمامها بدون عقل ولا دليل.

ولا تغفل عن أن المشرك هو كل مَنْ لم يفرد الله تعالى بالعبادة أو غير شرع الله. انظر شرح الآية (٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، والآية (٣١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥ وصفحة ٢٧١.

المفردات : - ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ : تقدم مثل هذا فى آيتى (٢٢، ٢٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠.

﴿إذا فريق منهم﴾ .. إلخ : ﴿إذا﴾ حرف يدل على سرعة حصول ما بعدها عقب حصول ما

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ

قبلها. ﴿ليكفروا﴾ : تقدم فى الآية (٦٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠. ﴿سلطانا﴾ : كتابا.

﴿يتكلم﴾ : المراد يدل على جواز ما يعملون، ونظيره فى الآية (٦٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١، والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤. ﴿يقنطون﴾ : ييأسون من رحمة الله. ﴿يقدر﴾ : يضيق، انظر الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧.

﴿ابن السبيل﴾ : هو المسافر الذى نفد ماله. ﴿يريدون وجه الله﴾ : المراد يخلصون لله فى الإنفاق.

انظر آيتى (٢٦٤، ٢٦٥) من سورة البقرة صفحة ٥٦. ﴿من ربا﴾ : ﴿من﴾ تدل على أن ما بعدها بيان لما قبلها، والمراد من الربا المال الذى يجر إلى الربا. ﴿ليربوا فى أموال الناس﴾ : المراد يزيد على حساب أموال الناس التى لا تحل لكم. ﴿فلا يربوا عند الله﴾ : أى لا يزيده سبحانه بل يمحقه، انظر الآية (٢٧٦) من سورة البقرة صفحة ٥٩.

المعنى : . لا تكونوا أيها المؤمنون من الذين اختلفوا فى دينهم تبعا لاختلاف شهواتهم وأهوائهم، وصار كل فريق شديد الفرح بمذهبه مهما كان باطلا، وهذه صفة لا يمكن معها جمع كلمة المؤمنين التى هى من أهم ما جاءت لأجلها الأديان. ثم رجع سبحانه إلى بيان حال للمشركين يعرفون بها، وهى أنهم حال الشدة لا يجدون إلا الله وينسونه حال الرخاء فقال

(١) آتيناهم	(٢) سلطانا	(٣) لآيات	(٤) فآت
(٥) آتيتم	(٦) ليربوا	(٧) أموال	
(٨) يربوا	(٩) آتيتم	(١٠) زكاة.	

﴿وإذا مس﴾ إلخ: أى وإذا أصاب هؤلاء المشركين ضر من جدب أو خوف غرق أو شدة مرض أخلصوا الدعاء لله وحده راجعين إليه، وإذا كشف عنهم ذلك الضر رزقهم ما به رحمتهم من خصب أو نجاة يسرعون إلى الشرك ثانيا وينسون أنهم لم ينقذهم غيره سبحانه ثم هددهم فقال: ﴿ليكفروا﴾ إلخ: أى ليجحدوا نعمتنا عليهم كيف شاءوا، ونقول لهم تمتعوا ماهى إلا لحظات، فستعلمون صدق وعيدى، وشديد عذابى. ثم أعرض عن خطابهم تحقيرا لهم فقال: ﴿أم أنزلنا﴾ إلخ: أى ما لهؤلاء الناس مصممين على هذه الغفلة؟ هل أنزلنا عليهم كتابا يدلهم على صحة شركهم؟! ثم بيَّن سبحانه نوعا آخر من الناس امتاز بصفة خاصة هى البطر والفخر فى السراء، واليأس فى الضراء، وهذا ليس من صفات المؤمنين الصادقين، وقد تقدم مثله فى الآية (١٠) من سورة هود صفحة ٢٨٥ فقال: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ كسعة رزق وصحة وكثرة أولاد فرحوا بها فرح بطر وطيش حتى شغلهم ذلك عن شكر المنعم بها، وإن تصبهم سيئة كمرض وضيق وفقد ولد بسبب ذنوبهم يستولى عليهم اليأس من فرج الله، فيقعون فريسة الشيطان، أى فهم حرموا شكر النعمة والصبر على النقمة فخسروا الخير كله. هل غفل هؤلاء ولم يشاهدوا أن الله يبسط الرزق لمَنْ يشاء من عباده فى وقت ويضيقه عليه فى وقت آخر، أو على غيره، ومع ذلك فإن المؤمنين صابرون فى الضيق، شاكرون فى السعة. إن فى ذلك البسط لمقتضيه والتضييق عند وجود سببه لأدلة لقوم يؤمنون بأن ذلك فعل الله وحده وأنه لحكمة يعلمها. ولما قال فيما سبق إن السيئة بما كسبت أيدى العبد، أراد أن ينبه إلى أن طاعته مجلبة الرضا واليسر، كما فى الآية (٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨، والآية (٩٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٩ فقال: ﴿فآت﴾ إلخ: أى آت أيها المخاطب قريبك حقه من صلة الرحم، والبر للمحتاج، وهذا يفيد أن فى المال حقا غير الزكاة، انظر شرح الآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦ وآيتى (٢٤، ٢٥) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦ ﴿والمسكين﴾ الذى لا يجد حاجته من القوت. ﴿وابن السبيل﴾ ذلك الإعطاء خير للذين يريدون به وجه الله. ثم بين وجه الخيرية بقوله ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أى فى الدنيا والآخرة. وبعد ما بيَّن جزاء مَنْ يرجو وجه الله شرع فى بيان غيره فقال ﴿وما آتيتم﴾ إلخ: أى

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ[١] مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ[٢] وَتَعَالَىٰ[٣] عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ[٤] الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا[٥] فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا[٦] وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[٧] مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ[٨] ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ[٩] أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ[١٠] وَلِيُذِيقَكُمْ

وما دفعتم للغير من مال ليجلب لكم زيادة من أموال الناس فإن هذا لا يباركه الله بل يمحقه. ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أى صدقة لا تريدون بإعطائها إلا رضا الله فإنه يضاعف لكم ثوابها.

المفردات : ـ ﴿المضعفون﴾ : أى أصحاب الأضعاف بفتح الهمزة، كالموسرين أى أصحاب اليسار وهو الغنى، فالمراد هم أصحاب الأجر المضاعف كما فى الآية (٢٤٥) من سورة البقرة صفحة ٥٠. وفى المختار المضعفون جمع مضعف اسم فاعل من أضعف بمعنى نمى الشىء وجعله مضاعفا، أى ومَنْ يفعل ذلك فهم المنمون للأموال أما المرابى فهو ممحقها.

﴿هل﴾ : حرف استفهام أريد به النفى.

﴿من شىء﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على العموم فيما بعده. ﴿ظهر الفساد﴾ : أى كثر، والفساد كالجدب والغرق والحرائق والأمراض وذهاب خيرات البحار ومحق البركة. ﴿بما كسبت أيدى الناس﴾ : انظر الآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

﴿لعلهم يرجعون﴾ : انظر الآية (٩٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨. ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ : تقدم فى صفحة ٥٣٤. ﴿يأتى يوم﴾ : هو يوم القيامة. ﴿يومئذ﴾ : المراد به هنا يوم القيامة. ﴿يصدعون﴾ : أصلها يتصدعون، أى يتفرقون إلى سعداء وأشقياء، انظر الآية (١٤)

(١) شركائكم (٢) سبحانه (٣) وتعالى (٤) عاقبة
(٥) صالحا (٦) آمنوا (٧) الصالحات
(٨) الكافرين (٩) آياته (١٠) مبشرات.

من هذه السورة صفحة ٥٣٢. ﴿يمهدون﴾ : أى يهيئون لأنفسهم منزلاً فى الجنة مريحا كالمهاد. ﴿مبشرات﴾ : أى بالمطر، انظر الآية (٦٣) من سورة النمل صفحة ٥٠٢.

المعنى : ـ والذين يؤتون الصدقات لا يريدون إلا وجه الله هؤلاء تضاعف لهم الحسنات إلى سبعمائة وأكثر ثم بيَّن سبحانه أنه هو الفاعل لكل ما يصيبهم دون غيره فقال: ﴿الله الذى خلقكم﴾ : أى أنه وحده هو الذى خلقكم من العدم، ثم رزقكم ما به حياتكم، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثم يحييكم يوم القيامة، هل من آلهتكم التى جعلتموها شريكة له تعالى مَنْ يفعل شيئا من ذلك! كلا، باعترافكم، كما فى الآية (٦٣) من سورة العنكبوت، والآية (٨٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ فلا يصح حينئذ أن تشركوهم معه فى الخضوع، سبحانه وتعالى عما يشركون. ولما كان رأس كل مصيبة هو الشرك بالله حذرهم سبحانه من آثاره فقال: ﴿ظهر الفساد﴾ إلخ: أى كثر الخراب فى الدنيا بسبب جرائم الناس، وفعل بهم سبحانه ذلك ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا، وتمام الجزاء فى الآخرة لكى يرجى لهم الرجوع إليه بالتوبة والامتناع عن أسباب الفساد. قل أيها النبى للمشركين من قومك : سيروا فى البلاد فانظروا مساكن الذين فعلوا مثل فعلكم من قبلكم وكيف كانت عاقبتهم من الهلاك؛ وسبب ذلك أن أكثرهم كان مشركا مثلكم. وكثيرا ما يستعمل القرآن الأكثر فى الجميع للإشارة إلى أن هذا الجزاء يستحقونه لو صدر هذا الجرم من أكثرهم فبالأولى لو كان من الجميع. وبعد ما حذر المشركين وجه الخطاب لنبيه ﷺ، وأمره بالثبات على ماهو عليه فقال ﴿فأقم وجهك﴾ إلخ: أى وجه قصدك للدين الحق البليغ فى الاستقامة من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا يرده الله، لأنه وعد به، ووعده لا يمكن أن يتخلف، يوم يأتى هذا اليوم يتفرق الناس إلى كفار وصالحين، فمَنْ كفر فعليه وحده وبال كفره وهو جهنم، ومَنْ عملوا الصالحات فإنما هيأوا لأنفسهم منازل فى الجنة يستريحون فيها. وإنما وزع الجزاء على هذا الوجه لأنه عادل يجزى المؤمنين الذين عملوا الصالحات من فضله، والكافر لا يرحمه لأنه لا يحبه. وبعد ما ذكر أن أعظم الخراب سببه الشرك رجع ثانيا إلى التنبيه إلى دلائل وحدانيته بما يشاهدونه كل حين من إرسال الرياح ليبشركم بالمطر، وليذيقكم من رحمته الناتجة عنه.

مِن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ
قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ(١) فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ(٢) فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ
وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ(٣) فَإِذَآ
أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ(٤) رَحْمَتِ(٥) ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنْ(٦) أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ
يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ

المفردات : . ﴿البينات﴾ : المعجزات والبراهين الدالة على صدقهم. ﴿تثير﴾ : أى تهيج وتحرك. ﴿كسفا﴾ : قطعا جمع كسفة كقطعة وزنا ومعنى؛ وذلك ليكون ثقيلا أكثر من الضغط الجوى فيمكن نزول الماء، انظر الآية (٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠١، ٢٠٢. ﴿الودق﴾ أى المطر. ﴿خلاله﴾ : أى وسطه، انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥. ﴿إذا هم﴾ :﴿إذا﴾ تدل على مفاجأة ما بعدها لما قبلها. ﴿وإن كانوا﴾ أى وإن حالهم أنهم كانوا إلخ.

﴿من قبله﴾ : جاء بهذا القيد ثانيا لبيان أن القبلية كانت مباشرة وليست بعيدة للدلالة على سرعة تقلبهم من اليأس إلى الاستبشار، وهذا منتهى الخفة والطيش. والمؤمن رزين لاتستخفه السراء ولا تقنطه الضراء بل يقابل كل حالة بما يناسبها إما بالشكر وإما بالصبر. ﴿مبلسين﴾ : أى يائسين، انظر الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ٥٣٢.

﴿آثار﴾ : المراد بها المطر والزرع. ﴿فرأوه﴾ : أى رأوا آثار رحمة الله والمراد بها الزرع. انظر الآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩، والآية (٢٠) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢. ﴿لظلوا﴾ : أى مكثوا واستمروا، انظر الآية (٩٧) من سورة طه صفحة ٤١٥.

﴿الموتى﴾ : المراد بهم الكفار الذين أصبحوا كالموتى وكالصم، انظر الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣.

(١) بالبينات (٢) الرياح (٣) خلاله
(٤) آثار (٥) رحمة (٦) ولئن.

المعنى : . يرسل الرياح ليبشركم وليذيقكم بسببها بعض رحمته وهو المطر الذى يجلب الخصب والزرع، ولتجرى السفن فى البحار بسبب هذه الرياح، وذلك بإذنه سبحانه، لتحملكم إلى بلاد بعيدة كما فى الآية (٢٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧، ولتطلبوا من رزق الله بنقل تجارتكم عليها، وليهيئكم لشكره على هذه النعم ولا تعصوا المنعم بها. ثم وسط سبحانه بين الآيات الدالة على قدرته وعظيم نعمه ما يخفف عنه ﷺ ألمه من عدم إيمان قومه ببيان أن الأنبياء قبله حصل لهم ذلك فقال: ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالمعجزات فآمن بهم قوم وكفر آخرون، فانتقمنا من الذين أجرموا لعدم إيمانهم، بالهلاك فى الدنيا، ونجينا المؤمنين، لأنا أوجبنا على أنفسنا نصر المؤمنين حقا وفى الكلام بشارة للمؤمنين معه ﷺ وتهديد لكفار مكة.. ثم فصل سبحانه ما أجمله فيما سبق من أحوال الرياح للدلالة على قدرته على إحياء الموتى فقال: الله الذى يرسل الرياح فتحرك سحابا فيبسطه فى جهة السماء كيف يشاء، من قلة وكثرة، وشمالا وجنوبا مثلا، ويجعله قطعا متراكما بعضها فوق بعض، فترى المطر يخرج من وسطه فإذا أصاب بهذا المطر مَنْ يشاء من عباده فاجأهم الفرح والبشر وإن حالهم أنهم كانوا من قبل أن ينزل عليهم بمدة وجيزة جدا يائسين من هذا الخير، فهم سريعو التقلب لا يتنبهون إلى شكر ولا صبر. فانظر أيها المخاطب إلى آثار رحمة الله من الغيث والنبات والأشجار؛ وتأمل كيف يحيى الله الأرض بالنبات بعد يبسها، إن ذلك الذى يحيى هذه الأرض بعد موتها لمحيى الموتى يوم القيامة لأنه على كل شىء قدير. ثم أظهر سبحانه تزلزلهم واضطرابهم بأنهم إذا أصابهم الخير شغلوا أنفسهم عن الشكر بالفرح، وإن أصابهم شر يئسوا ولم يلتفتوا لفضيلة الصبر فقال: ولئن أرسلنا ريحا مضرة بالزرع فرأوه مصفرا لمكثوا من بعد اصفراره يجحدون نعمة الله السابقة؛ وإذا تأملنا ما جاء فى القرآن الكريم عن أحوال الناس عندما ينالهم رخاء أو تصادفهم شدة، نجده عرض لأربعة أصناف منهم:

الأول : . المؤمنون الصادقون، وحالهم أنهم إذا ابتلوا صبروا، وإذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم شكروا، فلا تبطرهم النعم، ولا تعرضهم النقم لشقاء اليأس، فهم لا ينسون الله أبدًا فى

كلا الحالين، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿الذين ينفقون فى السراء والضراء.. إلخ﴾ الآية (١٣٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٤، وانظر آيات (١٥٦، ١٥٧، ٢٦٢) من سورة البقرة صفحات ٣٠، ٥٥، ٥٦، وبالجملة هم الذين جمعوا الصفات المذكورة فى الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤.

والثانى :. فاسقون مذبذبون، إذا وقعوا فى شدة لجأوا إلى الله تعالى يضرعون إليه مخلصين له الدين حتى إذا كشف الضر عنهم رجعوا إلى ما كانوا عليه متبجحين. وفى هؤلاء جاءت الآيات (١٣٤، ١٣٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٢، ٢١٣. و (١٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، و (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، و (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠.

والثالث :. يرجع إلى الله تعالى عند الشدة. فإذا كشفها عنهم كانوا فريقين. فريق يستمر على الطاعة، وفريق ينكص على عقبيه وفى هؤلاء جاءت الآيات (٥٣، ٥٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٢، و (٣٣) من هذه السورة صفحة ٥٣٥ وفى الفريق الأول بخاصة جاءت الآية (٩٨) من سورة يونس صفحة ٢٨١.

والرابع :. لا ينفع معه شدة ولا رخاء. ففى الشدة يسخط وييأس. وفى الرخاء يزهو ويفرح ويطغى على غيره وفيه جاءت آيات منها ما هنا و (٤٢، ٤٣، ٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩، و (٧٦، ٧٧) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٢، ٤٥٣. و (٣٦) من هذه السورة صفحة ٥٣٥: فلا تحزن أيها النبى على عدم إيمانهم لأنهم موتى القلوب صموا آذانهم عن سماع الحق وأنت لا تستطيع أن تسمع الموتى ولا تسمع الصم. انظر الآية (٢٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤.

المفردات :. ﴿مدبرين﴾ : تأكيد لما قبله انظر الآية (٨٠) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿إن تسمع﴾ : ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾.

﴿من ضعف﴾ : المراد ابتداكم ضعفاء حتى كأن الضعف أساس تكوينكم كما فى

ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن
ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)
۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ
ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ (٥٥)
وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ
ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ
وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ

﴿لبثتم فى كتاب الله﴾ : أى مكثتم فيما كتبه الله فى سابق علمه، والمراد حسبما قدره الله وقضى به.

﴿ولا هم يستعتبون﴾ : أى لا يرشدون إلى طلب عفو الله عنهم، انظر شرح الآية (٨٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٧.

المعنى :. إنك أيها النبى لا يمكنك أن تسمع الصم صوتك خصوصا إذا انصرفوا عن مجلسك معرضين حسا ومعنى، وما أنت بهادى عمى القلوب مبعدا لهم عن ضلالهم البعيد.

(١) بهادى
(٢) ضلالتهم
(٣) بآياتنا
(٤) الإيمان
(٥) كتاب
(٦) القرآن
(٧) بآية.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾، الآية (٣٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤.

﴿قوة﴾ : هى بلوغ الأشد المبين فى الآية (١٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٨. ﴿تقوم الساعة﴾ : الساعة هنا هى القيامة.

﴿غير ساعة﴾ : أى غير لحظة.

﴿يؤفكون﴾ : أى يصرفون وهم فى الدنيا عن الحق.

﴿الذين أوتوا العلم﴾ : هم الملائكة. انظر شرح الآية (١١٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥ وما بعدها.

وما تسمع إسماع فهم وقبول إلا من قلبه مهيأ للإيمان بالقرآن لخلوه من الكبر والعناد، فهم مستسلمون منقادون، وقد تقدم مثلها فى صفحة ٥٠٤.

وبعد ما ذكر سبحانه أدلة وجوده وقدرته فى الآفاق أراد أن يذكر أدلة ذلك فى أنفسهم حتى يتبين لهم الحق كما فى الآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧، فقال: الله وحده هو الذى بدأ خلقكم فى غاية الضعف، ثم نماكم حتى جعل لكم من بعد ضعفكم قوة: ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة، أى جمع عليكم فى الكبر بين مقدمات الفناء الباطنة والظاهرة، يخلق ما يشاء من ضعف وقوة وشباب وشيبة، وهو العليم بأحوال خلقه القدير على فعل ما يريد. وبعد ما بين سبحانه أدلة قدرته على بعث الناس يوم القيامة أراد أن ينبه لما سيكون فى هذا اليوم فقال ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ إلخ: أى ويوم تجىء ساعة البعث ويرى المجرمون من الكافرين ما فيها من الهول يحلفون أنهم ما مكثوا فى قبورهم إلا لحظة قليلة. ومثل صرفهم عن الحق فى مدة المكث فى القبور كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق إلى الباطل، فيقولون ماهى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين وغير ذلك من كل ما أنكروا به القيامة، وترده عليهم الملائكة الذين يعلمون الحقيقة : والله لقد مكثتم فى القبور المدة الطويلة التى قضى بها فإن كنتم ما زلتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث، أى فقد تبين لكم بطلان إنكاركم، ولكنكم كنتم لا تعلمون أنه حق لتفريطكم فى البحث عن الحق واتباعه؛ فيوم يحصل كل هذا لا ينفع الذين ظلموا أنفسهم بالشرك اعتذارهم بجهل ولا بغيره، ولا يمكنهم أن يرضى عنهم ربهم لأنه لايغفر الشرك أبدا كما فى الآية (١١٦) من سورة النساء صفحة ١٢٢.

ثم بين سبحانه ما يقطع العذر فقال ﴿ولقد ضربنا﴾ إلخ أى ولقد أوضحنا لهم الحق وضربنا لهم الأمثال التى تبين قدرتنا على ما نريد بصور شتى، ولكنهم أعرضوا استكبارا وعنادا، وعزتى لئن جئتهم أيها النبى بآية واضحة قاطعة ليقابلونك بالإنكار الشديد، ويقولون ما أنت يا محمَّد والذين اتبعوك إلا قوم على الباطل مزورون. مثل هذا الطبع الذى طبعه الله على قلوب كفار قومك يطبع الله على قلوب كل مَنْ لم يطلب العلم.

قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(٣١) سُورَةُ لُقْمَانَ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ(١) ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ(٢) ٱلْكِتَٰبِ(٣) ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ(٤) وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ(٥) وَهُم بِٱلْآخِرَةِ(٦) هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

المفردات: ﴿لا يستخفنك﴾أى لا يحملنك على الخفة والقلق جزعا.

﴿لا يوقنون﴾: لا يصدقون تصديقا قويا، انظر صفحة ٣.

المعنى: وإذا علمت أيها النبى أن هذا هو حالهم فاصبر على أذاهم معتمدا على أن وعد الله تعالى بنصرك عليهم وإظهار دينك حق لابد من إنجازه، ولا يقلقك ويزعجك الذين لا يوقنون بدينك ولا بالبعث.

(سورة لقمان)

المفردات: ﴿ألم﴾: تقدم كيفية النطق بها فى صفحة ٥٣٠، وتقدم المراد منها أول سورة البقرة.

﴿الحكيم﴾: صاحب الحكمة وهى وضع الشىء فى محله.

﴿هدى ورحمة﴾: حالان من الكتاب.

﴿يؤتون الزكاة﴾: كانت الزكاة مفروضة فى مكة من غير تحديد قدر، بل الأمر متروك لرغبة كل مسلم فى زيادة الأجر، وبعد الهجرة حددت مقاديرها ببيان من النبى ﷺ، ووزع على الولاة فى الأقاليم وحددت مصارفها على الوجه المبين فى الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١.

(١) ألف. لا م. ميم.
(٢) آيات.
(٣) الكتاب.
(٤) الصلاة.
(٥) الزكاة.
(٦) بالآخرة.

﴿أولئك على هدى.. إلى المفلحون﴾: تقدم فى صفحة ٤.

﴿يشترى﴾: المراد يقدم ويفضل.

﴿لهو الحديث﴾: هو كل ما يلهى عما ينفع ويصرف عن ذكر الله كالخرافات والحكايات التى لا اعتداد بها والمضحكات والأغانى المكروهة شرعا.

﴿سبيل الله﴾: أى دينه.

﴿أولئك لهم﴾: أفرد أولاً فى (ليضل) و(يتخذها)؛ وآخرا فى (تتلى عليه..) إلخ الآية (٧) وذلك مراعاة للفظ (مَنْ) فى (مَنْ يشترى) وجمع هنا مراعاة لمعناه.. لأن معناه (فريق من الناس) ونظيره فى آيتى (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧، و(١١) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠ حيث قال (خالدين فيها) بعد قوله (يدخله).

المعنى: (تلك آيات الكتاب الحكيم) تقدم شرحها فى صفحة ٢٦٥، حال كون هذا الكتاب هاديا وسبب رحمة للمحسنين أعمالهم لأنهم هم الذين ينتفعون به. ثم بين المحسنين بأشهر أوصافهم فقال (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) روى عن ابن عباس أن النضر بن الحارث وكان من صناديد كفار قريش كان يحارب دعوة النبى ﷺ بكل ما يستطيع، فكان يشترى أجود المغنيات صوتا ولا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا أخذه إلى تلك المغنية، وبعدما يسقيه خمرا وتغنى له المغنية يقول له هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وما يريد إلا أن تقتل نفسك دونه. وكان يجلب من بلاد الفرس كتب القصص ويجمع من يظن أن حديث القرآن يؤثر فيهم، ويحدثهم بأخبار ملوك العجم وحروبهم ويقول لهم إذا كان محمد يحدثكم عن عاد وثمود الأولى فأنا أحدثكم عن أناس هم أقرب منهم إليكم.. فكان بعضهم يستملح حديثه ويعرض عن سماع القرآن. فنزل فى هذا قوله سبحانه: ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل-أى ليصرف الناس عن دين الله جاهلا بخطر ما يعمل، ويجعل سبيل الله مهزوءا بها فى نظر البسطاء؛ كل من يفعل فعل هذا الفاسق لهم عذاب فى جهنم يجعلهم محتقرين.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ
فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ
وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا
فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ
فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾
وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ
إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

المفردات: ﴿ولى﴾: انصرف.

﴿وقرا﴾: صمما.

﴿فبشره بعذاب﴾: هذا تهكم إذ المراد منه أنذره، انظر الآية (١٣٨) من سورة النساء صفحة ١٢٦، وشرح الآية (٣) من سورة التوبة صفحتى ٢٣٩، ٢٤٠.

﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾: تقدم شرحها فى صفحة ٣٢٠.

﴿وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم﴾: تقدم فى الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧. ﴿بث فيها من كل دابة﴾: انظر الآية (١) من سورة النحل صفحة ٩٧.

﴿وأنزلنا﴾: انظر حكمة تحويل الكلام من الغيبة إلى التكلم فى الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، والآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠.

(١) آياتنا.
(٢) آمنوا.
(٣) الصالحات.
(٤) جنات.
(٥) خالدين.
(٦) السموات.
(٧) رواسى.
(٨) الظالمون.
(٩) ضلال.
(١٠) آتينا.
(١١، ١٢) لقمان.
(١٣) يا بنى.
(١٤) الإنسان.
(١٥) بوالديه.

﴿زوج﴾: صنف من النبات.

﴿كريم﴾: أى حسن، انظر الآية (٤) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧.

﴿بل الظالمون﴾: بل للانتقال من كلام إلى آخر.

﴿مبين﴾: أى واضح، انظر شرح الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦.

﴿لقمان﴾: قيل فيه كلام كثير من أنه حبشى أو سودانى أو نوبى وفى عهد داود إلى غير ذلك مما لم يثبت من طريق صحيح، والمقطوع به أنه كان رجلا صالحا دقيق الحس صادق الوجدان حسن التعبير كامل الفضائل.

﴿الحكمة﴾: هى مجموعة من الفضائل تجعل صاحبها يضع كل شىء فى محله.

﴿أن إشكر﴾: هى (أن) مفسرة لشىء مفهوم من السياق، أى ألهمناه إلهاما هو أن الشكر مطلوب إلخ.

﴿ووصينا الإنسان﴾: جاء سبحانه بهذه الوصية بين وصايا لقمان لابنه مسارعة لتأكيد ما فى وصايا لقمان من النهى عن الشرك كأنه يقول أن الوالدين الذين قرنت الإحسان إليهما وطاعتهما بعبادتى وحدى كما فى الآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦، والآية (١٥١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩، والآية (٢٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧ لا يستحقان الطاعة فى الشرك فما بالك بغيرهما.

المعنى: وإذا تتلى آياتنا على هذا الذى اتخذ دين الله هزوا أعرض عنها متكبرا لا يعبأ بها كأنه لم يسمعها؛ لأن فى أذنيه صمما، فأحسن خبر يسمعه هو إنذاره بعذاب شديد الألم. ثم ذكر سبحانه مآل مقابلة فقال: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الجنات المملوءة بأسباب النعيم خالدين فيها، وعد سبحانه بذلك وعدا ثابتا لا يتخلف، وهو العزيز أى الغالب الذى لايعجزه شىء عن إنجاز وعده، الحكيم الذى لا يسوى بين المؤمن والفاسق كما فى الآيات (١٨ إلى ٢٠) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧. ثم شرع سبحانه فى بيان كمال قدرته على خلق هذا العالم ليثبت بذلك وحدانيته ويبطل الشرك فقال (خلق السموات) إلخ: أى وهو وحده الذى خلق السموات ورفعها بغير عمد وأنتم ترونها كذلك. وألقى فى الأرض جبالا راسيات كالأوتاد كما فى الآية (٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧ لئلا تميل وتضطرب بكم فتهلكوا، ونشر فيها دواب من كل نوع، وأنزل سبحانه من جهة السماء ماء، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف الزروع والأشجار. ثم التفت سبحانه مخاطبا المشركين تبكيتا لهم فقال: هذا الذى ترونه فى السماء والأرض هو مخلوق لله، فأرونى أيها المشركون ما الذى خلقه الذين هم غيره وهم معبوداتهم. ثم انتقل من تبكيتهم إلى تسجيل ضلالهم مع وضوح الدليل فقال: ﴿بل الظالمون﴾ إلخ: أى الحق أن السبب هو أن هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك فى ضلال واضح. وبعدما أبطل سبحانه الشرك بالعقل أراد أن يبطله بالنقل عن رجل صالح سلمت فطرته فأدرك بطلان الشرك فقال: ولقد آتينا لقمان الحكمة، وألهمناه شكر نعم الله، فإن شكره يعود نفعه على نفسه، ومن كفر ولم يشكر فلا يضر إلا نفسه، لأن الله تعالى غنى عن شكره، كثير استحقاق الحمد. ثم بين سبحانه أن لقمان مع كماله فى نفسه فإنه كان مهتما بتكميل غيره فقال: وإذ قال لقمان لابنه فى حال وعظه له: يا بنى لا تشرك بالله غيره لأن الشرك بالله ظلم لأنه وضع للعبادة فى غير موضعها، عظيم لأنه تسوية بين ما لا يضر ولاينفع، ومن الضر والنفع كله بيده ثم أكد كلام لقمان فى النهى عن الشرك فقال:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ إلخ.

المفردات: ﴿وهنا على وهن﴾: ضعفا ينضم إلى ضعف كلما تقادم حملها.

﴿فصاله﴾: المراد فطامه، انظر إيضاح ما هنا فى صفحة ٦٦٨.

﴿جاهداك على﴾: أى أفرغا جهدهما فى حملك على الشرك.

﴿ما ليس لك به علم﴾: المراد لا يمكن أن تعلم أن له شريكا لأنه مستحيل.

حملته أمه وهنا على وهن وفصاله[١] فى عامين أن اشكر لى
ولوالديك[٢] إلى المصير (١٤) وإن جاهداك[٣] على أن تشرك
بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا
معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم
فأنبئكم بما كنتم تعملون (١٥) يابنى[٤] إنها إن تك
مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات[٥]
أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير (١٦)
يابنى[٦] أقم الصلاة[٧] وأمر بالمعروف وانه عن المنكر
واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور (١٧)
ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا
إن الله لا يحب كل مختال فخور (١٨) واقصد فى مشيك
واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات[٨] لصوت

﴿معروفا﴾: أى صحابا معروفا والصحاب بوزن السحاب هو الصحبة.

﴿أناب﴾: أى رجع.

﴿مثقال﴾: أصل المثقال ما يوزن به غيره والمراد ثقل حبة.

﴿خردل﴾: حب صغير جدا يضرب به المثل فى الصغر.

﴿لطيف﴾: المراد يصل علمه إلى كل خفى، انظر الآية (١٠٣) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٩، ١٨٠.

﴿خبير﴾: عليم بتفاصيل الأشياء وأسرارها.

﴿عزم الأمور﴾: أى الأمور التى يجب الثبات عليها. انظر شرح الآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤.

﴿ولا تصعر خدك للناس﴾: المراد: لا تلو عنهم خدك تكبرا وإعراضا. مأخوذ من (الصَّعَر) وهو داء يصيب البعير فيلوى عنقه.

﴿مرحا﴾: أى فرحا شديدا وبطرا. انظر الآية (٣٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩.

﴿مختال فخور﴾: تقدم فى الآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦.

﴿واقصد﴾: أى توسط.

﴿اغضض﴾: أى اخفض.

---

(١) وفصاله. (٢) ولوالديك.
(٣) جاهداك. (٤) يا بنى.
(٥) السموات. (٦) يا بنى.
(٧) الصلاة. (٨) الأصوات.

﴿أنكر﴾: أى أشد نكرا أى قبحا كما فى الآية (٧٤) من سورة الكهف صفحة ٣٩١.

المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه خيرا خصوصا الأم؛ لأنها حملته فى بطنها جنينا تضعف به كل يوم ضعفا فوق ضعف حتى تضعه، ويبقى فى حجرها وتحت رعايتها ورحمتها حتى يأتى وقت فطامه فى تمام العامين لمن أراد أن يتم الرضاعة كما تقدم فى صفحة ٤٧، وقلنا له فى الوصية اشكر لى نعمى عليك بطاعتى، واشكر لوالديك تربيتك والسهر عليك بالإحسان إليهما والدعاء لهما كما فى الآية (٢٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧، واحذر مخالفة أمرى فإن مصيرك ومرجعك إلىَّ فى الآخرة، وسأجازيك خيرا أو شرا. وإن جاهداك على أن تشرك بى ما لا وجود له بل هو مجرد أسماء كما فى الآية (٤٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٩ فلا تطعهما، وهذا لا يمنع أن أحتم عليك أن تصاحبهما فى الدنيا صحبة حسنة بحلم و بر وطاعة فى غير منكر، أما فى أمور الدنيا فاتبع سبيل فريق المؤمنين الذين يرجعون فى كل أمورهم إليه تعالى، ثم إلىَّ مرجعك أيها الإنسان ومرجع والديك فأنبئ كلا بعمله وأجازيه عليه. يا بنى إن الفعلة الحسنة أو السيئة مهما قلت حتى كانت فى الصغر وزن حبة خردل ومهما خفيت فى جوف صخرة أو فى عنان السماء أو فى باطن الأرض فلابد أن يأتى بها الله يوم القيامة مسجلة فى صحيفتك كما فى الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨، ويحاسب فاعلها لأنه لطيف خبير لا يخفى عليه شىء. ثم عاد سبحانه لذكر بقية وصية لقمان لابنه فقال يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما يصيبك من البلاء ولاتجزع كعديم الإيمان إن ذلك الذى وصيتك به هو من الأمور التى يجب العزم عليها والثبات. ولا تعرض عن الناس تكبرا فيكرهوك بل أقبل عليهم بوجهك متواضعا. ولا تمش فى الأرض حال كونك شديد الفرح فإن هذا شأن الطائشين، لأن الله لا يحب كل مختال فى مشيته، فخور يتمشدق بتعداد مناقبه، وتوسط فى مشيك فلا تتماوت ولا تعجل كالمتسرع فإن ذلك أليق بالوقار. واخفض من صوتك مازاد على الحاجة؛ لأن رفع الصوت بدون حاجة يجعله أشبه بصوت الحمار، وأنكر الأصوات، صوت الحمير.

الْحَمِيرِ (١٩) أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ[1]
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً[2] وَبَاطِنَةً
وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ[3] فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا
كِتَابٍ[4] مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا
بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا[5] أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ[6]
يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ
إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى
اللَّهِ عَاقِبَةُ[7] الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ
غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ[8] وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)

المفردات: ﴿أسبغ عليكم﴾: أى وسع وأتم، انظر الآية (١١) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤.

﴿ظاهرة﴾: تدرك بالحواس، كاستواء القامة والصحة والمال والولد وغير ذلك.

﴿باطنة﴾: كالعقل وحسن التدبير والرضا وطمأنينة القلب والإيمان وغير ذلك. ﴿يجادل فى الله﴾ إلى قوله منير: تقدم فى الآية (٨) من سورة الحج صفحة ٤٣٤.

﴿نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾: تقدم فى الآية (١٧٠) من سورة البقرة صفحة ٣٢، وشرح الآية (٩٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦.

﴿السعير﴾: النار الملتهبة المسعرة، انظر الآية (١٢) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤.

(يسلم وجهه﴾: أى يخلص فى عبادته، انظر الآية (١١٢) من سورة البقرة صفحة ٢٢، والآية (١٢٥) من سورة النساء صفحة ١٢٣.

﴿استمسك بالعروة الوثقى﴾: تقدم فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

﴿نمتعهم قليلا﴾: تقدم معناها فى الآية (٧٧) من سورة النساء صفحتى ١١٣، ١١٤، والآية (٧٠) من سورة يونس صفحة ٢٧٧.

(نضطرهم﴾: أى نلجئهم.

﴿غليظ﴾: أى ثقيل ثقل الأجرام الغلاظ، والمراد شديد.

(١) السموات. (٢) ظاهرة.
(٢) يجادل. (٤) كتاب.
(٥) آباءنا. (٦) الشيطان.
(٧) عاقبة. (٨) السموات.

المعنى: بعدما نهى عن رفع الصوت فوق الحاجة نفر منه بأن ذلك يشبه صوت الحمار، وأقبح الأصوات هو صوت الحمير وبعدما فرغ سبحانه من وصايا لقمان رجع لتوبيخ المشركين على إصرارهم على الشرك مع مشاهدتهم أدلة توحيده وانتفاعهم بنعمه فقال (ألم تروا) إلخ: أى ألم تعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذى سخر لنفعكم ما فى جهة السماء من شمس وقمر ونجوم تهتدون بها فى سفر الليل، ومن مطر وما فى الأرض من أنهار وثمار وزروع ودواب، وأتم عليكم نعمه حال كونها ظاهرة وباطنة، ومن العجب بعد كل هذه الأدلة أن يجادل بعض الناس فى توحيد الله تعالى بلا دليل عقلى ولا هدى من نبى، ولا كتاب منزل من الله ينير لهم طريق الحق. وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا لا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فرد سبحانه عليهم فى صورة استفهام توبيخى فقال (أو لو كان) إلخ: أى هل يتبع هؤلاء آباءهم فى كل حال حتى لو كان الشيطان دعا آباءهم إلى طريق عذاب جهنم؟ وبعد ما بيَّن سبحانه حال الكافر المعاند وعاقبته أراد أن يبين حال مقابله وهو المؤمن الخاضع لربه مع ترضيته ﷺ فقال ﴿ومن يسلم﴾ إلخ: أى ومن يقبل على الله تعالى إقبالا كليا والحال أنه محسن لأعماله كلها فقد تعلق أتم تعلق بأقوى الأسباب الموصلة إلى رضا الله، ولله وحده عاقبة الأمور، فيجازى كلا حسب عمله، ومن كفر فلا يحزنك أيها النبى كفره لأنه ليس عليك هدايتهم، وإنما عليك البلاغ وقد فعلت. إلينا مرجع كل من يكفر فنطلعهم على معاصيهم بما يقطع عليهم سبيل الاعتذار، انظر آيتى (١٣، ١٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧، وسجل عليهم سبحانه كل شىء لأنه عليم بدخائل نفوسهم فضلا عن ظاهر أعمالهم. ثم حذر الناس من الاغترار بما هم فيه من متاع الدنيا فقال (نمتعهم) إلخ: أى نتركهم يتمتعون بما فى الدنيا زمنا قليلا ثم نرغمهم إلى عذاب شديد. ثم أراد أن يبرهن على أن الكافرين يعاندون ويكابرون بدليل اعترافهم فقال ﴿ولئن سألتهم﴾ إلخ: أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين من قومك من الذى خلق السموات والأرض لا يجدون جوابا إلا اعترافهم بأنه هو الله. عند ذلك قل الحمد لله الذى أوجد من دلائل وحدانيته ما أرغمهم على الاعتراف بما يهدم عقائدهم من إشراك غيره فى الطاعة التى لا يستحقها إلا صاحب الفضل فى خلق هذه الأشياء، انظر شرح الآية (٥٩) من سورة النمل، ثم انتقل إلى بيان جهلهم الفاضح فقال بل أكثرهم لا يعلمون أن اعترافهم هذا أقوى حجة عليهم يوم القيامة.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم

فقال بل أكثرهم لا يعلمون أن اعترافهم هذا أقوى حجة عليهم يوم القيامة.

المفردات: ﴿يمده﴾: أى يزيده ويساعده، انظر الآية (١٠٩) من سورة الكهف صفحة (٣٩٥).

﴿من بعده﴾: أى بعد فراغ ما فيه.

﴿سبعة أبحر﴾: المراد بالعدد الكثرة لاالتحديد بسبعة فيشمل ما فوق الألف.

﴿كلمات الله﴾: المراد بها مقدوراته وكل ما يريده ويقول له ﴿كن فيكون﴾ من كل مافى الدنيا مما يدل على وجوده سبحانه وعجيب صنعه، ومن جميع نعمه فى الدنيا والآخرة انظر الآيات من (٢ إلى ١٨) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ وما بعدها.

﴿يولج الليل فى النهار﴾ إلخ: تقدم فى الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.

﴿إلى أجل مسمى﴾: محدد ومعين وهو قيام الساعة.

﴿بنعمة الله﴾: إحسانه بتهيئة أسباب الجرى من الريح، وجعل الماء وهو سائل يحمل السفن الثقال، انظر الآية (٣٣) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

﴿الظلل﴾: جمع ظلة بوزن غرفة وهى السحابة، انظر الآية (٢١٠) من سورة البقرة صفحة ٤١.

(١) السموات. (٢) أن ما.
(٣) أقلام. (٤) كلمات.
(٥) واحدة. (٦، ٧) الليل.
(٨) الباطل. (٩) بنعمة.
(١٠) آياته. (١١) لآيات.
(١٢) نجاهم.

المعنى: بعد ما سجل سبحانه اعتراف المشركين انتقل إلى إبطال معتقداتهم من وجه آخر فقال ﴿لله ما فى السموات والأرض﴾ إلخ: أى كل ما فى السموات والأرض مخلوق له تعالى ومملوك له. والمملوك لا يكون شريكا لمالكه. فكيف يستحق ما هو حقه وحده من العبادة وغيرها؟ وهم بهذه التسوية لم يضروا إلا أنفسهم لأن الله تعالى غنى عن طاعتهم مستحق لجميع الحمد رغم أنوفهم. وبعد ما بيّن سبحانه أنه أسبغ نعمه على عباده ظاهرة وباطنة، وأن له ما فى السموات والأرض، وأن أدلة وجوده ظاهرة لا يمكن إنكارها، أتبع ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات وأدلة وجوده لا حصر لها فقال ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجر أقلام﴾ إلخ: أى لو ثبت كون جميع ما فى الأرض من أجزاء الشجر أقلاما والحال أن ماء البحر ومعه بحار كثيرة مداد. وكتب بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله ما نفدت لعدم تناهيها، ولنفدت تلك الأقلام والمداد لتناهيها. إن الله عزيز غالب لا يعجزه شىء يريده، حكيم لا يخلق شيئا عبثا: ثم أبطل استبعادهم للبعث يوم القيامة: ﴿ما خلقكم﴾ إلخ: أى ليس خلقكم جميعا وبعثكم للحساب يوم القيامة بالنسبة لله تعالى إلا كخلق نفس واحدة وبعث نفس كذلك. لأن الجميع لا يحتاج منه إلا لقوله كن فيكون. انظر صفحة ٥٨٦. إن الله سبحانه سميع لكل مسموع، بصير بكل مبصر، لا يشغله شىء عن شىء. ثم نبه سبحانه إلى أدلة قدرته وكثرة نعمه فقال (ألم تر): أى ألم تعلم أيها المخاطب أن الله ينقص من الليل بمقدار ما يزيد فى النهار وبالعكس وسخر الشمس والقمر كل منهما يجرى لحين معين. وألم تعلم أن الله بما تعملون أيها المكلفون خبير فتخافوا حسابه، ذلك الوصف الذى وصف به سبحانه نفسه من كمال القدرة وتمام الحكمة التى يعجز عنها الأحياء القادرون فضلا عن الجماد الذى يطيعونه من دون الله. إنما هو بسبب أنه سبحانه هو وحده الحق الثابت الألوهية. وأن ما يخضعون له من كل ما سواه باطل زائل، وأنه سبحانه هو العلى القدر الكبير السلطان. ثم ذكر دليلا آخر على كمال قدرته فقال: ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بإحسانه ليريكم بعض دلائل ألوهيته ووحدانيته، لأن فى كل ما ذكر لأدلة عظيمة لكل مؤمن قوى الصبر على المعاصى والبلاء لايقنط من رحمة ربه، كثير الشكر لنعمه. ثم بيَّن أن المشركين إنما ينسون الله فى الرخاء ولكنهم لا يجدون غيره فى الشدة فقال ﴿وإذا غشيتهم﴾ إلخ وإذا ركبوا فى السفن وغطاهم الموج ومن فوقهم السحب وخافوا الغرق دعوا الله وحده مخلصين له العبادة. لزوال ما ينازع الفطرة من تقليد الآباء. فلما استجاب لهم ونجاهم إلى البر انقسموا إلى فريقين.

مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ
وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا
تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ
وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

(٣٢) سورة السجدة مكية
وآياتها ثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ

الفطرة من تقليد الآباء، فلما استجاب لهم ونجاهم إلى البر انقسموا إلى فريقين.

المفردات: ﴿مقتصد﴾: معتدل غير مفرط ولا متكلف فوق طاقته مقبل على ربه بين الخوف والرجاء.

﴿يجحد﴾: يكفر عنادا مع اعتقاده خلاف ما يظهر. انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

﴿ختار﴾: شديد من ختر بوزن ضرب.

﴿كفور﴾: مبالغ فى كفران نعم الله تعالى عليه.

﴿ولا مولود هو جاز﴾: جاء هنا بالجملة الاسمية التى تدل على تأكيد النسبة لدفع ما قد يظن من نفع الولد لقوله ﷺ: (الولد من كسب أبيه) وما تقرر من أن الطفل الصغير إذا مات يشفع لوالديه، فأراد سبحانه أن يبين أن الولد لا ينفع والده إذا بلغت معصيته حدا يمنع الإذن بالشفاعة له. انظر شرح الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦.

﴿الغرور﴾: هو كل ما يغر الإنسان ويشغله عن الله عز وجل من مال أو جاه أو شهوة أو شيطان وهو أخبثها، ولذا فسره بعضهم به.

﴿الساعة﴾: المراد بها هنا يوم القيامة، انظر معنى الساعة فى شرح الآية (١٨٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣.

﴿الغيث﴾: هو المطر الذى من شأنه أن يغيث الخلق بعد القحط، انظر الآية (٢٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

(١) باياتنا. (٢) الحياة.
(٣) ألف. لام. ميم. (٤) الكتاب.

﴿يعلم ما فى الأرحام﴾: أى أحوال ما فى الأرحام كلها، الحاضر منهاوالمستقبل انظر الآية (٨) من سورة الرعد صفحة ٣٢٢، والآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣.

﴿تكسب غدا﴾: المراد بالغد هنا الزمن المستقبل ولو بعد لحظة، ومثله (غدا) فى الآية (٢٣) من سورة الكهف صفحة ٣٨٣، والمراد بالكسب ما يصيب الإنسان وغيره ويحصل له أو على يديه من خير، أو شر، أو رزق، أو موت، أو قتل. والمراد أنه سبحانه هو الذى اختص بعلم ما سيحصل للنفوس فى مستقبلها، وقصر العلم عليه سبحانه هنا مستفاد باللزوم كما سيأتى.

﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾: المراد أنكم كما تجهلون زمان ما سيحصل تجهلون أيضا مكانه.

المعنى: فمنهم معتدل فى كل أفعاله كما هو شأن العقلاء، ومنهم جاحد كافر، وما يكفر أى يجحد فضلنا إلا كل غدار ناقض لعهد الفطرة التى خلقه الله تعالى عليها، كما تقدم فى الآية (٢٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، وينقضه ما عاهد الله عليه عند خوف الغرق، انظر الآية ٢٢، ٢٣، من سورة يونس صفحة ٢٦٩، فهو كثير الكفر بنعمة الله. وبعد ما ذكر من دلائل التوحيد والبعث أنواعا أراد أن يخوفهم بما سيكون فقال يأيها الناس من كفار قريش وغيرهم اتقوا سخط ربكم واخشوا عذابه الذى لا يغنى فيه والد عن ولده شيئا، ولا مولود هو مغن عن والده شيئا، بل كل نفس بما كسبت رهينة، واعلموا أن وعد الله بمجىء هذا اليوم حق، فلا تخدعنكم زينة الحياة الدنيا فتجعلوها كل همكم وتنسوا الاستعداد للآخرة، ولا يخدعنكم الشيطان. ولما كان من أهم أسباب إنكارهم البعث هو زعمهم أن الساعة لو كانت ستحصل لوجب أن يعلمنا بوقتها محمد، فذكر سبحانه لهم خمسة أشياء، منها ما هو لاصق بهم ومع ذلك فإنه يستحيل عليهم علم واحد منها فقال ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ إلخ: أى إن الله وحده هو الذى يعلم وقت قيام الساعة، وهو وحده الذى ينزل المطر الكثير فى وقته ومكانه وصفته المعينة له، وإذا كان سبحانه هو وحده الذى ينزل المطر فلا يعلم وقت نزوله غيره، فضلا عن أنه يعلم ذلك من الأزل، ويعلم جميع أحوال كل ما فى الأرحام، انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٣، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا.. والمراد أنه لما كان ما يصيب الإنسان هو من فعل الله عز وجل، وإذا كان لا يمكن أن يعلمه الإنسان قبل وقوعه انحصر علمه فيه سبحانه. وإنما جاء به على هذا الأسلوب لتوبيخهم على إنكار البعث، كأنه يقول إذا

كنتم لا تعرفون ما سيحصل لكم فى اللحظة المستقبلة. وكثير مما يحصل لكم عليه مدار حياتكم. فكيف تجعلون جهل وقت الساعة علامة على عدم حصوله؟ وأشار سبحانه إلى الغيب الخامس بقوله ﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾. وهذا غير خاص بالمكان بالنسبة لشىء واحد فقط مما يعترى الإنسان وهو الموت. فكأنه يقول إن جهلكم كما يكون بزمان الحوادث يكون أيضا بمكان بعضها وهو الموت. وإذا كنتم تجهلون مكان موتكم والمكان شىء ثابت لايتغير من موضعه فجهلكم بزمان الموت من باب أولى. لأن الزمان لحظات لا تستقر بل تتجدد دائما. إن الله عليم بجميع الأشياء، خبير بظواهرها وبواطنها، ويجب أن يعلم أنه ليس فى الآية ما يفيد أن علم الغيب محصور فيما ذكر فلا ينافى أن هناك غيبا لا يعلمه غيره سبحانه غير ما ذكر هنا منه عدم علم الشخص بما يكسب غيره. ولا مكان موت غيره. وكذا ما فى قوله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر﴾ إلخ.. الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١: ويجب هنا أن ننبه إلى أنه قد يقال ثبت أن هذه الأشياء الخمسة المذكورة فى هذه الآية هى مما استأثر الله سبحانه بعلمه فما حكمة اختلاف التعبير عنها، تارة بجملة اسمية، وأخرى بجملة فعلية؟ قد يقال والله أعلم: إنه سبحانه عبر عن أول هذه الخمسة وهو (علم الساعة) بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والاستمرار، لأن علمه سبحانه بالساعة مستمر، ولما كان نزول المطر يتجدد، أى يتجدد، أى يحصل ثم ينقطع ثم ينزل ثانيا وهكذا عبر عنه بالجملة الفعلية، أى ﴿ينزل الغيث﴾ لأن الفعل فى أصل وضعه يفيد التجدد وعدم الاستمرار، وكذا يقال فى ﴿ويعلم ما فى الأرحام﴾ لأن أحوال ما فى الأرحام تتجدد. فعلم الله سبحانه بأنه سيحصل غير علمه بأنه حصل فعلا، ولم يقل ويعلم نزول الغيث: لأنه أراد أن يفيد علمه به بطريق اللزوم الذى يشعر بالدعوى ودليلها، فكأنه سبحانه وتعالى يقول أنا وحدى أعلم نزول الغيث لأنه لا يعلم وقت نزوله غيرى، وأما تعبيره سبحانه عن اختصاصه بعلم ما سيحصل فى المستقبل بقوله ﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾ فإنه يفيد قصر علم ما سيحصل وزمانه ومكانه عليه سبحانه وحده بطريق اللزوم أيضا. وإنما صنع ذلك سبحانه هنا لتوبيخ الكفار وإقامة الحجة عليهم فى إنكارهم البعث بحجة أنهم لا يعلمونه وقولهم مستهزئين به ﴿لا تأتينا الساعة﴾ الآية (٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٢ و﴿ما ندرى ما الساعة﴾ الآية (٣٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤. فكأنه يقول إن عدم علمكم بالشىء لا يدل على عدم وقوعه؛ ومن هنا نعلم أن الغيب الخامس وهو ﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾ غيب خاص بالمكان فقط بالنسبة لشىء واحد فقط وهو الموت. فكأنه سبحانه يقول إذا كنتم تجهلون الحوادث التى تصيبكم وتجهلون مكان أهمها وهو الموت مع أن المكان متصل بكم لا تفارقونه لحظة، وجهلكم هذا لا يمنع وقوعه بكم كل يوم فمن باب أولى لا يصح جهلكم بقيام الساعة دليلا على عدم وقوعها وقد يقول آخرون إن علماء الطبيعيات يعلمون المطر قبل حدوثه فكيف يقال إنه مما استأثر الله تعالى بعلمه؟ والجواب أن الله سبحانه قد استأثر بعلم زمان المطر قبل حصوله بما لا يحصى من عدد السنين أما علماء الطبيعيات فلا يعلمونه إلا قبل حصوله بزمن محدود تظهر فيه مقدماته وتسجلها آلاتهم فعلمهم هذا ليس من علم الغيب المطلق المتحدث عنه فى هذه الآية. بل هو من قبيل إدراك الرجل شديد الحساسية بردا أو حرا أو رائحة لا يشعر بها غيره. فلا يعتبر ما غاب عن البعض وعلمه البعض غيبا مما اختص الله سبحانه بعلمه. وأيضا اختص سبحانه بعلم جميع أحوال الغيث من أول عناصر وجوده وأسباب نزوله وزمانه ومكانه ومقداره بكل دقه حتى عدد ذراته وما يحدثه من خير أو شر وكل هذا مستحيل على غير العليم الخبير بأحوال ما خلق. أما قوله ﴿ما فى الأرحام﴾ فاعلم أن (ما) اسم موصول يفيد العموم. و(ال) فى ﴿الأرحام﴾ للاستغراق المفيد للعموم أيضا. أى يعلم أحوال جميع ما فى كل الأرحام. فكل حيوان من إنسان وغيره حتى صغار الحشرات إن كان لها أرحام يعلم سبحانه جميع أحوال ما فيها. من عدده، وتمام أعضائه أوزيادتها أو نقصانها. وخروجه إلى الدنيا حيا أو ميتا. ومستقبله. فقيرا أو غنيا، سعيدا أو شقيا يعلم سبحانه كل ذلك ما كان منه وما سيكون. وهذا مستحيل على غير الخالق العليم بما خلق، انظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١. والآية (١٦) من هذه السورة صفحة ٤١.

سورة السجدة

المفردات: ﴿الم﴾: تقدم كيفية النطق بها فى صفحة ٥٣٠ والمقصود منها أول سورة البقرة.

﴿لا ريب فيه﴾: أى لا شك فى أنه من عند الله.

المعنى: ﴿الم﴾: تقدم المراد منها أول سورة البقرة. تنزيل الكتاب وهو القرآن حال كونه لاشك فيه هو من رب العالمين قطعا.

الْعَٰلَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ
وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ
إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ أَلْفَ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ
خَلْقَ الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ
مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ
لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩)
وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم

المفردات : ﴿لتنذر قومًا﴾ إلخ : أى لتحذر قومًا ما حذر آباؤهم من قبل تحذيرا مباشرًا، انظر الآية (٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣.

﴿خلق السموات إلى قوله العرش﴾ : تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، والآية (٥٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧.

﴿من ولى﴾ : ﴿من﴾ تفيد تأكيد عموم النفى فيما بعدها، والولى: الناصر، ﴿يدبر الأمر من السماء﴾ : أى من جهة العلو كقوله ﴿ءأمنتم مَنْ فى السماء﴾.. إلخ الآية (١٦) من سورة الملك صفحتى ٧٥٥، ٧٥٦، والمراد وهو سبحانه مستو على عرشه. ﴿إلى الأرض﴾ : أى منزلاً له إلى الأرض.

﴿يعرج﴾ : أى يصعد.

﴿فى يوم﴾ : المراد مدة من الزمن لا يعلم مقدارها إلا الله، انظر شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١. ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ : المراد بالغيب كل ما غاب عنا، وبالشهادة كل ما نشاهده ونعلمه، انظر الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤. ﴿سلالة﴾ : أى خلاصة، انظر الآية (١٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦. ﴿ماء مهين﴾ : هو المنى، سواه: أى أتم خلقه. ﴿نفخ فيه من روحه﴾ : المراد وضع فيه سرًا من أسراره كان به حياته، انظر

(١) العالمين (٢) افتراه (٣) أتاهم
(٤) السموات (٥) عالم (٦) الشهادة
(٧) الإنسان (٨) سلالة (٩) سواه
(١٠) الأبصار (١١) أإذا (١٢) أإنا

نظير ذلك فى الآية (٩١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠. ﴿الافئدة﴾ : القلوب، انظر شرح الآية (١٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٧. ﴿قليلا ما تشكرون﴾ : ﴿قليلا ما﴾ تقدم شرح هذا التركيب فى شرح الآية (١٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣. ﴿ضللنا﴾ : انظر معانى ﴿ضل﴾ فى الآية (٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، وأصل معناها هنا غبنا عن الأعين واختلطنا بتراب الأرض فهى كناية عن الموت وصيرورة أجسامهم ترابا.

المعنى : بعد ما أخبر سبحانه أن تنزيل هذا القرآن هو من الله بلا شك، انتقل إلى ما يزعمه المكذبون من أنه أنزل عليه من الشياطين، انظر الآيات (٢١٠، ٢١١، ٢١٢) من سورة الشعرا، صفحة ٤٩٢.

فقال ﴿أم يقولون﴾ إلخ: المراد : بل هل يقول هؤلاء المشركون أن محمدًا افترى هذا القرآن ونسبه إلى الله، ثم انتقل سبحانه من توبيخهم على الباطل إلى تأكيد أنه من الله فقال: بل هو الحق نازل إليك من عند ربك لتنذر قومك الذين ما أتاهم نذير خاص بهم من قبل إرسالك مترجيا هدايتهم. ثم بين قدرة مُنزل هذا الكتاب وحذرهم من حسابه فقال ﴿الله الذى خلق﴾ إلخ: أى الله هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أزمان لا يعلم مقدارها غيره تعالى، ثم استوى على العرش استواء يليق به سبحانه، مالكم أيها المشركون ناصر يدفع عنكم عذابه، ولا شفيع لكم عنده، هل انطمست بصائركم فلا تعتبرون بصنعه سبحانه. يدبر سبحانه الأمر على وجه الإتقان منزلا أسباب تنفيذه من ملك وغيره إلى الأرض، ثم يصعد إليه الأمر مع الملائكة فى زمن طويل بين تدبيره ووجوده. والمراد أنه سبحانه يدبر أمور الدنيا متقنة على حسب حكمته، وسبحانه مستو على عرشه، ثم يصعد خبر ذلك الأمر إليه إظهارًا لمزيد عظمته واتساع ملكه وانتشار سلطانه، إلى غير ذلك من حكم يعلمها. وكل ما ذكر من الصعود إليه والاستواء يكون على وجه لائق به سبحانه متفق مع تنزيهه عن مماثلة الحوادث. تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا. ذلك الذى يفعل هذه العجائب هو الله الذى يستوى فى علمه الحاضر والغائب، وهو الغالب الذى لا يعجزه شىء أراده، الرحيم بأهل طاعته، الذى أحسن كل شىء خلقه بأن جعله على وفق الحكمة، وبدأ خلق الإنسان الأول وهو آدم من طين مباشرة، ثم

بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ (١٠) * قُلْ يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ
ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا
كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ
يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ (١٤) إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟
سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) ۩ تَتَجَافَىٰ
جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن
قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا

جعل نسله من خلاصة مأخوذة من ماء ممتهن بعد أخذ هذا الماء من التراب، انظر الآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠. ثم أتم خلقه ووضع فيه الروح، وجعل لكم يا بنى آدم السمع والأبصار والقلوب، ولا تشكرون الله تعالى إلا قليلا. ثم بعد أن بين سبحانه أدلة وحدانيته وصحة رسالة نبيه أتبع ذلك بالركن المهم الثالث وهو البعث حاكيا قول المنكرين مع الرد عليهم فقال ﴿وقالوا﴾ إلخ: أى قال الكفار منكرين هل إذا صارت أجسامنا مختلطة بتراب الأرض نبعث خلقا جديدا؟ فرد سبحانه بقوله ﴿بل هم﴾ إلخ.

المفردات: . ﴿ولو شئنا لآتينا﴾ إلخ: تقدم الكلام على ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ﴿حق القول﴾: تقدم فى شرح الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤. ﴿الجِنَّة﴾: الجن، انظر الآية (٦) من سورة الناس صفحة ٨٢٧. ﴿نسيناكم﴾: أى تركناكم فى العذاب. ﴿خروا سجدا﴾: تقدم فى الآية (١٠٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩. والآية (٧٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨. ويطلب السجود للمتوضئ عند تلاوة كلمة ﴿لا يستكبرون﴾ ﴿هنا سجدة﴾.

﴿تتجافى﴾: أى ترتفع وتبتعد. ﴿المضاجع﴾: جمع مضجع بفتح فسكون ففتح. وهو مكان النوم.

﴿قرة أعين﴾: تقدم المراد منها فى الآية (٤٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩.

(١) كافرون (٢) يتوفاكم (٣) صالحا (٤) هداها
(٥) نسياكم (٦) بآياتنا (٧) رزقناهم

المعنى: . بعد ما بين سبحانه ترددهم فى البعث واستبعادهم له انتقل إلى بيان أنهم كاذبون فى هذا التردد بل هم جازمون بعدمه فقال: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾. ثم أثبت سبحانه أن البعث لابد منه، وهددهم بما يكون بعده فقال: ﴿قل يتوفاكم﴾ إلخ: أى قل أيها النبى لهؤلاء الكافرين: إن مَلَك الموت الذى وكل بقبض أرواحكم يستوفى العدد الذى كتب عليه الموت منكم حين انتهاء أجله، ثم تردون إلى ربكم يوم القيامة أحياء، والمراد أن الذى يقدر على نزع أرواحكم من غير سبب ظاهر لكم قادر على إعادتها لأجسامها كذلك. ثم بين حال هؤلاء المشركين بعد البعث فقال: ﴿ولو ترى﴾ إلخ: أى ولو ترى يا مَنْ تصح منك الرؤية حين يقف المجرمون بين يدى ربهم عند الحساب، ومنهم منكرو البعث مطرقو رءوسهم من الخزى والفضيحة قائلين: يا ربنا إننا صرنا مستعدين لأن نبصر أدلة وجودك ووحدانيتك ولسماع قولك وقول رسلك وكنا قبل ذلك لا نبصر ولا نسمع، انظر آيتى (٩، ١٠) من سورة الملك صفحة ٧٥٥، فارجعنا إلى الدنيا نعمل صالحا إنا الآن أصبحنا موقنين بالحق الذى جاء على لسان رسلك. والمراد لو ترى أيها الناظر هذا الموقف لرأيت هولاً عظيما. قد بيَّن سبحانه أنهم كاذبون حتى فى هذا الموقف، وأنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه، انظر ذلك فى آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. ثم بيَّن سبحانه أنه كان قادرا على أن يجعل الناس جميعا مهديين كالملائكة، ولكنه لم يشأ ذلك للحكمة التى بيناها فى شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، ولذا قال ولكن سبق القول من إبليس عندما قال لأغوين بنى آدم، فقلت له وعزتى لأملأن جهنم من الجن والناس الذين يتبعونك أجمعين، انظر الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤، وبما أنه يستحيل رجوعكم إلى الدنيا، فذوقوا أيها المجرمون عذاب جهنم بسبب تركهم الاستعداد ليومكم هذا، إنا تركناكم فى العذاب. ثم بين أن هذا العذاب دائم لا مخلص لهم منه، فقال وذوقوا عذاب المكث الخالد بسبب ما داومتم على عمله من الكفر والجرائم. ثم ذكر سبحانه علامة أهل الإيمان التى استحقوا بها النعيم فقال ﴿إنما يؤمن﴾ إلخ: أى لا يصدق بحججنا وآيات كتابنا إلا الذين إذا وعظوا بها سقطوا على وجوههم سجدا لله إقرارا بعبوديتهم له، ونزهوه سبحانه عما لا يليق به، حامدين له جزيل

كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا
مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم
بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ
الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن
فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا
بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ

نعمه، والحال أنهم لا يستكبرون عن طاعته كما يفعل المجرمون. ومن علاماتهم أن جنوبهم تفارق مكان نومهم فى جوف الليل قائمين بين يديه بالعبادة خوفا من سخطه، وطمعا فى عفوه، وينفقون بعض ما رزقهم الله تعالى فى وجوه البر. انظر من الآية (١٥ إلى ١٩) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣. ثم بين جزاءهم بقوله ﴿فلا تعلم﴾ إلخ: أى فلا يعلم أحد عظيم ما أخفى لهم من النعيم الذى تنشرح له صدورهم جزاء ما كانوا يعملون من الصالحات، وكيف تمكن معرفته وقد قال فيه ﷺ (يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، ثم قرأ هذه الآية. ثم بيَّن سبحانه أن التفرقة فى المعاملة بين المجرمين والصالحين يقتضيها العدل والحكمة، فقال ﴿أفمن كان مؤمنا﴾ إلخ:

المفردات : . ﴿جنات المأوى﴾ : المأوى محل الإقامة، والمراد جنات الإقامة الحقيقية، أما الدنيا فهى دار سفر.

﴿نزلا﴾ : تقدم فى الآية (١٠٢) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤.

﴿العذاب الأدنى﴾ : هو ما حصل لهم فى الدنيا من أسر وخوف وذل وجوع. ﴿العذاب الأكبر﴾ هو عذاب جهنم.

(١) آمنوا (٢) الصالحات (٣) جنات (٤) فمأواهم (٥) بآيات
(٦) آتينا (٧) الكتاب (٨) لقائه (٩) وجعلناه (١٠) إسرائيل
(١١) أئمة (١٢) بآياتنا (١٣) القيامة

﴿ثم أعرض﴾ : ثم تدل على استبعاد الإعراض عقلا عن الآيات مع وضوحها وفائدتها.

﴿الكتاب﴾ : هو التوراة. ﴿مرية﴾ : شك.

﴿من لقائه﴾ : من لقاء موسى للكتاب.

﴿هدى﴾ : أصله مصدر وأريد به هاديا.

﴿أئمة﴾ : هم أنبياء بنى إسرائيل.

﴿يهد لهم﴾ : أى يبين لهم، انظر شرح الآية (١٠٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨.

﴿كم أهلكنا﴾ : كم اسم يدل على الكثرة.

وهى فى موضع نصب بـ ﴿أهلكنا﴾ الآتية فى الصفحة القادمة.

المعنى : . هل بعد ما بين المجرم والمؤمن من التفاوت يتوهم مساواة المؤمن بالفاسق؟ كلا لا يستوون عند الله تعالى فى الجزاء، انظر الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠، والآية (٢١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، والآية (٢٠) من سورة الحشر صفحة ٧٣٣، ثم وضح الفرق بقوله فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنات التى إقامتها دائمة بخلاف نعيم الدنيا فإنه لابد من الرحيل عنه، نزلا أى محل راحة، وأعطاهم ربهم ذلك جزاء عملهم الصالح. وأما الذين خرجوا على أوامر ربهم بالكفر فمحل إقامتهم النار كلما هموا بالخروج منها عندما تفور بهم كما فى الآية (٧) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ دفعتهم الملائكة إلى قعرها، انظر آيتى (٢١، ٢٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٦. وتقول لهم الملائكة إهانة لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون. ثم بيَّن سبحانه ما سيفعله بهم فقال ﴿ولنذيقنهم﴾ إلخ: أى وعزتى لنعذبنهم فى الدنيا بالعذاب الأقل قبل العذاب الأكبر ليرجعوا بالتوبة قبل الوقوع فى العذاب الأكبر. ثم أبرز الفرق بين مَنْ قابل آيات الله بالإعراض، وحال مَنْ قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد فقال ﴿ومن أظلم﴾ إلخ: أى لا أحد أشد ظلما لنفسه وللحق ممَّنْ ذُكر بآيات ربه ثم قابلها بالإعراض. وبيَّن سبحانه جزاءه فقال: إنا من كل مجرم مهما قل

جرمه سننتقم فكيف بمَنْ هو أظلم من كل ظالم؟ وبعد ما ختم الكلام على المكذبين انتقل إلى تصبير نبيه على إيذاء قومه وتبشيره بأنه سيجعل من أتباعه قادة إلخ. فقال موجها الخطاب له ﷺ والمراد غيره لما تقدم فى شرح الآية (٩٤) من سورة يونس صفحة ٢٨١: ولقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك القرآن، فلا تشك فى أن موسى أنزل عليه هذا الكتاب من ربه، وجعلنا الكتاب هاديا لبنى إسرائيل كما جعلنا القرآن هاديا لأمتك، وجعلنا من بنى إسرائيل قادة يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك كما جعلنا فى أمتك علماء يهدون الناس إلى الحق بأمرنا كما فى الآية (١٠٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٠: منحنا بنى إسرائيل هذه المزايا حين صبروا على مشاق الطاعة ومقاساة شدائد الكفار، وكانوا بآياتنا التى فى الكتاب وفى الكون يعلمون علما لا يخالطه شك. فإذا صبرتم مثلهم كان لكم أجرهم.

إن ربك أيها النبى يقضى بين الرسل وأممهم وبين المؤمنين والكافرين يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، فيبين المحق من المبطل ويحسن إلى ذلك ويعاقب هذا. ثم رجع سبحانه إلى أدلة توحيده وكمال قدرته فقال ﴿أو لم يهد لهم﴾ إلخ: أى هل غفلوا ولم يبين لهم طريق ومآل كفرهم كثرة مَنْ أهلكنا من الكافرين مثلهم.

المفردات: . ﴿الجرز﴾ : الأرض التى قطع نباتها.

﴿أنعامهم﴾ : المراد كل ما يهمهم من الحيوانات خصوصا الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم.

﴿الفتح﴾ : الفتح معناه الحكم ويقول أهل اليمن للقاضى : الفاتح والمراد به هنا الفصل بين الخلق يوم القيامة ومنه ما فى الآية (٨٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٧.

﴿ينظرون﴾ : يمهلون.

المعنى : . هل غفل هؤلاء الكفار ولم يرشدهم إلى طريق الخلاص كثرة مَنْ أهلكناهم من القرون الماضية مثل عاد وثمود وقوم لوط، ولا عذر لهم فى هذه الغفلة لأنهم يمرون فى أسفارهم للتجارة على أماكن ديارهم ويشاهدون آثارهم، انظر الآية (٧٦) من سورة الحجر

أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ
لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

(٣٣) سُورَةُ الْأَحْزَابِ مَدَنِيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَالْمُنَٰفِقِينَ

(١) مساكنهم (٢) لآيات (٣) أنعامهم (٤) صادقين
(٥) إيمانهم (٦) الكافرين (٧) المنافقين

صفحة ٣٤٢، والآية (٥٨) من سورة القصص صفحة ٥١٥، وآيتى (١٣٧، ١٣٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ إن فى ذلك لأدلة على قدرة الله، فهل أصيب هؤلاء الكفار بالصمم فأصبحوا لا يسمعون كلام الله تعالى سماع تدبر واتعاظ؟ ثم ذكر دليلا آخر فقال ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل عموا فلم يبصروا آثار أعمالنا حين نسوق الماء إلى الأرض اليابسة التى لا نبات فيها فيخرج بسببه زرعا تأكل أنعامهم من حشائشه، ويأكلون هم حبه وثماره فهل طمس على أعينهم فلا يبصرون فيعلمون قدرتنا على كل ما نريد؟ ولما كان المسلمون واثقين من وعد الله عز وجل لهم بالنصر كانوا دائما يقولون للكفار إن الله سيفتح لنا عليكم بالنصر، ويفصل بيننا وبينكم فيعزنا ويذلكم، فرد الكفار على ذلك بأسلوب الاستبعاد والاستهزاء بقولهم متى يحصل هذا النصر إن كنتم صادقين فأتوا به.

وأمر سبحانه نبيه بالرد فقال ﴿قل يوم﴾ إلخ : أى قل لهم يوم يحصل النصر وتقتلون لا ينفع الكافر منكم إيمانه كما فى الآية (١٥٨) من سورة الانعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، والآية (٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩، ولا يمهلون عن العذاب لحظة. فأعرض أيها النبى عن سفههم ولا تجبهم إلا بما أمرت به، وانتظر صدق وعد ربك، ولا تأمل خيرا فيهم، لأنهم ينتظرون بك الهلاك، انظر الآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات :. ﴿اتق الله﴾: أى داوم على تقوى الله تعالى.

المعنى :. كان مشركو قريش أرسلوا وفدا منهم إلى المدينة يطلب منه ﷺ أن لا يتعرض لآلهتهم بسوء، فنزلوا على عبدالله بن أبى بن سلول رأس النفاق بالمدينة، وكان ﷺ أعطاهم الأمان فى زيارتهم له، فلما طلبوا منه ﷺ ما يريدون ووعده بأنهم لا يتعرضون له بشر، رفض ﷺ. وكان المنافقون يخوفونه ﷺ من بطش المشركين وقوة اليهود القاطنين حول المدينة؛ لكل ذلك أنزل سبحانه ﴿يأيها النبى﴾ إلخ: أى دم على تقوى الله ولا تطع الكافرين والمنافقين فى شىء يخالف ما أمرناك به، انظر مثل محاولة الكفار هنا فى الآية (٧٣) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤، وآيتى (٢٨، ٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥.

المفردات :. ﴿تظاهرون منهن﴾ : أى يقول أحدكم لزوجته: (أنتِ علىّ كظهر أمى) يريد محرمة كحرمتها، وكانوا يعتبرون ذلك طلاقا لا رجعة بعده، وسيأتى تفصيل ذلك صفحة ٧٢٤.

﴿أدعياءكم﴾ : جمع دعى بفتح فكسر مع تشديد الياء، وهو الذى يدعى غير أبيه أنه ابن له ويعطيه كل حقوق الأبناء.

(١) أزواجكم (٢) اللائى (٣) تظاهرون (٤) أمهاتكم (٥) بأفواهكم (٦) لآبائهم (٧) آباءهم (٨) فإخوانكم (٩) مواليكم (١٠) أزواجه (١١) أمهاتهم (١٢) كتاب (١٣) المهاجرين

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ
فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ[1] ٱلَّٰٓـِٔى[2] تُظَٰهِرُونَ[3] مِنْهُنَّ
أُمَّهَٰتِكُمْ[4] وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم
بِأَفْوَٰهِكُمْ[5] وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ (٤)
ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ[6] هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟
ءَابَآءَهُمْ[7] فَإِخْوَٰنُكُمْ[8] فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ[9] وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ
أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ[10] أُمَّهَٰتُهُمْ[11] وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ
بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ[12] ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ[13] إِلَّآ أَن

﴿يهدى السبيل﴾ : يقال هداه السبيل وهداه إلى السبيل أى أرشده إليه، انظر الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٢١٢، ٢١٣، والآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١.

﴿ادعوهم لآبائهم﴾ : أى انسبوهم لآبائهم. ﴿أقسط﴾: أعدل.

﴿مواليكم﴾ :أى نصراؤكم فى الدين.

﴿جناح﴾ : أى إثم ومؤاخذة.

﴿تعمدت قلوبكم﴾ : أى قصدتموه عمدا.

﴿أولوا الأرحام﴾ : أى أصحاب القرابات.

المعنى :. بعدما أمر سبحانه بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين رغب فى طاعته فقال: ﴿إن الله كان عليما﴾ أى بالصالح من الأشياء والفاسد. ﴿حكيما﴾ لا يأمر إلا بما فيه مصلحة. واتبع أيها النبى أنت ومَنْ آمن معك فى كل ما تفعلون وتتركون من أمور الدين ما يتلى عليك من ربك، ومنه ما سبق من الأمر بالتقوى وما بعدها. ثم طمأن المؤمنين وهدد الكافرين فقال: ﴿إن الله كان﴾ إلخ: أى لا تخف أيها النبى أنت ومَنْ معك فإن الله عليم بما تعملون أنتم والكافرون والمنافقون، فيحفظك من كيدهم، ويخذلهم. وتوكل على الله فى جميع أمورك، وكفاك سبحانه حافظا لك. وقبل الدخول فى تفسير هذه السورة يجب أن نعلم أن مقاصدها ترمى إلى إحباط مؤامرات فاشلة، وإشاعات باطلة، تعمد إثارتها المنافقون واليهود، وساعدهم المشركون، فأحبط سبحانه كيدهم، وأمر نبيه أن يسد عليهم منافذ الفتنة من كل ناحية. من جهة شخصه الشريف، ومن جهة نسائه الطاهرات، وفى أثناء ذلك ذكرهم بحوادث كان يكفى أقل منها لأن يعتبروا ويكفوا. ثم التفت سبحانه إلى العرب الذين أسلموا حديثا فهذب أخلاقهم، وعلمهم أرقى آداب المعاشرة، واحترام الرسول الأكرم، انظر ذلك فى الآيات من (٥٣ إلى ٥٨)، و (٦٩ إلى ٧١) من هذه السورة صفحات ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦١.

وكان من عادة الجاهلية التى استمرت إلى صدر الإسلام أن الرجل إذا تبنى ولد غيره جعله كابنه الحقيقى فى كل شىء : فى الميراث، وفى تحريم مطلقته على والده بالتبنى، وكان ﷺ

تبنى قبل النبوة زيد بن حارثة، وكان عبدا مملوكا لخديجة زوجه ﷺ، فأهدته له فأعتقه، وتبناه، وكانوا يقولون عنه زيد بن محمَّد، ثم منع الإسلام هذا العمل وأبطل آثاره، فأباح للرجل المتبنِى (بكسر النون) أن يتزوج مطلقة متبناه، ولكن لتأصل التبنى عند العرب من قديم لم يقدم أحد على زواج مطلقة متبناه، لأن صورته مازالت بشعة فى مخيلتهم كصورة زواج الواحد منهم مطلقة ابنه الحقيقى، لذلك اقتضت حكمته سبحانه أن يكون أول مَنْ يبطل هذه العادة هو رسوله ﷺ؛ لأن فيه أكبر قدوة، فأوحى إليه أن يزوج بنت عمته زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة، وأمره أن يتزوجها إذا طلقها زيد، لمحق هذه العادة الشاذة محقا، فخطبها ﷺ لمولاه زيد من أخيها عبدالله بن جحش فامتنعت وامتنع أخوها، لأنها من أشراف العرب، فلا يصح أن تتزوج مَنْ كان رقيقا، فأنزل سبحانه الآية (٣٦) الآتية صفحة ٥٥٥، فخضعا لحكم الله، وتزوجها زيد، ولكنها شمخت بأنفها عليه، واحتقرته، وأطلقت لسانها فيه، فشكا زيد لرسول الله ﷺ، واستأذنه فى أن يطلقها، ولما كان ﷺ شديد الحياء تؤلمه أخف كلمة، شديد الحذر مما قد ينتهزه المنافقون واليهود فيشيعون ما يظنه الناس ماسا بذاته الشريفة، رأى ﷺ سدا لهذا الباب أن يرجئ الأمر حتى يرجو ربه فى أن يكون القدوة فى هذا الأمر غيره من المؤمنين، وشجعه على هذا الرجاء علمه بأن ربه الكريم الرحيم أعفى خليله إبراهيم عليه السلام من ذبح ولده إسماعيل بعد تكليفه به؛ لهذا الاعتبار قال ﷺ لزيد عندما شكا من زينب ﴿أمسك عليك زوجك﴾ فلامه سبحانه، انظر الآية (٣٧) الآتية صفحتى ٥٥٥، ٥٥٦. عند ذلك خضع ﷺ لأمر ربه وأذن لزيد فى الطلاق، وبعد استيفاء العدة تزوجها، فتلقفها المنافقون وصاروا يقولون تزوج محمَّد حليلة ولده. فأنزل سبحانه توبيخهم من أول قوله ﴿ما جعل الله لرجل﴾ إلخ، فقوله ما جعل إلخ تمهيد لأصل يحمل عليه ما بعده، فالمراد كما لم يجعل الله قلبين فى جوف واحد، ولم يجعل المرأة الواحدة أما وزوجا، كذا لم يجعل الولد الواحد ابنا لرجلين. ذلكم الذى صدر منكم من تسمية المتبنَى ابنا هو قول صادر من أفواهكم فقط من غير أن يكون له حقيقة فى الواقع كما فى الآية (١٦٧) من سورة آل عمران صفحتى ٩٠، ٩١، والآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥.

والله يقول الحق الثابت فى الواقع، وهو يهدى إلى طريق الحق، فاتركوا قولكم أيها المنافقون واليهود، واتبعوا قوله تعالى.

ثم بين الحق فقال ﴿ادعوهم﴾ إلخ: أى انسبوهم لآبائهم، أى قولوا زيد بن حارثة مثلا، لا زيد بن محمَّد، فإن نسبتهم لآبائهم أعدل فى حكم الله، فإن لم تعلموا لهم أبا تنسبونهم إليه فقولوا للواحد منهم هذا أخى ومولاى، أى فى الدين، ولا تقولوا ابنى، ولا إثم عليكم فيما يصدر عنكم عن خطأ وسبق لسان، ولكن عليكم ذنبًا إذا قلتم قاصدين.

وكان الله غفورا لما مضى، رحيما لعفوه عن المخطئ. وبعد ما قرر سبحانه هذه الحقائق، أراد أن يرتب عليها آثارها فقال ﴿النبى أولى﴾ إلخ: أى أن النبى وإن كان ليس أبا نسبيا لواحد من المؤمنين فإن له أبوة رأفة ورحمة كما فى الآية (١٢٨) من سورة التوبة صفحة ٢٦٨ فهو ﷺ أشد ولاية ونصرة للمؤمنين من أنفسهم، لأنه لا يطلب منهم إلا ما فيه سعادتهم، أما النفس فإنها أمارة بالسوء. ولأزواجه أمومة احترام وتوقير يترتب عليها ما سيأتى فى الآية(٥٣) الآتية صفحتى ٥٥٨، ٥٥٩. ثم أبطل سبحانه التوارث بالتبنى والمؤاخاة فقال ﴿وأولو الأرحام﴾ إلخ : وكان التوارث فى بدء الإسلام بالمؤاخاة بين المسلمين، فكان المهاجرى يرث الأنصارى دون أقربائه وذوى رحمه بسبب الأخوة التى كان يعقدها ﷺ بينهما، فكان شرط التوارث الإيمان والمؤاخاة، فأبطلته هذه الآية وأرجعته إلى ما فى صفحة ٩٩ وما بعدها. فالمعنى وأصحاب القرابات أولى ببعض فى الميراث بسبب القرابة فيما كتبه الله عز وجل وفرضه على عباده فى صفحة ٩٩ المتقدمة، أولى فى هذا الميراث من المؤمنين بسبب الإيمان والهجرة مع المؤاخاة، إلا أن تفعلوا...

المفردات : ﴿فى الكتاب﴾ : المراد به هنا اللوح المحفوظ المذكور فى صفحة ٨٠٢.

﴿ميثاقهم﴾ : تقدم فى الآية (٨١) من سورة آل عمران صفحة ٧٦.

﴿ميثاقا غليظا﴾ : تقدم فى الآية (٢١) من سورة النساء صفحة ١٠٢، والميثاق الغليظ هو الميثاق السابق وإنما كرره لتأكيده بزيادة الصفة وهى ﴿غليظا﴾.

﴿جنود﴾ : هم جيوش الأحزاب الآتى بيانهم. ﴿جنودا لم تروها﴾ : جنود الله التى يسلطها على أعدائه وهى كثيرة، منها الملائكة وشدة البرد الذى يفتت العظم، وإثارة الغبار والرمال فى الوجوه وكل ما يلقى الرعب فى الصدور ولا يعلمه إلا هو، انظر الآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧. ﴿من فوقكم ومن أسفل منكم﴾ : كناية عن الإحاطة من كل جانب، انظر الآية (٥٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨. ﴿زاغت الأبصار﴾ أصل الزيغ الميل عن الاستقامة والمراد هنا اختلت فصارت لا تبصر. ﴿بلغت القلوب الحناجر﴾ : كناية عن اضطراب القلوب عند الفزع.

﴿تظنون بالله الظنونا﴾ : المراد اختلفت ظنونكم فى وعد الله بالنصر، فالمؤمن القوى واثق، والضعيف خائف. ﴿هنالك﴾ : فى هذا الوقت. ﴿ابتلى﴾ اختبر. ﴿زلزلوا﴾ : أى اضطربوا.

﴿والذين فى قلوبهم مرض﴾ : المرض هنا هو النفاق كما فى الآية (١٠) من سورة البقرة صفحة ٤، فعطفه من عطف الصفة على الموصوف كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥. ﴿غرورا﴾ : باطلا يغر ضعيف العقل، انظر الآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١.

(١) أوليائكم	(٢) الكتاب	(٣) النبيين
(٤) ميثاقهم	(٥) إبراهيم	(٦) ميثاق
(٧) ليسأل	(٨) الصادقين	(٩) للكافرين
(١٠) آمنوا	(١١) الأبصار	(١٢) المنافقون.

تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت

المعنى : بعدما أبطل سبحانه التوارث بالمؤاخاة وحصره فى القرابة قال: ﴿إلا أن تفعلوا﴾ إلخ: أى لكن لكم أن تقدموا إلى أوليائكم بالإيمان والهجرة والمؤاخاة معروفا غير الميراث بأن توصوا لهم بجزء من مالكم، كان كل ما ذكر من الأحكام مسجلا فى اللوح المحفوظ أى أنه لم يكن ناشئا عن اضطراب فى الأوامر بل إنها خطط مرسومة اقتضتها الحكمة فى كل زمن بما يناسبه. ثم أراد سبحانه أن يحث نبيه على تبليغ كل ما يوحيه إليه فقال ﴿وإذ أخذنا﴾ إلخ: أى واذكر أيها النبى وقت أن أخذنا على النبيين عهودهم بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الدين القيم، وأكدوا هذا العهد بالحلف عليه، وخص بعض هؤلاء النبيين بالذكر بعد دخولهم فى العموم السابق وأدخل فيهم نبينا ﷺ؛ لأنهم أولو العزم من الرسل وأصحاب الشرائع، فلهم منزلة خاصة. أخذ سبحانه هذا الميثاق على التبليغ ليسأل الرسل الصادقين عن صدقهم فى تبليغ رسالة ربهم تبكيتا للكافرين وإقامة للحجة عليهم: ولذا قال: ﴿وأعد للكافرين عذابا أليما﴾ انظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩ ثم أراد سبحانه أن يشجع المؤمنين على الثبات على الحق وأنه ضامن نصرهم فقال ﴿يأيها الذين امنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ إلخ: وهذا أول الكلام على غزوة الأحزاب، وآخره الآية (٢٧). وبيان أسبابها أنه كان بين بنى النضير من اليهود الذين حول المدينة وبين المسلمين عهد فخانوا العهد، فطردهم المسلمون من ديارهم، وذهب بعضهم إلى إخوانهم فى خيبر، وبعضهم إلى الشام، ونزل فى ذلك أول سورة الحشر صفحة ٧٢٩، ولما يئسوا من رجوعهم عمدوا إلى تأليب المشركين على المسلمين، فذهب جماعة منهم إلى كفار قريش بمكة وحرضوهم على حرب المسلمين، ووعدوهم بأنهم سيكونون معهم هم وإخوانهم يهود بنى قريظة الذين كانوا مازالوا حول المدينة وبينهم وبين المسلمين عهود لم ينقضوها، ولما قبلت قريش ذلك ذهب وفد اليهود إلى قبائل غطفان بنجد وأخبروهم بما تم فوافقوا أيضا، ثم ذهبوا إلى بنى قريظة وحرضوهم على نقض العهد، وأخبروهم بما تم أيضا فقبلوا، فخرجت قريش بجيش يبلغ عشرة آلاف تحت قيادة أبى سفيان بن حرب، وخرجت قبائل غطفان تحت قيادة ثلاثة من كبارها. ولما علم ﷺ خبر هذه الأحزاب عظم الأمر عليه واشتد خوف المسلمين

فاستشار ﷺ أصحابه فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق واسع عميق يحيط بالمدينة بعيدا عنها حتى لا يستطيع العدو أن يجتازه ولا تصل سهامه المدينة، وقاسى المسلمون فى حفره الشدائد، ولما أقبلت الأحزاب : قريش بآلافها، وقبائل غطفان ويهود بنى قريظة. أمر ﷺ بالخروج إليهم على حافة الخندق من جهة المدينة حتى يقتلوا كل من يحاول عبور الخندق بالرمى بالحجارة، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف. وأقام الطرفان حول الخندق نحو شهر لم يحصل فى أثنائه إلا مراماة بالنبال قتل بسببها من المشركين ثلاثة. ومن المسلمين ستة. واشتد بالمسلمين بسبب هذا الحصار البلاء وأشاع المنافقون فى المدينة فى النفوس الهزيمة، وكان على رأس المنافقين عبدالله بن أُبى بن سلول. وكان يقول يعدكم محمَّد بفتح بلاد الفرس والروم، وهأنتم هؤلاء محاصرون ستموتون جوعا من بعض قبائل العرب الذين هم أقل قوة من الفرس والروم. وفى هذه الأثناء أسلم رجل من غطفان اسمه نعيم بن مسعود الأشجعى، وتسرب ليلا إلى رسول الله ﷺ وأخبره بإسلامه. وقال له مرنى بما شئت فإنهم لا يعلمون من أمرى شيئا، فقال له اذهب إليهم وخَذّلهم عنا، وكان بينه وبين كل من قريش واليهود علاقة حسنة، فذهب إلى كل منهما وخوفه من الآخر حتى شكك الأحزاب بعضها فى بعض فتخاذلوا، وفى هذه الحال أرسل الله تعالى ريحا عاصفا فى ليلة شديدة البرد فاقتلعت الخيام وكفأت القدور، فاشتد خوف أبى سفيان وأعلن قريشا بالرجوع. ولما انصرف انصرفت أيضا غطفان، وكان ذلك فى شوال سنة خمس. بعد ذلك أمر ﷺ بالتوجه لبنى قريظة لمعاقبتهم على خيانتهم ونقضهم العهد فقتل زعماءهم وأسر بقيتهم، ونزل فى ذلك آيتا (٢٦، ٢٧). فى كل ذلك يقول سبحانه يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون من حفر الخندق والصبر على المشاق بصيرا، فأنقذكم من شر عدوكم. ثم بيَّن كيف جاءت جنود هذه الأحزاب فقال ﴿إذ جاءوكم﴾ إلخ : أى أنه أنعم عليكم وقت أن حاصرتكم هذه الجنود من كل جهة، وحين كادت أبصاركم لا ترى من شدة الغم، واضطربت قلوبكم من الخوف، واختلفت ظنونكم أيها الذين أعلنتم الإيمان فى صدق وعد الله لكم بالنصر، فالمؤمن القوى ثابت واثق، والضعيف خائف،

وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ

﴿لا مقام﴾ : لا إقامة.

﴿عورة﴾ : من معانى العورة الشق فى الشىء كالحائط، فالمراد ذات عورة يتمكن السارق وغيره من دخولها ﴿دخلت عليهم﴾ : أى دخل تلك البيوت عليهم جيش العدو.

﴿أقطارها﴾ : أى جوانبها. ﴿الفتنة﴾ : المراد بالفتنة هنا إعلان الكفر ومحاربة المسلمين. ﴿ما تلبثوا بها﴾ : التلبث التوقف، أى ما توقفوا فى إعطائها إلا زمنا يسيرا. ﴿المعوقين﴾ : المثبطين للهمم عن القتال مع الرسول ﴿هلم إلينا﴾ : تعالوا واقبلوا علينا. ﴿البأس﴾ : شدة الحرب. ﴿أشحة عليكم﴾ : بخلاء عليكم بالمساعدة.

المعنى : وإذا قالت جماعة من المنافقين الذين خرجوا مع المسلمين لملاقاة الأحزاب عند الخندق : يأهل المدينة لا ينبغى لكم الإقامة هنا حول الخندق فارجعوا إلى منازلكم. فى هذا الوقت اختبر الله سبحانه المؤمنين ليظهر القوى والضعيف، والصادق والمنافق، واضطربوا اضطرابا شديدا حين يقول المنافقون وهم الذين فى قلوبهم مرض النفاق : ما وعدنا الله ورسوله بالنصر إلا تغريرا بنا وإلا فماذا أصبحنا محاصرين فى هذا المكان الضيق حتى كدنا نموت جوعا. وحين قالت طائفة من المنافقين إلخ.

المفردات : ﴿يثرب﴾ : هو الاسم الجاهلى لمدينة رسول الله ﷺ، وقد كرهه صلوات الله وسلامه عليه وسماها طيبة.

(١) يستأذن (٢) سُئلوا (٣) لآتوها (٤) عاهدوا
(٥) الأدبار (٦) القائلين (٧) لإخوانهم

وفريق من المنافقين منهم يستأذن النبى ﷺ فى الرجوع إلى المدينة متعللين بأن بيوتهم معرضة غير حصينة يخشى عليها. فكذبهم سبحانه بقوله ﴿وماهى بعورة﴾ أى ماهى معرضة لشىء.

ثم بين السبب الحقيقى فقال ﴿إن يريدون﴾ إلخ: أى ما يريدون بهذا الاستئذان إلا الفرار من مساعدة المسلمين. ثم فضحهم أكثر فقال ﴿ولو دخلت﴾ إلخ : أى لو دخل جيش تلك البيوت من جميع جهاتها ثم طلب منهم الكفر ومقاتلة المسلمين لأجابوا طلبه وما توقفوا إلا زمنا يسيرا مقدار ما يستعدون، وما ذلك إلا لتمكن النفاق من قلوبهم، وشدة كراهتهم للمسلمين. ثم ذكر لهم مخازيهم يوم أحد فقال ﴿ولقد كانوا﴾ إلخ : أى ولقد كان هؤلاء المستأذنون عندما جبنوا يوم أحد كما تقدم فى شرح سورة آل عمران صفحة ٨٣ عاهدوا الله تعالى على أن لا يفروا بعد ذلك، وكان عهد الله مسئولا من صاحبه أن يوفى به، ولكن لم يوفوا. قل لهم أيها النبى لن ينفعكم من الموت على فراشكم أو القتل بالسيف مثلاً فراركم منه يوم الأحزاب مهما فررتم. لأنه لابد لكل نفس أن تموت فى أجلها المحدد لها. انظر الآية (٧٨) من سورة النساء صفحة ١١٤. وإذا فرضنا المستحيل ونفعكم فراركم فى تأخير الموت أو القتل فإن الله لا يمتعكم بالحياة إلا زمنا قليلا هو مقدار أطول عمر عاشه إنسان، وهذا ليس شيئا بالنسبة لعمر الدنيا أو لحياة الناس فى الآخرة. قل أيها النبى لهؤلاء المنافقين الجبناء. لا أحد يمنعكم مما يريده الله لكم من شر أو خير، أى إذا أراد بكم شرا فلن يستطيع أحد دفعه، وإذا أراد خيرا فلن يستطيع أحد منعه. وإذا كان الأمر كذلك فلا يجد هؤلاء المنافقون غير الله وليا، أى مواليا وصديقا يقدم النافع، ولا نصيرا يدفع عنهم الأذى؛ ثم حذر المنافقين فقال ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾ وهم القائلون لإخوانهم فى النفاق الموجودين مع عسكر المسلمين عند الخندق : تعالوا إلينا فى المدينة واتركوا محمدًا ولا تساعدوه، وهم الذين لا يحضرون شدة الحرب إلا زمنا قليلاً بقدر ما يراهم المخلصون، فإذا غفلوا عنهم تسللوا إلى بيوتهم. ثم بين لهم عيوبا هى البخل وشدة الخوف والفخر الكاذب والتبجح فى طلب المغانم فقال ﴿أشحة﴾: أى بخلاء عليكم بالمساعدة بالنفس والمال، فإذا حصل للمسلمين خوف من هجوم عدو واشتد القتال رأيتهم أيها النبى....

يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ
الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً
عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا
وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ
يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا
قَلِيلًا (٢٠) لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)
وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا
وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ
عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا

المفردات : ﴿تدور أعينهم﴾ : أى شمالا ويمينا من شدة الخوف. ﴿يغشى عليه﴾ : يغمى عليه. ﴿سلقوكم﴾ : يقال سلقه بالكلام إذا آذاه به. ﴿حداد﴾ : جمع حديد. والحديد هو القوى من كل شىء. انظر الآية (٢٢) من سورة ق صفحة ٦٩٠. ولسان حديد أى صارم كالسيف فى إيلام المخاطب. ﴿أحبط﴾ : أبطل.

﴿يودوا﴾ : يتمنوا. ﴿لو﴾ : حرف يدل على أن ما بعدها مؤول بمصدر. أى تمنوا إقامتهم فى البادية.

﴿بادون﴾ : جمع باد وهو ساكن البادية بعيدا عن المدينة. انظر الآية (٢٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٦، ٤٣٧.

﴿فى الأعراب﴾ : هم سكان البادية.

﴿أسوة﴾ : أى قدوة.

﴿قضى نحبه﴾ : أصل النحب هو النذر الذى يلتزمه الإنسان، وقضاؤه تأديته والفراغ منه. ثم استعمل قضاء النحب فى الموت، كأنه نذر لازم فى عنق كل حى.

المعنى : فإذا جاء الخوف من العدو، وخيف على هلاك أهل المدينة جميعا، رأيت أيها النبى هؤلاء المنافقين ينظرون إليك مستنجدين بك، والحال أن أعينهم مضطربة من شدة الخوف، كما ينظر الشخص المغمى عليه من شدة سكرات الموت، فإذا ذهب الخوف بانتصار

(١) أعمالهم (٢) يسألون (٣) أنبائكم (٤) قاتلوا
(٥) الآخر (٦) رأى (٧) إيمانا (٨) عاهدوا.

المسلمين وجمعت الغنائم، سلطوا ألسنتهم عليكم عند قسمة الغنائم، يقولون لابد أن نأخذ مثلكم فلستم بأحق منا، فقد قاتلنا أكثر منكم، وهم فى كل هذا كاذبون، أى فهم عند الشدة أجبن قوم، وعند قسمة الغنيمة أشح قوم. ثم بيَّن سبب تسليط ألسنتهم بقوله: ﴿أشحة عليكم﴾ إلخ: أى هم بخلاء حريصون على الغنائم التى هى خير أعطاه الله تعالى للمسلمين المجاهدين. وبعدما وصفهم بهذه الصفات الذميمة الثلاثة أراد أن يبين السبب فى وجودها فيهم، وهو عدم ثقتهم بالله تعالى، فقال ﴿أولئك لم يؤمنوا﴾ بالله ورسوله ويعلموا أن الأمر كله بيده. فأبطل الله تعالى كل أعمالهم التى تظاهروا بها معكم، وأذهب عليهم أجورها لأن شرط نفعها هو الإيمان. وكان ذلك الإحباط سهلاً على الله لا يبالى به لأنهم فعلوا ما يوجبه. ثم وضح مقدار الجبن والخوف المتسلط عليهم فقال ﴿يحسبون﴾ إلخ : أى أنهم من شدة جبنهم لا يزالون يظنون أن الأحزاب من قريش وغطفان واليهود مازالوا محاصرين المدينة مع أنهم انصرفوا. وإن يأت الأحزاب مرة أخرى المدينة يتمنوا أن يكونوا مقيمين فى البادية مع الأعراب بعيدين عن المدينة حال كونهم يسألون كل قادم من المدينة عن أخباركم وعما جرى لكم، منتظرين أن يسروا بخذلانكم، ولو كانوا معكم عند الخندق ولم يرجعوا إلى المدينة وفرض وقوع حرب بالسيوف، واختلطت فيها الصفوف، ما قاتلوا إلا قتالا ضعيفا لمجرد الرياء وخوفا من العار. ثم أبرز عدم إخلاصهم بصورة أخرى هى أن المؤمن الصحيح لابد أن يقتدى برسوله فى الصبر والثبات فقال ﴿لقد كان لكم﴾ إلخ : أى كان عندكم فرصة الاقتداء بأعمال رسول الله ﷺ فى الثبات فى الحروب ومقاساة الشدائد، وهذه قدوة حسنة ينتفع بها مَنْ كان يرجو رحمة الله تعالى ونعيم اليوم الآخر، ويذكر الله تعالى كثيرا فى الخوف والرجاء، والشدة والرخاء، حتى يستعين بذلك على ملازمة الطاعة. وبعد ما فرغ سبحانه من بيان فضائح المنافقين شرع فى بيان حال المؤمنين ليتجلى الفرق بينهما حين لقاء الأحزاب فقال ﴿ولما رأى المؤمنون﴾ إلخ : أى ولما أبصر المؤمنون الصادقون كثرة الأحزاب قالوا هذا الذى نراه من كثرة العدو هو الاختبار الذى وعدنا الله بأنه سيلاقينا حتى يتبين الصادق من الكاذب فينصر الأول ويخذل الثانى، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢، والآيات (٢، ٣، ٤)

تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ[١] بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَـٰفِقِينَ[٢] إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ
وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾
وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم[٣] مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ[٤] مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ[٥] وَأَمْوَٰلَهُمْ[٦] وَأَرْضًا لَّمْ
تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ
قُل لِّأَزْوَٰجِكَ[٧] إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ[٨] ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ
تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ[٩] فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ[١٠]
مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ[١١] ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ

من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٠، ٥٢١، وصدق الله ورسوله فى الوعد بالنصر، وما زادهم ذلك الخطب والبلاء إلا إيمانا بالله وتسليما لقضائه. ثم وصف سبحانه بعض المؤمنين الكاملين فقال ﴿من المؤمنين رجال﴾ إلخ: أى من المؤمنين الصادقين رجال وفوا ما عاهدوا الله عليه من الصبر فى البأساء والضراء، فمنهم مَنْ استشهد يوم بدر ويوم أحد وغيرهما، وفى مقدمتهم حمزة، ومنهم مَنْ ينتظر ذلك لينال شرف الشهادة وما بدلوا فى عهدهم شيئا ولو قليلا.

المفردات : ـ ﴿الذين ظاهروهم﴾ : أعانوهم، انظر الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦، والمراد بهم يهود بنى قريظة كما تقدم أول القصة. ﴿صياصيهم﴾ : جمع صيصة بكسر فسكون ففتح، وهى كل ما يتحصن به صاحبه ويدافع به عن نفسه، كقرن الثور ومخلب الصقر والحصن. ﴿أرضا لم تطئوها﴾ : أى لم تدخلوها إلى الآن، والمراد بها خيبر وما بعدها، وقد استولوا على خيبر سنة سبع هجرية.

﴿أمتعكن﴾ : أعطيكن متعة الطلاق.

﴿أسرحكن﴾ : أى أطلقكن. ﴿سراحا جميلا﴾ : هو ما لا إضرار فيه ولا مخاصمة معه.

المعنى : ـ وما بدل المؤمنون الصادقون فى العهد شيئا كما بدل المنافقون. حصل من المنافقين ما حصل، ومن الصادقين ما حصل، لتكون العاقبة أن الله يجزى الصادقين بسبب صدقهم أحسن الجزاء، ويعذب المنافقين شر العذاب إن شاء، أو يتوب عليهم. وإنما قال إن

(١) الصادقين (٢) المنافقين (٣) ظاهروهم (٤) الكتاب (٥) ديارهم (٦) أموالهم
(٧) لأزواجك (٨) الحياة (٩) الآخرة (١٠) المحسنات (١١) يانساء

شاء مع أن المنافق ألعن أنواع الكافرين، وسيكون فى الدرك الأسفل من النار كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، لبيان أنه سبحانه لا يجب عليه شيء من تعذيب أو إنعام، وأن مشيئته سبحانه مطلقة لا حد لها، إلا أنه سبحانه هو نفسه الذى وضع نظام الثواب والعقاب حسب حكمته، فكأنه يقول: إنه سبحانه بحسب مشيئته التى لا سلطان لأحد عليها إن شاء عذب المنافق، وإن شاء لم يعذبه، لكنه شاء من نفسه تعذيبه، لأنه سبحانه حكيم لا يستوى عنده المؤمن والفاسق، كما تقدم فى الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧. وقال بعض العلماء: المعنى يعذب المنافقين فى الدنيا إن شاء، وإن شاء يعفيهم من عذاب الدنيا ليكون عذابهم فى الآخرة أشد. ثم نبههم للتوبة قبل أن يموتوا فقال ﴿إن الله كان غفورا رحيما﴾ لكل من رجع إليه تائبا. ورد الله الذين كفروا من طوائف الأحزاب بغيظهم لم ينالوا شيئا مما كانوا يظنونه خيرا لهم وهو النصر على المؤمنين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله تعالى قويا على إيجاد ما يريد، عزيزا لا يغلبه أحد. روى البخارى أن رسول الله ﷺ كان يقول (لا إله إلا الله، وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده) وأنزل سبحانه يهود بنى قريظة الذين كانوا أعانوا المشركين من حصونهم، وملأهم خوفا، لم يستطيعوا مقاومته، تقتلون فريقا منهم أيها المؤمنون، وهم الذين كانوا فى الحرب مع المشركين، وتأسرون الباقى، وأورثكم أرضهم الزراعية، وديارهم وأموالهم من نقد وماشية وأثاث، وأورثكم أرضا لم تكونوا دخلتموها وقتئذ، وكان الله على كل شيء قديرا. ولما رأى أزواجه ﷺ كثرة هذه الغنائم اجتمعن حوله ﷺ وقلن: يا رسول الله هذه نساء كسرى وقيصر فى الحلى والحلل من الحرير والإماء والخدم، ونحن على ما ترى من الفاقة والضيق. فتألم قلبه الشريف أشد الألم من ميلهن إلى زخارف الدنيا التى تشغلهن عن الاستعداد للآخرة، فأنزل الله عز وجل قوله: يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن﴾ أى أعطيكن من النفقة ما يعطى للمطلقة، وأطلقكن طلاقا لا ضرر معه من خصومة أو نقص حق. وإن كنتن تردن رضا الله ورسوله ونعيم الدار الآخرة فزتن بالخير كله، لأن الله تعالى أعد للمحسنات بتقديم رضا الله أجرًا عظيما هو نعيم الجنة الخالد. وقل لهن أيضا

(الجزء الثانى والعشرون) ٥٥٤

بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ

﴿يا نساء النبى مَنْ يأت منكن بفاحشة﴾ إلخ: أى بكبيرة، وخطابهن بعنوان (نساء النبى) فيه تشريف لهن وحث على الامتثال.

المفردات: . ﴿مبينة﴾ : واضحة، انظر شرح الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦. ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ : ضعف الشيء مثله، والمراد تعذب مثل عذاب غيرها مرتين. ﴿يقنت﴾ : يداوم على الخضوع التام لربه، انظر الآية (٩) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧.

﴿مرض﴾ : هو النفاق وحب الفجور.

﴿قولا معروفا﴾ : معتدلا لا تكسر فيه ﴿قرن﴾ : أصله اقررن، أى اثبتن فى البيوت. ﴿لاتبرجن﴾: أى لا تظهرن ما يجب إخفاؤه من محاسن الجسم، انظر الآية (٦٠) من سورة النور صفحة ٤٦٨.

﴿الرجس﴾ : المراد به هنا الذنب المدنس. ﴿أهل البيت﴾ : أصله يا أهل البيت.

﴿والحكمة﴾ : هى القرآن فهو من عطف الصفة على الموصوف كما فى الآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥.

المعنى : . يا نساء النبى مَنْ يفعل منكن كبيرة ظاهرا قبحها تعذب مثل عذاب غيرها مرتين، لأن جرم الشخص صاحب المنزلة العظيمة له أثر كبير فى الضرر، وكان تشديد

(١) بفاحشة (٢) يضاعف (٣) صالحا (٤) يا نساء (٥) الجاهلية
(٦) الصلاة (٧) وآتين (٨) الزكاة (٩) آيات (١٠) المسلمات
(١١) المؤمنات (١٢) القانتين (١٣) القانتات (١٤) الصادقين.

عـذابكن سهلا على الله لا يمنع منه كونكن فى بيت النبوة ولا شرفكن، فليس الله سبحانه كملوك الدنيا يعز عليه عقاب الأشراف، بل الجميع أمام عدله سواء. ونظير ذلك أن مَنْ تقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين: مرة على الطاعة، ومرة على رضاها بالقناعة، وترجيحها رضا الله ورسوله على رضا نفسها بزخارف الدنيا. وإذا كان أجر الحسنة من غيرهن يضاعف إلى عشرة فأجرها منهن يكون عشرين، وأعد لها فى الجنة فوق هذا الأجر رزقا حسنا لا يعلم مقداره إلا الله كما فى الآية (١٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦. يا نساء النبى ليست كل واحدة منكن كواحدة من آحاد نساء الناس الصالحات، بل منزلتكن أرفع، وثوابكن عند الله أعظم، بشرط أن تداومن على مراعاة أعلى منازل التقوى. وهذا يرجع إلى تكريم رسول الله والبعد بألصق الناس به عن كل شبهة؛ ولذا قال بعد ذلك بيانا لبعض التقوى ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أى إذا خاطبتن رجلا فلا يكن فى صوتكن ميوعة الأنوثة وطراوتها، وقلن قولا عاديا معتدلا. وبعد ما علمهن المعروف من القول شرع فى تعليمهن الحسن من الفعل، فقال ﴿وقرن فى بيوتكن﴾ أى اجعلن الأصل فى حياتكن المكث فى البيوت، لأن ملاحظة مصالحها نصف المعيشة. وهذا الحكم ثابت لجميع النساء، بدليل قوله ﷺ للنساء عندما قلن له: يا رسول الله ذهب الرجال بفضل الجهاد فى سبيل الله فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين؟ فقال ﷺ (مَنْ قعدت منكن فى بيتها ترعى شئون زوجها وولدها فلها أجر المجاهدين) هذا وأجاز الشرع الخروج للحج، وزيارة الوالدين وعيادة المرضى المحارم ونحو ذلك، بشروط مبينة فى محلها. ولا تبرجن كتبرج نساء الجاهلية الأولى التى كانت قبل الإسلام إذ كانت تفعل ما نهت عنه الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢، والآية (٦٠) من نفس السورة صفحة ٤٦٨؛ فقد كانت المرأة فيها تظهر محاسنها فى الطرقات لكل ناظر متبخترة فى مشيتها متزينة متعطرة، راغبة فى تحسين نفسها فى نظر غير زوجها، ووراء ذلك ما وراءه. والرجل الذى يقبل أن تفعل امرأته ذلك تبرأ منه الرجولة. ثم أرشدهن إلى ما يساعدهن على التقوى فقال سبحانه ﴿وأقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ المفروضة والمندوبة إذا كان عندكن مال، وحافظن على طاعة الله ورسوله فى كل شىء. ثم بين الحكمة فى هذه

الإرشادات فقال ﴿إنما يريد الله﴾ إلخ: أى إنما أراد سبحانه أمركن ونهيكن ليذهب كل نقص عنكم يا أهل بيت النبوة ويطهركم من قذارة الآثام تطهيرا عظيما لا تخالطه شبهة.

والمراد بالبيت بيت سكنه ﷺ، لا بيت القرابة والنسب، فالمراد بأهله نساؤه الطاهرات للقرائن الدالة على ذلك من سابق الكلام ولاحقه. قال ذلك ابن عباس وعروة بن الزبير وعكرمة وغيرهم، وجاء بضمير المذكر فى ﴿عنكم﴾ و ﴿ويطهركم﴾ مراعاة للفظ أهل، والعرب تجعل ضميره مذكرا، انظر خطابه سبحانه لسارة زوج إبراهيم عليه السلام فى الآية (٧٣) من سورة هود صفحة ٢٩٥.

وإنما أفرد البيت مع أن لكل واحدة بيتا لأنها جميعا بالنسبة له ﷺ بيت واحد، فهو واحد بالنسبة له ﷺ ومتعدد بالنسبة لكل واحدة، هؤلاء هم أهل البيت. أما آله ﷺ الذين تحرم عليهم الزكاة فهم مؤمنو بنى هاشم. وقال الشافعى: وبنى المطلب. وتذكرون دائما ما يتلى فى بيوتكن من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله الدالة على صدق النبوة، وكونه حكمة مشتملة على فنون العلوم والشرائع، وبهذا تعرفن قدر نعمة الله عليكن حيث جعلكن فى بيت النبوة، ومهبط الوحى، وهذا يوجب الحرص على كمال الطاعة.

إن الله كان لطيفا بكن حيث جعلكن فى بيت النبوة تسمعن آياته، خبيرا بكن إذ اختاركن أزواجا لرسوله. ثم أراد سبحانه أن يبين الأوصاف التى يستحق بها عباده مغفرته ورضوانه، سواء أكانوا من أزواجه ﷺ أو من غيرهن، فقال ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلخ:

أى أن المنقادين لأحكام الله تعالى فى القول والعمل والمنقادات، والمصدقين بقلوبهم لكل ما أخبر الله عز وجل به والمصدقات، والقانتين أى المداومين على الطاعات فى طمأنينة والمداومات، والصادقين فى الأقوال والأعمال، وذلك علامة الإيمان، كما أن الكذب علامة النفاق.

المفردات: ﴿الخيرة﴾: الاختيار، انظر الآية (٦٨) من سورة القصص صفحة ٥١٦.

﴿الذى أنعم الله عليه﴾: بالهداية إلى الإسلام وهو زيد بن حارثة.

وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ[1] وَٱلصَّـٰبِرِينَ[2] وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ[3] وَٱلْخَـٰشِعِينَ[4]
وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ[5] وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ[6] وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ[7]
وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ[8] وَٱلْحَـٰفِظِينَ[9] فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ[10]
وَٱلذَّٰكِرِينَ[11] ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ[12] أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ
وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا[13] مُّبِينًا ﴿٣٦﴾
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ
عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ
وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ[14] فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا
وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا[15] لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ
فِىٓ أَزْوَٰجِ[16] أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ

﴿وطرا﴾ : أصل الوطر الحاجة، والمراد بقوله ﴿قضى زيد منها وطرا﴾ أى طلقها لأنه لم يكن فى حاجة إليها، لقسوتها فى معاملته.

﴿حرج﴾ : أى إثم.

﴿أدعيائهم﴾ : هم أبناء الغير الذين يدعى غير آبائهم أنهم أبناؤه كما تقدم فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٥٤٩.

المعنى : . والصادقات فى الأقوال والأعمال، والصابرين على ترك الشهوات ومشاق العبادات والصابرات، والخاشعين بقلوبهم وجوارحهم تواضعا لله خوفا منه تعالى والخاشعات، والمتصدقين ببعض أموالهم إلى المحتاجين والمتصدقات، والصائمين الفرض والنفل تقربا إلى الله والصائمات، والحافظين فروجهم عن الحرام والحافظات، والذاكرين الله بقلوبهم دائما وبألسنتهم كما طلب الله عز وجل منهم والذاكرات كذلك، انظر الآية (٢٠٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٦؛ الذين يفعلون كل ما تقدم يغفر الله تعالى ذنوبهم ويؤتيهم أجرا عظيما فى جنات النعيم.

ثم شرع سبحانه فى بيان سبب زواجه ﷺ من زينب رضى الله عنها، وكيف أنها كانت هى وأخوها ممتنعين عن زواجها بزيد كما سبق، فقال:

﴿وما كان لمؤمن﴾ إلخ:

---

(١) الصادقات	(٢) الصابرين	(٣) الصابرات	(٤) الخاشعين
(٥) الخاشعات	(٦) المتصدقات	(٧) الصائمين	(٨) الصائمات
(٩) الحافظين	(١٠) الحافظات	(١١) الذاكرين	(١٢) الذاكرات
(١٣) ضلالا	(١٤) تخشاه	(١٥) زوجناكها	(١٦) أزواج.

أى ما صح وما جاز لمؤمن كعبد الله بن جحش، ولا مؤمنة كزينب أخته، إذا قضى الله ورسوله أمرا، أن يكون لهم اختيار فى أمرهم بغير ما اختاره الله تعالى ورسوله. ثم أكد ذلك مهددا بقوله: ومَنْ يعص الله ورسوله، أى بالمخالفة، فقد بعد عن طريق الصواب بعدا ظاهرا، وتعرض لكل البلايا، انظر الآية (٦٣) من سورة النور صفحة ٤٦٩. ولما نزل ذلك خضعت زينب لأمر الله وتزوجها زيد، ولكن بقيت شديدة عليه تؤذيه وترى نفسها أشرف منه، فجاء يشكو لرسول الله ﷺ، فكان ﷺ يخاف لسان المنافقين كما سبق ويأمره بالتحمل، ولكن شكواه لم تنقطع، والله تعالى لم يعف رسوله من هذا التكليف، وهو أنه يتزوجها بعد زيد للحكمة الآتية عند ذلك سمح له ﷺ بطلاقها وخضع لأمر ربه، فجاء جبريل وقال له إن الله قد زوجك زينب. هذا هو ما أشار إليه بقوله: واذكر أيها النبى وقت قولك لمولاك زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه بالإسلام وبجعله تحت رعايتك، وأنعمت بالعتق والتربية الحسنة قولك عندما جاءك يشكو من إساءة زوجته زينب: أمسك عليك زوجك واتق الله فيها ولا تطلقها، وتخفى فى نفسك الشىء الذى لابد أن يظهره الله تعالى للناس وهو أنك ستتزوجها، لإبطال عادة مرذولة. فالشىء الذى أخفاه ﷺ وأبقاه فى سره رجاء أن يعفيه الله تعالى منه كما سبق هو ما أوحى الله إليه به أن يتزوجها بعد طلاق زيد لها ليتحقق التشريع المطلوب. قال ذلك جمهور من علماء الصدر الأول، منهم على بن الحسين والزهرى وبكر بن العلاء والقشيرى وتبعهم خلق كثير، ويكون حاصل العتاب كيف تقول أمسك عليك زوجك مع أنى قد أوحيت إليك أن تتزوجها بعد طلاقها واستيفاء عدتها. هذا هو الأمر الذى كان أخفاه ﷺ، ولم يظهر سبحانه شيئا غيره إلى يومنا هذا. فاحذر أيها المؤمن ما دسه اليهود من الإسرائيليات، وتبعهم بسطاء المفسرين عن جهل، من أن الذى كان يخفيه ﷺ هو حبه لها، حمى الله مقامه الشريف من هذا الدس الحقير الذى ينادى سابق الكلام ولاحقه ببطلانه؛ لأن الله تعالى يقول أخفيت ما أنا مظهره قطعا، ولم يظهر الله محبة ولا غيرها إلا شيئا واحدا هو أنه تزوجها ﷺ. ثم اشتد سبحانه فى عتاب رسوله فقال ﴿وتخشى الناس﴾ إلخ : أى تخاف قول المنافقين أن محمدا تزوج امرأة ابنه، وكيف تخاف من تعييرهم لك بالباطل، والحال أن الله وحده هو

الأحق بالخشية فى كل شىء. فلما قضى زيد منها حاجته، وأصبح لا يريدها وطلقها، وانقضت عدتها، زوجناكها، لنبطل تخوف المؤمنين من ذلك حتى لا يجدوا فى أنفسهم حرجا من أن يتزوجوا مَنْ كن زوجات أدعيائهم، وكان ما أمر الله بنفاذه حاصلا. وهذه هى الزوجة الوحيدة التى تولى سبحانه تزويجها لرسوله بأمره بدون وساطة عقد، ولا وكالة ولا صداق، وهى إحدى خصوصياته ﷺ؛ ولهذا كانت رضى الله عنها تفتخر دائما على سائر أمهات المؤمنين قائلة: أنتن زوجكن أهلكن، أما أنا فزوجنى ربى من فوق سبع سموات، وكان السفير فى زواجى بين الله ورسوله جبريل عليه السلام... وقد أخرج ابن إسحاق هذه القصة من طريق السُّدّى فساقها سياقا واضحا حسنا، ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ، وبعد ما زوجها رسول الله ﷺ زيدا بعد امتناع منها أَعْلَمَ الله رسوله ﷺ أنها ستكون من أزواجه، وكان يحصل بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره ﷺ أن يمسك عليه زوجه ويتق الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه لأنه كان تبناه، قال الله قد أخبرتك أنى مزوجها لك وتخفى فى نفسك ما الله مبديه، وقد أطنب الترمذى الحكيم فى تحسين هذه الرواية وقال إنها من جواهر العلم المكنون. ثم قال الحافظ ابن حجر وردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرى ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغى التشاغل بها والذى أوردته هنا هو المعتمد.

ثم قال الحافظ: والحاصل أن الذى كان يخفيه النبى ﷺ وسلم هو إخبار الله سبحانه إياه أنها ستصير زوجته والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه وأراد الله تعالى إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى بأمر لا أبلغ فى الإبطال منه. والله أعلم.

المفردات: ﴿فيما فرض الله له﴾ : المراد فيما أباح له الانتفاع به وجعله نصيبا له، ومن هذا المعنى فروض الميراث أى أنصبتها التى يستحقها كل وارث.

﴿سنة الله﴾ : أصله سن الله ذلك سنة، أى طريقته التى عامل بها الأولين.

ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ
ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ
قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ[1] ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ
وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾
مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ
وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ[2] وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[3] ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ[4] لِيُخْرِجَكُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ[5] إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾
تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ[6] وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ[7] شَٰهِدًا[8] وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿خلوا﴾ : مضوا. ﴿قدرا مقدورا﴾ : القدر هو الإرادة الأزلية، ومقدورا تأكيد كما فى الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥، والمراد حكما مقطوعا به. ﴿ولكن رسول الله﴾ : استدراك بعد نفى الأبوة الحقيقية بإثبات الأبوة المجازية التى هى من شأن كل رسول، انظر شرح الآية (٧٨) من سورة هود صفحتى ٢٩٥، ٢٩٦.

﴿خاتم النبين﴾ : أصل الخاتم بفتح التاء الآلة التى يختم بها، والمراد آخرهم الذى به خُتِمُوا. ﴿بكرة وأصيلا﴾ : أول النهار وآخره. ﴿يصلى عليكم﴾ : الصلاة هنا معناها الحنو والعطف، وهى من الله تعالى الرحمة، ومن الملائكة الدعاء للمؤمنين بالمغفرة والنعيم والبعد عن كل سيئ، انظر الآية (٧) وما بعدها من سورة غافر صفحة ٦١٨. (شاهدا): على مَنْ بعثت إليهم، انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧. (مبشرًا): مَنْ صدقك بالجنة. (نذيرًا) : أى منذرًا مَنْ كذبك بالعذاب. (بإذنه) : المراد بتيسيره وتسهيله (سراجا): المراد بالسراج هنا الشمس كما فى الآية (١٦) من سورة نوح صفحتى ٧٦٨، ٧٦٩ أى أن الرسول يشبه الشمس فى طرد ظلمة الكفر والضلال. وعليه حياة القلوب بالإيمان بعد موتها بالكفر.

المعنى : وكان أمر الله لابد نافذا. ثم أبطل سبحانه افتراء المنافقين بأسلوب آخر فقال ﴿ما كان على النبى﴾ إلخ : أى ليس على النبى حرج فى عمل ما أحل الله له من كل شىء، ومنه تزوجه امرأة متبناه بعد طلاقها، ولم يكن رسولنا محمدًا ﷺ هو الوحيد فى ذلك من بين

---

(١) رسالات (٢) النبيين (٣) آمنوا
(٤) ملائكته (٥) الظلمات (٦) سلام
(٧) أرسلناك (٨) شاهدا.

الرسل، بل جعل الله تعالى ذلك سنة فى الرسل الذين مضوا قبل محمَّد؛ فلم يُحرج عليهم استعمال حلال، ووسع عليهم حتى فى باب التمتع بالنساء، وقد كان لأنبياء بنى إسرائيل خصوصًا داود وسليمان عليهما السلام من الزوجات عدد كثير لا يدانيه ما أجيز لمحمَّد صلوات الله تعالى عليه، وكان أمر الله الذى يقدره حاصلا لا محالة. ثم وصف الأنبياء الماضين بصفات الكمال فقال: الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه سبحانه وحده ولا يخشون غيره. وفى هذا عتاب له ﷺ، أى فكن مثلهم ولا تبال بافتراء الكاذبين، فالله كافيك شرهم ومبطل كيدهم، وكفى به سبحانه رقيبا حسيبا، وسيجازى كلا بما يستحق. ثم أبطل منشأ تضليلهم صراحة فقال: ﴿ما كان محمد﴾ إلخ: أى كيف تقولون تزوج محمَّد امرأة ابنه وما كان محمَّد فى يوم من الأيام أبًا حقيقيًا لواحد من رجالكم، ولكن كان رسول الله وآخر النبيين بما فيهم الرسل، انظر شرح الآية (٥٢) من سورة الحج صفحة ٤٤١، وهذا تأكيد لكمال نصحه لأمته؛ لأن الرسول الذى يعلم أنه سيأتى بعده رسول ربما لا يبلغ فى الشفقه غايتها اتكالا على مَنْ يأتى بعده، وأيضا تفيد أن شفقته ورحمته ﷺ ثابتة لكل مؤمن إلى قيام الساعة، بخلاف غيره فإنها تنتهى بوجود نبى بعده، وهذه منزلة رفيعة لم ينلها غيره ﷺ؛ ولذا قال: ﴿وكان الله بكل شىء عليما﴾ فيعلم مَنْ هو الأحق بأن يكون خاتم الأنبياء، ويعلم المصلحة فى كل تصرف، كما أنه هو العليم وحده بمَنْ يصلح للرسالة، انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. ولما كانت رسالة النبى رحمة من الله وفضلا، أرشد سبحانه إلى طريق شكرها فقال: يأيها الذين امنوا اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم، ذكرا كثيرا بقدر طاقتكم؛ لأنه سبحانه هو المنعم عليكم، وسبحوه أى نزهوه عما لا يليق به فى كل وقت، خصوصا طرفى النهار؛ لأنهما وقت شهود ملائكة الليل وملائكة النهار كما فى حديث البخارى. وإنما خص التسبيح مع أنه داخل فى الذكر؛ لأن المقام يقتضيه؛ لأن الإله الحق لا يرضى لرسوله إلا كل فضيلة. ثم ذكر سبحانه بعض نعمه التى يستحق عليها الذكر والتسبيح فقال: ﴿هو الذى يصلى﴾ إلخ: أى يعطف عليكم بالرحمة ومنها إرسال محمَّد لإنقاذكم، وملائكته بالدعاء لكم، ليخرجكم من ظلمات الكفر والمعاصى إلى نور الإيمان والطاعة. لأنه سبحانه دائم الرحمة بالمؤمنين، فسخر الملائكة لمصلحتهم. ثم بيَّن ما سيكون للمؤمنين فى الآخرة فقال: ﴿تحيتهم﴾ إلخ: أى أنه؛ التحية التى ستوجه إليهم من الملائكة يوم يلقون ربهم فى الجنة هى قولهم سلام عليكم، انظر الآية(٢٤)

بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ(١) وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ(٢) وَدَعْ أَذَىٰهُمْ(٣) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا(٤) إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ(٥) ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ(٦) ٱلَّـٰتِىٓ(٧) ءَاتَيْتَ(٨) أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ(٩) وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ(١٠) ٱلَّـٰتِى(١١) هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ(١٢) وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ(١٣) لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦. وأعد لهم أجرا حسنًا هو ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ثم وجه سبحانه الخطاب لنبيه مبينا له منزلته وما يجب عليه أن يعمله مع المؤمنين ومع المنافقين والكافرين فقال: يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا الخلق إلى سبيل الله وهو الدين الحق بتيسيره سبحانه، وجعلناك كالسراج، فكما أنه يضىء الطريق فكذا تضىء سبيل الحق. وبشر المؤمنين إلخ.

المفردات : . ﴿دع﴾ : أى اترك ولا تبال.

﴿نكحتم﴾ : المراد بالنكاح هنا العقد.

﴿تعتدونها﴾ : أى تستوفون عدد أيامها. ﴿فمتعوهن﴾ : أى أعطوهن متعة تجبر الخاطر.

﴿سرحوهن سراحا جميلا﴾ : أى اسمحوا لهن بالخروج من منازلكم لأنه ليس لكم عليهن عدة. والسراح الجميل: هو المشتمل على الكلام الطيب، وليس معه منع حق ولا مطالبة بمال.

﴿أجورهن﴾ : المراد : مهورهن.

﴿أفاء الله عليك﴾ : أى مما أعطاك الله من سبى الكفار.

﴿وبنات عمك﴾ إلخ : أفرد العم والخال وجمع العمات والخالات جريًا على المعروف عند العرب، تراه كثيرا فى أشعارهم مثل :

(قالت بنات العم يا سلمى)، و (إن بنى عمك فيهم رماح). ويظهر أن منشأ ذلك تأثرهم بأن

(١) الكافرين (٢) المنافقين (٣) أذاهم (٤) آمنوا (٥) المؤمنات
(٦) أزواجك (٧) اللاتى (٨) آتيت (٩) عماتك (١٠) خالاتك
(١١) اللاتى (١٢) أزواجهم (١٣) أيمانهم

القرابة التى منشؤها الذكور تعتبر من جهة واحدة، ويعتبرون أبناء النساء أباعد عنهم، فهم يتعددون بتعدد آبائهم. ﴿وهبت نفسها للنبى﴾ : كان الأصل أن يقول وهبت نفسها لك لكنه سبحانه أظهر فيها مقام الإضمار للإشارة إلى أن الواهبة رغبت فيه؛ لأنه نبى الله لا لأنه محمَّد بن عبدالله.

﴿يستنكحها﴾ : تقول العرب نكح واستنكح بمعنى واحد، كعَجِلَ واستعجل، والمراد يتزوجها.

﴿خالصة لك﴾ : أى جعلنا هذه الأحكام السابقة من الزيادة على أربع نسوة وقبول هبة المرأة نفسها للرجل خاصة بك، أما غيرك فلا يزيد على أربع، ولا تصح الهبة له إلخ. ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم﴾ جملة توسطت بين الحكم السابق وبين حكمته الآتية فى ﴿لكى لا﴾ الغرض منها بيان أن ما شرعه سبحانه لرسوله ولأمته ناتج عن علم وحكمة.

﴿حرج﴾ : تضييق.

المعنى : - وبشر أيها النبى المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا هو نعيم الجنات، واثبت على ما أنت عليه، ولا تطع الكافرين فى عدم التعرض لآلهتهم، ولا المنافقين فى تخويفهم لك من اليهود إلخ ما سبق أول السورة صفحة ٥٤٨، ويوضح هنا ما سبق فى شرح الآية (٨٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٩، ٥٢٠، ودع أذاهم، أى لا تبال بإيذائهم لك بالدس الدنىء والقول الباطل كقولهم تزوج محمّد امرأة ابنه بسبب تمسكك بإنذارهم، واصبر على ما ينالك منهم، وتوكل على الله فى كل ما تفعل فإنه يكفيك شرهم، وكفى به موكولا إليه الأمور. ثم شرع سبحانه فى سد باب آخر من أبواب فتن المنافقين فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم﴾ إلخ: وإذا رجعت إلى ما تقدم فى شرح صفحة ٥٤٩ علمت مناسبة هذه الآية، وذلك أنه ﷺ كان تزوج ثم طلق قبل الدخول لسبب خارج عن إرادته، فسدًا لبَاب استغلال المنافقين بيَّن سبحانه حكم معاملة المؤمنين مطلقًا والرسول أولهم للمطلقات قبل الدخول، ومنه يعلم أن لاعيب على المسلم فى ذلك متى كان مستوفيًا شروطه. والمعنى : : إذا عقدتم على النساء ثم طلقتم قبل

الدخول فليس لكم عليهن أن ينتظرن أياما بدون زواج، وإذا كان الأمر كذلك فأعطوهن متعة تجبر خاطرهن، وهى تختلف باختلاف حال الزوج من عسر ويسر، فكل يدفع حسب قدرته، وأقلها كسوة كاملة تصلح أن تخرج بها المرأة من بيتها. والراجح أن لكل مطلقة متعة وهى غير مؤخر الصداق. وقد سبق تفصيل ذلك فى الآية (٢٤١) من سورة البقرة صفحتى ٤٩، ٥٠، واتركوهن يخرجن من منازلكم تركا جميلا خاليا من الأذى مشتملا على كلام طيب ليس معه مطالبة بمال ولا منع حق. ثم شرع سبحانه فى سد منفذ آخر من منافذ المنافقين التى يتسللون منها ليضللوا عقول البلهاء فيقولون: إن محمدا استحل لنفسه ما حرمه على أمته. وستعلم قبل الفراغ من هذا المبحث عند الآية (٥٢) حكمة كل تصرف من تصرفاته ﷺ فى هذا الموضوع؛ فقال سبحانه: يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيتهن مهورهن كعائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وسودة بنت زمعة، بفتح فسكون، رضى الله تعالى عنهن، وما ملكت يمينك من أسيرات الحرب، وهو ﷺ، وإن أباح له الله سبحانه معاشرة المملوكة بمجرد الملك لكنه لم يفعل ذلك، بل كل مَنْ ملكهن من هذا النوع أسلمن وأعتقهن وعقد عليهن ودفع لهن صداقا كجويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق التى سيأتى الكلام عنها. ثم ذكر سبحانه بعض ما أحله لنبيه ﷺ من النساء بعنوان آخر وإن كن داخلات فيما سبق للتنويه بفضلهن على غيرهن فقال: ﴿وبنات عمك﴾ إلخ: أى وأحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك، أى بنات القرشيين والقرشيات، وبنات خالك وبنات خالاتك، المراد بنات بنى زهرة ذكورهم وإناثهم. ثم وصف هؤلاء القرشيات والزهريات بالوصف الذى فضلهن على غيرهن فقال: ﴿اللاتى هاجرن معك﴾ والمراد مَنْ اشتركن معك فى الهجرة إلى المدينة ولو لم يتفق الزمن.

والمعروف أنه ﷺ دخل بقرشيات ولم يُعلم أنه تزوج واحدة من الزهريات..وإذا لاحظت الحكمة من هذا التفصيل وإنه إعلام من الله تعالى بالتوسعة على نبيه فى هذا الباب ليقطع ألسن المنافقين، تعلم أن المراد بالإحلال مجرد الجواز، وهو لا يستلزم أن يقع حصول كل ما ذكر. ثم وسع سبحانه على رسوله أكثر فقال: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت﴾ إلخ : أى أحللنا لك أيها النبى أية امرأة مؤمنة تهب نفسها لك، ولا تطلب مهرا، إن حصل ذلك، فالمراد إعلامه بحل هذا النوع أيضًا.

قال ابن عباس: هو بيان لحكم فى المستقبل ولم يكن عنده ﷺ امرأة بالهبة حتى فارق هذه الدنيا ولذا قال: ﴿إن أراد النبى﴾ إلخ؛ أى إن وقع من امرأة ذلك وأراد النبى أن يتزوجها فلا حرج عليه.

ثم زاد سبحانه فى إكرامه إرغاما لأنف المنافقين فقال: ﴿خالصة لك﴾ أى كل هذه الأحكام السابقة من كثرة الزوجات ومن قبول هبة المرأة نفسها جعلناه خاصا بك لا يحل لغيرك من بقية المؤمنين.

ثم قرر سبحانه مضمون هذه الخصوصية قبل أن يذكر الحكمة فى هذه التوسعة، فقال: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم﴾ إلخ : أى أبحنا لك كل ما ذكر لا عن نسيان، بل مع علمنا بما فرضتناه على المؤمنين فى أزواجهم من الأحكام، بأن لا يزيدوا على أربع، ولا يتزوجوا إلا بولى وشهود وصداق وأن يحافظوا على العدل بين الزوجات فى كل شىء داخل تحت طاقتهم.

وما فرضناه عليهم فيما ملكت أيمانهم بأن تكون الأَمة أسرت فى حرب دينية وهى مشركة وأن يضرب عليها الإمام الرق، وأن تستبرأ قبل الدخول بها إلخ. ثم بيَّن الحكمة فى تخصيص الرسول بهذه الأحكام فقال ﴿لكى لا يكون﴾ إلخ: أى أحللنا لك أزواجك على اختلاف أنواعهن بدون تحديد بعدد، والواهبة نفسها، لمنع التضييق عليك، وليعلم الجميع أن الله تعالى هو الذى أحل لك كل هذا، فيخفت صوت النفاق من قوم يظهرون أنهم مؤمنون بالقرآن وهم كاذبون؛ وهذا أشبه بما قيل فى أمثالهم فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥.

ثم بيَّن توسعة أخرى فقال ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ أى أنه سبحانه يغفر لك مالا يمكن الاحتراز عنه من الهفوات، رحيما بك حيث تولى صيانة كرامتك من أن يمسها المنافقون بسوء. ثم بعد كل هذا هل استعمل ﷺ كل ما أحله الله له أم كان أقل من غيره فى هذا الباب؟ هذا ما ستعلمه قريبا.

المفردات : ﴿ترجى﴾ : أى ترجئها وتؤخرها عن ليلتها المجددة لها إلى ليلة بعدها.

﴿تؤوى﴾ : أى تضم، والمراد تقدمها على غيرها.

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ

﴿ابتغيت﴾ : أى طلبت. والمراد : قربتها بعد تأخيرها. ﴿عزلت﴾ : أى تجنبت. والمراد: أبعدتها وأخرتها عن ليلتها.

﴿جناح﴾ : أى حرج ومؤاخذة.

﴿أدنى أن تقر أعينهن﴾: المراد : أن علمهن بذلك أقرب إلى اطمئنانهن وعدم حزن مَنْ ترجئها، لعلمها بأنك سترجعها، خصوصا بعد علمهن بأن هذا حكم من الله سبحانه وتعالى ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ : أى لا يحل لك أيها النبى امرأة بعد مَنْ عندك الآن.

﴿من أزواج﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده.

﴿إلا أن يؤذن لكم﴾ : يؤذن متضمنة معنى الدعوة ولذلك قال بعده ﴿إلى طعام﴾ : فإلى حرف جر متعلق بيؤذن أى إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى تناول طعام، فهى تشعر الا ينبغى الدخول لتناول الطعام بغير دعوة له ولو كان هناك إذن بمجرد دخول البيت. ﴿ناظرين﴾ : أى منتظرين.

﴿إناه﴾ : أى نضجه و ﴿إنى﴾ بوزن ﴿رضى﴾ بكسر أوله وفعله أنى يأنى بوزن رمى يرمى.. يقال: أنى الطعام أى استوى.

﴿ولكن إذا دعيتم﴾ : استدراك من النهى عن الدخول بغير إذن؛ لأن بعض النفوس تتأذى من الدخول بعد منعها حتى لو أذن لها فيه ثانيا، والمراد : أنه يجب إجابة الدعوة متى وجهت لما

(١) آتيتهن (٢) أزواج (٣) آمنوا (٤) ناظرين (٥) إناه
(٦) مستأنسين (٧) فيستحيى (٨) لا يستحيى (٩) متاعا (١٠) فاسألوهن.

يترتب على إغفالها من الجفاء وظن إهمال أو احتقار الداعى. ﴿فإذا طعمتم﴾ : أى أكلتم الطعام. ﴿فانتشروا﴾ : أى انصرفوا. وهذا خطاب لقوم مخصوصين وأمثالهم كما سيأتى بيانهم، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيته ﷺ بإذن لغير طعام، وكذا لما جاز المكث بعد الطعام ولو لأمر مهم. ﴿مستأنسين لحديث﴾ : أى يستأنس بعضكم لأجل سماع حديث زميله فيطيل الاستماع. ﴿متاعا﴾ : أى شيئا ينتفع به.

المعنى : . وأراد سبحانه أن يبيّن ما وسع به على نبيه من وجه آخر ليقضى على البقية الباقية من دسائس اليهود والمنافقين؛ وبيان ذلك أن الحكم السابق الذى شرعه الله تعالى للناس عامة وهو وجوب التسوية بين الزوجات فى كل شىء خصوصًا فى المبيت، فأبان سبحانه هنا أنه أباح لرسوله ما منعه على غيره، وأن الأمر متروك لاختياره: يرجى مَنْ يشاء من زوجاته ويؤخرها عن ليلتها، ويضم إليه مَنْ يشاء فيقدمها على غيرها، ثم إذا أبعد واحده منهن مدة فله أن يلغى هذا الإبعاد ويقربها إليه ثانيًا؛ لا حرج عليه فى شىء من ذلك. ثم بين سبحانه الحكمة فى هذا التخيير فقال: ﴿ذلك﴾ إلخ: أى هذا الذى فهم مما تقدم من علمهن بأن لك الخيار، وبأنك إذا عزلت واحدة كان لك أن ترجعها ثانيًا؛ هذا أقرب إلى سرور مَنْ تقربها، وإلى عدم حزن مَنْ ترجئها، لعلمها بأنك سترجعها، فيكنّ جميعا راضيات بما تصنع معهن، خصوصا بعد علمهن بأن هذا حكم من الله تعالى. والله سبحانه يعلم ما فى قلوبكم من زيادة ميل للبعض بحسب الطبع البشرى مما لا قدرة لكم على منعه؛ لأنه سبحانه دائم العلم بأحوال خلقه، حليم لا يؤاخذ على كل هفوة، بل يعفو عن الكثير كما فى الآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣. وإذا علمت مما تقدم أنه ﷺ لم يستعمل كل ما أحله الله تعالى له، فاعلم أنه هنا كذلك، فقد اتفق الرواة على أنه ﷺ كان شديد الحرص على العدل بين زوجاته فى كل شىء حتى فى كلمة التحية إذا قالها لإحداهن طاف على الجميع بها، وحتى فى السفر ما كان يأخذ مَنْ يريد، بل كان يقرع بينهن فمَنْ خرجت القرعة لها سافرت معه؛ فهو ﷺ لم يستعمل شيئًا مما أبيح له، ضبطًا لنفسه، وعملا بالأفضل، وليكون خير قدوة لأمته فى الحرص على الأحسن، فضلا عن الواجب. وبعد هذه التوسعة التى منحها له ربه للحكم التى

علمتها، وبعد أخذه ﷺ نفسه بالأفضل. فاسمع ما أكرم الله به زوجاته بعد ما اخترن البقاء معه كما فى آيتى (٢٨، ٢٩) السابقتين صفحة ٥٥٣، وما شدد به سبحانه عليه ﷺ مقابل ذلك حيث قال: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ أى من بعد الموجود عندك الآن. وكن عند نزول هذه الآية تسعا، فأصبحن فى حقه كأربع فى حق غيره. لا يجوز له الزيادة عليهن. بل شدد عليه أكثر من غيره فقال: ﴿ولا أن تبدل﴾ إلخ: أى ولا يحل لك أيضا أن تغير واحدة منهن بأخرى. بأن تطلقها وتتزوج مَنْ تريد، ولو فرض وأعجبك حسن مَنْ ليست عندك. لكن أحل الله تعالى لك بعد الآن ما تملكه يمينك من الجوارى فقط. ولم يأخذ من الجوارى بعد هذه الآية إلا مارية القبطية التى أهداها له ملك مصر. وكان الله على كل شىء رقيبا. فحافظوا على أوامره لأنه سبحانه سيحاسبكم عليها. وقبل أن ننتقل من هذا الموضوع يحسن أن نذكر ما يقطع ألسنة المبشرين بنير الإسلام، وأعداء الرسول الأكرم. كما قطع سبحانه ألسنة المنافقين. فنقول : لعلك علمت مما سبق أن الرسول ﷺ كان فى هذا الموضوع مُضيقًا عليه أكثر من غيره من أمته: فقد كان الحال قبل تحديد عدد الزوجات بأربع كما فى الآية (٣) من سورة النساء صفحتى ٩٧، ٩٨ أن كثيرا من المسلمين كان يجمع فى عصمته ما شاء من العدد. كما كان شائعا فى العالم فى ذلك الحين، ولما جاء التحديد بأربع أمر ﷺ مَنْ عنده أكثر أن يطلق ما زاد، ولكن أحل لهم الطلاق حتى من هؤلاء الأربع بشروطه، كما أباح لهم استبدال المرأة بغيرها بشروطه أيضا. هذا ما أجازه الشرع لكل مسلم إلى يوم القيامة. أما بالنسبة له ﷺ بعد أن خير نساءه واخترنه فقد حرم الله عليه غيرهن، كما حرم عليه طلاق واحدة منهن. ولا شك أن هذا تضييق شديد إذا قورن بما أبيح لفرد من أفراد أمته من الزواج متى شاء بمَنْ يشاء. وإنما لم يجز له ﷺ أن يقتصر على أربع ويطلق الباقى كما هو الحال مع غيره، لما فى ذلك من الإحراج والتضييق على مَنْ يطلقها، بعد أن جعلها الله تعالى أمًّا للمؤمنين، إكراما لها، كما تقدم فى الآية (٦) من هذه السورة صفحتى ٥٤٩، ٥٥٠؛ ولهذا حرم زواجهن بعد فراقه ﷺ كما فى الآية (٥٣) الآتية. فلو طلقهن ﷺ بعد ذلك فأين يذهبن؟ نعم كان يمكن ذلك عند تخييرهن إذا اختارت إحداهن الدنيا وطلقها ﷺ، فإن لها أن تتزوج؛ لأنها لم تمنح ميزة

أنها أم المؤمنين... ويحسن بنا أن نتعرض لبعض من ظروف زواجه ﷺ لتعلم منها صورة صحيحة لباقيها، ترفع عنك الشك، وتزيح الشبهة، فنقول : لما بلغ ﷺ من العمر ٢٥ سنة، رغبت فيه السيدة خديجة بنت خويلد، فأرسلت مَنْ يعرضها عليه ﷺ، فقبل وتزوجها، وكانت سنها عند ذلك ٤٠ سنة، أى أنها كانت فى حكم مَنْ تلده، وهذا عكس ما عليه الناس عادة، وعاش معها ٢٨ سنة، وفيًا لها لا يرغب فى غيرها حتى ماتت رضى الله عنها فى سنة الهجرة عن ٦٨ سنة. وكانت سِنّه ﷺ عند موتها أكثر من ٥٣ سنة، أى أنه قضى معها زهرة شبابه. ولما ماتت حزن عليها حزنا شديدا، طفحت به كتب التاريخ والسير؛ منه ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها، قالت : تذكر ﷺ خديجة يوما فأطنب فى الثناء عليها حتى أدركتنى الغيرة التى تدرك النساء، فقلت: يا رسول ما هذه العجوز من عجائز قريش التى مازلت تذكرها، وقد أبدلك الله خيرا منها! فتغير وجهه الشريف تغيرا شديدا لم أره إلا عند الشدائد، وقال: لا والله لم يبدلنى الله خيرا منها، وإنى لأعرف فضلها، وإنها لخير نساء العالم. قالت عائشة: فأقسمت ألا أتعرض لخديجة بعد ذلك أبدا.

وقالت عائشة أيضا: إنه ﷺ كان إذا ذبح شاة يقول: إرسلوا لصديقات خديجة. ويقول : إنى لأحب مَنْ كانت تحبه... فخبرنى بربك أيها القارئ هل هناك صورة فى الوفاء أروع من هذه الصورة؟

وهل هناك خلق أنبل من هذا الخلق الكريم؟ قاتلكم الله أيها المُنافقون، ويا أذناب المنافقين.

ثم كانت أول امرأة تزوجها بعد موت خديجة فى مكة قبل أن يهاجر بقليل هى السيدة سودة بنت زمعة القرشية، وكانت من السابقات إلى الإيمان؛ هاجرت من مكة إلى الحبشة هى وزوجها، وكان ابن عمها، وتركت أهلها، فرارا بدينها، ولما توفى زوجها ورجعت من الحبشة وقعت فى حرج شديد، إن رجعت لأهلها عذبوها حتى يردوها عن دينها كما كانوا يفعلون بغيرها، فماذا تصنع؟ عند ذلك أنقذها ﷺ بكفالتها، فتزوجها قبيل الهجرة، ولما هاجر لحقت به إلى المدينة.

ثم تزوج بعد ذلك بعائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، وكان أول مَنْ آمن بالنبى من الرجال وساعده بنفسه وبماله، ورافقه فى الهجرة، وصاحبه فى الغار، فكان ذلك مجاملة منه ﷺ لأبى بكر حيث رضيه صهرا، ولم يتزوج ﷺ بكرا غيرها.

ثم جاء بعد ذلك دور أكبر أنصاره ﷺ بعد أبى بكر، وهو عمر بن الخطاب، جرح زوج ابنته حفصة فى غزوة ومات من ذلك، وبعد انقضاء عدتها عرضها والدها على أبى بكر الصديق ليتزوجها فلم يجبه، فغضب عمر، ولما ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ ذهب عمر إلى زوجها عثمان بن عفان وعرض عليه زواج ابنته حفصة فلم يجبه أيضا، فذهب عمر إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه صاحبيه اللذين اختارهما لابنته المنكوبة فى زوجها، فقال له ﷺ : لا تحزن سيرزقها الله خيرا منهما. ففهم عمر قصده ﷺ وسر سرورا عظيمًا؛ لأنه حصل على أكبر أمنية كان يتمناها، وهى مصاهرة رسول الله. وبهذا سوى ﷺ بينه وبين أبى بكر وزيره الأول.

ثم جاء بعد ذلك دور أم سلمة هند بنت أبى أمية المخزومية؛ وكانت رضى الله عنها زوجًا لأبى سلمة عبدالله بن عبد الأسد من السابقين إلى الإسلام؛ أسلم بعد عشرة أنفس، وكان ابن عمه ﷺ وأخاه من الرضاعة، ولما اشتد إيذاء المشركين بمكة لمن يظهر إسلامه، هاجر عبدالله وأم سلمة إلى الحبشة فرارا بدينهما، وبعد هجرته ﷺ إلى المدينة رجع إليها عبدالله وزوجته، وجرح فى إحدى الغزوات، ومات بعد غزوة أحد، وترك زوجته أم سلمة، ومعها أربعة أولاد فى بلد غربة ليس لها مَنْ يعولها ويعولهم، فأرسل إليها ﷺ مَنْ يطلبها له، فقالت: إنى امرأة مسنة وصاحبة أولاد.

فقال ﷺ : أنا أسن منها، والأولاد رزقهم على الله، فقبلت وتزوجها.

ثم تزوج بعدها ﷺ السيدة زينب بنت جحش، وقد علمت كيف كان ذلك وما حكمته.

ولما جاءت سنة ٦ هجرية علم ﷺ أن بنى المصطلق وهى أكبر قبيلة فى خزاعة تستعد لمحاربته ﷺ تحت قيادة رئيسها الحارث، عند ذلك جهز جيشًا وخرج إليهم وقاتلهم فهزمهم، وأسر المسلمون رجالا ونساء وذرية، ولما قسمت الغنائم خرجت بنت كبير القوم وسيدهم وهى

جويرية بنت الحارث بن ضرار، من نصيب ثابت بن قيس، فطلبت من ثابت أن يكاتبها على مال تدفعه له لتكون حرة على الطريقة التى تقدم بيانها فى الآية (٣٣) من سورة النور صفحة ٤٦٢، فذهبت إلى رسول الله ﷺ تطلب منه المساعدة، ويظهر أنه ﷺ أدرك أن هذه القبيلة العريقة لو عوملت معاملة كريمة فى أسراها دخلت فى الإسلام طوعا، فعرض على جويرية أن يدفع لسيدها كل ما طلبه منها على أن تسلم ويتزوجها، فقبلت.

ولما ذاع زواجه ﷺ بها سارع المسلمون إلى عتق جميع ما بأيديهم من أسرى، وقالوا لا يحسن بنا أن يكون أصهار رسول الله أسرى بأيدينا، فأنقذت جويرية من الرق نحو مائة بيت وأسلم بسببها جميع بنى المصطلق؛ قالت عائشة رضى الله عنها: لا نعلم امرأة أكثر بركة على قومها من جويرية، مَنّ الله عليهم بالحرية والإسلام بسببها.

قال صاحب المنار : إنه ﷺ كان يرعى المصلحة فى اختيار زوجاته فى التشريع والتأديب، فربط به كبار الرجال والقبائل بالمصاهرة، وعَلّم أتباعه احترام النساء والعدل بينهن، وترك بعده منهن مَنْ يطمئن إلى نقلهن الأحكام التى لا يطلع عليها الرجال، لأنها من الأمور السرية التى تقع بين المرء وزوجه، ولكنها يجب أن يعلمها المسلمون.

ولو كان ﷺ يريد بتعدد الزوجات ما يريده أهل الدنيا من التمتع بالحلال فقط لاختار حسان الأبكار، ولما جمع فى عصمته هؤلاء العجائز من الثيبات فيهن ذوات الأولاد، حماه الله تعالى مما يفتريه المفترون. ولما كانت العرب أمة أمية بعيدة عن آداب الحضارة الرفيعة وكان فى نقلها مما هى فيه دفعة واحدة صعوبة، عالج سبحانه أحوالهم بالحكمة فى مناسبات عديدة، منها ما فى أول سورة الحجرات إلى آخرها صفحة ٦٨٤ وما بعدها، ومنها ما فى صفحات ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٧ إلى ٤٦٩، ومنها ما هنا؛ قال ابن عباس :

كان رجال من المسلمين ينتظرون أوقات طعام رسول الله ﷺ فيدخلون عليه فى بيته قبل الطعام ويجلسون إلى أن ينضج، ثم بعد الأكل لا يخرجون بل يستمرون يتسامرون، وكان ﷺ يتأذى من ذلك، ولكنه كان شديد الحياء، فأنزل سبحانه فى هؤلاء وأمثالهم:

﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا﴾ إلخ: المعنى : لا تدخلوا بيوت النبى فى حال من الأحوال إلا فى حال إذنه لكم لتناول الطعام، بشرط ألا تدخلوا قبله وتنتظروا نضجه. ولما كانت بعض النفوس ربما تتأذى من الدخول بعد منعها منه إلا بإذنه مهما أذن لها فيه ثانيا، أراد سبحانه أن يحذر من ذلك ويبين أنه يجب إجابة الدعوة متى وجهت لما يترتب على عدم إجابتها من التباغض، فقال سبحانه: ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانصرفوا، ولا تمكثوا مستأنسين لحديث بعضكم بعضًا، إذًا ما ذكر من الدخول بدون إذن والمكث بعد الطعام فوق المعتاد يؤذى النبى لضيق منازله ومنعه من الاشتغال بما يعنيه، فيستحيى من إخراجكم، ولكن الله تعالى لا يستحى من الجهر بالحق.

قال الزمخشرى : هذا أدب أدَّب الله به الثقلاء. وقالت عائشة رضى الله عنها:

يكفيك من الثقلاء أن الله سبحانه لم يتحملهم وأمرهم بالانصراف. ولما كان ذكر بيوت النبى ﷺ وسلم يشعر بأن فيها نساء، قال سبحانه ﴿وإذا سألتموهن﴾ إلخ: أى وإذا أراد أحدكم حاجة من إحدى زوجاته ﷺ فلا يكلمها إلا وبينه وبينها ساتر يحجبها عنه.

المفردات : . ﴿ذلكم﴾ : أى السؤال من وراء حجاب.

﴿أطهر لقلوبكم﴾ : أى أشد طهرا وأبعد عن الخواطر النفسانية؛ لأن نظر العين سبيل الفتنة.

﴿لا جناح﴾ : أى لا إثم.

﴿نسائهن﴾ : المراد بالنساء هنا المسلمات لأنه لا يضاف لأمهات المؤمنين غيرهن أما الكافرات فيجب الاحتجاب عنهن.

﴿ما ملكت أيمانهن﴾ : أى الأرقاء المملوكين لهن.

﴿يصلون على النبى﴾ : انظر معنى الصلاة فى شرح الآية (٤٣) السابقة من هذه السورة صفحة ٥٥٦.

ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا
رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ
ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي
آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ
وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ
وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا
عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا
فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل

﴿سلموا تسليما﴾ : أكد التسليم لاستغناء الصلاة عن ذلك بكونها يفعلها الله وملائكته.

﴿احتملوا﴾ : أى حملوا مع المشقة.

﴿بهتانا﴾ : أى كذبا شنيعًا.

﴿إثما مبينا﴾ : أى ذنبا ظاهرًا.

المعنى : سؤالكم من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن بإبعادها عن مثار الفتنة، والفتنة هنا أخطر أنواع الفتنة. وما صح لكم أن تفعلوا ما يؤذى رسول الله من الدخول بغير إذنه إلخ ما تقدم، وكذا من كلام نسائه بدون حجاب، ولا أن تتزوجوا نساءه من بعد موته احتراما له ولهن؛ لأن ذلك كان فى حكم الله خطئًا جسيمًا.

ولما كان سبحانه يريد المحافظة على احترام رسوله حيا وميتا، هدد مَنْ يخالف ما أمر به فيما سبق: بقوله ﴿إن تبدوا﴾ إلخ: أى إن تظهروا شيئًا مما يؤذيه، كأن تتحدثوا بتمنى زواج نسائه من بعده، أو تخفوه فى صدوركم، يجازكم الله به؛ لأنه عليم بكل شىء مما تظهرون وما تخفون. ولما كان تعميم منع مكالمة نساء النبى بما يشمل الآباء والأبناء إلخ فيه حرج شديد، رفع ذلك سبحانه بقوله ﴿لا جناح﴾ إلخ: أى لا إثم على نسائه ﷺ أن يكلمن بدون حجاب آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نساء المؤمنات ولا العبيد المملوكين لهن لشدة حاجتهن إليهم فى الخدمة، واتقين الله فيما أمركن به فلا تتجاوزن حدوده؛ لأنه على كل شىء شهيد لا يخفى عليه شىء، فاحذرن مخالفته. ثم أظهر

(١) أزواجه (٢) آبائهن (٣) أبنائهن.
(٤، ٥) إخوانهن (٦) اخواتهن (٧) نسائهن
(٨) أيمانهن (٩) ملائكته (١٠) آمنوا
(١١) الآخرة (١٢) المؤمنات (١٣) بهتانا.

لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن
جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ * لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ
ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا
أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ
السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا
أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا

سبحانه تشريفه لرسوله بما لم يعهد له مثيل حتى يحمل السامعين على احترامه حيًا وميتًا، فقال: ﴿إن الله وملائكته﴾ إلخ: أى إن الله يعطف على النبى فيرحمه. وملائكته تعطف عليه بالدعاء له. فيأيها الذين آمنوا برسالته اعطفوا عليه بطلب زيادة الرحمة له من الله. بأن تقولوا: اللهم صلى على محمد. مثلا. وسلموا عليه تسليمًا يليق بمقامه. بأن تقولوا السلام عليك أيها النبى مثلا. أى نطلب من الله لك الأمان فى الدنيا والآخرة.

ثم حذر سبحانه من الوقوع فى مثل افتراء المنافقين مع تهديدهم فقال: إن الذين يؤذون الله ورسوله بارتكابهم ما يكرهه الله ورسوله من الكفر والمعاصى لعنهم أى أبعدهم الله فى الدنيا والآخرة عن رحمته، وأعد لهم مع ذلك عذابا مهينا فى الآخرة. ثم جاء بحكم عام يشمل مَنْ آذى كل مؤمن ومؤمنة فقال: ﴿والذين﴾ إلخ: أى والذين يوقعون بمؤمن أو مؤمنة أذى من قول أو فعل فقد احتملوا بهتانا وذنبًا واضحًا وبعد ما هدد سبحانه المؤذين أراد إرشاد المؤمنين إلى طريق النجاة فقال ﴿يأيها النبى قل﴾ إلخ.

المفردات : ﴿يدنين﴾ : يرخين ويسدلن من الدنو بمعنى القرب. يقال: دنا الشىء أى قرب، ومنه ﴿قطوفها دانية﴾ الآية (٢٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣. ويقال أدناه غيره أى قربه منه، فالإدناء التقريب ولكنه ضُمِّن معنى الإسدال والإرخاء والمراد : يقربن ثيابهن من الأرض حتى لا يظهر إلا أقدامهن.

﴿جلابيبهن﴾ : جمع جلباب وهو ثوب ساتر لجسم المرأة تلبسه فوق ثيابها الداخلية.

(١) لأزواجك (٢) جلابيبهن (٣) المنافقون (٤) يسألك
(٥) الكافرين (٦) خالدين (٧) ياليتنا.

﴿أدنى أن يعرفن﴾ : أى أقرب إلى معرفة الحرة من غيرها.

﴿المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون﴾ إلخ : هم المنافقون الجامعون بين هذه الصفات القبيحة كما مر فى الآيات من (١٢ إلى ٢٠) من هذه السورة صفحات ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، وأصل الإرجاف الزلزلة، والمراد يزلزلون عقائد الناس بالإشاعات. ﴿لنغرينك بهم﴾ : أى نسلطنك عليهم. ﴿أينما ثقفوا﴾ : أى فى أى مكان وجدوا وأمكنت السيطرة عليهم. ﴿أخذوا﴾ : أى أسروا. ﴿وقتلوا تقتيلا﴾ : أى قتلوا أشد قتل لا شفقة معه. ﴿سنة الله﴾ : الأصل سن الله تعالى ذلك سنة. ﴿خلوا﴾ : أى مضوا. ﴿وليا﴾ : مواليا يحفظهم. ﴿نصيرا﴾ : ناصراً يدفع عنهم العذاب. ﴿وجوههم﴾ : المراد أجسامهم، وإنما عبر بالوجوه لأنها أشرفها. ﴿ياليتنا﴾ ﴿يا﴾ حرف أصل وضعه لإفادة نداء ما بعده ولكنه أريد به هنا تنبيه السامع لما يفيد التحسر والندم بعده.

المعنى : ـ روى أن النساء كن يخرجن ليلا لقضاء حاجاتهن فى النخيل والغيطان فى زى متحد لا يميز الحرة من الأمة، وكان فساق المنافقين يتعرضون للإماء طمعًا فيهن، وربما تعرضوا فى أثناء ذلك لحرة، فإذا رآهم أحد قالوا ظنناها أمة. فأمر سبحانه الحرائر بالاحتشام فى لبسهن ليتميزن عن غيرهن فقال تعالى: يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يسدلن على محاسن أجسامهن بعضا من جلابيبهن، انظر ما تقدم فى الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢؛ ذلك اللباس على هذا الحال أقرب لمعرفة الحرة من غيرها فلا يتعرضن لما يؤذى سمعتهن، وكان الله غفورا رحيما لما سلف من التفريط؛ ولهذا كان عمر رضى الله عنه فى خلافته يحرم على الإماء التقنع كالحرائر وهو القائل: (أتتشبهين بالحرائر يالكاع). ثم هدد سبحانه المنافقين بأنهم إذا لم يكفوا عن فتنتهم المشار إليها فى الآيات (١٢، ١٣، و ١٨، ١٩) ينزل عليهم غضبه، فقال: ﴿لئن لم ينته﴾ إلخ: أى وعزتى إن لم يكف هؤلاء المنافقون الذين جمعوا تلك الصفات الذميمة لنحرضنك على أن تفعل بهم ما يرغمهم على الجلاء، ثم لا يجاورونك فى المدينة بعد ذلك إلا زمنًا قليلا جدًا مقدار ما يلتقطون ما يستطيعون التقاطه، حال كونهم فى هذا الزمن القليل ملعونين من الله وملائكته،

ويكون من آثار هذا اللعن أنهم فى أى مكان ظفر بهم فيه أخذوا وقتلوا تقتيلا. سن الله تعالى ذلك سنة قديمة هى أن يشرد الذين نافقوا رسله وسعوا فى إضعافهم بالأكاذيب لن تتبدل سنته تعالى إذا استمر هؤلاء على نشر هذه الأكاذيب. ويظهر أن كثيرا منهم خاف واختفى، وقد نال جزاءه مَنْ ظهر كفره منهم. وكان اليهود يساعدون المنافقين فى زلزلة عقائد الناس، وكانوا يعرفون من التوراة أن موعد قيام الساعة لا يعلمه إلا الله سبحانه، فكانوا يسألون النبى ﷺ عن موعدها لعله يخطئ فيكذبونه، فقال سبحانه: ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ أى عن موعدها قل لهم إنما علمها عند الله. ثم هددهم وخوفهم فقال: ﴿وما يدريك﴾ إلخ: أى وما يدريك أيها السائل لعل زمن الساعة يكون قريبًا جدًا، فهل عملت ما ينقذك من هولها؟ ثم بين حال الكافرين عمومًا ظاهرهم ومنافقهم فقال: إن الله لعن الكافرين وأعد لهم نارا مستعرة، خالدين فيها أبدا لا يجدون مواليا يحفظهم، ولا ناصرا يدفع عنهم العذاب؛ لا يجد هؤلاء ناصرا يوم تقلب أجسامهم فى النار حتى وجوههم كما يتقلب اللحم الذى يشوى على النار، وهم يقولون ندمًا ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول، انظر الآية (٢٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣. ثم ذكر سبحانه ما سيعتذر به الأتباع منهم ولا ينفعهم فقال: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا﴾ إلخ.

المفردات : ـ ﴿سادتنا﴾ : ملوكنا وأمراءنا.

﴿كبراءنا﴾ : رجال الدين الذين علموهم ما فيه كفر ومعصية.

﴿ضعفين﴾ : أى قدر عذابنا مرتين لأنهم ضلوا وأضلونا معهم.

﴿الذين آذوا موسى﴾ : هم الذين أرسل إليهم فآذوه بقولهم: إنه مجنون فى الآية (٢٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١.

وساحر كذاب فى الآية (٢٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٠، ومهين أى حقير فى الآية (٥٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢.

﴿وجيها﴾ : أى صاحب جاه ومنزلة تجعله مستجاب الدعوة. ﴿سديدا﴾ : القول السديد هو

سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ
ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ
مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾
لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

الصادق الذى يراد به الوصول إلى الحق، مأخوذ من قولهم سدد السهم إذا وجهه للغرض فلم يخطئه.

﴿الأمانة﴾ : هى الصفات التى ميز الله سبحانه بها الإنسان عن غيره وكانت منشأ تكليفه بالطاعات، ليتميز مَنْ يشكره عليها فلم يستعملها إلا فيما يرضيه، عمَنْ أهمل ذلك. وهذه الصفات هى مجموع العقل المفكر المستنتج، وحرية الإرادة. والكلام جاء على سبيل التمثيل لتهويل أمر هذه الأمانة والإشعار بفخامتها. فالمعنى: أن هذه الأمانة بلغت منزلة فى العظم بحيث لو كلفت بمراعتها الأجرام العظام التى يضرب المثل بقوتها، وكان فيها إدراك لا متنعت عن قبولها وخافت من التقصير فى واجباتها. وهذا أسلوب عربى فصيح يعمد إليه العرب إذا أرادوا تصوير أمر مفروض بصورة أمر محقق لزيادة تحقيق المعنى وتوضيح المقصود. وهناك معان أخرى للأمانة أوردناها فى شرح حديث رقم ٦٤٥ من كتابنا (صفوة البخارى). ﴿فأبين﴾ : أى امتنعن. ﴿أن يحملنها﴾ : يقال لم يحمل فلان الشىء أى لم يقم بمقتضاه. وانظر عدم حمل بنى إسرائيل للتوراة فى الآية (٥) من سورة الجمعة ٧٤١.

﴿أشفقن﴾ : أى خفن. ﴿الإنسان﴾ : المراد الإنس والجن. ولكنه اقتصر هنا على الإنسان؛ لأن المقام فى تعداد جرائمه. (إنه كان ظلومًا جهولاً): توسطت هذه الجملة بين الفعل وهو (حملها) ونتيجة وهى (ليعذب) إلخ: للمساعدة بإفادة عدم وفاء الإنسان ﴿ليعذب الله﴾ إلخ:

(١) آتهم (٢) آمنوا (٣) آذوا (٤) آمنوا (٥) أعمالكم (٦) السموات
(٧) الإنسان (٨) المنافقين (٩) المنافقات (١٠) المشركات (١١) المؤمنات.

هذه اللام تسمى لام العاقبة والنتيجة لما قبلها كما فى قوله ﴿ليكون لهم عدوا﴾ الآية (٨) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

المعنى : . وقال الكافرون لما رأوا العذاب معتذرين عذرًا غير مقبول : يا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا عن سبيل الحق، يا ربنا عذبهم مرتين : مرة بضلالهم، وأخرى بإضلالهم لنا، وأطردهم عن رحمتك طردًا أبديًا، وهذا منهم مع إنه شبه اعتذار فيه تشف ممَنْ تسببوا فى هلاكهم، انظر الآية (٦١) من سورة ص صفحة ٦٠٣. ثم وجه سبحانه الخطاب للمنافقين الذين يدعون الإيمان فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ إلخ: أى يا مَنْ تظهرون أنكم آمنتم لا تؤذوا نبيكم بما تشيعونه عنه من أنه تزوج امرأة ابنه، وأنه يتمتع بما حرمه على غيره، إلى غير ذلك، فتكونوا كالذين آذوا موسى، وتكون العاقبة أنه سبحانه يبرئ نبيه محمدًا كما برأ موسى من قبل، وجعله ذا منزلة رفيعة.

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا الصدق فقط، أى لا تقولوا كذبًا، فإنكم إن فعلتم ذلك توبة مما سبق يوفقكم الله لصالح الأعمال كما فى الآية (٧٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨. ويغفر لكم ذنوبكم السابقة؛ لأنكم بعملكم هذا كنتم مطيعين لله، ومَنْ يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا. ثم أراد سبحانه أن يوضح عظيم منزلة الطاعة، وأنها أهل لفوز صاحبها هذا الفوز العظيم، فقال سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ : أى أن منشأ التكاليف من تلك الصفات الجميلة بلغت فى خطورة تبعاتها أنها لو عرضت على السموات والأرض والجبال لرفضتها خوفًا من نتائجها، لكن جنس الإنسان الذى أكثره بالغ غاية الظلم لنفسه ولربه، وغاية الجهل بعاقبه الأمور، فرح بها وقبلها، وصار يفتخر بأنه ممتاز على غيره بها، غير مقدر لعاقبة التفريط فيها، انظر الآية (٢) من سورة العصر صفحة ٨٢٠. ثم بيَّن سبحانه عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة فقال: ﴿ليعذب الله﴾ إلخ: أى لتتحقق العدالة الإلهية، فيعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات على عدم قيامهم بواجب الشكر على ما أنعم الله تعالى عليهم من نعمة العقل والحرية، ويقبل سبحانه توبة المؤمنين والمؤمنات مما عسى أن يقع منهم؛ لأنه تعالى كثير المغفرة والرحمة لعباده المتقين، والله تعالى أعلم.

سورة سبأ



بسم الله الرحمن الرحيم

المفـــردات: ـ ﴿يلج فى الأرض﴾: يدخل فيهـا. ﴿من السمـاء﴾: المراد من جهة العلو. ﴿يعرج فيهـا﴾: ﴿يعرج﴾ أى يصـعـد و (فى) حرف بمعنى (إلى).

(بلى): حرف يدل على إبطال نفى ما قبله وإثبـات نقـيـضـه، انظرشـرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

(لايعزب، ومثقال، وذرة، ولا أصغر، ﴿وكتاب مبين﴾: تقدم كل هذا فى الآية (٦١) من سورة يونس صفحتى ٢٧٥، ٢٧٦.

ولا فرق، إلا أن هناك أصغر وأكبر معطوف على ذرة، وهنا مبتدأ مرفوع، وخبره إلا فى كتاب.

المعنى: ـ تتضمن هذه السورة إثبات مقاصد ثلاثة ككل السور المكية وهى: إثبات وحدانية الإله، ورسالة الرسل، واليوم الآخر، وستـرى فى هذه السورة أن من ينكر البعث تارة يكتفى بمجرد الإنكار كما فى الآية (٣)، وتارة بالاستهزاء كما فى (٧، ٨)، وتارة بإظهار جهل ميعاده كما فى (٢٩). ثم بيَّن الحكمة فى البعث فى آيتى (٤، ٥)، وحارب الشرك فى الآيات من (٢٢ إلى ٢٧) ومن (٤٠ إلى ٤٢)، ثم حذر منكرى الرسالة بما سيحصل لهم يوم القيامة فى الآيات من (٣١ إلى ٣٩) ومن الآية (٤٣) إلى آخر السورة، وبيَّن فيما بين كل ذلك قدرته سبحانه على

(١) السموات (٢) الآخرة. (٣) عالم. (٤) السموات (٥) كتاب (٦) آمنوا (٧) الصالحات.

كل شىء، وعلمه بكل شىء، واستدل بما هو مشاهد فى خلق السموات والأرض، وبما فعله مع داود وسليمان، فقال سبحانه: الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا وعبيدا، فهو سبحانه لكمال قدرته وتمام نعمته يستحق الثناء كله فى الدنيا، كما أنه يستحق كل ثناء فى الآخرة؛ لأن ما فيها من نعيم من فضله يحمده عليه المؤمنون، انظر الآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧، وهو سبحانه الحكيم فى تدبير أمر السماء والأرض، الخبير ببواطن الأمور، ثم أكد ذلك بأنه يعلم كل ما يدخل فى باطن الأرض من أجزاء الأموات وقطرات الماء إلى غير ذلك، ويعلم ما يخرج من الأرض من الأجزاء التى تكون منها جسم الإنسان، كما فى الآية ٥٥ من سورة طه صفحة ٤١٠ والنبات وغير ذلك، ويعلم كل ما ينزل من جهة السماء من الأمطار والملائكة والبلايا والأرزاق الخ، ويعلم كل ما يصعد إلى جهتها كالملائكة وأعمال العباد كما فى الآية (١٠) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٢، ٥٧٣، وهو سبحانه كثير الرحمة لعباده الغفور للمذنبين إذا رجعوا إليه وبعد ما بين سبحانه شمول قدرته وعلمه لكل شىء، وهذا يقتضى قدرته على بعث الخلق يوم القيامة، ذكر أقوال المنكرين الباطلة بقوله: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ أى القيامة، قل لهم أيها النبى: بلى، أى قولكم باطل، وعزة ربى لتأتينكم الساعة، ثم بين ما يجعلها يسيرة الحصول عليه سبحانه فقال: (عالم) أى ربى عالم الغيب لا يغيب عن علمه وزن أصغر جسم فى السموات ولا فى الأرض. ثم أكد هذا بجملة ولا أصغر من الذرة ولا أكبر إلا وهو مسجل فى كتاب تام البيان وهو اللوح المحفوظ، ولم يأت الأمر بالقسم به إلا فى ثلاثة مواضع من القرآن: فيما هنا، وفى الآية (٥٣) من سورة يونس صفحة ٢٧٤، وفى الآية (٧) من سورة التغابن، وكلها فى الرد على مَنْ ينكر البعث، ثم بين سبحانه الحكمة فى بعث الخلق يوم القيامة فقال: (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الخ.

المفردات: ـ ﴿سعوا فى آياتنا معاجزين﴾: تقدم فى الآية (٥١) من سورة الحج صفحتى ٤٤، ٤٤١. ﴿رجز﴾: أشد العذاب وأقبحه، وانظر بقية معانيه فى شرح كلمة

أُولَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْ[1] فِىٓ ءَايَٰتِنَا[2] مُعَٰجِزِينَ[3] أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ[4] الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْءَاخِرَةِ[5] فِى الْعَذَابِ وَالضَّلَٰلِ[6] الْبَعِيدِ ۝ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً[7] لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا[8] دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ[9] أَوِّبِى مَعَهُۥ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ

(رجس) الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥. ﴿الذين أوتوا العلم﴾: هم علماء أهل الكتاب الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأمثاله.

﴿هل ندلكم﴾: أرادوا بهذا الاستفهام السخرية بالنبى ﷺ، ولذا تجاهلوه وقالوا عنه: ﴿رجل﴾ كأنهم لا يعرفونه. ﴿ممزق﴾. مصدر ميمى على وزن اسم المفعول.

﴿جنة﴾: جنون. (بل): حرف يفيد إبطال ماقبله وإثبات مابعده. ﴿كسفا﴾: جمع كسفة كقطعة وزنا ومعنى. ﴿منيب﴾: راجع إلى ربه بالتوبة. ﴿أوبى معه﴾: التأويب الترديد والترجيع، والمراد رجعى التسبيح لله معه وتنزيهه عن كل نقص، انظر الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨، والآية (١٩) من سورة ص صفحة ٥٩٩. ﴿والطير﴾: المراد وسخرنا الطير تسبح معه أيضًا، انظر صفحة ٥٥٩ المشار إليها. ﴿وألنا له الحديد﴾: ظاهر قوله تعالى فى الآية (٨٠) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٨، ٤٢٩ ﴿وعلمناه صنعة لبوس.. إلخ﴾ يدل على أنه سبحانه علمه كيف يلين الحديد وكيف يصنع الدروع.. إلخ، كما علم نوحا عمل السفينة فى الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩.

المعنى: . إن الله تعالى لم يقدر بعث الخلائق يوم القيامة إلا لأنه عادل قادر حكيم، لايترك الظالم بدون عقاب، ولا المحسن بدون مكافأة، فقد يطغى جبار فى الدنيا بالقتل والسلب، ويبقى معتزا بطغيانه إلى أن يموت، فإذا لم يكن هناك دار يقتص فيها للمظلوم من ظالمه لايتحقق العدل الإلهى. هذا ماأشار إليه سبحانه بقوله: ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ إلخ: وبما فى الآية (٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، أى ليكافئ المؤمنين العاملين للصالحات بغفران ذنوبهم، ومنحهم رزقا حسنا فى الجنة لاتعب فيه ولا من عليه. أما الذين أجهدوا أنفسهم فى

(١) سعوا. (٢) فى آياتنا. (٣) مماجزين. (٤) صراط. (٥) بالآخرة.
(٦) الضلال. (٧) لآية. (٨) آتينا. (٩) ياجبال.

محاربة القرآن لإعجاز الرسول عن أداء رسالته، فهؤلاء جزاؤهم عذاب من أشد أنواع العذاب إيلاما فى جهنم، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠.

ثم أكد بطلان قول الكفار بعدم البعث باعتراف علماء أهل الكتاب فقال: (ويرى) أى ويعلم علماء أهل الكتاب أن القرآن الذى أنزل إليك من ربك وفيه البعث والجزاء هو الحق الذى لاشك فيه، وهو الذى يهدى إلى الطريق الموصل إلى الله، العزيز الذى لا يغلب، الحميد الذى يستحق الحمد الكثير. وقال كفار قريش يخاطب بعضهم بعضا استهزاء به ﷺ: هل ندلكم على رجل يحدثكم بأمر عجيب هو أنكم إذا متم ومزقت الأرض أجسامكم كل تمزيق حتى صرتم ترابا فستبعثون أحياء حياة جديدة. هل افترى أى اختلق هذا الرجل على الله كذبا فنسب إليه باطلا أم هو مجنون يقول مالا يعقل؟ فأبطل سبحانه كلامهم بقوله: (بل) أى لم يكذب محمد ﷺ على الله ولم يكن مجنونا، بل الحقيقة أن هؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة هم الذين اختلت عقولهم فوقعوا فى العذاب والضلال الذى أبعدهم عن الحق. ثم وبخهم على إهمالهم النظر فى الأدلة المحيطة بهم وهددهم فقال: ﴿أفلم يروا﴾ إلخ: أى هل عموا فلم ينظروا إلى مايحيط بجوانبهم من السماء والأرض فيعلموا أنهم ليسوا أشد خلقا منها كما فى الآية (٢٧) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠، وإننا إن نشأ نخسف بهم الأرض كما فعلنا بقارون فى صفحة ٥١٨، أو نسقط عليهم قطعا من جهة السماء تهلكهم كالظلة التى أهلكت أصحاب الأيكة فى آيتى (١٨٧، ١٨٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١، ولن يستطيعوا الفرار من السماء والأرض كما فى الآية (٣٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. إن فى كل ماذكر لأدلة واضحة على قدرتنا ينتفع بها كل عبد راجع إلى ربه فى كل شىء. ثم ذكر سبحانه أدلة أخرى شاهدة على كمال قدرته وشمول نعمته فقال: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا﴾ من النبوة والملك وكثرة الجنود، وقلنا ياجبال رددى معه تنزيه الله عن كل نقص كما يردد، وسخرنا معه الطير تردد معه كذلك، وقد ورد أن الله سبحانه كان أعطاه صوتا خاشعا جميلا، كان إذا سبح الله به يشعر السامع أن كل مافى الكون يسبح معه، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ القرآن فى الليل فوقف ﷺ يستمع لقراءته متأثرا بها، ثم قال: لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير داود، وماسمعت صوت آلة لهو مهما رق صوتها أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى فى تأثيره فى سامعه رضى الله عنه؛ ومن فضلنا على داود أننا ألنا له الحديد... إلخ.

ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ

المفردات: ﴿سابغات﴾: السابغ هو التام الكامل، والمراد دروعا. ﴿قدر﴾ من التقدير، وهو جعل الشىء على قدر الحاجة. ﴿فى السرد﴾: أي النسج ﴿غدوها شهر﴾: أى جريها بالغدوة مقدار سير شهر بالسير العادى السريع والغدوة بضم فسكون هى من أول النهار إلى الظهر، وفى كتب اللغة مابين الفجر وطلوع الشمس ﴿رواحها شهر﴾: الرواح: اسم للوقت من الظهر إلى الغروب.

﴿أسلنا﴾: أى أذبنا. ﴿عين القطر﴾: القطر: النحاس المذاب، وعين القطر: يعنى ذات النحاس كما تقول عين الشىء: أى الشىء نفسه والله أعلم. (يزغ): أي ينحرف عن أمرنا بسبب عصيانه لسليمان. (السمير): نار ملتهبة في الدنيا، والعرب تطلق بعض أسماء مافي الآخرة علي مافي الدنيا، انظر الآية (٩٧٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، ويصح أن يكون المراد في الدنيا والآخرة وهذا أشد تهديدا. (محاريب): جمع محراب والمراد به هنا المكان المرتفع كالقصر ﴿تماثيل﴾: جمع تمثال وهو الصورة المجسمة لما فيه روح. وكان هذا جائزا في شريعتهم وحرمه الإسلام بشروطه. ﴿جفان﴾: جمع جفنة بفتح فسكون وهي القصعة الكبيرة. ﴿الجواب﴾: أصلها الجوابي وواحدها الجابية، وهي الحوض الكبير. ﴿قدور راسيات﴾: القدور واحدها قدر وهو مايطبخ فيه. وراسيات ثابتات لاتنزل لعظمتها. ﴿قضينا عليه الموت﴾: المراد حكمنا عليه به ونفذناه، حكى ابن كثير فى البداية والنهاية فى سياق كلامه على إبراهيم عليه السلام أن سليمان مات

(١) سابغات. (٢) صالحا.
(٣) لسليمان. (٤) محاريب.
(٥) تماثيل. (٦) راسيات.
(٧) آل. (٨) لسبأ.
(٩) آية.

فجأة. ﴿دابة الأرض﴾: الأرض هنا مصدر، تقول العرب أرضت الخشبة، بضم الهمزة وكسر الراء ورفع الخشبة على أنها نائب فاعل، أرضا بفتح فسكون إذا أكلتها الأرضة بفتحات وهى دابة تفتك بالخشب فى أسرع وقت، فالمعنى دابة أكل الخشب ﴿منسأته﴾: عصاه. ﴿خر﴾: سقط. ﴿لبثوا﴾: أى مكثوا. ﴿سبأ﴾: هى قبيلة سبأ. ﴿فى مسكنهم﴾: موضع سكنهم وهو مأرب بوزن منزل، من بلاد اليمن، بينها وبين صنعاء نحو مائة كيلو متر. ﴿آية﴾: أى دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى. ﴿جنتان﴾: المراد طائفتان من البساتين ﴿عن يمين وشمال﴾ أى قسم من البساتين عن يمين المقبل عليهم والأخرى عن شماله ولكنها متقاربة حتى كأنها بستان واحد.

المعنى: . وألنا لداود الحديد، وقلنا له اعمل دروعا كاملات من كل وجه. وعبر سبحانه عن هذا بأنه علمه صنعة عمل الدروع، انظر الآية (٨٠) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٨، ٤٢٩ كما علم نوحا عمل السفينة الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩. وقلنا له ولآله اعملوا ياآل داود كما فى الآية (١٣) الآتية كل الأعمال الصالحة لدينكم ودنياكم، إنى بما تعملون بصير، وسأجازيكم أحسن الجزاء؛ وقبل أن نتناول الآيات التى تحدثت عن سليمان نبى الله يجب أن نعرض لما قاله المفسرون قديما وحديثا فى تحديد ملك سليمان، وفى انتفاعه بهذه الريح، وماقاله العلماء المعاصرون عن المراد بالجن، وعلى ضوئه يمكن فهم الآية فهما صحيحا.

أما تحديد ملكه: . فقد قال جمهور المفسرين إنه كان يشمل الشام على حدودها القديمة، وجزءا من العراق، وفى آخر أمره استولى على ملك سبأ فى جنوب الجزيرة العربية، انظر الآيات من (٢٢ إلى ٤٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٦ ومابعدها، والآية (١٥) ومابعدها هنا. وقال النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فى كتابه المسمى بالعرائس صفحة ٣٢٥ مايأتى: وقال مقاتل: كان سليمان عليه السلام أعظم مُلكا من أبيه داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبدا من ابنه سليمان. وكان ملك سليمان مابين الشام إلى إصطخر (مدينة فى إقليم بلوخستان من بلاد الفرس القديمة). وقيل إنه ملك الأرض كلها. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران؛ فأما المؤمنان فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران فالنمرود ابن كنعان وبختنصر). انتهى كلام النيسابورى.

نقول إن صح هذا الكلام يكون المراد من الأرض أرض المنطقة التى كان فيها لا الكرة

الأرضية، انظر ماقيل عن ذى القرنين وملكه فى سورة الكهف فإنه لم يملك إلا منطقة معينة. وكذلك النمرود وبختنصر فلم يملكا غير جزء معين من الأرض.

وأما انتفاعه عليه السلام بالريح: . فقال جمهور المفسرين إنها كانت له بمنزلة الطائرة فى زماننا، يستعملها فى تنقلاته.

وقال الشيخ النجار فى كتابه (قصص الأنبياء) إنها كانت تُسَيِّر له السفن فى البحار، وقال بعضهم كانت تحمل السحاب الممطر ليسقى له الزرع، ويحيى الأرض الميتة. لكن المتأمل لهذه الآيات يرى أن قوله تعالى ﴿تجرى إلى الأرض التى باركنا فيها﴾ الآية (٨١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩، يُبعد أنها لتنقلاته، لأن تلك الأرض هى مملكته أو جزء منها فالمناسب أنها تجرى منها إلى غيرها، ولو أراد التنقلات داخل مملكته فقط لقال تجرى فيها، وقوله عاصفة لايناسب الركوب. ولعل الأقرب إلى الفهم هو القول إنها كانت مسخرة لحمل السحاب الممطر الذى عليه حياة الإنسان، والحيوان، والزرع.

وقوله: (رخاء) على هذا معناه أنها ذلول، سهلة القياد لما يريده منها ومما يساعد القول الأول فى تحديد ملكه قوله إلى الأرض التى باركنا فيها، ولم يصف القرآن الأرض بالمباركة إلا أرض الشام، وأيضًا لو كان يستعملها فى تنقلاته؛ لما كان فى حاجة إلى السفر الطويل مع جنده على الأرض حتى كاد يبطش بالحيوانات كما فى الآية (١٨) من سورة النمل صفحة ٤٩٦.

أما عن قول العلماء فى قوله تعالى: ﴿ومن الجن مَنْ يعمل بين يديه﴾ إلخ: فقد قال بعض المعاصرين من العلماء: إن المراد بالجن هنا هم المتمردون من الإنس، الخارجون على النظام، وحجتهم فى ذلك أن الجن المعروف يعلم كل مايحصل فى المحيط الذى يوجد فيه، وموت سليمان حصل وهم موجودون بل قريب منه كما يروى، فكيف لايعلمونه؟

وهذا مردود من وجوه.

الأول: . أنه ليس فى اللغة ولا فى القرآن طبعا إطلاق الجن على الإنس، وإنما الذى ورد إطلاقه عليهم هو لفظ ﴿شياطين﴾ كما فى الآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١.

الثانى: . أن القرآن جعل الإنس قسما مقابلا للجن، مباينا له، انظر الآية (١١٢) المشار

إليها هنا والآية (١٢٨) من سورة الأنعام أيضًا صفحة ١٨٤ والآية (٦) من سورة الناس صفحة ٨٢٧.

الثالث: . أن الجن ماكانوا يعلمون كل مايحصل فى الوجود خصوصا ماكان من الأمور غير المنظورة كخروج الروح حتى لو كان قريبًا منهم، ودليل ذلك عدم علم الكثير منهم الذى كان بعيدا عن مكة بنزول القرآن على خاتم الرسل ﷺ إلا بعد أن سمعه نفر منهم وذهبوا إليهم وأخبروهم بما سمعوا، انظر الآيات من (٢٩ إلى ٣٢) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧٠، ٦٧١، والآية (١) ومابعدها من سورة الجن صفحة ٧٧٠ ومابعدها، وأيضًا اعترفوا بجهلهم بحكمة إرسال الرسول فى الآية (١٠) من سورة الجن أيضا صفحة ٧٧١ ومن الآية (٨) من نفس السورة تعلم أنهم لم يعلموا أن السماء ملئت حراسا إلا بعدما قاربوها للتسمع ولو كانوا يعلمون الغيب بطريق غير مألوف لعلموا وهم على وجه الأرض.

فمن مجموع هذا يعلم أن الحق فى الموضوع أن الجن كالإنس خاضع للنظام الذى وضعه سبحانه لخلقه، وكيف يعلم بعض خلقه مالا يعلمه الآخر فالله سبحانه لم يمكن الجن من علم كل غيب عن الإنسان، بل يمنعهم عما يريد منعهم منه حتى لو حصل فى الخارج ماداموا لم يصلوا إلى علمه، ومنه خروج روح نبى الله سليمان، بل قد منعهم الله سبحانه من أن يتصرفوا كما يريدون فى كل شىء حتى التمثل بالنبى ﷺ، ففى الحديث الصحيح قال ﷺ: (مَنْ رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فإن الشيطان لايتمثل بى) والشيطان من الجن كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨. قال القاضى عياض: منع الله الشيطان من أن يتصور فى صورته ﷺ لئلا يتوصل بذلك إلى الكذب على لسانه صلوات الله عليه، فيلتبس الحق بالباطل، ولا يوثق بما جاء فى عهد النبوة. ويكون معنى الآية تبينت الجن أنهم لو كانوا يعلمون كل غيب مامكثوا فى العمل الشاق بعد موت سليمان، أى فهم كغيرهم من بنى الإنسان إلا أنهم للطافة أجسامهم، وخفتها، وسرعة تحركهم، يمكنهم الإطلاع على بعض مايحصل فى الوجود، ويخفى على بعض أفراد الإنسان، وهذا النوع من الغيب يسمى الغيب الإضافى الذى يعتبر غيبا بالنسبة للبعض دون البعض، وهو يحصل للإنسان نفسه مع الإنسان الآخر فقد يعلم إنسان شيئًا ويجهله غيره، وذلك كالقرار الذى تتفق عليه المحكمة فى غرفة المداولة السرية، فهذا الحكم قبل إعلانه غيب يجهله كل الناس حتى المتهم، ويعلمه أعضاء المحكمة فقط. أما الغيب

المطلق فهو الذى لايعلمه إلا الله، كقيام الساعة، وأعمار الخلق، ومايحصل لهم فى المستقبل من رزق، وصحة، ومرض، وأمثال ذلك.

هذا ماكان يجب ذكره من أقوال العلماء قبل أن نتناول الآيات بالتفسير، والآن نعود إلى قوله تعالى: ﴿ولسليمان الريح﴾ إلخ والمراد: وسخرنا لسليمان نبى الله ابن داود الريح تحرك الشىء الذى يركبه إلى مايريد، وكان سيرها فى نصف النهار كالسير العادى السريع فى شهر، وأذبنا لسليمان النحاس، قيل جعله يسيل له كالماء، وقيل علمه كيف يذيبه؛ وسخرنا له من الجن مَنْ يعمل تحت إشرافه فى إخراج اللؤلؤ من البحار وبناء القصور والحصون كما فى الآية (٣٧) من سورة ص صفحة ٦٠١ إلى غير ذلك مما سيأتى، كانت تعمل بأمر الله تعالى لها. ومَنْ يعص منهم نذقه من عذاب السعير فى الدنيا والآخرة؛ تعمل هذه الشياطين له مايشاء من قصور وحصون وتماثيل وقصاع كبيرة جدا لكثرة الآكلين، وقدور ثابتات لكبرها لاترفع من مكانها، وقلنا لهم اعملوا ياآل داود كل عمل صالح لتكونوا شاكرين لله نعمه عليكم، ولاتكونوا كأكثر الناس المقصرين. وقليل من عبادى من يشكر ربه حق شكره، بصرف جميع ماأنعم الله به عليه فيما خلق له، انظر الآية (٢٤) من سورة ص صفحتى ٥٩٩، ٦٠٠، ولما كانت سلطة تسخير الشياطين لم يعطها الله تعالى إلا لنبيه سليمان كما فى الآية (٣٥) من سورة ص صفحة ٦٠١، أراد سبحانه أن يبين كيف فرحت الشياطين بموته فقال: فلما قضينا عليه الموت وكان واقفًا متكئًا على عصاه فى وضع جعله يحفظ توازن جسمه وهو ميت فلم يسقط، فسخر الله تعالى الأرضة أكلت أسفل العصا، فوقع سليمان على الأرض، عند ذلك علمت الجن أنه مات، وعلموا أنهم جهلة فى علم الغيب الذى كانوا ضللوا الناس به، وإلا لو كانوا يعلمون الغيب حقا لما مكثوا فى العمل الشاق لحظة بعد موته، ولم يصح فى تحديد المدة التى قضاها سليمان متكئًا على عصاه وهو ميت حديث، وإنما الذى يجب أن يلاحظ أنها مدة تليق بنبى ملك له أتباع وخدم يرقبون أوقات حاجاته. أما الأرضة فإن منها نوعا يتلف أضخم خشبة فى دقائق، يعرف ذلك أهل السودان وهو أقرب البلاد لديارنا. وبعد ما بيَّن سبحانه مافعله مع مَنْ يشكره أراد أن يبين حال مَنْ ينكر فضله تحذيرا لقريش فقال: (لقد كان لسبأ) إلخ: أى لقد كان لهذا الحى من سبأ فى مسكنهم باليمن دليل على قدرة الله تعالى وفضله لو تنبهوا له لما حصل لهم ماحصل، ثم بين هذه الآية بأنها جنتان: واحدة عن يمين المقبل على واديهم والأخرى على شماله، وقيل لهم كلوا من رزق ربكم واشكروا له فضله على هذه البلدة التى مكنكم الله منها، وهى بلدة طيبة... إلخ.

طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ
الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم[1] بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ
وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم[2] بِمَا كَفَرُوا
وَهَلْ نُجَازِي[3] إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا[4] فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً[5] وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ
سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ[6] ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ[7] بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ[8] أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ[9]
كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ[10] لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾
وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ[11] إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ[12] مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ

المفردات: . ﴿سيل العرم﴾: العرم جمع (عرمة) بوزن كلمة وهى الحجارة المرصوص بعضها فوق بعض كخزان أسوان بمصر، جعلوها سدا بين جبلين ليحجز ماء المطر، وجعلوا فيه فتحات يأخذون منها بقدر الحاجة، فكثر زرعهم وفواكههم. ﴿جنتين﴾: سمى هذا البدل (جنتين) على سبيل التهكم لزيادة حسرتهم. ﴿أكل﴾: أى ثمر، انظر الآية (٣٣) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥. ﴿خمط﴾: مر، بشع الطعم. ﴿أثل﴾: هو نوع من شجر الطرفاء لكنه كبير الحجم يسميه المصريون ﴿إتل﴾ بكسر أوله وتاء مثناه بدل الثاء المثلثة ﴿سدر﴾: هو شجر النبق بفتح فسكون. ﴿هل﴾: للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، أى لانجازى إلا شديد الكفر. ﴿القرى التى باركنا فيها﴾: هى قرى الشام. ﴿قرى ظاهرة﴾: متواصلة بحيث لايخرجون من واحدة حتى يروا الأخرى. ﴿قدرنا فيها السير﴾: أى نظمنا سيرهم فيها بحيث يقيلون فى واحدة ويبيتون فى الأخرى، فلا يحتاجون لحمل زاد ولا مبيت بأرض خلاء. ﴿باعد بين أسفارنا﴾: أى باعد بين منازل أسفارنا، وهى القرى التى كانوا ينزلون فيها مساء وظهرا؛ تمنوا أن يكون بين كل بلد وآخر مسافة بعيدة لاتقطع إلا فى أيام كثيرة بعد ما كانت تقطع فى نصف يوم، حتى لايستطيع قطعها إلا الغنى صاحب الإبل القوية التى تستطيع حمل الزاد والماء فى الصحارى

(١) بدلناهم. (٢) جزيناهم.
(٣) نجازى. (٤) باركنا.
(٥) ظاهرة. (٦) آمنين.
(٧) باعد. (٨) فجعلناهم.
(٩) مزقناهم. (١٠) لآيات.
(١١) سلطان. (١٢) بالآخرة.

القاحلة، وبهذا يعجز الفقير فتنحصر التجارة فى الأغنياء، وهذا منتهى الجشع والبطر. ﴿جعلناهم أحاديث﴾: يتحدث بها الناس ويضربون بهم المثل، فيقولون تفرق القوم أيدى سبأ والأيدى الجماعة، أى كتفرق جماعة سبأ. ﴿كل ممزق﴾: تقدم فى صفحة ٥٦٣. ﴿صدق عليهم إبليس ظنه﴾: أى حقق عليهم ماظنه فيهم من أن شهواتهم ستمكنه من إغوائهم. وأقسم على ذلك كما فى الآية (٨٢) من سورة صٓ صفحة ٦٠٥. ﴿من سلطان﴾: (من) تفيد تأكيد عموم ما بعدها، وسلطان أى تسلط وقهر. وإنما هى مجرد وسوسة. انظر الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣.

المعنى: وقلنا لهم على لسان رسلهم: هذه بلدة طيبة فى هوائها وخصوبتها. وربكم الذى رزقكم بهذه النعم وأمركم بالشكر عليها هو رب غفور لما قد يحصل منكم من هفوات. فأعرضوا عن الشكر وكفروا، فأرسلنا عليهم السيل الذى كان يحجزه السد فأهلك زروعهم وأشجارهم، ولم يبق لهم بعد هلاك تلك الجنتين المثمرتين لكل فاكهة إلا شىء حقير هو أشجار ذات ثمر مر الطعم، وأشجار الأثل الذى لايثمر وبعض قليل من شجر النبق. ذلك الذى حل بهم جازيناهم به بسبب كفرهم نعم ربهم وعبادتهم غيره، والله تعالى لايجازى مثل هذا الجزاء إلا شديد الكفر. وبعد ما بين سبحانه ماأنعم به عليهم فى مساكنهم. وما قابلوا نعمته به من الكفر، وماحل بهم، أراد أن يبين نعمة أخرى عليهم فى أسفارهم التى اضطروا إليها بعد تخريب مزارعهم بالسيل. وكان ممكنا أن يعتبروا ويستقيموا ليرجع الله تعالى إليهم شيئًا مما فقد منهم، ولكنهم قابلوها أيضًا بالبطر وقسوة القلوب ولم يعتبروا. فعاقبهم فى هذه المرة بالتشريد فى أنحاء الأرض فقال: ﴿وجعلنا بينهم﴾ إلخ: أى لما كانت حياتهم تقتضى السفر إلى الشام للتجارة سهلنا لهم ذلك بأن جعلنا بينهم وبين الشام قرى متقاربة، وقلنا لهم بلسان الحال سيروا فيها ليالى وأياما آمنين لاتخافون جوعًا ولا عطشًا. ولكن أغنياءهم تمنوا فى دخيلة أنفسهم أن تكون المسافات بين كل بلد وأخرى فى الطريق بعيدة جدا لتنحصر التجارة فيهم. ولما حصل لكثير من تلك البلاد ما خربها، وكان سيل العرم قبل ذلك أفقرهم وصعب

قطع المسافة حتى على الأغنياء منهم، فضجوا بالشكوى وقالوا تحسرا: إن ربنا باعد بين منازلنا فى السفر حتى عجزنا.

يدل على هذا القراءة الأخرى السبعية (رُبنا بضم الباء، وباعد بفتح العين والدال) فكأن الذى حصل منهم شيئان: الأول تمنى الأغنياء منهم إبعاد المسافات بين القرى. والثانى تحسر الجميع على ماحصل حتى عَمَّ العجز. والقرآن أفاد المعنى الأول بالقراءة الموجودة بالمصحف، وأفاد المعنى الثانى بالقراءة الثانية. وذلك نظير إفادة معنيين فى قوله: ﴿وأرجلكم﴾ بالآية (٦) من سورة المائدة صفحتى ١٣٦، ١٣٧. وبعملهم هذا ظلموا أنفسهم، فكانت النتيجة أننا جعلناهم أحاديث الناس. ثم بيَّن كيف جعلهم سبحانه أحاديث فقال: ﴿ومزقناهم﴾ إلخ: أى فرقناهم فى أنحاء الأرض غاية التفريق؛ بعضهم إلى الشام، وبعضهم إلى المدينة وهم الأوس والخزرج، وبعضهم إلى عمان وبعضهم إلى تهامة؛ إن فى كل ماذكر لعبرة لكل مؤمن قوى الصبر على المعاصى، كثير الشكرلنعم ربه، فهو الذى تنفعه الذكرى. ولقد صدق إبليس ظنه على بنى آدم الذين منهم أهل سبأ، فاتبعوه فى وسوسته إلا فريقا من المؤمنين فإنهم لم يتبعوه، وهم لأنهم تحصنوا بالصبر شرفهم الله تعالى بالإضافة إلى نفسه فى الآية (٤٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. ثم قال سبحانه: ﴿وماكان له﴾ إلخ: المراد نمكن الشيطان من التسلط عليهم بالوسوسة لإمتحانهم فيظهر ويتميز مَنْ يؤمن بالآخرة منهم فيخاف ربه، ممَّنْ هو فى شك من الآخرة لايؤمن بها، فيعلم الله تعالى مايحصل من كل فريق منهم علم حصول. وربك على كل شىء حفيظ. فهو سبحانه مهيمن بقدرته وعلمه. فكان يستطيع منع إبليس ويجعل العبد مجبورا على التقوى كالملائكة. وهو سبحانه يعلم كل شىء قبل حصوله على أنه سيحصل، والذى وجد هنا هو علم أنه حصل، قال أبو الحسن البصرى: والله ماضربهم إبليس بعصا، وماكان منه إلا أنه حسن لهم شهواتهم فأجابوه. ثم انتقل سبحانه لتوبيخ مشركى العرب وإقامة الحجة عليهم فقال: قل يأيها النبى لكفار قومك ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة غير الله ليجلبوا لكم نفعا أو يدفعوا ضرا.

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾
وَلَا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا
فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ * قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ
وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ
شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

المفردات: ـ ﴿مثقال ذرة﴾: تقدم فى الآية (٦) من سورة يونس صفحتى ٢٧٥، ٢٧٦. ﴿من شرك﴾: (من) لإفادة عموم مابعدها وكذا (من) فى قوله من ظهير، والمراد: ليس لهم مشاركة فى خلق السموات والأرض.

﴿ظهير﴾: معين. ﴿فزع عن قلوبهم﴾ أى أزيل الفزع والخوف عن قلوبهم نحو قولهم قشر الشجر بضم القاف وتشديد الشين أى أزيل قشره. ﴿العلى﴾: المستعلى فوق كل خلقه. ﴿الكبير﴾: أى فى عظمته. ﴿أجرمنا﴾: فعلنا جرما، وهذا هضم للنفس ولين فى الخطاب لعل المشركين يتركون شيئًا من عنادهم. ﴿يفتح﴾: أى يحكم وينصر، انظر الآية (١١٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٧. ﴿كلا﴾: كلمة تدل على الزجر. ﴿كافة﴾: أى جامعة عامة، والمراد: رسالتك عامة للناس جميعا، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٨.

المعنى: ـ قل أيها النبى لمشركى قومك الذين يعرفون ماحصل لسبأ منبهًا على بطلان ماهم عليه وتبكيتا لهم: ادعوا معبوداتكم الذين زعمتم أنهم آلهة غير الله ليجلبوا لكم نفعا أو يدفعوا عنكم ضرا، ثم أجاب عنهم بما لاجواب غيره فقال: لايملكون وزن أصغر شىء فى هذا الكون علويه وسفليه، وليس لهم فيهما أية شركة فى خلقهما ولا فى ملكهما، وليس لله تعالى من هذه الآلهة معين يعينه على تدبير مافيهما، انظر الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ والآية (١٣) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣. وبعدما بين أن آلهتهم لاتنفعهم فى الدنيا بمثقال ذرة، شرع فى بيان أنها لاتنفع فى الآخرة أيضًا فقال: ﴿ولاتنفع الشفاعة عنده﴾ إلخ: والمراد لاتوجد لهم شفاعة أصلا: لأنها لاتوجد إلا لعبد مرضى عنه من الله سبحانه كما فى الآية (٢٨) من سورة

(١) السموات. (٢) الشفاعة. (٣) السموات.
(٤) ضلال. (٥) لاتسالون. (٦) نسال.
(٧) أرسلناك.

الأنبياء صفحة ٤٢٣، ولاتوجد إلا من شافع مأذون له من الله، وهو سبحانه لايأذن لصنم ولا لشيطان، انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣، والآية (٢٦) من سورة النجم صفحتى ٧٠١، ٧٠٢ وشرح الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦. ولما كانت الشفاعة لاتكون إلا فى يوم القيامة أشار سبحانه إلى ماسيكون فيه بقوله ﴿حتى إذا فزع﴾ إلخ: والأصل يقف الخلائق يوم القيامة فزعين خائفين منتظرين خلاصا إلى أن يأذن الله عز وجل بالفصل وبفتح باب الشفاعة، فيرتفع الفزع عن قلوب المؤمنين، ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فيقول الآخرون: قال الحق المقرر سابقا، وهو أنه سبحانه يقبل الشفاعة ممَّنْ يرضى له قولا، فيمن رضى عنه من المذنبين لأن خيره كان أكثر من شره، وهو سبحانه ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا لنبى أن يتكلم إلا بإذنه. وبعدما بكت المشركين بأن آلهتهم لاتملك شيئًا وبخهم أيضًا بأنها لاترزق فقال: ﴿قل مَنْ يرزقكم﴾ إلخ: أى قل لهم أيها النبى مَنْ الذى يرزقكم من جهة السماء بإنزال الغيث الذى عليه حياتكم، وبتسخير الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم، ومن الأرض بإخراج الأقوات. ولما كان الجواب معينا سارع إليه بقوله: ﴿قل الله﴾. ثم أمره ﷺ أن يلين لهم الخطاب لعله يكسر من حدة عنادهم بقوله: ﴿وإنا أو إياكم﴾ إلخ: أى كل واحد منا نحن وأنتم إما متمكن من الهدى، وإما غارق فى ظلمات الضلال الواضح. وقل لهم أيضًا أنتم لاتسألون عما نرتكب من الذنوب، ونحن لا نسأل عما تعملون من خير أو شر، ونظيره فى الآية (٤١) من سورة يونس صفحة ٢٧٣. فإذا لم يهتدوا فقل لهم سيجمع بيننا ربنا يوم القيامة ثم يقضى بيننا بالحق، وهو سبحانه القاضى العليم، فلا يخطئ الصواب. وبعدما ألزمهم الحجة سألهم عن شبهتهم فى عبادة غيره تعالى زيادة فى تبكيتهم فقال: قل أرونى هذه المعبودات التى ألحقتموها بالله شركاء له: هل لها هذه الصفة حقيقة، أم هى مجرد أسماء لاحقيقة لها كما فى الآية (٤٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٩؟، ثم زجرهم عن هذا الباطل بقوله: كلا بل الإله الحق هو الله الواحد العزيز الحكيم. وبعدما أقام أدلة التوحيد شرع فى الأصل الثانى وهو الرسالة فقال: ﴿وما أرسلناك﴾ إلخ: أى وما أرسلناك إلا رسالة عامة للناس جميعا حال كونك مبشرا مَنْ يؤمن بالجنة محذرا مَنْ يعصى بالنار، ولكن أكثر الناس لايعلمون الحق، فيحملهم الجهل الناتج عن الإهمال فى النظر فى الدليل على الإصرار على الضلال... ثم انتقل للأصل الثالث وهو البعث فقال: ﴿ويقولون متى﴾ إلخ: أى يقول كفار قريش على وجه الاستهزاء لشدة عنادهم: متى هذا الشىء الذى وعدتنا به يامحمَّد وبشرت مَنْ آمن بك بالجنة ومَنْ كفر بالنار، إن كنت صادقا أنت ومَنْ معك فقل لنا متى يحصل هذا؟

صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ
سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ
بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ
يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟
أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم
مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ
وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن

المفردات: . ﴿ميعاد يوم﴾: المراد بالميعاد هنا هو زمن الشىء الموعود به، فهو مضاف لما يبينه، فالمعنى زمن ماوعدتم به هو يوم محدد ﴿الذى بين يديه﴾: مرادهم الكتب التى سبقت القرآن كالتوراة والإنجيل ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾: أى يرد بعضهم على بعض ويلقى اللوم عليه. ﴿الذين استضعفوا﴾: هم الأتباع. ﴿بعد إذ جاءكم﴾: الأصل بعد وقت مجىء الهدى، والمراد بعد علمكم بما فيه هدايتكم.

﴿الذين استكبروا﴾: هم الرؤساء انظر الآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١. ﴿مكر الليل والنهار﴾: أى مكركم بنا المستمر ليلا ونهارا. ﴿أندادا﴾: أى شركاء.. يدعون أنهم يشبهونه تعالى وهو سبحانه ليس كمثله شىء.

﴿أسروا الندامة﴾: لم يظهروها لاشتغالهم بما دهاهم من الأهوال.

﴿الأغلال﴾: قيود الحديد التى جمعت أيديهم إلى أعناقهم. ﴿هل﴾: حرف استفهام مشرب معنى النفى أى لايجزون. ﴿من نذير﴾: (من) حرف يفيد النص على العموم فى نذير.

المعنى: . ويسأل الكفار على وجه الاستهزاء قائلين: متى هذا الوعد فأت به إن كنت صادقا يامحمد أنت ومَنْ معك ممَنْ يقول بقولك، قل لهم: لكم زمن يتحقق فيه ماوعدتم به محدد لاتستأخرون عنه لحظة إذا جاء، ولاتستقدمون عليه قبل مجيئه، لأن الله جعل له أجلا لايتخطاه، ولا يعلمه غيره سبحانه. وبعدما أثبت الأصول الثلاثة وهى التوحيد، وإرسال رسل من البشر، والبعث، وكانوا كافرين بها، ذكر جريمة أخرى لكثير منهم وهى إنكار كل الكتب السماوية فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾ إلخ: أى وقال مشركو العرب أى غير أولاد إسماعيل؛

(١) صادقين. (٢) تستاخرون. (٣) القرآن. (٤) الظالمون.
(٥) صددناكم. (٦) الليل. (٧) الأغلال.

لأن أولاده يؤمنون برسول من البشر: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب التى سبقته. ثم انتقل سبحانه لبيان ماسيكون من جدال بينهم يوم القيامة لعلهم يتنبهون فقال: ﴿ولو ترى﴾ إلخ: أى ولو ترى يامَنْ تصح منك الرؤية فى ذلك اليوم حال هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالكفر حين توقفهم الملائكة للحساب عند ربهم حال كونهم يرد بعضهم على بعض التهم لرأيت حالا مفزعة تتفتت لها الأكباد، انظر الآية (٢٢) ومابعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٨ فهى نظير ذلك. ثم فصل بعض جدالهم فقال: ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ إلخ: أى يقول الأتباع الضعفاء للرؤساء الذين كانوا مستكبرين: لولا وجودكم وتضليلكم لكنا مؤمنين، فيرد المستكبرون على الضعفاء بقولهم: هل نحن منعناكم عن اتباع الحق بعد علمكم بمجيئه من عند الله؟

كلا لم نمنعكم قهرًا عنكم، بل أنتم الذين كنتم متمكنين من الإجرام فى داخل أنفسكم بإعطائكم نفوسكم حظًا من الشهوات، وتفضيلكم الدنيا على الآخرة، فيرد المستضعفون قائلين: بل صدنا مكركم بنا الدائم بالليل والنهار لتحملونا كما يحمل الآمر المأمور على أن نكفر بالله ونجعل له شركاء يشبهونه. ثم بين سبحانه مادهاهم حتى قطع عليهم الجدال فقال ﴿وأسروا﴾ إلخ: أى وأخفوا الندامة على ماكان منهم من ضلال وإضلال حين رأوا العذاب الشديد، وعقد ألسنتهم ماشاهدوه من الهول. وجعلنا الأغلال فى أعناقهم يسحبون بها إلى جهنم لأنهم كفروا، ومانجازيهم إلا جزاء يناسب أعمالهم الشنيعة. وبعدما بين سبحانه ماسيكون عليه الكافر يوم القيامة أراد أن يصبر رسوله على عنادهم بأن هذه هى عادة الأمم مع أنبيائهم، والعاقبة للمتقين، فقال: وما أرسلنا فى قرية من قرى الأمم السابقة نذيرًا مهما كان.

المفردات: . ﴿نذير﴾: المراد رسول يحذرهم ويخوفهم من عصيان ربهم. ﴿مترفوها﴾: هم المتوسعون فى الترف وهو التنعيم، انظر الآية (٦٤) ومابعدها من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١. ﴿أرسلتم به﴾: قالوا ذلك على سبيل التهكم لأنهم لايعتقدون أنهم رسل، انظر مثله فى الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨. ﴿يقدر﴾: أى يضيق. (زلفى): هى القربى وزنًا ومعنًى وهى مصدر من معنى الفعل قبله جاء لتأكيده كقولهم قعد جلوسا.

نذير إلا قال مترفوها[1] إنا بما أرسلتم به كافرون ﴿٣٤﴾
وقالوا نحن أكثر أموالا[2] وأولادا[3] وما نحن بمعذبين ﴿٣٥﴾
قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن
أكثر الناس لا يعلمون ﴿٣٦﴾ وما أموالكم[4] ولا
أولادكم[5] بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن[6] وعمل
صالحا[7] فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم
فى الغرفات[8] آمنون[9] ﴿٣٧﴾ والذين يسعون فى آياتنا[10]
معاجزين[11] أولئك فى العذاب محضرون ﴿٣٨﴾ قل إن
ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له
وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين[12] ﴿٣٩﴾
ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة[13] أهؤلاء إياكم
كانوا يعبدون ﴿٤٠﴾ قالوا سبحانك[14] أنت ولينا من دونهم

﴿جزاء الضعف﴾: أى الجزاء المضاعف، الحسنة بعشر أمثالها. ﴿يسعون فى آياتنا معاجزين﴾: تقدم فى الآية (٥) من هذه السورة صفحة ٥٦٣. ﴿محضرون﴾: تحضرهم الملائكة رغم أنوفهم، انظر الآية (٦١) من سورة القصص صفحتى ٥١٥، ٥١٦.

﴿قل إن ربى يبسط الرزق﴾ إلخ: الفرق بين هذه وما قبلها فى الآية (٣٦) من وجوه: الأول أن ماسبق كان فى سياق الرد على أن كثرة الرزق علامة رضا الله، وماهنا لبيان أن الرزق بيد الله تعالى، فلا تخشوا الفقر وأنفقوا أيها المؤمنون تقربا إليه تعالى، والثانى ماسبق عام فى البسط على شخص والتضييق على آخر أو على شخص فى وقتين، وماهنا خاص بالبسط والتضييق لشخص واحد باعتبار وقتين وحالين.

﴿أنت ولينا من دونهم﴾: تقدم بيان ذلك فى الآية (١٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢.

المعنى: وما أرسلنا فى قرية رسولا يحذر أهلها من عصيان ربهم إلا قال قادتها وكبارها إنا بما أرسلتم به فى زعمكم من التوحيد والبعث وغيرهما كافرون، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا منكم أيها الذين تزعمون أنكم رسل الله، وهذا دليل على رضا الله عنا، فلو كان ماتدعوننا إلى تركه من الشرك وغيره لايرضيه لما أعطانا هذه النعم، ولو أراد إرسال رسول لأرسله من الأغنياء الذين يرضى عنهم، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ والآية (٥٣) من سورة الزخرف أيضًا صفحة ٦٥٢، وإذا كان الأمر كذلك، فما نحن بمعذبين فى الدنيا بشىء مما يكدر حياتنا، ولا فى الآخرة إن جاءت كما تزعمون. قل لهم أيها النبى: إن ربى يبسط

(١) كافرون. (٢) أموالا. (٣) أولادًا. (٤) أموالكم.
(٥) أولادكم. (٦) آمن. (٧) صالحا. (٨) الغرفات.
(٩) آمنون. (١٠) آياتنا. (١١) معاجزين. (١٢) الرازقين.
(٣) للملائكة. (١٤) سبحانك.

الرزق لمن يشاء، ويضيق حسب حكمته، فربما وسَّع على العاصى وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسع عليهما، أو ضيق عليهما، بل قد يوسع على الشخص الواحد فى زمن ويضيق عليه فى زمن آخر؛ يفعل سبحانه كل ذلك حسب حكمة يعلمها، فلو كان البسط دليل الرضا لخص به المطيع، ولو كان التضييق دليل السخط لخص به العاصى، ولكن أكثر الناس لايعلمون حكمة تصرفه فيخطئون مثلكم، انظر الآيات (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩ و (٥٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٠ و (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤ و (٥٥) ومابعدها من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠، ٤٥١ وشرح (٨٢) من سورة القصص صفحة ٥١٩. ثم وضح ذلك فقال: وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا قربا ينفعكم، لكن مَنْ آمن وعمل صالحًا فإيمانهم وعملهم الصالح هو الذى يقربهم منا قربًا شديدا فنجازيهم بإعطائهم أجرًا مضاعفًا أضعافًا كثيرة، وندخلهم غرف الجنة وهم آمنون من كل سوء، أما الذين يجتهدون فى تعطيل شريعتنا هؤلاء تجرهم الملائكة على وجوههم للعذاب. ثم رغب المؤمن فى الإنفاق فيما يرضى فقال: قل أيها النبى للمؤمنين لاتخافوا فقرًا من الإنفاق فى سبيل الله: لأن الله تعالى هو الذى بيده التوسعة والتضييق، وقد ضمن لكم أن ما أنفقتموه فيما يرضيه يخلف عليكم خيرا منه لأنه خير الرازقين، انظر معنى ذلك فى الآية (٥٨) من سورة الحج صفحة ٤٤٢. وبعد ما بيَّن سبحانه خطأهم فيما يزعمون أراد أن يبين بعضا آخر مما سيكون منهم يوم القيامة فقال: ﴿ويوم يحشرهم﴾ إلخ: أى واذكر أيها النبى لكفار قومك ماسيكون منهم يوم يحشرهم ربهم جميعًا، العابدين منهم والمعبودين، ثم يقول للملائكة توبيخا للكفار وقطعا لأطماعهم فى شفاعة الملائكة لهم كما وبخ النصارى بمثل ذلك فى الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١ هل كان هؤلاء لايعبدون إلا إياكم؟ فقالوا: ننزهك ياربنا عن الشرك تنزيها، لا موالاة بيننا وبينهم من جهتنا، بل أنت ولينا من دونهم، انظر ماتقدم فى الآية (١٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢.

المفردات: ﴿يعبدون الجن﴾: يطيعونهم فى وسوستهم. ﴿رجل﴾: يريدون به النبى ﷺ انظر الآية (٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٣.

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا[1] بَيِّنَاتٍ[2] قَالُوا
مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
آبَاؤُكُمْ[3] وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾
وَمَا آتَيْنَاهُم[4] مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ
قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا
مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ[5] فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ[6] أَن تَقُومُوا
لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ[7] ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ

﴿إفك﴾: كلام لا حقيقة له. ﴿مفترى﴾: مدعى أنه من عند الله.

﴿للحق﴾: اللام بمعنى (عن) كما فى الآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧. (إن هذا إلا سحر): (إن) حرف نفى أى ما هذا الخ.

﴿من كتب﴾: (من) لتأكيد العموم فيما بعدها، وكذا من فى قوله: (من نذير).

﴿يدرسونها﴾: يتقنون قراءتها وفهمها. ﴿معشار﴾: عشر بضم فسكون.

﴿نكير﴾: انكار، انظر الآية (٤٤) من سورة الحج صفحة ٤٤٠.

﴿أعظكم﴾: أنصحكم. ﴿تقوموا﴾: أى تجتهدوا فيما أطلبه منكم. ﴿مثنى﴾: أى اثنين اثنين. ﴿فرادى﴾: واحدا واحدا. ﴿مابصاحبكم﴾: ليس بصاحبكم محمد ﷺ. ﴿من جنة﴾: (من) لتأكيد العموم فيما بعدها، والجنة الجنون.

المعنى: لما سأل سبحانه الملائكة الذين كان كفار قريش يعبدونهم لزيادة تقريعهم، أجاب الملائكة بقولهم: سبحانك ربنا وتقدست أن يكون معك إله، نبرأ إليك من هؤلاء فلا موالاة بيننا وبينهم، إنما ولينا أنت وحدك، وهم كاذبون فى زعم أنهم كانوا يعبدوننا، بل كانوا فى الحقيقة خاضعين لتأثير الشياطين الذين زينوا لهم الشرك بدعوى تقليد الآباء، وأكثرهم مؤمنون بهذه الوسوسة، وأقلهم مقلدون الأكثر. وبعد ذلك يوجه سبحانه الخطاب لهم بقوله: (فاليوم) الخ: أى فى هذا اليوم الذى خلص فيه الملك لله وحده كما فى الآية (١٦) من سورة غافر صفحة ٦١٩ [illegible] ولا دفع ضر، ونقول الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ذوقوا

(١) آياتنا. (٢) بينات. (٣) آباؤكم. (٤، ٥) آتيناهم. (٦) بواحدة. [illegible]

عذاب النار الذى كنتم به تكذبون، وتقولون لايبعث الله مَنْ يموت وليس هناك دار جزاء. ثم ذكر سبحانه بعض باطلهم الذى استحقوا به العذاب فقال: وإذا قرأ رسولنا عليهم آياتنا حال كونها واضحات فى الدلالة على الحق قال هؤلاء الكافرون ماهذا إلا رجل يريد أن يمنعكم عما كان يعبد آباؤكم، وقالوا أيضا: ماهذا القرآن الذى يتلوه عليكم محمَّد ﷺ بالنسبة لمعانيه إلا كذب ادعى محمد أنه من عند الله، وقالوا أيضًا للقرآن الحق لما جاءهم فى أسلوب معجز: ماهذا إلا سحر واضح. ثم رد عليهم بقوله ﴿وما آتيناهم﴾ إلخ: أى وما آتينا أهل مكة كتبا يدرسونها تفيد صحة الشرك حتى يعذروا فيه، انظر الآية (٣٥) من سورة الروم صفحة ٥٣٥ والآية (٢١) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩ والآية (٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦، وما أرسلنا إليهم قبلك نذيرا يحذرهم من عدم الشرك، وإذا كنا لم نفعل ذلك فمن أين جاءوا بهذا الشرك؟ بل جاءتهم الرسل بالتوحيد انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤، ٥٧٥. ثم هددهم إذا استمروا بأن يحصل لهم مثل ماحصل لأمثالهم فقال ﴿وكذب الذين﴾ إلخ: أى وقد سبق أن الذين قبلهم من الأمم كذبوا أنبياءهم، كعاد وثمود، ومابلغ أهل مكة عشر ما آتينا هؤلاء الأولين من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال والأولاد. انظر الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨ والآية (٩) من سورة الروم صفحة ٥٣١ والآية (٨٢) من سورة غافر صفحتى ٦٢٨، ٦٢٩ والآية (٨) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٧؛ كذب هؤلاء رسلى فانظر كيف كان أثر غضبى عليهم ترى هولاً عظيما.

والمعنى: فليحذر كفار قريش مثل ذلك. ثم أمر سبحانه نبيه أن يلين لهم الجانب فى الارشاد فقال: ﴿قل إنما أعظكم﴾ إلخ: أى لا أنصح لكم أيها الناس إلا بخصلة واحدة هى أنكم بدل أن تسارعوا إلى التكذيب عنادا بدون بحث أن تجتهدوا فى الأمر بإخلاص لوجه الله حال كونكم متفرقين اثنين اثنين أو واحدا واحدا؛ لأن الكثرة فوق ذلك توجب تهويش الخواطر وتشتيت العقول فيفسد التفكير؛ لأن الفرد الواحد فى الكثرة يفكر ويعمل بعقل غيره ويسير تبعا لحركة تلك الجمهرة، ثم تتفكروا فى أمر صاحبكم محمَّد الذى عاشرتموه مدة طويلة وعرفتم عنه سلامة العقل وحسن التفكير، وفيما جاء به، فستصلون قطعا إلى أنه ليس به جنون كما تزعمون، انظر الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٢٨.

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ
بِالْحَقِّ عَلَّامُ[1] الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ
الْبَاطِلُ[2] وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ
عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ
قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا
مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا[3] بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ
وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ
كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

المفردات: ﴿إن هو﴾: (إن) حرف نفى بمعنى ما. أى ماهو. ﴿نذير﴾: محذر من عصيان الله. ﴿بين يدى﴾: أى أمام. ﴿إن أجرى﴾: (إن) حرف نفى بمعنى ما. أى ما أجرى. ﴿يقذف بالحق﴾: يقال قذف به أى رماه بقوة، والمراد يقذف الحق على الباطل فيزهقه، انظر الآية (١٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢. ﴿مايبدىء الباطل ومايعيد﴾: المراد بالباطل الكفر، والإبداء فعل الشىء أولاً، والإعادة فعله ثانيا، وهما لايكونان إلا من الحى لا من الميت، فالمراد ذهب الشرك ولم يبق له أثر.

﴿فزعوا﴾: انزعجوا. ﴿لافوت﴾: أى لا مهرب لهم من الله.

﴿أنى﴾: أى كيف. ﴿التناوش﴾: هو التناول السهل لشىء قريب.

والمراد: لايستطيعون الحصول على الإيمان المنجى بعد خروجهم من الدنيا. انظر آيات (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١ و(٨٤، ٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩.

﴿يقذفون بالغيب﴾: المعنى يرجمون بالظن ويتكلمون فيما لاعلم لهم به، والمراد أن الذى يرمى الهدف المشاهد من بعيد قلما يصيب، فما بالك بالذى يرمى وهو لايرى شيئا، لأن الأمر مغيب عليه.

﴿أشياعهم﴾: مفردها شيعة كما فى الآية (١٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٨، والشيعة هى الجماعة المتفقة فى مبدأ خير أو شر. والمراد أمثالهم.

﴿مريب﴾: موقع فى الريبة أى الشك.

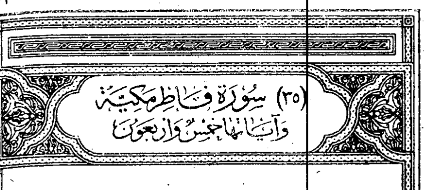
المعنى: - ليس صاحبكم مجنونا كما تفترون، وماهو إلا ناصح لكم بتحذيركم من أنكم ستلاقون عذابا شديدا إذا بقيتم على كفركم. ثم أمر سبحانه نبيه أن ينبههم إلى أنه لايريد

(١) علاّم. (٢) الباطل. (٣) آمنا.

منهم مالا كما يطلب رؤساء الدنيا فقال: ﴿قل ماسألتكم﴾ إلخ: المراد أنه لو فرض وسألت منكم أجرًا على تبليغ الرسالة فقد تنازلت عنه لكم، إذ ليس أجرى إلا على الله، وهو سبحانه مطلع على كل شىء، فيعلم صدقى، ولو كنت كاذبًا لخذلنى وبعدما أثبت أنه ليس طالب دنيا أمره سبحانه أن يبلغهم أن ماجاء به هو الحق من الله، وأنه سبحانه سيهلك الباطل، فقال ﴿قل إن ربى﴾ إلخ: أى إن ربى الذى أوحى إلىَّ هذا الحق هو الذى يقذف به فى وجه الباطل فيمحقه، وهو علاّم الغيوب، فلا يفلت منه باطل. ثم أوقعهم فى اليأس فأمر نبيه أن يقول لهم: جاء الحق، وثبتت تعاليم الإسلام، وذهب الباطل ولم يبق له أثر. ثم أمر سبحانه نبيه أن يلين لهم الكلام ثانيا كما سبق فى الآية (٢٤) ومابعدها من هذه السورة صفحة ٥٦٦، فقال (قل إن ضللت) إلخ: أى إن كنت فيما أقول بعيدا عن الصواب فإن وبال ذلك عائد على نفسى، لأنها هى الأمارة بالسوء، وإن اهتديت فبهداية ربى، إنه سميع لقولى وقولكم، قريب منى ومنكم، لايخفى عليه شىء، فيجازى كلا بما يستحق. وبعدما أبطل سبحانه كلامهم وسلك معهم كل الطرق من شدة ولين، أراد أن يذكرهم بما سيكون من الكافر يوم القيامة لعلهم يتنبهون فقال: (ولو ترى) إلخ: أى ولو ترى يا مَنْ يصح أن ترى فى ذلك اليوم هؤلاء الكفار حين يفزعون ويذعرون من هول الموقف لرأيت أمرًا عظيمًا، ولا مهرب لهم من عذاب الله، وأخذتهم الملائكة من مكان الموقف القريب من النار فطرحتهم فيها ويقولون حين يشاهدون العذاب آمنا بالرسول وندمنا على قولنا إنه ساحر. وكيف يكون لهم الحصول على الإيمان بسهولة من مكان بعيد هو الدنيا التى هى دار التكليف والتوبة وقد انقضى وقتها واستحال رجوعها؟ كيف يحصل لهم هذا والحال أنهم قد كفروا بمحمَّد من قبل فى الدنيا. و كانوا يرجمون بالظنون الباطلة من مكان بعيد عن الصواب، بما كانوا يقولونه فيه ﷺ إنه ساحر كاهن، انظر الآية (٣) ومابعدها من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، فكانت عاقبة كل ماسبق منهم أن يحول الله بينهم وبين مايشتهون من إيمان ينفعهم كما فعل بأمثالهم من قبل عندما آمنوا بعد فوات الوقت، لأن الجميع كانوا غارقين فى الشك فى صدق الرسل، وقد تمكن الشك منهم حتى صاروا لايثقون بشىء مما جاءت به الرسل، انظر آيتى (٩٠، ٩١) من سورة يونس صفحة ٢٨٠.

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

سورة فاطر


(سورة فاطر) ٥٧١

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ[1] وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ[2] رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ[3] وَرُبَاعَ[4] يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ[5] غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تضمنت هذه السورة كمعظم السور المكية إثبات الأصول الثلاثة، وهي: التوحيد والرسالة والبعث.

﴿فاطر﴾: موجد على غير مثال سابق.

﴿السموات والأرض﴾: المراد هما وما حويا من العالم بأسره.

﴿أولى أجنحة﴾: ذات أجنحة. ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾: تقدم فى الآية (٣) من سورة النساء صفحتى ٩٧ و ٩٨ .

﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾: يفتح أى يعطى و﴿من﴾: حرف يدل على أن ما بعده مبين وموضح للمبهم قبله وهو ﴿ما﴾ فى قوله: ﴿ما يفتح﴾ والمراد الرحمة التى يعطيها الله سبحانه للناس.

﴿لا ممسك لها﴾: أى لا مانع لها، وذكر الضمير هنا مؤنثًا لملاحظة معنى ﴿ما﴾ وهو الرحمة وذكره مذكر فى قوله: ﴿وما يمسك فلا مرسل له﴾ باعتبار لفظ ﴿ما﴾. ﴿هل﴾: حرف استفهام إنكارى يفيد النفى، أى لا خالق. ﴿من﴾: لتأكيد العموم فيما بعدها. ﴿فأنى﴾: فكيف. ﴿تؤفكون﴾: أى تصرفكم الشياطين عن الصواب.

---

(١) السموات (٢) الملائكة (٣) ثلاث
(٤) رباع (٥) خالق

المعنى: الثناء الجميل كله لله لأنه خالق جميع هذا العالم على مثال لم يسبق، وهو سبحانه الذى جعل الملائكة رسلا إلى مخلوقاته لتنفيذ أوامره فيها ولو بالعذاب كما فى الآية (٥٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢، وإلى أنبيائه، وهم كبارهم كما فى الآية (٧٥) من سورة الحج صفحة ٤٤٤ . وجعل هؤلاء الملائكة أصحاب أجنحة، فمنهم مَنْ له جناحان، ومنهم مَنْ له ثلاثة، ومنهم مَنْ له أربعة. والبحث عن حقيقة هذه الأجنحة وصفتها ومواضعها من الجسم فى هذا العالم الغيبى مما لم يكلفنا الله عز وجل علمه، ولم يصح فيه عن النبى ﷺ حديث، وإنما الذى يعنينا أن نعلم أن كثرة الأجنحة دليل القدرة على السرعة فى تنفيذ أوامره تعالى وتبليغ رسالته، ويفيد أن الملائكة تتفاوت أقدارهم عند الله ومقدرتهم على الانتقال. يزيد سبحانه بموجب مشيئته فى خلقه ما يشاء زيادته، ومن ذلك أجنحة الملائكة. روى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود أنه ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح. فسبحان العليم بأسرار خلقه. إن الله على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء أراده. ومن دلائل قدرته سبحانه أنه إذا أعطى بعض الناس أشياء من آثار رحمته كصحة وولد ومال وعلم وحكمة وغير ذلك فلا أحد يستطيع منعها، انظر الآية (٣٨) من سورة الزمر صفحة ٦١١، وإذا منع أثرًا من آثار رحمته عن أحد فلا يستطيع غيره سبحانه أن يعطيه له، انظر الآية (٢١) من سورة الملك صفحة ٧٥٦، وهو سبحانه العزيز أى الغالب على ما يشاء بلا منازع، الحكيم الذى لا يفعل إلا بعلم وإتقان. وبعدما بيَّن سبحانه أنه المالك لكل شيء وأن مصدر الخير كله بيده، أمر بشكره، فقال: يأيها الناس اذكروا نعمة الله واحفظوها بطاعة المنعم بها. ثم نفى أن يكون لغيره فى ذلك مدخل فقال: ﴿هل من خالق﴾ إلخ: أى لا خالق غير الله يرزقكم من جهة السماء بالمطر وغيره، ومن الأرض بالنبات وغيره كما تقدم فى الآية (٢٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦، لا إله إلا هو، فكيف تصرفون عن توحيده؟ ثم تكلم سبحانه على إثبات رسالته ﷺ مسليًا له على ما قابله به الكفار فقال: وإن يكذبوك فلا تحزن فقد كذب رسل من قبلك، فعليك أن تتأسى بهم وتصبر، وإلى الله المرجع كله.

تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا
تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾
إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ
لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا
فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ
نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾
وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ
فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾
مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ

المفردات: ﴿الغرور﴾: تقدم فى الآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ . ﴿زين له سوء عمله...﴾ إلخ: انظر الآيات (٣٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦ و(١٠٤) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥ و(٣٦، ٣٧) من سورة الزخرف صفحتى ٦٥٠، ٦٥١ .

﴿تذهب نفسك﴾ إلخ: المراد لا يشتد حزنك عليهم حتى تهلك نفسك حسرة عليهم، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩ .

﴿تثير سحابا﴾: تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الروم صفحة ٥٣٧ .

﴿فسقناه﴾: لم يقل (فساقه) وحول الكلام إلى أسلوب المتكلم لفتا لنظر السامع إلى بديع صنع ما يذكر بعده انظر نظير ذلك فى الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩ والآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿ميت﴾: جدب لا نبات فيه.

---

(١) الحياة
(٢) الشيطان
(٣) أصحاب
(٤) آمنوا
(٥) الصالحات
(٦) فرآه
(٧) حسرات
(٨) الرياح
(٩) فسقناه
(١٠) الصالح .

﴿أحيينا به الأرض﴾: أى جعلنا فيها نباتًا وأشجارا.

﴿النشور﴾: البعث من القبور للحساب والجزاء.

﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ إلخ: صعود الكلم الطيب كناية عن قبوله سبحانه له ورضاه عن صاحبه، والكلم الطيب كل كلام يرضى اللّه عز وجل، ككلمة التوحيد، وتلاوة القرآن، وكل كلام يؤدى إلى خير لقائله أو للغير.

﴿والعمل الصالح يرفعه﴾: قال ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم: المعنى يرفع العمل الصالح قدر الكلام الطيب، ويحقق معناه لأنه يدل على صدق نية صاحبه، فيقبله اللّه سبحانه، وهذا هو ما يشير إليه قولهم: إن الأقوال إذا لم تصدقها الأعمال تفقد قيمتها، وقد عاب سبحانه على أصحاب هذه الأقوال فى الآية (٤٤) من سورة البقرة صفحتى ٩، ١٠ وآيتى (٢، ٣) من سورة الصف صفحة ٧٣٨ . وقال قتادة وارتضاه ابن عطية: المعنى والعمل الصالح يرفعه الله سبحانه ويقبله.

المعنى: وإلى اللّه سبحانه ترجع الأمور فى الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه. ثم ذكر سبحانه الأصل الثالث وهو البعث فقال: ﴿يأيها الناس إن وعد اللّه حق﴾ إلخ: أى إن وعد اللّه بالحشر والجزاء يوم القيامة حق لاشك فيه، فلا تغرنكم الحياة الدنيا بصرف جميع هممكم إلى التمتع بها فتلهيكم عن طلب الآخرة، ولا يغرنكم بحِلم اللّه وإمهاله الشيطان الشديد التغرير بالبسطاء فيمنيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعصية، فإن مَنْ يطمع فى ذلك كمن يطمع فى السلامة مع تناول السم اعتمادا على أن يمر به طبيب. ثم حثهم على عصيان الشيطان فقال: إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا بعصيانه؛ لأنه لا يدفع حزبه إلا لعمل عاقبته أن يدخل نارا مستعرة، انظر الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨ .

ثم بيَّن جزاء حزب الشيطان وجزاء أعدائه فقال: الذين كفروا واتبعوا الشيطان لهم عذاب شديد، والذين آمنوا باللّه وعملوا الصالحات لهم عند اللّه مغفرة لذنوبهم وأجر كبير هو نعيم الجنة الخالد. ثم بيَّن أن حكمته تعالى وعدله هما اللذان اقتضيا هذه التفرقة فى الجزاء فقال

﴿أفمن زين له سوء عمله﴾ إلخ: أى هل مَنْ زين له الشيطان عمله السيىء فجعل القبيح فى نظره حسنًا، والباطل حقا كمَنْ لم يستطع أن يفعل معه ذلك لشدة خوفه من ربه؟ كلا لا يستويان انظر الآية (١٤) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٤، والآية (٢٢) من سورة الملك صفحة ٧٥٦ .

ثم بيَّن أنه سبحانه هو الذى وضع هذه الأحكام بمقتضى حكمته فقال: إن اللَّه يضل مَنْ يشاء لوجود أسباب فيه تقتضيه، ويهدى مَنْ يشاء، انظر توضيح ذلك فى الآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١ والآية (١٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦ .

وإذا كان الأمر كذلك فلا تترك أيها النبى نفسك تهلك حسرة على عدم إيمان قومك؛ لأن اللَّه عليم بما يصنعونه فيعاملهم بما يستحقونه.

ثم بيَّن سبحانه بعض دلائل قدرته على البعث لو تأملوها لما أنكروه فقال ﴿واللَّه الذى أرسل﴾ إلخ: أى هو سبحانه وحده صاحب القدرة على إرسال الرياح فتحرك السحاب الثقال بالماء إلى بلد قاحل، فأحيينا به أرضه بالنبات بعد أن كانت لا نبات بها، فكما أخرجنا النبات من باطنه كذلك نخرج الموتى من القبور. ولما كان مما جرأ المشركين على أنواع الكفر اعتزازهم بأصنامهم زاعمين أنها تدفع عنهم كل سوء، وتجلب لهم كل عزة وسعادة، انظر الآية (٨١) من سورة مريم صفحة ٤٠٤، أرشدهم سبحانه إلى مَنْ بيده العزة دون غيره، فقال ﴿من كان يريد العزة﴾ إلخ: أى من كان يريد الشرف والمنزلة الرفيعة فى الدنيا والآخرة والبعد عن كل سوء، فليطلبها من اللَّه بطاعته؛ لأن العزة كلها بيده وحده.

ثم بيَّن ما تطلب به العزة من قول وعمل فقال ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ إلخ: أى كل كلام يرضى اللَّه عز وجل كالنطق بكلمة التوحيد، والقرآن، وما به إصلاح إلى غير ذلك، وكل عمل صالح يرفع قيمة الكلم الطيب، ويجعل له عند اللَّه عز وجل منزلة ترفع قدر صاحبه يقبله سبحانه ويثبت عليه.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما يقرب إليه تعالى هدد مَنْ يحاولون عرقلة الدعوة الإسلامية فقال: ﴿والذين يمكرون ... ﴾ إلخ.

السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾
وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن
مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ[1] إِنَّ ذَٰلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ
فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
يُولِجُ اللَّيْلَ[2] فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ[3] وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾
إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا

المفردات: ﴿يبور﴾ يفسد ويذهب، انظر الآية (١٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢ . ﴿من تراب ثم من نطفة﴾: تقدم فى آيتى (١٢، ١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ . ﴿أزواجًا﴾: أى مزدوجين ذكرًا وأنثى. ﴿من أنثى﴾: ﴿من﴾ لتأكيد العموم فيما بعدها، وكذا هى فى ﴿من معمر﴾ الآتية. ﴿يعمر من معمر﴾: المراد يزاد فى عمره، انظر الآية (٩٦) من سورة البقرة صفحة ١٩ والآية (٦٨) من سورة يس صفحة ٥٨٥، فالمعمر من طال عمره، والأصل ولا يعيش أحد حتى يصير معمرًا، ولا يموت أحد آخر صغيرًا حتى يرى كأنه ناقص العمر بالنسبة لغيره. ﴿كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ المذكور فى الآية (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢ . ﴿فرات﴾: شديد العذوبة مزيل للعطش. ﴿سائغ﴾: سهل المرور فى الحلق. ﴿أجاج﴾: شديد الملوحة. ﴿لحما طريًا، حلية، الفلك، مواخر لتبتغوا﴾: تقدم كل هذا فى الآية (١٤) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، والفلك لفظ يطلق على المفرد من السفن كما فى الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩ وعلى الجمع كما هنا. ﴿يولج الليل فى النهار﴾: تقدم فى الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧ . ﴿قطمير﴾: القشرة البيضاء الرقيقة حول نواة التمرة.

المعنى: وكفار قريش الذين يدبرون فى الخفاء الفعلات السيئات لإيذاء النبى ﷺ والمؤمنين لهم عذاب شديد ومكرهم فاسد قطعا، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال ٢٣١ .

ثم شرع فى دليل آخر على صحة البعث وقدرته عليه فقال: واللَّه الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم ذكورا وإناثًا، ومن سعة علمه أنه لا تحمل أنثى من الحيوان ولا تضع

(١) كتاب (٢،٣) الليل:

مولودها إلا معلومًا له تعالى حالها وحال جنينها وطفلها علمًا تفصيليًا كما تقدم فى الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤، ولا أحد يقضى له بطول العمر إلا وهو بالغ غاية ما قدر له، ولا أحد قدر له قصر العمر يزيد عمره عما قدر له حسب ما سجل فى الكتاب من الأزل. وما ورد من أن صلة الرحم والصدقات تطيل العمر معناه تبارك فيه حتى كأن ما حصل فيه فى أزمان طويلة؛ إن كل ما تقدم يسير سهل على اللّه. ثم شرع سبحانه فى ذكر أدلة تفرده بالملك والقدرة مع التلميح فى أول الكلام بمدح المؤمن وذم الكافر فقال: ﴿وما يستوى البحران﴾.

ثم فسر عدم الاستواء بقوله: هذا عذب جدا سهل لذيذ شرابه، والآخر مالح شديد الملوحة، وكل لحكمة يعلمها العلماء المختصون. ومن فضله عليكم أنه جعل لكم من كل منهما لحمًا طريًا تأكلونه، وتستخرجون من كل منهما أيضًا حلية من لؤلؤ ومرجان تلبسونها، انظر الآية (٢٢) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩ . وقد أثبت علماء البحار أن الحلية كما توجد فى الملح توجد فى العذب كذلك، فلا تغتر بكثرة من جهل ذلك. فسبحان العليم بأسرار خلقه. ومن آثار قدرته تعالى أنك ترى أيها الناظر إلى البحار أنه جعل السفن الصغيرة والكبيرة تمخر فى كل من البحرين، أى تجرى بسرعة، لتطلبوا شيئًا من فضل اللّه بالتجارة وغيرها، ولعلكم تشكرونه تعالى بدوام طاعته. ومن قدرته أنه يقصر الليل ويطيل النهار تارة، وأخرى يطيل الليل ويقصر النهار، وذلك لا يكون إلا بقدرة عالية تضبطهما على هذا النظام الدهور الطويلة بلا أدنى خلل. ومن قدرته أنه سخر الشمس والقمر لمنفعتكم، انظر الآية (٣٣) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٤، ٣٣٥، كل منهما يجرى إلى الأجل المحدد له الذى ينتهى عنده جريانه وهو قيام الساعة. ثم جاء بالنتيجة من كل ما تقدم فقال ﴿ذلكم اللّه﴾ إلخ: أى الذى فعل كل هذه الأفعال العجيبة هو اللّه ربكم له الملك وحده، والذين تدعونهم من دونه تعالى لقضاء حاجاتكم كالملائكة والجن والأنبياء والصالحين الذين اتخذتم لهم تماثيل وصورا وتقربتم بهم إلى اللّه زلفى كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦ كل هؤلاء لا يملكون فى هذا العالم والعالم الآخر أحقر شىء فى الوجود وهو القطمير، إن تدعوهم لقضاء مصالحكم لا يسمعوا دعاءكم لاشتغالهم بأنفسهم عنكم، ولو فرض أنهم سمعوا ما استجابوا لكم فى شىء مما تطلبون، انظر الآية (٥) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ .

لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل
خبير (١٤) * يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله
والله هو الغنى الحميد (١٥) إن يشأ يذهبكم ويأت
بخلق جديد (١٦) وما ذلك على الله بعزيز (١٧) ولا تزر
وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل
منه شىء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون
ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة ومن تزكى فإنما يتزكى
لنفسه وإلى الله المصير (١٨) وما يستوى الأعمى
والبصير (١٩) ولا الظلمت ولا النور (٢٠) ولا الظل
ولا الحرور (٢١) وما يستوى الأحياء ولا الأموت
إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من
فى القبور (٢٢) إن أنت إلا نذير (٢٣) إنا أرسلنك

المفردات: ﴿يكفرون بشرككم﴾: أى بإشراككم لهم مع اللّه فى العبادة، انظر الآية (٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ . ﴿الحميد﴾: أى المحمود على كل حال. ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾: أى لا تحمل نفس فوق أوزارها أوزار نفس أخرى، وكل ما يتعلق بهذا التركيب تقدم فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ . ﴿مثقلة﴾ المراد: نفس أثقلتها الذنوب. ﴿حملها﴾ المراد: ما تحمله من الذنوب؛ وهذا رد لقول المضللين فى الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ . ﴿ولو كان ذا قربى﴾: الأصل ولو كان الشخص المدعو للحمل من أقربائه. ﴿تنذر﴾: أى تحذر من عصيان اللّه. ﴿يخشون ربهم بالغيب﴾: أى يخافون ربهم فى خلواتهم وحال بعدهم عن الناس فهم بعيدون عن الرياء ﴿تزكى﴾: أى تطهر من أدناس الكفر والمعاصى. ﴿إن اللّه يسمع مَنْ يشاء﴾: انظر بيان ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ والآية (٢٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠ ﴿الحرور﴾: الريح الحارة. ﴿إن أنت﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما). أى ما أنت.

المعنى: ويوم القيامة ينكرون إشراككم لهم، ويتبرءون منكم، انظر الآية (٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ . ثم أكد ما سبق بقوله تعالى: ﴿ولا ينبئك﴾ إلخ: أى ولا يخبرك أيها المفتون بغير اللّه عن أحوال الدارين مثل خبير بهما، وهو اللّه عز وجل. وبعد ما بيَّن سبحانه أنه المالك لكل شىء، وأن ما يدعونهم من دونه لا يملكون شيئًا، أراد أن يرتب عليه ما هو نتيجته فقال ﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى اللّه﴾ إلخ: أى أنتم أيها الناس جميعًا بلغ من شدة حاجتكم إلى اللّه كأنكم أنتم فقط الفقراء إليه تعالى فى كل شىء وفى كل لحظة، وهو سبحانه

(١) القيامة (٢) الصلاة (٣) الظلمات (٤) الأموات (٥) أرسلناك

الغنى عن كل مخلوق، المستحق للحمد دائمًا. إن يشأ ربكم إهلاككم يهلككم لقدرته على ذلك ولاستغنائه عنكم، ويأت بخلق جديد لا يعصونه، وما ذلك عليه سبحانه بعزيز، أى ممتنع. ثم هددهم بما سيكون يوم القيامة مع إبطال ما كان من تضليل قادة الكفر لغيرهم بقولهم اتبعوا سبيلنا ونحن نحمل عنكم خطاياكم يوم القيامة إن كان هناك قيامة كما يقول محمد ﷺ. انظر الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ . فقال ﴿ولا تزر وازرة﴾ إلخ: أى ويوم القيامة لا تحمل نفس مذنبة زيادة على ذنوبها ذنوب نفس أخرى بل تبقى ذنوب النفس الأخرى على عاتقها تجازى بها. ثم رد على ما يروجه المبطلون فى الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ فقال ﴿وإن تدع مثقلة﴾ إلخ: أى وإن تدع نفس مثقلة بأحمال الذنوب شخصًا آخر إلى تحمل شىء من ذنوبها لا يحمل هذا الشخص من حملها شيئًا ولو كان قريبا لها؛ لأن كل واحد مشغول بنفسه فلا يحمل أحد وزر غيره انظر الآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤، والآية (٣٤) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٣ . وبعد ذلك صبر سبحانه رسوله على عناد قومه فقال ﴿إنما تنذر﴾ إلخ: أى إنما ينفع تحذيرك ونصحك الذين يخافون ربهم فى خلواتهم لاعتقادهم اطلاعه على الخفايا، وأقاموا الصلاة ـ ومَنْ تطهر من دنس الذنوب فلا يعود نفع عمله هذا إلا على نفسه، وإلى اللّه المرجع فى النهاية، فيعامل كلا بما يستحق ثم ضرب سبحانه أمثلة توضح الفارق بين الحسن والقبيح، فقال: ﴿وما يستوى الأعمى والبصير﴾ أى الجاهل والعالم. ﴿ولا الظلمات ولا النور﴾ إشارة إلى الكفر والإيمان. ﴿ولا الظل ولا الحرور﴾ إشارة إلى الجنة والنار. ثم ذكر المقصود الأصلى فقال ﴿وما يستوى الأحياء ولا الأموات﴾ أى المؤمنون والكافرون، انظر الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ﴿١٨٣﴾، والآية (١٦) من سورة الرعد صفحة ٣٢٣ . ثم بيَّن سبحانه أن الهداية والتوفيق بنظام وضعه سبحانه بحكمته فقال ﴿إن اللّه يسمع مَنْ يشاء﴾ إلخ: أى أن اللّه تعالى يهدى مَنْ يشاء إلى سماع الحجة سماع قبول وهم أحياء القلوب، وحينئذ فما أنت أيها النبى بمسمع أموات القلوب بالكفر، كما أنك لا تسمع الموتى فى القبور؛ وما عليك إلا الإنذار والتخويف من عقاب اللّه. ثم بيَّن أنه منذر من قبل اللّه تعالى فقال: ﴿إنا أرسلناك﴾ ... إلخ.

بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥)
ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) أَلَمْ
تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ
مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ
وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ
الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)
لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ

المفردات: . ﴿وإن من أمة﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى ومن لتأكيد العموم فيما بعدها، والأمة الجماعة أو الجيل أو القرن من الناس. ﴿خلا﴾: مضى والمراد: جاءها. ﴿نذير﴾: محذر لها من نبى أو عالم. ﴿البينات، والزبر، والكتاب المنير﴾: تقدمت كلها فى الآية (١٨٤) من سورة آل عمران صفحة ٩٣ . ﴿نكير﴾: تقدم فى الآية (٤٥) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩ . ﴿فأخرجنا به﴾: تقدم حكمة هذا التعبير فى الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ﴿٥٠١﴾ وانظر الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩ . ﴿جدد﴾: جمع جدة بضم أوله بوزن مدة وهى لون فى الشىء مستطيل يخالف ما بجانبيه، يقال فى ظهر الحصان جدة سوداء أى لون أسود ممتد كالطريق. ﴿غرابيب﴾: جمع غربيب بكسر فسكون بوزن قنديل، ومعناه شديد السواد وهو لفظ تؤكد به العرب الأسود فيقولون أسود غربيب، كما يقولون أصفر فاقع، وكان الأصل ﴿وسود غرابيب﴾ ولكن العرب عندما تريد التوكيد بتكرار ذكر الشىء تحذف الموصوف وتكتفى أولاً بصفته، ثم تذكر الموصوف ثانيًا بعد الصفة كأنه تفسير لها، فكأنهم ذكروا الشىء ثلاث مرات: مرة مضمرا، ومرة بوصفه، ومرة بذكره هو نفسه على أنه تفسير للوصف كما هنا. ﴿ومن الناس والدواب والأنعام﴾: إذا راجعت معنى ﴿دابة﴾ فى صفحة ٦٤٣ تعلم أن عطف الدواب على ما قبله من عطف العام على الخاص وأن عطف الأنعام على ما قبله من عطف الخاص على العام. ﴿إنما يخشى اللّه من عباده العلماء﴾: لأنهم هم الذين يدركون دقة صنعه سبحانه. ﴿تجارة لن تبور﴾: انظر الآية (١٠) وما بعدها من سورة الصف صفحة ٧٣٩ .

(١) بالبينات. (٢) بالكتاب. (٣) ثمرات. (٤، ٥) الوانها. (٦) الأنعام. (٧) الوانه.
(٨) العلماء. (٩) كتاب. (١٠) الصلاة . (١١) رزقناهم. (١٢) تجارة.

المعنى: إنا أرسلناك أيها النبى للناس كافة بالدين الحق مبشرًا من آمن به بالجنة ومنذرًا مَنْ كفر بالنار. وما من أمة من الأمم إلا جاء لها نذير أى وبشير، وإنما اقتصر على النذير لأنه المناسب لحال كفار قريش، وإنما فعل ذلك سبحانه لأنه عادل حكيم والحكيم لا يفعل شيئًا عبثًا فلا يصح أن يترك طائفة من الناس كبيرة فى أى عصر دون أن يرشدها لما فيه صالحها ويحذرها، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦؛ وانظر تفصيل ذلك فى الآية (٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣ . وإن يكذبك قومك أيها النبى فلا تحزن فقد كذبت الأمم قبلهم رسلهم حال مجيئهم لهم بالمعجزات الواضحات، وبالمواعظ التى تهز القلوب، وبالكتب الموضحة لطريق الصواب، فعاقبتهم بأخذهم بالعقوبة الشديدة، فانظر كيف كان أثر إنكارى عملهم وغضبى عليهم، ثم شرع سبحانه فى تقرير قدرته ووحدانيته بأدلة سماوية وأرضية يشاهدونها كل لحظة فقال ﴿ألم تر أن اللَّه﴾ إلخ: أى ألم تنظر وتتأمل أن اللَّه ينزل من السماء ماءً واحدا فيخرج به ثمرات مختلفا ألوانها بالحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك..ومن بديع صنعه تعالى فى الجبال أن منها ما هو ذو خيوط بيض وحمر مختلف ألوانها فى البياض والحمرة من شديد البياض والحمرة إلى متوسطها إلى ضعيفها، ومنها خيوط سوداء شديدة السواد كالفحم، وهذا لون غريب فى الجبال. ومن الناس والدواب والأنعام ﴿الإبل والغنم والبقر﴾ مختلف ألوانه كاختلاف ما تقدم، فمَنْ تأمل هذا الصنيع العجيب علم بديع صنع اللَّه فخشيه حق الخشية؛ لأنه لا يخشى اللَّه عن بينة إلا العلماء الذين يطلعون على أسرار صنعه. هؤلاء هم الذين ينجح فيهم الإنذار المتقدم فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٥٧٤؛ إن اللَّه غالب يخشى المؤمنون غضبه، كثير المغفرة لمَنْ رجع إليه بالتوبة. ثم هدد مَنْ يقصر، وبشر مَنْ يرجع، فقال: إن الذين يتلون كتاب اللَّه تلاوة تدبر تستلزم العمل بما فيه، وأقاموا الصلاة بشروطها، وأنفقوا بعض ما رزقهم اللَّه سرا فى الصدقات، وعلانية فى الواجب كالزكاة، يفعلون ذلك راجين تجارة مع اللَّه غير كاسدة؛ لأن مَنْ تاجر مع اللَّه لا تبور تجارته أبدًا أى لن تكسد وتخسر، انظر الآية (١٠) وما بعدها من سورة الصف صفحة ٧٣٩ . هؤلاء يرجون تلك التجارة ليوفيهم ربهم أجورهم، ويزيدهم من فضله أضعافًا كثيرة كما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥؛ لأنه سبحانه كثير المغفرة لهفواتهم.

شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ هُوَ
الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ
بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَٰبَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ
بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾
جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٓ
أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِىٓ
أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا
يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ
لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ

المفردات: ﴿شكور﴾: كثير الشكر لطاعة عباده، والمراد يحسن مجازاتهم عليها.

﴿لما بين يديه﴾: المراد: لما سبقه من الكتب السماوية.

﴿أورثنا الكتاب﴾: ﴿أورثنا﴾: الأصل نورث ولكنه أراد أنه محقق كأنه مضى. ﴿الكتاب﴾: هو القرآن. انظر وقارن بين ما هنا وما فى الآية (٥٣) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ والآية (١٤) من سورة الشورى صفحة ٦٤٠ .

﴿اصطفينا﴾: أى اخترناهم وفضلناهم على سائر الأمم بجعلهم أمة وسطا كما فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨ ؛ وبجعلهم خير أمة كما فى الآية (١١٠) من سورة آل عمران صفحتى ٨٠، ٨١.

﴿ظالم لنفسه﴾: هو مَنْ أسرف فى المعاصى حتى غلبت سيئاته على حسناته.

﴿مقتصد﴾: هو مَنْ خلط عملا صالحًا وآخر سيئًا حتى تساويا، انظر الآية (١٠٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٩ .

﴿سابق بالخيرات﴾: متقدم على غيره فى دخول الجنة بسبب ما عمل من خيرات رجحت على سيئاته حتى أذهبتها، انظر الآية (١١٤) من سورة هود صفحة ٣٠١ .

﴿أحلنا﴾: أى جعلها محلا لنا وأنزلنا فيها.

(٢،١) الكتاب.
(٣) بالخيرات.
(٤) جنات.

﴿دار المقامة﴾: أى دار الإقامة الدائمة، وهى الجنة. ﴿نصب﴾: أى تعب. ﴿لغوب﴾: المراد به الفتور الذى يعقب التعب، وذكره للمبالغة فى وجود الراحة. وقال بعض المفسرين ﴿النصب﴾ التعب الجسمانى، و﴿اللغوب﴾ التعب النفسى كالقلق. ﴿كفور﴾: شديد الكفر. ﴿يصطرخون﴾: أى يصرخون مستغيثين ويصيحون صياحا شديدًا.

المعنى: . بعدما بيَّن سبحانه فضل الذين يتلون الكتاب عاملين به، بيَّن أن هذا الكتاب حق تفضل به على المؤمنين فقال: والذى أوحيناه إليك، ثم بينه بأنه هو الكتاب أى القرآن، هو الحق حال كونه مصدقًا لما تقدمه من الكتب السماوية الصحيحة. إن الله بأحوال عباده خبير فيختار مَنْ يصلح للرسالة، بصير بما يصلح لهم من أحكام ينزلها فى كتبه. ثم بعد انتقالك أيها النبى إلى الدار الآخرة جعلنا أمتك وارثة لهذا الكتاب، تقوم على تنفيذ ما فيه، وبيين أسراره علماؤها. وهذه الأمة التى آمنت به ﷺ تنقسم ثلاثة أقسام، منهم مَنْ غلبت معاصيه على حسناته، ومنهم مَنْ ساوت حسناته سيئاته، ومنهم مَنْ غلبت حسناته فأذهب سيئاته، فكان من السابقين بتيسير الله تعالى وفضله ذلك الاصطفاء هو الفضل الكبير من الله، لافضل بعده. ثم بيَّن جزاءهم فى الآخرة فقال: جنات عدن يدخلونها فيحلون فيها بالذهب واللؤلؤ، ولباسهم الكاسى لأجسامهم فيها حرير. وهذا يشمل أقسام المؤمنين الثلاثة. أما الكافرون فسيأتى جزاؤهم فى الآية (١٣٦) الآتية. قال ﷺ: السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة، والظالم يحبس فى جهنم حتى يظن أنه لن ينجو ثم تناله الرحمة. وبعد دخول الجنة يقولون: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن والخوف من الموت والمكدرات، إن ربنا لكثير المغفرة، كثير الشكر لطاعة عبده، فيجازيه عليها أحسن الجزاء، ربنا هو الذى أنزلنا دار الإقامة الخالدة بفضله لا يمسنا فيها تعب ولا فتور والذين كفروا لهم نار جهنم وعذابها الدائم لا يموتون فيها فيستريحون، ولا يخفف عنهم من عذابها، انظر الآية (١٣) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤، كهذا الجزاء الشديد نجزى كل مبالغ فى كفره يضم إنكاره وحدانيته. ثم بيَّن حال الكفار بعد دخول النار فقال ﴿وهم يصطرخون﴾ إلخ: أى وهم يضجون بالاستغاثة قائلين يا ربنا أخرجنا .. إلخ.

أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا[1] غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ[2] مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ[3] غَيْبِ السَّمَاوَاتِ[4] وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ[5] فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ[6] كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ[7] كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ[8] شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ[9] أَمْ آتَيْنَاهُمْ[10] كِتَابًا[11] فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ[12] بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ[13] وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ

المفردات: ﴿نعمركم﴾: تقدم فى الآية (١١) من هذه السورة صفحة ٥٧٣.

﴿النذير﴾: المراد به هنا: الرسول.

﴿من نصير﴾: ﴿من﴾ لتأكيد العموم فيما بعدها، والنصير: المعين.

﴿ذات الصدور﴾: أى خفيات الصدور، انظر الآية (١١٩) من سورة آل عمران صفحة ٨٢.

﴿خلائق﴾: تقدم فى الآية (١٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٩٢.

﴿أرأيتم﴾: انظر المراد من هذا التركيب فى الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿لهم شرك فى السموات﴾: المراد: مشاركة فى خلق السموات كما تقدم فى الآية (٢٢) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٥، ٥٦٦.

﴿آتيناهم كتابا﴾: تقدم فى الآية (٤٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩. ﴿غرورا﴾: أى باطلا مزخرفا يغر مَنْ يسمعه، انظر الآية (١٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠. ﴿يمسك السموات﴾: المراد بالسموات هنا: كل ما ارتفع فوق رءوسنا، من تلك الأجرام التى نشاهدها من الشمس والقمر والنجوم.

---

(١) صالحا. (٢) للظالمين.
(٣) عالم. (٤) السموات.
(٥) خلائف. (٦، ٧) الكافرين.
(٨) أرايتم. (٩) السموات
(١٠) آتيناهم. (١١) كتابا
(١٢) الظالمون. (١٣) السموات

﴿إن أمسكهما﴾ إلخ:(إن) حرف نفى بمعنى (ما) و(من) تدل على عموم ما بعدها.

المعنى: - يستغيث الكفار فى جهنم ويقولون يا ربنا أخرجنا منها نعمل عملا صالحا غير العمل الطالح الذى كنا نعمله فى الدنيا. فيقال لهم توبيخا وتبكيتا: ألم نصبر عليكم ونطل أعماركم زمنًا يتمكن فيه من التذكر والتدبر مَنْ يريد أن يتذكر بإخلاص، وجاءكم مع ذلك رسولنا ينذركم بعقاب الله إذا خالفتم أمره، فلم يحصل منكم إلا الكفر والعناد، فذوقوا اليوم عذاب جهنم، فليس لكم أيها الظلمة مَنْ ينصركم ويدفع العذاب عنكم، انظر آيتى (٥٨، ٥٩) من سورة الزمر صفحة ٦١٤ . ولما كان يجول فى بعض الخواطر أنهم لو أجيبوا إلى طلبهم لاستقاموا، دفع ذلك سبحانه بأنه عالم بكل ما غاب فى السموات والأرض وأنه عالم بدخائل الصدور، ويعلم أنهم لو أجيبوا وعادوا للحياة الدنيا لما اعتبروا ولغلب عليهم طبعهم، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦ .

ثم بيَّن سبحانه أنه مكن لهم فى الأرض فكان عليهم أن يشكروه، ولكنهم كفروا، فقال: هو الذى جعلكم خلفاء فى الأرض لعمارتها، ونبهكم إلى أن مَنْ شكر نعمة ربه عليه فشكره عائد عليه بالفائدة، ومَنْ كفر ولم يشكر فوبال كفره عليه، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا أى غضبا شديدًا، ولا يزيدهم إلا خسرانا لكل خير فى الدنيا والآخرة. ثم رجع إلى توبيخهم على الشرك فقال ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين﴾ إلخ: أى أخبرونى أيها المشركون عن هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله تدعونهم دونه لقضاء حاجاتكم أرونى أى جزء من الأرض انفردوا بخلقه، أم لهم شركة مع الله تعالى فى خلق السموات فهل آتينا هؤلاء المشركين كتابا يدلهم على صحة شركهم فهم على علم وحجة واضحة بصحة ما يزعمون؟ الحق أنه لا شىء من ذلك، بل الواقع أن القادة الظالمين لا يعدون أتباعهم إلا باطلا مزخرفا، انظر ما تقدم فى صفحة ٥٦٧ .

وبعدما بيَّن ضعف معبوداتهم، وأنها لا تفعل شيئًا، أثبت لنفسه تعالى جلائل الأعمال فقال ﴿إن الله يمسك﴾ إلخ: أى أنه وحده هو الذى يمنع اختلال نظام السموات والأرض فيحفظهما من أن تزولا من الوجود، ولئن فرض أنهما زالتا ما أمسكهما أحد غيره تعالى.

مِّن بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَـٰنِهِمْ[1] لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى
ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ[2] ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ[3] ٱللَّهِ
تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ[4] ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ[5] ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ[6] وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن
دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

(٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣ .

﴿أجل مسمى﴾: أى أجل معين هو يوم القيامة.

المعنى: - ولئن زالت السموات والأرض لا يمسكها أحد غير الله تعالى إنه سبحانه كان حليمًا على هؤلاء المشركين، فلم يعجل بعقابهم غفورًا لمَنْ يتوب منهم، انظر الآية (٤٥) الآتية والآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣، والآية (٧٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨ .

ثم أراد سبحانه أن يثبت أن عادة كفار قريش الكذب، وأنهم غير صادقين فيما قالوه فى الآية (٣٧) المتقدمة من هذه السورة، فقال: ﴿وأقسموا بالله﴾ إلخ: وذلك أنه كان بلغهم قبل مبعثه ﷺ أن طائفة من أهل الكتاب كذبوا رسلهم فلعنوهم، واجتهدوا فى الحلف بالله قائلين

(١) أيمانهم. (٢) سنة. (٣،٤) لسنة.
(٥) عاقبة. (٦) السموات.

المفردات: - ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾: المراد مؤكدين أيمانهم، كما تقدم فى الآية (٥٣) من سورة المائدة صفحتى ١٤٧، ١٤٨ .

﴿نذير﴾: رسول.

﴿من إحدى الأمم﴾: إحدى هنا مراد بها العموم.

﴿يحيق﴾: أى ينزل ويحيط ﴿سنة الأولين﴾: أى عادة الله تعالى فى مجازاة الأمم السابقة التى عصت رسلها.

﴿ولو يؤاخذ الله الناس﴾ إلخ: تقدم فى الآية

والله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى من كل واحدة من أمم اليهود والنصارى وغيرهم فنؤمن جميعًا، انظر الآية (١٦٧) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٦، فلما جاء محمَّد نذيرا لهم من قبل الله ما زادهم مجيئه إلا نفورا من الحق وتباعدا عن الهدى حال كونهم مستكبرين فى الأرض عن الإيمان به وماكرين بالرسول المكر السيىء، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، ولا يحيط المكر السىء ويضر إلا بأهله. ومن هذا يعلم أن من مشركى العرب مَنْ كان يؤمن بأن للَّه رسلا من البشر لكنهم كفروا بنبينا عنادا فقط انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (٤٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤ ، كما أن منهم مَنْ لايقول برسول من البشر كما فى الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، والآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠ .

ثم هددهم فقال: ﴿فهل ينظرون﴾ إلخ: أى لا ينظر هؤلاء إلا مثل ما فعله اللَّه مع الأولين المكذبين لرسلهم مثلهم من العذاب الشديد. ولن تجد لعادة اللَّه تعالى تبديلا، فلن يضع موضع عذاب المكذب رحمة، ولن تجد لعادته تعالى تحويلا بأن ينقل عذابه من المكذبين لغيرهم، ثم استشهد على ما سبق فقال ﴿أولم يسيروا فى الأرض﴾ إلخ: أى هل قعدوا ولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين قبلهم من الهلاك والدمار مع أنهم كانوا أشد قوة؟ وذلك لأن اللَّه لم يكن يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض، بل لابد من أن يفعل ما يريده، ولا يقف شىء فى طريق قدرته لأنه عليم بكل شىء فى الوجود، فلا يخفى عليه منه شىء، قدير يفعل ما يشاء. ثم أراد سبحانه أن يبين سبب عدم إهلاكهم كما فعل بغيرهم، وأن ذلك مرجعه لسعة حلمه سبحانه وتعالى. فقال ولو يؤاخذ اللَّه الناس بما كسبوا من الذنوب ما ترك على ظهر الأرض، المفهومة مما سبق، دابة واحدة لا من إنسان ولا من غيره؛ لأن شؤم المعاصى يعم الجميع، وقيل الدابة هنا لمَنْ يعقل فقط. ولكن اقتضت حكمته أن يؤخرهم إلى يوم القيامة، فإذا جاء هذا الأجل المضروب لهم فإنه سيجازى كلا على قدر عمله بكل دقة؛ لأنه كان بصيرًا بأعمال عباده فيجازى عن علم. والله تعالى أعلم.

(٣٦) سُورَةُ يسٓ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿يس﴾: تنطق ياسين، بسكون آخرها. وتقدم أول سورة البقرة المراد من مثلها.

﴿الحكيم﴾: صاحب الحكمة وهى وضع كل شىء فى محله.

﴿صراط مستقيم﴾: تقدم فى الآية (٦) من سورة الفاتحة صفحة ٢.

﴿ما أنذر آباؤهم﴾: تقدم بيان ذلك فى شرح الآية (٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣.

﴿حق القول﴾: تقدم فى شرح الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿أغلالا﴾: مفردها غُل بضم أوله وهو طوق من حديد تشد اليد إلى العنق للتعذيب.

﴿الأذقان﴾: جمع ذقن بفتحتين وهى آخر الوجه من أسفل. ﴿مقمحون﴾: جمع مقمح بضم فسكون ففتح. وهو الذى رفع رأسه وغض بصره. يقال: أقمح الغلُّ الرجلَ. أى جعل رأسه مرفوعًا من ضيقه. ﴿بين أيديهم﴾: أمامهم.

﴿أغشيناهم﴾: جعلنا على أبصارهم غشاوة كما فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

المعنى: اشتملت هذه السورة أيضًا كالسور المكية على إثبات الأصول الثلاثة: الوحدانية والرسالة والبعث، كما اشتملت على ضرب الأمثال وذكر القصص للعبرة، ولما كان كفار قريش قالوا للنبى ﷺ لست مرسلا كما فى الآية (٤٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨، رد سبحانه

---

(١) ياسين. (٤) آباؤهم. (٧) أغلالا.
(٢) القرآن. (٥) غافلون. (٨) فأغشيناهم.
(٣) صراط. (٦) أعناقهم. (٩) أأنذرتهم.

عليهم هنا بقوله: ﴿والقرآن الحكيم﴾ .. الخ: أى وحق هذا القرآن الممتلئ حكمة إنك أيها النبى من الذين اخترناهم لتبليغ رسالتنا للخلق، وإنك سائر على صراط مستقيم وهو دين الإسلام. نزل تنزيلاً من الله العزيز الغالب الذى لا يمنعه مخلوق عن تنفيذ ما يريد. الرحيم بعباده إذ أرسل إليهم مَنْ يرشدونهم إلى طريق النجاة، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢. أنزلنا عليك هذا القرآن لتنذر كفار قريش الذين فى عهدك الذين لم ينذر آباؤهم الأقربون على لسان رسول خاص إنذارًا مباشرًا، وإن كانوا وصلتهم تعاليم إبراهيم وجاءهم بها اسماعيل، انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤، ٥٧٥؛ وكل هذا فى غير اعتقاد وجود الخالق وتوحيده، أما اعتقاد وجود الخالق سبحانه وتوحيده فلا يحتاج إلى رسول كما سبق بيانه فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

ثم جاء بما هو علة للإنذار فقال: ﴿فهم غافلون﴾ أى لأنهم فى غفلة عن الصواب كما تقول (إسق فلانًا فإنه عطشان)، ثم أراد سبحانه أن يبين أن الإنذار يقطع حجتهم كما فى الآية (١٦٥) من سورة النساء صفحة ١٣١ فقال: ﴿لقد حق القول﴾ إلخ: أى أنذرهم لتقوم عليهم الحجة؛ أما حقيقتهم فإنا نعلم أن أكثرهم من أتباع إبليس، وأن كلمتى حقت عليهم بأن يدخلوا جهنم، انظر الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤؛ لكل ذلك فهم لا يؤمنون أبدا. ثم صور حالهم الذى جعلهم لا يؤمنون فقال إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى محيطة بالعنق ومرتفعة إلى ذقونهم لكونها عريضة فهم لذلك مرتفعة رءوسهم إلى أعلى فشبه إصرارهم على الكفر واستكبارهم على الحق وعدم تواضعهم لاستماعه بالأقماح؛ لأن المقمح لا يطأطئ رأسه. وشبه عدم نظرهم فى العواقب المستقبلة بمن سد الطريق أمامه. وشبه عدم تفكيرهم فى أحوال الأمم الماضية بمن وضع خلفه سد فلا يستطيع الرجوع إلى الوراء، فكانت النتيجة أن أعينهم أصبحت لا تبصر شيئًا من أدلة الحق، كأن عليها غشاوة؛ ولذا قال: ﴿فهم لا يبصرون﴾. وإذا كان الأمر كذلك فأرح نفسك أيها النبى منهم فإن إنذارك وعدمه مستويان فنتيجتهما واحدة وهى أنهم لا يؤمنون أبدا، انظر نظير ذلك فى آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ
وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ(١) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ(٢)
فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ(٣) الْقَرْيَةِ إِذْ
جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا
فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾
وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ(٤) الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ
لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾
قَالُوا طَائِرُكُمْ(٥) مَعَكُمْ أَئِنْ(٦) ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿١٩﴾
وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ(٧) اتَّبِعُوا

المفردات: ﴿إنما تنذر﴾: المراد إنما ينتفع بتحذيرك.. إلخ انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦.

﴿الذكر﴾: هو القرآن. انظر الآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿خشى الرحمن بالغيب﴾: خاف ربه فى خلوته كما تقدم فى الآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤.

﴿ما قدموا﴾: أى من أعمال. انظر الآية (١٣) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩.

﴿آثارهم﴾: أعمالهم التى بقيت بعد موتهم من حسنة وسيئة كبناء مسجد أو مدرسة أو مصحة أو كتاب نافع، أو سيئة كضريبة ظالمة أو إذلال شعب أو طائفة من الناس إلى غير ذلك.

﴿إمام﴾: هو اللوح المحفوظ لأنه أصل الكتب وقدوتها.

﴿واضرب لهم مثلا﴾: انظر الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤.

﴿القرية﴾: هى انطاكية بفتح أولها وسكون النون وكسر الكاف مع الياء المخففة. وهى الآن فى مقاطعة أسكندرونة التابعة لتركيا. وقد أنكر ابن كثير فى تفسيره أنها أنطاكية واستدل على ذلك بأدلة.

(١) آثارهم.
(٢) أحصيناه.
(٣) أصحاب.
(٤) البلاغ.
(٥) طائركم.
(٦) أئن.
(٧) يا قوم.

﴿المرسلون﴾: قال قوم هم رسل عيسى عليه السلام. وقال ابن عباس وجماعة إنهم رسل من عند الله أيد بهم عيسى كما أيد موسى بهارون. وأيدوا رأيهم بأمور منها قوله تعالى :﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾ ومنها قول أهل القرية ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ والبشرية لا تنافى عندهم إلا الرسالة من قبل الله تعالى لا من قبل شخص آخر.

ومنها قول الرسل ﴿وما علينا إلا البلاغ﴾. وهذا غير معهود إلا فى رسل الله.

﴿عززنا﴾: أى قوينا.

﴿تطيرنا بكم﴾: تقدم فى الآية (٤٧) من سورة النمل صفحة ٥٠٠.

﴿طائركم معكم﴾: أى شؤمكم معكم.

﴿أئن ذكرتم﴾: معناه هل إن ذكرناكم بما أمرنا الله تعالى به تهددوننا بالقتل؟

﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر.

﴿مسرفون﴾: المراد: متجاوزون الحد فى الطغيان والكفر.

﴿المدينة﴾: هى القرية المتقدمة.

﴿رجل﴾: هو حبيب النجار كان يخفى إيمانه، ولما سمع بالرسل جاء ليساعدهم وينقذهم من ظلم قومه.

﴿يسعى﴾: أى يسرع.

المعنى: بعد ما بين سبحانه عدم نفع الإنذار فى كفار قريش، أتبع ذلك ببيان من يستفيد منهم فقال: ﴿إنما تنذر﴾ إلخ: أى إنما ينتفع بإنذارك من اتبع ما فى القرآن وتأمل فيه، وخشى عقاب الله بينه وبين ربه لا يرائى أحدًا، ولم يغتر برحمته سبحانه فإنه مع سعة رحمته شديد العقاب لمن لا يشكره عليها ويقدر فضله بها، انظر آيتى (٤٩، ٥٠) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ والآية (٣) من سورة غافر صفحة ٦١٧.

فبشر مَنْ يفعل ذلك بمغفرة من الله تعالى لذنوبه، وأجر حسن هو نعيم الجنة. ثم بين سبحانه ما يساعد من تأمله على الخشية فقال ﴿إنا نحن نحيى الموتى﴾ إلخ: أى إنا وحدنا

سنحيى الموتى من قبورهم يوم القيامة، وفى الدنيا نأمر الملائكة أن تكتب ما قدموه من خير أو شر فى صحائفهم. وكذلك نكتب أعمالهم التى تبقى بعد موتهم حسنة أم سيئة، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى (٣٨٧، ٣٨٨)، والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤.

وقال فى هذا ﷺ: (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة). ثم أكد سبحانه ما سبق فقال ﴿وكل شىء﴾ إلخ: أى وكل شىء فى هذا الوجود ومنه عملكم أحصيناه وحفظناه فى اللوح المحفوظ.

ثم أراد سبحانه أن يذكرهم بما حل بأمثالهم لعلهم يرجعون فقال ﴿واضرب لهم مثلا﴾ إلخ: أى اجعل أيها النبى قصة أصحاب القرية مثلا لقومك إذ اتفقوا معهم فى الكفر والإصرار على التكذيب؛ وبيِّن لهم قصتهم حين جاءهم المرسلون لإنقاذهم من الشرك، ثم فصل كيف كان ذلك فقال (إذ أرسلنا) إلخ: أى حصل ذلك حين أرسلنا إليهم رسولين فكذبوهما، فقويناهما برسول ثالث، فقال الثلاثة لأهل أنطاكية: إنا إليكم مرسلون.

فاستمروا على التكذيب وقالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل لكم حتى يميزكم الله علينا، وما أنزل الرحمن عليكم من شىء من الوحى، ما أنتم إلا تستسيغون الكذب ولا تستحون منه. ﴿قالوا ربنا يعلم﴾. العرب تستعمل هذا التركيب فى القسم، أى والله إنا إليكم لمرسلون، وما يطلب منا إلا أن نبلغكم رسالة ربنا واضحة. قالوا إنا تشاءمنا بكم لأنكم تطلبون منا أن نخالف ما كان عليه آباؤنا، ووالله إن لم تنتهوا عن قولكم هذا لنقتلنكم رجمًا بالحجارة، أو لنعذبنكم بالسجن مع المجرمين قالوا: سبب شؤمكم معكم وهو كفركم. ثم تعجبوا من حالهم مع توبيخهم فقالوا ﴿أئن ذكرتم﴾ إلخ: أى هل إن ذكرناكم بما فيه مصلحتكم تهددونا بالقتل؟ بل أنتم قوم مسرفون فى الظلم والطغيان. فى أثناء هذا الجدل جاء من أبعد مكان فى المدينة رجل يسرع، وقال: يا قوم اتبعوا المرسلين.. إلخ.

المفردات: ﴿فطرنى﴾: خلقنى.

﴿صيحة﴾: هى صوت شديد يصدر من أحد الملائكة لا يسمعه حى إلا مات.

الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم
مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ
بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾
إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ
فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾
* وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ
خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ
إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا

﴿خامدون﴾: ميتون هامدون كما تخمد النار.

﴿يا حسرة على العباد﴾: المراد بالعباد هنا هم كل من كذبوا رسلهم، ويدخل فيهم المهلكون هنا دخولا أوليًا، وأصل معنى الحسرة الغم على ما فات وأريد به هنا لازمها وهو التألم، ولو كان للغير، والمنادى محذوف. يقول العربى يا رعاك الله افعل كذا مثلا، يريد يا هذا الرجل رعاك الله.. إلخ، فالمراد هنا يا أيها السامع العاقل يحق لك أن تتحسر حسرة شديدة وتتألم لأجل هؤلاء الكفار حيث فوتوا على أنفسهم السعادة الأبدية. والغرض تبشيع حالتهم حتى يحذر السامعون سلوك طريقهم.

﴿أولم يروا﴾: هذا استفهام تقريرى، أى قرروا أنكم رأيتم أى علمتم، انظر مثلها فى الآية (١) من سورة الشرح صفحة ٨١٢.

﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾: كم تفيد معنى الكثير و﴿من القرون﴾ بيان لهذا الكثير.

﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾: معمول لفعل مقدر مفهوم من سياق الكلام وهو حكمنا وقضينا أنهم لا يرجعون.

﴿وإن كل لما﴾: (إن) هنا حرف نفى بمعنى (ما) و(لما) بمعنى (إلا) انظر الآية (١١١) من سورة هود صفحة ٣٠٠ أى ما كل واحد منهم إلا.. إلخ.

المعنى: قال هذا الرجل المؤمن مخاطبا أهل أنطاكية: يا قوم اتبعوا رسل الله. ثم رغبهم فقال: اتبعوهم لأنهم لا يسألونكم على رسالتهم شيئا من حطام الدنيا، والحال أنهم مهتدون،

(١) يسالكم. (٢) اتخذ. (٣) آلهة. (٤) شفاعتهم. (٥) ضلال. (٦) آمنت.
(٧) يا ليت. (٨) واحدة. (٩) خامدون. (١٠) يا حسرة. (١١) يستهزءون.

فإذا اتبعتموهم اهتديتم. عند ذلك شعر أهل القرية أنه آمن بهم وقد كانوا يظنونه على دينهم، فقالوا له: هل آمنت بهم؟ فتلطف فى إرشادهم بكلام يشعر أنه ينصح به نفسه، وأنه لم يختر لهم إلا ما اختار لنفسه، فقال: وما لى لا أعبد الذى فطرنى ثم أشعرهم بالخوف من الله فقال: وإليه ترجعون فى الآخرة. ثم نفى عن نفسه أنه يعبد غير الله تعالى فى أسلوب استفهام فقال: هل يصح أن أتخذ من دون الله آلهة؟ ثم بيّن السبب فى نفيه بقوله: إن يردنى الرحمن بضر، أى إن أراد الله أن يضرنى لا تنفعنى شفاعتهم عنده شيئا على فرض أنهم سيشفعون، فليس لهم عنده تعالى منزلة، وليس عندهم قوة ينقذوننى بها. إنى إذا عبدت غيره تعالى والله لفى ضلال واضح، انظر ما سبق فى شرح مبين فى الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦. ثم جهر بالحق مظهرا عدم المبالاة بهم فقال: إنى آمنت بربكم الذى ليس لكم إله غيره، فاسمعوا جميع ما قلت واعملوا به. عند ذلك فتكوا به وقتلوه، وعقب قتله بشرته الملائكة بأن روحه مع أرواح الشهداء فى الجنة والمراد فى نعيم لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى، كما أن الكافر يدخل عقب موته فى نار لا يعلمها غيره تعالى، انظر الآية (٢٥) من سورة نوح صفحة ٧٦٩. فلما شعر بالسعادة قال: ﴿يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين﴾. ثم أراد سبحانه أن يبين ما اقتضته حكمته فى إهلاكهم من احتقار شأنهم فقال: وما أنزلنا على قوم هذا الرجل الصالح من بعد موته جندا من السماء لإهلاكهم، وما كان يصح فى حكمتنا أن نفعل ذلك لأنا نهلك كل قوم بما يليق بهم، انظر الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. وفى الكلام تعظيم شأن نبينا ﷺ؛ لأن الله سبحانه انزل له ملائكة تشد عزائم أصحابه، انظر الآية (١٢٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٣. ثم بيّن سبحانه ما أهلكهم به فقال: ﴿إن كانت﴾ إلخ: أى ما كانت الفعلة التى أهلكناهم بها إلا صيحة واحدة لا أكثر، صاح بها جبريل عليهم فإذا هم ميتون فيا أيها السامعون يحق لكم أن تتحسروا حسرة شديدة على عباد خلقهم الله تعالى وتفضل عليهم ثم كفروا برسله، فما يأتيهم رسول من ربهم إلا كانوا به يستهزئون! ثم وبخ سبحانه كفار مكة على إهمالهم ما يعلمونه مما يدل على خطر ما هم فيه فقال: ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل جهلوا ولم يعلموا إهلاكنا أمما كثيرة قبلهم حاكمين عليهم أنهم لا يرجعون إليهم، بل يرجعون إلينا نحن لمجازاتهم بما يستحقون وفى الكلام تهكم بكفار مكة وإبراز لجهلهم بما لا يصح أن يجهل، وما ذلك إلا لأنهم كانوا مثلهم، فيجب أن يعتبروا، ثم هددهم بما سيلاقيهم يوم القيامة فقال: ﴿وإن كل﴾ إلخ: أى وما كلهم إلا جميع.. إلخ.

جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ
أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا
جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾
لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾
سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ
وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ
نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ
تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾
وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾
لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ
ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا
ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ

المفردات: ﴿جميع﴾: هنا بمعنى مجموع، كقتيل بمعنى مقتول، انظر الآية (١٠٣) من سورة هود صفحة ٢٩٩، وبمعنى (جَمْع) بفتح فسكون كما فى الآية (٤٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٧.

﴿محضرون﴾: أى تحضرهم الملائكة للعذاب، أنظر الآية (١٦) من سورة الروم صفحة ٥٣٢.

﴿آية لهم﴾: أى دليل لهم على قدرة الله تعالى على البعث.

﴿الميتة﴾: أى القاحلة. ﴿أحييناها﴾: أى جعلناها منبتة بعد نزول الماء عليها.

﴿وما عملته أيديهم﴾: (ما) اسم بمعنى (الذى) معطوف على (ثمره) أى وليأكلوا مما عملته أيديهم مما رزقناهم على ما سيأتى فى الشرح.

﴿الأزواج﴾: جمع زوج والمراد به هنا كل شيئين بينهما ارتباط يؤديان به الحكمة من خلقهما. كالذكر والأنثى فى الحيوان أو النبات.

﴿نسلخ منه النهار﴾: أصل السلخ نزع الجلد عن الجسم. وفى الكلام تشبيه عجيب جدا إذ جعل الجو كأنه زنجى أسود يغطى جسمه شىء أبيض، وذلك أن الأصل فيما بين السماء والأرض الظلمة، كفراغ البيت الذى لا سراج فيه، فإذا ظهرت عليه الشمس أضاءته، وجعل ضوء النهار شيئًا أبيض ساترا لهذا الزنجى من جميع جهاته كأنه جلد له، فإذا غربت الشمس فكأنه سلخ ضوء النهار عن جسم الجو فصار مظلمًا.

---

(١) آية. (٢) أحييناها. (٣) جنات. (٤) أعناب.
(٥) سبحان. (٦) الأزواج. (٧) آية. (٨) الليل.
(٩) قدرناه. (١٠) الليل. (١١) وآية.

﴿إذا هم﴾: (إذا) كلمة تدل على مفاجأة ما بعدها لما قبلها.

﴿لمستقر لها﴾: أى لزمان استقرارها النهائى وهو يوم القيامة.

﴿حتى عاد﴾: (عاد) هنا بمعنى (صار) كما تقول عاد النبات أخضر أى صار أخضر.

﴿العرجون﴾: هو العود الغليظ المتصل بالنخلة وفى آخره عناقيد البلح.

﴿فلك﴾: أى طريق مستدير.

﴿يسبحون﴾: المراد يسيرون مسيرًا هادئًا منتظمًا كسير السابح فى الماء.

﴿ذريتهم﴾: وإنما خص الذرية بالذكر مع أن المراد هم وذريتهم؛ لأن العرب بل كل الأمم تعتز ببنيها وتفخر بكثرتهم، لأنهم أهم أسباب القوة. والتغلب على الخصوم، انظر الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ والآية (٤٦) من نفس السورة صفحة ٣٨٧ والآية (٧٧) من سورة مريم صفحة ٤٠٤ والآية (٣٥) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨ والآية (٢٠) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢ والآية (١٤) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ والآية (٢١) من سورة نوح صفحة ٧٦٩ والآية (١٣) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦. ﴿الفلك﴾: السفن.

المعنى: ما كلهم إلا مجموعون لدينا يوم القيامة للحساب، محضرون بعد ذلك فى جهنم للعذاب. ودليل واضح على قدرة الله تعالى على البعث نقدمه لهم هى تلك الأرض التى تكون قاحلة، فإذا نزل عليها الماء صارت حية أى ذات نبات. وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون فلا يستطيعون دعوى الجهل بذلك، وجعلنا فى الأرض جنات من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها بعض العيون للسقى منها إذا غاب المطر أو جفت الأنهار ليأكلوا من ثمر هذا المذكور من النخيل والأعناب، ومما دخلته صنعة أيديهم منه، كعصير العنب أو طبخه حتى يصبح مربى وغيرها؛ هل جهل كل هذا كفار مكة فلا يشكرون الله تعالى عليه ويقرون بقدرته سبحانه على بعثهم؟ ولما كان الكلام السابق يشعر بأنهم لم يشكروا نعم ربهم وأشركوا به غيره. ناسب أن يذكر ما فيه تنزيهه سبحانه عما صنعوا فقال: ﴿سبحان الذى﴾ إلخ: أى تنزيهًا لمن خلق هذه الأزواج كلها وحده مما تنبت الأرض من أشجار وزروع، ومن أنفسهم من ذكور وإناث، ومما لا يعلمون من أزواج لم يطلعوا عليها إلى ذلك الحين، وظهر بعضها بعد ذلك، وكثير بقى فى طى الخفاء، ومما ظهر من الأشياء المتزاوجة الكهرباء التى تحدث من (موجب وسالب)، والمغناطيس الذى

يحدث من (شمال وجنوب) إلى غير ذلك. وبعد ما أثبت البعث بأحوال الأرض وما يطرأ عليها أتبع ذلك بذكر أحوال الأجرام السماوية فقال ﴿وآية لهم الليل﴾ إلخ: أى وآية لهم على القدرة العظيمة الليل نبعد عنه النهار إبعادا لا يبقى معه شىء من ضوئه. فإذا هم داخلون فى وقت الظلام. وآية لهم أيضًا الشمس تجرى بنظام بديع لا يختل لحظة، وستبقى كذلك إلى قيام الساعة، ذلك الجرى على هذا النظام هو تقدير العزيز الغالب بقدرته على كل مخلوق، العليم بأسرار خلقه. وقال سبحانه ومن أدلة قدرتنا أن قدرنا سير القمر فى منازل يقطعها فى ٢٨ ليلة ثم يصير آخر الشهر كالعرجون القديم فى النحول والاعوجاج. ومن دقيق صنعه تعالى أن جعل الشمس لا يسهل لها أن تدرك القمر فى سرعة سيره لأنه يقطع دورته كل شهر مرة، وهى تقطعها كل عام، ولا الليل يسبق النهار فيترك بينهما فاصلا بل لابد من مجىء النهار عقب الليل مباشرة. وكل ما تقدم من الأرض والشمس والقمر لا يسير إلا فى طريقه لا يصطدم واحد منها بالآخر ويمكن أن ندرك روعة هذا النظام ودلالته القاطعة على أن لهذا الكون مدبرًا حكيمًا دائم السيطرة عليه إذا تصورنا مائة سيارة قد تجمعت فى منطقة واحدة مهما كانت مترامية الأطراف ثم انطلقت تسير بلا قيادة ثم ننظر ماذا يحدث؟ لاشك أنه لا يمضى على انطلاقها لحظات حتى يصدم بعضها بعضا وتحطم بعضها بعضا. إذا كان هذا يحدث مع قلة عدد السيارات وضآلة سرعتها إذا قيس عددها بعدد الكواكب المنطلقة فى الفضاء وهى تعد بالملايين وقيست سرعتها بسرعة الكواكب التى لا يتصورها العقل وتعد بجانبها السيارات كأنها سلحفاة. ومع ذلك لا تتصادم ولا تسقط على الأرض، إذ لو حصل ذلك لخرب هذا العالم الذى نعيش فيه فى طرفة عين. نقول إذا كان هذا هو الواقع أليس فيه البرهان القاطع على أن لهذا الكون ربا أحكم صنعه وحفظ نظامه، انظر الآية (٦٥) من سورة الحج صفحتى ٤٤٢، ٤٤٣ والآية (٤١) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٧، ٥٧٨. وآية لهم على قدرتنا أيضًا هى أنا حملنا ذريتهم الذين هم أعز شىء عندهم فى أثناء السفر فى البحر فى السفن المملوءة بهم وبكل ما يحتاجون إليه، وخلقنا لهم ما يركبونه فى البر من جمال وغيرها حال كونه مثل الفلك فى قضاء مصالحهم، انظر آيتى (٧ و ٨) من سورة النحل صفحة ٣٤٦ والآية (٢٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧ والآية (٨٠) من سورة غافر صفحة ٦٢٨.

مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا
هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا[1] إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ[2] مِّنْ ءَايَٰتِ[3] رَبِّهِمْ إِلَّا
كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟[4] أَنُطْعِمُ
مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ[5] مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[6] ﴿٤٨﴾
مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً[7] تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا[8] مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا

المفردات: ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾: متعلق بالفلك لأنها الأصل فى العبرة هنا، وغيرها ذكر تبعا لها ولأن العبرة فيها أوضح، لأن حمل الأجسام الضخام على الماء السائل فى العبرة أبهر.

﴿صريخ﴾: المراد به هنا الصراخ، وهو الاستغاثة، والمراد يموتون سريعًا.

﴿متاعًا إلى حين﴾: أى متعناهم بالحياة متاعا إلى انقضاء آجالهم.

﴿وإذا قيل لهم اتقوا﴾.. إلخ: جواب (إذا) مقدر مفهوم من السياق يدل عليه ﴿وما تأتيهم من آية﴾.. إلخ.. والأصل إذا قيل لهم اتقوا.. إلخ لم يبالوا وأعرضوا.

﴿ما بين أيديكم﴾: هو عذاب الآخرة.

﴿ما خلفكم﴾: هو ما حل بالأمم السابقة من الهلاك.

﴿من آية﴾: (من) لتأكيد العموم فيما بعدها، والآية الحجة الدالة على التوحيد وصدق الرسول.

(١) متاعا.
(٢) آية.
(٣) آيات.
(٤) آمنوا.
(٥) ضلال.
(٦) صادقين.
(٧) واحدة.
(٨) يا ويلنا.

﴿إن أنتم﴾: إن حرف نفى أى ما أنتم.

﴿الوعد﴾: المراد: الموعود به وهو البعث.

﴿ينظرون﴾: أى ينتظرون،

﴿يخصمون﴾: أى يختصمون فى البيع والشراء ومشاكل الحياة، فالمراد: بغتة وهم لايشعرون بها، انظر الآية (٢٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢.

﴿نفخ فى الصور﴾: المراد هنا: النفخة الثانية، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

﴿فإذا هم﴾: إذا تفيد مفاجأة ما بعدها لما قبلها.

﴿الأجداث﴾: جمع جدث بفتحتين. وهو القبر.

﴿ينسلون﴾: أى يسرعون، انظر آيتى (٩٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠ و(٤٣) من سورة المعارج صفحة ٧٦٧.

﴿يا ويلنا﴾: أى يا هلاكنا وهى كلمة يقولها المتحسر.

﴿من مرقدنا﴾: المراد: مَن رقادنا. وذلك أنهم لما شاهدوا هول القيامة تصوروا أن كل ما قضوه فى القبور كان نومًا، ومهما كان فيه من العذاب لا يساوى شيئًا بالنسبة لما شاهدوه انظر آيتى (٤٥) من سورة يونس صفحة ٢٧٣ و (٥٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١.

المعنى: - ومن فضلنا عليهم أننا خلقنا لهم ما يركبونه مثل السفن، وإن نشأ إغراقهم هم وذريتهم نغرقهم فجأة فلا يستطيعون استغاثة، وإذا فرض أن استغاثوا فلا أحد ينقذهم؛ ولكن رحمة منا بهم جعلناهم يتمتعون بالحياة إلى حين انتهاء آجالهم. ومن جرائم كفار قريش أنهم كانوا إذا قيل لهم احذروا عذاب الآخرة أو عذاب مثل ما حل بمَنْ قبلكم راجين من الله تعالى

رحمته لم يبالوا واستمروا فى إعراضهم. ثم بيَّن عدم مبالاتهم بقوله ﴿وما تأتيهم من آية)﴾إلخ: أى ما تأتيهم حجة من الحجج التى ساقها الله تعالى لهم إلا استمروا فى إعراضهم عنها.

وبعد مابيَّن إعراضهم عن خالقهم بيَّن قسوة قلوبهم على المخلوقين المحتاجين فقال ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا﴾ إلخ: أى وإذا قال لهم بعض المؤمنين ناصحين لهم، كما نصح المؤمنون قارون فى الآية (٧٧) من سورة القصص صفحة ٥١٨ بقولهم أعطوا المساكين بعض ما رزقكم الله، قال هؤلاء الكافرون بالله وبنعمته للمؤمنين مغالطةً هل تطمعون أن نكون أحسن للفقراء من الله؟ لو شاء الله إطعامهم لأطعمهم، ما أنتم أيها الناصحون إلا فى بعد عن الصواب حيث تريدون أنْ نطعم مَنْ حرمه الله. وهذا فوق أنه هو الضلال، جهل بحكمة الله تعالى فى تفاوت الخلق فقرًا وغنى؛ لأنه سبحانه جعل ذلك اختبارًا للغنى أيشكر ويتصدق أم لا؟ وهل يصبر الفقير أم لا؟ انظر شرح الآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. وأيضًا ليتخذ بعضهم بعضا سخريًا، انظر شرح الآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠. وبعد ما بيَّن بخلهم وتضليلهم ودفاعهم عنه بيَّن سبحانه إنكارهم للبعث فقال ﴿ويقولون متى﴾... إلخ: أى ويقول هؤلاء المشركون على سبيل الاستهزاء بالرسول ﷺ وأصحابه متى هذا البعث الذى تهددوننا به؟ أخبرونا عن وقته إن كنتم صادقين فى أنه آت. ورد سبحانه بقوله ﴿ما ينظرون﴾ إلخ: أى لا ينتظر هؤلاء وأمثالهم إلا صيحة واحدة هى نفخة إسرافيل الأولى المصرح بها فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ تأخذهم فجأة وهم متخاصمون فى أمور الدنيا، فلا يستطيع الواحد منهم أن يوصى فى أمواله وأولاده أحدا، ولا يستطيع مَنْ كان بعيدًا عن أهله أن يرجع إليهم. ونفخ فى الصور النفخة الثانية، فإذا هم من القبور يسرعون إلى لقاء ربهم للحساب. وعندما يشاهدون الأهوال يقولون قولاً مقطوعًا بتحققه: ياهلاكنا مَنْ الذى أيقظنا من نومنا؟ فترد عليهم الملائكة توبيخًا لهم: هذا الذى تشاهدونه هو ما وعد به الرحمن... إلخ.

مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَٰحِدَةً[1] فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾
فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ[2] ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ
فَٰكِهُونَ[3] ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ[4] فِى ظِلَٰلٍ[5] عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ[6] وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾
سَلَٰمٌ[7] قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟[8] ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ[9] ءَادَمَ
أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ[10] إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ
ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ[11] مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ
جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ
ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ

المفردات: ﴿إن كانت﴾: إن حرف نفى، أى ما كانت الفعلة التى أعادتهم إلا صيحة.. إلخ. ﴿إذا هم﴾: تقدم فى الصفحة السابقة. ﴿جميع لدينا محضرون﴾: تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿شغل﴾: الشغل هو ما يشغل الإنسان عن غيره. ﴿فاكهون﴾: الفاكه والفكه بفتح وكسر المتنعم المتلذذ.

﴿ظلال﴾: المراد بالظل الموضع الذى لاتصيبه الشمس، انظر الآية (١٤) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢. (الأرائك): تقدم فى الآية (٣١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥.

﴿ما يدعون﴾: أى ما يدعون به، أى ما يطلبونه مما تشتهيه أنفسهم، انظر الآية (٥٥) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩.

﴿سلام﴾: خبر لمبتدأ مقدر، والأصل تحيتهم فى الجنة سلام.

يقال لهم من ربهم سبحانه وتعالى، انظر الآية (١٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٦، ٢٦٧.

﴿قولا﴾: الأصل يقال لهم قولاً صادرًا من رب رحيم، والمراد بأمره للملائكة به.

﴿امتازوا﴾: أى انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين. (ألم): الاستفهام للتقرير، كما فى الآية (١)

---

(١) واحدة. (٢) أصحاب.
(٣) فاكهون. (٤) أزواجهم.
(٥) ظلال. (٦) فاكهة.
(٧) سلام. (٨) امتازوا.
(٩) يابنى آدم. (١٠) الشيطان.
(١١) صراط.

من سورة الشرح صفحة ٨١٢، أى اعترفوا بأنا عهدنا إليكم. ﴿أعهد إليكم﴾: تقدم معناها فى الآية (١١٥) من سورة طه صفحة ٤١٧.

﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾: أى لا تطيعوه انظر الآية (٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩.

﴿جبلا﴾: تقدم فى الآية (١٨٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١.

﴿اصلوها﴾: تقدم فى الآية (١٨) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧.

المعنى: قال الملائكة للكفار هذا الذى تشاهدونه هو ما وعد به ربكم الذى رحمكم بإرساله الرسل لإرشادكم مما أنتم فيه اليوم فحرمتم أنفسكم من رحمته، وهذا هو ما صدق المرسلون فى إخباركم به. ولم يكن جمعهم لهذا اليوم شاقًا على الله تعالى، فما كانت الفعلة التى جمعتهم إلا صيحة واحدة، فإذا هم مجموعون لدينا للحساب، محضرون للعذاب ويقول الله تعالى لهم: اليوم لا تظلم نفس شيئًا من حسناتها إن كان لها حسنات، ولا تجزون أنتم أيها المشركون إلا جزاء عملكم لا يزاد عليكم شىء ظلما، انظر شرح آيتى (٧، ٨) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٨.

ثم بيَّن سبحانه ما أعد للمحسن وللمسىء فقال: إن أصحاب الجنة فى اشتغال بما هم فيه من النعيم لا يفكرون فى سواه، متلذذون بكل ما فى الجنة من نعم، هم وأزواجهم فى مكان لايرون فيه حر الشمس. على السرر متكئون. ثم بيَّن بعض ما يتنعمون به فقال: لهم فيها فاكهة من كل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولهم كل ما يتمنون ويطلبونه؛ أما نعيمهم الروحانى فهو تحية ربهم لهم بأن يأمر الملائكة بالسلام عليهم كلما رأوهم، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، ثم يقال للكفار: وابتعدوا اليوم أيها المجرمون عن منازل المؤمنين. ثم يقال لهم توبيخًا: ﴿ألم أعهد﴾ ... إلخ: أى ألم نأمركم على لسان رسلنا بألا تطيعوا الشيطان لأنه لكم عدو ظاهر العداوة، فلا يدلكم إلا على ما فيه هلاككم، وقلنا لكم اعبدونى وحدى. هذا الطريق المستقيم الموصل للجنة ولكنكم لم تسلكوه بل سلكتم طريق الشيطان حتى أضل منكم خلقا كثيرا. فهل فقدتم عقولكم حتى تطيعوه؟ ثم يقال لهم لزيادة عذابهم هذه جهنم التى كان الرسل أوعدوكم بها إن بقيتم على جرائمكم. وبما أنكم لم تنتفعوا بهذا الوعيد فقاسوا اليوم حر نارها بسبب كفركم.

تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ[1] وَتُكَلِّمُنَآ
أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ
نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ[2] فَأَنَّىٰ
يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ[3] عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا
ٱسْتَطَٰعُوا۟[4] مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ
فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ[5] ٱلشِّعْرَ وَمَا
يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ[6] مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ
مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[7] ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا[8] فَهُمْ لَهَا
مَٰلِكُونَ[9] ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا[10] لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا
يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ[11] وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً[12] لَّعَلَّهُمْ

المفردات: ﴿اليوم نختم﴾ .. إلخ: انظر الآية (٢٤) من سورة النور صفحة ٤٦٠، والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢.

﴿استبقوا الصراط﴾: تقدم فى الآية (٢٥) من سورة يوسف صفحة ٣٠٦.

﴿فأنى﴾: فكيف.

﴿لمسخناهم﴾: المسخ تحويل حالة الشىء من حسنة إلى قبيحة، قال ابن عباس لمسخناهم أى أهلكناهم.

﴿على مكانتهم﴾: (على) بمعنى (مع) كما فى قوله تعالى ﴿آتى المال على حبه﴾ إلخ الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤؛ والمعنى مع تمكنهم فى القوة والعَدَد والعُدَد وظنهم أن لا غالب لهم فنأخذهم من حيث لا يشعرون بما يهلكهم.. فهو نظير ما فى الآية (٨٢) من سورة غافر صفحتى ٦٢٨، ٦٢٩ والآية (١٥) من سورة غافر صفحة ٦٣١؛ وانظر أصل معنى المكانة فى شرح الآية (١٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٥.

﴿مضيا ولا يرجعون﴾: لا يستطيعون ذهابا وإيابا والمراد: هلكوا.

﴿نعمره﴾: تقدم فى الآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣.

﴿ننكسه فى الخلق﴾: أصل التنكيس جعل الأعلى أسفل، والمراد نجعل قوته ضعفا، انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٣٣٣، ٣٣٤ والآية (٥٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٨.

(١) أفواههم.
(٢) الصراط.
(٣) لمسخناهم.
(٤) استطاعوا.
(٥) علمناه.
(٦) قرآن.
(٧) الكافرين.
(٨) أنعاما.
(٩) مالكون.
(١٠) ذللناها.
(١١) منافع.
(١٢) آلهة.

الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٣٣٣، ٣٣٤ والآية (٥٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٨.

﴿الشعر﴾: انظر المراد من الشعر هنا فى الآية (٢٢٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣.

﴿إن هو إلا ذكر﴾: إن حرف نفى بمعنى (ما) أى ما هذا المنزل على رسولنا إلا تذكير للعاقل وقرآن يتلى.

﴿من كان حيا﴾: أى عاقلا يقظ الضمير متأملا لأن الغافل كالميت.

﴿يحق القول﴾: تقدم فى الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿أيدينا﴾: الذى يجب علينا أن نفهمه من ذلك أنه سبحانه خلقه بلا شريك ولا معين. ﴿أنعاما﴾: هى الإبل والبقر والغنم. ﴿ذللناها لهم﴾: جعلناها منقادة لهم. ﴿ركوبهم﴾: مركوبهم كحلوب بمعنى محلوب. ﴿مشارب﴾: جمع مشرب بمعنى مشروب أى اللبن، كالمأكل أى المأكول.

المعنى: يقال اليوم ادخلوا النار بما كنتم تكفرون. وبلغ من حيرتهم أنهم حين يسألون فى الحساب عن أعمالهم تخرس ألسنتهم، وتنطق أيديهم وأرجلهم بكل ما كسبوا من سيئات، ثم أراد سبحانه أن يبين شمول قدرته وأنهم كانوا يستحقون أن يعذبهم فى الدنيا حالا، ولكن سعة رحمته اقتضت إمهالهم لعل فيهم من يرجع إلى الصواب فقال: ﴿ولو نشاء﴾ إلخ: أى لو شئنا محو أبصارهم لفعلنا وأعميناهم، فإذا تسابقوا إلى الطريق كعادتهم فلا يمكن أن يبصروه. ولو نشاء لمسخناهم أى أهلكناهم رغم ظنهم أنهم أقوياء. ثم أراد سبحانه أن ينبههم إلى قدرته على البعث بحالة يشاهدونها فى أنفسهم فقال: ﴿ومن نعمره﴾ إلخ: أى ومن نطل عمره نقلب حاله من قوة فى جسمه وعقله إلى ضعف فيهما. فهل غفلوا عن هذا فأصبحوا لا يعقلون أن من قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى الضعف يقدر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم ويبعثهم بعد الموت. ولما كان افتراؤهم عليه ﷺ بقولهم إنه شاعر وأن ما جاء به من القرآن شعر أى خيالات وأوهام لا حقيقة لها، لما كان كل هذا، رد سبحانه بقوله: وما علمناه الشعر. وما ينبغى لرسولنا ذلك؛ لأنه لا يقول إلا الحق، وما هذا الذى جاء

به الكافرين. ثم أعاد سبحانه الكلام فى وحدانيته وتفرده بالخلق فقال ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل عميت أبصارهم ولم يروا أنا خلقنا لمنفعتهم من ضمن ما انفردنا بإيجاده أنعاما فهم متصرفون فيه، وأخضعناها لهم لينتفعوا بها، فمنها ما يركبونه، ومنها ما يأكلونه، ولهم فيها منافع أخرى منها اللبن الذى يشربونه، فهلا شكروا الله على هذه النعم؟ ثم صرح بجرمهم فقال: واتخذوا من دون الله آلهة راجين نصرها لهم.

المفردات: ﴿وهم لهم جند﴾: أى أن المشركين هم الجنود المدافعون عن الأصنام.

يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ(١) أَنَّا خَلَقْنَاهُ(٢) مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ(٣) وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ(٤) وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ(٥) عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ(٦) الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ(٧) الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿محضرون﴾: أحضرتهم الشياطين للدفاع عنهم، انظر الآية (٦٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧.

﴿خصيم مبين﴾: تقدم فى الآية (٤) من سورة النحل صفحة ٣٤٥.

﴿وضرب لنا مثلا﴾: انظر ضرب المثل فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤، والجملة معطوفة على جملة ﴿ير الإنسان﴾ داخلة فى خبر الإنكار.

﴿ونسى خلقه﴾: أى ترك التأمل فى خلق الله له من التراب والنطفة القدرة. انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤ والآية (٨) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥.

(١) الإنسان.
(٢) خلقناه.
(٣) العظام.
(٤) السموات.
(٥) بقادر.
(٦) الخلاق.
(٧) فسبحان.

﴿رميم﴾: أى بال قديم. يقال رم يرم بوزن حن يحن إذا بلى وتفتت. فهو فعيل بمعنى فاعل وإنما لم يؤنث فيقال (رميمة)؛ لأنه لغلبة استعماله غير مسبوق بموصوف صار كالأسماء الجامدة التى لا يجرى عليها حكم الصفات، وأما إذا كان (رميم) مأخوذ من قولهم رمت البقر الحشيش أى أكلته وكأن ما بلى وتفتت أكلته الأرض فيكون بوزن فعيلاً بمعنى مفعول، وهو يستوى فيه المذكر والمؤنث فيقال رجل جريح وامرأة جريح.

﴿من الشجر الأخضر نارا﴾: قال ابن عباس فى كل شجر نار. وخص الأخضر بالذكر لبيان كمال القدرة الإلهية.

﴿فإذا﴾: إذا كلمة تدل على سرعة حصول ما بعدها.

﴿بقادر﴾: الباء لتأكيد ثبوت القدرة له تعالى.

﴿بلى﴾: حرف يدل على إثبات ما بعد النفى السابق أى نحن قادرون؛ انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿يقول له كن﴾: لم يعلمنا سبحانه حقيقة هذا القول، وإنما الذى يجب أن نعتقده أنه سبحانه إذا قضى أمرًا نفذ بقدرته سريعًا من غير توقف على شىء آخر.

﴿ملكوت﴾: تقدم فى الآية (٧٥) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

المعنى: واتخذ الكفار لأنفسهم آلهة غير الله يرجون نصرهم فيما يهمهم من الأمور مع أن تلك الآلهة لا تستطيع نصرهم ومع ذلك فإن هؤلاء الكفار جند لآلهتهم محضرون لخدمتهم وحفظهم، انظر الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤.

وهل هناك حماقة أشد من حماقة مَنْ ينتظر النصر ممَن هو فى حاجة إلى من يحافظ عليه؟ وبعد ذلك أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ عنادهم فقال ﴿فلا يحزنك قولهم﴾: أى فى الله تعالى بأن يكون له شريكا، وفيك أيها النبى بأنك شاعر، إلى غير ذلك، لأنا نعلم ما يسرونه من نياتهم الخبيثة، وما يعلنونه من أفعالهم الذميمة، وسنجازيهم على كل ذلك أشد الجزاء. وبعد ما أبطل الشرك أراد أن يبين بطلان إنكارهم البعث بعد ما شاهدوا فى أنفسهم

ما يوجب التصديق به فقال ﴿أو لم ير الإنسان﴾ إلخ: أى هل جهل هذا الإنسان ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة من ماء مهين فإذا هو شديد الخصومة لربه مجاهر بها، إذ ادعى أن لله شريكًا، وكذب رسوله. وهذا منه تعالى إنكار شديد عليهم، ولفت لأنظار العقلاء للتعجب من عنادهم. ثم زاد فى تجهيلهم فقال ﴿وضرب لنا مثلا﴾ إلخ: أى جعل لنا مثلا ونظيرًا من الخلق إذ قاس قدرتنا على قدرتهم، فجعل ما يمتنع عليهم ممتنعًا علينا، وأهمل النظر فى قدرتنا على خلقه هو من النطفة الحقيرة، وأن من قدر على ذلك يقدر على إعادته بعد موته بل ذلك أسهل عليه، انظر الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٢٤. ثم بيّن سبحانه ما قاله الكافر بقوله ﴿قال من يحيى العظام﴾ إلخ: أى قال فى أسلوب المنكر لا أحد يستطيع إحياء العظام المفتتة. قل لهم أيها النبى: يحييها الذى أنشأها أول مرة، وهو عليم بكل ما يخلق وبتفاصيل أجزائه. ثم أرشد الكفار إلى دليل على البعث غير ما تقدم فقال: ﴿الذى جعل لكم﴾ أى الذى أحيا العظام أول مرة هو الذى قدر على إيجاد النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء المضاد للنار، ولا شك أن مَنْ يقدر على ذلك يكون أقدر على أن يعيد الجدة إلى ما كان غضا فيبس ثم أكد أنهم متحققون من قدرته على ما تقدم فقال: ﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾: أى لا تشكون فى أنها نار حقيقية، ثم أثبت مضمون ما سبق فقال ﴿أوليس﴾ إلخ: أى أليس الذى خلق السموات والأرض مع ضخامتهما، بقادر على أن يحيى مثل هؤلاء الكفار انظر الآية (٥٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٥، والآية (٣٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١، والآية (٢٧) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠.

ثم رد على إنكارهم بقوله ﴿بلى﴾ أى نعم هو قادر على ذلك؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الخلاق لكل شىء. العليم بدقائق خلقه، ثم أكد كل ما سبق من شمول قدرته وعلو سلطانه فقال: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا﴾ إلخ: أى لا يحتاج إلا لقوله كن فيكون، أى فينفذ سريعًا بلا حاجة إلى معين. ثم بعد ذلك أرشدنا إلى تنزيهه سبحانه عما افتروه فقال: ﴿فسبحان الذى﴾ إلخ: تنزه ربنا الذى تحت سلطانه كل هذا الملك الواسع علويه وسفليه تنزيهًا يليق به.

﴿وإليه ترجعون﴾ أيها الناس جميعًا وفيكم هؤلاء المشركون، فيجازى كلا بما هو أهله نسأله الله السلامة فى ذلك اليوم.

سورة الصافات

(٣٧) سورة الصافات مكية وآياتها اثنتان وثمانون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصافات صفا ﴿١﴾ فالزاجرات زجرا ﴿٢﴾ فالتاليات ذكرا ﴿٣﴾ إن إلهكم لواحد ﴿٤﴾ رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴿٥﴾ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴿٦﴾ وحفظا من كل شيطان مارد ﴿٧﴾ لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب ﴿٨﴾ دحورا ولهم عذاب واصب ﴿٩﴾ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴿١٠﴾ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الصافات﴾: هى جموع الملائكة المحلقة بأجنحتها فى صفوف منتظمة منتظرة أوامر ربها، انظر شرح الآية (١) من سورة فاطر صفحة ٥٧١؛ والآية (١٦٥) الآتية فى هذه السورة صفحة ٥٩٦.

﴿فالزاجرات﴾: هى الملائكة التى تعمل على إبعاد الشياطين عن استراق السمع بقذفهم بالشهب، انظر الآية (٧) الآتية ومابعدها، والآية (٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ والآية (٨) من سورة الجن صفحة ٧٧١.

﴿التاليات﴾: هى الملائكة القارئات لكلام الله المنزل على رسله. ﴿ذكرا﴾: المراد كتب الله، انظر الآية (٤٣) من سورة النحل صفحة ٣٥١، والآية (١٠٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والآية (٤١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٥، والآية (٥١) من سورة القلم صفحة ٧٦١.

﴿المشارق﴾: جمع مشرق وهو موضع شروق الشمس والقمر والنجوم وهى كناية عن رب العالم كله.

﴿الدنيا﴾: مؤنث الأدنى بمعنى الأقرب، فالمراد القربى لمن على وجه الأرض. ﴿مارد﴾: أى

(١) الصافات. (٢) فالزاجرات. (٣) فالتاليات.
(٤) لواحد. (٥) السموات. (٦) المشارق.
(٧) شيطان. (٨) الملأ. (٩) خلقناهم.

متمرد خارج عن الطاعة. (لايسمعون): أى لايتسمعون خلسة. ﴿الملأ الأعلى﴾: المراد بهم هنا كبار الملائكة. ﴿يقذفون﴾: أى يرجمون.

﴿دحورا﴾: الدحور هو الطرد والإبعاد. ﴿واصب﴾: دائم كما فى الآية (٥٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٢. ﴿شهاب﴾: أصل الشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة، والمراد هنا مايرى فى الجو كأنه كوكب ساقط من السماء. ﴿ثاقب﴾: أى مخترق لجسم المارد.

المعنى: يقول سبحانه أقسم بالملائكة الصافين فى مقام العبودية، الزاجرين الشياطين عن التسمع لما يدور فى الملأ الأعلى، التالين لآيات الله تعالى على رسله: إن إلهكم أيها الناس لواحد، هو رب السموات والأرض ومابينهما. وهو رب مطالع الشمس على هذا النظام البديع الذى لايختل يوما. وهذا دليل على وجود صانع حكيم منفرد بتصريف ملكه وإلا لاختل وفسد، انظر الآية (٢٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢ وقد ورد مثل هذا القسم فى القرآن كثيرا؛ لأنه جاء بلغة العرب وأساليبهم وكان من عادتهم إذا سمعوا الرجل يقسم يعلمون أنه سيقول كلاما مهمًا يجب الإصغاء إليه. وسبب ذلك أنهم كانوا يخافون من الأيمان الكاذبة. ويعتقدون أنها تخرب الديار. فيستقبلون الكلام المبدوء بالقسم باهتمام. فإذا فاجأهم البرهان القاطع وهم بهذا الاستعداد كانوا أقرب إلى الانقياد. ولايعرض إلا من كان شديد العناد. وعلى هذه العادة المعروفة عندهم أقسم سبحانه بأشياء كثيرة منها القرآن؛ ومنها بعض مخلوقاته كما هنا لحكم كثيرة فى المقسم به والمقسم عليه. منها أنه يلفت النظر إلى مواضع العبرة فى هذه الأشياء المقسم بها. والحث على تأملها حتى يصلوا إلى الصواب فيها. فمما أقسم به سبحانه القرآن لبيان أنه كلام الله حقا، وفيه كل أسباب السعادة انظر الآية (٢) من سورة يس صفحة ٥٧٩ والآية (١) من سورة ص صفحة ٥٩٧ والآية (٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٧ وغير ذلك؛ ومنها الملائكة لبيان أنهم عباد لربهم خاضعون، لا آلهة يعبدون كما فى هذه السورة. ومنها الشمس والقمر والنجوم لما فيها من الفوائد؛ ولأن تغيرها من حال إلى حال ينادى بحدوثها وأن لها خالقا حكيما. فلا تصح الغفلة عن شكر المنعم بها فضلا عن عبادتها.

انظر الآية (٣٧) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٤ و ٦٣٥ وصفحتى ٧٠٠ و ٨٠٩. ومنها الرياح كما فى الآية (١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٢. ومنها الطور وغيره صفحتى ٦٩٦ و٦٩٧. ومنها القلم. والسماء ذات البروج. والفجر. والتين وغير ذلك مما سيأتى. وأهم ما أقسم سبحانه عليه الأصول الثلاثة التى جاء بها جميع الرسل. وهى الوحدانية كما هنا الآية (٤)، والرسالة كما فى الآية (٣) من سورة ص صفحة ٥٩٧، والبعث يوم القيامة كما فى آيتى (٥ و ٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٢، والآيات (٧ إلى ١٦) من سورة الطور صفحة ٦٩٧. ومما يجب التنبه له أن هذا النوع من القسم مما اختص به سبحانه. فلا يجوز لنا أن نحلف إلا بالله تعالى أو بصفة من صفاته سبحانه. لقوله ﷺ: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليسكت».

ثم أكد تفرده فقال (إنا زينا) إلخ: أى إنا وحدنا الذين زينا مايرى فى رأى العين أنه السماء القربى بزينة هى الكواكب التى يراها أهل الأرض فى الليل مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال وأوضاع مختلفة، وحفظنا السماء حفظا من كل شيطان متمرد ثم بيَّن سبحانه حال الشياطين بعد حفظ السماء بقوله (لايسمعون)إلخ: أى لايتسمعون مصغين إلى مايدور فى الملأ الأعلى، وإذا حاولوا من أية جهة تسمعًا يرمون من كل جانب إبعادا عنها، ولهم على تلك المحاولة فى الآخرة عذاب دائم، لايسمعون شيئًا إلا مَنْ اختلس من كلام الملائكة جملة، عند ذلك يلحقه شهاب يثقب ظهره، وكل هذا من أحوال الغيب التى يجب علينا الإيمان بها. وعدم التعمق فى بحثها؛ لأنه لولا أن الله تعالى أخبرنا بها ما أمكن الوصول إلى علم شىء منها. فيجب أن نقف عندما أعلمنا لأنه سبحانه لم يكلفنا البحث فيما وراء ذلك. ثم شرع بعد ذلك فى إثبات البعث وإبطال إنكارهم فقال مخاطبا رسوله (فاستفتهم) إلخ: أى فاستخبر مشركى مكة أيها النبى واسألهم هل هم أصعب خلقا وأشق إيجادا، أم مَنْ خلقنا من الملائكة والسموات والأرض ومابينهما وغير ذلك، ثم بيَّن أنهم هم أسهل من كل ماذكر، فقال (إنا خلقناهم من طين لازب) ولا شك أن مَنْ خلق من طين رخو تسهل إعادته يوم القيامة، فكيف يستنكرون أن يخلقوا منه مرة ثانية كما فى الآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠.

لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا
لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا
إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ
وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ
يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا
يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ * احْشُرُوا
الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ
مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾
قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ

المفردات: ﴿لازب﴾: متماسك لا هو بالسائل ولا بالصلب. ﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من غرض إلى آخر. ﴿يستسخرون﴾: يبالغون فى السخرية. ﴿إن هذا﴾: إن حرف نفى بمعنى (ما) أى ماهذا. ﴿داخرون﴾: أى خاضعون أذلاء صاغرون، انظر الآية (٨٧) من سورة النمل صفحتى ٥٠٤، ٥٠٥.

﴿زجرة﴾: المراد بها صيحة الملك بالنفخة الثانية. ﴿فإذا هم﴾: إذا كلمة تدل على سرعة حصول مابعدها.

﴿ينظرون﴾: أى ينتظرون مايفعل بهم.

﴿ياويلنا)﴾ كلام يقوله المتحسر ومعناه ياهلاكنا.

﴿يوم الدين﴾: تقدم فى سورة الفاتحة.

﴿احشروا الذين ظلموا﴾: تقدم بيان ذلك فى الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والآية (٩٢) ومابعدها من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥. ﴿فاهدوهم﴾ إلخ: المراد دلوهم على طريق جهنم. ﴿لاتناصرون﴾: أى لاينصر بعضكم بعضا بالتخليص من العذاب.

﴿مستسلمون﴾: أى منقادون لا قدرة لهم على الخلاص. ﴿تأتوننا عن اليمين﴾: تستعمل العرب اليد فى القوة، وهى فى اليد اليمنى أظهر؛ لأن البطش يكون بها غالبا، فالمراد كان إتيانكم لنا صادرًا عن القوة والقهر فأرغمتمونا على الكفر.

(١) آية. (٢) أ إذا.
(٣) عظاما. (٤) أ إنا.
(٥) آباؤنا. (٦) داخرون.
(٧) واحدة. (٨) ياويلنا.
(٩) أزواجهم. (١٠) صراط.

المعنى: بعد ما بيَّن سبحانه قدرته على إعادتهم يوم القيامة انتقل إلى بيان حاله ﷺ وحال الكفار فقال ﴿بل عجبت﴾ إلخ: أى لاتستفتهم فإنهم معاندون بل انظر إلى تفاوت حالك وحالهم، فأنت تعجب من جهلهم وشدة غفلتهم، وهم يسخرون من تعجبك وتقديرك للبعث وإذا ذكرتهم بما فى القرآن ووعظتهم لايتعظون، وإذا رأوا معجزة تدل على صدقك يبالغون فى السخرية بك وبها، وقالوا عنها ماهذا إلا سحر ظاهر. ثم بينوا سبب إنكارهم فقالوا: هل إذا متنا وكنا ترابا وعظاما، ثم كرروا الاستفهام ثانية مبالغة فى الإنكار فقالوا: أ إنا لمبعوثون؟ ثم بالغوا فى الإنكار فقالوا: هل نُبعث حتى آباؤنا الأولون القدامى؟ أى فبعثهم يكون أبعد فى التحقيق، فأمر سبحانه رسوله أن يرد عليهم ويقول لهم نعم ستبعثون وأنتم صاغرون، وليست الفعلة التى تبعثكم من القبور إلا صيحة واحدة لاثانى لها؛ فإذا هم أحياء ينتظرون مصيرهم. ثم بيَّن ماسيكون منهم عند ذلك؛ فقال: وقالوا ياهلاكنا هذا الذى نشاهده هو يوم الحساب الذى وعدنا به الرسول، فتقول لهم كبار الملائكة: هذا يوم الفصل بين الخلائق الذى كنتم به تكذبون. ثم يقول هؤلاء الملائكة لزبانية جهنم: احشروا الذين ظلموا أنفسهم بالكفر هم وأزواجهم اللائى اتبعنهم؛ لأن الإنسان يتألم من رؤية زوجته تتعذب معه، كما يسر أهل الجنة بنعيم زوجاتهم معهم، انظر الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٥٦) من سورة يس صفحة ٥٨٤، والآية (٧٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤.

واحشروا معهم أيضًا مَن كانوا يطيعونهم من دون الله من الشياطين لأنهم رأس كل المصائب انظر ماتقدم قريبا فى الآية (٦٠) من سورة يس صفحة ٥٨٤، فدلوا الجميع على طريق جهنم، وقفوهم أولاً فى موقف الحساب عند الصراط لأنهم سيسألون عن جميع ماحصل منهم لتقوم عليهم الحجة. ثم يقال لهم توبيخا: مالكم اليوم لاينصر بعضكم بعضا ثم انتقل إلى بيان الواقع فقال: بل هم اليوم منقادون أذلاء. ثم بين ماسيكون من الأتباع والمتبوعين من التخاصم فقال سبحانه ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾: أى سؤال لوم. ثم بيَّن ذلك بقوله: قالوا أى الأتباع منهم للمتبوعين؟ إنكم كنتم ترغموننا بقوة تضليلكم على الكفر والمعاصى، انظر شيئًا من ذلك فى الآية (٣٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧، فقال المتبوعون فى الرد عليهم، ليس كذلك، بل أنتم الذين كنتم كافرين.

تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا
لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ
يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ
بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ
مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾
إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ
مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ

المفردات: ﴿سلطان﴾: أى قهر وتسلط انظر الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣. ﴿بل﴾: حرف يدل على انتقال من كلام إلى آخر. ﴿حق علينا﴾: المراد وقع علينا عذاب ربنا كما تقدم بيانه فى الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿إنا لذائقون﴾: أى للعذاب، والمراد معذبون، انظر الآية (٣٨) الآتية.

﴿فأغويناكم﴾ إلخ: انظر بيان ذلك فى آيتى (٩١ و ٩٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥. ﴿المخلصين﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة يوسف صفحة ٣٠٦. ﴿رزق معلوم﴾: المراد. معروف بصفاته التى لايشاركه فيها غيره، انظر الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦ وآيتى (٣٢ و ٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ إلى غير ذلك مما لايكون إلا فى الجنة. ﴿كأس﴾: أصل الكأس الإناء إذا كان فيه شراب. ويطلق على الشراب نفسه وهو المراد هنا، أى خمر. ﴿معين﴾: أى نهر ظاهر للعيون، انظر الآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤. ﴿بيضاء﴾: صفة للخمر، قال الراغب: العرب تطلق (الأبيض) على مَنْ لم يدنس بعيب فيقولون فلان أبيض الصفحة أو العرض أى أنه لاعيب فيه. ﴿لذة﴾: مبالغة فى أنها لذيذة حتى كأنها اللذة نفسها. ﴿غول﴾: أصل الغول: الإفساد، تقول العرب غاله الشىء إذا أفسده، وفى خمر الدنيا مفاسد كثيرة منها السكر، وغياب العقل، والصداع، وهذا ما أشار إلى نفيه هنا. ومنها القىء، وكثرة البول والعرق، وهذا ما أشار إليه بقوله ﴿ولاينزفون﴾ كما سيأتى، انظر الآية (١٩) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

(١) سلطان. (٢) طاغين. (٣) فأغويناكم. (٤) غاوين. (٥) آلهتنا.
(٦) فواكه. (٧) جنات. (٨) متقابلين. (٩) للشاربين.

المعنى: . قال المتبوعون للتابعين منكرين أنهم أضلوهم: إننا لم نضلكم، بل كنتم بسبب إفسادكم فطرتكم غير مؤمنين بطبعكم لابتأثير منا، وعلى فرض أنا أغويناكم فهل كان لنا عليكم قهر حتى نجبركم على الكفر؟ بل كنتم قوما متجاوزين الحد فى الفساد، فوجب وثبت علينا وعيد ربنا بأنا سنذوق العذاب لا محالة، انظر الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤. ثم بينوا مافيه شبه عذر لهم فى إضلال الأتباع فقالوا (فأغويناكم) أى لم يكن منا إلا أن دعوناكم إلى الغواية لأننا غاوون أى ضالون، فأحببنا أن تكونوا مثلنا، فصادف ذلك هوى نفوسكم فأسرعتم إلى مطاوعتنا. فرتب سبحانه نتيجة ذلك بقوله: إنهم يومئذ فى العذاب مشتركون، كما اشتركوا فى الضلال، لكن عذاب القادة أشد من عذاب التابعين، انظر الآية (٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٨، والآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠. ثم بين سبحانه أن ماحصل لهم عدل منه سبحانه يعامل به كل مَنْ عمل فقال (كذلك: أى كما نفعل بهؤلاء نفعل بكل مجرم مشرك مثلهم. ثم بّين سبب ماحصل لكفار مكة بقوله ﴿إنهم كانوا﴾ إلخ: أى لأن هؤلاء الكفار كانوا فى الدنيا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون عن الاعتراف بها، ويقولون فى تبرير استكبارهم هل نترك عبادة آلهتنا لرجل شاعر أى مزخرف للباطل مجنون لايعرف مايقول؟ يريدون أخزاهم الله تعالى. النبى ﷺ. ورد سبحانه عليهم بقوله ﴿بل جاء﴾ إلخ: أى لم يأت بشعر بل جاء بالحق وصدق كل رسول سبق، أى لم يأت بما يخالف العقول، انظر الآية (٣) من سورة آل عمران صفحتى ٦٢ و ٦٣. ثم حكم سبحانه حكمه النهائى عليهم فقال إنكم أيها المشركون المجرمون وعزتى لذائقون للعذاب الشديد الألم، وليس هذا إلا جزاءً على أعمالكم القبيحة، لكن عباد الله الذين أخلصوا أعمالهم لربهم، هؤلاء لهم فى الجنة رزق معلوم بيّنه سبحانه بقوله: فواكه تقدم لهم وهم مكرمكون، تصل إليهم بلا تعب حال كونهم فى جنات النعيم، على سرر متقابلين لتمام الأنس، تطوف عليهم الملائكة بخمر من نهر لاينقطع، بيضاء شديدة اللذة للشاربين، ليس فيها منَ عيوب خمر الدنيا شىء من صداع أو سكر.. إلخ.

المفردات: . ﴿عنها ينزفون﴾: أصل النزف نزح الشىء وإذهابه بالتدريج، يقال: نزفت الماء

وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ[1]
عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى
قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ[2] لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا[3] مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا[4] أَءِنَّا[5] لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم
مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ[6] فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ
تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ[7] (٦١) أَذَٰلِكَ
خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهَا[8] فِتْنَةً
لِّلظَّٰلِمِينَ[9] (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ (٦٤)

من البئر إذا نزحته كله منه شيئًا فشيئًا، و(عن) تفيد السببية كما فى آيتى (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١ و ٢٦٢ و(٥٣) من سورة هود صفحة ٢٩٢ فالمراد لايخرج مافى أبدانهم بسببها. ﴿قاصرات الطرف﴾: الطرف أى العين، والقصر الحبس، أى حابسات أعينهن على أزواجهن لاينظرن إلى غيرهم لجمالهم فى نظرهن. ﴿عين﴾: جمع عيناء بفتح فسكون، وهى المرأة الواسعة العين فى جمال. ﴿بيض﴾: المراد به هنا بيض النعام خاصة لأنه هو الذى تشبه به العرب المرأة الجميلة لصفاء بياضه واختلاطه بما يكسبه جمالا فى نظرهم. ﴿مكنون﴾ أى محفوظ لا تمسه الأيدى ولا يلحقه غبار. ﴿قرين﴾: خليل وصاحب، انظر الاية (٢٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣.

﴿أ إنك﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، أى لاتصدق بيوم البعث.

﴿مدينون﴾: أى مسئولون عن أعمالنا ومجازون عليها. (سواء الجحيم): أى وسط جهنم. (إن كدت.. إلخ): إنك قاربت لتهلكنى.

﴿المحضرين﴾: الذين تحضرهم ملائكة العذاب كما تقدم فى الآية (٦١) من سورة القصص صفحتى ٥١٥ و ٥١٦.

﴿أفما نحن﴾: استفهام تلذذ من القائل وتوبيخ للقرين، والأصل: هل نحن مخلدون فى

---

(١) قاصرات. (٢) أ إنك. (٣) أ إذا. (٤) عظاما. (٥) أ إنا.
(٦) فرآه. (٧) العاملون. (٨) جعلناها. (٩) للظالمين.

النعيم فما نحن بميتين ﴿نزلاً﴾: يطلق النزل على المكان الذى ينزل فيه الضيف المكرم، كما فى الآية (١٠٧) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥ ويطلق على مايقدم للضيف من الطعام كما هنا.

﴿شجرة الزقوم﴾: الزقوم اسم لشجرة صغيرة منتنة الرائحة مرة الطعم تنبت بأرض تهامة من بلاد العرب. ﴿فتنة﴾: محنة لهم فى الآخرة بإرغامهم على أكلها، وفى الدنيا حيث سارعوا إلى إنكارها وقالوا كيف يكون فى النار شجر، فيزيد عذابهم على ذلك، انظر الفرق بين المؤمن بالغيب والكافر به فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦ و ٧. ﴿أصل الجحيم﴾: أى قاع جهنم.

المعنى: من صفات خمر الجنة أن شاربيها لايسكرون ولا يصيبهم منها صداع، ولايخرج مافى جوفهم بسببها، وعندهم نساء لاينظرن إلا إلى أزواجهن حسان العيون والبشرة كأنهن بيض محفوظ. ثم عطف على قوله (يطاف عليهم) قوله (فأقبل) إلخ: أى يشربون فيتحادثون يسأل بعضهم بعضا عما كان فى الدنيا، فيقول قائل منهم: إنى كان لى صاحب يقول لى مبكتًا هل أنت ممن يصدق بالبعث؟ وهل عقلك مصدق أننا إذا متنا وصرنا ترابا وعظاما نحاسب ونجازى؟ ثم قال هذا القائل لإخوانه هل أنتم مطلعون معى نبحث عنه أين هو الآن؟ فاطلع جهة النار فرأى صاحبه فى وسط جهنم، فقال له شماتة به: والله إنك لقد قاربت تهلكنى بإغوائك لى فى الدنيا، ولولا نعمة ربى على بالتوفيق لكنت الآن من المحضرين معك فى جهنم، ثم خاطب إخوانه متلذذا بنعمة الله تعالى عليهم فقال: أفما نحن بميتين إلا الموتة الأولى كما وعدنا ربنا؟ انظر الآية (٥٦) من سورة الدخان صفحة ٦٦٠ وما نحن بمعذبين أبدا، بل سنكون فى نعيم خالد. ثم بين سبحانه الفرق بين حال المؤمنين والكافرين بقوله (إن هذا) إلخ: أى إن هذا الذى فيه أهل الجنة لهو الفوز العظيم، لمثل هذا فليعمل العاملون، هل هذا الرزق المعلوم الذى يقدم لأهل الجنة خير أم شجرة الزقوم التى جعلناها محنة للكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك؟ كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠. ثم شرع سبحانه يوضح شيئًا من بشاعة شجرة الزقوم فقال: إنها شجرة تنبت فى قاع جهنم.

ويجب علينا الإيمان بأن الله الذى خلق الأشياء وخصائصها قادر على أن يفعل مايشاء فيجعل فى النار شجرًا، كما يجعل فى الشجر الأخضر نارا، كما تقدم فى الآية (٨٠) من سورة يس صفحة ٥٨٦.

وإذا كان الإنسان استطاع أن يخترع ثيابا لا تحرقها النار فهل يعجز خالق الإنسان أن يخلق

طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ[1] ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ[2] مِنْهَا
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ
حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ
أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ[3] ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ[4]
يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ[5]
ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ
نَادَىٰنَا[6] نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ[7] وَأَهْلَهُۥ مِنَ
ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ[8] ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ[9] عَلَىٰ نُوحٍ فِى
ٱلْعَٰلَمِينَ[10] ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ
مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ[11] ﴿٨٢﴾

المعجزات؟ وإذا كان الإنسان استطاع الآن أن يرى ويخاطب مَنْ بينه وبينه مسافات شاسعة تقدر بالآف الأميال، فهل يتصور أن الله تعالى يعجز عن جعل أهل الجنة يتخاطبون مع أهل النار مهما تباعد مابينهما؟

المفردات: . ﴿طلعها﴾: بيَّن اللغويون الطلع بأنه أول مايظهر من ثمر النخل فى وسطه شماريخ البلح، انظر شرح الآية (١٤٨) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٨، ٤٨٩، وهو المعبر عنه بالأكمام فى الآية (١١) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩. وبيَّنه آخرون بأنه الشماريخ نفسها، انظر شرح الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، وظاهر ما فى الآية (١٠) من سورة ق صفحة ٦٨٩ يتفق مع الأخير.

﴿رءوس الشياطين﴾: من عادة العرب أنهم يشبهون كل قبيح فى صورته بالشيطان لأن صورته بشعة فى مخيلاتهم. ويشبهون حسن الصورة بالملك.

﴿شوبًا﴾: أصله مصدر شاب الشىء بالشىء إذا خلطه به والمراد به هنا المشرب به وهو الحميم الذى يخلط على الغساق الآتى فى الآية (٢٥) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧.

﴿حميم﴾: ماء شديد الحرارة. ﴿ألفوا﴾: وجدوا.

﴿على آثارهم﴾: انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠.

﴿يهرعون﴾: تقدم فى الآية (٧٨) من سورة هود صفحتى ٢٩٥، ٢٩٦.

(١) الشياطين. (٢) لآكلون. (٣) آباءهم. (٤) آثارهم. (٥) عاقبة. (٦) نادانا.
(٧) ونجيناه. (٨) الآخرين. (٩) سلام. (١٠) العالمين. (١١) الآخرين.

المعنى: . ثمر شجر الزقوم كأنه رءوس الشياطين. وعندما يشتد الجوع بالكفار يأكلون من طلع هذه الشجرة فيملئون منها بطونهم مكرهين.

فإذا عطشوا واستغاثوا وطالت استغاثتهم تسحبهم الزبانية إلى الحميم، فيغاثون بالماء شديد الحرارة، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ والآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤. ثم بعد ذلك ترجعهم الملائكة إلى الجحيم، انظر الآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١. ثم بين سبب استحقاقهم لهذا العذاب بقوله: إنهم ألفوا.. إلخ: أى وجدوا آباءهم ضالين فأسرعوا فى السير على طريقهم. ثم بين أن ضلال الأمم وتقليد بعضها بعضا قديم كما فى الآية (١٧٠) من سورة البقرة صفحة ٣٢ والآية (٧٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، فقال وقد ضل قبلهم أكثر الأولين. والمراد تهديد كفار مكة بأنه سيحصل لهم ماحصل لمَنْ قبلهم عندما فعلوا مثلهم. فالمراد ولقد ضل قبل كفار مكة أكثر الأمم الماضية. ولقد أرسلنا فيهم رسلا منذرين كما أرسلناك فى قومك أيها النبى، فانظر ماذا كانت عاقبة المنذرين عندما كذبوا رسلهم، بينتها الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦ أى أهلكناهم إلا عباد الله المؤمنين الذين أخلصهم الله تعالى لدينه فإنهم نجوا من العذاب.

ثم فصل بعض ما أشار إليه فيما سبق من إنذار الرسل وتكذيب الأمم ليخفف عن نبيه ﷺ فقال (ولقد نادانا نوح) أى بقوله يارب إنى مغلوب فانتصر كما فى الآية (١٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ فوعزتى لنعم المجيبون لدعائه نحن. فانتقمنا منهم بالغرق. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم أى الغرق وما كان يلاقيه من إيذاء قومه. وكافأه على صبره بجعلنا ذريته هم الباقين وحدهم ولم يبق على ظهر الأرض واحد ممن كان خارج السفينة، انظر الآية (٢٦) من سورة نوح صفحة ٧٦٩. وتركنا أى أبقينا عليه ثناءً حسنًا على لسان من جاء بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة. وقلنا سلام على نوح ونشرناه فى جميع العالمين ليسلموا عليه كما سلمنا عليه. إنا كما جزينا نوحا بهذا الفضل نجزى كل محسن. ثم بين سبحانه علة إحسانه عليه بقوله إنه.. إلخ: أى لأن نوحا كان من عبادنا المؤمنين إيمانا كاملا. ثم ختم سبحانه قصة نوح بالنتيجة المقصودة منها وهى تحذير كفار قريش، فقال: ثم أغرقنا كل مَنْ بقى خارج السفينة لأنه لم يكن مؤمنًا، انظر الآية (٣٦) من سورة هود صفحة ٢٨٩ والآية (٤٠) من سورة هود أيضًا صفحة ٢٩٠.

* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾
أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى
سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ
عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ
أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ
كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ
رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾
فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ

المفردات: . ﴿وإن من شيعته﴾: المراد: وإن من الجماعة التى اتفقت مع نوح فى مبدئه كما تقدم فى الآية (٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٧٢ والمراد هنا: مَنْ تابعه فى أصل الدين. ﴿أئفكا آلهة﴾: الهمزة الأولى للاستفهام التوبيخى، والإفك أقبح الكذب كما فى شرح الآية (١١) من سورة النور صفحة ٤٥٨. وهو هنا مفعول لأجله، وآلهة مفعول (تريدون) مقدم عليه. ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾: انظر معنى هذا فى الآية ٦ من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥. ﴿فنظر نظرة فى النجوم﴾: المراد: فكر تفكيرًا عميقا فى أحوالها انظر الآيات (١٩١) من سورة آل عمران صفحة ٩٥ و ٧٥ ومابعدها من سورة الأنعام صفحة ١٧٤ و (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣.

﴿سقيم﴾: المراد: سقيم القلب، لحزنه على كفرهم بالله سبحانه وتعالى؛ قال ابن عباس: أوهمهم إبراهيم أنه مريض بمرض معد حتى ينصرفوا عنه.

﴿تولوا عنه مدبرين﴾: انصرفوا معرضين كما تقدم فى الآية (٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤ والآية (٨٠) من سورة النمل صفحة ٥٠٤. ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾: أصل معنى الروغ والروغان ميل الشخص إلى جانب ليخدع مَنْ يراقبه. والمراد ذهب خفية إلى أصنامهم. ﴿ألا تأكلون﴾: (ألا) هنا: حرف يراد به طلب حصول مابعده؛ انظر الآية (١٠٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦. كأنه يعرض عليهم الأكل سخرية بهم. ﴿فراغ عليهم ضربا﴾: المراد: مال مستعليًا عليهم ضاربًا لهم ضربًا شديدًا. ﴿باليمين﴾: المراد بقوة. ﴿يزفون﴾: أى يسرعون. تقول العرب زف النعام إذا أسرع فى السير. ﴿غلام حليم﴾: هو إسماعيل عليه السلام. ﴿بلغ معه السعى﴾: المراد: بلغ السن التى تؤهله لأن يسعى معه فى أعماله.

(١) لإبراهيم. (٢) أإفكا. (٣) آلهة. (٤) العلمين. (٥) آلهتهم.
(٦) بنيانا. (٧) فجعلناهم. (٨) الصالحين. (٩) فبشرناه. (١٠) بغلام.

المعنى: . لما وعد سبحانه بأن يجعل لنوح ذكرًا حسنا فى العالم، نوه هنا بأن خليل الله إبراهيم من شيعة نوح الذين اتفقوا معه فى أصول دينه؛ أى جعلناه من أتباعه حين أقبل على دين ربه بقلب سليم من أمراض القلوب كالنفاق والشك والحسد. حين قال لأبيه وقومه ما الذى تعبدونه من دون الله، أى لايصح منكم ذلك. هل تريدون آلهة غير الله ولا يحملكم على ذلك إلا مجرد الكذب. وهذا تشنيع عليهم بأنه لا شبهة لهم فيما فعلوا. ثم هددهم فقال فما ظنكم إلخ: أى فما الذى ظننتموه بمن هو أحق بالعبادة وحده لأنه هو الذى خلق كل العالمين. هل تظنون أنه سيترككم بدون عقاب على كفركم به؟ ونظير ذلك فى الآية (٧٨) من سورة مريم صفحة ٤٠٤، وكان للقوم عيد يخرجون إليه بعدما يتركون عند أصنامهم طعاما لتباركه، ثم يأكلونه بعد رجوعهم من احتفالهم بالعيد كما تقدم فى شرح صفحة ٤٢٦. وصار بعضهم ينبه بعضا للخروج لمكان الاحتفال فقالوا لإبراهيم اخرج معنا. فتضجر من جرمهم ورفع بصره إلى السماء متأملاً فى صنع الله الذى ماكان يصح أن يهملوه. موهمًا لهم أنه يستوحى النجوم لأن علم التنجيم كان شائعًا عندهم فخافوا العدوى وانصرفوا مسرعين بعيدًا عنه.

فذهب مختفيًا إلى أصنامهم. فقال مستهزئا بها: أعرض عليكم أن تأكلوا، ثم بالغ فى الاستهزاء فقال ما لكم لاتنطقون؟ ثم عمد إليهم يضربهم ضربًا بقوة حتى كسرها ولم يترك إلا واحدا؛ انظر الآية (٥٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦. وبعد فراغهم من عيدهم أقبلوا إليه مسرعين، وحصل مافصلته الآيات (٥٩) ومابعدها من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦. فقال لهم موبخًا: هل تعبدون ماتنحتونه من الحجارة وغيرها وتتركون الله مع أنه هو الذى خلقكم وخلق هذه الحجارة التى تنحتون منها أصنامكم فهو الأحق بالعبادة وحده. فلم يلتفتوا إلى حجته بل عمدوا إلى القوة، وقال كبارهم لعمالهم: ابنوا له بنيانا واملئوه بالحطب ثم أوقدوا فيه النار وألقوه فيه حتى لايستطيع الهرب فأرادوا أن يكيدوه بقتله فأنجيناه وجعلناهم الأذلين المقهورين، بعد ذلك عزم إبراهيم على الهجرة من بلاد الكفر ببابل بالعراق إلى الشام فقال إنى سأذهب إلى دار يرضى فيها ربى عنى لأتمكن من عبادته وحده فيها. وسيهدينى سبحانه إلى مافيه صلاح دينى. ولما وصل إلى الشام قال يارب هب لى ولدا من الصالحين ليغيننى على الدعوة لدينك.

فاستجاب الله تعالى دعاءه وبشره بأنه سيكون له غلام كثير الحلم. وهل هناك حلم أجلى مما ظهر منه عندما عرض عليه أبوه الذبح.

فلما ولد وبلغ مبلغًا يسعى فيه مع أبيه قال إبراهيم يابنى... إلخ.

يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ
قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيۡنَٰهُ
أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ (١٠٦)
وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ (١٠٧) وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١٠٨)
سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١١٠)
إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ (١١٣) وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ (١١٥)
وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيۡنَٰهُمَا

المفردات: ﴿فلمَّا أسلما﴾ ... إلخ (لمَّا): حرف يدل على وجود ارتباط بين جملتين: الأولى تسمى شرطا، والثانية تسمى جوابًا، والجواب هنا مقدر لأنه مفهوم من سياق الكلام، تقديره أنعمنا عليهما بالرضى التام ﴿وناديناه﴾ ... إلخ كجواب (إذا) فى الآية (٤٥) من سورة يس صفحة ٥٨٣. ﴿أسلما﴾: أى استسلما وانقادا الأمر الله سبحانه وتعالى. ﴿تله للجبين﴾: أصل التل الرمى على (التل) وهو التراب المجتمع. ثم استعمل فى كل رمى على الأرض. ﴿للجبين﴾ (اللام) بمعنى (على) أى على الجبين. انظر الآية ﴿٧﴾ من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥، والآية (١٠٧) من سورة الإسراء أيضًا صفحة ٣٧٩. والمراد: طرحه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض. فلكل إنسان جبينان بينهما جبهته. ﴿أن يا إبراهيم﴾: أن تفسيرية؛ لأنها تدل على أن مابعدها تفسير لما وقع به النداء. انظر (أن) الثانية فى الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥.

﴿قد صدقت الرؤيا﴾ ... إلخ: أى عزمت عزمًا قويًا على تنفيذ ما أمرنا به فى المنام. ﴿البلاء﴾: أى الإمتحان. ﴿المبين﴾: الواضح انظر الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦. ﴿ذبح﴾: هو الحيوان. الذى يذبح فيما بعد، كحِمْل بمعنى محمول.

المعنى: ولما كبر إسماعيل وصلح للسعى مع والده رأى إبراهيم فى المنام ملكًا يقول له إن الله تعالى يأمرك أن تذبح ولدك. ولما كانت رؤيا الأنبياء وحيًا كالوحى فى اليقظة قال إبراهيم لإسماعيل: يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ففكر وقل لى رأيك، وإنما قال له ذلك مع

---

(١) يابنى. (٢) ياأبت. (٣) الصابرين. (٤) وناديناه. (٥) ياإبراهيم. (٦) الرؤيا.
(٧) البلاء. (٨) وفديناه. (٩) فى الآخرين. (١٠) سلام. (١١) إبراهيم. (١٢) وبشرناه.
(١٣) بإسحاق. (١٤) الصالحين. (١٥) وباركنا. (١٦) إسحاق. (١٧) وهارون. (١٨) ونجيناهما.
(١٩) ونصرناهم. (٢٠) الغالبين. (٢١) وآتيناهما.

علمه بأنه حتم ليطمئن على قوة عزم ولده وحسن خضوعه لأمر ربه، ولهذا كان ذلك منامًا لتكون مبادرتهما إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد. قال إسماعيل: ياأبت افعل ما أمرك به ربك ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. وقد صدق إسماعيل فيما وعد. ومدحه ربه عليه انظر الآية (٥٤) من سورة مريم صفحة ٤٠١. فلما انقاد الخليل وولده لأمر الله وطرح الوالد ولده على الأرض كما تطرح الذبيحة. ووضع السكين على عنقه تجلى للملأ الأعلى صدق عزيمته فأنعمنا عليه بالخلة حتى لقب بخليل الرحمن. وناديناه على لسان ملك قائلين له: ياإبراهيم قد وفيت الرؤيا حقها. وبذلت جهدك فى تحقيقها فجازيناك أحسن الجزاء؛ لأن من شأننا أن نجزى كل محسن مثل ماجزيناك.

إن هذا التكليف الذى كلفناك به والله هو اختبار عظيم واضح لم يمتحن به أحد قبلك.

وفدينا ولده بحيوان يذبح بدله عظيم الجثة سمين. وأبقينا عليه ذكرا حسنا فى الأمم الآتية. وقلنا: سلام منا ومن أوليائنا على إبراهيم. كذلك نجزى كل محسن لأنه من عبادنا كاملى الإيمان. ثم مننا عليه بعد ذلك بأن بشرناه بولد آخر من زوجته الأولى (سارة) وهو إسحاق. وبشرناه بأنه سيكون نبيًا من الصالحين. وأفضنا عليه وعلى ابنه إسحاق بركات فكثرنا نسلهما وجعلنا جميع الرسل بعدهما من نسلهما ماعدا خاتم الأنبياء محمدًا ﷺ فإنه من نسل ولده إسماعيل. ومن ذرية إبراهيم وإسحاق فريق محسن لعقيدته وعمله بالإيمان والطاعة. وفريق ظالم لنفسه بالكفر والمعاصى. وفى ذكره سبحانه لذلك تنبيه على أن النسب لا دخل له فى الهداية والضلال وعلى أن فجور الخلف لاينقض أجر السلف انظر الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤ والآية (٤٦) من سورة هود صفحة ٢٩١. ومما سبق تعلم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام؛ وقدجاء فى التوراة التى فى أيدى اليهود الآن (أن الله أمر إبراهيم بذبح ابنه الوحيد) وفى نسخة أخرى (ابنه البكر) بكسر الباء ولايقال بكر أو وحيد إلا لإسماعيل ولكن اليهود يغالطون حسدًا ويقولون إنه إسحاق. واغتر بهم بعض السلف.

قال ابن كثير: ما أظن مَنْ قال ذلك إلا تلقفه عن أخبار اليهود وسلمه من غير بحث ولا دليل. وعندنا كتاب الله تعالى يدل على أنه إسماعيل لا مور، منها قوله سبحانه فى البشارة، بإسحاق ﴿بغلام عليم﴾ الآية (٥٣) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. وقال فى إسماعيل حليم كما هنا. ومنها أنه بعد ما فرغ من قصة إسماعيل هنا قال وبشرناه بإسحاق. وهذا يدل على أن حادث الذبح حصل قبل البشارة بإسحاق، ومنها أنه لما بشره بإسحاق فى الآية (٧١) من سورة هود صفحة ٢٩٥ قال (ومن وراء إسحاق يعقوب): أى أن إسحاق سيعيش حتى يولد له فى حياة

ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١١٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١)
إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ
بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧)
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٢٩)
سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ
لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤)
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (١٣٦)

إبراهيم وسارة، فلا يصح بعد هذا أن يأمر بذبحه وهو صغير. ولقد أنعمنا على موسى وهارون بالنبوة وغيرها. ثم فصل بعض ماأنعم به عليهما بقوله ونجيناهما وقومهما مما كانوا فيه من الذل وتقتيل أبنائهم وترك نسائهم على يد فرعون. ونصرناهم على فرعون وقومه فكانت نتيجة ذلك أنهم غلبوه بعدم تمكنه منهم وغرقه.

وآتيناهما بعد ذلك التوراة.

المفردات: - ﴿الكتاب﴾: هنا التوراة.

﴿المستبين﴾: أى البالغ النهاية فى البيان والتفصيل.

﴿تركنا عليهما فى الآخرين﴾: إلى قوله (المؤمنين) تقدم فى الآية (٧٨) ومابعدها صفحة ٥٩١.

﴿إلياس﴾: هو نبى من أنبياء بنى إسرائيل من نسل هارون عليه السلام.

﴿أتدعون إلخ﴾: أى أتطلبون حاجاتكم منه، كما تطلبون من الله سبحانه؟ ﴿بعلا﴾: البعل بلغة اليمن هو الرب فالمراد: أتدعون ربًا من الأرباب الباطلة التى حذر يوسف الصديق منها فى الآية (٣٩) ومابعدها من سورة يوسف صفحة ٣٠٨ ومابعدها.

﴿وتذرون﴾: أى وتتركون ﴿أحسن الخالقين﴾: تقدم شرح المراد منه فى الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

﴿محضرون﴾: أى تحضرهم ملائكة العذاب، كما تقدم فى الآية (٦١) من سورة القصص صفحتى ٥١٥، ٥١٦.

(١) الكتاب. (٢) وهديناهما. (٣) الصراط. (٤) الآخرين. (٥) سلام. (٦) هارون.
(٧) الخالقين. (٨) آبائكم. (٩) الآخرين. (١٠) سلام. (١١) نجيناه. (١٢) الغابرين.

﴿المخلصين﴾: الذين أخلصهم سبحانه لطاعته.

﴿الغابرين﴾: أى الهالكين كما تقدم فى الآية (٨٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٥، ٢٠٦.

﴿دمرنا﴾: أى أهلكنا.

المعنى: - وآتينا موسى وهارون التوراة المبينة لما ينفعهما فى دنياهما وآخرتهما، وهديناهما بسبب ذلك الطريق المستقيم الموصل للحق سريعًا، وتركنا عليهما الثناء الحسن فى لسان الأمم بعدهما. وقلنا سلام منَّا على موسى وهارون. إنا كذلك نجزى من أحسن أعماله؛ لأنهما من عبادنا المؤمنين الكاملين وإن إلياس لَمِنَ الذين اختارهم ربهم لرسالته. اذكر أيها النبى حاله وحال قومه حين قال لهم وكانوا جماعة من بنى إسرائيل سكنوا المدينة المعروفة اليوم ببعلبك. وهى تابعة الآن للبنان. وكانوا قد ظهر فيهم الفساد والشرك. وعبدوا أصنامًا من دون الله. فبعث الله تعالى إليهم إلياس لتجديد العمل بالتوراة. ولا غرابة فى سرعة تسرب الشرك إلى بنى إسرائيل فهم الذين أغفلوا نعمة ربهم عليهم فى إنجائهم من فرعون، وقالوا عقب خروجهم من البحر وأرجلهم مازالت مبللة (ياموسى اجعل لنا إلها كآلهة القوم الذين مروا عليهم) انظر الآية (١٣٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣. قال لهم نبيهم إلياس: أطلب منكم أن تخافوا عقاب الله. وهل يصح أن تطلبوا حاجاتكم من رب باطل وتتركوا أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين.

فكذبوه فى دعوى أن الله بعثه إليهم. فلذلك حكمنا أنهم يحضرون إلى النار إلا مَنْ آمن منهم فكانوا من عباد الله الذين اختارهم للعمل بدينه. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إل ياسين إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين وقد تقدم شرح كل هذا.

وإن لوطًا لَمِن المرسلين، اذكر أيها النبى لقومك حاله وحال قومه حين نجيناه وأهله المؤمنين معه أجمعين إلا امرأته العجوز تركناها فى الهالكين. ثم أهلكنا غير المؤمنين من كفار قومه. انظر ماحصل لهم فى الآية (١٦٠) ومابعدها من سوزة الشعراء صفحة ٤٨٩.

المفردات: - ﴿لتمرون عليهم﴾: انظر الآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣.

﴿أبَقَ﴾: تقول العرب أبق العبد أباقا إذا هرب من سيده، والمراد هنا: ترك قومه وهاجر بدون إذن من ربه سبحانه.

﴿الفلك المشحون﴾: أى السفينة المملوءة.

﴿فساهم﴾: أى عمل قرعة مع أهل السفينة.

﴿المدحضين﴾: من دَحضَ بوزن قطع أى زلق، تقول العرب دحضت رجله أى زلقت وأدحضه غيره أى أزلقه، والمراد هنا: المزحزحون عن مكان السلامة أى الواقعون فى الماء بظهور القرعة عليهم.

﴿الحوت﴾: نوع من السمك والكبير منه يبتلع أكثر من رجل واحد.

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى
الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾
فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
* فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ
الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ

﴿مُليم﴾: أى فاعل مايلام عليه، تقول العرب ألام فلان إذا فعل مايلام عليه. ﴿لبث﴾: أى مكث.

﴿نبذناه﴾: أى طرحناه. والمراد جعلنا الحوت يقذفه إلى العراء، انظر الآية (٤٠) من سورة الذاريات صفحتى ٥٩٤، ٥٩٥.

﴿العراء﴾: المكان الخالى من شجر وغيره.

﴿يقطين﴾: هو القرع الكبير.

﴿أو يزيدون: (أو) بمعنى (بل). والعرب تأتى بهذا الحرف فى مثل هذا المقام لإفادة تحقيق الخبر السابق عليه مباشرة، انظر الآيات (٧٤) من سورة البقرة صفحتى ١٤، ١٥ و(١٧) من سورة النساء صفحتى ١١٤، ١١٥ و (٩) من سورة النجم صفحتى ٧٠٠، ٧٠١.

﴿استفتهم﴾: تقدمت فى الآية (١١) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٧، ٥٨٨.

(١) بالليل. (٢) فنبذناه. (٣) أرسلناه. (٤) فآمنوا. (٥) فمتعناهم.
(٦) الملائكة. (٧) إناثا. (٨) شاهدون. (٩) لكاذبون.

﴿البنات﴾: المراد الملائكة، لأنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، انظر الآيات (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣ و (٥٧) من سورة النحل صفحة ٢٥٢ و (٢٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٢.

﴿شاهدون﴾: أى حاضرون. انظر آيتى (٥١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨ و (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩.

﴿ألا﴾: حرف يدل على أن قصد المتكلم تنبيه السامع لما بعده لأهميته وتحقق ثبوته.

﴿إفكهم﴾: أى كذبهم القبيح.

﴿أَصطفى﴾: أى أختار. والأصل (أاصطفى) أى هل اصطفى؟ وحذفت همزة الفعل تخفيفًا. واكتفى بهمزة الاستفهام.

المعنى: . بعدما أخبر سبحانه بأنه أهلك قوم لوط. وبخ كفار قريش على عدم اعتبارهم مع أنهم يمرون على ديارهم صباحًا ومساءً والمراد من ذكر الصباح والمساء الكثرة لا التحديد، لأنها كانت فى طريقهم إلى الشام. انظر الآية (٨٣) من سورة هود صفحة ٢٩٦ والآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، ثم صرح بغلبة الجهل عليهم بقوله أفلا يعقلون؟ أى هل يصح أن تشاهدوا ذلك ياأهل مكة فلا تعتبروا وتخافوا أن يصيبكم مثل ماأصابهم لما عصوا رسولهم. ثم شرع فى قصة يونس لما فيها من العبرة أيضًا حيث أنقذ الله قومه من العذاب لما آمنوا فقال: وإن يونس لَمِنَ المرسلين.. إلخ: أى أرسله الله لأهل (نينوى) بالموصل ونينوى بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح النون والواو. فلما كذبوه أنذرهم بعذاب يحل بهم وغضب منهم وهاجر وتركهم قبل أن يأذن له ربه بالهجرة، فعاقبه بما قصه سبحانه هنا. فلما تركهم صادف سفينة كانت مشحونة فوق طاقتها، فلما ركبها ودخلت فى وسط البحر لعبت بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق، فأرادوا تخفيف حملها بعمل قرعة فمن ظهرت عليه يلقى فى البحر لتخفف السفينة وينجو الباقون. فوقعت القرعة على يونس. فلما وصل الماء التقمه حوت كبير والحال أنه مستحق ذلك؛ لأنه فعل مايلام عليه. فلولا أنه كان فى كل أحواله من الرخاء والشدة من المسبحين لله لكان الحوت قبرًا له لايخرج إلى الحياة أبدًا إلا يوم القيامة، انظر

آيتى (٨٧ و ٨٨) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٩، ٤٣٠.

لكنه لما كان يسبح الله دائما أخرجناه من بطن الحوت إلى ساحل ليس فيه شجر وهو عليل. قال مجاهد: التقمه الحوت فى الضحى وطرحه آخر النهار. وجعلنا ورق القرع يظلله من حر الشمس. ولما أفاق أرسلناه ثانيا إلى أهل نينوى الذين غضب منهم وتركهم وكانوا بعد أن فارقهم ندموا وخافوا العذاب، انظر ماتقدم فى الآية (٩٨) من سورة يونس صفحة ٢٨١ وكانوا مائة ألف بل يزيدون. فآمنوا فأبقيناهم متمتعين بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم. وبعد ما ذكر من أحوال الأمم السابقة ما فيه عبرة لكفار قريش، رجع ثانيا إلى توبيخهم على مايزعمونه مما لايليق به سبحانه، فقال فاستفتهم إلخ، أى اسأل أيها النبى على وجه التبكيت كفار قومك الذين قالوا: الملائكة بنات الله هل يصح أن يكون لربك البنات فقط ويختصون هم بالبنين؟ أى إذا كنتم أنتم تفضلون البنين على البنات فهل يصح أن تخصوا أنفسكم بالأفضل؟ إن هذه قسمة جائرة انظر آيتى (٢١، ٢٢) من سورة النجم صفحة ٧٠١. ثم انتقل من تبكيت بالاستفتاء إلى تبكيت بالجهل فقال أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون أى حاضرون وقت أن خلقناهم، فالمراد إبراز جهلهم بصورة أوضح. ثم شرع فى إبطال أصل زعمهم ببيان أن أساسه ليس إلا الكذب القبيح فقال (ألا إنهم من إفكهم) إلخ أى مجرد كذبهم فقط يقولون ولد الله بنات أسماها الملائكة فيجب أن نعبدها لتقربنا إليه تعالى، ثم أكد كذبهم فقال ألا إنهم.. الخ أى تحقق أيها السامع ما ألقيه إليك وهو أنهم لكاذبون، ثم نقض دعواهم من طريق أن العقل لايقبلها فقال: أصطفى البنات... إلخ؛ أى هل تقبل عقولكم أن الله يختار من خلقه البنات على البنين. ما لعقولكم؟ وأى شىء دهاها! وأى دليل جعلكم تحكمون بذلك الحكم الباطل ببداهة العقول هل فقدتم عقولكم فلا تتذكرون بطلان ماأنتم عليه انظر الآية (٤٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩.

وبعد ما أبطل زعمهم بالأدلة العقلية أراد أن يبطلها بالدليل النقلى فقال: أم لكم سلطان... إلخ.

سُلْطَٰنٌ[1] مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ[2] إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[3] (١٥٧) وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَٰنَ[4] ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ[5] (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ[6] (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥)

المفردا﴿سلطان مبين﴾: المراد: برهان واضح نزل به وحى عليكم من الله. ﴿وجعلوا﴾: أى مشركو العرب. ﴿الجنَّة﴾: المراد بهم هنا الملائكة سموا بذلك لاجتنانهم أى استتارهم عن العيون. ﴿نسبا﴾: حيث قالوا الملائكة بنات الله، كما فى الصفحة السابقة (إنهم لمحضرون): أى لقد علمت الملائكة أن هؤلاء المشركين محضرون إلى جهنم.

﴿يصفون﴾: المراد يكذبون، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿المخلصين﴾: خلصهم ربهم من المعايب، انظر الآية (٢٤) من سورة يوسف صفحة ٣٠٦.

﴿بفاتنين﴾: (الباء) لتأكيد نفي نسبة مابعدها لما قبلها و (فاتنين) أى مفسدين والمعنى: بمفسدين المخلصين.. تقول العرب فتن فلان على فلان زوجته، أى أفسدها عليه وأخرجها عن طاعته. ﴿صال﴾: أصله صالى كقاضى. وهو من الصلى وهو الاحتراق بالنار. انظر الآية (٧٠) من سورة مريم صفحة ٤٠٣. ﴿الصافون﴾: تقدم أول السورة.

(إن كانوا)... إلخ: المراد: أن حال كفار قريش هو قولهم كذا. ﴿ذكرًا﴾: يريدون (كتابا) منزلا من عند الله انظر شرح الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١ والآية (١٠٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والآية (٣) من هذه السورة صفحة ٥٨٧.

﴿جندنا﴾: المراد بهم هنا: المؤمنون من أتباع كل نبى. ﴿فتول عنهم﴾: المراد أعرض عنهم واصبر. ﴿حتى حين﴾: أى إلى وقت إذننا لك فى قتالهم. ﴿وأبصرهم﴾: أى انظر إليهم فى ذلك الوقت فسترى مايسرك. ﴿يبصرون﴾: أى فسوف يرون مايسوءهم.

(١) سلطان. (٢) بكتابكم. (٣) صادقين. (٤) سبحان. (٥) بفاتنين. (٦) الغالبون.

المعنى: . هل لكم يا كفار مكة دليل واضح نازل فى كتاب من السماء يثبت أن الملائكة بنات الله. إن كان عندكم فأتوا به إن كنتم صادقين فى دعواكم. وهذا تعجيز لهم وتهكم بهم. ولما أعجزهم وأثبت جهلهم أعرض عن خطابهم. وبيّن للناس ماسيكون عليه حالهم يوم القيامة عندما تكذبهم الملائكة فقال تمهيدا لما سيكون: وجعلوا .. إلخ: أى وجعل كفار قريش بين الله سبحانه وبين الملائكة نسبا إذ قالوا: إنها بناته، ووالله لقد علمت الملائكة أن هؤلاء الكفار لمحضرون إلى النار لكذبهم هذا. والمراد المبالغة فى تكذيبهم؛ لأن الملائكة الذين يدعون أنهم يتقربون بهم، يعلمون أنهم كاذبون وأنهم لذلك سيدخلون جهنم قطعا. وتقول الملائكة أيضًا: لكن عباد الله الذين أخلصهم سبحانه لطاعته لايدخلون النار، ثم تبين الملائكة السبب فى نجاة المخلصين وأنه عجز المضلين عن إغوائهم فتقول: فإنكم يا كفار مكة أنتم وماتعبدون من شياطين الجن الذين أغروكم كما فى الآية (٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨ و ٥٦٩ ما أنتم جميعًا بفاتنين المؤمنين المخلصين على الله أى مفسديهم تقول العرب فلان فتن على فلان زوجته أى أفسدها عليه. إلا من هو داخل النار لاختياره الكفر والضلال انظر الآية (٤٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، ثم بينت الملائكة مقامها من العبودية لتأكيد الرد على مَنْ يزعم خلاف ذلك. فقالوا ومامنا إلا له مقام لايتجاوزه خضوعا لأمر الله. وإنا لنحن الواقفون صفوفا ننتظر الأوامر الإلهية.

وإنا لانقطع عن تنزيهه تعالى عما لايليق به. ثم رجع سبحانه إلى توبيخ المشركين وبيان كذبهم وأنهم لايريدون الحق أبدا. فقال: وإن كانوا ليقولون إلخ: أى أن كفار قريش كانوا يقولون قبل بعثة الرسول صلوات الله عليه: لو أن عندنا كتابا من الله مثل كتب الأنبياء الأولين لكنا عباد الله المخلصين. فلما جاء سيد الأذكار وهو القرآن الكريم كفروا به. فسوف يعلمون عاقبة كفرهم هذا انظر الآية (٤٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨، ثم هددهم سبحانه بقوله ولقد سبقت كلمتنا .. إلخ: أى ولقد سبق منا وعد لرسلنا. ثم بين سبحانه هذا الوعد بقوله: إنهم لهم المنصورون. وإن جند كل نبى من المؤمنين هم الغالبون. ونظير ماهنا مافى الآية (٢١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨. فأعرض عنهم أيها النبى واصبر حتى يؤذن لك فى قتالهم وانظرهم فى ذلك الوقت فسترهم فى أسوأ حال مما حل بهم من ذل وأسر وقتل، فسوف يبصرون هم أيضًا ما سيكون لك من نصر وتأييد.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ
صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

(٣٨) سُورَةُ صٓ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ
وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا
وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ

المفردات: . ﴿أفبعذابنا﴾ ... إلخ: المراد بالعذاب هنا: عذاب الآخرة المشار إليه فى الآية (٥١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١. ﴿ساء﴾: أى قبح. ﴿المنذرين﴾: أى الكفار الذين حذرهم الرسل من عذاب الله. ﴿تول عنهم﴾: سبق أنه سبحانه أمر نبيه فى الآية (١٧٤) السابقة إلى حين وقوع عذاب الدنيا، وأمره هنا ثانيًا بالإعراض عنهم إلى حين عذاب الآخرة ﴿العزة﴾: هى العظمة والغلبة التى تجعل صاحبها يغلب ولا يغلبه أحد، وهذه هى العزة الحقيقية، وهناك عزة كاذبة يدعيها صاحبها جهلاً وتكبرًا كما فى الآية (٢٠٦) من سورة البقرة صفحة ٤٠ والآية (٤٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢.

﴿يصفون﴾: تقدم فى الصفحة السابقة.

المعنى: . إنه بلغ من استخفاف كفار قريش بما كان يتوعدهم به ﷺ من العذاب أنهم كانوا يستعجلونه استهزاء، انظر الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ والآية (١٨٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١. فأنزل فى ذلك سبحانه قوله تعالى: أفبعذابنا يستعجلون، أى هل بلغ من جهلهم أنهم يستعجلون هلاكهم. فأخبرهم أنه إذا نزل العذاب بديارهم فى وقت غفلتهم صباحا فبئس صباح المنذرين صباحهم. والمراد إذا نزل بهم فى أى وقت، وإنما خص الصباح لأن معظم غاراتهم كانت صباحا. فخاطبهم بما تعودوا خطره، انظر الآية (٣) من سورة العاديات صفحة ٨١٨. ولما أمر سبحانه نبيه فيما سبق بالإعراض عنهم إلى حين وقوع عذاب الدنيا أمره هنا ثانيا بالإعراض لحين وقوع عذاب الآخرة فهو تهديد بعذاب الآخرة بعد التهديد بعذاب الدنيا. فى كل هذا قال سبحانه ﴿وتول عنهم﴾ إلى قوله سبحانه ﴿يبصرون﴾.

(١) سبحان. (٢) سلام. (٣) العالمين. (٤) صاد. (٥) القرآن.

وبعد ذلك أرشد سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يسبحوا ربهم دائمًا فقال تعالى ﴿سبحان ربك﴾ أى قولوا سبحان ربك رب العزة الحقة، ننزهه عما يفتريه الكاذبون، وقولوا أيضا سلام من الله على المرسلين كلهم مَنْ ذكر هنا ومَنْ لم يذكر. والحمد لله على نعمه التى لا تعد ولا تحصى، انظر شرح الآية (٥٩) من سورة النمل صفحة ٥٠١، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا قام من مجلسه قال: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون... إلى قوله تعالى العالمين).

(سورة ص)

المفردات :. ﴿ص﴾ تنطق صاد بسكون الدال. ﴿ذى الذكر﴾ : أى صاحب الصيت العالى والشرف الرفيع، انظر الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١. ﴿بل﴾ : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر. ﴿عزة﴾ : هى الكاذبة المشار إليها سابقا. وهى التكبر. وحمية الجاهلية ﴿شقاق﴾ : أى خلاف مع الحق وأهله، انظر الآية (٥٣) من سورة الحج صفحة ٤٤١. ﴿كم﴾ : كلمة تدل على الكثرة. ﴿من قرن﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على بيان المراد من ﴿كم﴾، أى قرونًا كثيرة أهلكناها. والمراد من ﴿قرن﴾ : الأمة، انظر الآية (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢ و ١٦٣. ﴿لات﴾ : كلمة مركبة من ﴿لا﴾ النافية بمعنى ليس ومن ﴿التاء﴾ التى تتصل بالحرف لتؤكد معناه؛ فتزاد فى ﴿رب﴾ فيقولون: ربت رجل لقيته. وفى ﴿ثم﴾ لتأكيد ترتيب العطف فيقولون جاء محمد ثمت أبو بكر. ﴿مناص﴾: أى فرار ونجاة. تقول العرب: ناص فلان عن مرافقه، ينوص. إذا فر وراغ منه. وأصل التركيب معناه وليس الحين حين مناص. ﴿منذر﴾ : المراد رسول يخوفهم من عقاب الله تعالى إذا عصوه.

المعنى :. ﴿ص﴾ تقدم المراد من مثل هذه الحروف أول سورة البقرة. أقسم بالقرآن صاحب الذكر العالى إنك يا محمد لمن المرسلين فالمقسم به هنا وفى صفحة ٥٧٩ هو القرآن. والمقسم عليه هو إثبات رسالة خاتم الأنبياء ﷺ. ويؤيد ذلك الآية (٤) الآتية. وبعد هذا القسم العظيم من رب أعظم انتقل سبحانه إلى الحامل لكفار قريش على اعتقاد تعدد الآلهة وعلى إنكار رسالة محمَّد. فبين أنه ليس الدليل ولا شبه دليل بل العناد والكبر الجاهلى وحب الخلاف والعداوة حسدا. ثم حذرهم أن يبطش بهم كما بطش بمَنْ قبلهم لما عملوا مثلهم، فقال كم أهلكنا .. إلخ: أى أهلكنا كثيرا من الأمم قبلهم لما كفروا وعصوا رسلهم فلما رأوا العذاب نادوا مستغيثين ولكن بعد فوات الأوان.

وَقَالَ الْكَافِرُونَ[1] هَٰذَا سَاحِرٌ[2] كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ[3]
إِلَٰهًا وَاحِدًا[4] ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ[5] ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ
يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ[6] إِنْ هَٰذَا إِلَّا
اخْتِلَاقٌ[7] ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ[8] عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ[9]
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ[10] ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ
لُوطٍ وَأَصْحَابُ[11] الْأَيْكَةِ[12] ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ
إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا

(١) الكافرون. (٢) ساحر. (٣) الآلهة. (٤) واحدا. (٥) آلهتكم. (٦) الآخرة.
(٧) اختلاق. (٨) أأنزل. (٩) السموات. (١٠) الأسباب. (١١) أصحاب. (١٢) الأيكة.

إذ ليس الوقت وقت نجاة وفرار، انظر الآية (٦٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١. ومن أسباب إنكارهم رسالة نبينا ﷺ أنهم عجبوا لمجىء الرسول بشرًا منهم انظر الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥.

المفردات :. ﴿عجاب﴾: أى عجيب جدا كقولهم رجل طوال أى طويل جدا. ﴿الملأ﴾ : هم الزعماء والقادة، انظر الآية (٦٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٢. ﴿أن امشوا﴾ : ﴿أن﴾ تفسيرية، انظر ﴿أن﴾ الثانية فى الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥، والمعنى: انصرفوا وهم يقولون لأتباعهم قولا مضمونة: ﴿امشوا﴾ أى انصرفوا عنه إلى آلهتكم، واثبتوا على عبادتها. ﴿الملة الآخرة﴾ : يريدون دين النصارى المحرف الذى قالوا فيه إن الله ثالث ثلاثة، انظر الآية (٧٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٢. ﴿إن هذا﴾ : ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿اختلاق﴾: أى كذب. ﴿الذكر﴾ : أى القرآن. قالوا ذلك استهزاءً كما فى الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿بل هم﴾ : ﴿بل﴾ حرف يفيد الانتقال من سبب من أسباب كفرهم إلى سبب آخر أى إن إنكارهم ليس عن علم. ﴿بل لما﴾ : ﴿بل﴾ هنا للانتقال إلى بيان أن شكهم هذا يزول عندما يرون العذاب، ولا ينفعهم شىء حينئذ. ﴿لما﴾ حرف يدل على عدم حصول ما بعده إلى وقت التكلم مع القطع بأنه سيحصل، والمعنى هنا: أنهم سيذوقونه حتمًا. ﴿فليرتقوا﴾ : أى فليصعدوا. ﴿فى الأسباب﴾ : جمع سبب وهو كل ما يتوصل به إلى شىء آخر كالحبل فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، والسلم فى الآية (٣٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٢. وانظر

مع هذا الآية (٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧. ﴿جند ما هنالك... إلخ﴾ ﴿هنالك﴾: أى فى مكة و ﴿جند﴾ خبر ﴿ما﴾ مقدم. والأصل هؤلاء الذين يقاومونك أيها النبى فى مكة هم جند مهزوم قطعًا، من عداد جنود الكفار الذين تحزبوا على الرسل قبلك فهزموا ﴿من الأحزاب﴾: أى من جنس الأمم الكافرة التى تحزبت على رسلها وأهلكها سبحانه، انظر الآية (٥) من سورة غافر صفحتى ٦١٧ و ٦١٨، والآية (٣٠) من نفس السورة صفحتى ٦٢١ و ٦٢٢. ﴿الأوتاد﴾: المراد بها الأهرامات الثابتة ثبوت الأوتاد، أى الجبال، انظر الآية (٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، والآية (١٠) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦. ﴿الأيكة﴾: شجرة كثيرة الأغصان، انظر الآية (٧٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣. ﴿إن كل﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. ﴿كذب الرسل﴾: انظر بيان ذلك فى الآية (٣٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤. ﴿فحق﴾: انظر شرح الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤. ﴿وما ينظر﴾: أى وما ينتظر، راجع الآية (١٣) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠.

المعنى: . قال مشركو مكة عن النبى ﷺ هذا ساحر كذاب. هكذا قال المجرمون والله سبحانه يتسم إنه لرسوله الصادق. ومن أصدق شهادة من الله؟ انظر الآية (٤٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨، والآية (٥٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨، والآية الأولى من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٢ و ٧٤٣. ثم تعجبوا من قوله ﷺ: (لا إله إلا الله) فقالوا هل يزعم محمد أن المعبود إله واحد، ونظيره فى الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥ إن هذا من محمد شىء عجيب جدا. واندفع صناديد المشركين ورؤساؤهم فى قول الباطل وقالوا لأتباعهم قولاً فسره بقوله امشوا أى سيروا على طريقة آبائكم وحافظوا عليها، واثبتوا على عبادة آلهتكم وتحملوا طعن محمد فيها حتى نرتب الخلاص منه، ثم عللوا أمرهم بالثبات بقولهم إن هذا الادعاء الذى يدعيه محمد من توحيد الإله لشىء يريد به السيادة على العرب والعجم. ثم أكدوا الترغيب فى الثبات بقولهم ما سمعنا بهذا الذى يدعو إليه محمد فى ملة النصارى التى هى آخر دين نزل من السماء لأنها تتفق معنا فى تعدد المعبود. فما الذى يقوله محمد إلا كذب وافتراء من عند نفسه ونسبه إلى الله. ثم ذكروا ما يدل على أن الباعث لهم فى الحقيقة على محاربة الدعوة إنما هو الحسد. فقالوا هل صحيح أن الله خصه من بيننا بإنزال ما يدعى أنه ذكر مع أننا زعماء العرب، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة

٦٥٠. وبعد ما بيَّن سبحانه ما يزعمونه شبهة لهم انتقل عنه مبطلا له ببيان سبب مهم فى جمودهم على الكفر فقال: بل هم فى شك.. إلخ، أى أن الذى منعهم من الإيمان هو تمكن الشك منهم بسبب تمسكهم بتقليد الآباء الذى حجب عقولهم عن النظر فى الأدلة، ثم انتقل سبحانه إلى بيان أنهم سيعرفون الحق مكرهين فقال ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ .. إلخ، أى أنهم إلى الآن لم يذوقوا عذابى وسيذوقونه قطعا. وعند ذلك يعترفون بالحق ولكن بعد فوات الأوان فلا تنفعهم تلك المعرفة، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠. ثم سفه سبحانه عقولهم على حسدهم فقال أم عندهم خزائن رحمة ربك أى هل يملك هؤلاء الكفار خزائن رحمة ربك الغالب الكثير العطاء لمن يستحقه حتى يتصرفوا فيها حسب شهواتهم فيعطوا النبوة لمَنْ يريدونه، ويمنعوها عمَنْ لا يريدونه انظر الآية (٣٧) من سورة الطور صفحة ٦٩٩، ثم أكد ما سبق بقوله: أم لهم ملك السموات... إلخ، أى أنه ليْس لهم مدخل فى أمر هذا العالم الذى هو جزء يسير من خزائن رحمة الله فمن أين لهم التصرف فيه. وإن زعموا أن لهم ذلك فليصعدوا فى المعارج الموصلة للعرش حتى يستووا عليه ويديروا أمر العالم وينزلوا الوحى على مَنْ يشاءون. وهذا منتهى التعجيز والسخرية بعقولهم. ثم أراد سبحانه أن يطمئن رسوله بأن هؤلاء المشركين الذين فقدوا عقولهم فصاروا كأنعام سيغلبون قطعا فقال جند... إلخ: أى مَنْ فى مكة من هؤلاء الذين فقدوا عقولهم هم جند من جنس الأحزاب التى تحزبت على الأنبياء مهزومون قطعًا. وقد تحقق ذلك فى بدر وغيرها حتى لم يبق للشرك أثر، ثم أكد ذلك ببيان ما حل بالطغاة أمثالهم من الأمم السابقة لعلهم ينتبهون فقال كذبت قبلهم قوم نوح، وعاد ﴿قوم هود﴾. وكانت مساكنهم فى الأحقاف انظر الآية (٢١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩. وفرعون صاحب المبانى العظيمة التى تشبه الجبال فى الثبات. وثمود قوم صالح وقوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿قوم شعيب﴾.

هؤلاء هم الذين تحزبوا على رسلهم. ما كل فريق منهم إلا كذب رسوله، ويكون بهذا كذب الرسل جميعًا فوقع عليهم عقاب الله تعالى فأهلكهم انظر الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. وبعد ما بيَّن سبحانه عقاب الأمم السابقة بالهلاك العام أراد أن يبين أن كفار قريش نظرا لأنه امتنع عنهم هذا النوع من العذاب . كما فى الآية (٣٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ وشرح الآية (١٢٩) من سورة طه صفحتى ٤١٨ و ٤١٩ والآية (٦٧) من سورة يس

صَيْحَةً وَاحِدَةً[1] مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا
قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ
عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً
كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ[2] الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) * وَهَلْ أَتَاكَ[3] نَبَأُ[4] الْخَصْمِ إِذْ
تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ
قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم
بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ[5] (٢٢)
إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ[6]
فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ

صفحة ٥٨٥ ـ سيأتيهم العذاب الأكبر فقال وما ينظر .. إلخ: أى وإذا كان كل من كذب هلك فما ينتظر هؤلاء المشركون إلا صيحة... إلخ.

المفردات : ـ ﴿صيحة﴾ : المراد بها هنا النفخة الثانية فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

﴿من فواق﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده، والفواق أى الرجوع، من أفاق المريض إذا رجع إلى صحته والمراد : صيحة واحدة لا تتكرر.

﴿قطنا﴾ : أى نصيبنا.

﴿الأيد﴾ : أى القوة والمراد : القوة فى الدين.

﴿أواب﴾ : أى كثير الرجوع إلى ربه.

﴿سخرنا الجبال﴾... إلخ : تقدم فى شرح الآية (١٠) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٣ و ٥٦٤.

﴿العشى﴾: آخر النهار.

﴿الإشراق﴾ : المراد به وقت شدة ضوء الشمس ضحى، والمراد من قوله تعالى بالعشى والإشراق أى دائما.

﴿شددنا ملكه﴾ : أى قويناه بالهيبة والنصر.

﴿الحكمة﴾ : هى كمال العلم ومعرفة أسرار الأشياء والإصابة فى القول والعمل، كما فى الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٠.

(١) واحدة. (٢) وآتيناه. (٣) وأتاك. (٤) نبأ. (٥) الصراط. (٦) واحدة.

﴿فصل الخطاب﴾ : ﴿فصل﴾ بمعنى فاصل. والأصل الخطاب الفاصل بين الحق والباطل على أتم وجه فالتركيب من قبيل قولهم ﴿جوامع الكلم﴾ أى الكلام الجامع لمعان كثيرة.﴿هل﴾: المراد بها تثبيت الخبر فى نفس المخاطب، كما فى الآية (٩) من سورة طه. ﴿الخصم﴾ : لفظ يستعمل فى الواحد والأكثر والمراد هنا: الطرفان المتخاصمان. وكان كل طرف أكثر من واحد بدليل قوله تعالى ﴿تسوروا﴾ و ﴿دخلوا﴾: إلخ. ﴿تسوروا﴾ : تقول العرب تسور فلان البيت أى علا سوره، وتسنم الجمل أى علا سنامه والمراد هنا دخلوا من فوق سور المحراب، والسور الجدار. ﴿المحراب﴾ : هو أشرف مكان فى المنزل وكان لا يسمى محرابا إلا إذا كان مرتفعًا يصعد إليه بسلم، انظر الآية (٣٧) من سورة آل عمران صفحتى ٦٨ و ٦٩. ﴿ففزع﴾ : أى خاف، قال ابن عباس : كان داود عليه السلام يقسم أوقاته، يوما يتفرغ فيه للعبادة، ويوما للقضاء بين الناس، ويوما لإرشاد بنى إسرائيل ووعظهم، وكان حين دخلوا عليه فى يوم عبادته والاحتجاب عن الناس، والحرس على الأبواب لا يدخلون أحدًا. وعندما جاءوا من غير الأبواب، وتسوروا عليه محرابه من الخلف ظن أن أهل مملكته شقوا عليه عصا الطاعة، وخرجوا عليه، فيكون فزعه من فساد النظام، أو خاف أن يقتلوه؛ لأن بنى إسرائيل كان فيهم جرأة على أنبيائهم حتى قتلوا بعضهم، وهذا لم يعرف فى أمة غيرهم، انظر الآية (٦١) من سورة البقرة صفحة ١٢. ﴿لا تشطط﴾ : أى لا تتباعد عن الحق. ﴿سواء الصراط﴾ : تقدم فى الآية (١٠٨) من سورة البقرة صفحة ٢١. ﴿نعجة﴾ : هى الأنثى من الضأن. ﴿أكفلنيها﴾ : أصل معناه اجعلنى أكفلها تحت يدى. والمراد: اتركها لأنها ملكى.﴿عزنى﴾ : أى غلبنى.﴿فى الخطاب﴾: أى فى مخاطبته لى. ﴿الخلطاء﴾ : جمع خليط، وهو الشريك الذى يخلط ماله بمال غيره.

المعنى : ـ لا ينتظر كفار مكة إلا صيحة إسرافيل للبعث صيحة واحدة لا تتكرر. ولما سمع الكفار هذا التهديد لهم بعذاب الآخرة قالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية يا ربنا عجل لنا نصيبنا من هذا العذاب ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى هو يوم القيامة كما يزعم محمدٌ. وهذا منتهى الحماقة كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١. بعد ذلك قال سبحانه لنبيه اصبر على ما سمعت وما ستسمع من مثل هذا الكلام المنفر واذكر قصة عبدنا داود صاحب القوة فى الإيمان والعمل الصالح لتنتفع بها أنت ويعتبر بها كفار قومك، أما أنت فلا تضجر ولا تفزع مما يقع منهم حتى لا تقع فيما يوجب عتابك، أما هم فسيتنبهون لقبح عملهم

وخطر ما سيحصل لهم لو استمروا؛ لأن داود مع علو شأنه لما حصل منه ما هو خلاف الأولى حصل له ما غمه وألمه. ومما يدل على قوة داود فى الإيمان أنه كان كثير الرجوع إلى ربه فى كل شئونه، ثم شرع فى بيان قصته فقال إنا سخرنا الجبال معه ينزهن الله سبحانه عن كل نقص فى كل الأوقات خصوصًا فى المساء والضحى. وسخرنا معه الطير أيضًا حال كونها مجتمعة على تسبيح ربها. كل من الجبال والطير رجاع إلى ربه أى مطيع لمشيئته انظر شرح الآية (١٥) من سورة الرعد صفحة ٣٢٢ والآية (١٨) من سورة الحج صفحتى ٤٣٥ و ٤٣٦. وقوينا ملكه بالهيبة وكثرة الجنود والنصر المتلاحق. وآتيناه الحكمة والبيان الأوفى الذى يفصل به بين الحق والباطل. ثم ذكر ما حصل منه وله فقال وهل أتاك.. إلخ: أى تنبه أيها النبى لخبر الطرفين المتخاصمين أمام داود عليه السلام حين اعتلوا سور محرابه ودخلوا عليه وهو قائم يصلى فجأة من غير الباب المعهود وفى مكانه الخاص الذى لا يدخله أحد إلا بإذنه، فتوجس منهم شرا وظن أنهم سيقتلونه. فلما رأوا خوفه قالوا لا تخف، ثم شرعوا فى سرد قصتهم فقالوا: نحن فريقان متخاصمان بسبب بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق ولا تتباعد عنه، وأرشدنا بحكمك إلى عين الصواب. وإنما قال أحد طرفى الخصومة ذلك لأنه يعتقد أنه صاحب الحق والله سبحانه يرشدنا بذلك إلى أنه ينبغى للحاكم أن يتحمل مثل ذلك من المظلوم، ولا يغضب بزعم أن ذلك يحط من قدره. فإن قدره مهما علا لا يصل إلى قدر نبى الله داود. وإنما خاف داود لأن المتسورين كانوا من قومه بنى إسرائيل، المعروفين بالغلظة والتهجم على أنبيائهم والاستهانة بقتلهم، انظر الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧. ويظهر أن فريق الشاكى (المظلوم) كانوا كثيرين حتى استطاعوا أن يرغموا فريق الظالم على الحضور معهم بهذه الكيفية وفى هذا الوقت ولم ينتظروا حتى يخرج داود. ثم شرع الشاكى فى تفصيل شكواه فقال: إن هذا الرجل من الفريق الثانى هو أخى فى النسب والدين وهو أغنى منى؛ لأن له تسعًا وتسعين نعجة ولا أملك إلا نعجة واحدة. فاغتصبها منى. ولما جادلته غلبنى فى المجادلة؛ لأنه أفصح منى وأقوى على تزويق الكلام حتى يخيل للسامع أنه صاحب حق. عند ذلك بحث داود القضية حتى وقف على أن الشاكى صاحب حق. فقال: والله لقد ظلمك هذا الرجل بأخذ نعجتك ضاما لها إلى نعاجه. ثم أراد أن يخفف من شدة غيظه على أخيه ببيان أن هذه هى طبيعة أكثر الناس فقال وإن كثيرا من الخلطاء.. إلخ.

المفردات: ﴿قليل ما هم﴾: ﴿هم﴾ مبتدأ مؤخر و ﴿قليل﴾ خبره مقدم عليه. و﴿ما﴾

لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ
فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ
وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا
جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ
يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ
الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ
النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ

لتأكيد القلة فى ﴿قليل﴾ والأصل: وهم قليل جدا.

﴿أنما﴾: يرى كثير من العلماء أن ﴿أنما﴾ بفتح الهمزة لمجرد التأكيد، ولا تفيد الحصر مثل ﴿إنما﴾ بكسر الهمزة. فالمراد أننا فتناه... إلخ.

وقال بعضهم: إنه لا مانع من إفادة الحصر ويصح هنا كما سيأتى فى الشرح.

﴿فتناه﴾: أى امتحناه بما حصل ليظهر هل هو من أولى العزم الذين لا يبالون بشىء ما داموا بين يدى الله عز وجل وفى رهبة الخشوع له سبحانه وله فى جده إبراهيم عليه السلام خير قدوة حيث لم يبال بإلقاء الكفار له فى النار كما فى الآيات (٦٨ و ٦٩ و ٧٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧.

﴿خر راكعاً﴾: ﴿خر﴾ سقط على الأرض كما فى الآية (١٠٧) من سورة الإسراء صفحة ٢٧٩ و ﴿راكعًا﴾ أى مبتدئًا بالركوع قبل سجوده.

﴿أناب﴾: رجع إلى ربه بالتوبة من هفوته، حيث ظن أن المتخاصمين سيقتلونه. وهم براء من ذلك.

(هنا يطلب من القارئ والمستمع المتوضئ أن يسجد سجدة واحدة تعرف بسجدة التلاوة).

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) فتناه. (٤) مآب. (٥) يا داود.
(٦) جعلناك. (٧) باطلا. (٨) آمنوا. (٩) الصالحات. (١٠) كتاب.
(١١) أنزلناه. (١٢) مبارك. (١٣) آياته.

﴿زلفى﴾ : تقدم معناها فى الآية (٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨.

﴿مآب﴾ : المراد : مرجع فى الجنة.

﴿خليفة فى الأرض﴾ : خلافة خاصة غير المذكورة فى الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧ و ٨. والمراد بها هنا خليفة لمَنْ سبقه من الأنبياء، انظر الآية (٧٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤.

﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾... إلخ : المقصود بهذا حثه على المداومة على ما ذكر. وتنبيه غيره ممن يتولون أمور الناس.

وقد قال سبحانه مثل هذا لنبينا ﷺ للحكمة نفسها.

فى آيتى (٤٨ و ٤٩) من سورة المائدة صفحتى ١٤٦ و ١٤٧؛ ولحكم أخرى كما فى شرح الآية (٨٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٩ و ٥٢٠.

﴿وما خلقنا السماء والأرض﴾... إلخ : انظر الآية (١٩١) من سورة آل عمران صفحة ٩٥ والآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣.

﴿أم نجعل﴾ : ﴿أم﴾ هنا تفيد معنى حرفين: ﴿بل﴾ التى تفيد الانتقال من كلام إلى آخر، و(همزة الاستفهام الإنكارى) التى تفيد نفى ما بعدها. وهو هنا التسوية بين الأتقياء والأشرار.

﴿الفجار﴾ : جمع فاجر. وهو الذى يشق ستر الشرائع ويتجاهر بالفسق.

المعنى : . فلا يشتد غضبك على أخيك لأن طبيعة الناس الغالبة عليهم أن الشركاء يبغى القوى منهم على الضعيف. ولا يسلم من ذلك إلا مَنْ آمن بالله حق الإيمان وعمل صالحا. وهؤلاء قليل جدا. ولما انصرفوا من مجلسه تذكر أنه حصلت منه هفوة. وهو ظنه أن الداخلين عليه سيقتلونه وهم براء من ذلك، وهذا وإن كان هفوة بالنسبة إلينا لكنه بالنسبة للأنبياء يحاسبون عليه لعلو مقامهم، انظر نظير ذلك فى شرح الآية (٣٠) من سورة الأحزاب

صفحتى ٥٥٣ و ٥٥٤. قال سبحانه وتعالى فى ذلك فظن داود أننا لم نفعل به إلا الفتنة. فاستغفر ربه وسجد على الأرض حال كونه سابقًا ذلك بالركوع. ورجع إلى ربه بالتوبة. فغفرنا له تلك الهفوة. والحال أن له عندنا لزيادة فى القرب منا وله مرجع حسن فى الآخرة هو الجنة. وقلنا يا داود إنا جعلناك خليفة الأنبياء السابقين فى الأرض تدبر أمور الناس. فداوم على الحكم بينهم بالحق. ولا تتبع هوى النفس لأن مَنْ يتبعه يبتعد عن طريق الحق. والذين يبتعدون عن الحق لهم عذاب شديد بسبب نسيانهم اليوم الذى سيحاسبون فيه على ما فعلوا ولو لاحظوه ما ارتكبوا ذنبًا. ثم أراد سبحانه أن يبين أن يوم الحساب الذى هو يوم القيامة لابد منه لأنه لولاه لكان خلق هذا العالم بلا حكمة؛ لأن كثيرًا من الظلمة المفسدين فى الأرض لا يعاقبون فى الدنيا. وكثيرًا من المظلومين لا يستطيعون الانتقام ممَنْ ظلمهم فى الدنيا. فالعدل والحكمة تقتضى أن يكون هناك دار يقتص فيها للمظلوم ممَنْ ظلمه، ولذا قال سبحانه ذلك ظن... إلخ: أى ظن ألا يبعث مَنْ يموت هو ظن الذين كفروا باليوم الآخر، فويل أى هلاك لهم من عذاب النار.

ثم انتقل سبحانه إلى بيان أن حكمته وعدله لا تسوى بين المصلح والمفسد فقال أم نجعل... إلخ: أى هل يصح فى حكم الإله العادل أن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض بالكفر والشرك وبقية الجرائم بل لا يصح أن نجعل المتقين من المؤمنين كالفجار منهم. ثم أراد سبحانه أن يبين أن فى القرآن إنقاذ الناس من الضلال لو تنبه له المشركون لاهتدوا فقال كتاب أنزلناه... إلخ أى هذا كتاب أنزلناه إليك أيها النبى مبارك أى كثير المنافع فى الدين والدنيا ليتدبروا آياته وما اشتملت عليه مما فيه سعادتهم وليتذكر أصحاب العقول السليمة ما أودع فى طبائعهم من الشعور بوجود إله واحد. انظر شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ والآية (٣٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤.

أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ
إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ
ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ
رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا
بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ
كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى
مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾
وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ
فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾
وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ

المفردات :. ﴿أواب﴾ : تقدم فى الآية (١٧) من هذه السورة صفحة ٥٩٩.

﴿إذ عرض﴾ : ﴿إذا﴾ بمعنى حين. متعلق بأواب.

﴿العشى﴾ : هو ما بعد الظهر إلى الغروب.

﴿الصافنات﴾ : جمع صافن وهو من الخيل ما يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة، واضعا طرف حافرها على الأرض، وهذا لا يكون إلا فى الأصيل من الخيل؛ يقال صفن الفرس بوزن جلس.

﴿الجياد﴾ : جمع جواد يطلق على الذكر والأنثى؛ ومعناه الأصيل، سريع الجرى. والمراد : مدحها بأنها قوية نشيطة أصيلة، سباقة إذا جرت.

﴿أحببت﴾ : أى آثرت وفضلت، انظر الآية (١٠٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٠.

﴿الخير﴾ : أصل الخير المال الكثير كما فى الآية (١٨٠) من سورة البقرة صفحتى ٣٤ و ٣٥ والآية (٨) من سورة العاديات صفحة ٨١٨.

﴿عن ذكر ربى﴾ : ﴿عن﴾ تفيد أن ما بعدها علة وسبب فيما قبلها، انظر شرح الآية (٤٧) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٩ و ٥٩٠ فالمراد حبا حاصلاً بسبب تذكر أمر ربى بالعناية بالخيل، لأنها عدة الجهاد فى سبيل الله.

﴿بالحجاب﴾ : المراد به هنا ما حجبها عنه من افق، أو غبار، بعد جريها للاستفراض.

(١) الألباب. (٢) سليمان. (٣) الصافنات. (٤) سليمان. (٥) الشياطين. (٦) آخرين. (٧) مآب. (٨) الشيطان.

﴿طفق﴾ : أى شرع ﴿مسحا﴾ : المسح : إمرار اليد على الجسم والأصل يمسح سيقانها وأعناقها مسحًا.

﴿السوق﴾ : جمع ساق.

﴿فتنا سليمان﴾ : أى ابتليناه بما يشق عليه. ليظهر هل يصبر كما صبر أيوب أم لا؟.

﴿كرسيه﴾ : المراد به هنا عرش الملك الذى كان يجلس عليه، كما فى الآية (٣٨) من سورة النمل صفحة ٤٩٨.

﴿جسدًا﴾ : يراد به الجسم الذى لا روح فيه ولا قوة؛ انظر الآية (٨٨) من سورة طه صفحة ٤١٤.

﴿أناب﴾ : أى رجع.

﴿رخاء﴾ : أى لينة مريحة فى السير وإن كانت سريعة؛ انظر الآية (٨١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩.

﴿حيث أصاب﴾ : ﴿حيث﴾ ظرف مكان و ﴿أصاب﴾ أى أراد. تقول العرب: أصاب فلان الصواب فأخطأ الجواب أى أراد قول الصواب فلم يوفق.

﴿غواص﴾ : فى البحار لاستخراج اللؤلؤ.

﴿مقرنين﴾ : أى مربوطًا بعضهم ببعض.

﴿الأصفاد﴾ : جمع صَفَد بفتح أوله وثانيه وهو السلسلة.

﴿هذا﴾ : أى الملك الواسع والمال الكثير.

﴿فامنن﴾ : أى فأعط.

﴿أمسك﴾ : أى امنع.

﴿زلفى وحسن مآب﴾ : تقدم فى الآية (٢٥) من هذه السورة صفحة ٦٠٠.

﴿مسنى الشيطان﴾ : المراد مرضت. ومن أدب الأنبياء أنهم ينسبون ما يؤلم إلى الشيطان. وكل خير إلى الله عز وجل. انظر آيتى (٧٩ و ٨٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥ والآية (١٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٨.

المعنى : . هذا القرآن المبارك يتذكر به أصحاب العقول. وبعد ما فرغ سبحانه من قصة داود شرع فى حديث ابنه سليمان فقال: ووهبنا ... إلخ: أى أنعمنا على داود بولد صالح يرث ملكه ويكون نبيًا بعده هو سليمان.

نعم العبد هو لأنه رجاع إلى ربه فى كل أموره. ومنها حين عرض عليه بعد الظهر الخيل الجياد بأمر منه عليه السلام.

وذلك أن العناية بالخيل كانت مطلوبة فى دينه كما هى مطلوبة فى الإسلام ﴿باعتبارها من أدوات الحرب﴾ فجلس يومًا لاستعراضها، وأمر بإجرائها فجرت، فأراد أن ينبه مَنْ حوله إلى أنه لم يفعل ذلك للفخر وحب الدنيا، بل فعله لتنفيذ أمر الله وتقوية دينه. وصار يردد هذا التنبيه حتى توارت الخيل بما حجبها.

فقال ردوها علىَّ. فلما رجعت قام إليها، وصار يمسح سوقها وأعناقها بيده، إظهارا للعناية بها، وإرشادا لغيره من أمته. ثم انتقل سبحانه إلى حادث آخر لسليمان فقال ولقد فتنا ... إلخ: أى ابتلينا سليمان فألقينا على كرسى ملكه جسدًا لا فائدة فيه ثم رجع إلى الله بالتوبة أو رجع إليه الكرسى. وبيان ذلك أنه نظرا لأنه لم يرد فى تفسير الآية ما يفيد القطع برأى معين تشعبت فيها آراء المفسرين فروى بعضهم أن سليمان حين شعر بأنه ليس له مَنْ يرثه فيما هو فيه، كما ورث هو أباه، تمنى أن يكون له ذلك. بل صرح لمَنْ حوله بأنه سيكون له أولاد كثيرون يصلحون لذلك ويجاهدون فى سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله. فلم يولد له إلا شق ولد (سقط). فأدرك هفوته فرجع إلى ربه بالاستغفار والتوبة. وطلب من الله بدل الأولاد ما يحفظ له ذكره من باب آخر وهو الملك الذى لا يناله أحد غيره إلى آخر ما سيأتى. ورغبة سليمان فى ولد من نسله يرث مجده ليس غريبًا فقد طلب ذلك إبراهيم عليه السلام من قبل،

انظر الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤ ومن بعده زكريا كما فى الآية (٣٨) من سورة آل عمران والآيات من (٣ إلى ٦) من سورة مريم صفحة ٣٩٦ والآية (٨٩) وما بعدها من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠، وقال ابن الأثير فى تاريخه فى الجزء الأول :

إنه كان لداود ولد أكبر من سليمان وكان فاسدا. وعلم أن أباه يرغب فى أن يكون كرسى الملك بعده لسليمان فحارب أباه. وانتزع منه الملك. ثم تكاثر عليه أنصار أبيه حتى قتلوه فرجع الملك لداود وخلص الكرسى لسليمان من بعده فقوله ألقينا على كرسيه جسدا يريد هذا الولد الفاجر، لأنه كان كأنه جسم ميت لا روح فيه. فقوله على هذا الرأى: ﴿ثم أناب﴾ أى رجع إليه الكرسى بعدما سلب منه. وقال الفخر الرازى : إن فتنة سليمان أن الله تعالى ابتلاه بمرض شديد أقعده حتى صار من شدته عليه كأنه مجرد جسد لا روح فيه ثم أناب أى رجع إلى حالة الأولى من العافية. وقد عرضنا على القارئ أقرب ما قيل فى هذا الموضوع ليعلم أنه لا حرج عليه فى أن يختار ما يطمئن له قلبه. والله سبحانه أعلم. وبعد ذلك طلب سليمان من ربه ما يريده حالة كونه مقدما الاستغفار ليكون أقرب إلى الإجابة فقال يا رب اغفر لى ما يكون قد حصل منى. وهب لى ملكًا لا يسهل حصوله لأحد من بعدى.

إنك أنت كثير العطاء. فاستجاب الله تعالى له فسخر له الريح تجرى بأمره لينة لا زعزعة فيها إلى حيث أراد. وسخرنا له الشياطين كل بَنَّاء منهم للمحاريب والقصور وغير ذلك. وشياطين آخرين مقيدين فى السلاسل لأنهم خالفوا أمره؛ انظر آيتى (٨١ و ٨٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩. وآيتى (١٢ و ١٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤.

وقال سبحانه له: هذا الملك الواسع هو عطاء منا لك. فأعط منه مَنْ شئت وامنع من شئت. فلن نحاسبك على شىء من تصرفك فيه، لأننا نعلم أنك لا تتصرف إلا فى الوجوه المشروعة النافعة. سخرنا كل ذلك لسليمان والحال أن منزلته عندنا عالية، وله فى الآخرة حسن مرجع. واذكر أيها النبى لقومك قصة عبدنا أيوب حين نادى ربه بقوله يارب إنى مسنى الشيطان... إلخ، وهو من نسل إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ
بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ
رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ
ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ
الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم
بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ
الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ
وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ
مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾
مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾
* وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا

المفردات : ﴿نصب﴾ : أى مشقة وتعب.

﴿عذاب﴾ : المراد : ألم يضر صاحبه، انظر الآية (٨٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩.

﴿اركض﴾ : أى اضرب الأرض برجلك يخرج منها ينبوعًا من الماء البارد.

﴿مغتسل﴾ : أصل المغتسل المكان الذى يغتسل فيه، ويطلق على الماء الذى يغتسل به، وهو المراد هنا، لعطف ما بعده عليه وهو ﴿شراب﴾ والمراد : مشروب. ﴿ذكرى لأولى الألباب﴾ : أى عظة لأصحاب العقول يتعلمون منها انتظار الفرج بالصبر الجميل.

﴿ضغثًا﴾ : هو الحزمة الصغيرة من عيدان الحشائش. انظر شرح الآية (٤٤) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٩ و ٣١٠.

﴿لا تحنث﴾ : أى لا تقع فى الحنث، وهو الذنب، بسبب عدم فعل ما حلفت عليه، انظر الآية (٤٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥.

﴿أواب﴾ : تقدم فى الآية (١٧) من هذه السورة صفحة ٥٩٩.

﴿أولى الأيدى﴾ : ﴿الأيدى﴾ جمع يد والمراد بها هنا القوة فى الطاعة؛ انظر شرح الآية (٢٨) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨. فالمراد أصحاب القوة فى الطاعة.

(١) الألباب. (٢) وجدناه. (٣) عبادنا. (٤) إبراهيم. (٥) إسحاق.
(٦) الأبصار. (٧) أخلصناهم. (٨) إسماعيل. (٩) مآب. (١٠) جنات.
(١١) الأبواب. (١٢) بفاكهة. (١٣) قاصرات.

﴿الأبصار﴾ : جمع بصر. والمراد به هنا البصيرة وهى معرفة أسرار الدين وغيره.

﴿أخلصناهم بخالصة﴾ : أى جعلناهم خالصين لطاعتنا بسبب توفيقهم لخصلة خالية من كل عيب، انظر الآية (٢٤) من سورة يوسف صفحة ٣٠٦.

﴿ذكرى الدار﴾ : بيان للخالصة السابقة والمعنى تذكر دار الآخرة والعمل لها.

﴿المصطفين﴾ : المختارين المفضلين على غيرهم.

﴿الأخيار﴾ : جمع خَيِّر بوزن سيد وهو كثير الخير.

﴿اليسع وذا الكفل﴾ : من أنبياء بنى إسرائيل.

﴿هذا ذكر﴾ : أى ما تقدم شرف عظيم لهؤلاء الأنبياء، انظر شرح الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١.

﴿يدعون فيها بفاكهة﴾ : أى يطلبون وهم فى الجنة فاكهة كثيرة.. إلخ.

﴿قاصرات الطرف﴾ : أى لا ينظرون إلى غير أزواجهن لجمالهم فى نظرهن، كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠.

﴿أتراب﴾ : جمع ترب بكسر فسكون. وهى المساوية لغيرها فى السن، أى متساويات فى سن الشباب، انظر آيتى (٣٦ و ٣٧) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥.

المعنى : - إن أيوب لما ابتلاه ربه سبحانه وتعالى بفقد الصحة والأولاد صبر ولم يشك لأحد غير الله. ولم يلجأ إلا إليه تعالى. فقال: إنى أصبت بتعب وألم من المرض. فأنقذه سبحانه فقال له اضرب الأرض برجلك يخرج ينبوعًا من الماء البارد. فاغتسل منه واشرب أى استعمله ظاهرا وباطنا يذهب ما بك من الألم. ونحن نجد بعض المياه المعدنية الآن تشفى أمراضا كثيرة جلدية وغيرها. فسبحان العليم بأسرار خلقه. ثم عوضه أولادًا بعدد من مات منهم مرتين.

وبارك فيهم حتى صاروا ضعف ما كانوا. فعلنا به ذلك لرحمتنا به، وعبرة لأصحاب العقول. يتعلمون منها أن الصبر مفتاح الفرج. وكان غضب على امرأته لأمر ما. فحلف لئن شفيت لأضربنها مائة ضربة. ولما كان سبحانه يعلم أنها معذورة وأن أيوب يحبها ولا يستغنى عنها، تلطف سبحانه بها وبه فرخص له أن يأخذ حزمة من عيدان الحشائش بها مائة عود ويضربها بها حتى لا يقع فى يمينه. وبيَّن السبب فى هذا الترخيص بقوله: إنا وجدناه صابرا. ثم مدحه بقوله: نعم العبد إنه رجاع إلى ربه. وقد اختلف العلماء فى مثل هذه الحيلة وغيرها، فرأى بعضهم أنها رخصة من الله لأيوب خاصة، لا لغيره، واستدل بأن الله تعالى لعن بنى إسرائيل على الحيلة فى الآية (١٦٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٩.

وبقوله ﷺ لعن الله اليهود. حرم الله عليهم أكل شحوم الإبل فأذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها. وقال بعضهم الصواب: التفصيل: فالحيلة التى لا يقصد بها إسقاط حق من حقوق الله تعالى ولا ضرر أحد كما هنا تجوز. وإلا فهى حرام.

واذكر أيها النبى عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أصحاب القوة فى الدين والبصائر النيرة، إنا جعلناهم خالصين لطاعتنا بسبب توفيقهم لخصلة خالصة من كل عيب هى تذكر دار الآخرة دائمًا فيعملون لها. وأنهم فى حكمنا لمن المختارين الذين جبلت نفوسهم على حب الخير. واذكر أيضًا ممَّن تحملوا الشدائد إسماعيل واليسع وذا الكفل، وكل منهم من عبادنا الأخيار. هذا الذى تقدم من فضائل هؤلاء الأنبياء هو شرف عظيم. وإن لهم فى الآخرة لمرجع حسن لأنهم أفضل المتقين. ثم بيَّن هذا المرجع الحسن بأنه جنات عدن مفتحة لهم أبوابها تتلقاهم كأنها مسرورة بهم، انظر الآية (٧٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٦. متكئين فى تلك الجنات على الأرائك كما فى الآية (١٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢ يطلبون كل ما يشتهون من فاكهة كثيرة وشراب مما هو مبين فى الآية (١٥) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٤ وآيتى (٥ و ٦) من سورة الإنسان أيضًا صفحة ٧٨١. وعندهم فى الجنة حور عين قاصرات أطرافهن عليهم. كلهن سن واحدة شابات أبكار.

مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن
نَفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ
وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ
مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾
قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ
الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم
مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ
الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ
إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾

المفردات: : ﴿ليوم الحساب﴾ : اللام بمعنى بعد، أى بعد يوم الحساب. كما تقول حضرت لخمس مضت من شعبان أى بعد خمسة أيام منه؛ لأن ما ذكر من النعيم فى الآيات (٥٠ و ٥١ و ٥٢) لا يكون إلا بعد موقف الحساب. وانصراف أهل الموقف كل إلى مقره من جنة أو نار.

﴿من نفاد﴾ : ﴿من﴾ لتأكيد عموم نفى ما بعدها. و ﴿النفاد﴾ الانقطاع والانتهاء، انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

﴿هذا﴾ : تقدم المراد بها فى نظيرها فى ﴿ذلك﴾ فى الآية (٣٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٧.

﴿مآب﴾ : أى مرجع وهو هنا جهنم.

﴿فبئس﴾ : أى فقبح.

﴿المهاد﴾ : أى الفراش انظر الآية (٢٠٦) من سورة البقرة صفحة ٤٠ والآية (٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧.

﴿حميم﴾ : هو الماء شديد الحرارة.

﴿غساق﴾ : أصله الماء المنتن والمراد به هنا: ما يسيل من صديد أجساد أهل النار.

﴿شكله﴾ : أى مثله فى بشاعة الطعم.

---

(١) للطاغين. (٢) مآب. (٣) آخر. (٤) أزواج. (٥) أتخذناهم.
(٦) الأبصار. (٧) الواحد. (٨) السموات. (٩) الغفار.

﴿أزواج﴾ : أى أصناف وأنواع.

﴿فوج﴾ : أى جمع كثير من أتباع رؤساء الكفر والضلال.

﴿مقتحم﴾ : أى داخل بشدة ومشقة مع ضيق فى جهنم معكم.

﴿لا مرحبا بهم﴾.. إلخ الأصل : قالوا ﴿لا مرحبًا﴾ ... إلخ.

﴿صالوا النار﴾ : أى داخلوها ومقاسون حرها.

﴿لا مرحبا بكم﴾ : هذا رد من الأتباع على الزعماء..

﴿القرار﴾ : أى المقر الذى أوقعتمونا فيه، وهو جهنم.

﴿ضعفًا﴾ : أى مرتين.

﴿رجالا﴾ : يريدون فقراء المؤمنين.

﴿الأشرار﴾ : يريدون المحتقرين الذين كانوا يسخرون منهم، انظر الآية (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨.

المعنى : يقول سبحانه لعباده المؤمنين هذا الذى ذكرناه من الجنة ونعيمها هو ما وعدكم به ربكم تنالونه بعد يوم القيامة واستقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار. ثم طمأنهم بأنه نعيم دائم بقوله: إن هذا الرزق لكم منا غير مقطوع.

وبعد ما وصف سبحانه نعيم المتقين أتبعه بوصف عقاب الطاغين من الكافرين والضالين فقال: هذا جزاء المتقين.. إلخ. (أى الأمر بالنسبة للمتقين هو الذى سمعت).

وإن للطاغين لشر مرجع، ثم بينه بأنه جهنم يقاسون حرها فقبح المهاد مهادها هذا العذاب فليذوقوه.

ثم بيَّنه بأنه حميم أى ماء حار يقطع الأمعاء. وصديد، انظر الآية (١٥) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٤ ولهم شراب آخر من مثل ما ذكر أنواع مختلفة لا يعلمها غيره تعالى.

ثم يقول خزنة جهنم لرؤساء الكفر والضلال مشيرين إلى أتباعهم هذا جمع كثير من أتباعكم حشر معكم فى جهنم.

فيقول هؤلاء الزعماء: لا مرحبا بهم. دعوا عليهم ثم عللوا كرههم بأنهم داخلون النار.

فيرد الأتباع على الرؤساء قائلين : بل أنتم لا مرحبا بكم، أى أن الدعاء الذى دعوتم به علينا أنتم أحق به.

وعللوا ذلك بقولهم أنتم قدمتم لنا هذا العذاب بتغريركم بنا حتى اتبعناكم، فبئس هذا المقر الذى أوقعتمونا فيه.

ثم قال هؤلاء الأتباع: يا ربنا مَنْ تسبب لنا فى تقديم هذا العذاب فزده عذابا مضاعفا فى النار، عذابًا على ضلاله وآخر على إضلاله لغيره، ونظيره فى الآية (٣٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨ والآية (٤٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

وقال رؤساء الكفر: ما لنا لا نرى رجالاً من فقراء المؤمنين كنا فى الدنيا نعدهم من التعساء.

هل كنا سخرنا منهم مع أنهم من أهل الجنة، أم هم معنا فى النار ولكن لم تقع عليهم أبصارنا؟

ثم بين سبحانه أن هذا التخاصم سيكون حقا فقال إن ذلك.. إلخ أى هذا الذى حدثناك عنه أيها النبى حق، هو تخاصم أهل النار، انظر الآية (٩٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦.

قل أيها النبى لكفار مكة إنما أنا محذر لكم من عذاب الله إذا أشركتم به والحال أنه ما من إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز أى الغالب على أمره. الغفار لكل من تاب.

والمراد: أنا منذر ولست بساحر ولا كاذب كما تفترون.

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا[1] عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ
لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ[2] الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ
إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ[3]
إِنِّي خَالِقٌ[4] بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[5] ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ[6]
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
الْكَافِرِينَ[7] ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ[8] مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا
خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾
قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾
قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ
يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ

المفردات : . ﴿من علم﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده.

﴿الملأ الأعلى﴾ : المراد بهم هنا الملائكة ومن تبعهم ممن أمروا بالسجود لآدم فى الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحة ٨، ويدل على ذلك ما سيأتى فى الآية (٧١) وما بعدها هنا.

﴿إذ﴾ : أى حين.

﴿يختصمون﴾ : المراد من الاختصام هنا: مجرد المحاورة، أى يتحاورون فى شأن آدم.

﴿إن يوحى﴾ : ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. ﴿إذا قال ربك﴾ .. إلخ بيان لبعض ما حصل من المحاورة فى الملأ الأعلى.

﴿سويته﴾ .. إلخ : تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠.

﴿خلقت بيدى﴾ : تقدم المراد بها فى الآية (٧١) من سورة يس صفحة ٥٨٥.

﴿استكبرت﴾ : الهمزة للاستفهام المراد به التوبيخ، أى هل يصح أن تتكبر على آدم مع أنه خير منك، أى هل استولى عليك كبر.

﴿أم كنت من العالمين﴾ : ﴿أم﴾ تقدم المراد بها فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة

٤٢. ﴿من العالين﴾ : المراد الخارجين على أوامر الله تعالى بعصيانها بغيًا، انظر معانى العلو فى الآية (١٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧.

---

(١) نبأ. (٢) بالملأ. (٣) للملائكة. (٤) خالق.
(٥) ساجدين. (٦) الملائكة. (٧) الكافرين. (٨) يا إبليس.

﴿رجيم﴾ : أى مرجوم باللعن من الجميع. ﴿يوم الدين﴾ : يوم الحساب والمراد يوم القيامة.

﴿أنظرنى﴾ : أمهلنى. ﴿إلى يوم يبعثون﴾ : يريد الخبيث أن ألا يموت مع الخلائق عند النفخة الأولى المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥، فلم يجبه سبحانه بل أخبره بأنه سيصعق مع كل حى. ﴿يوم الوقت﴾ ... إلخ : تقدم فى الآية (٣٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠.

المعنى : . قل أيها النبى لكفار قومك: هذا الذى أخبرتكم به من أنى رسول الله ومنذر لكم من عذاب شديد. ومن أنه واحد لا شريك له، هو خبر عظيم الأثر. ولكنكم معرضون عنه لا تتأملون فى عواقبه. ثم نبههم إلى بعض أدلة صدقه بقوله: ما كان لى علم مطلقًا بأحوال الملأ الأعلى حين يختصمون. ولما كان من أدلة صدقه ﷺ الإخبار بغيب لا يعلمه غيره تعالى كرره سبحانه فى القرآن مرارًا، انظر الآية (٤٤) من سورة آل عمران صفحة ٧٠، والآية (٤٩) من سورة هود صفحة ٢٩١ والآية (١٠٢) من سورة يوسف صفحة ٣١٨، والآيات من (٤٤ إلى ٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣ ثم أكد ما سبق بقوله إن يوحى.. إلخ: أى ما يوحى إلىَّ شىء من الله سبحانه إلا أنى نذير لكم، وخص الإنذار مع أنه مبشر أيضًا؛ لأنه المناسب لحالهم. انظر آيتى (١٩٣ و ١٩٤) من سورة الشعراء صفحة٤٩١. ثم شرع سبحانه فى تفصيل ما أجمله أولا فى الآية (٦٩) من قصة امتناع إبليس ليعتبروا ويعلموا أن الحسد والكبر أهلكا إبليس. فلا يحملهم الحسد والتكبر على محمَّد ﷺ على الوقوع فى الهلاك أيضا، إذ قال ربك ... إلخ. أى اذكر لهم ما قاله للملائكة إلى آخر ما سبق فى صفحات ٨ و ١٩٣ و٣٤٠ و ٣٧٢ و٣٧٣ و ٣٨٨. وبعدما عصى إبليس قال له سبحانه اخرج من الجنة التى كان فيها آدم على حسب ما سبق فى سورة البقرة، وقال له ستكون ملعونا على كل لسان وملعونًا منى أيضًا إلى يوم القيامة؛ ولما يئس الملعون من رحمة الله قال ربى أمهلنى ولا تهلكنى واتركنى حيا إلى يوم القيامة. قال سبحانه: فإنك من الممهلين إلى يوم النفخ فى الصور لإهلاك الخلائق.

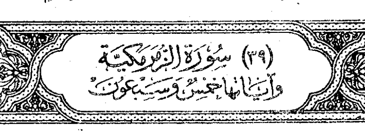
المفردات: . ﴿عزتك﴾: تقدم معناها فى الآية (١٨٠) من سورة الصافات صفحة ٥٩٧.

﴿المخلصين﴾: الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته، انظر صفحة ٣٠٦.

﴿المتكلفين﴾: أى المدَّعين معرفة مالا يعرفون. قال عبد الله بن مسعود: أيها الناس مَنْ علم منكم علما فليقل به. ومَنْ لم يعلم فليقل الله أعلم. قال سبحانه لرسوله قل وما أنا من المتكلفين.

﴿إن هو﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. أى: ماهو. ﴿ذكر﴾: أى تذكير وعظة.

ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ

المعنى: . لما أخبر سبحانه إبليس بأنه أخر موته ليوم النفخة الأولى. قال اللعين: أقسم بعزتك وسلطانك وقهرك الذى جعلنى غاويًا لأغوين أولاد آدم هذا بتزيين المعاصى لهم كلهم إلا عبادك منهم الذين أخلصتهم لطاعتك، فإن إغوائى لاينفع معهم لخوفهم منك. قال سبحانه وتعالى فالحق قولى دائمًا ولا أقول إلا الحق. وعزتى لأملأن جهنم منك أى من جنسك من ذريتك من الجن كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، ومن كل مَنْ يتبعك من أولاد آدم أجمعين.

وبعد ما فرغ سبحانه من الأدلة والعبر أمر نبيه أن ينبه الكفار إلى ما لو فهموه لأنقذوا أنفسهم فقال: قل ما أسألكم... إلخ. أى ما أسألكم على تبليغ مايوحى إلىَّ أجرًا لا كثيرًا ولا قليلا. وماعرفتمونى أتكلف ماليس عندى حتى أنتحل الرسالة وأتقول على الله القرآن. وهذا

(١) أسالكم. (٢) للعالمين. (٣، ٤) الكتاب.

خطاب لضمائرهم التى توقن أنه صادق أمين. ولم يعرف بغير ذلك فيما بينهم. ثم أكد ذلك بقوله ﴿إن هو﴾ إلخ: أى ماهذا القرآن إلا عظة وتذكيرًا لكل العالمين من إنس وجن. ثم بعدأن نبههم إلى العبرة هددهم إذا فرطوا فقال ولتعلمن.. إلخ. أى والله لتعلمن إن أصررتم على الباطل خبر هذا القرآن وأنه حق ولتعلمنه بعد قليل.. أى حين موتكم. ولن ينفعكم علمكم حينئذ. نسأل الله تعالى الهداية. والله تعالى أعلم.

سورة الزمر

المفردات: . ﴿الزمر﴾: بفتح الميم وسيأتى بيان هذا اللفظ فى الآية (٧١) الآتية.

﴿تنزيل الكتاب﴾: المعنى تنزيل هذا الكتاب الكريم هو من الله.

﴿العزيز﴾: هو الغالب الذى لايغلبه أحد. ﴿الحكيم﴾: الذى لايفعل إلا مافيه حكمة ومصلحة.

﴿الدين﴾: المراد به هنا الطاعة. ﴿أولياء﴾: المراد: معبودات باطلة يوالونها بالتقرب إليها.

المعنى: تنزيل هذا الكتاب العظيم هو من الله العزيز الحكيم الذى لايفعل شيئًا عبثًا. لا من الشياطين كما يزعم المفترون. انظر الآية (٢١٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢، وبعد ما أثبت أنه حق من عند الله.

شرع فى بيان ما اشتمل عليه فقال (إنا أنزلنا).. إلخ. أى إنا أنزلنا إليك أيها الرسول هذا الكتاب آمرا بالحق والعدل ومافيه سعادة البشر. فاعبد الله تعالى وحده مخلصا له الطاعة من شوائب الشرك والرياء، ثم نبه على أن الله تعالى لايقرب إليه إلا الطاعة الخالصة من كل عيب. وبعد ذلك أراد سبحانه أن يبين قبح الشرك وما يلحق صاحبه من ضرر جسيم فقال: (والذين اتخذوا).. إلخ أى والمشركون الذين اتخذوا معبودات من غير الله.

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ
مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ
الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا
مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا
فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ

المفـردات: . ﴿زلفى﴾: تقـدمت فى الآية (٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨. ﴿كفار﴾: أى شديد الكفر. ﴿لاصطفى﴾: أى اختار.

﴿يكور الليل..﴾. إلخ: تقـول العـرب كـور العمامة على رأسه أى لفها طاقة فوق طاقة. فالمعنى يلف الليل على جزء من النهار فيطول الليل، ويلف النهار على جزء من الليل فيطول النهار.

والكلام كناية عن طول أحدهما وقصر الآخر وتفاوت جزء كل منهما بين الضوء والظلمة، كما فى الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.. ﴿ألا﴾: حرف ينبه السامع للعناية بما بعده. ﴿خلقكم من نفس واحدة..﴾إلخ: تقدم شرحها فى الآية (١) من سورة النساء صفحة ٩٧. ﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾: معنى الإنزال هنا: الخلق والإيجاد؛ انظر الآية (٢٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٥ والآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣؛

﴿ثمانية أزواج﴾: تقدم معناها فى الآية (١٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٧.

﴿خلقا من بعد خلق﴾: تقدم بيان ذلك فى الآية (١٢) ومابعدها صفحة ٤٤٦.

﴿فى ظلمات ثلاث﴾: أثبت التشريح الطبى الحديث أن الجنين محاط بثلاثة أغشية فى داخل الرحم. فسبحان مَنْ علم رسوله مالم يكن أحد يعلمه.

﴿فأنى﴾: أى فكيف. ﴿تصرفون﴾: أى يصرفكم الشيطان عن الحق.

المعنى: . والذين اتخذوا من دون الله أولياء يتقربون إليهم يقولون مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله منزلة وذلك أنهم جعلوا تماثيل للكواكب وللملائكة وللأنبياء وللصالحين الذين ماتوا.

وقربوا لها القرابين. وتوسلوا بها إلى الله تعالى. وقالوا إن الله أعظم من أن نتوجه إليه مباشرة. فنحن نتقرب إلى هذه. وهى تقربنا إلى الله وتشفع لنا عنده كما فى الآية (١٨) من

(١) كاذب. (٢) سبحانه. (٣) الواحد. (٤) السموات. (٥) الليل. (٦) الغفار. (٧) واحدة. (٨) الأنعام. (٩) ثمانية. (١٠) أزواج. (١١) أمهاتكم. (١٢) ظلمات. (١٣) ثلاث.

سورة يونس صفحة ٢٦٨ . وقد رد عليهم سبحانه موبخًا لهم فى الآية (٢٨) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠. ثم هددهم سبحانه بقوله: إن الله يحكم بينهم أى وبين المؤمنين فيما اختلفوا فيه من التوحيد والشرك يوم القيامة فيدخلهم جهنم. ويدخل المؤمنين الجنة. ثم بيَّن سبحانه سبب ضلالهم.

فقال: إن الله لايهدى مَنْ هو مصمم على الافتراء شديد الكفر والعناد، انظر شرح ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ثم بيَّن سبحانه استحالة مايزعمون فقال: (لو أراد الله أن يتخذ).. إلخ: أى كما قالوا: اتخذ الرحمن ولدا فى الآية (٢٦) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٢ و ٤٢٣؛ ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يتخذ ولدا لما أمكن أن يختاره إلا من خلقه، لاستحالة وجود أحد قديم فى الكون لا أول له غيره تعالى، انظر الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣، ومن المقطوع به أن الولد من جنس أبيه، ويستحيل أن يكون المخلوق من جنس الخالق القديم، وحاصل المعنى: لو أراد الله سبحانه وتعالى اتخاذ ولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع، لكن لايجوز على البارى أن تتعلق إرادته بالمستحيل، فالنتيجة أن الولد محال عليه سبحانه وتعالى؛ ونظير ذلك مافى الآية (١٧) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢١ و ٤٢٢؛ ولكنه لو أراد أن يصطفى أحدًا من خلقه لاصطفى ماشاء، وقد اصطفى فعلاً فى الآية (٣٣) من سورة آل عمران صفحة ٦٨ ولايكون هذا من اتخاذ الولد فى شىء؛ ولذا قال ﴿سبحانه﴾ أى تنزيهًا له تعالى عن ذلك لأنه الواحد الذى قهر كل شىء لقدرته. ثم بين كمال قدرته على كل شىء فقال: خلق السموات والأرض بالحق ولحكمة سامية لاعبثًا كما فى الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، ومن قدرته أنه يطيل الليل ويقصر النهار تارة ويعكس الأمر تارة أخرى لحكم عالية. وسخر الشمس والقمر لمصالح خلقه. كل منهما يجرى لحين انتهاء العالم. ألا هو الغالب على أمره. القاهر لكل كافر لايعتبر. الغفار لكل مَنْ تاب من ذنبه. ومن دلائل قدرته وحكمته أنه خلق الناس من نفس واحدة وجعل لها زوجا من جنسها وأنزل أى خلق (كما فى إنزال الحديد فى الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣). والمعنى: خلق لكم من الأنعام وهى الإبل والبقر والضأن والماعز. ومن قدرته وحكمته أيضًا أنه يخلقكم أطوارا فى بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق من علقة إلى مضغة إلخ ماسبق، وهذه التطورات تحصل فى جوف الرحم محاطة بثلاثة أغشية. ذلكم الذى يفعل كل هذا هو ربكم الحق لا إله إلا هو. فكيف يصرفكم الشيطان عن عبادته وحده إلى عبادة غيره معه. ثم بيَّن سبحانه أن عبادتهم له لمصلحتهم فقال: إن تكفروا فلن يضره كفركم لأنه سبحانه غنى عنكم. ولا يرضى لعباده أن يكفروا به؛ لأنه هو الذى خلقهم ورزقهم فيجب ألا يعرفوا غيره.

تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ(١) ضُرٌّ دَعَا
رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو
إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ
قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ(٢) النَّارِ (٨)
أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ(٣) آنَاءَ(٤) اللَّيْلِ(٥) سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ(٦)
وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ(٧) (٩) قُلْ يَا عِبَادِ(٨)
الَّذِينَ آمَنُوا(٩) اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ(١٠) إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ(١١) أَجْرَهُم
بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا

المفردات: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى... إلخ﴾: تقدم فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١. ﴿منيبًا إليه﴾: أى راجعًا إليه سبحانه وتعالى بالتضرع. ﴿خوّله﴾: أى أعطاه تفضلا منه، انظر الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨.

﴿أندادًا﴾: أى أمثالا ونظراء. ﴿أمن﴾: مركبة من كلمتين ﴿أم﴾ و ﴿مَنْ﴾ و ﴿أم﴾ هنا تفيد معنى همزة الاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، ومعنى بل التى تفيد الانتقال من موضوع إلى آخر.

﴿قانت﴾: أى مداوم على الخضوع التام لربه، انظر الآية (٣١) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٤. ﴿آناء الليل﴾: آناء جمع إنو بكسر فسكون، بمعنى جزء، كما تقدم فى الآية (١١٣) من سورة آل عمران صفحة ٨١.

﴿بغير حساب﴾: هذا التعبير فى لغة العرب يقصد به أن الشىء المتحدث عنه بلغ من الكثرة حدًا لايحصيه الحصر بدليل أنه جاء فى الحديث عن نعيم الجنة الخالد الذى لاينقطع فقال سبحانه ﴿فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ الآية (٤٠) من سورة غافر صفحة ٦٢٣. ومن أساليب العرب أنهم إذا أرادوا مقابل هذا المعنى وهو القلة يأتون بكلمة ﴿معدودة﴾ أو كلمة ﴿معدودات﴾ فيقول القرآن ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾.. الآية أى مدة قليلة، انظر الآية (٨) من سورة هود صفحة ٢٨٥. ويقول ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. أيامًا معدودات﴾.. الآية آيتى (١٨٣، ١٨٤) من سورة البقرة صفحة ٣٥. ويقول ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾... الآية انظر الآية (٢٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥.

(١) الإنسان. (٢) أصحاب. (٣) قانت. (٤) آناء. (٥) الليل. (٦) الآخرة.
(٧) الألباب. (٨) ياعباد. (٩) آمنوا. (١٠) واسعة. (١١) الصابرون.

المعنى: . إن الله لايحب لعباده الكفر وإن تشكروا نعمه عليكم بالإيمان به يرض لكم هذا الشكر ويجازكم عليه بالجنة. ثم بيّن أن كل مكلف يجازى يوم القيامة بما قدم من عمل، ولاشأن له بعمل غيره، فقال ﴿ولاتزر.. إلخ﴾ أى لاتحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى. بل كل لا يحمل إلا ذنب نفسه.

ثم مصيركم يوم القيامة إلى ربكم العليم بكل ماحصل منكم فيخبركم بما كنتم تعملونه فى الدنيا. ثم يجازى كلا على حسب عمله وما انطوت عليه نفسه، لأنه عليم بما فى داخل الصدور. ثم بين سبحانه حالة من حالات هؤلاء الكفار لاتتفق مع العقل فقال: ﴿وإذا مس الإنسان الكافر بلاء وشدة لجأ إلى الله لايدعو غيره﴾، انظر الآية (١٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، والآية (٤٩) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦١٣. ثم إذا أعطاه سبحانه نعمة منه تذهب عنه ماهو فيه من الشدة ماكان يدعو الله لكشفه، واغتر بما هو فيه، وجعل لله نظراء. فتكون نتيجة عمله أنه يكون قدوة فى إضلال الناس عن التوحيد. ثم هدد سبحانه مَنْ كان على هذا الطريق بقوله ﴿قل تمتع بكفرك﴾..إلخ أى قل أيها النبى لمَنْ يعمل ذلك تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا وكل مايلهيك عن التأمل فى الأدلة زمنًا قليلا إلى حين حلول أجلك، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار المخلدين فيها. ثم بيَّن سبحانه أن عدله لايسوى بين المؤمن والكافر فقال ﴿أمن هو﴾.. إلخ. أى هل مَنْ هو قائم فى عبادة ربه فى ساعات الليل التى تكون العبادة فيها أشق على النفس وأبعد عن الرياء حال كونه ساجدًا وقائمًا يخاف عذاب الآخرة ويرجو رحمة ربه. هل مَنْ كان هذا حاله يستوى مع مَنْ يكفر بالله ولا يشكر نعمه؟ كلا ثم صرح بنفى التساوى فقال ﴿قل هل يستوى﴾. إلخ أى قل أيها النبى لقومك هل يصح فى نظر العقول السليمة وفى حكم العدل أن يستوى الذين يعلمون منافع الطاعة ومضار المعصية. ويعملون بمقتضى علمهم مع الذين لايعلمون ذلك لاشتغالهم بمتاع الدنيا الزائل إنما يعتبر بهذا التنبيه وهذه الإرشادات أصحاب العقول التى لم تفسدها التقاليد الفاسدة. ثم أمر سبحانه نبيه أن ينصح المؤمنين بما فيه خيرهم فقال ﴿قل ياعبادى﴾.. إلخ أى قل أيها النبى للمؤمنين معك داوموا على تقوى ربكم واعلموا أن الله جعل لمَنْ يحسن عمله فى الدنيا حسنة فى الدنيا، انظر شرح الآية (٤١) من سورة النحل صفحة ٣٥١ والآية (٥٥) من سورة النور صفحتى ٤٦٦ و ٤٦٧ وفى الآخرة له الجنة.

ثم رغبهم فى الهجرة من مكة فقال ﴿وأرض الله﴾... إلخ أى أنكم إذا لم تستطيعوا الإحسان فهاجروا إلى بلد تستطيعون فيه ذلك. واصبروا على مفارقة الوطن؛ لأن الله تعالى سيجازى الصابرين جزاء واسعًا لايمكن حصره. وقل لهم أيضًا إن الله أمرنى أن أعبد الله وحده مخلصا له الطاعة.

لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢)
قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣)
قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن
دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ[1] الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ[2] أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم
مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ
اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ[3] فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا
الطَّاغُوتَ[4] أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ
عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ[5] اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ[6] (١٨)
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩)
لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ

المفردات: . ﴿وأمرت لأن أكون إلخ﴾... المعنى: وإنما أمرت بما تقدم لأجل أن أكون أول المسلمين. ﴿ألا ذلك﴾: ﴿ألا﴾: حرف ينبه السامع لما بعده. ﴿ظلل﴾: جمع ظلة بضم الظاء، كما فى الآية (١٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٠ و ٢٢١، والمراد أن فى جهنم طبقات متراكمة من النار فوقهم وتحتهم، انظر الآية (٤١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨ والآية (٥٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨، وسمى ماتحتهم ظلة لأنها وإن كانت تحتهم فهى فوق آخرين، انظر الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، كما تحيط بهم من جوانبهم فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤ و ٣٨٥.

﴿الطاغوت﴾: هو كل ماتكون طاعته سببًا فى زيادة طغيانه وبعده عن الصواب، والطاغوت يطلق على الواحد والمتعدد. فيقال رجل طاغوت أى طاغية، ورجال طاغوت أى طاغون، انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣ و ٥٤.

﴿أنابوا﴾: أى رجعوا إلى ربهم بالتوبة. ﴿يستمعون القول... إلخ﴾: أى يسمعون قول الله بعناية وتأمل. فيفعلون مما أمروا به أكثره ثوابا. ﴿أفمَنْ حق عليه﴾.. إلخ: أى هل أنت تملك أمر الناس فمَنْ حكم الله تعالى عليه بالعذاب تنقذه أنت؟ و﴿حق﴾: أى ثبت ووقع، انظر شرح الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤. و ﴿كلمة العذاب﴾: هى قوله ﴿لأملأن جهنم﴾... إلخ الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤.

﴿أفأنت﴾: كرر الاستفهام لتأكيد معنى الإنكار والنفى. ﴿تنقذ مَنْ فى النار﴾: الأصل (تنقذه) كما تقدم لكنه جاء بالظاهر بدل الضمير لبيان أن مَنْ استحق النار كأنه دخلها فعلا.

المعنى: . قل لهم أيها النبى إن ربى أمرنى أن أعبده مخلصًا له الطاعة. وأمرت أن أكون أول مَنْ ينقاد لأمر ربه لأكون القدوة فى الخير. وقل لهم أيضًا (إنى أخاف).. إلخ. فالحاصل أنه ﷺ كلف بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها وبأنه مأمور بأن يكون أول مَنْ يطع.

(١) الخاسرين. (٢) القيامة. (٣) ياعباد. (٤) الطاغوت. (٥) هداهم. (٦) الألباب.

وبأن يخبرهم بخوفه من عذاب الله إن عصى. وبأن يقول لهم إنى لا أعبد إلا الله مع الإخلاص إظهارًا لتصلبه فى الدين. وقطعًا لأطماعهم فى التراخى عنه، وتمهيدًا لتهديدهم بقوله فاعبدوا ماشئتم غير الله فإنكم بذلك ستخسرون كل خير. ولذا قال ﴿قل إن الخاسرين﴾... إلخ: أى قل لهم أيضًا إذا كنتم لاتعلمون مَنْ هم الخاسرون لكل سعادة فاسمعوا أخبركم بهم. هم الذين خسروا أنفسهم بالكفر الموجب للخلود فى النار، وخسروا أهليهم الذين يلوذون بهم إذا اتبعوهم فى ضلالهم فحرموا من التمتع بهم فى الجنة كما يتمتع المؤمنون فى الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥.

ثم نبه سبحانه إلى خطر ذلك فقال ألا ذلك الذى وقع فيه الكافرون هو الخسران الواضح إنه لاخسران بعده. انظر شرح مبين فى الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦، ثم بيَّن بعض هذا الخسران فقال لهم فى جهنم أطباق متراكمة من النار فوقهم وتحتهم، انظر الآية (٤١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨، والآية (٥٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨. ذلك الذى وصف من العذاب هو الذى يخوف الله به عباده ليجتنبوا أسبابه. ياعباد فاتقونى ولا تتعرضوا لعذابى. ثم رغب سبحانه فى اجتناب عبادة غيره فقال والذين اجتنبوا كل طاغية يدعو للكفر والمعاصى واجتنبوا أن يطيعوه ورجعوا إلى الله بكل جوارحهم. لهم البشرى بالجنة على ألسنة الملائكة عند الموت، انظر الآية (٣٢) من سورة النحل صفحة ٣٤٩. فبشر أيها النبى هؤلاء المؤمنين لأنهم عباده الذين يستمعون قول الله وقول رسوله الذى يحث على فعل الخير. فيختارون أكثره ثوابا وهو الأفضل وهذا مدح لهم بأنهم وهبهم الله تعالى دقة الموازنة بين الشيئين، فإذا صادفهم أمران واجب ومندوب، اختاروا الواجب. أو مباح ومندوب اختاروا المندوب، وإذا فوض إليهم الأمر بين القصاص والعفو اختاروا العفو، أو بين العقاب والتعدى اختاروا الإغضاء وإن كان له حق وله أن يعفو عنه ويتنازل اختار العفو والتنازل، انظر الآية (٢٣٧) من سورة البقرة صفحة ٤٩ والآية (١٢٦) من سورة النحل صفحة ٣٦٣ والآية (٤٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤؛ هؤلاء الذين يتبعون الأفضل هم الذين هداهم الله تعالى إلى طريق السعادة وهؤلاء هم أصحاب العقول السليمة التى تميز الفاضل والأفضل والحسن والأحسن ولما كان ﷺ شديد الحزن على كفر قومه شديد الرغبة فى هدايتهم. وكان سبحانه يعلم أنهم لايؤمنون أبدا مهما جاءهم من البراهين قال لنبيه ﴿أفمَنْ حق عليه﴾.. إلخ: أى لاتشق نفسك أيها النبى لإهمال هؤلاء الكفار؛ لأن مَنْ حكم الله عليه بالعذاب الخالد فى جهنم لعلمه أنه مصمم على الكفر مهما رأى من البراهين الدالة على الحق لايمكنك أنت إنقاذه منها. انظر الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١ والآية (٥٦) من سورة القصص صفحة ٥١٥، ولما بيَّن سبحانه أن للكافرين طبقات من النار. أراد أن يبين أن المتقين لهم

مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ[1] وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ[2] فِى الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ[3] ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ[4] مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا[5] إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ[6] ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ[7] فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ[8] قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ[9] مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا[10] مُّتَشَٰبِهًا[11] مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ[12] وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ[13] ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾

طبقات فى الجنة لتزداد حسرة الخاسرين فقال لكن الذين اتقوا ربهم فلم يفعلوا ما يغضبه. لهم فى الجنة غرف من فوقها غرف.

المفردات: ﴿مبنية﴾: تذكر العرب مثل هذه الكلمة مع سابقتها لتأكيد أن ما قبلها حقيقة لاتجوز فيها. فيقولون: رأيت الشىء بعينى رأسى. وطار الصقر بجناحيه، انظر الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ﴿سلكه﴾: أى أدخله كما فى الآية (١٢) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨، انظر الآية (١٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧. ﴿ينابيع﴾: جمع ينبوع كما فى الآية (٩٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦؛ وهو العين التى يجرى ماؤها فى باطن الأرض. ﴿ألوانه﴾: أى أنواعه، وأصنافه. يقال أعد فلان من ألوان الطعام الشىء الكثير أى أصنافه. ﴿يهيج﴾: أى يتم جفافه. ﴿حطاما﴾: الحطام هو الشىء المتكسر بعد يبسه، ويسمى فتاتا بضم الفاء.

﴿أفمن شرح الله صدره﴾.. إلخ: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى ومقابل ﴿مَنْ شرح﴾ مقدر فى الكلام مفهوم من السياق والأصل: هل عميت بصائركم فجعلتم مَنْ شرح الله صدره للإسلام كمَنْ جعل صدره ضيقًا لايدخله الإيمان. والمراد لايستويان و ﴿شرح الله صدره﴾ أى جعله مسرورًا به مرتاحا إليه. ﴿نور من ربه﴾: المراد: هدى منه تعالى كما فى الآية (٥) من سورة البقرة صفحة ٤. ﴿فويل﴾: أى هلاك. ﴿للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾: المراد: المتصلبة قلوبهم والمتألمة من سماع القرآن، انظر آيتى (١٢٤ و ١٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤ والآية (٤٥) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦١٢. ﴿متشابهًا﴾: المراد هنا: متماثلا فى النظم، والإتقان، والإرشاد إلى كل نافع. ﴿مثانى﴾: جمع مثنى بضم أوله، وفتح ثانيه، ونون مشددة مفتوحة، بمعنى مردد، ومكرر، لتكرر قراءة آياته بلا سآمة بل بإقبال واشتياق. وأيضًا

(١) الأنهار. (٢) ينابيع. (٣) الوانه. (٤) فتراه. (٥) حطاما. (٦) الألباب. (٧) للإسلام.
(٨) للقاسية. (٩) ضلال. (١٠) كتابا. (١١) متشابها. (١٢) القيامة. (١٣) للظالمين.

لتكرر براهينه ومواعظه وقصصه بصور مختلفة لقطع العذر على مَنْ يحاول الاعتذار يوم القيامة، انظر الآية (٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٥. ﴿تقشعر﴾: من وعيده بالعذاب جلودهم لأنهم يخشون ربهم. ﴿ثم تلين﴾... إلخ: أى تطمئن وتسكن لوعده.

﴿أفمن يتقى بوجهه﴾... إلخ: يقال فيه ماقيل فى مثله فى الآية (١٩) السابقة.

المعنى: . إن الله وعد المتقين بأن يكون لهم فى الجنة غرف من فوقها غرف حقيقية نظمت على أساس أنها تجرى من تحتها الأنهار. وعدهم الله تعالى بذلك وعدا. والله لايخلف وعده. وبعدما وصف سبحانه نعيم الآخرة بما يرغب فيه. أراد أن يبين نعيم الدنيا وسرعة زواله تحذيرا من الاغترار به. وصرف كل الهمة فيه. فقال: ﴿ألم تر﴾.. إلخ أى ألم تشاهد أيها الناظر الماء وقد نزل من السماء فأدخل منه كثيرا فى بطن الأرض، ثم فجر منه عيونا تجرى على ظهر الأرض، ثم يخرج به أنواعًا مختلفة من النبات من بر وشعير وأرز إلى غير ذلك. ثم نضجت وجفت واصفرت بعد خضرة ثم صارت فتاتا متكسرة. إن فى هذا الذى تشاهدونه تذكيرًا وعبرة يعتبر بها أصحاب العقول فلا يغترون بزخارف الدنيا لأنها سريعة الزوال وإنما خص سبحانه ماء العيون بالذكر مع أن المطر قد يجرى أنهارًا على ظهر الأرض مباشرة؛ لأن ماء العيون هو الدائم فى البلاد الصحراوية كبلاد العرب الذى كان الخصام دائرًا معهم ذلك الحين. ثم بين سبحانه أنه لاينتفع بهذه العبرة إلا مَنْ شرح صدره للدين الحق فقال: ﴿أفمن شرح﴾.. إلخ أى هل يظن عاقل أن مَنْ دخل النور قلبه، فانشرح للإسلام صدره، لما علم فيه من الحق، فأصبح متمكنا من الهداية التى أنعم الله بها عليه، كمَنْ طبع على قلبه لغفلته عن المصير المحتوم؟ انظر الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. فهلاك أشد أنواع الهلاك لمَنْ قست قلوبهم من أجل ذكر الله الذى من حقه أنْ تلين الجلود لذكره. هؤلاء فى ضلال واضح لايخفى على بصير. ثم بيَّن هذا الذكر الذى لم يهز قلوبهم بقوله: الله الذى أنزل أحسن الحديث كتابا متشابها أى متماثلا فى الإتقان، تكرر قصصه ومواعظه وأوامره ونواهيه بصور مختلفة، إذا سمعها المؤمنون تقشعر من وعيده بالعذاب جلودهم لأنهم يخشون ربهم. وإذا سمعوا آيات الرحمة والمغفرة تلين جلودهم وتسكن قلوبهم. ذلك الكتاب هو هدى الله يهدى به مَنْ يشاء. ومَنْ يبعده الله تعالى عن الانتفاع به فما له أحد يهديه إلى الصواب، انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ثم أراد سبحانه أن يبين الفرق بين حال المهتدى والضال: ﴿فقال أفمن يتقى بوجهه﴾.. إلخ أى هل مَنْ يتقى بوجهه الذى هو أشرف أعضائه يوم القيامة العذاب السيىء لكون يده التى يتقى بها المخاوف مغلولة إلى عنقه كمَنْ هو آمن لايعتريه مكروه فلا يحتاج إلى اتقائه وتقول الملائكة لهؤلاء المعذبين ذوقوا جزاء ما كنتم فى الدنيا تعملون من الكفر والمعاصى.

كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)

المفردات: . ﴿ضربنا للناس﴾: المراد: نوَّعنا لهم أسباب العبر والاتعاظ على وجوه شتى، منها ما فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤. ﴿من كل مثل﴾: ﴿من﴾ لتأكيد عموم ما بعدها. ﴿عوج﴾: ميل عن الصواب كما تقدم فى الآية (١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠. ﴿رجلا﴾: المراد به هنا: عبدا مملوكا؛ نظير مافى الآية (٧٥) من سورة النحل صفحة ٣٥٥.

﴿متشاكسون﴾: أى متنازعون دائمًا لشراسة طباعهم، كل يجتذبه لنفسه. ﴿سلما لرجل﴾: أى خالصا لسيد واحد لاينازعه فيه أحد.

﴿هل يستويان﴾: ﴿هل﴾ حرف استفهام إنكارى يفيد النفى. أى لايستويان. ﴿مثلا﴾: أى صفة وحالاً. ﴿الحمد لله﴾: تقدم المراد منها فى مثل هذا المقام فى شرح الآية (٥٩) من سورة النمل صفحة ٥٠١. ﴿ميت﴾: الميِّت بالتشديد: الحى الذى سيموت.

والميت بسكون الياء هو مَنْ خرجت روحه فعلا. ﴿تختصمون﴾: انظر بعض هذا الخصام فى الآيات: (١٦٦) من سورة البقرة صفحة ٣٢ و (٣١) ومابعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٧ و (٢٧) ومابعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٨. ﴿مثوى﴾: أى مأوى يقيمون فيه. ﴿الذى جاء بالصدق﴾: هو النبى ﷺ. والذى صدق به هم المؤمنون.

المعنى: . أراد سبحانه أن يحذر كفار قريش حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم. فقال: ﴿كذب الذين﴾.. إلخ: أى لما كذبوا رسلهم أتاهم العذاب بغتة كما فى الآية (٤٠) من سورة

(١) فاتاهم. (٢) الحياة. (٣) الآخرة. (٤) القرآن.
(٥) قرآنا. (٦) متشاكسون. (٧) القيامة. (٨) للكافرين.

العنكبوت صفحة ٥٢٦. فأذاقهم الله الخزى بالذل والهوان والقتل فى الحياة الدنيا. وما أعد لهم من عذاب الآخرة أكبر لشدته ودوامه. لو علموا حقيقته لاعتبروا. ثم أراد سبحانه أن يبين أن فيما قصه القرآن عليهم من الأمثال والمواعظ أكبر عبرة؛ فقال: ﴿ولقد ضربنا﴾.. إلخ. أى: ولقد جعلنا لكفار مكة أمثالاً من كل نوع لعلهم يتعظون.

سهلنا لهم أن يتذكروا قرآنا عربيًا بلغتهم يسهل عليهم فهمه. ليس فى هذا القرآن اختلاف بين معانيه ولا انحراف عن الصواب، لعلهم يتقون الكفر والمفاسد ثم ذكر مثلا من هذه الأمثال التى جاء بها القرآن؛ فقال ﴿ضرب الله﴾.. إلخ: أى جعل الله تعالى لهم مثلا للمشرك والمؤمن حال عبد مملوك لشركاء متنازعين دائمًا يصدرون إليه أوامر متناقضة فهو بينهم حائر إذا أرضى واحدا أغضب الباقى، وإذا احتاج إلى شىء رده كل إلى الآخر. وعبد آخر مملوك لرجل واحد. فأيهما أسعد حالا؟ لا شك أنه الثانى. فهو يعرف مايرضى سيده. ولايخاف غضب غيره. أما الأول فإنه يخضع لآلهته، وإذا أصابه ضر لجأ إلى غيرهم كما فى الآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣. فالنتيجة أن صفاتهما مختلفة. ولما ثبت الحق على أوضح وجه أرشد سبحانه عباده أن يحمدوه بقولهم: الحمد لله. ثم انتقل سبحانه وتعالى إلى بيان سبب عدم هدايتهم للحق فقال بل أكثرهم لايعلمون أن صاحب الفضل هو الله وحده. فلا يصح أن يشرك معه غيره. ولما كان كفار مكة يمنون أنفسهم بموته ﷺ ليستريحوا منه كما فى الآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨. أخبر سبحانه بأن الموت سيعمهم جميعًا، فلا يموت أحد ويبقى الآخر، فلا معنى لتمنيه فقال جل جلاله: إنك ميت أى ستموت قطعًا كما أنهم سيموتون أيضًا. ثم يختصم الخلائق أمام ربهم بما فيهم أنت وهؤلاء فتحتج عليهم بأنك بلغتهم وأنهم عاندوا، ويعتذرون بتقليد الآباء وتغرير الرؤساء كما فى الآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠ و ٥٦١. فلا أحد أظلم ممَنْ كذب على الله بادعاء أن له شريكًا وكذب بالكتاب الصادق الذى جاءه على لسان رسولنا الصادق محمد ﷺ، ثم هددهم بأن فى جهنم متسعًا لكل كافر فقال: ﴿أليس فى جهنم مثوى للكافرين﴾. أى هل ضاقت جهنم حتى أصبحت لا مكان إقامة فيها لهؤلاء الذين مامنعهم عن تصديق رسولنا إلا كبرهم، ثم بيَّن فضل مَنْ صدق وما أعد لهم فقال ﴿والذى جاء بالصدق﴾... إلخ: أى والرسول الذى جاء بالصدق والمؤمنون الذين صدقوا برسالته. هؤلاء جميعا هم المتقون الله حقا.

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

المفردات: . ﴿لهم مايشاءون عند ربهم﴾: أى فى الجنة، أما فى الدنيا فلا. كما تقدم فى الآية (١٦) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، والذى يتأمل هذا التعبير يجده جاء فى القرآن خمس مرات، أربع منها تصرح بأن هذا النعيم فى الجنة: الآية (٣١) من سورة النحل والآية (١٦) من سورة الفرقان والآية (٢٢) من سورة الشورى والآية (٣٥) من سورة ق؛ والخامسة ماهنا وهى الآية التى لم تقيد بل أطلقت، لكن العلماء اتفقوا على أنه إذا ورد فى القرآن لفظ مطلق فى مكان، ومقيد فى مكان آخر، فإنه يجب حمل المطلق على المقيد. ومن ذلك ماجاء فى سورة النساء ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾ الآية (٩٢) صفحة ١١٧، فى حين جاء ﴿رقبة﴾ فقط مطلقة فى الآية (٨٩) من سورة المائدة صفحتى ١٥٥، ١٥٦، وكذلك الآية (٣) من سورة المجادلة صفحة ٧٣٥، فحملوا المطلق على المقيد. والذى يؤكد ذلك ماحصل للأنبياء من الشدائد بل قتل بعضهم، فهو صريح فى أنهم لم ينالوا ماكانوا يرجونه فى الدنيا من متاعها أو راحتها، بل إن مانال خاتم الرسل ﷺ على يد قريش من الشدائد ماتنوء عنه الجبال. ﴿أليس الله﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى. وبما أن ﴿ليس﴾ تفيد النفى أيضًا، ونفى النفى يفيد الإثبات، فالمعنى: الله يكفى عبده قطعًا، أى يحفظه من كل مايخيفه. ﴿بكاف﴾: الباء هنا تفيد تأكيد ربط ماقبلها بما بعدها. وكذا يقال فى ﴿أليس الله بعزيز﴾ الآتية ﴿ومَنْ يضلل الله﴾.. إلخ: تقدم شرحها فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ﴿أفرأيتم﴾: المراد أخبرونى. ﴿على مكانتكم﴾: المراد اعملوا على أقصى مايمكنكم من الكيد فإنه فاشل، انظر الآية (١٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٥.

المعنى: لعباد الله المتقين مايشاءون عند ربهم من نعيم الجنة. ذلك الفضل العظيم هو جزاء الله لكل مَنْ يحسن عمله. تفضل سبحانه عليهم بذلك ليكفر عنهم أسوأ أعمالهم فضلا عن صغائرها. ويعطيهم ثواب أعمالهم كلها على قدر أحسنها. فيزاد أجرهم على أقلها حتى

(١) افرايتم. (٢) كاشفات. (٣) ممسكات. (٤) ياقوم. (٥) عامل.

يصل إلى مثل جزاء أحسنها. لشدة إخلاصهم فيها فضلاً منه سبحانه وكان كفار مكة يخوفونه ﷺ من غضب آلهتهم عليه، كما هى عادة الكفار قبلهم، انظر الآية (٨٠) ومابعدها من سورة الأنعام صفحة ١٧٥ والآية (٥٤) من سورة هود صفحة ٢٩٢. لما كان هذا أراد سبحانه أن يبين للرسول ﷺ وللمؤمنين أنه حافظهم من كل سوء.. إلخ فقال: (أليس الله).. إلخ أى أن الله وحده هو الذى يكفى عبده المؤمن به كل المخاوف، ثم فرع على ماسبق ماهو نتيجة له فقال (ويخوفونك)... إلخ أى ويخوفك كفار مكة بالذين عبدوهم غيره تعالى. فلا تبال بهم، فإنهم كما وصفتهم لك فى الآية (٧٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٤. ثم بيَّن سبحانه منشأ جهلهم وأنه الضلال والبعد عن الصواب فقال ومن يضلل الله.. إلخ أى ومَنْ أفسد فطرته بحب الفسوق حتى استحق الإبعاد عن الهداية فليس له هاد يخلصه من الضلال. ومَنْ خالف شهواته وقدم مايرضى الله ويتفق مع العقل والمصلحة فهداه الله تعالى إلى الصواب دائما وحفظه من الضلال فلن يقدر أحد على إضلاله، ثم دلل على ماذكر بقوله أليس الله بعزيز أى أن الله غالب على كل شىء لايعجزه شىء يريده. ذو انتقام من أعدائه لإنقاذ أوليائه. ثم أقام الدليل ثانيا على غفلتهم وتناقضهم إذ عبدوا مايقرون بعجزهم عن خلق شىء من هذا العالم علويه وسفليه فقال ولئن سألتهم.. إلخ أى والله لئن سألت أيها النبى هؤلاء المشركين عمَنْ خلق هذا العالم أهو الله وحده أو آلهتهم؟ لما استطاعوا أن ينكروا أنه هو الله وحده، ثم أمر سبحانه نبيه أن يوبخهم بعد هذا الاعتراف فقال قل أفرأيتم.. إلخ أى قل تبكيتا لهم إذا كان خالق العالم هو الله وحده كما أقررتم فأخبرونى حينئذ هل أصنامكم التى تدعونها من دون الله إن أرادنى الله بضر هل تستطيع دفعه عنى، وإن أراد سبحانه لى رحمة هل تستطيع منعها عنى؟ روى أنهم لما سئلوا بذلك قالوا هى لاتفعل شيئًا من ذلك، ولكنها تنفعنا عند الله كما تقدم فى شرح الآية (٣) السابقة. فقال سبحانه لنبيه قل لهم حسبى الله فى جميع أمورى من جلب نفع ودفع ضر. عليه وحده يعتمد العاملون بما يرضيه، المتوكلون عليه حق التوكل، روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: . (كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال: ياغلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف). وفى رواية غير الترمذى (احفظ الله تجده أمامك؛ تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما اخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أنَّ النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا). وبعد ماذكر سبحانه الحجة القاطعة أمره ﷺ أن يهددهم بقوله: (قل ياقوم).. الآية. أى قل لهم أيها النبى مهددا ياقوم

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ[1] لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ (41) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ
فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ
الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ[2] لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ
أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُل لِّلَّهِ
الشَّفَاعَةُ[3] جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ[4] وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ (44) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ[5] وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ (45) قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ[6] وَالْأَرْضِ
عَالِمَ[7] الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ[8] أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا

اعملوا أقصى مايمكنكم من المكر والكيد إنى عامل آخر جهدى فى تقرير الدين والسعى فى نشره. فسوف تعلمون مَنْ يأتيه عذاب يخزيه بالقتل والأسر، ويحل عليه عذاب دائم فى الآخرة. هل هو أنا أو أنتم؟ ستعلمون قريبًا أنه أنتم وحدكم ومن عمل عملكم.

المفردات: ﴿بوكيل﴾: الباء هنا حرف يدل على تأكيد نفى مابعدها عما قبلها، والوكيل هنا معناه الحفيظ المهيمن الذى يجبرهم على مايريد. ﴿يتوفى الأنفس﴾: يتوفى أى يقبض، انظر الآية (٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٧١. الأنفس: اعلم أن النفس فى كلام العرب تطلق على معان كثيرة، وأكثر ماجاء منها فى القرآن يدور على خمسة معان: الأول: الروح التى بها الحياة: انظر الآية (٩٣) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٧، ١٧٨، والآية (٥٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٠.

والثانى: الإنسان بجملته، أى جسده وروحه انظر الآيات (٣٢) من سورة المائدة صفحة ١٤٢ و (٤١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٨ و (٥٠) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٧، ٥٥٨.

والثالث: الضمير وموضع السر من الإنسان، انظر الآية (٢٣٥) من سورة البقرة صفحة ٤٨.

والرابع: القوة العاقلة، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥. والخامس: قوة أودعها الله جسم الإنسان صالحة للتأثر بعوامل مختلفة، وهذه القوة إن كان يغلب عليها الغضب والانقياد للشهوات التى تجمع الصفات المذمومة تسمى (النفس الأمارة بالسوء)، وهذى قال فيها النبى ﷺ «أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك»، وأمر صلوات ربى وسلامه عليه بمجاهدتها بقوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، وقد جاءت فى قوله تعالى ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ الآية (٥٣) من سورة يوسف صفحة ٣١١، وقوله ﴿إن يتبعون

(١) الكتاب. (٢) لآيات. (٣) الشفاعة. (٤) السموات.
(٥) بالآخرة. (٦) السموات. (٧) عالم. (٨) الشهادة.

إلا الظن ماتهوى الأنفس﴾ الآية (٢٣) من سورة النجم صفحة ٧٠١؛ وإذا كانت متأرجحة بين عوامل الخير والشر وتغلب مقاومتها للشر وميلها للخير تسمى النفس اللوامة، انظر الآية (٢) من سورة القيامة صفحة ٧٧٨؛ وإذا تغلبت على كل عوامل الشر وركنت إلى الخير فإنها تسمى النفس المطمئنة، انظر الآية (٢٧) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧. إذا علمت كل هذا فاعلم أن النفس التى معنا فى هذه الآية هى من القسم الأول الروح التى بها الحياة. وبما أن الروح بعد خروجها من الجسد بالموت تنتقل إلى موضع آخر لايعلمه إلا الله، تتنعم فيه، كما فى آيتى (١٦٩، ١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١؛ أو تشقى، كما فى الآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤ ... تكون نسبة الموت والنوم إليها نسبة مجازية، والمراد موت الجسم الذى تحل فيه، أو نومه. وهذا أسلوب عربى فصيح، يقول العربى: هذا نهر جار، وبما أن النهر اسم للمكان الذى يجرى فيه الماء، فإن السامع يفهم من هذا الكلام أنه يريد بقوله هذا نهر جار ماؤه. وكذا يقول العربى رأيت عليا فى الماء، وهو يريد رأيت جزءا منه. والتجوز هنا من نوع المثل الأخير باعتبار المعنى الثانى للنفس، (أى الجسم بجملته) والمراد هنا: يقبض الله الروح عن الأبدان ظاهرا فقط فيمنع الشعور والتصرف عن الجسم حال النوم. أو ظاهرا وباطنا فيمنع كل مظاهر الحياة كحال الموت. ﴿أجل مسمى﴾: هو انتهاء عمرها المقدر عنده تعالى.

﴿لآيات﴾: آيات: دلائل على قدرة الله تعالى وكمال علمه. ﴿أم﴾: هنا تفيد معنى حرفين: ﴿همزة الاستفهام الإنكارى﴾ المقصود به التوبيخ و ﴿بل﴾ التى تفيد الانتقال من كلام إلى آخر: ﴿إذا هم يستبشرون﴾: ﴿إذا﴾ كلمة تدل على سرعة حصول مابعدها عقب ماقبلها. ﴿فاطر السموات والأرض﴾: أى خالقهما على غير مثال سابق.

المعنى: بعدما أقام سبحانه وتعالى الأدلة وهددهم أراد أن يخفف عن رسوله حزنه على عدم إيمانهم الذى كان يؤلمه كما فى الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩، فقال: (إنا أنزلنا عليك)... إلخ أى إنا أنزلنا عليك القرآن لمصلحة الناس وإنقاذهم من الضلال.

مقترنًا هذا القرآن بالحق فى كل أحكامه ومواعظه، فمَنْ اهتدى منهم ففائدة هدايته لنفسه، ومَنْ ضل فضلاله يعود عليها. ولست أنت أيها الرسول مهيمنا عليهم حتى تجبرهم على الإيمان والهدى. بل أنت محذر ومبشر فقط، انظر آيتى (٢١، ٢٢) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥؛ ثم ذكر شيئًا مما يدل على أنه وحده المهيمن على خلقه فقال: (الله يتوفى) .. إلخ أى الله وحده هو الذى يقبض الأرواح حين انقضاء أجلها بالموت ويقطع تعلقها بالجسد. ويقبض الأرواح التى لم يحضر أجلها فيمنعها التصرف فى الجسد مع بقائها متصلة به،

فيمسك التى قضى عليها الموت فلا يردها إلى جسدها ويرسل النائمة إلى الجسد عند اليقظة، ويتركها حتى ينقضى الأجل المحدد لبقائها فى الدنيا.

إن فيما ذكر لعظة وعبرة لقوم يتفكرون فى صنع الله وعظمته. روى البخارى أنه ﷺ قال: إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بطرف إزاره. فإنه لايدرى ماخلفه بعده. ثم ليقل: (باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه. إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما حفظت به عبادك الصالحين). ثم أنكر سبحانه على المشركين اتخاذ معبوداتهم شفعاء لهم عنده. فقال: (أم اتخذوا)... إلخ: أى بل هل اتخذ المشركون معبوداتهم شفعاء لهم عند الله فى قضاء حاجاتهم؟ ثم أمر رسوله ﷺ أن يجهلهم فقال ﴿قل أو لو كانوا﴾... إلخ أى قل أيها النبى لهم لإظهار جهلهم هل تتخذونهم شفعاء حتى لو كانوا لايملكون شيئًا ولو حقيرا ولا يعقلون أنكم تستشفعون بهم؟ قل لهم الشفاعة بكل أنواعها، ملك لله وحده لايقدم عليها مخلوق إلا بعد إذنه ولِمَنْ يرضى عنه كما تقرر فى الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦. وهذان الشرطان مفقودان هنا؛ لأن له سبحانه التصرف المطلق فى العالم كله علويه وسفليه ومنه ماتستشفعون به، فلن يأذن فى الشفاعة لكم. فخير لكم أن تعبدوا مالك الملك وحده لأنكم إليه ترجعون يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم. ثم ذكر سبحانه مايدل على بشاعة جهلهم فقال وإذا ذكر الله وحده.. إلخ: أى إذا أفردت الله بالذكر وبأنه هو وحده المتصرف فى الكون انقبضت قلوب هؤلاء الكفار الذين لايؤمنون بيوم يرجعون فيه إلى الله. وإذا ذكر غيره تعالى مَمَّنْ يعظمونهم ويعتقدون فيهم النفع والضر أسرع إليهم الاستبشار لشدة فتنتهم بأنهم ينفعونهم. قال الألوسى فى تفسيره الكبير باكيا حال المسلمين اليوم (وقد رأينا كثيرا من الناس على هذه الصفة التى وصف الله تعالى بها المشركين. يسرون عند ذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم حاجاتهم. ويطربون من سماع حكاية كاذبة عنهم توافق معتقداتهم فيهم، ويعظمون مَنْ يحكى لهم ذلك، وينقبضون ممَنْ يقول لهم لايتصرف فى الكون إلا الله سبحانه. ثم قال وقد قلت يوما لرجل يستغيث فى شدة ببعض الأموات وينادى يافلان أغثنى فقلت له: قل ياالله أغثنى لأنه سبحانه قال (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) الآية (١٨٦) من سورة البقرة صفحة ٣٦ فغضب وبلغنى أنه قال: فلان ينكر الأولياء. ثم قال: وسمعت من بعضهم أنه قال: الولى أسرع إجابة من الله سبحانه. وهذا كفر صريح نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان) انتهى. وبعد ما ذكر سبحانه عن المشركين حبهم للشرك ونفورهم من التوحيد أمر رسوله بالتوجه إليه وحده ليخفف عنه ما قاساه من عنادهم فقال: (قل اللهم)... إلخ: أى قل ياالله مبدع السموات والأرض، يامَنْ يستوى فى علمك ماغاب عنا وماتشهده العيون أنت وحدك الذى تحكم بين عبادك فيما اختلفوا فيه. فتنصف المحق وتعاقب المبطل.

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ[1] وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ[2] ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ[3] ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا
خَوَّلْنَاهُ[4] نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ
فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ[5]
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ * قُلْ يَا عِبَادِيَ[6] الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

المفردات: ﴿وبدا لهم﴾: أى ظهر لهم من عقاب الله. ﴿يحتسبون﴾: أى يظنون ﴿وحاق بهم﴾: أى نزل وأحاط بهم، حتى صاروا لاخلاص لهم منه. ﴿ماكانوا به يستهزئون﴾: هو العذاب الذى كانوا ينكرونه استهزاء، انظر شرح الآيات (٥٣) من سورة يونس صفحة ٢٧٤، و (٥١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١، و ٧، ٨ من سورة سبأ صفحة ٥٦٣.

﴿خولناه﴾: تقدم فى الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٦٠٧. ﴿أوتيته على علم﴾: تقدم فى الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨، والضمير يعود على الشىء المنعم به المفهوم من المقام، ونظيره فى الآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧.

﴿بل﴾: حرف يدل على إبطال ماقبله وإثبات ما بعده. ﴿فتنة﴾: أى اختبار وامتحان ليتجلى ما فى نفسه للناس هل يشكر أم يكفر؟ انظر الآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤. ﴿بمعجزين﴾: الباء لتأكيد نفى مابعدها عما قبلها ؛ والمراد بموقعين الله فى العجز، حتى يفلتوا من عقابه، انظر الآية (١٢) من سورة الجن صفحة ٧٧١. ﴿يبسط﴾: أى يوسع. ﴿يقدر﴾: أى يضيق، انظر شرح الآية (٣٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨. ﴿لآيات﴾: أى براهين قاطعة بأن كل شىء بيده سبحانه. ﴿أسرفوا على أنفسهم﴾: أى أكثروا من المعاصى جانين بذلك على أنفسهم.

المعنى: بعد ما بين سبحانه جرائم الكفار وذكر لهم من الأدلة ما كان يكفى أقل منه فى أرجاعهم. أراد أن يبين ما سيلاقونه من الأهوال فقال: ولو أن للذين ظلموا.. إلخ: أى ولو أن هؤلاء المشركين كانوا يملكون كل ما فى الأرض من الأموال وغيرها ومثله معه وقُبلت منهم الفدية لافتدوا به أنفسهم من هول مايشاهدون من العذاب الشديد. وذلك أنه ظهر لهم من

(١) القيامة. (٢) يستهزئون. (٣) الإنسان. (٤) خولناه. (٥) لآيات. (٦) ياعبادى.

عذاب الله تعالى الذى أعد لهم ما لم يكن فى حسابهم. وظهر لهم أيضًا حين تعرض عليهم صحائف أعمالهم جزاء سيئات ماعملوه فى الدنيا وأحاط بهم عذاب الآخرة الذى كانوا ينكرونه مستهزئين. ثم أراد سبحانه أن يظهر حماقة هؤلاء الكفار وأنهم يتناقضون ولايشعرون أنهم متناقضون فقال: فإذا مس الإنسان.. إلخ: والمراد.. عجيب أمر هؤلاء الناس يشمئزون إذا ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر آلهتهم ثم يناقضون أنفسهم إذا مسهم ضر حيث يلجئون إلى مَنْ اشمأزوا من ذكره. وينسون مَنْ استبشروا به. ومع هذا إذا أعطينا أحدهم نعمة تفضلا منا نسى شكرنا وقال متبجحًا لم أحصل على هذا الخير والإنعام إلا لعلمى بطرق كسبه لا فضل لأحد علَّى فيه. ثم أبطل سبحانه قوله هذا فقال: بل هى.. إلخ. أى لم يصدق فيما قال والحقيقة أن هذه النعمة أعطيناها له لاختباره، ليظهر طبعه جليًا للناس هل يشكر معطيها فلا يعصيه أم يكفر؟ ولكن أكثر الناس لغفلتهم لايعلمون أن النعمة قد تكون فتنة واختبارا. وقد قال مثل هذه المقالة الخاطئة الذين من قبلهم كقارون وقومه كما فى الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨. فلم يدفع عنهم شيئًا من عذاب الله ماكانوا يكسبونه من حطام الدنيا.

ثم ذكر سبحانه نتيجة ماسبق فقال: فأصابهم.. إلخ. أى فحل بهم جزاء سيئات أعمالهم فأصيبوا بالخزى فى الدنيا. وسيصيبهم العذاب الأكبر فى الآخرة. فكذلك الذين ظلموا من كفار قريش سيصيبهم أيضًا وبال سيئات ماكسبوه من أعمال منكرة. وماهم بمعجزين لله حتى يفلتوا من عقابه فى الدنيا والآخرة.

هل غفل هؤلاء الذين قالوا إنما أوتينا سعة الرزق عن علم ولم يعلموا أن الله يوسع الرزق لِمَنْ يشاء وإن كان أعجز الخلق.

ويضيق على مَنْ يشاء وإن كان أنشط من غيره لحكم يعلمها سبحانه تقدم بعضها فى شرح الآية (٣٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨.

إن فى فعل الله هذا لأدلة على أن كل شىء بيده سبحانه ينتفع بها المؤمنون ولايعمى عنها إلا الغافلون. وكان بعض الكفار يحاول صرف الناس عن الإيمان بقوله: إن محمدًا يقول: إن من سبق منه عبادة غير الله أو قتل نفسًا فلن يغفر له. وكان أيضًا بعض من آمن شديد الخوف من ذنوبه حتى يكاد الشيطان يوقعه فى اليأس، لهذا أنزل سبحانه ﴿قل ياعبادى الذين﴾... إلخ. أى طمئن من أفرط فى الجناية على نفسه بالإسراف فى المعاصى بمغفرة الله على الوجه الآتى.

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ[1] عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ[2] ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي[3] لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي[4] فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ[5] ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ[6] تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ

المفردات: ﴿لاتقنطوا﴾: أى لاتيأسوا.
﴿أنيبوا﴾: أى ارجعوا بالتوبة.

﴿وأسلموا له﴾: أى اخضعوا له مخلصين.

﴿أحسن ما أنزل﴾: أى افعلوا مما أمرتم به أكثره ثوابا كما فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٦٠٨.

﴿أن تقول﴾: مرتبط بقوله ﴿وأنيبوا﴾ أى ارجعوا خوف أن تقول نفس.. إلخ إذا لم ترجع. ﴿فى جنب الله﴾: أى حق الله وطاعته.

﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾: المراد وإنى كنت فى الدنيا من المستهزئين بدين الله وبرسوله ﴿هدانى﴾: المراد أرشدنى. ﴿لو أن لنا﴾: ﴿لو﴾ هنا حرف يدل على التمنى، أى تتمنى.

﴿كرة﴾: أى رجعة إلى الدنيا وسيقع منهم هذا فعلا فى الآخرة. انظر شرح الآية (١٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦.

﴿بلى﴾: حرف يدل على رد منه تعالى على كلام منفى مفهوم من كلامهم؛ لأن قول الكافر ﴿لو أن الله هدانى﴾ يدل على أن الله تعالى لم يهده أى لم يرشده، انظر ماقيل فى حرف ﴿بلى﴾ فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿أليس فى جهنم مثوى﴾: المعنى: إن فى جهنم مثوى انظر ما تقدم فى آيتى (٣٢، ٣٦) صفحتى ٦١٠، ٦١١.

المعنى: قل لعبادى لاتيأسوا من رحمة الله لأنه يغفر الذنوب جميعها غير الكفر. وهل لابد من توبة أو ولو بدون توبة؟ رأى بعض العلماء أنه لابد لحصول المغفرة من سبق التوبة، واستدل بما سيأتى فى الآية (٥٤) ومابعدها. هنا. وبأنه سبحانه قرن المغفرة بالتوبة فى آيات كثيرة

---

(١) ياحسرتا. (٢) الساخرين. (٣) هدانى. (٤) آياتى. (٥) الكافرين. (٦) القيامة.

جدًا منها: . الآية (١٦٠) من سورة البقرة صفحة ٣١ وآيتى (١٧، ١٨) من سورة النساء صفحة ١٠١، والآية (٣٩) من سورة المائدة صفحتى ١٤٣، ١٤٤، والآية (٥٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠ والآية (١١٩) من سورة النحل صفحة ٣٦٢ والآية (٦٠) من سورة مريم صفحة ٤٠٢ والآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣ والآية (٥) من سورة النور صفحة ٤٥٧، والآية (٧) من سورة غافر صفحة ٦١٨.

ومَنْ لايشترط استدل بالآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (٣٤) من سورة محمد صفحة ٦٧٧.

والحق أن الأصل فى المغفرة سبق التوبة النصوح ومن مات قبل أن يتوب على شىء مكفر فلا مغفرة له طبعًا.

وإن مات على معصية مع الإيمان فأمره متروك إلى الله تعالى يفعل به ماتقتضيه حكمته وعدله.

لكنه لايخلد فى النار على كل حال. قال الشيخ اللقانى فى العاصى بغير الكفر (ومَنْ يمت ولم يتب من ذنبه، فأمره مفوض لربه) ولهذا يجب الاحتراس والبعد عن الخطر، ولذا قال سبحانه وأنيبوا... إلخ. أى ارجعوا أيها الناس إلى ربكم بالتوبة وأخلصوا له الطاعة من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتجدوا نصيرًا يمنعه عنكم، واتبعوا أحسن ماطلب منكم لتكونوا من أفضل الناس من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة بدون علم سابق. ارجعوا إلى ربكم حذر أن تقول نفس مقصرة ياحسرتى على تقصيرى فى طاعة الله. واستهزائى بدينه وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين. أو تقول لو أن الله أرشدنى إلى الصواب لكنت من الذين ابتعدوا عن الكفر والمعاصى. أو تقول حين ترى عذاب جهنم ليت لى رجعة إلى الدنيا فأكون من المحسنين لعقائدهم وأعمالهم، فيبطل الله ماتضمنه كلامهم من عدم إرشادهم بقوله: قد جاءتك آياتى القرآنية التى فيها كل أسباب الهداية فكذبت بها واستكبرت عن قبولها، وكنت من الكافرين. انظر الآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧.

ثم بين سبحانه بعض أحوالهم يوم القيامة التى يراها كل مَنْ ينظر إليهم فقال ويوم القيامة.. إلخ: أى ويوم القيامة ترى يا مَنْ يصح منك أن ترى فى ذلك اليوم وجوه الذين كذبوا على الله فزعموا أن له ولدا أو شريكا أو غير ذلك مغشاة بالسواد من الكآبة والحزن. انظر الآية (٤٠) ومابعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٣، فسيدخلون جهنم قطعًا لأنها واسعة فيها مكان لكل متكبر عن قبول الحق. فى الوقت الذى يدخلونها ينجى الله المؤمنين الأتقياء.

ٱتَّقَوۡا بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ
خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا
ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ
لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾
بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ
حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ
فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا

المفردات: . ﴿بمفازتهم﴾: ﴿المفازة﴾ الفوز والظفر بالمراد. ﴿مقاليد﴾: جمع مقلاد بكسر فسكون كمفتاح وزنا ومعنى. والكلام كناية عن تمام التصرف كقولهم (بيد فلان مفاتيح كذا) أى هو صاحب التصرف فيه.

﴿يحبطن﴾: أى يبطل ويذهب فلا يكون له أثر فى النجاة من الخلود فى النار، والنون للتوكيد. ﴿بل الله فاعبد﴾: ﴿بل﴾ حرف يفيد رفض ما حاولوه، والمعنى.. لا تلتفت أيها النبى لما يقولون. وتنبَّه لكيدهم فلا تعبد إلا الله وحده؛ فتقديم لفظ الجلالة لإفادة الحصر.

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾: تقدم فى الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ والمراد: ماعرفوا الله حق المعرفة. ﴿قبضته﴾: أصل القبضة المرة من القبض. والمراد هنا: مقبوضة له تعالى. أى فى ملكه وتحت تصرفه. ﴿مطويات بيمينه﴾: أصل الطى ضد النشر، كما فى الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والمراد خاضعات لتصرفه سبحانه وحده. ﴿الصور﴾: تقدم شرحه فى صفحة ١٧٤.

﴿صعق﴾: يقال صعق الرجل يصعق بوزن تعب يتعب، إذا مات أو أغمى عليه، وماهنا من الأول؛ ومن الثانى ما فى الآية (١٤٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٤. ويقال أيضًا صعقته السماء، تصعقه بوزن قطع يقطع. وأصعقته أيضًا إذا أهلكته، ومنه مافى الآية (٤٥) من سورة الطور صفحة ٦٩٩، وانظر ماسيأتى فى الآية (١٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣١. ﴿إلا مَنْ شاء الله﴾: قيل هم حملة العرش، وقال قتادة: لاندرى مَنْ هم هؤلاء، ولم يرد فى تعينهم خبر صحيح.

﴿ينظرون﴾: أى ينظرون مايفعل بهم. ﴿أشرقت الأرض﴾.. إلخ: المراد الأرض الجديدة كما فى الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧. أى تجلى الله سبحانه على أرض المحشر

(١) خالق. (٢) السموات. (٣) بآيات. (٤) الخاسرون. (٥) الجاهلون. (٦) الخاسرين. (٧) الشاكرين.
(٨) القيامة. (٩) السموات. (١٠) مطويات. (١١) سبحانه. (١٢) تعالى. (١٣) السموات.

فأشرقت بنور لايعلمه غيره سبحانه. به يرى أهل المحشر بعضهم بعضا لأنه لا شمس ولا قمر، وبه يتحقق العذاب بأجلى صوره.

المعنى: . وينجى الله الذين اتقوا معاصيه مصاحبين فوزهم حال كونهم لايمسهم أقل سوء ولايحزنون على فوات مرغوب. ثم رجع سبحانه لبيان أنه وحده الخالق لزيادة تسفيه المشركين، فقال الله خالق كل شىء وليس لما يشركونه مع الله خلق شىء حتى ولا ذبابة كما فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤. وهو مهيمن على كل شىء يتولاه ويحفظه. ثم فصل ذلك بعض التفصيل فقال (له مقاليد).. إلخ. أى له وحده التصرف التام فى كل شىء من السموات والأرض ومافيهما. تنبه لذلك الموفقون فآمنوا. والذين كفروا بالأدلة التى بثها الله تعالى فى الكون وجاء بها القرآن دالة على وحدانيته سبحانه. هؤلاء هم الذين خسروا السعادة الخالدة. ولما كان كفار قريش لاينون فى العمل على صرفه ﷺ عن دعوته بكل حيلة. ومن ذلك أنهم قالوا له: اعبد آلهتنا يوما ونحن نعبد معك إلهك يوما... فرد الله سبحانه وتعالى عليهم أشد رد، قطع أطماعهم.. هنا وفى سورة (الكافرون) صفحة ٨٢٤. فقال هنا: قل أفغير الله.. إلخ. أى قل لهم أيها النبى تسفيهًا لعقولهم وقطعا لأطماعهم: هل تأمرونى أيها الجاهلون أن أعبد غير الله الذى لايصح أن يعبد غيره. ثم شدد فى التحذير وأعلمهم هم وكل مَنْ يأتى بعدهم أن دين الله عند كل رسول هو التوحيد، فقال: ولقد أوحى إليك أيها النبى وإلى الأنبياء من قبلك وحيا قلنا فيه لكل نبى والله لئن أشركت بالله غيره ليبطلن كل عمل عملته من الخير كصلة رحم وبر مسكين وبناء مصحة.. إلخ. فتكون من الخاسرين لكل فائدة، انظر الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠. فلا تعبد مايريدون بل اعبد الله وحده وكن من الشاكرين لفضله عليك. ثم بين سفههم وجهلهم بقوله (وماقدروا).. إلخ. أى وماعرفوا الله المعرفة اللائقة به والحال أن له قدرة باهرة من مظاهرها أن الأرض مقبوضة بيده يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، والمراد يتصرف فيها كما يشاء. روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك. أين ملوك الأرض؛ انظر الآية (١٦) من سورة غافر صفحة ٦١٩، ثم علمنا سبحانه كيف ننزهه عما يزعم المشركون فقال سبحانه وتعالى عما يشركونه به من المعبودات الباطلة ثم ذكر شيئًا مما يدل على كمال قدرته من مقدمات يوم القيامة فقال: ﴿ونفخ فى الصور﴾ أى النفخة الأولى ﴿فصعق مَنْ فى السموات ومَنْ فى الأرض إلا من شاء الله﴾ ولم يصح حديث فى بيان مَنْ هؤلاء الذين شاء سبحانه بقاءهم.. وقيل: هم حملة العرش، وقال قتادة: لاندرى مَنْ هم، ثم نفخ فيه الثانية فإذا جميع الخلائق من عهد آدم قيام من قبورهم ينتظرون مايفعل بهم، وأشرقت الأرض بنور ربها.

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ[1] وَجِاْىٓءَ[2] بِٱلنَّبِيِّـۧنَ[3] وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا[4] وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ[5] رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[6] ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ[7] فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا[8] وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ[9] عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ[10] ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ

المفردات: . ﴿الكتاب﴾: هنا.. الذى تسجل فيه أعمال كل عبد، انظر الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨، والآية (١٢) من سورة يسٓ صفحة ٥٨٠، والآية (١١) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٦. ﴿النبيين والشهداء﴾: عطف الشهداء على النبيين من عطف العام على الخاص: لأن الشهداء فى هذا اليوم يكون منهم الأنبياء الذين يشهدون على أممهم أنهم بلغوهم. انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (٧٥) من سورة القصص صفحة ٥١٧؛ ومنهم المؤمنون من أمة محمد ﷺ، انظر الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨، ومنهم الحفظة من الملائكة، انظر الآيات (١٦٦) من سورة النساء صفحة ١٣١ و (٢١) من سورة ق صفحة ٦٩٠ و (١٠) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥؛

والجوارح، انظر الآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢. ﴿زمرا﴾: جمع زُمْرة بضم فسكون، وهى الجماعة المتفقة فى المرتبة والمبادئ، والمراد: طوائف حسب ترتيب درجات كفرهم وجرائمهم. انظر الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، والآية (٦٩) من سورة مريم صفحة ٤٠٣. ﴿ينذرونكم﴾: أى يحذرونكم. ﴿بلى﴾: أى نعم جاءوا. ﴿حقت﴾: أى ثبتت ووجبت. ﴿كلمة العذاب﴾: تقدمت فى الآية (١٩) من هذه السورة صفحة ٦٠٨. ﴿مثوى﴾: أى مكان يحتويهم. انظر الآية (٣٢) من هذه السورة صفحة ٦١٠.

﴿حتى إذا جاءوها وفتحت﴾... إلخ، جواب ﴿إذا﴾ مقدر بعد ﴿خالدين﴾ الآتية. والمراد: حتى إذا جاءوها حال كونها مفتحة أبوابها.. إلخ، فازوا بما لايحيط به الوصف. ولايخطر على

(١) الكتاب. (٢) جىء. (٣) بالنبيين. (٤) أبوابها. (٥) آيات.
(٦) الكافرين. (٧) خالدين. (٨) أبوابها. (٩) سلام. (١٠) خالدين

قلب بشر. ﴿وفتحت أبوابها﴾: الواو تدل على أن الجملة بعدها حال، انظر ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ فى الآية (٥٠) من سورة ص. ﴿طبتم﴾: أى طابت حالكم وحسنت.

﴿الأرض﴾: المراد: أرض الجنة. ﴿نتبوأ﴾: أى ننزل.

المعنى: . ووضع الكتاب فى يد كل مكلف فأصحاب السعادة يأخذونه بأيمانهم من أمامهم والأشقياء يأخذونه بشمالهم من وراء ظهورهم، انظر الآية (١٩) ومابعدها من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢ ومابعدها؛ والآية (٧) ومابعدها من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩ ومابعدها. وأحضر النبيون والشهداء وقضى بين جميع الخلائق بالحق لاينال أحدًا منهم ظلم.

ووفى الله تعالى كل نفس جزاء عملها بكل دقة؛ لأنه سبحانه يعلم كل أفعالها فلا يضيع على أحد مثقال ذرة.

وسيق الذين كفروا سوق عنف وإهانة إلى جهنم حال كونهم طوائف موزعة على أنواع أعمالهم شدة وأشد. فيطرح كل فوج فى الدرك اللائق به فى جهنم. حتى إذا وصلوا إلى جهنم فتحت الخزنة أبوابها، وكانت قبل ذلك مغلقة كأبواب السجون التى تغلق ولاتفتح إلا عند حضور أرباب الجرائم؛ وقالوا لهم تقريعًا وإظهارًا لعدل الله تعالى ألم يأتكم فى الدنيا رسل منكم تعرفونهم وتفهمون مايقولون وتلوا عليكم آيات ربكم الدالة على وحدانيته وقدرته، وخوفوكم من أن تلقوا العذاب فى يومكم هذا؟ قالوا نعم حصل كل هذا، ولكن سبقت علينا شقوتنا فوجب علينا وعيده الذى توعد به الكافرين، انظر الآية (١٠٦) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥، فتقول لهم الملائكة: ادخلوا أبواب جهنم عالمين بأنكم ستخلدون فيها. فبئس هذا المكان مكانا للمتكبرين على قبول الحق. وسيق الذين اتقوا.. إلخ. المراد من السوق هنا إسراع الملائكة بهم إلى دار الكرامة حبًا فى الإسراع بإدخال السرور عليهم كما يفعل حاشية الملوك بالوافدين على الملك المرضى منه عنهم فإنهم يستحثونهم على سرعة المقابلة لتعجيل سرورهم. وهم طوائف أيضًا، لكل طائفة منزلة فى الجنة. حتى إذا وصلوا الجنة والحال أن الملائكة كانت فاتحة أبوابها كأنها مسرورة بقدومهم. مهيأة لانتظارهم. وقال لهم خزنتها سلام من الله عليكم. طاب عيشكم فادخلوها موقنين بالخلود فى هذا النعيم العظيم. وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا أرض الجنة ننزل منها فى المكان الذى نشاؤه. ومن لطف الله بهم أن أحدهم لايريد منزلة فوق المنزلة التى اختارها الله له ويسره سرور إخوانه فى الجنة، انظر الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١.

نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ[1] ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ[2] حَآفِّينَ
مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم
بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

(٤٠) سُورَةُ غَافِرٍ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ[3] ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ[4] مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾
غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ[5] فِىٓ ءَايَٰتِ[6]
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ[7] ﴿٤﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ

المفردات: ﴿حافين﴾: أى محيطين.

﴿العرش﴾: تقدم الكلام عليه فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

﴿حم﴾: تنطق هكذا: حا، ميم بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره.

﴿العزيز﴾: أى الغالب الذى لا يغلب.

﴿التوب﴾: أى التوبة.

﴿ذى الطول﴾: ﴿ذى﴾ أى صاحب ﴿الطول﴾ أى الفضل والإحسان.

﴿تقلبهم﴾: أى تنقلهم للتجارة وغيرها. انظر الآية (٤٦) من سورة النحل صفحة ٣٥١.

﴿الأحزاب﴾: المراد بهم: الذين تحزبوا على رسلهم، وأظهروا لهم العداوة. كعاد وثمود وقوم فرعون انظر ما تقدم فى آيتى (١١، ١٣) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

المعنى: . بعد دخول المتقين الجنة وحمدهم ربهم يقول سبحانه تفخيمًا لنعيمهم لزيادة سرورهم: نعم أجر العاملين تلك الجنة.

وترى يا مَنْ يصح أن ترى فى ذلك اليوم الملائكة جميعًا محيطين بالعرش من كل جوانبه يتنعمون ويتلذذون بقولهم سبحان الله وبحمده، فثوابهم هو ذلك التسبيح المصاحب للحمد.

(١) العاملين. (٢) الملائكة. (٣) حا ميم.
(٤) الكتاب. (٥) يجادل.
(٦) آيات. (٧) البلاد.

وقضى بين جميع الخلائق بالعدل، وقال جميع الناجين الحمد لله رب العالمين على هذا القضاء العادل.

أما الحمد الأول فهو على صدق وعده سبحانه فلا تكرار.

سورة غافر

﴿حم﴾ تقدم المراد من مثلها فى أول سورة البقرة. هذا القرآن منزل من الله الغالب القاهر فوق عباده.

واسع العلم بأحوال خلقه، وهو الذى يغفر ما سبق من ذنوب العباد.

ويقبل توبة مَنْ تاب. وهو شديد العقاب لمَنْ تمرد وطغى.

وهو المتفضل على عباده بما هم فيه من النعم التى لا تحصى لا إله إلا هو إليه مرجع جميع الخلائق.

وجمع سبحانه بين هذه الصفات ليبقى العبد بين الرجاء والخوف فلا ييأس ولا يهمل.

وبعدما بيَّن سبحانه هذه الحقائق الواضحة، أراد أن يبيِّن أنه لا يعارض فيها إلا جاحد، فقال سبحانه: (ما يجادل).. إلخ.

أى لا يخاض فى القرآن بالطعن فيه بقوله مرة إنه شعر، ومرة إنه سحر.. إلى غير ذلك، إلا الذين جحدوا النور الواضح كبرًا وعنادًا، فلا يغررك أيها النبى تنقلهم فى البلاد للتجارة وغيرها.

وما يحصلون عليه من المكاسب؛ لأن وراءهم يومًا عبوسًا أشار إليه بقوله كذبت قبلهم.. إلخ.

أى أنهم فعلوا مثل مَنْ سبقهم من قوم نوح وكل مَنْ تحزبوا على رسلهم. ومما فعلوه أن كل أمة منهم همت برسولها ليقتلوه... إلخ.

كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ[1] وَجَادَلُوا[1] بِالْبَاطِلِ[2] لِيُدْحِضُوا
بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ[3]
النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا[4]
رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا
وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ[5] عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
آبَائِهِمْ[6] وَأَزْوَاجِهِمْ[7] وَذُرِّيَّاتِهِمْ[8] إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ
فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ

المفردات: ﴿ليأخذوه﴾ : المراد: ليهلكوه.

انظر مثل ذلك فى الآية (٣٢) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦ وآيتى (٢٦، ٣٠) من هذه السورة صفحتى ٦٢١، ٦٢٢.

﴿ليدحضوا﴾ : أى ليبطلوا، انظر الآية (٥٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٩.

﴿فأخذتهم﴾ : أى أهلكتهم.

﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا.. إلخ﴾:

﴿حقت﴾ أى وجبت، انظر الآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦ و﴿كلمة ربك﴾ هى الجملة المبينة فى الآية (٨٥) من سورة ص صفحة ٦٠٥، والمراد وعيده سبحانه وتعالى بإدخالهم جهنم.

﴿أنهم أصحاب النار﴾ : بيان لمضمون هذه الكلمة، وقد رجح الألوسى أنها تعليل أى لأنهم المستحقون للنار.

﴿يحملون العرش﴾ : تقدم ما ينبغى أن يفهم من هذا فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

---

(١) جادلوا.
(٢) بالباطل.
(٣) أصحاب.
(٤) آمنوا.
(٥) جنات.
(٦) آبائهم.
(٧) أزواجهم.
(٨) ذرياتهم.

﴿ويؤمنون به﴾ : صرح بذلك مع أنه مقطوع به لإظهار فضل الإيمان وشرف أهله. وأنه هو السبب فى عطف بعض المؤمنين على بعض مهما تخالفت الأجناس وتباعدت المسافات.

﴿وسعت كل شىء رحمة وعلما﴾ : أصلها وسعت رحمتك وعلمك كل شىء، تقول العرب.

(طاب محمَّد نفسا) ويريدون (طابت نفس محمَّد) وذلك إذا أرادت المبالغة.

﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ : أى احفظهم منه بإبعاده عنهم.

﴿وقهم السيئات﴾ : المراد بالسيئات هنا: عقوبات الدنيا والآخرة فذكره بعد.

﴿عذاب الجحيم﴾ من ذكر العام بعد الخاص.

﴿مقت الله﴾ : أى بغضه سبحانه وكراهيته لكم.

﴿مقتكم أنفسكم﴾ : أى عندما تدركون أنها سبب مصائبكم، انظر الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣.

المعنى : . وهمَّت كل أمة من أمة قوم نوح والأحزاب برسولهم ليفتكوا به. وكانوا قبل ذلك جادلوه بالباطل ليبطلوا به الحق فأهلكتهم، فتأمل أيها العاقل على أى حال كان عقابى لهم. ألم أجعلهم عبرة للمعتبر؟ وبعد ما بيَّن سبحانه ما حل بهم فى الدنيا أراد أن يبيِّن ما سيلاقيهم فى الآخرة فقال (وكذلك).. إلخ.

أى كما ثبت إهلاك هؤلاء المتحزبين على رسلهم فى الدنيا أوجبنا إدخالهم النار فى الآخرة.

ثم أراد سبحانه أن يطمئن رسوله بأن الملائكة الذين فى المقام الأعلى مداومون على الدعاء للمؤمنين بما يسرهم فقال: (الذين يحملون).. إلخ: أى كبار الملائكة الذين يحملون عرش الرحمن.

والملائكة الذين يحفون به يقولون دائمًا سبحان الله وبحمده مع إيمانهم الكامل بإله واحد كإيمانك أيها النبى أنت ومَنْ معك ويستغفرون لمَنْ آمنوا مثلهم قائلين فى استغفارهم يا ربنا

وسعت رحمتك وعلمك كل مخلوق، تعلم أعمال المكلفين منهم ونياتهم. فاغفر للذين تابوا من الكفر والمعاصى واتبعوا دين الحق الذى أنزلته على رسلك، واحفظهم فى الآخرة من عذاب النار.

يا ربنا أجب دعاءنا السابق وأدخلهم جنات عدن أى إقامة طيبة التى وعدتهم بها هم ومَنْ صلح أى اتصف بالصلاح المسوغ لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم حتى يتم تنعمهم ويكمل سرورهم، انظر شرح الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٢١) من سورة الطور صفحتى ٦٩٧، ٦٩٨.

إنك يارب أنت العزيز الغالب الذى لا يعجزه شىء عما يريد. الحكيم الذى لا يفعل إلا الحكمة.

ومنها الوفاء بالوعد واحفظهم يارب مَن كل ما يسوءهم فى الدنيا والآخرة ومَنْ تحفظه من السيئات يوم المؤاخذة عليها فقد رحمته.

وذلك المذكور من الرحمة هو الفوز الذى ليس بعده فوز.

وبعدما بيَّن سبحانه أن الكفار سيدخلون النار أراد أن يبين أحوالهم بعد دخولهم النار فقال: (إن الذين كفروا).. إلخ.

أى الذين كفروا تناديهم الملائكة عندما يظهر منهم التضرر من أنفسهم التى قادتهم بشهواتها إلى الشقاء.

فتقول لهم: والله لمقت الله لكم أشد من مقتكم لأنفسكم. وكان بعض الصالحين إذا شعر بشهوات نفسه تدفعه إلى منكر يقول:

(والله ويلك يا نفسى من ليلة وضعى فى رمسى.. أى قبرى) نسأل الله السلامة.

المفردات : . ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ : إذا رجعتَ إلى ما تقدم فى بيان ما للعرب من أساليب مختلفة فى شرح الآية (٥٦) من سورة الدخان صفحة ٦٦٠ تعلم أن المراد

إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ[1] فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا
اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ
مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ
وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾
هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ[2] وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا
وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[3] ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ[4]
ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ[5] لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ
مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ[6] الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾
الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ[7] إِذِ

هنا بالموتتين، الموتة المجازية وهم مازالوا ترابًا، والموتة الحقيقية التى تكون عند انتهاء الآجال.

وأما الحياتان، فالأولى وهم فى الرحم، والثانية، عند البعث من القبور يوم القيامة ويعد هذا القول اعتراف منهم فى هذا المقام الخطير بما كانوا ينكرونه فى الدنيا كما فى الآية (٢٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. وإقرار الله سبحانه وتعالى هذا الاعتراف بموتتين أحدهما مجازية والأخرى حقيقية، مع ما تقدم من قوله تعالى فى المؤمنين.

﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ الآية (٥٦) من سورة الدخان صفحة ٦٦٠، وقد يكون هذا الإقرار مما حمل ابن كثير فى تفسيره على القول بأن عذاب القبر للروح فقط؛ لأنه لو عادت الروح إلى الجسد بعد الدفن وفارقته ثانيًا لكانت الموتات والإحياء ثلاث لا اثنتين فقط.

﴿إلى خروج﴾ : أى من جهنم، يريدون أى نوع من الخروج ولو بطيئًا، انظر الآية (١٠٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥، والآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧، والآية (٥٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٤.

﴿من سبيل﴾ : ﴿من﴾ لتأكيد العموم فيما بعدها، وسبيل: أى طريق. ﴿وإن يشرك به تؤمنوا﴾ : انظر الآية (١٠٦) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، والآية (٤٥) من سورة الزمر صفحة ٦١٢. ﴿آياته﴾ : البراهين التى نشرها فى الكون دالة على كمال خالقها وتفرده.

(١) الإيمان. (٢) آياته. (٣) الكافرون. (٤) الدرجات.
(٥) بارزون . (٦) الواحد. (٧) الآزفة.

﴿رزقًا﴾ : المراد : مطرًا يكون سببًا لرزقكم. ﴿ينيب﴾ :أى يرجع إلى ربه ويترك العناد والكبر. ﴿رفيع الدرجات﴾ : أى ارتفعت درجات كماله حتى لا يظهر دونها كمال. ﴿ذو العرش﴾ : أى صاحب العرش العظيم.

﴿الروح﴾ : المراد بها هنا الوحى، انظر شرح الآية (٨٥) من سورة الإسراء صفحة٣٧٦. ﴿لينذر﴾ : أى يحذر ويخوف. ﴿يوم التلاق﴾ : أى يوم تلاقى الخلق بالخالق للحساب والجزاء، انظر الآية (١٥٤) من سورة الأنعام صفحة١٩٠.

﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾: اليوم تجزى: أى تعلم، ومن هذا قول الرجل الذى صدر الحكم لصالحه بأخذ منزل مثلاً: اليوم أخذت المنزل. يريد: أى حُكم لى به، انظر الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤، والمراد هنا: تعلم كل نفس يوم القيامة قضاء الله لها بجزاء ما عملت من خير أو شر، ثم تسوقهم الملائكة بعد ذلك كلٌ إلى دار جزائه من جنة أو نار، انظر الآيات من (٧٠) إلى (٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦.

﴿الآزفة﴾ : أى القريبة والمراد بها القيامة. من قولهم أزف الرحيل إذا قرب، انظر الآية (٥٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٤، والآية (٧) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

المعنى : . يقال للكفار فى جهنم مقت الله لكم أشد لأنكم كنتم فى الدنيا يدعوكم رسل الله إلى الإيمان بإله واحد فتأبون وتشركون به. ثم ذكر سبحانه ما سيقولونه قطعا بعد ذلك فقال: قالوا ربنا .. إلخ. أى قالوا متضرعين يا ربنا خلقتنا أولاً ترابا. ثم بعد الحياة أمتنا عند انقضاء الآجال ونفخت فينا الروح مرتين، مرة فى الأرحام وأخرى عند البعث من القبور، واعترفوا بذلك هنا مقدمة لطلبهم الخروج من جهنم ولذا قالوا فاعترفنا بذنوبنا بإنكار البعث وغيره فهل تتفضل علينا بإرشادنا إلى طريق لخروجنا من النار ولو ببطء. انظر مرادهم فى الآية (١٢) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، فيقال لهم كلا لن تخرجوا أبدا. ذلك العذاب الذى أنتم فيه بسبب أن حالكم فى الدنيا كان إذا عبد الله حال كونه منفردًا بالعبادة كفرتم أنتم وأشركتم به غيره. وإن يشرك معه غيره تؤمنوا بهذا الإشراك، انظر مثل هذا فى الآية (٤٥)

من سورة الزمر صفحة ٦١٢. فالحكم اليوم عليكم وعلى غيركم بما تستحقون لله العلى عن أن يشرك معه غيره.

﴿الكبير﴾ : أى العظيم سلطانه فلا يرد حكمه. وبعدما خوفهم به من المصير المظلم نبههم هم وغيرهم إلى دليل وحدانيته وعظمته فقال هو الذى يريكم آياته الدالة على جليل صنعه ثم خصص بعضها بالذكر لشدة حاجتهم إليها فقال (وينزل من السماء).. إلخ: أى ينزل مطرًا فيخرج به أرزاقكم.

وما يعتبر بذلك إلا مَنْ يرجع إلى ربه فيعرف بديع صنعه. وإذا كان الأمر كذلك فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة. ولا تبالوا بكراهة المشركين لكم فسيكفيكم ربكم شرهم. ثم ذكر سبحانه بعد ذلك ثلاث صفات لنفسه تدل على أنه لا يصح معها أن نشرك معه غيره. فقال ﴿رفيع الدرجات﴾ ... إلخ.

أى هو سبحانه أرفع مما سواه قدرا؛ لأن كل ما سواه محتاج إليه، وهو مستغن عن الجميع. وأنه صاحب العرش العظيم يدبر ملكه وحده، وأنه هو الذى يلقى الوحى الذى هو سر من أسراره على مَنْ يختارهم من عباده لرسالته، لينذر الناس بيوم القيامة حتى لا يعملوا إلا صالحًا. يوم التلاق هو يوم يبرز إليه الخلائق لا يسترهم شىء. لا يخفى عليه من أعمالهم شىء كما فى الآية (١٨) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

ويقول سبحانه فى ذلك الحين لمَنْ الملك اليوم؟ فلا أحد يجيبه. فيجيب نفسه بقوله لله الواحد القهار لجميع الخلق بالموت، وبعدما بيَّن سبحانه صفات قهره وعظمته شرع فى بيان صفات عدله وفضله فقال اليوم تجزى كل نفس بما كسبت. لا ظلم اليوم. إن الله سريع الحساب، فيحاسب الجميع كما يحاسب نفسًا واحدة. ونظير ذلك فى الآية (٢٨) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣، والآية (٥٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٨. وبعدما بيَّن أن رسله ينذرون أممهم بيوم القيامة، أمر نبينا ﷺ بإنذار قومه فقال (وأنذرهم) ... إلخ: أى خوف قومك من يوم القيامة القريب حصوله... إلخ.

الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ(١) مَا لِلظَّٰلِمِينَ(٢) مِنْ حَمِيمٍ
وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن
دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)
* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ(٣)
الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا(٤)
فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ
مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ(٥)
فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا(٦) وَسُلْطَٰنٍ(٧) مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ(٨) وَقَٰرُونَ(٩) فَقَالُوا سَٰحِرٌ(١٠) كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم
بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا(١١) مَعَهُ

المفردات : ﴿القلوب لدى الحناجر﴾ : الحناجر جمع حنجرة وهى الحلقوم وهذا كناية عن شدة الخوف والتألم والضيق، انظر الآية (١٠) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠.

﴿كاظمين﴾: أصل الكظم الحبس والمراد: ممتلئة قلوبهم غمًا وكربًا، انظر أصل المعنى فى الآية (١٣٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٤.

﴿حميم﴾ : الحميم شديد الشفقة من قريب أو صديق. انظر الآية (١٠١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ والآية (١٠) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

﴿خائنة الأعين﴾ : المراد : الخائنة من الأعين. وهى التى تسترق النظر إلى ما نهى الله تعالى عنه.

(١) كاظمين.
(٢) للظالمين.
(٣) عاقبة.
(٤) آثارا .
(٥) بالبينات.
(٦) بآياتنا.
(٧) سلطان .
(٨) هامان .
(٩) قارون.
(١٠) ساحر.
(١١) آمنوا.

﴿واق﴾ : أى حافظ يقيهم الشر.

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾ .. إلخ: أى المعجزات والحجة الواضحة، كما تقدم فى الآية (٩٦) من سورة هود صفحة ٢٩٨.

﴿هامان﴾ : كبير وزراء فرعون.

﴿قارون﴾ : تقدم فى الآية (٧٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨.

﴿قالوا اقتلوا﴾... إلخ : إذا رجعت إلى الآيات (٤) وما بعدها من سورة القصص صفحة ٥٠٦ تعلم أن المراد استمروا وانشطوا فى قتل أبناء ... إلخ.

المعنى : . وأنذر أيها الرسول مشركى قومك أهوال يوم القيامة حين يشتد كربهم ولايستطيعون منه خلاصًا.

وليس لهؤلاء الظالمين لأنفسهم وللحق مَنْ يعطف عليهم. وليس لهم شفيع مطلقًا فضلا عن كونه يطاع فالكلام من قبيل مَنْ يقول فى أهل بلد كلهم أميون (ليس فى هذا البلد عالم يسمع قوله) يريد ليس فيها عالم مطلقًا.

ولمَّا قال فيما سبق ﴿لا يخفى على الله منهم شىء﴾ أراد أن يبرهن على ذلك بقوله يعلم خائنة الأعين وكل ما تخفيه القلوب.

ومَنْ كان هذا شأنه لا يخطئ فى أحكامه، ولذا قال والله يقضى بالحق أى يحكم بالعدل.

أما معبوداتهم الباطلة فليس لها فى ذلك اليوم قضاء بشىء ولو حقيرًا.

لأنهم لا يعلمون شيئًا ولا يقدرون على شىء.. بل ليست لهم حقيقة كما اعترفوا هم بذلك فى الآية (٧٤) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦٢٧.

وإنما اختص سبحانه بذلك لأنه هو وحده السميع لما تنطق به الألسنة البصير بكل ما تعمل به الجوارح. وبعدما حذرهم سبحانه عذاب الآخرة أراد أن يحذرهم أيضًا عذاب

الدنيا، فقال (أو لم يسيروا فى)... إلخ: أى هل غفلوا ولم يسيروا فى الأرض يوما فيروا كيف كانت عاقبة مَنْ كان مثلهم من الأمم الذين عملوا مثل عملهم، وقد كانوا أشد منهم بطشًا وأبقى آثارا، من قصور وحصون ومبان ضخمة كالأهرامات مثلا.

ثم بيَّن هذه العاقبة بقوله فأخذهم.. إلخ: أى فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم. وما كان لهم من عذاب الله من حافظ يدفعه عنهم.

ثم بيَّن سبحانه بعض هذه الذنوب فقال: (ذلك بأنهم).. إلخ: أى ذلك العذاب الذى حل بهم بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات والأحكام الواضحات فكفروا فأهلكهم الله؛ لأنه قوى لا يعجزه شىء أراده، شديد العقاب لمَنْ طغى وتجبر وعاند رسله.

وبعدما فرج سبحانه عن رسوله بذكر عاقبة الأمم الذين كذبوا رسلهم أراد سبحانه أن يذكر واحدة منها تخويفًا لقومه من أن يحل بهم ما حل بفرعون وقومه، فقال: ولقد أرسلنا موسى مصاحبا لمعجزات وبرهان واضح إلى فرعون ملك مصر وهامان وزيره وقارون أكثر أهل زمانه مالا فلمَّا بهرتهم حجته عمدوا إلى المغالطة وقالوا هو ساحر كذاب.

ثم جمعوا له كبار سحرة المملكة، ولمَّا تفوق عليهم، وآمن السحرة، لجأ فرعون ومَنْ معه من الرؤساء إلى القوة، انظر الآيات من (١٠٦) إلى (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩ وما بعدها.

فى كل هذا قال سبحانه: فلما جاءهم بالحق من عندنا أى وعجزوا عن مقاومته قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه... إلخ.

المفردات : . ﴿فى ضلال﴾ : أى فى ضياع والمراد: لا يضر رسل الله سبحانه وتعالى.

﴿ذرونى﴾ : أى اتركونى.

﴿عذت بربى﴾ : أى تحصنت به تعالى.

وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ
وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ
كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ
ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ
ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ
أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ

﴿رجل مؤمن﴾ : هو المذكور فى الآية (٢٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٩.

﴿يكتم إيمانه﴾ : المتأمل فى الآيات (٢٨) وما بعدها يدرك أن هذا الرجل بدأ كلامه على حذر إلا أنه عندما استرسل تجلت له الحقائق فتجرأ ولم يبال فانتقل من حالة الخوف إلى حالة الوثوق فقال:

﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾ الآية (٣٨) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦٢٣، والآيات بعدها، وبالأخص الآية (٤٢).

﴿مسرف﴾ : أى متجاوز للحد.

﴿لكم الملك﴾ : أى أنكم انفردتم بحكم مصر فى هذا العصر. انظر الآية (٥١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢.

﴿ظاهرين فى الأرض﴾ : المراد : غالبين غيركم متحكمين فيه.

---

(١) الكافرين.
(٢) ضلال.
(٣) آل.
(٤) إيمانه.
(٥) بالبينات.
(٦) كاذبا.
(٧) يا قوم.
(٨) ظاهرين.
(٩) آمن.
(١٠) يا قوم.

﴿بأس الله﴾ : أى عذابه الشديد.

المعنى : . بعدما علمنا من الآيات (٤) وما بعدها من سورة القصص صفحة ٥٠٦ أن فرعون كان قبل ولادة موسى يذبح بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم نعلم مما هنا أن هذه القسوة كانت قد توقفت أو خفت على الأقل لسبب ما ولكن لما جاء موسى بالرسالة كما هنا، أمر كبار قوم فرعون أتباعهم بإعادة تلك القسوة على بنى إسرائيل ثانيا ليضعفوا قوة موسى. فأبطل سبحانه تدبيرهم بقوله وما كيد الكافرين أى لرسل الله إلا فى ضياع وبطلان.

ولمَّا كان فرعون يعلم من صميم قلبه أن موسى صادق، انظر الآية (١٠٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨ والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥..

ولكنه كان يخاف من ضياع ملكه، وكان يخشى أنه إن أمر بقتل موسى عاجله الله تعالى بالهلاك. أراد أن يموه على قومه بما يظهره بمظهر القوى الغيور على مصالحهم، فقال: اتركونى أنا أتولى قتل موسى بنفسى. وإن كان صادقا فليطلب من ربه أن يمنعه منى.

ثم أتقن التضليل بقوله لأنى أخاف أن يبدل دينكم، فجعله دينهم الذى يجب عليهم حمايته مع أن أساس هذا الدين هو عبادتهم له إن كان حاضرا، وعبادة تماثيله إن كان غائبًا، انظر شرح الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١. أو أن يظهر فى أرض مصر الفساد بإخراجكم منها وإذلالكم، انظر الآية (١٢٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١١، والآية (٧٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٨.

وبهذا استخف فرعون عقولهم، انظر الآية (٥٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢.

ومن هذا نعلم أن خروج فرعون وراء موسى كما فى الآية (٧٨) صفحة ٤١٣، لم يكن لقتله وإنما كان ليمنع خروج بنى إسرائيل الذين كان يستعملهم فى الأعمال الشاقة، الأمر الذى كان من أهم مقاصد رسالة موسى، انظر الآية (٤٧) من سورة طه صفحة ٤٠٩، وآيتى (١٦، ١٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، وأيضًا ليرد أموال المصريين التى حملها بنو إسرائيل معهم وصنعوا منها العجل، انظر شرح آيتى (٨٧، ٨٨) من سورة طه صفحة ٤١٤، وبعدما سمع

موسى عليه السلام من فرعون هذا التهديد صرخ في وجوههم بأنه لا يلجأ إلا إلى الله تعالى فقال إني استجرت بربي وربكم من شر كل مستكبر لا يذعن للحق ولا يؤمن بيوم يحاسب فيه الخلق عند ذلك قيض الله تعالى رجلا من آل فرعون أنفسهم يدافع عن موسى على أكمل وجه.

قال تعالى: (قال رجل).. إلخ: أي قال رجل منهم كان يخفي إيمانه خوفًا من طغيانهم هل يصح لكم أن تقتلوا رجلا لمجرد قوله ربي الله؟ وقد جاءكم بأدلة صدقه أيده بها ربكم الحق.

قال ابن عباس لم يكن في آل فرعون مؤمن غير هذا الرجل وامرأة فرعون المذكورة في الآية (١١) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣.

وقال المؤمن: ولأي شيء تقتلونه مع أنه إن كان كاذبا فعليه وحده وبال كذبه أي يفتضح ويهان.

وإن كان صادقًا يصبكم على الأقل بعض الذي يعدكم به وهو عذاب الدنيا. وعلى الأكثر عذاب الآخرة. ثم أظهر لهم أنه يدلل على كلامه مع أنه يقصد التعريض بهم فقال: (إن الله لايهدي) .. إلخ: أي أن موسى إن كان مسرفًا في الجرأة على الله تعالى، كذابًا في دعوى أنه سبحانه أرسله. فالله لا يهديه أبدًا ولا يؤيده بمعجزات.

ثم وعظهم مع شيء من التهديد فقال: (يا قوم).. إلخ: أي يا قوم لكم اليوم ملك مصر مسلطين على الناس بالرياسة والقوة، فلا تتعرضوا لعذاب الله بقتل موسى، لأنه لا ينقذنا أحد من عذاب الله إن جاءنا، ولمّا خاف فرعون من تأثير نصيحة الرجل سلك سبيل تضليله المعتاد فأراهم أنه أبعدهم نظرًا فقال: (ما أريكم).. إلخ: أي لا أشير عليكم إلا بما تحققت فائدته وهو قتل موسى. وما أدلكم إلا على طريق الصواب.

المفردات :. ﴿يوم الأحزاب﴾ : يوم اسم جنس بمعنى الأيام لأن لكل حزب يوما فالعذاب لم ينزل بها في يوم واحد.

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢)
يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن
يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ
مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ
إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ
يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ
الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ
الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ

والمراد بالأيام الوقائع التي حلت بهم، انظر الآية (٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠، والأحزاب هي الأمم الكافرة التي تحزبت على رسلها، انظر ما تقدم في الآية (٥) من هذه السورة صفحتي ٦١٧، ٦١٨.

﴿مثل دأب﴾ : الدأب : العادة الدائمة والمراد: مثل عادتهم القبيحة.

﴿يوم التناد﴾ : أصله التنادي بمعنى النداء فالمفاعلة على غير بابها كما في قوله تعالى في الآية (٢٨٦) من سورة البقرة صفحة ٦٢ ﴿ربنا لا تؤاخذنا﴾ فالمؤاخذة بمعنى الأخذ بالعقاب، والمراد : يوم القيامة الذي تنادى فيه كل أمة برسولها، انظر الآية (٧١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤.

﴿تولون مدبرين﴾ : المراد : تهربون مسرعين لا تلتفون إلى الخلف خوفًا من العذاب فتساقون إليه سوقا، كما في الآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦.

﴿بالبينات﴾ : الأمور الظاهرة الدالة على صدقه.

﴿فما زلتم في شك﴾ : أي لم يخالط الإيمان به قلوبكم، وأظهرتم له أنكم مؤمنون، لأن السلطان والمال كان بيده.

﴿هلك﴾ : أي مات، كما في الآية (١٧٦) من سورة النساء صفحتي ١٣٣، ١٣٤.

(١) ويا قوم. (٢) بالبينات. (٣) يجادلون. (٤) آيات. (٥) سلطان. (٦) أتاهم.
(٧) آمنوا. (٨) يا هامان. (٩) الأسباب. (١٠) أسباب. (١١) السموات.

﴿مسرف﴾ : أى مكثر من المعاصى.

﴿مرتاب﴾ : المراد: شاك فى دينه.

﴿الذين يجادلون﴾ : مبتدأ خبره ﴿كبر﴾ الآتية.

﴿سلطان﴾ : أى برهان.

(كبر مقتًا).. إلخ : ﴿كبر﴾ أى عظم واشتد، وهى تفيد معنى الذم كبئس. و ﴿مقتًا﴾ أى شدة الكراهية المستوجبة للبغض، والمراد: كبر مقت جدالهم أى المقت المترتب عليه.

﴿يطبع الله﴾ : أى يختم عقابا لهم، انظر الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

﴿عقابا لهم﴾ : انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿صرحًا﴾ : المراد به هنا البناء العالى، وانظر الآية (٥١٢) من سورة القصص صفحة ٥١٢.

﴿الأسباب﴾ : تقدم فى الآية (١٠) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

﴿فأطلع﴾ : بفتح العين على أنه جواب ﴿لعل﴾ كما فى الآية (٤) من سورة عبس صفحة ٧٩١.

المعنى : . قال المؤمن يا قوم إنى أخاف عليكم من مثل المصائب التى حلت بالأمم السابقة التى تحزبت على رسلها وحاربتهم مثل جزاء الكفر الذى داوم عليه قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم كقوم لوط وشعيب. ولم يعاقبهم الله بغير ذنب بل لكفرهم وعنادهم؛ لأنه سبحانه لايريد ظلمًا لأحد. وبعدما حذرهم عذاب الدنيا أراد أن يحذرهم عذاب الآخرة فقال (ويا قوم).. إلخ: أى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة الذى ينادى فيه على الخلائق للوقوف موقف الحساب يوم تولون مسرعين من الموقف إلى النار عندما تسوقكم ملائكة العذاب إليها كما تقدم فى صفحة ٦١٦، وليس لكم فى هذا اليوم عاصم يعصمكم من عذاب الله.

ثم نصحهم بأن يبتعدوا عن أسباب إضلال الله لهم لأنهم إذا لم يبتعدوا فلابد أن يضلهم. ومَنْ يضلله سبحانه فلن يستطيع مخلوق هدايته.

ثم نبههم إلى خطر التقليد الذى قد يكون هو المؤثر فيهم، فقال ولقد جاءكم يوسف .. إلخ: أى ولقد جاء آباءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بنحو ٤٠٠ سنة بأدلة صادقة يدعوكم إلى طاعة الله وحده، فلم يلتفتوا لهذه الهداية.

وإنما قصروا طاعتهم على أمور الدنيا فى حفظ الأموال والأقوات، انظر شرح الآية (٥٥) من سورة يوسف صفحة ٣١١. ولأنه كان وزيرا لم يواجهوه بالتكذيب ولم يصرحوا بالتصديق. ولذا قال فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا مات يوسف قال أسلافكم لن يبعث الله من بعده مَنْ يدعى أنه رسول.

أى قطعوا بتكذيبه وتكذيب مَنْ يأتى بعده بدون برهان. ومثل هذا الإضلال الذى حل بكم يضل الله كل مسرف فى الجرائم شاك فيما لا يصح الشك فيه لوضوح دليله. ثم هددهم بغضب الله فقال (الذين يجادلون).. إلخ: أى الذين يجادلون فى البراهين التى نصبها الله قاطعة بالحق بدون أن يكون معهم دليل من الله على ما يزعمونه اشتد مقت الله والمؤمنين لهم على جدالهم بغير دليل بل لمجرد العناد والجمود على تقليد الآباء.

كهذا الختم الذى ختم الله على قلوب المعاندين حتى حرمهم الوصول للحق يختم الله على كل قلب متكبر على الحق جبار فى العصيان.

وبعد كل هذه المواعظ التى تلين الحديد عاد فرعون لتدجيله ثانيًا وقال لوزيره الأول: يا هامان ابن لى بناءً عاليًا لأبلغ به السلام التى توصل إلى السموات فأطلع إلى إله موسى.

وهذا تضليل منه واحتقار لعقول قومه واستخفاف بهم وذلك لأنه يعلم أنه ليس لإله موسى مكان، انظر الآية (٥٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢.

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾
وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ
ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ
صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ * وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى
لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ
إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ
لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ
وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ

المفرادت: . ﴿تباب﴾ : أى خسران وضياع.

﴿الرشاد﴾ : هو ضد الغى والضلال. وهو الرشد المذكور فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

﴿متاع﴾ : أى متعة زائلة، انظر الآية (٣٦) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤.

﴿ما لى أدعوكم﴾ : أى، أى شىء حصل يجعلنى أتعجب من أمركم؟

﴿لا جرم﴾ : المراد : حقا، انظر الآية (٢٢) من سورة هود صفحة ٢٨٧.

﴿ليس له دعوة﴾ : المراد : ليس فى قدرته أن يجيب دعاء مَنْ يدعوه، انظر الآية (١٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٣، والآية (٥٠) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦٢٤.

﴿المسرفين﴾ : أى فى المعاصى بالكفر والطغيان.

(١) كاذبا.
(٢) آمن.
(٣) يا قوم
(٤) الحياة.
(٥) متاع.
(٦) الآخرة .
(٧) صالحًا.
(٨) يا قوم.
(٩) النجاة.
(١٠) الغفار.
(١١) الآخرة.
(١٢) أصحاب.

المعنى : . قال فرعون وإنى لأظن موسى كاذبًا فى أن له إلهًا غيرى. ومثل التزيين المستبشع فى الأذهان زين الشيطان لفرعون عمله السيئ من الكفر والعناد، وجعله فى نظره حسنًا. ومنعه عن سلوك طريق الحق بالاجتهاد فى الكيد لموسى وإبطال دعوته، ولكن وراء موسى إله قادر على إبطال كيد فرعون. ولذا قال وما كيد فرعون.. إلخ: أى وما احتيال فرعون لمحاربة دعوة موسى إلا فى ضياع. ولما رأى الرجل المؤمن تمادى فرعون فى تضليله أعاد النصح مرة أخرى، بأسلوب آخر شديد التأثير، فقال يا قوم.. إلخ: أى يا قومى اتبعوا نصيحتى وآمنوا أدلكم على طريق الصواب. يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متعة زائلة. وأن الآخرة هى دار الاستقرار والدوام. ثم بيَّن كيف يحصل الجزاء فى الآخرة لينتبهوا فقال مَنْ عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها.

كما تقدم فى الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١. ومَنْ عمل عملاً صالحًا من ذكر أو أنثى والحال أنه مؤمن أى مصدق بالله وبرسله فهؤلاء يدخلون الجنة يرزقهم الله تعالى من نعيمها رزقًا واسعًا لا يمكن حصره. ويا قوم مالى.. إلخ.

أى أخبرونى كيف هذا الحال، أدعوكم إلى ما فيه نجاتكم من مهالك الدنيا والآخرة، وتدعوننى إلى ما يدخلنى النار. ثم فسَّر ما سبق بقوله تدعوننى لأكفر.. إلخ: أى بينما أنتم تدعوننى لأكفر بالله وأشرك معه فى العبادة معبودات ليس عندى علم بصحة ألوهيتها، أنا أدعوكم إلى مَنْ جمع صفات الألوهية الحقة، وهى العزة أى الغلبة والقهر لكل ما سواه، القادر على المجازاة على كل عمل، الغفار لمَنْ تاب ورجع إليه. قد ثبت عندى حقًا أن ما تدعوننى إلى عبادته ليس فى قدرته أن يجيب دعوة مَنْ يدعوه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. فهو لا ينفع مَنْ يعظمه ولا يضر مَنْ يحتقره وثبت أيضًا أن مردنا بعد الموت إلى الله فيجازى كل عبد بما يستحق. وأن المسرفين فى العصيان بالكفر والطغيان هم أصحاب النار. ثم ختم نصيحته بكلمة فيها تحذير لعلهم يتفكرون فى عاقبة أمرهم فقال: فستذكرون ما أقول لكم ... إلخ.

لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾
فَوَقَاهُ(١) اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ(٢) فِرْعَوْنَ سُوءُ
الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ(٣) فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾
وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ(٤) لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ
الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا
رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ
تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ(٥) قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا
دُعَاءُ(٦) الْكَافِرِينَ(٧) إِلَّا فِي ضَلَالٍ(٨) ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا(٩) فِي الْحَيَاةِ(١٠) الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(١١) ﴿٥١﴾

المفردات : . ﴿حاق بآل فرعون﴾

﴿حاق﴾ أى نزل وأحاط بهم، وقد تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٣، والمراد من ﴿آل فرعون﴾ فرعون وقومه جميعًا وجميع مَنْ يتبعه.

يقول العربى يعجبنى من آل عمر صلاحهم يريد عمر وأهله، ومنه قوله ﷺ : نحن آل محمَّد لا تحل لنا الصدقة، يريد ﷺ هو وأهله.

﴿غدوا وعشيا﴾ : أى صباحا ومساء، من صباح ومساء أهل الدنيا، وأخرج ابن أبى شيبة وغيره أن هذا العرض للأرواح دون الأجساد التى تبلى وتأكلها الأرض، ففى الآية دليل على بقاء الأرواح، ويؤيده قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم﴾... إلخ انظر آيتى (١٦٩، ١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١، وهذه الآية تدل بوضوح على عذاب البرزخ؛ لأن عذاب القيامة ذكر بعد ذلك فى قوله تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة﴾.. إلخ.

﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ : إذا رجعت إلى ما قلناه فى تفسير الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤، تعلم أن المراد هنا أنه بعد حساب الخلائق يوم القيامة، يقول سبحانه للملائكة : أدخلوا فرعون وقومه أشد أنواع العذاب فى جهنم، فتسوقهم الملائكة إليها يتقدمهم فرعون كما فى قوله تعالى ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ انظر الآية (٩٨) من سورة هود صفحة ٢٩٩. وتقدير القول فى الكلام

(١) فوقاه. (٢) بآل. (٣) آل. (٤) الضعفاء. (٥) بالبينات. (٦) دعاء.
(٧) الكافرين. (٨) ضلال. (٩) آمنوا. (١٠) الحياة. (١١) الأشهاد.

الفصيح كثير، ومنه فى القرآن غير ما هنا، ففى قوله تعالى ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ الآية (٤٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠ المراد تقول الملائكة ادخلوا الجنة .. إلخ.

ومثل ذلك فى الآيات (١٠٦) من سورة آل عمران صفحة ٨٠، و (٣١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤، و (٢٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩، و (٣٦) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨.

﴿الضعفاء﴾ : المراد بهم هنا: الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ : هم الرؤساء والكبراء والزعماء، انظر الآية (٣١) وما بعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٧، والآية (١٦٦) من سورة البقرة صفحة ٣٢.

﴿تبعا﴾ : أى أتباعا نفعل كما فعلتم. و ﴿تبعا﴾ من الجموع النادرة عند العرب. مفرده ﴿تابع﴾ كخدم جمع خادم. ﴿فهل أنتم مغنون﴾... إلخ : ﴿هل﴾ حرف استفهام يدل على أن المتكلم به يرغب فى حصول ما بعده، و ﴿مغنون﴾ من الغناء بفتح الغين. وهو النفع والإفادة، انظر الآية (٢٨) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ و ﴿مغنون﴾ متضمن معنى ﴿مدافعين﴾، والمراد هل تنفعوننا دافعين عنا.. إلخ؟

﴿لخزنة جهنم﴾ : الخزنة جمع خازن، وهم الملائكة المكلفون بتعذيب أهل النار، انظر الآيات من (١٩ إلى ٢٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٦، والآية (٧١) من هذه السورة صفحة ٦٢٧، والآية (٤٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٨ وغير ذلك فى القرآن كثير، وانظر الآيات (٧١، ٧٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٦، والآية (٨) من سورة الملك صفحة ٧٥٥. وكان أصل التركيب ﴿وقال الذين فى النار لخزنتها﴾ ولكنه سبحانه وضع الاسم الظاهر ﴿جهنم﴾ بدل الضمير لإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين ليتعظوا فيخافوا هول ماهم قادمون عليه إذا استمروا على كفرهم، وذلك أن ﴿جهنم﴾ أخص من النار، فالنار تطلق على نار الدنيا، انظر الآية (١٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٦، ٤٠٧، والآية (٦٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧؛ كما تطلق على نار

الآخرة كما فى الآية (٤٦) السابقة، بخلاف جهنم فإنها لا تطلق إلا على مكان معد لأشد أنواع العذاب فى الآخرة، كما فى الآية (٤٦) السابقة، وكما فى قوله تعالى ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾.. إلخ الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨.

﴿بلى﴾ : حرف جواب بمعنى ﴿نعم﴾ والمراد: نعم جاءتنا رسلنا، انظر الآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦.

﴿ضلال﴾ : أى ضياع لا يفيد شيئًا.

﴿الأشهاد﴾ : جمع شاهد كأصحاب وصاحب. أو شهيد كأشراف وشريف، وهم الملائكة الحفظة والأنبياء، كما تقدم فى الآية (١٨) من سورة هود صفحة ٢٨٦، وهم الشهداء فى الآية (٦٩) من سورة الزمر صفحتى ٦١٥، ٦١٦، وانظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧، ونقل ابن كثير عن مجاهد أن الأشهاد هم الملائكة الحفظة، انظر الآية (٢١) من سورة ق صفحة ٦٩٠، وآيتى (١٠، ١١) من سورة الانفطار صفحتى ٧٩٥، ٧٩٦.

المعنى :. ولما شعر الرجل المؤمن من آل فرعون أنهم نووا به شرا، ختم نصيحته بقوله فستذكرون ما أقول لكم، وأفوض أمرى إلى الله، أى يحفظنى من كل سوء لأنه بصير بعباده فيعلم مَنْ هو على حق ومن هو على باطل؛ فوقاه الله مكرهم السيئ وأنجاه مع موسى وأحاط بفرعون وقومه العذاب السيئ وهو بعد الغرق فى البحر، تعذيبهم فى القبور بعرضهم على النار صباحا ومساء، ويقال لهم هذا مصيركم فى الآخرة، ليعيشوا فى شقاء وذعر دائم من هول ما سيلاقيهم ويوم تقوم القيامة يقول الله سبحانه للملائكة أدخلوا آل فرعون أشد أنواع العذاب. ثم بيَّن سبحانه ما سيحصل من أهل النار بعضهم مع بعض فقال: ﴿وإذ يتحاجون﴾.. إلخ: أى واذكر أيها النبى لقومك حين يتخاصم أهل النار فيقول الأتباع المقلدون للرؤساء والقواد: إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم فيما طلبتم منا فزاد جاهكم وقوى نفوذكم فنرجوكم اليوم أن تنفعونا بدفع شىء من العذاب عنا. فيقول الرؤساء: إنا نحن وأنتم الآن فى النار فكيف ندفع عنكم؟ ولو قدرنا لدفعنا عن أنفسنا. إن الله قد حكم بين العباد

فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وقدر لكل منا عذابا لا يدفعه أحد عنه. ولمَّا يئس كل من الطرفين من الآخر لجئوا إلى خزنة جهنم من الملائكة وقالوا لهم: ادعوا ربكم أن يخفف عنا من العذاب ولو مقدار يوم من أيام الدنيا، فتقول الملائكة توبيخًا لهم هل أمهلكم الله فى الدنيا. ولم تك تأتيكم رسلكم بالحجج والمعجزات الدالة على صدقهم؟ قالوا: نعم. جاءتنا الرسل بالبراهين ولكنا كذبنا ونرجو الصفح. قال لهم الخزنة : إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم فلن ينفعكم الدعاء، أما نحن فلا نفعل العبث.

ثم أيد الله سبحانه الملائكة بقوله وما دعاء الكافرين فى الآخرة إلا فى ضلال أى ضياع لافائدة منه.

وهذا فى دعاء الكافر يوم القيامة، أما فى الدنيا فقد يجاب لما يدعو به كما فى الاستسقاء الذى يطلب فيه نزول المطر ويساعده الإطلاق فى قوله تعالى ﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾.. إلخ الآية (٦٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٢، وأيضا إجابة إبليس عندما طلب من الله عز وجل البقاء إلى يوم القيامة، انظر آيتى (٣٦، ٣٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، وانظر مع هذا شرح قوله تعالى : ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ الآية (٢٧) من سورة المائدة صفحة ١٤١.

وبعدما هدد سبحانه الكافرين بما سيكون قطعًا: شرع فى تطمين رسوله والمؤمنين فى الدنيا والآخرة، فقال: إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا بهم فى الحياة الدنيا بالحجة والظفر بالأعداء وقتلهم والانتقام الشديد لهم، ولا منافاة بين ما هنا وبين قتل بنى إسرائيل لبعض رسلهم، انظر الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧؛ لأن المراد بالرسل هنا هم الرسل الذين أمرهم الله سبحانه بقتال من يحارب دعوتهم، ويعمل على إحباطها بحد السيف، وقد يخفى على العقول أن تتصور أن العزيز الحكيم يأمر رسله بقتال أعداء دعوتهم ثم لا ينصرهم، فالمقتول من رسل بنى إسرائيل هم الرسل الذين لم يكلفهم الله سبحانه وتعالى بالقتال؛ وقد ورد أن بنى إسرائيل لمَّا قتلوا نبى الله يحيى أهلك الله به منهم سبعين ألفا وخلد ذكره الحسن فى الخالدين. وننصرهم يوم القيامة، يوم يقوم بين يدى الله الشهود العدول على مَنْ كفر وعصى.

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَقَالَ رَبُّكُمُ

المفردات : . ﴿الكتاب﴾ : المراد به هنا : ما يشمل التوراة والزبور والإنجيل.

﴿واستغفر لذنبك﴾ : انظر مع هذا الآية (١٩) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٥، والآية (٢) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨، والآية (٣) من سورة النصر صفحة ٨٢٥.

﴿العشى والإبكار﴾ : ﴿العشى﴾ من الظهر للغروب، ﴿الإبكار﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، انظر الآية (٤١) من سورة آل عمران صفحة ٦٩.

﴿بغير سلطان آتاهم﴾: السلطان هو الحجة والبرهان وتقييد بـ ﴿أتاهم﴾ لبيان أن الدليل لا يكون إلا من جهته تعالى فضلا عن استحالة وجود دليل عندهم فهم قوم يهرفون بما لا يعرفون.

﴿إن فى صدورهم﴾ : إن حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿ماهم ببالغيه﴾ : الباء للنص على عموم نفى ما بعدها، والمراد : لن يبلغوا سبب كبرهم وهو الرئاسة والزعامة على غيرهم.

﴿قليلا ما تتذكرون﴾ : المراد : لا تتذكرون إلا لحظات قليلة جدا يرغمكم عليها سطوة الدليل أو قسوة الحوادث وسرعان ما تزول.

المعنى : . يوم يقوم الشهود هو يوم لا ينفع الظالمين لأنفسهم بالشرك بالله تعالى، انظر الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠، لا ينفعهم اعتذارهم إن اعتذروا، انظر الآية (٥٧) من

(١) الظالمين. (٢) آتينا. (٣) إسرائيل. (٤) الكتاب. (٥) الألباب. (٦) الإبكار.
(٧) يجادلون. (٨) آيات. (٩) سلطان. (١٠) أتاهم. (١١) ببالغيه. (١٢) السموات.
(١٣) آمنوا. (١٤) الصالحات. (١٥) لآتية.

سورة الروم صفحة ٥٣٨، ولهم اللعنة من الله والناس أجمعين فتبعدهم عن الرحمة، ولهم سوء الدار وهى جهنم، ولمَّا ذكر سبحانه أنه ينصر رسله والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ذكر مثلا لذلك فقال: ولقد آتينا موسى.. إلخ: أى أعطينا موسى ما فيه الهداية من المعجزات والتوراة وأورثنا بنى إسرائيل من بعد موسى الكتب المقدسة حال كونها هادية ومذكرة لذوى العقول السليمة، فاصبر أيها النبى على إيذاء قومك، كما صبر موسى، وكن واثقا بنصر الله لك؛ لأن وعده حق، واستعن عليهم بما يقربك من الله وهو الاستغفار عما قد يكون فرط منك وممَنْ تبعك من هفوات. وداوم على تسبيح ربك وحمده فى كل وقت خصوصا فى الصباح والمساء، ثم أراد سبحانه أن يبيِّن لرسوله والمؤمنين أن جدال الكفار لم يكن إلا عنادا وكبرا فقال ﴿إن الذين يجادلون﴾.. إلخ: أى إن الذين يخاصمونك أيها النبى فيما جئت به من عند ربك من الآيات بغير دليل لا يحملهم على ذلك إلا كبر وحب للرئاسة، ولكن يستحيل أن يصلوا إلى الباعث على هذا الكبر وهو الرئاسة. فالتجئ أيها النبى إلى الله ليحميك من كيد مَنْ يحسدك؛ لأنه سبحانه هو السميع لما تقول ويقولون. البصير بعملك وعملهم، فهو حافظك من كيدهم، ولمَّا كان مما جادلوا فيه البعث وقالوا إنه مستحيل بعد أن يصير الميت ترابا.. إلخ، ذكر هنا سبحانه برهانا على إمكانه فقال: ﴿لخلق السموات﴾.. إلخ: أى والله لخلق السموات والأرض ابتداءً من غير سبق مادة أعظم فى النفوس وأشد فى العادة عند الناس من خلق الناس مرة ثانية بعد أن خلقهم سبحانه أول مرة، انظر الآية (٣٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحجة، فهم كالأعمى، ومَنْ يعلمها كالبصير، وما يستوى الكافر الذى لا يتأمل حجة الله فصار كالأعمى، ولا المؤمن الذى يرى تلك الحجج فيعتبر بها فهو كالبصير الذى لا يضل الطريق فلا تتذكرون إلا قليلا؛ وكذلك لايستوى المؤمنون المطيعون مع العاصين المسيئين لأعمالهم؛ ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله ﴿إن الساعة لآتية﴾... إلخ : أى إن القيامة التى تنكرونها والله لحاصلة قطعًا ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك لغلبة الغفلة عليهم واشتغالهم بحب الدنيا الذى حجب عقولهم.

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ

المفردات : . ﴿عبادتى﴾ : المراد : دعائى؛ لأن الدعاء خلاصة العبادة كما قال ﷺ الدعاء مخ العبادة. ﴿داخرين﴾ : المراد : أذلاء مهانين، انظر ما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة النحل صفحة ٣٥١. ﴿مبصرا﴾ : المراد : مضيئًا، كما تقدم فى الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. ﴿فأنى﴾ : أى كيف. ﴿تؤفكون﴾ : أى تصرفكم الشياطين عن قبول الحق، انظر الآية (٧٥) من سورة المائدة صفحة ١٥٢، وانظر شرح الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣. ﴿يؤفك﴾ : الأصل (أفك) بالفعل الماضى لكنه جاء به بالصورة الدالة على الحال والاستقبال (الفعل المضارع) لاستحضار الصورة البشعة التى هم عليها. ﴿يجحدون﴾ : أى يتكرون الحق مع اعتقادهم به، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥. ﴿أن أُسلم﴾: أى أن أستسلم بانقياد وخضوع.

المعنى : . وبعدما أثبت سبحانه أن يوم القيامة لابد منه، طلب الاستعداد له بالتوبة إليه وحده، ثم هدد مَنْ لا يخضع له، وبيَّن شيئًا من أدلة تفرده بالملك فقال ﴿ادعونى﴾... إلخ والدعاء هنا هو العبادة بدليل ما بعده، ولمَّا كان الدعاء المعروف وهو طلب الحاجات من الله سبحانه هو خلاصة العبادة كما ورد فى حديث أنس عنه ﷺ، كان مرادًا أيضا، أما إجابة العبادة البدنية كالصلاة مثلا فهى الإثابة عليها. وأما إجابة الدعاء القولى إذا استوفى شروطه المشار إلى بعضها فى قوله تعالى ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ الآية (٢٧) من سورة المائدة صفحة ١٤١، فهى إثابة الداعى عليه أولاً، ثم إعطاؤه الأنفع له فى الدنيا والآخرة، ثم هدد

(١) الليل. (٢) خالق. (٣) بآيات. (٤) الطيبات. (٥) العالمين. (٦) البينات.

سبحانه مَنْ يعرض عن عبادته فقال ﴿إن الذين يستكبرون﴾... إلخ أى إن الذين يتعاظمون عن عبادتى وحدى سيدخلون جهنم صاغرينَ أذلاء. ثم ذكر ما يدل على مَنْ هو أحق بالتوجه إليه وحده فقال: ﴿الله﴾... إلخ: أى الله وحده هو الذى جعل لكم الليل لتستريحوا فيه، والنهار مضيئًا تبصرون فيه مصالحكم. إن الله وحده هو صاحب الفضل الكثير على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرونه عليها لغفلتهم عن أنه مصدرها فكفروا به، انظر الآية (٣٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٥، ذلكم الذى جعل لكم ما سبق هو الله ربكم، وهو الخالق لكل شىء، لا إله إلا هو، فكيف تصرفكم الشياطين عن توحيده والخضوع له إلى مَنْ تدعونهم من دونه. ثم بيَّن سبحانه أن كفار مكة سلكوا طريق من كفر قبلهم. فقال ﴿كذلك﴾... إلخ: أى كما صرف الشيطان هؤلاء عن توحيد الله صرف الكفار قبلهم الذين كانوا يجحدون بآيات الله الدالة على وحدانيته كبرًا وعنادًا، وبعدما بيَّن سبحانه فضله المتعلق بالزمان أراد أن يبين فضله المتعلق بالمكان فقال: الله الذى جعل لكم الأرض مكان استقرار لتمشوا فى مسالكها لطلب الرزق. والسماء سقفًا محفوظًا كالبناء المتين، ثم انتقل لبيان فضله المتعلق بأنفسهم فقال ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ انظر الآية (٤) من سورة التين صفحة ٨١٣، ورزقكم مما تستطيبه نفوسكم التى لم تفسدها الخبائث. ذلكم الذى فعل كل ذلك هو وحده الله ربكم. وإذا كان الأمر كما ذكر فيجب أن ينزه سبحانه وهو رب العالمين عن كل نقص وشريك. هو وحده الحى الحياة الحقيقية التى لا نهاية لها، لا إله إلا هو فادعوه بكل ما يجوز أن تطلبوه منه سبحانه، حال كونكم مخلصين له الطاعة، انظر شيئًا من ذلك فى الآيات (١٩١) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٩٥، وآيتى (٤٠، ٤١) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦، حال كونكم قائلين الحمد لله رب العالمين الذى هدانا للصواب، انظر حكمة ذكر الحمد فى هذا المقام فى شرح الآية (٥٩) من سورة النمل صفحة ٥٠١. وبعدما أثبت سبحانه لنفسه صفات الجلال والكمال أمر نبيه أن يقطع أطماعهم فى ترك دينه بأسلوب لين لطيف فقال: ﴿قل إنى نهيت﴾.. إلخ: أى قل أيها النبى لكفار قومك إن البراهين المنتشرة فى الكون وآيات الله المنزلة نهتنى أن أعبد الذين تعبدونهم غير الله عندما جاءتنى تلك البينات. وأمرت أن أنقاد له تعالى لأنه هو وحده خالق العالمين ومربيهم بفضله ورحمته.

الْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِالْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَالسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ

المفردات : . ﴿طفلا﴾ : هذا اللفظ يطلق على الواحد، والأكثر، انظر ما تقدم فى الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢. ﴿أشدكم﴾ : المراد هنا: غاية نمو جسمكم واشتداد قوتكم، وغالبًا يكون ذلك عند بلوغ سن الخامسة والعشرين، انظر الآية (٢٢) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥. ﴿ولتبلغوا﴾ : معطوف على خلقكم من تراب، واللام متعلقة بفعل مقدر بعدها تفيد الحصر كما سيأتى فى الشرح. ﴿أجلاً مسمى﴾ : أى وقتًا محددا لجمعكم هو يوم القيامة، انظر الآية (٩) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦. ﴿كن فيكون﴾: المراد يحصل سريعًا، انظر شرح الآية (٨٢) من سورة يس صفحة ٥٨٦. ﴿أنى﴾ : أى كيف. ﴿إذ الأغلال﴾ : ﴿إذ﴾ أصلها ظرف يدل على الزمن الماضى، كما فى الآية (٨٤) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، واستعملت هنا استعمال ﴿إذا﴾ الدالة على الزمان المستقبل، كما فى قوله تعالى ﴿ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها﴾ للدلالة على تحقيق ما سيحصل كأنه حصل فعلا، و ﴿الأغلال﴾ جمع ﴿غُل﴾ بضم أوله، وهو الحديد الذى يوضع فى العنق. ﴿السلاسل﴾: هى الحديد الذى يوضع فى الأيدى والأرجل. ﴿الحميم﴾ : هو الماء الذى يغلى من شدة الحرارة. ﴿يسجرون﴾ : يقول العربى سجرت التنور أى ملأته نارًا، انظر الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠، والمعنى تملأ بطونهم نارًا، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة الهمزة صفحة ٨٢١. ﴿ضلوا عنا﴾ : أى غابوا عنا، ولم ينفعونا فى وقت الشدة. ﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من غرض فى الكلام إلى غرض آخر. ﴿لم نكن ندعو من قبل شيئا﴾: يريدون أن آلهتهم كانت

(١) العالمين. (٢) يجادلون. (٣) آيات. (٤) بالكتاب.
(٥) الأغلال. (٦) أعناقهم. (٧) السلاسل. (٨) الكافرين.

مجرد أوهام لا حقيقة لها. ﴿تفرحون﴾.. إلخ : المراد : تفرحون بمتاع الدنيا بما لا يصح أن يكون منشأ فرح، حتى نسيتم أهوال الآخرة فتجرأتم على المعاصى، انظر الآية (٧٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨ والآية (٨٣) صفحة ٦٢٩.

المعنى : . ومن أدلة تفرده سبحانه ما تشاهدونه فى أنفسكم أنه بدأ خلقكم من عناصر أهمها التراب، ثم خلق النطفة من التراب بعد تحويله إلى غذاء فدم ثم علقة كما تقدم فى صفحة ٤٤٦، ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم حال كونكم أطفالاً، ثم يبقيكم لتبلغوا غاية نمو الجسم والعقل، ثم لتكونوا بعد ذلك شيوخًا، والشيخوخة تبدأ من ٥١ سنة إلى نهاية العمر، انظر الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥، ومنكم مَنْ يتوفى من قبل الأشد أو الشيخوخة، ومنكم مَنْ يرد إلى أرذل العمر، وما فعل سبحانه كل ذلك بكم للعب أو لهو وإنما فعله لتعبدوه ولتبلغوا بعد ذلك يوم جزائكم، وهو يوم القيامة ولتعقلوا ما فى التنقل بكم من حال إلى حال من أدلة قدرته سبحانه. ومن أدلة قدرته وتفرده أيضا أنه هو وحده الذى يحيى مَنْ يشاء أول مرة كما تقدم، ويوم البعث. ويميت مَنْ يشاء عند انتهاء أجله وليس شىء من ذلك يشق عليه لأنه سبحانه إذا قضى إيجاد أمر من الأمور حصل فى طرفة عين من غير أن يستعين بغيره، ثم أراد سبحانه أن يجعل الناس يتعجبون من أحوال الكفار الشنيعة بعد كل تلك الأدلة فقال ﴿ألم تر﴾.. إلخ : أى انظر واعجب أيها السامع إلى هؤلاء الكفار الذين يجادلون بالباطل فى آيات الله الواضحة الدالة على الإيمان به وحده وتعجب كيف يصرفهم الشيطان عن التأمل فيها. ثم بيَّن صفاتهم مع تهديدهم فقال ﴿الذين كذبوا﴾.. إلخ : أى هم الذين كذبوا بالقرآن وبجميع ما أرسلنا به رسلنا من التوحيد والبعث، فسوف يعلمون حقيقة ما أخبرناهم به حين توضع الأغلال فى أعناقهم والسلاسل فى أيديهم وأرجلهم يسحبون بها ﴿فى الحميم﴾، ثم تملأ بطونهم نارا وهم فى وسط النار، أى تعمهم النار ظاهرا وباطنا، ثم تقول لهم الملائكة توبيخًا أين آلهتكم التى كنتم تشركونها مع الله من غير إفراد الله بالعبادة، لمَ لمْ ينقذوكم من العذاب؟ فيقولون غابوا الآن عنا وتركونا فى البلاء، لا، بل الحق أننا ما كنا ندعو فى الدنيا شيئًا لأنهم كانوا كالعدم، وكما أضل سبحانه أعمال هؤلاء المشركين بإبطالها وعدم نفعها يضل أعمال كل كافر، انظر الآية (١) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٢، ثم يقال لهم ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب بسبب فرحكم فى الدنيا بارتكابكم المعاصى.

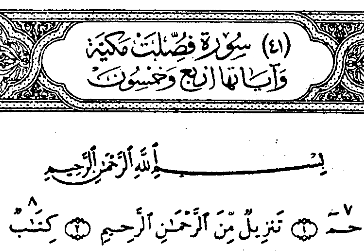
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن
قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا
جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً
فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

المفرادت : . ﴿فى الأرض بغير الحق﴾ : مرتبط بالفرح المتقدم، وهو فرح مذموم؛ والمراد : تفرحون بالإقدام على الباطل والجرائم المنكرة وتظنون أن ذلك من علامات القوة والعظمة، وهذا كما ذكرنا هو الفرح المذموم، انظر الآيات (١٢٠) من سورة آل عمران صفحتى ٨٢، ٨٣ و (١٨٨) من نفس السورة صفحة ٩٤، و (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩ و (٥٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٩ و (٨١) من نفس السورة صفحة ٢٥٥ و (١٠) من سورة هود صفحة ٢٨٥ و (٥٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠ و (٧٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨ و (٨٣) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦٢٩، وهناك فرح محمود وهو فرح المؤمن بكل ما يرضى ربه، انظر الآيات (١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١ و (٥٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٥ و (٣٦) من سورة الرعد صفحة ٣٢٧ و (٤) من سورة الروم صفحة ٥٣١. ﴿تمرحون﴾ : أى تختالون وتتفاخرون على الناس، انظر الآية (٣٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩. ﴿بئس﴾ : أى قبح. ﴿مثوى﴾ : أى مكان إقامة. ﴿فإما نرينك﴾ : الأصل فإن ما نريك، والنون الثانية تفيد توكيد الرؤية. ﴿بآية﴾ : المراد بها هنا : المعجزة.

﴿الأنعام﴾ : اختار العلماء أن المراد بها هنا الإبل فقط؛ لأن المزايا الآتية لا توجد إلا فيها. ﴿الفلك﴾: السفن. ﴿آياته﴾ : أى براهينه الدالة على كمال قدرته سبحانه وتفرده بالتصرف فى الكون كله.

(١) أبواب. (٢) خالدين. (٣) بآية. (٤) الأنعام.
(٥) منافع. (٦) آياته. (٧) آيات. (٨) عاقبة.

المعنى : . ما حصل لكم من العذاب بسبب أنكم كنتم فى الدنيا تفرحون بما لا يصح الفرح به وهى المعاصى، ومن علامات الفجر الفاضح أن يفتخر الشخص بأنه قتل أو سرق، أما المؤمن فإنه يحزن إذا فلت منه ذنب، وبما كنتم تختالون وتتطاولون على الناس. ويقال لهم يوم القيامة ادخلوا أبواب جهنم المبينة فى الآية (٤٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ موقنين بالخلود فيها فبئست جهنم محل إقامة للمتكبرين عن قبول الحق. ثم خفف سبحانه عن نبيه ﷺ ألمه من عدم إيمانهم به بأنه سينتقم منهم فى الدنيا أيضًا فقال : ﴿فاصبر إن وعد الله﴾ أى بتعذيبهم ﴿حق﴾ أى لابد من وقوعه. فإن أريناك بعض الذى نعدهم به من عذاب الدنيا فالأمر ظاهر، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشد انتقام، ولما كان من ضروب عنادهم أنهم اقترحوا معجزات معينة غير القرآن الذى أعجزهم، كما فى الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦، وكان سبحانه يعلم أنهم مهما جاءتهم المعجزات فلن يؤمنوا لأنهم متعنتون كما فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣ و (١١١) من نفس السورة صفحة ١٨١، لما كان كل هذا أراد سبحانه أن يصرف عن رسوله ألمه منهم فقال ﴿ولقد أرسلنا﴾... إلخ: أى لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم، منهم مَنْ قصصنا عليك حاله وحال قومه معه، وهم ٢٣ منهم ١٨ فى الآية (٨٣) وما بعدها من سورة الأنعام صفحة ١٧٥ وما بعدها، والباقى إدريس. هود. شعيب. صالح. ذو الكفل. ومنهم مَنْ لم نقصص عليك خبرهم، وليس واحد منهم إلا أعطاه الله تعالى معجزات، وليس واحد منهم إلا وجادله قومه وكذبوه، فصبروا، فاصبر كما صبروا. وأعلم أنه ما كان لرسول من رسل الله مطلقا أن يأتى بمعجزة إلا بإذن الله الذى يعلم المناسب منها لحال كل رسول، فانتظر قضاء الله فيهم فإنه إن جاء أمره بنزول العذاب بهم قضى بينهم وبينك ومَنْ معك بالحق. وهو نجاة المؤمنين وخسران المبطلين. ثم رجع سبحانه إلى ذكر أدلة تفرده وتفضله فقال ﴿الله الذى﴾.. إلخ: أى الله وحده هو الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها ولكم فيها غير ذلك منافع من جلودها وأوبارها ولبنها ونتاجها ولتبلغوا عليها حاجاتكم التى تهتمون بها كحمل الأثقال من بلد إلى بلد بعيد، وكما حملكم عليها فى البر حملكم على السفن فى البحر، يريكم سبحانه كل يوم دلائل وحدانيته وكمال قدرته، ثم وبخهم على إنكار أقل آية منها فقال ﴿فأى آيات الله﴾... إلخ. أى فأى آية من آياته تعالى تنكرونها؟ أى مستحيل عليكم ذلك بدليل ما فى الآية (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، ثم وبخهم على إهمالهم التأمل فقال: ﴿أفلم يسيروا﴾... إلخ : أى هل عجزوا فلم يسيروا فى أنحاء الأرض فيتأملوا على أى حال كانت عاقبة الذين كفروا مثلهم من الأمم الماضية.


(سـورة فصلت) ٦٢٩

كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

(٤١) سُورَةُ فُصِّلَتْ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ

المفردات : . ﴿آثارًا فى الأرض﴾ : أى من مبان، وحصون، وغيرها. انظر الآيات (٨٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ و (١٨، ١٢٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٧.

﴿فرحوا بما عندهم﴾ : أى من العلم، انظر شرح آيتى (٧٦، ٧٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨ والآية (٧٥) الماضية فى هذه السورة.

﴿حاق﴾ : أى نزل وأحاط بهم، كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٣.

﴿بأسنا﴾ : المراد : عذابنا الشديد.

﴿فلم يك ينفعهم﴾.. إلخ : أى عند مشاهدة الهلاك؛ لأنه اضطرارى لا اختيارى. انظر الآيات (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١ و (٩٠، ٩١) من سورة يونس صفحة ٢٨٠ و (٥٥) وما بعدها من سورة الزمر صفحة ٦١٤

سورة فصلت

﴿حم﴾ : تنطق هكذا حا ميم بكسر الميم الأولى وسكون الياء والميم الثانية.

﴿تنزيل﴾ : المراد : هذا القرآن منزل.. إلخ.

﴿الرحمن الرحيم﴾ : تقدم بيانهما فى سورة الفاتحة، وانظر الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧.

(١) آثارا. (٢) بالبينات. (٣) آمنا. (٤) إيمانهم. (٥) سنة. (٦) الكافرون.
(٧) حا مِيْم بكسر الميم الأولى وسكون الياء والميم الثانية. (٨) كتاب.

المعنى : . كان اللائق بهم وهم يسيرون فى الأرض للتجارة وغيرها أن يتأملوا فيما فعل الله فى الكفار قبلهم مع أنهم كانوا أكثر عددا وأشد قوة وأقوى وأثبت آثارا .. فى الأرض ومع كل هذا لم يغن عنهم فى دفع العذاب ما كانوا يعملونه.

أى فيجب أن يعتبر هؤلاء بهم ويعلموا أنهم لو استمروا على معصية الرسول سيحصل لهم نظير ما حصل لمَنْ قبلهم، وأن عاقبة الكثرة والقوة كانت عكس ما كانوا يرجون منها، ثم فصَّل بعض ما أجمل فيما سبق فقال: ﴿فلما جاءتهم رسلهم﴾.. إلخ : أى فلما جاء هذه الأمم رسلهم الذين أرسلهم الله لإنقاذهم من الهلاك بالمعجزات والأدلة الظاهرة أعرضوا عنهم لأنهم فرحوا بما عندهم من العلم بتدبير أمور الدنيا وطرق تحصيلها، انظر الآية (٧) من سورة الروم صفحة ٥٣١، ولهذا لمَّا جاءهم الرسل بعلوم الديانة والأخلاق وهى تحث على المكارم، وتزهد فى الانهماك فى التمتع بملاذ الحياة لم يلتفتوا إليها واستهزأوا بها معتقدين أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علومهم، عند ذلك نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به إذا قيل لهم أنه سيصيبكم إذا تماديتم.

ثم بيَّن أنهم لم يؤمنوا إلا عند اليأس فلم ينفعهم فقال ﴿فلما رأوا بأسنا﴾... إلخ: أى فلما رأوا مقدمات عذابنا الشديد قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا بسببه مشركين مع الله غيره، فلم يك ينفعهم إيمانهم الذى حصل منهم حين مشاهدة العذاب. سن الله ذلك سنة أى أجراهم على عادته فى معاملة الأمم الماضية وهى أن لا ينفعهم الإيمان إلا فى وقت الرخاء، وبهذا خسر هؤلاء الكافرون كل خير فى ذلك الوقت.

﴿سورة فصلت﴾

﴿حم﴾ تقدم المراد بمثلها فى أول سورة البقرة.

هذا القرآن مُنَزَّل من الرحمن الرحيم بخلقه حيث رسم لهم فيه طريق سعادتهم فى الدارين وهو كتاب فصلت آياته.

فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)
وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا
وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥)
قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦)
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٧)
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ (٨) ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ
فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩)
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ
أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ

المفردات: ﴿قرآنا عربيا﴾: قرآنًا بمعنى مقروء، حال من كتاب و﴿عربيا﴾ صفة له. أى حال كون الكتاب مقروءًا بلسان العرب، الذى هو لسان رسولهم، للحكمة المبينة فى شرح الآية (٣٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٧، ٣٢٨، والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩ .

﴿لقوم يعلمون﴾: متعلق بقوله ﴿فصلت﴾.

﴿أكنة﴾: أى أغطية، كما تقدم فى الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦ .

﴿وقر﴾: أى صمم.

﴿حجاب﴾: أى ساتر يحول بيننا وبينك حتى كأننا لا نرى شخصك من شدة كراهيتنا لك.

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى..﴾ إلخ: تقدم فى الآية (١٠٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢ .

﴿فاستقيموا إليه﴾: المراد: استقيموا فى أفعالكم متوجهين إليه وحده لا تقصدون معه غيره.

﴿ويل﴾: أى هلاك.

﴿الزكاة﴾: انظر ما تقدم فى الآية (٤) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩ .

---

(١) آياته.	(٢) قرآنا.	(٣) آذاننا	(٤) عاملون
(٥) واحد	(٦) الزكاة	(٧) بالآخرة	(٨) كافرون
(٩) آمنوا	(١٠) الصالحات	(١١) العالمين	(١٢) رواسى
(١٣) بارك	(١٤) أقواتها		

﴿غير ممنون﴾: تقول العرب مننت الحبل أى قطعته، فالمراد غير مقطوع، أى دائم، انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ . ﴿أئنكم﴾: الهمزة الأولى لإنكار كفرهم والتشنيع عليهم به. ﴿يومين﴾: المراد فترتين من الزمن لا يعلمها إلا الله تعالى، انظر ما تقدم فى شرح الآية (٥٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧ .

﴿أندادا﴾: جمع ﴿ند﴾ بكسر النون، بمعنى مثيل. ﴿رواسى﴾: أى جبال ثوابت.

﴿من فوقها﴾: المراد: أن أكثر الجبال امتد ارتفاعه عن سطح الأرض حتى شاهدوه وانتفعوا بما فيه من المعادن والاستدلال على الطرق، وإلا فأصول الجبال غائصة فى أعماق الأرض.

﴿فى أربعة أيام﴾: المراد: فى بقية أربعة أيام، قال ابن الأنبارى: يقول العرب خرجت من صنعاء إلى مكة فى عشرين يوما، وإلى المدينة فى ثلاثين يوما، يريد ثلاثين يوما من خروجى من صنعاء إلى المدينة.

﴿سواء﴾: مصدر بمعنى استواء منصوب بفعل مقدر، والأصل: استوت تلك الأيام استواء تاما فلا تفاوت بينها فى أقل من لحظة. وهذا دليل منتهى الدقة فى التقدير.

﴿للسائلين﴾: متعلق ﴿بقدَّر﴾ والسائلين المراد بهم الطالبون للرزق بالسعى فى الأرض، انظر الآية (١٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ .

﴿استوى إلى السماء﴾: المراد: توجهت إرادته سبحانه إلى السماء، كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة البقرة صفحة ٧.

المعنى: هذا القرآن كتاب فصلت آياته، أى تميز بعضها عن بعض لفظًا ومعنى وزمنا. ففى اللفظ بالفواصل التى حددت الآيات. وفى المعنى فبعضها فى وصف ذاته تعالى بكمال العلم والحكمة والرحمة والقدرة على إيجاد عجائب الحيوان والنبات. وبعضها فى وعد المتقين بالنعيم ووعيد العصاة بالعذاب. وبعضها فى قص أحوال الماضين. وبعضها فى أحكام مختلفة عليها سعادة البشر. وبعضها مواعظ وتهذيب للأخلاق. قال بعض العلماء: كل منصف يجزم بأنه لم يوجد من بدء الخلق إلى قيام الساعة كتاب جمع من العلوم المختلفة مثل ما فى القرآن. وفُصلت فى الزمن فنزل على فترات حسب الحاجة، انظر شرح الآية (١٠٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩، والآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤ . فصلت آياته حال كونه

مقروءًا بلسان عربى واضح لينتفع به كل مَنْ يعلم معانيه حق العلم. وحال كون هذا الكتاب مبشرًا مَنْ آمن واتقى بالجنة. ومنذرًا ومحذرًا مَنْ كفر وعصى بالعذاب. ومع تفصيل آيات هذا القرآن على هذا الوجه فقد أعرض عنه أكثر الناس، وهمَ مرضى القلوب، فهم لا يسمعونه سماع قبول. وقال زعماء الكفر فى عهده ﷺ تبجحًا وإصرارًا على العناد: قلوبنا فى أغطية لايصل إليها معنى ما تريد، كما قال أمثالهم فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧، وفى آذاننا صمم لا يصل إليها صوتك، ثم بالغوا فى النفور والبعد أكثر فقالوا ومن بيننا وبينك حجاب يكاد يحجب عنا حتى شخصك فاعمل على دينك إنا مستمرون على العمل بديننا. أى لا تطمع فى تحويلنا. عند ذلك أمر سبحانه نبيه أن يخبرهم بأنه لا يجبر أحدًا على الإيمان، وإنما وظيفته أنه مبلّغ عن اللّه تعالى فقال: (قل إنما)... إلخ. أى قل لهم ما أنا إلا بشر مثلكم أوحى اللّه إلىَّ أن أبلغكم أنه ليس لكم إلا إله واحد فاستقيموا فى كل أعمالكم حال كونكم متوجهين إليه وحده. واطلبوا مغفرته مما أنتم عليه. ثم هدد بقوله ﴿وويل للمشركين﴾ أى هلاك عظيم لهم من شدة جهلهم بحق ربهم. الجهل الذى قسى قلوبهم على الفقراء فلا يؤتون زكاة، وما جرأهم على ذلك إلا كفر أيضًا بالآخرة، انظر الآية أو ما بعدها من سورة الماعون صفحة ٨٢٣ .

ثم بين جزاء المؤمنين فقال: إن الذين آمنوا.. أى بكل ما يجب الإيمان به وعملوا الصالحات لهم أجر عملهم فى الجنة نعيم غير مقطوع.

وبعدما هدد الكافرين وبين فضل المؤمنين أراد أن ينبههم إلى ما يدل على كمال قدرته سبحانه حتى لا يشركوا به غيره. ولا ينكروا قدرته على البعث فقال: (قل أئنكم).. إلخ. أى قل لهم مُنكرًا عليهم عملهم واللّه إنكم لتكفرون بالإله الحق الذى خلق وحده الأرض فى يومين وتجعلون له نظائر فى استحقاق العبادة مع أنه وحده هو رب العالمين وليس لآلهتكم دخل فى شىء منها.

واللّه وحده هو الذى جعل فى الأرض جبالا ثابتات ظاهرة أطرافها من فوقها لمنافعكم من خزن المياه والمعادن وغير ذلك. وجعلها أى الأرض مباركة كثيرة الخيرات بالشجر والزرع والثمار، وقدر فيها أرزاق أهلها فى يومين آخرين فصارت الجملة أربعة أيام كاملات متساويات. وصار كل شىء فيها معدا للطالبين له بلسان حالهم بالسعى أو بلسان مقالهم بالدعاء. ثم توجهت إرادته سبحانه إلى السماء... إلخ.

إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ
سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً
مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ
شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾
فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ
أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ
أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ

المفردات: ﴿دخان﴾: المراد به مادة غازية تشبه الدخان وتسمى فى العلم الحديث. (سديمًا).

﴿فقال لها وللأرض..﴾ إلخ: لم يحصل منه سبحانه كلام، ولا من السماء والأرض قول أيضًا، وإنما الكلام كناية عن أنه لابد من أن تنفذ إرادته سبحانه فيما يريده من خلقه سريعًا. ونظير هذا الأسلوب كثير فى كلام العرب، ومنه فى القرآن الكريم.

﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾، وقوله تعالى ﴿طوعًا أو كرهًا﴾: أصلهما مصدران أريد بهما هنا اسم الفاعل وهما حالان أى طائعتين أو كارهتين والمراد لابد أن تأتيا والكلام تصوير لتأثير قدرته تعالى فى تهيئتهما للانتفاع بهما.

وقوله تعالى ﴿أتينا طائعين﴾ تصوير لتأثرهما بسرعة، كما يتأثر العبد ويسرع فى إجابة سيده، انظر صفحة ٣٢٣. ﴿فقضاهن﴾: أى أتمهن. ﴿أوحى﴾... إلخ: الوحى هنا بمعنى الأمر التكوينى وهو الإيجاد.

﴿أمرها﴾: أى ما هى مهيأة له، مما اقتضت الحكمة الإلهية الانتفاع به منها كالشمس والقمر والنجوم وغير ذلك. فالمراد خلق فى كل سماء ما هو مختص بها لنفع الخلق.

﴿وزينا السماء الدنيا﴾: انظر الحكمة فى تغيير الأسلوب من الغيبة إلى التكلم فى شرح الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١ .

﴿بمصابيح وحفظا﴾: انظر آيتى (٦، ٧) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ والآية (٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ .

(١) فقضاهن (٢) بمصابيح (٣،٤) صاعقة
(٥) ملائكة (٦) كافرون (٧) بآياتنا

﴿صاعقة﴾: هى صوت شديد مزعج يصدر من جهة العلو، مصحوبًا بما فيه عذاب وهلاك، من نار تحرق، أو ريح تدمر، أو غير ذلك.

﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾: المراد: كثر بينهم الرسل. وعملوا معهم كل حيلة. انظر شرح الآية (٢١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩ .

﴿من أشد منا﴾: ﴿من﴾ اسم استفهام إنكارى، يفيد النفى، أى لا أحد أشد منا.
﴿صرصرا﴾: شديدة الصوت مزعجة. من الصرة وهى الصياح والجلبة. انظر الآية (٢٩) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤ .

﴿نحسات﴾: جمع نحسة بفتح فكسر، أى مشئومات، وكانت ثمانية، انظر الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢ .

المعنى: ثم توجهت إرادته سبحانه إلى السماء والحال أنها كالدخان، فحصل ما أراده منهما بلا تأخير. فأتم سبحانه خلق السموات سبعا فى يومين. وخلق سبحانه فى كل سماء ما هو مخصص بها. وزين سبحانه السماء الدنيا بكواكب ونجوم ترى كالمصابيح. وحفظناها بذلك حفظا من كل شيطان يحاول استراق السمع كما تقدمت الإشارة إليه. كل ذلك المتقدم تقدير العزيز أى الغالب على كل شىء العليم بأسرار خلقه. بلغ أيها النبى ما سبق لقومك فإن أعرضوا عن الإيمان بعد ذلك فقل لهم إنى أنذركم بحلول نقمة بكم كما حصل للأمم التى كذبت رسولها كعاد وثمود ومَنْ على شاكلتهم حين جاءتهم الرسل بأدلة من جميع جهاتهم قائلين لهم لا تعبدوا إلا اللَّه. فلجوا فى عنادهم وقالوا لو شاء ربنا إرسال رسل إلينا لأنزل ملائكة برسالته. لا بشرا مثلنا. وبما أنكم لستم ملائكة. فإنا بما تزعمون أنكم أرسلتم به كافرون. ثم بيّن سبحانه ما حصل منهم غير ذلك وما حل بهم بقوله فأما عاد فبغوا فى الأرض بالباطل. وقالوا لما خوفهم رسولهم بالعذاب لا أحد أشد منا قوة فلا نخاف تهديدكم. هل غفل هؤلاء ولم يعلموا أن الذى خلقهم وهو الذى يهددهم على لسان رسوله هو أشد منهم قوة. وكانوا يعرفون أن آياتنا التى جاء بها رسلنا حق، ولكنهم جحدوها عنادا، انظر مثلها فى الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، فعاقبهم سبحانه بأن أرسل عليهم ريحا شديدة تهلك كل شىء تمر به. وكان لها صوت قوى يصم الآذان. استمرت بحالها هذا سبع ليال وثمانية أيام كلها شؤم حتى تركتهم جثثا هامدة مطروحة على الأرض كأنها أعجاز نخل خاوية كما فى الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١،٧٦٢ . فعل بهم سبحانه ذلك ليذيقهم العذاب المخزى فى الدنيا.

ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا[1] وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ[2] أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ[3] فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ[4] ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[5] وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ[6] وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ[7] وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ[8]

المفردات: ﴿فهديناهم﴾: أى أرشدناهم إلى طريق الخير. وبيّنا لهم طريق الشر ليجتنبوه، انظر الآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ ، والآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨ .

﴿صاعقة﴾: تقدم فى الصفحة السابقة.

(العذاب الهون﴾: ﴿الهون﴾ أصله مصدر معناه الهوان والذل، وأريد به اسم الفاعل مبالغة أى المهين المذل جدًا حتى كأنه هو الذل نفسه كما تقول: رجل عدل أى عادل جدًا.

﴿أعداء اللَّه﴾: المراد بهم: الكفار من جميع الأمم بما فيهم كفار مكة.

﴿يوزعون﴾: المراد: يمنعون من الهرب ويساقون إلى جهنم، انظر الآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦ .

﴿إذا ما جاءوها﴾: ﴿إذا﴾ ظرف زمان يربط بين جملتين تسمى الأولى شرطًا وهى هنا ﴿جاءوا﴾ والثانية جوابا وهى هنا ﴿شهد عليهم﴾ و﴿ما﴾ حرف يدل على تأكيد ربط الشرط بالجواب.

﴿جلودهم﴾: المراد بها الجوارح مطلقًا فهو من عطف العام على الخاص. ولذا أفردها بالذكر فيما بعد.

(١) الحياة.
(٢) الآخرة.
(٣) فهديناهم.
(٤) صاعقة.
(٥) آمنوا.
(٦) أبصارهم.
(٧) أبصاركم.
(٨) أرداكم.

﴿أن يشهد عليكم﴾: الأصل خوف أن يشهد .

﴿أرداكم﴾: أى أوقعكم فى الردى فهلكتم.

المعنى: . فعل سبحانه بعاد ما سبق ليذيقهم ألم الخزى فى الدنيا . ووالله لعذاب الآخرة أشد خزيًا وذلاً . وهم فى هذه الحالة لا يجدون مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم.

وأما ثمود فأرشدناهم وبيَّنا لهم طريق الخير. فبالغوا فى حب العمى وهو الكفر وفضلوه على الهدى وهو الإيمان والطاعات فأخذتهم صاعقة العذاب المهين المذل بسبب استمرارهم على كسب الكفر والمعاصى.

ونجينا من هذا العذاب الذين آمنوا مع نبيهم صالح صلوت اللهَّ عليه. وكانوا يتقون الله فلم يخالفوا أمره.

ثم ذكر سبحانه كفار مكة بما سيكون يوم القيامة لجميع الكفار لعلهم يرتدعون فقال ويوم يحشر... إلخ: أى واذكر أيها النبى لكفار قومك يوم يحشر الكفار أعداء الله إلى النار فهم يساقون إليها. حتى إذا جاءوها وسئلوا عما أجرموا فأنكروا شهد عليهم سمعهم وأبصارهم بما كانوا يعملون.

وقالوا لجلودهم متعجبين كيف شهدتم علينا؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء يريد أن ينطقه.

وليس هذا بعجيب على قدرته، وهو الذى خلقكم أول مرة من العدم والقادر على ذلك قادر على إنطاق كل شىء وعلى بعثكم للحساب والجزاء. ثم توبخهم جلودهم لزيادة حسرتهم فتقول:

(وما كنتم) .... إلخ: أى وما كنتم تأتون المنكر مستترين خائفين من شهادة جوارحكم لأنكم ما كنتم تقرون بالبعث. ولكنكم لجهلكم عملتم عمل مَنْ يظن أن الله لا يعلم ما تفعلونه خفية. وهو كثير. فلا يظهره لكم ولا يؤخذاكم عليه. انظر مثل هذا الظن فى الآية (٣) من سورة الهمزة صفحة ٨٢١ . وهذا الظن الذى ظننتموه بربكم هو الذى أهلككم وخلدكم فى النار.

فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ[1] ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ
مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾
* وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ[2] ﴿٢٥﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ[3] وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا[4] يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ[5] أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا
تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

المفردات: ﴿مثوى﴾: أى محل إقامة، من قولهم: ثوى فلان بالمكان أى أقام به.

﴿يستعتبوا﴾: أى يطلبوا زوال سبب العتاب بالرضا عنهم. انظر أصل المادة فى الآية (٨٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٧ .

﴿المعتبين﴾: أى المجابين لما يطلبون.

﴿قيضنا﴾: أى أعددنا، وهيأنا لأنهم انحرفوا عن الصواب، انظر الآيات (٨٣) من سورة مريم صفحة ٤٠٤ و (٣٦) من سورة الزخرف صفحتى ٦٥٠، ٦٥١ و (٨) إلى (١٠) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١ .

﴿قرناء﴾: جمع قرين أى صاحب، والمراد به هنا الصاحب من شياطين الإنس والجن، انظر آيتى (٣٨) من سورة النساء صفحة ١٠٦ و(٥١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ . ﴿ما بين أيديهم﴾: من شهوات الدنيا والكفر والضلال.

﴿وما خلفهم﴾: من أمور الآخرة، فأفهموهم أنه لابعث ولا حساب.

﴿وحق عليهم القول﴾: المراد وقع عليهم العقاب، انظر الآية (٨٣) من سورة النمل صفحة ٥٠٤ . ﴿خلت﴾: أى مضت.

﴿والغوا فيه﴾: أى أحدثوا فى أثناء قراءته لغوًا من القول، ولغطًا، وتهويشًا حتى لا يؤثر فيمن يسمعه. ﴿النار﴾: خبر لمبتدأ مقدر والأصل ﴿هو النار﴾. ﴿لهم فيها دار الخلد﴾: المراد لهم فى النار محل إقامة دائمة.

﴿اللذَين أضلانا﴾... إلخ: جاء تعبيره سبحانه عن ﴿الجن والإنس﴾ بلفظ المثنى ﴿اللذَين﴾ بفتح الذال ولم يقل (الذين أضلونا) بكسر الذال لفظ الجمع، فعل سبحانه ذلك اعتبارا بأن

(١) الخاسرين. (٢) خاسرين. (٣) القرآن. (٤) بآياتنا. (٥) اللذين.

الجن فريق. والإنس فريق، فهما فريقان. وتذكر الآية قول الذين كفروا فيمَن أضلوهم من الفريقين بسبب شدة غضبهم عليهم. انظر شيئًا من ذلك فى الآيات (١٦٦و١٦٧) من سورة البقرة صفحة ٣٢ و٦٧ و ٦٨ من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١ و(٣٢ و٣٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧ .

المعنى: فصرتم من الخاسرين لكل ما فيه سعادة، فإن يحبسوا غيظهم ظانين أن الصبر مفتاح الفرج فلن ينفعهم ذلك شيئًا ما؛ لأن النار هى مقرهم الدائم. وإن يطلبوا الرضا عنهم فلن يجابوا.

وبعدما بيَّن سبحانه ما سيكون يوم القيامة. ولم ينزجر كفار قريش، أراد سبحانه أن يبين لنا كيف عاقبهم فقال: وقيضنا... إلخ: أى لما ألحوا فى عنادهم هيأنا لهم قرناء السوء من الجن والإنس فزينوا لهم شهوات الدنيا والكفر بالآخرة فحق عليهم وعيدنا لهم بعذاب جهنم، يدخلونها فى جملة أمم كافرة قد مضت فى زمن قبلهم.

ثم بيَّن سبحانه أن تلك الأمم الكافرة كانت جمعت الأشرار من الجن والإنس لأنهم استووا جميعًا فى خسران خيرى الدنيا والآخرة. ثم بين سبحانه بعض جرائم كفار مكة فقال: وقال (الذين كفروا)... إلخ: أى قال الكافرون بالله ورسوله من أهل مكة: لا تنصتوا لهذا القرآن، وعارضوه برفع الصوت باللغو والتهويش لعلكم تغلبون القارئ فيسكت عن القراءة. فتوعدهم سبحانه بقوله فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدًا.

ووالله لنجزين كفار قريش أشد جزاء لما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصى. ذلك الجزاء وهو النار هو جزاء أعداء الله، لهم فى هذه النار مكان يخلدون فيه لا يخرجون منه أبدًا. جازيناهم بذلك جزاء شديدًا بسبب أنهم كانوا يجحدون آياتنا أى ينكرونها عنادا. ثم رجع سبحانه إلى بيان ما سيحصل منهم فى جهنم لعلهم يتنبهون فقال: (وقال الذين كفروا) .... إلخ: أى وقال الكافرون وهم يتقلبون فى النار: يا ربنا أرنا فريقى المضلين لنا من الجن والإنس اللذين أوقعانا فى الضلال لننتقم منهما بوضعهما تحت أقدامنا إهانة لهما ليكونا فى أسفل مكان اجتمعنا فيه.

وبعد أن توعد سبحانه الكفار بما تقشعر منه الجلود أتبع ذلك بالوعد الشريف للمؤمنين فقال: (إن الذين قالوا ربنا).... إلخ.

قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا[1] تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ[2] أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ[3] الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ[4] وَلَكُمْ
فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا
مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا
إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا[5] وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ[6] كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا[7] إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا[8] إِلَّا
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ[9] نَزْغٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ[10]
اللَّيْلُ[11] وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

المفردات: ﴿تتنزل عليهم الملائكة... ﴾ إلخ: أى عند الموت؛ انظر الآية (٦٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٦، وشرح الآية (٩١) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧، والآية (٣٢) من سورة النحل صفحة ٣٤٩ .

﴿ما تدعون﴾: أى ما تطلبون؛ انظر الآية (٥٧) من سورة يس صفحة ٥٨٤ .

﴿نزلا﴾: أصل النزل يطلق على المكان الذى ينزل فيه الضيف المكرم، كما يطلق على ما يقدم للضيف من الزاد والمراد به هنا طعام الجنة، انظر الآية (١٩٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٦ . ﴿ومَنْ أحسن قولا...﴾ إلخ: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام مشرب معنى النفى.. أى لا أحد أحسن فى القول... إلخ.

﴿ادفع﴾: أى رد واطرد. ﴿بالتى هى أحسن﴾: أى بالطريقة الحسنى التى لا غلظة فيها.

﴿فإذا الذى...﴾ إلخ : ﴿إذا﴾ كلمة تدل على سرعة حصول ما بعدها مرتبًا على ما قبلها.

﴿ولى﴾: أى صديق.

﴿حميم﴾: أى شديد الصداقة والمحبة.

﴿يلقاها﴾: أى يتلقى النهاية الحسنة، كما تقدم فى الآية (٨٠) من سورة القصص صفحة ٥١٨ . ﴿حظ عظيم﴾: أى نصيب وافر من خصال الخير.

﴿ينزغنك﴾: المراد: يوسوس لك، كما تقدم فى الآية (٢٠٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥ .

(١) استقاموا (٢) الملائكة (٣) الحياة
(٤) الآخرة (٥) صالحا (٦) عداوة
(٧، ٨) يلقاها (٩) الشيطان (١٠) آياته
(١١) الليل.

﴿ومن آياته﴾: أى من أدلة قدرته تعالى، وتصرفه وحده فى الملك.

المعنى: إن الذين اعترفوا بأن اللهَّ ربهم ثم أداموا الاستقامة على الطريق الذى شرعه لهم. فوحدوه وعملوا ما يرضيه تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا مما أنتم مقدمون عليه. ولا تحزنوا على فوات ما تحبون. وأبشروا بالجنة التى وعدكم اللَّه بها فى الدنيا. نحن كما كنا موالين لكم فى الدنيا بالحفظ نواليكم الآن بما فيه سروركم. ولكم فى الجنة ما تشتهيه أنفسكم. ولكم فيها كل ما تطلبون. والمراد كل ما تشتهيه أنفسكم موجود فيها. وكل ما تطلبونه تنالونه حال كون ما تطلبونه مطعومًا مقدمًا لكم من رب غفور لذنوبكم. رحيم بكم. ثم بيَّن سبحانه بعض ما استحق به المؤمنون هذا النعيم فقال: ومَنْ أحسن... إلخ: أى لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيد اللَّه وطاعته وعمل صالحًا ليصدق عمله دعوته، وقال مبتهجًا بالإسلام وفرحا به: إننى من المسلمين. وبعدما بيَّن محاسن الأعمال الجارية بين العبد وربه. أراد أن يبين محاسنها الجارية بين العباد بعضهم مع بعض ليرغب نبيه ﷺ فى الصبر على إيذاء المشركين فقال: ولا تستوى... إلخ: أى لا تستوى الفعلة الحسنة مع الفعلة السيئة فى نظر العقل ولا فى حكم اللَّه. أى فلا تستوى دعوتك أيها النبى لهم إلى سعادتهم مع سفاهتهم وغلظتهم. فادفع سفاهتهم بالفعلة التى هى أحسن الطرق. أى فادفع الغضب بالصبر، والسفاهة بالحلم، والإساءة بالعفو، ثم بيَّن ذلك بقوله: فإذا الذى بينك وبينه عداوة... إلخ: أى أنك إذا فعلت ذلك انقلب سليم الطبع منهم الذى كان يكرهك إلى صديق حميم لك طول حياته كأنه لم تسبق منه لك عداوة. وما يعطى هذه المزية منه تعالى إلا الصابرون على تحمل المكاره ولا يعطاها إلا ذو النصيب العظيم من السعادة فى الدنيا والآخرة. ثم أرشد سبحانه إلى ما فيه سد الباب على الشيطان فقال: (وإما ينزغنك)... إلخ: أى وإن حاول الشيطان ليغريك بخلاف ما نصحك به ربك، فاستعذ باللَّه من كيده فسينقذك من شره؛ لأنه سبحانه سميع لقولك عليم بإخلاصك.

ولما كان بعض قبائل العرب خصوصًا فى شرق العراق يعبدون الكواكب، انظر ما تقدم فى شرح الآية (١٧) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، لما كان هذا أراد سبحانه أن يبين أن هذه الكواكب وما ترتب عليها من آثار خلقها الله سبحانه دالة على وحدانيته وقدرته فقال: ومن آياته... إلخ أى ومن أدلة وجوده ووحدانيته وقدرته أنه هو الذى نظم تعاقب الليل والنهار. وسير الشمس والقمر بحساب دقيق فلا تسجدوا لهما فإنهما مخلوقان وإن كثرت منافعهما... إلخ.

وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ(١) وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ(٢) ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ(٣) أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً(٤) فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا(٥) لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا(٦) يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ(٧) ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ(٨) عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ(٩) مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

المفردات: ﴿فالذين عند ربك﴾: المراد عندية منزلة وكرامة. وهم الملائكة وليست عندية مكان، انظر الآية (٥٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٨.

﴿لا يسأمون﴾: أى لا يملون. وهنا يسجد القارئ إذا كان على طهارة. وهذه السجدة المعروفة بسجدة التلاوة.

﴿خاشعة﴾: المراد: يابسة قحلة.

﴿اهتزت وربت﴾: تقدم فى الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤.

﴿أحياها﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٣.

﴿يلحدون﴾: المراد يحرفون، انظر الآية (١٨٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

﴿الذكر﴾: هو القرآن، انظر آيتى (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨ و(٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١.

﴿عزيز﴾: أى منيع لا يستطيع أحد أن ينال منه مطعنًا.

﴿حميد﴾: أى محمود على كل حال.

المعنى: لا تسجدوا للشمس ولا للقمر كما كان يفعل أهل بلقيس، انظر الآية (٢٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٧. واسجدوا للَّه الذى خلق تلك الآيات الأربع إن كنتم لا تعبدون غيره كما تزعمون، فلا تخضعوا لغيره، وكانوا يدعون أنهم موحدون وأن هذه الأشياء تقربهم إلى

(١) بالليل. (٢) لا يسأمون. (٣) آياته.
(٤) خاشعة. (٥) آياتنا. (٦) آمنا.
(٧) القيامة. (٨) لكتاب. (٩) الباطل.

الله. ولم يعلموا أن هذا هو الشرك بعينه، فإن استكبر هؤلاء المشركون عن عبادته وحده فاتركهم أيها النبى وشأنهم. فإن الملائكة الذين هم أكرم منهم يسبحون له دائمًا، ولا يملون أبدًا.

وبعدما بيَّن سبحانه أدلة وحدانيته وقدرته فى العالم العلوى أراد أن يبين بعضها فى العالم الأرضى فقال: ﴿ومن آياته﴾... إلخ: أى ومن أدلة قدرته على كل شىء خصوصًا بعث الخلق أنك أيها الناظر ترى الأرض يابسة فإذا أنزلنا عليها الماء من مطر أو غيره اهتزت بالنبات وانتفخت إن الذى يحيى هذه الأرض ويخرج منها نباتًا، واللهُ لقادر على إحياء الموتى من قبورهم لأنه على كل شىء قدير لا يعجزه شىء.

ثم هدد الكفار الذين يطعنون فى هذه الآيات فقال: إن الذين يلحدون... إلخ: أى أن الكفار الذين ينحرفون عن الصواب طاعنين فى آياتنا لا يخفون علينا. فسنجازيهم أشد الجزاء.

ثم بيَّن سبحانه ما سيجازون به مقرونًا بجزاء المؤمنين لعلهم يتنبهون فقال: ﴿أفمن يلقى﴾... إلخ: أى هل اختلت العقول حتى جهل الناس أى الرجلين خير عاقبة. مَنْ مصيره أن يلقى فى النار، أم مَنْ يأتى آمنا يوم القيامة لأنه سيدخل الجنة؟

ثم هدد كفار مكة فقال: (اعملوا ما شئتم) أى فلن تضروا إلا أنفسكم؛ لأنه سبحانه بما تعملون بصير. وسيجازيكم على كل صغيرة وكبيرة. ثم بيَّن سبحانه لنبيه أن هؤلاء الكفار معاندون فقال: ﴿إن الذين كفروا ....﴾ إلخ: خبر إن فى هذه الآية مقدر مفهوم من سياق الكلام. والمراد: إن هؤلاء الكفار المكذبين بالقرآن لما جاءهم، سيعذبون على كفرهم هذا أشد العذاب، وكيف لا يكون ذلك والحال أن هذا الكتاب حق، وهو كتاب منيع.

ثم بيَّن سبحانه مناعته بأنه لا يأتيه الباطل من أية جهة من جهاته، وهو منزل من إله بالغ الحكمة فى أعماله، محمود على كل حال على نعمه التى منها هذا القرآن الذى فيه شفاء من أمراض الصدور.

ثم شرع سبحانه فى تسلية رسوله على ما يصيبه من إيذاء المشركين فقال: ﴿ما يقال لك﴾... إلخ: أى ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال الكفار أمثالهم لإخوانك الرسل قبلك، انظر الآية (١٨٤) من سورة آل عمران صفحة ٩٣، والآية (٥٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥ فلا تحزن لأن ربك صاحب مغفرة للمؤمنين على ما قد يحصل منهم.

وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ[1] قُرْءَانًا[2] أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ[3] ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[4] هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا[5] مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ[6] فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا[7] فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ[8] مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى[9] قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ[10] مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ[11]

المفردات: ﴿أعجميا﴾: أى بلغة العجم، نسبة إلى (أعجم) وهو مَنْ فى لسانه (عجمة) بضم فسكون. وهى خفاء الكلام.

﴿لولا فصلت آياته﴾: ﴿لولا﴾ حرف يفيد طلب حصول ما بعده كما تقدم المراد منه فى الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

﴿فصلت آياته﴾: أى بينت بلسان العرب حتى نفهمها.

﴿ءَ أعجمى﴾: الهمزة الأولى للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى مع التعجب. فمرادهم هل يصح أن يكون الكتاب أعجميًا والمنزل عليه عربيًا؟ فكيف يجتمعان.

﴿وقر﴾: أى صمم، حيث كانوا يكرهون سماع القرآن ولا يصغون لنصائح الرسول ﷺ، كما كان يفعل قوم نوح عليه السلام، انظر من الآية (٥) إلى الآية (٨) من سورة نوح صفحة ٧٦٨.

(١) جعلناه.
(٢) قرآنا.
(٣) آياته.
(٤) آمنوا.
(٥) آتينا.
(٦) الكتاب.
(٧) صالحا.
(٨) ثمرات.
(٩) شركائى.
(١٠) آذناك.
(١١) يسأم.

﴿عَمىً﴾: مصدر عَمِى بفتح فكسر تقول العرب عمى فلان عمى وعماء أى صار لا يبصر،

والمراد: أن القرآن ثقيل عليهم سماعه كثقل العمى فلذا ينفرون من سماعه، انظر الآية (٢٦) السابقة من هذه السورة صفحة ٦٣٢، والآية (٤٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠، والآية (٤٥) من سورة الزمر صفحة ٦١٢ .

﴿ينادون من مكان بعيد﴾: أى فصاروا كالرجل الذى يناديه آخر من مكان بعيد جدا، فإنه لا يسمع صوته ولا يرى شبحه.

﴿الكتاب﴾: هنا هو التوراة.

﴿فاختلف فيه﴾: أى أوّله كل فريق على حسب شهوته، انظر الآية (١١٠) من سورة هود صفحة ٣٠٠ .

﴿كلمة سبقت...﴾ إلخ: هى وعده سبحانه بتأخير حسابهم إلى يوم القيامة.

﴿لقضى بينهم﴾: أى لحكم بينهم وبين المؤمنين فى الدنيا بإهلاكهم ونجاة المؤمنين.

﴿مريب﴾: أى موقع فى الريبة وهى الشك الشديد الموجب للحيرة.

﴿وما ربك بظلام﴾: المراد ليس الله بصاحب ظلم ولو قليلاً، انظر الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧ . والباء للنص على عموم النفى.

﴿أكمامها﴾: جمع كم بكسر أوله وهو الغطاء الذى يكون على الثمرة قبل ظهورها.

﴿آذناك﴾: أى اعلمناك والمراد أقررنا.

﴿ما منا من شهيد﴾: ﴿شهيد﴾ أى: شاهد، و﴿من﴾ للنص على عموم النفى، والمراد: ليس منا مَنْ يشهد فى هذا اليوم على أن لك شريكًا.

﴿ضل عنهم﴾: أى غاب عنهم.

﴿محيص﴾: أى مهرب. تقول العرب حاص فلان يحيص إذا هرب.

﴿لا يسأم﴾: أى لا يمل.

المعنى: إن ربك أيها النبى لذو مغفرة للمؤمنين، وذو عقاب شديد الألم للكافرين. وكان كفار قريش يتفننون فى وضع العراقيل فى سبيل الدعوة المحمدية.

فتارة يقولون: لو كان محمد صادقًا لجاء بكتابه دفعة واحدة كما جاء موسى وعيسى، انظر الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤، والآية (٤٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤ وتارة يقولون نحن على استعداد للإيمان بك إذا صعدت للسماء أمامنا وجئتنا بكتاب نقرؤه، انظر الآية (٩٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧ . فجاء الرد بما فضح نياتهم فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣ .

وتارة يقولون: لو كان محمد صادقًا لأعطاه الله كتابا بلغة الكتب السابقة. ولما كان كل ماعدا العرب يسمون عجمًا، كما تقدم فى الآية (١٩٨) وما بعدها من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢، رد سبحانه عليهم بما يبين أنهم كاذبون معاندون فقال: (ولو جعلناه قرآنا)... إلخ: أى ولو جعلنا هذا الكتاب الذى أنزل إليك مقروءًا بلغة العجم لقال كفار قريش هلا بينت آياته وما فيها من أحكام بلغة العرب حتى نفهمه. ولقالوا منكرين بصورة المتعجبين هل يصح أن يكون الكتاب أعجميًا والمنزل عليه عربيًا؟

ثم بين سبحانه حال القرآن بالنسبة للمؤمنين والكافرين فقال: قل أيها النبى لهم هذا القرآن هو بالنسبة للذين آمنوا هدى من الضلال وشفاء لما فى الصدور من الشك والحقد وغيرهما.

أما الذين لا يؤمنون بالله ولا برسله فإن الشيطان وضع فى آذانهم صمما فلا يسمعون حجج القرآن ومواعظه، ويصير عليهم كالعمى يكرهونه وينفرون من سماعه خوف أن يؤثر فيهم بقوة أسلوبه، وسطوة حججه، حتى صار حالهم كحال الصم المقبلين على خطر، ويناديهم مرشدهم من مكان بعيد لينقذهم فلا يسمعون نداءه، فمثل هؤلاء مصيرهم الهلاك المحتوم؛ انظر فى ذلك كله الآية (٨٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥.

ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار ليسوا وحدهم هم الذين عملوا هذا المنكر فقال: (ولقد آتينا موسى)... إلخ: أى أرسلناه وآتيناه التوراة فاختلفت أمته فيها تبعًا لاختلاف أهوائهم.

فمنهم مَنْ صدق بها ومنهم مَنْ كذب، ولولا كلمة سبقت من ربك أيها النبى بتأخير عذاب الإفناء عن قومك لقضى سبحانه بينهم وبينكم بإهلاك المكذبين فى الدنيا ونجاة المؤمنين، انظر الآية (٤٦) من سورة القمر صفحتى ٧٠٨،٧٠٧، وإن هؤلاء الكفار والله لغارقون فى شك شديد فى هذا القرآن فلا يؤمنون أبدا، انظر الآية (٦) من سورة البقرة صفحة ٤ .

ثم بين سبحانه أنه سيجازى كلا بعمله فقال: (مَنْ عمل صالحًا)... إلخ: أى مَنْ عمل صالحا فى الدنيا ففائدة عمله ترجع لنفسه. ومَنْ أساء العمل فوبال إساءته عائد على نفسه. ولا يظلم ربك أحدا من عباده.

ولما تضمن الكلام السابق أن الجزاء الأوفى سيكون يوم القيامة وكانوا أكثروا من السؤال عن موعدها قال سبحانه: (إليه يرد)... إلخ: أى إليه سبحانه وحده يرد علم وقت القيامة. وليس عجيبًا أن يختص سبحانه بعلمها؛ لأنه اختص بأشياء كثيرة تشاهدونها منها أنه لا تبرز ثمرة مهما كانت من غطائها المغلفة به، وما تحمل أنثى الحيوان ولا تضع ولدها إلا بعلم منه تعالى بزمن ذلك وحاله التى يكون عليها.

ثم ذكر بعض ما سيلاقيه الكفار فى يوم القيامة فقال سبحانه (ويوم يناديهم)... إلخ: أى واذكر أيها النبى لكفار قومك يوم يناديهم ربهم فى المحشر تهكمًا بهم على مسمع من الخلائق قائلاً لهم: أين شركائى الذين تقربتم بهم إلىَّ وأشركتموهم معى فى التعظيم والطاعة قالوا: (أعلمناك) يا رب أنه ليس أحد منا يشهد اليوم أن لك شريكًا.

يريدون بذلك الاعتراف بالخطأ. وغاب عنهم آلهتهم التى كانوا يدعونها فى الدنيا لتشفع لهم فى قضاء حوائجهم وتقربهم إلى الله حسب معتقداتهم الخاطئة، انظر الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، وأيقنوا أنهم لا مفر لهم من جهنم.

وبعدما بيَّن سبحانه أنهم ينكرون ما كانوا يعترفون به، أراد أن يبين أن هذا هو شأن الإنسان الكافر بدليل ما سيأتى من إنكاره البعث فقال سبحانه: لا يمل... إلخ.

ٱلْإِنسَٰنُ(١) مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ(٢) رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ(٣) أَعْرَضَ وَنَـَٔا(٤) بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ(٥) إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا(٦) فِى ٱلْءَافَاقِ(٧) وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

المفردات: ﴿الإنسان﴾: المراد به هنا: الكافر بدليل إنكاره للساعة أى القيامة.

﴿دعاء﴾: أى طلب.

﴿الخير﴾: المراد به هنا المال الكثير والصحة والجاه، انظر شرح الآية (٣٢) من سورة ص صفحة ٦٠١ .

﴿الشر﴾: كالفقر والمرض.

﴿يئوس﴾: أى شديد اليأس من رحمة ربه تعالى، انظر الآية (٨٧) من سورة يوسف صفحة ٣١٦، والآية (٨٣) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٥، ٣٧٦ .

﴿قنوط﴾: أى ظاهر عليه آثار اليأس من الحزن والانكسار.

﴿أذقناه﴾: المراد أعطيناه. ﴿رحمة﴾: كالغنى والصحة. ﴿ضراء﴾: أى شدة وبلاء. ﴿هذا لى﴾: أى هذا حقى استحقه بمجهودى لا فضل لأحد فيه، انظر الآية (٤٩) من سورة الزمر صفحة ٦١٣ .

﴿ولئن رجعت إلى ربى﴾: أى بالبعث على سبيل الفرض، كما يزعم الرسول، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ .

﴿الحسنى﴾: أى نعيم الجنة. ﴿غليظ﴾: المراد كثير شديد. ﴿أعرض﴾ المراد: انصرف عن شكر المنعم، وأهمله.

﴿ونأى بجانبه﴾: نأى: أى بعد؛ وأصل نأى بجانبه: أبعد جانبه عن المنعم المتفضل عليه فهو تأكيد للإعراض مفيد للتكبر والتعاظم، انظر شرح الآية (٨٣) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٥، ٣٧٦ .

(١) الإنسان. (٢) أذقناه. (٣) الإنسان. (٤) نأى.
(٥) أرأيتم. (٦) آياتنا. (٧) الآفاق.

﴿عريض﴾: المراد كثير مستمر. ﴿أرأيتم﴾: المراد أخبرونى.

﴿مَنْ أضل﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام إنكارى، يفيد النفى أى لا أحد أشد ضلالاً... إلخ.

﴿شقاق بعيد﴾: أى خلاف لا يمكن تلافيه، انظر الآية (١٧٦) من سورة البقرة صفحة ٣٣ والآية (٥٣) من سورة الحج صفحة ٤٤١ . ﴿آياتنا﴾: أى دلائل قدرتنا وصدق كتابنا.

﴿الآفاق﴾: جمع أفق وهو الناحية والمراد نواحى السموات والأرض وما فيهما من شمس وقمر ونجوم ونظام سيرها، وما يصيب به الأشرار من الصواعق والرياح والزلازل المهلكة، ومن نبات وأشجار، انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١.

﴿وفى أنفسهم﴾: من عجيب الصنع وبديع الحكمة؛ وما حل بهم من قتل وأسر يوم بدر وما بعده، انظر آيتى (٢٠، ٢١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣، والآيات (٥،٦،٧) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢ .

﴿أولم يكف بربك﴾:الهمزة للاستفهام المفيد للتوبيخ، والواو عاطفة على مقدر مفهوم من السياق؛ والباء داخلة على فاعل ﴿يكف﴾ لتأكيد ثبوت الفعل للفاعل.

﴿أنه على كل شىء﴾: بدل من الفاعل، الذى هو ﴿ربك﴾. ﴿شهيد﴾: أى مطلع. والأصل هل غفلوا ولم يكفهم رادعًا لهم عن الكفر والمعاصى، إن ربك مطلع على كل شىء ومنه أعمالهم وسيجازيهم عليها.

﴿ألا إنهم فى مرية﴾: ﴿ألا﴾ حرف يراد به تنبيه السامع لأهمية ما يذكر بعده. ﴿مرية﴾: أى شك.

﴿من لقاء ربهم﴾: أى بالبعث بعد الموت. ﴿محيط﴾: أى عالم علمًا شاملاً.

المعنى: لا يمل الإنسان الذى لا هم له إلا الدنيا من سؤال ربه كثرة المال والصحة والجاه وغير ذلك. وإن مسه فقر أو شدة فهو شديد اليأس والقنوط من رحمة ربه؛ انظر الآية (٨٧) من سورة يوسف صفحة ٣١٦ . ووالله لئن أعطيناه غنى وصحة من فضلنا بعد شدة وبلاء حلا به ليعرضن عن شكرنا ويقول هذا الخير جاءنى بعملى واستحقاقى. وينهمك فى لذاته، لايراعى فضيلة ولا رحمة، ظنًا منه أن القيامة لا تكون أبدًا.

ثم يقول: وعلى فرض أنها ستكون فإن لى عند ربى كل كرامة؛ لأنه أكرمنى فى الدنيا عن استحقاق فكذا يكون الحال فى الآخرة. ثم بيَّن سبحانه أنه مخطئ فى زعمه فقال: فلننبئن

(الذين)... إلخ: أى وإذا كان هذا حالهم فوعزتى لنخبرن هؤلاء الكافرين يوم يرجعون إلينا بكل أعمالهم من المعاصى والكفر ولنذيقنهم من عذاب شديد.

ثم بيَّن سبحانه شأنا من شئون الإنسان مطلقا غير النوع المتقدم الخاص بالكفار فقال: (وإذا أنعمنا)... إلخ. أى من الشأن الغالب فى الإنسان أننا إذا أنعمنا عليه بسعة الرزق والصحة والجاه أعرض عما دعونا إليه من الطاعة والشكر، واستكبر عن الخضوع لأمرنا كما فى آيتى (٦، ٧) من سورة العلق صفحة ٨١٤، وإذا أصابه شر كان على العكس من ذلك فهو يطيل الدعاء إلى اللّٰه ليكشف عنه ما حل به، انظر الآية (١٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٧ .

ثم لفت سبحانه نظر الطاعنين فى القرآن وفى كونه من عند اللّٰه فقال: قل أرأيتم... إلخ: أى قل أيها الرسول لكفار قومك أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند اللّٰه ومع ذلك كفرتم به فهل هناك أحد أشد ضلالا منكم لأنكم فى خصام مع الحق شديد لا يمكن أن تجتمعا؟

ولما كان ما سبق يفيد الحث على التأمل والتيقظ أراد سبحانه أن يبين أنه سيزيد أدلة الحق زمنًا فزمنا، ويجلى بعض ما استتر من أسرار كونه شيئًا فشيئًا، حتى يتنبه مَنْ فيه بقية خير وتأخذ البراهين بتلابيب الجاحد المعاند حتى لا يبقى له منفذ شبهة، وبهذا يزداد عذابه إذا استكبر وجمد على عناده، فقال سنريهم.. إلخ: أى سنرى هؤلاء المشركين أدلة قدرتنا، وصدق كتابنا فيما أخبر به عن الماضى والمستقبل. فى نواحى العالم وفى أنفسهم مما سبقت الإشارة إليه، انظر الآيات (٢،٣،٤) من سورة الروم صفحتى ٥٣٠، ٥٣١، و(٣) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨، و(٢٧) من نفس السورة صفحة ٦٨٣ ، و(٤٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٧ . وذلك حتى يتجلى لهم أن هذا القرآن وما فيه حق.

ثم وبخهم على تفريطهم فى إهمال النظر وعنادهم المحوج إلى تتابع الآيات وعدم اكتفائهم بإخباره سبحانه فى كتابه وجهلهم بما يليق به سبحانه فقال:

(أولم يكف)... إلخ. أى هل غفلوا ولم يكفهم زاجرا أن ربك مطلع على كل شىء من أعمالهم وسيحاسبهم عليها؟ ثم بيَّن الباعث لهم على العناد والاستهتار فقال:

(ألا إنهم)... إلخ . أى تنبه أيها السامع إلى أن هؤلاء الناس فى شك من البعث يوم القيامة. ألا إن اللّٰه محيط علما بكل شىء ومنه أعمالهم، وسيجازيهم عليها. واللّٰه تعالى أعلم.

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

سميت بذلك لما فى الآية (٣٨) الآتية صفحة ٦٤٤.

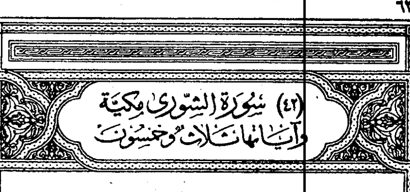
المفردات: ﴿حم. عسق﴾: تنطق هكذا. حَا – ميمْ- عينْ- سينْ- قافْ. بسكون الآخر فى الجميع؛ وتقدم المراد من مثل هذه الحروف فى أول سورة البقرة.

﴿العزيز﴾: الغالب القهار.

﴿العلى﴾: الرفيع المنزلة فوق كل خلقه.

﴿تكاد﴾: أى تقرب.

﴿يتفطرن﴾: أى يتشققن من شدة جرم من يدعى أن لله شريكا أو ولدًا، انظر ما سيأتى فى الآية (٦) من هذه السورة، والآيات من (٨٨ إلى ٩٢) من سورة مريم صفحة ٤٠٥.


(٤٢) سُورَةُ الشُّورَىٰ مَكِّيَّة وآياتها ثلاث وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ[1] ﴿١﴾ عٓسٓقٓ[2] ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[3]
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ[4]
يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[5] يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ
عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ قُرْءَانًا[6] عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا

﴿والملائكة﴾: جملة حالية جاءت لبيان الفرق الشاسع بين عباد الله المخلصين والفاجرين.

﴿ألا﴾: حرف يراد به تنبيه السامع لما بعده.

﴿أولياء﴾: المراد: معبودات يوالونها بالخضوع لها، أو التقرب إليها.

﴿حفيظ عليهم﴾: أى رقيب على أعمالهم.

﴿بوكيل﴾: الباء للنص على عموم نفى ما بعدها عما قبلها، أى ليس موكولا إليك جبرهم على الهداية، إنما أنت منذر.

(١) حا ميم بسكون الآخر.
(٢) عين سين قاف بسكون الآخر فى كل كلمة.
(٣، ٤) السموات.
(٥) الملائكة.
(٦) قرآنا.

﴿لتنذر﴾: أى لتحذر من غضب الله.

﴿أم القرى﴾: هى مكة، انظر الآية (٩٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ والآية (٥٩) من سورة القصص صفحة ٥١٥.

المعنى: ﴿حم. عسق﴾ تقدم المراد منها أول سورة البقرة. مثل ما فى هذه السورة من المقاصد العامة عند كل رسول. وهى التوحيد. والرسالة واليوم الآخر. ومكارم الأخلاق. يوحى بها إليك وبغيرها من القرآن كما أوحى بذلك أيضًا إلى الأنبياء قبلك الله العزيز فى ملكه. الحكيم فى صنعه. انظر هذه المبادئ وأنها فى الكتب السابقة فى سورة الأعلى صفحة ٨٠٣ و٨٠٤ أما فروع الشرائع فلكل نبى شرع يناسب عصره. انظر ما سبق فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦.

ثم بيَّن سبحانه عظمته تمهيدًا لتسفيه الكفار على جرمهم فقال: له ما فى السموات.. إلخ، أى أن كل ما فى السموات وما فى الأرض تحت قبضته إيجادًا وتصرفًا وإعدامًا، وهو المتعالى فوق الجميع. العظيم عن أن يماثله أحد. وتكاد السموات يتمزقن وتسقط كل واحدة فوق التى تحتها من هول قول المشركين اتخذ الله ولدًا أو أن له شريكًا.

أما الملائكة الذين هم أعرف المخلوقات بربهم فينزهونه سبحانه عما لا يليق به حامدين فضله على العالم. ويستغفرون لمن فى الأرض من المؤمنين، انظر شرح الآية (٧) من سورة غافر صفحة ٦١٨. وفيه حث وترغيب للمستعد من الكفار للإيمان. والله يستجيب دعاء الملائكة لأنه غفور رحيم. والذين اتخذوا غير الله شركاء يوالونهم بالخضوع لهم.

الله سبحانه رقيب على أحوالهم. وسيجازيهم بما يستحقون. أما أنت أيها النبى فلست مطالبًا إلا بإبلاغهم ما أمرت به. ولست مكلفًا بأن تجبرهم على الهداية. ومثل هذا الإيحاء البديع المشار إليه فيما سبق أوحينا إليك قرآنًا بلسان قومك، انظر الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩ لتحذر أهل مكة ومن حولها من جميع الخلق من عذاب الله إذا خالفوا أمره.

وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ
فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن
يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ
الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾
وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ
رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ
أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾
* شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

المفردات: ﴿يوم الجمع﴾: هو يوم القيامة، انظر الآية (٩) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦.

﴿لا ريب﴾: أى لاشك.

﴿ولو شاء الله﴾.. إلخ: انظر شرح الآية (١١٨) من سورة هود صفحة ٣٠١.

﴿ومن ولى ولا نصير﴾: الولى هو الصديق والنصير هو المعين، كما تقدم فى الآية (١٠٧) من سورة البقرة صفحة ٢١.

﴿أم اتخذوا﴾: (أم) حرف متضمن معنى حرفين (بل) التى تفيد الانتقال من كلام إلى آخر. و(همزة الاستفهام الإنكارى) المفيد للنفى، أى لم يتخذوا أولياء غيره سبحانه ينتفعون بهم، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢.

﴿أنيب﴾: أى أرجع.

﴿فاطر السموات﴾: أى خالق على غير مثال سابق، كما تقدم فى الآية الأولى من سورة فاطر صفحة ٥٧١.

﴿من أنفسكم أزواجًا﴾: أى من نوعكم كما تقدم فى الآية (٢١) من سورة الروم صفحة ٥٣٣.

---

(١) واحدة.
(٢) الظالمون.
(٣) السموات.
(٤) أزواجا.
(٥) الأنعام.
(٦) أزواجا.
(٧) السموات.

﴿الأنعام﴾: تقدمت فى الآيات من (١٤٢ إلى ١٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٨٦، ١٨٧، وخصها بالذكر لأن أغلب انتفاعهم بها.

﴿يذرؤكم﴾: أى يخلقكم بكثرة، تقدم فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. وجاء بضمير الخطاب للعاقل تغليبًا للإنسان على الأنعام.

﴿فيه﴾: أى فى هذا الجعل، كأن الجعل منبع للذرء.

﴿ليس كمثله شىء﴾: تقول العرب إذا أرادت المبالغة فى نفى البخل مثلا عن رجل: (مثلك لا يبخل) أى أنت لا تبخل أبدا. والمراد هنا: ليس لله سبحانه مثيل قطعًا. ونظير ذلك ما فى الآية (٤) من سورة الإخلاص صفحة ٨٢٦.

﴿مقاليد﴾: أى مفاتيح، كما تقدم فى الآية (٦٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

﴿ويقدر﴾: أى ويضيق، انظر الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧.

﴿شرع لكم من الدين﴾: هذا تفصيل لما أجمله سبحانه فى الآية (٣) أول هذه السورة.

﴿ما وصى به نوحا﴾: بدأ سبحانه بـ (نوحا) عليه السلام لأنه أول الرسل كما فى حديث الشفاعة الذى رواه البخارى، إذ جاء فيه.. اذهبوا إلى نوح فإنه أول الرسل.

﴿أوحينا إليك﴾: التفت سبحانه من خطاب الأمة إلى خطابه ﷺ. ومن ضمير الغائب فى قوله ﴿وصَّى﴾ إلى ضمير المتكلم فى قوله (أوحينا). ولم يقل (والذى أوحى إليك). وكذا جاء بنبينا ﷺ فى الوسط مع أنه آخر الأنبياء، كل هذا لإظهار العناية به ﷺ؛ لأنه صاحب الشريعة الخالدة، وهذا هو السبب فى أنه سبحانه عبر فى جانبه ﷺ بالوحى.. وفى جانب غيره بالوصية؛ لأن الإيحاء فى هذا المقام لا يكون إلا لرسول. ففى التصريح به إشعار بتسفيه كفار مكة الذين أنكروا ذلك.

المعنى: لتخوف كل من فى الأرض من المكلفين من عذاب الله فى الدنيا، وكذا تخوفهم من عذاب الآخرة يوم يجمعهم سبحانه للحساب، والجزاء الذى هو آت لا شك فيه. وستكون عاقبة هذا الحساب أن فريقًا منهم يدخلون الجنة، وفريقًا منهم فى نار الله الموقدة. انظر الآية (١٠٣) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٩٩. ولما كان ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه.

حزينا لكفرهم.. أراد سبحانه أن يبين له ولغيره أن نظامه الذى اختاره حسب حكمته فى خلقه أن يكونوا أحرارا يختارون ما يشاءون فقال: ﴿ولو شاء..﴾ إلخ. أى لو شاء أن يجبر الناس على دين واحد وهو الإيمان كما تحب أيها النبى لكانوا جميعًا أمة واحدة على دين واحد.. وحينئذ لا يكون هناك طائع وعاص، ولا جنة ولا نار. ولكنه سبحانه شاء أن يكونوا أحرارا. فمن اختار الإيمان أدخله فى رحمته، فيتنعم بالجنة. ومَنْ ظلم نفسه باختيار الكفر والمعاصى يدخله جهنم. وليس له صديق يشفع له. ولا ناصر يدفع عنه العذاب بقوته، ثم بيَّن سبحانه سبب اغترار المشركين وتمسكهم بما هم عليه فقال: أم اتخذوا.. إلخ. أى أن هؤلاء المشركين من قومك أيها النبى اتخذوا الأصنام أولياء يدفعون عنهم الشر، والحقيقة أن هذه الأصنام ليست من الولاية فى شىء. وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم أيها النبى الله سبحانه هو الولى القادر على جلب النفع ودفع الضر. وهو وحده الذى يحيى الموتى يوم القيامة؛ لأنه على كل شىء قدير. وكل شىء اختلفتم معنا فيه فمرجع الحكم فيه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بالعدل. ذلكم الذى يفعل ما تقدم هو وحده الله ربى عليه توكلت وإليه أرجع فى أمورى. وهو وحده خالق السموات والأرض وما فيهما على أبدع نظام. وهو الذى خلق لكم من جنسكم أزواجا. وخلق للأنعام من جنسها أزواجًا يكثركم بسبب هذا الجعل بالتوالد. ومَنْ كان هذا وصفه فليس له مثيل مطلقًا، وهو السميع لكل همسة. البصير بالأعمال لا يخفى عليه شىء. له سبحانه تمام التصرف فى السموات والأرض وما فيهما. يوسع الرزق على مَنْ يشاء. ويضيقه على مَنْ يشاء حسب حكمته؛ لأنه عليم بكل شىء من أحوال عباده. حكيم فلا يفعل إلا الصواب. ثم شرع سبحانه فى تفصيل بعض ما أجمله أولا فى قوله: ﴿كذلك يوحى إليك﴾ ..إلخ فقال: شرع لكم.. إلخ.. أى شرع لكم يا أمة محمد من أصول الدين التى لا تختلف فى زمان عن زمان.. ولا فى أمة عن أمة ما وصى به نوحًا عليه السلام وهو الذى أوحيناه إليك يارسول هذه الأمة.

المفردات: ﴿أن أقيموا الدين﴾: هذا بيان لما وصى به وأوحاه. أى هو إقامة الدين، وإقامته المحافظة عليه والتمسك به. ﴿ولا تتفرقوا فيه﴾: أى لا تختلفوا فيه فتأتوا ببعض وتتركوا بعضا.

﴿كبر﴾: أى عظم وشق. ﴿يجتبى﴾: أى يصطفى ويختار

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ(١) وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟
ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ
إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ
بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ(٢) مِنۢ
بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ
كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ(٣) بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ(٤) ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا(٥) وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ(٦) ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ

﴿ينيب﴾: أى يرجع بالتوبة. ﴿وما تفرقوا﴾.. إلخ: أى وما اختلفوا وصاروا شيعا وأحزابا. انظر الآية (٤) من سورة البينة صفحة ٨١٦. ﴿بغيا بينهم﴾: البغى مجاوزة الحد المشروع فى كل شىء. ﴿كلمة﴾: هى وعده سبحانه بإمهالهم. ﴿أجل مسمى﴾: هو يوم القيامة. و(مسمى) أى محدد وقته فى علمه سبحانه وتعالى. ﴿لقضى بينهم﴾: أى بإهلاك المبطلين ونجاة المحقين.

﴿الذين أورثوا الكتاب﴾: المراد بهم: اليهود والنصارى. الذين كانوا فى عهده ﷺ. فالكتاب مراد به التوراة والإنجيل، انظر الآية (٦٦) من سورة المائدة صفحة ١٥٠. ﴿مريب﴾: أى موقع فى الريبة وهى شدة الشك الموجب للحيرة. ﴿استقم كما أمرت﴾: المراد: داوم واثبت على الاستقامة كما تقدم فى الآية (١١٢) من سورة هود صفحتى ٣٠٠، ٣٠١. ﴿كتاب﴾: المراد جنس كتاب، فيشمل كل الكتب المنزلة.

﴿لنا أعمالنا..﴾ إلخ أنظر شرح الآية (٤١) من سورة يونس صفحة ٢٧٣.

﴿لاحجة﴾: أى لا محاجة ولا مجادلة. ﴿يجمع بيننا﴾.. إلخ: انظر شرح الآية (٢٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦. ﴿يحاجون فى الله﴾: أى يجادلون ويخاصمون فى دينه.

﴿داحضة﴾: أى باطلة.

المعنى: شرع لكم يا أمة محمد من الدين ما وصى به نوحًا ومن بعده من أصحاب الشرائع وأولى العزم من مشهورى الأنبياء. وهذا الذى شرعه ووصى به هو إقامة دين الله الحق بالمواظبة عليه ودفع الزيغ عنه وعدم التفرق فيه، بأن يؤمن به بعض ويكفر به بعض. وبعد ما

(١) إبراهيم. (٢) الكتاب. (٣) آمنت. (٤) كتاب. (٥) أعمالنا. (٦) أعمالكم.

بيَّن سبحانه أن دين الأنبياء جميعًا هو التوحيد أراد أن يسفه المشركين على إنكاره فقال: كبر.. إلخ، أى شق على المشركين ما تدعوهم إليه من التوحيد وترك الشرك لأنهم توارثوا ذلك عن الآباء والأجداد، فجمدت قلوبهم عليه. ثم أراد سبحانه أن يبين لرسوله أن من هؤلاء المشركين من سيستيقظ ضميره فيؤمن فقال: الله يجتبى.. إلخ. أى أنه سبحانه يختار ضاما إلى أوليائه من يشاء اختياره لسلامة فطرته. ولذا قال: ويهدى إليه.. إلخ. أى ويهدى إلى سبيل مرضاته من يرجع إليه سبحانه بالتوبة ويترك ماكان عليه آباؤه. وبعدما بيَّن أحوال أهل الشرك أراد أن يبين حال أهل الأديان السابقة الذين نهاهم أنبياؤهم عن التفرق كما سبق فقال: وما تفرق.. إلخ، أى وما تفرق أهل الأديان السابقة فى الدين بأن جعلوه تبعًا لأهوائهم وشهواتهم، انظر ذلك فى الآية (١١٠) من سورة هود صفحة ٣٠٠، وفرقوا بين الرسل إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان أنبيائهم بأن التفرق ضلال. وقد فعلوا ذلك بغيًا وحسدًا وطلبًا للرياسة، فلجت كل طائفة فى طريقها مع أن دين الله واحد عند كل الرسل. ولولا الكلمة السابقة من ربك بتأخير جزائهم إلى يوم القيامة لعجل لهم العقوبة فى الدنيا، ثم ذكر تفرق أهل الكتاب سابقا أثر فى أولادهم من اليهود والنصارى الذين هم فى عصره ﷺ فقال: وإن الذين أورثوا.. إلخ، أى وإن خلفهم الذين ورثوا التوراة والإنجيل والله لفى شك من كتابهم شديد، حيث لم يؤمنوا به على وجهه الصحيح. ولو آمنوا حقًا لعلموا أن محمدا رسول الله صادق فيما يدعو إليه. فلأجل ما أحدثه هؤلاء من التفرق فى دين الله اجتهد فى الدعوة أنت أيها النبى إلى الاتفاق على ملة إبراهيم، وداوم أنت ومن معك على التوحيد كما أمرت. ولا تتبع أهواء الذين شكوا فى الحق. وقل لهم إنى صدقت كل الكتب المنزلة لا أكذب شيئًا منها، انظر الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢، وقل لهم أمرنى ربى بالعدل بينكم فى الحكم إذا تخاصمتم إلىَّ. ولا أجور عليكم بما يخالف شرع الله. وأعلم أنا ومَنْ معى من المؤمنين أن ربنا وربكم هو الإله الحق. ونقر بأن جزاء أعمالنا قاصر علينا. وجزاء أعمالكم قاصر عليكم. لاينتفع أحدنا بحسنات صاحبه ولا تضره سيئاته. وإذا صممتم على العناد. فلا حاجة بيننا وبينكم لأن الحق أصبح واضحًا وسيجمعنا الله يوم القيامة. وإليه المرجع فى النهاية فيقضى بيننا وبينكم بعدله. والذين يجادلون فى دين الله من بعد ما استجاب له المخلصون لظهور براهينه وآمنوا به. هؤلاء المجادلون ما يزعمونه حجة لهم هو وهم.

عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ (١) بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ (٢) مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ
أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ (٣) بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ
ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ (٤) نَزِدْ لَهُۥ فِى
حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ (٥) شَرَعُوا۟ لَهُم
مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ
بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٦) لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٧)
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ (٨)

المفردات: ﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب الشامل لكل الكتب المنزلة.

﴿الميزان﴾: المراد به هنا: القواعد والضوابط التى جاءت فى الكتب السماوية الموضحة للحد الفاصل بين الحق والباطل. والمراد بإنزال الميزان الأمر به، والإرشاد للعمل به، انظر مثلها فى الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣. ﴿يستعجل بها﴾: انظر شرح الآية (٥١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١ والآية (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠ والآية (١٢) وما بعدها من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣. ﴿مشفقون منها﴾: أى خائفون من أهوالها فيعملون ما يحفظهم منها، انظر الآية (٦٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١. ﴿ألا﴾: حرف يدل على تنبيه السامع لما يأتى بعده. ﴿يمارون فى الساعة﴾: أى يجادلون وينكرون البعث يوم القيامة. ﴿لطيف بعباده﴾: أى رفيق بهم حيث لم يعجل بعذابهم، ولم يهلكهم جوعا بمعاصيهم. ﴿حرث الآخرة﴾: المراد ثوابها، انظر الآيات من (٢٠٠ إلى ٢٠٢) من سورة البقرة صفحتى ٣٩، ٤٠ و (١٤٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٦. ﴿حرث الدنيا﴾: المراد لذاتها وشهواتها. ﴿أم لهم شركاء..﴾ إلخ: تقدم شرح مثلها تفصيلاً فى الآية (٩) من هذه السورة صفحة ٦٣٩. ﴿كلمة الفصل﴾: هى المشار إليها فى الآية (١٤) المتقدمة.

المعنى: والذين يجادلون فى دين الله بالباطل من اليهود ما يدعون أنه حجة لهم هو خيال باطل لا يقبل عند ربهم، وعليهم غضب من الله فى الدنيا، ولهم عذاب شديد فى الآخرة. ثم بيَّن سبحانه بعض ما تضمنته هذه الكتب تحذيرًا من مخالفتها. فقال: الله الذى أنزل.. إلخ، أى أن الله هو الذى أنزل كتبه على أنبيائه مقترنة بالحق وأنزل فيها الآيات المشتملة على ما

(١) الكتاب. (٢) آمنوا. (٣) ضلال. (٤) الآخرة.
(٥) شركاء. (٦، ٧) الظالمين. (٨) آمنوا.

يبين الحق والباطل ليلتزمها المكلف فى معاملته مع الله ومع خلقه. ثم هدد مَنْ يخالف هذه الكتب بقيام الساعة فقد تفاجئه وهو على معاصيه. فقال: وما يدريك لعل الساعة قريب، أى وأى شىء يعلمك بوقتها، فلعل وقتها قريب منك وأنت لا تشعر، فعليك أن تحافظ على أوامر ربك. ثم سفه مَنْ ينكرون القيامة جهلا منهم فقال: ﴿يستعجل بها﴾..إلخ. أى مع إخبار الله بأنها آتية لا شك فيها، يستعجل بها الكافرون استعجال استهزاء. أما المؤمنون بها فهم خائفون منها؛ لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم عند الحساب. لذلك يجتهدون فى الأعمال الصالحة، لعلمهم أنها حق لابد منها. فاعلم أيها السامع أن الذين يجادلون فى القيامة بالباطل والله لفى ضلال بعيد عن الصواب. ثم بيَّن سبحانه سعة رحمته بعباده فى الدنيا حتى بالعصاة منهم فقال: الله لطيف.. إلخ، أى بار بعباده. يفيض عليهم جميعا صالحهم وفاجرهم. من فضله ما به يحفظ حياتهم، انظر الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧. وبعد علمنا بأنه يرزق الجميع. وأن كل دابة على الله رزقها. نعلم أن قوله: يرزق مَنْ يشاء.. إلخ. معناه يرزق مَنْ يشاء بما يشاء. فيخص واحدًا بنعمة وغيره بغيرها. ويوسع على البعض ويقتر على الآخر، وذلك على حسب حكمته المشار إليها فى الآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. وهو سبحانه القوى على فعل ما يريد، العزيز الغالب على كل شىء. ثم بين سبحانه أن ما قدره من كثرة رزق الفاسق ليس لرضاه عنه، بل قد يكون لزيادة عذابه كما فى الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩ فقال: مَنْ كان يريد.. إلخ أى مَنْ كان يريد بسعيه كسب ثواب الآخرة نبارك له فى ثوابه فنجزيه بالحسنة عشرة أمثالها. ومَنْ كان يريد بسعيه فى الدنيا مجرد لذاتها وشهواتها نؤته منها ما قسمناه له، وليس له فى الآخرة نصيب من خيراتها. انظر الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧. وبعدما بيَّن سبحانه أن الكتب السابقة فيها العدل والحق أراد أن يوبخ قريشًا على اتباعهم لشياطينهم الذين أحلوا لهم ما حرمه الله. وحرموا ما أحله. فقال: بل لم يكن لكفار مكة إلا شياطين أشركوهم مع الله فى التحليل والتحريم. فشرعوا لهم من الدين الباطل ما لم يأذن به الله. انظر شيئًا من ذلك من الآية (١٢١ إلى الآية ١٤٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٢ وما بعدها.

ولولا قضاؤه سبحانه السابق بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لقضى سبحانه بينهم وبينكم بإهلاكهم حالا، أن الظالمين لهم عذاب أليم بسبب ظلمهم الحق وأنفسهم، ثم بيَّن ما سيكون عليه حالهم يوم القيامة فقال: (ترى الظالمين..) إلخ، أى ترى الظالمين أنفسهم بالكفر

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(١) فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ
عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي
يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا(٢) وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(٣) قُل
لَّا أَسْأَلُكُمْ(٤) عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن
يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن
يَشَإِ(٥) اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ(٦) وَيُحِقُّ
الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ(٧) إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ
الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو(٨) عَنِ السَّيِّئَاتِ
وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا(٩) وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ(١٠) وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ(١١) لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ

خائفين أشد الخوف من جزاء ما كسبوه من السيئات. والحال أن هذا الجزاء واقع بهم لامحالة. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ففى الجنات.. إلخ.

المفردات: ﴿فى القربى﴾: (فى) سببية، كما فى قوله ﷺ: (دخلت امرأة النار فى هرة حبستها حتى ماتت). أى دخلت النار بسبب تصرفها السيئ فى هرة؛ و﴿القربى﴾. القرابة.

﴿يقترف﴾: أى يكتسب.

﴿نزد له فيها حسنا﴾: أى نزده فى ثوابها أجرًا حسنا جدا، فتكون الحسنة بعشر أمثالها.

﴿حسنا﴾: المراد ثوابا كبيرا جدا حتى صار كأنه الحسن نفسه، انظر شرح الآية (٨٦) من سورة الكهف صفحتى ٣٩٢، ٣٩٣.

﴿أم يقولون افترى﴾..إلخ: (أم) تقدم معناها فى الآية (٩) من هذه السورة صفحة ٦٣٩.

﴿يختم على قلبك﴾: أى يمنعك من حفظ القرآن. كما فى الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ والآية (٨٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

﴿ويمحُ﴾: أصلها يمحو بالواو. والعرب تسقطها فى مثله تخفيفًا، انظر (ويدع الإنسان) فى الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥؛ و ﴿سندع﴾ فى الآية (١٨) من سورة العلق صفحة ٨١٥، ﴿ويمحُ﴾ ليس معطوفا على ﴿يختم﴾ لأن يمحُ فعل مضارع مرفوع ويختمْ فعل مضارع مجزوم. ﴿بكلماته﴾: المراد بقضائه النافذ عندما يريد شيئاً فإنه يقول له كن فيكون. ﴿عن

(١) الصالحات. (٢) آمنوا. (٣) الصالحات. (٤) أسيالكم. (٥) يشا.
(٦) الباطل. (٧) بكلماتة. (٨) يعفو. (٩) آمنوا. (١٠) الصالحات.
(١١) الكافرون

عباده﴾ ﴿عن﴾ بمعنى ﴿من﴾ لأن مادة القبول تتعدى ﴿بمن﴾ كما فى الآية (١٢٧) من سورة البقرة صفحة ٢٥، و (٢٧) من سورة المائدة صفحة ١٤١. ﴿ويستجيب﴾: استجاب مبالغة فى أجاب. أى يجيبون دعاءه تعالى إلى عمل الخير بسرعة وإخلاص؛ انظر ما تقدم فى الآية (١٦) من هذه السورة صفحتى ٦٤٠، ٦٤١، والآية (٣٨) الآتية من هذه السورة أيضًا صفحة ٦٤٤، والآية (٢٤) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠، والآية (١٠) من سورة غافر صفحتى ٦١٨، ٦١٩، والآية (٣٢) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١.

المعنى : والذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم ربهم أطيب بقاع الجنة لهم فيها ما يشاءون عند ربهم . ذلك النعيم العظيم هو الفضل الكبير من الله. هذا الفضل هو الذى بشر الله تعالى به عباده المؤمنين الصالحين فى الدنيا؛ وقد صدق وعده . وبعد كل هذه العبر والمواعظ استمر كفار قريش على عنادهم وشدة إيذائهم له ﷺ . فقال له سبحانه ﴿قل لاأسألكم﴾ .. إلخ. روى البخارى ومسلم أن ابن عباس فسر هذه الآية بأن رسول الله ﷺ كان له قرابة فى جميع بطون قريش. ولما أرسله ربه كذبوه وآذوه، فأمره سبحانه أنه يقول لهم : ياقوم إن رفضتم الإيمان برسالتى فلا أطلب منكم إلا أن تكفوا إيذاءكم عنى، وتتركونى وشأنى مع غيركم . مراعين بذلك حق القرابة، وصلة الرحم، التى بينى وبينكم فلا تؤذونى ولا يصح أن يكون غيركم من العرب أحفظ لكرامتى منكم؛ ولما كان نبى الله موسى لا قرابة له بفرعون وقومه قال غير ما هنا، انظر الآية (٢١) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧، وحاصل المعنى هنا : لا أطلب منكم أجرًا على تبليغ رسالة ربى إلا أن تدفعوا عنى إيذاءكم مراعاة لحقوق القرابة.

قال الألوسى ردًا على مَنْ قال : المعنى لا أسألكم على تبليغ رسالتى إلا أن تودوا قرابتى، قال الألوسى: هذا معنى لا يناسب مقام النبوة لما فيه من التهمة؛ لأن أكثر مَنْ يطلبون الدنيا يفعلون الشىء ويطلبون عليه من الأجر ما يكون فيه نفع لأولادهم وأقربائهم. (انتهى) ومقام الرسول الأعظم لا يسأل أجرًا دنيويًا على أعظم عمل وأشرفه يكلفه الله عز وجل به وهو

تبليغ رسالته للناس كافة، ويكفى فضلا من الله سبحانه وتشريفا لأهل بيت نبيه ﷺ أن يأمر كل مؤمن ومؤمنة أن يصلى ويسلم عليهم كل يوم عدة مرات فى الصلاة وغيرها كما فى الآية (٥٦) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٩، وما هنا أرق من قول موسى عليه السلام لفرعون وقومه فى الآية (٢١) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧ المشار إليها سابقًا. ثم وبعد هذا الأسلوب الرقيق المؤثر أراد سبحانه أن يرغبهم فى الإيمان بأن العمل الصالح يجازى بأكثر منه فقال (ومَنْ يقترف) ..إلخ. أى ومَنْ يعمل صالحا نزد له فيه أجرا وثوابا، فنجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، انظر الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧. إن الله كثير المغفرة لذنوب مَنْ رجع إليه كثير الشكر للقليل من حسنات عبده فيضاعفها، ثم انتقل سبحانه إلى توبيخ مَنْ يستمر على كفره فقال: أم يقولون.. إلخ. أى هل يصح أن يقولوا افترى محمَّد على الله كذبا بادعائه أنه سبحانه أنزل عليه قرآنا؟ أى كيف يصدر هذا منهم وأنت تحت مراقبة الله القادر على أن يمحو كل ما فى قلبك فلا تستطيع النطق بشىء منه، أى ولو كان باطلا لمحاه؛ لأنه سبحانه يمحو الباطل ويثبت الحق بقضائه النافذ، انظر الآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤ فهو سبحانه عليم بما تكنه الضمائر لا يخفى عليه شىء منها. فيذهب باطلها ويحفظ حقها. ثم رغب سبحانه فى التوبة فقال سبحانه : وهو الذى يقبل التوبة من عباده. أى إذا تابوا توبة صحيحة ويعفو عما وقع منهم من السيئات. ويعلم ما تفعلون فلا يجازى إلا عن خبرة وحكمة. ثم بيَّن سبحانه أن مَنْ يسمع هذه الحقائق ويجيب الداعى إليها هو المؤمن المحافظ على عمل الصالحات. ونظير ذلك يجازيهم سبحانه الحسنة بعشر أمثالها. ويزيدهم من فضله أضعافا كثيرة كما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥. أما الكافرون فيجازيهم بعذاب شديد. ولما كان المسلمون فى مكة قليلين وأغلبهم فقراء، وكانت النفوس ربما تتوق إلى أن يوسع الله عليهم من رزق الدنيا كغيرهم من صناديد قريش، أراد سبحانه أن يبين أن الحكمة هى فى النظام الذى اختاره لخلقه، وأنه لو أفقرهم جميعًا لهلكوا. ولو أغناهم جميعًا لما خضع واحد لآخر فيخرب العالم.

لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم

المفردات : ﴿لبغوا فى الأرض﴾ : البغى مجاوزة الحد المشروع، انظر آيتى (٦ ، ٧) من سورة العلق صفحة ٨١٤.

﴿بقدر﴾ : المراد بمقدار معين اقتضته الحكمة الإلهية.

﴿الغيث﴾ : هو المطر الذى ينزل وقت الحاجة إليه، انظر الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤.

﴿قنطوا﴾ : أى يئسوا.

﴿رحمته﴾ : المراد بها كل الخيرات التى تحصل بالمطر كسقى العطاش والزرع والشجر.

﴿الولى﴾ : أى المتولى عباده بالإحسان. ﴿الحميد﴾ : المحمود على كل حال.

﴿آياته﴾ : أى دلائل قدرته، انظر آيتى (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١ و(٣١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣.

﴿وما بث فيهما﴾ : ﴿ما﴾ معطوفة على ﴿السموات والأرض﴾ . ﴿وبث﴾ : أى كثر ونشر.

(١) آياته.
(٢) السموات.
(٣) أصابكم.
(٤) يعفو.
(٥) آياته.
(٦) كالأعلام.
(٧) لآيات.
(٨) يجادلون.
(٩) آياتنا.

﴿من دابة﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على أن ما بعده بيان لـ ﴿ما﴾ المذكورة قبله . ﴿دابة﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: إن فى السماء عوالم لا يعلمها إلا الله تعالى؛ وقال الألوسى: لا يجوز نفى ذلك لأنه نفى بلا دليل، بل الدليل يخالفه؛ والذى يؤخذ من كتب اللغة أن الدبيب هو الانتقال الخفيف حقيقة أو مجازًا، فمن الأول قولهم: دب الطفل والشيخ المسن إذا مشى خفيفًا. ومنه أيضًا قول العرب: ناقة دبوب. أى لا تكاد تمشى من كثرة اللحم. وكذا دب الجيش إلى العدو إذا مشى بدون إسراع. ومن الثانى : دب السقم فى الجسم والبلى فى الثوب والصبح فى الغبش والنوم فى البدن، كله بمعنى سرى على مهل. وبهذا يظهر أن غلبة لفظ ﴿دابة﴾ على ما يركب من الخيل والبغال والحمير، إنما هو عرف طارئ. لا أنه هو المعنى اللغوى فى الأصل، وكذا تقييدها بأنها ﴿فى الأرض﴾ كما فى الآية (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤ إنما يراد به الغالب المشاهد لهم لا أنها كلها فى الأرض. ولذا قال الألوسى فى تفسير الآية (٤٩) من سورة النحل صفحة ٣٥١: إن الدبيب هو الحركة الجسمانية. سواء أكانت فى الأرض أم فى السماء، والملائكة أجسام لطيفة تتحرك .. وقد أطلق القرآن الدابة على كل متحرك ولو لم يكن له دبيب، انظر ذلك فى قوله تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ الآية (٤٥) من سورة النور صفحة ٤٦٥، فإنهم أدخلوا فيها الزواحف والطيور قطعًا، وقال الأستاذ عباس محمود العقاد - عضو المجمع اللغوى - : لا مانع من أن يراد بالدابة كل حى: لأن الدبيب والحركة الذاتية لا يكونان إلا عن حياة. ولذلك تشمل الملائكة وغيرها من المخلوقات الحية المستورة عنا. ويساعد على ذلك أن المتبادر عرفا من الدبيب هو الضرب على الأرض . ليس مرادًا بدليل ﴿ومنهم مَنْ يمشى على بطنه﴾ ولا ضرب له على الأرض. بل هو مجرد زحف، والله تعالى أعلم بحقيقة ملكوته الواسع الذى تحار فيه العقول.

﴿من مصيبة﴾ : ﴿من﴾ تدل على أن ما بعدها بيان لـ ﴿ما﴾ المذكورة قبلها.

﴿بمعجزين﴾ : أى بجاعلين الله سبحانه عاجزا عن جزائكم ، والباء لتأكيد نفى ما بعدها.

﴿من ولى ولا نصير﴾ : الولى هو الصديق ، والنصير هو المعين، كما تقدم فى الآية (١٠٧) من سورة البقرة صفحة ٢١.

﴿الجوار﴾ : جمع جارية والمراد بها السفن .

﴿الأعلام﴾ : مفردها علم بفتحتين، وهو الجبل. ﴿يظللن﴾ : أى يبقين .

﴿رواكد﴾ : جمع راكدة أى ثابتة ساكنة.

﴿يوبقهن﴾ : أى يهلكهن.

﴿ويعلم الذين يجادلون﴾ : كون المقام لتحذير الكافرين يدل على أن أصل الكلام يهلكهم ليظهر عظمته وقدرته، وليعلم أمثالهم أنهم هالكون قطعا. ومثل هذا التقدير كثير فى القرآن، ومنه ما فى آيتى (٢١) من سورة مريم صفحة ٢٩٨ و(٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣.

المعنى : لو وسع سبحانه رزق جميع العباد وجعلهم متساوين فيه لاختل نظام العالم؛ لأن كل واحد يزاحم غيره على ما فيه الزياسة، ويرفض ما دونها. فلا يقبل واحد منهم أن يكون جنديًا وغيره قائدا. ولا نجارا أو خبازا وغيره مديرا أو وزيرا مثلا .

وبهذا تتعطل المصالح ويحل الخراب. فمن الحكمة أن يكون البعض غنيًا والبعض فقيرا ليعمل كل فيما يصلح له ، انظر الآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، ولذا قال: (ولكن ينزل بقدر) .. إلخ. أى ولكن ينزل بنظام ما يشاء من الأرزاق. فيبسط للبعض ويضيق على البعض، كما فى الآية (١٢) السابقة صفحة ٦٣٩. إنه سبحانه محيط بخفيات أمور عباده بصير بجليها، فيعلم مَنْ يليق به أى من الحالين وهو سبحانه الذى يغيث العباد بإنزال المطر من بعد يأسهم منه، وينشر بركات الغيث ومنافعه. وهو الذى يتولاهم بإحسانه. وهو المستحق للحمد على كل حال.

ومن أدلة قدرته وتفرده بالملك أنه هو الذى خلق السموات والأرض وما بث فيهما من كل دابة تتحرك كالملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات. وهو سبحانه القدير على جمع مَنْ يشاء جمعه منهم يوم القيامة، وإن شئت فانظر أول شرح صفحة ٧٥١.

ثم أراد سبحانه أن يبين أنه منزه عن الظلم وأن ما يصيب الناس من المصائب سببه منهم ليبتعدوا عنه. ومع ذلك فلولا عفوه وسعة رحمته لهلكوا جميعًا كما فى الآية (٤٥) من سورة

فاطر صفحة ٥٧٨. فمصائب الأفراد سببها عملهم؛ ومصائب الأمم والجماعات سببها عمل أغلبها، انظر الآية (١٥٢) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٨٧، والآية (٢٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠، وفى هذا قال سبحانه: (وما أصابكم من مصيبة..) إلخ . أى ما يصيبكم من مصائب الدنيا كبيرها وصغيرها فبسبب أعمالكم ومع ذلك فإنه سبحانه يعفو عن كثير من ذنوبكم لا يؤاخذكم بها فى الدنيا وإلا لأهلككم جميعًا كما فى سورة فاطر صفحة ٥٧٨ السابق الإشارة إليها. ويجب أن نعلم أن هذا هو المبدأ العام.

ولكن قد يبتلى سبحانه بعض عباده بالمصائب لحكم عليا كرفع درجات فى الجنة كما حصل لنبينا ﷺ فى موت أولاده الذكور مثلا. وكحسن القدوة فى الصبر كما حصل لنبى الله أيوب عليه السلام كما فى الآيات من (٤١ إلى ٤٤) من سورة ص صفحتى ٦٠١ ، ٦٠٢، وانظر نظير ذلك فى الآيات (١٥٥ ، ١٥٦، ١٥٧) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والآية (٢١٤) من سورة البقرة أيضا صفحة ٤٢، وآيتى (٢ ، ٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٠. ثم رجع سبحانه إلى تهديد المشركين فقال سبحانه : (وما أنتم بمعجزين).. إلخ . أى وما أنتم أيها المشركين بمفلتين من عذاب الله هربا فى الأرض انظر الآية (٢٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. وليس لكم غير الله مَنْ ينقذكم أو يرحمكم ولا نصير يدفع العذاب عنكم. ومن دلائل قدرته تعالى تلك السفن التى تجرى فى البحار مرتفعة حمولتها، وشراعها كالجبال؛ إن يشأ سبحانه إسكان الريح التى تحركها يسكنها فتقف ساكنة لا تتحرك.

إن فى القدرة على إجرائها وإسكانها لأدلة واضحة على قدرة مدبر الكون، يتدبرها ويستفيد منها كل عبد حبس نفسه عما لا ينبغى . وحصر همه فى تذكر آيات ربه. كثير الشكر لفضله سبحانه . وفيه إشارة إلى أن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر. وإن يشأ سبحانه يهلك هذه السفن بما قيها بتسليط ريح عاصف، أو كسرها، أو غير ذلك بسبب ذنوب أهلها. وإن يشأ يعفو عن كثير منهم. يفعلْ سبحانه كل هذا لتتجلى قدرته وليعلم الذين يعاندون ولايعترفون بآيات الله أنهم لا مفر لهم من عذاب الله تعالى.

مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ
وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ
يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ
انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾
إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾
وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

المفردات: ﴿محيص﴾ : أى مهرب، فعله حاص أى هرب، تقدم فى الآية (٤٨) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦.

﴿كبائر الإثم﴾: هى الذنوب التى توعد الله تعالى عليها وشدد عقوبتها.

﴿الفواحش﴾ : هى الكبائر التى توجب الحد كالزنا؛ فهو من عطف الخاص على العام.

﴿هم يغفرون﴾: ضمير ﴿هم﴾ يدل على مدحهم بأنهم هم وحدهم الذين يغفرون الذنب حتى فى حال الغضب، انظر شرح الآية (١٨) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨.

﴿أمرهم شورى بينهم﴾: أى أن كل أمورهم التى تهمهم مصحوبة بالشورى وتحوى الصواب. والمراد أن المشاورة لازمة لأمورهم حتى كأن أمورهم هى المشاورة نفسها.

﴿البغى﴾: الظلم والتعدى ومجاوزة الحد.

﴿ينتصرون﴾: أى لأنفسهم بمقابلة السيئة بمثلها فقط، على ما سيأتى تفصيله.

﴿عفا﴾ : أى صفح عمّن أساء إليه.

---

(١) فمتاع.
(٢) الحياة.
(٣) آمنوا.
(٤) كبائر.
(٥) الفواحش.
(٦) الصلاة.
(٧) رزقناهم.
(٨) جزاء.
(٩) الظالمين.

﴿أصلح﴾ أى ما بينه وبين من يعاديه بالإغضاء عما يصدر منه. إن كان الإغضاء يصلحه ولا يطغيه.

﴿من سبيل﴾ : ﴿من﴾ للنص على عموم نفى ما بعدها و ﴿سبيل﴾ أى طريق للمؤاخذة.

﴿عزم الأمور﴾: أى الأمور التى يجب العزم والثبات عليها كما تقدم فى الآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤ والآية (١٧) من سورة لقمان صفحة ٥٤١ ومَن يتأمل هذه الصفحة يجدها قد تعرضت للحث على الصفح والعفو ثلاث مرات فى الآيات (٣٧، ٤٠، ٤٣) فسبحان العليم الحكيم.

المعنى : ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا بالباطل أنهم لا مفر لهم من عذاب الله. ثم بعد ما خوفهم أراد سبحانه أن يبين لهم أن كل ما فى الدنيا لا يساوى شيئًا إذا قيس بنعيم الآخرة فقال: (وما أوتيتم) .. إلخ، أى وكل ما تعطونه من الغنى والبنين فهو متاع تلك الحياة القصيرة، سريع الزوال. وما عند الله من النعيم الكثير خير وأبقى: لأنه خالد، ينتفع به الذين آمنوا ولايكلون أمورهم لغير ربهم.

وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وحين يعتريهم الغضب لا يستخفهم حتى ينتقموا ممّن أغضبهم. بل يتجاوزون عن إساءته حتى كأنهم هم وحدهم الذين من طبعهم العفو ولين الخلق انتظارا لفضل الله سبحانه وتعالى.

وهم الذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد وكل الفضائل، وأقاموا الصلاة. وإذا عرض لهم أمر مهم تشاوروا فيما بينهم ليظهر لهم الحق. وينفقون فى وجوه الخير مما رزقهم ربهم. وإذا أصابهم بغى وظلم من أحد كانوا مختصين بالاقتصار على المقابلة بالمثل. فلايعتدون بالزيادة كما يفعل أهل الجاهلية. فهم محمودون فى الحالين: حال الانتقام لا يتجاوزون المثل. وحال الصفح عند الغضب. بخلاف غيرهم فإن الغضب يدفعهم للانتقام. وإذا انتقموا جاوزوا الحد.

فإذا سرق منهم فرس أخذوا فرسين. وإذا قتل رجل منهم قتلوا رجلين، وهكذا. ثم بيّن سبحانه ما أباحه لمن أراد أن ينتصر فقال: وجزاء سيئة.. إلخ، أى وجزاء من يسىء إلى غيره يعمل معه ما يسيئه بشرط أن يكون مماثلاً لإساءته ولا يزيد عليها. ثم رجع إلى الترغيب فى العفو فقال، (فمن عفا) ..إلخ، أى فمَنْ عفا عن المسىء إليه وأصلح ما بينه وبينه بالعفو والإغضاء عما صدر منه فأجره على الله الذى لا يجازى إلا بأعظم الأجور، انظر الآية (١٢٦) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٣٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٤. ثم أكد سبحانه المساواة فى العقاب فقال: إنه لا يحب الظالمين أى المتجاوزين الحد فى الانتقام.

ولما كان كل ما تقدم يشعر بالرغبة الشديدة فى العفو. وذلك ربما يوهم ذم مَنْ ينتصر لنفسه فى حدود الجائز؛ فقد دفع ذلك سبحانه بقوله: (ولمَنْ انتصر).. إلخ. أى والله إن الفريق من الناس الذى ينتصر ممَنْ ظلمه بالعدل فهؤلاء ليس لأحد طريق إلى لومهم فضلاً عن إيذائهم، إنما اللوم والإثم على الذين يؤذون الناس بالظلم أو يزيدون فى الانتقام على ما أجيز لهم. ويتكبرون فى الأرض تجبرًا وفسادا. هؤلاء الذين يفعلون ذلك لهم عند الله عذاب أليم.

ثم ختم الموضوع بالترغيب فى الأفضل فقال: (لمن صبر).. إلخ.

أى والله إن من صبر وكف نفسه عن الانتقام وأغضى عن السيئة وسترها، إن ذلك منه لمن الأمور التى يجب الثبات عليها. ويجب أن نعلم فى هذا المقام أن من الإساءة ما يجوز أن يتولى المرء بنفسه المجازاة عليها، كاللطمة أو الشتمة. ومنها ما لا يجوز، بل لابد أن يتولاها إمام المسلمين بواسطة أعوانه، منعًا للفوضى وانتشار الشر، كالقذف بالزنا والقتل وغير ذلك مما تقدم بعضه فى الآية (٤٥) من سورة المائدة صفحتى ١٤٥، ١٤٦. والحكمة فى كثرة الحث على الصفح والعفو فى هذه السورة المكية أن ما ذكر حكم جواز مقابلة السيئة بمثلها، وإن كان هو حكم الإسلام الدائم لكنه لم يأت زمانه ما داموا فى مكة وهم قلة ضعيفة ليس لهم قوة تنفيذ الأحكام. وإنما ذكرت هذه الأحكام ليسمع أهل مكة عدالة الإسلام وسماحته وإن كان تنفيذ البعض يتوقف على تمام نظام الدولة. فما هنا نظير ما قيل فى الآية (١٠٩) من سورة البقرة صفحة ٢١.

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى
ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن
سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ
ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ
ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم
مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ
يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم
مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ

المفردات: ﴿من يضلل الله﴾: انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿من ولى﴾: (من سبيل)، (من أولياء)، (من ملجأ)، (من نكير): (من) فى كل ذلك حرف يفيد النص على عموم ما بعدها.

﴿هل﴾: حرف استفهام مراد به تمنى حصول ما بعده كحرف (ليت) فى الآية (٢٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. ﴿مرد﴾: أى رد إلى الدنيا ورجوع إليها حتى نتوب. ﴿عليها﴾: أى على جهنم المفهومة من المقام فى الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨.

﴿من طرف﴾: أصل معنى طرف العين هو تحريك جفنها. ويطلق على الجفن نفسه. وعلى جانب العين، ومنه قول الشاعر: إن العيون التى فى طرفها حور.. إلخ، أى فى جانبيها. والمراد: يسترقون النظر إلى جهنم بطرف عين خفى معظمها تحت الجفن من شدة الخوف؛ أما فى الموقف قبل ذلك فعيونهم لا تطرف من شدة الهول كما سبق فى الآية (٤٣) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦؛ وقبيل موقف الحساب تضطرب أبصارهم ولا تستقر على حال لحيرتها وعدم معرفتها المصير المجهول، انظر الآية (٣٧) من سورة النور صفحتى ٤٦٣، ٤٦٤.

﴿خسروا أنفسهم وأهليهم﴾: تقدم فى الآية (١٥) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨.

﴿ألا﴾: حرف يراد به تنبيه السامع للعناية بتأمل ما بعده. ﴿الظالمين﴾: المراد بهم المشركون، انظر الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠. ﴿مقيم﴾: أى دائم.

(١) الظالمين. (٢) تراهم. (٣) خاشعين.
(٤) أمنوا. (٥) الخاسرين. (٦) القيامة.
(٧) الظالمين. (٨) ملجأ. (٩) أرسلناك.
(١٠) البلاغ. (١١) الإنسان.

﴿أولياء﴾: أى أعوانا. ﴿استجيبوا لربكم﴾: أى أجيبوا دعوته تعالى بسرعة وعزم وإخلاص، كما تقدم فى الآية (٢٦) من هذه السورة. ﴿لا مرد له﴾: المرد هو الرد أى لا يرده الله تعالى بعد ما حكم بإتيانه. ﴿ملجأ﴾: أى مكان تلجأون إليه. ﴿نكير﴾: النكير أى الإنكار، والمراد: لاتستطيعون ذلك بعد شهادة جوارحكم وكتبكم والملائكة عليكم، انظر الآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢. ﴿حفيظا﴾: أى مراقبا مهيمنًا عليهم. ترغمهم على الإيمان. ﴿إن عليك﴾: ﴿إن﴾: حرف نفى بمعنى (ما). ﴿الإنسان﴾: المراد به الجنس فمعناه الناس ونظيره الطفل فى الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢: ولذا جاء ضمير الجمع بعدها.

المعنى: بعد ما ذكر سبحانه جزاء من يبغون بغير الحق أتبع ذلك ببيان أنهم لما اختاروا طريق الشر جازاهم الله بأن زاد ضلالهم، ومن يضلله سبحانه فما له ناصر يتولى أمره من بعد إضلاله تعالى، ثم بين عاقبتهم يوم القيامة فقال: وترى الظالمين.. إلخ، أى وترى يا من يصح أن ترى فى ذلك اليوم هؤلاء الباغين الظالمين حين يشاهدون عذاب جهنم يتمنون الرجوع إلى الدنيا حتى يعلموا غير الذى كانوا يعملونه. وتراهم أيضًا فى ذلك اليوم وهم يعرضون على النار حال كونهم خاشعين خشوع ذل، ينظرون إلى النار من طرف خفى جزعًا كما ينظر من قدم للقتل إلى السيف فلا يقدر على فتح عينيه فيه. وإنما ينظر إليه بجزء منها وعند ذلك يقول المؤمنون: إن هؤلاء الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم فأدخلوها النار، وخسروا أهليهم فلم يتمتعوا بهم فى الجنة، ثم صدق سبحانه كلام المؤمنين فقال: ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم. أى خالد. ولا يجدون لهم أعوانا ينقذونهم غير الله كما كانوا يزعمون أن معبوداتهم تشفع لهم. ومن يضلله الله فليس له طريق إلى الهداية كما فى الآية (١٨٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣، والآية (١٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٢. وبعد ما ذكر سبحانه ما سيلاقونه من الأهوال حذرهم من يوم القيامة فقال: استجيبوا.. إلخ. أى أجيبوا داعى الله للإيمان والطاعات قبل أن يأتى يوم لا رد له منه تعالى بعدما حكم بأنه لابد منه. فإذا جاء هذا اليوم فليس لكم حصن تلجأون إليه يحميكم من عذابه. ولا تستطيعون إنكار ما حصل منكم. ثم خفف سبحانه الأمر على نبيه إذا أعرضوا فقال: فإن أعرضوا.. إلخ. أى فإن أعرض مشركو قومك عن الحق فدعهم وشأنهم، لأننا لم نرسلك مسيطرًا عليهم تجبرهم على الهداية فما عليك إلا إبلاغهم ما أمرك به ربك كما فى الآية (٢٧٢) من سورة البقرة صفحة ٥٨. ثم بين سبحانه أنهم من أغلب الناس الذين فسدت طبائعهم فقال: وإنا إذا أذقنا..

أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣)

(١) الإنسان.
(٢) السموات.
(٣، ٤) إناثا.
(٥) وراء.
(٦) الكتاب.
(٧) الإيمان.
(٨) جعلناه.
(٩، ١٠) صراط.
(١١) السموات.

إلخ، أى وإنا إذا أعطينا أولاد آدم من فضلنا سعة رزق وصحة وأولادا.. صرفوا همهم للفرح بها. ونسوا شكر معطيها. وإن تصبهم سيئة كفقر أو مرض أو فقد ولد بسبب ماقدمت أيديهم.. إلخ.

المفردات: ﴿كفور﴾: أى شديد كفران نعم ربه.

﴿إناثا﴾: جمع أنثى، وقدمهن فى مقام التفضل لتسفيه بعض العرب فى كراهة البنت، كما فى الآية (٥٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٢.

﴿الذكور﴾: جمع ذكر.

﴿يزوجهم﴾: الضمير المنصوب وهو (هم) مراد به الأولاد الموهوبين، والتزويج جعل الشىء زوجا، ذكرا وأنثى أى صنفين.

﴿ذكرانا وإناثا﴾: ذكرانا جمع ذكر. وهما حالان من الأولاد المشار إليهم فيما سبق أى يجعل الأولاد أزواجا أى صنفين حال كونهم ذكورا وإناثا.

﴿عقيما﴾: لا ولد له.

﴿وحيا﴾: المراد بالوحى هنا إلقاء شىء فى القلب يجعل صاحبه لا يشك فى أنه من عند الله. كما حصل لأم موسى فى الآية (٧) من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧.

وقد يكون ذلك عن طريق رؤيا منامية، يشعر صاحبها أنها من عند الله قطعًا، كما فى الآية (١٠٢) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٢، ٥٩٣. ﴿من وراء حجاب﴾: كما حصل لموسى عليه السلام فى الآيات (٣٠) وما بعدها من سورة القصص صفحة ٥١١.

﴿يرسل رسولا﴾: كما حصل لنبينا ﷺ ولبقية الأنبياء فقد كان جبريل يأتيهم بالوحى.

﴿فيوحى﴾: أى يلقى ويبلغ.

﴿روحا من أمرنا﴾: هو القرآن، وقد تقدم المراد من ذلك فى الآية (٨٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

﴿الكتاب﴾: هو القرآن.

﴿ألا﴾: حرف يدل على تنبيه السامع لما بعده.

المعنى: إن الناس إذا أصابتهم مصيبة فإنهم بدل أن يرجعوا إلى الله بطلب كشفها والعزم على عدم العودة لأسبابها يهملون ذلك، انظر الآية (٤١) من سورة الروم صفحة ٥٣٦. أوينسون النعم الماضية حتى كأنها لم تكن. وسبب ذلك أن الإنسان شديد كفران النعم. فلا يشكر المنعم بها.

ولما ذكر سبحانه أنه هو وحده واهب النعم. وأن الإنسان قد يصاب بالشر فيضجر بدل أن يصبر. أتبع ذلك سبحانه بأنه هو صاحب التصرف فى ملكه. وأنه يقسم النعم وغيرها كما يشاء حسب حكمته لا كما يشتهى الإنسان. وبذلك لا يجوز إلا شكره والتسليم له. فقال: (لله ملك السموات والأرض).. إلخ ثم فصل سبحانه بعض هذه الأعمال فقال: (يهب لمن يشاء).. إلخ. أى يجعل أحوال عباده فى الأولاد مختلفة، فيهب للبعض صنفًا واحدًا إناثًا أو ذكورًا. ويهب للآخر الصنفين فيرزقهم ذكورًا وإناثًا.

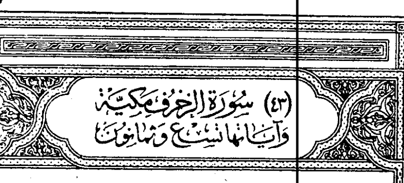
ويحرم البعض منهما فيجعله بلا ولد. إنه سبحانه عليم قدير. فإذا علم أن الحكمة فى عمل شىء فلا يعجزه شىء عن عمله. ولما كان كفار مكة يجهدون أنفسهم فى محاربة دعوته ﷺ. وكانوا يطلبون طلبات تعنتية كما فى الآية (٩١) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. وكان من تعنتهم أنهم يتصلون بأهل الكتاب لعلهم يسمعون منهم ما يساعدهم كما فى شرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩. والآية (١٩) وما بعدها من سورة الأنعام صفحتى ١٦٤، ١٦٥.

لما كان كل هذا معروفًا عنهم، قال أبو حيان: إن كفار مكة اتصلوا بأهل الكتاب وسألوهم كيف كان موسى يكلم ربه؟ فأضلوهم وقالوا: إنه كان يكلم ربه وهو ينظر إليه. فقالوا له ﷺ: إن كنت صادقا فكلم ربك وأنت تنظر إليه كما فعل موسى.

فأنزل سبحانه وما كان لبشر.. إلخ. أى ما صح لفرد من بنى آدم أن يكلمه الله إلا بإحدى طرق ثلاث: الأولى أن يوحى إليه وحيا بإلهام أو فى المنام. والثانية أن يكلمه من وراء حجاب فيسمع صوتا ولا يرى متكلما.

والثالثة أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيلقى إليه بإذنه تعالى ما يشاء تبليغه إليه. ولما كان ظاهر ما سبق ربما يوهم مماثلته تعالى للحوادث. دفع سبحانه ذلك بقوله: إنه علىّ حكيم. علىّ أى بعيد عن صفات الخلق. حكيم فيما يصنع. فيكلم تارة بواسطة وأخرى بغيرها وبعدما بيَّن سبحانه أقسام الوحى ذكر سبحانه أنه أوحى إلى رسوله كما أوحى إلى الأنبياء قبله فقال: (وكذلك).. إلخ. أى كما أوحينا إلى جميع رسلنا من قبل أوحينا إليك هذا القرآن الذى هو سر من أسرارنا تحيا به القلوب وما كنت قبله تدرى ما هذا القرآن. وما شرائع الإيمان. ولكن جعلنا هذا القرآن نورا عظيمًا. نهدى به مَنْ نشاء هدايته من عبادنا ونوصله للصواب. وإنك أيها النبى ترشد الخلق بواسطة هذا النور إلى صراط مستقيم هو دين الإسلام. ثم فسر هذا الصراط بأنه صراط الله.. إلخ. أى هذا الطريق هو الطريق الذى شرعه مالك السموات والأرض وما فيهما ويعلم مصالح أهلها. وفى النهاية ترجع جميع أمور الخلق إليه سبحانه لا إلى غيره. فلا يصح أن يتوجه المشركون لغيره بالعبادة. تعالى الله عما يقول المبطلون علوا كبيرا. والله تعالى أعلم.

سورة الزخرف


(٤٣) سورة الزخرف مكية وآياتها تسع وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا
لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ
قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا
أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿حم﴾: تقدم كيفية النطق بها فى أول سورة فصلت صفحة ٦٢٩.

﴿عربيًا﴾: انظر حكمة ذلك فى شرح الآية (٣٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٧، ٣٢٨. والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩.

﴿أم الكتاب﴾: تقدم فى الآية (٣٩) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨. أن المراد: اللوح المحفوظ المذكور فى الآية (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢. ﴿لعلى﴾: أى مرتفع ومهيمن على كل ما سبقه من الكتب يقر الصالح منها وينسخ بعضها، ويبطل ما دخلها من التحريف؛ انظر الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦.

﴿أفنضرب عنكم﴾: تقول العرب ضربت الإبل عن الحوض. أى نحيتها عنه: والهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى. أى لا نبعد عنكم الذكر. ﴿الذكر﴾: المراد به هنا: هو التذكير بما فى القرآن من العبر والأدلة والأحكام. ﴿صفحا﴾: أصل الصفح الإعراض والمراد به هنا: اسم الفاعل. أى ﴿معرضين﴾ وهو حال من فاعل نضرب.

﴿إن كنتم﴾: أصله (لأن كنتم): أى لكونكم. ﴿مسرفين﴾: أى متجاوزين الحد فى الضلال، والمراد: لابد من تذكيركم لتقوم عليكم الحجة يوم القيامة. ﴿وكم﴾: أى كثيرًا. وبيَّن هذا

(١) حا ميم بكسر الميم الأولى وسكون الياء والميم الثانية. (٢) الكتاب.
(٣) جعلناه. (٤) قرآنا.
(٥) الكتاب. (٦) يستهزئون.
(٧) ولئن. (٨) السموات.

الكثير بكونه (من نبى) أى كثيرًا من الأنبياء. ﴿وما يأتيهم من نبى﴾: (من) هنا تدل على النص على عموم ما بعدها. ﴿بطشًا﴾: البطش هو أخذ الشىء بقوة وشدة، انظر الآية (١٣٠) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨، والآية (١٩) من سورة القصص صفحتى ٥٠٨، ٥٠٩.

﴿مضى﴾: أى سبق ذكره فى القرآن غير مرة. ﴿مثل الأولين﴾: أى حالهم العجيبة وما حصل لهم. ﴿الذى جعل لكم الأرض..﴾ إلى قوله تعالى .. ﴿لمنقلبون﴾: من كلامه تعالى، وجاء به لتوبيخهم على الشرك بعد اعترافهم بأنه سبحانه وتعالى هو الخالق.

المعنى: ﴿حم﴾.. تقدم المراد بمثل هذه الحروف المفردة أول سورة البقرة.. وحق الكتاب الموضح لطريق الصواب. إنَّا صيرناه قرآنًا بلغة هؤلاء العرب ليفهموا معانيه حتى لا يتعللوا بعدم فهمه لو نزل بلغة أخرى، وأن هذا القرآن لعلى الشأن عندنا فى اللوح المحفوظ ذو حكمة فائقة، ثم وجه سبحانه الخطاب لمشركى العرب منكرًا عليهم اشمئزازهم من سماع القرآن فقال: أفنضرب.. إلخ. أى لا تظنوا أننا لأجل إسرافكم فى الكفر نترككم هملاً وننصرف عن تذكيركم بما فى القرآن من حجج دالة على صدقه. كلا بل لابد من تذكيركم، لا طمعًا فى إيمانكم لأننا نعلم أن الذكرى لا تنفع المعرضين عن التأمل فيما يوصل للهداية. انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦، ولكن نذكركم لتقوم عليكم الحجة، فتغلق عليكم الأعذار الكاذبة يوم القيامة. انظر الآيات (١٦٥) من سورة النساء صفحة ١٣١ و (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦. و (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩.

ثم شرع سبحانه فى تخفيف ألمه ﷺ من استهزاء قومه وتهديد كفار قريش فقال: وكم أرسلنا.. إلخ. أى كثيرًا من الأنبياء أرسلناهم إلى من سبقك من الأمم وكانوا لا يأتيهم نبى مثلك إلا استمروا على الاستهزاء به. ثم شرع فى تهديد كفار مكة فقال: (فأهلكنا).. إلخ. أى فأهلكنا تلك الأمم التى كذبت رسلها وكانوا أشد سطوة من هؤلاء المشركين. ثم شرع فى تسفيه عقولهم بأن عملهم يخالف قولهم فقال: (ولئن سألتهم).. إلخ. أى والله لئن سألت أيها النبى كفار قومك عمن خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن الله العزيز الغالب الذى لا يغلب. العليم بكل شىء. ثم قرر سبحانه اعترافهم وذكر لنفسه ست صفات توجب توبيخهم على عدم التوحيد.. فقال: (الذى جعل لكم).. إلخ. أى هو الله الذى جعل لكم الأرض مقرًا سهلاً كالمهد الذى ينام عليه الطفل.

لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ
تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ(١) كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ
الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ(٢) مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا(٣) عَلَىٰ ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ(٤)
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ
رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ
الْإِنْسَانَ(٥) لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ
وَأَصْفَاكُمْ(٦) بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ
لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾
أَوَمَنْ يُنَشَّأُ(٧) فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾
وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ(٨) الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ(٩) الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا(١٠) أَشَهِدُوا

المفردات: ﴿بقدر﴾: أي بمقدار معين اقتضته.

﴿فأنشرنا﴾: أي أحيينا. كما في الآية (٢١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢، وتغير الأسلوب من الغيبة إلى التكلم تقدمت حكمته في شرح الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، والآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠.

﴿ميتا﴾: المراد: لا نبات بها. انظر الآية (٥٧) من سورة الأعراف صفحتي ٢٠١، ٢٠٢.

﴿الأزواج﴾: تقدم في الآية (٣٦) من سورة يس صفحة ٥٨٢.

﴿الفلك﴾: السفن. ﴿الأنعام﴾: المراد بها هنا: الإبل فقط دون بقية أنواع الأنعام؛ لأن الكلام بعدها يدل على ذلك.

﴿تستووا على ظهوره﴾: المراد: تستقروا على ظهور ما ذكر.

﴿مقرنين﴾: تقول العرب: أقرن فلان الشيء إذا أطاقه، وقوى عليه، والمعنى وما كنا مطيقين ولا مخضعين لها لولا تسخير الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الأزواج.
(٢) الأنعام.
(٣) لتستووا.
(٤) سبحان.
(٥) الإنسان.
(٦) أصفاكم.
(٧) ينشأ.
(٨) الملائكة.
(٩) عباد.
(١٠) إناثا.

﴿منقلبون﴾: أي راجعون.

﴿جزءا﴾: المراد بهم: الملائكة حيث قالوا إنها بنات الله. والولد جزء من والده. انظر الآية (١٩) الآتية، والآية (١٥٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦.

﴿لكفور﴾: أي شديد الكفر. ﴿مبين﴾: أي ظاهر الكفر.

﴿أم اتخذ﴾: (أم) تفيد معنى بل التي للانتقال من موضوع لآخر مع معنى همزة الاستفهام التوبيخي، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢، والمراد هنا: ليس الأمر كما يظنون.

﴿أصفاكم﴾: أي اختار لكم.

﴿بما ضرب للرحمن مثلا﴾: المراد بالبنات التي جعلها لله مثيلا؛ لأن الولد مماثل لأبيه.

﴿ظل﴾: أي صار. ﴿كظيم﴾: مملوء القلب همًّا وكربًا، انظر الآية (٥٨) وما بعدها من سورة النحل صفحة ٣٥٢.

﴿أوَمَنْ﴾: الهمزة للاستفهام المفيد للإنكار والتسفيه. والواو عاطفة على مقدر. والأصل هل تجرءوا وجعلوا مَنْ ينشأ .. إلخ ولدا لله تعالى.

﴿ينشأ﴾: أي يربى. ﴿في الخصام﴾: أي في المحاجة والمجادلة.

﴿غير مبين﴾: غير موضح لحجته، للعجز عن مجاراة الرجال في مشاكل المجادلة.

المعنى: الله الذي جعل لكم في الأرض طرقًا لتهتدوا إلى مقاصدكم. وهو الذي نزل من السماء ماء بمقدار حاجتكم ولم يجعله طوفانًا فيغرق. انظر شرح الآية (١٣٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢. ولا قليلا جدا فتجف الأرض ويظمأ الحيوان فيهلك. فأحيا بهذا الماء المقدر أرضًا بلد لا نبات به فصارت مخضرة. وكما أخرج النبات من الأرض يخرجكم سبحانه من القبور يوم القيامة للحساب والجزاء. وهو سبحانه الذي خلق أصناف الحيوان والنبات والأشجار، وجعل لكم من السفن والإبل ما تركبونه في أسفاركم الطويلة، لكي تستقروا بكل سهولة على ظهور ما تركبون ثم تتذكروا بقلوبكم نعمة ربكم عليكم بمجرد استقراركم عليه. وتقروا بألسنتكم تنزيهه سبحانه مما لا يليق به قائلين: سبحان الذي هيأ لنا هذا. ولولا

تسهيله ما كنا نقدر على تسيير السفن فى البحار، ولا إخضاع الإبل لقطع الصحارى والقفار. وإنا فى النهاية لراجعون إلى ربنا بعد مماتنا لمحاسبتنا على ما قابلنا به نعمه. فلله ما أسمى تعاليم الإسلام التى ترشد العبد إلى دوام مراقبة ربه فى كل حركة من حركاته. وتذكره دائمًا بأنه سيلاقى ربه فلا يفعل إلا ما يرضيه. ثم بيَّن سبحانه أن مشركى العرب متناقضون إذ يعترفون بأن الخالق للعالم هو الله العزيز العليم. ثم بعد ذلك يعبدون الملائكة ويسمونها بنات الله. فقال: (وجعلوا له) .. إلخ. أى جعل كفار مكة لله جزءًا من عباده مع أن الحادث يستحيل أن يكون جزءًا من القديم. إن أغلب الناس ومنهم هؤلاء شديدو الكفر بربهم. ثم زاد سبحانه فى الإنكارعليهم والتعجب من تناقضهم مشيرًا فى أثناء كلامه إلى ما يبطل زعمهم فقال: (أم اتخذ).. إلخ. أى بل هل يصح أن يتخذ سبحانه من بعض خلقه بنات له فقط، ويختار لكم البنين مع البنات، مع أنكم إذا بشر أحدكم بالأنثى صار وجهه أسود من الكآبة وامتلأ قلبه همًّا. ثم كرر سبحانه الإنكارفقال: (أو من ينشأ).. إلخ. أى هل تجاسروا وجعلوا الأنثى= التى تربَّى محاطة بكل ما يزينها فى نظر الرجل لما فى طبعها من الوداعة والميل إلى رجل يحميها من خطوب الزمان. وهى أيضا ضعيفة فى ميدان المجادلة مع الرجال. فلا تقدر على سلوك تعاريجها الوعرة = جعلوها لله ولهم الذكر. ثم صرح سبحانه بما فيه تسفيههم من عدة وجوه فقال: (وجعلوا الملائكة).. إلخ. أى سموا الملائكة الذين هم عباد من عباد الرب الرحمن. سموهم بنات فجمعوا الكفر من وجوه. أولها: نسبتهم الولد لله تعالى. الثانى: أنهم جعلوا له تعالى ما يكرهون. الثالث: أنهم استخفوا بالملائكة وهم عباد مكرمون. فجعلوهم من النوع الذى لا يحبونه، انظر آيتى (٢١، ٢٢) من سورة النجم صفحة ٧٠١. ثم أبطل سبحانه مزاعمهم بقوله: (أشهدوا خلقهم).. إلخ. أى هل كانوا حاضرين عندما خلقنا الملائكة.. إلخ. انظر الآية (١٤٩) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٥.

المفردات: ﴿شهادتهم﴾: المراد بها: قولهم الذى أكدوه بأيمانهم من أن الملائكة بنات الله.

﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾: تقدم مرادهم بذلك فى الآية (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، وانظر الآية (٣٥) من سورة النحل صفحتى ٣٤٩، ٣٥٠.

خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ[1] وَيُسْـَٔلُونَ[2] ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ
شَآءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم[3] مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ[4] كِتَٰبًا[5] مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ
مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا[6] عَلَىٰٓ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم[7] مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا[8] عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم[9] مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
* قُلْ[10] أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ[11]
قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ[12] ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ[13] الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ[14]
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِى
فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ

﴿من علم﴾: (من) لإفادة النص على عموم نفى ما بعدها.

﴿إن هم﴾: (إن) حرف بمعنى (ما) النافية.

﴿يخرصون﴾: أى يكذبون: انظر الآية (١١٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٢.

﴿أم﴾: تقدم معناها فى الآية (١٦) السابقة.

﴿كتابا﴾: المراد: سندا وحجة تثبت لكم صدق دعواكم، انظر الآية (٣٥) من سورة الروم صفحة ٥٣٥، والآية (٤٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩، والآية (١٥٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦.

﴿مستمسكون﴾: أى متمسكون بقوة فى عبادة الأصنام.

﴿على أمة﴾: أى على طريقة وملة، انظر الآية (٩٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠.

﴿وإنا على آثارهم﴾: المراد على طريقتهم، انظر الآية (١٠٤) من سورة المائدة صفحتى ١٥٧، ١٥٨.

﴿مهتدون﴾: يريدون مهتدون فى سيرنا على آثار طريقة آبائنا ولم نخطئ.

(١) شهادتهم. (٢) يسألون.
(٣) عبدناهم. (٤) آتيناهم.
(٥) كتابا. (٦) آباءنا.
(٧) آثارهم. (٨) آباءنا.
(٩) آثارهم. (١٠) قال.
(١١) آباءكم. (١٢) كافرون.
(١٣) عاقبة. (١٤) إبراهيم.

﴿من نذير﴾: (من) تفيد عموم ما بعدها.

﴿مترفوها﴾: الترف التنعيم. فالمترفون هم الغارقون فى النعيم. انظر الآية (١١٦) من سورة هود صفحة ٣٠١، والآية (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦.

﴿مقتدون﴾: قال هنا مقتدون، وفيما سبق (مهتدون)؛ لأن الأول كان فى سياق المحاجة معه ﷺ فناسب أن يدعوا أنهم على هدى لا فى ضلال. أما الثانى فكان فى بيان مجرد الاتباع للآباء بدون دعوى الاهتداء.

﴿لأبيه﴾: هو آزر المذكور فى الآية (٧٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿براء﴾: بمعنى برىء. ولكونه فى الأصل مصدرا تطلقه العرب على الواحد والأكثر، والمذكر والمؤنث فيقولون: رجال براء، وامرأة براء، بخلاف (برىء) فإنها توافق موصوفها فتقول: هما بريئان، وهم بُرءوا كما فى الآية (٤) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥.

﴿إلا الذى فطرنى﴾: فطرنى أى خلقنى، ولما كان قومه يخلطون عبادتهم لله بالشرك كما فى آيتى (٨١، ٨٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥. استثنى إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى من البراءة من معبوداتهم فقال: إلا الذى فطرنى.. إلخ. وإطلاق (ما) فى قوله (مما) على الله سبحانه ورد فى آيتى (٣، ٥) من سورة الكافرون صفحة ٨٢٤.

﴿كلمة﴾: أى كلمة التوحيد المفهومة من قوله: ﴿إنى براء﴾.. إلخ.

﴿عقبه﴾: أى ذريته ووصاهم بها فى الآية (١٣٢) من سورة البقرة صفحة ٢٥.

المعنى: بعدما أكد المشركون أن الملائكة بنات الله رد عليهم سبحانه متهكمًا بهم فقال: (أشهدوا).. إلخ. أى هل كانوا حاضرين عندما خلق الله الملائكة وعلموا بالمشاهدة أنهم بنات، ثم هددهم بقوله: ستكتب شهادتهم.. إلخ. أى ستكتب الملائكة قولهم: (إن الملائكة بنات الله) وسيسألون عنه يوم القيامة . ثم ذكر سبحانه عن المشركين نوعًا آخر من الكفر فقال: وقالوا لو شاء الرحمن.. إلخ. أى لو شاء الله منعنا لمنعنا، وحيث لم يمنعنا كان ذلك دليلاً على

رضاه. وهو لا ينهى عما يرضى عنه. فرد سبحانه بقوله: (ما لهم بذلك).. إلخ. أى ليس عندهم أقل علم بما يزعمون وما هم إلا يكذبون؛ لأن المشيئة شىء، والرضا شىء آخر، كما فى الآية (٧) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٦، ٦٠٧. وهم يعلمون ذلك ولكنهم يغالطون كقولهم وأمثالهم فى الآية (٤٧) من سورة يس صفحة ٥٨٣، والآية (١) من سورة المنافقين صفحتى ٧٤٢، ٧٤٣. وبعدما بيَّن سبحانه بطلان قولهم بالعقل أتبعه بدليل بطلانه من النقل فقال: (أم آتيناهم كتابا).. إلخ. أى بل هل أعطيناهم كتابا من قبل هذا القرآن ينطق بصحة ما يدعون فهم به شديدو التمسك؟ وبعدما بيَّن أنه لا حجة عندهم من عقل ولا نقل بيَّن أن الحامل الحقيقى لهم هو مجرد التقليد والجمود على ما كان عليه الآباء. فقال: (بل قالوا إنَّا وجدنا آباءنا على أمة). أى على ملة ونحن سائرون على طريقتهم فى هداية ولسنا ضالين. ثم أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله بأن هذا هو عمل كل الأمم السابقة مع أنبيائها فقال: (وكذلك).. إلخ. أى مثل هذا القول الشنيع قالت الأمم الماضية لإخوانك الأنبياء.

فلم نرسل قبلك فى قرية رسولا إلا قال كبراؤها الذين يخافون على نفوذهم إنا وجدنا آباءنا على طريقة وإنا مقتدون بهم فى السير على آثارهم، قال لهم رسولهم: هل تتبعونهم ولو جئتكم بدين أقوى فى الهداية مما وجدتم عليه آباءكم. وإنما قال (أهدى) مع أن ما عليه الآباء ليس فيه هداية أصلا . مجازاة لهم وليناً فى خطابهم لعلهم يرجعون. لكنهم لم ينفع فيهم ذلك. وقالت كل أمة لرسولها إنا كافرون بما تزعم إنك أرسلت به من قِبَل الله.

قال سبحانه: فانتقمنا منهم بما بيَّن سبحانه فى الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. فانظر أيها العاقل على أى حال كانت عاقبة المكذبين.

ثم أراد سبحانه أن ينبه العرب إلى أن أباهم إبراهيم عليه السلام كان على ما يدعوهم إليه محمد ﷺ فقال: (وإذ قال إبراهيم).. إلخ. أى واذكر أيها النبى لقومك تبرؤ إبراهيم مما يعبده أبوه وقومه واعترافه بأنه ليس له إلا إله واحد هو الذى خلقه ويهديه إلى الصواب وجعل كلمة التوحيد خالدة فى ذريته وستبقى ينادى بها بعضهم إلى يوم القيامة.

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ
جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ
هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ
فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ
لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا
لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ
عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا
يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ
الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن

المفردات: ﴿بل متعت﴾: الأصل ولما يرجعوا لم أعاجلهم بالعقوبة، بل متعتهم كما متعت اباءهم من قبل ليزدادوا إثما، انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢.

﴿الحق ورسول مبين﴾: (الحق) هو القران. و(الرسول) هو محمد خاتم الرسل ﷺ. و(مبين) واضح ظاهر ثابت الرسالة بماله من المعجزات الخالدة.

﴿لولا﴾: حرف يدل على طلب حصول ما بعده. انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

﴿القريتين﴾: يريدون مكة والطائف.

﴿عظيم﴾: يريدون ذا مال وجاه عريض، كالوليد بن المغيرة بمكة، انظر الآيات (١١) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧٦، وعروة بن مسعود بالطائف.

﴿رحمة ربك﴾: المراد بها هنا النبوة. ﴿معيشتهم﴾: أى ما يعيشون به كالطعام والشراب، انظر الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩.

﴿سخريا﴾: مادة التسخير تدل على إخضاع الشىء لما يراد منه قهرا، كما فى قوله تعالى ﴿وسخر لكم الفلك﴾: وقوله ﴿وسخر لكم الشمس والقمر﴾ انظر آيتى (٣٢، ٣٣) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤، وأصل معنى (السخرى) هو الذى يقهره غيره فيتسخر له. ولكن المراد هنا: مَن ترغمه ظروف الحياة على عمل يأخذ عليه أجرا.

(١) اباءهم. (٢) كافرون.
(٣) القران. (٤) رحمة.
(٥) الحياة. (٦) درجات.
(٧) رحمة. (٨) واحدة.
(٩) أبوابا. (١٠) متاع.
(١١) الحياة. (١٢) الآخرة.

﴿أمة واحدة﴾: أى متفقة على الكفر. ﴿لبيوتهم﴾: بدل من (لمَنْ يكفر) وهو بدل اشتمال، أى لبيوت منْ يكفر. ﴿معارج﴾: أى سلالم والمراد: من فضة أيضًا.

﴿يظهرون﴾: أى يصعدون. ﴿أبوابًا﴾: أى من فضة.

﴿سررا﴾: جمع سرير وهو عند العرب ما يجلس عليه. وقد ينام عليه أيضًا. ويكون مرفوعًا عن الأرض، فإن كان عليه ستائر يسمى أريكة، انظر الآية (١٣) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.

﴿زخرفًا﴾: أى زينة لبيوتهم ونقوشًا من ذهب وفضة.

﴿إن كل﴾: (إن) حرف بمعنى (ما) النافية.

﴿لما﴾: حرف بمعنى (إلا).

﴿يعش﴾: أى يتعام ويعرض.

المعنى: وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد باقية فيمَنْ صلح من ذريته رجاء أن يرجع إليها مَنْ يقع من ذريته فى الشرك.

ولما لم يرجع كفار قومك أيها النبى متعتهم هم وآباءهم بزخارف الدنيا فشغلهم ذلك عن الله. ونسوا كلمة التوحيد، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنبياء ٤٢٥ و (١٦) من سورة الحديد صفحة ٧٢١. ولم أعاجلهم بالعقوبة حتى جاءهم القرآن بما فيه إنقاذهم ورسول منهم واضح الرسالة بما أيده به ربه من المعجزات. ولما جاء هذا القرآن المعجز فبدل أن يرجعوا إلى الحق ويتركوا العناد قالوا هذا سحر وإنا به كافرون. ثم ذكر سبحانه نوعًا آخر من كفرهم وتعنتهم فقال: وقالوا لولا.. إلخ، أى قال كفار مكة إن منصب الرسالة عن الله. لو صح أن يرسل بشرًا . منصب شريف لا يليق إلا برجل عظيم الجاه كثير المال. ومحمد ليس كذلك. فمن الواجب أن يسند إلى الوليد بن المغيرة فى مكة أو عروة بن مسعود الثقفى بالطائف، وكانا أغنى بلديهما، وأوسعهما جاها. وهم فى قولهم هذا جاروا فيه بنى إسرائيل فى تدخلهم فيما لا يعلمون حيث قالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه﴾.. الآية (٢٤٧)

من سورة البقرة صفحة ٥١، وكفار مصر فى شأن نبى الله موسى كما سيأتى فى الآيات (٥١) وما بعدها من هذه السورة صفحة ٦٥٢.

فخطأهم سبحانه منكرا عليهم بقوله تعالى: أهم يقسمون رحمة ربك.. إلخ. أى عجيب أمر هؤلاء الناس. هل وضعوا أنفسهم موضع مَنْ يقسم أمر النبوة بين الناس فيختارون لها مَنْ يشاءون ولو لم يكن أهلا لها؛ لأن حقيقة الناس لا يعلمها إلا الله الذى يعلم مَنْ يصلح لها ومَنْ لا يصلح، انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. ثم بيَّن سبحانه وجه خطئهم فقال: (نحن قسمنا).. إلخ، أى أننا فى هذه الحياة فضلنا بعضهم على بعض فى الغنى والفقر، والقوة والضعف، إلى غير ذلك، لا لكمال فى الغنى، ولا لنقص فى الفقير مثلا، ولكن ليتم نظام الحياة بالتعاون، انظر شرح الآية (٢٧) من سورة الشورى صفحتى ٦٤٢، ٦٤٣. وإذا كانوا قد عجزوا عن توزيع أحوال الناس فى الدنيا فكيف يريدون التدخل فى منصب الرسالة وهو أسمى من كل المناصب. وإذا كانوا لا يحرصون إلا على زخارف الدنيا فهم فى غاية الجهالة. لأن رحمة ربك ، وفضله بالنبوة وما يتبعها خير مما يجمعون من حطام الدنيا الفانى، ثم بيَّن سبحانه حقارة الدنيا بالنسبة للآخرة فقال: (ولولا أن يكون الناس).. إلخ. أى ولولا كراهة أن يكون الناس أمة واحدة فى الكفر إذا رأونا لا نعطى المال إلا لكافرين فيرغبون فى الكفر، لولا كراهة ذلك لجعلنا لبيوت مَنْ كفر بالرحمن سقوفا من فضة ومصاعد من فضة يصعدون عليها. وجعلنا لبيوتهم أيضًا أبوابًا من فضة، وجعلنا لهم سررًا عليها يتكئون كما هو شأن الملوك لا يهمهم شىء، وجعلنا لبيوتهم أيضا زخارف من ذهب وفضة. ثم بيَّن سبحانه أن كل ذلك سريع الزوال فقال: (وإن كل ذلك).. إلخ. أى ما كل ما ذكر إلا متاع قصير الأمد زائل قطعًا، والآخرة وما فيها خير فى حكم ربك للمتقين. وأيضًا لولا كراهة أن يكون إيمان الناس خاضعًا لتأثير المال لا حبًا للحق وطلبًا لرضى ربهم، لأغنى الله تعالى كل مَنْ يؤمن. وبهذا نفقد حكمة امتحان العباد بالتكاليف التى يستحقون جزاء الآخرة على قدر قيامهم بها. أو إهمالها. وبعدما بيَّن سبحانه هذه العبر الساطعة. أراد أن يبين أنه لا يحرم من الانتفاع بها إلا كل أعمى القلب معرض عنها. فقال: (ومنْ يعش).. إلخ.

ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا[١] فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ
لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ[٢] بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ
فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ
أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ
أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ[٣] مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا
نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى
وَعَدْنَٰهُمْ[٤] فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ
أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ[٥] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ
لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ[٦] ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ[٧] مَنْ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً[٨]
يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ[٩] إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

المفردات: ﴿نقيض﴾: أى نهيِّئ.

﴿قرين﴾: أى صاحب من شياطين الإنس والجن. انظر الآية (٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣، وانظر سبب ذلك فى الآية (٢٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٥، ١٩٦.

﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾: أى يتوهمون خطأ أنهم على حق، انظر الآية (٣٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦ والآيات (١٠٣) وما بعدها من سورة الكهف صفحتى ٣٩٤، ٣٩٥.

﴿المشرقين﴾: المراد بهما المشرق والمغرب. والعرب تثنى الاسمين المختلفين بلفظ أحدهما. فيقولون مثلاً فى أبى بكر وعمر (العمران)، وفى الشمس والقمر (القمران). وفى الأب والأم (الأبوان)، انظر الآية (٨٠) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢.

﴿إذ ظلمتم﴾: (إذ) ظرف بمعنى حين بدل من (اليوم) قبله وهى داخلة على مقدر؛ والمراد: حين وضح وثبت لكم ولأهل المحشر ظلمكم لأنفسكم فى الدنيا، وقال ابن هشام فى المغنى: أن (إذ) هنا تفيد التعليل، كما تقدم فى الآية (١٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٢، والمعنى على ذلك: لن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب لأجل ظلمكم فى الدنيا، وهل هى فى هذا الحال حرف بمنزلة (لام) التعليل أو ظرف والتعليل مستفاد من قوة الكلام، لا من اللفظ لأنك إذا قلت: ضربت عليا إذ أساء، تريد وقت الإساءة، وأفاد كلامك أن الإساءة هى سبب الضرب.

(١) شيطانا. (٢) ياليت. (٣) ضلال.
(٤) وعدناهم. (٥) صراط. (٦) تسألون.
(٧) اسأل. (٨) آلهة. (٩) بآياتنا.

﴿أنكم﴾: فاعل ينفع.

﴿أفأنت تسمع﴾.. إلخ: الهمزة للاستفهام التعجبى. والأصل هل تشقى أيها النبى نفسك فتريد أن تهدى المعرضين عنك الذين وصل حد إعراضهم كأنهم صم وعمى؟ انظر آيتى (٤٢، ٤٣) من سورة يونس صفحة ٢٧٢.

﴿فإما نذهبن بك﴾: المراد: فإن نقلناك من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

﴿فاستمسك﴾: أى تمسك بقوة.

﴿ذكر لك﴾.. إلخ: أى شرف لك وفخر، انظر الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١.

﴿من دون الرحمن﴾: المراد غيره.

﴿بآياتنا﴾: أى بالحجج والبراهين والمعجزات، انظر الآية (٧٥) من سورة يونس صفحة ٢٧٨، والآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨.

المعنى: وكل مَنْ يعرض عن القرآن نسلط عليه شيطانا عقابا له يقارنه ولا يفارقه، ليزداد إثما فيزداد عقابه. وإن الشياطين ليمنعون عن سبيل الخير.

ويظن هؤلاء المعرضون أنهم مهتدون، ولا عذر لهم فى هذا الظن؛ لأن منشأه الإعراض عن التأمل فيما جاءت به الرسل من البراهين والجرى وراء ما زينته لهم الشياطين مما يتفق وشهواتهم، فأورثهم ذلك تفريطًا أوقعهم فى هذا الخطر، وهم لا يشعرون أنهم وقعوا فى خطر عظيم. وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ رسالة الرسول إليه وعجزه عن الوصول إليها، فهذا له حكم آخر، انظر شرح الآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، ثم ذكر سبحانه ما سيكون بين المعرض وشيطانه يوم القيامة فقال: (حتى إذا جاءنا).. إلخ، أى إذا جاء هذا المعرض عن القرآن قال لقرينه متحسرًا: يا ليت بينى وبينك مسافة ما بين المشرق والمغرب.

فبئس القرين أنت. فيقول سبحانه لهم توبيخًا: (ولن ينفعكم).. إلخ. أى ولن ينفعكم اليوم حين تبين ظلمكم لأنفسكم اشتراككم مع قرنائكم فى العذاب كما ينفع الواقعين فى مصيبة

واحدة تعاونهم فى تحملها وتسلية بعضهم لتخفيف مشقتها فليس شىء من هذا هنا. بل كل واحد غارق فى همه. لا يشعر بما فيه غيره. ولما كان ﷺ متعبًا نفسه فى سبيل هداية قومه وهم لا يزيدون إلا عنادا واستكبارا. أراد سبحانه أن يطلعه على حقيقة ضمائرهم فى أسلوب تعجبى من تعبه مع من لا يؤمن ولو جاءه بكل آية فقال: (أفأنت).. إلخ. أى هل تحمل نفسك أيها النبى هذا العناء فتريد أن تسمع صوتك لمعرض عنك عنادا فهو كالأصم لا يسمع شيئًا، أو تهدى إلى طريق النجاة مَنْ وضع على بصره غشاوة، فلم ير أدلة الحق. وهى محيطة به حتى صار كالأعمى فهو دائمًا غارق فى ضلال واضح. ثم طمأن سبحانه نبيه بأنه سيعاقبهم حتمًا على عنادهم، فقال: (فإما نذهبن).. إلخ، أى فإن قبضناك أيها النبى إلينا قبل أن نريك عذابهم فإنهم لن يفلتوا منه لإنا منتقمون قطعًا من كل مَنْ يكذب رسلنا. أو نرينك العذاب الذى وعدناهم به. فهو سهل علينا لتمام قدرتنا على ذلك. وقد حصل هذا فلم يفلت واحد من صناديد قريش فى يوم بدر وغيرها إلا مَنْ تحصن بالإسلام، وإذا كان الأمر كذلك. فتمسك بالقرآن الذى أوحيناه إليك إنك على دين مستقيم لا عوج فيه. ثم وبخ سبحانه قريشًا على محاربة القرآن مع أن فيه شرفهم ببقاء لغتهم.

وفى بقائها ذكرهم وشرفهم، فقال: وإنه أى القرآن، لشرف لك ولقومك. وسوف تسألون يوم القيامة عن قيامكم بحقوقه. ثم أراد تسفيه قريش بأنهم خالفوا كل الديانات فقال: واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا، أى اسأل أمم وعلماء مَنْ أرسلنا قبلك ممن لم ينحرفوا عن الصواب المشار إليهم فى الآية (١١٣) من سورة آل عمران صفحة (٨١) والآية (٩٤) من سورة يونس صفحة ٢٨١، هل أبحنا لهم فى دياناتهم أن يعبدوا آلهة غير الله؟ فإذا لم تجد إن هذا حصل فبلغ كفار قومك أنهم خالفوا جميع الأنبياء ولم يخالفوك أنت وحدك، وروى عن ابن عباس أن سؤال الرسل كناية عن النظر فى شريعتهم، فيظهر أنها بوحىٌ لا شك فيه، كما يقول العربى: اسأل ديارهم وأطلالها تنبئك عن أخبارهم، وقولهم: سل الأرض مَن شق أنهارها وغرس أشجارها.. إلخ. ولما كان أتباع موسى وعيسى هما الباقيان المشهوران عندهم من أتباع الرسل ذكر سبحانه عيسى عليه السلام فى الآيات (٥٧) وما بعدها من هذه السورة صفحة ٦٥٣، وذكر موسى عليه السلام هنا فقال: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون).. إلخ.

وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم
مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ
فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ
تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا
ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ
أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾
فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾

المفردات: ﴿ملئه﴾: هم كبار قومه.

﴿إذا هم﴾: (إذا) هنا وفى الآية (٥٠) الآتية تفيد سرعة حصول ما بعدها عقب حصول ما قبلها، وتسمى فجائية، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩.

﴿من آية﴾: (من) تفيد النص على عموم ما بعدها و(آية) أى معجزة.

﴿أكبر من أختها﴾: المراد قوية جدًا حتى يخيل للناظر أنها أكبر مما سبقها، كما تقول فى رجال كلهم فرسان: كل واحد منهم أمهر من غيره. تريد أنهم جميعًا مهرة.

﴿أخذناهم بالعذاب﴾: المراد قهرناهم وأذللناهم بالمصائب المذكورة فى الآية (١٣٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢.

﴿الساحر﴾: يريدون موسى عليه السلام وكان الساحر فيهم عظيمًا يوقرونه. ولم يكن السحر عندهم صفة ذم. فمرادهم يا أيها العالم الماهر، ولذلك نادوه بوصف الرسول عند الاستعانة به، انظر الآية (١٣٤) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢.

﴿بما عهد عندك﴾: المراد بإكرامه لك بجعلك رسولا، كما تقدم فى (١٣٤) المشار إليها سابقًا. ﴿ينكثون﴾: أى ينقضون العهد. ﴿مهين﴾: أى ضعيف حقير ليس معه جند ولا خدم.

﴿يبين﴾: أى يوضح مراده، انظر الآيات (٢٧، ٢٨) من سورة طه صفحة ٤٠٨ و(٣٤) من سورة القصص صفحة ٥١١. ﴿لولا﴾: حرف يدل على الرغبة فى حصول ما بعده.

(١) ملئه. (٢) العالمين. (٣) بآياتنا.
(٤) آية. (٥) أخذناهم. (٦) يأيها.
(٧) يا قوم. (٨) الأنهار. (٩) الملائكة.
(١٠) فاسقين. (١١) آسفونا. (١٢) فأغرقناهم.

﴿ألقى عليه﴾: أى ألبسه مَنْ أرسله. ﴿أسورة﴾: جمع سوار وكانوا إذا جعلوا رجلا رئيسا عليهم ألبسوه سوارا من ذهب. ﴿مقترنين﴾: أى مقترنين به، ومصاحبين له، ويكونون من أتباعه يساعدونه على تأديب مَنْ يخالفه. ﴿آسفونا﴾: أى أغضبونا.

المعنى: ولقد أرسلنا موسى مؤيدًا بالمعجزات إلى فرعون وقومه خصوصًا كبارهم لأنهم القادة. فقال موسى: يا فرعون إنى رسول رب العالمين إليك وإلى قومك لتؤمنوا وترسلوا معى بنى إسرائيل، انظر الآية (٤٧) من سورة طه صفحة ٤٠٩، والآية (١٣٤) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢. عند ذلك طلب منه فرعون بيان تلك المعجزات كما فى الآيات (١٠٥) إلى (١٠٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٩، ٢١٠. فلما جاء بالمعجزات فاجأوه بالضحك منها سخرية من غير تأمل زاعمين أنها سحر، وأنهم أقوى منه وأبرع فيه، انظر الآية (٣٦) من سورة القصص صفحة ٥١٢. وما أريناهم من آيات إلا كانت غاية فى القوة. وأصبناهم بأنواع من العذاب ليرجعوا عن الكفر إلى الإيمان. وكانوا كلما نزل بهم عذاب من الطوفان والجراد وغيرهما لجئوا إلى موسى قائلين أيها العالم العظيم ادع لنا ربك متوسلا بما أكرمك به من عهده لك بجعلك رسولا. ونعاهدك إن كشفت عنا العذاب أن نكون من المهتدين المؤمنين بك. فلما كشفنا عنهم العذاب أسرعوا إلى نقض العهد فى كل مرة. وبعد الكشف آخر مرة، خاف فرعون أن يؤثر ذلك فى القبط فيؤمنوا. فعمد إلى التهويش وجمع كثيرًا منهم كما فى الآية (٢٣) وما بعدها من سورة النازعات صفحة ٧٩٠، ونادى فيهم قائلاً: يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار المتفرعة من النيل تجرى من تحت قصورى؟ هل عميت عيونكم فلا تبصرون ذلك؟ فتستدلون به على عظيم منزلتى وضعف موسى. وبعدما افتخر بالملك والسلطان انتقل يفتخر بالمزايا الشخصية فقال: ﴿أم أنا خير﴾.. إلخ. أى بل أنا خير بما لى من العظمة وقوة البيان من موسى الحقير الذى لا يقدر على الإفصاح عما يريد، ثم بالغ فى التضليل فقال: ﴿فلولا ألقى﴾.. إلخ. أى إذا كان رسول إله قادر غيرى كما يقول فهلا ألبسه أسورة من ذهب وأرسل معه ملائكة تقارنه وتعينه على أعدائه؟ وبهذا استخف فرعون عقول قومه فأطاعوه وغفلوا عن قوة البراهين؛ لأنهم قوم داوموا على الفسق والخروج عما تقتضيه العقول السليمة. ثم بيَّن سبحانه جزاءهم الأخير فقال: ﴿فلما آسفونا﴾.. إلخ. أى فلما أغضبونا بعد طول الحلم انتقمنا منهم بالعذاب العاجل. فأغرقناهم أجمعين.

فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا[1] وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ[2] (٥٦) * وَلَمَّا ضُرِبَ
ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوٓا۟
ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ[3]
مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[4] (٥٩) وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً[5]
فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ
بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ[6] مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ[7] ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ[8] قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ
ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ[9] مُّسْتَقِيمٌ (٦٤)
فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ

المفردات: ﴿سلفا﴾: السلف أى المتقدم والمراد متقدمين على غيرهم فى الفزع والخوف وأشد العذاب من أول دخولهم القبر وإلى يوم القيامة، كما فى الآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

﴿مثلا﴾: أى حديثا عجيبًا يسير بين الناس مسير المثل، يقول الناس فى الضالين: (مثل بنى فلان كمثل قوم فرعون) أى فى الضلال والعماية. (ضرب ابن مريم مثلاً): أى لما جعل زعيم من كفار مكة عيسى مثلا لما عبد من دون الله ليحتجوا به على نجاتهم ونجاة أصنامهم من النار كما سيأتى.

﴿إذا﴾: تقدمت فى الصفحة السابقة.

﴿قومك﴾: أى كفار قريش.

﴿منه يصدون﴾: (منه) أى من قول هذا الرجل.

﴿يصدون﴾: أى يضجون بالضحك زاعمين أنهم أفحموا الرسول ﷺ.

﴿ما ضربوه لك إلا جدلا﴾: أى ما جعلوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والعناد لا لطلب الحق.

﴿بل هم قوم خصمون﴾: (بل) حرف يدل على الانتقال من بيان العلة وهى حب الجدل إلى بيان سببها وهو أنهم معروفون بشدة الخصومة؛ (خصمون) أى شديدو الخصومة.

(١) فجعلناهم.	(٢) للآخرين.	(٣) جعلناه.
(٤) إسرائيل.	(٥) ملائكة.	(٦) صراط.
(٧) الشيطان.	(٨) بالبينات.	(٩) صراط.

﴿إن هو﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما).

﴿مثلاً لبنى إسرائيل﴾: أى كالمثل السائر فى غرابته، يستدل به على قدرته سبحانه وتعالى على ما يشاء، انظر الآية (٥٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠.

﴿لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون﴾: (منكم) (من) بمعنى بدل أى بدلكم، ومثلها (من) فى الآية (٣٨) من سورة التوبة صفحة ٢٤٧؛ إذا علمنا من الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧، ٨ أنه سبحانه اختار لعمارة الأرض بنى آدم دون الملائكة؛ لأن حاجتهم إلى الغذاء والكساء هى التى تحملهم على العمل فيها ليحصلوا على ما يحفظ بقاءهم. والملائكة ليسوا فى حاجة إلى ذلك فلا يصلحون لعمارة الأرض. نقول إذا علمنا هذا، نعلم أن كلمة (الملائكة) هنا ليس المراد بها ظاهرها. بل المراد خلقًا آخر يشبه الملائكة فى الإيمان والطاعة وعدم العصيان فى شىء مطلقا، وذلك أسلوب عربى فصيح جاء منه فى القرآن قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين﴾ الآية (٢٠) من سورة المائدة صفحة ١٤٠، إذ لم يجعل الله بنى إسرائيل كلهم ملوكًا، بل كالملوك فى الاستغناء عن الغير، وغير ذلك. فالكلام هنا من قبيل ما فى الآيات (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١ و (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦ و (٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١ و (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦ و (٩) من سورة النحل صفحة ٣٤٦، وانظر مع كل هذا الآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨.

﴿يخلفون﴾: أى يخلفونكم فى عمارة الأرض.

﴿وإنه لعلم للساعة﴾: المراد أن وجود عيسى عليه السلام علامة واضحة يعلم بها قرب القيامة حتى كأنها العلم نفسه. وذلك أنه ليس بعد عيسى إلا خاتم المرسلين محمد ﷺ، ثم القيامة. وقال أبو السعود: (إنه) أى عيسى نفسه (علم للساعة): أى دليل على قيام الساعة، حيث وُجد من غير أب والمراد أن القادر على إيجاد بشر من غير أب لقادر على إحياء الموتى يوم القيامة، وهذا دأب القرآن، أنه يستدل بما يشاهده الإنسان من دلائل القدرة على البعث؛ كاستدلاله بإحياء الأرض بالنبات بعد موتها بالجفاف على قدرته سبحانه على إحياء الموتى

من القبور، انظر الآية (٥٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٧، والآيات من (٧ إلى ١١) من سورة ق صفحتى ٦٨٨، ٦٨٩ والآية (١١) من هذه السورة صفحة ٦٤٨. ﴿فلا تمترن بها﴾: أى فلا تشكوا فيها. ﴿بالبينات﴾: أى بآيات الإنجيل الواضحات فى الدلالة على الخير- قبل تبديله وتحريفه. ﴿الحكمة﴾: هى كل ما يوصل للحق وانظر الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٠. ﴿الأحزاب﴾: هم طوائف بنى إسرائيل الذين اختلفوا شيعًا بين مصدق بعيسى وبين مكذب وبين جاهل يقول له ابن الله، انظر الآية (٣٧) من سورة مريم صفحة ٢٩٩.

﴿فويل﴾: أى هلاك.

المعنى: لما استمر قوم فرعون على العناد والكفر أهلكناهم وجعلناهم سابقين إلى مشاهدة مقاعدهم من النار وعبرة لغيرهم. وكان من تعنت كفار قريش أن بعضهم لما سمع قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ الآية (٩٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١ سارع إلى تضليل العامة وقال يا محمد: أليس النصارى يعبدون المسيح؟ وأنت تقول كان نبيًا وعبدًا صالحًا؟ فإن دخل المسيح النار رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه لأنه خير من آلهتنا على كل حال كما تقول. ففرح بذلك سفهاء قريش وارتفعت أصواتهم بالضحك ظانين أنهم غلبوه ﷺ. فقولهم: آلهتنا خيرأم هو؟ يريدون به: هل آلهتنا خير أم عيسى؟ فإن كان عيسى خيرًا كما تقول رضينا أن تكون آلهتنا معه. ولما كان هذا منهم مجرد تضليل لأنهم يعلمون أنه ليس من المعقول فى كلام أقل الناس مدح شخص وجعله فى أعلا درجات الكمال ثم حطه فى أسفل درجات الشقاء، فضلاً عن كلام مَنْ تحداهم بأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا، لا اختلافا واحدا، وفى هذا قال: ما ضربوه لك.. إلخ. أى ما جعل لك كفار قريش عيسى مثلا لآلهتهم إلا لأجل حب الجدل والمغالبة، لا لإظهار الحق؛ لأنهم سمعوا أيضًا بعد الآية التى غالطوا بها ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ وهذا قاطع فى أن القرآن لم يقصد بمَنْ سيكون فى جهنم إلا مَنْ عبد من دون الله من آلهتهم عن رضى منه، إن كان حيًا عاقلاً، أو مطلقًا إن كان جمادا أو حيوانا، كالأصنام مثلا عند العرب وغيرهم، والعجل عند قدماء المصريين وغيرهم، ومن العرب من عبد الملائكة، والملائكة تتبرأ منهم،

انظر شرح الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣ والآية (١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩ إلى غير ذلك مما تقدم فى شرح الآية (٩٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١. ثم بيَّن سبحانه منشأ تمسكهم بالجدل بأنهم قوم عرفوا بشدة المخاصمة وجبلوا على اللجاج فى الباطل فقال سبحانه: ﴿بل هم قوم خصمون﴾. ثم وضح سبحانه مكانة عيسى ومنزلته عليه السلام فقال: ﴿إن هو﴾.. إلخ. أى ما عيسى إلا عبد من عبادنا الصالحين أنعمنا عليه بالنبوة. وجعلناه دليلا لبنى إسرائيل على كمال قدرتنا على إيجاد ما نشاء. ثم هدد سبحانه كفار مكة بقوله: (ولو نشاء﴾.. إلخ أى لو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلكم فى الأرض خلقًا آخر يشبه الملائكة فى الإيمان والطاعة يعمرونها ويعبدوننا حق العبادة. أى فنحن فى غنى عنكم، انظر نظير ذلك فى الآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨. ثم نبههم إلى خطر غفلتهم عن قيام الساعة بأن عيسى الذى خلقته من غير أب دليل قاطع أمامكم على قدرتى على إيجادكم بعد الموت بل ذلك أهون كما جاء فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، فلا يصح أن تشكوا فى قدرتى ومن ثم فلا تشكون فى قيام الساعة؛ واتبعوا شرعى فهو طريق مستقيم موصل للنجاة. ولا يصرفنكم عنه الشيطان إنه لكم عدو ظاهر العداوة. والعاقل لا يأمن عدوه. ثم شرع سبحانه فى قصة عيسى وقومه ليعلم منها أن العاقبة للمؤمنين. والهلاك للكافرين فقال: (ولما جاء).. إلخ. أى ولما جاء عيسى لبنى إسرائيل مزودًا بالآيات الواضحات، انظر الآية (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩. وقال لهم: قد جئتكم بالعلوم التى توصلكم إلى معرفة الحقيقة. وجئتكم لأبيِّن لكم بعض ما اختلفتم فيه، وهو ما يتعلق بأمور الدين؛ لأن بعضهم كان حرَّف التوراة تبعا لشهواته. أما اختلافهم فى أمور الدنيا الصرفة كعلوم الزراعة مثلا فليس من وظيفة الأنبياء، وقال لهم: اتقوا عذاب الله وأطيعونى. إن الله المستحق للعبادة وحده هو ربى وربكم. فكلنا عبيد له فقراء إليه. هذا الذى جئتكم به طريق للخير مستقيم. وكان الواجب بعد هذا الإرشاد أن يكونوا سواء على حق. ولكن الشهوات فرقتهم وجعلت كل فريق يتحزب لرأيه كما سبق فى صفحة ٢٩٩. فتوعدهم سبحانه بقوله: (فويل).. إلخ. أى فهلاك شديد لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، انظر الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠.

عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ[1] لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[2] بِـَٔايَٰتِنَا[3] وَكَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ[4] تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾
يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا
مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ[5] ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾
لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ[6] كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ
فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ[7] ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ[8] وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ[9] ﴿٧٦﴾
وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ[10] لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ[11] ﴿٧٧﴾

المفردات: ﴿أليم﴾: صفة لليوم باعتبار ما فيه فهى صفة للزمان باعتبار الحاصل فيه كما وصف المكان باعتبار الكائن فيه، تقول العرب: نهر جار، أى جار ما فيه وهو الماء. ﴿هل﴾: حرف استفهام إنكارى يفيد النفى، أى لا ينظرون إلا قيام الساعة.

﴿ينظرون﴾: أى ينتظرون.

﴿الساعة﴾: القيامة.

﴿أن تأتيهم﴾: أى إتيانها لهم وهو بدل من الساعة. ﴿الأخلاء يومئذ﴾.. إلخ: المراد أن الصداقة فى الحياة الدنيا نوعان: صداقة رباطها متاع الدنيا فقط، ليس الباعث عليها شيئًا مما يرضى الله، وأصحابها يوم القيامة يعادى بعضهم بعضًا، انظر الآية (٢٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣. والثانى صداقة المتحابين فى الله وهؤلاء هم المتقون.

﴿يا عباد﴾: انظر صفاتهم فى الآية (٦٣) وما بعدها من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧. ومابعدها. ﴿مسلمين﴾: أى منقادين لربهم.

﴿تحبرون﴾: أى تسرون سرورا عظيما.

﴿صحاف﴾: جمع صحفة وهى إناء كبير يوضع فيه ما يؤكل.

﴿أكواب﴾: جمع كوب وهو كوز لا مقبض له.

﴿لا يفتر عنهم﴾: أى لا يخفف الله عنهم العذاب. يقال فترت عنه الحمى: إذا خفت قليلا. ﴿مبلسون﴾: أى يائسون من النجاة متحسرون، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩. ﴿مالك﴾: هو رئيس خزنة جهنم من الملائكة.

(١) يا عباد. (٢) آمنوا. (٣) بآياتنا. (٤) أزواجكم. (٥) خالدون. (٦) فاكهة.
(٧) خالدون. (٨) ظلمناهم. (٩) الظالمين. (١٠) يا مالك. (١١) ماكثون.

﴿ليقض علينا ربك﴾: المراد: نرجو من الله أن يميتنا حتى نستريح، انظر الآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

المعنى: هلاك وشقاء لهؤلاء المشركين سيحل بهم من عذاب أليم يوم القيامة. لا ينتظر المختلفون فى تعاليم رسلهم إلا إتيان القيامة بغتة وهم غافلون عنها. وهذا تهكم بهم وتهديد شديد لأنه جعل قيام الساعة كالمنتظر لحظة بعد أخرى، أى فلابد من وقوعه. ثم بيَّن أحوال الناس فى ذلك اليوم فقال: الأخلاء.. إلخ، أى الذين تصاحبوا فى الدنيا على المعصية يلعن بعضهم بعضًا فى الآخرة، انظر الآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤ والآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦٠، ٥٦١، إلا المتقين فإنهم يكونون إخوانًا على سرر متقابلين كما فى الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، ويقول لهم سبحانه تكريمًا لهم: يا عباد لا خوف عليكم اليوم أى من العذاب، ولا أنتم تحزنون على ضياع مرغوب. ثم بيَّن سبحانه صفة هؤلاء العباد الذين سينالون هذه المنزلة فقال: الذين آمنوا بآياتنا المنزلة فى الكتب السماوية وكانوا منقادين لأوامر ربهم، ويقول لهم سبحانه: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم اللاتى آمن معكم تسرون بما فيها سرورًا عظيمًا. ثم بين سبحانه بعض ما فيها من النعيم فقال: (يطاف عليهم).. إلخ، أى تطوف عليهم ولدان بقصاع كبيرة من الذهب مملوءة بأصناف الطعام وبأكواب فيها أصناف الشراب. ويقال لهم: إن فى هذه الجنة كل ما تشتهيه أنفسكم، وتسر بالنظر إليه أعينكم، وأنتم فى هذا النعيم خالدون لا تخرجون ولا ينقطع. ثم إن هذا الفضل العظيم استحققوه بأعمالهم فقال: (وتلك الجنة) .. إلخ، أى وهذه هى الجنة التى جعلها الله تعالى لكم سهلة الحصول كالميراث جزاء أعمالكم الصالحة. وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال: لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون كما تشاءون. وبعد ما بيَّن سبحانه نعيم أهل الجنة أتبعه بشقاء أهل النار كما هى عادة القرآن ليرغب وينفر فقال: (إن المجرمين).. إلخ. إن المجرمين بالكفر كما فى الآية (٢٩) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨ فى عذاب جهنم خالدون لا يخفف عنهم وهم فيه يائسون متحيرون. وما ظلمهم الله لأنه بيَّن لهم طريق الخير فتركوه فكانوا هم الذين ظلموا أنفسهم. ثم بيَّن ما سيحصل منهم فى جهنم فقال: ونادوا.. إلخ. أى وسينادون نداءً محققًا لاشك فى حصوله حتى كأنه حصل فعلا. يقولون يا مالك بلغ طلبنا من الله أن يريحنا بالموت. فيقول لهم: كلا إنكم ماكثون فى العذاب أبدا لا تموتون ولا

تحيون كما فى الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦ والآية (١٣) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤ نسأل الله السلامة.

المفردات: ﴿أم أبرموا﴾.. إلخ: (أم) حرف يفيد الانتقال من الكلام السابق إلى الإنكار عليهم فى أحكامهم تدبير الكيد، كما تقدم فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩.

﴿أبرموا﴾: أى أحكموا التدبير.

﴿أمرا﴾: هو الكيد له ﷺ والتحايل على إبطال دعوته.

﴿أم يحسبون﴾: (أم) هنا مشوبة معنى الاستفهام التوبيخى المفيد للنفى، والمراد: الإنكار عليهم ظنهم (أن الله لا يسمع سرهم).. إلخ.

﴿سرهم ونجواهم﴾: المراد بالسر هنا حديث النفس وما يخطر فيها من النيات السيئة، انظر الآية (٥٢) من سورة المائدة صفحة ١٤٧.

﴿نجواهم﴾: مايتهامسون به بصوت منخفض حتى لا يسمعه غيرهم، انظر الآية (٧٨) من سورة التوبة صفحة ٢٥٤.

لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾
أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ
إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ
رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾
فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ
إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

(١) جئناكم.
(٢) كارهون.
(٣) نجواهم.
(٤) العابدين.
(٥) سبحان.
(٦) السموات.
(٧) يلاقوا.
(٨) السموات.
(٩) الشفاعة.
(١٠) لئن.

﴿بلى﴾: حرف يدل على إبطال النفى قبله وإثبات ما بعده.

﴿رسلنا﴾: هم الحفظة من الملائكة المشار إليهم فى الآية (١٨) من سورة ق صفحة ٦٨٩، والآية (١٠) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥.

﴿فأنا أول العابدين﴾: أى أسبق الناس إلى الخضوع له.

﴿العرش﴾: تقدم الكلام عليه فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

﴿يصفون﴾: أى يكذبون، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٢.

﴿ذرهم﴾: أى اتركهم وأعرض عنهم.

﴿يخوضوا﴾: أصل معنى الخوض الدخول فى الماء الكثير، ثم استعمل قليلا فى الدخول فى الحديث للتسلية كما فى الآية (٦٥) من سورة التوبة صفحتى ٢٥١، ٢٥٢، والدخول فى الحديث عن أمر خطير كقول العلماء: لا تخوضوا فى الكلام عن الأرواح، وغلب استعماله فى الدخول فى الباطل كما هنا وكما فى الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ والآية (٤٥) من سورة المدثر صفحة ٧٧٨.

﴿ويلعبوا﴾: أى يفعلون فى الدنيا فعل اللاعب الغافل عن العاقبة.

﴿إله﴾: أى معبود بحق. ﴿تبارك﴾: أى تزايد خيره، انظر الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠.

﴿الساعة﴾: أى القيامة. ﴿أنى﴾: كيف.

﴿يؤفكون﴾: أى تصرفهم الشياطين عن الحق كما تقدم فى الآية (٧٥) من سورة المائدة صفحة ١٥٢.

المعنى: بعدما رد مالك خازن النار على الكفار بما أوقعهم فى اليأس من الخروج، خاطبهم الله تعالى خطاب تقريع وتوبيخ مبينًا سبب ما هم فيه فقال: (لقد جئناكم).. إلخ، أى لقد بينا لكم الحق على لسان رسولنا ولكن أكثركم للحق كارهون. ولم يقبله إلا قليل فنجوا من هول ما أنتم فيه. ثم انتقل سبحانه إلى إظهار مكرهم مبينًا أنه سينقلب عليهم فقال: (أم أبرموا)..

إلخ. أى بل الذى جرأ كفار مكة على كفرهم ظنهم أنهم أحكموا الحيلة فى المكر فى رد الحق، ولكنا أحكمنا الكيد فى إهلاكهم، انظر الآية (٥٠) من سورة النمل صفحة ٥٠٠، والآية (٤٢) من سورة الطور صفحة ٦٩٩. بل هل يظنون أنا لا نسمع حديثهم فى داخل أنفسهم ولا ما يتكلمون به سرا بينهم. كلا بل نسمعه. والملائكة الحفظة يسجلون كل ما يصدر عنهم ليلقى إليهم يوم القيامة فتنقطع أعذارهم. انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨. ثم أمر سبحانه رسوله أن يقيم عليهم الحجة فى إبطال زعمهم أن لله عز وجل و لدا فقال: قل إن كان.. إلخ. أى قل أيها النبى لكفار قومك إن أمكنكم أن تثبتوا بدليل قاطع أن للرحمن ولدا كنت أنا أول مَنْ يخضع له تعظيمًا لأبيه. وبما أن الولد لله مستحيل، فمستحيل أن أعبد غير الله: وهذا أسلوب معهود عند العرب فى نفى الشىء بطريق قاطع - يقول أحدهم لمَنْ يناظره: إن ثبت ما تقول بالدليل الصحيح فإنا أول مَنْ ينادى به. ثم علمنا سبحانه كيف ننزهه، فقال: (سبحان رب السموات والأرض).. إلخ، أى ننزه مالك السموات والأرض وما فيهما ورب العرش العظيم عما يفتريه عليه المشركون من الولد والشريك. وبعد ذلك أمر سبحانه نبيه أن يعرض عنهم لأنهم ميئوس منهم، فقال: (فذرهم يخوضوا).. إلخ، أى فاتركهم يتوغلون فى الباطل. ويلعبون فى دنياهم كالأطفال حتى يلاقوا اليوم الذى وعدناهم به. وهو يوم القيامة. وعند ذلك لا ينفعهم الندم ثم أكد التنزيه السابق فقال: (وهو الذى).. إلخ. أى وهو الله الذى.. إلخ، أى وهو الله الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له من أهل السماء وأهل الأرض. وهو الحكيم فى تدبير خلقه. العليم بأحوالهم وما يصلح لكل منهم. تعالى قدر الله الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما، وعنده وحده علم قيام الساعة. وإليه مرجع جميع الخلائق. ولا يقدر شىء من الأصنام وما يعبدون غيره تعالى على الشفاعة لهم كما زعموا فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨. ولكن مَنْ نطق بكلمة التوحيد وكان على علم بربه كالملائكة والأنبياء وعلى رأسهم محمد ﷺ فإن لهم الشفاعة بشرط إذنه تعالى. وكون المشفوع فيه يستحقها كما تقدم فى الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦. ثم بيَّن سبحانه أن هؤلاء المشركين متناقضون فقال: (ولئن سألتهم).. إلخ. أى ولئن سألت أيها النبى مشركى قومك مَنْ الذى خلقهم بل وخلق الخلق جميعًا؟ والله ليقرون بأنه هو الله وحده ولا يستطيعون الإنكار فكيف مع هذا يصرفهم الشيطان عن توحيده تعالى فى العبادة.

وَقِيلِهِۦ[1] يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ[2]ۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾

(٤٤) سُورَةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَخَمْسُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ[3] ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ[4] ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ[5] فِى لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ[6]ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[7] وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ[8] ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

المفردات: ﴿وقيله﴾: القيل والقال كلها والقول شىء واحد، والواو للقسم أى: وحق قول رسولى محمد وشكواه من أنهم لا يؤمنون لأذيقنهم ما يستحقون فى الدنيا والآخرة، وحذف المقسم عليه معهود عند العرب.

﴿فاصفح عنهم﴾: المراد: أعرض عنهم إعراض العاقل عن الجاهل واستمر فى دعوتك ولا تبال بهم، انظر الآية (٩٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤.

﴿سلام﴾: المراد: سلام ترك وإهمال، لا سلام تحية، انظر الآية (٥٥) من سورة القصص صفحتى ٥١٤، ٥١٥.

﴿حم﴾: تنطق حا ميم بكسر الميم الأولى وسكون الآخر. ﴿والكتاب﴾: أى وحق هذا القرآن. ﴿المبين﴾ الموضح للحق والباطل والحلال والحرام. ﴿أنزلناه﴾: أى ابتدأنا إنزاله. ﴿فى ليلة مباركة﴾: هى ليلة القدر المذكورة فى سورة القدر صفحة ٨١٥. ﴿منذرين﴾: أى محذرين ومخوفين من المعاصى. ومع أنه بشَّر أيضًا كفار مكة لكن اقتصر هنا على ذلك لأن مقام الكلام يقتضيه. ﴿يفرق﴾: أى يفصَّل ويبين. والمراد (فصَّل وبيَّن). أى بدى فى تفصيل كل أمر.. إلخ. والتعبير بالفعل المستقبل والمراد الفعل الماضى لاستحضار الصورة العجيبة. وذلك فى القرآن كثير، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (٤٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩ والآية (٢٦) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٣ والآية (١٢) من سورة النجم صفحة ٧٠١ والآية (١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٤.

(١) يارب. (٢) سلام. (٣) حاميم. (٤) الكتاب.
(٥) أنزلناه. (٦) مباركة. (٧) السموات. (٨) آبائكم.

﴿حكيم﴾: أى محكم لا يستطيع مخلوق نقضه. ﴿أمرا من عندنا﴾: المراد: مأمور به منا، وهو حال من إنقران المنزل. ﴿رحمة من ربك﴾: مفعول لأجله. أى لأجل رحمة المرسل إليهم.

المعنى: بعدما علم ﷺ شدة عناد قومه وشعر بعدم إيمانهم ناجى ربه متحسرًا حزينًا: (يارب إن هؤلاء).. إلخ بعد ذلك أقسم سبحانه بقوله ﷺ تشريفا له وتقديرا لشكواه إليه فقال: وقيله.. إلخ. أى وحق قول رسولى وشكواه لى لأفعلن بهم ما يستحقون من الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

فأعرض عنهم أيها النبى وقل سلام منى عليكم، سلام هجر وفراق. فسوف يعلمون عندما نأذنك بقتالهم أنهم هم الخاسرون. وأن جندنا هم الغالبون الفائزون. والله تعالى أعلم.

(سورة الدخان)

حم. تقدم المراد بمثل ذلك أول سورة البقرة. أقسم بحق هذا القرآن الموضح لطريق الخير والشر حتى يسلك الأول ويجتنب الثانى. إنا بدأنا إنزاله فى ليلة كثيرة الخير بنزوله فيها فكانت بذلك خيرًا من ألف شهر. ثم بيَّن سبحانه حكمة إنزاله بقوله: إنا كنا منذرين أى معلمين الناس ومحذرينهم مما يضرهم. فى هذه الليلة بدئ فى تفصيل كل أمر محكم مما يتعلق بصلاح الخلق حال كون هذا الدال على هذا الأمر الحكيم مأمورا بإنزاله من عند الحكيم العليم.

ثم بيّن سبحانه ما يحقق حكمة إنزاله فقال: (إنا كنا مرسلين).. إلخ. أى من شأننا أن نرسل رسولنا لأجل رحمة عبادنا وإنقاذهم من الضلال. إن الله هو السميع لكل أقوال خلقه. العليم بكل أحوالهم فلا يشرع لهم إلا ما ينفعهم. ثم أكد سبحانه إحاطة سمعه وعلمه بقوله: رب السموات والأرض.. إلخ: أى السميع العليم لأنه منشئ السموات والأرض وما بينهما ومالكهما. إن كنتم يا أهل مكة موقنين بذلك حقا كما تقولون فيجب أن تعترفوا بوحدانيته وصدق رسوله. انظر الآية (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩ والآية (١٤) من سورة الملك صفحة ٧٥٥. ثم أكد سبحانه ما سبق فقال: لا إله إلا هو يحيى من يشاء ويميت من يشاء. ربكم ورب آبائكم الأولين لا رب سواه.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي
السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)
أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا
عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا
إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا
مُنْتَقِمُونَ (١٦) * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ
رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠)
وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ
قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣)

المفردات: ﴿بل هم﴾: بل: حرف يدل على إبطال ما قبله وإثبات ما بعده.

﴿فارتقب﴾: أى انتظر.

﴿دخان﴾: المراد: ظلمة فى الجو يراها الواقع فى كرب كأنها دخان.

﴿مبين﴾: أى واضح.

﴿يغشى الناس﴾: أى يحيط بهم.

﴿مؤمنون﴾: يريدون عازمون على الإيمان، لأنهم فى الواقع لم يؤمنوا لحظة واحدة.

﴿أنى﴾: أى كيف ومن أين.

﴿الذكرى﴾: أى التذكر والاعتبار.

﴿رسول مبين﴾: أى واضح الرسالة من ربه. وهو خاتم الرسل ﷺ.

﴿تولوا عنه﴾: أى أعرضوا.

﴿مُعلَّم﴾: أى يعلمه غيره من البشر. وليس رسولا: انظر الآية (١٠٣) من سورة النحل صفحة ٣٦٠.

﴿إنكم عائدون﴾: أى هذه طبيعتكم، انظر الآية (٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦.

﴿نبطش﴾: أى نأخذ بشدة، انظر الآية (٣٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٧ والآية (١٢) من سورة البروج صفحة ٨٠١.

﴿فتنا قبلهم قوم فرعون﴾: أى عاملناهم معاملة المختبر ليظهر ما فى نفوسهم للناس فيؤمنوا بعدل الله.

(١) عائدون. (٢) آتيكم. (٣) بسلطان.

﴿رسول كريم﴾: هو موسى عليه السلام كريم على ربه.

﴿أن أدوا إلىَّ عباد الله﴾: أى أعطونى واتركوا لى بنى إسرائيل. انظر الآية (٤٧) من سورة طه صفحة ٤٠٩.

﴿لاتعلوا على الله﴾: تدور معانى كلمة (علا) حول الارتفاع والترفع وما يتبع ذلك من التكبر والجبروت والقهر والغلبة، فتفسر فى كل موضع بما يناسبه، قال صاحب لسان العرب: تقول العرب علا فلان فلانا إذا قهره. يقال: علا الله على الخلق أى قهرهم بقدرته. (انتهى كلام صاحب اللسان).

والمناسب هنا هو التكبر كما تقدم فى الآية (٣١) من سورة النمل صفحة ٤٩٧، ومن المعلوم أن التكبر قد يضر الغير معنويا فقط، كالمتعاظم على الناس من غير أن ينالهم منه ضرر مادى، وقد يضر ماديا كالمتكبر الذى ينفذ فى الناس آثار تكبره كضرب، أو سلب مال، أو غير ذلك. كل هذا إذا كان التكبر على مخلوق، أما التكبر على الله عز وجل فمعناه التعالى على تنفيذ أوامره سبحانه وتعالى وعصيانه.

﴿سلطان مبين﴾: أى برهان واضح على صدق رسالتى انظر الآية (٣٢) من سورة القصص صفحة ٥١١.

﴿عذبت بربى﴾: أى تحصنت بربى.

﴿أن ترجمون﴾: أى من أن ترجمونى بالحجارة فتقتلونى، انظر الآية (٩١) من سورة هود صفحة ٢٩٨.

﴿تؤمنوا لى﴾: أى تصدقونى، انظر الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥.

﴿فاعتزلون﴾: أى اتركونى وشأنى.

المعنى: ولما كان ما سبق يشعر بأنهم مصدقون ما يقرون به أراد سبحانه أن يبطل ذلك فقال: بل هم فى شك.. إلخ. أى هم فى الحقيقة غير موقنين بما يقولون بل هم فى شك واضطراب فى داخل أنفسهم حال كونهم فى إقرارهم بأن خالقهم هو الله يقولون قول الأطفال

الذين لا يقدرون ما يقولون. ولما اشتد حزنه ﷺ على عدم إيمان قومه كما تقدم فى الآية (٨٨) فى الصفحة السابقة، طلب من ربه أن يضيق عليهم لعل الشدة ترجعهم إلى الصواب، فقال له سبحانه: فارتقب يوم تأتى السماء.. إلخ. أى من جهتها أو بسببها حيث منع سبحانه عنهم المطر مدة طويلة حتى يبست الأرض. وهلك الزرع. وأغبر الجو. وأكلوا الجيف من شدة الجوع. وضعفت أبصارهم حتى صار الرجل إذا نظر إلى السماء يرى كهيئة دخان واضح محيط بهم من كل جانب حتى قالوا هذا عذاب شديد الألم. يا ربنا اكشف عنا هذا العذاب إنا سنؤمن لو كشفته عنا. فرد سبحانه عليهم بقوله: (أنى لهم).. إلخ، أى من أين لهم التذكر والاعتبار والحال أنهم جاءهم رسول ظاهر صحة الرسالة بما معه من المعجزات. ومع ذلك أعرضوا عنه. وقال بعضهم يعلمه بشر وليس رسولا. وبعضهم قال: إنه مجنون يقول كلاما لم نسمعه من آبائنا الأولين، ومع هذا فقد رق قلبه ﷺ وطمع فى إيمانهم، وطلب من ربه أن يكشف العذاب عنهم، فأجابه سبحانه بقوله: إنا كاشفو العذاب.. إلخ، أى سنكشفه زمنا قليلا هو المدة الباقية لهم فى الحياة. ثم إنكم بعد كشفه عائدون إلى العزم على الاستمرار على الكفر. فانتظر أيها النبى يوم نبطش بهم البطشة الكبرى فننتقم منهم. وقد حصل فى غزوة بدر وما بعدها، فلم ينج منهم إلا مَنْ تحصن بالإيمان. ثم أراد سبحانه أن يذكرهم بما حصل لفرعون وقومه ليعتبروا فقال: (ولقد فتنا).. إلخ. أى امتحنا قوم فرعون فأرسلنا لهم رسولا كريما، وقال لهم آمنوا بالله وأرسلوا معى بنى إسرائيل، انظر الآية (١٣٤) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢. إنى لكم رسول من الله أمين على أداء رسالته. وألا تتكبروا على أوامر الله؛ لأنى أتيتكم ببرهان واضح على صدق رسالتى، وإنى تحصنت بربى وربكم من أن تقتلونى رجما بالحجارة فلا أخافكم من هذه الجهة. انظر سبب يقينه فى هذا فى آيتى (٤٥، ٤٦) من سورة طه صفحة ٤٠٩ والآية (١٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠ وآيتى (٦١، ٦٢) من نفس السورة صفحتى ٤٨٣، ٤٨٤ والآية (٣٥) من سورة القصص صفحتى ٥١١، ٥١٢. وإن لم تصدقونى فابتعدوا عنى ولا تكونوا علىَّ ولا لى. ولكنهم لم يتركوا إيذاءه ولا إيذاء بنى إسرائيل فدعا ربه قائلاً: يا ربى هؤلاء القوم - أى فرعون وقومه - مجرمون. فقال له سبحانه فأسر بعبادى ليلا. وقد دبرت أن فرعون وجنوده سيتبعونكم فأغرقهم إلى آخر ما سيأتى.

وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا
مِن جَنَّاتٍ(١) وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾
وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(٢) ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا(٣) قَوْمًا
آخَرِينَ(٤) ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(٥) مِنَ
الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ
الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ(٦) عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(٧) ﴿٣٢﴾
وَآتَيْنَاهُم(٨) مِّنَ الْآيَاتِ(٩) مَا فِيهِ بَلَاءٌ(١٠) مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا(١١) إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٢) ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ(١٣) إِنَّهُمْ
كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ(١٤) وَالْأَرْضَ وَمَا

المفردات: ﴿رهوا﴾: أصله رها يرهو. بوزن عدا يعدو. أى سكن. وأريد به هنا اسم الفاعل. أى ساكنا، لا اضطراب فيه كحاله عند عبوركم منفتحة فيه الطرق.

﴿كم﴾: أى كثير.

﴿من جنات﴾: (من) حرف يدل على بيان المراد من (كم) قبله.

﴿مقام كريم﴾: المساكن الحسنة والمجالس البهيجة، انظر الآية (٥٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣.

﴿نعمة﴾: أى تنعم.

﴿فاكهين﴾: تقدم فى الآية (٥٥) من سورة يس صفحة ٥٨٤. ﴿كذلك﴾: أى الأمر كذلك.

﴿قوما آخرين﴾: قيل هم كل مَنْ استولى على مصر بعد فرعون.

---

(١) جنات.
(٢) فاكهين.
(٣) أورثناها.
(٤) آخرين.
(٥) إسرائيل.
(٦) اخترناهم.
(٧) العالمين.
(٨) آتيناهم.
(٩) الآيات.
(١٠) بلاء.
(١١) بآبائنا.
(١٢) صادقين.
(١٣) أهلكناهم.
(١٤) السموات.

﴿بكت عليهم السماء﴾: العرب تقول: بكت على فلان السماء كناية عن أنه ذو مقام خطير يهتم الناس بفقده.

﴿منظرين﴾: أى مؤخرين عن الوقت المحدد لإهلاكهم.

﴿عاليا﴾: أى مستعليا على الناس، انظر الآية (٨٣) من سورة يونس صفحة ٢٧٩.

﴿المسرفين﴾: أى المفرطين فى الشر والفساد.

﴿على علم﴾: أى عالمين باستحقاقهم.

﴿الآيات﴾: أى المعجزات على يد موسى كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى، انظر آيتى (٥٧، ٦٠) من سورة البقرة صفحتى ١١، ١٢.

﴿بلا مبين﴾: أى اختبار ظاهر ليشكروا، أو يكفروا.

﴿هؤلاء﴾: أى كفار مكة.

﴿إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما) و(هى) أى الموتة التى سنلاقيها. (الأولى) إذا تأملت بيان أساليب العرب عند شرح الآية (٥٦) من هذه السورة صفحة ٦٦٠، تعلم أن مراد الكفار هنا هو أنه ليس لنا إلا موتة لا حياة بعدها، وليس مرادهم أنهم ينكرون موتة ثانية يقول بها الرسول ﷺ؛ لأن الرسول وما جاء معه من القرآن يقرران أن لا موت بعدما حصل فى الدنيا، وأن كلا من المؤمن والكافر خالد فيما هو فيه. أما المؤمن ففى آيات كثيرة منها الآية (٥٦) من هذه السورة صفحة ٦٦٠. وأما الكافر ففى الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦ والآيات (٧٤ - ٧٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤ والآيات (١١-١٣) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤.

﴿بمنشرين﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها، و(منشرين) أى مبعوثين من القبور أحياء كما يقول محمد ﷺ.

﴿تبع﴾: هو تبع الحميرى، أحد ملوك اليمن وكان رجلا صالحا، ولذا ذم سبحانه قومه دونه، وكان معروفا عند أهل مكة وكذا ما حصل لقومه.

المعنى: وقال سبحانه لموسى إذا خرجت من البحر أنت وأصحابك فلا تضربه ثانيا ليعود كما كان بل اتركه على حاله مفتحة فيه الطرق ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا. ثم ذكر ما خلفوه فقال: كم تركوا.. إلخ. أى كثيرا ما تركوا من بساتين وعيون تفيض ماء وزروع ناضرة وقصور شامخة وأسباب تنعم كانوا فيه متلذذين. الأمر كذلك، لا تغير فيه، وأورثنا هذه النعم قومًا آخرين من أمم مختلفة كالبابليين والحبش والفرس والرومان والعرب.. إلخ. وانظر مع هذا ما تقدم فى آيتى (٥٧ - ٥٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣. ومع أن فرعون وقومه كانوا يستعظمون أنفسهم فما اهتم بهلاكهم أحد. وما أمهلهم الله لحظة عن الوقت المحدد لإهلاكهم. ثم بيَّن سبحانه إحسانه لموسى وقومه فقال: ولقد نجينا.. إلخ. أى لقد خلصناهم من عذاب فرعون وملئه لهم بالاستعباد والقتل بإهلاك عدوهم. إن فرعون كان متعاليًا متكبرًا مجاوزًا فى الفساد. ولقد اخترنا بنى إسرائيل على علم منا بحالهم. وقدمناهم على عالم زمانهم لأنهم كانوا مؤمنين وما عداهم أغلبهم وثنيون مشركون، ولكنهم لما اختلفوا وعصوا كما فى الآية (١٧) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٢ غضب الله عليهم غضبة خالدة. كما تقدم فى الآية (١٦٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠. وأعطيناهم من الأمور العظيمة ما فيه امتحان لهم هل يشكرون أم يكفرون نعمتنا؟، ثم رجع سبحانه إلى الكلام عن أهل مكة فقال: إن هؤلاء.. إلخ. أى إن قومك أيها النبى ينكرون البعث ويقولون: ما العاقبة والنهاية إلا الموتة التى تصادفنا أول شىء بعد نهاية الحياة. ولا حياة بعدها وما نحن بمبعوثين أحياء من القبور. انظر الآية (٢٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. فإن كان البعث حقا كما تقول يا محمد أنت ومَنْ معك فاسرعوا بإحياء آبائنا إن كنتم صادقين. بعد ذلك توعدهم سبحانه وهددهم بأنه سيحصل لهم ما حصل لقوم تبع الذين كانوا أكثر منهم وأغنى فقال: أهم.. إلخ. المراد هل هم أقوى أم قوم تبع والذين سبقوهم كقوم نوح وعاد وثمود.. إلخ؟ هؤلاء جميعا أهلكناهم لما عصوا رسلهم واستمروا على الإجرام. ولهذا سنعاملكم مثلهم إذا بقيتم على الكفر. لأنا ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما للعب، بل لحكمة.

المفردات: ﴿لاعبين﴾: أى ما خلقناهما باطلاً، ولا عبثًا. انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، والآية (٢٧) من سورة ص صفحة ٦٠٠.

بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾
يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ
شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى
فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ
سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ
هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ
أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾

﴿يوم الفصل﴾: أى اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق، وهو يوم القيامة. انظر الآية (٣) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥.

﴿ميقاتهم﴾: أى وقت جمعهم للحساب.

﴿يغنى﴾: أى ينفع. انظر الآية (١٢٣) من سورة البقرة صفحة ٢٤.

﴿مولى﴾: أى شخص موال بالقرابة أو الصداقة أو التحالف.

﴿عن مولى﴾: أى عن صديق مذنب أو قريب مخطئ.. إلخ.

﴿شجرة الزقوم﴾: شجرة منتنة الرائحة، مرة الطعم، كما تقدم فى الآية (٦٢) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠. ﴿الأثيم﴾: هو كثير الآثام أى الذنوب. ﴿كالمهل﴾: سائل الذهب أو الفضة أو النحاس أو نحوها. كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥.

﴿الحميم﴾: هو الماء الشديد الحرارة. ﴿خذوه﴾: أى الأثيم. ﴿فاعتلوه﴾: أى جروه بغلظة وقسوة. ﴿سواء الجحيم﴾: أى وسطها. ﴿العزيز الكريم﴾: يقال هذا للأثيم سخرية وتهكمًا به؛ لأنه كان يزعم أنه منيع الجانب مكرم. ﴿تمترون﴾: أى تشكون. ﴿مقام أمين﴾: فى محل إقامة أمنوا فيه من كل هم وحزن. ﴿فى جنات وعيون﴾: المراد: يقيمون فى مكان تحيط به البساتين والعيون تجرى منها الأنهار. انظر الآية (٥٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٨.

﴿سندس﴾: هو ما رق من الحرير. ﴿إستبرق﴾: يطلقه العرب على ما غلظ من الحرير، وعلى ماله لمعان.

(١) لاعبين.	(٢) خلقناهما.	(٣) ميقاتهم.
(٤) شجرة.	(٥) جنات.	(٦) متقابلين.
(٧) زوجناهم.	(٨) فاكهة.	(٩) آمنين.

﴿حور﴾: الحور بفتح الحاء والواو هو أن يغلب سواد العين على بياضها مع قوة كل منهما. ويقال للمرأة التى بهذه الصفة حوراء. بفتح فسكون وجمعها حُور كما هنا بضم أوله.

﴿عين﴾: جمع عيناء. وهى واسعة العين. ﴿يدعون﴾: أى يطلبون.

المعنى: ما خلقنا الخلق عبثا بل خلقناه لحكم عالية منها امتحان العقلاء بإرسال الرسل وإنزال الشرائع. فيتميز من يستحق الخلود فى نعيم الحياة الآخرة ومن يستحق العذاب. انظر شرح آيتى (٤، ٥) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٢، ٥٦٣. ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لغفلتهم وانهماكهم فى لذات الدنيا فأنكروا الآخرة. أو أهملوا العمل لها. ثم هدد سبحانه الكفار بقوله: إن يوم الفصل.. إلخ، أى إن اليوم الذى يفصل الله فيه بين الخلق هو الوقت المحدد لهم جميعًا. وهو يوم لا ينفع فيه قريب ولا صديق قريبه ولا صديقه أقل شىء من النفع. ولا أحد من هؤلاء الموالى العاصين، ينصره غيره بدفع العذاب عنه. لكن مَنْ رحمه الله من عباده المؤمنين فإنه لا يحتاج إلى غيره. وهو مَنْ غلبت حسناته سيئاته. إنه سبحانه هو العزيز أى الغالب فى انتقامه من أعدائه الرحيم بالمؤمنين، ثم بيَّن سبحانه ما سيلاقيه الكافر فى جهنم لعل كفار مكة ينزجرون فقال: (إن شجرة الزقوم).. إلخ. أى إن طعام الأثيم فى جهنم سيكون من مثل هذه الشجرة الخبيثة الطعم والرائحة. فإذا ما دخل فى البطون كان كالمعدن المذاب يغلى كغلى الماء البالغ النهاية فى الحرارة. ويقال للزبانية خذوا هذا الأثيم فادفعوه بشدة فى وسط جهنم. ثم صبوا فوق رأسه من الماء الذى يغلى ليزداد عذابه، انظر آيتى (١٩، ٢٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٦، وقولوا سخرية به، ذق الذل اليوم لأنك كنت تدعى أنك عزيز كريم وإذا بك ذليل مهين. ثم يقال لمنكرى البعث: إن هذا العذاب هو ما كنتم تشكون فيه فى الدنيا مع قيام ألف دليل عليه، انظر الآية (١٤) من سورة الطور صفحة ٦٩٧. وبعدما ذكر ما سيلاقيه الكافر من الأهوال شرع فى بيان ما يلاقيه المؤمن من النعيم فقال: (إن المتقين).. إلخ. أى إن الذين اتقوا الله فى الدنيا سيكونون فى محل مأمون من الموت ومن كل ما يحزن. ثم بيَّن بعض هذا النعيم فقال: فى جنات وعيون يلبسون ما رق وبهج من الحرير على سرر متقابلين كما فى الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. الأمر كما ذكرنا لا شك فيه. وزوجناهم بنساء بالغات النهاية فى جمال العيون. يطلبون كل ما يشتهون من أنواع الفاكهة. آمنين من انقطاعها: لأن الله وعدهم بذلك كما فى الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ[1] وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ[2] بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)

(٤٥) سُورَةُ الجَاثِيَةِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ[3] (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ[4] مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ[5] وَٱلْأَرْضِ لَءَايَـٰتٍ[6] لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ[7] لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَـٰفِ[8] ٱلَّيْلِ[9] وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن

﴿الجاثية﴾: انظر معنى هذا الاسم فى الآية (٢٨) الآتية صفحة ٦٦٤.

﴿حم﴾: تنطق حاميم بسكون الآخر.

﴿لآيات﴾: أدلة على حكمته تعالى وقدرته.

﴿يبث﴾: أى ينشر ويفرق فى الأرض والسماء كما فى الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

﴿من دابة﴾: ﴿من﴾ تدل على أن ما بعدها بيان لـ (ما) قبلها.

(١) وقاهم.
(٢) يسرناه.
(٣) حاميم.
(٤) الكتاب.
(٥) السموات.
(٦) لآيات.
(٧) آيات.
(٨) اختلاف.
(٩) الليل.

المفردات: ﴿إلا الموتة الأولى﴾: ﴿إلا﴾ حرف بمعنى ﴿غير﴾ أى لا يعانون فى الجنة. ألم الموت بعدما عانوه فى الدنيا عند خروج الروح، ولما كان هو المراد لم يتعرض للموت الذى سبق الحياة الدنيا المشار إليه فى الآية (٢٨) من سورة البقرة صفحة ٧ والآية (١١) من سورة غافر صفحة ٦١٩: لأنه ليس فيه ذوق ألم.

﴿يسرناه بلسانك﴾: أى سهلناه بلغتك عليك وعلى مَنْ يقرؤه.

﴿فارتقب﴾: تقدم معناه فى الآية (٣٠) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨.

سورة الجاثية

﴿يوقنون﴾: تقدم فى الآية (٤) من سورة البقرة صفحة ٢ .

المعنى: بعدما بيّن سبحانه نعيم المؤمنين أراد أن يصرح بما يزيد فى اطمئنانهم فقال: (لا يذوقون) .. إلخ. أى لا يتجرع أهل الجنة مرارة الموت بعد الموتة الأولى التى قطعت حياتهم الدنيا. ووقاهم ربهم عذاب الجحيم، وحصل ذلك لتفضل ربك أيها النبى عليهم. وهذا هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.

ثم بيّن سبحانه حكمة كون القرآن عربيًا فقال: (فإنما)... إلخ. أى وإنما سهلنا قراءة القرآن وجعلناه بلغتك التى هى لغة قومك ليتذكروا ويتدبروا ما فيه.

فإما أن يؤمنوا وإما أن تقوم عليهم الحجة، انظر الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩، وآيتى (١٩٨، ١٩٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢؛ فإذا لم يهتدوا فانتظر ما سيحصل لهم عندما يأذنك الله بقتالهم، واعلم أنهم هم أيضًا ينتظرون لك الموت ليستريحوا، انظر آيتى (٣٠، ٣١) من سورة الطور صفحة ٦٩٨ .

سورة الجاثية

﴿حم﴾: تقدم المراد من مثلها أول سورة البقرة. تنزيل هذا القرآن هو من الله العزيز القاهر فوق عباده. الحكيم فى صنعه. فلم يخلق شيئًا عبثًا.

ثم أرشد سبحانه إلى أدلة حكمته وقدرته فقال: (إن فى السموات)... إلخ. أى إن فى السموات وما فيها من بديع الصنع ودقيق النظام. والأرض وما فيها من زرع وأشجار وحيوان لأدلة قاطعة على وجود مدبر حكيم، ينتفع بهذه الأدلة المؤمنون، انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة (٣١) والآية (١٩٠) من سورة آل عمران صفحة ٩٥ .

وفى خلقكم أيها الناس على أحوال مختلفة من أول تكوينكم فى الأرحام إلى مماتكم كما فى الآية (١٢) وما بعدها من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ والآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤ والآية (٥٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٨ .

وإن فى خلق ما يبثه سبحانه من الدواب فى الأرض والسماء، فى كل ذلك أدلة ينتفع بها الذين يدخل اليقين قلوبهم بصحة كل ما فى هذا القرآن. وكذا فى جعل الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر للحكمة المذكورة فى آيتى (٧١، ٧٢) من سورة القصص صفحة ٥١٧؛ وكذا فيما أنزل سبحانه من جهة السماء من ماء... إلخ.

رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ[1] آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ[2] اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ[3] يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ[4] اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا[5] شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ[6] جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ[7] رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ

المفردات: ﴿رزق﴾: المراد: سبب الرزق وهو المطر. والرزق هنا غير ما ورد فى الآية (٢٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣ .

﴿فأحيا به الأرض﴾: جعلها تنبت.

﴿بعد موتها﴾: أى بعد يبسها وخلوها من النبات. ﴿تصريف الرياح﴾: أى تنويع اتجاهها من جهة إلى جهة أخرى. ومن حارة إلى باردة، لحكم يدركها المفكرون.

﴿بعد الله وآياته﴾: المراد بعد حديث الله وما فيه من أدلة واضحة. دل على هذا ذكر ﴿حديث﴾ قبله، والحديث هو القرآن، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ والآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩، وعطف الآية على ما قبلها من عطف الجزء على الكل. ﴿ويل﴾: أى هلاك. و﴿أفاك﴾: كثير الإفك أى الكذب. ﴿أثيم﴾: كثير الآثام أى الذنوب.

﴿فبشره بعذاب أليم﴾: هذا تهكم به وإلا فالمراد أنذره وخوفه. ﴿اتخذها﴾: أى جعلها. ﴿هزوا﴾: أى مهزوءا بها. ﴿ورائهم جهنم﴾: أى أمامهم، كما تقدم فى الآية (٧٩) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢ . ﴿لا يغنى عنهم﴾: أى لا ينفع فى دفع شىء من العذاب عنهم.

﴿أولياء﴾: المراد بهم معبوداتهم الباطلة، ورؤساؤهم الذين أطاعوهم فى معصية الله سبحانه، انظر الآيات (٨٦) وما بعدها من سورة النحل صفحة ٣٥٧ و(٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١ و (٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣ .

﴿رجز﴾: المراد: أشد أنواع العذاب. ﴿سخر لكم﴾: انظر شرح الآية (٢١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣ .

(١) الرياح. (٢) آيات. (٣) آياته. (٤) آيات
(٥) آياتنا . (٦) ورائهم . (٧) بآيات.

المعنى: وإن من آيات اللّه ما نزله سبحانه من جهة السماء من مطر يتسبب عنه رزق العباد كما فى الآيات (٩، ١٠، ١١) من سورة ق صفحة ٦٨٩ . فأنبت اللّه بهذا المطر الأرض بعد أن كانت قاحلة. وفى تقليب الرياح من حال إلى حال لسوق السحاب كما فى الآية (٤٨) من سورة الروم صفحة ٥٣٧ والآية (٩) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢.. وتسير به السفن إلى غير ذلك.

فى كل ذلك آيات لقوم يعقلون. وحاصل ما تقدم أنه سبحانه يقول إنكم إذا تأملتم فى الأدلة الموجودة فى السموات والأرض آمنتم بوحدة خالقها وقدرته، فإذا ازداد علمكم زاد تثبتكم، فصرتم موقنين. ومتى أيقنتم بإتقان هذا النظام صرتم أصحاب عقول تغوص فى هذا الكون وتستخرج أسراره وتنتفع بكل ما فيه.

- هذه آيات القرآن بما فيها من أدلة وعبر نتلوها عليك مقترنة بالحق. فبأى حديث بعد حديث اللّه وما فيه من أدلة واضحة يؤمن هؤلاء القوم؟ ثم بعد ذلك هددهم إذا لم يتنبهوا فقال: (ويل)... إلخ. أى أشد الهلاك سيحل بكل كذاب فى أقواله، مجرم فى أفعاله، يسمع هذا الأفاك آيات اللّه تقرأ عليه وتهز القلوب هزا، لكنه هو لتحجر قلبه يصر على ما هو فيه عنادا واستكبارا كأنه لم يسمع منها شيئًا. فبلغه أيها النبى أنه ليس له خبر سار يسمعه أبدا.

بل لا يسمع إلا الوعيد بالعذاب الأليم. هذا حاله عند سماع آيات القرآن.

أما حاله عندما يبلغه شىء منها وهو بعيد عن سماعها من الرسول أو أحد المؤمنين فإنه يجعلها هزوا وسخرية؛ فقد روى أن بعض كفار مكة لما سمع أن فى النار شجرة الزقوم قال: يقول محمد إن النار تأكل الحجارة. ثم رجع وقال: إن فيها شجرة. فهؤلاء الكفار لهم عذاب شديد الإهانة.

ثم بيّن هذا العذاب فقال: (من ورائهم)... إلخ. أى أمامهم جهنم ولا يدفع عنهم ما كسبوه فى الدنيا من المال والجاه شيئًا من عذابها. وكذا لا ينفعهم بشىء ما عبدوهم غير اللّه. ولهم عذاب عظيم لا يعرف قدره سبحانه. هذا القرآن تام الهداية إلى الحق. والذين كفروا به وبأدلة وحدانيته تعالى لهم عذاب من أشد أنواع العذاب.

ثم ذكر سبحانه بعض آثار آياته السابقة على وجه الإجمال فقال سبحانه: اللّه الذى سخر لكم.. إلخ. أى أن الذى سخر لكم البحر لتجرى السفن فيه بإذنه ولتطلبوا من فضله بالتجارة وغيرها مما فى جوف البحار ولتشكروه على كل ذلك هو اللّه وحده. لا شىء من معبودات المشركين الباطلة.

لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ

المفردات: ﴿جميعًا منه﴾: أى من فضله عليكم وإحسانه إليكم.

﴿يغفروا﴾: متعلق بأصل ما تقدم فى هذه السورة من الآية (٧) إلى الآية (١١)، وفيها من تبجح المشركين وغرورهم ما يحرج صدور المسلمين وتحريضهم على معاقبتهم فأمر اللّه المسلمين بأن يصفحوا ويمدوا لهم حبل الإمهال إلى أن يأذن اللّه سبحانه بقتالهم، انظر الآية (١٠٩) من سورة البقرة صفحة ٢١ والآية (٢٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤ . ﴿لا يرجون﴾: أى لايتوقعون لأنهم فى غفلة عما ينتظرهم من الشر، انظر ما سبق فى الآية (٢١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣ . ﴿أيام اللّه﴾: المراد مثل المصائب التى أنزلها اللّه سبحانه وتعالى بالأمم قبلهم، انظر الآية (١٠٢) من سورة يونس صفحة ٢٨٢ والآية (٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠ . و﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل. ﴿الحكم﴾: المراد به هنا: الحكمة كما تقدم فى الآية (٨٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٦ . ﴿فضلناهم على العالمين﴾: أى فضلناهم على جميع من سواهم فى زمانهم لشدة إيمانهم وقوة يقينهم. انظر ما تقدم فى الآية (٣٢) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨ . ﴿بينات من الأمر﴾: المراد أدلة واضحة من أمر خاتم المرسلين تثبت صدقه، انظر الآيات (٤٢، ٨٩، ١٤٦) من سورة البقرة صفحات ٩، ١٧، ٢٨ والآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨ . ﴿بغيا بينهم﴾: تقدم شرحه فى الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢ . ﴿ولا تتبع أهواء﴾... إلخ: انظر شرح الآية (٨٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٩، ٥٢٠ .

(١) السموات. (٢) الآيات. (٣) آمنوا. (٤) صالحا.
(٥) آتينا. (٦) إسرائيل. (٧) الكتاب. (٨) رزقناهم.
(٩) الطيبات. (١٠) فضلناهم. (١١) العالمين. (١٢) آتيناهم.
(١٣) بينات. (١٤) القيامة. (١٥) جعلناك. (١٦) الظالمين.

المعنى: بعدما ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على الإنسان أراد أن يبين أن فضله أعم مما ذكر فقال: (وسخر لكم ما فى السموات)... إلخ أى وسخر لمصلحتكم جميع ما فى السموات من شمس وقمر ونجوم تهتدون بها ورياح ومطر وجميع ما فى الأرض من أنهار وأشجار وحيوان وزروع: جميع ما ذكر وغيره منه سبحانه وحده. انظر الآيات (٣٢، ٣٣، ٣٤) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٤ ، ٣٣٥ . إن فى ذلك لأدلة على استحقاقه العبادة وحده، يدركها مَنْ يتفكر ويتأمل: وبعدما أرشد سبحانه العباد إلى أدلة التوحيد أراد أن يرشدهم إلى فضائل الأخلاق. فقال: (قل للذين آمنوا... إلخ. أى قل أيها النبى للذين آمنوا بالله ورسوله اصفحوا وأعرضوا عن هؤلاء المشركين إذا نالكم منهم مكروه؛ لأنهم فى غفلة الآن عن عقابه سبحانه الذى ينزله بكل مَنْ فعل فعلهم. وعما قريب سيحل بهم ويجزيكم أيها المؤمنون على ما كسبتم من الصالحات التى منها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ. يجزيكم بما لا يحيط به البيان من الثواب العظيم. ثم رغب سبحانه فى الصالحات وحذر من غيرها فقال: (مَنْ عمل صالحًا)... إلخ. أى مَنْ عمل عملاً صالحًا فنفعه خاص به ومَنْ عمل سيئًا بأن عصى ربه فوبال سيئته على نفسه لا يضر غيره. ثم فى النهاية ترجعون أيها العباد إلى ربكم يوم القيامة للحساب والجزاء. ثم أراد سبحانه أن يخفف عن نبيه ﷺ ما حصل من قومه ببيان أن هذا من شأن الأمم مع أنبيائهم فقال: (ولقد آتينا بنى إسرائيل).. إلخ. أى ولقد تفضلنا على بنى إسرائيل بالتوراة والإنجيل وعلمناهم معرفة الحقائق وأسرار الأشياء وجعلنا فيهم أنبياء كثيرين ورزقناهم من طيبات الأرزاق فكانوا كالملوك، انظر الآية (٢٠) من سورة المائدة صفحة ١٤٠ . وفضلناهم على عالمى زمانهم انظر ما تقدم فى الآية (٣٢) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨ . وآتينا بنى إسرائيل فى التوراة والإنجيل أدلة واضحة على صدق خاتم الرسل. ولكنهم لما جاء اليقين عند إرساله ﷺ ومعه العلامات الموجودة عندهم اختلفوا. فمنهم مَنْ آمن، ومنهم مَنْ كفر لمجرد البغى والحسد لأن الرسول كان من غيرهم كما تقدم فى الآية (٨٩) من سورة البقرة صفحة ١٧ . ثم هددهم سبحانه فقال: (إن ربك)... إلخ. أى أن ربك أيها النبى سيقضى بين المحق والمبطل منهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. فيثيب المحق ويعاقب المبطل. وبعد ذلك أمر سبحانه نبيه والمؤمنين معه أن لا يفعلوا فعلهم فقال: (ثم جعلناك)... إلخ أى ثم جعلناك بعد بنى إسرائيل على شريعة من أمر الدين، فسر فى طريقها، ولا تتبع آراء الجهال من رؤساء الكفر فى قريش، فإن آراءهم تابعة لشهواتهم لا مع الحق فلا تتبعهم فإنهم لن ينفعوك فى دفع شىء مما يريده الله بك إن أطعتهم ولا توالى غير الله: لأن الظالم لا يوالى فى الدنيا إلا ظالما أما فى الآخرة فلا ولى ولا شفيع.

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾

المفردات: ﴿بصائر﴾: أى سبب نور القلوب كما تقدم فى الآية (١٠٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠ والآية (٤٣) من سورة القصص صفحة ٥١٣ .

﴿أم حسب﴾: المراد: ليس الأمر كما يظن الذين كفروا، انظر ما تقدم فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿اجترحوا﴾: قال الراغب: الاجتراح اكتساب الإثم، وأصل مادته الجرح: لأن المذنب كأنه جرح نفسه وآلمها.

﴿السيئات﴾: المراد بها هنا سيئات الكفر بدليل ما يقابلها فيما يأتى.

﴿سواء﴾: أى مستويا.

﴿ساء﴾... إلخ: أى قبح حكمهم.

﴿ولتجزى﴾... إلخ: فعل سبحانه ذلك لتمام العدل ولتجزى كل نفس بما كسبت.

﴿أفرأيت﴾: المراد: أخبرنى عن جواب الاستفهام الآتى. انظر الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ .

﴿على علم﴾: المراد: وهو عالم بالحق والباطل كما تقدم فى الآية (١٧) هنا فى هذه السورة ونظيره فى الآية (١٤٠) من سورة البقرة صفحة ٢٧ .

﴿فمن يهديه﴾: ﴿من﴾: اسم استفهام إنكارى يفيد النفى. أى لا أحد يهديه.

(١) بصائر. (٢) آمنوا. (٣) الصالحات.
(٤) السموات. (٥) أفرأيت. (٦) هواه.
(٧) غشاوة. (٨) آياتنا. (٩) بينات.
(١٠) بآبائنا. (١١) صادقين.

﴿نموت ونحيا﴾: أى يموت بعضنا ويخلفنا بالولادة آخرون، كما تقدم فى الآية (٣٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٩ .

والمراد: ليس هناك بعث بعد الموت ولا جنة ولا نار، كما يقول بعض الذين يدعون أنهم رسل اللهّ.

﴿الدهر﴾: هنا هو الزمن الطويل وكان العرب فى الجاهلية ينسبون كل حادث إليه. فمن ذلك قول الشاعر:

أشـاب الصغير وأفنى الكبير * كَـرُّ الغـداة ومــرُّ العـشىّ

﴿من علم﴾: ﴿من﴾ للنص على عموم نفى ما بعدها.

﴿إن هم﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾.

﴿حجتهم﴾: سماها حجة تهكما بهم وإلا فهى ليست فى شىء من الأدلة.

﴿ائتوا بآبائنا﴾: خطاب من كل أمة كافرة لنبيها، انظر الآية (٣٦) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨.

المعنى: إن الظالمين أنفسهم بالشرك كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠ بعضهم أولياء بعض.

أما المؤمن الذين يتقون اللّه، فالله وليهم وناصرهم يخرجهم من الظلمات إلى النور كما فى الآية (٢٥٧) من سورة البقرة صفحة ٥٤.

ثم بيَّن سبحانه فضله بإنزال القرآن فقال: (هذا بصائر)... إلخ. أى هذا القرآن بما فيه من تعاليم تنير طريق الصواب بمنزلة البصائر للقلوب التى ترشد إلى طريق النجاة وهو قوى الهداية وسبب رحمة لمَنْ يوقن بصحته فينتفع بما فيه.

ثم أراد سبحانه أن يبين الفرق الواضح بين حال المحسنين والمسيئين فقال: (أم حسب)... إلخ. أى بل هل يظن الذين اكتسبوا السيئات بكفرهم باللّه وتكذيب رسله أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات فنسوى بينهم فى الدنيا والآخرة؟

كلا. فإن المؤمن فى الدنيا مطمئن القلب فى سعادة زوجية وفى الآخرة فى نعيم دائم. والكافر فى الدنيا فى قلق وخوف من زواله من الدنيا أو زوالها عنه وهو فى الآخرة فى عذاب

مقيم، انظر شرح الآية (٩٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٩. ولهذا قال سبحانه: ساء ما يحكمون. أى قبح حكمهم بالتساوى بين الفريقين. ثم بيّن سبحانه سبب ذمهم على التسوية بقوله: وخلق اللّه... إلخ. أى أنه سبحانه خلق السموات والأرض وما فيها لحكمة لا لعبًا وعبثًا. وذلك يقتضى العدل والإنصاف.

وهذا لا يكون إلا بعدم مساواة المحسن بالمسىء. انظر تفصيل ذلك فى شرح آيتى (٤، ٥) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٢، ٥٦٣. ولهذا قال: ﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾. ثم أكد سبحانه عدم المساواة بذكر جرائم الكافرين والمتبعين شهواتهم فقال: (أفرأيت)... إلخ. أى هل وقفت أيها السامع على حال هؤلاء الضالين فتخبرنى عن الإنسان الذى يطيع شهوات نفسه ولا يخالفها أبدا كأنها إلهه الذى يعبده. وعاقبه اللّه بغلق باب الهداية فى وجهه حال كون هذا الضال عالما بما هو حق وما هو باطل. وختم على سمعه فلا تؤثر فيه موعظة. وعلى قلبه فلا يفكر فى دليل الحق. وجعل بصره لا يرى آيات اللّه فى الكون كأن عليه غطاء؛ إنسان كهذا هل فى الكون من يستطيع أن يهديه بعدما عاقبه اللّه تعالى بهذا الإضلال؟ انظر آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤. هل عدمتم أيها الكفار ملاحظة ذلك فلا تتذكرون فتعتبرون؟

ثم بيَّن سبحانه بعض أسباب إضلالهم فقال: (وقالوا)... إلخ. أى وقال مَنْ ينكر البعث من كفار مكة وغيرهم ليس هناك إلا هذه الدار التى يسميها محمَّد الدنيا يموت منا قوم ويخلفهم آخرون، وليسَ بعد ذلك بعث ولا قيامة. وما يهلكنا إلا طول الزمن، أى لا ملك يقبض الأرواح كما يقول محمَّد، وأن اللّه تعالى لا دخل له فى ذلك، هذا ما يقوله مشركو العرب والدهرية الذين لايؤمنون بوجود اللّه تعالى، فهم يزيدون عن كفار قريش إنكار الإله بعد اتفاقهم معهم فى إنكار البعث.

وليس لكل هؤلاء فيما ذكروا من إنكار الحياة الأخرى ونسبة الهلاك إلى الدهر علم يستند إلى عقل أو نقل صحيح، وما هم إلا يخمنون تخمينًا باطلاً لايغنى من الحق شيئًا. ومن عيوبهم أنهم إذا تتلى عليهم آياتنا واضحات فى إثبات البعث لا يكون عندهم حجة يزعمونها إلا قولهم: إن كنت صادقا يا محمَّد أنت ومَنْ معك فأحيوا آباءنا الأولين حتى نؤمن بك.

قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيمة[1]
لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٢٦﴾ ولله
ملك السموت[2] والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ
يخسر المبطلون ﴿٢٧﴾ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى
إلى كتبها[3] اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴿٢٨﴾ هذا كتبنا[4]
ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴿٢٩﴾
فأما الذين ءامنوا[5] وعملوا الصلحت[6] فيدخلهم ربهم
في رحمته ذلك هو الفوز المبين ﴿٣٠﴾ وأما الذين كفروا
أفلم تكن ءايتي[7] تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما
مجرمين ﴿٣١﴾ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب
فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن
بمستيقنين ﴿٣٢﴾ وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم

المفردات: ﴿لا ريب فيه﴾: أى لاشك فيه.

﴿يومئذ﴾: هذا توكيد لـ ﴿يوم﴾ السابق.

﴿المبطلون﴾: المراد: المستمرون على الباطل.

﴿جاثية﴾: أى باركة على الركب كهيئة الخائف المتذلل.

﴿تدعى إلى كتابها﴾: المراد: يدعى كل واحد منهم لأخذ كتاب أعماله، إما بيمينه، وإما بشماله. انظر الآية (١٩) وما بعدها من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٢، ٧٦٣.

﴿ينطق﴾: المراد يسجل ويشهد ما فيه بالحق، فهو نطق بلسان الحال لا بلسان المقال، انظر الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨.

﴿نستنسخ﴾: أى نطلب من الملائكة الحفظة نسخ وكتابة أعمالكم التى تصدر عن جوارحكم وقلوبكم، انظر الآية (٢١) من سورة يونس صفحة ٢٦٩ والآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥.

﴿المبين﴾: أى الواضح، انظر الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢، والآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦.

﴿مستيقنين﴾: أى متحققين.

﴿بدا لهم﴾: أى ظهر لهم. ﴿حاق﴾: نزل وأحاط.

---

(١) القيامة. (٢) السموات. (٣) كتابها.
(٤) كتابنا. (٥) آمنوا. (٦) الصالحات.
(٧) آياتى.

المعنى: قل أيها النبى لمنكرى البعث: الله وحده هو الذى يحييكم ابتداء، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم. أى لا الدهر كما تزعمون ثم يجمعكم مسوقين إلى جزاء يوم القيامة، انظر آيتى (٧١، ٧٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٦. لا شك فى هذا الجمع.

والمراد: أن من قدر على خلقكم أولاً قادر على إعادتكم ثانيا، بل هذا عليه أهون كما فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك لإهمالهم التفكير الصحيح وانهماكهم فى شهوات الدنيا، وإنما لم يجبهم سبحانه لماطلبوا لأنه يعلم أنهم إذا فعل لا يؤمنون كما فى الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١ وعند ذلك يحل بهم عذاب الإفناء. وهو سبحانه لا يريد ذلك لأمة خاتم المرسلين، انظر الآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على قدرته على البعث، وأتبعه بتخويفهم مما سيكون بعده فقال: ولله ملك السموات... إلخ. أى أنه سبحانه مالك العالم كله علويه وسفليه لا يجرى فيه حكم غير حكمه. وليس لأصنام ولا لدهر فيه تصرف. ويوم تقوم القيامة فى هذا اليوم يخسر الغارقون فى الباطل كل خير. وترى - يا من يصح أن ترى - فى ذلك اليوم كل أمة جاثية أفرادها على ركبهم من شدة الهول والرعب انتظارا لما يقضى به عليهم أو لهم وذلك عقب ندائها باسم إمامها كما فى الآية (٧١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤.

ثم يدعى أفراد كل أمة إلى تسلم كتب أعمالهم ويقول الله سبحانه لهم: اليوم تجزون بأعمالكم خيرًا أو شرًا. فلا ظلم؛ لأن هذا الكتاب الذى أمرنا به يشهد عليكم ما فيه شهادة حق لا زيادة فيه ولا نقص، لأنا كنا أمرنا الملائكة أن تكتب فيه ما كنتم تعملون فقط. وهم لايعصون الله فيما أمرهم. ويفعلون ما يؤمرون به. ثم بعد انتهاء الحساب يوزعون.

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته، والمراد بها هنا الجنة. ذلك هو الفوز الواضح الذى لا فوز بعده. وأما الذين كفروا فيقول سبحانه لهم توبيخًا وإقامة للحجة: هل أهملتكم فلم يكن رسلى يتلون عليكم آياتى المنزلة وفيها إرشادكم إلى الصواب، فاستكبرتم عن الإيمان بها واتباع الرسل وذلك لأنكم تمرنتم على الإجرام ومن أفظعه الكفر بالله؟ وإذا قال لكم رسل الله: أن وعد الله بالحساب والجزاء حق، وقالوا لكم: الساعة آتية لاشك فيها، قلتم مستهزئين لا علم لنا بهذه الساعة. وما نظن فى أمرها إلا ظنا، وليس عندنا فيها يقين، أى ونحن لا نعلم حسابا لما لا نستيقنه، وبعد هذا التوبيخ ظهر لهم جليا قبيح أعمالهم وأحاط بهم العذاب من كل جانب.

مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ[1] كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ[2] النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ[3] ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ[4] اللَّهِ هُزُوًا
وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ[5] الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَٰوَٰتِ[6] وَرَبِّ الْأَرْضِ
رَبِّ الْعَٰلَمِينَ[7] ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَٰوَٰتِ[8] وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

(٤٦) سُورَةُ الْأَحْقَافِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ[9] ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ[10] مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

المفردات: ﴿ننساكم﴾: أى نتركركم، ونهملكم، فلا ننقذكم، كما تركتم العمل لهذا اليوم، انظر الآية (١١٥) من سورة طه صفحة ٤١٧.

﴿كما نسيتم﴾: أى كما تركتم.

﴿مأواكم﴾: أى مكانكم الذى تأوون إليه.

﴿من ناصرين﴾: ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده.

﴿هزوا﴾: أى مهزوءًا بها والمراد: استهزأتم بآيات الله.

﴿يستعتبون﴾: أى لا يطلب منهم أحد من الشفعاء أن يرجعوا عما أوجب العتب كما تقدم فى الآية (٨٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٧ والآية (٥٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٨.

﴿رب العالمين﴾: لم يعطفه كسابقه لأنه تأكيد لهما بما يعمهما ويعم ما فيهما المصرح به فى آيات كثيرة منها ما فى الآية (٦٥) من سورة مريم صفحتى ٤٠٢، ٤٠٣ والآية (٦) من سورة طه صفحة ٤٠٦، وبما هو أوسع كما فى الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

---

(١) ننساكم.
(٢) مأواكم.
(٣) ناصرين.
(٤) آيات.
(٥) الحياة.
(٦) السموات.
(٧) العالمين.
(٨) السموات.
(٩) حاميم بكسر الميم الأولى وسكون الميم الثانية.
(١٠) الكتاب.

﴿الكبرياء﴾: أى العظمة والسلطان القاهرة.

المعنى: وأحاط بمنكرى البعث العذاب الذى كانوا يستهزئون به ويقابلون وعد الله به بالإنكار، ثم يزاد فى تعذيبهم بإخبارهم بأنهم مهملون لا ينظر إليهم ربهم برحمة فيقول سبحانه لهم: اليوم نتركركم فى العذاب كالمنسيين كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا. ومحل إقامتكم النهائى هو النار. وما لكم منقذون ينقذونكم منها. ثم ذكر سبحانه بعض ما استحقوا به هذا الشقاء فقال: (ذلكم بأنكم)... إلخ.

أى هذا الذى أصابكم من العذاب بسبب أنكم فى الدنيا اتخذتم آيات الله التى أنزلها على رسله سخرية تهزءون بها وخدعتكم زخارف الدنيا فشغلتكم عن العمل بما ينجيكم من هذا الشقاء الدائم. فاليوم لايقدر أحد على إخراجهم من النار. ولا يسمح لهم أن يطلبوا رضا الله عنهم.

وبعدما أوضح سبحانه فى السورة طريق السلامة وطريق الخطر، وأقام الدليل بعد الدليل على الحق، أرشد العباد لحمده على نعمة الإرشاد والهداية فقال: فلله الحمد... إلخ، أى إذا كان هذا الذى سبق من الإرشاد منه تعالى وحده فله الحمد، وهو سبحانه وحده مالك السموات والأرض ومالك جميع ما فيهن وله وحده العظمة والسلطان فى العالم كله.

فكل شىء خاضع لقهره، وهو العزيز أى الغالب الذى لا يغلب. الحكيم فيما يشرع ويفعل. فيجب ألا يعبد غيره، ولا يطاع سواه. اللهم وفقنا لتوحيدك وطاعتك يا نعم المجيب آمين.

سورة الأحقاف

المفردات: ﴿حم﴾: تنطق هكذا حاميمْ بكسر الميم الأولى وسكون الميم الثانية.

المعنى: حم: تقدم المراد من مثلها أول سورة البقرة: تنزيل هذا القرآن هو من الله العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه.

مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ[1] وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى[2] وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم[3] مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَٰتِ[4] ائْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَٰرَةٍ[5] مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[6] ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ[7] وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَٰفِلُونَ[8] ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ[9] ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا[10] بَيِّنَٰتٍ[11] قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ[12] قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ

المفردات: ﴿ماخلقنا السموات﴾... إلخ: تقدم المراد من ذلك فى الآية (٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣. ﴿وأجل مسمى﴾: معطوف على ﴿الحق﴾ قبله. والمراد: وبتقدير أجل محدد هو يوم القيامة، الذى يجازى فيه كل على عمله. ﴿أرأيتم﴾: المراد: أخبرونى عن جواب الاستفهام الآتى: ﴿ماذا خلقوا﴾... إلخ. ﴿أم لهم شرك﴾... إلخ: ﴿أم﴾ تقدم الكلام عن معناها فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ وبقية الآية تقدم الكلام عن معناها فى الآية (٢٢) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٥، ٥٦٦، والآية (٤٠) من سورة فاطر صفحة ٥٧٧. ﴿أثارة﴾: أصلها البقية من الشىء، والمراد: ليس عندكم أقل علم بما تزعمون. ﴿ومَنْ أضل﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام إنكارى يفيد النفى أى لا أحد أشد ضلالا.

﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾: هذه الجملة كالتعليل لما قبلها لأن المراد بالغفلة العجز عن الإجابة، انظر شرح آيتى (٢٨، ٢٩) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١ وآيتى (١٣، ١٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٣، ٥٧٤. ﴿كانوا لهم أعداء﴾: أى كانت معبوداتهم أعداء لهم، انظر الآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤ والآيات (٢٢ إلى ٢٣) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٨، ٥٨٩. ﴿للحق﴾: اللام بمعنى ﴿عن﴾ كما فى الآية (١٠٥) من سورة النساء صفحة ١٢٠ والآية (٣٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨ والآية (١١) الآتية من هذه السورة صفحة ٦٦٧. ﴿سحر مبين﴾: أى ظاهر كما تقدم فى الآية (٣٠) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤. ﴿افتراه﴾: الافتراء أقبح أنواع الكذب. ﴿تفيضون فيه﴾: أى تخوضون فيه، انظر الآية (٦١) من سورة يونس صفحتى ٢٧٥، ٢٧٦ والآية (١٤) من سورة النور صفحتى ٤٥٨، ٤٥٩. ﴿كفى به شهيدا﴾: أى مطلعًا، انظر الآية (٣٦) من سورة الزمر صفحة ٦١١ والآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧.

---

(١) السماوات. (٢) أرايتم. (٣) السموات. (٤) بكتاب. (٥) أثارة. (٦) صادقين.
(٧) القيامة. (٨) غافلون. (٩) كافرين. (١٠) آياتنا. (١١) بينات. (١٢) افتراه.

المعنى: يقول سبحانه: ماخلقنا هذا العالم الدنيوى لمجرد اللعب واللهو بل لحكم عالية. وبتقدير أجل محدد هو يوم القيامة الذى يجازى فيه كل عامل على عمله. ومع كل هذا فالذين كفروا معرضون عن الإيمان به وعن الاستعداد له. قل أيها النبى توبيخًا لهم أخبرونى عن هذه المعبودات الباطلة التى تخضعون لها من دون إفراد الله بالعبادة. ثم أكد الطلب الأول فقال: أرونى أى أطلعونى على الذى خلقوه من أجزاء الأرض ومافيها؟ بل هل لهم مشاركة مع الله سبحانه فى خلق السموات وما فيها؟ وبعد مابكَّتهم بعجزهم عن دليل عقلى شرع فى تبكيتهم بالعجز عن دليل نقلى. فقال: (ائتونى)... إلخ. أى أطلعونى على كتاب منزل من قبل هذا القرآن يدل على صحة شرككم. أو ائتونى ببقية من علم العلماء السابقين تدل على جواز عبادة غير الله إن كنتم صادقين فى دعواكم جواز عبادة غير الله تعالى. وإذا لم تستطيعوا فيجب أن تعلموا بطلان ما أنتم عليه. ثم ذكر سبحانه نتيجة ماتقدم فقال: ومَنْ أضل...إلخ. أى لا أحد أشد ضلالا ممَنْ يدعو من دون الله مخلوقًا يستحيل عليه أن يجيب دعاءه مادامت الدنيا. وبعدها تكون الإجابة أشد استحالة بدليل ما سيأتى فى الآية (٦). فالمراد لايستجيب له أبدا، ومثل ماهنا لعنة الله سبحانه وتعالى لإبليس فى الآية (٣٥) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠. فإنها مستمرة عليه بعد يوم القيامة أيضًا. فالكفار يدعون مخلوقات والحال أن هذه المخلوقات غافلة عنهم لاتنفعهم بشىء. وإذا حشر الناس عند قيام الساعة كان المعبودون من دون الله أعداءً لعابديهم. وكافرين بهم، أى مكذبين لهم فى دعوى أنهم عبدوهم، بل كانوا يعبدون شهواتهم ثم رجع سبحانه يذكر بعض جرائم المشركين فقال: (وإذا تتلى عليهم)... إلخ. أى وإذا قرأ رسولنا أو أحد المؤمنين على كفار مكة آيات القرآن حال كونها واضحات فى بيان الحق، قال الكافرون فى شأن هذه الآيات التى هى حق. عندما عجزوا عن الإتيان بمثلها. هذا سحر ظاهر يخدع مَنْ يسمعه، ثم انتقل سبحانه من حكاية قولهم الشفيع إلى حكاية ماهو أشنع وهو الكذب على الله فقال: (أم يقولون)... إلخ. أى بل هل بلغ من تبجحهم أن يقولوا إن محمدًا افترى هذا القرآن على الله؟ قل أيها النبى لهم إن كنت افتريته على سبيل الفرض فإن الله لابد أن يعاجلنى بالعقوبة. وعند ذلك لاتستطيعون أنتم ولاغيركم دفع شىء من عقابه عنى. فكيف يصح لعاقل أن يتعرض لمقت الله، انظر الآية (١٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨ والآيات (٤٠ إلى ٤٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٣، ٧٦٤ والآية (٢٢) من سورة الجن صفحة ٧٧٢. والله سبحانه يكفينى شاهدا بينى وبينكم. ثم رغب مَنْ هو مستعدّ منهم للتوبة فقال: (وهو الغفور)... إلخ. أى وهو سبحانه الغفور لمَنْ يتوب الرحيم بالمؤمنين.

الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ(١) إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ(٢) عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ(٣) وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٤) ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا(٥) لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ(٦) مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ(٧) مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا(٨) فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ(٩) الْجَنَّةِ خَالِدِينَ(١٠) فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

المفردات: . ﴿بدعًا﴾: البدع والبديع هو الذى لم يسبق له مثيل، أى ما أنا بأول رسول جاء بالتوحيد، ومكارم الأخلاق. ﴿وماأدرى ما يفعل بى﴾.. إلخ: أى فى هذه الدنيا، هل أموت قبل أن تؤمنوا جميعًا، أم يؤمن أكثركم.. إلخ. وما أشبه ذلك مما لايعلمه إلا الله. ﴿إن أتبع﴾ ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. أى ما أتبع. ﴿نذير﴾: أى محذر من غضب الله سبحانه لمن يعصيه. ﴿مبين﴾: واضح التحذير. ﴿أرأيتم﴾: تقدم شرحها فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٦٦٦. ﴿إن كان﴾: أى القرآن الكريم. ﴿شاهد﴾: كعبد الله بن سلام من اليهود، ومن النصارى كالمذكورين فى قوله تعالى. ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا﴾ فى الآيات (٨٢ إلى ٨٤) من سورة المائدة صفحتى ١٥٣، ١٥٤. انظر شرح الآية (٣٦) من سورة الرعد صفحة ٣٢٧. ﴿على مثله﴾: المراد: على صحة كتب الله السابقة المماثلة للقرآن فى الدعوة إلى التوحيد، وأصول الفضائل. وهذه الآية رقم (١٠) مدنية: لأنه لم يسلم أحد من اليهود أو النصارى إلا بعد الهجرة.

﴿للذين آمنوا﴾: اللام بمعنى ﴿عن﴾ أى تحدثوا عن الذين آمنوا، فهى كاللام المتقدمة فى ﴿للحق﴾ فى الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٦٦٦. ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾: ﴿إذ﴾ هنا بمعنى لام التعليل، كما تقدم فى الآية (١٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٢ والآية (٣٩) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١. والمعنى: ولأجل عدم هدايتهم بالقرآن فسيفترون عليه كذبا. ﴿إفك قديم﴾: الإفك هو أقبح أنواع الكذب والمراد: كذب من جنس أساطير الأولين. ﴿ومن قبله﴾: أى قبل القرآن الكريم. ﴿كتاب موسى﴾ أى التوراة. ﴿إماما﴾ = أى قدوة يؤتم به فى دين الله كما يؤتم بالإمام. ﴿وهذا كتاب مصدق﴾... إلخ: أى وهذا القرآن مصدق لما قبله حال كونه بلسان العرب. انظر شرح الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩.

(١) أرأيتم. (٢) إسرائيل (٣) فآمن. (٤) الظالمين. (٥) آمنوا.
(٦، ٧) كتاب. (٨) استقاموا. (٩) أصحاب. (١٠) خالدين.

المعنى: . قل أيها النبى لكفار قومك لست غير مسبوق برسل جاءوا بمثل ماجئت به من التوحيد ومكارم الأخلاق. بل سبقنى كثير منهم بذلك ولست أدرى على التفصيل مايفعله الله بى ولابكم إلا من جهة مايوحيه سبحانه إلىّ هل أخرج من بلدى أم تؤمنون وأبقى معكم، وهل سيعجل لكم العذاب أم يؤخر للآخرة، ولا أتبع فى عملى إلا ما يوحيه سبحانه. وما أنا فى الحقيقة إلا بشر اختاره الله ليكون للعالمين نذيرا واضح الإنذار انظر شرح الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠. قل لهم أخبرونى ماذا يكون حالهم إن توارد الدليل بعد الدليل. وثبت أن هذا القرآن من عند الله، لا سحر ولا كذب كما تزعمون، والحال أنكم مع ذلك كفرتم به، وسيأتى من بنى إسرائيل علماء بالتوراة يشهدون على صحة كتب الله السابقة التى تماثل القرآن فى الدعوة إلى التوحيد، وأصول العقائد... إلخ مايدل على أن هذا القرآن من عند الله، انظر الآيات ١٩٢ إلى ١٩٧ من سورة الشعراء صفحتى ٤٩١، ٤٩٢ وآيتى (١٨، ١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤. إن ثبت كل ذلك فآمن هذا الشاهد واستكبرتم ألستم تكونون ظالمين؟ فلن يهديكم الله أبدا؛ لأنه سبحانه لايهدى القوم الظالمين. ثم شرع سبحانه فى حكاية نوع آخر من سفاهتهم فقال: وقال الذين... إلخ. أى وقال كفار مكة عن الذين آمنوا من الفقراء والضعفاء كعمار بن ياسر وبلال مثلا. لو كان ماجاء به محمد خيرا ماسبقنا إليه هؤلاء الضعفاء. قالوا ذلك لزعمهم أن الخير لايحصل إلا لمن كان غنيًّا واسع الجاه، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠. والمراد فى العناد حين لم يهتدوا بهذا القرآن فقالوا فيه ماقالوا وسيقولون أيضًا أنه كذب من نوع أساطير الأولين المتقدم فى الآية (٣١) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١. ولما كان كفار مكة يرجعون إلى أهل الكتاب لعلهم يجدون عندهم ما يساعدهم على تكذيبه ﷺ كما تقدم فى شرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩ والآية (٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١. أراد سبحانه أن يبين لهم هنا أن فى كتب أهل الكتاب الصحيحة مايدل على أن مافى القرآن حق وأن رسوله صادق فقال: (ومن قبله) ... إلخ. أى كيف يصح أنه كذب والحال أن كتاب موسى جاء من قبله بلغة أعجمية حال كونه إماما ورحمة لمن آمن به. وهذا القرآن كتاب من الله تعالى مصدق لما فى كتاب موسى من أصول الشرع حال كونه بلسان عربى ليتيسر أن يحذر به الرسول العربى الذين ظلموا أنفسهم بالشرك. وهو مع ذلك بشرى للمؤمنين المحسنين لعقائدهم وأعمالهم. وبعد ماذكر سبحانه طريق أهل الباطل أرشد إلى طريق أهل الحق وجزائهم فقال: (إن الذين قالوا)... إلخ. أى إن الذين اعترفوا بلسانهم بما يتفق مع مافى قلوبهم من أنه لارب لهم إلا الله ثم استقاموا على شرع الله سبحانه فلا خوف عليهم من مكروه، ولايحزنون لفوات مرغوب. هؤلاء هم أصحاب الجنة خالدين فيها. أعطاهم الله ذلك جزاء بما كانوا يعملون.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا
بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ
مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ
الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ
أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن
قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ

المفردات: . ﴿كرهًا﴾: المراد بالكره هنا المشقة، والمراد حملته حملا ذا مشقة، انظر الآية (١٤) من سورة لقمان صفحتى ٥٤٠، ٥٤١. ﴿وحمله وفصاله﴾: أصل الفصال الانفصال الناتج عن الفطام، وأريد به هنا المدة الكاملة للرضاع التى يعقبها الفطام، انظر الآية (٢٣٣) من سورة البقرة صفحتى ٤٧، ٤٨، والمراد: أن مدة حمله ورضاعه ثلاثون شهرا.

﴿أشده﴾: أى كمال قوته الجسمية والعقلية كما تقدم فى الآية (٢٢) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥ والآية (١٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٨.

﴿قال رب أوزعنى﴾: نبه سبحانه إلى ماينبغى أن يكون عليه المؤمن إذا بلغ أشده فقال ينبغى له أن يقول: يارب وفقنى لشكر نعمتك... إلخ، وانظر مايحصل من غير المؤمن فى الآية (١٩٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٤. ﴿نتقبل عنهم﴾: ﴿عن﴾ هنا بمعنى ﴿من﴾، انظر الآية (٢٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٢. ﴿أحسن ماعملوا﴾: المراد: نعطيهم ثواب أعمالهم كلها على قدر أحسنها. تفضلاً. لقوة إخلاصهم فيها. انظر الآية (٣٥) من سورة الزمر صفحة ٦١١.

﴿والذى قال لوالديه﴾ المراد: والفريق من الناس... إلخ، فهو جمع بدليل جمع الضمائر فى الآية ﴿١٨﴾ الآتية وهو مبتدأ خبره ﴿أولئك الذين حق﴾... إلخ.

﴿أف﴾: كلمة تدل على التضجر. كما تقدم فى الآية ﴿٢٣﴾ من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧.

(١) الإنسان. (٢) بوالديه. (٣) إحسانا.
(٤) فصاله. (٥) ثلاثون. (٦) وَالدَيّ.
(٧) صالحا. (٨) ترضاه. (٩) أصحاب.
(١٠) لوالديه. (١١) أساطير.

﴿أتعداننى أن أخرج﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى، المفيد للنفى. أى لايصح أن تعدانى بالخروج من القبر والمراد: أنه ينكر البعث. ﴿خلت﴾: أى مضت.

﴿يستغيثان الله﴾: يقال استغاث الله، واستغاث به. أى طلب أن يغيثه. ﴿ويلك﴾: أى هلاكك، والمراد: هلكت إن لم ترجع عما تقول.

﴿أساطير الأولين﴾: هى الأكاذيب، انظر الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦.

﴿حق عليهم القول﴾: المراد: نزل بهم ماهددناهم به، كما تقدم فى الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

المعنى: . جرت عادته سبحانه أنه إذا ذكر توحيده قرن به الوصية بالوالدين إشارة إلى العناية بالإحسان إليهما، فمن ذلك مافى الآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦ والآية (٢٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧، وفى بعضها شدد الوصية بالأم لأن نصيبها فى الفضل على الولد أكبر.

ولذا قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله من أحق بحسن صحابتى؟ قال: (أمك) قال: ثم مَنْ؟ قال: (أمك) قال: ثم مَنْ قال: (أمك) قال: ثم مَنْ؟ قال (ثم أبوك).

(أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ٢ - باب من أحق الناس بحسن الصحبة)

والمعنى: ووصينا الإنسان بأن يحسن لوالديه إحسانا بأن لايفعل معهما إلا ماهو حسن شرعا مما يرضيهما خصوصًا إذا كبرا فى السن، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧. ثم بيّن سبحانه بعض ماتتحمله الأم فقال: حملته أمه... إلخ.

أى أنها كانت طول مدة حملها له فى مشقة ثم فى مشقة أخرى عند الوضع. ومدة حمله مع مدة رضاعه ثلاثون شهرًا، فأفادت هذه الآية مع الآية (٢٣٣) من سورة البقرة صفحتى ٤٧، ٤٨ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثر مدة الرضاع عامان، كما تقدم فى الآية (١٤) من سورة لقمان صفحتى ٥٤٠، ٥٤١.

ثم نبه سبحانه إلى ماينبغى أن يكون عليه المؤمن إذا بلغ رشده، فقال: حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة.

وهى المدة التى يكتمل فيها العقل. ولهذا قال ابن عباس (مَنْ أتى عليه أربعون عاما ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار) فإذا بلغ الإنسان كمال العقل قال يارب وفقنى لشكر نعمتك علىّ وعلىّ والدى لأن الإنعام على الوالد: إنعام على ولده، وأن أعمل صالحا ترضاه واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى لأنتفع بدعائهم فى الدنيا وأتمتع بالاجتماع بهم فى الجنة. انظر الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥. إنى تبت إليك مما يكون قد حصل منى مما لايرضيك.

وإنى من الخاضعين لأوامرك. ثم قال تعالى: أولئك.. إلخ. أى هؤلاء المؤمنون الذين هذه صفاتهم هم الذين نتقبل منهم.

أى نعطيهم ثواب أعمالهم كلها على قدر أحسنها ونتجاوز أى نصفح عما وقع منهم فى الدنيا من ذنوب لم يصروا عليها. انظر الآية (١٣٥) من سورة آل عمران صفحتى ٨٤، ٨٥ نجازيهم هذا الجزاء حال كونهم معدودين فى أصحاب الجنة. فنحقق لهم بذلك وعدنا الصادق الذى كانوا يوعدون به على ألسنة رسلنا.

وبعدما فرغ سبحانه مما ينبغى أن يكون عليه المؤمن ذكر حال الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث فجمع أفظع الجرائم فقال: والذى قال لوالديه.. إلخ. أى الفريق من الناس الفجار الذى يقول لوالديه عندما يطلبان منه أن يؤمن بالبعث: إنى أتضجر من جهلكما فكفا عن هذا الهراء. هل يصح أن تعدانى بالخروج من القبر والحال أن الأمم التى مضت قبلى لم تخرج من قبورها؟

يقول لهما ذلك والحال أنهما يطلبان من الله أن يغيثهما برجوعه عن الكفر. ويقولان له هلكت إن لم تؤمن. فأسرع إلى الإيمان بالله وبالبعث لأن وعد الله بالقيامة حق. فيقول ماهذا الذى تقولانه إلا أكاذيب من أكاذيب الأولين. هؤلاء الذين يفعلون هذه الجرائم وجب عليهم العذاب حال كونهم فى عداد أمم سبقتهم فعلت فعلهم. والمراد أن سنة الله فى معاملة الكفار واحدة وأن عدله لايختلف.

ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ[1] ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ[2]
مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ[3] وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ[4]
فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ
وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ * وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ
قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ
خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا[5] فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ[6] ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ[7] قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟

المفردات: . ﴿ولكل درجات﴾: أى مراتب حسب عمل كل واحد. ﴿وليوفيهم﴾: الأصل وجازاهم سبحانه بذلك. ﴿عذاب الهون﴾: أى الهوان والذل كما تقدم فى الآية (١٧) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢. ﴿أخا عاد﴾: هو نبى الله هود عليه السلام، و ﴿عاد﴾ هى عاد الأولى الآتى ذكرها فى الآية (٥٠) من سورة النجم صفحة ٧٠٣. ﴿أنذر﴾: أى حذر وخوف ﴿الأحقاف﴾: جمع حِقْف بكسر فسكون، وهو الرمل المستطيل مع ارتفاع وانحناء، والمراد: الأودية التى حوله باليمن عند (حضر موت). انظر الآية (٢٤) الآتية فى هذه السورة.

﴿خلت﴾: أصل معناها مضت، والمراد هنا كثرت قبله.

وحوله فى أمم غير أمته لايعلمهم إلا الله. انظر الآية (٧٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٨.

﴿النذر﴾: جمع نذير. والمراد: الرسل الذين يحذرون أممهم من عذاب الله سبحانه إذا عصوه.

﴿بين يديه﴾: أى قبل إرساله: وقد جاء فى استعمال ﴿مابين يديه﴾ فى الزمن السابق كما فى الآية (٩٧) من سورة البقرة صفحة ١٩، والآية (٥٠) من سورة آل عمران صفحة ٧١، وآيتى (٤٦، ٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦، وقد جاء كناية عن جميع الجهات فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣.

(١) خاسرين. (٢) درجات. (٣) أعمالهم. (٤) طيباتكم.
(٥) آلهتنا. (٦) الصادقين. (٧) أراكم.

﴿من خلفه﴾: أى بعد إرساله. ولكنهم كانوا فى أزمانهم يحذرون أممهم بمثل تحذيره، انظر الآية (١٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣١.

﴿لتأفكنا﴾: أى لتصرفنا، انظر شرح الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣.

﴿تجهلون﴾: المراد: تجهلون وظيفة الرسل وأنهم إنما جاءوا مبلغين لامعذبين. ﴿رأوه﴾: أى العذاب الذى هددهم به عندما جاء فى صورة سحاب.

﴿عارضًا﴾: هو السحاب الذى يخرج عريضا فى الأفق. ﴿مستقبل أوديتهم﴾: أى مقبلا عليها.

المعنى: . هؤلاء الذين حل بهم العذاب كانوا ضمن أمم من الجن والإنس، وعذبناهم لأنهم استمروا على الخسران فى كل حياتهم فأفسدوا فطرتهم التى هى رأس مال النجاة، فلم يفعلوا مما ينفعهم فى الآخرة شيئًا.

وفى الآية دليل على أن الجن يموتون قرنا بعد قرن كالإنس. ثم بين سبحانه أن لكل من فريقى المؤمنين والكافرين مراتب متفاوتة فى النعيم والعذاب فقال: (ولكل درجات)... إلخ. أى لكل فرد من أفراد المؤمنين والكافرين منزلة فى الجنة أو النار تناسب عمله، فمن المؤمنين مَنْ هو فى أعلى درجات الجنة. ومن الكافرين مَن هو فى الدرك الأسفل من النار.

وجازاهم سبحانه بذلك ليوفيهم جزاء أعمالهم. وهم لايظلمون. فلا ينقص من المؤمن شىء مما قدر له. ولا يزاد الكافر فوق ما قدر له.

واذكر أيها النبى لكفار قومك ماسيلاقونه من الهول يوم يعرضون على النار، والمراد يدخلونها.

- ويقال لهم توبيخًا: استنفدتم ملذاتكم فى الدنيا ثم بين ذلك بقوله: واستمتعتم بها أى جعلتم كل همكم فى الدنيا هو إشباع شهواتكم حتى تعطلت عقولكم عن التفكير فيما فيه نجاتكم من العذاب الخالد، فصرتم كالبهائم التى لاتعرف ماسيكون فى مستقبلها بل كنتم أضل. لاتعرفون رحمة بفقير، ولاشفقة على ضعيف.

انظر الآية (١٢) من سورة محمد صفحتى ٦٧٣، ٦٧٤ والآيات (١، ٢، ٣) من سورة الماعون صفحة ٨٢٣. ولهذه الآية خاف كثير من السلف التوسع فى إرضاء شهوات أنفسهم، والذى يتتبع سنته ﷺ يعلم أنه ينبغى للإنسان أن يأكل ما وجد ، ولايجهد نفسه فى البحث عما لايجد من أسباب الشهوات. ولايتكلف الطيب من الملذات ويتخذه عادة.

وقد كان ﷺ يشبع إذا وجد. ويصبر إذا فقد. ويأكل الحلوى إذا قدر، ويأكل اللحم إذا تيسر. ولايتعمده أبدا. ولم يجعله له عادة هدانا الله لسنته. ثم يقال لهؤلاء المجرمين فاليوم تجزون العذاب المهين بسبب أنكم كنتم فى الدنيا تستكبرون فى الأرض بالباطل، وكنتم تفسقون. أى تخرجون عن أوامر ربكم. انظر الآية (٢١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، ولما كان كفار مكة غارقين فى شهواتهم معرضين عن الإيمان ناسب تذكيرهم بما حصل للعرب الأول ممَنْ كانوا أقوى منهم.

فقال: (واذكر أخا عاد).. إلخ. أى واذكر أيها النبى لكفار قومك قصة هود حين حذر قومه بالأحقاف لما كذبوه. وخوفهم من عذاب الله. وقد سبقته تحذيرات رسل لأممهم كما جاءت تحذيرات لم تخل منها أمة. انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤، ٥٧٥ حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم. وقال لهم لاتعبدوا إلا الله.

إنى أخاف عذاب يوم عظيم الهول إذا بقيتم على كفركم. فقالوا ردًا عليه: هل جئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ فإن كنت صادقًا فى أنه سينزل بنا عذاب فأت به. فقال لهم: لايعلم وقت نزول العذاب غيره تعالى وليس علىّ إلا أن أبلغكم ما أرسلنى به ربى. وكنت أظن أن فيه الكفاية لإرجاعكم عما فيه هلاككم. ولكن تبين لى أنكم قوم لاترجعون من الجهل أبدًا، وكان من آثار ذلك أنكم تقترحون للرسول ماليس منْ وظيفته. وهو إنزال العذاب بمَنْ يخالفه. ولكنى أظنكم قوما تجهلون وظيفة الرسول. وهى أنه مبلغ فقط. بعد ذلك أمر سبحانه بتنفيذ ما تدعوهم به.

فأرسل عليهم الريح. ظهرت لهم أول أمرها فى صورة سحاب ممتد فى عرض الأفق مقبلا على أوديتهم التى يقيمون فيها.

فاستبشروا وقالوا: (هذا سحاب ممطرنا).. إلخ.

هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا
لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا
وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا
أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم
مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾
وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ
فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم

المفـــردات: ﴿ممطرنا﴾: أى منزل المطر علينا فيكثر الخير. ﴿فيما إن مكناكم فيه﴾: ﴿إن﴾ حـــرف نفى. أى فى الذى لم نمكنكم فـيـه ياكفـار مكة. انظر الآية (٦) من سـورة الأنعـام صـفـحـتى ١٦٢، ١٦٣، والمراد: كـانوا أقوى منكم ومع ذلك أهلكناهم ﴿أفـئدة﴾: أى قلوبا ليعقلوا بها.

﴿فما أغنى عنهم﴾: أى لم ينفعهم، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

﴿من شىء﴾: ﴿من﴾ حـرف يفـيـد النص على عـمـوم نفى مـابعده. ﴿إذ كـانوا﴾: ﴿إذ﴾ حـرف تعليل. أى لأنهم كـانوا. ﴿يجـحـدون بآيات الله﴾: أى ينكرونها مع أن اعتقاد صدقها راسخ فى أعماق نفوسهم، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

﴿حاق بهم﴾: أى نزل وأحاط بهم انظر الآية (٤٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٣. ﴿أهلكنا ما حولكم﴾: أي ياأهل مكة من الأمم المكذبة بالرسل، انظر الآية (٤١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨ والآية (٤٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥. ﴿وصرفنا الآيات﴾: أى نوعنا البراهين وانظر معنى التصريف فى آيتى (٤١، ٨٩) من سورة الإسراء صفحات ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٦. ﴿فلولا... إلخ﴾: أصل معناه طلب حصول مابعده، وتقدم معناها فى الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ والآية (٤٦) من سورة النمل صفحة ٥٠٠، والمراد بها هنا التهكم. ﴿قربانا﴾: مفعول لأجله، أى للتقرب بهم إلى الله، انظر الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦. ﴿بل﴾:

(١) مساكنهم. (٢) مكناهم. (٣) مكناكم. (٤) أبصارا. (٥) أبصارهم.
(٦) بايات. (٧) الآيات. (٨) آلهة. (٩) القرآن.

حرف يفيد إبطال ما قبله، وإثبات مابعده. ﴿ضلوا﴾: أى غابوا وفقدوا، انظر الآية (١٩٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ١٩٨ والآية (٧٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٧.

﴿إفكهم﴾: قال القرطبى ﴿الإفك﴾ بكسر فسكون مثل ﴿الأفَك﴾ بفتحتين معناهما: الصرف عن الصواب، كما قالوا فى ﴿الحِذْر﴾ بكسر فسكون، مثل ﴿الحَذَر﴾ بفتحتين معناهما الاحتراس، انظر الآية (٧١) من سورة النساء صفحة ١١٢ لتعرف معنى الحذر، وانظر معنى مادة الإفك فى الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣. والمراد: أن عدم نفع آلهتهم لهم ناتج عن صرف أنفسهم عن الحق والباطل، ولو صرفوا إلى عبادة الإله الحق لنفعهم، وناتج أيضًا عن افترائهم بأن لله شركاء كما سيأتى.

﴿يفترون﴾: أى يكذبون، قاصدين الكذب بأن لله شريكا.

﴿صرفنا إليك﴾: المراد: يسرنا لهم التوجه إليك.

﴿نفرا من الجن﴾: النفر عدد قد يصل إلى أربعين، وأقله ٣، وجمعه أنفار، انظر معنى المادة فى شرح الآية (٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥.

المعنى: لما رأت عاد ما فى الأفق قالوا هذا سحاب يأتينا بالمطر، وكانوا فى شدة الحاجة إليه، فقال لهم هود كلا بل هو مااستعجلتم به من الهلاك. هو ريح فيها عذاب أليم. تدمر وتهلك كل شىء مرت عليه من الأنفس والأموال بإذن ربها، انظر الآية (٤١) ومابعدها من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥.

ثم وصلتهم تلك الريح فأهلكتهم فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم وبمثل هذا الجزاء الشديد يجزى الله كل قوم أجرموا وعملوا مثل عمل عاد، انظر الآيات (٦، ٧، ٨) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢، ثم نبه سبحانه كفار مكة إلى أن هلاكهم أيسر فقال. ولقد.. إلخ. أى ولقد أقررنا عادا فى نعيم وعز لم نعطه لكم. وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ليستعملوها فيما خلقت له. ويعرفوا عن طريقها كل ماينفعهم النفع الصحيح. فلم ينفعهم سمعهم شيئًا لأنهم لم يحسنوا استماع الوحى. ولاأبصارهم لأنهم لم يدركوا بها آيات الله فى الكون. ولا أفئدتهم حيث لم يستعملوها فى البحث عن الحق وفيما يجب لله ومايستحيل عليه تعالى. لم ينفعهم واحد منها أقل نفع؛ لأنهم مردوا على إنكار آيات الله والتعامى عنها، ونزل بهم العذاب الذى

كانوا يستهزئون به إذا حذرهم منه رسولهم. ولقد أهلكناهم كما أهلكنا مَنْ كانوا حولكم ياأهل مكة من قرى ثمود ومدين وقوم لوط، بعد أن نوعنا تصوير الأدلة والعبر بأساليب شتى حتى يتضح الحق بكل طريق، ليرجع كل مَنْ ضل إلى الحق، ومَنْ كفر إلى الإيمان.

ثم نبه قريشًا إلى أن غير الله لاينفع فقال: فلولا نصرهم.. إلخ. أى فهلا نصرهم بدفع العذاب عنهم، هؤلاء الذين اتخذوهم من دون الله آلهة ليتقربوا بهم إليه سبحانه؟ كلا لم يحصل ذلك، بل غابت عنهم تلك الآلهة فى وقت شدة الحاجة إليهم، وعدم نفع آلهتهم لهم هو أثر صرفهم أنفسهم عن الحق إلى الباطل، ونتيجة افترائهم على الله الكذب بأن له شركاء وبعدما هدد سبحانه كفار مكة بحصول ماحصل لمَنْ قبلهم ممن كانوا أشد منهم من الإنس، أراد أن يهددهم مع شىء من التوبيخ بأنهم ليسوا أقوى من الجن الذين يعرفون قوتهم، وأشار إليها القرآن فى الآية (٣٩) من سورة النمل صفحة ٤٩٨.

وملخص الحادث كما يؤخذ مما سيأتى فى سورة الجن صفحة ٧٧٠ ومابعدها ومما رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس أنه لما بدأ نزول القرآن حالت الشهب بين الشياطين وبين استراق السمع من السماء كما تقدم فى الآية (٧) ومابعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، عند ذلك أبلغت الشياطين قومهم من الجن بما حصل. فأخذ كثير من الجن يبحث عن السبب.

وتفرقوا فى الأرض. وفى ليلة كان ﷺ مع جماعة من أصحابه فى مكان قريب من مكة وكان يصلى بهم الصبح فمر به جماعة من هؤلاء الجن. فلما سمعوا القرآن قالوا هذا والله هو الذى حال بينكم وبين الصعود إلى جهة السماء.

ورجعوا إلى قومهم وأخبروهم ماحكاه الله. فأخبر سبحانه نبيه بما حصل منهم هنا وفى سورة الجن. فقال: (وإذ صرفنا).. إلخ. أى واذكر لقومك ماحصل حين صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن لعل قومك يتنبهون لجهلهم وقبح صنيعهم من الكفر بالقرآن والإعراض عنه مع أنه بلسانهم، ويتلوه عليهم رجل من جنسهم فى الوقت الذى لما استمع إليه نفر من الجن آمنوا به وبمَنْ جاء به مع أنه ليس من جنسهم. فلما حضر هذا النفر إلى مكان قراءة القرآن قال بعضهم لبعض أنصتوا. أى اتقنوا الاستماع. فلما فرغ من القراءة انصرفوا مسرعين إلى قومهم.

مُنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا[1] إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا[2] أُنزِلَ مِن
بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى
طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا[3] أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا[4]
بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾
وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ
لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ[5] مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ[6] وَالْأَرْضَ وَلَمْ
يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ[7] عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ[8] الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى
النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو
الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ

المفردات: . ﴿من بعد موسى﴾: أى من بعد إنزال كتاب موسى، وهو التوراة؛ واقتصروا عليه لأنه متفق عليه بين الجميع، ولأنها هى أصل الشريعة، والإنجيل تابع ومتمم بما يناسب وقته.

﴿داعى الله﴾: يريدون به الرسول ﷺ.

﴿بمعجز﴾: أى لايعجز الله تعالى بالهرب من عقابه، انظر الآية (١٢) من سورة الجن صفحة ٧٧١.

﴿لم يعى بخلقهن﴾: أى لم يتعبه خلقها.

﴿بقادر﴾: الباء لتأكيد ربط القدرة بالله سبحانه وتعالى، وكذا الباء فى ﴿بالحق﴾ الآتية، فإنها لتأكيد ربط مابعدها باسم الإشارة قبلها. وهو ﴿هذا﴾ ﴿أليس هذا.. إلخ﴾: الاستفهام المفيد للنفى هنا للتوبيخ والباء فى ﴿بالحق﴾ تفيد تأكيد ثبوت الحق لما قبله. ﴿بلى﴾: حرف يفيد إبطال النفى قبله وإثبات المنفى، انظر تفصيل ذلك فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿أولو العزم﴾: أى أصحاب الثبات والصبر وهم كل الرسل سوى يونس عليه السلام لما فى قوله تعالى: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ فى الآية (٤٨) من سورة القلم صفحة ٧٦٠.

المعنى: . لما سمع الجن القرآن أسرعوا إلى قومهم يحذرونهم من العذاب إن لم يؤمنوا به وبالرسول الذى جاء به؛ لأنهم علموا أنه رسول لكل مكلف. وهم كذلك كما سيأتى فى سورة الجن. قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد كتاب موسى مصدقًا لما سبقه من التوراة

---

(١) ياقومنا. (٢) كتابا. (٣) ياقومنا. (٤) آمنوا.
(٥) ضلال. (٦) السموات. (٧) بقادر. (٨) يحيى.

وغيرها. وهذا سبب قطعهم بأنه حق يهدى إلى الحق فيما يجب لله وإلى شرع مستقيم. ياقومنا أجيبوا هذا الرسول الذى يدعو الثقلين المشار إليهما فى الآية (٣١) ومابعدها من سورة الرحمن صفحة ٧١٠ إلى الإيمان. وآمنوا به يغفر الله لكم بعض ذنوبكم على الأقل.

وإن أحسنتم الإيمان يغفر لكم كل هذه الذنوب لايبقى منها ذنب، ويحفظكم من عذاب مؤلم.

ومَنْ لايجب داعى الله فلابد من إهلاكه وتعذيبه؛ لأنه لايمكن أن يعجز الله تعالى عن عقابه مهما اختفى فى أنحاء الأرض، انظر الآية (٣٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. وليس له غير الله نصراء يحفظونه.

هؤلاء الذين لايؤمنون فى ضلال ظاهر. وبعد ما بين سبحانه فيما سبق أدلة وحدانيته وإثبات الرسل. شرع فى أثبات البعث فقال: أولم يروا أى هل أعمى كفار مكة الجهل حتى أنكروا البعث ولم يعلموا أن الله الذى قدر على خلق السموات والأرض ولم يلحقه تعب من ذلك قادر على أن يحيى الموتى؟ بلى. أى نعم هو قادر على ذلك؛ لأنه قدير على كل شىء. ثم ذكر بعض ماسيحصل بعد البعث من الهول. فقال: ويوم.. إلخ. أى ويقال للذين كفروا يوم يعذبون بالنار أليس هذا الذى أنتم فيه من العذاب هو الحق الذى أخبركم به رسولكم، فيقولون قولا لاشك فى تحققه حتى كأنه وقع فعلا: نعم وحق ربنا إنه هو الذى أخبرنا به رسلنا. قال لهم ربهم حينئذ فذوقوا العذاب بسبب كفركم بالله وبرسله.

وبعدما فرغ سبحانه من تقرير الأصول الثلاثة: التوحيد والرسالة والبعث. شرع فى تثبيته ﷺ ونصيحته فقال: (فاصبر كما)... إلخ.

أى إذا كانت عاقبة الكفار ماذكر فاصبر على أذاهم كما صبر أصحاب العزم من إخوانك الرسل قبلك على إيذاء أممهم.

ولاتستعجل العذاب لهم. فإنه نازل بهم قطعًا وسيكون له من الهول عندما يرونه مايجعلهم يظنون أنهم لم يعيشوا فى الدنيا إلا لحظة.

مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ[1] بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ[2] ﴿٣٥﴾

(٤٧) سورة محمد مدنية وآياتها ثمان وثلاثون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ[3] ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[4] وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[5] وَءَامَنُوا۟[6] بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ[7] وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[8] ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ[9] ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ

المفردات: ﴿لم يلبثوا﴾: أى لم يمكثوا. انظر الآية (٤٥) من سورة يونس صفحة ٢٧٣.

﴿بلاغ﴾: أى كفاية فى الموعظة، والمعنى هذا القرآن الذى وعظتهم به كافيهم لو كانوا مستعدين لسماعه.

﴿فهل يهلك﴾... إلخ: ﴿هل﴾ حرف استفهام إنكارى، يفيد النفى. أى لا يهلك إلا الظالمون.

المعنى: يتوهم هؤلاء الكفار حين مشاهدة العذاب المعد لهم فى جهنم أنهم لم يعيشوا فى الدنيا إلا لحظة صغيرة من نهار لما دهاهم من الهول. هذا القرآن الذى تلوته عليهم كافيهم عبرة وعظة لو كانوا مستعدين لقبول الحق. ثم توعدهم بتفيذ عدله فيهم إذا استمروا فقال: (فهل)... إلخ. أى لا يهلك الله إلا الفاسقين الخارجين على شرعه.

سورة محمد

المفردات: ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾: أى منعوا الناس عنه.

﴿أضل أعمالهم﴾: أى أبطلها وأذهب فائدتها فلا تنقذهم من الخلود فى النار ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: أى آمنوا بكل ما أنزل على الرسل السابقين، كما فى الآية (٨٤) من آل عمران صفحتى ٧٦، ٧٧. ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾: من عطف الخاص على العام، أى خصوصًا ما نزل على محمد.

(١) بلاغ. (٢) الفاسقون. (٣) أعمالهم. (٤) آمنوا. (٥) الصالحات.
(٦) وآمنوا (٧) الباطل. (٨) آمنوا. (٩) أمثالهم.

﴿بالهم﴾: أى حالهم.

﴿ذلك بأن الذين﴾ ... إلخ: أى هذا الجزاء العادل بسبب اتباع الكافر للباطل واتباع المؤمن للحق.

﴿كذلك يضرب الله﴾: أصل معنى ﴿يضرب﴾: يجعل، كما فى الآية (٧٥) من سورة النحل صفحة ٣٥٥ والمراد هنا: يوضح ويبين.

﴿أمثالهم﴾: أصل المثل الحالة التى تستلفت النظر، وتشتهر، والمراد بالأمثال هنا: أحوال الكافرين والمؤمنين التى عرف بها كل منهم، واشتهر بها بين الناس.

المعنى: الذين كفروا بالله وبرسوله ومنعوا غيرهم عن الدخول فى دين الله جعل أعمالهم باطلة الآثار فى الدنيا والآخرة. أما فى الدنيا فإحباط ما عملوه من الكيد للرسل صلوات الله عليهم وإنفاق الأموال لصرف الناس عن دينه، انظر الآية (٣٦) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢ والآية (٢٥) من سورة غافر صفحتى ٦٢٠، ٦٢١ وآيتى (٤٢، ٤٦) من سورة الطور صفحتى ٦٩٩، ٧٠٠. والآية (٢) من سورة الفيل صفحة ٨٢٢. وأما فى الآخرة فقد تقدم بيانه ومنه ما فى الآية (٣٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١. والذين آمنوا بما يجب الإيمان به المبين فى الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦٠، ٦١ وعملوا الصالحات وآمنوا خصوصًا بالقرآن المنزل على رسوله محمد ﷺ.

وذكر ذلك مع أنه داخل فى الإيمان بالله تنبيهًا لعظيم مكانته فيما يجب الإيمان به. ولذا قال بعد ذلك وهو الحق. أى هذا القرآن هو وحده الحق المنزل من ربهم. المؤمنون الذين هذه صفاتهم كفر الله عنهم سيئاتهم وأصلح حالهم فى الدنيا والآخرة بالتوفيق وراحة الضمير، انظر شرح الآية (٩٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٩. ذلك التفاوت فى المعاملة بين الكافرين والمؤمنين سببها اتباع الأولين للباطل فى كل شىء. والباطل لابد من مَحْقه. واتباع الآخرين للحق الذى أرشدهم إليه ربهم والحق ثابت الآثار لا تمحوه الزلازل. انظر شرح الآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤ كهذا البيان السابق لحال الكافرين والمؤمنين بما نزل على محمد يبين الله للناس فى كل زمان أحوال كل كافر وكل مؤمن. من إبطال عمل الكافر، وغفران ذنب المؤمن. وإصلاح حاله. وإذا كان الأمر كما ذكر من إصرار الكفار على ضلالهم. فإذا لقيتموهم فى الحرب فاضربوا رقابهم... إلخ.

ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا
بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ
يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ
وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ (٤)
سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا
لَهُمْ (٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ
أَعْمَٰلَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَٰلَهُمْ (٩) * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ
وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ

المفردات: ﴿أثخنتموهم﴾: أى أضعفتموهم بسبب القتل والجراح، انظر معنى الإثخان فى الآية (٦٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧.

﴿فشدوا الوثاق﴾: الوثاق هو الحبل الذى يربط به الأسير، والمراد: خذوهم أسرى.

﴿منًّا﴾: المن إطلاق الأسير بلا مقابل.

﴿وإما فداء﴾: الفداء هو أن يفدى الأسير نفسه من الأسر. بأن يدفع من المال ما يفدي به نفسه من الأسر ولم يتعرض القرآن للاسترقاق أى جعل الأسير عبدًا يباع ويشترى. لم يتعرض له القرآن للإشعار بأنه يكرهه، لما فيه من إهدار كرامة الإنسان وإلحاقه بالحيوان. وإنما اضطر المسلمون للعمل به لما رأوا خصومهم يسترقون مَنْ يأسرونهم من المسلمين، ففعلوا مثلهم أخذًا بقوله تعالى ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية (١٢٦) من سورة النحل صفحة ٣٦٣ وإن كف الكفار عنه وجب على المسلمين الكف عنه.

﴿تضع الحرب أوزارها﴾: الأوزار جمع وزر. بكسر فسكون. وأصله الحمل الثقيل والمراد أهوال الحرب، والكلام كناية عن انتهاء الحرب.

﴿ذلك﴾: الأصل: الأمر هو ذلك الذى كلفتكم به.

﴿لانتصر منهم﴾: أى لانتقم منهم بغير الحرب. كالخسف والغرق.

﴿ليبلوا﴾: أى ليمتحن حتى تظهر طبيعتهم كل. انظر الآية (٣١) الآتية من هذه السورة صفحة ٦٧٦.

(١) أعمالهم. (٢) آمنوا. (٣) عاقبة.
(٤) للكافرين. (٥) أمثالها. (٦) الكافرين.

﴿لن يضل أعمالهم﴾: لا يبطل أعمالهم بل يثيبهم عليها.

﴿سيهديهم﴾... إلخ: أى إلى ما فيه الاعتراف بفضله، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الحج صفحة ٤٣٦.

﴿ويصلح بالهم﴾: أى يصلح أحوالهم فى الآخرة بما أشار إليه فى الآية (٢٣) من سورة الحج صفحة ٤٣٦.

﴿عرفها لهم﴾: المراد: عرفهم منازلهم فيها بإلهام منه تعالى، فلا يصادفون مشقة فى الوصول إليها.

﴿تعسًا لهم﴾: أصل التعس هو السقوط على الوجه، يقال تعس الرجل بفتح العين على وزن قطع. إذا انكب على وجهه.

والمراد هنا: هلاكًا لهم.

﴿أحبط﴾: أبطل، انظر ما قيل فى الآية الأولى من هذه السورة صفحة ٦٧٢.

﴿دمر الله عليهم﴾: تقول العرب: دمره الله أى أهلكه، ودمر عليه. أى أهلكه وأضاع عليه كل ما يخصه من النفس والأهل والمال.

﴿الله مولى الذين آمنوا﴾: أى مواليهم بالنصر.

المعنى: فإذا حاربكم الكفار فاشتدوا عليهم بالقتل حتى إذا أضعفتموهم وتمكنتم من أخذ باقيهم أحياء فأسروهم. وبعد ذلك فإما أن تمنوا عليهم بإطلاق سراحهم بلا مقابل - إن كانت المصلحة فى ذلك.

أما إن كانت المصلحة فى استرقاقهم فللإسلام أن يجعلهم أرقاء مملوكين للمسلمين، ويدل على ذلك عشرات الآيات من القرآن التى تنادى بملك اليمين - وإما أن تفادوهم بمال أو بأسرى من المسلمين إن كان هناك أسرى منهم. واستمروا على ضربهم وأسرهم حتى تنتهى الحرب. الأمر فى معاملة الكافر المعتدى هو ذلك الذى ذكرته لكم.

ثم أراد سبحانه أن يبين أن تكليفهم بمقاومة العدو ولو بالحرب هى السنة الطبيعية فى نظام عالم الدنيا. وإلا فهو سبحانه قادر على أن ينتقم ممَّنْ يحارب رسوله بغير حرب، بل بشىء مما فى الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦، ولكن أمر الله سبحانه بالقتال ليمتحن بعضكم ببعض فيتميز المجاهد الصابر من غيره.

ثم بيَّن سبحانه جزاء المجاهدين فى سبيله فقال: والذين قتلوا ... إلخ. أى والمؤمنون الذين قتلوا فى الدفاع عن دين الله فلن يضيع عليهم ثمرة أعمالهم، سيهديهم ربهم إلى طيب القول مما فيه حمد الله والاعتراف بفضله. ويصلح أحوالهم فى الآخرة على ما تقدمت الإشارة إليه فى آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ وآيتى (٣٤، ٣٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦. والحال أنه سبحانه يدخلهم الجنة ويعرفهم منازلهم فيها.

وفى الحديث: (والله لأحدكم بمنزله فى الجنة أعرف منه بمنزله فى الدنيا).

ثم وعدهم سبحانه بالنصر إذا نصروا دينه فقال: (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله) بنصر رسوله والدفاع عن دينه ينصركم، ويثبت أقدامكم فى المعارك. والذين كفروا يهلكهم الله هلاكًا شديدًا ويضيع عليهم أعمالهم. يفعل بهم ذلك الذى ذكر من الإهلاك وإضاعة الأعمال بسبب أنهم كرهوا القرآن الذى فيه سعادة البشر؛ لأنه يسفه عقولهم التى تسوغ لهم عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع، ويقول: إن الفضل بالتقوى لا بالغنى والجاه إلى غير ذلك مما يخالف ما كان عليه آباؤهم. وبكرههم القرآن استحقوا أن يبطل الله أعمالهم حتى لو لم يعملوا غير ذلك.

ثم لفت نظر كفار مكة إلى التأمل فيما حصل لغيرهم فقال: (أفلم يسيروا)... إلخ. أى هل قعدوا ولم يسيروا فى الأرض سير مفكر فينظروا على أى حال كانت عاقبة المكذبين قبلهم، ثم بينها بقوله: ﴿دمر الله عليهم﴾ أى أهلكهم جميعًا.

ولهؤلاء الكافرين أمثال ما حصل لمَنْ قبلهم. ذلك المتقدم من نصر المؤمنين وهلاك الكافرين سببه أن الله ناصر المؤمنين. وأن الكافرين لا ناصر لهم.

ثم بيَّن حال المؤمنين فى الآخرة لزيادة تشجيعهم على الثبات فقال: إن الله يدخل... إلخ.

الَّذِينَ ءَامَنُوا[1] وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[2] جَنَّاتٍ[3] تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ[4] وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ
الْأَنْعَامُ[5] وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ
أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ[6] فَلَا
نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ
لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي
وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ[7] مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ[8] وَأَنْهَارٌ[9] مِّن
لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ[10] مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ[11] وَأَنْهَارٌ[12]
مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ[13] وَمَغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ[14] فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ
أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا
مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا[15] أُولَٰئِكَ

المفردات: . ﴿مثوى لهم﴾: أى محل إقامة.

﴿كأين﴾: أى كثير.

﴿من قرية﴾: بيان لهذا الكثير.

﴿قريتك﴾: هى مكة.

﴿أفمَنْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد لنفى التسوية الآتية المذكورة فى قوله.

﴿كمَنْ زين﴾.

﴿على بينة﴾: أى على حجة ونور بصيرة.

﴿زين له سوء عمله﴾: تقدم فى الآية (٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢.

﴿مثل الجنة﴾: أى صفتها العجيبة. قال الزمخشرى الأصل: هل مثل أهل الجنة... إلخ. حتى يتفق مع مقابله الآتى فى ﴿كمَنْ هو خالد﴾. ونظيره ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾... إلخ الآية (١٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٢، ٢٤٣. والمراد: لا يستويان. انظر الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠ والآيتين (٣٥، ٣٦) من سورة القلم صفحة ٧٥٩. وحذف حرف الاستفهام اعتمادًا على إدراكه من المقام كثير فى كلام العرب وفى القرآن: وساعد على فهمه هنا وجوده فى الآية السابقة مباشرة دالاً على إنكار التسوية كما هنا تمامًا. ﴿آسن﴾: هو الماء المتغير الطعم والرائحة. وفعله أسن. كضرب. ودخل. ﴿لذة﴾: المراد: لذيذة جدًا حتى كأنها اللذة نفسها.

---

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) جنات. (٤) الأنهار.
(٥) الأنعام. (٦) أهلكناهم. (٧) أنهار. (٨) آسن.
(٩، ١٠) وأنهار (١١) للشاربين (١٢) وأنهار (١٣) الثمرات.
(١٤) خالد. (١٥) آنفا.

﴿كمَنْ هو خالد فى النار﴾: ﴿مَنْ﴾ هنا بمعنى فريق أى جمع من الكفار بدليل جمع الضمير العائد عليها فى قوله ﴿وسقوا﴾ و﴿فقطع أمعاءهم﴾ أى هل صفة أهل الجنة كصفة الفريق من أهل النار؟. ﴿سقوا﴾: أى أكرهوا على شربه، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥.

﴿حميمًا﴾ هو الماء شديد الحرارة.

﴿أمعاءهم﴾: هى المصارين التى يصل إليها الطعام بعد هضمه فى المعدة ومفردها (مِعى) بكسر الميم، وفتح العين منونة.

﴿ومنهم مَنْ يستمع إليك﴾: أى ومن الكافرين منافقون، وهم المذكورون فى الآية (٢٠) الآتية يستمعون إليك، أى يلقون سمعهم إليك عندما تقرأ وتعظ مظهرين أنهم كالمؤمنين الصادقين.

﴿للذين أوتوا العلم﴾: المراد بهم علماء الصحابة. كابن عباس وابن مسعود.

﴿ماذا قال﴾: هذا هو غمز الخبث يريدون به السخرية كأنه قال كلامًا لا يؤبه له. انظر آيتى (٢٩، ٣٠) الآتيتين فى هذه السورة صفحة ٦٧٦.

﴿آنفًا﴾: المراد فى الزمن الماضى القريب.

المعنى: بعدما أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين أى نصيرهم. وأن الكافرين لا مولى لهم. أراد أن يذكر أثر ولايته للمؤمنين. وأثر حرمان الكافرين منها فقال: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار، والذين كفروا)... إلخ. أى أن الكافرين يتمتعون فى الدنيا بزخارفها الفانية وليس همهم فيها إلا ملء بطونهم كالأنعام التى لا تفكر فى مستقبلها، انظر ما تقدم فى الآية (٢٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩. وفى الآخرة تكون النار هى محل إقامتهم الدائمة. وبعدما حثهم على السير فى الأرض للاعتبار بما حصل لأمثالهم ولم يعتبروا أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ فقال: (وكم من قرية).. إلخ.

أى وكثير من أهل القرى الذين كانوا أشد قوة من أهل قريتك الذين تسببوا فى خروجك منها أهلكناهم جميعًا لما عملوا مثل عمل كفار قومك ولم يجدوا مَنْ ينصرهم بدفع عذابنا عنهم. وبعدما بيَّن أن المؤمنين فى نعيم وأن الفجار سيكونون فى جحيم أراد سبحانه أن يبين سبب هذه التفرقة فقال: (أفمَنْ كان).. إلخ. أى هل يستوى الفريقان: مَنْ كان يسير فى حياته الدنيا على نور من ربه فهو لا يضل أبدا مع مَنْ زين له الشيطان عمله السيئ حتى رآه حسنًا. وساروا فى حياتهم وراء شهواتهم انظر ما سبق فى الآية (٣٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦ والآية (١٠٤) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥. أى لا يصح فى حكم العقل أن يستويان؛ ثم أراد سبحانه أن يبين الفرق بين نهاية الفريقين مع بعض تفصيل فقال: (مثل الجنة).. إلخ، وأصل الكلام: هل مثل أهل الجنة، فاستغنى عن الاستفهام الإنكارى لوجوده فى الآية قبلها مباشرة أى لا يصح أن تكون صفة أهل الجنة التى وعد الله بها المتقين حال كونها فيها أنهار من ماء غير متغير بما ينفر منه. وأنهار من لبن لم يتغير طعمه بحموضة ولا غيرها. وأنهار من خمر لذيذة جدًا لشاربيها، لا تسكر ولا تصدع، انظر ما سبق فى الآية (٤٥) وما بعدها من سورة الصافات صفحتى ٥٨٩، ٥٩٠. وأنهار من عسل مصفى. ولهم فوق ذلك من كل الثمرات المشار إليها فى الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦.

ولهم فيها نعيم روحانى أيضًا وهو مغفرة الله لذنوبهم يتبعها رضاه عنهم. مثل هذا الفريق المنعم لا يمكن أن يكون كمثل الفريق الخالد فى النار الذين تسقيهم زبانية جهنم ماءً حارًا تقطع شدة حرارته أمعاءهم.

فيشملهم العذاب من الداخل والخارج. نسأل الله تعالى السلامة. وبعدما بيَّن سبحانه حال الكافرين، أراد أن يبين حال المنافقين الذين كانوا يحضرون مجلسه ﷺ فقال: (ومنهم).. إلخ.

أى من الكفار منافقون يستمعون منك القرآن وغيره فلا يلتفتون لما تقول تغافلا عما تدعوا إليه، وكراهة فيه حتى إذا خرجوا من مجلسك قالوا لمَنْ حضر مجلسك من أهل العلم ماذا قال محمَّد فى هذه اللحظة السابقة؟

يقصدون بذلك السخرية والاستهزاء بما يقول كأنه مما لا ينبغى الاهتمام به.

ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾
وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ
أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ
لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا
ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ
نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ
وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ
خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ

المفردات: . ﴿طبع الله على قلوبهم﴾: الطبع هو الختم المتقدم فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

﴿ينظرون﴾: أى ينتظرون. ﴿الساعة﴾: المراد: القيامة.

﴿أن تأتيهم﴾: بدل من الساعة. أى إلا إتيان الساعة.

﴿أشراطها﴾: أى علاماتها. والمفرد ﴿شَرَط﴾ بفتحتين على وزن ﴿سبب﴾.

﴿أنى﴾: أى كيف ومن أين؟. ﴿ذكراهم﴾: تذكرهم واتعاظهم، انظر الآيات (٥٤ إلى ٥٩) من سورة الزمر صفحة ٦١٤. ﴿واستغفر لذنبك﴾: انظر ما تقدم فى شرح الآية (٥٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٥.

﴿متقلبكم﴾: أى تنقلكم فى البلاد للكسب. انظر الآية (٤) من سورة غافر صفحة ٦١٧.

﴿مثواكم﴾: أى محل إقامتكم فى الجنة أو النار. انظر الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ٦٧٤.

﴿لولا﴾: حرف يدل على الرغبة فى حصول ما بعده.

﴿نزلت سورة﴾: أى هلاّ نزلت سورة نؤمر فيها بالجهاد. لو أنزلت لأسرعنا إلى الجهاد.

﴿محكمة﴾: المراد واضحة الدلالة على المعنى انظر الآية (٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٣.

(١) أتاهم. (٢) تقواهم. (٣) ذكراهم.
(٤) المؤمنات. (٥) مثواكم. (٦) آمنوا.

﴿مرض﴾ : المراد به هنا: النفاق، انظر الآية (١٠) من سورة البقرة صفحة ٤.

﴿المغشى عليه من الموت﴾ : أى المغمى عليه، انظر الآية (١٩) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥١، ٥٥٢.

﴿أولى لهم﴾ : يقول العربى عند تهديد شخص : (أولى لك) أى هلاك قريب الحصول لك، والمراد هلاك قريب الحصول لهم، انظر الآية (٣٤) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠.

﴿طاعة﴾ : مبتدأ خبره مقدر يُشعر به آخر الآية هو ﴿خير لهم﴾.

﴿عزم الأمر﴾ : أصلها عزم وصمم الرجال على الأمر. فإسناد العزم للأمر مبالغة كقولهم (أسرع الطريق) أى أسرع السائر فيه. فبالغوا وجعلوا الطريق كأنه هو المسرع.

﴿عسيتم﴾ : عسى كلمة تدل على توقع حصول ما بعدها. فالمراد: يتوقع وينتظر منكم... إلخ.

المعنى : . هؤلاء المنافقون هم الذين ختم الله على قلوبهم عقابا لهم واتبعوا فى النفاق إشباع شهواتهم فلذلك استهانوا بكلامه سبحانه. أما الذين اهتدوا إلى الإيمان وحسن استماع القرآن وكلام الرسول زادهم الله تعالى نور بصيرة وأعانهم على التقوى.

ثم بيَّن خطر غفلة الكفار عليهم فقال: (فهل ينظرون) .. إلخ. أى إذا كان كل ما سبق من العبر لم يفدهم فماذا ينتظرون؟ لا ينتظرون إلا إتيان الساعة بغتة فيجب أن يستعدوا لها. فقد ظهرت علاماتها. وأولها بعثة خاتم الرسل، وآخرها طلوع الشمس من المغرب. وإذا كانوا لايعتبرون إلا إذا جاءتهم الساعة فكيف ينفعهم تذكرهم حينئذ؟ انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١ وآيتى (٨٤، ٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩.

ثم أراد سبحانه أن يرشد رسوله والمؤمنين إلى خيرهم فقال: (فاعلم).. إلخ.

أى إذا علمت أيها النبى أن الأمر كله بيدنا فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله واهضم نفسك بالاستغفار لذنبك. وأقل هفوة من الأنبياء شديدة عند الله انظر ما سبق فى

آيتى (٦٧، ٦٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧ ، والآية (٣٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٥، ٥٥٦. واستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإنهم أحوج إلى استغفارك، وحثهم أيضًا على الصالحات التى تسبب غفران ذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. والله سبحانه يعلم كل أحوالكم فى الدنيا والآخرة وسيجازى كلا بما هو أهله.

روى مسلم وأحمد وغيرهما عن عبدالله بن سَرْجِس بفتح السين وسكون الراء وكسر الجيم قال: أكلت مع رسول الله من طعامه ثم قلت غفر الله لك يا رسول الله.

فقال ﷺ: ولك. فقلت هل أستغفر لك؟ فقال: نعم ولكم. وقرأ ﷺ: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين﴾ ... الآية وفى الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ كان يقول فى آخر تشهده (اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت. وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى. أنت المقدم. وأنت المؤخر. لا إله إلا أنت).

ثم أراد سبحانه أن يبين حالة أخرى كان يتفاوت فيها المؤمنون والمنافقون فقال: (ويقول الذين آمنوا)... إلخ. أى أن المؤمنين المخلصين كانوا يشتاقون إلى نزول آيات تأمر بالجهاد حرصًا على ثوابه.

فإذا أنزل الله تعالى سورة ذكر فيها الأمر بالجهاد بدلالة واضحة لا تقبل تأويلاً فرح المخلصون وشق ذلك على المنافقين وصاروا ينظرون إليك أيها النبى نظر المحتضر الخائف من الموت.

فهلاك لهم. طاعة منهم لك وقول حسن يدل على صدق الامتثال لما تقول خير لهم.

فإذا جد الجد وصمم المؤمنون على القتال، فلو صدق هؤلاء الله فى الإيمان به وطاعته لكان ذلك خيرا لهم. ثم وبخ المنافقين فقال: (فهل عسيتم).. إلخ.

أى أنكم يتوقع منكم لفساد طبائعكم أنكم إن توليتم أمور الناس تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم فتعودوا إلى تباغض الجاهلية.

اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ
أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ
سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦)
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا
رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَآءُ
لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ
الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
الْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ

المفردات: ﴿فأصمهم﴾: أى أصابهم بالصمم عن سماع الحق، فلا يسمعون ما ينفعهم، انظر الآية (١٠١) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤.

﴿أم﴾: حرف بمعنى ﴿بل﴾ يفيد الانتقال من حكم إلى حكم.

﴿أقفالها﴾: أضافها إليها للإشارة إلى أنها مناسبة لها فى إحكام الغلق.

﴿ارتدوا على أدبارهم﴾: كناية عن التراجع.

والمراد: تراجعوا عن إخفاء الكفر إلى إظهاره. وهم المنافقون المشار إليهم فى الآية (٦٦) من سورة التوبة صفحة ٢٥٢.

﴿سوَّل لهم﴾: أى سهل لهم وزين.

﴿أملى لهم﴾: أى مد لهم فى الأمانى حتى يستغرقوا فى الشهوات.

﴿للذين كرهوا ما نزل الله﴾: هم يهود بنى قريظة والنضير الذين كانوا حول المدينة. انظر آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٣.

﴿فى بعض الأمر﴾: أى مما يعطل الدعوة الإسلامية. انظر الآية (١١) من سورة الحشر صفحتى ٧٣١، ٧٣٢.

﴿إسرارهم﴾: أى إخفائهم لخبائثهم وكيدهم للمسلمين.

---

(١) أبصارهم. (٢) القرآن. (٣) أدبارهم. (٤) الشيطان. (٥) الملائكة.
(٦) أدبارهم. (٧) رضوانه. (٨) أعمالهم. (٩) أضغانهم. (١٠) لأريناكهم.
(١١) بسيماهم. (١٢) أعمالكم. (١٣) المجاهدين. (١٤) الصابرين. (١٥) نبلوا.

﴿يضربون وجوههم﴾: انظر ما تقدم فى الآية (٥٠) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥.

﴿فأحبط﴾: أى أبطل كما فى الآية (٩) من هذه السورة صفحة ٦٧٣.

﴿أم حسب﴾: تقدم معناها فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢.

﴿مرض﴾: أى نفاق كما تقدم فى الآية (٢٠) من هذه السورة صفحة ٦٧٥.

﴿أضغانهم﴾: مفردها ضِغْن بكسر فسكون وهو الحقد الشديد، انظر شرح الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١.

﴿أريناكهم﴾: أى عرفناك إياهم بعلامات لا تكون إلا فيهم.

﴿سيماهم﴾: (السِّيما): العلامة و ﴿سيماهم﴾ أى علاماتهم.

﴿فى لحن القول﴾: ﴿فى﴾ سببية والمراد: بسبب لحن... إلخ و ﴿لحن القول﴾ إمالة الكلام عن معناه الظاهر إلى معنى آخر متفق عليه بينهم يجعل عباراته ملتوية، لا يفهمها غيرهم.

انظر مثلا من ذلك فى الآيات (١٠٤) من سورة البقرة صفحة ٢٠ و(٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨ و (٦٥) من سورة التوبة صفحتى ٢٥١، ٢٥٢ والآية (١٦) من هذه السورة صفحتى ٦٧٤، ٦٧٥ و (٨) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٦.

﴿لنبلونكم﴾: أى لنعاملنكم معاملة المختبر كما تقدم فى الآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤.

المعنى: هؤلاء المنافقون هم الذين لعنهم الله أى أبعدهم عن رحمته عقابا لهم، فسدت آذانهم عن سماع الحق وعميت أبصارهم عن طريق الهداية. هل بعد كل هذه العبر ما زالوا مصممين على الكفر فلا يتدبرون القرآن ليعرفوا الحق.

ثم انتقل من توبيخهم على عدم الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم إلى توبيخهم بعدم الانتفاع

بقلوبهم أيضا فقال: (أم على قلوب).... إلخ. أى بل أغلقت قلوبهم بأقفال مناسبة لها. والكلام تمثيل لعدم وصول التدبر إلى قلوبهم. وكان المنافقون فى أول الأمر يتقنون إخفاء كفرهم. فخفيت حالهم حتى عليه ﷺ، انظر الآية (١٠١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٩.

ولكن لما أصيب المسلمون فى بعض الوقائع وظن هؤلاء المنافقون أن هزائم المسلمين ستتوالى. فاستهانوا بهم، وطمأنهم وجرأهم على ذلك ما علموه من أنه ﷺ لا يقتل أحدا ما دام ينطق بالشهادتين. من كل ذلك علموا أنه لا خوف عليهم إذا أظهروا بعض ما فى أنفسهم بالدس للمسلمين والكيد لهم. وفعلوا ما فى الآية (٢٦) الآتية. والآية (١٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠. والآية (١٨) وما بعدها من نفس السورة صفحة ٥٥١ وما بعدها. والآية (٦٠) من نفس السورة صفحة ٥٦٠. والآية (١١) من سورة الحشر صفحتى ٧٣١، ٧٣٢. وآيتى (٧، ٨) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٣، ٧٤٤.

لما حصل كل هذا عبر عنهم سبحانه بأنهم ارتدوا أى رجعوا إلى إظهار الكفر بتلك الطريق الملتوية بعدما كانوا يخفونه فقال: إن الذين ارتدوا.. إلخ.

أى إن الذين تراجعوا عما كانوا يظهرون من بعد ما تبين لهم الهدى إلى الطريق الواضح، هؤلاء ما فعلوا ذلك إلا لأن الشيطان زين لهم الضلال ومد لهم فى الآمال حتى غفلوا عن أهوال الآخرة.

ثم بيّن بعض ما ارتدوا به فقال: (ذلك بأنهم).. إلخ. أى ذلك الارتداد الذى وقع من المنافقين حصل بسبب قولهم لليهود الذين كرهوا ما نزل الله من القرآن على خاتم الرسل حسدا قالوا لهؤلاء اليهود سنطيعكم فى بعض الأمور التى تطلبونها منا لتعطيل دعوة محمّد وهو ما فى الآية (١١) من سورة الحشر صفحتى ٧٣١، ٧٣٢. قالوا ذلك والحال أنه سبحانه يعلم إخفاءهم لما يقولون وغيره.

ثم سفه عقولهم ببيان أنهم إن سلموا من نتيجة كيدهم هذا فى الدنيا فماذا يصنعون فيما بعد. فقال: فكيف... إلخ. أى فكيف يصنعون إذا قبضت ملائكة الموت أرواحهم حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم.

ثم بيّن سبب ما تقدم فقال: (ذلك بأنهم اتبعوا) ... إلخ.

أى ذلك الموت على أقبح الوجوه وأفظعها بسبب أنهم اتبعوا كل ما يسخط الله سبحانه من الكفر والمعاصى. وكرهوا ما يرضيه تعالى من الإيمان والطاعات، فأبطل سبحانه جميع أعمالهم فى الدنيا والآخرة. فلا ينتفعون بشىء ولا يصلون إلى مرغوب.

ثم انتقل سبحانه إلى تهديدهم فقال: أم حسب.. إلخ. أى بل هل ظن هؤلاء المنافقون أن الله لا يظهر أحقادهم فيفضحهم. وقد فعل سبحانه فى سورة التوبة حتى سماها بعض الصحابة (الفاضحة) انظر شيئًا من ذلك فى صفحات ٢٤٧ وما بعدها خصوصًا الآيات (٥٨، ٦١، ٧٥، ٨١، ٨٤، ٩٤).

ثم أكد سبحانه تهديدهم بالفضيحة فقال: ولو نشاء ... إلخ. أى ولو نشاء تعريفك أيها النبى أشخاصهم لعرفناك فتعرفهم بعلامات غالبة عليهم، ولكنه سبحانه لم يفعل فى ذلك الوقت لحكم منها: عدم إيذاء أقربائهم المسلمين وحرصا على مظهر المسلمين فى أول الأمر.

ولما استقر الأمر واطمأنت القلوب فضح الله بعضهم كما تقدمت الإشارة إليه. ووالله إنك لتستطيع أيها النبى أن تعرفهم بسبب عباداتهم الملتوية.

ثم وجه التهديد إليهم ثانيًا فقال تعالى: والله يعلم أعمالكم أيها المنافقون وسيعاقبكم عليها بالعذاب فى الدرك الأسفل من جهنم كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، ثم وجه الخطاب للمؤمنين فقال: ولنبلونكم ... إلخ. أى والله لنعاملنكم أيها المؤمنون معاملة الممتحن حتى يتبين للناس أمر المجاهدين بإخلاص والصابرين على الشدائد. وغيرها.

ونمتحن أخباركم التى تقولونها من أنكم مؤمنون صادقون وموالون للمؤمنين. هل أنتم صادقون فيها أم لا؟

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ
أَعْمَـٰلَهُمْ (١) ﴿٣٢﴾ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ (٢) أَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ (٣) ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن
يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ
ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ (٤) ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
ٱلْحَيَوٰةُ (٥) ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ (٦) أَمْوَٰلَكُمْ (٧) ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا (٨)
فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ (٩) ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ
هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ
وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ

المـفـردات : . ﴿صـدوا﴾ : تقـدم أول السورة.

﴿شاقوا الرسول﴾ : المراد عادوه وحاربوه لدينه، كمـا تقـدم فى الآية (١٣) من سـورة الأنفال صفحة ٢٢٨.

﴿سيحبط أعمالهم﴾ : أى يبطل ما عملوه لعرقلة الإسلام، انظر آيتى (٨، ٣٦) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٧، ٢٣٢ والآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤ والآية (١٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢.

﴿فلن يغفر الله لهم﴾: أى لشركهم وكفرهم، انظر الآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨.

﴿تهنوا﴾ أى تضعفوا.

﴿السلم﴾ : أى المسالمة.

﴿الأعلون﴾ : أى المستعلون الغالبون.

﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ : أى ولن ينقصكم أجر أعمالكم.

(١) أعمالهم.
(٢) آمنوا.
(٣،٤) أعمالكم.
(٥) الحياة.
(٦) يسالكم.
(٧) أموالكم.
(٨) يسالكموها.
(٩) أضغانكم.

﴿لعب﴾ : هو كل ما يشغل مما ليس فيه ضرر فى الحال، ولا منفعة فى المال، ولم يعطل عن نافع الأمور والشئون، فهو أشبه بأعمال الأطفال.

﴿لهو﴾ : ما ليس فيه منفعة ويشغل عن مهام الأمور.

﴿يحفكم﴾ : الإحفاء كالإلحاح هو المبالغة فى طلب الشىء حتى يتعب المطلوب منه.

﴿أضغانكم﴾ : تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿يبخل عن نفسه﴾ : ضمن ﴿يبخل﴾ معنى مانعًا الخير، ولذا عدَّاه بحرف (عن) بدل حرف (على) ويقال هنا ببخله يمنع الخير عن نفسه.

المعنى : . إن الذين كفروا بالله ورسوله، ومنعوا غيرهم عن الدخول فى دين الله، وعادوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى بما أيده الله تعالى به من المعجزات وبما فى شرعه من المصلحة للناس جميعا. هؤلاء لن يضروا الله أقل ضرر بكفرهم.

وسيبطل سبحانه كل مكايدهم التى نصبوها لمحاربة دينه. روى ابن كثير أن بعض الصحابة ظن أنه لا يضره ذنب متى اعترف بأنه لا إله إلا الله كما لا ينفع مع الشرك عمل. فأنزل سبحانه قوله تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ ... إلخ.

يشير إلى أن كثيرا من الذنوب تبطل الحسنات. كالرياء والحسد. فقد ورد أن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وكذلك المن والأذى، انظر الآية (٢٦٤) من سورة البقرة صفحة ٥٦.

فى كل هذا قال سبحانه: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم، أى لا تضيعوا ثواب أعمالكم الصالحة بما يصدر عنكم مما يبغضه الله سبحانه وتعالى. ثم بيَّن سبحانه أنه لا يغفر للمصرين على الكفر فقال: (إن الذين كفروا)... إلخ. أى الذين جمعوا بين الكفر وبين صدهم غيرهم عن الإسلام ثم ماتوا على ذلك لن يغفر الله لهم. وسيعذبهم على الكفر ويزيد عذابهم على الصد عن الإسلام.

وإذا علمتم أيها المؤمنون أن الله مبطل أعمال الكافرين ومعاقبهم فى الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم. ولا تظهروا ضعفًا بالدعوة إلى المهادنة.

والحال أنكم المتفوقون. والله معكم بالنصر.

ولن ينقصكم من أجر أعمالكم شيئًا. وبعدما أمر سبحانه المؤمنين بالثبات وعدم إظهار الخوف من الأعداء حرصًا على الحياة أراد أن يبين لهم أن الحياة لا قيمة لها إذا قيست بنعيم الآخرة.

فقال: إنما عمل الإنسان فى الدنيا كاللعب واللهو الذى لا بقاء له. إلا ما كان منه فى سبيل الله وطلب رضاه: وإن تؤمنوا وتتقوا وتبتعدوا عما يغضب ربكم فلا تعصوه، يؤتكم ثواب أعمالكم. ولا يطلب منكم كل أموالكم فى الزكاة وسائر وجوه الخير.

بل يطلب منكم القليل منها مواساة لإخوانكم الفقراء، وحفظًا لمصلحة الدولة.

ثم بيّن سبحانه أن الإنسان فى طبعه الحرص على المال. ولذلك لم يكلفه ما يرهقه. فقال: إن يسألكموها: أى إن يطلبها كلها فيثقل عليكم ويغلب عليكم الطبع تمتنعوا عن الإنفاق. وبذلك يظهر الله سبحانه أحقادكم على تعاليم الإسلام لشدة حرص الإنسان على المال.

ثم بيّن سبحانه أن المسلمين الموجودين فى ذلك الحين منهم الشحيح ومنهم السخى. فقال: ها أنتم... إلخ. أى ها أنتم يا هؤلاء الذين أظهرتم أنكم مسلمون تدعون لتنفقوا فى كل ما يرضى الله من أبواب الخير. فمنكم أناس يبخلون ومن يبخل فإنما يبخل مانعا الخير عن نفسه. ومنكم منْ ينفق لمرضاة ربه.

ثم بيّن أن الإنفاق إنما هو لمصلحتهم لا لحاجته سبحانه. فقال: والله وحده هو الغنى عن كل ما سواه وأنتم الفقراء.

ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

(٤٨) سُورَةُ الفَتْحِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ

المفردات: ﴿تتولوا﴾: أى تعرضوا عن الإيمان.

﴿لا يكونوا أمثالكم﴾: أى فى الإعراض، بل يؤمنون ويطيعون الرسول. انظر آيتى (٤٠، ٤١) من سورة المعارج صفحتى ٧٦٦، ٧٦٧.

المعنى: والله غنى عن خلقه، وأنتم الفقراء إلى إحسانه. وإن تعرضوا عن طاعته يجعل بدلكم قومًا آخرين يبتعدون عن مسلككم الخاطئ فلا يكونوا مثلكم فى العصيان. بل مطيعين له سبحانه. والله فعّال لما يريد. ولكن الكافرين لا يعلمون والله تعالى أعلم.

(سورة الفتح)

المفردات: ﴿فتحنا لك﴾: أى مكناك من فتح ما كان مغلقا فى وجه دعوتك فانسابت فى البلاد لا يصدها شىء.

﴿مبينا﴾: أى واضحًا. انظر الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢.

﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك﴾: أى بعد أن تستغفره عما كان يضيق به صدرك فى بعض الأحيان، من شدة إيذاء قومك وإعراضهم عن الإيمان، يغفر لك ذلك وجميع ما حصل

(١) أمثالكم.
(٢) صراطا.
(٣) إيمانا.
(٤) إيمانهم.
(٥) السموات.
(٦) المؤمنات.
(٧) جنات.

منك مما يصح أن تعاتب عليه، انظر ما سبق فى الآية (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤ والآية (٥٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ والآية (١٩) من سورة محمد صفحة ٦٧٥ والآية (٣) من سورة النصر صفحة ٨٢٥.

﴿عزيزا﴾: يطلق العزيز على الشىء النادر الصعب المنال، فالمراد: نصرا يصعب حصول مثله لغيرك.

﴿السكينة﴾: أى الطمأنينة والثبات، انظر الآية (٢٦) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤.

﴿جنود السموات والأرض﴾: جنود الله هم كل ما بهم تنفيذ أوامره تعالى من الملائكة، أو الإنس، أو الحجارة، أو الزلازل إلى غير ذلك، انظر الآية (٩) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠ والآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧. والمراد هنا جنوده تعالى التى ثبَّت بها المؤمنين وطمأنهم كما فى الآية (٤٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٧.

المعنى: تدور آيات هذه السورة حول غزوة الحديبية وما قارنها من الوعد بفتح مكة وخيبر وغيرهما. والحديبية بضم الحاء وفتح الدال وسكون الياء الأولى وكسر الباء وتخفيف الياء الثانية مفتوحة. هى قرية قريبة من مكة على مسافة يوم بسير الإبل. وملخص قصتها أنه ﷺ رأى فى منامه فى أواخر سنة ستة هجرية أنه دخل هو وأصحابه مكة معتمرين. وبعد فراغهم من العمرة تحللوا بحلق رءوسهم أو تقصير شعورهم وهم مطمئنون. فأخبر ﷺ بذلك، ودعا الجميع للخروج معه حتى الأعراب المقيمين حول المدينة الذين كانوا يظهرون الإسلام، وفعل ذلك حذرًا من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يمنعوه من الوصول إلى البيت الحرام فاستعد للخروج معه من المؤمنين نحو ١٤٠٠ رجل. وتخلف المنافقون من الأعراب متعللين بأعذار كاذبة كما سيأتى فى الآية (١١) الآتية صفحتى ٦٧٩، ٦٨٠. وقالوا فيما بينهم كيف يذهب إلى قوم فى عقر دارهم بعدما قتلوا أصحابه فى غزوة أحد. انظر الآيات (١٢١) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٨٣. وظنوا أنه لن يرجع أبدا. ولما تم تنظيم جيشه ﷺ خرج فى ذى القعدة من تلك السنة. وساق معه الهدى ليعلم أهل مكة أنه ما جاء لحرب، ولكن لأداء عبادة. ووصل خبر خروجه ﷺ أهل مكة، فصمموا على منعه من الدخول، واستعدوا لقتاله. ولما وصل ﷺ الحديبية بلغه ما فعل المشركون فتوقف عن السير، وأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه

إلى مكة ليخبر أهلها بما جاء ﷺ لأجله. فلم تقبل قريش ذلك. ومنعوا عثمان من الرجوع إليه ﷺ. وحجزوه عندهم، فشاع بين المسلمين أن عثمان قد قتل. عند ذلك صمم ﷺ على الحرب ثقة منه بما وعد سبحانه فى الرؤيا. وكان جالسا تحت الشجرة الآتى ذكرها فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٦٨١، فدعا أصحابه للمبايعة على الحرب. وألا يفر واحد منهم مهما كانت الأحوال. ثم تبين بعد ذلك كذب إشاعة قتل عثمان. ولما علمت قريش تصميمه ﷺ على الدخول أرسلت إليه رجالا منهم ليصالحوه على أن يرجع هذا العام ويتركوا له مكة فى العام القادم مدة ثلاثة أيام. فقبل ﷺ الصلح على ذلك بشروط منها أن تكون بينه وبينهم هدنة مدة عشرة أعوام. ومن أسباب رضاه ﷺ عن ذلك أن هذا يمكنه من التفرغ لتطهير المدينة ممن حولها من اليهود والخونة الذين كانوا يقلقونه بمساعدة المشركين.

فلما شرع فى الرجوع قال عمر بن الخطاب لأبى بكر الصديق رضى الله عنهما، كيف رضى ﷺ ذلك. وقد وعدنا أننا سندخل المسجد الحرام آمنين؟ فقال أبو بكر: هل قال سيحصل ذلك فى هذا العام؟ قال عمر: لا.. قال أبو بكر: فانتظر فستدخل آمنا. وفى أثناء الطريق نزل عليه ﷺ الوحى بسورة الفتح كلها. فأمر ﷺ مناديا ينادى عمر بن الخطاب، وكان فى مقدمة الركب. فلما جاء قال له: يا عمر لقد نزلت علىَّ الليلة سورة هى أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس. ثم قرأ ﷺ ﴿إنا فتحنا لك..﴾ إلى آخر السورة.

وفى هذا قال البراء بن عازب (تعدون أنتم الفتح فتح مكة، لكنا نحن نعد الفتح هو صلح الحديبية) أى لأن بها أمن المسلمون شر قريش وتفرغوا لنشر الدعوة فى أنحاء الجزيرة. وتمكن كثير ممَّنْ كانوا يخافون من قريش من الدخول فى الإسلام. وتم فتح خيبر كما سيأتى فى شرح الآية (١٥) من هذه السورة صفحة ٦٨٠.

قال ابن إسحاق (لم يكن فى الإسلام فتح قبل صلح الحديبية، وإنما كان الكفر والقتال) وبعد الحديبية أمن الناس واتصل بعضهم ببعض، وبادر الناس إلى الدخول فى الإسلام. فدخل فيه فى سنتين أكثر ممَّنْ دخل فيه طول مدة السبع عشرة سنة الماضية من مبدأ الرسالة. وإن أردت المزيد من شروط صلح الحديبية ودقائق ما حصل فى هذه الحادثة فارجع إلى أحاديث ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧ من كتابنا صفوة صحيح البخارى. فقوله تعالى إنا فتحنا

لك.. إلخ. أى إنا هيأنا لك بهذا الصلح أسباب فتح البلاد فتحًا ظاهرا لا يخالطه ضعف. ولما كان ﷺ وأصحابه تضيق صدورهم من عنف المشركين مع العجز عن القضاء على طغيانهم، انظر الآيات (٣٣) إلى (٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧ وآيتى (١٢، ١٣) من سورة هود صفحة ٢٨٥ والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩ والآية (٣٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧١، ٦٧٢. وقد حصل للمؤمنين من الأمم السابقة مثل هذا، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢.

وكل هذا لا يعد من الإنسان الذى لا يعلم الغيب نقصا لأنه مطبوع على حب دواعى الاطمئنان، انظر الآية (٢٦٠) من سورة البقرة صفحة ٥٥ ومع ذلك يعده سبحانه إذا حصل من أقرب المقربين إليه هفوة تستحق الاستغفار، لكل هذا يقول سبحانه بعد أن فتحت لك أيها النبى أبواب النصر فاستغفر لما سبق منك من الضجر ليغفر الله لك كل ما حصل وسيحصل منك مما يصح أن تعاتب عليه، وفى هذا غاية التطمين لنفسه الشريفة ﷺ، ومطاردة ما كان يضايقه من افتراء الكافرين، قال تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ الآية (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، وقال سبحانه: ﴿.. ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون﴾ الآية (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، وانظر سورة النصر صفحة ٨٢٥. ويتم نعمته عليك بإعلاء دينك وتمكين كلمتك. ويهديك طريقًا مستقيمًا فى تبليغ الرسالة لمَنْ لم تبلغه، وفى تنظيم قواعد الملك الصحيح.

وينصرك الله نصرًا منيعًا لا هزيمة بعده. ثم بيَّن سبحانه ما أفاض عليهم من مبادئ الفتح فقال تعالى: ﴿هو الذى أنزل السكينة..﴾ إلخ. أى هو وحده الذى أوجد الطمأنينة والثبات فى قلوب المؤمنين عندما طلبتهم للمبايعة، فلم يهتموا بالكفار. فعل سبحانه بهم ذلك ليزدادوا يقينًا بصدق الرسول مع يقينهم بالله واليوم الآخر. فتطمئن قلوبهم، كما اطمأن قلب نبى الله إبراهيم عليه السلام فى الآية (٢٦٠) من سورة البقرة، صفحة ٥٥ المشار إليها سابقًا. ثم بيَّن سبحانه منشأ تفضله عليهم بالثبات فقال سبحانه: ولله جنود السموات والأرض ينفذون أمره فى خلقه فثبت بهم المؤمنين وكان الله عليمًا بأعمال خلقه، حكيمًا فى تدبير شئونهم، ودبر سبحانه ما دبر من تثبيت المؤمنين ليقاتلوا المشركين لتكون النتيجة أنه سبحانه يدخل المؤمنين والمؤمنات جنات.. إلخ.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[1] خَالِدِينَ[2] فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ[3] وَالْمُنَافِقَاتِ[4] وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ[5] الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ[6] وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ[7] شَاهِدًا[8] وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ[9] عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا[10]

المفردات: ﴿الظانين بالله﴾.. إلخ: هم مَنْ سيأتى فى الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ٦٨٠. ﴿السوء﴾: هو الشىء المسىء المكروه. ﴿دائرة السوء﴾: أصل معنى الدائرة هو الخط المحيط بالشىء. ثم استعملت فى الداهية التى تحيط بمَنْ تصيبه. ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾: ذكرت هذه الجملة فى الآية (٤) السابقة من هذه السورة صفحة ٦٧٨ فى مقام تقرير أنه سبحانه هو المدبر لشئون خلقه فناسب أن يذكر بعدها ﴿عليمًا حكيمًا﴾، ولما كان المقام هنا مقام تهديد المشركين بأن فى قبضته سبحانه وتعالى جنود السموات كالملائكة، والصواعق، والطير الأبابيل فى الآية (٣) من سورة الفيل صفحة ٨٢٢ وجنود الأرض كالزلازل والغرق، ناسب أن يذكر بعدها ﴿عزيزا﴾ أى غالبًا، لا يغلبه أحد، ﴿حكيما﴾ لا يسوى بين المؤمن والكافر. ﴿شاهدا﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٤٥) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦.

﴿تعزروه﴾: أصل معنى العزر بفتح العين وسكون الزاى (المنع)، انظر الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨ والمراد هنا: تنصروه بنصر دينه كما فى الآية (٧) من سورة محمد صفحة ٦٧٣. ﴿توقروه﴾: أى تعظموه. ﴿بكرة وأصيلا﴾: البكرة أول النهار، والأصيل آخره، والمراد دائما. ﴿يد الله فوق أيديهم﴾: كناية عن تأكيد البيعة، على ما جرت عليه عادة العرب عند المبايعة من وضع يد أحدهما فى يد الآخر. ثم يضع كبير القوم يده فوق أيدى الجميع – دون تشبيه طبعا فالله تعالى ليس كمثله شىء.

(١) الأنهار.	(٢) خالدين.
(٣) المنافقين.	(٤) المنافقات.
(٥) المشركات.	(٦) السموات.
(٧) أرسلناك.	(٨) شاهدا.
(٩) عاهد.	(١٠) أموالنا.

﴿نكث﴾: أى نقض العهد.

﴿المخلفون﴾: جمع مخلف بوزن مُعَظَّم. وهو المتروك خلف القوم. والمراد الذين أقعدهم الشيطان عن الخروج معه ﷺ.

﴿الأعراب﴾: هم سكان البادية، انظر الآية (٩٠) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٦، ٢٥٧.

المعنى: يدخل سبحانه المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها. ويمحو عنهم سيئاتهم. فلا يؤاخذهم بها. وكان ذلك الإدخال ومحو الذنوب عند الله فوزًا عظيمًا. ومَنْ كفر باطنًا كالمنافقين والمنافقات. أو ظاهراً أو باطنًا. كالمشركين والمشركات، يعذبهم سبحانه فى الدنيا بالخزى والقتل، وفى الآخرة بنار جهنم. وذلك لأنهم ظنوا بالله الظن السيئ. وهو أنه سبحانه لا ينصر رسوله والمؤمنين، كما سيأتى فى الآية (١٢) الآتية صفحة ٦٨٠. فخيب الله ظنهم وقلب الهزيمة عليهم، وغضب عليهم، وطردهم من رحاب رحمته. وأعد لهم جهنم. وقبحت جهنم نهاية لهم. ثم بيَّن سبحانه أنه قادر على ما توعدهم به فقال ولله جنود السموات والأرض. كلها فى قبضته ينفذ بها ما يشاء فى خلقه. وكان الله غالبًا حكيمًا. يجازى كلا بما يستحق. ثم امتن سبحانه على نبيه فقال: إنا أرسلناك.. إلخ. أى أرسلناك أيها النبى شاهدا على أمتك وعلى مَنْ سبقهم بأن شرع الله بلغتهم، ومبشرًا مَنْ آمن بالجنة. ومحذرا مَنْ عصى بالنار. أرسلناك لتؤمن أيها النبى أنت ومَنْ معك بالله ورسوله، وتنصروا الله بتقوية دينه، وتعظموه وتسبحوه دائمًا. وقد أفادت الآية أنه يجب على الرسول أن يكون على يقينه من أنه رسول الله. وبعدما بيَّن سبحانه شرف نبيه أراد أن يبين أيضًا أن من منزلته الرفيعة أن مَنْ يبايعه فقد بايع الله تعالى نفسه لأن المقصود من مبايعته ﷺ هى طاعة الله ومَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله كما فى الآية (٨٠) من سورة النساء صفحة ١١٤. وليعلم بذلك المؤمنون مخاطر نقض مبايعته فقال: إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله. ثم أكد ذلك بقوله سبحانه: يد الله فوق أيديهم. والمراد: التأكيد فقط. وإلا فقد تكون هناك بيعة بدون وضع يد. كبيعته ﷺ للنساء. انظر الآية (١٢) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٧. ومن نتائج هذه البيعة المؤكدة أن مَنْ نقضها فإن وبال نقضه يعود على نفسه. ومَنْ أوفى بعهده مع الله فسوف يؤتيه أجرًا عظيمًا. وهو العز فى الدنيا: والنعيم الخالد فى الآخرة. ولما ذكر سبحانه أهل بيعة الرضوان أتبع ذلك بذكر مَنْ تخلف عن الخروج معه ﷺ وأعذارهم الكاذبة. فقال سبحانه: (سيقول لك).. إلخ.

وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ
قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ
أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ
ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ
أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ
قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ
قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ
بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل

المفردات: ﴿أهلونا﴾: جمع أهل والمراد بهم النساء والذرارى؛ وهذه عادة المنافقين أن يتعللوا بالباطل، انظر الآية (١٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٠، ٥٥١.

﴿مَنْ يملك﴾: (مَنْ) اسم استفهام إنكارى يفيد النفى. أى لا أحد يملك لكم.. إلخ. وأصل معنى الملك إمساك الشىء وضبطه بقوة فإذا قلت لا أملك فمعناه لا أستطيع التصرف. ﴿ضرا﴾: المراد: ما يضر.

﴿نفعا﴾: المراد ما ينفع.

﴿ينقلب الرسول﴾: أى يرجع إلى المدينة. ﴿ظن السوء﴾: تقدم فى الآية (٦) من هذه السورة صفحة ٦٧٩. ﴿بورا﴾: أى فاسدين لا خير فيكم، كما تقدم فى الآية (١٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. والمراد بها هنا: هالكين. ﴿المخلفون﴾: تقدم فى الآية (١١) من هذه السورة. ﴿مغانم﴾: هى مغانم خيبر. ﴿ذرونا﴾: أى اتركونا نخرج معكم ولا تمنعونا.

﴿يبدلوا كلام الله﴾: هو الذى وعد به رسول الله ﷺ بأن مغانم خيبر خاصة بمَنْ بايعوه تحت الشجرة كما سيأتى فى آيتى (١٨، ١٩) من هذه السورة صفحة ٦٨١.

﴿لن تتبعونا﴾: المراد من (لن) هنا النهى عن الإذن لهم بالغزو مع المسلمين. والمعنى: لا تتبعونا لأن الله جعل هذه الغنائم للمؤمنين الصادقين. ﴿من قبل﴾: أى قبل رجوعنا إلى المدينة. ﴿بل تحسدوننا﴾: أى أن الله لم يمنعنا بل أنتم الذين تحسدوننا على ما نأخذه معكم من الغنائم.

المعنى: بعدما بيَّن سبحانه حال المؤمنين الصادقين شرع فى بيان حال المنافقين الذين تعودوا الكذب لإخفاء أغراضهم بطرق شتى. انظر منها ما فى الآيات (٤٢، ٤٩، ٥٦، ٦٢، ٦٧،

(١) للكافرين. (٢) السموات. (٣) كلام.

٧٤، ٨٦، ٩٣ إلى ٩٨، ١٠١) من سورة التوبة صفحات ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩. فقال هنا عن فريق منهم وهم الأعراب المشار إليهم فى الآية (١٠١) السابقة من سورة التوبة صفحة ٢٥٩ سيقول لك.. إلخ. أى سيقول لك أيها النبى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج معك شغلتنا أموالنا وأهم منها أهلنا فلم نستطع الخروج خوفًا عليها من الضياع؛ لأن ليس لنا مَنْ يحافظ عليها بعدنا. فاستغفر لنا الله ليغفر لنا تخلفنا عنك. فرد سبحانه مكذبا لهم بقوله: (يقولون بألسنتهم).. إلخ. أى أن قولهم هذا صادر عن طرف اللسان لا يوافق ما فى قلوبهم. والحقيقة أن سبب تخلفهم هو ظنهم أن الرسول ﷺ ومَنْ معه لن يرجعوا أبدا كما سيأتى فى الآية (١٢) هنا. ثم أمر سبحانه نبيه أن يرد عليهم بأجوبة ثلاثة. الأول فى صورة وعظ فيقول لهم: لا أحد يستطيع دفع ضر أراده الله تعالى بكم. ولا جلب نفع لم يرده سبحانه لكم. ثم انتقل إلى الجواب الثانى الذى فيه تهديد بدون تصريح فقال: (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فيطلع على ما تخفون، وسيجازيكم عليه. ثم انتقل إلى الجواب الثالث المصرح بفضيحتهم، والكشف عن السبب الحقيقى لتخلفهم. فقال: (بل ظننتم).. إلخ. أى ظننتم عدم رجوع الرسول والمؤمنين إلى أهليهم بالمدينة أبدا؛ لأن قريشًا ستقتلهم، وحسَّن الشيطان هذا الظن الفاسد فى قلوبكم حتى تمكن منها. ثم أكد الفضيحة بقوله وظننتم ظن السوء فى كل ما يتعلق بالله ورسوله فظننتم أن الله تعالى لاينصر رسوله، وأن دينه ليس حقًا، إلى غير ذلك. وكنتم بهذا قومًا فاسدين هالكين. ثم بيَّن كيفية هلاكهم فقال: ومَنْ لم يؤمن بالله. أى فظن أنه يخلف وعده، وبرسوله فظن أنه غير صادق، فهو كافر. وقد هيأنا للكافرين نارًا ملتهبة. ثم قطع سبحانه أطماع مَنْ يصر على الكفر فى المغفرة، وفتح بابها لمَنْ يتوب فقال: (ولله ملك السموات والأرض).. إلخ. أى وما فيهما فلا أحد يشاركه فى التصرف فيهما. يغفر لمَنْ يشاء وهو مَنْ يتوب. ويعذب مَنْ يشاء وهو المصر على الكفر. ثم بيَّن سبحانه أن رحمته أوسع من غضبه فقال: وكان الله غفورًا رحيمًا. فالويل لمَنْ أغلق بابها الواسع بالكفر. ثم بيَّن سبحانه أن هؤلاء المنافقين لا يهمهم إلا الدنيا فقال سبحانه: (سيقول لك).. إلخ. أى إذا رجعت أيها النبى للمدينة وأردت غزو خيبر والاستيلاء على أموال اليهود فيها. وهى سهلة ليس فيها صعوبة. فسيقول لك هؤلاء المخلفون اتركونا نتبعكم فى غزو خيبر، يريدون بمحاولتهم هذه تبديل كلام الله الذى وعدك فيه بأنها خاصة بأهل البيعة. قل لهم أيها النبى لن تتبعونا أبدا. فهذا الحكم الذى أقوله لكم الآن حكم الله من قبل رجوعنا إلى المدينة. فسيقول المنافقون للمؤمنين عند سماع هذا المنع: لم يكن المنع عن حكم الله بل ذلك منكم حسدًا لنا أن نشاركم فى المغانم. ثم انتقل سبحانه إلى بيان جهلهم المستولى عليهم فقال:

لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ(١) أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ(٢) تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ(٣) وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ(٤) فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً(٥) لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا(٦)

بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا. أى إلا فهمًا قليلا. وهو المتعلق بأمور الدنيا وطرق تحصيلها انظر آيتى (٦، ٧) من سورة الروم صفحة ٥٣١.

المفردات: ﴿للمخلفين﴾: كرر سبحانه هذه الكلمة مبالغة فى الذم وإشعارا بشناعة التخلف.

﴿إلى قوم﴾: قال بعض السلف: هم الذين ارتدوا والذين منعوا الزكاة فى عهد أبى بكر الصديق رضي الله عنه وهم الذين اتبعوا مسيلمة وكانوا فى اليمامة.

﴿أولى بأس﴾: أى أصحاب شدة فى الحروب. ﴿حرج﴾: أى إثم ومؤاخذة.

﴿الشجرة﴾: هى شجرة كبيرة فى وادى الحديبية كما تقدم، وكانوا يستظلون تحتها وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان. ﴿السكينة﴾: أى الطمأنينة والثبات، انظر الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٦٧٨ والآية (٢٦) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤. ﴿أثابهم﴾: أى جازاهم.

﴿فتحًا قريبًا﴾: هو صلح الحديبية كما تقدم أول السورة والذى ترتب عليه انطلاق الدعوة الإسلامية حيث لا عائق. ﴿مغانم كثيرة﴾: هى جميع مغانم المسلمين إلى يوم القيامة.

﴿هذه﴾: هى مغانم خيبر عندما فتحها ﷺ سنة ٧هـ بعد رجوعه من الحديبية، وصالح أهلها على أن يدفعوا نصف ما يخرج من أرضها، وفى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلاهم

(١) تقاتلونهم.
(٢) جنات.
(٣) الأنهار.
(٤) أثابهم.
(٥) آية.
(٦) صراطا.

للشام، ربما أن السورة كلها نزلت أثناء رجوعه ﷺ من مكة، تكون هذه الآية نزلت بعد فتحه ﷺ خيبر. ﴿كف أيدى الناس عنكم﴾: المراد بهم: اليهود الذين كانوا حول المدينة. حيث ألقى سبحانه فى قلوبهم الرعب. فلم يجرؤا على أن يمسوا مَنْ فى المدينة من النساء والأطفال بأدنى سوء أثناء غياب المؤمنين فى سفرهم لعمرة الحديبية.

﴿ولتكون آية﴾: الواو عاطفة على مقدر مفهوم من المقام. أى عجل سبحانه وتعالى لكم المغانم وكف أيدى اليهود عنكم لتشكروه جل شأنه. وليكون ذلك آية: أى دليلا على صدق وعده سبحانه.

المعنى: قل أيها النبى لهؤلاء الذين ارتكبوا جرم التخلف عن القتال انتظروا قليلا فستدعون إلى ملاقاة قوم أصحاب قوة وشدة فى الحروب على أن لا يكون إلا أحد أمرين إما قتالهم أو إسلامهم ولا ثالث لهما. وهذا هو حكم مشركى العرب والمرتدين فإن تطيعوا مَنْ يدعوكم لذلك يؤتكم الله أجرًا حسنًا. العز فى الدنيا والنعيم فى الأخرى. وإن تعرضوا عن طاعة ربكم كما أعرضتم من قبل فى السفر مع الرسول إلى مكة. يعذبكم عذابا أليما بالذل فى الدنيا والنار فى الآخرة. ولما شدد سبحانه فى عقاب مَنْ يتخلف ذكر الأعذار التى تبيح التخلف فقال: (ليس على الأعمى).. إلخ، أى لا مؤاخذة على التخلف عن القتال لمن عنده عذر كالعمى والعرج والمرض. ثم رغب سبحانه فى الطاعة ونفر من العصيان فقال: ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار. ومن يتول. أى يعرض ويعصى الله يعذبه عذابًا أليمًا. ثم رجع سبحانه إلى بيان فضل من بايعوا على الموت كما تقدم. وما جازاهم به فقال: لقد رضى الله عن المؤمنين حين مبايعتهم لك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم من صدق الإيمان وحسن الطاعة. فرزقهم الطمأنينة ورباطة الجأش. وجازاهم بما حصل من الصلح الذى يعتبر فاتحة كل خير. وقدر لهم مغانم كثيرة سيأخذونها من البلاد التى يفتحونها. وكان الله تعالى غالبًا على أمره لا يعجزه شىء. حكيمًا يعامل كل امرئ على حسب عمله. ثم التفت سبحانه إلى خطاب أهل بيعة الرضوان تشريفًا لهم. فقال سبحانه وتعالى: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها. أى من الفتوحات الكثيرة التى ستتم على أيديكم. فعجل لكم غنيمة خيبر. وكف أيدى اليهود المحيطين بالمدينة فلم يؤذوا نساءكم وذراريكم وأنتم مشغولون بعمرة الحديبية. كف سبحانه الأيدى عنكم وعجل لكم مغانم خيبر لتشكروه، ولتكون تلك النعمة

مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾
سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ
عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ
وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ
تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ
فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ

الجليلة أمارة يعلم منها المؤمنون أن الله تعالى حاميهم وناصرهم فى غيبتهم وحضورهم. ويهديكم بتلك الآية طريقًا مستقيمًا هو الثقة بفضل الله سبحانه والتوكل عليه فى كل الأعمال.

المفردات: ﴿أخرى لم تقدروا عليها﴾: هى المغانم الكثيرة التى أخذت من ثقيف وهوازن فى غزوة حنين بعد فتح مكة. المذكورة فى الآية (٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤.

﴿أحاط الله بها﴾: المراد: جعلها تحت قبضته سبحانه ليعطيها للمؤمنين فيما بعد.

﴿لولوا الأدبار﴾: أى لانهزموا. ﴿وليًا﴾: الولى هو الذى ينفع بلباقة وتلطف، انظر الآية (١٠٧) من سورة البقرة صفحة ٢١.

﴿نصيرا﴾: النصير هو المعين الذى يساعد بقوة.

﴿سنة الله﴾: أى عادته سبحانه وتعالى فى خلقه.

﴿خلت﴾: أى مضت. ﴿ببطن مكة﴾: المراد: وادى الحديبية القريب من مكة.

﴿أظفركم عليهم﴾: أى جعلكم ظافرين بهم متفوقين عليهم. بنصره المعنوى عندما ألقى فى قلوب المشركين الرعب من قتالكم.

﴿الهدى﴾: اسم جمع. مفرده هدية. والهدى هو ما يهديه الحاج لفقراء البيت الحرام من الأنعام. انظر الآية (٢) من سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥. وآيتى (٩٥، ٩٧) من سورة المائدة أيضا صفحتى ١٥٦، ١٥٧.

(١) قاتلكم. (٢) الأدبار. (٣) مؤمنات.

﴿معكوفًا﴾: أى محبوسًا ومقصورًا على فقراء بيت الله الحرام.

﴿محله﴾: أى المكان الذى يجوز فيه نحر الهدى وهو (منى). ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾.. إلخ: جواب (لولا) مفهوم، أى لأذناكم بقتالهم.

﴿لم تعلموهم﴾: أى لم تعلموا ذواتهم ولا مكانهم. ﴿أن تطئوهم﴾: أصل الوطء الضرب بالرجل على الأرض، والمراد هنا تهلكوهم، والجملة فى قوة مصدر بدل من (رجال ونساء) والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا رجالا ونساء أبرياء لأذناكم. ﴿معرة﴾: أى مكروه يوجب الأسف والألم. ﴿بغير علم﴾: أى بإيمانهم. ﴿تزيلوا﴾: أى تميز المؤمنون عن الكافرين، انظر الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١.

المعنى: وعجل لكم مغانم أخرى لم تقدروا عليها الآن. وهى ما أخذ يوم حنين إذ لم يأخذ المسلمون مغانم قبلها أكثر منها وجعلها معجلة مع أنها كانت بعد خيبر بالنسبة لما يأتى بعدها من مغانم لا حصر لها، وقد حفظها سبحانه لكم لوقتها. وكان الله على كل شىء قديرًا لا يعجزه أن يحفظ لكم ما يريده لكم. ثم بيَّن سبحانه أن من آثار قدرته على نصر المؤمنين أنه لو قاتلهم كفار مكة وهم بالحديبية لانهزموا ثم لا يجدون صديقًا يدفع عنهم بالحسنى، ولا ناصرًا ينصرهم بالقوة. جعل سبحانه ذلك عادة مضت من قبل فى الأمم ورسلهم فينصر الرسل ويهزم الكافرين بهم. ولن تجد لهذه العادة الإلهية تبديلا. ثم ذكر منة أخرى على المؤمنين فقال: وهو الذى كف.. إلخ، وذلك أنه بينما كان ﷺ تحت الشجرة مع بعض أصحابه ينتظرون قدوم عثمان بن عفان كما تقدم إذ جاء خبر أن ثمانين رجلا من قريش مسلحين يريدون أخذه ﷺ على غرة. فأرسل ﷺ إليهم جماعة من أصحابه فأسروهم. وأحضروهم إليه. فعفا ﷺ عنهم. لتعلم قريش أنه لا يريد إلا السلام، والمعنى: أنه هو سبحانه الذى كف أيديهم عنكم فلم ينالوكم بسوء. وكف أيديكم عنهم وأنتم ببطن مكة من بعد أن جعلكم ظافرين غالبين عليهم. وكان الله بصيرا بأعمالكم وأعمالهم. فاقتضت حكمته منع القتال لتعظيم البيت المحرم من سفك الدماء فيه بدون ضرورة.. ولما سيأتى فى الآية بعدها حيث قال: هم الذين كفروا.. إلخ. أى لولا ما سيأتى لكانوا يستحقون القتل لأنهم كفروا ومنعوكم عن دخول المسجد الحرام. ومنعوا الهدى عن أن يبلغ محله مع أنه مخصص لفقراء البيت الحرام، ولولا رجال ونساء مؤمنون ومؤمنات مبعثرون بين كفار مكة لا يمكنكم معرفتهم، لولا أنكم تقتلونهم خطأ مع الكفار فتصيبكم من قتلهم معرة بغير علم منكم بإيمانهم لأذناكم فى قتالهم. أى الكفار الذين لم يؤمنوا؛ لأنهم ظلموا وصدوا عن البيت. ولكن من الفضل الإلهى أنه رحمة بهؤلاء المستضعفين المشار إليهم فى الآية (٧٥) من سورة النساء صفحة ١١٣ والآية (٩٨) من

نفس السورة صفحة ١١٩. فلم يأذن فى القتال ليدخل فى رحمته من يشاء من المؤمنين فينقذهم، ويوفقهم لزيادة الخير ولو تميز المؤمنون فى مكان بعيد عن الكافرين لعذبنا الكافرين عذابًا أليمًا بالقتل والسبى وكل أسباب الشقاء، ففعل بهم ذلك حين جعلوا فى قلوبهم.. إلخ.

المفردات: ﴿الحمية﴾: هى الأنفة.

﴿حمية الجاهلية﴾: هى الأنفة الناتجة عن طيش وغرور بالعظمة الكاذبة، فتحمل صاحبها على أن يتحكم فى غيره، ويمنعه مما يريده لمجرد إغاظته، كما فعلوا فى منع المسلمين من

الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ
رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ
اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ
فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ
رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ

دخول المسجد الحرام عام الحديبية.

﴿سكينته﴾: تقدم معناها فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٦٧٨.

﴿ألزمهم كلمة التقوى﴾: أى أمرهم بها ووفقهم لها و(كلمة التقوى) هى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) التى تقى صاحبها من الشرك والخلود فى جهنم ولذلك أضيفت للتقوى.

﴿أحق بها﴾: أى أولى الناس بها. ﴿وأهلها﴾: أى مستأهلون لها؛ لأن فيهم أسباب استحقاقها. ﴿الرؤيا﴾: هى رؤياه ﷺ فى المنام أنه دخل المسجد الحرام.

﴿إن شاء الله﴾: المراد بهذا التعليق التبرك. ﴿محلقين﴾.. إلخ: لأن الحاج، أو المعتمر إذا فرغ من مناسكه تحلل بحلق رأسه أو تقصير شعره بأن يقصه. ﴿فتحًا قريبًا﴾: هو ما حصل من الصلح كما تقدم أول هذه السورة. ﴿ليظهره على الدين كله﴾: أى بقوة الدليل وكمال

(١) الجاهلية. (٢) الرؤيا. (٣) آمنين. (٤) تراهم.
(٥) رضوانا. (٦) التوراة. (٧) شطأه. (٨) فآزره.

التعاليم، كما تقدم فى الآية (١٩٣) من سورة البقرة صفحتى ٣٧، ٣٨. والآية (٣٩) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢ والآية (٣٣) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥.

﴿كفى بالله شهيدا﴾: تقدم فى الآية (٣٦) من سورة الزمر صفحة ٦١١ والآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧. ﴿رضوانا﴾: هو الرضا الكامل من الله وأهمه ما كان فى الآخرة، انظر الآية (٧٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣. ﴿سيماهم﴾: أى علامتهم المميزة لهم عن غيرهم. ﴿شطأه﴾: قال الكسائى: يعنى طرفه الأعلى، وفسره بأنه السنبل ويؤيد ذلك قوله الآتى (فاستوى على سوقه). ﴿فآزره﴾: أى قواه.

المعنى: إن كفار مكة كانوا يستحقون العذاب السريع حين ملئوا قلوبهم بالأنفة الظالمة حيث منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام، ومنعوا كاتب شروط الصلح من أن يكتب (هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله) وقالوا اكتب فقط (محمد بن عبدالله) إلى غير ذلك مما هو موضح فى مكانه المشار إليه أول هذه السورة. فبينما أخذت الكفار حمية الجاهلية أنزل سبحانه طمأنينة فى القلوب على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين فقبلوا الصلح ولم يأنفوه. واختار لهم المحافظة على كلمة التوحيد التى تقيهم من عذاب النار. وكانوا أولى الناس بها لما فيهم من الصفات التى تؤهلهم لها. وكان الله بكل شىء من خلقه عليمًا. فيعلم من يصلح للخير وغيره. ثم بيَّن سبحانه أن ما وعد به نبيه ﷺ حق لابد منه فقال: لقد صدق الله.. إلخ. أى جعل رؤيا رسوله ﷺ أنه دخل المسجد الحرام صادقة مقترنة بالحق ليس فيها شىء من أضغاث الأحلام المشار إليها فى الآية (٤٤) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٩، ٣١٠، ثم أكد ذلك بالحلف عليه، فقال سبحانه: (لتدخلن).. إلخ. أى وعزتى لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين من العدو وقت الدخول، متمين عبادتكم حالقا بعضكم رأسه ومقصرا شعره البعض الآخر؛ لا تخافون بعد تمام عبادتكم من شىء. وبهذا فقد علم سبحانه من الصلح ما لم تعلموا، فجعل من قبل دخولكم هذا فتحًا قريبًا. وهو ما تقدم بيانه أول السورة. ثم أكد سبحانه صدقه ﷺ فى الرؤيا فقال: (هو الذى أرسل رسوله).. إلخ، أى كيف يخطئ أو يكذب. وهو الذى أرسله الله تعالى بالقرآن شديد الهداية. وبدين الحق الذى اختاره لسعادة البشرية ليعليه بالبراهين واضحة التعاليم على كل الأديان. وكفاك أيها النبى ربك شهيدا على صدق رسالتك فلا تبال بإنكارهم ذلك. ومنعهم إثبات ذلك فى شروط الصلح. ثم أكد ذلك مع بيان فضل

المؤمنين معه ﷺ فقال: محمد رسول الله. أى رغم أنف كل مكابر والمؤمنون معه من صفاتهم أنهم أشداء على كل كافر بربه الذى خلقه؛ لا يمكنونه من عرقلة الإسلام، متعاطفون فيما بينهم برحمة بعضهم بعضا، تراهم فى أغلب أحوالهم راكعين ساجدين لله يطلبون فضلا من ربهم ورضًا واسعًا، انظر الآية (٢) من سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥ لهم علامة فى وجوههم من أثر كثرة صلاتهم. وسئل مجاهد عن هذه العلامة هل هى هذا الآثر الذى يرى فى وجوه بعض الناس مما يشبه أثرا الكىّ فقال: كلا؛ لأن هذا الآثر ربما كان بين عينى من هو أقسى قلبا من فرعون، ولكنه الخشوع والتواضع. وقال عبدالعزيز المكى: هو نور يتجلى على وجوه العابدين يظهر من باطنهم على ظاهرهم يراه أصحاب البصيرة ولو كان صاحبه زنجيًا أو حبشيًا. وقال على بن أبى طالب ﷺ: ما أَسَرَّ أحد سَرِيَرةً إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه: ذلك المذكور من صفاتهم هى صفتهم المذكورة فى التوراة الصحيحة، ومثلهم فى الإنجيل الصحيح أيضًا كزرع من القمح مثلاً تخرج الحبة الواحدة منه سبع سنابل أو أكثر كما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥. ولجودة هذا الزرع فإنه يقوى سنابله ويغذيها بما يجعلها فى منتهى الجودة. ولا يقال إن التوراة والإنجيل اللذين بأيدينا اليوم ليس فيهما عن أصحاب خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام هذه الصفات؛ لأنه قد أثبت القرآن الكريم فى مواضع كثيرة أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتابيهما وبدلوا فيهما بل وشطبوا كثيرا مما كان فيهما. انظر الآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨ والآيات (١٣، ١٤، ١٥) من سورة المائدة صفحتى ١٣٨، ١٣٩. وقد شهد بذلك شاهد من أهليهم. انظر تفسير المنار جزء ٦ صفحة ٢٨٩ تجد ما نصه (إن الكتب التى يسمونها الأناجيل الأربعة هى تاريخ مختصر للسيد المسيح عليه السلام. لم يذكر فيها إلا شىء قليل من أقواله وأفعاله. بدليل قول يوحنا فى آخر إنجيله: هذا هو التلميذ الذى يشهد بهذا. وكتب هذا. ونعلم أن شهادته حق. وأن أشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة.. آمين). قال صاحب المنار: هذه العبارة يراد بها المبالغة فى بيان أن الذى كتب عن المسيح لا يبلغ عشر معشار تاريخه.

وقال صاحب ذخيرة الألباب المارونى: (إن الإنجيل لا يستغرق كل أعمال المسيح ولا يتضمن كل أقواله. كما شهد به القديس يوحنا).

فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

(٤٩) سُورَةُ الحُجُرَاتِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ

المفردات: ﴿استغلظ﴾: أى صار هذا السنبل غليظًا، بعد أن كان ضعيفًا.

﴿فاستوى﴾: أى استقر ولم تذهبه الآفات. ﴿سوقه﴾: أى سيقانه. وهى عيدانه. ﴿منهم﴾: (من) لبيان الجنس. أى الذين آمنوا من جنس هؤلاء فهى كمن فى الآية (١٧٢) من سورة آل عمران صفحة ٩١.

المعنى: بعد ما أشار سبحانه إلى جودة هذا السنبل قال إنه لما قوى صار غليظًا ممتلئًا واستقر على عيدانه ولم تهلكه الآفات وإذا رآه العارفون بفنون الزراعة امتلئوا به إعجابا، وإنما جعلهم سبحانه بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار، وهذا مثل للصحابة كان فى بدايتهم فى قلة وضعف، ثم كثروا وتقووا على أحسن وجه، قال قتادة: مكتوب فى الإنجيل (يخرج نبى آخر الزمان بين قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)، وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات مغفرة لذنوبهم، وأجرًا عظيمًا هو نعيم الجنة الخالد. نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم إنه سميع مجيب.

(سورة الحجرات)

المفردات: ﴿لا تقدموا﴾: أصل التقدم بين يدى الشخص هو سبقه فى السير، وأريد به هنا الكناية عن سبق الله تعالى ورسوله فى حكم من الأحكام الشرعية. ولكنه سبحانه أبرز المراد فى صورة مستبشعة وهى سبق الخادم سيده بدون إذن منه للتنفير من هذا العمل. ولما كانت الكناية عند العرب يصح أن يراد بها المعنى الأصلى مع المعنى اللازم صح أن يكون المراد هنا النهى عن التقدم الحسى عليه ﷺ بدون إذن. وعن القطع بحكم قبل أن يحكم الله تعالى فيه ورسوله.

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) أصواتكم. (٤) أعمالكم. (٥) أصواتهم.

﴿أن تحبط أعمالكم﴾: أي خوف أن تبطل أعمالكم. ﴿يغضون أصواتهم﴾: أى يخفضونها أدبًا معه ﷺ.

المعنى: هذه السورة هى أول السور القصار. وقد خاطب سبحانه فيها المؤمنين خمس مرات وخاطب الناس عامة مؤمنهم وكافرهم مرة واحدة. والذى يعلم ما كان عليه أجلاف العرب من الفوضى والخشونة والعيوب الاجتماعية والخلقية، وكيف عالج القرآن بعضها فى آيتى (٣٠، ٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢ والآيات (٥٨ إلى ٦٣) من نفس السورة صفحات ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩ والآيات (٥٣ إلى ٥٩) من سورة الأحزاب صفحات ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠ والآية (٢) وما بعدها من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٤، ٧٢٥. والآية (٩) وما بعدها من نفس السورة صفحة ٧٢٦ والآية (١١) من سورة الجمعة صفحة ٧٤٢. وعالج هنا نحو ثلاثة عشر عيبًا حتى نقل هؤلاء الأجلاف المفككين من حضيض الفوضى إلى مصاف أرقى الأمم أدبا وترابطًا ونظامًا. نقول: الذى يعلم ذلك كله يدرك فضل الله تعالى على الناس بهذا القرآن العظيم والنبى الكريم ﷺ. فمن عيوبهم التى عالجها فى هذه السورة أنهم كانوا إذا ساروا معه ﷺ لا يتحاشون أن يتقدموا عليه بدون حاجة ولا مبالاة وأنهم كانوا إذا جد أمر وسئل فيه ﷺ وهم حاضرون فى مجلسه ربما تسابقوا فى بيان الحكم فيه قبله ﷺ. فقال سبحانه وتعالى علاجًا لذلك: يا أيها الذين آمنوا.. إلخ. أى لا تقدموا أنفسكم فى السير أمام الرسول بدون إذن منه. ولا آراءكم فى أمر دينى قبل حكم الله تعالى ورسوله. أى لا تفعلوا ولا تقولوا ما يخالف القرآن وسنة الرسول. واتقوا الله بالابتعاد عما يغضبه. إن الله سميع لأقوالكم. عليم بأفعالكم وسيجازيكم عليها. وكانوا إذا تكلم ﷺ فى أمر وتكلموا معه فيه يرفعون أصواتهم فوق صوته ﷺ بما يشعر بعدم توقير كبير المجلس. فقال سبحانه لا ترفعوا.. إلخ. أى لا تبلغوا بأصواتكم حدًا فوق الحد الذى يبلغه صوته ﷺ. ثم ترقى سبحانه فى توقير رسوله ﷺ فقال: ولا تجهروا.. إلخ. أى إذا تكلم أحدكم والرسول ﷺ يسمع فلا تفعلوا معه من رفع الصوت ما تعودتموه فى مخاطبة الأقران والنظراء من رفع الصوت بدون مبالاة. أى لاحظوا فى مخاطبته ﷺ خفض الصوت القريب من الهمس كما هى العادة فى مخاطبة المعظم. فحافظوا على مراعاة مقام النبوة وجلال قدر الرسالة. ولا تخالفوا هذه الآداب خوف أن تذهب فائدة أعمالكم: لأن من ارتكب هذه المحظورات كان مسيئًا له ﷺ. وقد لا يشعر بذلك فيعاقبه سبحانه بحرمانه من ثواب بعض أعماله وهو لا يشعر أنه حرم من ذلك أيضا. ويجوز أن يراد بالأعمال هنا ما يعم كل عمل فيشمل ما يقصده المتكلم معه ﷺ. ويكون المعنى أن رفع الصوت بدون أدب أمام الكبير الذى يجب توقيره من شأنه أن يغير من نفسه

اللَّهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ
الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ
تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن
تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾
وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ
الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ
فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى

ويصور له المتكلم بصورة سيئة فلا يلتفت إلى كلامه، ولا يحقق له مطلبًا، هذا إذا لم يزجره أو يطرده. وهذا بلا شك تضييع للعمل، ولا غرابة، فقد بشّع سبحانه رفع الصوت فى الآية (١٩) من سورة لقمان صفحتى ٥٤١، ٥٤٢. وبعد هذا التخويف أراد سبحانه أن يرغب فى الانتهاء عما نهوا عنه فقال: (إن الذين يغضون).. إلخ. أى إن الذين يخفضون أصواتهم فى حضرته ﷺ تأدبا فى مجلسه.. إلخ.

المفردات: ﴿امتحن الله قلوبهم﴾: تقول العرب: امتحن الصائغ الذهب إذا أذابه ليخلصه مما خالطه؛ والمراد هنا: مرن قلوبهم على احتمال الشدائد. حتى صارت خالصة للتقوى.

﴿من وراء الحجرات﴾: أى من وراء جدرانها، والمراد من خارج حجرات نسائه ﷺ فى وقت يكون ﷺ مستريحًا فيه فى واحدة منها، وكانت الجدران من جريد النخل عليها ستائر من شعر أسود؛ وأدخلت فى عهد الوليد بن عبدالملك فى المسجد.

﴿إن جاءكم فاسق﴾: أصل معنى الفسق الخروج، يقول العربى: فسقت الرطبة عن قشرتها أى خرجت منها، وانفصلت عنها، فالفاسق هو الخارج، فإن كان خارجا عن حدود الله كلها فهو

(١) الحجرات.
(٢) آمنوا.
(٣) بجهالة.
(٤) نادمين.
(٥) الإيمان.
(٦) الراشدون.
(٧) إحداهما.

الكافر، ويقابله المؤمن. قال تعالى: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧. ويطلق الفسق أيضًا على الكثير من الذنوب، وعلى القليل منها؛ لأن فى كل خروج عن أحكام الشرع. قال الراغب: الفاسق هو المخل بشىء من أحكام الشرع أو المروءة، ويقابله العادل، وهو مَنْ لم يصدر منه شىء مما تقدم ولهذا قال مقاتل، وابن زيد، وسهل بن عبدالله، الفاسق هنا هو الكاذب.

قال العلماء: ويؤخذ من هذه الآية ومن الآية (٤) من سورة النور صفحة ٤٥٧ دليل على أنه كان فى الصدر الأول من يقال عنه إنه فاسق. قال الراغب: وكان الصحابة إذا حصل من أحدهم شىء مما يخل فإنه لا يصر عليه بل يسرع إلى الخروج منه متى اعتقد أنه محرم أو مخل بالمروءة. وقد قال العلماء: وسبب نزول هذه الآية أن النبى ﷺ أرسل الوليد بن عقبة لجمع الزكاة من بنى المصطلق،وهم عرب من خزاعة كانوا يقيمون خارج المدينة، ودخلوا الإسلام، وتصادف أن كان بينهم وبين الوليد بن عقبة عداوة فى الجاهلية، ولكن الإسلام استل من صدورهم كل أثر لذلك ولما علموا بأن الرسول ﷺ أرسل إليهم من يجمع الزكاة استعدوا لاستقباله، فعلم الوليد بتجمعهم، فظن فيهم سوءًا وخاف أن يكونوا يريدون قتله، فقفل راجعًا إلى المدينة، وقال: يا رسول الله إن هؤلاء هموا بقتلى، فأراد بعض الصحابة تجهيز جيش لقتالهم على منع الزكاة، ولكن النبى صلوات الله عليه أراد أن يتثبت من الأمر؛ لأنه خطير، فأوفد خالد بن الوليد ليتعرف حالهم فراقبهم عن بعد، فوجدهم يؤذنون للصلوات الخمس ويصلونها فدخل إليهم وأخبرهم بما حصل فقالوا: كنا نستعد لاستقباله ولم نره قط، فرجع خالد وأخبر النبى ﷺ بما رأى. فنزلت هذه الآية وما بعدها، وفيها سمى سبحانه الوليد بن عقبة فاسقًا، أى كاذبًا.

وقد أجمع بعض العلماء أن المراد بالفاسق هنا الكافر؛ لأن القرآن كثيرا ما أطلق الفسق على الكفر، وقال بعض آخر من العلماء: أن المراد بالفاسق هنا مجهول العدالة. والله أعلم.

﴿نبأ﴾: هو الخبر المهم، لا مجرد خبر، تأمله فى كل القرآن تجده لا يعبر به إلا عن الأمور الخطيرة ذات الأهمية، انظر الآية (٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٢ والآية (٤٩) من

سورة هود صفحة ٢٩١ والآية (١٢٠) من نفس السورة صفحتى ٣٠١، ٣٠٢ والآية (١٠٢) من سورة يوسف صفحة ٣١٨ والآية (٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠ والآية (٦٦) من سورة القصص صفحة ٥١٦، والآية (٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٥.

﴿فتبينوا﴾: أى فتثبتوا من صحته قبل أن ترتبوا عليه آثارا.

﴿أن تصيبوا﴾: أى خشية أن تصيبوا.

﴿بجهالة﴾: أى مع جهلكم بالحقيقة.

﴿لعنتم﴾: أى لوقعتم فى مشقة ومكروه، انظر الآية (١٢٨) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤.

﴿وزينة فى قلوبكم﴾: قال الراغب: الزينة الحقيقية مالا يشين الإنسان فى شىء من أحواله لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وهى ثلاث زينات: زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة والتقوى. وزينة بدنية كالقوة وطول القامة. وزينة خارجية كالمال والجاه:

فالزينة هنا من الأولى. وقوله تعالى فى قارون: ﴿فخرج على قومه فى زينته﴾ الآية (٧٩) من سورة القصص صفحة ٥١٨ من الثالثة؛ ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة﴾ .. إلخ الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥.

﴿الفسوق﴾: قال ابن عباس: المراد به هنا الكذب. ﴿العصيان﴾: هو كل ذنب فهو من عطف العام على الخاص. ﴿الراشدون﴾: هم المستقيمون على طريق الحق الثابتون عليه.

﴿بغت﴾: أى تجاوزت الحد فى الطغيان.

المعنى: إن الذين يخفضون أصواتهم فى حضرة رسول الله ﷺ تأدبًا. أولئك هم الذين جعل الله قلوبهم خالصة لتقواه حتى لم يبق لغيرها فيه مجال. هؤلاء لهم فى الآخرة مغفرة لذنوبهم، وأجر عظيم من نعيم الجنة. ومع أنه ﷺ كان جم التواضع كثير الحياء. فإن أثر نزول هذه الآية تجلى فى كثير من أصحابه ﷺ؛ فقد ثبت فى الصحيح أن أبا بكر الصديق وعمر بن

الخطاب رضى الله تعالى عنهما كانا لا يخاطبانه بعدها إلا بما يشبه الهمس، حتى إن أحدهم كان يرتجف إذا سمع ﷺ صوته من أول مرة. خوفًا من أن يكون رفع صوته. وكان هناك عادة أخرى تدل على همجية مَنْ أسلم من الأعراب وبعدهم عن الذوق والنظام، وذلك أنه ﷺ قد يكون فى حجرة من حجرات نسائه نائمًا أو مستريحًا من عناء السفر أو جهد العبادة التى كلفه الله عز وجل بها كما فى الآيات (١ إلى ٥) من سورة المزمل صفحة ٧٧٣؛ فيأتى هؤلاء الأجلاف يريدون منه ﷺ شيئًا، فبدل أن ينتظروه حتى يخرج إليهم يطوفون حول حجرات نسائه ينادون بأصوات مزعجة وعبارات جافة، يا محمد. يا محمد. اخرج إلينا. قال سبحانه: فى تأديب هؤلاء: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. وإنما قال سبحانه: ﴿أكثرهم﴾ تلطفًا فى إصلاحهم: لأن كل واحد منهم يظن نفسه من القليل لا من الكثير المستحق للذم: فيحسن حاله. ولا يلج به العناد فيرتفع منه الحياء فيهلك.

ثم علمهم سبحانه ما ينبغى فقال: ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم. أى من تلقاء نفسك لكان صبرهم خيرا لهم لما فيه من وفرة الأدب والمحافظة على توقير رسول الله ﷺ. ثم رغبهم فى التوبة فقال سبحانه وتعالى: والله غفور أى لِمَنْ رجع إلى الصواب، رحيم بهم حيث اكتفى بنصيحتهم ولم يعذبهم.

قال الألوسى عند قوله تعالى هنا ﴿والله غفور رحيم﴾ أى بليغ المغفرة والرحمة. فلذلك اقتصر سبحانه على النصح تارة. والتقريع أخرى لهؤلاء المسيئين للأدب المعرضين عن توقير الرسول ﷺ. وقد كان مقتضى ذلك أن يعذبهم أو يهلكهم. لكن رحمته تبارك وتعالى سبقت غضبه. ومن هذا الذى أدب سبحانه به المؤمنين. ما رواه ابن عباس رضي الله عنه، أنه لما سمع رسول الله ﷺ يمدح أُبَىَّ بن كعب بن قيس الأنصارى بحسن قراءته للقرآن، وكان الصحابة يلقبونه بسيد القراء للقرآن. لذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يذهب إلى أُبَىٍّ فى بيته ليتعلم قراءة القرآن عنه فكان يقف ببابه دون أن يدقه وينتظر حتى يخرج كعادته فاستعظم ذلك أُبَىٌّ منه فقال له يومًا: يا ابن عم رسول الله هلا دققت الباب حتى يفتح لك ولا تنتظر؟ فقال ابن عباس: العالم

فى قومه كالنبى فى أمته، وقد قال سبحانه فى حق نبيه: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم﴾. ثم عرض سبحانه وتعالى إلى جانب آخر من جوانب الفساد الشائع بين العرب الذى كان التساهل فيه يجر إلى أعظم الأخطار، ذلك هو التسرع بإذاعة ما قد يجر إلى خطر شديد قبل التثبيت منه. وعالجه سبحانه فى قوله: ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق.. إلخ. أى إن جاءكم رجل لا تثقون بصدق خبره وأخبركم بخبر له أهمية. فلا تتسرعوا فى بناء آثار عليه، بل تثبتوا من صحته أولاً خوف أن يكون مكذوبًا على قوم مظلومين. فتصيبوهم - مع جهلكم بحالهم- بما يكرهون. ثم يتبين لكم بعد ذلك كذب الخبر فتصبحوا على ما فعلتم نادمين، ولا ينفعكم الندم، وبعد ما حذر سبحانه المؤمنين من أخبار الفاسق نبههم إلى أن الرسول المرشد الأعظم الذى يجب اتباعه موجود بينهم، فيجب أن يكونوا بعيدين عن الكذب الذى يجر إلى المصائب التى تؤلمه ﷺ، ولا يليق بالمؤمن المحب لرسوله أن يوقعه فيما يتألم منه، وبهذا يجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم هو فيما يقولون بدون تثبت؛ لأن ذلك يوقعهم فى إثم ومشقة لكن سبحانه وقاكم يا جماعة المؤمنين من شر ذلك. فحبب إليكم الإيمان بتحسينه فى قلوبكم فصرتم لا تتحولون عنه! وكره إليكم الكفر به وبرسوله. والكذب الجالب للمفاسد ولكل معصية، هؤلاء المؤمنون الذين هذه صفاتهم هم المستقيمون على طريق الصواب. فعل سبحانه بهم ذلك تفضلا منه وإنعاما؛ لأنه عليم بأحوالهم حكيم فيما يعاملهم به، ولأن هذه السورة جمعت من الآداب مع الرسول ﷺ ما لم يأت فى غيرها فإنها كذلك جمعت من الآداب بين المسلم وأخيه المسلم مالم يأت فى غيرها أيضًا، ففضلا عن أنها عالجت عيوبًا جمة كانت بين العرب فى الجاهلية ولهذا تعتبر هذه السورة سجل ثمين لمكارم الأخلاق.

ثم أرشد سبحانه المؤمنين إلى ما يفعلونه إذا وقع تنازع بين فريقين من إخوانهم أو فردين منهم فقال سبحانه: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بطلبهم إلى الرضوخ لحكم الله. فإذا رفضت إحداهما الرضا بحكم الله وتجاوزت الحد بطغيانها على

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا

الأخرى فامنعوه بالقوة وذلك يكون على يد إمام المسلمين إذا وجد، وألا تتولاه جماعة منهم.

المفردات: ﴿تفىء﴾ أى ترجع (فاءت): أى رجعت إلى الصواب باختيارها وما زال فيها قوة للقتال. ﴿بالعدل﴾: أى بالإنصاف والمراد لا تميلوا إلى جانب منهما.

﴿أقسطوا﴾: أى أعدلوا فى آثار الحكم وطرق تنفيذه، وفى كل أحوالكم، وأعمالكم لا فى الحكم فقط. ﴿لا يسخر قوم﴾.. إلخ: سخر بوزن فزع. يسخر أى يهزأ بغيره على وجه مضحك بحضرته، كأن يحاكى كلام المسخور منه. أو فعله مثلا. ﴿تلمزوا أنفسكم﴾: اللمز الطعن فى الغير خفية بالإشارة بالعين أو اللسان مثلا، وقد يطلق على كل إلصاق عيب بالغير، ولو بالباطل. انظر آيتى (٥٨، ٧٩) من سورة التوبة صفحات ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥.

﴿تنابزوا بالألقاب﴾: يقال نبزه بوزن ضربه. إذا لقبه بلقب قبيح مكروه و(تنابزوا): أى لقب كل واحد صاحبه بما يكره. وذكر الألقاب بعده لمجرد التأكيد تقول العرب: (رأيته بعينى؛ وسمعته بأذنى)، ومنه فى القرآن (طائر يطير بجناحيه) فى الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ و(القلوب التى فى الصدور) فى الآية (٤٦) من سورة الحج صفحة ٤٤٠.

(١) فقاتلوا. (٢) آمنوا. (٣) بالألقاب.
(٤) الإيمان. (٥) الظالمون. (٦) آمنوا.

﴿بئس﴾: أى قبح (الاسم): ليس المراد به هنا ما قابل الفعل والحرف بل المراد به الذكر الذائع؛ يقولون طار اسمه فى الناس بالكرم أو البخل مثلا. وقال ابن كثير (الاسم) هنا بمعنى الصفة كما فى الآية (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩. ﴿كثيرا من الظن﴾: قال تعالى (كثيرا) لينبه للاحتياط لكل ظن. ويتأمل حتى يعلم أنه مما لا ضرر فيه. ﴿بعض الظن﴾: هو كظن السوء بالغير بدون دليل. ﴿ولا تجسسوا﴾: التجسس هو تتبع عورات الناس بالبحث عنها. ﴿يغتب بعضكم بعضا﴾: الغيبة ذكر الشخص بما يكره. ﴿أيحب﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى أى لا يحب أبدا. ﴿يأكل لحم أخيه ميتا﴾: هذا تمثيل لما يفعله المغتاب فى حق أخيه الإنسان بأفظع صورة. و أشنعها فى الطبع والعقل.

المعنى: فإن بغت طائفة من المؤمنين على طائفة منهم فامنعوا بغيها بمقاتلتها حتى ترجع إلى حكم الله وترضى به. فإن رجعت وقبلت تحكيم شرع الله. فأصلحوا بينهما بالعدل والإنصاف ولا تكتفوا بمجرد فض التنازع بل لابد من مجازاة المعتدى وتعويض المعتدى عليه حتى تأمنوا عدم رجوع العداوة واعدلوا دائمًا فى كل أعمالكم وأقوالكم. إن الله يحب العادلين فى كل أعمالهم. ثم بيَّن سبحانه الباعث على ما تقدم فقال: إنما المؤمنون إخوة. أى إن المسلمين بينهم أخوة فى الدين كالإخوة فى النسب إن لم تكن أحق منها بالرعاية. وإذا كان الأمر كذلك فبادروا للإصلاح بين أخويكم وبالأولى بين إخوانكم الأكثر من اثنين. واتقوا الله فى احترام أوامره زجاء أن تستحقوا رحمته. ثم نهى سبحانه عن عيوب أخرى كانت شائعة بينهم فى الجاهلية فقال: يا أيها الذين آمنوا لا يسخر.. إلخ. أى لا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس. ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس. وإنما جاء النهى فى الآية عن سخرية رجال من رجال ونساء من نساء ملاحظة لأن أغلب السخرية تكون فى المجامع. ثم بيَّن سبحانه علة النهى بأن المسخور منه قد يكون خيرًا من الساخر فى الواقع وعند الله. ثم نهى سبحانه المؤمنين عن طعن بعضهم بعضا خفية بما يؤذى وفى قوله: (أنفسكم) إشعار بأن الطاعن فى أخيه كأنه يطعن نفسه. ولا يلقب بعضهم بعضا بما يكره سواء أكان اللقب له أو لأبيه أو لمن تجمعه به قرابة. فلا يجوز أن يقول له يا فاجر مثلا. قال ابن عباس: ومنه أن يكون للرجل سيئات وتاب منها فلا يجوز أن أقول له يا سارق. ولا لمن أسلم من أهل الكتاب يا يهودى ولا يا نصرانى ولا يا ابن النصرانى مثلا. بئست

السمعة الذائعة بين الناس للمؤمن الفسوق بعد أن يدخل فى الإيمان، وبئس الوصف للمؤمن وصف الفسق بعد الإيمان، والمراد بيان أن مَنْ فعل شيئًا مما تقدم فهو فاسق والجمع بين الفسق والإيمان قبيح. ثم نبه سبحانه إلى طريق الخلاص من الذنب وهو التوبة منه فقال تعالى: ﴿ومن لم يتب﴾.. إلخ. أى ومن استمر على فسقه بعد ذلك فقد ظلم نفسه بحرمانها من عفو الله. ثم حذر سبحانه من عيوب أخرى فقال: يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا.. إلخ. أى احترسوا من كثير من الظن فإن بعضه ذنب يعاقب عليه. فلا تسارعوا فى ترتيب آثار على مطلق ظن مخافة أن يكون من هذا القليل الممنوع، وهو ظن السوء بالمؤمن المعروف بالأمانة والتستر. أما من يجاهر بالمعاصى فلا حيلة فى دفع ظن السوء به. وكذا لا يجوز لكم أن تتبعوا عورات الناس. وفى الحديث الصحيح: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين. فإن مَنْ تتبع عوراتهم فضحه الله فى عقر بيته) وكذا لا يغتب بعضكم بعضا بذكره بما يكره سواء أكان ذلك فى دينه أو فى دنياه. متصلا به أو بمَنْ له به رابطة. كولد أو زوجة أو والد أو والدة. وبهذا تحرم غيبة مستور الحال.

ولا تحرم غيبة المجاهر بالمعصية، وقالوا ليس من الغيبة أن تذكر عيوب شخص لمَنْ استشارك فى مصاهرته أو مشاركته فى عمل مثلا. بشرط أن يكون ذلك منك سرا وأن لا تكون كاذباً.. إلى آخر ما ذكروا من شروط تدور كلها حول المحافظة على كرامات الناس إلا للضرورة. ثم بشع سبحانه أمر الغيبة فقال: أيحب أحدكم.. إلخ. والمراد أن صاحب العرض يغار على عرضه، ويتألم له كما يتألم من تمزيق لحمه. فالمغتاب يمزق لحم من اغتابه وهو غير حاضر معه ولا شاعر بتمزيق عرضه وقت الغيبة فكأنه ميت. وكأن المغتاب يأكل لحم أخيه الميت. وهذه أبشع صورة عند العقلاء.. ولذا قال فكرهتموه أى إذا كانت هذه هى صورة عمل المغتاب فقد كرهها واحد. وإذا كنتم تكرهون ذلك. فاتقوا الله وتوبوا عما يغضبه. فإنه سبحانه كثير القبول للتوبة. رحيم بالتائبين المخلصين. وقد صح فى الحديث أنه ﷺ قال: (أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال هى ذكرك أخاك بما يكره. فقال أحد أصحابه أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ فقال ﷺ: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فقد افتريت عليه). وقال العلماء: من كفارات الغيبة بعد التوبة منها الاستغفار لمن اغتابه والدعاء له بالخير.

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) * قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا
وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ
وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ
اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا
قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ
هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

المفردات: ﴿ذكر وأنثى﴾: آدم وحواء.

﴿شعوبا﴾: جمع شَعْب بفتح فسكون، وهو الجمع العظيم من الناس المنتسبون إلى أصل واحد عرفوا به، ويتشعب منه قبائل ومن القبائل عمائر. ومن العمائر بطون. ومن البطون فخذ ومن الفخذ الفصيلة هذه هى الطبقات الست التى ينقسم إليها العرب. ومثلوا للشعب بخزيمة وربيعة ومضر. ومن خزيمة قبيلة كنانة ومن ربيعة قبيلة بكر ومن مضر قبيلة تميم. إلى غير ذلك.

﴿الأعراب﴾: هم سكان البادية والأعراب لا مفرد له من لفظه وينسب إليه المعنى فيقال: أعرابى.

﴿أسلمنا﴾: أى انقدنا ظاهرا فقط. ﴿لمَّا يدخل الإيمان﴾.. إلخ: (لما) حرف يدل على استمرار نفى ما بعدها إلى حين وقت التكلم ومثلها فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨ والمعنى: لم يدخل الإيمان فى قلوبكم إلى الآن.

﴿لا يلتكم﴾: تقول العرب: لاته يليته. بوزن باعه يبيعه إذا منعه شيئًا مما يستحق. ولهذا الفعل صيغة أخرى ستأتى فى الآية (٢١) سورة الطور صفحتى ٦٩٧، ٦٩٨.

﴿لم يرتابوا﴾: المراد بلغ من قوة إيمانهم أنه يستحيل أن يطرأ عليهم شك فى المستقبل.

﴿أتعلمون الله﴾: أى أتخبرونه. ﴿يمنون عليك﴾: المن تعداد النعم.

﴿أن أسلموا﴾: أى إسلامهم، والمراد يعدون إسلامهم منة عليك أيها النبى.

(١) خلقناكم. (٢) جعلناكم. (٣) أتقاكم. (٤) آمنا. (٥) الإيمان.
(٦) أعمالكم. (٧) آمنوا. (٨) جاهدوا. (٩) بأموالهم. (١٠) الصادقون.
(١١) السموات. (١٢) إسلامكم. (١٣) هداكم. (١٤) للإيمان. (١٥) صادقين.

المعنى: نهى سبحانه عن عيب آخر كان شائعا عندهم. وهو التفاخر بالأنساب. مهما كانت الأعمال. فقال: (يا أيها الناس).. إلخ، أى إنا خلقناكم من أب واحد وأم واحدة. فأنتم فى أصل النسب سواء. وإنما ميزناكم إلى شعوب وقبائل ليسهل تعاون بعضكم ببعض، فتصلوا أرحامكم لا للتفاخر. ولأنه لا اختيار لكم فى خلقنا لكم على هذا النظام. وبما أن تقوى الله تعالى هى التى لكم فيها كسب فإذا جاز الافتخار بشىء فأحق شىء به هو التقوى، فاجتهدوا فيها لأن أقربكم، عند الله هو أشدكم تقوى له سبحانه والله عليم بأعمال الناس خبير بأحوالهم. وسيجازيهم ويفضل أحسنهم عملا وأصلحهم حالا لا أشرفهم نسبًا. وفى هذا قال ﷺ فى حجة الوداع: أيها الناس ألا إن ربكم واحد، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى. أى نعم، بلغت يا رسول الله قال: فليبلغ منكم الشاهد الغائب. وقال بعض الأعراب المسلمون فى الظاهر آمنا بقلوبنا. قل لهم أيها النبى لم تؤمنوا إيمانا وافق القلب فيه اللسان. ولكن الذى يصح أن تقولوه هو أننا انقدنا ظاهرًا فقط، مادمتم إلى الآن لم يدخل الإيمان فى قلوبكم. وإن تطيعوا الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا لا ينقصكم من أجر أعمالكم شيئًا. إن الله غفور لذنوب مَنْ يتوب. رحيم بعباده فيقبل توبتهم. وليس الإيمان هو ما زعم هؤلاء الأعراب. إنما الإيمان الصحيح هو إيمان المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله إيمانا ملأ قلوبهم حتى استحال أن يطرأ عليه ريبة من أية جهة. ويكون من آثاره أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله. المؤمنون الذين هذه صفاتهم هم الصادقون فى دعوى الإيمان. ثم وبخهم سبحانه فقال: (قل أتعلمون).. إلخ. أى قل أيها النبى لهؤلاء الأعراب. هل تعلمون الله بحقيقة دينكم وتريدون أن توهموا أنكم مؤمنون حقًا. والحال أنه سبحانه يعلم ما فى السموات والأرض. وهو بكل شىء مما كان وما سيكون عليم. غير محتاج لأخباركم. وكان بعض هؤلاء الأعراب يقول له ﷺ إنا أسلمنا بغير قتال. ولم نقاتلك كغيرنا. فأمره سبحانه وتعالى بأن يقول لهم: لا تمنوا على إسلامكم. بل الله هو الذى يمن عليكم أن هداكم للإيمان الذى تزعمونه. فإن كنتم صادقين فى قولكم (آمنا) فالفضل لله الذى هداكم إليه. والمراد توبيخهم على تبجحهم بشىء غير صحيح.

سورة ق

غَيْبَ السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

(٥٠) سُورَةُ قٓ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ [١] وَالْقُرْءَانِ [٢] الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ
مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ [٣] هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا [٤] مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ
الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ [٥] حَفِيظٌۢ (٤) بَلْ كَذَّبُوا۟
بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟
إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا [٦] وَزَيَّنَّٰهَا [٧] وَمَا لَهَا مِن
فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا [٨] وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ [٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿ق﴾: تنطق قاف بسكون الآخر.

﴿المجيد﴾: صاحب المجد والشرف. وجواب القسم مقدر مفهوم من سياق الكلام. والأصل: وحق القرآن المجيد إنك يامحمد منذر لهم. ﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر ومثلها الآتية فى الآية (٥) هنا.

﴿منذر﴾: أى رسول محذر من عذاب الله لمن عصاه.

﴿رَجْع﴾: يقال رجع فلان الشىء بوزن ضرب. أى أعاده ورده. فالرجع الإعادة. انظر الآية (٨) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢ .

﴿ما تنقص الأرض منهم﴾: المراد: ما تأكل الأرض من أجسامهم بعد الموت.

﴿كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ. انظر الإشارة إليه فى الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١ والآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ .

﴿حفيظ﴾: أى شديد الحفظ لتفاصيل كل شىء، ودقائقه. ﴿بل كذبوا﴾: بل كالسابقة.

﴿مريج﴾: أى مضطرب. مختلط والمراد: أنهم شديدو الاضطراب حتى كأن حالهم هو الذى اضطرب. فهو مثل ﴿عيشة راضية﴾ فى الآية (٢١) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢ .

﴿زيناها﴾: أى بالكواكب. انظر آيتى (٦) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ و(٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ .

(١) قاف. (٢) القرآن. (٣) الكافرون. (٤) أئذا. (٥) كتاب.
(٦) بنيناها (٧) زيناها. (٨) مددناها. (٩) رواسى.

﴿فروج﴾: أى شقوق، انظر شرح الآية (٣) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ . ﴿رواسى﴾: أى جبالا ثوابت.

المعنى: إذا كنتم تكذبون على الرسول ﷺ وتقولون آمنا، فالله سبحانه لا يخفى عليه حالكم لأنه يعلم كل ما خفى فى السموات والأرض، فهو يعلم الصادق منكم والكاذب، والداخل فى الإسلام رغبة فيه والداخل طمعًا فى المغانم. وهو بصير بما تعملونه من خير أو شر وسيجازيكم عليه.

﴿ق﴾ تقدم المراد من مثلها أول سورة البقرة. أقسم بالقرآن صاحب الشرف العظيم على سائر الكتب لإعجازه وعدم نسخه بغيره إنك أيها النبى لرسولنا حقا. أرسلناك لتنذر الناس بالبعث. انظر مثله فى الآية الأولى من سورة ص صفحة ٥٩٧ فامتنع الكفار عن تصديقك، بل جعلوا رسالتك والبعث محل تعجب. ثم فسر سبحانه تعجبهم بقوله: فقال الكافرون هذا البعث الذى يقوله محمد شىء عجيب. ثم بينوا سبب تعجبهم فقالوا: هل حين نموت ونصير ترابا نرجع ثانيا أحياء؟! ذلك الرجوع الذى يقول به محمَّد رجوع بعيد غير ممكن. فرد سبحانه تعجبهم واستبعادهم بقوله: (قد علمنا)... إلخ. أى قد علمنا ما تأكله الأرض من أجسامهم بعد الموت، فلا يستبعد علينا جمعها بعد تفرقها، ثم أكد سبحانه ما سبق بالأسلوب الذى يعهدونه. وهو أن عنده سبحانه كتابا حافظًا لكل شىء فى العالم. وإلا فعلمه سبحانه لا يحتاج إلى كتاب ولا غيره. ثم انتقل من بيان شفاعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع. وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالأدلة القاطعة، فقال: (بل كذبوا)... إلخ. أى كذبوا من أول وهلة بدون تفكير برسالة رسولنا الذى جاء بالقرآن مع أن رسالته وكتابه حق لاشك فيهما. فهم فى اضطراب لا يثبتون على رأى واحد فى رسالة الرسول. وفى البعث كحال الكفار قبلهم، فقالوا على رسل الله تارة سحرة، وأخرى كهان.. ومرة مجانين. وفى البعث تعجبوا منه تارة، واستبعدوه أخرى. ونفوه وكذبوه تارة. انظر الآيات (٣٦ إلى ٣٩) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٩ وآيتى ١٤ ، ١٥ من سورة الطور صفحة ٦٩٧ والآيات ٤٧ إلى ٥١ من سورة الواقعة صفحة ٧١٥: ثم شرع سبحانه فى إبطال ما زعموا فقال: (أفلم ينظروا)... إلخ. أى هل عميت أبصارهم فلم ينظروا إلى السماء حال كونها فوقهم كيف بنيناها بلا عمد، وزيناها بالكواكب وليس فيها شقوق تعيبها، والأرض بسطناها ليسهل عيشهم فيها، وثبتناها بالجبال حتى لا تميل بهم. انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧ .

المفردات: ﴿زوج﴾: أى صنف من النبات

﴿بهيج﴾: أى شديد البهجة، وهى حسن المنظر ، انظر الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١ .

﴿تبصرة﴾: أى تبصيرا وتبيينًا وتثبيتًا.

﴿ذكرى﴾: أى تذكيرا.

﴿منيب﴾: أى راجع إلى الله بالتوبة.

﴿الحصيد﴾: أى الزرع المحصود. وذكر الحب لأنه المقصود الأصلى للزرع.

﴿باسقات﴾: أى طويلات.

﴿طلع﴾: المراد به هنا: الشماريخ التى تحمل البلح؛ وانظر ما تقدم فى الآية (٦٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩١ .

وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ
عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا[1] فَأَنۢبَتۡنَا
بِهِۦ جَنَّٰتٖ[2] وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ[3] لَّهَا
طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ
كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ[4]
ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ[5] لُوطٖ ﴿١٣﴾
وَأَصۡحَٰبُ[6] ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ
خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ[7] وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ
بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾
إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾
مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ

﴿نضيد﴾: أى مرتب بعضه فوق بعض، انظر الآية (٢٩) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤

﴿أحيينا به بلدة﴾: المراد جعلنا الأرض القاحلة منبتة بسبب نزول المطر.

﴿ميتا﴾: المراد قاحلة.

﴿الخروج﴾: أى من القبور يوم القيامة.

﴿أصحاب الرس﴾: هم أصحاب الأخدود المذكورون فى الآية (٤) من سورة البروج صفحة ٨٠١ .

(١) مباركا.
(٢) جنات.
(٣) باسقات.
(٤) أصحاب.
(٥) إخوان.
(٦) أصحاب.
(٧) الإنسان.

﴿وإخوان لوط﴾: قال البيضاوى: كانوا أصهاره عليه السلام، فليس المراد الأخوة فى النسب، وبذلك فلا تنافى بين ما هنا وما سبق فى الآية (٨٠) من سورة هود صفحة ٢٩٦ من أنه كان غريبًا عنهم.

﴿أصحاب الأيكة﴾: تقدم فى الآية (٧٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ وكان نبيهم شعيبًا عليه السلام انظر آيتى (١٧٦، ١٧٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠ .

﴿قوم تبع﴾: تقدم فى الآية (٣٧) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨ .

﴿فحق وعيد﴾: أى وجب ونزل بهم مقتضى وعيدى لهم بالهلاك.

﴿أفعيينا ...﴾ إلخ: تقدم فى الآية (٣٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١ . والهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، أى لم نعجز.

﴿بالخلق الأول﴾: هو خلق السموات والأرض وما فيهما.

﴿بل﴾: حرف يفيد الانتقال من كلام لآخر.

﴿فى لبس﴾: أى فى خلط وارتباك فى عقولهم، لإهمالهم النظر فى الأدلة القاطعة بقدرة الله تعالى على ذلك.

﴿حبل الوريد﴾: الإضافة بيانية. أى حبل هو الوريد، والوريدان عرقان بجانبى العنق متصلان بالعظمتين اللتين خلف الأذن. إذا قطع أحدهما مات صاحبه. والمراد: وملائكته أقرب إليه ... إلخ وذلك لاستحالة أن يحويه سبحانه مكان.

﴿المتلقيان﴾: هما الملكان المكلفان بالإنسان يسجلان ما يعمله.

﴿قعيد﴾: أى قاعد كجليس بمعنى جالس.

﴿رقيب﴾: أى مراقب.

﴿عتيد﴾: هو المعد والمهيأ للشىء، والمراد هنا: مهيأ لكتابة ما أمر بكتابته، انظر الآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ وآيتى (١٠، ١١) من سورة الانفطار صفحتى ٧٩٥، ٧٩٦ .

المعنى: يقول سبحانه وأنبتنا فى الأرض من كل صنف من أصناف الزرع ما يسر الناظر إليه. فعلنا ذلك تبصيرا منا وتذكيرًا لكل عبد راجع إلى ربه بالطاعة والتوبة عما يحصل منه ويقول سبحانه ونزلنا من جهة السماء ماءًا كثير البركات والخيرات فأنبتنا به بساتين وزرعا يحصد فينتفع بحبه.

وأنبتنا بهذا الماء أيضًا النخل حال كونها طويلات دالة على قدرتنا. لا يمسكها على طولها إلا الله. وحال كونها تحمل عراجين متراكما عليها ثمرها لأجل رزق عبادنا.

وجعلنا بهذا الماء الأرض القاحلة خضراء بكل نبت غير ما تقدم. مثل إخراجنا هذه الأشياء من الأرض نخرج الموتى من القبور يوم القيامة. والمراد أن القادر على ذلك قادر على إعادة الخلق للجزاء فكيف تنكرونه؟

ثم بيَّن سبحانه أن عمل كفار مكة من تكذيب الرسول وإنكار البعث كعمل مَنْ قبلهم مع رسلهم. وكانت عاقبتهم الهلاك لينزجر كفار مكة. فقال: كذبت قبلهم أى قبل كفار قومك أيها النبى قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وقومه وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع. كل أمة من هؤلاء كذبت رسولها. فنزل بهم ما أوعدتهم به. وهو العذاب والهلاك.

ثم أكد سبحانه صحة البعث فقال: (أفعيينا).. إلخ. أى هل قصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟ اعلم أيها النبى أنهم غير منكرين قدرتنا على الخلق الأول بل هم فى خلط وحيرة مَن خلق جديد لما فيه من مخالفة العادة وعدم إيمانهم بوعد ربهم.

ثم هددهم سبحانه فقال: ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به أى ما تحدثه به نفسه ويخطر بباله. والمراد فى قوله تعالى: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.

الكناية عن تمام علمه سبحانه بأحوال العبد. لا يخفى عليه شىء منها. نعلم ذلك حيث يتلقى الملكان أفعاله. عن يمينه واحد وعن شماله واحد. والكلام يشعر بعدم حاجته سبحانه لذلك. ولكن أمر بذلك ليكون حجة للعبد أو عليه. فما يلفظ العبد من قول فضلا عن أن يفعل فعلا إلا عنده رقيب حاضر مهيأ لإثبات كل شىء له أو عليه، حتى الحسد وظن السوء.

سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ
هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾
وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي
جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ(١) فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾
* قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ(٢)
بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم
بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ(٣)
لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ
مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾

المفردات: ﴿سكرة الموت﴾: هى شدته التى تذهل العقول.

﴿بالحق﴾: المراد به هنا: كل ما كان ينكره الكافر من أمور الآخرة؛ لأن المرء عند الموت يعلم ما كان خافيا عليه.

﴿تحيد﴾: أى تبتعد وتنفر.

﴿ونفخ فى الصور﴾: المراد هنا: النفخة الثانية انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ (والصور): هو فى لغة العرب اسم للبوق الذى ينفخ فيه فيحدث صوتا قويا، انظر الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿يوم الوعيد﴾: المراد: يوم تحقق الوعيد الذى توعد الله سبحانه به فى الدنيا الكافرين بالعذاب الخالد.

﴿سائق﴾: المراد هنا: سائق يسوقها إلى المحشر.

﴿شهيد﴾: أى لها أو عليها. وهو كثير فى ذلك اليوم فمنه الأنبياء والملائكة والكتب والجوارح وغير ذلك، انظر الآيات (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧ والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤.

﴿حديد﴾: أى حاد قوى.

﴿قرينه﴾: المراد به هنا: الملك المراقب له، المتقدم فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٦٨٩.

(١) آخر.
(٢) ضلال.
(٣) بظلام.

﴿عتيد﴾: هنا: معد ومهيأ لما يقضى به الله فيه.

﴿ألقيا﴾: الخطاب للسائق والشهيد من الملائكة.

﴿مريب﴾: المراد: شاك فى الدين.

﴿قرينه﴾: المراد به هنا: صاحبه الذى قارنه فى الدنيا، وزين له الكفر والفسوق؛ انظر الآية (٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ .

﴿نقول لجهنم﴾: قال مجاهد: ليس هناك قول. وإنما جرى الكلام على سبيل تمثيل حال جهنم بأنها امتلأت حتى لم يبق فيها مكان خال، ونظيره تقدم فى الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١ .

﴿هل امتلأت﴾: ﴿هل﴾ حرف استفهام تقريرى. أى أقرى بأنك امتلأت وحققت لك ما وعدت به، انظر الآية (٨٥) من سورة ص صفحة ٦٠٥، ونظير هذا الاستفهام فى الآية (١) من سورة الشرح صفحة ٨١٢ .

﴿هل من مزيد﴾: ﴿هل﴾ هنا للاستفهام الإنكارى، المفيد للنفى. أى لا مزيد.

﴿أزلفت﴾: أى قُرِّبَتْ، والأصل تزلف لكنه جاء به بصيغة النعل الماضى لإفادة أنه سيحصل قطعًا، كما فى الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ .

﴿غير بعيد﴾: هذا تأكيد لما قبله، كما تقول فلان كريم غير بخيل.

المعنى: بعدما أبطل سبحانه استبعادهم للبعث . وبيَّن أن أعمالهم معلومة له سبحانه. أراد أن يحذرهم بأنهم سيلاقون يوم البعث قطعًا ويعرفون أنه حق بمجرد موتهم فقال: وجاءت سكرة الموت بالحق.. إلخ. أى جاءت شدة الموت مقارنة لمعرفة الحقيقة؛ لأن الإنسان يعلم بمجرد دخوله فى سكرات الموت كل شىء مما كان وما يكون وتقوله الملائكة ذلك الحق هو ما كنت تفر منه خوفًا. وفى هذا المعنى قال النبى ﷺ: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا). ونفخ إسرافيل فى الصور لقيام الأموات من القبور. ذلك الوقت الذى نفخ فيه هو يوم تحقق الوعيد

الذى توعد الله به الكفار فى الدنيا. وإنما خص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعيد بالنعيم للمؤمنين أيضًا لأن المقام لتخويف كفار مكة. وجاءت كل نفس مكلفة معها سائق وشهيد. وتقول الملائكة للعاصى لقد كنت فى الدنيا فى غفلة من هذا الذى رأيته الآن فكشفنا اليوم عنك غطاء الغفلة والانهماك فى الدنيا. فبصرك اليوم حاد قوى يكشف ما خفى، وقال الملك المقارن له المتقدم فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٦٨٩ هذا ما هو تحت مراقبتى معد وحاضر الآن للحساب والجزاء. فيقول سبحانه للسائق والشهيد من الملائكة: اطرحا فى جهنم كل مبالغ فى الكفر مبالغ فى العناد بترك الانقياد للحق.. مبالغ فى منع الخير عن الناس. ظالم منكر للحق: شاك فى دين الله وفى البعث.

ثم بين سبحانه بعض صفات هذا الكافر العنيد فقال: الذى جعل مع الله إلها آخر. ثم أكد الأمر بإدخاله النار بقوله: (فألقياه)... إلخ. أى وإذا كان هذا حاله فألقياه فى العذاب الشديد. ونظير هذا التأكيد فى الآية (١٨٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٤ عند ذلك يعتذر الفاجر بأن قرينه الشرير هو الذى أطغاه، انظر الآية (٣١) وما بعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٧ . فيرد شيطانه الذى أغواه فى الدنيا، ويقول: يا ربنا، أنا ما أوقعته فى الطغيان، ولكنه كان فى ضلال بعيد جدا عن الصواب، فسار وراء شهواته وتأثر بمجرد دعائى له ولم أكرهه انظر الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣ .

فيقول سبحانه لكل المتخاصمين لا تختصموا عندى الآن والحال إنى قدمت إليكم فى الدنيا وعيدى بالعذاب، إذا كفرتم وعصيتم، فلا تبديل لما قلته فى الدنيا فى كتبى وعلى لسان رسلى؛ لأنى لست بصاحب ظلم لعبادى، ومن الظلم أن أسوى بين الطائع والعاصى، انظر الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠ وآيتى (٣٥، ٣٦) من سورة القلم صفحة ٧٥٩ .

لا أظلم أحدًا يوم نقول لجهنم حققت لك ما وعدت به فى الآية (٨٥) من سورة ص صفحة ٦٠٥ فتقول: نعم يا ربى لا مكان عندى لمزيد. هذا حال الفجار، أما المؤمنون فتقرب لهم الجنة قطعًا فى مكان غير بعيد لتعجيل إدخال السرور عليهم وإسعادهم بنعيمها المقيم.

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ
الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ[1]
ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا
مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم
بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ[2] هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ[3] وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ[4] فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ[5] السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ
يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ
بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي[6] وَنُمِيتُ

المفردات: ﴿أواب﴾: كثير الرجوع إلى الله بالطاعة والتوبة.

﴿حفيظ﴾: أى شديد المحافظة على شرائع ربه.

﴿خشى الرحمن بالغيب﴾: أى خاف ربه وهو بعيد عن الناس انظر الآية (٤٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥ .

﴿قلب منيب﴾: قال فى المختار أناب إلى الله تعالى. أى أقبل وتاب. ونسب الإنابة للقلب لأن العبرة بالقلوب.

﴿ادخلوها بسلام﴾: أى مصاحبين سلاما من ملائكة الله عليكم. انظر الآية (٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦ .

﴿يوم الخلود﴾: أى اليوم الذى يبشركم الله فيه بالخلود فى النعيم.

﴿كم﴾: كلمة معناها كثير.

﴿من قرن﴾: ﴿من﴾ تدل على أن ما بعدها بيان لهذا الكثير المفهوم من ﴿كم﴾. والقرن هم الجماعة المقترنون فى زمن واحد. انظر الآية (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢، ١٦٣ .

﴿بطشا﴾: البطش: أخذ الشىء بقوة وشدة. انظر الآية (١٣٠) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨ .

﴿نقبوا فى البلاد﴾: أى ساروا فى البلاد باحثين عن مكان يحفظهم من الموت.

(١) بسلام. (٢) فى البلاد.
(٣) السموات. (٤) الليل.
(٥) أدبار. (٦) نحيى.

﴿هل...﴾ إلخ: ﴿هل﴾ هنا حرف استفهام إنكارى يفيد النفى. أى لا محيص، والمحيص المفر. ﴿من﴾ لتأكيد النص على عموم نفى ما بعدها.

﴿لذكرى﴾: أى تذكير وعظة.

﴿لمن كان له قلب﴾: أى يدرك به الحق بنفسه.

﴿ألقى السمع﴾: المراد: أصغى لما يقول غيره انظر ما تقدم فى الآية (٢٢٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣ .

﴿شهيد﴾: المراد حاضر القلب تام اليقظة .

﴿فى ستة أيام﴾: تقدم الكلام عليها فى الآية (٩) وما بعدها من سورة فصلت صفحة ٦٣٠، ٦٣١ .

﴿لغوب﴾: الفتور الذى يعقب التعب كما تقدم فى الآية (٣٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦ .

﴿قبل طلوع الشمس...﴾ إلخ: تقدم فى الآية (١٣٠) من سورة طه صفحة ٤١٩ .

﴿أدبار السجود﴾: ﴿أدبار﴾ جمع دبُر بضمتين، وهو آخر الشىء، والمراد: عقب الصلوات.

﴿المناد﴾: أصلها المنادى، وقيل: هو إسرافيل.

﴿الصيحة﴾: هى النفخة الثانية، المشار إليها فى الآية (٢٠) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٦٩٠ .

﴿بالحق﴾: هو المتقدم فى الآية (١٩) من هذه السورة صفحتى ٦٨٩، ٦٩٠ والمراد به البعث الذى كان الكفار ينكرونه.

﴿الخروج﴾: أى من القبور.

المعنى: وتقول الملائكة للمتقين هذا هو النعيم الذى وعدكم به ربكم فى كتبه وعلى لسان رسله وهو معد لكل عبد رجاع إلى مولاه بالطاعة. حفيظ لشرائعه وهو مَنْ خاف ربه مخلصًا

بعيدًا عن الرياء. وجاء ربه بقلب منيب راجع إلى الله دائمًا لا يعرف غيره، ويقال لهم أيضًا ادخلوا الجنة مسلمًا عليكم من الملائكة تحية لكم. ذلك اليوم الذى دخلتم فيه الجنة هو اليوم الذى تبتدئون فيه الحياة الدائمة فلا موت بعده. ولهم فى الجنة كل ما يريدون، ثم يزيد فى سرورهم سبحانه وتعالى فقال: ولدينا مزيد. أى نزيدهم فوق ما يشاءون من النعيم ما لايخطر لهم على بال. وبعد ما حذرهم سبحانه من عذاب الآخرة شرع يحذرهم من عذاب الدنيا فقال: و(كم أهلكنا)... إلخ. أى وكثيرا من الأمم قبلهم شرعنا فى إهلاكهم لما عملوا مثل عملهم. فهربوا فى البلاد خوفًا من الهلاك. والمراد ارتبكوا فلم يجدوا مخرجًا. فقيل لهم لا مفر لكم من الهلاك. أى هلكوا ولم ينج منهم أحد. انظر آيتى (١٢، ١٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ .

إن فيما ذكر مما حصل للأمم قبلهم لتذكرة وعظة لمَنْ كان له قلب سليم يدرك الحقائق بنفسه أو يصغى إذنه لما يلقيه عليه غيره، من المواعظ، والحال أنه حاضر الفكر متيقظ.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على البعث فقال: ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ولم يعترينا تعب.

ولاشك أن مَنْ قدر على خلق ذلك وهو أكبر من خلقهم كما فى الآية (٥٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ . قادر على أن يبعثهم يوم القيامة.

وإذا كان الأمر كما ذكر فاصبر أيها النبى على ما يقوله المشركون فى شأن البعث. ونزهه تعالى عن العجز وعن خلف الوعد، حامدًا لربك على ما أنعم عليك به. واحمده دائمًا وسبحه على الأخص بعضًا من الليل والناس نيام، وعقب كل صلاة. واستمع لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة، يوم ينادى المنادى أهل القبور من مكان يسمعه كل واحد منهم كأنه بجانبه.

فى هذا اليوم يسمعون نفخة إسرافيل الثانية مقترنة بالحق الذى كان ينكره كثير منهم وهو البعث والحساب والجزاء. ذلك اليوم هو يوم خروجهم من القبور، من كل ذلك يعلم أننا وحدنا نحيى ونميت من غير أن يشاركنا أحد.

المفردات: ﴿المصير﴾: المرجع ﴿تشقق الأرض﴾: أصلها تتشقق وذلك يوم القيامة. ﴿سراعا﴾: جمع سريع مثل كرام جمع كريم، وهو حال من فاعل يخرجون المفهوم من الخروج المتقدم في الآية (٤٢) السابقة صفحة ٦٩١، والمراد يخرجون من القبور سراعًا.

وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا
ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا
أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(٥١) سُورَةُ الذَّارِيَاتِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا سِتُّونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ
يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ
الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ

﴿يسير﴾: أى سهل هين.

﴿بجبار﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها، أى بقاهر لهم على الإيمان كما فى الآية (٢٢) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥ .

﴿وعيد﴾: الوعيد التهديد بالعذاب والأصل وعيدى.

المعنى: وإلينا وحدنا المرجع فى الآخرة للحساب والجزاء لا ينازعنا فيه منازع إلينا مرجعهم يوم تتشقق الأرض عنهم فيخرجون مسرعين فى الخروج منها إلى المحشر كأنهم جراد منتشر، انظر الآية (٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ . ذلك الحشر حشر يسير علينا مستحيل على غيرنا. ثم خفف سبحانه على نبيه ألم تكذيبهم له فقال: نحن أعلم بما يقولون من تكذيبك وإنكار البعث. فلا تقتل نفسك حزنا عليهم، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ . لا تكلف نفسك فوق طاقتها لأنك لست قادرا على جبرهم على الإيمان. وأشغل نفسك. فذكر بالقرآن مَنْ يخاف وعيدى الذى توعدت به المخالفين. فإن مَنْ يخاف ذلك هو الذى ينتفع بالتذكير. انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ .

سورة الذاريات

المفردات: ﴿الذاريات﴾: جمع ذارية. والمراد بها الريح لأنها تثير الأبخرة فى الجو حتى تنعقد سحابا. انظر الآية (٤٨) من سورة الروم صفحة ٥٣٧. تقول العرب: ذروت الشىء أذروه أى طيرته.

﴿وقرا﴾: أصل الوقر حمل البعير. والمراد به هنا: السحاب الثقيل وجمعه أوقار. انظر الآية (٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠١، ٢٠٢ .

(١) بالقرآن. (٢) الذاريات. (٣) فالحاملات. (٤) فالجاريات
(٥) فالمقسمات. (٦) لواقع. (٧) الخراصون.

﴿يسرا﴾: أى جريا هينًا سهلاً، انظر الآية (٣٦) من سورة ص صفحة ٦٠١ .

﴿المقسمات أمرًا﴾: المراد بالأمر هنا المطر. والمقسمات هى الرياح التى توزع الأمطار بتصريفها للسحاب فى الأقطار حسب ما يريد سبحانه وتعالى، انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥ .

﴿الدين﴾: المراد به هنا: الحساب والجزاء. ﴿لواقع﴾: أى حاصل بلا أدنى شك.

﴿الحبك﴾: كالطرق وزنًا ومعنى ومفردها حبيكة، والمراد: طرق سير الكواكب.

﴿قول مختلف﴾: أى متناقض مضطرب، والمراد ليس عندكم علم ثابت.

﴿يؤفك عنه﴾: أى يصرف عن الإيمان بالحساب والجزاء يوم القيامة. ﴿مَنْ أفك﴾: أى مَنْ صرفه الشيطان عنه. وفيه مبالغة حيث جعل المصروف كأنه مصروف قبل نسبة الصرف إليه. تقول العرب: حصلت المعركة فقتل مَنْ قتل ونجا مَنْ نجا.

﴿قتل﴾: المراد لعن وهلك انظر الآية (١٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٢ .

﴿الخراصون﴾: الكذابون.

﴿فى غمرة﴾: أى فى جهل يغمرهم، كما يغمر الماء الغريق فيه.

المعنى: يقسم سبحانه بالرياح التى تثير السحاب فتحمله وهو ثقيل بماء المطر، فتجرى به جريا سهلا فتقسمه الأقطار كما يشاء سبحانه. إن وعده للكفار بالبعث لصادق، وإن الحساب والجزاء لحاصل قطعًا. انظر حكمة قسمه سبحانه ببعض خلقه فى شرح الآية (١) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ .

ثم أقسم سبحانه قسمًا آخر على مقسم عليه آخر فقال: (والسماء)... إلخ. أى أقسم بالسماء ذات الطرق التى تسير فيها كواكبها بإتقان كما تقدم فى شرح الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢ . إنكم يا كفار مكة لمضطربون فى أقوالكم فى شأن الرسول والقرآن والبعث، فتارة تقولون فى الرسول ساحر وأخرى مجنون؛ وتقولون فى القرآن سحر، وتارة تقولون أساطير الأولين. وفى البعث تارة تشكون وتارة تنكرون. فأنتم تسيرون فى عماية ليس عندكم علم بشىء يصرفكم الشيطان عن الإيمان بما ذكر. لعن الله الكذابين أمثالكم الذين غمرهم الجهل فهم غافلون عن أهوال الآخرة.

سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى
النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم
بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾
آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ
وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ
إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ
سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ

المفردات: ﴿ساهون﴾: المراد غافلون.

﴿يسألون﴾: أى يسألون الرسول سؤال استهزاء.

﴿أيان﴾... إلخ: اسم استفهام عن زمان، أى متى مجىء يوم الدين أى يوم الحساب والجزاء الذى تقول به.

﴿على النار يفتنون﴾: أصل معنى الفتنة إذابة المعادن كالذهب مثلاً على النار. ليظهر غشه، ثم استعمل فى التعذيب، وضمِّن يفتنون معنى يعترضون ولذا جاء بحرف ﴿على﴾ ولم يأت بحرف الباء، والمراد يعذبون بعرضهم على جهنم.

﴿فى جنات وعيون﴾: المراد فى مكان محاط بجنات وعيون تجرى منها الأنهار، انظر الآية (٥٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٨ .

(آخذين ما آتاهم ربهم﴾: الأخذ هنا معناه التلقى بالقبول والرضا؛ انظر الآية (١٠٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥٩ .

﴿كانوا قبل ذلك﴾: أى فى الدنيا، انظر الآية (٢٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ .

﴿قليلا من الليل ما يهجعون﴾: الهجوع النوم القليل؛ و﴿ما﴾ تجعل ما بعدها مصدرا؛ والمعنى كانوا قليلا من الليل هجوعهم.

﴿الأسحار﴾: جمع سحر بفتحتين، وهو آخر الليل قبيل الفجر.

﴿حق﴾: انظر ذلك فى شرح الآية (٤) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩ .

(١) يسألون. (٢) جنات. (٣) آخذين.
(٤) آتاهم. (٥) الليل. (٦) أموالهم.
(٧) آيات. (٨) أتاك. (٩) إبراهيم.
(١٠) سلاما. (١١) سلام.

﴿للسائل﴾: هو الذى يطلب الصدقة.

﴿المحروم﴾: المراد به الفقير المتعفف، المشار إليه فى الآية (٢٧٣) من سورة البقرة صفحة ٥٨ . ﴿آيات﴾: أى دلائل على قدرة الله ووحدانيته. ﴿للموقنين﴾: المراد المستعدون للإيقان المذكور فى الآية ٤ من سورة البقرة صفحة (٣) (تبصرون): المراد تنظرون بعين البصيرة.

﴿وفى السماء رزقكم﴾ ... إلخ: المراد: فى جهة السماء ما هو مدون فى اللوح المحفوظ من كل ما يحصل لكم، انظر الآية (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤ . ﴿مثل ما أنكم﴾: (ما) حرف يدل على تأكيد التماثل بين سابقه ولاحقه كما يدل على تأكيد الربط بين سابقه ولاحقه فى الآية (٤٠) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨ والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ فالمراد مماثل مماثلة شديدة لنطقكم.

﴿هل أتاك﴾: انظر حكمة بدء الكلام بـ ﴿هل﴾فى شرح الآية (٩) من سورة طه صفحة٤٠٦ .

﴿ضيف﴾: كلمة تطلق على الواحد والأكثر من الضيفان.

و﴿المكرمين﴾ تدل على تعددهم، وكانوا ملائكة فى صورة شبان كما تقدم فى الآية (٧٧) من سورة هود صفحة ٢٩٥ .

﴿منكرون﴾ : المراد غير معروفين. ﴿فراغ﴾: أى فذهب فى خفية عن الضيوف.

﴿عجل﴾: من البقر؛ لأنه كان لا يملك إلا البقر. وقدمه بعد شَيِّه على النار كما جاء فى الآية (٦٩) من سورة هود صفحة ٢٩٤ .

المعنى: هؤلاء الكفار غارقون فى الجهل غافلون عن الآخرة فلا يعملون لها. يسألون الرسول سؤال استهزاء متى مجىء يوم الدين؟ فقل لهم أيها النبى معرضًا عن خطابهم فى الرد عليهم سيجىء يوم هم يعذبون بالنار ويقول لهم الزبانية ذوقوا آلام تعذيبكم هذا التعذيب فى جهنم الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا استهزاء. وبعدما بيَّن سبحانه جزاء الكافرين. شرع فى بيان جزاء المؤمنين فقال: (إن المتقين فى جنات)... إلخ. أى تحيط بهم البساتين والعيون التى تجرى منها الأنهار متقبلين ما أعطاهم ربهم من الثواب بالرضا والسرور؛ لأنهم كانوا قبل دخولهم الجنة فى الدنيا محسنين لأعمالهم.

ثم بيَّن بعض هذا الإحسان بقوله: (كانوا قليلاً)... إلخ . أى إنهم كانوا يكابدون العبادة فى أوقات الراحة. مشغولة قلوبهم بربهم، فلا ينامون إلا قليلاً من الليل. وكانوا يشتغلون قبيل الفجر بالاستغفار خوفًا من أن يكونوا فرطوا فى مطلوب شرعًا.

و هؤلاء هم أرقى طبقات المؤمنين وهم السابقون المذكورون فى الآية (١٠) وما بعدها من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤ . وكانوا ينفقون من أموالهم للفقير الذى يسأل والذى يتعفف عن السؤال؛ والمراد أن ذلك كان هو حالهم فى ليالى الخير، كالعشر الأواخر من رمضان، والعاشر من ذى الحجة، وليلة القدر، وليلتى العيدين.... إلخ. أما بقية الليالى فشأنهم أن يكونوا قريبًا من النبى ﷺ، وأنه كان يصل فى قيامه إلى ثلثى الليل، انظر الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٤، ٧٧٥ .

ثم شرع سبحانه فى بيان بعض الأدلة على قدرته سبحانه ووحدانيته التى غفلوا عنها فقال: (وفى الأرض)... إلخ. أى وفى الأرض من الجبال والبحار والأشجار والنبات وغيرها دلائل ينتفع بها المستعدون لليقين لسلامة فطرتهم. وكذلك فى داخل أنفسكم من الأجزاء الدقيقة والنظام البديع والعقول المفكرة المستنبطة للصنائع الباحثة عن أسرار الكون. فى كل ذلك براهين. أيضًا على تمام القدرة والإله الواحد. ثم عنف الكفار على إهمال التفكير فى ذلك فقال: أفلا تبصرون. أى هل طمس على قلوبكم فصرتم لا تدركون هذه الأدلة؟

ثم بيَّن سبحانه أنه عالم بكل شىء مع تهديدهم بأنهم سيلاقون ما أنكروه يوم القيامة فقال: (وفى السماء)... إلخ. أى فى جهة السماء تقدير أرزاقكم وأسبابه مدون فى اللوح المحفوظ، انظر الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠، وكذا مدون فيه كل ما وعدكم به ربكم من خير وشر وبعث وحساب وجزاء يوم القيامة.

ثم أكد سبحانه ذلك بالقسم فقال تعالى: (فورب السماء)... إلخ. أى ما توعدون به لحق حال كونه فى أحقيته وثبوته كنطقكم تماما. فكما أنكم لا تشكون فى أنكم تنطقون كذلك لا يصح أن تشكوا فى تحقق ما توعدون.

وهذا أسلوب عربى معهود يقول الرجل: (إن هذا الأمر حق كما أنك ترى وتسمع)، وروى الحسن أن رسول الله ﷺ قال: (قاتل الله قوما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوه).

ثم أراد سبحانه أن يطمئن نبيه بأنه سينجيه ويقر عينه. ويهلك أعداءه فقال: (هل أتاك)... إلخ. أى هل بلغك أيها النبى حديث ضيوف إبراهيم خليل الله المكرمين عند الله تعالى حين دخلوا عليه فقالوا نسلم عليك سلاما قال وعليكم سلام. ثم قال لبعض غلمانه سرا هؤلاء قوم غير معروفين لى قبل ذلك. ثم ذهب إلى أهله سرا وذبح عجل بقر سمين وشواه... إلخ.

سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ
مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ[1] عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا
غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً[2] لِّلَّذِينَ
يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ[3] إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ[4] مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ[5]
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ[6] وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ[7] فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ

المفردات: ﴿سمين﴾: انظر الآية (٦٩) من هود صفحة ٢٩٤ .

﴿ألا تأكلون﴾: ﴿ألا﴾ حرف يدل على الرغبة فى حصول ما بعده فى أدب وتلطف، كما يقال فى عصرنا هذا. (تفضلوا وكلوا).

﴿فأوجس﴾ ... إلخ: أصل معنى أوجس: أخفى الخوف، ولكن المراد منه هنا: أنه أخفاه أولا ثم صرح به، كما فى الآية (٥٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ . وانظر الآية (٧) من سورة هود صفحتى ٢٩٤، ٢٩٥ .

﴿غلام﴾: هو إسحاق عليه السلام.

﴿عليم﴾: أى غزير العلم إذا بلغ رشده ففيه بشارة بأنه سيعيش حتى يبلغ ذلك.

﴿امرأته﴾: هى (سارة).

﴿صرة﴾: صوت مرتفع تقول ﴿يا ويلتنا﴾ ... إلخ تعجبا، انظر الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥ .

﴿فصكت وجهها﴾: أى فضربت وجهها بأطراف أصابعها.

---

(١) بغلام.
(٢) آية.
(٣) أرسلناه.
(٤) بسلطان.
(٥) ساحر.
(٦) فأخذناه.
(٧) فنبذناهم.

﴿عجوز عقيم﴾: الأصل هل ألد وأنا عجوز عقيم كما فى الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥ .

﴿فما خطبكم﴾: الخطب هو الأمر الخطير، أى فما شأنكم؟

﴿قوم مجرمين﴾: هم قوم لوط عليه السلام.

﴿حجارة﴾: انظر الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦ .

﴿مسومة﴾: تقدم فى الآية (٨٣) من سورة هود أيضًا صفحة ٢٩٦ .

﴿للمسرفين﴾: المتجاوزين الحد فى الفجور.

﴿مَنْ كان فيها﴾: أى فى قرى قوم لوط وهى مفهومة من سياق الكلام، مثل ﴿الأرض﴾ فى قوله تعالى: ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ .

﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾: المراد غير بيت جمع مع الإيمان الإسلام، وهو بيت لوط نفسه. فالإيمان هو العقائد، والإسلام هو الأعمال كالصلاة والصيام... إلخ.

﴿آية﴾: أى عبرة وعظة.

﴿بسلطان مبين﴾: أى بحجة واضحة وهى معجزاته من العصا واليد.

﴿فتولى بركنه﴾: ﴿الركن﴾ هو الجانب. والمراد أعرض متكبرًا، انظر الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤ والآية (٣٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦ .

﴿فأخذناه وجنوده﴾: المراد هيأنا لهم أسباب الخروج وراء موسى حتى أهلكناهم غرقا، انظر الآية (١٣٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣ والآية (٩٠) من سورة يونس صفحة ٢٨٠ .

﴿اليم﴾: البحر.

المعنى: جاء إبراهيم عليه السلام بعجل سمين مشوى. فقدمه لضيوفه. ورجا منهم أن يأكلوا. فلما رأى أيديهم لا تمتد إلى الطعام، كما فى الآية (٧٠) من سورة هود صفحتى ٢٩٤، ٢٩٥ . دب فى نفسه الخوف من أن يكونوا يريدون به شرًا.

ثم صارحهم بخوفه منهم. عند ذلك قالوا لا تخف إنا رسل ربك. وبشروه بأنه سيولد له ولد يكون كثير العلم عند بلوغه مبلغ الرجال، وكانت امرأته فى ركن من البيت تسمع حديثهم فأقبلت نحوهم وهى رافعة صوتها بعبارات التعجب وضربت بيدها على وجهها كما هى عادة النساء وقالت: أنا امرأة عجوز عاقر فكيف ألد؟

قالوا مثل قولنا هذا: قال لنا ربك ونحن مبلغون عنه فقط، إنه سبحانه هو الحكيم الذى يفعل الشىء فى وقته المقدر له. العليم بأسرار خلقه فلا يعجزه شىء يريده.

ولما اطمأن إبراهيم عليه السلام وعلم أنهم ملائكة وأن البشارة كان يكفى فيها ملك واحد فقط. وأدرك أنه لابد أن يكون لهم أمر أهم من ذلك. قال ما شأنكم الخطير أيها المرسلون؟

قالوا: إنا أرسلنا الله تعالى إلى قوم لوط المجرمين، لنجعل مدنهم عاليها سافلها، ونرسل عليهم حجارة من طين متحجر لا يخطئ الحجر صاحبه من هؤلاء المتجاوزين الحد فى الفجور.

ثم جاءت ملائكتنا إلى لوط وكان بينهم وبينه ما فى الآية (٧٧) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٩٥ . فأخرج ملائكتنا من كان فى تلك القرى من المؤمنين قبل نسفها، فما وجدوا فيها غير بيت واحد جمع أهله مع الإيمان الإسلام بكل أعماله وهو بيت لوط نفسه، وتركنا فى تلك القرى عبرة للذين من شأنهم أن يخافوا عذاب الله لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم، فلا يفعلون أسبابه.

أما القاسية قلوبهم فإنهم محرومون من ذلك. وتركنا فى حادث موسى وفرعون أيضًا عبرة حين أرسلناه إلى فرعون ببرهان واضح فأعرض مستكبرا وقال هذا الرجل إما ساحر يعتمد على سحره أو مجنون يجازف بحياته بدون شعور.

وهذا من فرعون تضليل لقومه لأنه يعلم أنه رسول صادق. انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥ ولما لم ينفع معه شىء أغرقناه فى البحر.

مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١)
مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)
وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا
اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا
بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ
الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠)
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)
كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)

المفردات: ﴿مليم﴾: أى مرتكب ما يلام عليه. قيل فى المصباح: ألام الرجل أى فعل ما يستحق عليه اللوم.

﴿الريح العقيم﴾: هى التى لا تحمل سحابا ممطرا ولا لقاحا لشجر. فلا خير فيها. انظر الآية (٢٤) وما بعدها من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠ .

﴿ما تذر﴾: أى ما تترك.

﴿من شىء﴾: ﴿من﴾ حرف يدل على عموم ما بعده.

﴿الرميم﴾: هو المفتت من العظم أو النبات الجاف. انظر الآية (٧٨) من سورة يس صفحة ٥٨٦ .

﴿فعتوا﴾: أى فتجاوزوا الحد فى الطغيان، انظر الآية (٢١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣ .

﴿الصاعقة﴾: تطلق الصاعقة على كل داهية تأتى من جهة السماء مصحوبة بصوت مزعج أو نار تحرق ويطلق عليها (صيحة) كما فى الآية (٦٧) من سورة هود صفحة ٢٩٤، كما لها أسماء عدة منها ﴿رجفة﴾ كما فى الآية (٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥ . ومنها ﴿طاغية﴾ فى الآية (٥) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١ .

﴿من قيام﴾: ﴿من﴾ كسابقتها.

---

(١) الصاعقة. (٢) استطاعوا.
(٣) فاسقين. (٤) بنيناها.
(٥) بأيد. (٦) فرشناها.
(٧) الماهدون. (٨) آخر.

﴿وقوم نوح﴾: المراد: وأهلكنا قوم نوح، كما أهلكنا هؤلاء المتقدمين.

﴿بأيد﴾: المراد بأيد لائقة به سبحانه، ليس كمثله شيء والذى نفهمه أن السماء بنيت بقوة لا يتصورها البشر، انظر الآية (٤٥) من سورة ص صفحة ٦٠٢ .

﴿لموسعون﴾: من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة. تقول فى وسعى أن أفعل كذا، أى فى قدرتى، والمعنى هنا: وإنا لقادرون.

﴿فرشناها﴾: أى جعلناها ممهدة كالفراش ليسهل الاستقرار عليها؛ انظر الآية (١٩) من سورة نوح صفحة ٧٦٩ والآية (٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧ .

﴿الماهدون﴾: جمع ماهد. وأصله الذى يعد ويهئ المهد الذى يستريح عليه الطفل، انظر الآية (٤٦) من سورة آل عمران صفحة ٧٠ ، والآية (٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، والمراد: جعلنا الأرض مريحة تسهل المعيشة عليها.

﴿زوجين﴾: أى صنفين . ذكرا وأنثى.

﴿ففروا إلى الله﴾: هذا تمثيل للاعتصام بجنابه سبحانه وتعالى. والمراد: فروا من مصايد الشيطان إلى رحاب الرحمن بالطاعة.

﴿كذلك﴾: الأصل الأمر كذلك. أى أمر أمتك أيها النبى كأمر تلك الأمم.

﴿قالوا ساحر أو مجنون﴾: انظر الآية (٤٣) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٦،٦٣٥ .

﴿أتواصوا به﴾: الهمزة للاستفهام التعجبى، أى تعجبوا أيها الناس من هؤلاء الذين كأنهم وصى بعضهم بتكذيب الأنبياء.

﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال مما قبله إلى ما بعده.

﴿طاغون﴾: أى متجاوزون حدود الحق والعدل.

المعنى: يقول سبحانه وأغرقنا فرعون والحال أنه فاعل ما يؤاخذ عليه من الكفر والطغيان فلم نظلمه. وتركنا عبرة أيضًا فى عاد حين أرسلنا عليهم الريح الخالية من الخير فما تركت هذه الريح شيئًا مرت عليه إلا جعلته محطمًا مفتتًا.

وفى ثمود وما حصل لهم أيضًا عبرة حين قال لهم ربهم: آمنوا بالله وتمتعوا بخيرات الدنيا إلى حين انتهاء آجالكم كما قال نوح لقومه فى الآية (٤) من سورة نوح صفحتى ٧٦٧، ٧٦٨ وتجاوزوا الحد فى الطغيان، وخرجوا عن أمر ربهم بترك الناقة وعدم إيذائها فعقروها. عند ذلك أنذرهم نبيهم صالح عليه السلام بأن العذاب سينزل بهم بعد ثلاثة أيام، انظر الآيات (٦٤ إلى ٦٧) من سورة هود صفحة ٢٩٤ .

وبعد مضى ثلاثة أيام نزل بهم العذاب فأهلكهم وهم ينظرونه قادما عليهم زيادة فى النكاية بهم. فلم يستطع واحد منهم أن يقوم من مصرعه بنفسه وما نصرهم غيرهم على الخلاص من الهلاك.

وأهلكنا قوم نوح من قبل إهلاكنا هذه الأمم لأنهم كانوا قوما خارجين على أوامر ربهم بالكفر والاستهزاء برسولهم، انظر الآية (٣٨) من سورة هود صفحة ٢٨٩ .

ثم أراد سبحانه أن يبرهن على أنه وحده القادر على كل شيء فلا يصح أن يعبد سواه ولا أن تنكر قدرته على البعث فقال: والسماء... إلخ. أى بنينا السماء بقوة وإنا لقادرون على خلق أكبر منها. وفرشنا الأرض وجعلناها كالمهاد. فنعم الماهدون نحن. ومن كل شيء من الحيوان والنبات خلقنا ذكرا وأنثى ليبقى النوع ولتتذكروا بكل ذلك فتتنبهوا إلى أن صانع ذلك واحد قادر. وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم أيها النبى فروا من معاصى ربكم إلى طاعته. إنى محذر لكم من العذاب. واضح التحذير لمَنْ لم يلجأ إلى طاعة ربه.

ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ولا تجعلوا مع الله إلها آخر تلجأون إليه. ثم أكد أنه محذر واضح التحذير وكان التحذير الأول فى مقام الأمر بما يجب، والثانى فى مقام النهى عما لا يجوز. والمقصود المبالغة فى النصيحة.

ثم خفف سبحانه الأمر على نبيه ﷺ . فقال: (كذلك ما أتى) ... إلخ. أى حال أمتك أيها النبى كحال تلك الأمم السابقة، ثم بيَّن ذلك بقوله: ما أتى الذين من قبلهم. أى قبل كفار مكة رسول إلا قال بعضهم عنه أنه ساحر، وقال بعضهم إنه مجنون. هل وصى هؤلاء بعضهم بعضا فيما يقال للرسل؟ لا، بل الذى جمعهم على هذا الجرم هو الطغيان، فكانت النتيجة عند الجميع واحدة.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ[1] فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٢) سُورَةُ الطُّورِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ[2] مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾

المفردات: ﴿فتول عنهم﴾: أى فأعرض عن مجادلتهم لأنهم مكابرون.

﴿إلا ليعبدون﴾: أى ليعبدونى وحدى، ولا يطيعوا غيرى إذا بلغوا سن التكليف؛ انظر الآية (٥) من سورة البينة صفحة ٨١٦، والمراد من العبادة طاعته سبحانه فى كل ما يأمر به نبيه الامتثال من العبد الخاضع لمولاه، وبهذا يدخل كل عمل قاموا به تقربا إلى ربهم حتى السعى على عيالهم.

﴿المتين﴾: أى شديد القوة فهو تأكيد لما قبله.

﴿الذين ظلموا﴾: المراد بهم كفار مكة.

﴿ذنوبا﴾: أصل الذنوب الدلو العظيم الممتلئ ماء والمراد به هنا: النصيب من العذاب؛ لأن السقائين يقسمون به الماء فيأخذ كل واحد نصيبه، وفيه إشارة إلى أن العذاب سيصب عليهم كما يصب الماء. انظر الآية (١٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ .

﴿أصحابهم﴾: المراد بهم كفار الأمم السابقة.

﴿فلا يستعجلون﴾: أى فلا يطلبون منه سبحانه أن يعجل لهم العذاب، وكانوا يستعجلونه استهزاء عادتهم، انظر الآية (٥٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨ والآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩ والآية (١٤) من سورة الطور صفحة ٦٩٧ .

﴿ويل﴾: كلمة يراد بها الدعاء عليهم بالهلاك.

﴿يومهم﴾: أى يوم نزول العذاب بهم فى الدنيا أو الآخرة.

﴿يوعدون﴾: أى يعدهم الله بالعذاب فيه.

---

(١) أصحابهم. (٢) كتاب.

المعنى: وبما أنك أيها النبى قمت بالواجب عليك ولم يسمعوا فأعرض عن مجادلتهم لأنهم مكابرون لا ينفع فيهم جدل. ولن يلومك أحد على ذلك. واستمر فى موعظة المستعد للإيمان. ثم بيَّن سبحانه سبب أمره لنبيه بدوام التذكير، وأنه لتحقيق حكمة خلق الجن والأنس فقال: (وما خلقت)... إلخ. قال على بن أبى طالب و ابن عباس رضى الله عنهما معناها: وما خلقتهم إلا لآمرهم بعبادتى وحدى ولا يطيعوا إلا أمرى إذا بلغوا سن التكليف. ثم بيَّن سبحانه أنه غنى عن العالمين فليس كالملوك الذين يحتاجون إلى مَنْ يحصل لهم الرزق. ومَنْ يعد لهم الطعام، فقال: (ما أريد منهم).... إلخ. أى لا أريد من أحد من خلقى رزقا، ولا أن يهيئ لى طعاما. وقل أيها النبى لأمتك إن الله هو الرزاق لكل ما عداه. أى فليس محتاجًا لرزق. وهو سبحانه صاحب القدرة شديدة القوة فلا يحتاج إلى غيره. ثم هدد كفار مكة بقوله: (فإن للذين ظلموا)... إلخ. أى وإذا علمت أيها السامع ما حصل للكفار من الأمم السابقة من عاد وثمود وغيرهم فاعلم أن للظالمين من كفار قريش الذين عملوا عملهم نصيبا من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السابقة.

وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم أيها النبى لا تستعجلوا هذا العذاب استهزاء بمثل ما فى الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ والآية (١٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤١ .

فهلاك عظيم لهؤلاء الكفرة من مجئ يومهم الذى توعدهم الله تعالى فيه بالعذاب فإنه لا ينجيهم منه أحد.

سورة الطور

المفردات: ﴿والطور﴾: هو الجبل الذى كلم الله سبحانه وتعالى عليه موسى عليه السلام، انظر آيات (٢٩) وما بعدها من سورة القصص صفحتى ٥١١،٥١٠ . ولا تنس ما تقدم فى القسم فى شرح الآية (١) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ .

﴿وكتاب مسطور﴾: قال أبو السعود: الأنسب بالطور أن يراد بالكتاب هنا ألواح موسى التى سطرت فيها. أى كتبت التوراة. انظر الآية (١٤٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٥،٢١٤ .

﴿فى رق﴾: أصل الرق الجلد الرقيق الذى يكتب عليه. وقد أريد به هنا كل ما يكتب عليه من الصحف وتنكيره للإشعار بأنه ليس مما يتعارفه الناس. فهو عجيب فى صنعه.

المعنى: يقول سبحانه وتعالى: أقسم بالطور لما حصل عليه من العبر. وبكتاب مدون ما فيه فى جلد رقيق مبسوط غير مطوى. انظر الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ . والمراد أنه يستهل على كل مكلف معرفة ما فيه من الأحكام.

وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ
الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ[1] ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن
دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾
هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا
أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ[2] وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ[3] بِمَا آتَاهُمْ[4]
رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ[5] رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ
وَزَوَّجْنَاهُم[6] بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا[7] وَاتَّبَعَتْهُمْ

المفردات: ﴿البيت المعمور﴾: هو الكعبة، المعمورة بالحجاج والمعتمرين.

﴿السقف المرفوع﴾: هو السماء، انظر الآية (٣٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣ .

﴿البحر المسجور﴾: أى المتقد نارا، انظر الآية (٦) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤، وفى ذلك تنبيه للغافلين لخطر ذلك اليوم.

﴿عذاب ربك﴾: المراد: عذاب يوم القيامة. بدليل ما بعده.

﴿تمور السماء﴾: أى تتحرك وتضطرب مقدمة لتشققها، انظر الآية (١) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩ .

﴿تسير الجبال﴾: أى قبيل نسفها، انظر بيان ذلك فى الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ وانظر معها الآية (١٠٥) من سورة طه صفحة ٤١٦ .

﴿فى خوض يلعبون﴾: انظر أصل معنى الخوض فى الآية (٨٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ ، والمراد: يشغلون أوقاتهم فى الطعن فى الرسول والقرآن وكل ما لايفيد كالأطفال. انظر ما تقدم فى شرح الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣ .

﴿يدعون﴾: أى تدفعهم الملائكة بعنف وشدة فيسقطون على وجوههم؛ انظر الآية (٩٠) من سورة النمل صفحة ٥٠٥ .

﴿أفسحر هذا﴾: الاستفهام للتوبيخ، تقوله لهم الملائكة. ﴿وهذا﴾: إشارة للعذاب الذى شاهدوه يوم القيامة.

---

(١) لواقع. (٢) جنات. (٣) فاكهين. (٤) آتاهم.
(٥) وقاهم. (٦) زوجناهم. (٧) آمنوا.

﴿اصلوها﴾: أى ادخلوا النار وقاسوا شدة حرارتها.

﴿فاصبروا أو لا تصبروا﴾: أى لاينفعكم فى دفع العذاب صبر ولا ضجر؛ انظر الآية (٢٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣ .

﴿فاكهين﴾: أى متنعمين متلذذين، كما تقدم فى الآية (٥٥) من سورة يس صفحة ٥٨٤ .

﴿حورعين﴾: تقدم بيانها فى الآية (٥٤) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩ .

المعنى: يقول سبحانه أقسم بالبيت المعمور بالعباد. وبالسماء المرفوعة بلا عماد.. وبالبحر الممتلئ نارا، إن عذاب ربك أيها النبى لهؤلاء الكفار لواقع، يوم تهتز السماء ثم تتشقق وتفنى لتحل محلها سماء غيرها. انظر الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧ .

وتسير الجبال سيرا، ثم تكون هباء. وإذا كان هذا سيحصل قطعًا فهلاك شديد يومئذ للمكذبين لكلام ربهم ورسله. الذين هم فى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب حال كونهم يلعبون ويتشاغلون عن الحق كما يفعل الأطفال. الويل لهم يوم يدفعون بعنف إلى نار جهنم دفعًا شديدًا. وتقول لهم الزبانية تبكيتًا وتوبيخًا. هذه هى النار التى كنتم فى الدنيا تهتمون بتكذيبها لصد الناس عن الإيمان. وإذا كنتم فى الدنيا تقولون فى القرآن الذى حذركم من هذا العذاب أنه سحر فهل هذا العذاب الذى أنتم فيه الآن سحر أيضًا؟ أم أنتم اليوم عمى لاتبصرون. قاسوا شدائد هذه النار. وإذا كان هذا لابد منه. فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم الصبر وعدمه فى عدم الفائدة: لأن اللَّه تعالى لم يجازكم إلا بنتيجة أعمالكم. وبعدما بيَّن سبحانه جزاء الكافرين شرع فى بيان جزاء المؤمنين ليتميز أصحاب اليمين من أصحاب الشمال فقال: إن المتقين فى جنات ونعيم متلذذين بما أعطاهم ربهم من النعيم. ووقاهم قبل ذلك عذاب الجحيم. وتقول لهم الملائكة كلوا واشربوا أكلا وشربا هنيئًا أى ممتعًا لا تنغيص معه جزاء أعمالكم الصالحة. يكونون فى الجنات حال كونهم متكئين على فرش من الحرير فوق سُرر منظمة كما يفعل الملوك. لا يشغلهم عن النعيم شىء، انظر الآية (٥٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١، وزوجناهم أبكارا حسان العيون، انظر الآية (٥٦) من سورة الرحمن أيضًا صفحة ٧١٢ والآية (٣٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥ . وبعدما بيَّن سبحانه جزاء المؤمنين المادى بيَّن جزاءهم المعنوى فقال: (والذين آمنوا واتبعتهم).... إلخ.

ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ[1] أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم[2] مِّنْ
عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾
وَأَمْدَدْنَٰهُم[3] بِفَٰكِهَةٍ[4] وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ[5]
فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا
مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا[6] عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ
فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ[7] رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ
يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ
تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَحْلَٰمُهُم[8] بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ

المفردات: ﴿ألحقنا بهم ذريتهم...﴾: إلخ أي في دخول الجنة بحيث يرونهم ويجتمعون بهم، ليزداد سرورهم بشرط أن يكونوا صالحين.

﴿بإيمان﴾: الباء للسببية تدل على أن ما بعدها سبب فيما قبلها، أي وجرى ذريتهم على طريق آبائهم بسبب اتفاقهم معهم في الإيمان.

﴿ما ألتناهم﴾: ألت فلان الشيء يألته بوزن ضربه يضربه إذا نقصه، أي ما نقصناهم.

﴿من شيء﴾: ﴿من﴾: لتأكيد عموم نفي ما بعدها.

﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾: ﴿امرئ﴾: هنا مقيد بقيد مفهوم من آية أخرى وهذا القيد هو لفظ ﴿كافر﴾ أي كل امرئ كافر محبوس في سقر، بسبب كسبه الخبيث.. وهذا القيد مفهوم من الآية (٣٨) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧٧، وهذا أسلوب معهود في القرآن، يحذف بعض الألفاظ اعتمادًا على ذكره في آية أخرى، وإنما قلنا ذلك لأن مادة الرهن تفيد معنى الحبس وفاعل الخير لا يناسب أنه يعبر في جانبه بالحبس بل يعبر في جانبه بأن له (كذا) وفاعل الشر يعبر في جانبه أيضًا بأن عليه (كذا) انظر الآية (٢٨٦) من سورة البقرة صفحة ٦٢ والآية (١١١) من سورة النساء صفحة ١٢١ والآية (٤٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٦، والآية (٤٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، والآية (١٥) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٢. ويكون ذكر هذا التذييل لتهديد الكافر من بعد تبشير المؤمنين كما هي عادة القرآن في إتباع

(١) بإيمان. (٢) التناهم. (٣) أمددناهم (٤) بفاكهة
(٥) يتنازعون. (٦) ووقانا (٧) بنعمة (٨) أحلامهم.

الترغيب بالترهيب والعكس حسب المقامات، انظر تفسير الراغب في مادة (رهن).

﴿أمددناهم﴾: أي زدناهم.

﴿يتنازعون فيها﴾: أي يتجاذبون في الجنة الكئوس، كل من يد صاحبه تلذذا وتأنسًا.

﴿لا لغو فيها﴾: أي لا يصاحب شربها لغو كما في خمر الدنيا.

﴿ولا تأثيم﴾: أي ولا عمل يوجب إثما كضرب أو شتم.

﴿غلمان﴾: يخلقهم الله في الجنة كما يخلق الحور العين، يطوفون عليهم بما في الآية (٧١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤ وآيات (١٧، ١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

﴿مكنون﴾: أي محفوظ في صدفه لم يطرأ عليه ما يغير صفاءه.

﴿يتساءلون﴾: أي يسأل بعضهم بعضا عما كانوا عليه في الدنيا. وما صاروا إليه في الآخرة تساؤل تلذذ. واعتراف بفضل الله.

﴿في أهلنا﴾: المراد: في حال وجودنا بين أهلنا في الدنيا واعتزازنا بهم كنا نخاف الله. ولم نعتز بقوة الأهل.

﴿مشفقين﴾: أي خائفين من عذاب الله يوم القيامة. انظر الآية (٤٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥. والآية (٢٧) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦.

﴿السموم﴾: هو لهب النار الخالص من الدخان. انظر الآية (٢٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠.

﴿البر﴾: هو عظيم الإحسان. صادق الوعد.

﴿بنعمة ربك﴾: الباء للسببية كالسابقة في الآية (٢١). وهي متعلقة بالنفي المفهوم من ما. والمعنى: انتفت عنك الكهانة والجنون بسبب فضل ربك عليك. كما تقول ما أنا محتاج بفضل ربي علي. ونظيرها في الآية (٢) من سورة القلم صفحتي ٧٥٧، ٧٥٨.

﴿بكاهن﴾: الباء لتأكيد نفي ما بعدها عما قبلها. والكاهن هو الذي يدعى علم الغيب.

﴿أم يقولون﴾: ﴿أم﴾ تقدم معناها فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿نتربص به﴾: أى ننتظر به.

﴿ريب المنون﴾: أصل (الريب) الشك، انظر الآية (٢٣) من سورة البقرة صفحة ٦ والمراد به هنا: المشكوك فيه، فإضافته للمنون من إضافة الصفة للموصوف، كما فى قوله: (حسن ثواب) فى الآية (١٤٨) من سورة آل عمران صفحتى ٨٧، ٨٨ . وقد يطلقون ﴿ريب المنون﴾ على حوادث الدهر.

﴿والمنون﴾: هو الموت لأنه يقطع الحياة، انظر أصل المادة فى الآية (٨) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠ فالمراد الموت المشكوك فى وقته لا فى حصوله لأنه مقطوع به. وإنما المجهول للإنسان هو الوقت.

﴿أم تأمرهم﴾: ﴿أم﴾ كسابقتها والاستفهام فيها للإنكار والتوبيخ، وتأمرهم كناية عن توصيلهم إليه كأن لها سلطان عليهم يطاع.

﴿أحلامهم﴾: أى عقولهم جمع حلم بكسر فسكون، وهو يطلق على العقل وعلى التأنى وعدم الغضب.

﴿أم هم﴾: ﴿أم﴾: هنا بمعنى بل التى تفيد إبطال سابقها وإثبات لاحقها. ﴿طاغون﴾: أى متجاوزون الحد فى الطغيان عنادًا.

المعنى: مَنْ يرجع إلى شرح الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥ والآية (٨) من سورة غافر صفحة ٦١٨ يعلم أن المراد هنا أن الذين آمنوا واتفقت معهمً ذريتهم فى الإيمان، جمعناهم مع ذريتهم فى الجنة ليتم للجميع السرور. ويكمل النعيم بمؤانسة الأحباب ومصاحبة المتجانسين فى الصفات. ولا يلزم من ذلك أن يكونوا فى درجة واحدة، انظر شرح الآية (٦٩) من سورة النساء صفحة ١١٢ . وإنما اخترنا ذلك مع كثرة القائلين بخلافه لأدلة كثيرة منها ما يفيد أنه ليس للإنسان فى الآخرة إلا جزاء عمله، انظر الآية (٢٨٦) من سورة البقرة صفحة ٦٢ ، والآية (٤٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٦، والآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤، والآية (٥٤) من سورة يس صفحة ٥٨٤ والآية (١٧) من سورة غافر صفحة ٦١٩ والآية (٤٦)

من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، والآية (٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، وأيضًا فلا يستطيع أحد أن يحمل شيئًا من ذنوب غيره، انظر الآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤، وأيضًا قوله ﷺ: يا فاطمة بنت محمَّد اعملى لنفسك لا أغنى عنك من اللَّه شيئًا. ومن الأدلة ما يفيد أن أهل الجنة تتفاوت درجاتهم فيها بتفاوت أعمالهم. حتى الأنبياء عليهم السلام، انظر الآية (٢٥٣) من سورة البقرة صفحتى ٥٢، ٥٣ والآيتين (٩٥، ٩٦) من سورة النساء صفحة ١١٨ والآية (٧) وما بعدها من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣،٧١٤ والآية (١٠) من سورة الحديد صفحتى ٧١٩، ٧٢٠ ، وأيضًا قوله ﷺ: (تدخلون الجنة بفضل اللَّه وتقتسمونها بأعمالكم)، وقوله: (اللَّه اللَّه فى أصحابى لو أنفق رجل فى وجوه الخير مثل جبل أحد ذهبًا ما بلغ جزاؤه مثل جزاء أحدهم). وأيضًا لو تساوى الأبناء بدرجات الآباء فى الجنة لكان جميع مَنْ آمن بالأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام من اليهود والنصارى والمسلمين كلهم فى درجة الخليل إبراهيم عليه السلام، وكذا يقال فى غيره حتى خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام فتكون جميع ذريته من فاطمة رضى اللَّه عنها فى درجته هو ﷺ، ولا أظن أحدًا يجرؤ على القول بذلك. ومقامه ﷺ فى الجنة فوق كل مقام، بل يلزم أن يكون كل أهل الجنة فى درجة واحدة من عهد آدم حتى تقوم الساعة؛ لأن كل شخص له والد وولد وزوجة، فالوالد يريد أن يكون مع ولده، وأبو الوالد يريد أن يكون مع ابنه الذى هو والد هذا الولد، والزوج يريد أن تكون معه زوجته وأبوها يريدها معه، وهكذا يتشابك العالم يجر كل فرد مَنْ فوقه من آبائه ومَنْ تحته من ذريته... إلخ. فتأمل بعقلك! أما كيف يتم سرور الآباء بمشاهدة الأبناء فى جنة عرضها السموات والأرض كما تقدم فى الآية (١٣٣) من سورة آل عمران صفحة ٨٤ فهذا شىء يسير على قدرة اللَّه تعالى. خصوصًا، وقد توصل الإنسان الضعيف فى هذا العصر إلى اكتشاف ما يجعل الإنسان يكلم ويرى غيره وكل منهما فى طرف من أطراف الأرض بواسطة مايسمى (التليفزيون). وإنما أطلنا فى هذا المقام لأنك لا تكاد تجد مفسرا إلا قال بمساواة الذرية بالآباء فى درجات الجنة. وهذا ما رأيت بطلانه. واللَّه تعالى أعلم. ولهذا البحث بقية ستأتى فى شرح الآية (٣٩) من سورة النجم صفحة ٧٠٣، ومعنى قوله تعالى: (وما ألتناهم)... إلخ. أنا لا ننقص الآباء شيئًا من أجورهم نظير تمتعهم بوجود أبنائهم معهم فى الجنة.

وبعدما بيَّن سبحانه حال المتقين أتبع ذلك ببيان أن المتقين خلصوا أنفسهم من العذاب، وغيرهم بقى محبوسًا بذنبه فى عذاب جهنم فقال: كل امرئ بما كسب رهين. قال ابن عباس: ارتهن أهل جهنم فى النار بأعمالهم. وصار أهل الجنة إلى نعيمهم. ثم بيَّن سبحانه فضلاً آخر على المتقين فقال: وأمددناهم... إلخ. أى زدنا أهل الجنة على ما عندهم من نعيم وسرور فاكهة ولحما مما يشتهون حال كونهم يتجاذبون فى الجنة وأحبابهم تجاذب سرور ـ كأسا لايلغوا شاربها بساقط القول، ولا يفعل ما يعاب عليه مثل ما كان يفعل شارب خمر الدنيا. ويطوف عليهم بالطعام والفاكهة والشراب خدم مخصصون لهم فى غاية الجمال. ولما استقروا فى الجنة وأنسوا سأل بعضهم بعضًا عما كانوا عليه فى الدنيا، وما صاروا إليه فى الآخرة سؤال تلذذ واعتراف بفضل الله، قال فريق منهم: إنا كنا فى الدنيا بين أهلنا نخاف الله ونخشى عقابه فمنَّ الله علينا بالرحمة والتوفيق، وحفظنا من أقل أنواع العذاب، لأنا كنا فى الدنيا نعبده وحده، فتفضل علينا لأنه واسع الإحسان كثير الرحمة، ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ بما ينبغى فقال: (فذكر)... إلخ. أى وإذا كان هذا هو الذى سيحصل فداوم أيها النبى على ما أنت عليه من تذكير المستعدين للخير بما أنزله عليك ربك من الذكر الحكيم، ولا تبال بما يقول المشركون فيك من الباطل، فما أنت بكاهن ولا مجنون، بسبب ما أنعم الله به عليك من العقل الراجح والنبوءة الحقة، ثم وبخ سبحانه كفار مكة وتهكم بباطلهم فى نحو ثلاثة عشر موضعًا فقال: (أم يقولون شاعر).. إلخ. أى بل هل يقول المجرمون عن هذا النبى الكريم إنه شاعر يؤثر فى الناس بزخرف القول فلننتظر به الموت الذى يريحنا منه كما أراحنا من كثير من الشعراء غيره الذين جمعوا الناس حولهم، قل لهم أيها النبى انتظروا ما تزعمون أنه يريحكم، فإنى أنا أيضًا منتظر ما سيحصل لكم مما يسوءكم ويسرنى.

ثم انتقل سبحانه إلى تسفيه لهم آخر فقال: (أم تأمرهم).. إلخ. أى بل هل عقولهم هى التى تقودهم إلى هذا القول المتناقض فإن الكاهن والشاعر يكونان أصحاب عقل وفطنة ويقظة. والمجنون مختل العقل والتفكير. فهم فى قولهم هذا فى حيرة واضطراب عقل حيث كذبوا أنفسهم من حيث لا يشعرون. وهذا هو شأن المبطل دائمًا. وليس كل هذا منهم حق بل هم قوم تجاوزوا الحد فى المكابرة والعناد. ثم انتقل سبحانه إلى تسفيه آخر فقال: (أم يقولون تقوله)... إلخ.

تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن
كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ
ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل
لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
ٱلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ
ٱلْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠)
أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا
فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ

المفردات: ﴿تقوله﴾: أى اختلق القرآن من عند نفسه ونسبه لله تعالى، إنهم لشدة كفرهم وعنادهم، يرمونه ﷺ بهذه الأباطيل، وكيف لا يكون هذا منهم افتراءً مقصودًا وهم جميعًا يعلمون أنه ﷺ من العرب مثلهم، وكانوا أكثر منه خطابة وشعرًا. ولو كان محمد قال هذا من عند نفسه لكنتم أيها المفترون أقدر منه عليه، والدليل على بطلان ما تقولون أنكم عجزتم عن أقصر سورة منه، وهذا هو المراد من قوله تعالى:

﴿لا يؤمنون﴾: أى إنهم يعلمون أنهم غير قادرين.

﴿بل﴾: حرف يدل على إبطال ما قبله وإثبات ما بعده.

﴿بحديث﴾... إلخ. المراد بقرآن كهذا. انظر الآية (٣٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٢. والآية (١٣) من سورة هود صفحة ٢٨٥ والآية (١١١) من سورة يوسف صفحتى ٣١٩، ٣٢٠. والآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿من غير شىء﴾: أى من غير خالق قديم. انظر الآية (١٩) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٤، ١٦٥ والآية (٨٨) من سورة القصص صفحة ٥٢٠ تجد أن الله سبحانه يطلق عليه ﴿شىء﴾: لأن الشىء فى لغة العرب هو الموجود.

﴿أم هم الخالقون﴾: أى لأنفسهم. وهذا باطل باعترافهم. انظر الآية (٨٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥.

(١) صادقين. (٢) الخالقون. (٣) السموات.
(٤) المسيطرون. (٥) بسلطان. (٦) البنات.
(٧) تسألهم. (٨) سبحان. (٩) يلاقوا.

﴿يستمعون فيه﴾: فى هنا بمعنى (على) كما فى الآية (٧١) من سورة طه صفحة ٤١٢ .

﴿سلطان﴾: أى حجة، وبرهان ظاهر. ﴿له البنات﴾: الضمير فى ﴿له﴾ راجع إليه تعالى، انظر افتراءهم هذا فى الآية (١٧) وما بعدها من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩ .

﴿مغرم﴾: هذا اللفظ يسميه علماء العربية (مصدرًا ميميًا) معناه الغرامة.

﴿مثقلون﴾: أى محملون ما يثقل كواهلهم فيصعب عليهم أداؤه.

﴿فهم يكتبون﴾: أى منه للناس ما يزعمونه مطلوبًا منهم من عبادة غيره تعالى.

﴿يريدون كيدًا﴾: إشارة إلى ما دبروه فى الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، وفى هذا إخبار بما سيكون منهم لأن هذا الكيد حصل قبل الهجرة مباشرة وسورة الطور هذه نزلت قبل ذلك.

﴿كسفا﴾: جمع كسفة وهى القطعة وزنًا، ومعنى، انظر الآية (٩٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧ . ﴿مركوم﴾: المراد: ملىء بالمطر، انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥ .

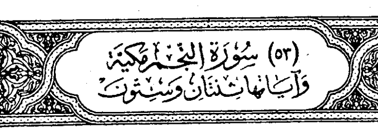
﴿يصعقون﴾: الصعق هو الموت قتلاً أو الإغماء. والمراد هنا القتل بالحرب، كما حصل يوم بدر وغيره، وقد يكون بغير الحرب، والمعنى يقتلون، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ .

المعنى: هل يقول هؤلاء المشركون أن محمدًا افترى القرآن على الله كلا. هم لا يعتقدون ذلك من صميم قلوبهم؛ لأنهم يعرفون أن محمدًا واحد منهم، وتربى بينهم، ولم يشتهر بالخطابة والشعر كما اشتهر كثير منهم، ومع ذلك عجز عن الإتيان بمثل القرآن فحولهم، فالحامل لهم على قولهم هذا إنما هو كفرهم الناتج عن العناد، انظر الآية (٢٣) من سورة البقرة صفحة ٦ . ولذا قال تعالى: (فليأتوا)... إلخ. أى إذا كان البشر يستطيع الإتيان بكلام مثل القرآن فليأتوا هم بمثله إن كانوا صادقين فى قولهم: إن محمدًا جاء به من نفسه، انظر الآية (٩٣) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٧، ١٧٨ .

ثم انتقل سبحانه إلى توبيخ آخر فقال: (أم خلقوا).. إلخ. أى هل وجدوا على هذا الخلق البديع من غير خالق حكيم فلهذا لم يوحدوه ولم يلتفتوا إلى رسوله. أم هم الذين خلقوا أنفسهم فلا يحتاجون لأحد؟. كل هذا مستحيل بدليل اعترافهم هم أنفسهم، انظر الآية (٨٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ . بل هل خلقوا السموات والأرض فلذلك يتكبرون على

رسولنا؟ كلا باعترافهم هم أنفسهم، انظر الآية (٣٨) من سورة الزمر صفحة ٦١١ . ولذا قال سبحانه: بل لا يوقنون. أى هم لا يعتقدون ذلك من صميم قلوبهم. وإذا كانوا يعتقدون ذلك فلماذا لم يفردوه سبحانه بالعبادة. بل هل عند كفار قومك أيها النبى خزائن رحمة ربك حتى يعطوا النبوة لمَنْ يشاءون. ويمنعونها عمَّنْ يشاءون؟. أم هم المسلطون على هذا العالم القاهرون له حتى يدبروا أموره على مايريدون ولا محاسب لهم على تصرفاتهم؟. بل هل لهم سلم منصوب إلى السماء يستمعون وهم صاعدون فيه كلاما من الله يأمرهم بما يفعلون؟، إذا كان ذلك واقعًا فليأت مستمعهم بحجة واضحة تدل على صدق سماعه. وهذا تسفيه وتقريع. ثم بالغ فى تسفيههم بجعلهم كالمجانين عندما قالوا نعبد الملائكة لأنها بنات الله. فقال سبحانه: (أم له البنات)... إلخ. أى بل هل خص الله سبحانه نفسه بالبنات اللاتى تحتقرونها وخصكم أنتم بالبنين الذين تفخرون بهم؟ ثم أعرض عن خطابهم احتقارا لهم. ووجه الخطاب له ﷺ فقال: (أم تسألهم)... إلخ. أى بل هل سألتهم أجرًا على تبليغ الرسالة فهم من التزام الغرامة فى مشقة تجعل اتباعك صعبًا عليهم. ثم وبخهم توبيخًا آخر فقال: (أم عندهم الغيب)... إلخ. أى بل هل علم الغيب عندهم فهم يكتبون منه للناس ما يزعمونه مطلوبًا منهم من عبادة غيره تعالى. وغير ذلك من الجرائم، بل هل يريدون بك أيها النبى كيدًا من قتل وغيره؟، إذا فكروا فى ذلك فليعلموا أنهم وهم الكافرون بربهم هم المكيدون أى المغلوبون، وقد حصل وقتلوا وأسروا فى بدر كما تقدم فى سورة الأنفال. ثم ختم توبيخهم بما هو كالنتيجة لكل ما تقدم فقال: (أم لهم إله)... إلخ. أى بل هل لهؤلاء الكافرين إله غير الله يعينهم ويمنع عنهم عذابه. قل أيها النبى أنت والمؤمنون معك تنزه الله ربنا عما يزعمونه شريكًا له فى تصريف الكون. وبعدما سفه سبحانه عقولهم بصور شتى ونبههم لمكان الخطأ الواضح أراد أن يبين أنهم قوم معاندون مكابرون حتى فى المحسوسات فضلاً عن المعقولات. فقال سبحانه: (وإن يروا)... إلخ. أى فلو رأى هؤلاء بعض ما طلبوه من العذاب استهزاءً، كما فى الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧، لكذبوك وقالوا ما نراه ما هو إلا سحاب ملآن بالمطر. ولا يؤمنون أبدا كما فى آيتى (١٤، ١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩ . وهذا شأن الكفار قبلهم كما فى الآية (٢٤) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠ . وإذا كان هذا حالهم فأعرض عنهم أيها النبى ولا تبال بهم، وأرح نفسك منهم حتى يلاقوا يومهم الذى يصعقهم الله تعالى فيه بالقتل وقد حصل فى بدر وغيرها وفى هذا اليوم لا ينفعهم كيدهم شيئًا.

كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾



(٥٣) سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَسِتُّونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ

المفردات: ﴿دون ذلك﴾: أى قبل العذاب المشار إليه فيما سبق وهو (الصعق).

﴿أكثرهم﴾: انظر المراد من ذلك فى الآية (٤٢) من سورة الروم صفحة ٥٣٦ .

﴿بأعيننا﴾: يقال هنا ما قيل فى ﴿أيد﴾ فى الآية (٤٧) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥ . والذى نفهمه هنا أنه ﷺ تحت رعاية ربه دائمًا. انظر الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩ .

﴿وسبح بحمد ربك﴾.. إلخ: المعنى: نزه ربك عما لا يليق به حامدًا له على نعمه عليك. تفعل ذلك حين تستيقظ من النوم وكذا تنفل فى الليل.

﴿وإدبار النجوم﴾: إدبار أى ذهاب. والمراد: حين ذهاب ضوئها بظهور ضوء الصبح.

المعنى: يوم يصعق الله هؤلاء الكفار لا ينفعهم كيدهم شيئًا من النفع ولو قليلا. ولا يجدون مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم. وإن لهؤلاء الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى عذابًا قبل عذاب بدر وما بعدها وهو عذاب القحط المتقدم فى الآية (١٠) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧. ولكن أكثرهم لا يعلمون ما أعد لهم من العذاب.

واصبر أيها النبى على أذاهم ولا تبال بهم وامض لأمر ربك. وبلغ ما أرسلت به فإنك تحت رعايتنا. وكن دائمًا مرتبطًا بربك فسبحه عند قيامك من النوم أو من المجلس لأى عمل من صلاة أو غيرها.

---

(١) الليل.
(٢) إدبار.

وقد صح فى الحديث أنه ﷺ كان يقول عند قيامه من المجلس: (سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك). وقال: إن ذلك كفارة لما يحصل فى المجلس من اللغو؛ وكان يقول عند القيام للصلاة: (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك).

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ كان عند قيامه من النوم يكبر عشرا ويحمد عشرًا ويهلل عشرًا ويستغفر عشرًا، وإذا فرغ من الصلاة كان يسبح ويحمد ويكبر ثلاثًا وثلاثين. كل ذلك منه ﷺ امتثالاً لأمر ربه فيما سبق.

وفى قوله تعالى: (ومن الليل).. إلخ. أى وسبح ربك فى جزء من الليل، انظر الآية (١) وما بعدها من سورة المزمل صفحة ٧٧٣ . وسبحه كذلك عند ذهاب نور النجوم بدخول الصبح. اللهم وفقنا بفضلك وكرمك للعمل بسنة رسولك فى طاعة أمرك. إنك سبحانك نعم المجيب.

سورة النجم

المفردات: . ﴿والنجم﴾ انظر ما تقدم فى شرح الآية الأولى من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، والمراد هنا جنس النجم فيشمل كل النجوم.

﴿هوى﴾: أى سقط، وذهب ضوءه يوم القيامة، انظر الآية (٢) من سورة التكوير صفحة ٧٩٣ والآية (٢) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥ . ﴿ما ضل﴾: أى ما أخطأ الطريق المستقيم.

﴿صاحبكم﴾: يريد به النبى ﷺ، وفى هذا التعبير توبيخ لهم حيث أنكروا صدقه مع علمهم بصدقه؛ لأنه عاش بينهم مدة طويلة ولم يجربوا عليه كذبة واحدة، انظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ . ﴿وما غوى﴾: المراد: وما اعتقد باطلا، انظر الآية (١٢١) من سورة طه صفحتى ٤١٧، ٤١٨ .

﴿وما ينطق﴾: أى بالقرآن. ﴿عن الهوى﴾: أى بشهوة فى نفسه.

﴿إن هو﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾ و﴿هو﴾ أى القرآن.

﴿علمه﴾: المراد هنا علمه ما سيأتى من أول سورة المدثر كما سيأتى فى سورة المدثر صفحة ٧٧٥، وأما أول شىء علمه له فهو الآيات الأولى من سورة العلق صفحة ٨١٤ .

﴿شديد القوى﴾: هو جبريل عليه السلام.

﴿ذو مرة﴾: أى دقة، وحصافة، فلا يخطئ أبدا.

﴿فاستوى﴾: أى ظهر جبريل مستويا على صورته الحقيقة التى خلقه الله سبحانه عليها بأجنحته التى تملأ الأفق، انظر الآية الأولى من سورة فاطر صفحة ٥٧١ .

﴿الأفق﴾: أصل معنى الأفق الجهة، والمراد هنا: الجهة العليا للناظر إلى جهة السماء.

إما إطلاق علماء الهيئة الأفق على جانب السماء القريب (فى نظر الرائى) من الأرض فهو اصطلاح خاص بهم.

﴿دنا﴾: أى قرب منه ﷺ . ﴿فتدلى﴾: أى بالغ فى قربه منه ﷺ.

﴿قاب﴾: أى مقدار.

المعنى: أقسم سبحانه بالنجوم إذا تساقطت، واندثرت يوم القيامة لتخويفهم بأنه حاصل ولابد. فيجب أن يحذروه ولا ينكروه ولا يكذبوا الرسول الذى جاء به.

ولهذا المعنى كرر سبحانه القسم بيوم القيامة. انظر الآية (٧٥) من سورة الواقعة والآية الأولى من سورة القيامة صفحة ٧٧٨ والآية (٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٠ . أقسم سبحانه بذلك على أن محمدًا الذى صاحبتموه مدة طويلة وعرفتم صدقه ما ضل عن طريق الصواب وما اعتقد باطلا أبدًا. انظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ والآية (٤٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧. وما ينطق فيما أتاكم به من القرآن عن هوى نفسه وشهوته. فما الذى ينطق به من القرآن إلا وحى من الله يوحيه سبحانه إليه. علمه إياه جبريل. شديد القوى. وصاحب فطنة قوية بعدما علمه أول ما علمه قبل ذلك قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ما لم يعلم﴾ صفحة ٨١٤. ثم انقطع عنه الوحى مدة ثلاث سنين حتى اشتد حزنه ﷺ. وتطلعت نفسه إلى رؤية جبريل. فظهر له يومًا فى جهة السماء سادًا كل الأفق بأجنحته. ثم دنا من النبى ﷺ وقرب حتى كاد يمسه. فكان منه على مسافة قدر قوسين تحقيقًا كما سيأتى. وسيأتى أيضًا أنه ﷺ رأى جبريل عليه السلام مرة أخرى بصورته الحقيقية. ولم يره عليها غير هاتين المرتين وكانت كل منهما قبل نزول هذه السورة.

قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ[1] عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾
وَلَقَدْ رَءَاهُ[2] نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾
مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ[3] رَبِّهِ
ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ[4] ٱللَّٰتَ[5] وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ[6]
ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ
إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم[7] مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ[8] إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن
رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ[9] مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ[10]
وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[11] لَا تُغْنِى

المفردات: ﴿قوسين﴾: المراد: على بعد مسافة قوسين. وكانت العرب تقدر المسافات القصيرة بالقوس والرمح والذراع والشبر.

﴿أو أدنى﴾: أدنى أى أقرب و﴿أو﴾ فى مثل هذا المقام تقدم الكلام عليها فى الآية (١٤٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ .

﴿فأوحى إلى عبده﴾: الضمير فى ﴿عبده﴾ يعود على مفهوم من سياق الكلام، وهو الله سبحانه لأن محمدًا ﷺ ليس عبدًا لجبريل بداهة، فكأنه قال: فأوحى جبريل إلى عبدالله .... إلخ. ونظيره الضمير فى ﴿عليها﴾ فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣، وقال بعضهم: فأوحى الله سبحانه إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل.

﴿ما أوحى﴾: المراد: أوحى إليه شيئًا فخمًا لا تحيط بكنهه العقول كما فى الآية (٧٨) من سورة طه صفحة ٤١٣ .

﴿ما كذب﴾: ﴿كذب﴾ بتخفيف الذال.. بمعنى ﴿كذّب﴾ بتشديدها.

﴿الفؤاد﴾... إلخ: أى فؤاده ﷺ. أى قلبه. أى ما كذب قلبه بصره فيما رآه.

﴿أفتمارونه﴾: أى أفتجادلونه؟

﴿على ما يرى﴾: كان الأصل فيما رأى. لكن لما كان جدالهم يقصدون به غلبته ﷺ قال ذلك.

(١) افتمارونه	(٢) رآه	(٣) آيات
(٤) أفرايتم	(٥) اللات	(٦) مناة .
(٧) آباؤكم	(٨) سلطان	(٩) للإنسان
(١٠) الآخرة	(١١) السموات.	

﴿نزلة أخرى﴾: مرة أخرى، وعبر بذلك للإشارة إلى أنها كانت نزولا أيضًا كالسابقة وإن لم تكن مثلها من كل وجه، والكلام صالح لأن يكون ﷺ فى هذه المرة كان على الأرض أيضًا ورأى جبريل عند سدرة المنتهى كما تقول: رأيت النجمة فى السماء.

﴿سدرة﴾: شجرة من السدر المتقدم فى الآية (١٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٥، ولا يعلم حالها إلا الله عز وجل علام الغيوب.

﴿المنتهى﴾: مكان الانتهاء، قيل: والله أعلم لأن مَنْ تحتها من الملائكة ينتهى صعودهم عندها. ومَنْ فوقها لا ينزلون إلا إليها. ﴿جنة المأوى﴾: قال ابن عباس: هى التى تأوى إليها وتنعم بها أرواح الشهداء، انظر الآية (١٥٤) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والآية (١٦٩) من سورة آل عمران صفحة ٩١، والآية (٥٨) من سورة الحج صفحة ٤٤٢ . ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾: أى حين يغطيها ما يغطيها من خلائق لا يعلمها غيره سبحانه.

﴿مازاغ البصر﴾: أى ما تحول يمينا ولا شمالاً عما توجه إليه.

﴿وما طغى﴾: أى وما تجاوز ما شغل نفسه برؤيته.

﴿من آيات ربه الكبرى﴾: أى بعض الدلائل الكبرى الدالة على كمال قدرته تعالى وسعة ملكه. ﴿أفرأيتم﴾: أى أخبرونى.

﴿اللات. والعزى. ومناة﴾: هذه الثلاثة أسماء لأصنام كانوا يزعمون أنها تمثل بعض الملائكة، وكانوا يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى. وقد كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله. انظر الآية (٢٧) الآتية فى هذه السورة صفحة ٧٠٢ والآية (١٤٩) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ والآية (١٥) وما بعدها من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨ .

﴿الثالثة الأخرى﴾: المراد من هذين الوصفين إلحاق مناة بسابقتيها فى الاحتقار كما تقول: بلغت به الجرأة هو الآخر أن يقول كذا.

﴿ألكم الذكر﴾... إلخ: انظر مثل هذا التوبيخ فى الآية (٥٧) وما بعدها من سورة النحل صفحتى ٣٥٢، ٣٥٣ والآية (٤٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩ .

﴿ضيزى﴾: أى جائرة يقال: ضاز فى الحكم. أى جاز فيه. وضازه حقه بوزن باعه إذا نقصه وبخسه.

﴿إلا أسماء﴾: أى لا حقيقة لها. انظر اعترافهم بذلك يوم القيامة فى الآية (٧٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ .

﴿من سلطان﴾: ﴿من﴾ لإفادة عموم نفى ما بعدها و﴿سلطان﴾: أى دليل وبرهان.

﴿إن يتبعون﴾: ﴿إن﴾ كسابقتها.

﴿أم للإنسان﴾: انظر المراد من ﴿أم﴾ هنا فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿كم من ملك﴾: ﴿كم﴾ أى كثير.

﴿من﴾: تفيد أن ما بعدها تفسير وبيان لـ ﴿كم﴾ قبلها.

﴿لا تغنى﴾: لا تنفع.

المعنى: فكان جبريل قريبًا منه ﷺ بصورته الهائلة. فسقط ﷺ على الأرض مغشيًا عليه. ولما أفاق أسرع إلى بيت خديجة وقال (دثرونى دثرونى): فنزل عليه جبريل فى تلك اللحظة لكنه بغير تلك الصورة. فأوحى إليه أى بلغه ما أمره ربه بتبليغه له ﷺ فى ذلك اليوم وهو قوله تعالى: (يا أيها المدثر قم فأنذر)... إلى آخر الآية (٥) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٥، ٧٧٦ .

ثم بيَّن سبحانه أن رؤيته ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية كانت حقيقة لاشك فيها. فقال: (ما كذب الفؤاد)... إلخ. أى ما كذب قلبه ما رأته عينه. أى لم يشك فى أن ما رآه هو جبريل قطعًا. فهل بعد ذلك تكذبون أيها المشركون فتجادلونه مغالبين له على ما رأى معاينة من تلك الصورة العجيبة التى بلغ من غرابتها أنها حاضرة فى ذهنه إلى الآن. ولذلك جاء القرآن بـ﴿يرى﴾: التى تدل على الرؤية فى الحال بدلاً من (رأى) التى تدل على الماضى.

ثم أكد ذلك بقوله: (ولقد رآه)... إلخ. أى وعزتى لقد رأى محمَّد عبدنا جبريل على تلك الصورة مرة أخرى، وكان جبريل فى هذه المرة فى مكان أعلى من الأول، فقد كان عند سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى. رآه حين أحاط بهذه السدرة ما أحاط بها من عوالم الغيب

التى لا يحيط بوصفها غيره تعالى. ثم أكد ذلك بقوله: مازاغ البصر وما طغى. أى كان متحققًا مما رأى. ثم زاد التوكيد بقوله: (لقد رأى)... إلخ. أى وعزتى لقد رأى نبينا ﷺ بعضًا من دلائل ربه الكبرى الشاهدة على سعة ملكه وتمام قدرته. وإذا كان هذا هو الحق فأخبرونى أيها المشركون عن آلهتكم هذه التى تسمونها ـ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ـ هل لها من شىء من هذه القدرة والعظمة، حتى تجعلونها تمثل بنات الله وتتقربون إليها؟

ثم وبخهم توبيخًا آخر فقال: (ألكم الذكر)... إلخ. أى هل يصح أن تختاروا لأنفسكم الذكر الذى تعتزون به. وتجعلون لله الأنثى التى إذا بشر بها أحدكم امتلأ غيظًا. تلك القسمة إذا رضيتموها قسمة ظالمة لأنكم جعلتم لله ما تكرهون.

ثم أبطل زعمهم بقوله: (إن هى)... إلخ. أى ما هذه الأصنام التى تعبدونها إلا مجرد أسماء لاحقيقة لها. اخترعتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بعبادتها من برهان تستندون إليه. ثم أعرض سبحانه عن مخاطبتهم احتقارا لهم فقال: (إن يتبعون)... إلخ. أى ما يتبعون فى عملهم إلا توهم أن ما هم عليه حق. جاءهم ذلك من تقليد الآباء. ويجرون وراء ما تشتهيه أنفسهم من أنها شفعاء لهم عند الله تدفع عنهم الشقاء والعذاب. ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين أنهم يفعلون ذلك فى الوقت الذى جاءهم من ربهم الكتاب الذى فيه هدايتهم.

ثم انتقل سبحانه إلى توبيخهم وقطع أطماعهم فى خير الآخرة فقال: (أم للإنسان)... إلخ. أى بل هل يكون للإنسان كل ما يتمناه لمجرد أنه يحبه. ومن ذلك ما فى الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ والآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧ . كلا. لن يكون له ذلك لأن الأمر كله لله فى الدنيا والآخرة. وهو سبحانه لا يعطى إلا ما يشاء لمن يريد. وليس لأحد أن يتحكم عليه فى شىء.

ثم أكد ذلك بقوله: (وكم من ملك)... إلخ. أى وكثير من الملائكة المقربين لا تنفع شفاعتهم... إلخ.

شَفَٰعَتُهُمْ[1] شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ[2] لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ[3] تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ[4] ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[5] وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ[6] بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ[7] ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ[8] إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ[9] ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ[10]

المفردات: ﴿يأذن الله لمن يشاء﴾: أى إلا بعد إذنه سبحانه للشافع، ورضاه عن المشفوع له. انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣ والآية (٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٥ . والآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣ والآية (٢٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦ .

﴿ليسمون الملائكة﴾ ..... إلخ: المعنى: يسمون كل واحد من الملائكة تسمية الأنثى، أى يسمونه بنتًا. يقول العربى: كسانا الأمير حلة يريد كسا كل واحد منا حلة، والمراد يصفونها بأنها بنات الله، انظر الآية (٥٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٢ والآية (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩، وانظر الاسم بمعنى الصفة فى الآية (١١) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٦ .

﴿من علم﴾: ﴿من﴾ لإفادة عموم نفى ما بعدها.

﴿إن يتبعون﴾: ﴿إن﴾ هنا نافية بمعنى (ما) أى ما يتبعون إلا... إلخ.

(١) شفاعتهم.
(٢) بالآخرة.
(٣) الملائكة.
(٤) الحياة.
(٥) السموات.
(٦) أساءوا.
(٧) كبائر.
(٨) الفواحش.
(٩) واسع.
(١٠) أمهاتكم.

﴿الظن﴾: المراد: التوهم الباطل. ﴿لا يغنى﴾: أى لا ينفع.

﴿من الحق﴾: ﴿من﴾ بمعنى (عن). والحق هنا هو العلم القطعى لأنه لا ينفع فى الاعتقاديات غيره.

﴿مبلغهم﴾: أى منتهى ما بلغوه من العلم، انظر الآية (٧) من سورة الروم صفحة ٥٣١ .

﴿كبائر الإثم والفواحش﴾: تقدم شرحها فى الآية (٣٧) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤ .

﴿إلا اللمم﴾: اللمم هى الصغائر من الذنوب، و﴿إلا﴾ بمعنى (لكن) أى لكن اللمم يغفرها الله، لأنه سبحانه واسع المغفرة، انظر الآية (٣١) من سورة النساء صفحة ١٠٥ .

﴿من الأرض﴾: أى خلقكم من تراب الأرض، انظر الآية (٣٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦، والآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣، والآية (١٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٩ .

﴿أجنة﴾: جمع جنين وهو الطفل ما دام فى بطن أمه.

المعنى: وكثير من الملائكة المقربين فضلا عن غيرهم لا تنفع شفاعتهم أقل نفع إلا من بعد أن يأذن الله تعالى لهم فيها ويرضى عن المشفوع له.

وإذا كان هذا حال أقرب الخلق إلى الله تعالى، فكيف يطمع المشركون فى شفاعة معبوداتهم الباطلة. وهى أبعد الخلق منه تعالى، انظر زعمهم هذا فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ ، ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ والآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧ .

ثم بيَّن سبحانه شفاعة أخرى لهؤلاء المشركين وهى وصفهم الملائكة بأنها بنات الله، والذى جرأهم على ذلك كفرهم باليوم الذى يجازى فيه الخلائق على أعمالهم. وليس عندهم علم يستندون إليه فيما يقولون. لكن عندهم مجرد وهم أوقعهم فيه تقليد الآباء بدون بحث وتحقيق. وإن مثل هذا الظن لا ينفع أقل نفع فى مقام العلم القطعى المطلوب فى العقائد التى لا يكفى فيها الظن.

وإذا كان أمر هؤلاء كما ذكر فأرح نفسك أيها النبى من عناء إرشاد مَنْ أعرض عن القرآن وحصر همه فى تحصيل الدنيا والتمتع بزخارفها، لأن طلب الدنيا هو نهاية قصده من العلم، فهم لا يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا وفى غفلة عما سيلاقيهم فى الآخرة. ومَنْ كان هذا شأنه فلا تزيده الدعوة إلى الحق إلا عنادًا وإصرارًا على الباطل.

ثم بين سبحانه سبب أمره له ﷺ بالإعراض عنهم فقال: (إن ربك هو أعلم)...إلخ. أى إن الذى يعلم مَنْ تفيد فيه الدعوة ومَنْ لا تفيد هو الله وحده. فلا تشق نفسك فى دعوتهم بعد ذلك؛ لأنه ليس عليك إلا البلاغ لتقوم الحجة عليهم. وقد بلغت.

ثم بين سبحانه سبب أنه هو الأعلم بأحوالهم فقال: (ولله ما فى السموات)... إلخ. أى إن كل المخلوقات فى ملكه وتحت تصرفه فهو يعلمها تمام العلم. فأرح نفسك أنت أيها النبى.. واترك الأمر لنا. فنحن العالمون بهم. نجزى يوم القيامة المسىء بعقاب عمله. ونجزى الذين أحسنوا أعمالهم بالمثوبة الحسنى وهى الجنة.

ثم بيَّن سبحانه المحسنين فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. وإذا فعلوها لم يصروا عليها بل يسارعون إلى التوبة، كما فى الآية (١٣٥) من سورة آل عمران صفحتى ٨٤، ٨٥ .

لكن إذا وقع منهم صغيرة كالنظرة المحرمة مثلا فإن الله تعالى يغفرها لأن ربك أيها النبى واسع المغفرة. فيغفر الصغائر باجتناب الكبائر كما فى الآية (٣١) من سورة النساء صفحة ١٠٥، ويغفر الكبائر بالتوبة النصوح، انظر ما تقدم فى الآية (٥٣) من سورة الزمر صفحتى ٦١٣، ٦١٤ .

وهو سبحانه أعلم بأحوالكم من مبدأ خلقكم من الأرض. وحين كنتم فى الأرحام، انظر تفسير الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ .

والتصريح بقوله تعالى: ﴿فى بطون أمهاتكم﴾ مع أن الجنين لا يكون إلا فى البطن للحكمة المبينة فى شرح الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ .

فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ[1]
الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ
الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾
وَإِبْرَاهِيمَ[2] الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ[3] إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ
يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ[4] الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ
الْمُنتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾
مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾
وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ[5] فَمَا أَبْقَى ﴿٥١﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٥٢﴾

المفردات: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾: أى لاتمدحوها افتخارًا، انظر الآية (٤٩) من سورة النساء صفحتى ١٠٨، ١٠٩ ..

﴿تولى﴾: انصرف معرضا.

﴿أكدى﴾: تقول العرب: فلان حفر فى الأرض فأكدى أى وجد كدية أوقفته عن الحفر، والكدية بضم فسكون هى الحجر الكبير شديد الصلابة فالكلام كناية عن التوقف عن العطاء.

﴿فهو يرى﴾: أى يعلم الحقيقة، فالرؤية هنا علمية كقولهم رأى مالك وأبو حنيفة فى المسألة الفلانية كذا أى علما.

﴿أم﴾: انظر المراد منها فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿ينبأ﴾: أى يخبره علماء أهل الكتاب وكانوا متصلين بهم كما فى شرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩، وأيضًا فى الكلام حث له على البحث والتحرى.

﴿صحف موسى﴾: المراد: التوراة، انظر الآية (١٤٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٤، ٢١٥، وقدم موسى وصحفه لقرب عهدها من العرب وشهرة التوراة عندهم. وقدم إبراهيم عليه السلام فى الآية (١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤ حسب الترتيب الزمنى.

﴿وفى﴾: أى أدى ما أمر به على أتم وجه. انظر الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤، ورضى أن يرمى فى النار ولم يفرط فى الدعوة لدينه، انظر الآية (٦٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧ .

(١) أفرأيت (٢) إبراهيم (٣) للإنسان
(٤) يجزاه (٥) ثمود.

﴿ألا تزر وازرة﴾ ... إلخ: تقدم فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ .

﴿إلا ما سعى﴾: أى إلا جزاء سعيه فى الدنيا.

﴿وأن سعيه سوف يرى﴾: أى يراه اللّه سبحانه وتعالى ورسوله والمؤمنون، ويراه صاحبه نفسه. انظر الآيات (١٠٥) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٩، ٢٦٠ وآيتى (٨،٧) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٨ .

﴿يجزاه﴾: أى يجازيه سبحانه وتعالى على عمله، تقول العرب: جزاه اللّه بعمله، وعلى عمله، وجازاه عمله. كلها بمعنى واحد.

﴿المنتهى﴾: المراد: المرجع والمصير انظر الآية (٣) من سورة غافر صفحة ٦١٧ والآية (٨) من سورة العلق صفحة ٨١٤ .

﴿أضحك وأبكى﴾: المراد أوجد أسباب الضحك وأسباب البكاء.

﴿أمات وأحيا﴾: انظر الآية (٢) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ .

﴿نطفة﴾: تقدم فى الآية (١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ .

﴿تمنى﴾: أى تدفق فى الرحم، انظر الآية (٦) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢ .

﴿النشأة الأخرى﴾: هى البعث من القبور للحساب والجزاء، انظر الآية (٢٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٣ والآية (٦٢) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦ .

﴿أقنى﴾: تقول العرب: أقناه اللّه أى أرضاه بالصبر والقناعة. فالمراد هنا: أفقر. انظر الآية (٣٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨ .

﴿الشعرى﴾: نجم ضخم كانت العرب تعرفه، وهو ألمع نجوم الشمس. ويبعد عنا أكثر من بعد الشمس بنصف مليون مرة. فضوؤه بالنسبة لضوء الشمس كضوء الكشاف الضخم بالنسبة لضوء الشمعة الصغيرة ونسبة حرارته لحرارة الشمس كنسبة ضوئه. ولو قرب منا كالشمس لتبخر ماء المحيطات، ولم يبق فيها قطرة. ولذاب جميع ما فى الأرض من معادن . ولفنى

العالم أجمع. والعرب تعرف ضخامته وتنسب إليه شدة الحر. وذلك كثير فى أشعارهم ، ولهذا عبده كثير منهم لاعتقادهم تأثيره فى العالم. وفى تخصيصه بالذكر تجهيل لهؤلاء الذين عبدوه حيث جعلوا المربوب ربا يعبد.

﴿عادا الأولى﴾: هى المذكورة فى أربعة وعشرين موضعًا فى القرآن الكريم فى الآيات (٦٥، ٧٤) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤، والآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣ ، والآيات (٥٠، ٥٩، ٦٠) من سورة هود صفحتى ٢٩١، ٢٩٣، والآية (٩) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٠، ٣٣١، والآية (٤٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٩، والآية (٣٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥، والآية (١٢٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٧، والآية (٣٨) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٥، ٥٢٦، والآية (١٢) من سورة ص صفحة ٥٩٨، والآية (٣١) من سورة غافر صفحة ٦٢٢، والآيتين (١٣، ١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١، والآية (٢١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩، والآية (١٣) من سورة ق صفحة ٦٨٩، والآية (٤١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥، والآية (٥٠) من سورة النجم هنا والآية (١٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٦، والآيتين (٤، ٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١، والآية (٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦؛ وذكرت عاد بغير هذا الاسم مرة واحدة فى الآية (٨٩) من سورة هود صفحة ٢٩٧، ولم تذكر عاد إلا وذكر معها ثمود مقرونين فى آية واحدة أو فى آيات متتاليات: قال ابن كثير: إن هاتين الأمتين ليس لهما ذكر فى التوراة التى بين أيدينا. ولكن فى القرآن ما يدل على أن نبى الله موسى أخبر عنهما، ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَنْ فى الأرض جميعًا فإن الله لغنى حميد. ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾.. إلخ آيتى (٨، ٩) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٠، ٣٣١ . وكانت عاد وثمود من العرب البائدة وهما من أقدم الأمم وجودا وآثارا فى الأرض وكانوا بعد قوم نوح مباشرة. انظر الآية (٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٣ . وكانوا أشداء جبارين أبطرتهم قوتهم وما هم فيه من جنات ونعيم. انظر الآية (٦٥) وما بعدها من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤ . والآية (١٢٣) وما بعدها من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨، والآية (١٣) وما بعدها من سورة فصلت صفحتى ٦٣١، ٦٣٢ . وكانت عاد تسكن الأحقاف كما تقدم فى الآية (٢١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩ فى شمال حضرموت جنوب الربع الخالى

وشرقها عمان، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أحد، ولم يصفها القرآن بلفظ الأولى إلا فى هذه الآية، ويرى بعض المفسرين أنها عاد واحدة وأن المراد بالأولى أنها المتوغلة فى القدم جدًا. وقال ابن كثير: إن عادا الثانية كانوا بطنًا من عاد الأولى. وكانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم، والله تعالى أعلم.

﴿وثمود﴾: تقدم فى الآية (٧٣) وما بعدها من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٤، ٢٠٥ .

﴿أظلم وأطغى﴾: أى أشد ظلمًا وطغيانًا؛ فقد عاش يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما كما فى الآية (١٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢، ومع ذلك فقد كانوا يضربونه ويسخرون منه. وكان الرجل منهم إذا قارب الموت، يأخذ ابنه بيده ويقف به عند نوح ويحذره من اتباعه ويقول له: أبى وصانى بذلك، وأنا أوصيك به اليوم، فلا تصدقه؛ ولهذا دعا عليهم نوح بدعائه المذكور فى الآية (٥) وما بعدها من سورة نوح صفحتى ٧٦٨، ٧٦٩ .

المعنى: وإذا كان ربكم هو وحده العليم بأحوالكم فلا تمدحوا أنفسكم لتظهروها أمام الناس فى مقام أعلى. بل اتركوا الحقيقة له سبحانه فهو أعلم بالمتقى وغيره. وبعدما بين سبحانه جهل كفار مكة بعبادة غيره تعالى ذكر واحدا منهم ضم إلى ذلك شناعة أخرى.

فقال: (أفرأيت الذى تولى)... إلخ. وقد ذكر المفسرون فى تعيين هذا المتولى أقوالا عدة منها أنه هو الوليد بن المغيرة الآتى الحديث عنه فى الآية (١١ إلى ٢٦) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ . وحيث لم يعينه سبحانه فلا نتكلفه، بل الذى يهمنا فى مكان العبرة أنه رجل من المشركين سمع القرآن وهمَّ بالإيمان. ولما سمع بذلك المشركون عيروه على ترك دين آبائه. فقال: إنى خشيت عذاب الله يوم القيامة الذى سمعته فى قرآن محمَّد، فقال له أحدهم (لا تخف. لئن صدق محمَّد فى قوله إن هناك يوم قيامة فسأتحمل عنك كل ذنوبك، على شرط أن تعطينى الآن شيئًا من مالك). وكان المشركون يضللون بذلك البسطاء، انظر الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ . فوافقهم، وأعطى بعض المال، ثم امتنع لشدة حرصه عليه. فنزل فيه قوله تعالى: ﴿أفرأيت الذى تولى﴾... إلخ. أى إذا كان ما سبق هو الحق فأخبرنى أيها السامع العاقل عن هذا الذى انصرف عن الإيمان بعد همه به: وأعطى قليلاً مما أنفق

عليه ثم منعه حرصه الشديد. فضم إلى التصميم على الكفر البخل بما التزم به. فأخلف الوعد. والبخل وخلف الوعد من أقبح صفات الرجال خصوصًا عند العرب. ثم زاده تسفيها فقال: (أعندم)... إلخ، أى هل عند هذا الرجل علم الغيب فهو يعلم أن غيره يصح أن يتحمل عنه عذاب الآخرة. بل هل لم يخبره أهل الكتاب بماجاء فى صحف موسى وإبراهيم الذى يزعمون أنهم على ملته مع أنه قام بما أمره الله به خير قيام، ثم شرع سبحانه فى بيان اثنى عشر شيئًا مما فى هذه الصحف فقال: ﴿ألا تزر وازرة﴾.... إلخ، أى أن حقيقة الحال أنه لا تحمل نفس وزر غيرها يوم القيامة. وأن الإنسان ليس له فى ذلك اليوم إلا جزاء عمله خيرًا أو شرًا فلا يأخذ من عمل غيره شيئًا. أما ما ثبت من انتفاع الإنسان بدعاء غيره له، وصدقته. فسنتكلم عليه فى آخر تفسير هذه الصفحة إن شاء الله تعالى؛ وفيها أيضًا أن سعيه سوف يراه هو نفسه ليطمئن إلى عدل ربه. ويراه الله تعالى والرسول ﷺ والمؤمنون، تشريفًا للمؤمن وفضيحة لغيره على رءوس الأشهاد. ثم يجزى صاحب العمل على عمله الجزاء الأوفى. لايظلم أحد مثقال ذرة. وفيها أن مرجع الخلق إلى الله تعالى يوم القيامة. وأنه سبحانه هو وحده الذى خلق ما يضحك وما يبكى، أى أنه سبحانه وحده هو الذى خلق كل ما يَسُرّ وكل ما يحزن. فالمؤمن يرضى بقضاء الله سبحانه فيهما فَيُسرّ فيما يَسُرُّ ويصبر على ما يحزن. وأنه وحده هو الذى أمات مَنْ قضى عليه الموت. وأحيا مَنْ يريد حياته. وأنه هو الذى خلق من الحيوان الذكر والأنثى لبقاء النوع. خلقهما من نطفة حين تدفق فى الرحم من ماء مهين. فكيف يشمخ بأنفه، ويتكبر على أوامر خالقه. وينكر البعث؛ انظر الآيات (٣٧ إلى ٤٠) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ والآية (٢٠) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥ . وأن عليه سبحانه وفاء بوعده إحياء خلقه بعد الموت للحساب والجزاء. وأنه هو الذى أغنى ويغنى مَنْ يشاء. وأفقر ويفقر مَنْ يشاء. وأنه هو رب الشعرى المتصرف فيها. فلا يعجزه أن يفعل بكم ما يشاء ولايصح أن تعبدوها لأنها مخلوقة مثلكم. وأنه أهلك عادا الأولى. وكانوا أكثر منكم أموالا وأولادا فإهلاككم عليه أهون. وأهلك ثمودًا فلم يبق منها أحد، وأهلك قبل ذلك قوم نوح بالغرق جميعًا لشدة ظلمهم وطغيانهم. قال المفسر السلفى ابن كثير فى معنى ﴿ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ لايحصل للإنسان من الأجر إلا ما كسب هو بنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى

وأتباعه وكذا الإمام مالك أن القرآن لا يصل إهداء ثوابه إلى الموتى لأنه ليس من عملهم. ولهذا لم يرغب فيه ﷺ أمته، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إشارة، ولم ينقل ذلك عن أحد من أصحابه رضوان الله عليهم. ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

وباب القربات يقتصر فيها على النصوص ولا يتصرف فيها بأنواع الأقيسة والآراء. فأما الدعاء والصدقة فمجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما وقوله ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له). رواه مسلم: لأن كل ذلك فى الحقيقة من سعيه. متفق مع قوله تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾: الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ انتهى كلام ابن كثير. ويؤيد ما قاله ابن كثير ما أرشدنا إليه فى شرح الآية (٢١) من سورة الطور صفحتى ٦٩٨،٦٩٧ .

ومما اغتر به كثير من الناس حتى صار كأنه من صميم الدين ما يرونه على أنه حديث ولفظه (اقرؤا يس على موتاكم). فهذا طعن فيه الحفاظ. قال ابن القطان: إنه مضطرب وموقوف أى لم ينسب للنبى ﷺ: وبعض رواته مجهولون وقد يكونون ممنّ اندسوا على الإسلام لتشويهه. وقال فيه الحافظ الدارقطنى: إنه ضعيف الإسناد مجهول المتن والسند. فحديث هذا حاله كيف يعول عليه. خصوصًا بعد معارضته لنصوص القرآن المتقدمة. وأحاديث الرسول ﷺ على أنه ليس للإنسان إلا عمله. وما يتشدق به بعضهم من قولهم: (الأحاديث الضعيفة يعمل بها فى فضائل الأعمال). وتطبيقهم هذا على قراءة سورة يس على الموتى باطل: لأن هذه القاعدة لو صحت فإن المراد بها أن العمل الذى ورد عن الشارع نص صريح فى فضله كالصدقة على الفقراء مثلاً. فإنه يجوز العمل بالحديث الضعيف الذى يحث عليها. على أنه حينئذ يمكن الاستغناء عنه بالنص الأصلى. أما العمل الذى تدل النصوص القطعية على عدم مشروعيته كما هنا. فإنه لا يجوز الإقدام عليه إلا بنص عن الشارع مقطوع بصحته. لا بحديث مطعون فيه. وإلا نكون قد ابتدعنا فى دين الله تعالى مالم يأذن به. على أن هذا الحديث مع ضعفه قال فيه مالك رضى الله تعالى عنه: (المراد منه قراءة يس عند المحتضر) ولذا ذكره ابن ماجه فى باب (ما جاء فيما يقال عند المحتضر) فالمراد من موتاكم أى مَنْ حضرهم الموت. ولهذا قيل: إنها ما قرئت على محتضر إلا سهل عليه. لما فيها من التوحيد

والبشرى بالجنة. وقال ابن القيم فى كتابه (أعلام الموقعين) جزء ٤ صفحة ٣٢٣ الطبعة المنيرية (المفرط من غير عذر لا ينفعه أداء غيره عنه لفرائض اللّٰه تعالى التى كان هو المأمور بها ابتلاءً وامتحانا له دون غيره. فلا تنفع توبة أحد عن أحد، ولا إسلامه عنه. ولا صلاته. لا غير ذلك). وقال الشاطبى فى كتابه الموافقات جزء ٢ صفحة ٢٢٧ طبعة مصطفى محمد: المطلوب الشرعى ضربان: أحدهما ما كان من قبيل العادات الجارية بين الخلق كالتصرفات المالية.

والثانى: ما كان من قبيل العبادات اللازمة للمكلف لتوجيهه إلى ربه.

فأما القسم الأول فالنيابة فيه صحيحة يقوم بها الإنسان مقام غيره؛ لأن الحكمة فيها تتحقق بذلك. كدفع الديون مثلاً. ما لم يكن ذلك الأمر العادى مشروعًا لحكمة لا تتعدى الشخص المطلوب منه هذا الفعل كالزواج وتوابعه من وجوه الاستمتاع التى لا تصح النيابة فيها شرعًا. ومثل ذلك الحدود فى مثل السرقة والزنا وكل العقوبات البدنية، فلا يقتل غير القاتل. ولا تقطع يد غير السارق ولا يجلد غير الزانى؛ لأن المقصود للشارع منها الزجر، والزجر لا يتعدى الجانى. ما لم يكن الجزاء فيه مال كالدية فى القتل الخطأ، فإن النيابة فيه تصح.

وأما النوع الثانى وهو ما كان من قبيل العبادات، فالمقرر فيه أن التعبدات الشرعية لا يقوم فيها أحد عن أحد. ولا يحمل وزر التقصير فيها غير المقصر. وذلك ثابت بالنصوص، وبالنظر العقلى فى حكمة التشريع. فالنصوص كقوله تعالى: ولا تزر وازرة وزر أخرى. وقد كررها سبحانه فى القرآن فى خمسة مواضع وهى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ والآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ والآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤ والآية (٧) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٦، ٦٠٧ والآية (٣٨) من سورة النجم صفحة ٧٠٣؛ وكقوله تعالى: ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ الآية (١٣٩) من سورة البقرة صفحة ٢٧، وقوله سبحانه: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء﴾ الآية (١٢)

من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢، وقوله سبحانه. ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ الآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤، وقوله تعالى لنبيه ﴿ما عليك من حسابهم من شىء﴾ الآية (٥٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠ . ومما يدل على أن أمور ما بعد الموت لا يستطيع أحد نقل أجر لأحد فيها أو رفع وزر عن أحد. الآيات (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ و(٤٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦ و(١٩) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٦ . وغير ذلك كثير.

ومن هذا ما صح من أنه ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الآية (٢١٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣ . جمع قومه وخطب فيهم فقال: (يا عم، يا عباس، سلنى من مالى ما شئت، فإنى لا أغنى عنك يوم القيامة من اللّٰه شيئًا. يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت، فإنى لا أغنى عنك من اللّٰه شيئًا).

وأما إذا نظرنا إلى حكمة تشريع العبادات، فإنا نعلم أن المقصود منها الخضوع له تعالى ومراقبته والخوف منه، فلا نعمل ما يغضبه. والنيابة فى العبادة لا تحقق هذه الحكمة؛ لأنها لو صحت لكان الفاعل هو الخاضع للّٰه لا المنوب عنه.

والخضوع والمراقبة لا يتصف بهما إلا فاعلهما وأيضًا لو صحت النيابة فى العبادات البدنية لصحت فى القلبية كالإيمان، والصبر، والشكر، والرضا، والتوكل، وما أشبه ذلك. وبهذا لا تكون التكاليف محتمة. على كل شخص، بل يكفى أن يفعلها بعض المؤمنين نيابة عن الجميع فينجو كل مفرط. ولا يقول بهذا عاقل.

انتهت عبارة الشاطبى. ومما يؤيد كلام الشاطبى أن العقل لا يقبل أن يتمرغ الرجل فى الوساخة ويطلب من غيره أن يغتسل بالماء نيابة عنه؛ لأن الماء لا ينظف إلا مَنْ اغتسل به فقط دون غيره، فكيف يعقل أن يعيش الرجل طوال حياته ملوثًا بقاذورات المعاصى حتى يموت على ذلك قذرًا ثم يأتى بعد ذلك رجل آخر ويتطهر نيابة عنه، اللهم احفظنا من هذه الجهالات التى شوهت وجه دينك المستقيم.

بقى قسم آخر يدور الأمر فيه بين العبادة والأمور المالية كالحج والتضحية فى العيد وهذا أجاز الشارع فيه النيابة نظرًا لما فيه من جهة المال إذا فاتت الجهة الأخرى على المكلف. والمال فى الحج مطلوب لفقراء الحرم تحقيقًا لدعاء الخليل إبراهيم عليه السلام. انظر الآية (١٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٢٤، ٢٥ . والضحية فيها مصلحة الفقراء.

أما دعاء الإنسان لغيره، وتصدقه عنه. فقال المفسر أبو السعود: (إن مرجع انتفاع المدعو له، والمتصدق عنه هو عمله نفسه: لأنه لولا عمله الصالح، وإخلاصه فيه، لما سخر له سبحانه مَنْ يدعو له).

وبيان ذلك أن دعاء الداعى، وتصدقه، طاعة مقدمة منه له تعالى يرجع ثوابها له نفسه. سواء استجاب اللَّه دعاءه أم لا. كما حصل لنبينا ﷺ عندما استغفر لعمه ولعبد اللَّه بن أبى بن سلول. ونهاه سبحانه وتعالى عنه. ومع ذلك أثابه على توجهه إليه تعالى لأنه عبادة فى ذاته. انظر الآية (١١٣) من سورة التوبة صفحة ٢٦١ . وإنما ينتفع المدعو له بهذا الدعاء إذا كان فيه أهلية لذلك من صالح الأعمال وحسن الإخلاص: لأن الدعاء لا يخرج عن كونه شفاعة من الداعى للمدعو له.

وشرط قبول الشفاعة إذن اللَّه تعالى فيها. ورضاه عن المشفوع له. انظر شرح الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦ . هذا هو الحق الذى كان عليه سلف الأمة. قال الشاطبى فى الموافقات جزء ٢ صفحة ١٦٣ طبعة منير: (إن دعاء المؤمن لأخيه. من باب الشفاعة للغير).

والعبادات لا يجوز فيها الابتداع. لأننا لو زدنا بعقولنا لشرعنا فى دين اللَّه ما لم يأذن به. وصرنا كأهل الديانات الأخرى الذين ابتدعوا فيها ما ذهب بأصولها.

وقد قال ﷺ: (شر الأمور محدثاتها. وكل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة. وكل ضلالة فى النار). وخوفنا من هذا الحديث هو الذى دعانا إلى الإطالة فى هذا الموضوع لأنا فى زمن طغت فيه البدعة على السنة حتى جهل أكثر الناس ما كان عليه سلفهم فصارت البدعة هى السنة. والسنة هى البدعة. نسأل اللَّه تعالى السلامة. ومَنْ أراد المزيد فى هذا المقام فليرجع إلى حديثى ٨٦، ٢٧٢ من كتابنا (صفوة صحيح البخارى). والله ولى التوفيق

وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا[1] مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[2] رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ[3] ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ[4] ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾

(٥٤) سُورَةُ ٱلْقَمَرِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً[5] يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ

المفردات: ﴿المؤتفكة﴾: مأخوذة من الإتفاك وهو الانقلاب الذى حدث بالخسف. أى القرية المنقلبة على مَنْ فيها. انظر الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣ والآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ والآية (٧٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨ .

﴿أهوى﴾: أى أسقطها من أعلى إلى أسفل.

﴿غشاها﴾: أى غطاها ما غطاها من الحجارة والأهوال.

﴿ماغشى﴾: أى الذى غشاها. وهى عبارة يقصد بها التهويل.

﴿آلاء﴾: أى نعم، مفردها ﴿إلى﴾ بكسر فسكون، بوزن حِمْل وأحمال. انظر الآية (٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٣ . وجعل سبحانه كل ما تقدم نعمًا مع أن منه نقمًا؛ لأن ذكر النقمة الواقعة بالغير فيه تحذير وهو رحمة لكل متيقظ.

﴿تتمارى﴾: أى تتشكك أيها الإنسان؟ من المرية وهى الشك. انظر الآية (٥٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧ .

﴿هذا نذير﴾: أى هذا رسول محذر من عقاب اللَّه تعالى. انظر الآية (٢) من سورة هود صفحتى ٢٨٣، ٢٨٤ والآية (٢٤) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٧، ٥٦٨ .

(١) ففشاها.
(٢) آلاء.
(٣) الآزفة.
(٤) سامدون.
(٥) آية.

﴿من النذر الأولى﴾: أى من الرسل المتقدمين، انظر الآية (٤٧) من سورة يونس صفحتى ٢٧٣، ٢٧٤ والآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

﴿أزفت﴾: أى قربت.

﴿الآزفة﴾: أى القيامة، انظر الآية (١٨) من سورة غافر صفحتى ٦١٩، ٦٢٠ .

﴿كاشفة﴾: المراد: نفس تكشفها أو تزيلها وتمنع وقوعها.

﴿هذا الحديث﴾: المراد: القرآن. انظر الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ .

﴿سامدون﴾: أى غافلون لاهون.

﴿فاسجدوا للّه واعبدوا﴾: عطف اعبدوا على ما قبله من عطف العام على الخاص... وهنا يسجد المتوضئ من القارئ والسامع.

سورة القمر

المفردات: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾: جاء فى لسان العرب: يقال شق الفجر وانشق أى طلع، كأنه شق موضع طلوعه وخرج منه. فعلى هذا يقال انشق القمر بمعنى طلع، وانتشر نوره ويكون فى الآية بمعنى ظهر الحق ووضح، كالقمر حين ينشق الظلام بنوره كما يقول الناس عند وضوح الأمر طلعت الشمس أى لم يعد فى الأمر خفاء. انظر الآية (٧٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٦ والآية (٥٧) المتقدمة من سورة النجم فى هذه الصفحة. ﴿وإن يروا آية﴾: المراد بالآية هنا كل دلائل توحيده سبحانه وتعالى وقدرته. وصدق رسوله، انظر الآية (١٤٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥ ومنها القرآن المعجز، ويروا على هذا معناه يعلموا ويسمعوا. ﴿ويقولوا سحر﴾: عبر بالفعل المضارع للدلالة على أن هذا هو شأنهم دائمًا، وسيكون هذا مادام العناد مستوليا عليهم.

وقد قالوا عن القرآن إنه سحر مرارًا، انظر الآية (٤٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩ والآية (٣٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ والآية (٢٤) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ ونظير ما هنا آيات (١، ٢، ٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠ .

﴿مستمر﴾: أى مطرد متتابع بعضه إثر بعض.

المعنى: وأسقط اللّه سبحانه وتعالى أكبر قرى قوم لوط وأكثرها سكانا على من فيها وجعل عاليها سافلها. وبهذا الخسف غطاها بما غطاها به من الأتربة والحجارة كما فى الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ .

وإذا كان الأمر كذلك ففى أية نعمة من نعم ربك أيها الإنسان تتشكك؟ ثم نبه سبحانه الكفار بأن محمدًا رسول من الرسل السابقين فلم يكن شيئًا غريبًا. انظر الآية (٩) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧ . ثم هددهم بقرب القيامة ليحذروا هولها فقال سبحانه وتعالى: (أزفت)... إلخ. أى قربت الساعة التى هى قريبة جدًا. وهذا مبالغة فى قربها. وإذا جاءت فليس لها غير اللّه قوة تقدر على كشفها ومنعها. فهل بعد هذا الخطر المحقق تعجبون من القرآن إنكارا له، وتضحكون استهزاء، ولا تبكون حزنًا على ما حصل منكم، وخوفًا من عذاب اللّه سبحانه. والحال أنكم غافلون لاهون. وإذا كان لابد من الساعة فيجب ألا تسجدوا إلا للّه ولا تعبدوا غيره.

المعنى: بدأ اللّه سبحانه وتعالى هذه السورة لتخويف كفار مكة بقرب قيام الساعة فقال عز وجل: (اقتربت الساعة وانشق القمر)... إلخ. ذكر هنا بعض المفسرين حديثًا عن ابن عباس قال فيه: (قال المشركون للنبى ﷺ إن كنت صادقًا فشق لنا القمر شقتين كل نصف على جبل من الجبلين المحيطين بمكة. فقال ﷺ: إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم. وكانت ليلة البدر. فسأل ﷺ ربه فانشق القمر) . ورأى بعض العلماء أن هذا مخالف لما تكرر فى القرآن كثيرًا من عدم إجابته سبحانه لما يطلبه المشركون من معجزات.

وبيَّن سبب ذلك تارة بأنهم معاندون لن يؤمنوا حتى لو أجيبوا إلى ما يطلبون. انظر آيتى (٧، ٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣ والآية (١١١) من سورة الأنعام أيضًا صفحة ١٨١، وتارة بأن فى القرآن كفاية لهم بعد عجزهم عن الإتيان بمثله. انظر آيتى (٥٠،٥١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨ .

وتارة بأن عادة اللّه مع الأمم الماضية أنه سبحانه إذا أجابهم لما يقترحون ولم يؤمنوا يهلكهم جميعًا: ولا يُبقى منهم أحدًا. انظر شرح الآيات من (٣٥ إلى ٣٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧ والآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢ والآيات (٢١، ٢٢، ٢٣) من سورة

الفرقان صفحة ٤٧٣ . وبما أنه سبحانه لم يرد إهلاك كفار مكة جميعًا لعلمه أنه سيظهر منهم مَنْ يؤمن ويقوم بنشر الإسلام. لم يحقق سبب إفنائهم. هذا فضلاً عن أن انشقاق القمر من الأحداث الكونية المهمة، ولوحصل لشاهده عالم لا يحصى من العرب وغيرهم، خصوصًا وأنه كان فى ليلة البدر كما تقدم ولبلغ حدًا لا يمكن لأحد أن ينكره. لكل هذا قال بعض العلماء إن (وانشق القمر) كناية عن وضوح الأمر حتى لم يعد صالحًا للجدل.

وقال آخرون: ومنهم الحسن والقشيرى وعثمان بن عطاء: إن المعنى أنه سينشق قطعًا. وقريبًا جدًا عند قيام الساعة. فالمراد: اقتربت الساعة وقرب انشقاق القمر يوم تنشق السماء وتنتثر الكواكب، كما فى الآية (١) وما بعدها من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥، والآية (١) وما بعدها من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩، فالتعبير بالماضى للتحقق كما فى قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله﴾ ... إلخ انظر الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ .

قال الماوردى: هذا هو رأى جمهور العلماء انظر تفسير القرطبى فى هذا المقام. وأعجب ما وقع فيه بعض العلماء هنا من الخطأ قولهم: إن قراءة حذيفة بن اليمان (قد انشق القمر) ومَنْ له إلمام بعلوم القراءات لا يعلم قراءة كهذه أبدًا. فلا هى من القراءات المعول عليها ولا هى من المتواترة، بل ولا حتى من الأربع المذكورة بعد العشرة على أنها شواذ بل هى مجرد أوهام نقلها بعض العلماء فى كتبهم على أنها قراءة، فتتابع الناس عليها بدون روية ونقلها عنهم بعض المستشرقين اغترارًا وجهلاً. نسأل الله تعالى الهداية للصواب. ثم وبخ سبحانه كفار قريش على أنهم مع قرب هذا الخطر الداهم مهملون فقال عز وجل: (وإن يروا)... إلخ. أى وإن يرى كفار مكة كل يوم دليلاً جديدًا على وحدة الله تعالى وصدق رسوله مما حواه القرآن من صدق أخباره فى الماضى والمستقبل ومن عجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

إن يروا كل ذلك يتوارد عليهم يومًا بعد يوم يعرضوا عن التأمل فيه، ويقولوا هذا القرآن سحر مطرد يتبع بعضه بعضا يأتى به محمَّد ﷺ على مر الزمان، انظر شرح الآية (٧) من سورة هود صفحة ٢٨٤ والآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠ والآية (٤٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩ والآية (٣٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ والآية (٧) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ والآية (٢٤) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦، قالوا ذلك وكذبوا النبى ﷺ واتبعوا شهواتهم التى زينتها لهم الشياطين من حب الرياسة وعدم الخوف من يوم القيامة.

وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾
* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ
وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا
أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ
عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ
ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ

المفردات: ﴿كل أمر مستقر﴾: أى كل أمر من أمور هذا العالم مستقر على الحالة التى قدرها سبحانه له. ومن ذلك نصر الحق وخذلان الباطل.

﴿الأنباء﴾: أى أخبار الأمم الماضية مما نزل بهم لما كذبوا رسلهم.

﴿مزدجر﴾: أى فيه ازدجار. وهو الابتعاد عن الشر.

﴿حكمة بالغة﴾: خبر لمبتدأ مقدر مفهوم من سياق الكلام، والأصل: هذه الأخبار التى جاء بها القرآن كلها حكم وعظات بالغة نهايتها فى الإتقان تكفى كل عاقل.

﴿ما تغن﴾: لا تنفع.

﴿النذر﴾: جمع نذير بمعنى الإنذار. أى التحذير كما سيأتى فى الآية (١٦) الآتية. وانظر الآية (١٠١) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

﴿فتول عنهم﴾: أى أعرض عنهم ولا تجادلهم بعد الآن.

﴿يوم يدع الداع﴾: (يدع) أصلها يدعو وحذفت الواو. فى الكتابة فقط كحذف الياء فى (الداع). انظر الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥. و(يوم) منصوب بـ (يخرجون) الآتية. و(الداع) هو إسرافيل، عند النفخة الثانية، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

﴿نكر﴾: هو الأمر الشديد الذى لا عهد للنفوس بمثله. لشدة هوله.

(١) بالغة. (٢) أبصارهم. (٣) الكافرون.
(٤) أبواب. (٥) حملناه. (٦) ألواح.
(٧) تركناها. (٨) اية. (٩) القرآن.

﴿خشعا﴾: جمع خاشع بمعنى ذليلة منكسرة.

﴿الأجداث﴾: جمع جَدَث بفتحتين وهو القبر. انظر الآية (٥١) من سورة يس صفحة ٥٨٣

﴿مهطعين﴾: أى مسرعين، انظر الآية (٤٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦ والآية (٤٣) من سورة المعارج صفحة ٧٦٧.

﴿عسر﴾: أى عسير، شديد الهول، صعب عليهم، انظر آيتى (٩، ١٠) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦.

﴿ازدجر﴾: أى زجره ونهره الكفار بشدة، انظر ما تقدم فى الآية (٥٢) من سورة النجم صفحة ٧٠٣. ﴿منهمر﴾: أى ينصب بكثرة وقوة.

﴿على أمر قد قدر﴾: (على) حرف يفيد أن ما بعده علة لما قبله، أى لأجل نفاد أمر قدره الله سبحانه وتعالى... وهو إغراقهم.

﴿ذات ألواح﴾: أى سفينة مصنوعة من ألواح أى أخشاب عريضة.

﴿دسر﴾: مفردها دسار بكسر أوله ككتاب وكتب، وهو ما تمسك به الألواح بعضها ببعض، كالمسمار.

﴿بأعيننا﴾: تقدم المراد بمثل هذا فى الآية (٤٨) من سورة الطور صفحة ٧٠٠. ﴿لمن كان كفر﴾: أى لنوح الذى كفروا نعمة الله تعالى بإرساله لهم.

﴿تركناها آية﴾: أى تركنا حادثة السفينة وما فيها من نجاة المؤمنين وهلاك غيرهم عبرة وعظة.

﴿فهل﴾: استفهام يدل على الرغبة فى وجود ما بعده.

﴿مدكر﴾: أى متذكر ومتعظ.

﴿فكيف كان عذابى﴾: استفهام أريد به حمل السامع على التأمل فى هول ما حصل ليبتعد عنه.

﴿يسرنا﴾: أى سهلنا.

المعنى: بعدما شنع سبحانه على كفار مكة بأنهم اتبعوا شهواتهم وأهملوا النظر فى

الدليل أراد أن يقطع أطماعهم فى فشله ﷺ، وأن يطمئن رسوله فقال: وكل أمر. أى من أمره ﷺ ومن أمورهم بل وأمور العالم منته إلى ما قدره سبحانه له. ومن ذلك نصر المؤمنين وهلاك الكافرين، ووالله لقد جاء كفار مكة من أخبار الأمم التى كفرت برسولها فهلكت، ما فيه كفاية لهم فى زجرهم عن كفرهم لو تأملوها فى القرآن؛ لأن هذه الأنباء حكمة بالغة فى الموعظة والإتقان. ولكن لشدة عنادهم لا تنفع معهم الإنذارات. وإذا كان الأمر كذلك فأعرض أيها النبى عنهم، فسيخرجون من القبور ذليلة أبصارهم، يوم يدعوهم إسرافيل إلى موقف شديد وهو موقف الحساب فيكونون فى سرعة سيرهم وتشتتهم من الهول كأنهم جراد منتشر من الحيرة والخوف، ولذا قال: (مهطعين).. إلخ. أى يخرجون حال كونهم مسرعين إلى الداع فى خشوع، يقولون؛ لأنهم كفروا بهذا اليوم: هذا يوم شديد الهول. ثم فصل سبحانه بعض ما أجمله من أنباء ما مضى فقال: (كذبت قبلهم).. إلخ. أى كذب قبل كفار مكة قوم نوح. ثم فصل هذا التكذيب بقوله: فكذبوا عبدنا. أى نوحًا ونسبوه إلى الجنون وزجروه وهددوه بالتعذيب والقتل إن لم يرجع عن دعوتهم إلى خلاف ما كان عليه آباؤهم. فلما نفد صبر نوح عندما قالوا له إن كنت صادقا فأت بما تهددنا به، انظر الآيات من (٣٢إلى ٤٩) من سورة هود صفحات ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١. اتجه إلى ربه لينقذه منهم، وقال: يارب إنهم غلبونى وتمردوا علىَّ فانتصر لدينك منهم بعقابهم، انظر تفصيل دعوته فى سورة نوح صفحات ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠. فأجاب الله سبحانه وتعالى دعوته وقال سبحانه فى ذلك: ففتحنا أبواب السماء.. إلخ، والمراد أنزلنا من السحاب ماء كثيرا جدا. وفجرنا عيون الأرض للإسراع بإغراقهم. فالتقى ماء السماء بماء عيون الأرض لأجل تحقيق أمر قدرناه فى الأزل وهو إهلاكهم غرقا. وفى هذا الوقت حملنا نوحا ومَنْ معه كما فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠ على سفينة مصنوعة من ألواح خشب ممسوك بمثل المسامير أو الحبال. وأخذت هذه السفينة تجرى على الماء برعايتنا وحفظنا. فعلنا ذلك جزاء لنوح وانتصارا له لأنه نعمة من الله عليهم كفروا بها.

ولقد أبقينا هذه الحادثة عبرة يتناقلها الناس خلفًا عن سلف، فهل هناك عاقل يتذكر عاقبة الكفر بالله فيبتعد عنه؟ فتأمل أيها السامع وانظر كيف كان عذابى وتحذيرى لهم قبل نزوله. ثم أقسم سبحانه على أنه لا عذر لغافل فقال: (ولقد يسرنا).. إلخ. أى والله لقد سهلنا فهم القرآن خصوصا لقومك أيها النبى لأنه بلغتهم.. إلخ.

لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي
ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ
كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾
إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾
فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ

المفردات: ﴿للذكر﴾: أى للتذكر والاتعاظ. ﴿فهل من مدكر﴾: تقدمت فى الصفحة السابقة، وكرر هذه الجملة وما قبلها تنبيهًا على أن كل قصة منهما مستقلة بإيجاب الاعتبار وكافية فى الأزدجار والكف عن الكفر والمعاصى.

﴿فكيف كان عذابى ونذر﴾: تقدم أيضا فى الصفحة السابقة.

﴿صرصرا﴾: أى ذات صوت مزعج.

﴿يوم نحس﴾: النحس الشؤم. والمراد باليوم هنا: جنس اليوم، فيشمل الأيام المتعددة، فهى ثمانية. انظر الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢، وهذا أسلوب عربى فصيح، جاء القرآن به. انظر لفظ كتاب فى الآية (١٣٦) من سورة النساء صفحة ١٢٦. ﴿تنزع الناس﴾: روى أنهم لما اشتدت الريح احتموا بحفر فى الأرض فاقتلعتهم الريح منها، وصرعتهم على رءوسهم. ﴿أعجاز نخل﴾: المراد بأعجاز النخل: أصوله التى ليس عليها جريد، وشبهوا بها لأنهم كانوا طوال الأجسام. ﴿منقعر﴾: أى مقتلع من أصوله. ﴿ثمود﴾: هم قوم صالح. ﴿بالنذر﴾: جمع نذير بمعنى منذر أى محذر، والمراد الأمور التى أنذرهم بها نبيهم، انظر الآية (١٠١) من سورة يونس صفحة ٢٨٣.

﴿أبشرا﴾: أى هل يصح أن نتبع بشرا؟ والرسول فى تقديرهم لا يكون إلا ملكا!!

﴿واحدا﴾: يريدون فهو ضعيف لا يخشى بأسه. ﴿سعر﴾: أى جنون، يقال: رجل مسعور أى مجنون. ﴿أؤلقى الذكر عليه﴾.. إلخ: أى هل أنزل الوحى عليه دوننا؟ والاستفهام للإنكار.

﴿أشر﴾: أى شديد البطر متكبر، يريد الرئاسة علينا. ﴿غدا﴾: أصل الغد هو اليوم التالى لليوم الذى أنت فيه، فليس بينك وبينه غير ليلة واحدة، ولكنه يطلق على كل زمن مستقبل بشرط

(١) القرآن. (٢) واحدا. (٣) ضلال. (٤) أؤلقى. (٥) واحدة.

أن يكون ما سيقع فيه محققًا حتى كأنه قريب جدا، والمقصود به هنا يوم القيامة، انظر الآية (١٨) من سورة الحشر صفحة ٧٢٣. ﴿فتنة لهم﴾: أى ابتلاءا وامتحانًا لهم. ﴿ونبئهم﴾: أى وأخبرهم. ﴿الماء قسمة بينهم﴾: أى أن ماء البئر الذى كانوا يشربون منه مقسم بينهم وبين الناقة، انظر الآية (١٥٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩، وعبر سبحانه وتعالى عنهم وعنها بضمير العقلاء (هم) تغليبا لهم عليها لكثرتهم. ﴿شرب﴾: هو النصيب مما يشرب.

﴿محتضر﴾: أى يحضره صاحبه فى نوبته. ﴿صاحبهم﴾: هو رجل طائش متهورًا.

﴿فتعاطى﴾: أى أعطاه غيره السيف مثلا، فتعاطاه، أى أخذه غير مكترث بالنتيجة.

﴿فعقر﴾: المراد: فقتل الناقة. ﴿صيحة﴾: تقدمت فى الآية (٢٩) من سورة يس صفحة ٥٨١. ﴿كهشيم﴾: هو المتهشم أى المتكسر، من أطراف الشجر وعيدان النبات إذا يبس.

المعنى: يقول سبحانه وتعالى ولقد سهلنا القرآن للاتعاظ، فهل يوجد عاقل يتعظ؟ كذبت عاد نبيهم هودا فعذبناهم فانظر كيف كان عذابى بعد تحذيراتى. ثم فصل سبحانه هذا العذاب بقوله: إنا أرسلنا عليهم ريحا ذات صوت شديد مهلك مكثت تزعجهم سبع ليال وثمانية أيام، كل يوم منها يوم شؤم دائم حتى أفناهم. فكانت الريح تقتلعهم من الحفر التى احتموا بها، وتصرعهم على رءوسهم حتى تفصلها، وصاروا كأنهم أصول نخل متقلع من أساسه. فتأملوا كيف كان عذابى ونذرى. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر. كذبت ثمود بالأمور التى أنذرهم بها نبيهم صالح، وفصل سبحانه وتعالى تكذيبهم بقوله: أبشرا.. إلخ، أى هل نتبع بشرا مثلنا ورسل الله لا يكونون إلا ملائكة؛ وفضلا عن ذلك فهو واحد ليس له من العزوة ما تخافهم. إنا إذا اتبعناه نكون والله فى ضلال أى بعد عن الصواب وجنون. هل أنزل الله عليه الوحى من بيننا وفينا مَنْ هو أحق منه؟ الحق أنه كذاب متجبر يريد التسلط علينا. ثم هددهم سبحانه بقوله: سيعلمون غدا - أى عند نزول العذاب بهم يوم القيامة- من هو الكذاب الأشر. ثم ذكر سبحانه وتعالى مقدمات العذاب فقال: إنا سنبعث الناقة لأجل فتنتهم، فيخالفوا أمر ربك فيها فيهلكهم - فانظر ماذا يصنعون، أو اصطبر على أذاهم ولا تعجل. ثم شرح سبحانه فى بيان الفتنة فقال: ونبئهم أن ماء البئر الذى يشربون منه جميعا قسمه الله تعالى بينهم وبين الناقة، لهم يوم ولها يوم. كل نصيب من الماء يأتيه صاحب الدور. فلم يمتثلوا ونادوا رجلا طائشا منهم وأعطوه سيفا فأخذه وعقرها. فأهلكناهم فكيف كان عذابى ونذرى. ثم فصل سبحانه كيف أهلكهم بقوله تعالى: إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة من جبريل فصاروا كالزرع الجاف المفتت.

ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ[1] لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ[2] لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم[3] بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً
مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم
بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ[4] عَن ضَيْفِهِۦ
فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم
بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ[5] لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ[6]
فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا[7] كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ[8] أَخْذَ
عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم
بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾
سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ

المفردات: ﴿المحتظر﴾: هو الذى يعمل حظيرة للغنم ونحوها. من عيدان الشجر ونحوه. فإذا يبست وداستها الحيوانات تفتتت. وصارت كالتراب.

﴿كذبت قوم لوط﴾: انظر ما حصل منهم ولهم فى الآيات (١٦٠- ١٧٥) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٩، ٤٩٠.

﴿النذر﴾: تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿حاصبا﴾: أصل معنى الحاصب هو الذى يرمى غيره بالحصباء، وهى الحجارة الصغيرة. والمراد به هنا الريح التى رمتهم بالحجارة. انظر الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣.

﴿بسحر﴾: الباء بمعنى (فى) وهى هنا للظرفية الزمانية والسحر هو آخر الليل.

﴿أنذرهم﴾: أى حذرهم. ﴿بطشتنا﴾: البطشة هى الأخذ بشدة، انظر الآية (١٦) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧. ﴿فتماروا﴾: أى تشككوا، وكذبوا بتشديد الذال المفتوحة.

﴿راودوه عن ضيفه﴾: انظر آيتى (٧٨، ٧٩) من سورة هود صفحتى ٢٩٥، ٢٩٦ والآية (٦٨) وما بعدها من سورة الحجر صفحتى ٣٤٢، ٣٤٣، والمراد: فاوضوه فى البعد عن ضيوفه ليفعلوا بهم ما يريدون. ﴿طمسنا أعينهم﴾: قال ابن عباس: حجب سبحانه إدراكهم فلما دخلوا المنزل لم يروا أحدا، والله سبحانه هيأ الملائكة لأن يكونوا معنا ولا نراهم.

﴿صبحهم﴾: أى أتاهم وقت الصباح، وهو من أول الفجر إلى ما بعد طلوع الشمس بقليل.

﴿بكرة﴾: المراد هنا: أول الصبح. ﴿مستقر﴾: أى دائم النزول عليهم حتى أهلكهم.

﴿أكفاركم﴾..إلخ: الاستفهام للإنكار، أى هل كفاركم أيها العرب خير من كفار الأمم الماضية، فلا يعذبون. ﴿الزبر﴾: جمع زبور. والزبور هو الكتاب المزبور أى المكتوب. والمراد هنا: الكتب المنزلة على الأنبياء، وهى التى من شأنها أن تكتب لتحفظ.

(١) القرآن. (٢) آل. (٣) نجيناهم. (٤) راودوه.
(٥) القرآن. (٦) آل. (٧) بآياتنا. (٨) فأخذناهم.

﴿جميع﴾: أى جمع متفق الكلمة، انظر الآية (٥٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣.

﴿يولون الدبر﴾: المراد: يفرون منهزمين.

المعنى: يقول سبحانه أهلكنا ثمود حتى صاروا كفتات الحطب الجاف المختلط بالتراب. ولقد يسرنا القرآن للذكر. فهل من مدكر، كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم ريحا تحمل حجارة ترميهم بها بعد خسف القرى بهم حتى هلكوا إلا آل لوط فإنا أنجيناهم بإخراجنا لهم من القرية فى السحر. انظر الآية (٨١) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٩٦. نجينا المؤمنين مع لوط إنعاما منا عليهم لإيمانهم. وبمثل هذا الجزء نجزى كل شاكر لنعمنا غير كافر بها، ثم فصل سبحانه ما حصل فقال تعالى: ولقد أنذرهم.. إلخ. أى والله لقد حذرهم لوط بإهلاكنا لهم بشدة إذا استمروا على كفرهم. فشكوا فى كلامه ولم يصدقوه. ثم بيَّن سبحانه جرمهم الفظيع الذى استحقوا به تعجيل العذاب فقال: ولقد راودوه.. إلخ. أى ولقد طلبوا منه الابتعاد عن الدفاع عن ضيوفه ولما لم يستطع دفعهم فعل سبحانه ما أخفى الضيوف عنهم فرجعوا. وقلنا لهم على لسان الملائكة ذوقوا بهذا الطمس مقدمات عذابى ونذرى. ثم بيَّن سبحانه ما حصل بعد ذلك مبينًا وقت نزول العذاب فقال: ولقد صبحهم.. إلخ. أى ولقد نزل بهم العذاب أول وقت الصبح، ومازال مستمر النزول عليهم حتى أفناهم. فقلنا لهم ذوقوا عذابى ونذرى التى كنتم تكذبونها. ثم كرر سبحانه الجملة القسمية للمرة الرابعة تقريرا لما سبق من قوله: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾.. إلخ ما سبق فقال تعالى: (ولقد يسرنا القرآن).. إلخ. ولقد جاء آل فرعون النذر. فماذا حصل منهم؟ كذبوا بآياتنا التى جاء بها موسى كلها، انظر الآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨ فأخذناهم بالعذاب أخذ عزيز لا يغلب، مقتدر لا يعجزه شىء، وبعد ما ذكر سبحانه ما حصل للأمم السابقة بسبب كفرهم أراد أن ينبه كفار العرب إلى أنهم إن لم يرجعوا فسيحل بهم ما حل بغيرهم: لأنهم ليسوا خيرا منهم، فقال: (أكفاركم).. إلخ. أى ليس كفاركم أيها العرب خيرًا من كفار الأمم السابقة. فلم تكونوا أخف منهم كفرا، ولا أحسن منهم حالا فى الدنيا. بل كانوا أقوى منكم وأكثر أموالا وأولادا. ثم انتقل سبحانه إلى توبيخ آخر فقال: أم لكم.. إلخ. أى بل هل لكم صك يبرئكم من كفركم جاء فى كتب الأنبياء؟ المراد لا شىء من هذا. ثم انتقل إلى توبيخ آخر مع الإعراض عن خطابهم لحقارتهم؛ فقال تعالى: أم يقولون.. إلخ. أى بل هل يقولون نحن جمع متماسك لا نهزم، منتصر على كل من عاداه لا يغلب، ثم هددهم فقال تعالى: سيهزم هذا الجمع الذى يفخرون به حتى يفروا. وقد حصل فى بدر وما بعدها من الغزوات. ثم بيَّن سبحانه أن هذا هو عذاب الدنيا وسيأتيهم يوم القيامة عذاب أشد.. فقال سبحانه: (بل الساعة موعدهم).. إلخ.

وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ[1]
وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا
مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ[2] بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا
إِلَّا وَاحِدَةٌ[3] كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ
فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ[4]
وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾



(٥٥) سورة الرحمن مدنية
وآياتها ثمان وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ[5] ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ[6] ﴿٣﴾

المفردات: ﴿أدهى﴾: الداهية هى الأمر الفظيع الذى لا يمكن الخلاص منه. والمراد: إن عذاب يوم القيامة أشد إيلاما لأجسامهم.

﴿أمر﴾: أى أشد مرارة وصعوبة على النفوس.

﴿ضلال وسعر﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٦.

﴿مس سقر﴾: المراد: عذاب جهنم الذى مجرد مسه يهلك.

﴿بقدر﴾: أى بتقدير ونظام محكم على مقتضى الحكمة، انظر الآية ٨ من سورة الرعد صفحة ٣٢٢ والآيتين (١٩، ٢١) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩ والآية (٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠.

﴿أمرنا﴾: المراد: أمرنا لشئ نريد وجوده.

﴿إلا واحدة﴾: أى إلا مرة واحدة بكلمة واحدة، انظر الآية (٨٢) من سورة يس صفحة ٥٨٦.

﴿كلمح﴾: اللمح النظر بعجلة وخفة والمراد سريعا.

---

(١) ضلال.
(٢) خلقناه.
(٣) واحدة.
(٤) جنات.
(٥) القرآن.
(٦) الإنسان.

﴿أشياعكم﴾: أى أشباهكم المتفقين معكم فى الكفر: انظر الآية (٥٤) من سورة سبأ صفحة ٥٧٠.

﴿الزبر﴾: جمع زبور بوزن رسل ورسول والزبور هو الكتاب المزبور أى المكتوب والمراد هنا: كتبة الحفظة. انظر ايتى (١٠، ١١) من سورة الانفطار صفحتى ٧٩٥، ٧٩٦.

﴿وكل صغير وكبير﴾: أى كل ما دق وعظم، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٢٨٧، ٢٨٨.

﴿مستطر﴾: أى مسطور. تقول العرب: سطرت الكتاب واستطرته بمعنى واحد.

﴿نهر﴾: المراد جنس النهر فيكون بمعنى أنهار.

﴿مقعد صدق﴾: المراد: مكان شريف كريم، انظر الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥ والآية (٨٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥.

﴿عند مليك﴾: المراد عندية مكانة وشرف، انظر الآية (١٦٩) من سورة آل عمران صفحة ٩١ والآية (٢٠٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٦، والمليك: صيغة مبالغة من الملك بضم الميم أى: عند ملك عظيم ملكه.

المعنى: ليس ما سبق من الإذلال فى الدنيا هو تمام عقوبتهم، بل الساعة (القيامة) هى موعد عذابهم اللائق بجرمهم، وعذاب القيامة هذا أفظع من هذا الذى فى الدنيا وأشد مرارة على نفوسهم. انظر الآية (٢١) وما بعدها من سورة الفجر صفحة ٨٠٧.

ثم بيّن سبحانه سبب استحقاقهم ذلك فقال تعالى: (إن المجرمين)... إلخ. أى إن هؤلاء الكفار الذين أجرموا فى حق ربهم بالكفر والمعاصى كانوا فى بعد عن الصواب، انظر الآيات (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. كما كانوا فى جنون منعهم من التأمل فى البراهين الدالة على الحق. وسيقال لهم يوم يسحبون فى النار بالسلاسل على وجوههم ذوقوا عذاب جهنم.

ما يشاؤه تعالى. ثم رجع إلى تهديد كفار قريش فقال سبحانه: ولقد أهلكنا أمثالكم من الكفار لأنهم عملوا عملكم. فهل فيكم عاقل يتدبر فيرجع عن أسباب الهلاك؟

ثم بيَّن سبحانه أن كل أعمالهم مسجلة فلم يظلمهم فقال تعالى: وكل شىء فعلوه فى الدنيا مسجل فى كتب الحفظة.

ثم زاد إيضاحا وتفصيلا فقال: وما من صغيرة ولا كبيرة مما فعلوه إلا وهى مسطرة فى صحائفهم. فليحذروا ما هم قادمون عليه. وبعدما بيَّن جزاء الكافرين ختم السورة ببيان جزاء المؤمنين، ليظهر التقابل فيتنبه الغافل. فقال: إن المتقين.. إلخ. أى إن المتقين فى مكان محاط بجنات وأنهار فى مكان شريف عال عن ملك عظيم لا يعجزه شىء أراده. وهذا المكان المشرف هو الجنة، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لأسبابها.

سورة الرحمن

الرحمن سبحانه هو الذى علم نبيه ﷺ القرآن. لا رجل من البشر كما يزعم المشركون، انظر الآية (١٠٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٠، والآية (٨٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٩، ٥٢٠ والآية (٤٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧.

ولقد قدم سبحانه (علم القرآن) للإشعار بأن من آثار رحمته تعالى تعليم القرآن؛ لأنه مصدر الخير للإنسان فى دينه ودنياه، وبه يعرف الإنسان كيف يعبد ربه، والعبادة هى حكمة خلقه، انظر الآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦، وفى كل من تعظيم شأن القرآن ما لا يخفى.

وقال العلماء: وبما أن الغاية من إيجاد النبى هو المقصود الأصلى وهى أول ما يخطر على البال قدَّمَ سبحانه ذكرها أولا وإن كان الأمر بالعكس فى الوجود الخارجى؛ لأن خلق الإنسان فى الوجود مقدم على تحقيق الغاية والحكمة فى إيجاده. وهو سبحانه من فضل رحمته خلق الإنسان وأنعم عليه بما سيذكر هنا من النعم.. ولما كانت السورة كلها فى تعداد نعمه سبحانه الدنيوية والأخروية مع التحذير مما يستدعى غضبه - صدرها سبحانه باسمه تعالى (الرحمن).

عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾
وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ
بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ[1] وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾
وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[2] رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ[3] مِن صَلْصَٰلٍ[4] كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾
وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[5] رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[6] رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[7]
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾

المفردات: ﴿البيان﴾: أى أن يبين ما فى ضميره بنطق واضح، أو كتابة توصل مراده لغيره مهما تباعدت المسافات بينهما. انظر الآية (٤) من سورة العلق صفحة ٨١٤.
﴿حسبان﴾: مصدر كالغفران، ومعناه الحساب الدقيق. ﴿النجم والشجر يسجدان﴾: يطلق العرب النجم على ما نراه فى السماء، وهو المذكور فى الآية (١٦) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، كما يطلقونه أيضا على النبات الصغير الذى ينجم أى يظهر من الأرض ولا ساق له، وهذا هو المراد هنا. ويطلقون الشجر على النبات الذى له ساق وأغصان. وسجودهما: انقيادهما لله تعالى فيما أراد منهما كانقياد الساجد لخالقه تعظيمًا له. انظر الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨ والآية (١٨) من سورة الحج صفحتى ٤٣٥، ٤٣٦.

﴿ووضع الميزان﴾: وضع: أى أنزل على لسان كل نبى كما سيأتى فى الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣، والميزان تقدم فى الآية (١٧) من سورة الشورى صفحة ٦٤١.

﴿ألا تطغوا﴾: الطغيان هنا أخذ الزيادة عن الحق. ﴿القسط﴾: العدل. ﴿لا تخسروا﴾: أى لاتنقصوا العدل عن أصوله من تمام الضبط. ﴿الأنام﴾: المراد به هنا الأنس والجن ليتناسب مع تثنية الضمير فى قوله تعالى (تكذبان) ومع الآيات (١٤، ١٥، ٣١، ٣٣) الآتية، قال ابن عباس (الأنام): هو الحيوان كله أى كل ما فيه روح على وجه الأرض. ﴿الأكمام﴾: أى الأغطية التى تكون على الثمار قبل ظهورها، كما تقدم فى الآية (٤٧) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦.
﴿العصف﴾: هو التبن الذى يتكون من عيدان القمح والشعير إذا تكسرت مثلا، ومن قشر الحب والذى تأكله الدواب والرياح تعصفه بسهولة. ﴿الريحان﴾: نبت له رائحة طيبة.

(١) فاكهة. (٢) آلاء. (٣) الإنسان. (٤) صلصال. (٥، ٦، ٧) آلاء.

﴿فبأى آلاء ربكما﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٥٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٤. ﴿صلصال﴾: هو الطين اليابس الذى له صلصلة أى صوت يتردد. ﴿الفخار﴾: هو الطين المحروق. ﴿مارج﴾: المراد به هنا اللهب الذى ينطلق فى الهواء مضطربًا، انظر المادة فى الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦. ﴿من نار﴾: (من) تدل على أن ما بعدها بيان لجنس ما قبلها. ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾: المراد مشرق ومغرب الشمس والقمر. ﴿مرج البحرين﴾: (برزخ). ﴿لا يبغيان﴾: كل ذلك تقدم فى الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦. ﴿ولا يبغيان﴾: أى لايتعدى أحدهما على الآخر حتى يذهبه، انظر الآية (٦١) من سورة النمل صفحتى ٥٠١، ٥٠٢. ﴿يخرج منهما.. إلخ﴾: انظر شرح الآية (١٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣.

المعنى: ومن رحمته سبحانه أنه اختص الإنسان بأن وضع فيه استعداد تعلمه ما يوضح به مراده بكل الطرق نطقًا وكتابة. وهذا لا يوجد فى غيره من الحيوانات. ثم انتقل سبحانه إلى بيان ما أنعم به على الإنسان من العالم العلوى والسفلى، انظر الآية (٣٢) وما بعدها من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٤، ٣٣٥. فقال تعالى: (والشمس والقمر).. إلخ. أى والشمس والقمر يجريان بحساب دقيق وبذلك تتكون الأيام والفصول والسنون فنعلم ما ينفعنا: انظر الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦: والنجم والشجر خاضعة لما يريده الله تعالى منها منادية بأنه لا رب غيره سبحانه وتعالى. ورفع السماء بغير عمد. وأنزل الآيات المشتملة على القواعد المبينة للحق والباطل ليلتزمها المكلف فى معاملته مع الله تعالى ومع الخلق فلا يتعدى حدود الله فى تطبيق هذه القواعد. وأقيموا وزنكم أى تقديركم للأمور بالعدل التام. ولا تنقصوه مما ينبغى أن يكون عليه. فإن المقصود من وضعه أن يكون كاملاً. وإنما كرر سبحانه العدل والوصية به على صور مختلفة لزيادة العناية به. وتحذير الخلق من إهماله إرضاءً للشهوات التى تغلب كثيرًا من ضعاف الإيمان. قال قتادة: (اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل لك وأوف كما تحب أن يوفى لك. فإن فى العدل صلاح الناس). وأوجد سبحانه الأرض فى وضع أقرب إلينا من السماء فى نظر العين لينتفع بما فيها الأنس والجن، انظر الآية (٢٩) من سورة البقرة صفحة ٧.

ثم بيَّن سبحانه بعض هذه المنافع فقال سبحانه: فيها فاكهة من كل نوع وخص النخل بالذكر لأن كل شىء فيه مفيد خصوصا ثمره الذى يكون أول ظهوره محفوظًا بالأكمام. وفيها الحب الذى يقتات به الإنسان. والعصف الذى يقتات به الحيوان، انظر الآية (٣٠) وما بعدها

من سورة [illegible] صفحة ٧٩٠. ثم وبخ سبحانه مَن كفر بنعمه بعدم الشكر عليها. وبعبادة غيره مع أنه وحده المنعم. ومَن يجحد فضله تعالى فكأنما كذب كونه هو المنعم فقال: فبأى آلاء ربكما.. إلخ. أى فبأى فرد من أفراد نعم ربكما يا معشر الإنس والجن تكذبان، مع أن كل نعمة منها ناطقة بالحق شاهدة بالصدق. ويندب لكل سامع عند كل آية من هذه أن يقول (لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد) وكرر سبحانه هذه الآية فى واحد وثلاثين موضعًا لتقرير النعمة وتأكيد التذكير بها: وهذا أسلوب معروف فى كلام العرب عند العناية بشىء. يقول أحدهم لمن أحسن إليه (ألم تكن ضائعا فهديتك؟ هل تذكر هذا؟ ألم تكن عريانا فكسوتك؟ هل تذكر هذا؟ ألم تكن فقيرا فأغنيتك؟ هل تذكر هذا؟ ألم تكن معرضًا للوقوع فى خطر فنجيتك؟ هل تذكر هذا؟) ومن هذا النوع قصائد قالها المهلهل بن ربيعة والحارث بن عباد البكرى فى حرب البسوس ذكرها المؤرخون والأدباء: فى (باب أيام العرب) فارجع إليها إن شئت. قال بعض الأدباء: ومقام النعم يكون التكرار فيه أحلى فى الذوق من السكر إذا تكرر. فتنبه أيها القارئ لأساليب العرب حتى لا تقع فى شباك خصوم الإسلام. ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٥٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٤ من أن ما هو فى الظاهر ليس نعمة كما فى الآية (٣٦) الآتية وما بعدها صفحة ٧١٠ فإنه فى الحقيقة نعمة باعتبار الإرشاد إلى خطره ليبتعد السامع عن أسبابه. ثم فصّل سبحانه بعض هذه النعم السابقة مع تكرار التوبيخ على إهمال الشكر عليها فقال: خلق الإنسان.. إلخ. أى إنه سبحانه صاحب الفضل على الإنسان حيث خلق أباه الأول من طين يابس ثم نفخ فيه الروح فصار فى أحسن تقويم كما فى الآية (٤) من سورة التين صفحة ٨١٢. وخلق سبحانه أبا الجن الأول من لهب مضطرب كائن من نار. فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان. وهو سبحانه رب.. أى موجود ومنظم مشرقين للشمس والقمر ورب مغربيهما أيضًا. ثم ذكر سبحانه نعمته فى المائين وبقاء كل منهما على حاله ليتحقق النفع بهما فقال: (مرج البحرين).. إلخ. أى أجرى البحر المالح والعذب حال كونهما يلتقيان فى بعض الأماكن ولكن بينهما حاجزا قويا جدا فى هذه الأماكن لا يطغى أحدهما على الآخر حتى يصير الكل مالحا أو الكل عذبا فتضيع الحكمة المشار إليها فى الآية (١٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢. فبأى نعمة من هذه النعم تكذبان يا معشر الإنس والجن. ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى من ملحقات البحرين فقال: يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فتنتفعون بهما فى التجارة والتحلى.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ
فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ[1] ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ[2]
وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾
يَسْـَٔلُهُۥ[3] مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ[4] وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى
شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ
لَكُمْ أَيُّهَ[5] ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾
يَـٰمَعْشَرَ[6] ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ
أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَـٰنٍ[7] ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ

المفردات: ﴿الجوار﴾: جمع جارية. والمراد بها السفينة. ﴿المنشآت﴾: أى المرفوعات الشراع، تقول العرب: أنشأت الشراع أى رفعته. ﴿الأعلام﴾: جمع علم والمراد به هنا الجبل المرتفع.

﴿مَنْ عليها﴾: المراد على الأرض المفهومة من سياق الكلام، كما فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿وجه ربك﴾: المعنى المراد ذات ربك. ولكن حقيقة الوجه لا نعرفه، انظر شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

﴿الجلال﴾: هو التناهى فى عظم القدر ولا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

﴿الإكرام﴾: أى الإحسان إلى المتقين بما فيه تكريم وتشريف. ﴿كل يوم﴾: المراد باليوم هنا اللحظة من الزمن ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١. ﴿فى شأن﴾: أى متصرف فى شأن من شئون خلقه كالإحياء والإماتة والإيجاد والإعدام والعطاء والحرمان إلى غير ذلك مما لا يحصى.

﴿سنفرغ لكم﴾: يقول العربى إذا أردتم تهديد غيره: سأتفرغ لحسابك على ما فعلت. وبما أن الله سبحانه وتعالى لا يشغله شىء عن شىء. فيكون الكلام كناية عن أنى سأحاسبكم حساب المتفرغ لكم. ﴿الثقلان﴾: تثنية ثَقَل بفتحتين وهما الإنس والجن: لأنهما أثقل الأرض بالوجود فيها. انظر الآية (٢) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٧.

﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض﴾: أى أن تخترقوا جميع السموات والأرض من جانب إلى جانب. والمراد: لا تستطيعون ذلك، لأن فيها كواكب ملتهبة كالشمس، والشعرى لا يدنو منها مخلوق إلا احترق.

(١) كالأعلام. (٢) الجلال. (٣) يسأله. (٤) السموات. (٥) أيها. (٦) يا معشر. (٧) بسلطان.

﴿سلطان﴾: المراد به هنا: القوة، والقهر. أى بقوة قاهرة لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى. ﴿يرسل عليكما﴾: قال بعض العلماء: هذا تحذير لهم فى الدنيا، كما هو ظاهر الكلام السابق، وقال آخرون: بل تهديد بما سيكون فى جهنم. ﴿شواظ﴾: أى لهب، انظر الآية (٣) من سورة المسد صفحة ٨٢٦. ﴿نحاس﴾: أى مذاب تشوى به جلودهم وبطونهم. انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٢٨٤، ٢٨٥. ﴿فلا تنتصران﴾: المراد: فلا تجدان مَنْ ينصركما، بمنع العذاب عنكما.

المعنى: فبأى نعمة من نعم ربكما يا معشر الجن والإنس تكذبان. وله سبحانه وحده تدبير سير السفن الكبار فى البحار تحملكم وتحمل أرزاقكم، انظر توضيح ذلك فى الآية (٣٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤ والآية (٣١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣ والآيتين (٣٢، ٣٣) من سورة الشورى. فبأى آلاء ربكما تكذبان وبعد ما ذكر سبحانه بعض نعم الدنيا أتبع ذلك بأن كلها زائلة ليرغبهم فى النعيم الدائم فقال: كل مَنْ عليها أى على الأرض فان.

ويبقى ذات ربك صاحب القدر العظيم والإكرام لأوليائه. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يسأله سبحانه كل مخلوق فى السموات والأرض بلسان الحال أو بلسان المقال، كل ما يحتاجونه فى وجودهم أو بقائهم. فإذا كان سبحانه كل لحظة متصرف فى شأن من شئون عباده من إيجاد وإعدام، وخفض ورفع، وتوسعة وتضييق، قال ﷺ: ومن شأنه تعالى أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما ويضع آخرين. فبأى آلاء ربكما تكذبان. وبعدما عدد سبحانه نعمه على عباده وذكر أنهم مفتقرون إليه فى كل لحظة، وبين أن ما فى الدنيا لا يدوم أراد أن ينبههم إلى أنه سيحاسبهم حسابا دقيقا فقال: (سنفرغ لكم).. إلخ، أى لنحاسبكم بدقة لا يشغلنا عن ذلك شىء يا أيها الثقلان من الإنس والجن. وبعد نعمة التنبيه الخطر التى هى واحدة من كثير قال: فبأى نعمة منها تكذبان. ثم بيَّن أنه لا مهرب من هذا اليوم فقال: (يا معشر الجن والإنس).. إلخ. أى يا جماعة الجن والإنس إن قدرتم أن تفروا من جانب من جوانب السموات والأرض للهرب من الحساب فاهربوا. ولكن لن تستطيعوا ذلك إلا بالقوة التى تفوق قوة ربكم وذلك مستحيل. فبأى نعمة من هذه النعم المرشدة تكذبان. ثم حذر سبحانه مما سيكون للعصاة حتى يحاولوا الهرب فقال: (يرسل عليكما).. إلخ. أى يسلط عليكما - أيها الجن والإنس - لهب من نار ويسلط عليكما أيضا نحاس مذاب تكوى به جلودكم ولا يمكن خلاصكم بوجود مَنْ ينصركم ويمنع ذلك عنكم. فبأى آلاء ربكما تكذبان. ثم بيَّن سبحانه وتعالى مبدأ هذا الهول فقال: (فإذا انشقت السماء فكانت).. إلخ. انظر الآية (٢٥) وما بعدها من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧، والآية الأولى وما بعدها من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩.

وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ[1] عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ[2]
فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي[3] وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾
يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ[4] ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ[5] زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ
بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

المفردات: ﴿وردة﴾: أى كوردة حمراء، انظر الآية (٨) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥. ﴿كالدهان﴾: أصله ما يدهن به كالإدام لما يؤتدم به. والمراد كالزيت الذى يغلى، فهو تشبيه آخر قصد به الذوبان والحرارة. ﴿لا يسأل عن ذنبه﴾.. إلخ: انظر شرح الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨. ﴿المجرمون﴾: المراد بهم الكافرون كما فى الآية (٤٣) الآتية هنا والآية (٢٩) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿سيماهم﴾: السيمى: العلامة، انظر علاماتهم فى الآيات (١٠٢) من سورة طه صفحتى ٤١٥، ٤١٦، (٦٠) من سورة الزمر صفحة ٦١٤، (٤٠، ٤١) من سورة عبس صفحة ٧٩١. ﴿فيؤخذ بالنواصى﴾.. إلخ: النواصى: جمع ناصية وهى مقدم الرأس، انظر الآية (١٥) من سورة العلق صفحتى ٨١٤، ٨١٥. والمراد: تجذبهم ملائكة العذاب من رءوسهم، وأقدامهم، وترميهم فى جهنم، وذكر (فبأى آلاء ربكما تكذبان) بعد ذكر هول العذاب يفيد أن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه نعمة عظمى. ﴿يطوفون﴾: أى ينتقلون، انظر شرح الآية (٦٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩١. ﴿حميم﴾: ماء حار، يسقون منه. انظر الآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤. ﴿آن﴾: أى شديد الحرارة. ﴿خاف مقام ربه﴾: يصح أن يراد بالمقام الحضرة العلية كما تقدم فى الآية (١٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، ويصح أن يراد به قيامه سبحانه وتعالى على العبد أى مراقبته له كما فى الآية (٣٣) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٦، ٣٢٧. ﴿جنتان﴾: القرآن عربى اللفظ والأسلوب، فهو يخاطب العرب بما يعهدونه مما يسر وما يخيف. فيذكر الإبل والنخل والرمان. ويكثر من تخويفهم من حر جهنم لأنهم يشعرون بضيق الحرارة. وكان الرجل منهم يفخر بأن له بساتين مثلا ليتمتع بالتنقل

(١) يسأل. (٢) بسيماهم. (٣) بالنواصى. (٤) ان. (٥) فاكهة.

بينهما حتى لا يمل المنظر الواحد. فالمراد هنا يكون للمتقين فى الجنة أوسع أنواع النعيم أما حقيقة هذا النعيم فلا يعلمها غيره سبحانه، انظر الآية (١٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦. ﴿ذواتا﴾: صاحبتا. ﴿أفنان﴾: أغصان كثيرة، مفردها فَنَن بفتحتين. ﴿زوجان﴾: أى صنفان، ويقال فيه ما قيل فى جنتان. ﴿فرش﴾: مفرده فراش. ﴿إستبرق﴾: حرير سميك. ﴿جنى﴾: هو الثمر الذى تهيأ للجنى. ﴿دان﴾: أى قريب التناول لكل راغب فيه.

المعنى: فإذا انشقت السماء عند قيام الساعة. فكانت حمراء سائلة مع لمعان. حل بالخلق الهول، انظر الآية (٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٣. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيوم تتصدع السماء ويحشر الخلائق لا يسأل المجرمون من الإنس والجن عن ذنوبهم سؤال استجلاب رحمة، وإنما سيسألون سؤال توبيخ. فبأى آلاء ربكما تكذبان. تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم فتجذبهم من رءوسهم وأقدامهم وتطرحهم فى جهنم. فبأى آلاء ربكما تكذبان. وتقول لهم الملائكة تبكيتًا: هذه هى جهنم التى كنتم تكذبون بها أيها المجرمون. وإذا استغاثوا من حرها، وطلبوا ماء، ينتقلون إلى ماء شديد الحرارة يشوى وجوههم إذا قربوه منها كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. فبعد هذا التنبيه كيف تكذبون نعمة ربكما عليكما به. وبعد ما بيَّن سبحانه الأهوال التى سيلاقيها المجرمون أتبع ذلك ببيان نعيم المتقين لتتحرك النفوس المستعدة للهداية فقال: ولِمَنْ خاف مقام ربه أى لكل واحد ممَّنْ خاف مقام ربه من السابقين المذكورين فى الآية (١٠) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤ جنتان يتنقل بينهما فى الوقت الذى يتنقل فيه المجرم بين جهنم والحميم. فما أعظم الفرق بينهما. قال الراغب: وليس الخوف هنا معناه الرعب إنما هو الكف عن المعاصى. والقيام بالطاعات. ولهذا قالوا: لا يعد خائفًا مَنْ ليس للذنوب تاركا. فبأى آلاء ربكما تكذبان. أشجار هاتين الجنتين لها أغصان كثيرة، وكل غصن يحمل ثمرًا كثيرًا أيضًا. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيها عينان تجريان فتكونان أنهارا. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما من كل فاكهة صنفان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يتنعم هؤلاء المقربون حال كونهم متكئين كما يفعل الملوك. لا يشغلهم عن التنعم عمل. على فرش بطائنها من حرير سميك. أما ظواهرها فلا يحيط بعظمتها غيره تعالى. وثمار الجنتين قريبًا لمَنْ يريده، لا مشقة فى الحصول عليه. انظر الآية (٢٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ والآية (١٤) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾
كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ
خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾
حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾

المفردات: ﴿فيهن﴾: أى فى الأشياء المذكورة فيما تقدم، من الجنتين، وما حوتا من غرف، وفرش، وفواكه.

﴿قاصرات الطرف﴾: المراد حابسات أعينهن على أزواجهن، كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠.

﴿لم يطمثهن﴾: أى لم يفض بكارتهن، انظر الآية (٣٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥.

﴿إنس قبلهم ولا جان﴾: أى لم يمس الإنسيّة إنسى قبل زوجها ولا الجنيّة جنّى قبل زوجها كذلك.

﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾: الياقوت: بياضا وصفاء، والمرجان: حمرة وجمالا.

﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾: هل الاستفهام الإنكارى المفيد للنفى أى لا جزاء لإحسان الأعمال إلا إحسان الثواب. ﴿ومن دونهما جنتان﴾: أى أقل منهما جنتان وهما لأصحاب الميمنة. انظر الآية (٨) الآتية فى سورة الواقعة صفحة ٧١٣ والآية (٢٧) من سورة الواقعة أيضًا صفحة ٧١٤.

﴿مدهامتان﴾: (مدهامتان): لفظ مأخوذ من (الدُّهْمة) بوزن الفرقة، وهى السواد، والمراد: أنهما لشدة خضرتهما يريان من بعيد كأنهما مسودتان، تقول العرب: حصان أدهم أى أسود وتقول ادهام بكسر أوله وسكون الدال وتشديد الميم مدهام بوزن مختار أى اشتد سواده.

﴿نضاختان﴾: أى فوارتان بالماء.

(١) قاصرات.
(٢) الإحسان.
(٣) فاكهة.
(٤) خيرات.
(٥) مقصورات.

﴿نخل ورمان﴾: من عطف الخاص على العام، ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٤٦) الماضية صفحة ٧١١. ﴿خيرات﴾: تقول العرب: فلانة خَيرة بفتح فسكون. وخيِّرة بتشديد الياء المكسورة، والمعنى واحد. أى حسنة حسنًا حسيًا، انظر الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦؛ وانظر (عربا) فى الآية (٣٧) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥.

﴿حسان﴾: جميلات الوجوه. ﴿حور﴾: تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩.

﴿مقصورات﴾: أصل معنى المقصورة الملازمة بيتها لا تتعداه. لكن المراد هنا أنها غير مبتذلة فى عمل من الأعمال. بل هى كالمخدرة المكرمة.

﴿فى الخيام﴾: لا تنس ما تقدم فى الآية (٤٦) السابقة صفحة ٧١١ وهذا الاستعمال جار على معهود العرب. والذى يجب أن نفهمه أنها أمكنة للتنعيم لا يعلمها غيره تعالى. مضافة إلى أمكنة أخرى من بناء، كما فى آيتى (٥٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩ و(٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩.

المعنى: فى كل ما تقدم من مواطن النعيم زوجات من الإنس والجن لا ينظرن لغير أزواجهن أبكار لم يمس الإنسية منهن إنس قبل زوجها فى الجنة. ولا الجنية منهن جنى قبله كذلك. فبأى آلاء ربكما تكذبان. كأن أجسام هذه الزوجات الياقوت بياضا وصفاءً. وكأن وجناتهن المرجان حمرة ورواءً. فبأى آلاء ربكما تكذبان. ثم بيَّن سبب مجازاة المؤمنين بذلك فقال: (هل جزاء الإحسان).. إلخ. أى وإذا كان العبد خاف مقام ربه فلا نجازى إحسانه لعمله إلا بإحسان ثوابه.

فبأى آلاء ربكما تكذبان، ومن دون هاتين الجنتين الموعود بهما الخائفون جنتان لأصحاب اليمين المذكورين فى الآية (٨) من سورة الواقعة الصفحة الآتية. فبأى آلاء ربكما تكذبان. هاتان الجنتان شديدتا الخضرة. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما عينان فوارتان تجرى منهما الأنهار. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما فاكهة ونخل ورمان، انظر ما قيل فى الآية (٤٦) الماضية صفحة ٧١١ (فبأى آلاء ربكما تكذبان). فيهن زوجات خيرات الأخلاق حسان الوجوه. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فى عيونهن جمال فائق، وهن مخدرات مكرمات فى أمكنة بهجة لا تخطر على بال مخلوق. فبأى آلاء ربكما تكذبان. لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان: تقدم معناه.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧)
تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)

(٥٦) سورة الواقعة مكية
وآياتها ست وتسعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ
رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ
بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا
ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨)
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)

المفردات: ﴿رفرف﴾: اسم جنس واحده رفرفة، كما يقال: تمر وتمرة، وهى الستائر التى تتدلى من الأسِرة.

﴿عبقرى﴾: الياء فيه، كالياء فى (كرسى) أى أصلية، وليست للنسب (كمصرى ومغربى) نسبة إلى مصر والمغرب، وإنما هى من بنية الكلمة، وأصله كل شىء يتعجب من جودته، وهو لفظ يطلق على الواحد والأكثر، مثل (الفلك) و(الطفل) انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١ والآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩ والآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢، والمراد به هنا: البسط المزخرفة بألوان مصبوغة.

﴿حسان﴾: تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿تبارك﴾: تقدم فى الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠.

﴿اسم ربك﴾: المراد به الرحمن المتقدم فى أول السورة.

(١) تبارك.
(٢) الجلال.
(٣) أزواجا.
(٤) ثلاثة.
(٥) فأصحاب.
(٦، ٧) أصحاب.
(٨) المشأمة.
(٩) أصحاب.
(١٠) المشأمة.
(١١) السابقون.

﴿الجلال والإكرام﴾: تقدم فى الآية (٢٧) صفحة ٧١٠.

﴿وقعت﴾: أى حدثت.

﴿الواقعة﴾: اسم القيامة لأنها ستقع قطعا.

﴿لوقعتها﴾: اللام بمعنى (عند) كما فى قوله تعالى ﴿لدلوك الشمس﴾ فى الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٢٧٥، والمعنى عند وقوعها.

﴿كاذبة﴾: جاء هذا الوزن فى لغة العرب مرادا به المصدر أى الكذب، انظر شرح (خائنة) بمعنى (خيانة) فى الآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٨ والمراد أنها إذا وقعت انقطعت [illegible] فى الدنيا.

﴿خافضة رافعة﴾: ترفع أقواما وتخفض آخرين.

﴿إذا رجت الأرض﴾: أى زلزلت انظر الآية (١) من سورة الحج صفحتى ٤٢٢، ٤٢٣، والآية (١) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٧ و(إذا) بدل من (إذا) الأولى.

﴿وبست الجبال﴾: أى فتتت وتفرقت انظر شرح الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧.

﴿هباء﴾: تقدم فى الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣.

﴿منبثا﴾: أى منتشرا فى الفضاء.

﴿أزواجا﴾: أى أصنافا.

﴿ثلاثة﴾: إذا علمت أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدا من عمله مثقال ذرة كما فى الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧، وأنه سبحانه فضل بعض الرسل على بعض كما فى الآية (٢٥٣) من سورة البقرة صفحتى [illegible] وأهل النار متفاوتون فى العذاب كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨ ثم [illegible] كل هذا تعلم أن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة على درجات بعضها أعلى من بعض. ﴿أصحاب الميمنة﴾: المراد بالميمنة جهة اليمين والمراد: أصحابها هم الذين يعطون كتابهم بأيمانهم، انظر الآية (١٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

﴿ما أصحاب الميمنة﴾: (ما) اسم استفهام يقصد به فى مثل هذا المقام تهويل أمر الشئ المتحدث عنه، إما فى حسن الحال، كما هنا، أو فى قبحه كما سيأتى بعد، والمراد به هنا أصحاب اليمين، انظر الآية (٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١. ﴿المشأمة﴾: هى جهة الشمال لأن شأنها أن يتشاءم بها. وأصحابها هم الذين يأخذون كتابهم بشمالهم، انظر الآية (٢٥) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣.

المعنى: فبأى نعمة من نعم ربكما يا معشر الإنس والجن تكذبان يتنعم أصحاب اليمين بتلك النعم السابقة حال كونهم متكئين على ستائر خضر متدلية من فوق السرر ويجلسون على فرش فاخرة ويكفيك فى حسنها وصفه سبحانه وتعالى لها بأنها حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان ومن كل ما سبق الفرق بين نعيم من خاف مقام ربه ومن كان فى المنزلة أقل منهم. وذلك أنه سبحانه جعل الغالب فى بساتين الأولين الأشجار ذات الفواكه والغالب للآخرين النبات الأخضر والرياحين وقال فى الأولين: (من كل فاكهة)، وفى الآخرين: (فيهما فاكهة). وكذا فرق فى الماء لأن العين الجارية أغزر ماءً من الفوارة. وكذا ما وصف به الحور العين فى الفريق الأول دون الثانى ومع ذلك فالكل منعمون يشعر الأعلى بتفوقه ولا يشعر به الأقل؛ لأن الله سبحانه رفع من صدورهم الحسد والغل، انظر شرح الآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧.

﴿سورة الواقعة﴾

إذا قامت القيامة التى لا شك فى وقوعها، لا يوجد عند ذلك مَنْ يقول: إن الوعد بها كان كذبا بل يقطع بها حتى مَنْ كان ينكرها، وهى خافضة لقوم بدخولهم النار والمراد مظهرة لذلك ورافعة لقوم بدخولهم الجنة أى فى وقت وقوع الواقعة تزلزل الأرض زلزالاً شديداً، وتفتت الجبال تفتيتًا شديدًا فتكون غبارا متناثرا فى الفضاء، وعند ذلك تكونون أيها الخلائق أنواعا ثلاثة، اثنان فى الجنة وواحد فى النار، ثم شرع فى بيان هذه الأنواع على وجه الإجمال فقال: (فأصحاب الميمنة).. إلخ. أى فأصحاب الميمنة فى غاية حسن الحال وفخامة المنزلة وأصحاب المشأمة فى نهاية سوء الحال وشناعة المنزلة. والسابقون أخرهم مع أنهم أعلى ليربط بهم بيان أحوالهم قبل بيان أحوال غيرهم.

ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ[2]
ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ[3] ﴿١٤﴾
عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ[4] ﴿١٦﴾
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ[5] مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾
وَفَٰكِهَةٍ[6] مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾
وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ[7] ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا[8] سَلَٰمًا[9] ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ[10] ٱلْيَمِينِ
مَآ أَصْحَٰبُ[11] ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ
مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَٰكِهَةٍ[12] كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ

المفردات: ﴿السابقون﴾: هم المسارعون إلى كل ما دعا الله إليه، الفارون من كل ما نهى عنه، وداوموا على ذلك طول حياتهم، وهم من كل أمة من زمن آدم إلى قيام الساعة، انظر بعض صفاتهم فى الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤ والآيات (٦٣ إلى ٧٤) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٧، ٤٧٨ والآيات (١٦) وما بعدها من سورة الذاريات صفحة ٦٩٢.

﴿ثلة﴾: اسم غلب استعماله فى الجماعة الكثيرة أى كثير، والمراد: كثير من صدر كل أمة آمنت بنبيها فى حين قوة الدعوة.

﴿موضونة﴾: تقول العرب: وضن فلان الدرع بوزن وعد، أى نسجه بإتقان فأصل الموضون المنسوج بنظام، والمراد هنا: متصل بعضها ببعض بنظام بديع كأنها منسوجة، انظر الآية (١٠) من سورة (ق) صفحة ٦٨٩ والآية (٢٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٧.

﴿متقابلين﴾: تقدم فى الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١.

---

(١) السابقون.
(٢) جنات.
(٣) الآخرين.
(٤) متقابلين.
(٥) ولدان.
(٦) فاكهة.
(٧) كأمثال.
(٨، ٩) سلاما.
(١٠، ١١) أصحاب.
(١٢) وفاكهة.

﴿ولدان﴾: هم الغلمان المتقدم ذكرهم فى الآية (٢٤) من سورة الطور ٦٩٨.

﴿أكواب﴾: جمع كوب، وهو الإناء الذى لا عروة له ولا خرطوم

﴿أباريق﴾: جمع إبريق وهى آنية لها عرى وخراطيم.

﴿كأس من معين﴾: تقدمت فى الآية (٤٥) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩.

﴿لا يصدعون عنها﴾: أى لا يصيبهم صداع ناشئ عن شربها، كخمر الدنيا.

﴿ينزفون﴾: انظر أصل معنى المادة فى الآية (٤٧) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٩، ٥٩٠، والمراد هنا: لا يخرجون ما فى بطونهم بالقىء بسبب شربها، كما تفعل خمر الدنيا من إخراج الطعام بالقىء. ﴿وحور عين﴾: تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩.

﴿اللؤلؤ المكنون﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿لغوًا ولا تأثيمًا﴾: تقدم فى الآية (٢٣) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿قيلا﴾: القيل هو القول، انظر الآية (١٢٢) من سورة النساء صفحة ١٢٣.

﴿سلامًا سلامًا﴾: بيان لـ (قيلا) قبله.

﴿سدر﴾: شجر النبق وليس كنبق الدنيا ولكنها فاكهة تليق بالجنة؛ قال ابن عباس: ليس فى الدنيا من نعيم الجنة إلا الأسماء.

﴿مخضود﴾: تقول العرب: خضد فلان الشجر بوزن ضرب إذا قطع ما فيه من الشوك ولم يبق إلا الثمر.

﴿طلح﴾: جاء فى لسان العرب: ليس هو الموز، ولكنه شجر عظيم وارف الظل، طويل الفروع يستظل تحته الإبل والخلق، وأطلقه القرآن على نوع من أشجار الجنة المثمرة بما ليس لها فى الدنيا مثل. ﴿منضود﴾: متراكب بعضه فوق بعض وليس فى ساقه مكان خال من الثمر، انظر المادة فى الآية (١٠) من سورة (ق) صفحة ٦٨٩.

المعنى: السابقون هم السابقون، وهذا تركيب تقوله العرب عند إرادة لفت النظر إلى التهويل فى شأن شىء، تعظيمًا أو تحقيرًا. فالمراد: السابقون هم هؤلاء المشهورة أحوالهم،

المعروفة فضائلهم. ثم بيَّن نتيجة عملهم إجمالاً فقال: أولئك هم المقربون أى أصحاب الحظوة والمنزلة الرفيعة عند ربهم فى جنات النعيم. هؤلاء كثير من صدر كل أمة من أمم الأنبياء، فى حين قوة الدعوة وقليل من متأخريهم، ثم بيَّن نعيمهم فقال: على سرر.. إلخ. أى جالسون على سرر مصفوفة بنظام بديع حال كونهم متكئين عليها كالملوك. لا يشغلهم شىء، متقابلين، يسر بعضهم بمشاهدة بعض. يطوف عليهم غلمان لا يكبرون ولا يتغيرون بأكواب وأباريق فيها خمر من نهر ظاهر للعيون لتسر به لا يصيبهم صداع من شربها ولا يتقيأون. ولا يتبولون كما تفعل خمر الدنيا بشاربها، قال ابن عباس: خمر الدنيا تصيب بالسكر والصداع والقىء والبول. وقد نزه الله تعالى خمر الجنة عنها. ويطوف الخدم أيضًا بأصناف من الفاكهة مما يتخيرونه، وبلحم طير مما يشتهون، وبعدما بيَّن سبحانه نعيمهم المطعوم والمشروب أتبعه بذكر نسائهم فقال: (وحور عين).. إلخ. أى ولهم فى الجنة نساء حسان العيون بيض كأنهن فى صفاء بشرتهن اللؤلؤ المحفوظ فى صدفه. جزاهم ربهم بهذا كله مكافأة لهم بما كانوا يعملونه فى الدنيا، انظر بعضه فى الآية (١٦) وما بعدها من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣. لا يسمعون فى الجنة من القول ما هو لغو، وهو ما لا فائدة فيه. ولا يسمعون القول الموقع فى الإثم. ولكن يسمعون تحية مكررة بتكرر قائليها، بيَّنها بقوله: سلاما. أى سلاما من الله تارة كما فى الآية (٥٨) من سورة يس صفحة ٥٨٤، ومن الملائكة تارة كما فى الآيتين (٢٣، ٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦. ومن أصحاب الأعراف كما فى الآية (٤٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩.

ثم شرع فى بيان حال أصحاب اليمين فقال: (وأصحاب اليمين).. إلخ. انظر المراد من هذا التركيب فى الآية (٨) السابقة أى فى أحسن حال، ثم بيَّن حالهم بعد دخول الجنة فقال: (فى سدر).. إلخ. أى فى جنات ذات شجر من نبق يليق بنعيم الآخرة منزوع الشوك، وفى مكانه ثمر حتى لا يكون فيه ما يؤذى متناوله. وشجر عظيم وارف الظل لاحر معه. وماء يسكب لهم متى شاءوا. وفاكهة كثيرة لا تنقطع لعدمها، ولا تمنع عنهم مع وجودها. وفرش يجلسون عليها، انظر الآية (٥٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١.

مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ[1] إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ[2]
أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ[3] الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ
مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ[4] ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَابُ
الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ[5] الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ
الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا[6] مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا[7]
أَئِنَّا[8] لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا[9] الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ[10] ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ[11] يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَآكِلُونَ[12] مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا
الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ[13] عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ[14]

المفردات: ﴿أنشأناهن﴾: أى أوجدناهن من جديد. والضمير يعود على الزوجات اللاتى أشار إليهن سبحانه إشارة لطيفة بقوله (فرش) فهن مفهومات من المقام، كما فهمت الأرض فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣، وانظر نظير هذا الاستعمال فى الآية (٣٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤ والآية (٢٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠ والآية (٨٣) الآتية صفحة ٧١٧.

﴿أبكارا﴾: عذارى دائمًا كلما مسهن أزواجهن رجعن أبكارا ثانية. ﴿عربا﴾: جمع عروب، بوزن صبور - بفتح أوله - وهى المرأة شديدة الحب لزوجها. ﴿أترابا﴾: جمع ترب بكسر فسكون وهى المساوية لغيرها فى السن؛ والمراد أن نساء الجنة جميعًا يكن فى سن الشباب، كما تقدم فى الآية (٥٢) من سورة ص صفحة ٦٠٢. ﴿لأصحاب اليمين﴾: متعلق بالفعل فى (أنشأناهن) فى الآية (٣٥) أى أنشأنا الزوجات لأصحاب اليمين. ﴿ثلة﴾: تقدم فى الآية (١٣) من هذه السورة صفحة ٧١٤.

﴿ما أصحاب الشمال﴾: يقال فيه ما قيل فى الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٧١٣.

﴿سموم﴾: لهب النار، كما تقدم فى الآية (٢٧) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿حميم﴾: ماء شديد الحرارة، انظر الآية (١٩) من سورة الحج صفحة ٤٢٦، والآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤. ﴿يحموم﴾: المراد به الدخان شديد الحرارة والسواد، مأخوذ من الحمم بضم ففتح، وهو الفحم عقب احتراقه مباشرة، انظر الآية (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨. ﴿كريم﴾: المراد من كريم هنا: حسن المنظر. ﴿مترفين﴾: أى منعمين بما شغلهم عن خطر هذا اليوم. ﴿يصرون﴾: أى يداومون ولا يتوبون. ﴿الحنث العظيم﴾: أى الذنب

(١) أنشأناهن. (٢) فجعلناهن. (٣) لأصحاب. (٤) الآخرين. (٥) أصحاب.
(٦) أئذا. (٧) عظاما. (٨) أئنا. (٩) آباؤنا. (١٠) الآخرين.
(١١) ميقات. (١٢) لآكلون. (١٣، ١٤) فشاربون.

الكبير؛ وهو كل كبيرة، وأفظعها الشرك به سبحانه وتعالى. ﴿أئذا متنا﴾: استفهام أرادوا به إنكار البعث ﴿أئنا لمبعوثون﴾: أعادوا الاستفهام لتأكيد الإنكار. ﴿ميقات يوم﴾.. إلخ: هو يوم القيامة، انظر بيان هذا التركيب فى شرح الآية (٣٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢، وانظر الآية (٩) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦. ﴿زقوم﴾: شجر بشع الهيئة واللون، كريه الرائحة والطعم ينبت فى أصل الجحيم، أنظر آيتى (٦٢، ٦٤) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠، والآية (٤٣) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩. ﴿فشاربون﴾.. إلخ: المراد: أنهم يسقون هذا الحميم رغم أنوفهم، كما فى الآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤.

المعنى: إن أصحاب اليمين يجلسون على فرش مرفوعة على سرر. وأنشأنا لهم زوجات فى الجنة إنشاء جديدًا حتى منْ كانت منهن فى الدنيا عجوزا فإنها تخلق فى الجنة شابة بكرًا دائمًا مهما مسها زوجها. متحببات لأزواجهن، كلهن فى سن واحدة، ليس فيهن عجوز ولا طفلة. أنشأناهن على هذه الحال لأجل أصحاب اليمين. وهم كثير من الأولين وكثير من الآخرين؛ وبعدما بيَّن سبحانه مآل الفريقين المؤمنين قال تعالى فى الفريق الثالث: وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. يقال فى هذا التركيب ما سبق فى الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٧١٣ والمراد: إن أصحاب الشمال فى أسوأ حال. ثم بينَّ ذلك سبحانه فقال: (فى سموم).. إلخ. أى فى لهب يحرق جلودهم. وظل مكون من دخان أسود حار. لا بارد كغيره من الظلال. ولا حسن المنظر. جازيناهم بذلك لأنهم كانوا فى الدنيا منغمسين فى النعم حتى غفلوا عن هذا الهول. وكانوا يداومون على كل كبيرة وأولها الشرك به تعالى وإشراك غيره معه. وكانوا مع ذلك ينكرون البعث فيقولون: هل يصح أننا إذا متنا وصرنا ترابا وعظاما هل إذا كنا على هذه الحال نبعث أحياء ثانيا؟ هذا غير معقول. هل نبعث نحن وآباؤنا الأولون أى الذين مضوا من زمن بعيد، وهذا تأكيد للإنكار. قل لهم أيها النبى فى الرد عليهم: إن الأولين من آبائكم وغيرهم الذين تستبعدون بعثهم. والآخرين كذلك إلى يوم القيامة - والله - لمجموعون أى مساقون إلى موقف فى زمن محدد فى علم الله من يوم معلوم هو يوم القيامة الذى يبدأ بالنفخة الأولى وينتهى بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. ثم بيَّن سبحانه ما سيأكلونه وما سيشربونه فقال تعالى: ثم إنكم أيها الغافلون أى عن طريق الصواب. المكذبون لله ولرسوله، والله لآكلون طعاما مأخوذا من شجر من زقوم بشع الهيئة واللون، كريه الرائحة والطعم، ينبت فى أصل الجحيم، مؤلم يقف فى الحلق؛ ومع هذا فسترغمون على ملء بطونكم منه. وعقب الأكل مباشرة تستغيثون من العطش فتغيثكم زبانية جهنم بالحميم، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. (فشاربون).. إلخ. نسأل الله تعالى السلامة.

فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۝٥٦ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝٦٨ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝٧١ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ۝٧٢

المفردات: ﴿الهيم﴾: هي الإبل شديدة العطش. يقال ناقة هيماء بفتح فسكون، وجمل أهيم بفتح الهمزة وسكون الهاء ويجمعان على هيم.

﴿نزلهم﴾: المراد بالنزل الطعام الذي يقدم للضيف، انظر الآية (٦٢) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ وذكره هنا للتهكم كما في الآية (١٠٢) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤.

﴿يوم الدين﴾: هو يوم الحساب والجزاء وهو يوم القيامة، وإذا علمت ما تقدم في شرح الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٤٤ تعلم أن المراد هنا أن الله عز وجل يخبرنا بأنه أعد الكافرين في جهنم ما ذكر وأنه تعالى سيعلمهم به يوم القيامة علما يقينيًا لا يحتمل الشك، ثم تسوقهم الملائكة سوقًا إلى جهنم، انظر الآيات (٦٩، ٧٠، ٧١) من سورة الزمر صفحتي ٦١٥، ٦١٦. ﴿فلولا﴾: كلمة تدل على الرغبة في حصول ما بعدها، ويعبرون عن معناها بـ (هلا) بتشديد اللام. ﴿أفرأيتم﴾: المراد: أخبروني عن جواب الاستفهام الآتي.

﴿ما تمنون﴾: أي ما تقذفونه في الأرحام من المني.

﴿تخلقونه﴾: أي تصورونه وتنفخون فيه الروح.

﴿قدرنا بينكم الموت﴾: أي قسمناه وجعلنا لكل واحد منكم عمرا محدودا من طول أو قصر، انظر الآية (١٤٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٦.

﴿بمسبوقين﴾: أي عاجزين، انظر الآية (٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ والباء لتأكيد نفي ما بعدها عما قبلها.

(١) خلقناكم. (٢) أفرأيتم. (٣) النتم. (٤) الخالقون. (٥) أمثالكم.
(٦) أفرأيتم. (٧) أنتم. (٨) الزارعون. (٩) لجعلناه. (١٠) فظلتم.
(١١) أفرأيتم. (١٢) أنتم. (١٣) الماء. (١٤) أفرأيتم. (١٥) أنتم.

﴿نبدل أمثالكم﴾: أي نخلق بدلكم خلقا يشبهكم في أنه إنسان لكن يكون خيرًا منكم.

﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾: أي بعد أن نبدلكم بخير منكم، نجعلكم في صورة قبيحة لا تتصورون شناعتها، قال الحسن: يجعلكم قردة وخنازير أي في صورة بشعة يستقذرها الناس.

﴿النشأة الأولى﴾: هي خلقكم أول مرة في الدنيا، والنشأة الأخرى هي البعث يوم القيامة، انظر الآية (٢٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٣. والآية (٤٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٣.

﴿فلولا﴾: بمعنى (هلا) التي تفيد طلب حصول ما بعده.

﴿تذكرون﴾: أي تتذكرون أن مَنْ قدر على النشأة الأولى قادر على الأخرى.

﴿حطاما﴾: هو الشيء المحطم، أي المفتت، انظر الآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿ظلتم﴾: أي صرتم، انظر الآية (١٤) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿تفكهون﴾: أصل التفكه التنقل بين صنوف الفاكهة، ثم استعمل في التنقل بالحديث من موضوع إلى آخر، والمراد: تتنقلون من تعجب، إلى تندم، إلى تحسر... إلخ، كما يتنقل المتفكه من فاكهة لأخرى، انظر الآية (٤٢) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦؛ واستعماله هنا من قبيل ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿مغرمون﴾: يقال غرم في تجارته بفتح الغين وكسر الراء بوزن تعب، إذا خسر، وأغرمه غيره إذا أوقعه في الغرم، والمراد هنا: يقول بعضكم لبعض ما هذه المصيبة؟ إن الشيطان أوقعنا في الخسارة فصرنا خاسرين.

﴿بل نحن محرومون﴾: (بل) للانتقال من كلام إلى آخر، أي بل نحن محكوم علينا بالحرمان من زرعنا.

﴿أجاجا﴾: أي شديد الملوحة، انظر الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦.

﴿تورون﴾: أي تخرجونها حتى ترى بالعين.

﴿شجرتها﴾: قالوا إن المراد بها: ذلك الشجر المعروف عند العرب وهو نوعان، أحدهما يسمى (العفار) بكسر العين، وآخر يسمى (المرخ) بفتح فسكون. وكانوا إذا احتاجوا النار يضربون عودا من أحدهما بعود من الآخر مع احتكاك شديد فيخرج شرر النار كما يفعل الآن بالحديد المسمى بالزناد وقطعة من الحجر.

المعنى: إن الضالين بعدما يملأون بطونهم من شجر الزقوم يسرع إليهم العطش فيشربون من الماء الحار، ومع كونه شديد الحرارة فإن رداءة الزقوم تجبرهم على الشرب منه كثيرا كشرب الإبل العطاش. وهذا الطعام المر البشع والشراب الجار هو طعام ضيافتهم يوم القيامة. ثم وجه سبحانه الخطاب للكفرة توبيخا فقال: نحن... إلخ. أى نحن وحدنا الذين خلقناكم فهلا تصدقون بالبعث الذى أخبرناكم به؛ لأن الذى يخلقكم من العدم قادر على أن يعيدكم، انظر الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، والآية (٧٩) من سورة يس صفحة ٥٨٦. وبعد هذا فأخبرونى عن المنى الذى تقذفونه فى الأرحام. هل أنتم الذين تتولون تصويره فى الأرحام وتنفخون فيه الروح أم نحن الخالقون. نحن وحدنا الذين جعلنا لكل واحد منكم عمرًا محددًا لا يتجاوزه. وما نحن بعاجزين بل قادرين على أن نميتكم دفعة واحدة. ونخلق بدلكم خلقا آخر يشبهكم فى أنه إنسان لكن يكون خيرًا منكم، انظر الآية (١٩) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، والآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨. وقادرون أيضا أن نخلقكم أنتم ولكن خلقًا جديدًا لا تعلمونه كأن نجعلكم قردة وخنازير. وفى هذا تهديد لهم. ولقد علمتم كيف أنشأناكم أولا من طين ثم من نطفة.. إلخ، حتى قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين، انظر الآيات من (١٢) إلى (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦، فهلا تتذكرون أن مَنْ قدر على ذلك قادر على إحيائكم من القبور، وأخبرونى أيضًا عما تحرثون الأرض لأجله. وتبذرون حبه؛ هل أنتم الذين تتولون إنباته وجعله أخضر ناميًا حتى يثمر؛ أم نحن المنبتون له لا أنتم؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف تستبعدون علينا إخراج الموتى من القبور؟ انظر الآية (١٩) من سورة الروم صفحة ٥٣٢، والآية (١١) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨ لو نشأ لجعلنا هذا الزرع هشيمًا مفتتًا قبل أن يثمر، فصرتم بسبب ذلك تتقلبون بين الندم والحسرة والتعجب من سوء حظكم حال كونكم قائلين من شدة الألم: إنا لمصابون بالخسران. بل إن السبب الحقيقى فيما حصل لنا أننا كتب علينا الحرمان ونحس الطالع؛ ثم انتقل سبحانه إلى عبرة أخرى بعدما تقدم فقال: أفرأيتم.. إلخ. أى فأخبرونى أيضا عن الماء العذب الذى تشربونه أنتم وأنعامكم. هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون؟ لو نشاء جعلناه ملحًا مرًا فهلا تشكرون الله على ذلك. وأخبرونى أيضًا عن النار التى تستخرجونها بقدح عود من الشجر على عود آخر منه. هل أنتم الذين خلقتم شجرتها وأودعتم فيها هذا السر أم نحن الخالقون لها.

نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ
رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ * فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾
وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾
فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم
مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾
فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾
فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ
وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن

المفردات: ﴿تذكرة﴾: أى تذكيرًا للغافل، يعلم منه قدرة ربه تعالى على البعث وعلى كل ما يريده؛ كما أن فيها أيضًا تخويف لمن يعصى ربه بعذابها.

﴿متاعا﴾: أى شيئًا يتمتع وينتفع به.

﴿للمقوين﴾: أصل المقوى هو الذى ينزل فى القواء بكسر القاف وهو المكان القفر الخالى من السكان، والمراد هنا المسافرون والموجودون فى الصحارى والوديان الذى يغطيها الثلج عدة شهور فى العام، وهم الذين يصعب عليهم الحصول على النار. فتكون المنة عليهم أظهر.

﴿فلا أقسم﴾: هذه عبارة من عبارات العرب فى القسم يريدون بها تأكيد المقسم عليه، كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى يمين، ويقصدون أيضا لفت نظر السامع إلى خطر الشىء المقسم به. وهو هنا الإشارة إلى يوم القيامة، انظر شرح الآية (١) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧.

﴿مواقع النجوم﴾: جمع موقع بفتح القاف. مصدر بمعنى وقوع النجوم وسقوطها يوم القيامة. انظر الآية (١) من سورة النجم صفحة ٧٠٠ والآية (٢) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥.

(١) جعلناها.
(٢) متاعا.
(٣) بمواقع.
(٤) لقرآن.
(٥) كتاب.
(٦) العالمين.
(٧) صادقين.
(٨) أصحاب.
(٩) فسلام.
(١٠) أصحاب.

﴿عظيم﴾: لأنه ينبه ليوم فيه من الأهوال ما يوجب على العاقل البعد عن أسباب أخطاره.

﴿كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ، انظر الآية (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢.

﴿مكنون﴾: المراد: مصون من التلاعب فيه.

﴿المطهرون﴾: أى الملائكة لأنهم جميعًا مطهرون من المعاصى، انظر الآية (١٣) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٢.

﴿تنزيل﴾: أصل تنزيل مصدر بمعنى الإنزال لكن أريد هنا به المنزل. وغلب على القرآن حتى صار اسمًا من أسمائه يقال جاء به التنزيل ونطق به التنزيل وهكذا.

﴿الحديث﴾: المراد به القرآن، انظر الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿مدهنون﴾: مأخوذ من المداهنة وهى الملاينة فى الظاهر للوصول إلى غرض خفى والمراد هنا: متهاونون متساهلون، لا تنظرون إليه بعين الجد، وتظهرون بمظهر مَنْ لا يهمه الأمر، انظر شرح الآية (٩) من سورة القلم صفحة ٧٥٨.

﴿رزقكم﴾: أى حظكم من هذا القرآن.

﴿فلولا إذا بلغت﴾.. إلخ: (لولا) هذه أصل معناها طلب حصول ما بعدها ولكنه أريد بها هنا التعجيز والتبكيت، والفعل المطلوب هنا المبكت به هو (ترجعونها) الآتى. و(إذا) ظرف زمان بمعنى حين منصوب بترجعونها الآتى لكنه فصل بينها وبينه بهذه الجمل لتصوير بشاعة حال الموت لمن يشاهده من أقارب المحتضر.

﴿بلغت﴾: أى الروح المفهومة من سياق الكلام كما فى الآية (٢٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠.

﴿الحلقوم﴾: مجرى الطعام والشراب أول تناوله.

﴿وأنتم حينئذ﴾: أى حين بلغت.. إلخ. والجملة حال من الروح. والمخاطب هنا هم الحاضرون بجوار المحتضر الذى يعالج سكرات الموت.

﴿تنظرون﴾: أى إلى حاله وما يعانيه. لا تقدرون على دفع شىء عنه.

﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾: المراد: ورسلنا المكلفون بقبض روحه أقرب إليه منكم، انظر الآية (٦١) من سورة الأنعام صفحتى ١٧١، ١٧٢ والآية (٣٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ١٩٨. وهذا أسلوب معهود عند العرب يقولون: بنى الأمير المدينة ويريدون بناها عماله، ونسبة الفعل إلى الله سبحانه وتعالى تارة وإلى رسله من الملائكة تارة أخرى كثير فى القرآن، من ذلك ما فى الآية (١١٧) من سورة المائدة صفحة ١٦١، والآية (٤٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٢ مع الآية (٦١) من سورة الأنعام صفحتى ١٧١، ١٧٢ والآية (٣٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ١٩٨ والآية (١١) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، ومنه أيضا قوله تعالى ﴿ونكتب ما قدموا﴾: الآيه (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ مع الآية (٢١) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والجملة حال من فاعل تنظرون.

﴿فلولا﴾: الثانية تأكيد لـ (لولا) الأولى السابقة فى الآية (٨٣).

﴿إن كنتم غير مدينين﴾: جملة شرطية جاءت متوسطة بين (لولا) والذى أصله أن يكون مذكورا بعدها، وجواب شرط الجملة الاعتراضية مقدر دل عليه (ترجعونها) المذكور، والأصل إن كنتم غير مدينين ترجعونها، وإنما قلنا ذلك لأن (ترجعونها) المذكورة بعد (إن كنتم) هى جواب (لولا) الأولى كما سبق أن أوضحنا. والمراد: أى غير خاضعين لسلطان الله القاهر فى كل ما يتعلق بكم، من حياة، وموت، ورزق، وبعث بعد موت، تقول العرب: دانت لفلان الأمة أى خضعت، انظر الآية (٦١) من سورة الأنعام صفحتى ١٧١، ١٧٢.

﴿ترجعونها﴾: يقال رجع فلان الشىء وأرجعه بمعنى واحد، انظر الآية (٤٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩، والمراد ترجعون الروح الجسد كما كانت.

﴿إن كنتم صادقين﴾: شرط آخر مؤكد لمضمون الشرط الأول فجوابه هو جوابه. والمراد صادقين فى حلفكم على أن الله لا يبعث مَنْ يموت؛ لأن العقل لا يصدق أن التراب يعود جسما حيا، انظر الآية (٣٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٠ والآية (٣) من سورة ق صفحة ٦٨٨، والمعنى المراد من هذا التركيب كله أن الذى يحكم على الله بأنه لا يمكن أن يحيى الموتى إنما هو الذى يقدر على منع الموت بإرجاع الروح، أى وأنتم أعجز من أن تستطيعوا هذا كما

فى الآية (١٦٨) من سورة آل عمران صفحة ٩١ وحينئذ لم لا تقرون أن القادر على أحدهما قادر على الآخر.

﴿إن كان﴾: أى المتوفى المفهوم من السياق.

﴿من المقربين﴾: هم السابقون من الأصناف الثلاثة المتقدم ذكرهم فى الآية (١٠) من هذه السورة صفحتى ٧١٣، ٧١٤.

﴿روح﴾: جاء فى القاموس المحيط: الروح. الرحمة والراحة، فالمراد: رحمة من الله تملأ نفوسهم رضا بما لاقوا: قال نبى الله يعقوب عليه السلام لبنيه (ولا تيأسوا من روح الله)... الآية (٨٧) من سورة يوسف صفحة ٣١٦. أى لا تيأسوا من رحمة الله تعالى. ويؤيد ذلك قول خليل الرحمن عليه السلام قال ﴿ومَنْ يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ الآية (٥٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢.

﴿ريحان﴾: قال الراغب: تطلق العرب الريحان على الرزق. قيل لأعرابى: إلى أين تذهب فقال: أطلب من ريحان الله، أى من رزقه. فالمراد هنا للمؤمنين فى الجنة رزق من كل ما يُدْخِل السرور عليهم، قال تعالى فيما أعد للمؤمنين فى الجنة ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ الآية (٥٠) من سورة الحج صفحة ٤٤٠.

﴿فسلام لك﴾: المراد تقول له ملائكة الرحمة عند الموت فسلام لك من إخوانك أصحاب اليمين الذين سبقوك إلى الجنة، إلى رضوان الله تعالى. ويشعر بهذا ما فى الآية (١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١.

المعنى: يقول سبحانه وتعالى موبخًا الكفار هل أنتم الذين خلقتم هذه الشجرة التى تخرج منها النار أم نحن الذين أنشأناها. وجعلناها تذكيرًا للغافل بأمر البعث، وتحذيرًا له من عذاب جهنم: لأن الذى يخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها قادر على إعادة من تفرقت أجزاؤه. وجعلنا النار متاعا ينتفع به البعيد عن المدن خصوصًا أماكن الثلج. فإنه لولا النار لهلك الإنسان والحيوان؛ وبعدما عدد سبحانه بدائع صنعه وجلائل نعمة أمر عبده أن ينزهه عن كل نقص فقال: فسبح.. إلخ. أى وإذا كان الأمر كما سمعت فنزه الله تنزيهًا مرتبطًا باسمه الدال على أنه مربيك وصاحب الفضل عليك وقل (سبحان ربى العظيم). ولما بلغ من تبجح المشركين أنهم يقولون عن القرآن أنه يتلقاه محمد من الكهنة والشياطين. رد سبحانه عليهم

بما فى الآيات (٢١٠ إلى ٢١٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢ والآية (٢٢١) من سورة الشعراء أيضًا صفحة ٤٩٣ والآيات من (٣٨ إلى ٥٢) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٣، ٧٦٤، ورد عليهم هنا بقوله: (فلا أقسم).. إلخ، أى ما سأخبركم به ثابت قطعًا ولا يحتاج إلى هذا القسم العظيم الذى يذكركم بيوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت. إن هذا القرآن الحاضر بأدلته فى الأذهان. الظاهر بإعجازه للعيان، لهو قرآن كريم، أى جم المحاسن غزير المنافع. مسجل فى كتاب مكنون، لا يدنو منه إلا الملائكة المطهرون من أدران المعاصى. وهو منزل من رب العالمين، لا من الشياطين كما تفترون.

هل بعد هذه الصفات الجليلة لهذا القرآن الجليل تعرضون عنه فتتهاونون به؟ ثم تهكم بهم فقال تعالى: (وتجعلون).. إلخ. أى هل يصح أن يكون كل نصيبكم وحظكم من هذا الكتاب العظيم هو التكذيب به بدل الاهتداء به والشكر عليه. ثم أراد سبحانه أن ينبه الكفار لعجزهم عما يقع بين أيديهم وأبصارهم مما أراد سبحانه نفاذه ليعلموا أن مَنْ يقدر على ذلك قادر على إعادتهم أحياء يوم القيامة، فقال: (فلولا إذا بلغت).. إلخ. أى إن كنتم خاضعين لسلطان الله القاهر ولقدرتنا ظانين أننا لن نقدر على بعثكم بعد الموت وكنتم صادقين فى حلفكم أننا لن نبعثكم فهلا ترجعون روح المحتضر حين تبلغ حلقومه.

والحال أنكم فى هذا الوقت تنظرون إلى حاله، وملائكتنا فى هذا الحال أيضًا أقرب إليه منكم، ولكن لا تنظرونهم؛ وإذا كنتم لا تستطيعون ذلك فكيف لا تقرون بأن الله لا يعجزه شىء يريده. ومن ذلك بعثكم بعد الموت: وبعدما بيّن سبحانه حال المحتضر عند النزع أراد أن يبين حاله بعد الموت فقال: (فأما إن كان).. إلخ. أى فأما إن كان المتوفى من المقربين السابقين فى الآيتين (١٠، ١١) صفحتى ٧١٣، ٧١٤. فتقول لهم ملائكة الرحمة تبشيرًا لهم: لكم عند الله رحمة منه تملأ نفوسكم رضا بما لاقيتم، ولكم أيضًا رزق من كل ما يدخل السرور عليهم ومن كل ما تشتهيه أنفسكم، انظر الآية (٦٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٦ والآية (٣٠) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٣، ٦٣٤. وأما إن كان المتوفى من أصحاب اليمين، فتقول له الملائكة تبشيرا أيضا: سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين الذين سبقوك إلى رحمة الله، إنهم فرحون بما أعد لك من السعادة، انظر الآية (١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١.

كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣)
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥)
فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦)

(٥٧) سُورَةُ الحَدِيدِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ
وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

المفردات: ﴿فنزل﴾: تقدم فى الآية (٥٦) من هذه السورة صفحة ٧١٦.

﴿حميم﴾: تقدم فى الآية (٤٢) من هذه السورة صفحة ٧١٥.

﴿تصلية﴾: يقال صلى فلان النار بتخفيف اللام، أى دخلها، كما فى الآية (١٢) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤. وصلاة غيره بتشديد اللام تصلية أى ألقاه فيها. فالمراد: وإدخال فى جحيم جهنم لأصحاب الشمال.

﴿جحيم﴾: هى جهنم. ﴿إن هذا﴾: أى ما ذكر من نعيم المؤمنين وعذاب الكافرين.

﴿حق اليقين﴾: ورد فى مثل هذا المقام عبارات ثلاث هى: (علم اليقين)، و(عين اليقين) انظر آيتى (٥، ٧) من سورة التكاثر صفحة ٨٢٠، و(حق اليقين) وفسروا (علم اليقين) بما يعلمه الإنسان بالسماع من الخبر الصادق أو بالبحث الدقيق أو بالقياس الصحيح أو ما يشبه ذلك. و(عين اليقين) بما يشاهده الإنسان عيانا. و(حق اليقين) بما يدركه وما يتذوقه بحواسه أو وجدانه، ومثلوا للأول: بما إذا أخبرك شخص بأن فى الإناء المغلق عسلاً فصدقته، أو رأيت آثار العسل على حافة الإناء، فاستدللت بها على وجود العسل مثلاً، وللثانى: بما إذا كشف لك عن العسل فرأيته بعينيك، وللثالث: بما إذا ذقت العسل بنفسك ووجدت حلاوته على لسانك؛ والمكلفون فيما أخبروا به من أمور الآخرة على هذه الدرجات، أولها علمهم بذلك تلقيًا عن رسل الله سبحانه وكتبه، وهذه الدرجة حرم منها الغافلون حتى فاجأهم الموت. وثانيها إذا رأوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب من بعيد. وثالثها إذا باشروا ذلك فعلاً فدخل الجنة أهل الجنة، والنار أهل النار، وأحسوا بما فيهما. (سبح لله).. إلخ. تقدم بيان ذلك فى الآية (٤٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠، وشرح

(٢،١) السموات. (٣) الآخر. (٤) الظاهر. (٥) السماوات.

الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨. يقال: سبحت الله وسبحت له بلام لتقوية وصل الفعل بالمفعول كما يقال: نصحته ونصحت له: والمراد هنا: نَزَّهه عما لا يليق به.

﴿العزيز﴾: الغالب الذى لا يغلبه أحد. وهذا يدل على أن تسبيح المخلوقات بهذا المعنى المشار إليه فى الصفحات المذكورة قهرى. ﴿الحكيم﴾: الذى يضع كل شىء فى محله.

﴿الأول﴾: أى السابق فى الوجود على كل موجود. ﴿الآخر﴾: الذى يبقى بعد فناء الموجودات كما فى آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. ﴿الظاهر﴾: بآثاره الدالة على وجوده. ﴿الباطن﴾: الذى لا تحيط به الحواس. ولا تدرك حقيقته العقول.

﴿فى ستة أيام﴾.. إلخ: تقدم الكلام عليها فى شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

المعنى: وأما إن كان المتوفى من أصحاب الشمال المكذبين البعيدين عن الصواب فتقول له ملائكة العذاب إزعاجا له: لك اليوم شراب من سائل شديد الحرارة يشوى الوجوه. ولك أن تتقذف فى جهنم. إن هذا النعيم الذى يلاقيه المؤمنون والعذاب الذى يلاقيه المكذبون لهو الحقيقة التى تيقنها المؤمنون فى الدنيا. وكان يجب أن تكون كذلك عند غيرهم مَمَّنْ فتنتهم الدنيا عنها حتى فوجئوا بها. وبعدما بيَّن سبحانه جزاء الكل نبه إلى العناية بتنزيه مقامه عن كل نقص فكرر قوله: فسبح باسم ربك العظيم. والله الموفق.

﴿سورة الحديد﴾

نادى بوجود الله سبحانه وتنزيهه عن كل نقص كل مخلوق فى العالم العلوى والسفلى بلسان حاله أو مقاله. وهو سبحانه الغالب على أمره الحكيم فى صنعه. له وحده ملك السموات والأرض وما فيهما. ومن آثار تفرده بالملك أنه وحده الذى يفيض الحياة على من يشاء، ويسلبها عمن يشاء فى الوقت المقدر حسب علمه تعالى. وهذا يسير عليه لأنه سبحانه على كل شىء قدير. هو وحده الموجود قبل كل شىء. والباقى بعد فناء كل شىء. وهو الظاهر وجوده لكثرة الأدلة عليه. الباطن، حقيقته لا تدركها الحواس، ولا تحيط بها العقول. وهو بكل شىء عليم. يستوى عنده الظاهر والباطن، ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. وهو اللطيف الخبير﴾ الآية (١٠٣) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٩، ١٨٠. وهو سبحانه وحده الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام لا يعلم مقدارها إلا هو سبحانه. ثم استوى على العرش.. إلخ.

الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا
يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾
آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ
فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ
لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ
أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ
عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي

المفردات: ﴿يعلم ما يلج فى الأرض﴾: إلى قوله تعالى (فيها): تقدم كل ذلك فى الآية (٢) من سورة سبأ صفحة ٥٦٢، وانظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١.

﴿وهو معكم﴾: أى بعلمه، انظر الآية (٧) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٥، ٧٢٦.

﴿أينما كنتم﴾: أين اسم مكان متضمنة معنى الشرط فتربط جملتين إحداهما بالأخرى. و(ما) حرف جاء لتأكيد هذا الربط، انظر الآية (١٤٨) من سورة البقرة صفحة ٢٩، والجملة الثانية دل عليها ما قبل أين. والأصل أينما كنتم يعلم جميع أحوالكم.

﴿له ملك السموات﴾.. إلخ: أعادها هنا فى مقام آخر غير ما سبق فى الآية (٢) السابقة صفحة ٧١٨، وذلك أن ما سبق كان فى مقام أنه هو سبحانه الذى يحيى قومًا ويميت آخرين فى الدنيا. وأما هنا ففى مقام أنه سيجازى يوم القيامة. ولا يفلت أحد من حسابه لأن الكل ملكه.

﴿يولج الليل فى النهار﴾: تقدم فى الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.

﴿بذات الصدور﴾: المراد: النيات الخافية فى الصدور والخواطر من خير وشر.

﴿مستخلفين﴾: جمع مستخلف بفتح اللام وهو فى الأصل من جعله غيره خليفة عنه فى التصرف فى شىء، والمراد: أنفقوا فى وجوه الخير بعض المال الذى جعلكم سبحانه خلفاء

(١) السموات. (٢، ٣) الليل.
(٤، ٥) آمنوا. (٦) ميثاقكم.
(٧) آيات. (٨) بينات.
(٩) الظلمات. (١٠) ميراث.
(١١) السماوات.

فى التصرف فيه لغيركم؛ انظر الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧، ٨، والآية (١٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٩٢، والآية (١٤) من سورة يونس صفحة ٢٦٧.

﴿ومالكم لا تؤمنون﴾: (ما) اسم استفهام توبيخى والمراد أى شىء حصل لكم حال عدم إيمانكم وكان هو السبب فيه.

﴿والرسول يدعوكم﴾.. إلخ: الجملة حال من الضمير فى قوله تعالى: (لا تؤمنون) وهذا فيه إشارة للدليل النقلى أى القرآن.

﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾: الجملة حال من (ربكم) أى والحال أن ربكم قد أخذ.. إلخ. والميثاق هنا هو الإشهاد المتقدم فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١، وهذا فيه إشارة للدليل العقلى.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾: المراد مستعدين للإيمان يا مَنْ لم تؤمنوا، أو لزيادته والحرص على تعاليمه يا مَنْ آمنتم كما فى الآية (٢٧٨) من سورة البقرة صفحة ٥٩.

﴿آيات بينات﴾: هى آيات القرآن. ﴿رءوف رحيم﴾: انظر الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨، والآية (١١٧) من سورة التوبة صفحة ٢٦٢، والآية (٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٦.

﴿وما لكم ألا تنفقوا﴾.. إلخ: أطلب منكم أن تنفقوا.

﴿ميراث السموات﴾.. إلخ: المراد: سبحانه بعضًا من أدلة وجوده وقدرته ووحدانيته وفضله توجه إلى العباد وأمرهم جميعًا - المؤمن منهم وغير المؤمن - بالأوامر الآتية. وكل منهما يحقق ما ليس عنده. فقال تعالى: آمنوا.. إلخ. أى آمنوا بالله ورسوله يا مَنْ لم تؤمنوا، وأنفقوا يا مَنْ لم تنفقوا فى وجوه الخير بعض المال الذى جعلكم سبحانه خلفاء فى التصرف فيه. كأنه يقول: الأموال التى فى أيديكم ما هى إلا ودائع مملوكة له سبحانه ولابد يومًا أن تؤخذ منكم. فسارعوا إلى إنفاقها فيما يرضى معطيها وينفعكم فى الآخرة. ثم رغبهم فقال: فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير هو نعيم الجنات. ثم وبخ سبحانه مَنْ لم يؤمن بعد قطع أعذاره فقال: ومالكم.. إلخ. المراد أى شىء حصل لكم حال عدم إيمانكم وكان هو السبب فى

ذلك؟ والحال أن الرسول يدعوكم ليل نهار بالوحى الذى ينزل عليه لتؤمنوا بربكم الذى أخذ عليكم العهد بالإيمان به بما ركبه فيكم من العقول. وما ينصبه أمامكم من أدلة فى الكون وفى أنفسكم إذا كنتم مستعدين للإيمان حقيقة بدليل نقلى مقطوع بصحته أو بدليل عقلى فهذا وقته، لتوفر وجودهما معا. فبادروا قبل فوات الأوان. ثم بيَّن سبحانه أنه هو الذى رحمهم بإنزال القرآن المرشد للحق، ومنه الإيمان به وحده، فقال: هو الذى ينزل على عبده محمد ﷺ آيات بينات ليخرجكم من الظلمات أى ظلمات الكفر إلى النور أى نور الإيمان. ولأنه سبحانه رءوف بكم رحيم لأنه نبهكم بالقرآن، ولم يكتف بالدليل العقلى. وبعدما وبخهم أن مصير الأشياء جميعها إليه سبحانه، انظر الآية (١٨٠) من سورة آل عمران صفحة ٩٣.

المعنى: المراد أنه سبحانه بعد خلق السموات والأرض وما فيهما شرع فى تدبير ملكه وهو وحده الذى يعلم كل ما يدخل فى الأرض من بذور وأجزاء إنسان وغير ذلك. ويعلم ما يخرج منها من نبات وغيره وما ينزل من جهة السماء من مطر وغيره، ويعلم ما يصعد إليها من الملائكة وغيرهم. ثم صور سبحانه إحاطة علمه بالمخلوقات وعدم خفاء شىء من أعمال العباد عنه سبحانه فقال: (وهو معكم).. إلخ، أى حيثما وجدتم فى أى مكان فعلمه محيط بكم؛ لأنه سبحانه بصير بجميع أعمالكم وسيجازيكم عليها. لا تفلتون من قبضته لأن كل العالم العلوى والسفلى فى سلطانه وتحت تصرفه. ومرجع الأمور كلها فى الآخرة إليه. فيقضى بين عباده بالحق. ثم بيَّن سبحانه بعض دلائل انفراده بتصريف هذا الملك العظيم بما يشاهدونه كل يوم مما يدل على كمال قدرته ونعمته فقال: يولج الليل فى النهار. إلخ. والمراد أنه هو وحده الذى وضع النظام الذى به يطول النهار ويقصر الليل وبالعكس، لتتكون فصول العام التى يعرف فوائدها العلماء المختصون؛ انظر بعض ذلك فى الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. ثم حذر من كل ما لا يرضيه فقال: وهو عليم.. إلخ. أى هو وحده العليم بالنيات الخافية فى الصدور فإياكم والتفكير فى الشر والتصميم عليه. وبعدما بيَّن على ترك الإيمان مع وجود أسبابه، وبخ مَنْ لم ينفق منهم على ترك الإنفاق فقال تعالى: (وما لكم ألا تنفقوا).. إلخ. والمعنى أى غرض لكم فى عدم الإنفاق على وجوه الخير والله سبحانه سيرث الأرض ومن عليها. ولا يتبقى لكم منها شىء إلا ما أنفقتموه فيما يرضيه فسيجازيكم به نعيمًا مقيمًا.

مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ[1] أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ
دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا[2] وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ
الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ[3] لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ[4] يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم[5] بُشْرَاكُمُ[6] الْيَوْمَ جَنَّاتٌ[7] تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ[8] خَالِدِينَ[9] فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ
يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ[10] وَالْمُنَافِقَاتُ[11] لِلَّذِينَ آمَنُوا[12] انظُرُونَا
نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ[13]
مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا
بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ

المفردات: ﴿من أنفق﴾: المراد الفريق الذى أنفق. ﴿الفتح﴾: الراجح أن المراد به هنا: ما حصل بعد صلح الحديبية الذى نزلت فيه سورة الفتح، كما سبق فى شرح الآية (١) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨.

﴿وقاتل﴾: ذكر القتال هنا إشارة إلى أنه من أهم موارد الإنفاق مع كونه فى نفسه من أفضل العبادات ولا يخلو مَنْ يجاهد من الإنفاق فى الغالب.

﴿الحسنى﴾: أى المثوبة الحسنى وهى الجنة.

﴿مَنْ ذا الذى﴾ (مَنْ) اسم استفهام مبتدأ مراد به الحث على ما بعده، و(ذا) اسم إشارة بمعنى هذا خبر المبتدأ، و(الذى) بيان لاسم الإشارة. ﴿يقرض الله﴾: أصل معنى القرض ما يدفع من المال على شرط رده، فالتعبير به هنا ترغيب فى الإنفاق فى الخير.

﴿قرضًا حسنًا﴾: هو ما كان من حلال، عن طيب نفس يرجى به وجه الله عز وجل، انظر الآية (٢٦١) وما بعدها من سورة البقرة صفحة ٥٥، والآية (٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٨.

﴿يضاعفه له﴾: المراد: يزيد مقادير ثوابه، بمحض الفضل فيجعل الحسنة بعشر كما فى الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، أو أكثر كما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥.

(١) قاتل. (٢) قاتلوا.
(٣) فيضاعفه. (٤) المؤمنات.
(٥) بأيمانهم. (٦) بشراكم.
(٧) جنات. (٨) الأنهار.
(٩) خالدين. (١٠) المنافقون.
(١١) المنافقات (١٢) آمنوا.
(١٣) ظاهره.

﴿وله أجر كريم﴾: هو ما كان يستحقه بمجرد العدل، وهو الحسنة بمثلها. ﴿يسعى نورهم﴾.. إلخ: المراد يحيط بهم نور من كل جهة بسبب أعمالهم الصالحة، وإنما خص الأمام والأيمان بالذكر إشارة إلى أنهم ممَّنْ يأخذون كتابهم من تلك الجهات، انظر الآيتين (٧، ١٠) من سورة الإنشقاق صفحة ٧٩٩.

﴿بشراكم﴾: أى ما تبشرون به. (الفوز﴾: الظفر والنجاح.

﴿انظرونا﴾: أى انتظرونا ولا تعجلوا فى السير إلى الجنة.

﴿نقتبس﴾.. إلخ: أصل معنى الاقتباس أخذ بعض من شعلة النار، انظر الآية (١٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٦، ٤٠٧، والمراد هنا نهتدى إلى الطريق ببعض نوركم.

﴿فالتمسوا﴾: أى فاطلبوا.

﴿فضرب بينهم بسور﴾.. إلخ: المراد: جعلت الملائكة بين المنافقين والمؤمنين حاجزا.

﴿له باب﴾: أى موصل للجنة.

﴿باطنه﴾: أى باطن السور وهو الجهة التى فى داخلها المؤمنون. ﴿الرحمة﴾: المراد رائحة الجنة ومنظرها. ﴿ظاهره﴾: هو ما يلى المنافقين.

﴿من قبله﴾: أى من جهته. ﴿العذاب﴾: أى مكان العذاب وهو جهنم.

﴿بلى﴾: بمعنى نعم لأن ما قبلها استفهام تقريرى يجعل مآل الكلام الإيجاب، انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ فالمراد: نعم كنتم معنا فى الظاهر.

﴿فتنتم أنفسكم﴾: أى أوقعتموها فى الفتنة وهى البلاء.

﴿تربصتم﴾: أى انتظرتم للرسول وللمؤمنين الهلاك، انظر الآية (١٢) من سورة الفتح صفحة ٦٨٠، والآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿ارتبتم﴾: أى شككتم فى الدين، وفى صدق الرسول ﷺ.

المعنى: بعدما أمر سبحانه بالإنفاق فى سبيل الخير أراد أن يبين أن درجات المنفقين تتفاوت الظروف والأحوال حتى مع استواء المقادير، لينبه على تحرى الأفضل، فقال تعالى: (لا

يستوى منكم).. إلخ. والمراد: أن الإنفاق والقتال قبل فتح باب النصر للمسلمين وهم فى ضعف وقلة؛ والأحوال غامضة على أكثر الناس. وعدوهم فى قوة وعزة، لاشك أنهما أفضل من الإنفاق والقتال بعد ظهور أمارات النصر ودخول أكثر الناس فى الدين. ومع هذا فكل من أنفق فى كلا الحالين له عند الله المثوبة الحسنى بدخول الجنة، وإن تفاوتت درجاتهم فيها. وهو سبحانه خبير بما تعملون، فيجازى على قدر العمل. ثم أكد سبحانه الأمر بالإنفاق فى وجوه الخير مع التوبيخ على تركه بأبلغ أسلوب، فى صورة أروع تمثيل. كأنه سبحانه يقول: هذه يدى أبسطها لمْ يعطنى قرضًا، سأرده له بصورة كريمة شريفة، وأكافئه بعد ذلك بأمثاله عدة مرات. فقال فى ذلك: (مَنْ ذَا الذى).. إلخ، أى مَنْ هذا الذى يقدم نفقة إرضاء الله فيعطيه سبحانه أجرًا مضاعفًا والحال إنه له مع ذلك الأجر المضاعف أجر حسنته مثلها وهذا المثل أجر كريم فى ذاته حتى لو لم يضم إليه الأضعاف، فكيف إذا ضم إلى الأضعاف الكثيرة؟ لاشك أنه يكون أكرم. فإذا سمع ذلك العاقل وهو يعلم أن ما بيده من المال هو من فضله سبحانه، ثم إذا صرفه فيما يرضيه كافأه عليه بأكثر منه، كيف لا يسارع إلى هذه التجارة الرابحة؟ انظر الآيتين (٢٩، ٣٠) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٥، ٥٧٦، والآية (١٠) من سورة الصف صفحة ٧٣٩. يعطى سبحانه هذا الأجر المتقدم فى اليوم الذى ترى فيه - يا مَنْ تكون هناك - المؤمنين والمؤمنات بعد الحساب وهم متجهون إلى الجنة حال كون نورهم يحيط بهم من كل جهاتهم. وتقول لهم ملائكة الرحمة: ما نبشركم به اليوم هو جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار خالدين فيها لا تبغون عنها تحولاً كما فى الآيتين (١٠٧، ١٠٨) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥. وذلك النعيم هو النجاح العظيم يناله المؤمنون فى اليوم الذى يقول فيه المنافقون والمنافقات عندما تحيط بهم الظلمات بعد الحساب للمؤمنين والمؤمنات: انظرونا نقتبس شيئاً من نوركم نهتدى به فى السير، فتقول لهم ملائكة العذاب استهزاء بهم: ارجعوا حيث كنتم فى الموقف فالتمسوا هناك نورا، فيرجعون فتفصل الملائكة بينهم وبين المؤمنين بسور له باب موصل للجنة. باطن هذا السور فيه مظاهر الرحمة، وظاهره المقابل للمنافقين من جهته عذاب جهنم. ولما يحاول بينهما يصيح المنافقون على المؤمنين قائلين: ألم نكن معكم فى الدنيا نعمل عملكم؟ فيقول لهم المؤمنون: نعم كنتم معنا ظاهرًا فقط، فأهلكتم أنفسكم بالنفاق، وانتظرتم أن تحل بالمؤمنين المصائب. وشككتم فى صدق الرسول وصحة الدين وغرّتكم الأمانى الباطلة.

الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ⁽١٤⁾
فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ
النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⁽١٥⁾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ
الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَاسِقُونَ ⁽١٦⁾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ⁽١٧⁾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ
وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ⁽١٨⁾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ
هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

المفردات: ﴿الأمانى﴾: جمع أمنية. وهى ما كانوا يمنون أنفسهم به من زوال الإسلام، انظر آيتى (٧، ٨) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٣، ٧٤٤. ﴿أمر الله﴾: أى بموتهم. ﴿الغرور﴾: هو كل ما يشغل عن الله تعالى كما تقدم فى الآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤. ﴿فدية﴾: هى ما يبذله الإنسان لحفظه مما يؤذيه، انظر الآية (١١) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

﴿الذين كفروا﴾: المراد بهم من أعلنوا الكفر ولم يخفوه كالمنافقين السابق ذكرهم.

﴿مأواكم النار﴾: أى مكانكم الذى تأوون إليه. ﴿مولاكم﴾: أصل المولى هو الناصر، والمعين فذكره هنا على سبيل التهكم، حيث لم يجعل لهم ناصرًا إلا النار، كما تقول إذا وقع فى ورطة واستغاث بك: إغاثتك عندى هى رميك فى النار. ﴿ألم﴾: المراد من هذا التركيب هنا هو الحث على ما بعده. ﴿يأن﴾: تقول العرب: أنى الأمر يأنى، أنيًا أى جاء وقته. بوزن رمى. يرمى. رميًا. والمراد: ألم يتهيأ للذين آمنوا وقت خشوع.. إلخ. ﴿لذكر الله﴾: المراد عند تذكر حساب الله وجزائه.. فاللام بمعنى (عند) كما فى الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥، وانظر حكمة هذا فى شرح الآية (١٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨. ﴿وما نزل من الحق﴾: (من) بيانية والمراد: وما نزل من القرآن المبين بأنه هو الحق. انظر الآية (٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧.

﴿كالذين أوتوا الكتاب﴾: هم اليهود والنصارى. ﴿الأمد﴾: أى الزمن بينهم وبين أنبيائهم.

﴿يحيى الأرض بعد موتها﴾: هذا تمثيل لأثر الذكر فى القلوب. بأثر المطر فى الأرض. فتثبت ما ينفع الناس. ﴿الآيات﴾: المراد بها هنا الأدلة والعبر. ﴿المصدقين﴾: أى المتصدقين. ﴿أقرضوا الله﴾.. إلخ: تقدم شرح هذه الآية فى الآية (١١) من هذه السورة صفحة ٧٢٠.

(١) ماواكم. (٢) مولاكم. (٣) امنوا. (٤) الكتاب. (٥) فاسقون. (٦) الآيات.
(٧) المصدقات. (٨) يضاعف. (٩) امنوا. (١٠) باياتنا. (١١) أصحاب.

﴿الصديقون والشهداء﴾: تقدم فى الآية (٦٩) من سورة النساء صفحة ١١٢.

﴿نورهم﴾: تقدم فى الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ٧٢٠.

المعنى: يقول المؤمنون للمنافقين: إنكم غرتكم الأمانى الباطلة التى منّاكم بها الشياطين من عفو الله عنكم، وإحسانه إليكم، وصرتم فى غفلة حتى جاءكم الموت، وغركم شيطان الجن والإنس بتزيين النفاق. فاليوم لا سبيل لنجاتكم بفدية. ولا للكافرين ظاهرًا وباطنًا. ومأواكم النار، لا مغيث لكم غيرها، وبئس نهاية مطافكم النار. وكان المؤمنون وهم فى مكة فى خوف شديد وفقر. ولما انتقلوا للمدينة واطمأنوا وكثر رزقهم، فترت هممهم بعضهم عما كانوا عليه فى مكة، وورد أنه ﷺ رأى بعض أصحابه وهم يضحكون فقال: هل تضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم؟ فى هذا ومثله قال سبحانه: (ألم يأن).. إلخ، أى هل لم يأت الوقت الذى تخشع فيه قلوب المؤمنين عند تذكر حساب الله وجزائه، وعند سماع القرآن الذى نزل بالحق، فيكثروا من تدبر أسراره، ولا يغفلوا عن تعاليمه الحقة فيقعوا فيما وقع فيه غيرهم من اليهود والنصارى عندما طال الزمن بينهم وبين رسلهم. فقست قلوبهم، فجرؤوا على البدع وتحريف كلام الله. فلم يبق على الدين الصحيح إلا قليل منهم. وكثير منهم خرج عن تعاليم دينه. وفى هذا تنبيه لقادة المسلمين، أن لا يهملوا تذكير المسلمين بآداب دينهم حتى لا تأكله البدع بطول الزمن. وقال بعض السلف: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم. فإن القلب القاسى بعيد عن الله. ثم أرشد سبحانه إلى ما به تحيا القلوب فقال: (اعلموا).. إلخ. أى اعلموا أن الله يحيى الأرض بالنبات بعد جدبها، إذا تعهدها العامل بالخدمة والسقى. فكذلك يحيى القلوب الميتة الغافلة إذا تعهدها العبد بتذكر ربه وتدبر آياته وطرد عنها وساوس الشيطان، فترق بعد قسوة. وتنقاد بعد جفوة. قد بيَّنا لكم أيها الناس العبر والعظات، لتعقلوا فتستفيدوا فتفوزوا بالسعادتين. ولما كانت العناية بالإنفاق فى وجوه الخير من أهم المقاصد، أكد سبحانه الترغيب فيه بقوله: (إن المصدقين). إلخ. أى إن الذين يصدقون فى سبيل الخير من رجال ونساء - وبعملهم هذا يكونون قد أقرضوا الله قرضًا حسنًا، إجابة لطلبه سبحانه المتقدم فى الآية (١١) من هذه السورة صفحة ٧٢٠ - يضاعف لهم سبحانه الأجر. ولهم مع ذلك الأجر المضاعف أجر كريم كما تقدم. ولما كان الإيمان الصحيح، مما يبعث على القرض الحسن، قال سبحانه: والذين آمنوا بالله ورسله. أى على الوجه المبين فى الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢. هؤلاء هم الصديقون والشهداء فى حكم ربهم. لهم أجر حسن فى الدنيا والآخرة، ولهم نور يسعى بين أيديهم إلى الجنة. أما الذين كفروا بالله ورسله وكذبوا كتبه، هؤلاء هم أصحاب النار..

الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ
وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا
إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾
مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا
فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾
لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ

المفردات: ﴿لعب ولهو﴾: تقدم الفرق بينهما فى الآية (٣٢) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٦، ١٦٧، والآية (٣٦) من سورة محمد صفحة ٦٧٧.

﴿زينة﴾: كل ما يتزين به كملبس ومركب مما ليس فيه شرف ذاتى.

﴿تفاخر﴾: أى بالأنساب والثراء.

﴿تكاثر﴾: أى تسابق فى تكثير ما يشغل أغلب الناس عن الآخرة حتى يفاجئهم الموت: انظر الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥، والآية (١) من سورة التكاثر صفحة ٨٢٠.

﴿كمثل غيث﴾: انظر معنى هذا التمثيل فى الآية (٤٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧، والغيث: هو المطر الكثير الذى يغيث المحتاجين إليه، انظر الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤.

﴿الكفَّار﴾: جمع كافر، وأصل معنى الكفر الستر، والمراد بالكفار هنا: الزرَّاع الذين يسترون الحب فى الأرض، كما يستر الكفار بالله حقيقة نور الإيمان.

﴿يهيج﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿رضوان﴾: هو الرضا التام، كما تقدم فى الآية (٢١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٣.

﴿الغرور﴾: أى الخديعة، كما تقدم فى الآية (١٨٥) من سورة آل عمران صفحة ٩٤.

(١) الحياة.	(٢) الأموال.	(٣) الأولاد.
(٤) فتراه.	(٥) حطاما.	(٦) الآخرة.
(٧) رضوان.	(٨) الحياة.	(٩) متاع.
(١٠) آمنوا.	(١١) كتاب.	(١٢) آتاكم.

﴿سابقوا﴾: المراد أسرعوا إلى أسباب المغفرة، وسابقوا الموت قبل أن يقطع عليكم طريق العمل.

﴿عرضها.. إلخ﴾: تقدم فى الآية (١٣٣) من سورة آل عمران صفحة ٨٤، والمراد من السماء جنسها الشامل للسموات كلها.

﴿من مصيبة﴾: (من) لتأكيد عموم ما بعدها.

﴿فى الأرض﴾: كالقحط وآفات الزرع وغلاء الأسعار وغير ذلك.

﴿فى أنفسكم﴾: كالأمراض، والفقر، وفقد الأهل. انظر سبب ذلك فى آيتى (٤١) من سورة الروم صفحة ٥٣٦، (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٢.

﴿فى كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ. انظر آيتى (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١، (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠.

﴿نبرأها﴾: أى نخلقها. والمراد: قبل خلق هذه الأشياء المذكورة، من الأرض والأنفس والمصائب.

﴿لكيلا﴾: تركيب من (لام التعليل) و(كى) التى بمعنى (أنْ) بفتح فسكون وهى التى تجعل الفعل بعدها مصدرًا من مادته. و(لا) النافية. والمعنى: لعدم أساكم أى حزنكم على ما فاتكم وفرحكم بما آتاكم، انظر الآية (١٥٣) من سورة آل عمران صفحتى ٨٧، ٨٨.

﴿مختال﴾: مأخوذ من الخيلاء بضم الخاء وفتح الياء، وهو التكبر الناشئ عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان فى نفسه. ﴿فخور﴾: صيغة مبالغة من الفخر؛ انظر الآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦.

المعنى: بعدما بيَّن سبحانه وتعالى حال الفريقين (المؤمنين والكافرين) فى الآخرة، شرع فى بيان حال الدنيا التى اغتر بها الفريق الثانى، مبينًا أنها من الأشياء التى لا يركن إليها العقلاء؛ لأنها لعب لا ثمرة له لمَنْ تنسيه الآخرة. ولهوٌ يشغل الإنسان عما يعنيه. وزينة لا يحصل منها شرف ذاتى للإنسان. وتفاخر والأنساب أى العظام البالية، ودار تسابق فى كثرة الأموال والأولاد. ومن شأن ذلك أن يفتن عن الآخرة وينسى العمل لها، انظر الآية (١٥) من

سورة التغابن صفحة ٧٤٧. وهى مع هذا سريعة الزوال، حالها كحال غيث سقى زرعًا فنما، وترعرع حتى أعجب الزرّاع نباته، ثم هاج حتى بلغ غايته فجف، فتراه مصفرًا. ثم تكسر وتفتت فكان حطاما. وبعدما بيّن سبحانه حقارة الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة، بيَّن عز وجل شأن الآخرة وعظم نعيمها وخطر عذابها فقال: (وفى الآخرة عذاب شديد) أى لمَنْ جعل كل همه تحصيلها، ولم يراع حق الله فيها. وفيها أيضًا مغفرة للذنوب من فضل الله تعالى، وفيها رضى عظيم لمن راقب الله فيها. ثم بيَّن سبحانه نتيجة ما سبق. بأن الحياة الدنيا ليست إلا متاع الخديعة لمَنْ فتن بها، ولم يجعلها وسيلة للآخرة. قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: (الدنيا متاع الغرور، إن ألهتك عن طلب الآخرة، أما إذا أعانت عليه فنعم المتاع)، وإنما أكثر سبحانه من التحذير منها لشدة حب النفوس لها. وقوة فتنتها. وبعد بيان ذلك رغب سبحانه فيما يجلب الخير فى الآخرة فقال سبحانه: ﴿سابقوا﴾.. إلخ. أى سابقوا الموت قبل أن يقطع عليكم الأعمال إلى أسباب مغفرة عظيمة حاصلة من ربكم. وإلى جنة واسعة الأرجاء بما لا يخطر على قلب بشر، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله. ذلك الموعود به من المغفرة والجنة: فضل الله يعطيه لمَنْ يشاء حسب نظامه الذى شرعه. والله صاحب الفضل العظيم. وبعدما بيَّن سبحانه أن متاع الدنيا زائل. أتبع ذلك بتهوين ما يلاقيه المؤمن فيها، حتى لا يحمله الجزع على اليأس من رحمة الله. ولا كثرة النعم على البطر والتفاخر؛ فقال تعالى: ﴿ما أصاب﴾.. إلخ. أى لا يصيب أحدًا منكم مصيبة من مصائب الزمان مهما كانت، إلا وهى ثابتة عند الله، مقدرة قبل خلق العالم، كالخير سواء بسواء. إن تسجيل كل هذا يسير جدا على الله فلا يحتاج إلا لقوله عز وجل: ﴿كن فيكون﴾. أعلمناكم بذلك لئلا يشتد حزنكم على ما فاتكم من الخير. ولا يشتد فرحكم بما أعطاكم منه؛ لأن مَنْ علم أن الخير والشر مقدران لا يحصل منهما إلا ما قدر حصوله، ولا يمتنع إلا ما قدر منعه. لا يجزع على ما فات جزعا مع يأس. ولا يفرح بما حصل فرح بطر واستكبار على الناس. أما الفرح بالنعمة مع الشكر عليها فغير مذموم. وكذا الحزن الطبيعى الذى لا يلهى عن تذكر ثواب الله على الصبر على المصيبة، فهو أيضا غير مذموم، وقال بعض السلف: تحصنوا من خطر المصيبة بالصبر. ومن بطر النعمة بالشكر. والله لا يحب كثير الاختيال والفخر؛ لأنه ينسى تذكر النعمة ويؤذى العباد. ومن شأن هؤلاء المختالين الفخورين بمتاع الدنيا، أنهم يبخلون بالإنفاق فى سبيل الخير.

وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ (١) وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ (٢) وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ (٣) لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ (٤) وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ (٥) ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٦) ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم (٧) بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ (٨) ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا (٩) عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ (١٠) ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا (١١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ (١٢) مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (١٣) ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

المفردات: ﴿يتول﴾: يعرض عن أمر ربه.

﴿الحميد﴾: أى المستحق لكثرة الحمد على كل حال وذلك لكثرة نعمه، وإن لم يحمده الغافلون.

﴿البينات﴾: أى الحجج الواضحة الدالة على الحق.

﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل كل الكتب السماوية.

﴿الميزان﴾: أى الضوابط التى يعرف بها الحق والباطل، كما تقدم فى الآية (١٧) من سورة الشورى صفحة ٦٤١.

﴿القسط﴾: العدل. ﴿أنزلنا الحديد﴾: أى أوجدناه، انظر معنى الإنزال فى (٢٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٥، و(٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦.

﴿بأس﴾: أى قوة.

﴿يعلم الله﴾: أى يعلم علم تحقق. وهذا لا يحصل إلا بعد أن تفعلوا ما كلفتم به.

﴿بالغيب﴾: أى بلا رياء ولا سمعة.

﴿نوحا وإبراهيم﴾: نوح هو الأب الثانى لجميع البشر وإبراهيم أبو الأنبياء من بعده، فليس هناك نبى إلا وهو من ذريته.

(١) بالبينات. (٢) الكتاب.
(٣) منافع. (٤) ابراهيم.
(٥) الكتاب. (٦) فاسقون.
(٧) آثارهم. (٨) آتيناه.
(٩) كتبناه. (١٠) رضوان.
(١١) فآتينا. (١٢) آمنوا.
(١٣) فاسقون.

﴿قفينا﴾: من التقفية، وهى جعل الشىء فى إثر الشىء، انظرالآية (٤٦) من سورة المائدة صفحة ١٤٦.

﴿آثارهم﴾: جمع إثر بكسر فسكون وهو العقب، والمراد: على أعقابهم وهى الطرق التى سلكوها.

﴿رأفة ورحمة﴾: تقدم الفرق بينهما فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨.

﴿رهبانية﴾: نسبة إلى (الرهبان) بفتح الراء وسكون الهاء وهو العبد شديد الخوف من الله تعالى (كالخشيان) أى شديد الخشية. والرهبانية هى المبالغة فى العبادة، والانقطاع عن الناس، والمعيشة الخشنة والبعد عن النساء.

﴿ابتدعوها﴾: أى اخترعوها من عند أنفسهم. لم يطلبها الله تعالى منهم. انظر الكتاب المسمى (قديسو مصر) الذى ترجمه المرحوم عمر طوسون فى كتابه (وادى النطرون ورهبانه) طبعة سنة ١٩٣٥ ميلادية، ففيه أن هذه الفكرة أول ما تحققت كانت فى وادى النطرون بمصر سنة ١٥٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام.

﴿إلا ابتغاء﴾.. إلخ: (إلا) بمعنى لكن. و(ابتغاء): أى طلب. والمراد: لكنهم فعلوها طلبًا لرضى الله سبحانه وتعالى.

﴿فما رعوها﴾: المراد ما حافظ كثير منهم على ما تقتضيه الرهبنة بل أهملوها. واعلم أن الإسلام حرم هذه الرهبنة بقوله ﷺ: لا رهبانية فى الإسلام.

المعنى: والمبتلون بالخيلاء والافتخار بالأموال، هم الذين يبخلون بها لشدة حرصهم عليها ولا يكتفون بذلك، بل يدعون غيرهم للبخل خضوعا لوسوسة الشيطان. انظر الآية (٢٦٨) من سورة البقرة صفحة ٥٧.

ثم بيَّن سبحانه أن ضرر عملهم هذا عائد عليهم وحدهم فقال: (ومن يتول).. إلخ. أى ومَنْ يعرض عن الإنفاق فى وجوه الخير لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا؛ لأنه سبحانه غنى عن جميع خلقه، محمود فى ذاته. وبعدما طلب سبحانه من عباده الإيمان به وبرسله، أراد أن يبين حكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب المشتملة على ضوابط العدل، ليقوم به الناس

ويحققوه. فقال: (لقد أرسلنا).. إلخ. أى ولقد أرسلنا كل رسلنا مؤيدين بالمعجزات والأدلة القاطعة بصدقهم، وأنزلنا معهم الكتب المبينة للقواعد التى يزن بها الناس معاملاتهم مع الله، ومع بعضهم، بل ومع ما تحت أيديهم من الحيوانات، ليقوم الناس بالعدل فى كل ذلك، فيعطوا كل ذى حق حقه. ولما كانت القوانين وحدها لا تكفى لحفظ النظام والقيام بالعدل، إلا إذا كان الخلق كلهم خيارا - أما إذا كان فيهم أشرار كما هو الواقع فلا تردعهم إلا القوة - قال سبحانه: إنا أوجدنا الحديد ليستعان به على دفع الظلم، وتنفيذ حدود الله. وفيه أيضا منافع للناس فى معايشهم، فما من شىء منها إلا وللحديد دخل فيه.

خلق سبحانه الحديد لينتفع الناس به فى مصالحهم والمحافظة على دينهم. وعند ذلك يعلم سبحانه من ينصره بنصرة دينه، ومَنْ ينصر رسله بإخلاص. فيجازيهم أحسن الجزاء. ثم أشار سبحانه إلى أنه غير محتاج إلى نصير، وإنما كلف عباده لمصلحتهم فقال: إن الله قوى عزيز. أى غالب لا يغلبه أحد. ولو شاء لانتقم من الأشرار وحده. انظر الآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢، ٦٧٣.

ثم فصل سبحانه بعض ما أجمله فيما سبق، بذكر أشهر الرسل فقال: (ولقد أرسلنا نوحا) (آدم الصغير) وإبراهيم (أبا الأنبياء بعده)، وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتب الأربعة: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن. فكان من ذريتهم من اهتدى بهذه الكتب. وكثير منهم فاسقون خارجون عن تعاليمها. انظر الآية (١١٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٣.

ثم أرسلنا بعد نوح وإبراهيم رسولاً بعد رسول، حتى انتهى الأمر إلى عيسى بن مريم، وأعطيناه الإنجيل، وجعلنا فى قلوب الذين آمنوا به واتبعوه رأفة ورحمة على العباد، اكتسبوا ذلك من رقة قلبه عليه السلام، وتسامحه الذى جاء به ليخفف من قسوة اليهود وغلظتهم حتى على الأتقياء منهم، فقتلوا أنبياءهم. وكان من مبالغتهم فى الرأفة، أنهم ابتدعوا رهبانية ما طلبناها منهم، ولكنهم فعلوها طلبًا لرضى الله عنهم، وألزموا أنفسهم بها، فكانت كالنذر. وبما أن من ألزم نفسه نذرًا ولم يوف به كان عاصيًا قال سبحانه: (فما رعوها).. إلخ.

والمراد: أنه خلف من بعد مَنْ التزم الرهبنة ذرية تظاهروا بها، ولكنهم عملوا على نقيضها باطنًا، ففسق كثير منهم. وكانوا أبعد عن تعاليم المسيح نفسها. لكن مَنْ آمن إيمانا صحيحًا

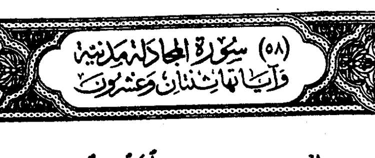
من أسلافهم وحافظ على نذره الذى ألزم به نفسه، آتيناه أجره اللائق بإخلاصه. وقد نهى الإسلام عن هذا النوع من العبادة، فقال ﷺ: لا رهبانية فى الإسلام. وقال: إن لبدنك عليك حقا. وقال: مَنْ لم يتزوج فليس منى. بل نهى عن كل بدعة فى الدين يقصد بها التقرب إلى الله، بعبادة لم يشرعها. فقال ﷺ: كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار. وضابط البدعة المحرمة هو كل عبادة جاءت على خلاف مارسم صاحب الشرع. وذلك أن العبادات من الأمور التى وضعها سبحانه لعباده ليعظموه بها. وهو وحده الذى يعلم ما يصح أن يعظم به وما لا يصح. ولا يجوز أن يزاد فيها شىء عما أذن فيه. فلا يجوز لنا أن نحدث عبادة جديدة. كدق الطبول بقصد العبادة مثلا. ولا أن نغير ما شرعه لنا بزيادة ولا بنقص. فلا نصلى الصبح أربعا، ولا الظهر ركعتين. ولا أن نغير فى كيفية العبادة. فإذا قرأ ﷺ فى صلاة النهار سرا، وفى صلاة الليل جهرا، فلا يجوز لنا العكس.

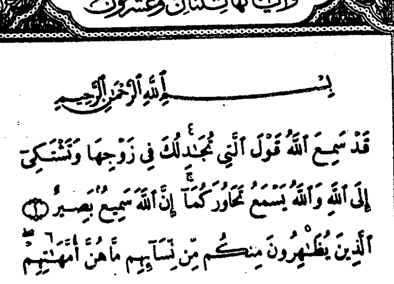
وإذا قال لنا سبحانه: ﴿واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول﴾ .. إلخ. الآية (٢٠٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٦، فلا يجوز لنا أن نرفع أصواتنا بالذكر إلا فيما ورد فيه الرفع، كالأذان وتلبية الحج وتكبير العيدين. وإذا لم يحدد الشارع للعبادة وقتًا معينًا. فلا يجوز لنا أن نحدد نحن. فإذا طلب منا صلاة التطوع فى الليل من بعد العشاء إلى الفجر. ولم يحدد وقتًا معينًا من هذا الزمن فلا يجوز لنا أن نلتزم وقتًا معينًا كنصف الليل مثلا. ولا نفعل فيه إلا على قصد أن هذا هو العبادة المقربة إلى الله.

وكما تكون البدعة فى إحداث جديد، من عمل أو عدد أو كيفية أو وقت، تكون كذلك فى ترك شىء مباح على قصد التعبد؛ كترك نوع من الأطعمة أو اللباس المباح على نية التعبد. كما فعل رهبان النصارى؛ لأن من يفعل ذلك يضع نفسه موضع صاحب الشرع فى اعتبار الترك عبادة.

أما إذا ترك شيئًا، لا على أنه قربة إلى الله، فليس ذلك من البدعة. ومن هذا نعلم أن البدعة لا تكون فى الأمور العادية، كطبع الكتب وبناء المدارس وآلات الزراعة والركوب مثلاً. وكذا ليس من قبيل البدع الشرعية، الأمور المحرمة التى فشت فى الأسواق والمجتمعات من كل ما هو مخالف لقواعد الشرع، والله الموفق للصواب.

ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾





المفردات: ﴿كفلين﴾: مثنى كفل. والكفل النصيب، والمراد نصيب على إيمانكم بالرسل السابقين، وآخر على إيمانكم بخاتمهم وهو رسولكم.

﴿نورا﴾: هو المتقدم فى الآية (١٢) السابقة من هذه السورة صفحة ٧٢٠.

﴿لئلا يعلم﴾: ﴿لئلا﴾ لفظ مركب من ثلاث كلمات: لام التعليل وأن الناصبة للفعل بعدها ولا النافية؛ والعرب تجىء بـ (لا) هذه فى مثل هذا المقام لتأكيد نفى سابق.

أو للتمهيد لنفى لاحق مع تأكيده فى المعنى كما هنا.

والمراد: أخبركم الصادق فى جميع أخباره وهو الله سبحانه بما سبق؛ ليعلم أهل نفى قدرتهم على تصريف فضل الله نفيًا مؤكدًا، فلا يطمعوا فى حجز فضله عن نبيه محمد ﷺ.

سورة المجادلة

﴿سمع الله﴾: أى أجاب وقبل. كما فى (سمع الله لمن حمده) أى قبل حمده وأثابه عليه. وليس المراد مجرد السماع.

﴿قول التى﴾: أى دعاءها بأن يفرج الله كربتها، كما سيأتى بيانه.

(٢،١) آمنوا.
(٣) الكتاب.
(٤) تجادلك.
(٥) يظاهرون.
(٦) أمهاتهم.

﴿تجادلك فى زوجها﴾: المراد: تراجعك الكلام فى شأن زوجها وما حصل منه لما ظاهرها، والزوج المظاهر اسمه (أوس بن الصامت الأنصارى الخزرجى)، وزوجته اسمها (خَوْلة بنت ثعلبة الأنصارية).

﴿تحاوركما﴾: أى تراجعكما فى الكلام ورد كل منكما على الآخر.

﴿يظاهرون﴾: فعل مأخوذ من الظهر. وذلك أن العربى كان فى الجاهلية إذا قال لامرأته:

(أنت علىّ كظهر أمى) تحرم عليه حرمة مؤبدة، فكان أشد طلاق عندهم: والظهار فى عرف الإسلام هو تشبيه الرجل زوجته أو عضوًا منها بامرأة محرمة بقصد التحريم، لا بقصد الاحترام ولم يجعله طلاقًا مؤبدًا كما سيأتى.

﴿منكم﴾: المراد: بعضكم أيها العرب وفيه توبيخهم على هذه العادة السخيفة التى انفردوا بها دون العالم.

﴿من نسائهم﴾: جاء بعد الفعل بحرف ﴿من﴾ ليفيد أن الفعل. ﴿يظاهرون﴾ أشْرِب معنى النفور، كأنه قال: يظاهرون نافرين من نسائهم.

المعنى: لما أنزل سبحانه فيمَنْ آمن من أهل الكتاب قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ الآية (٥٤) من سورة القصص صفحة ٥١٤ . أى أجرا على إيمانهم الصحيح بأنبيائهم قبل البعثة المحمدية، وأجرًا على إيمانهم بخاتم الرسل بعد بعثته. نقول: لما نزل هذا، قال بعض أهل الكتاب - ممَنْ لم يؤمنوا بنبينا ﷺ - لبعض الصحابة: إن كتابكم اعترف بأن من آمن برسول من رسل بنى إسرائيل فله أجر. وبما أنا نعتقد أن الرسالة لا تكون إلا فى بنى إسرائيل، فنحن لا نؤمن بنبى من العرب. ولنا مع ذلك أجر باعتراف كتابكم.

أما أنتم فليس لكم ذلك؛ لأنكم اتبعتم رجلاً ليس من بنى إسرائيل الذين انحصرت فيهم الرسالة. فأغضب قولهم هذا بعض المؤمنين. فأنزل سبحانه فى ذلك مخاطبًا المؤمنين بخاتم الرسالة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلخ.

أى يا أيها الذين اتصفوا بالإيمان، اتقوا اللَّه حق تقاته. واثبتوا على الإيمان برسوله محمَّد ﷺ، يؤتكم اللَّه تعالى نصيبين من الأجر من فيض رحمته؛ نصيب على إيمانكم بالرسل السابقين، ونصيب على إيمانكم بخاتمهم ﷺ، وأيضًا نصيب فى الدنيا ونصيب فى الآخرة كما فى الآية (٢٠١) من سورة البقرة صفحة ٤٠ .

ويريكم يوم القيامة نورًا تهتدون به فى المشى إلى الجنة. ويغفر لكم ذنوبكم؛ لأنه سبحانه سريع المغفرة لمَنْ أخلص التوبة، واجتنب الكبائر. واسع الرحمة، لا يضيع أجر من أحسن عملاً. أعلن اللَّه - صادق الوعد - ذلك لأجل أن يعلم أهل الكتاب القائلون: مَنْ آمن برسوله فله أجر.

أما المؤمنون بمحمَّد فلا أجر لهم، أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل اللَّه بالأجر والرسالة بهم وحدهم مهما كان هذا الأجر قليلاً. ويعلموا أيضًا أن الفضل بالأجر والرسالة ليس خاضعًا لتصرفهم فيه، يمنحونه لمَنْ يشاءون، ويمنعونه عمَّنْ يشاءون. بل هو بيد اللَّه وحده يؤتيه مَنْ يشاء حسب حكمته. وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم.

سورة المجادلة

تضمنت هذه السورة محاربة بعض عادات العرب الشاذة، التى حاربت سورة الحجرات كثيرًا منها. وكذلك نبهت هذه السورة إلى عيوب المنافقين واليهود. وأول العادات المرذولة هو الظهار. وأول ظهار وقع فى الإسلام، هو ظهار أوس بن الصامت الخزرجى الأنصارى، أخى عبادة بن الصامت الصحابى المشهور، من زوجته خَوْلة بفتح الخاء وسكون الواو، بنت ثعلبة الأنصارية.

وحاصل ما وقع أن أوسًا غضب من خولة يومًا، فقال لها أنت علىّ كظهر أمى، وكان هذا يعتبر تحريمًا مؤبدًا فى الجاهلية. فحزنت حزنًا شديدًا وأسرعت إلى النبى ﷺ، وكان فى بيت عائشة رضى اللَّه تعالى عنها.

وقالت: (يا رسول الله إن أوسًا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فيها، فلما كبرت وكثر عيالى، جعلنى عليه، كأمه فى ثورة غضبه، ثم رجع وندم فإن كنت يا رسول الله تجد لى مخرجًا فحدثنى به) فقال ﷺ: (ما أراك إلا قد حرمت عليه) فقالت: يا رسول الله لم يذكر طلاقا.

فقال ﷺ: (ما أمرت فى أمرك بشىء) فقالت: (انظر إلى رخصة يا رسول الله، فوالله إن لى منه صبية صغارًا، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا. وصارت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إنى أشكو إليك وحدتى وشدة فاقتى) وكررت ذلك مرارًا. فبينما هى على هذه الحال، وإذا بالوحى ينزل عليه ﷺ.

فقالت لها السيدة عائشة: (انتظرى يا خولة، فلا أظن إلا أن الله قد أنزل فى أمرك قرآنا) فلما فرغ الوحى، قال ﷺ: ابعثى زوجك يا خولة. فلما حضر تلا عليه ﷺ من أول السورة إلى الآية (٤). فكفَّر أوس وعاش معها. وأدركت خولة هذه عمر بن الخطاب فى خلافته.

وورد أنها لقيته يومًا يسير مع جماعة من أصحابه فاستوقفته وأطالت معه الحديث، وهو منصت لا يتحرك، ولم ينصرف حتى انصرفت هى، فقال بعض أصحابه: ما هذه العجوز التى أوقفتك هذا الموقف يا أمير المؤمنين؟ فقال: والله لو أوقفتنى طول اليوم لوقفت، وَيْحَكم!! ماذا تريدون من عمر؟! أتريدون منه ألا يستمع إلى امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، وأنزل فيها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة؟

ومعنى الآيات:

قد أجاب الله ضراعة المؤمنة التى جادلتك أيها النبى فى شأن زوجها، وشكت حالها إلى ربها، وكان الله يسمع تحاوركما؛ لأنه سبحانه وتعالى سميع لكل ما يسمع، بصير بحال عباده، فيغيث المستغيث.

ثم بيَّن سبحانه بغضه لتلك العادة فى نفسها، وسفاهة مَنْ يقدم عليها فقال تعالى: الذين يظاهرون منكم نافرين من نسائهم فيجعلونهن كأمهاتهم، ليحرموا معاشرتهن إلى الأبد. ألا فليعلم هؤلاء أن نساءهم ليسوا أمهاتهم فى حكم الله تعالى. فالذين يجعلون نساءهم كأمهاتهم مخطئون.

إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ(١) إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى(٢) وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا(٤) وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ(٣) مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ(٤) عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ(٥) بَيِّنَٰتٍ(٦) وَلِلْكَٰفِرِينَ(٧) عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ(٨) ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ

المفردات: ﴿إن أمهاتهم﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى (ما).

﴿اللائى﴾: جمع نسوة بمعنى اللاتى.

﴿منكرًا من القول﴾: أى ينكره العقل السليم والطبع والشرع؛ لأن علاقة الزوجية مبنية على إباحة أمور تتنافى كل المنافاة مع علاقة الأمومة.

﴿زورا﴾: أى كذبًا وباطلا منحرفًا عن الحق؛ لأنه تضمن جعل الزوجة كالأم وقد علمت فساده.

﴿لعفو﴾: أى لكثير العفو، وهو عدم المؤاخذة على الذنب.

﴿غفور﴾: أى كثير المغفرة، وهى ستر ذنب العبد المؤمن فلا يفضحه.

﴿يعودون لما قالوا﴾: أى لنقض ما قالوا بالعزم على تحليل ما حرموه على أنفسهم. واللام بمعنى (فى) كما فى قولهم مضى فلان لسبيله أى فى طريقه، وما فى الآية (٤٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥ .

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾: أى فى يوم القيامة.

﴿تحرير﴾: أى عتق.

﴿رقبة﴾: المراد عبدًا مملوكًا أو أمة.

(١) أمهاتهم. (٢) اللاتى.
(٣) يظاهرون. (٤) للكافرين.
(٥) آيات. (٦) بينات.
(٧) للكافرين. (٨) أحصاه.

﴿يتماسا﴾: أى يتصلا اتصالا لا يحل إلا للزوجين.

﴿متتابعين﴾: لا يفصل بين يومين منهما إفطار فى النهار، فإن فصل أعاد من أولهما وبطل ما مضى.

﴿حدود اللَّه﴾: المراد أحكام شرعه التى فصل بها بين الحق والباطل.

﴿يحادون اللَّه﴾: المراد يعادونه بعصيانه، كما تقدم فى الآية (٦٣) من سورة التوبة صفحة ٢٥١ .

﴿كبتوا﴾: أى أذلهم اللَّه، كما تقدم فى الآية (١٢٧) من سورة آل عمران صفحتى ٨٤،٨٣ .

﴿أحصاه اللَّه﴾: المراد: أمر الملائكة بإحصائه فى الكتاب، انظر الآيات (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٨،٣٨٧، و(١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠، و (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ .

﴿ألم تر﴾: الاستفهام تقريرى، و﴿تر﴾: بمعنى تعلم أى يجب أن تعلم بأن اللَّه يعلم... إلخ. وكيف لا يعلم شيئًا وهو خالقه. انظر الآية (١٤) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ .

المعنى: الذين يجعلون نساءهم كأمهاتهم مخطئون؛ لأنهم ليس لهم أمهات إلا اللائى ولدنهم، وبما أن الزوجة ليست والدة، فهم بذلك لايقولون إلا قولاً منكرًا لا يجيزه شرع ولا يرتضيه عقل، ولا يقرهم عليه ذو عقل سليم. ثم فتح لهم باب التوبة منه فقال: وإن اللَّه لعفو غفور لمَنْ أحسن التوبة. وبعدما بيَّن سبحانه بشاعة الظهار، شرع فى بيان حكمه لو وقع، فقال تعالى: (والذين يظاهرون من نسائهم)... إلخ. أى ثم يأسفون، ويعزمون على إبطال ما قالوا باستمرار إمساك زوجاتهم فى عصمتهم، فعلى كل منهم عتق رقيق قبل أن يتماشرا مماشرة الأزواج. هذا الحكم شرع لكم لتتعظوا وتبتعدوا عن ارتكاب المنكر، والله خبير بكل أعمالكم، فيعلم المطيع وغيره، ويجازى كلاً بما يستحق، فحافظوا على ما شرع. فمَنْ لم يجد ثمن رقبة يعتقها، فعليه صيام شهرين قمريين متتابع صومهما، فلو فصلها بيوم إفطار يعيدها من أولها، ولا يجوز له أن يمسّ زوجته قبل تمام الشهرين، وإن خالف ارتكب بذلك ذنبًا آخر غير أصل

الظهار، فمن لم يستطع الصوم فعليه إطعام ستين مسكينًا، كل مسكين قوت يوم غداء وعشاء من أوسط ما تطعمون أهليكم الذين تحت رعايتكم، فلا يجوز لمعتاد أكل اللحم والخضر والفاكهة أن يطعم الخبز والجبن مثلاً، ويجوز أن يعطى المسكين ما يكفيه طعام يوم من مال أو قوت. ولما لم يقيد هنا بقوله: ﴿من قبل أن يتماسا﴾ اختلف نظر العلماء، فقال بعضهم: يجوز له المسيس من نوى للإطعام. وقال آخرون: إنه مشروط أيضًا، ولكنه اكتفى عند ذكره بما علم من سابقه. بيَّن سبحانه لكم تلك الأحكام وفرضها عليكم، ملاحظات فيها التخفيف من درجة إلى درجة ليزداد تصديقكم باللَّه ورسوله، وتُقبلوا على شرعه. وتقلعوا عما كنتم عليه فى جاهليتكم، وللكافرين بهذه الحدود عذاب شديد الألم. وكفره بها إن كان برفضها، فجزاؤه الخلود فى النار، وإن كان بمجرد إهمالها فهو كبير، وهناك عبارات تشبه الظهار يستعملها أهل مصر بقصد الطلاق فقط مثل (أنت حرام علىَّ كحرمة أمى أو كحرمة كل شىء حرمه الشرع) فهذا وأمثاله ليس ظهارًا، ولكنه طلاق بائن، لا تحل المرأة بعده إلا بعقد جديد. ومما تقدم يعلم ان حكم الشريعة فى الظهار، هو مجرد تفريق بين أبدان الزوجين مع بقاء العصمة بيد الرجل. فلو لم يرجع إلى زوجته بالكفارة، فلها حق رفع أمرها للقاضى يحكم بما فيه مصلحتها.

وبعدما بيَّن سبحانه أحكام كفارة الظهار، أتبع ذلك ببيان أن مَنْ لا يقبل شرع اللَّه من العرب الذين كانوا يظاهرون، سيخذل فقال تعالى: إن الذين لايخضعون لشرع اللَّه ورسوله سيخذلهم اللَّه ويذلهم، كما أذل الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية. وكيف لا يقبلون شرعنا والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات تبين حدود اللَّه وصدق رسوله.

فمَنْ كفر بعد ذلك فله عذاب مهين. فهذا اليوم الذى سيبعثهم الله فيه من القبور جميعًا، هم والأولون والآخرون فيخبرهم بما كسبت أيديهم خزيًا لهم على رءوس الأشهاد. وقد أحصى سبحانه كل كبيرة وصغيرة عملوها، ومن شدة غفلتهم فى الدنيا عن هذا اليوم، أنهم تهاونوا فى مراقبة أعمالهم حتى نسوها. ثم استشهد سبحانه على شمول علمه فقال تعالى: (ألم تر أن اللَّه يعلم).. إلخ.

مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ
ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ
مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ
تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَيَتَنَٰجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا
جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ
لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا
فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ
فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا
بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾
إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

المفردات: ﴿من نجوى﴾: ﴿من﴾ لتاكيد عموم ما بعدها. والنجوى هى التناجى أى المحادثة سرًا.

﴿ثلاثة. خمسة﴾: هذا العدد على سبيل التمثيل فقط؛ لأن غالب التناجى أن يكون بمثله.

﴿إلا هو معهم﴾: قال ابن كثير: معهم بعلمه.

﴿ألم تر﴾: الهمزة للاستفهام التعجبى، أى ألم تنظر وتعجب أيها النبى؟

﴿الذين نهوا﴾: هم جماعة من اليهود والمنافقين.

﴿الإثم﴾: هو كل ذنب.

﴿العدوان﴾: ذنب مخصوص، وهو ظلم المؤمنين والتعدى عليهم بما يؤذيهم.

---

(١) السموات.
(٢) ثلاثة.
(٣) القيامة.
(٤) يتناجون.
(٥) العدوان.
(٦) معصية.
(٧) آمنوا.
(٨) تناجيتم.
(٩) تتناجوا.
(١٠) العدوان.
(١١) معصية.
(١٢) تناجوا.
(١٣) الشيطان.
(١٤) آمنوا.

﴿معصية الرسول﴾: هذا ذنب أفظع، والمراد التواصى فيما بينهم بمعصية الرسول.

﴿بما لم يحيك به الله﴾: فيقولون السام عليك يا أبا القاسم، يوهمون أنهم يقولون السلام عليك يا أبا القاسم؛ والسام هو الموت.

﴿لولا يعذبنا الله﴾: ﴿لولا﴾: حرف، أصل معناه: طلب حصول ما بعده. واستعملوه هنا على سبيل الاستهزاء يريدون: لو كان محمد نبيًا لعجل الله لنا العذاب فى الدنيا بسبب قولنا هذا.

﴿حسبهم جهنم﴾: أى كافيهم جهنم تغنى عن كل عذاب، انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢.

﴿يصلونها﴾: أى يدخلونها ليحترقوا فيها.

﴿بئس المصير﴾: قبح المرجع والنهاية.

﴿البر﴾: كل ما فيه خير.

﴿التقوى﴾: كل ما فيه ترك المعصية.

﴿ليحزن﴾: حزنه يحزنه بوزن قتله يقتله، أى أدخل عليه الحزن.

المعنى: و بعدما أكد سبحانه علمه بكل شىء من العالم العلوى والسفلى، ومنه أعمال هؤلاء الذين يحاربون الله ورسوله، انظر الآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥، قال مقررًا لما سبق ﴿ما يكون من نجوى﴾... إلخ. أى لا يوجد تناجى ثلاثة إلا وهو سبحانه رابعهم بعلمه، ولا تناجى خمسة إلا هو سادسهم، ولا أقل من الثلاثة ولا أكثر من الخمسة إلا وهو سبحانه معهم، أى عالم بكل أسرارهم فى أى مكان وجدوا ولو فى جوف الأرض. هو مطلع عليهم، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة تفضيحًا لهم، وتقريرًا لما يستحقونه من الجزاء؛ لأن الله تعالى بكل شىء عليم. لا يخفى عليه بعيد ولا مستور. وكان جماعة من اليهود والمنافقين إذا رأوا مؤمنًا قادمًا عليهم يتهامسون سرًا ويشيرون إليه ليوهموه أن أقاربه من المؤمنين المجاهدين والمسافرين حصل لهم سوء فيحزن، فشكا المؤمنون ذلك لرسول الله ﷺ فنهاهم عن ذلك فلم ينتهوا، فأنزل سبحانه قوله: ﴿ألم تر﴾.... إلخ. أى هل لم تنظر وتعجب أيها النبى من حال هؤلاء الذين نهيتهم عن التناجى المريب، ثم يعودوا لما نُهوا عنه؟

ثم بين هذا المنهى عنه فقال: فيتناجون بالإثم والتعدى على المؤمنين بإيذائهم وإزعاجهم، وبالتواصى بعصيان الرسول إذا نهاهم عن شىء، أو أمرهم بشىء.

ثم ذكر لهم جرمًا آخر فقال: ﴿وإذا جاءوك﴾ ... إلخ. وكان قوم من اليهود وبعض المنافقين إذا دخلوا عليه صلوات الله وسلامه عليه يقولون (السام) عليك يا أبا القاسم، يدعون عليه به، ويوهمون بإدغام كلامهم أنهم يقولون: السلام عليك يا أبا القاسم، وهذا خبث معروف فى اليهود، انظر الآية (١٠٤) من سورة البقرة صفحة ٢٠، وكان ﷺ مؤدبًا، فكان رده أن يقول: (وعليكم)، فإذا خرجوا من عنده ﷺ يقولون فيما بينهم لو كان محمد نبيًا لعجل الله لنا العذاب فى الدنيا بسبب قولنا هذا.

ولما كان عذابهم مؤجلاً لحكمة يعلمها سبحانه، رد عليهم بقوله ﴿حسبهم جهنم﴾: أى أن جهنم وما فيها من الهلاك كافية للتنكيل بهم، وسيدخلونها يحترقون بنارها. وبئست جهنم نهاية لهم. وقال ابن عباس والشعبى وقتاده وجماعة من الصحابة: إن رد السلام على أهل الذمة مطلوب شرعًا، انظر الآية (٨٦) من سورة النساء صفحة ١١٥.

ثم قال سبحانه مؤدبًا عباده المؤمنين معرضًا باليهود والمنافقين: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم﴾ ... إلخ. أى فى أنديتكم وخلواتكم فلا تكونوا كاليهود والمنافقين، بل تناجوا بكل ما فيه خير لكم وللناس، وبكل ما يبعدكم عن عذاب الله، واتقوا الله فى كل أعمالكم لأنكم ستحشرون إليه يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم حسب أعمالكم.

ثم بيَّن سبحانه الباعث لليهود على التناجى بالإثم.. إلخ. فقال تعالى: ﴿إنما النجوى﴾ ... إلخ أى إنما التناجى سرًا بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان وتزيينه، ليدخل الحزن على الذين آمنوا بتوهم أنهم فى نكبة نزلت بهم، ولما كان فى تهامس اثنين فأكثر فى حضرة واحد لم يشركوه معهم فيه ما يؤلمه.

قال ﷺ: (لا يتناجى جماعة دون واحد إلا بإذنه، أو بوجود من يكون معه أثناء تناجيهم)، وهذا من الأدب النبوى الكريم الذى يحفظ على الناس توادهم وتحابهم.

وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ

المفردات: ﴿بضارهم﴾: (الباء) لتأكيد نفى ما بعدها.

﴿تفسحوا فى المجالس﴾: أى توسعوا فيها. والمراد: ليفسح بعضكم لبعض حتى يجلس الأشد حاجة لما فى المجلس من علم ونحوه.

﴿انشزوا﴾: أى انهضوا للتوسعة أو للخروج لحكمة لسبب مشروع.

﴿ناجيتم الرسول﴾: المراد: إذا أردتم محادثته سرا.

﴿بين يدى نجواكم﴾: أى قبل مناجاتكم.

﴿ءأشفقتم﴾ .... إلخ: أى هل خفتم كثرة النفقات من تقديمكم صدقات؟ وهو استفهام قصد به إظهار ما جال فى نفوسهم مقدمة للتخفيف الآتى:

﴿فإذ لم تفعلوا﴾: ﴿إذ﴾ ظرف لزمان مضى، أى فحين لم تفعلوا ... إلخ.

﴿وتاب الله عليكم﴾: أى برفع هذه المشقة وإذنه بالمناجاة بدون صدقة.

﴿ألم تر﴾: تقدم فى الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٧٢٦.

﴿الذين تولوا﴾: هم المنافقون.

﴿قومًا غضب الله عليهم﴾: المراد بهم اليهود.

(١) امنوا. (٢) المجالس. (٣) آمنوا.
(٤) درجات. (٥) ناجيتم. (٧،٦) نجواكم.
(٦) صدقات. (٩) الصلاة. (١٠) آتوا.
(١١) الزكاة.

﴿ما هم منكم ولا منهم﴾ : أى أن المنافقين ليسوا من المؤمنين، ولا من اليهود. بل هم مذبذبون بينهما، انظر الآية (١٤٣) من سورة النساء صفحة ١٢٧ .

﴿يحلفون على الكذب﴾ : أى يحلفون على الكذب بأنه حق. وأنهم يعلمون أنه رسول اللَّه وأنهم يوقرونه ﷺ وهم فى ذلك كاذبون، انظر الآيات (١) و ما بعدها من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٢ ، ٧٤٣ .

المعنى: يريد الشيطان ليحزن الذين آمنوا بالإغراء على النجوى، وليس هذا التناجى بضار المؤمنين شيئًا، إلا بإذنه تعالى، وعلى اللَّه فليتوكل المؤمنون، ولا يبالوا بهذا الكيد ولما نهى المؤمنين عن مثل أعمال المنافقين مما يكون سببًا للتنافر بينهم، أتبع ذلك بأمرهم بما يكون سببًا لزيادة الألفة، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم﴾ ... إلخ وكان المؤمنون يتنافسون على القرب منه ﷺ حرصًا على الاستماع منه، وقد يتأخر عن المبادرة إلى مجلسه ﷺ أصحاب الأعذار، وقد يكون بعضهم ضعيف السمع، أو أحوج من غيره لقرب عهده بالإسلام. وكان الواحد من هؤلاء يقف بعيدًا عنه ﷺ.

وكان صلوات اللَّه عليه يتألم لذلك، ولكنه كان شديد الحياء واسع الحلم، فأنزل سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس﴾ ... أى المعدة للخير. قال القرطبى: هذا يشمل كل مجلس اجتمع فيه المسلمون لسماع ما ينفعهم، فيوسع كلٌّ لأخيه بما لا يؤذيه، فافسحوا لإخوانكم يفسح اللَّه لكم فى كل ما تحبون الفسح فيه: من الأمكنة، والأرزاق، وصدور الناس، وأخيراً فى القبور. وإذا قيل لكم انهضوا للتوسعة لقدوم غريب أحوج منكم إلى استماع شىء من الدين، أو لترك مجلسه ﷺ؛ لأنه كان يحب الانفراد أحيانًا ليتفرغ لتدبير شئونه، أو لأداء فرائضه الخاصة، فانهضوا طوعًا للأمر، فإذا فعلتم ذلك يرفع اللَّه الذين آمنوا منكم - خصوصًا العلماء الذين يفقهون أسرار هذا التشريع - درجات فى الدنيا بالنصر وحسن الذكر، وفى الآخرة بالمنازل العالية فى الجنة.

ثم هدد سبحانه وبشر فقال: ﴿واللَّه بما تعملون خبير﴾ أى فيجازى من امتثل وغيره كلاً بما يستحق.

ثم أراد سبحانه أن يعالج بعض الفوضى، التى كانت سائدة بين العرب، وخصوصًا الأعراب. قال ابن عباس: إن بعض من أسلموا أكثروا من مناجاته ﷺ، من غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم، وكان الأغنياء بحكم مراكزهم يكثرون من ذلك، ويغلبون الفقراء على القرب منه ﷺ حتى شغلوا أوقاته التى يجب أن تكون موزعة على ما تقتضيه المصلحة، وكان يؤذيه ذلك ولكن يغلبه الحياء كما تقدم، فأنزل سبحانه تأديبًا لهم ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول﴾ ... إلخ. أى يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان، إذا أردتم مناجاة الرسول ﷺ ومحادثته سرًا، فقدموا قبل مناجاتكم صدقة للفقراء، ذلك التصدق خير لكم لما فيه من الثواب وأطهر لنفوسكم من دنس الشح والتكالب على الدنيا.

فمن لم يجد منكم ما يتصدق به، فقد جوز له ربه المناجاة فى الأمور المهمة بدون تقديم صدقة؛ لأنه سبحانه وتعالى غفور رحيم بعباده الضعفاء، ولهذا التكليف حكم كثيرة، منها تخفيف التزاحم عليه ﷺ من غير حاجة، ومنها تربية مهابته ﷺ فى نفوسهم حتى يسارعوا إلى امتثال أمره، ومنها نفع الفقراء، ومنها التمييز بين المخلص والمنافق، وبين محب الآخرة ومحب الدنيا إلى غير ذلك.

ولما استقر فى نفوسهم كمال الأدب، وتعودوه معه ﷺ، وشعروا بعظمة منزلته عند ربه، وتحقق الغرض المطلوب، خفف سبحانه عنهم فقال تعالى: ﴿ءأشفقتم﴾ ... إلخ أى هل خفتم كثرة النفقات من تقديم صدقة قبل كل مناجاة؟ فحين لم تفعلوا ما طلب منكم لمشقة عليكم لكثرة تكرره، وتاب اللَّه عليكم بإذنه لكم فى المناجاة المهمة بدون صدقة، فاستعيضوا عن ذلك بالمواظبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأن الصلاة تعين على مشاق التكاليف، والزكاة تحارب الشح، وأطيعوا اللَّه ورسوله فى جميع الأوامر. واللَّه خبير بما تعملون، فيجازيكم حسب أعمالكم.

ثم عجب سبحانه نبيه من حال المنافقين فقال تعالى : (ألم تر)... إلخ. أى انظر وتعجب أيها النبى إلى هؤلاء المنافقين الذين يوالون اليهود المغضوب عليهم. هؤلاء المنافقون ليسوا معكم، ولا مع اليهود. ولكنهم يظهرون ذلك ظنًا منهم أن فيه نجاتهم. وتعجب كيف يحلفون لك كذبًا، أنهم مؤمنون بك.

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا
عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ
فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ
أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ

المفردات: ﴿عذابا شديدًا﴾: انظر شرح ذلك فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨ .

﴿ساء﴾: أى قبح.

﴿جنة﴾: أى وقاية يستترون بها ليحفظوا أموالهم من الإنفاق فى الجهاد وأنفسهم من القتل، انظر الآية (٢) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٣ .

﴿فيحلفون له﴾: أى على أنهم ما كانوا منافقين، كما فعل أمثالهم فى الآية (٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥ ، والآية (٢٨) من سورة النحل صفحة ٣٤٨ .

﴿استحوذ عليهم﴾: أى استولى عليهم بوسوسته وإغرائه. ﴿ألا﴾: حرف يراد به تنبيه السامع لأهمية ما بعده.

﴿يحادون الله﴾: تقدم فى الآية (٥) من هذه السورة صفحة ٧٢٥ .

﴿أولئك فى الأذلين﴾: أى كتب الله عليهم أن يكونوا فى زمرة الأذلاء.

﴿كتب الله﴾: أى فى أم الكتاب، انظر الآية (٣٩) من سورة الرعد صفحة ٢٢٨ . والمراد قضى وحكم.

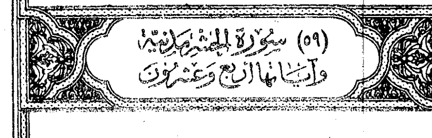
﴿يوادون﴾: أى يصادقون ويعقدون معهم مودة.

(١) أيمانهم. (٢) أموالهم (٣) أولادهم
(٤) أصحاب. (٥) خالدون (٦) الكاذبون
(٧) الشيطان. (٨) فانساهم. (١٠،٩) الشيطان.
(١١) الخاسرون. (١٢) الآخر.

المعنى: بلغ من جراة المنافقين، أنهم يحلفون على الكذب، حال كونهم عالمين أنهم كاذبون حانثون، أعد الله لهم على ذلك عذابا شديدًا فى الدرك الأسفل من النار؛ لأن أعمالهم بلغت من القبح درجة غير معهودة.

ثم بيَّن بعضها بقوله تعالى: ﴿اتخذوا﴾ ... إلخ. أى يجرؤن على الكذب متخذين من أيمانهم الفاجرة وقاية يسترون بها جرمهم. وبهذه الوسيلة منعوا كثيرًا من الناس عن طريق الحق بتشويه الإسلام؛ لأن البسطاء يظنونهم صادقين. فلهم عذاب مذل على الصد، فوق عذاب الكفر؛ انظر الآية (٨٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٧ . ولما كان سبب مصيبتهم هو خوفهم على أموالهم أن تنفق فى سبيل الله. وعلى أولادهم من القتل فى الجهاد. قال سبحانه: ﴿لن تغنى﴾ ... إلخ. أى لا تنفعهم هذه الأموال والأولاد، ولا تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله. وهم أصحاب النار، هم فيها خالدون. لن ينفعهم شيء من ذلك يوم يبعثهم الله جميعًا ويحشرهم لموقف الحساب، فيدهشهم الموقف، فيظنون أن الكذب هنا ينفعهم. فيحلفون لله سبحانه أنهم ما كانوا منافقين، كما كانوا يحلفون لكم فى الدنيا. ويظنون أنهم بحلفهم هذا على شيء من حسن التدبير، فينجون من الهلاك كما نجوا فى الدنيا. فرد سبحانه عليهم كل ما سبق بقوله منبها السامع إلى أهمية ما سيقوله، فقال: ألا إنهم هم البالغون الغاية فى الكذب حيث يحاولون الكذب على عالم الغيب والشهادة. ثم بيَّن سبب وقوعهم فى هذا الشقاء فقال: ﴿استحوذ﴾ أى غلب على عقولهم الشيطان بوسوسته وتزيينه الدنيا. فلم يمكنهم من تذكر وعد الله تعالى للطائع، ولا من وعيده لمَنْ عصى. هؤلاء هم أعوان الشيطان . ألا إن جنود الشيطان هم الخاسرون لخيرى الدنيا والآخرة. ثم بيَّن سبحانه سبب شقائهم بصورة أخرى فقال: ﴿إن الذين يحادون﴾ .. إلخ. أى إن الذين يخالفون أوامر الله ورسوله، أولئك معدودون فى أشد الناس ذلا . ثم برهن سبحانه على ذلك فقال: ﴿كتب الله﴾ ... إلخ. أى قضى بذلك قائلاً: وعزتى لأغلبن أنا ورسلى بالحجة والقوة؛ لأن الله قوى لا يعجزه شيء، عزيز لا يغلبه أحد. انظر الآية (١٧١) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٦ . ثم بين سبحانه أن حال المنافقين يخالف حال المؤمنين المخلصين فقال: ﴿لا تجد قومًا﴾ ... إلخ. أى لا يمكن أن تجد قوما يجمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين مودة ومصاحبة أعداء الله ورسوله، مهما كان هؤلاء الأعداء والمقصود بالأعداء ليس الكفار فقط بل يشمل أيضًا الفاسق ولو كان غير كافر، وتصرح الأحاديث بالنهى عن موالاتهم.

كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ
أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ
حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾


(٥٩) سورة الحشر مدنية
وآياتها أربع وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ

المفردات: ﴿عشيرتهم﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤ .

﴿أولئك﴾: أى المؤمنون حقا. ﴿كتب فى قلوبهم الإيمان﴾: المراد ثبته وقواه. ﴿بروح منه﴾: المراد بسر من أسراره تعالى كطمأنينة القلب، ونور البصيرة. انظر الآية (٤) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨ .

المعنى: لا يصح أن يوجد بين المؤمنين مَنْ يصادقون أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ، ولو كان هؤلاء الأعداء آباء المؤمنين، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو أهلهم الأقربين غير ما تقدم. هؤلاء المؤمنون حقا الذين لا يصادقون أعداء الله تعالى، ثبت الله فى قلوبهم الإيمان. فلا يؤثر فيها غير ما يرضى ربهم. وأيدهم براحة الضمير، وحب الله ورسوله. وسيدخلهم فى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها. رضى الله عنهم لإحسان أعمالهم وقوة إخلاصهم. ورضوا عنه بجزيل ثوابه. هؤلاء هم أنصار دين الله. ألا إن أنصار الله هم الفائزون بخيرى الدنيا والآخرة. وقد صح أن جماعة مِنَ المؤمنين قتلوا أقاربهم المشركين، دفاعا عن الدين وعن رسوله الأمين.

سورة الحشر

المفردات: ﴿سبح لله﴾: تقدم فى الآية الأولى من سورة الحديد صفحة ٧١٨ . ﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾: هم طائفة من طوائف اليهود المقيمين حول المدينة، وكان يقال لهم (بنو النضير) بفتح النون وكسر الضاد.

﴿ديارهم﴾: كانت على بعد ميلين من المدينة. ﴿لأول الحشر﴾: اللام بمعنى عند يقول

(١) آباءهم. (٢) إخوانهم. (٣) الإيمان. (٤) جنات.
(٥) الأنهار. (٦) خالدين. (٧) الكتاب. (٨) ديارهم.

العرب: جئت لطلوع الشمس. أى عنده كما فى الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥ . والحشر هو إخراج جمع من مكان إلى آخر، وإضافة أول للحشر من إضافة الصفة للموصوف كقولهم: لك جميل الصبر، أى الصبر الجميل. فالمراد: الحشر الأول. وهو إخراجهم من ديارهم حول المدينة إلى خيبر. والحشر الثانى إخراجهم فى زمن عمر بن الخطاب من خيبر إلى الشام.

المعنى: تدور آيات هذه السورة حول خيانة قوم من اليهود ونقضهم العهد معه ﷺ، وإخراج الله لهم من ديارهم أذلاء، وذلك أن بنى النضير من اليهود المقيمين فى ضواحى المدينة كان بينهم وبينه ﷺ عهد ألا يكونوا عليه ولا له ولما هزم المسلمون فى واقعة أحد، كما تقدم فى شرح صفحة ٨٣ طمع هؤلاء اليهود فى المسلمين ونقضوا العهد. فذهب زعيمهم كعب بن الأشرف ومعه أربعون رجلاً يهوديًا إلى مكة، وتعاهدوا مع قريش عند الكعبة على أن يقاتلوا محمدًا ﷺ. وبلغ ذلك للنبى، فأمر رجلاً من المسلمين بقتل كعب بن الأشرف لغدره وخيانته. وبعد اغتياله بمدة سار إليهم النبى صلوات الله عليه فى جمع من أصحابه ليأمروهم بالخروج من ساحة المدينة. فأظهروا الملاينة. ودبروا حيلة للفتك به صلوات الله عليه، وفى هذا الوقت جاء رسول من منافقى المدينة إلى هؤلاء اليهود، يطلب منهم ألا يخرجوا وأن يقاتلوا محمدًا ﷺ. ووعدهم نيابة عن المنافقين بأنهم سيقاتلون معهم. وإن اضطروا للخروج فسيخرجون معهم ليستعدوا لحرب أقوى .. ووصل ما دبروه للنبى ﷺ. فطلب منهم سرعة الخروج فأبوا إلا الحرب اعتمادًا على قوة حصونهم، وعلى مساعدة المنافقين، وتحصنوا داخل ديارهم. فحاصرهم ﷺ إحدى وعشرين ليلة. فلما يئسوا من مساعدة المنافقين، وشعروا بالضعف بسبب قتل زعيمهم، ومدبر شئونهم كعب بن الأشرف، داخلهم الرعب، وطلبوا منه صلوات الله عليه الصلح، فصالحهم على أن يجلوا بشرط أن كل أهل بيت يحملهم جمل واحد. ولهم أن يأخذوا على هذا الشرط ما شاءوا من المتاع دون السلاح. فخرج بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى الشام. وكان ذلك فى ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة. فأنزل سبحانه فى ذلك قوله: سبح لله ما فى السموات... إلخ. أى أن جميع ما فى الكون يقدسه سبحانه وينزهه وهو العزيز الغالب الذى لا يغلب، الحكيم فى تدبيره وصنعه. ثم بين بعض آثار عزته وحكمته فقال: هو الذى أخرج... إلخ. أى هو وحده الذى أجلى بنى النضير بقوته وحكيم تدبيره عند الحشر الأول بلا صعوبة، وما كنتم أيها المؤمنون تظنون أنهم يخرجون، لشدة بأسهم، وقوة حصونهم، وكثرة عددهم، وعظيم استعدادهم. والآثار ظاهرة فى شمول ﴿من حاد الله﴾ للفاسق ولو غير كافر. والأحاديث مصرحة بالنهى عن موالاتهم. ولذا قال بعض السلف، من صح إيمانه لا يأنس إلى مبتدع ولا يصاحبه. ومَنْ داهن مبتدعا سلبه الله حلاوة السنة. ومَنْ تحبب إلى مبتدع يطلب عز الدنيا أذله الله.

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ(١) مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ(٢) ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ(٣) عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ(٤) ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ(٥) وَٱلْمَسَٰكِينِ(٦) وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ

المفردات: ﴿فأتاهم الله﴾: أى جاءهم عذابه بالرعب والجلاء.

﴿من حيث لم يحتسبوا﴾: أى من جهة لم تخطر لهم على بال.

﴿قذف فى قلوبهم﴾: أصل القذف الرمى بقوة، والمراد أثبته وركزه.

﴿الرعب﴾: هو الخوف الذى يملأ القلب.

﴿وأيدى المؤمنين﴾: أى جعل التخريب كله صادرًا منهم سواء أكان بأيديهم أو بأيدى المؤمنين. وذلك لأن غدرهم هو السبب فى إطلاق أيدى المؤمنين فى التخريب.

﴿الأبصار﴾: جمع بصيرة وهى نور القلب.

﴿كتب الله﴾: أى قضى وحكم. انظر الآية (٢١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨.

﴿شاقوا الله﴾: تقدم فى الآية (١٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٨.

﴿لينة﴾: هى النخلة مطلقًا. قال بذلك الحسن ومجاهد والراغب ويجمعها أهل المدينة على (لون).

﴿وليجزى الفاسقين﴾: الأصل: ليسر المؤمنين ويعزهم، ويخزى الفاسقين ويذلهم.

﴿ما أفاء الله﴾: ﴿ما﴾ بمعنى (الذى) وهى مبتدأ. وأصل معنى ﴿أفاء﴾ ردّ وأرجع. والمراد هنا أعطى وملك ومنه الفىء وهو فى الشرع ما أخذ من أموال الكفار بدون قتال بخلاف الغنيمة فإنها ما أخذت بحرب وقتال. وقد تقدم حكم الغنيمة فى الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٢، ٢٣٣.

(١) فأتاهم. (٢) الأبصار. (٣) الآخرة.
(٤) الفاسقين. (٥) اليتامى. (٦) المساكين.

﴿فما أوجفتم﴾: هذه الجملة خبر المبتدأ السابق و﴿ما﴾ هنا نافية و ﴿أوجفتم﴾ من قولهم وجف الفرس، أو البعير، إذا أسرع. وأوجفه صاحبه. أى جعله يسرع.

﴿من خيل﴾: ﴿من﴾ للنص على عموم نفى ما بعدها.

﴿ركاب﴾: أصل الركاب اسم جمع لكل ما يركب، ولكنه غلب عند العرب على الإبل. ولا مفرد له من لفظه. وإنما يقال للفرد منه (راحلة).

﴿فلله وللرسول﴾.. إلخ: تقدم كل ذلك فى الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٢، ٢٣٣، والمراد بذى القربى هنا: هم قرابته ﷺ من بنى هاشم وبنى عبد المطلب الذين لا تحل لهم الصدقة، فمصرف الفىء كله هو مصرف الخمس فى الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٢، ٢٣٣.

المعنى: وظن بنو النضير أن حصونهم المنيعة تمنعهم من أن ينالهم عذاب الله على أيدى المؤمنين فاطمأنوا لذلك وأشعلوا نار الفتنة ضد المسلمين. فجاءهم عذاب الله من جهة لم تخطر لهم على بال. من ذلك قتل رئيسهم كعب بن الأشرف كما تقدم. فإنه أضعف قوتهم وشتت كلمتهم، وسلب به سبحانه من قلوبهم الطمأنينة وملأها رعبًا. فصاروا من شدة الخوف وقوة الحصار يخربون بيوتهم من الداخل، ليسدوا بأخشابها وحجارتها أفواه الأزقة، وقام بعضهم بفعل ذلك حتى لا تبقى صالحة لسكنى المؤمنين، لو فرض وغلبوا. وتسببوا فى أن يخرب المؤمنون بيوتهم من الخارج ليدخلوها عليهم، ولزيادة النكاية بهم.

وإذا كان هذا هو ما حصل قطعًا، فيجب أن يتعظ بحالهم كل من له عقل يفكر فلا يغدر ولا يعتمد على غير الله سبحانه. ثم بين سبحانه أن الجلاء الذى كتبه عليهم، كان أخف من القتل والأسر، لعلهم يقلعون عن غدرهم فى المستقبل فقال:

﴿ولولا﴾ ... إلخ: أى ولولا قضاؤه سبحانه عليهم بالجلاء لعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر. ولهم مع ذلك فى الآخرة عذاب النار. ذلك الذى حل بهم من الجلاء والذل، بسبب أنهم حاربوا الله ورسوله. ومن يعاد الله ورسوله لابد من هلاكه؛ لأن الله شديد

العقاب. وكان مما حصل أن المسلمين، لما وصلوا مساكن بنى النضير، وجدوهم حصنوا أنفسهم بقوة. فأمر ﷺ بحصارهم، ليضايقهم حتى يسلموا وحتى لا يتلف شىء من أموالهم، ولما عاندوا أذن الرسول ﷺ بإلهام من الله تعالى فى قطع بعض نخيلهم ليحملهم على التسليم فأشاع المنافقون وأذنابهم اليهود، أن محمدًا الذى كان ينهى عن إتلاف المال أصبح اليوم يتلفه، فأنزل سبحانه: ﴿ما قطعتم﴾.. إلخ، ليخرسهم، أى ما قطعتم يا مسلمين من نخلة مثمرة، أو تركتموها بدون قطع إلا بإذن الله لرسوله. أذنه فى ذلك لينصر المؤمنين ويعزهم وليخزى الفاسقين. وذلك لأن قطعها فيه حسرتهم على ذهابها بأيدى أعدائهم، وتركها سليمة يمكن المسلمين من الاستيلاء عليها والانتفاع بها، ففى كل حسرة عليهم.

وبعدما بيَّن سبحانه ما حل باليهود، شرع فى بيان الحكم فى أموالهم. وكان بعض المسلمين طلب تخميسها كالغنائم، فأنزل الله سبحانه: (وما أفاء اللَّه)... إلخ. ردا عليهم ببيان، أن هذه الأموال تعتبر فيئًا لا غنيمة. فكأنه يقول: هذا المال الذى أعطاه سبحانه لرسوله من أموال بنى النضير، لم تقطعوا إليه مسافات، ولا لقيتم فى الحصول عليه مشقة حرب. ولكن جاءت هذه الأموال؛ لأن سنة اللَّه تعالى جارية، على أن يسلط رسله على مَنْ يشاء من أعدائهم تسليطًا خاصًا، لا مشقة معه. وحينئذ لا حق لأحد فيها. فأمرها مفوض إلى اللَّه ورسوله. واللَّه على كل شىء قدير. فلا يعجزه قهر أعداء رسله.

ثم بيَّن سبحانه حكم الفىء مطلقًا بما فيه هذه الأموال فقال تعالى: ﴿ما أفاء اللَّه على رسوله من أهل القرى﴾. أى من غير قتال، فهو يصرف فى سبيل اللَّه - فى مصالح المسلمين؛ وللرسول ينفق على أهل بيته، ولذى قرابته من بنى هاشم وبنى المطلب. واليتامى من أطفال المسلمين، والمساكين ذوى الحاجات من المسلمين. وابن السبيل، المنقطع فى سفره عن أهله، كما هو مبين فى الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٢، ٢٣٣ السابق الإشارة إليها وبالجملة فمصرف الفىء كله هو مصرف خمس الغنائم المتقدم الإشارة إليه.

كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ[1] ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ[2] عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ[3] ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ[4] وَأَمْوَٰلِهِمْ[5] يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا[6] وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ[7] ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو[8] ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ[9] مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو[10] مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا[11] ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ[12] وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[13] رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ

المفردات: ﴿دولة﴾: هو الشىء الذى يتداوله الناس. لهذا مرة ولذاك أخرى.

والمراد: لا يكون خاصًا بالأغنياء كما كان فى الجاهلية لا يأخذ الفقير منه شيئًا.

﴿للفقراء﴾..إلخ: بيان لذى القربى وما بعده فى الآية السابقة و﴿أموالهم﴾: معطوف على ديارهم بعد تضمين.

﴿أُخرجوا﴾: معنى ﴿الترك﴾، وسيأتى تضمين مثله فى الآية التالية.

﴿والذين تبوءوا الدار﴾: أى اتخذوها مباءة أى منزلاً والمراد بهم الأنصار، و﴿الذين﴾ مبتدأ خبره ﴿يحبون﴾ الآتية و﴿الدار﴾ هى المدينة المنورة.

﴿الإيمان﴾: مفعول لفعل مقدر يناسبه معطوف على تبوءوا نحو والتزموا الإيمان ورضوه من قبل قدوم المهاجرين. يقول العربى فى فرسه: علفتها تبنًا وماءً باردًا يريد وسقيتها ماء...... إلخ: انظر نظير ذلك فى الآية (١١) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠.

﴿حاجة﴾: هى هنا بمعنى الشىء المحتاج إليه يقال: أعطاه من ماله حاجته. أى ما يحتاج إليه. والمراد لا يشعرون فى أنفسهم رغبة فى شىء مما أخذه المهاجرون.

(١) آتاكم. (٢) نهاكم.
(٣) المهاجرين. (٤) ديارهم.
(٥) أموالهم. (٦) رضوانا.
(٧) الصادقون (٨) تبوءوا
(٩) الإيمان (١٠) جاءوا.
(١١) لإخواننا. (١٢) بالإيمان.
(١٣) آمنوا.

﴿مما أوتوا﴾: أى مما أعطاه النبى ﷺ للمهاجرين من الفىء وغيره.

﴿يؤثرون على أنفسهم﴾: أى يقدمون ويفضلون إخوانهم المؤمنين على أنفسهم، وإذا رجعت إلى الآية (٢٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨ والآية (٦٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨، مع ما ورد من أن الأنصار كانوا يتنازلون للمهاجرين عن شطر أموالهم ومن يبقى عنده نصف ماله لا يقال به خصاصة، ومن كل هذا تعلم أن هذه الآية نزلت فى قوم مخصوصين كانوا يستطيعون احتمال مشقة الحاجة وأن هذا ليس تشريعًا عامًا.

﴿خصاصة﴾: هى شدة الحاجة إلى ما ينفقونه.

﴿يوق﴾: أى يقيه الله بسبب تقواه.

﴿شح نفسه﴾: الشح صفة للنفس تحملها على شدة الحرص على المال وأما البخل فهو الامتناع عن الإنفاق، فهو أثر من آثار الشح.

﴿الذين جاءوا من بعدهم﴾: هم التابعون والمؤمنون إلى يوم القيامة.

﴿بالإيمان﴾: أى متحلين بالإيمان.

﴿غلاً﴾: أى حقدا.

﴿رءوف رحيم﴾: تقدم الفرق بينهما فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨.

﴿ألم تر﴾: تقدم معناه فى الآية (٨) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٦.

﴿الذين نافقوا﴾: هم عبدالله بن سلول وجماعة ذكروا فى شرح أول السورة.

المعنى: حكم سبحانه بتوزيع مال الفىء على الوجه المتقدم، لئلا يكون مقصورًا تداوله بين الأغنياء منكم كما كان الحال فى الجاهلية، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض شهواتهم ولا يعطون منها شيئًا الفقراء. وبعد ذلك حث سبحانه على طاعة الرسول فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه، ومنه تقسيم الفىء فقال تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول﴾ ... إلخ. أى وما جاءكم الرسول به من الأوامر فافعلوه، وما نهاكم عنه من المحرمات فانتهوا عنه.

واتقوا الله فلا تخالفوا رسوله لأن الله شديد العقاب لمَنْ يخالفه. ثم بيَّن سبحانه المراد من ذى القربى وما بعده فقال: ﴿للفقراء﴾ ... إلخ. أى اعطوا الفىء للفقراء المذكورين سابقا، المهاجرين من مكة إلى المدينة، الذين أكرههم المشركون على الخروج من ديارهم بمكة التى يحبونها، تاركين أموالهم، فخرجوا طالبين رزقًا حسنًا من ربهم فى الدنيا. ورضى عنهم منه سبحانه فى الآخرة، وعازمين على نصرة دين الله ورسوله. هؤلاء هم الكاملون فى صدق الإيمان، ثم مدح سبحانه الأنصار بثلاث صفات، فيها تعريض بمَنْ طلب تقسيم الفىء على الجميع، وعدم تخصيصه بالمهاجرين، فقال: ﴿والذين تبوءوا الدار﴾ ... إلخ. هم الأنصار الذين اتخذوا المدينة منزلاً. وأحبوا الإيمان من قبل قدوم المهاجرين عليهم. ومن آثار هذا الحب، أنهم لايشعرون فى أنفسهم ميلاً لشىء مما أعطاه الرسول للمهاجرين، بل يفضلونهم على أنفسهم بأموالهم وبيوتهم. لا عن استغناء عنها، بل مع احتياجهم إليها. أى فهم بالسماح بالفىء أولى. وهذا نتيجة طهارتهم من الشح. ومَنْ يقيهم الله شرَّ شُحِّ أنفسهم لقوة تقواهم، فأولئك هم الفائزون بسعادة الدارين.

ثم بيَّن سبحانه أن آخر المؤمنين كأولهم فى محبة بعضهم بعضا، فقال: (والذين جاءوا)... إلخ. أى والمؤمنون الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار، لشدة محبتهم لإخوانهم المؤمنين يقولون: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا فى الدين الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا حسدًا لأحد من المؤمنين، الذين سبقونا أو عاصرونا. يا ربنا أجب دعاءنا، إنك عظيم الرأفة واسع الرحمة. قال بعض العلماء: المؤمنون على ثلاثة منازل: المهاجرون. والأنصار. والذين جاءوا من بعدهما فاحرص على أن تكون من أولئك الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار. ولا تظن أن إيثار الغير مع الاحتياج، ربما يعارض ما فى آيات (٢٦، ٢٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨، و(٦٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨. لأن ذلك يختلف باختلاف أحوال الناس، فمَنْ ليس عليه دين، وليس له عيال يخاف عليهم مشقة الجوع، ويكون هو قوى العزيمة، يصبر على الفقر، جاز له أن يقدم غيره المحتاج على نفسه، على أن لا يؤدى ذلك إلى هلاكه أو عريه. فإن فقد شرط من ذلك، فلا يصح له الإيثار. وبعدما ذكر سبحانه ما حل باليهود، أتبع ذلك بما حصل من منافقى المدينة على وجه التعجب من صنيعهم، فقال: ﴿ألم تر﴾ .... إلخ. أى هل لم تعلم يا مَنْ يصح منك العلم وتعجب من المنافقين الذين يقولون... إلخ.

لإخوانهم[1] الذين كفروا من أهل الكتاب[2] لئن أخرجتم
لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم
لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون[3] ﴿١١﴾ لئن أخرجوا
لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم
ليولن الأدبار[4] ثم لا ينصرون ﴿١٢﴾ لأنتم أشد رهبة
في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴿١٣﴾
لا يقاتلونكم[5] جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء
جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى
ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴿١٤﴾ كمثل الذين من قبلهم
قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴿١٥﴾ كمثل
الشيطان[6] إذ قال للإنسان[7] اكفر فلما كفر قال إني
بريء منك إني أخاف الله رب العالمين[8] ﴿١٦﴾ فكان

المفردات: ﴿لإخوانهم﴾: أى فى الكفر.

﴿الذين كفروا﴾: هم يهود بنى النضير، انظر أول سورة الحشر صفحتى ٧٢٩، ٧٣٠.

﴿لا نطيع فيكم﴾: أى فى قتالكم.

﴿أحدًا﴾: أى من الرسول وأصحابه.

﴿ولئن نصروهم﴾: على سبيل الفرض والتقدير.

﴿ليولن الأدبار﴾: أى ينهزمون.

﴿أشد رهبة﴾: المراد من ﴿رهبة﴾ هنا مرهوبية. أى خوفًا ناتجًا عن إرهابكم لهم والمراد: إن خوفهم منكم أشد من خوفهم من الله تعالى، وهذا منتهى الجهل والجبن.

﴿ذلك بأنهم ...﴾ إلخ: أى ما ذكر من كون خوفهم من المخلوق أشد من خوفهم من الخالق، انظر الآية (٧٧) من سورة النساء صفحتى ١١٣، ١١٤ .

﴿بأنهم﴾ أى بسبب أنهم.

﴿لا يفقهون﴾: أى لايدركون تمام الإدراك عظمة الله سبحانه وتعالى، انظر الآية (٦٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧ .

﴿جميعًا﴾: أى حال كونكم مجتمعين.

﴿محصنة﴾: أى بمثل الخنادق والمتاريس ونحوها.

---

(١) لإخوانهم. (٢) الكتاب. (٣) لكاذبون. (٤) الأدبار.
(٥) يقاتلونكم. (٦) الشيطان. (٧) للإنسان. (٨) العالمين.

﴿جدر﴾: جمع جدار. والمراد بها الحصون، كالأسوار.

﴿بأسهم بينهم﴾ ... إلخ: أصل البأس الحرب والشدة، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٤،٣٣ والمراد به هنا: العداوة الشديدة والكره، أى أن العداوة بين اليهود والمنافقين شديدة؛ لأن اليهود أرباب دين. والمنافقون مشركون.

﴿تحسبهم جميعًا﴾: أى تظنهم فى الظاهر مجتمعين متفقين.

﴿شتى﴾: جمع شتيت أى: متفرق. ﴿الذين من قبلهم﴾: هم المشركون الذين حاربوا فى غزوة بدر انظر الآيات (١٢) وما بعدها من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٨، ٢٢٩ . ﴿قريبًا﴾: صفة لكلمة مقدرة.

﴿زمن﴾: أى ذاقوا العذاب فى زمن قريب يوم بدر، وبدر كانت فى السنة الثانية من الهجرة، انظر ذلك فى الآية (٥) وما بعدها من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٧، ٢٢٨ .

﴿وبال﴾: أصل الوبال الثقل، والشدة الناتجة عن أمر من الأمور ومنه: طعام وبيل. أى ثقيل على المعدة، ومطر وابل. أى ثقيل القطر، ويستعمله العرب فى كل ما يؤذى معنويًا؛ لأنه ثقيل على النفس، كأى من أنواع العقاب.

﴿أمرهم﴾: المراد من الأمر هنا: العمل الذى نتج عنه الوبال وهو هنا الكفر.

﴿كمثل الشيطان﴾: أى مثل المنافقين مع اليهود كمثل الشيطان.

﴿إذ قال للإنسان اكفر﴾: المراد: حين أغرى الإنسان بالكفر إغراءً شديدًا كأنه ملك مطاع، والمراد بالشيطان والإنسان هنا: الجنس، أى إن هذا هو شأن الشيطان مع الضال من الإنسان.

﴿قال إنى برىء منك﴾ ... إلخ المراد: حدَّث نفسه بالتبرى منه خوف أن يشاركه فيما يحل به، انظر مثل ذلك فى الآية (٤٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٤ .

المعنى: انظر وتعجب أيها السامع من منافقى المدينة الذين يقولون لإخوانهم فى الكفر من اليهود: والله لئن أخرجكم المسلمون لنخرجن معكم لنستعد لحربهم، ولا نطيع فى

معاونتكم أحدا من المسلمين إذا طلب منا ذلك وإن قاتلكم المسلمون لنساعدنكم حتى تنتصروا. قالوا ذلك، والله يشهد إنهم لكاذبون. ثم وضح سبحانه مواضع كذبهم فقال: (لئن أخرجوا)... إلخ. أى: وعزتى لئن أخرج المسلمون اليهود من ديارهم لا يخرج معهم المنافقون من المدينة لإعانتهم. ولئن قاتل المسلمون اليهود لا ينصرهم المنافقون، ولئن فرض ونصروهم لينهزمون جميعا على يد المسلمين، ثم لا ينصرهم الله بعد ذلك أبدًا. ثم بيَّن سبحانه سبب هذا الجبن فقال تعالى: (لأنتم أشد).. إلخ. والمراد: إن خوفهم منكم المتمكن من نفوسهم أشد من خوفهم من الله. هذا الخوف الذى يظهرونه لكم نفاقًا؛ لأنهم فى الحقيقة لا يخافون الله أبدا، وإلا لما نافقوا وتظاهروا بالإيمان الذى يستلزم الخوف من عصيانه. ثم بيَّن سبحانه سبب خوفهم من المسلمين على هذا الوجه بقوله: (ذلك).. إلخ. أى ذلك الخوف منكم دون الخوف من الله سبحانه - سببه أنهم لا يفقهون قدر عظمته. فهم لذلك يتهاونون بأوامره، ولا يخافون عقابه مثل ما يخافونكم ويرهبونكم. ثم بيَّن سبحانه جبن كل من اليهود والمنافقين بقوله: (لا يقاتلونكم)... إلخ. أى لا يجرؤ أن يقاتلكم اليهود والمنافقون حتى فى حال اجتماعهم معًا إلا وهم فى داخل قرى محصنة بالخنادق والمتاريس مثلاً، أو من وراء جدران.

﴿أسوار﴾: يجعلونها حصونًا يستترون بها؛ لأن الله قذف فى قلوبهم الرعب منكم. ثم وضح بعض أسباب جبنهم بقوله: (بأسهم).. إلخ. أى العداوة بينهم شديدة، تظنهم فى الظاهر متفقين، والحال أنهم فى الواقع مشتتة قلوبهم - متنافرة - لتنافر عقائدهم. فهؤلاء اليهود يقولون بإله واحد، والمنافقون مشركون يعبدون الأصنام. ذلك الحال الذى هم عليه من التنافر فى الباطن. ثم الاتفاق على حرب المسلمين فى الظاهر - سببه أنهم قوم لايعقلون أسباب النصر والخذلان، وإن تفرق القلوب يضعف القوى، ويمكن الخصوم، ومثل هؤلاء الكفار من اليهود والمنافقين - فى نزول المصائب عليهم - كمثل أهل بدر من المشركين الذين ذاقوا سوء العاقبة فى الدنيا... ولهم فى الآخرة عذاب أليم.

ومثل هؤلاء المنافقين فى إغرائهم اليهود، ثم جبنهم عن مساعدتهم كمثل الشيطان حين يوسوس للإنسان بالكفر، فلما أطاعه وكفر، وتعرض لعذاب الله تبرأ الشيطان منه وقال: إنى أخاف الله رب العالمين من أن يلقى علىَّ تبعة عملك هذا.

عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ
نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ
أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ
النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾
لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا
مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ

المفردات: ﴿لغد﴾: المراد به هنا يوم القيامة، انظر الآية (٢٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٦ .

﴿نسوا الله﴾: المراد: شغلتهم الدنيا عن تذكر حقوق الله عز وجل، فعاقبهم بأن أنساهم حق أنفسهم، فلم يقدموا لها ما ينفعها؛ انظر الآية (٩) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٤ .

﴿لا يستوى أصحاب النار﴾... إلخ: انظر الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠، والآية (٢١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣ .

﴿لو أنزلنا هذا القرآن﴾: الكلام تمثيل لقساوة قلب الإنسان، وعدم خشوعه عند سماع القرآن حتى حرم من تدبره والانتفاع به، ونظير هذا فى الآية (٧٤) من سورة البقرة صفحتى ١٤، ١٥، والآية (٧٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦١ .

﴿خاشعًا﴾: أى خاضعًا متذللاً.

﴿متصدعًا﴾: أى متشققًا.

(١) عاقبتهما. (٢) خالدين.
(٣) جزاء. (٤) الظالمين.
(٥) آمنوا. (٦) فأنساهم.
(٧) الفاسقون. (٨، ٩، ١٠) أصحاب.
(١١) الفائزون. (١٢) القرآن .
(١٣) خاشعًا. (١٤) الأمثال.
(١٥) عالم . (١٦) الشهادة .
(١٧) السلام . (١٨) سبحان.

﴿من خشية اللَّه﴾: من خوف جبروته وعذابه.

﴿وتلك الأمثال﴾... إلخ: أى هذه الأمثال المذكورة فى القران. ومنها ما هنا وما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥ والآيتين (٢٦٤، ٢٦٥) من نفس السورة صفحة ٥٦، والآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤، والآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤ .

﴿عالم الغيب والشهادة﴾: المراد يستوى فى علمه ما غاب وما حضر، انظر الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤ .

﴿الملك﴾: أى المتصرف فى كل شىء.

﴿القدوس﴾: أى شديد التنزه عما يقوله المبطلون من الولد والشريك وغيرهما مما لا يليق.

﴿السلام﴾: أصله بمعنى التسليم، وأريد به هنا اسم الفاعل، أى المسلِّم، بفتح السين وتشديد اللام المكسورة - أى هو وحده المسلِّم من جميع المخاطر التى لا ينفذ منها غيره سبحانه.

﴿المؤمن﴾: مأخوذ من ﴿آمن﴾ بمعنى: أعطى الأمان لعباده، فلا يظلم منهم أحدًا. انظر الآية (٤) من سورة قريش صفحة ٨٢٣ .

والمراد هنا: أنه سبحانه لا يظلم أحدا من عباده مثقال ذرة.

﴿المهيمن﴾: أى صاحب السلطان الرقيب على ما عداه. انظر الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦ .

﴿العزيز﴾: أى الغالب الذى لا يغلب.

﴿الجبار﴾: أى الذى يخضع لعظمة قدرته كل شىء.

﴿المتكبر﴾: المراد: المترفع عن كل نقص، المستعلى على كل ما عداه بحق.

المعنى: بعدما ضرب سبحانه - لتغرير المنافقين باليهود - مثل الشيطان الذى يغرى الإنسان بالكفر، ثم يتبرأ منه - ذكر نتيجة ذلك بقوله تعالى: (فكان عاقبتهما)... إلخ. أى فكان عاقبة المضلل والضال الخلود فى نار جهنم.

وهذا جزاء كل منْ يظلم نفسه بالكفر: كاليهود والمنافقين.

ثم نصح سبحانه المؤمنين بما ينفعهم فى الدارين حتى لا يكونوا مثل هؤلاء الخاسرين فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا... إلخ.

أي يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه فيما أمركم به، فلا تهملوه، ويجب أن يتساءل كل منكم: ما الذى قدمه لنفسه من الخيرات لتنفعه يوم القيامة؟ واتقوا اللَّه فيما نهاكم عنه، فلا تفعلوا منه شيئًا؛ لأنه سبحانه خبير بكل ما تعملون من كبيرة وصغيرة، وسيحاسبكم عليه.

ولا تكونوا كالذين شغلتهم الدنيا فنسوا حق اللَّه فتركوا أوامره، ولم ينتهوا عن معاصيه، فعاقبهم اللَّه بأن أنساهم حق أنفسهم، فلم يقدموا لها شيئًا ينفعها - هؤلاء هم الخارجون عن طاعة اللَّه فهلكوا.

ثم قارن سبحانه بين المحسنين والمسيئين حثًا على الإحسان فقال تعالى: (لا يستوى أصحاب النار).. إلخ. أى لا يستوى فى حكم اللَّه وعدله مَنْ يعمل بعمل أهل النار ومَنْ يعمل بعمل أهل الجنة.

ثم بيَّن نتيجة عدم الاستواء فقال سبحانه: أصحاب الجنة هم الفائزون بكل ما يحبون.

ثم وبخ سبحانه الكفار على عدم تيقظهم لما فى القرآن من العبر التى تهز القلوب هزا فقال تعالى: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية اللَّه.

وهذه الأمثال المذكورة فى القرآن نضربها ونوضحها للناس ليتفكروا فيما حوته، فيعرفوا مواطن الخطر ومواطن الأمان.

وبعدما بيَّن سبحانه عظم القرآن وما حواه، أكد ذلك ببيان أنه من كلام الإله الحق صاحب الصفات الجليلة فقال عز وجل: هو اللَّه الذى لا إله إلا هو الملك: إلخ. أى هو وحده المتصرف فى كل شىء، شديد التنزه عما يقوله المبطلون... إلخ.

الخالق[1] البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح
له ما في السموات[2] والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿٢٤﴾

(٦٠) سورة الممتحنة مدنية
وآياتها ثلاث عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا[3] لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء
تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق
يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم
خرجتم جهادا[4] في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم
بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله
منكم فقد ضل سواء السبيل ﴿١﴾ إن يثقفوكم يكونوا

المفردات: ﴿الخالق﴾: يطلق الخالق فى لغة العرب على معنيين: الأول بمعنى المنشئ، والثانى بمعنى المقدر للأشياء على مقتضى ما يريد من الحكمة وما هنا من الثانى، انظر الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

﴿البارئ﴾: أى الموجد للأشياء؛ فهو بمعنى الخالق بالمعنى الأول.

﴿المصور﴾: أى المشكل للموجود فى آخر مراحله بالصورة التى قدرها له، انظر الآية (٦) من سورة آل عمران صفحة ٦٣ والآية (١١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣.

﴿الحسنى﴾: مؤنث الأحسن، لأنها تدل على معان فى منتهى الحسن: من تحميد، وتقديس، إلى غير ذلك.

المعنى: هو الله سبحانه وتعالى المقدر للأشياء فى الأزل، الموجد لها حسب ما قدر، المشكلها على هيئات مختلفة تتميز بها. له الأسماء الحسنى. يسبح له ما فى السموات والأرض وهو سبحانه العزيز الحكيم.

سورة الممتحنة

المفردات: اللائق أن تكتب (الممتحَنَة) بثلاث فتحات للتاء والحاء والنون؛ لأنه هو المناسب لآية (١٠) من هذه السورة صفحتى ٧٣٦، ٧٣٧.

(١) الخالق.
(٢) السموات.
(٣) آمنوا.
(٤) جهاداً.

﴿لا تتخذوا﴾.. إلخ: انظر الآية (٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٧ والآية (١١٨) من سورة آل عمران أيضًا صفحة ٨٢، والآية (٥٧) من سورة المائدة صفحة ١٤٨.

﴿عدوى﴾: يطلق العدو على الواحد والكثير.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿إن هذا عدو لك ولزوجك﴾: الآية (١١٧) من سورة طه صفحة ٤١٧.

ومن الثانى قوله تعالى: ﴿وهم لكم عدو﴾ الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

﴿تلقون إليهم بالمودة﴾: الباء تدل على أن ما بعدها سبب لما قبلها والمعنى: تلقون إليهم أسرار المسلمين بسبب ما بينكم وبينهم من مودة، انظر الآية (٢٢) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٨، ٧٢٩. وقال بعضهم المعنى: لا توصلوا إليهم المودة والباء كالباء فى ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ الآية (١٩٥) من سورة البقرة صفحة ٣٨.

﴿يخرجون الرسول﴾: انظر شرح الآية (٤٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٧.

﴿أن تؤمنوا﴾: أى لأجل كراهتهم إيمانكم، انظر الآية (٤٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٩.

﴿إن كنتم خرجتم﴾: هذا شرط، جوابه. ﴿لا تتخذوا عدوى﴾ المتقدمة، ونظير ما هنا ما فى الآية (٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧ مع الآية (١١١) من نفس السورة صفحة ١٨١.

﴿ابتغاء﴾: أى طلب.

﴿مرضاتى﴾: أى رضائى.

﴿سواء السبيل﴾: أى الطريق المستوى وهو الطريق الحق البعيد عن العقبات، انظر الآية (١٠٨) من سورة البقرة صفحة (٢١).

﴿يثقفوكم﴾: المراد: يظفروا بكم، انظر الآية (١٩١) من سورة البقرة صفحة ٣٧، والآية(٥٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥.

المعنى: نزلت هذه السورة فى ما حصل من حاطب بن أبى بلتعة (بفتح الباء وسكون اللام، وفتح التاء) وهو من المهاجرين، عندما جاءت سارة، وهى امرأة فقيرة من مكة تنشد نفقة،

فعندما أرادت الرجوع إلى مكة لقيها حاطب وأعطاها عشرة دنانير، أجر توصيل كتاب لكفار قريش وكان فى هذا الكتاب (من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة. إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم فخذوا حذركم) فأخبر جبريل رسول الله بذلك فأرسل ﷺ عليا وعمارا وجماعة من المسلمين ليلحقوا بها فيأخذوا الكتاب قبل أن يصل إلى أيدى كفار قريش، فلما لحقوا بها واستردوا منها الكتاب، طلب رسول الله ﷺ حاطبا وسأله: ما حملك على ذلك؟ فقال: يارسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكنى كنت رجلاً غريبًا فى قريش، ولى أهل بينهم أخشى عليهم منهم، وغيرى لهم قرابات أقوياء يحمون بها أولادهم وأموالهم فأحببت أن أقدم لقريش يدا أحمى بها قرابتى مع علمى بأن الله تعالى سينزل بهم عذابه وأن كتابى لا يغنى عنهم شيئًا؛ فصدقه الرسول وقبل عذره لأنه ممن شهدوا بدرًا.

ونزل فى ذلك: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء. أى أنصارا موالين، ثم فسر هذه الموالاة بقوله: تلقون إليهم بالمودة. أى تبلغونهم أسرار المسلمين بسبب ما تظهرونه لهم من المودة.

ثم ذكر سبحانه شيئين يمنعان هذه المودة:

- الأول كفرهم بالقرآن.

- والثانى تسببهم فى إخراج الرسول، وإخراجكم أيها المؤمنون من مكة، لا لشىء إلا لأنكم تؤمنون بالله والرسول.

ثم زاد من تحريضهم على المقاطعة بقوله: (إن كنتم خرجتم).. إلخ. أى إن كنتم خرجتم للجهاد فى سبيلى وطلب رضائى، فلا توالوا أعدائى وأعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم. ثم خوف من مودتهم فقال: (تسرون).. إلخ. أى تبلغون المشركين خفية أسرار المؤمنين بسبب المودة التى تريدون عقدها بينكم وبينهم. وأنا يستوى فى علمى ما تخفون وما تعلنون. ثم هددهم فقال: (ومَنْ يفعله).. إلخ. أى ومن يفعل هذه الموالاة، ويبلغ أخبار الرسول لأعدائه، فقد ضل الطريق المستقيم، ومآله جهنم. ثم ذكر بعض ما يحمل على عدم الموالاة فقال: (إن يثقفوكم).. إلخ. أى إن يتمكن منكم هؤلاء الكفار يكونوا لكم أعداء..

لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ[1] يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[2] يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ[3] وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ[4] مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ[5] وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ[6] لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ[7] ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ[8] ۚ وَمَن يَتَوَلَّ

المفردات: ﴿يبسطوا﴾: أى يمدوا.

﴿بالسوء﴾: المراد به ما يسوء مما يحصل باليد: كالقتل والضرب، أو باللسان: كالشتم والسب.

﴿ودوا﴾: أى تمنوا.

﴿لو تكفرون﴾: (لو) حرف يجعل ما بعده مصدرًا. أى كفركم.

﴿أرحامكم﴾: أى أقاربكم الذين يجمعكم وإياهم رحم قريب.

﴿يفصل بينكم﴾: أى يفرق الله بينكم وبينهم يوم القيامة فيأتى كل فرد أمام الله منفردًا، فلن ينفع أحد أحدًا شيئًا، انظر الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨، والآية (٩٥) من سورة مريم صفحة ٤٠٥، والآية (٣٤) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٣.

﴿أسوة﴾: أى قدوة.

﴿والذين معه﴾: نقل الألوسى والطبرى وغيره أن المراد من (الذين معه) هم الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام، وتبرءوا من أقوامهم الذين عبدوا غير الله ويكون المعنى: لكم أيها النبى وأمتك أسوة فى إبراهيم والأنبياء فى أن تتبرءوا من كل ما عبد من دون الله: لأن

(١) أولادكم.
(٢) القيامة.
(٣) إبراهيم.
(٤) براء.
(٥) العداوة.
(٦) إبراهيم.
(٧) يرجو.
(٨) الآخر.

إبراهيم عليه السلام خرج من العراق ولم يكن معه أحد مؤمن سوى زوجته سارة ولوط وبناته، انظر الآية (٢٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، والآية (٨٣) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، والآية (٣٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤.

﴿برآء﴾: جمع برىء، بوزن ظريف وظرفاء.

﴿كفرنا بكم﴾: المراد: أنكرنا تصرفكم وقاطعناكم.

﴿بدا﴾: أى ظهر. ﴿العداوة﴾: المراد: المعاداة الفعلية بأن يحارب كل منا الآخر.

﴿البغضاء﴾: هى الكره القلبى.

﴿إلا قول إبراهيم﴾: (إلا) بمعنى (لكن) وهى تفيد الاستثناء المنقطع من (أسوة حسنة).

﴿لأبيه﴾: آزر. انظر الآية (٧٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿من شىء﴾: (من) تفيد النص على عموم نفى ما بعدها.

﴿أنبنا﴾: أى رجعنا بالتوبة، والعمل الصالح.

﴿لا تجعلنا فتنة﴾.. إلخ: أصل الفتنة الاختبار، وأريد بها هنا: المفتتن به، أى لا تجعلنا سبب فتنة للكافرين بأن نقع فى معصية فيزداد ضلالهم تقليدًا لنا.

والمؤمن الصادق يطلب من ربه أن يكون إماما فى الخير فقط، كما فى الآية (٨٥) من سورة يونس صفحة ٢٧٩، والآية (٧٤) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨.

﴿يرجو الله واليوم الآخر﴾: أى يرجو رضاء الله وثواب الآخرة.

المعنى: أن يظفروا بكم يظهروا لكم العداوة، ويمدوا إليكم أيديهم بالقتل والضرب، وألسنتهم بالسب والشتم. وتمنوا كفركم. ثم ذكر أن ما جعلوه سببا لمودة الأهل لا يجوز أن يقدم على مصلحة الدين، فقال: لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم، فى دفع شىء من العذاب عنكم يوم القيامة إن عصيتم الله.

ثم بيَّن السبب فى عدم هذا النفع بقوله: يفصل بينكم. أى يوم القيامة يفرق بينكم وبين أهليكم وأولادكم المشركين، فلا ينفع أحدكم الآخر. ثم هدد بقوله: والله بما تعملون بصير. أى سيجازيكم عليه خيرًا أو شرًا.

ثم أكد ما تقدم من عدم موالاة الكافرين بأمرهم بالاقتداء بأبيهم إبراهيم. فقال: (قد كانت لكم أسوة).. إلخ. أى قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى إبراهيم عليه السلام وفيمن معه من المؤمنين حين قالوا لقومهم الكافرين: إنا أبرياء منكم ومما تعبدون من دون الله.

ثم بيَّن نتيجة هذه البراءة بقوله: كفرنا بكم. أى جحدنا ما بيننا وبينكم من المودة، وبرزت بيننا وبينكم العداوة، ولو استطعنا قتالكم لقاتلناكم. وكرهناكم، فلا محبة بيننا وبينكم أبدا إلى أن تؤمنوا بالله وحده. فإن آمنتم تصافينا.

ثم استثنى من القدوة المأمور بها وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار فقال: إلا قول إبراهيم لأبيه.. إلخ. انظر الآية (٤٧) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١. أى لكن ليس لكم أن تجاملوهم وتظهروا لهم الرأفة كما فعل إبراهيم عليه السلام؛ لأنه لم يكن قد تبين له حال أبيه كما تبين لكم حال أهلكم، ولذلك رجع عنه إبراهيم عليه السلام، وأعرض عن نصحه. انظر الآية (١١٣) من سورة التوبة صفحة ٢٦١. وقال إبراهيم لأبيه بعد الاستغفار: وما أملك.. أى ليس فى وسعى أن أنفعك بأكثر من الاستغفار.

وقال إبراهيم ومن معه: ربنا اعتمدنا عليك، ورجعنا بالتوبة إلى ما تحب، ونقر بأن مرجعنا يوم القيامة إليك. وقالوا أيضًا: يا ربنا لا تجعلنا سبب فتنة للذين كفروا. أى باعد بيننا وبين معصيتك حتى لا يتبعنا الكفار فى العصيان، واغفر لنا ما قد يقع منا من الهفوات. إنك أنت الغالب الذى لا يغلب، الحكيم فيما يفعل. ثم رغب سبحانه فى الاقتداء بإبراهيم بصورة أخرى فقال: (لقد كان لكم)... إلخ. أى لقد كان لكم يا أمة محمد قدوة حسنة فى إبراهيم ومن معه، هذه القدوة نافعة لمَنْ كان يرجو ثواب الله والنجاة فى اليوم الآخر. ومَنْ يعرض عن أوامر الله والاقتداء بخليله صلوات الله عليه، فلن يضر إلا نفسه، والله تعالى أعلم.

فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ * عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ
فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟
إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ
ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ
وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ
ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ
فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ
لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

المفردات: ﴿عسى الله﴾.. إلخ: ينبغى أن يوجد عندكم رجاء من الله يجعل بينكم وبين كفار مكة مودة، بأن يهديهم للإيمان.

﴿عن الذين لم يقاتلوكم﴾: المراد: عن بر الذين لم يقاتلوكم.. إلخ، كما سيأتى.

﴿أن تبروهم﴾: أى عن برهم، فهو بدل من (الذين) المتقدم، والبر هو فعل كل خير فيه إدخال السرور على الغير، ولو بالكلمة الطيبة. انظر الآية (٢٦٣) من سورة البقرة صفحة ٥٦، والآية (٢٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨.

﴿وتقسطوا إليهم﴾: المراد: تقدموا إليهم قسطا من أموالكم على سبيل البر بهم، فهو من عطف الخاص على العام. وليس المراد بالقسط هنا العدل؛ لأن العدل واجب مع الصديق والعدو، انظر الآية (٨) من سورة المائدة صفحة ١٣٧.

﴿قاتلوكم فى الدين﴾: (فى) حرف يدل على أن ما بعده سبب فى حصول ما قبله، أى بسبب تمسككم بدينكم. انظر (فى) فى الآية (٦٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧ والآية (١٤) من سورة النور صفحتى ٤٥٨، ٤٥٩.

﴿ظاهروا﴾: أى عاونوا. انظر الآية (٤) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢.

﴿تولوهم﴾: أى توالوهم؛ والمراد أن تعقدوا بينكم وبينهم موالاة.

(١) ينهاكم. (٢) يقاتلوكم. (٣) دياركم.
(٤) ينهاكم. (٥) قاتلوكم. (٦) دياركم.
(٧) ظاهروا. (٨) الظالمون. (٩) آمنوا.
(١٠) المؤمنات. (١١) مهاجرات. (١٢) بإيمانهن.
(١٣) مؤمنات. (١٤) آتوهم. (١٥) آتيتموهن.

﴿امتحنوهن﴾: أى اختبروهن بما يفيدكم ظنًا غالبًا أن ما فى قلوبهن موافق لما فى ألسنتهن. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحلفهن بالله مرارًا أنهن ما هاجرن إلا رغبة فى الإسلام، لا لغرض آخر.

﴿الله أعلم بإيمانهن﴾: المقصود بهذه الجملة بيان عذرهم فى الاكتفاء بغلبة الظن. إذ حقيقة ما فى القلب لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿فإن علمتموهن﴾: أى ظننتم ظنًا قويًا غالبًا كما تقدم.﴿إلى الكفار﴾: المراد: إلى أزواجهن الكفار.

﴿لاهن حل لهم﴾.. إلخ: (حل) أى حلال، أى أصبحن محرمات عليهم الآن.

﴿ولاهم يحلون لهن﴾: أى فى المستقبل، ماداموا مشركين. وكان ذلك بعد أن أبطل الله زواج المشرك بالمؤمنة الذى كان موجودًا بمكة قبل الهجرة، وكان منه زواج زينب بنت الرسول ﷺ من ابن خالتها العاص بن الربيع وكان مشركًا ولما أسر ببدر أطلقه ﷺ على أن يرسل زينب إلى المدينة، وقد جاء بعد ذلك مسلمًا، فرد ﷺ إلى العاص زينب بعقد جديد.

﴿آتوهم ما أنفقوا﴾: هذا خطاب لأولياء أمور المؤمنين أى أعطوا الأزواج الكفار ما دفعوا من الصداق إذا طلبوا ذلك.

﴿ولا جناح﴾:أى لا حرج فى زواجهن، وإن لم يطلقهن أزواجهن الكفار، لانفساخ العقد بمجرد إسلامهن، دون أزواجهن.

﴿أجورهن﴾: أى مهورهن.

المعنى: لما نزل النهى عن موالاة الكفار فى أول السورة تشدد المسلمون فى معاداة أقربائهم من كفار مكة فقاطعوهم حتى إن (قُتَيلة) - بضم ففتح - بنت عبد العزى، وكانت امرأة أبى بكر الصديق، وطلقها فى الجاهلية وله منها ابنته (أسماء) رضي الله عنها. ولما جاءت قُتَيلة المدينة لزيارة ابنتها أسماء، ولتقدم إليها هدية رفضت أسماء أن تقبل هديتها، أو تدخلها بيتها. لما حصل كل هذا - أراد سبحانه أن يستثنى من الذين تجب عداوتهم مَنْ لا دخل له فيها، فإنه يصح برهم وإن لم تجز موالاتهم، وليوجد عند المؤمنين أملاً فى إيمان أقربائهم من كفار مكة، وقد آمنوا فعلاً بعد الفتح فقال تعالى: عسى الله أن يجعل بينكم أيها المسلمون

وبين الذين عاديتم من كفار مكة مودة، بأن يوفقهم للإيمان فيصيروا لكم أولياء، والله قدير على ذلك وعلى ما هو أصعب منه. والله غفور لهم ما سلف، رحيم بعباده فيقبل توبتهم - ثم فصل النهى السابق فقال تعالى: (لا ينهاكم الله).. إلخ. أى لا ينهاكم الله تعالى عن بر من لم يقاتلوكم من الكفار لأجل تدينكم بالإسلام، ولم يتسببوا فى إخراجكم من دياركم، لا ينهاكم عن برهم بجميع أنواع البر، من فعل أو قول، خصوصًا تقديم جزء من أموالكم إليهم. إن الله يحب من يعطى بعض ماله صلة لرحمه. إنما ينهاكم الله عن موالاة الذين قاتلوكم من صناديد كفار مكة لأجل دينكم، وتسببوا فى إخراجكم من دياركم، وكذا من أعانوهم من الأتباع على إخراجكم. هؤلاء نهاكم الله عن موالاتهم، ومن يوالهم فأولئك هم الظالمون، لوضعهم الموالاة فى غير موضعها. ولما كان من شروط صلح الحديبية الذى تقدمت الإشارة إليه فى أول سورة الفتح صفحة ٦٧٨ أن من جاء من المشركين مسلما رده ﷺ إلى مكة. وجاء بعد ذلك بعض نساء مكة إلى المدينة مسلمات. وتردد المسلمون فى تنفيذ شروط الصلح: هل ينطبق على النساء كالرجال أم لا ينطبق عليهن؛ لأن المرأة إذا أسلمت انقطعت العصمة بينها وبين زوجها المشرك، وبهذا يتعذر ردهن إليهم. عند ذلك نزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) بما تعرفون به إيمانهن بقدر طاقتكم؛ لأن حقيقة ما فى القلوب لا يعلمها إلا الله، فإن غلب على ظنكم أنهن صادقات فى دعوى الإيمان، فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار؛ لأنهن أصبحن محرمات عليهم فى تلك الحالة وفى المستقبل، إلا إذا أسلم أزواجهن قبل انقضاء عدتهن. ولما كان صلح الحديبية يقتضى إرجاع كل من يؤمن إلى مكة، وبنزول هذه الآية امتنع هذا الرد، وأصبح الإرجاع خاص بالرجال فقط لأن المرأة ضعيفة ولا تستطيع أن تقيم بين قوم مشركين لا يحل أن تتزوج منهم من يحميها وينفق عليها. أراد سبحانه أن يعوض المشركين شيئًا عن عدم تنفيذ هذا الشرط، فأمر أولى الأمر أن يدفعوا من بيت المال للأزواج ما ضاع عليهم من الصداق. وذلك تمام الإنصاف والعدل. ولا حرج عليكم أيها المسلمون أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات ولو لم يطلقهن أزواجهن الكفار مع مراعاة شروط الزواج المعروفة من انقضاء العدة وغير ذلك. فإن إسلامهن قطع العصمة بينهما، بشرط أن تؤتوهن مهورهن، ولا تكتفوا بما دفعه ولى الأمر لأزواجهن من بيت المال. وذلك لأن المصلحة ألا تترك امرأة بلا عائل ممن هى بينهم من المؤمنين يتكفل بالإنفاق عليها.

وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ[1] وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا[2] مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ[3] إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا[4] الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم[5] مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ[6] يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ[7] وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ[8] يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا[9] لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ[10] كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ[11] الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

المفردات: ﴿عصم﴾: جمع عصمة، وهى هنا عقد الزواج. ﴿الكوافر﴾: جمع كافرة، هذا الحكم هو الأصل وهو أنه لا يجوز للمؤمن أن يتزوج غير المؤمنة مطلقا لكن الآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦ أخرجت من الكافرات المنهى عن زواجهن الكتابيات؛ لأن لهن شرائع فيرجى لهن الهداية إلى الصواب. ﴿واسألوا ما أنفقتم.. إلخ﴾: أى أطلبوا من الكفار ما أنفقتم من المهور للنساء اللاتى كفرن ورجعن إليهم بمكة كما أنهم يسألون ما أنفقوا لمن جاءتكم مؤمنة.

﴿وإن فاتكم شىء﴾.. إلخ: المراد: وإن ذهب بعض أزواجكم مرتدات إلى الكفار بمكة ولم يدفعوا لكم مادفعتموه فى صداقهن. ﴿فعاقبتم﴾: أى أصبتم الكفار بعقوبة، والمراد: هزمتموهم فى حرب، وغنمتم منهم أموالاً.

﴿فآتوا الذين ذهبت﴾.. إلخ: المراد: فأعطوا يا رؤساء المؤمنين من الغنائم التى أخذتموها من كفرت زوجته ما كان دفعه صداقًا لها. ﴿واتقوا الله﴾.. إلخ: أى فافعلوا ما أمركم به من العدل وكل ما فيه مصلحتكم. ﴿ببهتان﴾: أصل البهتان هو الشىء الذى يبهت العقول. أى يحيرها، والمراد به هنا: أى يكذبن نسبته لأزواجهن.

﴿بين أيديهن وأرجلهن﴾: كناية عن أنه ولدهن من أزواجهن؛ لأن الولد يحمل فى البطن التى هى بين اليدين ويولد بين الرجلين. ﴿فى معروف﴾: أى أمر عُرف حسنه شرعًا وعقلاً. ﴿يئسوا من الآخرة﴾: أى من خيرها. ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾: الأصل كما يئسوا من رجوع الموتى إلى الدنيا: فالكفار هم نفس المغضوب عليهم، وإنما عبر عنهم بالوصف الظاهر وهو ﴿الكفار﴾ بدل الضمير لبيان سبب نكبتهم وهو الكفر.

(١) اسألوا. (٢) ليسألوا. (٣) أزواجكم. (٤) فآتوا.
(٥) أزواجهم. (٦) المؤمنات. (٧) أولادهن. (٨) ببهتان.
(٩) آمنوا. (١٠) الآخرة. (١١) أصحاب.

المعنى : لا يجوز أن يكون بين المسلم والمشركة رباط زواج، وعلى هذا يجوز لكم أن تتزوجوا المؤمنة أخت الكافرة التى كانت فى عصمتكم وبطل رباط زواجها بسبب بقائها على الشرك، فيجوز لكم عقب فراقها مباشرة العقد على أختها المسلمة، ولا تنتظروا مضى عدة، كما هو الحال فيما إذا كانت المطلقة مسلمة، وحينئذ لا يكون هذا من الجمع بين الأختين المنهى عنه فى الآية (٢٣) من سورة النساء صفحتى ١٠٢ ، ١٠٣؛ لأن الأختين هنا فصل بينهما الإيمان والشرك فكأن كلاً منهما أجنبية عن الأخرى. واطلبوا من كفار مكة ما دفعتموه من مهور مَنْ ذهبن إليهم من نسائكم، كما لهم الحق أيضًا فى طلب ما أنفقوه من المهور على نسائهم اللاتى هاجرن إليكم وأسلمن . وإنما أعاده ثانيًا لإبراز المساواة فى المعاملة والإنصاف فى كل شىء؛ ذلك المذكور هو حكم الله يحكم به بينكم، فلا تخالفوه، والله عليم بأسرار خلقه ، حكيم ، لا يشرع إلا ما فيه مصلحتهم. وكان المشركون قد امتنعوا عن إعطاء المسلمين مهر مَنْ فرت إليهم من المدينة مرتدة. فأنزل الله سبحانه وتعالى : وإن فاتكم شىء... إلخ. أى وإن ذهب بعض أزواجكم مرتدات إلى الكفار ولم يعطوكم المهور التى دفعت لهن، ثم غلبتم المشركين فى موقعة وأخذتم منهم غنائم، فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم من هذه الغنائم قدر ما دفعوا من المهور للنساء الفارات إلى المشركين الذين بينكم وبينهم عهد. واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون، فإن الإيمان به يقتضى الخوف من عصيانه، فلا تتعدوا أحكامه التى شرعها لكم. وكان صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة سنة ثمانية هجرية، اجتمعت النساء لمبايعته على تعاليم الإسلام، فأنزل الله تعالى: يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات قاصدات للمبايعة على أن لا يشركن بالله شيئًا من الشرك ولو قليلاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن كما كان يفعل فى الجاهلية خوف الفقر، انظر الآية (٣١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨، ولا يأتين بولد لقيط ينسبنه إلى الزوج، ولا يعصينك فى أمر معروف شرعيته، فتأمل كيف شرط سبحانه فى طاعته ﷺ أن تكون بمعروف مع أنه لا يأمر إلا به، ولا تغتر بقول جاهل (طاعة ولى الأمر واجبة مطلقًا) فالحق أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، إذا جئن على هذا الشرط فبايعهن، واستغفر لهن الله على ماسبق منهن، فإنه سيغفر لهن، إنه غفور رحيم. ثم ختم سبحانه السورة بما بدأها به لأهميته فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قومًا غضب الله عليهم، هم الكفار جميعًا؛ لأنهم قد يئسوا من خير الآخرة، أما الكفار فلأنهم ينكرونها، وأما اليهود فقد حملتهم شدة عنادهم له ﷺ على أن يعملوا عمل اليائسين من خيرها كما يئس جميع الكفار من رجوع أصحاب القبور إلى الدنيا، انظر شرح الآية (٩٤) وما بعدها من سورة البقرة صفحتى ١٨ ، ١٩، والله تعالى أعلم .

(٦١) سُورَةُ الصَّفِّ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا أَرْبَعَ عَشْرَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا
تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا
تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ
صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي

سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿سبح لله﴾ .. إلخ: تقدم فى سورة الحديد صفحة ٧١٨.

﴿أكبر﴾: أى عظم شناعة وبشاعة.

﴿مقتًا﴾: المقت: أشد أنواع البغض، والمعنى: عظم كرهًا لكم عند الله قولكم مالا تفعلون.

﴿مرصوص﴾: أصله المتماسك بعضه ببعض بالرصاص، والمراد: متقن كأنه قطعة واحدة.

﴿لم تؤذوننى﴾: انظر شرح الآية (٦٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٦، ٥١٧.

﴿زاغوا﴾: أى انحرفوا عن الصواب.

﴿أزاغ الله قلوبهم﴾: أى زادها بعدًا عن الصواب.

المعنى: نزه الله عن كل نقص كل ما فى السموات وما فى الأرض بلسان المقال أو بلسان الحال، وهو سبحانه الغالب الذى لا يغلب، الحكيم الذى لا يفعل عبثًا، وكان بعض شبان المسلمين يقولون: لو دلنا سبحانه على أحب الأعمال إليه لعملناها، فأخبر سبحانه نبيه أن أحب الأعمال إليه: الإيمان به تعالى وجهاد الكفار. ولمّا جاء يوم أحد ضعفوا حتى حلت

(١) السموات. (٢) آمنوا.
(٣) يقاتلون. (٤) بنيان.
(٥) يا قوم. (٦) الفاسقين.
(٧) يا بنى.

الهزيمة بالمسلمين كما فى شرح الآية (١٢١) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٨٣؛ فأنزل سبحانه فى ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا .. إلخ﴾. أى يا أيها الذين آمنوا لأى غرض تقولون ما لا تفعلون؟ فهو توبيخ على عدم فعلهم ما وعدوا به، فهم عملوا ذنبين: ترك فعل الخير، وخلف الوعد. ثم بيَّن شناعة ذلك فقال: ﴿كبر مقتا .. إلخ﴾. أى عظم كرها لكم عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون؛ لأن الوفاء بالوعد فيه ثقة الجماعة بعضها ببعض، وفى هذا كل الخير، وفى نقيضه كل الشر.

وبعدما أنكر عليهم خلف الوعد بين ما يجب أن يسارعوا إليه لأنه يحبه ويرضيه فقال: إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله متساندين مترابطين كأنهم بنيان مرصوص، لا يجد العدو بينهم ثغرة ينفذ منها. وبعدما وبخهم سبحانه على خلف الوعد والجبن عند القتال أراد أن يذكرهم بحال اليهود الذين جبنوا عندما طلب منهم موسى دخول الأرض المقدسة كما فى الآية (٢١) وما بعدها من سورة المائدة صفحة ١٤٠.

وعندما طلب منهم عيسى ما طلب وعصوه، فحل عليهم غضب الله فقال: وإذ قال موسى.. إلخ، أى واذكر لقومك أيها النبى ما حصل حين قال موسى لقومه: يا قوم لأى سبب تؤذوننى بمخالفة أمرى والجبن عند القتال، وأنتم تعلمون حقًا صدق رسالتى إليكم، فلما أصروا على الانحراف عن الصواب عاقبهم الله بزيادة زيغهم وضلالهم؛ لأنه سبحانه لا يهدى القوم المصرين على الفسق، انظر ما قيل فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ والآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، واذكر لهم أيضًا ما حصل حين قال عيسى بن مريم: يا بنى إسرائيل.. إلخ.

المفردات: ﴿يا بنى إسرائيل﴾: لم يقل (يا قوم) كما قال موسى قبل ذلك؛ لأن النسب فى العادة إنما يكون من جهة الأب، وليس لعيسى عليه السلام أب، فضلاً عن أن يكون منهم.

﴿مصدقا﴾: انظر الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨، والآية (٣٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١.

إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ
مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ
فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى
ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ
لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ

﴿بين يدى﴾: أى تقدمنى.

﴿اسمه﴾: أى صفته. والعرب يطلقون الاسم على الصفة. انظر الآية (١١) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٦، والآية (٢٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٢.

﴿أحمد﴾: أى كثير الحمد لربه.

﴿البينات﴾: أى المعجزات المذكورة فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى (٧٠، ٧١).

﴿مبين﴾: أى ظاهر وواضح؛ انظر معانى مبين فى الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢.

﴿ومَنْ أظلم﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام إنكارى يفيد النفى أى: لا أحد أشد ظلما.

﴿افترى على الله الكذب﴾: أى قال إن له ولدا أو شريكًا أو لم يرسل رسولا كما فى الآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠.

﴿يريدون ليطفئوا﴾: اللام هنا بمعنى (أن) بفتح فسكون، التى تجعل ما بعدها فى قوة مصدر، أى: يريدون إطفاء نور الله. وإذا ذكرت (أن) لا تذكر اللام كما فى الآية (٣٢) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥.

﴿نور الله﴾: المراد به القرآن.

(١) إسرائيل.	(٢) التوراة.	(٣) بالبينات.
(٤) الإسلام.	(٥) الظالمين.	(٦) بأفواههم.
(٧) الكافرون.	(٨) أمنوا.	(٩) تجارة.
(١٠) تجاهدون.	(١١) بأموالكم.	(١٢) جنات.

﴿بأفواههم﴾: أى بقولهم فيه إنه سحر وشعر..إلخ.

﴿بالهدى﴾: المراد به: القرآن البالغ النهاية فى الهداية، حتى أصبح كأنه الهدى نفسه، انظر الآية (١٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٣٥، ٣٦.

﴿دين الحق﴾: من إضافة الموصوف لصفته، فالمراد: الدين الحق، كقولهم مسجد الجامع، أى المسجد الجامع للناس.

﴿ليظهره﴾: أى ليعليه بقوة الحجة وسلامة التعاليم.

﴿هل أدلكم﴾: استفهام أريد به الحث على قبول ما بعده.

﴿تجارة﴾: المراد مقابلة شىء بشىء كالتجارة، انظر الثمن والمثمن فى الآية (١١١) من سورة التوبة صفحة ٢٦١.

﴿تؤمنون﴾: هذا خبر فى معنى الطلب. أى آمنوا وجاهدوا..إلخ. وجاء بالطلب فى صورة الخبر للترغيب فيه حتى كأنهم سارعوا إلى تحصيل المطلوب فصح الإخبار عنه. ﴿أموالكم وأنفسكم﴾: جاء هذا الترتيب على سبيل الترقى من الجهاد بالفاضل إلى الأفضل.

﴿يغفر لكم﴾.. إلخ: جزم الفعل لأنه واقع فى جواب الطلب المفهوم من ﴿تؤمنون﴾ كما تقدم.

المعنى: وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم، حال كونى مصدقًا للتوراة التى جاءتكم قبلى على يدى موسى، ومبشرًا برسول يأتى من بعدى، أبرز صفة له أنه كثير الحمد لربه. فلم يصدقوه، وأنكروا رسالته. فلما جاءهم بالمعجزات القاطعة بصدقه، لجوا فى العناد وقالوا: هذا الذى جئت به سحر واضح، ورب قائل يقول: هل فى الإنجيل الذى بأيدى النصارى اليوم ما يدل على هذا الوصف؟ نقول: إنه – مع أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا فى القرآن أنهم بدلوا وغيروا فيه، ومن ذلك أنهم أثبتوا فيه أن المسيح عليه السلام صلبه خصومه، والقرآن يقطع بكذب ذلك – مع كل هذا فقد فلت منهم رغم أنوفهم ما يدل على ما هنا. فقد جاء فى إنجيل يوحنا فى الفصل الخامس عشر ما يأتى: (قال يسوع المسيح: إن – الفارقليط – روح الحق الذى يرسله ربى، يعلمكم كل شىء). وقال فى الفصل المتقدم أيضا: (قال المسيح: مَنْ يحبنى يحفظ كلمتى. و(أبى) أى ربى يحبه. كلمتكم بأنى لست عندكم بمقيم. و(الفارقليط) روح القدس الذى يرسله ربى هو يعلمكم كل شىء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم). وقال المسيح أيضًا: (إن خيرا لكم أن انطلق؛ لأنى إن لم

أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا جاء يوبخ العالم على الخطيئة. وإن لى كلامًا كثيرا أريد قوله لكم، ولكنكم لا تستطيعون حمله. لكن إذا جاء روح الحق – ذلك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتى، ويعرفكم جميع ما للرب).

و(الفارقليط) فى اللغة القديمة لفظ يفيد معنى الحمد، وقد فسره بعض النصارى (بالحماد) بتشديد الميم، وهو الذى يحمد كثيرا. وهذا هو معنى (أحمد) المتقدم. وانظر مع هذا الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨. وبعدما ذكر سبحانه وتعالى ما حصل من قوم موسى وقوم عيسى وإنكارهم الآيات الدالة على صدق رسلهم، كما فعل الكفار فى عصر النبى ﷺ أراد أن يبيِّن شناعة جرمهم فقال: ومن أظلم ممن افترى.. إلخ. أى لا أحد أشد ظلما ممن اختلق على الله كذبا وقال إن له ولدا أو شريكا، أو إنه لم يرسل محمدًا رسولا، والحال أن الرسول يدعوه إلى الاستسلام والخضوع لله الواحد القهار. والله لا يهدى القوم الظالمين.

ثم ذكر بعض جرائمهم من الاجتهاد فى محاربة القرآن وتعاليمه فقال متهكما بهم، وساخرا من عقولهم: (يريدون).. إلخ. والمراد: تمثيل حالهم واجتهادهم فى إبطال ما جاء به القرآن بحال من ينفخ الشمس بفمه ليطفئ ضوءها يفعلون ذلك والحال أن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

ثم بيَّن سبحانه ما يؤيد إتمام هذا النور فقال: هو الذى أرسل رسوله.. إلخ. أى بالقرآن الهادى إلى الطريق المستقيم، وبالدين الحق ليعليه بالحجة على كل الديانات، ولو كره المشركون.

وبعدما نهى سبحانه المؤمنين عن أن يكونوا مثل قوم موسى فى التخاذل وعدم القتال، أو قوم عيسى فى العصيان.. رغبهم سبحانه فى الجهاد بالمال والنفس فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة رابحة، ثم بيَّنها بقوله: (تؤمنون).. إلخ. أى تضموا إلى إيمانكم القوى الجهاد بأموالكم، بل حتى بأنفسكم التى هى أعز من الأموال.. فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصر دينه. ذلك المذكور من ضم الجهاد إلى الإيمان خير لكم مما تبذلونه من الأموال والأنفس؛ لأن ثمرته نعيم دائم، والمال والأنفس عرض زائل، إن كنتم من أهل العلم الصحيح الذى يفرق المرء به بين النافع والضار. فافعلوا ما طلبته منكم، ثم ذكر جواب الأمر وفيه بيان للعوض عن المال والنفس فقال: (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات).. إلخ.

تجرى من تحتها الأنهٰر[1] ومسٰكن[2] طيبة فى جنٰت[3] عدن
ذٰلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله
وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣) يٰأيها الذين ءامنوا[4]
كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين[5] من
أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فـٔامنت[6]
طائفة من بنى إسرٰءيل[7] وكفرت طائفة فأيدنا الذين
ءامنوا على عدوهم فأصبحوا ظٰهرين[8] (١٤)

(٦٢) سورة الجمعة مدنية
وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يسبح لله ما فى السمٰوٰت[9] وما فى الأرض الملك القدوس

المفردات: ﴿مساكن طيبة﴾: المراد: قصور ذات بهجة مكونة من غرف فوقها غرف. انظر الآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩.

﴿عدن﴾: أصل العدن الإقامة، والمراد جنات خلود.

﴿وأخرى تحبونها﴾.. إلخ: أى ولكم عند ربكم مثوبة أخرى. هى نصر من الله.. إلخ. لأنها تشفى صدوركم مما عانته من كيد الكافرين.

﴿وبشر المؤمنين﴾: معطوفة على فعل مقدر قبل ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ المتقدمة فى الآية (١٠)، والأصل: قل أيها النبى يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة.. إلخ.

وبشر المؤمنين بهذا النصر المحقق والفتح المبين: انظر الآية (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤. والآية (٢١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨.

﴿كونوا أنصار الله﴾.. إلخ: أى كونوا أنصار دين الله، كما كان الحواريون أنصار دين الله عندما قال لهم نبيهم عيسى: مَنْ يكون جندا لى متوجهاً معى إلى نصرة دين الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار دين الله معك.

﴿الحواريون﴾: جمع حوارىّ بتشديد الياء، وهم صفوة أتباع المسيح، انظر الآية (٥٢) من سورة آل عمران صفحة ٧١.

(١) الأنهار. (٢) مساكن. (٣) جنات.
(٤) آمنوا. (٥) للحواريين. (٦) فآمنت.
(٧) إسرائيل. (٨) ظاهرين. (٩) السموات.

﴿ظاهرين﴾: أى غالبين.

﴿يسبح لله﴾: ينزهه سبحانه عما لا يليق به، انظر الآية (١) من سورة الحديد صفحة ٧١٨.

﴿الملك القدوس﴾: أى المنزه كثيرًا عما يقول الكافرون. انظر شرح الآية (٢٣) من سورة الحشر صفحة ٧٣٣.

المعنى: ويدخلكم ربكم جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار. ومساكن طيبة فى جنات عدن. ذلك النعيم هو الفوز العظيم. ولكم عند ربكم - فوق ما ذكر من النعيم - نعمة أخرى تحبونها؛ لأنها تشفى صدوركم مما عانيتموه من كيد الكفار. تلك النعمة هى نصر من الله تعالى لكم على أعدائكم. وفتح قريب لم يعهد له مثيل فى التاريخ، إذ لم يستقر وينتشر مبدأ أو دين فى مثل هذا الوقت القليل. وبشر أيها النبى المؤمنين بذلك.

وهذه إشارة منه سبحانه وتعالى إلى أنه لابد من تحقق هذا النصر. وقد حصل. ثم أرشد سبحانه أتباع رسوله، بأن يكونوا كلهم أنصار له، وإلا يتفرقوا كما تفرقت أمة عيسى فيحل بهم ما حل بمَنْ عصى منهم. فقال: يأيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، كونوا أنصار دين الله كما كان الحواريون أنصار دينه حين قال لهم عيسى: (من يكون جندا لى متوجهًا معى إلى نصرة دين الله؟) قال الحواريون: نحن جميعًا أنصار دين الله معك. وتخاذل آخرون. وبذلك آمنت طائفة من بنى إسرائيل بعيسى، وقالوا إنه عبدالله ورسوله. وكفرت طائفة به وهم اليهود. فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فصاروا غالبين بالكثرة والقوة.

﴿سورة الجمعة﴾

ينادى بتنزيه الله عن كل ما لا يليق. كل ما فى السموات وما فى الأرض؛ لأنه المتصرف وحده فى كل شىء. ولأنه شديد التنزه عن كل نقص.

العزيز الحكيم ﴿١﴾ هو الذي بعث في الأميين رسولا
منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب
والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴿٢﴾ وآخرين
منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴿٣﴾ ذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿٤﴾
مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل
أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله
لا يهدي القوم الظالمين ﴿٥﴾ قل يا أيها الذين هادوا
إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا
الموت إن كنتم صادقين ﴿٦﴾ ولا يتمنونه أبدا بما
قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴿٧﴾ قل إن الموت
الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب

المفردات: ﴿العزيز الحكيم﴾: تقدم فى صفحة ٧١٨.

﴿فى الأميين﴾: جمع أمى، وهو الذى لايكتب والمراد من بينهم، وقال سبحانه فى الأميين ولم يقل للأميين؛ لأن المراد هنا أنه سبحانه أرسله من بينهم، ولو قال للأميين لكان رسولا لهم فقط مع أنه مرسل للناس كافة بأدلة أخرى كثيرة، انظر الآيات (١٩) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٤، ١٦٥ و(١٥٨) من سورة الأعراف صفحة ١٥٨ و(٢٨) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦.

﴿منهم﴾: المراد منهم نسبًا أى من عصبتهم وليس من بينهم فقط؛ لأنه قد يكون من بينهم وليس من عصبتهم كلوط عليه السلام، انظر الآية (١٣) من سورة ق صفحة ٦٨٩، والمراد: لفت نظر العرب إلى أنهم يعرفون أمانته وصدقه فكان يجب أن يكونوا أول الناس إيمانا به، انظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، ثم كونه منهم نسبًا كان أدعى لهم أن يفخروا به على اليهود لا أن يحاربوه، انظر الآية (١٢٨) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤، ففى الكلام حث للعرب على المسارعة إلى الإيمان بهذا الرسول الذى جاءهم بما فيه شرفهم فهو نظير ما فى الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١. ﴿آياته﴾: أى آيات القرآن، انظر الآية (١) من سورة النمل صفحة ٤٩٤. ﴿ويزكيهم﴾: أى يطهرهم من خبائث العقائد والأعمال.

---

(١) الأميين. (٢) آياته. (٣) الكتاب.
(٤) ضلال. (٥) آخرين. (٦) التوراة.
(٧) بآيات. (٨) الظالمين. (٩) صادقين.
(١٠) بالظالمين. (١١) ملاقيكم. (١٢) عالم.

﴿الكتاب﴾: يطلق الكتاب عند العرب على معان منها:

١- الكلام الذى يصح أن يكتب ولو قبل كتابته كما فى الآية (٣) من سورة آل عمران صفحتى ٦٣، ٦٤، والآية (٢٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤.

٢- المكتوب فى الصحف كما فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، والآية (٩٤) من سورة يونس صفحة (٢٨١) والآية (٢) من سورة الطور صفحة ٦٩٦، والآية (٧) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧.

٣- الصحف وما كتب فيها كما فى الآية (١٥٣) من سورة النساء صفحة ١٢٩، والآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨، والآية (٢٩) من سورة النمل صفحة ٤٩٧.

٤- المحتم المقضى به قضاءً أزليًا كما فى الآية (٦٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧، والآية (٣٨) من سورة الرعد صفحة ٢٢٨، والآية (٤) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

٥- المحتم المفروض شرعًا كما فى الآية (٢٣٥) من سورة البقرة صفحة ٤٨ والآية (٢٤) من سورة النساء صفحة ١٠٣.

٦- اللوح المحفوظ كما فى الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١، والآية (٥٢) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (٧٠) من سورة الحج صفحة ٤٤٣، والآية (٧٥) من سورة النمل صفحة ٥٠٣، والآية (٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٢.

٧- المصدر، أى الكتابة، وهى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالقلم كما هنا، وكما فى الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٠. فالمراد هنا بالكتاب تعليم الخط والكتابة ليخرج العرب من الأمية، وقد نبه القرآن إلى ذلك فى أول آية نزلت منه لذلك سارع ﷺ إلى تحقيقه عقب غزوة بدر مباشرة حيث جعل فداء كل أسير يعرف القراءة والكتابة تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

﴿الحكمة﴾: العلم الصحيح ومعرفة أسرار الأشياء.

﴿وإن كانوا﴾: الأصل وإنهم كانوا.

﴿وآخرين﴾: أى وبعثه إلى آخرين ممن آمن بعد ذلك إلى يوم القيامة.

﴿منهم﴾: أى من الأميين، وهؤلاء الآخرون هم الذين جاءوا من العرب إلى يوم القيامة وآمنوا به ﷺ بدليل قوله تعالى ﴿لما يلحقوا بهم﴾ فإن (لما) تدل على أنهم سيلحقون بهم فى الإيمان. ﴿لما يلحقوا﴾: (لما) حرف يدل كما ذكرنا على عدم حصول ما بعده إلى زمن التكلم وعلى أنه سيحصل قطعا. ﴿يلحقوا بهم﴾: أى فى الإيمان، والمراد: أنهم لم يلحقوا بهم فى الإيمان إلى الآن ولكن سيلحقون بهم فيما بعد.

﴿ذلك﴾: أى هذا الشىء الرفيع المنزلة، وهو تفضيل الرسول ﷺ وقومه، وجعلهم أئمة فاتحين بعد أن كان العرب أتباعا.

﴿مَثَلُ﴾: أى صفة. ﴿الذين﴾: هم اليهود. ﴿حملوا التوراة﴾: أى عُلّموها وكُلّفوا العمل بها.

﴿لم يحملوها﴾: أى لم يعملوا بها. ﴿أسفارا﴾: جمع سِفر بكسر فسكون، وهو الكتاب الذى يسفر أى يكشف عن حقائق ما فيه. والتنوين للتفخيم ليدل على أنها أسفار كبار.

﴿هادوا﴾ أى صاروا يهودا، انظر الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣.

﴿أولياء لله﴾: المراد أحباؤه، انظر الآية (١٨) من سورة المائدة صفحتى ١٣٩، ١٤٠.

﴿فتمنوا.. إلخ﴾: تقدم كل ذلك فى الآية (٩٤) وما بعدها من سورة البقرة صفحتى ١٨، ١٩.

﴿بما قدمت أيديهم﴾: متعلق بالنفى المفهوم من (لا) أى انتفى تمنيهم الموت بسبب ما قدموا من الأعمال الخبيثة، انظر تعلق الباء بالنفى فى الآية (٢٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿الغيب﴾: هو كل ما غاب عنا.

المعنى: هو سبحانه وحده الذى أرسل إلى العرب الأميين رسولاً من أنفسهم وأميا مثلهم، ومع ذلك يتلو عليهم آيات كتاب الله، ويطهرهم من أدناس العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة، ويعلمهم الكتابة والقراءة ليمحو عنهم صفة الأمية الدالة على الجهل ليسايروا ركب الحضارة ويعلمهم أيضًا العلم النافع ومعرفة أسرار الأشياء فيستفيدوا، ويفيدوا. ثم أشار إلى سبب شدة احتياجهم إلى من يرشدهم إلى ذلك فقال: وإن كانوا.. إلخ. أى وإنهم كانوا من قبل مجيء هذا

الرسول لفى ضلال ظاهر من الشرك، وخبائث الجاهلية. كما بعث رسوله إلى عرب آخرين لم يلحقوا الصحابة فى الإيمان إلى الآن. وسيلحقونهم فيما بعد إلى يوم القيامة، وإنما خص الكلام هنا العرب لما علمت فيما سبق وليوبخ اليهود على دعواهم أنهم شعب الله المختار. وهو سبحانه العزيز القادر الذى لا يعجز عن تمكين رسوله من هذا الأمر الخارق للعادة. الحكيم فى اختيار رسوله، ويعلمه ما لم يكن يعلم. انظر الآية (١١٣) من سورة النساء صفحتى ١٢١، ١٢٢. هذا الفضل الرفيع المنزلة الذى ناله الرسول الأعظم هو فضل الله وحده يؤتيه من يشاء من عباده الذين يعلم صلاحيتهم له، انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والله صاحب الفضل العظيم ولما سمع اليهود ذلك قالوا: إن محمدًا لم يبعث إلا للعرب خاصة. أما نحن فلأننا أبناء الله وأحباؤه لا يرسل لنا إلا رسولا منا. وإن نؤمن إلا بما أنزل على رسولنا، انظر الآية (٩١) من سورة البقرة صفحة ١٨ فرد سبحانه عليهم بأنهم لم يفهموا التوراة التى أنزلت عليهم، وفيها أنه سيأتيهم نبى أمى من العرب، انظر الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨. فمثلهم فى حمل التوراة وعدم الانتفاع بها كمثل الحمار الذى يحمل الكتب الكبار ولا ينتفع بما فيها. بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق الرسول.

والله لا يهدى كل ظالم لنفسه بالإصرار على العناد. ثم رد على دعواهم (نحن أبناء الله وأحباؤه) بأمره له ﷺ أن يقول: يا أيها اليهود إن زعمتم أنكم أحباء الله من دون الناس فتمنوا الموت ليريحكم من دار التعب إلى النعيم الدائم، إن كنتم صادقين فى زعمكم فتمنوا ذلك. وأخبر سبحانه بما سيكون منهم فقال: ولا يتمنونه.. إلخ. أى ويستحيل أن يتمنوه بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والفسوق، فيخافون من عذاب الله. وقال ﷺ: والذى نفسى بيده، لايقولها واحد منهم إلا قُتل بريقه. ولذا لم يجرؤ واحد منهم على هذا التمنى لتيقنهم من صدقه ﷺ، انظر الآية (٤٢) من سورة البقرة صفحة ١، والآية (٨٩) من سورة البقرة أيضًا صفحة ١٧، والآية (١٤٦) من سورة البقرة كذلك صفحة ٢٨، فهذا كالمباهلة فى الآية (٦١) من سورة آل عمران صفحة ٧٢. والله تعالى عليم بالظالمين فيجازيهم بظلمهم. ثم ملأ قلوبهم حسرة، فأمر نبيه أن يقول لهم: إن هذا الموت الذى تخافون منه هو لاقيكم قطعًا، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة الذى يستوى فى علمه الغائب والحاضر.. إلخ.

وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ
اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾
فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ
اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا
تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ
اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَٰرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

(٦٣) سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ الْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ

المفردات: ﴿الشهادة﴾: أصل معنى الشهادة الحضور. والمراد بها هنا الشىء الحاضر المشاهد.

﴿من يوم﴾: (من) بمعنى (فى).

﴿ذكر الله﴾: المراد به هنا: الصلاة، والخطبة لأنه يذكر فيها اسم الله.

﴿ذروا﴾: أى اتركوا.

﴿البيع﴾: المراد المعاملة مطلقًا من بيع وشراء وإجارة وغير ذلك من كل ما يشغل.

﴿انتشروا فى الأرض﴾: أى تفرقوا كما تقدم فى الآية (٢٠) من سورة الروم صفحتى ٥٢٢، ٥٢٣. والآية (٥٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٨، ٥٥٩.

﴿ابتغوا﴾: أى اطلبوا.

﴿من فضل الله﴾: أى بعض فضل الله مما كان ممنوعًا بعد الأذان وقبل الصلاة.

﴿تجارة﴾: المراد بها هنا: الإبل التى تحمل متاع التجارة قادمة من الشام.

﴿لهوًا﴾: المراد به هنا: الطبل الذى يضربونه عند زفاف العروس أو الإعلان عن قدوم إبل التجارة.

﴿انفضوا إليها﴾: أى انصرفوا عنك إلى التجارة، والأصل: إذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو سمعوا لهوا انفضوا إليه، واكتفى بالأهم فقط.

(١) الشهادة. (٢) آمنوا. (٣) للصلاة.
(٤) الصلاة. (٥) تجارة. (٦) قائمًا.
(٧) التجارة. (٨) الرازقين. (٩) المنافقون.

﴿قائما﴾: أى على المنبر للخطبة.

﴿خير الرازقين﴾: انظر المراد من الرازق هنا فى شرح الآية (٥٨) من سورة الحج صفحة ٤٤٢.

﴿نشهد إنك..إلخ﴾: إذا قال العربى: أشهد أن فلانًا حضر مثلاً فإنه يقصد معنى أقسم بالله على أنى صادق فيما أقول.

المعنى: يقول سبحانه ثم تردون أيها اليهود يوم القيامة إلى الله الذى يستوى فى علمه ما خفى وما ظهر. فينبئكم بما كنتم تعملون. ويجازيكم عليه بما تستحقون. وبعد ما عاب على اليهود حرصهم على الدنيا وإغفالهم أمر الآخرة أراد أن يرشد المؤمنين إلى خيرى الدنيا والآخرة. فقال: يأيها الذين آمنوا.. إلخ. أى إذا نادى المؤذن بالإقبال على صلاة الجمعة فاسعوا إليها؛ لأن فيها ذكر الله، واتركوا كل معاملة تشغلكم عنه. ذلك السعى إلى ذكر الله خير لكم من الاشتغال بأمور الدنيا فى هذه الساعة إن كنتم من أرباب العلم النافع تدركون أن طاعته أربح من كل عمل آخر؛ لأن ثمرتها أدوم وأكرم. فإذا قضيتم صلاتكم فاسعوا فى مناكب الأرض. واطلبوا بعض فضل ربكم من كل ما ينفعكم، وداوموا على تذكر الله فى جميع أحوالكم، حتى لا يكون للشيطان عليكم سلطان، فتفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة. وقد علمت مما تقدم فى شرح الآية (١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٤؛ أن العرب كان يغلب عليهم التساهل فى مراعاة النظام والآداب الراقية، فمن هذا ما جاء الحديث عنه هنا من أن بعضهم كانوا إذا رأوا - وهم فى المسجد - قوافل تجارة، أو سمعوا لهو عرس أو غيره خرجوا ينظرون إليه. وقد استخفتهم هذه العادة حتى وهم يستمعون إلى الرسول الأكرم ﷺ وهو يخطب، ظانين أنه ليس فى ذلك حرج ماداموا سيعودون للصلاة، فأدبهم سبحانه بطريق التعريض بهم فقال مخاطبا رسوله ﷺ: وإذا رأوا قوافل تجارة أو مركب لهو انصرفوا إليه وتركوك قائما تخطب، أى وهذا لا يليق خصوصا والخطيب أشرف الخلق ﷺ. قل لهم أيها النبى مرشدا للصواب: ما عند الله من الأجر العظيم لمن تأدب بأدب الإسلام خير من اللهو ومن التجارة. وهو سبحانه خير الرازقين. فإذا احترمتم رسوله وآداب الصلاة فلن يفوت عليكم شىء من الرزق. والله أعلم.

﴿سورة المنافقون﴾

تدور آيات هذه السورة حول ما حصل من عبدالله بن أبي بن سلول كبير المنافقين في سنة ٦ في غزوة بني المصطلق، وهم بطن من قبيلة خزاعة على ما جاء في البخاري من أن شابا من المهاجرين لطم شابا من الأنصار. فاستغل ذلك ابن سلول كبير المنافقين للوقيعة بين المهاجرين والأنصار فقال لمن حوله: والله ما مثلنا يا معشر الأنصار من المهاجرين إلا كمثل من قال (سمن كلبك يأكلك)، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وأنتم أيها الأنصار أما والله لو أمسكتم عنهم فضل الطعام لتحولوا من عندكم (أى لتركوا المدينة)، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. (ويريد بالأعز أهل المدينة وبالأذل المهاجرين). فسمع ذلك زيد بن أرقم فأخذته الدهشة حيث يقول هذا مسلم. وكان أمر ابن سلول لا يزال مجهولا، وكان له موقف كهذا لا يعلمه إلا خاصته فضمه الله إلى ما فضحه به هنا. قال ابن عباس لما رجع عبدالله بن سلول من أحد سنة ٣ بثلث الجيش (كما تقدم في تفسير صفحة ٨٣) مقته المسلمون وعنفوه، فقال له بعض أقاربه من المؤمنين الصادقين: لو أتيت رسول الله ﷺ يستغفر لك ويرضى عنك. فقال: لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لي، وصار يلوى رأسه. ثم قال: قد أشرتم عليّ بالإيمان فآمنت، وبإعطاء زكاة مالي ففعلت، ولم يبق إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد. ولكن الله سبحانه أمهله ولم يفضحه حتى تفاقم خطره فكشف ستره في هذه السورة. وفضحه في سورة التوبة فضيحة شنيعة عندما تخلف عن غزوة تبوك، انظر صفحة ٢٤٧ وما بعدها. فلما رجع الجيش إلى المدينة أبلغ زيد بن أرقم عمه ما قال ابن سلول. فأخبر به رسول الله ﷺ. فدعا زيد أو سمع منه ما قاله ابن سلول؛ فطلب رسول الله ﷺ ابن سلول فجاءه هو وقوم من أصحابه. فأخبره بما قال زيد. فأقسموا ما حدث من ذلك شيء. فصدقه رسول الله ﷺ وكذب زيدا. يقول زيد فذهبت إلى بيتي ولم أستطع الخروج منه مخافة أن يراني الناس فيقولوا هذا هو الكذاب. ولم ألبث طويلا حتى أرسل لي رسول الله ﷺ وقال لي: يا زيد إن الله قد صدقك. وتلا من أول هذه السورة إلى ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون..﴾ الآية. (٨).

والمعنى: إذا جاءك المنافقون قائلين بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم. نقر عن علم ويقين.. إلخ.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ[1]
لَكَاذِبُونَ[2] ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ[3] جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ
اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا[4]
ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾
* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ[5] اللَّهُ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ[6] ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ

﴿ذلك﴾: أي ما تقدم من حالهم في النفاق والكذب والاستتار وراء الأيمان الكاذبة.

﴿آمنوا ثم كفروا.. إلخ﴾: أظهروا الإيمان وسط المؤمنين وإذا خلا لهم الجو مع الكفار أظهروا الكفر، كما هنا، وانظر الآية (٣٧) من سورة النساء صفحة ١٢٦.

﴿فطبع على قلوبهم﴾: الطبع هو الختم المذكور في الآية من سورة البقرة صفحة ٤. والكلام كناية عن عدم استعدادهم لقبول الإيمان.

﴿لا يفقهون﴾: لا يدركون حقيقة الإيمان ومزاياه.

---

(١) المنافقين.
(٢) لكاذبون..
(٣) أيمانهم.
(٤) آمنوا.
(٥) قاتلهم.
(٦) الفاسقين.

المفردات: ﴿والله يعلم إنك لرسوله.. إلخ﴾: (إنك) بكسر همزة إن لأن ما قبلها متضمن معنى القسم كما في الآية (٤٢) من سورة التوبة صفحة ٢٤٨، وهذه جملة متوسطة بين ما قالوا وبين تكذيب الله تعالى لهم. أريد بها إظهار العناية بحفظ مقام الرسول الكريم. حيث أبعد بها ما قد يسبق إلى الوهم أول الأمر من أن التكذيب موجه لظاهر قولهم (إنك لرسول الله) فهذه الجملة تحدد موضع التكذيب الآتي في (لكاذبون) بأنه لما تضمنه كلامهم من موافقة ظاهر كلامهم لما يبطنون.

﴿جنة﴾: أي وقاية كما في الآية (١٦) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨.

﴿تعجبك أجسامهم﴾: قال ابن عباس: كان عبدالله بن سلول جسيمًا سليمًا، وكان بعض المنافقين مثله.

﴿تسمع لقولهم﴾: أى تعجبك طلاوة أساليبهم لفصاحتهم.

﴿كأنهم خشب مسندة﴾: أى كالخشب المسندة على الحائط أشباح ضخام بلا أرواح ولا علم ولا تفكير.

﴿يحسبون﴾: أى يظنون.

﴿كل صيحة عليهم﴾: المراد: صيحة أى صوت مرتفع، ولو كان للبحث عن مفقود، أو لإدراك دابة انطلقت مثلاً. لخوفهم من ظهور فضائحهم، انظر الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١.

﴿هم العدو﴾: أى هم أشد أعدائك كأنه لا عدو غيرهم.

﴿قاتلهم الله﴾: قال البيضاوى: ﴿قاتل﴾ هنا مراد بها لمن وطرد، والمراد: لعنهم الله وطردهم من رحمته. (أنى): أى كيف.

﴿يؤفكون﴾: أى يصرفهم الشيطان عن الحق والصواب.

﴿لووا رءوسهم﴾: المراد: صرفوا وجوههم عن القائل علامة على الإعراض عن كلامه، وهذه عادة الكافر المصمم على الكفر، انظر الآية (٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٨.

﴿يصدون﴾: أى يعرضون عن القائل، ويمنعون أنفسهم عن الاستغفار.

﴿لا تنفقوا﴾: أى يقول زعماء المنافقين لأهل المدينة: لا تنفقوا على فقراء المهاجرين.

المعنى: إذا جاء مجلسك أيها النبى المنافقون مقسمين على أنهم يعتقدون أنك رسول الله، ومع أن الله يعلم إنك لرسوله حقًا فلا تصدقهم؛ لأن الله يعلم أنهم كاذبون فى ادعائهم أن باطنهم يوافق ظاهرهم. والذى جرأهم على هذا الكذب أنهم جعلوا أيمانهم وقاية من كل شر قد يصيبهم من جهة المؤمنين كالقتل ومصادرة الأموال. وبواسطة هذا الاستتار وراء الأيمان الكاذبة أمكنهم أن يصدوا عن دين الله بعض من كان يريد الدخول فيه. إنهم قبح ما استمروا

على ارتكابه من النفاق وتوابعه. هذا الحال الذى هم عليه من الجرائم بسبب أنهم تمرنوا على إظهار الإيمان عند الخوف. ثم إظهار الكفر عند عدمه. انظر صفحتى ٤، ٥. فحيل بين قلوبهم وبين قبول الإيمان. فصاروا لا يدركون حقيقة الإيمان وفوائده.

ثم بيّن سبحانه أن هؤلاء المنافقين يجمعون بين جمال المظهر الذى ضللوا به بعض البسطاء وبين قبح الباطن فقال: وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، أى لجمالها وقوتها. وإن يتحدثوا تصغى إلى حديثهم لفصاحتهم وطلاوة أسلوبهم. ولكنهم فى الحقيقة كالخشب المسندة على الجدران. أى أشباح ضخام بلا أرواح ولا علم عندها ولا تفكير ينفع. وهم أيضًا مع هذه الضخامة والفصاحة فى منتهى الجبن. يستولى عليهم الذعر إذا سمعوا أى صوت يظنونه مظاهر فضيحة فضحهم الله بها فتقع عليهم المصائب. انظر الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١. هؤلاء هم أشد أعدائك أيها النبى فاحذر شرهم؛ لأن أنكى الأعداء ما كان بين جنبيك. حقت عليهم لعنة الله وأقصاهم من مجال رحمته. ثم لفت الأنظار إلى التعجب من حالهم فقال: أنى يؤفكون. أى كيف يصرفهم الشيطان عن الحق مع ظهوره إلى ما هم فيه من الكفر والنفاق.

ومن شدة عنادهم التى جرأتهم على الجرائم أنهم إذا قال لهم ناصح: تعالوا نذهب إلى رسول الله نطلب منه أن يستغفر الله لكم ما حصل منكم بعد أن تتوبوا. أظهروا الإعراض. يصدون عن الاستغفار وهم مستكبرون عن الذهاب إليه ﷺ. ثم أراد سبحانه أن يقطع الأمل فى غفران ذنوبهم لأن الفساد أتلف قلوبهم. فقال: سواء .. إلخ. أى استغفارك أيها النبى وعدمه مستويان فى عدم النفع؛ لأن سنة الله أنه لا يهدى المصرين على الخروج على أوامره انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧، والآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، ثم ذكر سبحانه جريمة أخرى لهم فقال: هم الذين يقولون لا تنفقوا ... إلى آخر ما تقدم فى شرح أول السورة.

المفردات: ﴿الأعز﴾: أى الأقوى عزة وهى القوة والصولة. يريدون أنفسهم، انظر شرح الآية (١٨٠) من سورة الصافات صفحة ٥٩٧.

﴿الأذل﴾: أى الأشد ذلة. يريدون المهاجرين لأنهم غرباء فى زعمهم عن المدينة.

عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1]
وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ[2] لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ
لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ
وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ[3]
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[4] لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ[5]
وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ[6] عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ[7] ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا[8] رَزَقْنَٰكُم[9] مِّن قَبْلِ
أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ[10] ﴿١٠﴾
وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿ولله العـزة.. إلخ﴾: مـعنى هذا الرد: أنه سبحانه يقول: نعم سيخرج الأذل ويبقى الأعز. ولكن الأعز ليس هو أنتم أيها السفهاء بل هم المؤمنون. والأذل هم أنتم أيها المنافقون.

﴿لا تلهكم أمـوالكم ولا أولادكم عن ذكـر الله﴾: أى لا يمنعكم حب جمع المـال، وشدة تعلقكم بالأولاد عن تذكـر نعم الله عليكم الموجبة لطاعته، ومنها إنفاق المـال فيمـا يرضيـه، انظر الآية (٢٤) من سـورة التـوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤؛ فالمال والأولاد زخرف الدنيـا وفتنتـهـا، انظر الآية (٤٦) من سـورة الكهف صفـحـة ٣٨٧، والآية (٦٠) من سـورة القصص صفـحـة ٥١٥، وآيتى (١٥، ١٦) من سورة التغابن صفحة ٧٤٧. ﴿عن ذكر الله﴾: انظر شرح الآية (١٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨.

﴿من قبل أن يأتى أحدكم الموت﴾: المراد: مقدمات الموت.

﴿لولا﴾: حـرف يدل على طلب حـصـول مـا بعـده، ويعبـر العلمـاء عن مـعناه بكلمـة (هلا) بتشديد اللام. وهذا الحرف يجعل الفعل بعده مستقبلاً، وإن كان بلفظ الماضى فالمعنى أطلب أن تؤخرنى.

﴿وأكن﴾: المعنى: إن أخرتنى حتى أتصدق أكن من الصالحين.

المعنى: بعدما أفاد سبحانه أن المنافقين فاسقون أراد أن يبين دليل ذلك فقال: هم الذين يقـولون.. إلخ. وذلك أن المـهاجرين تركوا أموالهم بمكة وكـانوا بحـاجـة إلى مـسـاعـدة أهل

(١) السموات. (٢، ٣) المنافقين. (٤) آمنوا.
(٥) أموالكم. (٦) أولادكم. (٧) الخاسرون.
(٨) مما. (٩) رزقناكم. (١٠) الصالحين.

المدينة، قال رأس المنافقين عبدالله بن سلول ومَنْ تبعه لبعض أهل المدينة: لا تنفقوا على المهاجرين الملتفين حول محمد حتى ينفضوا من حوله، فتتكسر شوكته. فأبطل سبحانه كيدهم ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله وحده، ولن يستطيع أحد أن يمنع رزقه عن أحد. ولكن المنافقين لا يدركون حقيقة مقامه سبحانه. فلذا توهموا توهمًا فاسدًا.

ثم ذكر لهم جريمة أخرى أفظع من سابقتها، وهى قولهم والله لئن رجعنا من الغزوة إلى المدينة لنخرجن هؤلاء الغرباء الأذلاء وهم محمد وأصحابه. لأننا أصحاب الوطن. ولنا فيه القوة والصولة. فرد سبحانه عليهم بأنه صحيح أن الأعز هو الذى سيقهر الأذل. ولكن ليس عندكم شىء من العزة مطلقًا. بل هى لله يقهر بها أعداءه. ولرسوله فيظهر بها دينه رغم أنوفكم. وللمؤمنين فينتصرون وتكون لهم الغلبة. هذا هو الواقع. ولكن المنافقين لانطماس قلوبهم لا يعلمون ذلك. ولما كان من أسباب شقاء المنافقين حرصهم على الأموال. وخوفهم من أن تصرف فى سبيل الله حتى تواصوا بعدم بذل شىء منها للمهاجرين. لما كان كل هذا نهى سبحانه المؤمنين عن التشبه بهم فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم.. إلخ. أى يا أيها الذين آمنتم بالله تعالى وبأن النصر بيده لا تشغلكم زينة الدنيا وفتنتها عن مراقبة الله وتنفيذ أوامره. وابتعدوا عما يغضبه. والفريق الذى تشغله الدنيا عن ذكر ربهم هم الخاسرون لخيرى الدنيا والآخرة. وبعد هذا التحذير أمرهم سبحانه بما فيه صلاحهم فقال: وأنفقوا.. إلخ. أى وأنفقوا بعض ما رزقناكم من المال فيما أمر الله تعالى بالإنفاق فيه، من قبل أن يأتى أحدكم مقدمات الموت وهو لم ينفق فيقول: يا ربى أرجو أن تؤخر موتى مدة قصيرة بقدر ما أستدرك ما فاتنى، فإنك إن سمحت بذلك حتى أبذل المال فيما يرضيك أكن من الصالحين. فلا يحل بى غضبك. فلا يستجيب الله لهم؛ لأنه لا يؤخر نفسًا إذا جاء آخر عمرها. ولا يقبل توبة عبد شاهد مقدمات الموت كما فى آيتى (١٧، ١٨) من سورة النساء صفحة ١٠١.

فخافوا الله أيها الناس فى جميع أعمالكم: لأنه خبير بما تعملون وسيحاسبكم ويجازيكم عليه؛ قال ابن عباس ﷺ: مَن كان له مال تجب فيه الزكاة ولم يزكه، أو له مال يستطيع به الحج ولم يحج، ندم عند مشاهدة الموت، وطلب المهلة. ولن يستجيب الله له. نسأل الله السلامة. والله تعالى هو الموفق.

﴿سورة التغابن﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿يسبح لله﴾: أى ينزهه بلسان المقال، أو بلسان الحال؛ انظر الآية (١) من سورة الجمعة صفحتى ٧٤٠، ٧٤١ .

﴿فمنكم كافر﴾.. إلخ: المراد فمنكم من كفر ومنكم مَنْ آمن، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. والآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ .

(بالحق﴾: المراد: خلقًا مقترنًا بالحق، والحكمة، لا لهوًا ولا لعبًا.

انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ .

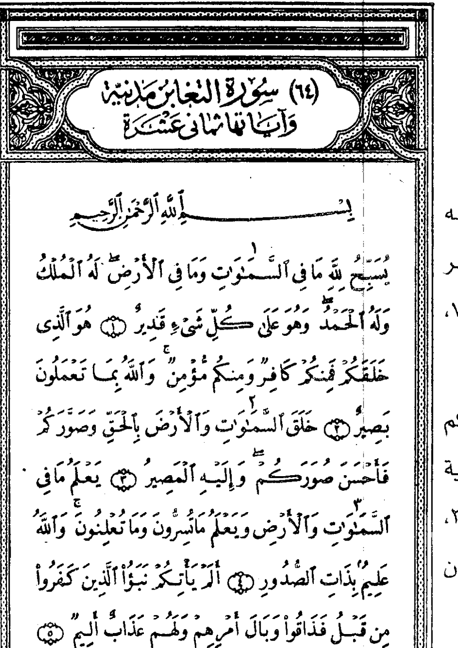
﴿أحسن صوركم﴾: انظر الآية (٤) من سورة التين صفحة ٨١٣ .

﴿بذات الصدور﴾: أى خفايا الصدور انظر الآية (١٥٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٨، والآية (٧) من سورة المائدة صفحة ١٣٧ .

﴿ألم يأتكم نبأ الذين﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣ .

﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾: تقدم فى الآية (١٥) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢ .

(١،٢،٣) السموات.


(٦٤) سورة التغابن مدنية وآياتها ثمانى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

المعنى: ينادى كل ما فى السموات وما فى الأرض ـ بلسان الحال وبلسان المقال ـ بتنزيه الله سبحانه عن كل ما لا يليق به. وكيف لا وهو وحده مالك التصرف فى كل ما فى هذا العالم. وله وحده الحمد؛ لأنه المنعم بكل النعم. وهو وحده القادر على كل شىء.

ثم بيَّن سبحانه بعض آثار قدرته فقال: (هو الذى خلقكم).. إلخ. أى هو سبحانه الذى خلقكم هذا الخلق البديع المستوفى لجميع ما يهيئ للكمال، ومع ذلك فمنكم مَنْ اختار الكفر مع أنه خلاف ما فطره الله عليه، كما فى الآية (٣٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤ .

ومنكم مَنْ اختار الإيمان لأنه لم يفسد فطرته، انظر ما يوضح ذلك فى شرح الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ .

ثم رغب سبحانه فى الإيمان وحذر من الكفر بقوله: والله بما تعملون بصير. أى فسيجازى كلا بعمله بالعدل.

وهو سبحانه الذى خلق السموات والأرض وما فيها مقترنًا كله بالحكمة البالغة. ولم يخلقها عبثًا.

وهو الذى صوركم فأحسن صوركم حيث جعلكم أكمل ما على وجه الأرض حسًا ومعنى، ومرجعكم فى الآخرة إليه وحده ليحاسبكم على الشكر والكفر.

فاحذروا ما يغضبه. وإذا كان وحده الذى خلق العالم كله فلابد أن يكون عالمًا به.

ويستوى فى علمه ما يسر به بعضكم لبعض وما تعلنونه. بل يعلم ما انطوت عليه صدوركم من المعانى الحسنة والسيئة. وسيحاسبكم على ذلك أيضًا، انظر آيتى (١٣، ١٤) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ .

ثم اتبع هذه التحذيرات بتحذير يعلمونه مع التوبيخ على إهماله فقال: ألم يأتكم... إلخ. أى هل جهلتم أيها الكفار خبر ما حصل للأمم قبلكم حين كفرت بأنبيائها كقوم نوح وما بعده؟

فعاقبهم الله على كفرهم فى الدنيا بالذل والهلاك. وأعد لهم فى الآخرة عذابًا شديد الألم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ
أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ
حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ
بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن
مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ

المفردات: ﴿البينات﴾: أى البراهين والمعجزات.

﴿أبشر﴾.. إلخ: الهمزة للاستفهام الإنكارى المشرب معنى التعجب.

﴿وبشر﴾: لفظ يطلق على الواحد والأكثر والمراد بهم هنا الرسل.

﴿زعم﴾: الزعم ادعاء العلم، وأكثر ما يكون فى الباطل كما هنا.

﴿بلى﴾: حرف يدل على إبطال النفى قبله وإثبات المنفى.

﴿النور﴾: هو القرآن، كما تقدم فى الآية (١٧٤) من سورة النساء صفحة ١٣٣ .

﴿أنزلنا﴾: انظر سبب العدول عن قوله أنزله إلى أنزلنا فى الآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿يوم الجمع﴾: هو يوم القيامة، انظر الآية (١٠٣) من سورة هود صفحة ٢٩٩ . والآية (٥٠) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥ . والآية (٣٨) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥ .

﴿التغابن﴾: ﴿التغابن﴾ بوزن التفاعل، لا يكون إلا بين طرفين؛ لأن هذا الوزن (التفاعل): يدل بهيئته على اشتراك طرفين فى مادته. يقال: تضارب عمرو وبكر، أى ضرب كل منهما الآخر، ويقال: تشاتما، أى شتم كل منهما صاحبه، فإذا كان الضرب من جهة واحدة، فلا يقال: تضاربا، وإنما يقال: ضرب فلان فلانًا.

(١) بالبينات. (٢) فآمنوا.
(٣) صالحا. (٤) جنات.
(٥) الأنهار. (٦) خالدين.
(٧) بآياتنا. (٨) أصحاب.
(٩) خالدين

فالتغابن ها هنا يدل على وقوع الغبن بين طرفين، غبن كل منهما صاحبه. وللغبن عند العرب معان: ـ منها (الجور) على حقوق الغير، كأن يلحق به ظلمًا ينقصه ما يستحقه، ومنها (ما جاء فى كتابى لسان العرب، والقاموس المحيط) من قول العرب: غَبن فلان الشىء، بفتح الغين، وكسر الباء، يغبنه، بفتح الباء، بوزن فرح يفرح، غبنًا بفتح الغين والباء، وغبنًا، بسكون الباء أيضًا، ومعناه: نسى الشىء، أو أغفله، أو جهله، ومنه قولهم: غبنت حقى عند فلان، أى تسيته، ومنها (قول العرب أيضًا): غبن فلان غيره، يغبنه، غبنًا، بوزن ضربه يضربه ضربًا، ومعناه: مرَّ به وهو واقف أمامه، ولم يفطن له، ولم يشعر به، وهذان المعنيان الأخيران هما اللائقان هنا.

فالمعنى: يوم ينسى الناس بعضهم بعضًا، فهو يوم التناسى والذهول الذى يحصل بين الناس، وهو يوم القيامة، وذلك من شدة الهول، انظر آيتى (٢،١) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣،٤٣٢، ومثلها الآيات (٨ ـ ١٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، والآيات (٣٣ ـ ٣٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٥ .

﴿يكفر عنه سيئاته﴾: انظر الآية (٣٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢، والآية (١١٤) من سورة هود صفحة ٣٠١، والآية (٧٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨ .

﴿ما أصاب من مصيبة﴾: ﴿من﴾ حرف يدل على أن ما بعده بيان لـ ﴿ما﴾ فى قوله ما أصاب.

﴿إلا بإذن الله﴾: أى بعلمه ومشيئته، انظر الآية (٢٢) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢ .

﴿يهد قلبه﴾: أى يوصله للثبات والاطمئنان والرضا بقضاء الله، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٦،٣٢٥ .

المعنى: ذلك العذاب الذى حل بالأمم الماضية بسبب أنهم كانوا على حالة أنهم إذا جاءت رسلهم بالحجج الواضحات على صدقهم أنكر كل فريق منهم رسالة رسوله وقال متعجبًا: هل يصح فى العقول أن يهدينا إلى الحق بشر مثلنا. ورسل الله لا يصح أن يكونوا إلا ملائكة، انظر آيتى (٩٤، ٩٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، والآيات (٣ ـ ٧) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٠، ٤٢١، والآية (١٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ .

ولا أدل على فساد عقول هؤلاء من إنكارهم الرسالة على البشر، وقبولهم عبادة الحجر. وبسبب خطئهم هذا كفروا برسل الله. وأعرضوا عن التأمل فيما أتوا به من البينات. فأظهر سبحانه غناه عن إيمانهم. فأهلكهم. ولولا أنه غنى عنهم لما فعل ذلك، والله غنى عن العالمين فضلاً عن طاعة هؤلاء. مستحق للحمد الكثير على كل حال.

ثم بين سبحانه أهم الأسباب التى جرأتهم على الكفر فقال: زعم.. إلخ. أى توهم هؤلاء الكافرون أنهم لا يبعثهم الله للحساب والجزاء. قل لهم أيها النبى ستبعثون.

ثم أكد أيها النبى ذلك بالحلف عليه. ليرتب عليه ما بعده، فقل لهم: وحق ربى لتبعثن. ثم ليطلعنكم سبحانه على كل أعمالكم ويحاسبكم عليها. وذلك البعث والحساب سهل على قدرة الله. فبأى وجه تنكرونه؟ وإذا كان الأمر كما ذكر بلا شك. فآمنوا أيها الكفار فى مكة وغيرها بالله الذى علمتم قدرته، ورسوله محمد ﷺ، والقرآن الذى أنزله الله لتنوير القلوب، والله بما تعملون من طاعة ومعصية خبير، وسيحاسبكم عليه.

قل أيها النبى سينبئكم الله بأعمالكم يوم يجمع الخلائق للحساب والجزاء. ذلك اليوم هو التناسى، يوم يغفل فيه كل مكلف عن غيره، ولا يذكر إلا نفسه من شدة الهول. وبعدما خوفهم سبحانه رغبهم فى التوبة فقال: ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا يكفر عنه سيئاته، أى فلا يعذبه بها، بل يضم إلى ذلك أنه يدخله جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار موقنين بالخلود فيها أبدا. ذلك المذكور من النعيم هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.

وبعدما بيَّن سبحانه نعيم المؤمنين، بيَّن سبحانه شقاء الكافرين ليحث النفوس بالمقارنة على الأنفع فقال تعالى: والذين كفروا... إلخ. أى بالله ورسله، وكذبوا بالمعجزات التى أيد بها الرسل، والبراهين التى ملأ بها الكون. هؤلاء هم الملازمون لنار جهنم خالدين فيها. وبئست النهاية النار. وكان المنافقون والمشركون يضللون البسطاء بقولهم: لو كان أصحاب محمَّد على حق لما شردوا من ديارهم، ولما حلت بهم مصيبة. فأبطل سبحانه زعمهم بقوله: (ما أصاب) ... إلخ.

أى كل مصيبة تصيب العبد فهى بعلم الله تعالى وإرادته لحكم يعلمها، فإذا علم المؤمن ذلك وصبر طلبًا لثواب الآخرة. هدى الله قلبه لليقين فيطمئن ويستريح.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾
اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ
وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن
تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ
شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

المفردات: ﴿من أزواجكم﴾: ﴿من﴾ تدل على معنى بعض.

﴿عدوا﴾: كلمة تطلق على الواحد والأكثر. انظر الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

﴿تعفوا وتصفحوا وتغفروا﴾: هذه الكلمات الثلاث إذا اجتمعت كما هنا تغايرت معانيها، وإذا انفردت واحدة منها فإن معناها قد يشمل معانى زميلتيها، وذلك مثل لفظى ﴿الفقراء والمساكين﴾ فى الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١: فالعفو هنا عدم المعاقبة على ذنوبهم القابلة للعفو، والصفح: الإعراض عن تأنيبهم وتوبيخهم، والمغفرة: ستر ما حصل منهم وعدم فضيحتهم.

﴿فتنة﴾: أى امتحان لكم هل يشغلكم حبهما عن الطاعات أو يحملكم على المعاصى، انظر الآية (٧٥) وما بعدها من سورة التوبة صفحة ٢٥٤.

﴿ما استطعتم﴾: ﴿ما﴾ حرف يدل على أن ما بعده فى قوة مصدر مسبوق بمعنى مدة فالمعنى مدة استطاعتكم، والمراد مادمتم مستطيعين.

﴿خيرا لأنفسكم﴾: المعنى: يكن ذلك خيرًا... إلخ.

﴿يوق شح نفسه﴾... إلخ: تقدم فى الآية (٩) من سورة الحشر صفحة ٧٣١

(١) البلاغ. (٢) امنوا. (٣) أزواجكم.
(٤) أولادكم. (٥) أموالكم. (٦) أولادكم.
(٧) بصاعفه. (٨) عالم. (٩) والشهادة.

﴿تقرضوا اللّه﴾.. إلخ: المراد تنفقوا فى وجوه الخير التى يرضى اللّه عنها، كما تقدم فى الآية (١١) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠ .

﴿عالم الغيب والشهادة﴾: تقدم فى الآية (٨) من سورة الجمعة صفحتى ٧٤١، ٧٤٢ .

المعنى: واللّه بكل شىء عليم حتى القلوب وأحوالها. وأطيعوا اللّه فيما أمر به فى كتابه. والرسول فيما يأمر به مبينًا لشرع ربه. انظر الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١، والآية (٧) من سورة الحشر صفحة ٧٣٠، ٧٣١ . فإن أعرضتم عن طاعة الرسول فلن تضروه شيئًا: لأنه ليس عليه إلا التبليغ الواضح وقد فعله على خير وجه. وحينئذ فلا تضرون إلا أنفسكم. ثم ذكر سبحانه ما يعتبر كالنتيجة لما سبق مع الحث على التوكل فقال: اللّه لا إله إلا هو وعلى اللّه (أى وحده) فليتوكل المؤمنون. وفى الكلام إشارة إلى أن من لا يتوكل عليه سبحانه فلا يعد من المؤمنين. نسأل اللّه السلامة. انظر آيتى (٥٨ و ٥٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩ .

ولما كان حب متاع الدنيا وزينتها من الأموال والأولاد قد يستولى على بعض النفوس فيضعف فيها الرغبة فى العمل الذى يرضى اللّه حذر سبحانه من ذلك فقال: (ياأيها الذين آمنوا)... إلخ. أى بعض أزواجكم وأولادكم قد يجرونكم إلى ما لا يوقعكم فيه إلا الأعداء، فكونوا على حذر فيما يطلبونه منكم. وزنوه بميزان الشرع. ولا تطيعوهم فيما يضر.

قال العلماء: إن من عداوتهم أنهم قد يحملون الرجل على ترك الطاعات وما ينفع فى الآخرة. وقد يورطونه فى اقتراف المحرم. وروى أنه ﷺ قال: يأتى على أمتى زمان يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده. يعيرانه الفقر فيركب مراكب السوء فيهلك. ومن الناس مَنْ يحمله حبه لهم والشفقة عليهم على أن يكونوا فى عيش رغيد فى حياته وبعد موته فيقع فى المحظورات. ومن ذلك. أن أناسا من أهل مكة أسلموا، ولما أرادوا الهجرة إلى المدينة قال لهم أزواجهم وأولادهم: لمن تتركوننا ها هنا؟ فرقوا لحالهم، وامتنعوا عن الهجرة. ولما هاجروا فيما بعد وعلموا فضل مَنْ سبق إلى الهجرة وأنهم كانوا عرضة للخطر الذى جاءت الإشارة إليه فى الآية (٩٧) من سورة النساء صفحتى ١١٨، ١١٩، اشتد

غيظهم على أزواجهم وأولادهم وعزموا على الانتقام منهم. ولما كان ما حصل من الأزواج والأولاد بحكم الطبيعة بعيدًا عن قصد العصيان. رأف سبحانه بهم فقال: وإن تعفوا. أى عن ذنوبهم فلا تعاقبوهم. وتصفحوا عن لومهم وتستروا ما حصل منهم عن الغير. فإن اللّه تعالى يعاملكم بالمثل تفضلاً منه لأنه كثير المغفرة لمَنْ تاب، رحيم بمَنْ ندم على ما فرط منه.

ثم بيَّن سبحانه منشأ البلاء بالأموال والأولاد فقال: إنما أموالكم وأولادكم فتنة. أى يشغلكم حبهما عن الطاعات.

قال القرطبى: (وفى الحديث: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال أكل عياله حسناته. وقال بعض السلف: العيال سوس الطاعات). انظر كيف تعلل بهم المنافقون فى الآية (١١) من سورة الفتح صفحتى ٦٧٩، ٦٨٠. واللّه عنده أجر عظيم خير من الدنيا وما فيها.

ولما كان الإنسان مطبوعًا على حب المال والولد، وربما ظن أن المبالغة فى التحذير منهما توقعه فى مشقة، أراد سبحانه أن يبين أن الدين يسر لا مشقة فيه، فقال: فاتقوا اللّه... إلخ. أى وإذا كان الأمر كما سمعتم فاتقوا اللّهَ أيها الناس. وراقبوه فى كل شىء خصوصًا فيما جعله فتنة لكم ما دمتم مستطيعين ذلك. فلا تكلفوا أنفسكم وأولادكم مشقة يعسر عليهم حملها، انظر الآية (٢٨٦) من سورة البقرة صفحة ٦٢، والآية (٧٨) من سورة الحج صفحتى ٤٤٤،٤٤٥ . واسمعوا مواعظ ربكم وأطيعوا أوامره وأنفقوا مما رزقكم فيما يرضيه يكن ذلك خيرًا لأنفسكم فى الدارين .

ثم رغب سبحانه فى الإنفاق فقال: (ومَنْ يوق شح نفسه)... إلخ. أى الفريق الذى يقيه اللّه شح نفسه. أولئك هم الفائزون بخيرى الدنيا والآخرة، وإن تنفقوا المال فى الوجوه التى رغب اللّه فيها مع الإخلاص وطيب النفس يضاعف اللّه لكم جزاء ذلك. ويغفر لكم ذنوبكم، واللّه كثير الشكر فيعطى الجزيل على العمل القليل، حليم لا يعجل بالعقوبة، ويفتح باب التوبة. وهو سبحانه يستوى فى علمه الغائب والحاضر، وهو الغالب الذى لا يغلب، الحكيم فيما يفعل ويشرع. واللّه سبحانه أعلم.

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿يا أيها النبى﴾.. إلخ: لم يخاطب اللَّه سبحانه فى أول السور رسوله ﷺ بلفظ النبوة إلا فى ثلاثة. هذه السورة والأحزاب والتحريم.

ووجه اللَّه الخطاب أولاً له ﷺ. ثم عمم الخطاب بالحكم، جريًا على أسلوب العرب إذا خاطبوا جماعة لهم رئيس رفيع المنزلة بينهم، فإنهم يوجهون الخطاب للجميع فى شخص هذا الرئيس، فيقولون: يا فلان افعلوا كذا وكذا.

﴿إذا طلقتم﴾: المراد: إذا أردتم الطلاق كما فى قوله تعالى:

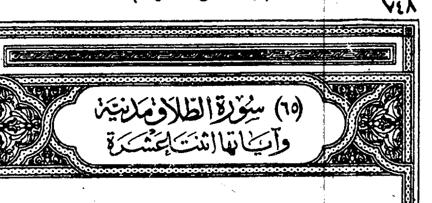
﴿إذا قرأت القرآن فاستعذ باللَّه﴾ الآية (٩٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٩ .

﴿لعدتهن﴾: اللام بمعنى ﴿عند﴾ كما فى قوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥، والمراد عند استقبال عدتهن، وذلك بأن يطلقها فى طهر لم يمسها فيه.

﴿واحصوا العدة﴾: أصل الإحصاء عند العرب هو العد بالحصى لأنهم أميون. ثم استعمل فى مطلق العد والضبط.

فالمراد واضبطوا العدة وأكملوها ثلاثة قروء، كما تقدم فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة صفحتى ٤٥، ٤٦ .

(١) بفاحشة.
(٢) الشهادة.
(٣) الآخر.


(٦٥) سورة الطلاق مدنية
وآياتها اثنتا عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ
وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ
بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ
لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ
يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ

﴿فاحشة﴾: أى فعلة شديدة القبح، كفعل ما يوجب حدًا. أو السفه على الزوج أو أهله. أو الخروج قبل انقضاء العدة بدون إذن المطلق.

﴿مبينة﴾: المراد: واضحة الفحش. انظر شرح مبين فى الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢، والآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦ .

﴿حدود اللَّه﴾: أى أحكامه التى فصل بها بين الحلال والحرام.

﴿أمرًا﴾: كالندم على الطلاق والميل للرجعة.

﴿بلغن أجلهن﴾: المراد قاربن نهاية العدة.

﴿فأمسكوهن﴾: المراد: راجعوهن إذا أردتم.

﴿بمعروف﴾: أى مع حسن عشرة.

﴿أو فارقوهن﴾.... إلخ: المراد اتركوهن بلا مراجعة مع إعطائهن كل حقوقهن، انظر الآية (٢٣١) من سورة البقرة صفحتى ٤٦، ٤٧ .

﴿وأشهدوا ذوى عدل منكم﴾: أى على الرجعة إذا اخترتموها. أو الفرقة كذلك.

﴿وأقيموا الشهادة للَّه﴾: هذا خطاب للشهود. والمراد أدوها إن طلبت منكم. خالصة لوجه اللَّه، دون تحيز لجانب منهما.

﴿ذلكم﴾: المذكور من الحث على مراقبة اللَّه. وعدم تعدى حدوده فى كل ما تقدم.

﴿يوعظ به﴾: أى يعظ اللَّه به المؤمنين لتلين قلوبهم، فيزداد خشوعهم له سبحانه.

المعنى: يا أيها النبى أنت والمؤمنون معك إذا أردتم طلاق نسائكم لسبب مشروع فأوقعوا الطلاق وهن مستقبلات لعدتهن، وذلك بأن تطلقوهن فى مدة طهرهن من الحيض قبل أن تمسوهن فى هذا الطهر، حتى يحسب هذا الطهر واحدا من ثلاثة. ولا يبقى عليها فى الخروج من العدة سوى طهرين فقط. وذلك رأفة بهن بسبب تقصير زمن العدة.

وهذا الأمر من اللّٰه يفيد أن من طلق فى مدة الحيض فقد ارتكب منكرا. واضبطوا العدة، واعرفوا مبدأها ومنتهاها.

واتقوا اللّٰه ربكم، فلا تطيلوا العدة للإضرار بهن. ولا تخرجوهن من سكنهن الذى كن فيه. ولا يجوز لهن أن يخرجن منه إلا برضاء الطرفين.

ومحل منعهن من الخروج ما لم يفعلن فعلاً واضح القبح. فإن حصل منهن شىء من ذلك جاز للمطلق إخراجهن...

وتلك الأحكام السابقة هى الحدود التى فصل اللّٰه بها بين الحلال والحرام. ومَنْ يتعدها فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب.

فلا تعرض نفسك أيها المطلق لمخالفة أحكام اللّٰه. فإنك لاتدرى لعل اللّٰه يحدث بعد طلاقك أمرًا ليس فى حسابك من تطيب نفسها ونفس أقاربها أو الميل إلى إرجاعها، إن كانت طلقتها رجعية.

فاجعل حبل الود موصولاً فإذا قارب المطلقات بلوغ نهاية العدة. فإن أردتم إرجاعهن فأرجعوهن بمعروف من حسن النية فى العشرة، أو فاتركوهن يستوفين عدتهن مع إعطائهن كل حقوقهن.

وأشهدوا على الرجعة إن اخترتموها، أو الفرقة إن رأيتموها، شاهدين عدلين منكم، بعدا عن الشك، وقطعا للتنازع. وأدوا الشهادة على وجهها أيها الشهود إذا طلبت منكم.

ذلك المذكور من الأوامر والنواهى السابقة يوعظ به منْ كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر: لأنه هو الذى ينتفع به، انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ .

ثم بيّن سبحانه فائدة طاعة اللّٰه فى كل شىء. ومنها ما سبق. فقال: (ومنْ يتق اللّٰه)... الخ.

المفردات: ﴿بالغ أمره﴾: أى بالغ كل أمر يريده لا يفوته مراد.

﴿قدرًا﴾: أى تقديرًا لا يتعده فى مقداره ولا فى زمانه.

اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ
الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ
وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾
ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ
سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ
وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم
بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ

﴿وأولات﴾: أى وصاحبات.

﴿الأحمال﴾: جمع ﴿حَمْل﴾ بفتح فسكون.

﴿ذلك أمر اللّٰه﴾: أى ذلك الذى ذكر من الاحكام هو حكم اللّٰه.

﴿من حيث سكنتم﴾: ﴿من﴾ بمعنى بعض أى بعض مكان سكنكم.

﴿من وجدكم﴾: الوجد - الطاقة والوسع. فالمراد: مما تطيقونه.

(١) بالغ.
(٢) اللائى.
(٣) ثلاثة.
(٤) اللائى
(٥، ٦) أولات.
(٧) فاتوهن.

﴿إن ارتبتم﴾: أى شككتم فى حكم عدتهن أو فى الدم النازل. منهن هل هو دم حيض أو غيره؛ واختار ابن جرير وسعيد بن جبير أن المعنى: إن شككتم فى حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر.. إلخ. وروى فى ذلك عن أُبى بن كعب قال: قلت: يا رسول اللّٰه إن أناسًا فى المدينة لما نزلت الآية التى فى سورة البقرة فى عدة النساء قالوا قد بقى عدة الآيسة والصغيرة وذات الحمل فأنزل اللّٰه هذه الآية، انظر آيتى (٢٢٨ و ٢٣٤) من سورة البقرة صفحات ٤٥،٤٦،٤٨، وكذا الآية (٤٩) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٧ .

﴿واللائى لم يحضن﴾: أى وكذا حكم الصغيرات فعدتهن ثلاثة أشهر قمرية.

﴿ولا تضاروهن﴾: أى فى السكنى والنفقة.

﴿لتضيقوا عليهن﴾: أى لتوقعوهن فى ضيق ومشقة لترغموهن على الخروج.

﴿وأتمروا﴾: أى تآمروا وتشاوروا، انظر المادة فى الآية (١١٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠.

﴿بمعروف﴾: أى بما فيه حسن المعاملة، من أجر الرضاع من جهة الأب، والعناية بالطفل من جهة الأم.

﴿تعاسرتم﴾: أى ضيق بعضكم على بعض بأن طلبت الأم أجرًا فوق المعتاد، لا يقدر عليه الأب.

﴿فسترضع له أخرى﴾: المراد: فستوجد امرأة أخرى غير الأم ترضع للأب طفله.

المعنى: لما كان عماد كل خير هو تقوى اللّه فى السر والعلن كرر سبحانه التنبيه لها فى هذا المقام عدة مرات، هنا وفى الآتيتين (٤و ٥) فقال: ومَنْ يتق اللّه - أى فى كل شىء - خصوصًا ما تقدم يجعل له مخرجًا مما قد يصادفه من الهموم، ويرزقه من جهة لا تخطر له على بال. ومَنْ أخذ فى أسباب الحياة المشروعة وفوض أمره إلى اللّه كفاه سبحانه كل ما يهمه فى الدين والدنيا. ثم بيَّن سبحانه فائدة التوكل فقال: إن اللّه بالغ أمره. أى إنه منفذ أحكامه فى خلقه بما يشاء. وقد جعل لكل شىء مقدارا وزمانًا لا يتجاوزهما. فإذا علم ذلك المؤمن فإنه لا يحزن لما يفوته، ولا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر؛ لأنه يجد بالتقوى مخرجًا من كل ضيق ويجد من عناية اللّه به رزقًا غير محتسب، بل يكون مطمئن القلب راضيًا بقضائه سبحانه.

ولما ذكر سبحانه الطلاق المشروع، ولم يسبق فى بيان العدة إلا عدة صاحبات الحيض والمتوفى عنهن أزواجهن كما فى آيتى سورة البقرة (٢٢٨، ٢٣٤) صفحات ٤٥، ٤٦، ٤٨. أراد هنا أن يبين عدة غيرهن فقال: (واللاتى يئسن)... إلخ. أى والنساء اللائى بلغن سنًا يظن فيه اليأس من الحيض - وهو فى الغالب سن الخامسة والخمسين فأكثر - إن شككتم فى الدم النازل منهن، هل هو دم حيض أم استحاضة. فاحسبوا عدتهن ثلاثة أشهر قمرية. وبالأولى إذا

قطع بأنه ليس حيضًا. والنساء اللاتى لم يحضن لصغرهن فكذلك عدتهن ثلاثة أشهر. وربما يقال: إن الشرع أوجب على المدخول بها العدة لبراءة الرحم، وللخدر من اختلاط الأنساب، واحتياطا لحكم ولاية الولاء والوراثة، فلماذا أوجبها فى المذكورات هنا من العقيم، والآيسة، والصغيرة؟ والجواب إن باطن الرحم لا يطلع عليه إلا علام الغيوب فهو وحده الذى يعلم ما فى الأرحام كما فى الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ ويعلم استعداده، فلو فتحنا بابًا إلى التفصيل فى كل مطلقة على حدة لركبنا متن خطر فى أمر لا نعلم باطنه، فإيجاب العدة مع عدم الحمل الظاهر لنا أهون من ركوب هذا الخطر؛ وقال صاحب المنار فى الجزء الثالث صفحة ٢١٥ عند الكلام على المتشابه: ويصح أن يقال أيضًا: إن المطلق قد يأسف على ما حصل منه، فيترك له فرصة المراجعة، ولأن سرعة زواج الغير بها قد يؤثر فى نفس المطلق فمهلة العدة قد تنسيه أو تخفف عنه ألم فراق مَنْ كانت زوجًا له. (انتهى كلام صاحب المنار).

أما النساء الحوامل فعدتهن تنتهى بوضع الحمل، ما لم تكن متوفى عنها زوجها. وإلا فعدتها أربعة أشهر وعشرا كما سبق فى الآية (٢٣٤) من سورة البقرة صفحة ٤٨. ثم أكد الأمر بالتقوى فقال: ومَنْ يتق اللّه فيبتعد عن مخالفة أمره يسهل له أموره فى الدنيا والآخرة. ذلك المذكور هو حكم اللّه أنزله إليكم لسعادتكم. ثم أعاد الوصية بالتقوى ليرتب عليها ثواب الآخرة بعدما وعد بثواب الدنيا. فقال: ومَنْ يتق اللّه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا. أى يعطيه الأجر العظيم على العمل القليل، ثم بيَّن أن من التقوى أن تسكنوا المطلقات بعض مساكنكم فى حدود طاقتكم. وذلك لبعدهن عن الفتنة فى أثناء العدة. ولا تضاروهن فى شىء من حقوقهن لتضيقوا عليهن فى السكن والنفقة ليرغمن على الخروج. وجمهور العلماء على أن السكنى مطلوبة للمعتدات مطلقًا سواء أكان الطلاق رجعيًا أو بائنًا غير رجعى. وإن كانت المطلقات حاملات فأنفقوا أيها الأزواج عليهن إلى أن يضعن حملهن. وبعد الوضع فإن قمن برضاع الطفل المنسوب لكم بعد انقضاء رابطة الزواج بانتهاء العدة، فادفعوا لهن أجرًا إرضاعهن. وتشاوروا فى مقدار الأجر بالحسنى. وإن صادفكم عسر بسبب مبالغة الأم فى الأجر فلن يعدم الأب امرأة أخرى ترضع الطفل بالأجر المعتاد. وفى الكلام إشارة إلى توبيخ الأم على المضايقة فى أمر يتعلق بطفلها: لأنها كانت هى الأولى بأن ترضع طفلها بأقل من الأجنبية. ثم بيَّن سبحانه كيف يقدر الإنفاق فقال: (لينفق)... إلخ.

ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما
آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل
الله بعد عسر يسرا (٧) وكأين من قرية عتت عن أمر
ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا
نكرا (٨) فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها
خسرا (٩) أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي
الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠)
رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين
آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن
يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من
تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له
رزقا (١١) الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض

المفردات: ﴿من سعته﴾: المراد: على قدر سعته أى غناه.

﴿قدر عليه رزقه﴾: أى ضيق الله عليه رزقه بأن كان فقيرًا. انظر الآية (١٢) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿وكأين من قرية﴾: تقدم فى الآية (١٣) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٤ .

﴿عتت﴾: أى تجبرت، وخرجت عن طاعة ربها انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥، والآية (٤٤) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥ .

﴿فحاسبناها﴾.. إلخ: أى سنحاسبها فى الآخرة قطعًا وإن حسابها مقطوع به كأنه حصل فعلا. انظر الآية (٤٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠، والآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ .

﴿نكرًا﴾: تقدم فى الآية (٨٧) من سورة الكهف صفحة ٣٩٣ .

﴿فذاقت وبال أمرها﴾: تقدم فى الآية (١٥) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢ .

﴿خسرًا﴾: أى خسارة فى الآخرة لا ربح معها، انظر الآية (١٦) من سورة البقرة صفحة ٥ والآية (٢) من سورة العصر صفحة ٨٢٠ .

﴿يا أولى الألباب﴾: أى يا أصحاب العقول.

﴿ذكرا﴾: هو القرآن، انظر الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١ .

---

(١) آتاه. (٢) آتاها. (٣) فحاسبناها. (٤) عذبناها.
(٥) عاقبة. (٦) الألباب. (٧) آمنوا. (٨) آيات.
(٩) مبينات. (١٠) آمنوا. (١١) الصالحات. (١٢) الظلمات.
(١٣) صالحا. (١٤) جنات. (١٥) الأنهار. (١٦) خالدين.
(١٧) سموات.

﴿رسولاً﴾: مفعول لفعل مقدر، والأصل: وأرسلنا إليكم رسولا، انظر بيان ذلك فى شرح الآية (٩) من سورة الحشر صفحة ٧٣١ .

﴿سبع سموات﴾: تكلم العلماء على هذه الآية وأمثالها ومنهم ابن عباس حيث قال: إن كل سماء هى سماء بالنسبة لما تحتها وأرض بالنسبة لما فوقها وإن لله تعالى عوالم لا يعلمها غيره. انظر مجلد المنار ٢٩ صفحة ٧٢٩ .

المعنى: فلينفق الوالد على المرضع على قدر سعته أى غناه ومَنْ كان رزقه بمقدار قوته فلينفق على قدر طاقته فى حدود ما آتاه الله؛ لأن الله تعالى لا يكلف أحدًا من النفقة على مَنْ تلزمه نفقته إلا فى حدود ما أعطاه. فلا يكلف الفقير بما يكلف به الغنى. ثم طمأن الفقير حتى لا يوقعه الشيطان فى اليأس فقال: (سيجعل الله) ... إلخ. أى إن الأرزاق تتحول من حال إلى حال، وسيجعل الله بعد شدة رخاء.

وبعدما أمر سبحانه بأشياء ونهى عن أخرى - أراد أن يحذر مَنْ تحدثه نفسه بعصيانه بأنه يحل به ما حل بأمثاله فقال: (وكأين).. إلخ. أى وكثير من أهل القرى الماضية تجبرت فى الخروج عن أمر ربها ورسله فلابد من حسابها حسابا عسيرًا على الكبير والصغير. وسنعذبها عذابا لم تعهده من قبل. فتذوق وبال ما فعلت. ويكون نهاية أعمالها فى الدنيا خسارة فى الآخرة. ثم أكد التهديد السابق ليرتب عليه تحذير العقلاء. فقال: أعد الله لهم عذابًا شديدًا، أى: فليكن ذلك داعيًا لكم يا أصحاب العقول من المؤمنين إلى تقوى الله الذى رحمكم فأنزل عليكم قرآنًا فيه أسباب سعادتكم. وأرسل إليكم رسولاً يتلو عليكم آيات الله من هذا القرآن حال كونها موضحات لكل ما تحتاجون إليه. انظر الآية (٨٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٧، ٣٥٨ . ليخرج المستعد للإيمان والأعمال الصالحة من ظلمات الكفر والمعاصى إلى نور الإيمان والطاعة. انظر الآية (٣٧) من سورة ق صفحة ٦٩١ .

ثم بيّن عاقبة الإيمان والعمل الصالح فقال: (ومَنْ يؤمن بالله)... إلخ. أى والفريق من المكلفين الذى يؤمن بالله ويعمل صالحًا يدخله جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار حالة كونهم موقنين بالخلود فيها أبدا. وقد اختار له سبحانه أحسن الأرزاق فيها مما لم يخطر على بال مخلوق. وبعدما هدد سبحانه الكفار من عاقبة عصيانه بأنه سيصيبهم بما أصاب به غيرهم من أمثالهم أراد أن يبين أنه قادر على تنفيذ ما هدد به بأن سلطانه شامل للعالم العلوى والسفلى. وقد تنبه نبى الله نوح لهذا فى الآية (١٥) وما بعدها من سورة نوح صفحتى ٧٦٨، ٧٦٩ . فقال سبحانه: (الله الذى خلق سبع سموات)... إلخ.

مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ[١] وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ[٢] وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ[٣] وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ[٤] حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ

المفردات: ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾: انظر المراد من ذلك فى شرح الآية (٥) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥ .

﴿لم تحرم﴾: المراد: لأى سبب تمتنع عن الحلال، مع اعتقادك أنه حلال؛ لأنه ﷺ أعلم الناس بأنه لا يجوز تحريم ما أحل الله. فالاستفهام للعتاب.

﴿ما أحل الله لك﴾: المراد به: عسل النحل كما سيأتى. ﴿تبتغى﴾: تطلب ﴿مرضاة﴾: رضاء.

﴿أزواجك﴾: المراد: عائشة وحفصة فقط. بدليل قوله تعالى: ﴿تتوبا﴾ و﴿تظاهرا﴾ فالإضافة فى ﴿أزواجك﴾ لجنس الزوجات الصادق بالواحد والأكثر.

﴿فرض الله﴾: المراد شرع وبيَّن لكم ما أوجبه عليكم إذا أردتم الخروج من تبعات أيمانكم، انظر الآية (١) من سورة النور صفحتى ٤٥٦، ٤٥٧ .

﴿تحلة أيمانكم﴾: أى تحليلا تخرجون به من مسئوليتها بالكفارة، كما فى الآية (٨٩) من سورة المائدة صفحتى ١٥٤، ١٥٥ . و﴿تحلة﴾ مصدر غير قياسى لفعل ﴿حلل﴾ ومصدرها القياسى التحليل كما فى كرّم تكريمًا وتكرمة.

﴿مولاكم﴾: أى متولى أموركم وناصركم. ﴿بعض أزواجه﴾: هى حفصة.

﴿حديثا﴾: هو قوله ﷺ لها: إنى شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ، ولن أعود له أبدًا. وقد حلفت على ذلك. فلا تخبرى بذلك أحدًا.

(١) أزواجك. (٢) أيمانكم. (٣) مولاكم. (٤) أزواجه.

﴿أظهره الله عليه﴾: أى أطلعه سبحانه عليه على لسان جبريل.

﴿عرف بعضه﴾: أى عرف حفصة بعض ما أفشته من السر لعائشة وهو قوله: إنى شربت إلى قوله ولن أعود.

﴿وأعرض عن بعض﴾: وهو قوله: (وقد حلفت على ذلك، فلا تخبرى بذلك أحدًا) تكرمًا منه ﷺ لما فيه من زيادة خجلها.

المعنى: بعد العلم بأن العرب يستعملون الأعداد كسبعة وخمسين، وسبعين، وسبعمائة... إلخ، وذلك لإفادة الكثرة بدون قصد التحديد كما فى الآية (٨٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٥ .

وبعد العلم أيضًا بأن ملك الله سبحانه بلغ من العظمة والسعة ما لاتحيط به العقول. وفى هذا روى ابن مسعود عنه ﷺ أنه قال: ما السموات السبع وما فيهن والأرضون السبع وما فيهن بجانب الكرسى إلا كحلقة ملقاة فى أرض فلاة، انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣ . وروى مجاهد عن ابن عباس عندما سئل عن معنى هذه الآية أنه قال: لوحدثتكم بمعناها لكذبتمونى. قالوا: وهذا منه إشارة إلى أن هناك عوالم كثيرة لا تستطيع العقول العادية إدراكها. نقول بعد علمنا بكل هذا فاللائق بنا ألا نخوض فى تفاصيل هذا المحيط الأعظم ونقتصر على مكان العبرة من ذلك وهو أن الإله الذى هذا ملكه وسعة سلطانه لا يعجزه أن يهلك مَنْ يكذب رسله ويعذبهم العذاب الأليم. فالمعنى: أن الله تعالى هو الذى خلق هذا العالم العلوى والسفلى ويسرى فيه أمره. وينفذ حكمه. أخبركم سبحانه بذلك لتعلموا أن الله على كل شىء قدير . وأن علمه قد شمل كل ما فى هذا الكون: لأن الذى أوجد شيئًا لابد أن يعلمه. انظر الآية (١٤) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ .

سورة التحريم

تعرضت هذه السورة لنوع من أنواع كيد النساء، وشدة غيرتهن، وعناية الله تعالى برسوله الأكرم. فقد جاء فى البخارى وغيره من الكتب الصحيحة أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: كان ﷺ يحب الحلوى. وكان إذا فرغ من صلاة العصر يمر على نسائه يسأل عنهن. فمر على زينب بنت جحش يومًا فمكث عندها أكثر من غيرها. فعلمت أنها كانت تسقيه

عسلاً. فاتفقت أنا وحفصة على أن تقول كل واحدة منا عند دخوله عليها: إنى أجد منك ريح مغافير. والمغافير جمع مغفور وهو شىء حلو يسيل من شجرة يشبه شجرة الصمغ لكن رائحته غير طيبة. وكان ﷺ يكره أن يدرك أحد منه رائحة غير طيبة. فلما دخل عندى قلت له ما اتفقنا عليه. ثم دخل على حفصة بعد ذلك فقالته له. فقال لحفصة: إنى شربت عسلا عند زينب؛ فقالت حفصة: إن نحل هذا العسل لابد أن يكون تغذى من شجر المغافير. فقال ﷺ: لن أشربه بعد الآن. وقد حلفت على ذلك. فلا تخبرى بذلك أحدًا. انتهى ملخص ما قالته عائشة. ولكن حفصة استخفها نجاح المكيدة فى زينب، فأخبرت عائشة بكل ما قاله ﷺ ظنا منها أنه لا خطر فى ذلك، فأخبره جبريل بما حصل من حفصة وعائشة. فذهب إلى حفصة يعتب عليها إفشاء ماطلب منها كتمانه. وأخبرها بأنها قالت لعائشة جزءًا من الحديث. فأنزل سبحانه: (يا أيها النبى)... إلخ. أى يا أيها النبى لم تمتنع عن شرب العسل الذى أحله الله لك.. تلتمس بامتناعك رضا أزواجك. ولما كان مقام النبوة خطيرًا، كانت الهفوة منه كالذنب بالنسبة لغيره. قال سبحانه مشيرا إلى ذلك: والله غفور. أى غفر لك ما حصل. رحيم بعباده المخلصين حيث جعل لهم مما وقعوا فيه مخرجًا. ولذا أتبع ذلك بقوله: قد فرض.. إلخ. أى قد شرع لكم التحلل من أيمانكم بالتكفير عنها. فكفر أيها الحالف واشرب العسل وغيره. ولا تضيق على نفسك ما وسعه ربك عليك.. والله متولى أموركم أيها المؤمنون. وهو العليم بما يصلحكم الحكيم فى تدبير شئونكم. ثم شرع سبحانه فى تفصيل الحادث للدلالة على سعة علمه، وأنه لا يخفى عليه شىء، فقال: (وإذ أسر).. إلخ. أى واسمع أيها المؤمن ما حصل حينما أسر النبى إلى بعض أزواجه، وهى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما حديث شرب العسل عند زينب، وحلفه أن لا يشربه أبدًا، وطلبه منها ألا تخبر بذلك أحدًا. فلما أخبرت حفصة بهذا الحديث عائشة، وأطلعه الله على ما حصل من حفصة، عرَّف حفصة ببعض ما أفشته، وأعرض عن بعضه رأفة منه بها، لئلا يقتلها الخجل إذا جابهها بأنها أفشت طلبه منها حفظ السر. فلما أخبر حفصة بما حصل منها ظنت أن عائشة هى التى أوقعتها فى هذا الحرج فقالت: يا نبى الله مَنْ الذى أخبرك بهذا السر الذى كان بينى وبين عائشة؟ قال: أخبرنى ربى العليم بكل شىء.

ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا
وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ
إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ
مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ
وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ
لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً
نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ

المفردات: ﴿إن تتوبا﴾... إلخ: خطاب لعائشة وحفصة، على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وذلك لمواجهتهما بالتهديد الآتى.

﴿فقد صغت قلوبكما﴾: أى فقد مالت عن الواجب لمقام الرسول الأكرم إلى ما يكره. وهذا مشعر بجواب الشرط المتقدم، والأصل: إن تتوبا أنقذتما أنفسكما من العقاب لأن قلوبكما انحرفت... إلخ.

﴿قلوبكما﴾: الأصل: قلباكما.. ولكن العرب تكره اجتماع تثنيتين فيما يشبه الكلمة الواحدة، متى كان المراد واضحًا.

﴿إن تظاهرا عليه﴾: أصل الفعل: تتظاهرا. أى تتعاونا على إحراجه ﷺ والإساءة إليه. والعرب تحذف إحدى التاءين فى مثل هذا لتخفيف النطق.

﴿فإن الله هو مولاه﴾: أى ناصره. وهذا دليل جواب الشرط المتقدم. والأصل: إن تتعاونا على إيذائه ﷺ فلن تقدرا: لأن الله هو مولاه.. إلخ. ويحسن أن يقف القارئ على ﴿مولاه﴾ لأن ﴿وجبريل وما بعده﴾ مبتدأ خبره ﴿ظهير﴾ الآتية.

(١) تظاهرا. (٢) مولاه.
(٣) صالح. (٤) الملائكة.
(٥) أزواجا. (٦) مسلمات.
(٧) مؤمنات. (٨) قانتات.
(٩) تائبات. (١٠) عابدات.
(١١) سائحات. (١٢) ثيبات.
(١٣) امنوا. (١٤) ملائكة.
(١٥) امنوا. (١٦) جنات.
(١٧) الأنهار.

﴿وصالح المؤمنين﴾: أصلها وصالحو المؤمنين، فحذفت الواو تخفيفًا، انظر ﴿يدع﴾ فى الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥ و ﴿يدع الداع﴾ فى الآية (٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ .

﴿والملائكة﴾: ذكرها بعد جبريل من ذكر العام بعد الخاص.

﴿ظهير﴾: أى معين، انظر الآية (٢٢) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٥، ٥٦٦ .

﴿عسى ربه﴾: انظر وقع ﴿عسى﴾ هنا على نفوسهن فى شرح الآية (٧٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٣ .

﴿قانتات﴾: خاضعات خضوعًا تامًا، كما تقدم فى الآية (٣١) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٤ .

﴿سائحات﴾: المراد: الصائمات المفكرات فى ملكوت الله، انظر الآية (١١٢) من سورة التوبة ٢٦١ .

﴿قوا أنفسكم﴾... إلخ: أى اجعلوا لها وقاية من العذاب بالطاعة.

﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾: أى لا يعجزهم شىء عن تنفيذ ما يأمرهم به ربهم، انظر الآية (٥٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٢ .

﴿توبة نصوحًا﴾: هى التى تجمع بين الإقلاع عن الذنب والندم عليه، والعزم القاطع على عدم العودة، ورد الحقوق لأصحابها أو لورثتهم.

﴿عسى ربكم﴾: المراد: مترجين تكفير الذنوب... إلخ.

المعنى: قال ﷺ: أطلعنى على ما حصل - العليم بأحوال خلقه، الخبير بما يدبر فى الخفاء. ثم التفت سبحانه إلى خطابهما فقال: إن تتوبا إلى الله أى مما أحرمتما فى حق رسوله أنقذتما أنفسكما من عقابه؛ لأن قلوبكما طغت عليها الغيرة. فحولتها عن احترام الرسول إلى إيذائه. وإن أبيتما إلا التعاون على ما يكره، فلن تنالا منه شيئًا؛ لأن الله هو الذى

تولى نصره وحمايته. ولزيادة توبيخهن قال سبحانه: (وجبريل) ... إلخ. أى وكبير الملائكة وكاملو الصلاح من المؤمنين. والملائكة. كل فريق من هؤلاء معين له ﷺ عليكن بعد نصرة الله له. وإنما شدد سبحانه فى محاربة كيدهن لأن كيد النساء عظيم، مقلق، مشتت لأفكار الرجال؛ مهما كان مقامهن من علو المنزلة.

ثم هددهما ومَنْ تحدثها نفسها بمثل ما فعلا. بما يحطم غرورهن فقال: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله. أى يعطيه بدلكن زوجات خيرًا منكن إسلامًا وتصديقًا بكل ما يجب التصديق به. مواظبات على الطاعة. تائبات من كل هفوة. كثيرات التعبد فى خلواتهن. صائمات ومتفكرات فى ملكوت الله.. يجمع له مَنْ فيهن هذه الصفات من نوعى النساء: الثيبات والأبكار كما يريد.

وبعدما أمر سبحانه نساء النبى ﷺ بالتوبة، وحذرهن من خطر المخالفة. شرع سبحانه فى إرشاد جميع المؤمنين إلى إنقاذ أهليهم من مثل هذه المخاطر، فقال: يا أيها الذين آمنوا اعملوا على إبعاد أنفسكم عن خطر المعاصى، وإبعاد أهليكم من الزوجة والولد وغيرهما - بالنصح والتأديب - من نار لا وقود لها إلا الناس والحجارة التى هى أشد أنواع الوقود حرارة، يشرف على تعذيب مَنْ فيها ملائكة غلاظ فى الأجسام والمعاملة، أقوياء جمعوا بين صفتى الطاعة والقدرة على كل ما يكلفون به. فلا يعتريهم عجز ولا سهو ولا نسيان.

وتقول الملائكة لأهل النار: يا أيها الكفار لا تعتذروا اليوم لأنكم لا تجزون اليوم إلا بما داومتم على عمله فى الدنيا.

وبعدما بيَّن سبحانه أن التوبة فى يوم القيامة لا تنفع، نبه عباده المؤمنين إلى المبادرة بها فى الدنيا - فقال: يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة خالصة من كل ما يبطلها. راجين من ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار. يدخلكم فيها فى اليوم الذى لا يخزى فيه النبى، والخزى يكون بإدخال النار كما فى الآية (١٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٩٥ .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ (١) نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ (٢) يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَٰهِدِ (٣) الْكُفَّارَ وَالْمُنَٰفِقِينَ (٤) وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ (٥) جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ (٦) نُوحٍ وَامْرَأَتَ (٧) لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ (٨) فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ (٩) ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ (١٠) فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ (١١) ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَٰنَ (١٢) الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ (١٣) رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ الْقَٰنِتِينَ (١٤) ﴿١٢﴾

المفردات: ﴿نورهم يسعى﴾... إلخ: أى يوم القيامة بعد انتهاء الحساب، كما تقدم فى آيتى (١٣،١٢) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠.

﴿جاهد الكفار﴾... إلخ: أى بالحجة والبرهان، كما تقدم فى الآية (٧٣) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٤،٢٥٣ وانظر الآية (٥٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦.

﴿واغلظ عليهم﴾: أى لا تعاملهم بالرحمة لأنهم مصممون على الفساد فيجب كف شرورهم.

﴿تحت عبدين﴾: العرب تقول: فلانة تحت فلان، كناية عن أنها فى عصمته. مهيأة للتأثر بأخلاقه، وأفعاله.

﴿فخانتاهما﴾: المراد: أخفت كل منهما الكفر، وأظهرت الإيمان وكانت تساعد خصومه سرًا. و زادت امرأة نوح أنها كانت تقول للناس عنه أنه مجنون؛ وامرأة لوط كانت ترشد الفساق لضيوفه، انظر شرح الآية (٧٨) من سورة هود صفحتى ٢٩٥، ٢٩٦ والآية (٦٧) وما بعدها من سورة الحجر صفحة ٣٤٢ وما بعدها.

﴿أحصنت فرجها﴾... إلخ: أى حفظته. كما تقدم فى الآية (٩١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠.

(١) امنوا.
(٢) بأيمانهم.
(٣) جاهد.
(٤) المنافقين.
(٥) ماواهم.
(٦،٧) امراة.
(٨) صالحين.
(٩) الداخلين.
(١٠) امراة.
(١١) الظالمين.
(١٢) عمران.
(١٣) بكلمات.
(١٤) القانتين.

المعنى: يدخلكم سبحانه أيها التائبين جنات فى اليوم الذى ينجى فيه النبى والمؤمنين معه من العذاب، حال كون نورهم يحيط وهم سائرون إلى الجنة.

وهم يقولون: إذا انطفأ نور المنافقين كما فى الآية (١٢) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠ المشار إليها هنا: يا ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ذنوبنا إنك على كل شىء قدير... وبعدما أمر سبحانه المؤمنين بالمسارعة إلى التوبة أمر رسوله ﷺ بقتال الكفار الذين يحاربون دعوته. وبتوعد المنافقين بعد إقامة الحجة عليهم. وبمعاملة الفريقين بالغلظة حتى يتقى شرهم. ثم بيَّن سبحانه أن المكان الذى سيأوى إليه فى النهاية مَنْ يظهر الكفر ومَنْ يخفيه هو جهنم، وبئس المصير هى. وبعدما بيَّن سبحانه مآل المؤمنين والكافرين، شرع فى ضرب مثلين للنوعين، مع الإشارة إلى تحذير زوجاته ﷺ من الغرور بأنهن زوجات نبى. فإن ذلك لا ينفعهن شيئًا إذا عصين ربهن، فقال: (ضرب اللّه مثلا) ... إلخ أى جعل سبحانه مثلاً للكافر المخالط للمؤمن وأن هذه المخالطة لا تنفعه. بامرأة نوح وامرأة لوط اللتين كانتا فى عصمة عبدين من عبادنا صالحين. وكان يمكنهما لولا فساد طبعيهما أن تهتديا بهديهما. ولكنهما خانتاهما بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر إلى آخر ما تقدم. وكان من نتائج خبثهما هذا أن صلاح الزوجين لم ينفعهما، ولم يدفع عنهما من عذاب اللّه شيئًا ولو قليلاً. وقيل لهما عند الموت: ادخلا النار مع الكفار المحكوم عليهم بدخولها. وهذا ولا شك يرعب أمهات المؤمنين اللاتى لم يرعين حرمة مقام الرسول الأعظم صلوات اللّه عليه. وجعل سبحانه مثلاً آخر يفيد عكس ما سبق؛ لأنه مثَّل للمؤمنة فى عصمة كافر بامرأة فرعون أى نجاتها حين قالت: يارب ابن لى عندك. أى قريبا من رحمتك - بيتًا فى الجنة. ونجنى من عشرة فرعون وغطرسته ومن أعماله السيئة، من الكفر وغيره. ونجنى من قومه من القبط الذين اتبعوا فرعون فى ظلمه للضعفاء. وجعل سبحانه حال مريم ابنة عمران مثلاً آخر للمؤمنة التى لا زوج لها لتكون عبرة للأرامل اللائى يعشن فى وسط قوم أكثرهم كافرون. ثم وصف مريم بأنها حفظت نفسها من الخنا. فوضع اللّه سبحانه فيها سرًا من أسراره كان بواسطته عيسى عليه السلام. وصدقت بكلمات ربها فى الوعد والوعيد الذى جاء على لسان رسل ليس لهم كتب. وكذا صدقت بما نزل من الكتب، كالتوراة والزبور وصحف إبراهيم. وكانت من عداد عباد اللّه المواظبين على الطاعة. وفقنا اللّه كما وفقها؛ إنه ذو الفضل العظيم.

(٦٧) سُورَةُ المُلْكِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ① ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ② ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ⑤ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ

سورة تبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿تبارك﴾: تعالى قدره، وتعاظم خيره، كما تقدم فى الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠ .

﴿خلق الموت﴾ ... إلخ: المراد: قدر الموت عليكم أولاً حين كنتم ترابًا، ثم الحياة بعد ذلك، انظر الآية (٢٨) من سورة البقرة صفحة (٧) والآية (١١) من سورة غافر صفحة ٦١٩ والآية (٢٦) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤؛ وانظر الخلق بمعنى التقدير فى شرح الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ .

﴿ليبلوكم﴾: أى ليختبركم، كما تقدم فى الآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤.

﴿العزيز﴾: القوى الغالب الذى لا يعجزه عقاب مَنْ أساء عملاً .

﴿الغفور﴾: كثير المغفرة لمَنْ تاب، ممَنْ أساءوا، انظر الآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣ .

﴿سبع سموات﴾: انظر شرح الآية (١٢) من سورة الطلاق صفحتى ٧٥٠، ٧٥١ .

﴿طباقا﴾: جمع طَبَقَة بفتحات، والمراد: طبقات بعضها فوق بعض.

﴿من تفاوت﴾: ﴿من﴾ حرف يفيد النص على عموم نفى ما بعده. والمراد بالتفاوت: التنافر، وعدم التناسب، والاختلاف.

---

(١) تبارك. (٢) الحياة.
(٣) سموات. (٤) تفاوت.
(٥) بمصابيح. (٦) جعلناها.
(٧) للشياطين.

﴿ارجع البصر﴾: أى أعده إلى السماء. ﴿هل ترى﴾: ﴿هل﴾ حرف استفهام مراد به الإنكار، أى النفى والمراد: لا ترى. ﴿من فطور﴾: ﴿من﴾ كسابقتها. والفطور جمع فَطْر بفتح فسكون وهو الشق، والمراد به هنا الخلل. ﴿كرتين﴾: أصل معناه مرتين والمراد: التكرار بدون تحديد. ﴿ينقلب﴾: أى يرجع. ﴿خاسئًا﴾: أى متعبًا، كما تقدم فى الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٣. ﴿حسير﴾: بالغ الغاية فى الضعف من كثرة المراجعة، تقول العرب: حَسَر بصر فلان يَحْسِر بوزن ضرب ويَحْسُر بوزن يدخل. ﴿زينا السماء الدنيا﴾: تقدم فى الآية (٦) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ . ﴿مصابيح﴾: المراد بها الكواكب المضيئة كأنها مصابيح. ﴿رجومًا﴾: جمع رجم بفتح فسكون؛ وأصله مصدر رجم إذا رمى بالحجارة. وأريد به هنا الشىء المرجوم به. ﴿اعتدنا﴾: أى أعددنا وهيأنا.

سورة تبارك

المعنى: تعالى قدر الله وتزايد تنزيهه عن كل ما لا يليق به هو وحده الذى بقبضة قدرته التصرف فى الأمور. وهو على كل شىء قدير . ومن مظاهر قدرته أنه قدر عليكم أيها الناس أن تكونوا ترابًا لا حياة فيه. ثم أحياكم ليعاملكم معاملة المختبر. ليظهر فى الوجود مَنْ منكم أحسن عمله ومَن أساء، انظر الآية (٧) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٠، ٣٨١ . وهو القادر على مجازاة مَنْ أساء عمله. واسع المغفرة لمَنْ تاب. ومن مظاهر قدرته أيضًا أنه خلق سبع سموات بعضها فوق بعض. لا ترى أيها الناظر لهذا الذى خلقه الرحمن اختلافًا وعدم تناسب. فإن كنت فى ريب من ذلك فارجع البصر إلى السماء فإنك لا ترى فيها خللاً مطلقًا.

ثم أعد البصر مرة بعد مرة ما شئت، يرجع إليك بصرك. ذليلاً، والحال أنه شديد التعب من كثرة المراجعة بدون الحصول على جديد.. والكلام كناية عن كمال النظام فى هذا العالم العظيم. وذلك لا يقدر عليه إلا إله قادر حكيم. وبعدما بيَّن أن هذا العالم العلوى فى غاية النظام، أراد أن يبين أن السماء الأولى مزينة أيضًا بما فيه زيادة بهجتها، ويحفظها من استراق الشياطين للسمع كما تقدم فى الآية (٦) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧. وما سيأتى فى الآية (٨) وما بعدها من سورة الجن صفحة ٧٧١ ، فقال: ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح أى بكواكب كالمصابيح. وجعلنا من هذه الكواكب شهبًا ترجم الشياطين إذا حاولوا الصعود إلى السماء. وأعددنا لهم عذاب جهنم فى الآخرة.. ولكل مَنْ كفر بربه منهم أو من الإنس عذاب جهنم... إلخ.

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا
شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى
قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ[1] كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ[2] السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ
فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ[3] السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ
اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ
خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ
وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنْتُمْ[4] مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ

المفردات: ﴿شهيقًا﴾: أصل الشهيق هو الصوت المزعج كصوت الحمار، والمراد به هنا (الحسيس) المذكور فى الآية (١٠٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١ يحدثه الله سبحانه فيها لشدة إزعاجهم.

﴿تميز﴾: أصله تتميز ، أى ينفصل بعضها عن بعض.

﴿من الغيظ﴾: أى من غيظها منهم، والكلام كله تمثيل لشدة غليانها انتظارًا لهم.

﴿فوج﴾: الفوج هنا الجماعة من الكفرة.

﴿خزنتها﴾: مفرده خازن وهم الملائكة المذكورون فى الآية (٦) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢ .

﴿ألم يأتكم﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخى .

﴿نذير﴾: أى رسول يحذركم من هذا العذاب.

﴿بلى﴾: حرف إبطال، كما تقدم فى شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ .

﴿من شىء﴾: ﴿من﴾ تقدم مثلها فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ٧٥٤ .

﴿إن أنتم﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾.

﴿نسمع﴾: أى كلام الرسول سماع تعقل. انظر الآية (٣٧) من سورة ق صفحة ٦٩١ .

﴿نعقل﴾: أى نتفكر فى آيات الله فى الكون.

﴿سحقا﴾: أصل السحق البعد. ومنه مكان سحيق أى بعيد. والمراد أبعدهم سبحانه بعدًا شديدًا عن رحمته.

---

(١) ضلال.
(٢) أصحاب.
(٣) لأصحاب.
(٤) ءأمنتم

﴿يخشون ربهم بالغيب﴾: أى يخافونه وهم فى خلواتهم بعيدون عن الرياء.

﴿ذات الصدور﴾: أى خفايا النفوس، كما تقدم فى الآية (١٥٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٨.

﴿ألا يعلم﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى و﴿لا﴾ للنفى ونفى النفى يقرر الإثبات، فالمراد يعلم قطعا.

﴿اللطيف﴾: المراد به هنا العالم بدقائق الأشياء، وخفياتها.

﴿ذلولا﴾: أى مذللة سهلة لا صعوبة فى المعيشة عليها.

﴿مناكبها﴾: جمع مَنْكِب بوزن مجلس، والمراد جوانبها وطرقها.

﴿النشور﴾: البعث من القبور، انظر آيتى (٣، ٤٠) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧٥ .

﴿أأمنتم﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد كسابقتها. أى يجب ألا تأمنوا.

﴿مَنْ فى السماء﴾: إذا تأملنا ما تقدم فى شرح الآية (٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٣ والآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١ والآية (٤٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ يسهل علينا أن نعلم أنه سبحانه يخاطب خلقه بما يجدونه فى نفوسهم.

والعبد يتصور خالقه فى المقام الأعلى من غير تحديد ولا تمثيل. ولهذا يرفع يديه عند الدعاء إلى السماء، مع اعتقاده أنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء. ويفوض ما خفى عليه إلى ربه.

﴿يخسف بكم الأرض﴾: أى كما خسفها بقارون، انظر الآية (٨١) من سورة القصص صفحتى ٥١٨، ٥١٩ . والله تعالى الموفق للصواب.

المعنى: وللذين كفروا بربهم من الإنس والجن عذاب جهنم. وبئست النهاية جهنم. إذا ألقتهم الملائكة فيها كما فى الآية (٤١) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ قابلتهم بصوت مزعج وهى تغلى تكاد تتقطع غيظًا منهم لكفرهم بخالقهم ورازقهم. كلما طرح فيها جماعة منهم متجانسة العمل، يسألهم خزنتها سؤال توبيخ: هل لم يأتكم رسول

يحذركم من غضب الله إذ كفرتم به؟ يقولون: نعم. قد جاء كل جماعة منا نذير. فكذبناهم. وقلنا ما نزل الله عليكم شيئًا مما تزعمونه، وما أنتم أيها الزاعمون للرسالة إلا في ضلال بعيد عن الصواب. أفرطنا في تكذيبهم على هذا الوجه، ولو كنا نسمع منهم بإخلاص أو نعقل ما نصبه الله من الأدلة على صدقهم، ما كنا اليوم في عداد أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم في وقت لا ينفعهم فيه الاعتراف.. فأبعدهم الله بعدًا شديدًا عن رحمته، انظر مثل ما هنا في آيتي (٧٢،٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦.

ثم أراد سبحانه أن يوسط بين تهديد الكفار وتبشير المؤمنين ليوقظ قلوب المستعدين، فقال:(إن الذين يخشون ربهم)... إلخ. أي إن المؤمنين المخلصين الذين يخافون ربهم في غيبتهم عن عيون الناس، بعيدين عن الرياء، لهم عند ربهم مغفرة وأجر كبير.

ثم رجع إلى تهديد الكفار المخاطبين ومَنْ على شاكلتهم فقال: وأسروا قولكم... إلخ. وذلك أن كيدهم للنبي ﷺ كان منه ما يسرون به ومنه ما يعلنونه، فهددهم سبحانه وقال: سواء عليكم إسراركم الكيد أو جهركم فلن يخفى على الله شيء منه؛ لأنه عليم بخفيات الصدور. هل يجهل الموجد للشيء ما أوجده؟ وأنتم وجميع أجزائكم من خلقه تعالى، فيجب أن تعلموا أني أعلم أحوالكم تمام العلم فاحذروا غضبي. وكيف لا يعلم الخالق خلقه وهو العالم بما خفي: الخبير بما ظهر.

ثم نبههم إلى نعمه فقال: هو الذي جعل لكم الأرض مذللة لا صعوبة في المعيشة عليها، بل وفيها راحتكم، كما في الآية (٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧. فامشوا في نواحيها لطلب الرزق، وكلوا مما رزقكم الله وإليه في النهاية أمر بعثكم من القبور ليحاسبكم ويجازيكم.

ثم هددهم بأن يحصل لهم ما حصل للكفار قبلهم فقال: أأمنتم... إلخ. أي هل أمنتم نقمته بأن يخسف بكم الأرض... إلخ.

الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

المفردات: ﴿تمور﴾: تهتز وترتج ارتجاجا شديداً فتتشقق. انظر الآية (٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٧.

﴿أم﴾: تقدم المراد منها في الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢، وانظر الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩.

﴿حاصبا﴾: المراد: ريحا شديدًا، كما تقدم في الآية (٦٨) من سورة الإسراء صفحتي ٣٧٣، ٣٧٤ والآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦.

﴿كيف نذير﴾: المراد بالنذير هنا التحذير. والأصل: (نذيرى): أي تحذيري، والمعنى كيف كان عاقبة تحذيري؟ انظر الآية (١٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٥.

﴿نكير﴾: أي إنكاري وغضبي عليهم.

﴿صافات﴾: أي باسطات أجنحتها في الهواء انظر الآية (٤١) من سورة النور صفحة ٤٦٤.

﴿ويقبضن﴾: أي يَضمُمن أجنحتهن إلى جوانبهن عند الشروع في التحرك.

﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾: انظر الآية (٧٩) من سورة النحل صفحة ٣٥٦، وانظر إتقان صنعه سبحانه وتعالى في مثل هذا في الآية (٣١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣.

﴿أمَّن هذا﴾... إلخ: أصلها (أم. من) و(أم) هنا بمعنى (بل) الدالة على الانتقال من توبيخ على عدم التأمل فيما سبق مع التهديد، إلى توبيخ وتهديد آخر. و﴿مَنْ﴾ اسم استفهام.

(١) صافات. (٢) الكافرون. (٣) صراط. (٤) الأبصار.

﴿جند﴾: لفظ مفرد. معناه جمع. أى من هذا الجمع الذى تزعمون أنه ينصركم؟... إلخ.

﴿إن الكافرون﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾..

﴿فى غرور﴾: أى فى خداع أوقعهم فيه الشيطان، انظر الآية (٦٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣ . ﴿لجوا﴾: أى تمادوا باندفاع. ﴿عتوا﴾: أى تجبر وتكبر. انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥ . ﴿مكبا﴾: من أكب بمعنى سقط والمراد: يمشى ووجهه إلى أسفل، فيحتمل سقوطه فى هاوية دون أن يشعر.

﴿أهدى﴾: أى أكثر هداية. ﴿سويا﴾: أى مستقيمًا منتصب القامة.

﴿قليلا ما تشكرون﴾: المراد تشكرون شكرا قليلاً جدا، انظر مثل هذا التركيب فى الآية (٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٢ والآية (١٠) من نفس السورة صفحة ١٩٣ .

﴿ذرأكم﴾: أى كثركم كما تقدم فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢ .

﴿هذا الوعد﴾: المراد الموعود به وهو يوم القيامة.

المعنى: هل آمنتم يا كفار العرب أن يخسف اللّه بكم الأرض كما خسفها بقارون وقوم لوط، فإذا هى حين الخسف تهتز وتضطرب حتى تختفوا تحتها. ثم انتقل سبحانه إلى توبيخ آخر فقال: (أم أمنتم مَنْ فى السماء).. إلخ. أى بل هل أمنتم انتقام من فى السماء بأن يرسل عليكم ما يرميكم بالحجارة من ريح أو طير كما حصل لأصحاب الفيل انظر سورة الفيل صفحة٨٢٢. فإذا أصررتم على العناد فستعلمون ما عاقبة إنذارى؟ وأنها هى الهلاك

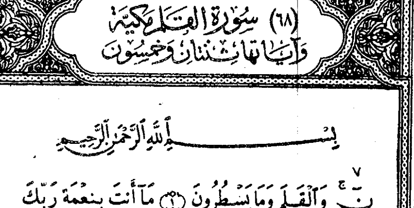
ثم أعرض سبحانه وتعالى عن مخاطبتهم احتقارًا لهم موضحًا جهلهم لغيرهم مسليًا رسوله فقال: ولقد كذب الذين من قبلهم كقوم نوح وعاد ما أنذرهم به رسلهم. فماذا كانت عاقبة إنذارى وغضبى عليهم؟ كانت هولاً شديدًا نزل بهم. ولما هددهم بإرسال الحاصب من جهة السماء ناسب أن يكون تذكيرهم بقدرته سبحانه متضمنًا قدرته على إرسال الحاصب على جناح ريح أو طير، فقال: (أولم يروا).. إلخ. أى هل عميت أبصارهم ولم ينظروا إلى الطير حال كونها فوق رءوسهم باسطة أجنحتها، فإذا أرادت التحرك ضمتها إلى جنبها كما يفعل من

يسبح فى الماء. وما يحفظهن فى الجو عند البسط والقبض مع ثقلهن و رقة الهواء إلا تدبير الرحمن الذى من رحمته أنه هيأ لها هذا الجو وخلقها على هذا الشكل الذى يسهل لها التحرك لكسب رزقها. إنه سبحانه بكل شىء بصير. فيدبر لكل مخلوق ما يهديه لما به حياته، انظر الآية (٥٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٩ ، ٤١٠ ، وانتقل بعد هذا التوبيخ إلى توبيخهم على غرورهم بما لا ينفع، مع توجيه الخطاب إليهم ثانيًا لشدة تقريعهم، وحرمانهم من رحمة اللّه لهم كما رحم ذلك الحيوان الضعيف؛ فقال: أمن هذا الذى هو جند.. إلخ. أى بل مَن هذا الجمع الحقير الذى تزعمون أنه جند لكم ينصركم مستغنيا عن نصر الرحمن الذى حرمتم أنفسكم من رحمته لكفركم به؟ فيمنع عنكم عذابه. الجواب: لا أحد يستطيع ذلك.

ثم بين سبحانه منشأ مصائبهم فقال: (إن الكافرون)... إلخ. أى ليس هؤلاء الكافرون إلا غارقين فى غرور بأن آلهتهم تدفع عنهم الذهاب مثلاً أو تنفعهم. وبعد توبيخهم على كل ما سبق انتقل إلى توبيخهم على إهمالهم شكر المنعم عليهم فقال: أمَّن هذا الذى يرزقكم... إلخ. أى بل مَنْ هذا الذى يرزقكم إن منع الرحمن رزقه عنكم؟ أى لا أحد مطلقاً يستطيع ذلك. هل تظن أيها السامع أنهم تأثروا بكل هذه التحذيرات؟ كلا بل لجوا فى التجبر والعناد والنفور من الحق لثقله عليهم. ثم ضرب سبحانه مثلاً للمشرك والمؤمن يوضح حالهما فى الدنيا فقال: (أفمن يمشى)... إلخ. أى هل بعد كل ما تقدم يصح فى العقول أن يسوى بين رجلين فى الهداية أحدهما يعثر كل خطوة ويسقط على وجهه لصعوبة الطريق الذى اختاره. والثانى يمشى مستوى القامة سالمًا من العثرات لا يسير إلا على طريق مستقيم.

ثم شرع سبحانه يعرفهم بما لا يصح أن يجهلوه فقال: قل.. إلخ. أى قل أيها النبى لكفار قومك: إن اللّه وحده هو الذى خلقكم وجعل لكم السمع لتسمعوا به ما ينفعكم. والأبصار لتنظروا ما يفيدكم. والعقول لتفكروا بها فى دقيق صنع الخالق، وفى معاشكم، ولكنكم لا تشكرون نعمها باستعمالها فيما خلقت له إلا قليلا جدا فكان كالعدم. وقل لهم أيضا: اللّه وحده هو الذى خلقكم لتعيشوا فى الأرض، ويوم القيامة لا تحشرون إلا إليه.

ومن عجيب أمر هؤلاء الكفار أنهم بعد هذه التحذيرات لا يتحولون عن عنادهم فيسألون الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل الاستهزاء قائلين: متى يأتى ما تهددونا به من الحشر والحساب؟



صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

(٦٨) سُورَةُ القَلَمِ مَكِّيَّة وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

المفردات: ﴿نذير مبين﴾: ﴿نذير﴾ أى محذر من غضبه تعالى.

﴿مُبين﴾ أى واضح التحذير، انظر الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢ .

﴿رأوه﴾: المراد: رأوا العذاب الموعود به فى يوم القيامة. عبر بالفعل الماضى مع أنه سيحصل فى المستقبل لأن وقوعه لما كان محققا صار كأنه حصل فعلاً.

﴿زلفة﴾: اسم مصدر من (أزْلَفه) أى قربه. فهى بمعنى قربا وأريد بهذا المصدر اسم الفاعل مبالغة. أى قريبًا، كما تقول: هذا رجل عدل أى عادل.

﴿سيئت وجوه﴾: أى غشيها آثار ما يسوءها. انظر ذلك فى آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة يونس صفحة ٢٧٠ وشرح الآية (٤١) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ والآية (٢٤) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ والآية (٤٠) من سورة عبس صفحة ٧٩٣ .

﴿تدعون﴾: المعنى ما كنتم تتصنعون وتتكلفون طلبه استعجالاً به، والمراد ما كنتم تستعجلون به فى الدنيا على وجه الاستهزاء، انظر الآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩ والآية (١٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤١ .

(١) صادقين.
(٢) أرأيتم.
(٣) الكافرين.
(٤) امنا.
(٥) ضلالى.
(٦) أرأيتم.
(٧) نون.

﴿أرأيتم﴾: المراد أخبرونى.

﴿غورًا﴾: أصله مصدر (غار): الماء، أى ذهب فى جوف الأرض، وأريد به اسم الفاعل أى غائرًا، كما تقدم فى زلفة.

﴿معين﴾: أى ظاهر، تراه العيون، والمراد فى متناول أيديكم.

المعنى: ويقول هؤلاء الكفار استهزاء متى يأتينا ما تعدنا به يا محمَّد أنت ومَنْ معك؟ إن كنتم صادقين فأخبرونا عن وقته. قل لهم أيها النبى لا علم بوقته إلا عند اللَّه.

وليس من مقتضى وظيفتى أنى أعلم ذلك، إنما وظيفتى أى عملى أن أنذركم وأحذركم من وقوعه.

ثم أراد سبحانه أن يبين حالهم يوم القيامة إذا استمروا على كفرهم فقال: (فلما رأوه)... إلخ. أى وسيرون العذاب الموعود به قريبًا منهم قطعًا فتغشى وجوههم الكآبة. و يقول لهم ملائكة العذاب توبيخًا: هذا هو الذى كنتم تستعجلون به فى الدنيا استهزاء.

ثم شرع فى تسفيه عقولهم فقال: قل أرأيتم... إلخ. أى أخبرونى عن جواب الاستفهام الآتى وهو: إن أماتنا اللَّه قبل أن نشاهد النصر عليكم وأدخلنا الجنة بإيماننا أو رحمنا بإبقائنا حتى نُسر بهزيمتكم وإعلاء الحق، فهل لكم أنتم على كلا الغرضين مَنْ ينقذكم من عذاب النار الأليم؟

الجواب الوحيد أنه لا منقذ لكم أبدًا. أما نحن فضامنون بإذن اللَّه إحدى الحسنيين المشار إليهما فى الآية (٥٢) من سورة التوبة صفحة ٢٤٩ .

وفى هذا الكلام حث للكفار على الخلاص من الهلاك. وقل لهم أيها النبى بعد ذلك: ربنا الذى ندعوكم للإيمان به هو الرحمن، آمنا به، فيجيرنا برحمته من عذابه. وكفرتم أنتم به فلن يجيركم. ولا نتوكل فى أعمالنا إلا عليه. بخلافكم فى اعتمادكم على أصنامكم.

وإذا كان الأمر كما ذكر فستعلمون قريبًا من هو فى ضلال ظاهر؟ هل هو نحن أم أنتم؟ وهذا إخراج للكلام مخرج الإنصاف ليستجلبهم إلى طرح العناد فيفكرون لعلهم يصلون إلى الحق. كما فى الآية (٢٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦ .

ثم انتقل من تنبيههم للأعلى إلى تنبيههم للأدنى كأنه يقول لهم: إن لم تخافوا اللّه للحياة الباقية فراقبوه للمحافظة على الحياة الدنيا. فقال: قل أرأيتم إن أصبح الماء الذى تظنونه فى أيديكم لتمكنكم منه غائرًا فى أعماق الأرض، وكان اعتمادهم على الآبار.

فمن غير اللّه يأتيكم به ثانيًا ظاهرا تراه أعينكم؟ قيل: إن رجلاً جبارًا لما سمع هذه الآية قال مستهزئًا:

(تأتى به المعاول والفئوس) فأذهب اللّه تعالى ماء عينيه. فندم ولم ينفعه الندم. نسأل اللّه السلامة وحسن التسليم.

سورة القلم

المفردات: ﴿ن﴾: تقدم مثل هذا الحرف والمراد من هذه الحروف أول سورة البقرة. وتنطق نُونْ بضم النون الأولى وسكون الأخيرة.

﴿والقلم﴾: أى وحق القلم. انظر سبب الحلف بمثله فى شرح الآية الأولى من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ ، وحكمة ذلك فى شرح الآية الأولى من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، وحكمة ذلك فى شرح الآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١ .

﴿ما أنت بنعمة ربك﴾: حرفا الجر هنا متعلقان بالنفى المفهوم من حرف ﴿ما﴾ فى ﴿ما أنت﴾ والمراد: انتفى عنك الجنون بسبب نعمة ربك، كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٨ .

المعنى: نون. وحق القلم وما يسطره به العالمون والمتعلمون إنك أيها النبى لبرىء من الجنون الذى زعموه بسبب نعمة ربك عليك بالحفظ من كل ما يسوءك.

بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ(١)
الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾
وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ
مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ
ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا(٢) قَالَ أَسَاطِيرُ(٣)
الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ(٤) كَمَا
بَلَوْنَا أَصْحَابَ(٥) الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا

المفردات: ﴿بمجنون﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها كما فى الآية (٢٩) من سورة الطور، وهذا رد على قولهم عنه ذلك فى الآيات (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨ و(١٤) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧ و(٥١) الآتية من هذه السورة صفحة ٧٦١ .

﴿غير ممنون﴾: أى غير مقطوع لأنك مؤمن عملت الصالحات انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ .

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾: قالت عائشة: كان خلقه القرآن، أى ما فيه من مكارم الأخلاق، ثم قرأت قوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون)... إلى آخر الآية (٩) من سورة المؤمنون.

﴿فستبصر ويبصرون﴾... إلخ: المراد: فمن قريب ترى أيها النبى وتعلم ويرى ويعلم المفترون عليك بأى فريق منكم المفتون. وقد جاء فى لسان العرب: المفتون هو مَنْ أصابته فتنة أذهبت عقله، ثم استعمل وأريد به المصدر أى الفتنة بمعنى الجنون: كما يقول العرب فلان لا معقول له أى لا تعقل؛ ولا مجلود له أى لا جلد ولا صبر. ولا ميسور له أى لا يسر عنده؛ ولا معسور له أى لا عسر عنده؛ ويقولون بذلت مجهودًا كبيرًا أى جهدًا: فالمراد هنا بأيكم الجنون؟

﴿ودوا﴾: أى تمنوا وأحبوا.

﴿لو﴾: حرف يجعل الفعل بعده فى حكم المصدر

(١) بأيكم. (٢) آياتنا. (٣) أساطير.
(٤) بلوناهم. (٥) أصحاب.

﴿تدهن﴾: أى تداهن وتلاين وتدارى ولا تكون جادًا، انظر المعنى فى الآية (٨١) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧، وانظر أيضًا شيئًا مما حاولوه فى الآية (٧٣) من سورة الإسراء صفحة (٣٧٤).

﴿حلاف﴾: كثير الحلف فى الحق والباطل. وهو الوليد بن المغيرة. انظر قوله تعالى فى سورة المدثر. ﴿ذرنى ومَنْ خلقت وحيدًا... الآيات﴾.

﴿مهين﴾: المراد حقير الرأى.

﴿هماز﴾: أى كثير العيب للناس.

﴿مشاء بنميم﴾: المراد: نقال للحديث على وجه الإفساد.

﴿مناع للخير﴾: مغرم بمنع نفسه عن عمل الخير؛ وإغراء غيره على منع الخير كذلك: فهو من قبيل ما فى الآية (٣٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣.

﴿معتد﴾: أى شديد التعدى والظلم.

﴿أثيم﴾: أى كثير الآثام أى الذنوب.

﴿عتل﴾: جاف غليظ الطبع.

﴿زنيم﴾: فى لسان العرب: الزنيم هو الذى له فى رقبته زنمة تحت ذقنه، والزنمة بفتحات هى الجلد المتدلى من رقبة الماعز، والمراد هنا: أنه مميز بعلامات من الشر لم تجتمع فى غيره، ولذا قال ابن عباس: الزنيم هو الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بالزنمة، وقال ابن كثير: الزنيم هو الذى يشتهر بين الناس بالشر، وغالبا يكون هذا الوصف فى الأدعياء.

﴿أن كان﴾: ﴿أن﴾ تجعل ما بعدها فى قوة مصدر، والأصل لكونه ذا مال يكذب آياتنا... الخ.

﴿ذا مال﴾: أى صاحب مال... إلخ. وسيأتى بيانه فى الآية (١٢) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧٦.

﴿أساطير الأولين﴾: أى أكاذيب الأولين، تقدم فى الآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١.

﴿سنسمه على الخرطوم﴾: أى نجعل له.

﴿سمة﴾: بكسر ففتح - على أنفه، أى علامة تميزه والتعبير عن أنفه بالخرطوم للاستهزاء، فالخرطوم اشتهر بأنف الفيل، وهو الجزء الطويل فى مقدم رأسه يستعمله كما يستعمل الإنسان يده والكلام كناية عن إذلاله غاية الإذلال، كما تقول العرب أرغم الله أنفه، أى أذله؛ وفى لسان العرب: الوسم أثر الكى بالنار، وفى الحديث أنه ﷺ كان يسم إبل الصدقة ﴿الزكاة﴾ أى يُعلم عليها بالكى.

﴿بلوناهم﴾: أى اختبرنا أهل مكة بالجوع والقحط، كما تقدم فى شرح الآية (١٠) وما بعدها من سورة الدخان صفحة ٦٥٧.

﴿أصحاب الجنة﴾: هذه الجنة كانت بستانا لرجل صالح من أهل اليمن، وكان يؤدى حق الفقراء فيها. فلما مات قال أولاده: إن فعلنا مثل فعل أبينا افتقرنا، ونحن أصحاب عيال. فصمموا على قطع ثمرها قبل طلوع الصبح خوف حضور المساكين، فأحرقها الله فى أول ليلة عزموا على قطعها فيها.

﴿ليصرمنها مصبحين﴾: أى ليقطعن ثمار شجرها وهم داخلون فى وقت الصباح المبكر.

﴿ولا يستثنون﴾: أى ولا ينون استثناء حق المساكين أى إخراجه مما سيأخذونه، كما فى نظيره فى الآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦.

﴿فطاف عليها﴾: المراد: أحاط بها نازلاً عليها.

﴿طائف﴾: المراد: بلاء محيط بها فأهلكها.

﴿الصريم﴾: أصله المنقطع عن غيره، وأطلقه العرب على الليل لانقطاعه عن النهار، والمراد: فأصبحت محترقة سوداء كالليل.

المعنى: انتفى عنك أيها النبى الجنون بفضل ربك عليك بالعقل والنبوة. وإن لك فى الآخرة لأجرا غير مقطوع. وإنك لسائر على خلق عظيم. وعما قريب تعلم ويعلم كفار مكة بأن فريق منكم المجنون. هل هو أنت أم هم؟ وسيظهر أن الذى يخاف الله فيحفظه هو العاقل. وغيره الذى عرض نفسه للهلاك هو المجنون: وأن ربك هو أعلم بمَنْ ضل عن سبيله فكان مجنونًا.

وهو أعلم بالمهتدين العقلاء. وكان زعماء كفار قريش طلبوا منه ﷺ أن يتساهل فى تقبيح الشرك وهم يمتنعون عن الطعن فيه. ولما كان هذا مكرا منهم قصد به غلق باب تسفيه عقول مَنْ يشرك فيبقى المشرك على شركه. قال سبحانه لرسوله ﷺ: (فلا تطع)... إلخ. أى وإذا كان الأمر كما علمت من أنهم فقدوا عقولهم فلا تطع كفار قومك المكذبين برسالتك لأنهم يحبون أن تلين فى محاربة الشرك، فهم أيضًا يسالمونك وهم الرابحون؛ لأن قوة البراهين تحطم كل يوم من حصون الشرك ما يزعجهم. وكان زعيمهم فى هذه المكيدة هو الوليد بن المغيرة وكان غنيًا بالمال والأولاد. فقال سبحانه: ولا تطع... إلخ. أى ولا تطع خصوصًا كل حلاف مهين إلى آخر تلك الصفات التسع التى ما اجتمعت فى شخص إلا كان أقبح الخلق، ولفظ ﴿كل﴾ يدل على إرادة عموم ما تجتمع فيه تلك الصفات لا شخص بعينه.. وإن كان جميعها واضحا فى ذلك الوقت فى الوليد بن المغيرة وقوله ﴿بعد ذلك﴾: أى بعد كل هذه النقائص فهو أيضًا اجتمعت فيه شرور أخرى لم تجتمع فى غيره. ولا نعلم أن الله عز وجل، وصم أحدًا بجميع هذه النقائص مثل ما فعل بهذا، حتى ألحق به عارًا لا يفارقه؛ فأصبح كالعلامة يعرفه بها كل ناظر إليه. ثم سفهه على غروره فقال: أن كان.. إلخ أى لكونه صاحب مال كثير وبنين كثيرين يتهم القرآن حين يتلى عليه بأنه أكاذيب منقولة عن الأمم السابقة.

ثم هدده بالخزى فى الآخرة أيضًا فقال: سنسمه.. إلخ. أى سنطبع على وجهه يوم القيامة من علامات أصحاب الجحيم المستتبعة للمقت والذل ما يجعل الفضيحة، تلاحقه فى آخرته كما لاحقته فى دنياه. انظر الآية (١٠٦) من سورة آل عمران صفحة ٨٠ والآيتين (٤٠، ٤١) من سورة عبس صفحة ٧٩٢ . كما سيأتى فى الآيات (١١) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧٦.

ثم انتقل سبحانه لبيان ما حصل لكفار مكة فقال: (إنا بلوناهم)... إلخ. أى ابتليناهم بالقحط والجوع كما ابتلينا أصحاب البستان حين أقسموا ليقطعن ثماره قبل الصبح قبل تيقظ الفقراء، ولم ينووا إخراج حق المساكين. فأهلكه سبحانه ليلاً فأصبح أسود كسواد الليل. لا ثمر فيه ولا زرع. ثم بيّن سبحانه ما شرعوا فيه وهم لا يشعرون بما حصل. فقال: (فتنادوا)... إلخ.

مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَـٰرِمِينَ[1] (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ[2] (٢٣) أَن
لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ
قَـٰدِرِينَ[3] (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ[4] رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ[5] (٢٩)
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ[6] (٣٠) قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ[7]
إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ[8] (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ[9] (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ[10]
أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ
جَنَّـٰتِ[11] ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥)
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ[12] فِيهِ

المفردات: ﴿مصبحين﴾: أى داخلين فى وقت الصباح. ﴿أن اغدوا﴾: ﴿أن﴾ حرف يدل على أن ما بعده بيان للتنادى السابق كأنه قال: كان تناديهم هو قولهم: اغدوا أى اذهبوا وقت الغدوة. بضم الغين. وهو الصباح الباكر.

﴿حرثكم﴾: المراد به ما تنتجه الأرض من ثمار الأشجار والزرع. ﴿صارمين﴾: المراد مريدين قطع ثمار الجنة.

﴿يتخافتون﴾: المراد: يتحدثون بصوت منخفض لئلا يسمعهم المساكين. ﴿أن لايدخلنها﴾: ﴿أن﴾ مفسرة لما به التخافت.

﴿على حرد﴾: أى منع، يقال حرده يحرده بوزن ضربه يضربه أى يمنعه. والمراد منع المساكين من حقوقهم وهو متعلق ب ﴿قادرين﴾ بعده، وقدم لإفادة الحصر مبالغة فى النفى كأنه يقول قادرين على المنع لا غير، كما يقال (فلان لا يقدر إلا على الشر).

﴿لضالون﴾: المراد: لمخطئون طريق البستان. ﴿بل نحن﴾... إلخ: ﴿بل﴾ حرف يدل على الرجوع عما قبله، والاعتراف بما بعده.

﴿أوسطهم﴾: أى خيرهم عقلاً، ودينًا. انظر الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨.

﴿لولا﴾: أى هلا، انظر ما تقدم فى الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

﴿تسبحون﴾: المراد: تذكرون الله دائمًا بالتسبيح حتى لا تفعلوا ما يغضبه.

﴿كذلك العذاب﴾: هذا تحذير منه سبحانه لكل مَنْ تحدثه نفسه بعصيان ربه؛ أى كهذا العذاب الذى حل بأهل مكة. انظر الآية (١٧) الماضية من هذه السورة صفحة ٧٥٨.

(١) صارمين. (٢) يتخافتون. (٣) قادرين. (٤) سبحان.
(٥) ظالمين. (٦) يتلاومون. (٧) يا ويلنا. (٨) طاغين.
(٩) راغبون. (١٠) الآخرة. (١١) جنات. (١٢) كتاب.

﴿مالكم﴾: أى خبل حصل لكم. ﴿كيف تحكمون﴾. ﴿كيف﴾ اسم استفهام مراد به التعجب من هذا الحكم الأعوج. انظر الآية (٢١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣.

﴿أم لكم﴾: ﴿أم﴾ تقدم معناها فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩.

﴿كتاب﴾: أى منزل من الله كما تقدم فى الآية (٤٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩. والآية (٢١) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩.

المعنى: نادى بعضهم بعضًا فى الصباح الباكر قائلاً اذهبوا فى الغدرة مقبلين على ثمار بستانكم إن كنتم مريدين قطعها قبل يقظة المساكين. فانطلقوا وهم يتهامسون سرا بما يحقق عدم دخول المساكين عليهم وهم يجنون ثمارها. وساروا فى الغدوة بحالة لا يقدرون فيها إلا على الحرمان، مع قدرتهم على العطاء. فلما رأوا مكان جنتهم خرابًا ظنوا أنه ليس هو مكانها وقالوا إنا تائهون عنها. ولما تحققوا أنه مكانها قالوا: لم نخطئ بل نحن محرومون، أى حرمنا الله خيرها لظلمنا المساكين، عند ذلك قال خيرهم عقلاً ودينًا: هل لم أعظكم وأطلب منكم أن تذكروا الله دائمًا فلا تغضبوه. قالوا تنزه ربنا تنزيها قويًا عن ظلم عبد من عباده، بل نحن الذين كنا ظالمين، فجازانا بما نستحق. ثم التفت بعضهم لبعض يلوم كل صاحبه، فبعضهم يتبرأ والآخر يقول: لم يرشدنا أحد.. إلخ.

ثم قالوا: يا هلاكنا ومصيبتنا إنا كنا متجاوزين حدود الله. ونرجوا ربنا أن يبدلنا خيرًا منها، إنا راجعون إلى ربنا بالتوبة، راغبون فى فضله. ثم حذر سبحانه كل مَنْ تحدثه نفسه بالعصيان بقوله: كذلك... إلخ. أى كهذا العذاب الذى حلّ بأهل مكة وأصحاب الجنة يعذب الله عليه كل عاص. وعزتى لعذاب الآخرة أشد من هذا، لو كانوا يعلمون ذلك لما أقدموا على أسبابه. وبعد بيان حال مَنْ عصى ربه ذكر سبحانه حال المتقين ليتبين الفرق فقال: إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم. ثم وبخ صناديد كفار مكة الذين كانوا يزعمون أن الخير هو ما هم عليه انظر الآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧ فقال: (أفنجعل)... إلخ. أى هل نترك العدل فنسوى بين مَنْ أسلم وجهه لله وبين هؤلاء المجرمين؟.

المراد: لا يمكن فى حكم الله هذا. ثم لفت النظر إلى التعجب من زعمهم فقال: ما لكم.. إلخ. أى هل حصل لكم خبل حتى تحكموا بما تقولونه. ثم انتقل إلى توبيخهم بشىء آخر فقال: (أم لكم كتاب)... إلخ.

تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ[1]
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ[3] إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾
سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا
بِشُرَكَآئِهِمْ[4] إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ[5] ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن
سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً[6]
أَبْصَٰرُهُمْ[7] تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ
وَهُمْ سَٰلِمُونَ[8] ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ
إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ[9] أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ
مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾
فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ
نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَٰرَكَهُ[10] نِعْمَةٌ مِّن

المفردات: ﴿تدرسون﴾: تقدم فى الآية (٤٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩.

﴿لما تخيرون﴾: اللام لتأكيد ثبوت حقهم فيما يختارونه؛ و﴿ما﴾ بمعنى الذى؛ ﴿تخيرون﴾ أى تختارون.

﴿أيمان﴾: المراد عهود. انظر الآية (٨٠) من سورة البقرة صفحتى ١٥، ١٦ والآية (٧٨) من سورة مريم صفحة ٤٠٤.

﴿بالغة﴾: أى متناهية فى التأكيد وبالغة غايته من قبيل ما فى الآية (١٠٩) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠.

﴿زعيم﴾: أى كفيل وضامن. انظر الآية (٧٢) من سورة يوسف صفحة ٣١٤.

﴿يوم يكشف عن ساق﴾: العرب تقول ذلك كناية عن يوم الشدة، فالمعنى يوم شدة الهول، وهو يوم القيامة.

﴿خاشعة أبصارهم﴾: أى منكسرة ذليلة، كما تقدم فى الآية (٤٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٥ والآية (٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٥.

(١) أيمان.
(٢) بالغة.
(٣) القيامة.
(٤) بشركائهم.
(٥) صادقين.
(٦) خاشعة.
(٧) أبصارهم.
(٨) سالمون.
(٩) تسالهم.
(١٠) تداركه.

﴿ترهقهم ذلة﴾: أى تغشاهم، كما تقدم فى الآية (٢٧) من سورة يونس صفحة ٢٧٠ .

﴿فذرنى ومَنْ يكذب﴾: المراد أرح نفسك أيها النبى واترك لى أمر عقاب المكذبين، فهو تسلية له ﷺ وتهديد لهم.

﴿الحديث﴾: هو القرآن الكريم كما تقدم فى الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ والآية (٨١) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ .

﴿سنستدرجهم. وأملى لهم﴾: تقدما فى آيتى (١٨٢، ١٨٣) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

﴿من حيث لا يعلمون﴾: أى من جهة يخفى عليهم أنها استدراج. انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢ والآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩ وآيتى (٥٥، ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠، ٤٥١ .

﴿أم تسألهم أجرا﴾... إلخ: تقدم فى الآية (٤٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٩ .

﴿أم عندهم الغيب﴾: تقدم فى الآية (٧٨) من سورة مريم صفحة ٤٠٤ .

﴿يكتبون﴾: المراد: ينقلون من صحف عندهم هذا الذى يقولونه من الباطل.

﴿صاحب الحوت﴾: هو يونس عليه السلام المتقدمة قصته فى الآية (٨٧) وما بعدها صفحة ٤٢٩ وما بعدها والآية (١٣٩) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ .

﴿نادى﴾: أى بقوله: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾: انظر الآية (٨٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩ .

﴿مكظوم﴾: المراد: أحاط به الغضب، والغم، من كل جهة حتى صار كأنه محبوس فيهما.

المعنى: هل جاءكم كتاب من الله تقرءون فيه أن لكم ما تختارونه وتشتهونه فى الدنيا والآخرة، فلذلك تجرأتم على تكذيب رسولنا؟ المراد لا شىء من ذلك. أم لكم عهود أخذتموها علينا مؤكدة بأقوى أنواع التأكيد بأن يكون لكم إلى يوم القيامة كل ما تحكمون به لصالحكم. فلا ينالكم شر أبدا. سلهم أيها النبى مبكتًا: أى واحد منهم ضمن لهم ذلك؟

ثم انتقل إلى توبيخ آخر. فقال: (أم لهم)... إلخ. أى بل هل لهم شركاء عقلاء يوافقونهم فيما يقولون وعندهم من الأدلة ما يساعدونهم بها؟

فليأتوا بهؤلاء الشركاء إن كانوا صادقين. الحق أنه ليس عندهم جميعًا إلا تقليدَ الآباء بدون تعقل.

وبعدما أبطل سبحانه جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى إثبات زعمهم من دليل عقلى مشار إليه فى الآية (٣٥) من هذه السورة ونقلى مشار إليه فى الآية (٣٧) بعدها أو وعد منه سبحانه كما فى الآية (٣٩) أو متبوعون لهم يمكن الاعتماد عليهم كما فى الآية (٤١) هنا. وبعد إبطال كل هذا هددهم سبحانه بقوله: (يوم يكشف)... إلخ. أى اذكر لهم أيها النبى ما سيحصل يوم يشتد الهول ويطلب منهم السجود لله توبيخًا على تركهم ذلك فى الدنيا. وتحسيرا لهم على تفريطهم فيه. فإذا أرادوا ذلك لا يستطيعون.

قال عبدالله بن مسعود: تصير ظهورهم عظمة واحدة بلا مفاصل للنكاية بهم، لا يقدرون حال كونهم خاشعة أبصارهم تغشاهم ذلة وانكسار ندمًا على ما فاتهم وقت التمكن. حين كانوا يدعون إلى السجود فى الدنيا وهم سالمون أى متمكنون منه.

وإذا كان هذا حالهم فأرح نفسك أيها النبى منهم واترك لى هؤلاء المكذبين بهذا القرآن، سنأخذهم شيئًا فشيئًا إلى هلاكهم من حيث لا يعلمون أنهم صائرون إلى الهلاك.

قال سفيان: (نغدق عليهم النعيم وننسيهم الشكر).

وسأطيل لهم مدة النعيم للكيد بهم. إن كيدى قوى شديد. ثم رجع إلى توبيخهم ثانيًا فقال: أم تسألهم.. إلخ. أى بل هل طلبت منهم أيها النبى أجرًا على تبليغ الرسالة فهم من شدة الغرامة متألمون من تحمل ما يثقلهم؟

أم عندهم علم الغيب فهم يسجلون منه ما يحكمون به من زعم باطل، فيستغنون به عن علمك. ثم أمر سبحانه رسوله بالصبر لحكم ربه بإمهالهم.

ولا يكون كيونس عليه السلام فى سرعة الغضب والضجر حين نادى ربه وهو مكروب فى بطن الحوت، لولا أن تداركته نعمة ربه.

﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ[1] رَبُّهُ
فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ[2] (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ[3] لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ
لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ[4] (٥٢)﴾

(٦٩) سورة الحاقة مكية
وآياتها اثنتان وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ[5] مَا الْحَاقَّةُ (٣)
كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)
سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ[6] أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ﴾

المفردات: ﴿لنبذ﴾: أى لطرح. ﴿العراء﴾: الأرض الخالية من الزرع والشجر. ﴿مذموم﴾: أى متصف بما يذم عليه. ﴿فاجتباه ربه﴾: أى اختاره لإتمام رسالته. ﴿وإن يكاد الذين كفروا﴾: أى إنهم يقربون ... إلخ.

﴿ليزلقونك﴾: اللام لتأكيد قربهم من إيذائه ﷺ و﴿يزلقونك﴾: أى يزيلونك عن مكانك من الأرض فتصرع والعرب تجعل ذلك كناية عن شدة الغيظ فيقولون: نظر فلان إلى فلان حتى كاد يصرعه أو كاد يأكله. كأن العداوة لشدتها قوة صادرة من العين تصرع أو تأكل. ﴿الذكر﴾: هو القرآن.

﴿إلا ذكر﴾: أى تذكير بكل ما ينفع.

المعنى: لولا أنه أدرك يونس فضل من ربه لطرحه الحوت من بطنه بالخلاء متلبسًا بذنبه الذى لامه الله تعالى عليه أى فيهلك. لكنه لما كان من المسبحين حفظه الله واختاره لإتمام رسالته كما فى الآية (١٤٧) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ . وبذلك جعله من الصالحين الكاملين فى الصلاح وهم الرسل، انظر شرح الآية (٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢١ . ثم بيَّن سبحانه شدة غيظ الكافرين منه ﷺ بأروع عبارة فقال: (وإن يكاد الذين كفروا)... إلخ. أى إن هؤلاء الكفار لشدة عداوتهم وكراهتهم لك أيها النبى ينظرون إليك بحقد، وأؤكد لك أن غيظهم منك ملأ قلوبهم حتى جعلهم لو استطاعوا الفتك بك لفعلوا، يقع منهم ذلك حين يسمعون منك القرآن. ويعجزون عن محاربته. ويقولون مؤكدين ما يقولون تضليلا للناس وتنفيرا لهم: والله إن محمدا لمجنون لأنه يأتى بكلام يتضمن هدم ما وجدنا عليه آباءنا. والحق أن هذا القرآن ليس إلا تذكيرا ووعظًا للعالمين. فكيف يكون مَنْ يتلوه مجنونا؟

(١) فاجتباه. (٢) الصالحين. (٣) بأبصارهم.
(٤) للعالمين. (٥) أدراك. (٦) ثمانية.

سورة الحاقة

المفردات: ﴿الحاقة﴾: مأخوذة من حق الشىء إذا ثبت ووجب. وهى اسم من أسماء القيامة، لأنها واجب حصولها ومن أسمائها أيضًا الواقعة صفحة ٧١٣ . والطامة فى الآية (٣٤) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠ .

والصاخة فى الآية (٣٣) من سورة عبس صفحة ٧٩٣ . والغاشية فى الآية الأولى من سورة الغاشية صفحة ٨٠٤ . والقارعة فى الآية الأولى من سورة القارعة صفحة ٨١٩ .

﴿ما الحاقة﴾: المراد: أى شىء هى الحاقة، وهذا أسلوب يقصد به العرب تهويل أمر الشىء المتحدث عنه كأنه بعيد عن متناول العقول. ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾: المراد: لا سبيل لك إلى معرفة وقتها.

﴿ثمود﴾: هم قوم نبى الله صالح عليه السلام. ﴿عاد﴾: هم قوم نبى الله هود عليه السلام.

﴿القارعة﴾: اسم للساعة كما سيأتى فى سورة القارعة صفحة ٨١٩ .

﴿بالطاغية﴾: المراد: الحادثة التى جاوزت الحد فى الشدة، والمراد بها ﴿الصاعقة﴾ المذكورة فى الآية (١٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ .

﴿صرصر﴾: أى شديدة الصوت مزعجة. ﴿عاتية﴾: بالغة منتهى الشدة فى التدمير.

﴿حسوما﴾: جمع حاسم أى قاطع، بوزن شهود وشاهد، ومنه حسم الكى للداء أى قطعه، والمراد: قاطعات لدابرهم، وهو صفة لسبع ليال وثمانية أيام.

المعنى: الساعة الواجبة الوقوع، ما هى هذه الساعة؟ إن من حقها أن يسأل عنها لشدة هولها. وأى شىء أعلمك أيها المخاطب بها؟

المراد: لا يمكن أن يكون ذلك. ثم ذكر بعض الأمم التى كذبت بها، وما حصل لهم ليتنبه كفار مكة . فقال: كذبت ثمود وعاد بالقارعة أى بالقيامة التى تقرع القلوب بالفزع والهول، والسماء بالتشقق، والأرض والجبال بالنسف، ثم فصَّل ما نزل بكل أمة فقال: (فأما ثمود)... إلخ. أى فأما ثمود فأهلكهم الله بصيحة فاقت الحد فى الشدة. وأما عاد فأهلكهم الله بريح مزعجة شديدة التدمير، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام قاطعات لدابرهم، حتى كأن صورتهم العجيبة حاضرة الآن يراها الناظر.

فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم
مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ[1]
بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً
رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ[2] فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ[3] ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ
فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ[4] ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾
وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ
أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ[5] ﴿١٧﴾
يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ[6] بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا[7] كِتَابِيَهْ[8] ﴿١٩﴾ إِنِّي
ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ[9] حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾

المفردات: ﴿صرعى﴾: جمع صريع أى هالك. فهم هلكى بفتح فسكون.

﴿أعجاز نخل﴾: تقدم فى الآية (٢٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٦.

﴿خاوية﴾: خالية، تناثر كل ما فى جوفها.

﴿فهل ترى لهم﴾ ... إلخ: استفهام إنكارى يفيد النفى؛ و﴿من باقية﴾: ﴿من﴾ للنص على عموم نفى ما بعدها، أى فلا ترى منهم نفسا باقية. بل هلكوا جميعًا.

﴿ومَنْ قبله﴾ .. إلخ: أى من الأمم الماضية التى كذبت رسلها كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم وخاصة المؤتفكات، وهى جمع مؤتفكة أى منقلبة، وهى قرى قوم لوط التى خسف الله بها وبهم الأرض، انظر الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣.

﴿بالخاطئة﴾: أى بالفعلة الشديدة الخطأ.

﴿رابية﴾: مأخوذة من ربا الشىء، أى زاد. والمراد: زائدة فى الشدة.

﴿طغى الماء﴾: المراد: جاوز حده المعتاد.

﴿حملناكم﴾: المراد: حملنا آباءكم الذين أنتم من نسلهم.

﴿فى الجارية﴾: المراد: سفينة نوح عليه السلام.

﴿تذكرة﴾: أى عبرة.

(١) المؤتفكات. (٢) حملناكم.
(٣) واعية. (٤) واحدة.
(٥) ثمانية. (٦) كتابه.
(٧) اقرءوا. (٨) كتابيه.
(٩) ملاق.

﴿تعيها﴾: أى تحفظها باهتمام، ولا تكون مثل ما فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، والعرب تنسب ذلك للأذن وتريد صاحبها.

﴿واعية﴾: المراد: حسنة الاستعداد للحفظ. ووراءها عقل يفكر، فلا تسمع خطأ. انظر الآية (٢٧) من سورة ق صفحة ٦٩١: قال الزجاج: الأصل أن يقال ﴿وعى﴾ لما يحفظ فى النفس، كما هنا، وكما فى وعيت العلم فى صدرى. و﴿أوعى﴾ لما يحفظ فى وعاء، فيقال أوعيت المتاع فى صندوق، كما فى الآية (١٨) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، وقد يستعمل كل مكان الآخر، انظر الآية (٢٣) من سورة الانشقاق صفحة ٨٠٠.

﴿فإذا نفخ فى الصور﴾: تقدم فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥، وجواب (إذا) قوله الآتى ﴿فيومئذ﴾.

﴿حملت الأرض والجبال﴾: أى رفعت من أماكنها من شدة الزلزلة المذكورة فى الآية الأولى من سورة الحج صفحتى ٤٣٢، ٤٣٣.

﴿فدكتا﴾ ... إلخ: أصل الدك الهدم والتحطيم لجسم كبير مثل الحائط والجبل.

﴿وقعت الواقعة﴾: تقدم فى الآية الأولى من سورة الواقعة صفحة ٧١٣.

﴿انشقت السماء﴾: أى تفرق بعض أجزائها عن بعض، انظر الآية (٢٥) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣ والآية الأولى من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥.

﴿واهية﴾: أى ضعيفة متداعية سهلة السقوط. ﴿والملك﴾: المراد جنس الملك فيشمل جماعة منهم. ﴿أرجائها﴾: الضمير يعود على السماء بمعنى آخر كما قيل فى شرح ﴿رحمتى﴾ الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، والمراد السماء الجديدة بدل الذاهبة، انظر الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧. ومفرد أرجاء ﴿رجى﴾ بوزن ﴿فتى﴾ منونًا ومعناه جانب.

﴿ثمانية﴾: أى من الملائكة، ومن الأدب مع علام الغيوب البعد عن الخوض فى أوصافهم وسبب عددهم.

﴿هاؤم﴾: ﴿هاء﴾ اسم فعل بمعنى ﴿خذ﴾. والميم تدل على أن المخاطب جمع أى ﴿خذوا﴾: ومفعوله محذوف دل عليه ما بعده وهو الكتاب المذكور بعده، والمخاطبون مراد بهم مَنْ يسره اجتماعه بهم فى الجنة، وهم المذكورون فى الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥

﴿كتابيه﴾: الهاء هنا وفى ﴿حسابيه﴾ و ﴿ماليه﴾ و﴿سلطانيه﴾. تسمى ﴿هاء السكت﴾ وهى حرف يلحقه العرب بالكلمة إذا أرادوا السكوت عليها. ثم توسعوا وأثبتوها حتى مع الوصل. ﴿ظننت﴾: المراد: تيقنت كما فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠ .

﴿عيشة﴾: هى حالة الإنسان التى يعيش عليها. انظر تفصيل ذلك فى الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٢٣٩ . ﴿راضية﴾: المراد: راض بها صاحبها رضا كثيرا حتى كأنها هى الراضية.

المعنى. أرسل سبحانه الريح على عاد فأهلكتهم. فترى القوم. لو كنت حاضرًا فى تلك الليالى والأيام - مطروحين على الأرض قتلى، كأنهم لضخامة أجسامهم قوائم نخل جوفاء. فلا ترى منهم نفسًا باقيًا. وجاء بعدهم فرعون ومَنْ تقدمه من الأمم الكافرة. وخصوصًا أهل قرى قوم لوط التى قلبها الله تعالى عليهم. جاء كل هؤلاء بالفعلة الشنيعة الخطأ. ثم فسر بعضها فقال: فعصوا أى عصيت كل أمة رسول ربها فعاقبهم سبحانه عقابا شديدًا، انظر الآية (١٠٢) من سورة هود صفحة ٢٩٩ . ثم ذكر سبحانه أنه نجى مَنْ آمن به وأغرق مَنْ كفر فقال: إنا لما طغى الماء... إلخ. أى إنا لما تجاوز الماء الحد المألوف كما فى آيتى (١١، ١٢) من سورة القمر صفحة ٧٠٥، حملنا آباءكم المؤمنين مع نوح فى السفينة التى صارت تجرى بهم فى موج كالجبال، كما فى الآية (٤٢) من سورة هود صفحة ٢٩٠ نجينا كل مَنْ فيها لنجعل هذه الحادثة عبرة تدل على كمال قدرتنا. ولتحفظها الآذان ذات القلوب المتيقظة فينتفع بها أصحابها فلا يغضبون ربهم. وبعدما بين سبحانه هول القيامة شرع فى بيان كيفية وقوعها فقال: (فإذا نفخ)... إلخ. أى إذا نفخ إسرافيل فى الصور نفخة واحدة لا نحتاج إلى تكرار. ورفعت الأرض والجبال عن مكانها. وحطمتا تحطيمة واحدة كذلك. فيوم يحصل هذا تقوم القيامة. وتنشق السماء وتتداعى للسقوط، وتذهب وتبدل بسماء غيرها، ويقف الملائكة على جوانبها ينتظرون أوامر ربهم. ويحمل عرش ربك فوق هؤلاء الملائكة ثمانية ملائكة آخرون. يوم يحصل كل هذا الموقف الرهيب تعرضون أيها الخلائق على الله للحساب. لا تخفى عليه من سرائركم خافية. ثم فصل سبحانه أحوال الخلق عند العرض فقال: فأما مَنْ أوتى كتابه بيمينه فيقول أى لمَنْ يسره اجتماعه بهم ويسرهم سروره من الآباء والأزواج والأبناء: خذوا كتابى اقرءوه ليسركم سرورى. ثم يذكر سبب هذه السعادة فيقول: إنى كنت فى الدنيا متيقنًا أنى سألاقى هذا الحساب. والمراد: كنت مؤمنًا باليوم الآخر. وفيه تعريض بالكفار الذين ينكرونه. ثم يكون مآله بعد ذلك أن يكون فى عيشة اشتد رضاه عنها حتى كأنها هى الراضية.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥)
وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧)
مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)
خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)
فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) فَلَا أُقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١)

المفردات: ﴿عالية﴾: أى مرتفعة منزلتها وقصورها وأشجارها.

﴿قطوفها﴾: جمع قطف بكسر فسكون بمعنى المقطوف كالذبح بمعنى المذبوح فى الآية (١٠٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٣؛ والقطف هو ما يجنى بسرعة وسهولة.

﴿دانية﴾: أى قريبة التناول.

﴿أسلفتم﴾: أى قدمتم من الصالحات.

﴿فى الأيام الخالية﴾: أى الماضية وهى أيام الدنيا دار التكليف.

﴿يا ليتها﴾: أى الموتة التى متها فى الدنيا وهى مفهومة من سياق الكلام، كما فى قوله تعالى: ﴿ما ترك على ظهرها﴾ الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ .

﴿القاضية﴾: أى القاطعة لأمرى فلا أبعث ثانية، بل أكون ترابًا، انظر الآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨ .

﴿ماليه﴾: أى ما كان لى فى الدنيا من مال وغيره.

﴿هلك﴾: أى فقد، وذهب.

﴿سلطانيه﴾: السلطان هنا معناه الحجة، كما فى الآية (٦٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٧ والمراد: ظهر بطلان ما كنت أحتج به فى الدنيا من حجج واهية، كاتباع الآباء مثلاً.

---

(١) كتابه. (٢) يا ليتنى.
(٣) كتابيه. (٤) يا ليتها.
(٥) سلطانيه. (٦) ها هنا.
(٧) الخاطئون.

﴿فغلوه﴾: أى ضعوا فى عنقه الأغلال، انظر الغل فى شرح الآية (٤) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ .

﴿الجحيم﴾: هى النار شديدة التأجج.

﴿صلوه﴾: أى أدخلوه فيها، انظر الآية (٣) من سورة المسد صفحة ٨٢٦ .

﴿ذرعها﴾: أصل معنى الذرع قياس الشىء بالذراع، وأريد به هنا قياسها، ومقدار طولها.

﴿فاسلكوه﴾: أى أدخلوه فيها، انظر الآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ .

﴿لا يحض﴾: أى لا يأمر غيره.

﴿طعام﴾: المراد: إطعام . فهو مصدر كالعطاء بمعنى الإعطاء.

﴿حميم﴾: أى محب قوى المحبة يحميه، انظر شرح الآية (١٠١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ .

﴿غسلين﴾: أصله ما يسيل من الجراح إذا غسلت، والمراد: الصديد والدم الذى يسيل من أجساد أهل النار.

﴿فلا أقسم﴾: تقدم المراد من ذلك فى الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ .

﴿بما تبصرون﴾ ... إلخ: المراد: بجميع ما تشاهدونه، وما غاب عنكم، ومما غاب: (الملائكة، وأحوال الآخرة، بل وبعض المخلوقات الدقيقة التى لم يمكن رؤيتها للآن). انظر الآية (٣) من سورة البقرة صفحة ٣ . ولا تنس ما سبق فى شرح سورة الصافات صفحة ٥٨٧ .

﴿إنه﴾: أى القرآن. ﴿لقول رسول﴾: المراد قول رسول الله مبلغًا عن ربه بدليل الآية (٤٣) الآتية ويصح أن يراد به جبريل. انظر الآية (١٩) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤ .

﴿بقول﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها.

﴿شاعر﴾: أى كما تفترون.

﴿قليلاً ما﴾ .. إلخ تقدم شرح هذا التركيب تفصيلاً فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧ . وانظر الآية (٥٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ .

المعنى: إن فريق أهل اليمين يكون فى الآخرة فى جنة عالية ثمارها قريبة من كل راغب. تقول لهم الملائكة إدخالاً للسرور عليهم كلوا واشربوا أكلا وشربا هنيئًا. جزاء ما قدمتم فى الدنيا من الأعمال الصالحة. وأما مَنْ أعطى كتابه بشماله فيقول متحسرًا عندما يرى قبح عمله: يا أيها الناس ليتنى لم أعط كتابى حتى لا أعرف ما فيه. ولا ما هو حسابى. لم ينفعنى ما كان لى فى الدنيا أقل نفع، غاب عنى ما كنت أظنه حججًا تنفعنى. عند ذلك ينادى سبحانه وتعالى الملائكة بقوله: خذوه فضعوا الغل فى عنقه. ثم أدخلوه الجحيم؛ ثم كبلوه فى سلسلة طويلة تحوطه من جميع جهاته، لأنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يأمر غيره بإطعام المساكين وذلك لشدة بخله.

ولما سمع أبو الدرداء رضى الله عنه: ذلك علم أن منشأ هذا الشقاء شيئان هما أفظع الجرائم: الكفر بالله، والبخل المشعر بقسوة القلب على الفقير، فكان يقول لامرأته: أكثرى من المرق لأجل المساكين؛ لأن الله مَنَّ علينا بخلع نصف تلك السلسلة البشعة بالإيمان، فلا يصعب علينا خلع النصف الآخر بإطعام المساكين. عليك رضوان الله يا أبا الدرداء؛ نرجو من الله أن يوفقنا لما وفقك له.

فليس للكافر يوم القيامة فى جهنم صديق ينفعه. ولا طعام إلا من صديد، ودماء أهل النار، وما هنا وما فى الآية (٥٢) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥ من أن طعامهم الزقوم، وما فى الآية (٦) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥ من أنه الضريع.

كل هذا يشعر بأن أهل النار طبقات. لكل منهم طعام مخصوص كما أن لكل طبقة بابا مخصوصًا يدخلون منه إلى جهنم، انظر الآية (٤٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ لا يأكل هذا الطعام إلا مَنْ تعمد الخطايا واستمر عليها عنادًا.

ثم انتقل سبحانه إلى تعظيم أمر القرآن والرسول المنزل عليه فقال: فلا أقسم بما تشاهدونه ومالا تشاهدونه... إلخ. أى أن ما سأقوله فى غاية الوضوح، وهو أن هذا القرآن قاله لكم رسول كريم على ربه. مبلغا عنه. لا من عند نفسه. وليس هو قول شاعر كما تفترون، انظر الآية (٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠؛ لأن الشعر كله خيال لا حقيقة له، وأما ما يبلغه الرسول فحق كله. ولكنكم لشدة عنادكم قليلا ما تصدقون. فلا يرفع عنكم الخلود فى النار.

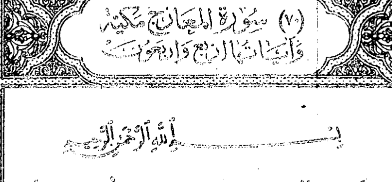
المفردات: ﴿يقول﴾: الباء كسابقتها.

﴿كاهن﴾: هو الذى يدعى علم الغيب، يستغل به البسطاء.

﴿قليلاً ما﴾: تقدم شرح هذا التركيب تفصيلاً فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧ . وانظر الآية (٥٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ .

﴿قليلاً ما تذكرون﴾: ﴿تذكرون﴾ أصلها تتذكرون أى تتفكرون وتتأملون: والمراد تتذكرون تذكرًا قليلاً جدا. لا ينفع، كما تقدم فى الآية (٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٢.

وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ

﴿تقول علينا﴾: التقول تكلف القول والمراد: افترى قولا من عند نفسه ونسبه إلينا.

﴿الأقاويل﴾: هى جمع (أقوال) التى هى جمع (قول). ولكنها اشتهرت فى الأقوال المكذوبة احتقارًا لها. كما يقولون أضاحيك وأعاجيب.

﴿لأخذنا منه باليمين﴾: أى لقبضنا على يمينه.

ثم بيَّن هذا البعض بأنه اليمين، والكلام كناية جرت على عادة العرب فى الأخذ بيمين مَنْ يريدون عقابه، كما يقول السلطان لمَنْ يريد إهانته: خذوا على يديه.

﴿الوتين﴾: هو عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

---

(١) العالمين.
(٢) حاجزين
(٣) الكافرين
(٤) للكافرين

﴿فما منكم﴾: ﴿ما﴾ بمعنى (ليس). ﴿من أحد﴾: ﴿من﴾ حرف أريد به النص على عموم ما بعده.

﴿أحد﴾: أريد به هنا الجمع، بدليل ﴿حاجزين﴾ الآتية فالمعنى: فليس جمع منكم يمنع عنه عقابنا. وانظر معنى ﴿أحد﴾ فى الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢.

﴿وإنه﴾: أى القرآن الذى يقولون عنه إنه شعر.

﴿لتذكرة﴾: أى تذكير وعظة.

﴿للمتقين﴾: لأنهم هم الذين ينتفعون به. انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩١.

﴿لحسرة﴾: المراد: أؤكد أنه سيكون سبب حسرة لهم يوم القيامة إذا رأوا ثواب المؤمنين.

﴿لحق اليقين﴾: أى لهو الحقيقة التى يجب أن تتيقن. انظر شرح الآية (٩٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٨ .

المعنى: وليس القرآن بقول كاهن قليلاً ما تتذكرون أيها الكفار وتتأملون فى أحوال الرسول الذى لم يعرف عنه إلا الصدق، وفى معانى القرآن التى تنافى الكهانة.

والحق أن هذا القرآن منزل من رب العالمين على أكرم المرسلين، ثم صور سبحانه أبشع صور العذاب لمن يكذب عليه أى فلا يعقل أن ينصر محمدًا ويؤيده إذا كذب عليه.

فقال: (ولو تقوَّل علينا)... إلخ أى لو نسب إلينا محمد بعضًا يسيرًا من الأكاذيب فضلاً عن هذا القرآن الكريم لأخذنا منه باليمين وأهلكناه. فصور الهلاك هنا بأفظع صورة يفعلها الملوك بمَنْ يغضبون عليهم، فإن المأمور بتنفيذ القتل يأخذ المغضوب عليه من يمينه ويضربه بالسيف فوق نحره وهو ينظر إليه، لو كذب علينا محمد وفعلنا به ذلك فليس جمع منكم يستطيع منع هذا العقاب عنه.

وإن هذا القرآن لمذكر وواعظ للمتقين. وإنا لنعلم أن بعضكم يا أهل مكة مكذبون، وبعضكم مؤمنون، وسنجازى كلا بما هو أهله، وإن هذا القرآن لهو سبب حسرة على الكافرين إذا رأوا فى الآخرة ثواب المتقين وعقاب الكافرين.

ولولا أن الرسول بلغهم القرآن لما حصل لهم كل هذا ، وإن هذا القرآن لهو الحق الذى يجب أن يتيقن. وإذا كان الأمر كما ذكر فسبح أيها النبى ربك بذكر اسمه العظيم منزها له عن الرضا بالكذب عليه.

سورة المعارج

المفردات: ﴿سأل سائل﴾: أى طلب، والمراد دعا مستعجلاً استهزاء.

﴿بعذاب﴾: هو المذكور فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ والآية (٩٢) من سورة الإسراء صفحة ٢٧٧ والآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩ .

﴿واقع﴾: أى لابد من وقوعه. ﴿للكافرين﴾: أى عليهم.

المعنى: كان بعض صناديد الكفر إذا هددهم النبى ﷺ بالعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة يطلبون وقوعه استهزاء. فنزل فيهم قوله سبحانه: (سأل سائل)... إلخ. أى طلب من الله طالب من صناديد الكفر بمكة أن ينزل عليهم العذاب الذى حذرهم ﷺ من وقوعه فى الدنيا أو الآخرة. وإنما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء به.

وقد تضمنت هذه السورة:

أولاً: الرد على مَنْ يستعجلون العذاب.

ثانيًا: تحذير الكفار بهول يوم القيامة وما يحدث فيه.

ثالثًا: بيان لاختلاف أحوال الإنسان فى حال الخير والشر.

رابعًا: ذكر صفات المؤمنين التى تؤهلهم للنعيم الدائم وهى ثمان صفات.

خامسًا: تيئيس مَنْ يبقى على الكفر من دخول الجنة.

سادسًا: بيان الحكمة فى تأخير العذاب عنهم ليزدادوا جرمًا فيزداد عذابهم.

دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[1]
وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾
فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ[2]
قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ
ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ[3] حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾
يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ
بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ[4] وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي
تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا
لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾
وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ[5] خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾
إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ[6] ﴿٢٣﴾

المفردات: ﴿ذى المعارج﴾: أى صاحبها وخالقها.

و﴿المعارج﴾: جمع مَعرج بفتح الميم والراء، بينهما عين ساكنة: والمعرج هو مكان العروج أى الصعود.

﴿تعرج﴾ أى تصعد.

﴿الروح﴾: هو جبريل عليه السلام، انظر الآية (١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١ . وخصه سبحانه وتعالى بالذكر لزيادة شرفه.

﴿إليه﴾: أى إلى عرشه وموطن تدبيره.

﴿فى يوم﴾: هو يوم القيامة.

﴿خمسين ألف سنة﴾: أى من سنى الدنيا لو صعد فيه غير الملائكة انظر ما قيل فى الآية (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠ ؛ ولهذا قالوا: إن المراد إفادة أنه لشدة هوله على الكافر يتوهم أنه بهذا المقدار، أما المؤمن فإنه يكون أقصر عليه من مقدار صلاة مفروضة كما ورد فى الحديث الصحيح.

﴿صبرا جميلاً﴾: هو الذى لا يخالطه ضجر ولا شكوى لمخلوق.

﴿يرونه بعيدًا﴾: أى يظنون العذاب بعيدًا عن الوقوع.

﴿ونراه قريبًا﴾: أى نعلم أن العذاب اللائق بكفرهم وهو عذاب الآخرة الذى يعد عذاب الدنيا بجانبه عدمًا قريب الوقوع؛ وانظر تهديدهم بعذاب الدنيا الذى حل بهم فى صفحتى ٢٧٣، ٢٧٤ .

﴿المهل﴾: المراد به هنا المعدن الأحمر المذاب، كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ .

(١) الملائكة. (٢) نراه. (٣) يسأل.
(٤) صاحبته. (٥) الإنسان. (٦) دائمون.

﴿المهل﴾: هو الصوف، كما سيأتى فى الآية (٥) من سورة القارعة صفحة ٨١٩، ولا تنس شرح الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ .

﴿حميم﴾: هو القريب والصديق، شديد المحبة المشفق على مَنْ يحبه، انظر شرح الآية (١٠١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ . ولمجيئه نكرة فى مقام النفى كان المراد به العموم؛ ولذا جمع ضميره بعد ﴿يبصرونهم﴾: الجملة حال من كل من ﴿حميم﴾ و ﴿حميمًا﴾؛ لأن قصد العموم فيهما صحح مجىء الحال منهما، والتبصير: التعريف. يقال بصره الشىء أى عرفه به.

والمراد هنا: يعرف الله تعالى كل حميم حميمه ومع ذلك فلا يلتفت أحد لأحد من شدة الهول، فيظهر لهم فساد الاعتماد على غير العمل؛ وخطر صحبة الأشرار. كما فى الآية (٢٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣ .

﴿يود﴾: أى يحب ويتمنى. ﴿لو يفتدى﴾: ﴿لو﴾ حرف يجعل الفعل بعده فى قوة المصدر، فالمعنى افتداء نفسه. ﴿صاحبته﴾: زوجته. ﴿فصيلته﴾: أسرته التى فصل عنها، أى تفرع منها.

﴿تؤويه﴾: أى تضمه لها عند الشدائد.

﴿ثم ينجيه﴾: عطف على ﴿يفتدى﴾ وضمير الفاعل عائد على ﴿مَنْ فى الأرض﴾ وعطف بحرف ﴿ثم﴾ لبيان استبعاد الإنجاء، والمراد يتمنى المجرم لو كان الجميع تحت يده ويقدمهم فداء لنفسه ثم ينجيه ذلك، وذلك مستحيل.

﴿كلا﴾: حرف يدل على الزجر عما قبله. ﴿إنها﴾: أى النار المفهومة من المقام الذى يذكر فيه العذاب، وذلك نظير ما فى الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ .

﴿لظى﴾: اسم من أسماء نار الآخرة لأنها تتلظى أى تتلهب دائمًا، انظر الآية (١٤) من سورة الليل صفحة ٨١١ .

﴿نزاعة﴾: أى شديدة نزع الشىء المتصل بشىء آخر. ﴿للشوى﴾: جمع شواة بفتح أوله، وهى جلدة الرأس. ﴿تدعو﴾: أصل معنى تدعو تطلب، والمراد: أن العاصى يجذب إلى جهنم بلا تأخير كأنه مطلوب من ملك جبار لا يخالف أمره، انظر الآية (٢٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ .

﴿أدبر﴾: أى أعطى ظهره للحق. ﴿تولى﴾: انصرف معرضًا عن الطاعة.

﴿جمع فأوعى﴾: أى جمع المال ووضعه فى وعاء لشدة حرصه على الدنيا.

﴿هلوعًا﴾: أصله من الهلع وهو السرعة. تقول العرب (ناقة هلوع) أى سريعة السير، والمراد هنا: سريع الجزع عند حصول مكروه، وشديد المنع عند حصول الخير. فما بعده تفسير له. ﴿جزوعًا﴾: أى كثير الجزع وهو عدم الصبر.

المعنى: لما استعجل زعماء الكفر بمكة العذاب استهزاءً كما تقدم، أنذرهم سبحانه بأن العذاب الأكبر فى جهنم حاصل قطعًا لكل كافر لا يستطيع أحد دفعه؛ ثم بيَّن سبحانه أنه واقع. أى حاصل من الله تعالى خالق المصاعد التى تصعد عليها الملائكة وجبريل إلى مهبط أمره سبحانه فى يوم طويل جدًا على الكافرين. ثم خفف عن نبيه وقع تكذيبهم له فقال: فاصبر... إلخ. أى إذا استعجل هؤلاء العذاب استهزاءً بأخبارك أيها النبى فلا تضجر واصبر صبرًا جميلاً. والذى غر هؤلاء الكفار أنهم يستبعدون وقوع العذاب الذى أنذرتهم به. ولكن ربك يعلم أنه سيحصل لهم قريبًا ما هو أفظع منه وهو عذاب القيامة. يوم تكون السماء كالنحاس المذاب، انظر الآية (٣٧) من سورة الرحمن صفحتى ٧١٠، ٧١١، وتكون الجبال كالصوف المنفوش تتطاير فى الهواء، ولا يطلب قريب من قريبه مساعدة. فى حال أن الله عرف كلا منهما صاحبه. لشدة الهول التى شغلت كلا بنفسه. ومن مظاهر هذا الهول أن المجرم يتمنى افتداء نفسه من عذاب هذا اليوم بكل مَنْ كانوا أعزاء عليه فى الدنيا، حتى لو استطاع أن يفتدى بجميع مَنْ فى الأرض لينجو لفعل، ولما كان هذا اليوم لاينفع فيه فداء كما فى الآية (٣٦) من سورة المائدة صفحة ١٤٣ زجرهم سبحانه عن الطمع فى ذلك بقوله: كلا... إلخ. أى كفوا عن هذا وانتظروا، إن مكانكم نار تلظى، شديدة نزع الجلود من على الرءوس فتحرقها ثم تعود كما كانت كما فى الآية (٥٦) من سورة النساء صفحتى ١٠٩، ١١٠. هذه النار يطلب إليها مَنْ أعرض عن الحق، وانصرف عن الطاعة. واختزن المال فى أوعية ولم يؤد حق الله فيه. ثم بيَّن سبحانه طبع أكثر الناس فقال: إن الإنسان خلق سريع الجزع عند المكروه. لا يعرف فضل الصبر. شديد المنع للخير إذا وسع الله عليه. ولم يسلم من هذا العيب إلا الذين عالجوه بالمداومة على الصلاة. فإنها تساعد على الصبر ومكارم الأخلاق انظر الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠ والآية (١٣٢) من سورة طه صفحة ٤١٩ .

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)
وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ
رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨)
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ
وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ
قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤)
أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا
قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧)
أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا
إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ

(١) أموالهم. (٢) للسائل. (٣) حافظون.
(٤) أزواجهم. (٥) أيمانهم. (٦) لأماناتهم.
(٧) راعون. (٨) بشهاداتهم. (٩) قائمون.
(١٠) جنات. (١١) خلقناهم. (١٢) المشارق.

المفردات: ﴿حق معلوم للسائل﴾ ... إلخ: لما كانت هذه السورة مكية، والزكاة المعروفة لم تحدد مقاديرها إلا في المدينة بعد الهجرة؛ وأيضًا لما اقتصر في بذل المال هنا على الفقراء فقط وكان للزكاة المعهودة مصارف ثمانية. انظر الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١: لما كان كل هذا قال العلماء: إن الزكاة لما فرضت أولاً بمكة كانت غير محددة المقادير [(١)] . بل متروك أمرها للمؤمنين يبذل كل واحد منهم ما يريد أن يتقرب به إلى الله وكان فيهم مَنْ أوجب على نفسه مقدارًا معينًا يؤديه للفقراء في أوقات معينة قال الألوسي: ﴿حق معلوم﴾: أي نصيب معين يؤديه الرجل كل جمعة، أو كل شهر مثلاً. فهذا النوع من المؤمنين هم الذين امتدحهم الله سبحانه وتعالى في هذه السورة كما امتدح نوعًا آخر أعلى من هؤلاء في قوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ الآية (٩) من سورة الحشر صفحة ٧٢١، ثم انظر بعد كل هذا ما تقدم في شرح الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتي ٢٤،٢٣ فستجد فيها أن الشارع طلب بذل مال غير الزكاة المفروضة. ولما كان لفظ ﴿أموالهم﴾ مفردًا مضافًا فيفيد عموم كل مال، كما قال العلماء يكون من لطف الله بالمحرومين أن يحث الأغنياء على إعطائهم بعضًا من كل ما

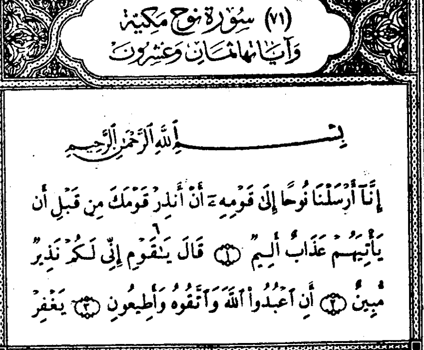
(١) انظر ذكر الزكاة في السور المكية الآية (٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥ وغير ذلك في السور المكية كثير.

يسمى مالاً. ولو لم يكن فيه زكاة، كالعسل بجميع أنواعه، والطيور، وغير ذلك من كل ما تتطلع إليه نفس المحروم، وبذا يكون المسلمون أسرة واحدة رباطها التراحم، لا القسر والقوة: فما أروع هذا الدين وما أسمى تعاليمه. لو وفق أهله للعمل به. ﴿للسائل﴾: هو الفقير الذى يسأل الناس. ﴿المحروم﴾: هو الفقير الذى يتعفف عن سؤال الناس فيظنه الجاهل غنيًا، فيحرم من العطاء، انظر الآية (٢٧٣) من سورة البقرة صفحة ٥٨. (بيوم الدين) أى يوم القيامة انظر الآية (٤) من سورة الفاتحة صفحة ٢. ﴿مشفقون﴾: أى خائفون فلا يفرطون فى طاعة: انظر شعورهم بمزية هذا فى الآخرة فى الآية (٢٦) من سورة الطور صفحة ٦٩٨. ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾: فيجب على المؤمن البعد عن أسبابه. ﴿والذين هم لفروجهم﴾.. إلى آخر الآية (٣٢): تقدم فى صفحة ٤٤٦. ﴿بشهاداتهم﴾: أى التى تطلب منهم عند الفصل فى المنازعات. ﴿قائمون﴾: المراد يؤدونها قائمة على أصولها. ليس فيها ميل عن الحق. ﴿على صلاتهم يحافظون﴾: المراد يحافظون على أركانها وشروطها وسننها وآدابها على أكمل وجه، فهذا غير المداومة عليها المتقدمة فى الآية (٢٣). ﴿مكرمون﴾: أى يكرمهم الله فى الجنة. ﴿فمال الذين كفروا﴾: هكذا رسم فى المصحف الإمام، الذى أقره الصحابة فى عهد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، والرسم المعروف الآن ﴿فما للذين كفروا﴾ والمعنى: أى شىء حصل لهم استخف عقولهم. ﴿قبلك﴾: أى جهتك وحولك. ﴿مهطعين﴾: المراد مسرعين ليسمعوا مايجعلونه مثار استهزاء، وهى حال من (الذين كفروا) وكذا (عزين) وهى جمع عزة بكسر أوله، وفتح ثانيه، وهى الجماعة والمراد: جماعات. جماعات. (أيطمع): الهمزة للاستفهام التوبيخى. ﴿كلا﴾ حرف يدل على الزجر عما قبله، ﴿مما يعلمون﴾ : المراد من نطفة مهينة قذرة، انظر الآية (٢٠) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥ فهذا غمز خفيف لغطرستهم: انظر الآيات (١٧، ١٨، ١٩) من سورة عبس صفحة ٧٩٢.

﴿فلا أقسم﴾: المراد: أن الأمر أوضح مما يحتاج إلى قسم. ﴿المشارق﴾: جمع مَشْرِق، بفتح فسكون، فكسر، للشمس والقمر والنجوم.

المعنى : فى طبع الإنسان شدة الجزع عند الشدائد. وشدة البخل عند الرخاء، ولايعدل هذا الطبع ويدفع ضرره إلا مراقبة الله واتباع إرشاداته. ولايوفق لذلك إلا الذين جمعوا الصفات الآتية. وهى أن يكونوا محافظين على الصلاة فى أوقاتها. وأن يخصصوا من أموالهم

نصيبًا حسب طاقتهم يعطونه لأهله من الفقراء المستجدين والمتعففين. ويؤمنوا بيوم القيامة الذى يحاسب فيه الجميع. ويكونوا دائمًا على حذر من عذاب الله؛ لأن شهوات النفس وهمزات الشياطين تتسرب للإنسان فى الخفاء. فلا يكون العذاب مأمونًا إلا بتمام اليقظة. ويصونوا فروجهم مما حرم الله. ولكن التمتع بالزوجات، أو ما ملكت اليمين من الإماء لا يلامون عليه. فمَن طلب غير ماذكر مما أحل له فهو متجاوز الحلال إلى منطقة الحرام. وأن يراعوا أى لايخونوا فيما أئتمنوا عليه من مال وغيره. ولاينقضون ما عاهدوا الله عليه، أو أحدًا من خلقه. ويؤدوا الشهادة على وجهها، لا يجاملون قريبًا أو قويًا على بعيد أو ضعيف. ويحافظون على أركان الصلاة وشروطها وآدابها حتى تقع على أكمل وجه. هؤلاء المتصفون بهذه الصفات يدخلهم ربهم فى جناته، مكرمون عنده. وبعدما وصف سبحانه المؤمنين الذين يستحقون دار الكرامة، أتبع ذلك ببيان حال كفار مكة معه ﷺ وخطئهم فى طمعهم فى أن يكونوا محل فضل الله مع ماهم عليه من الكفر والعناد. فقال: (فما للذين كفروا)... إلخ. وبيان ذلك أن صناديد الكفر بمكة كانوا لا يجدون طريقًا لتضليل الضعفاء وصرفهم عن الإيمان به ﷺ إلا سلكوه. وقد قص علينا القرآن كثيرًا مما كانوا يفعلونه فمنه ما فى الآية (٦) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩ والآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢، وما فى شرح الآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧ . ومنه ما أشار إليه هنا وهو ما روى أنه ﷺ كان إذا قرأ القرآن عند الكعبة أسرع كبار المشركين للاجتماع حوله فرقة يستمعون ويستهزءون ويقولون: إن دخل هؤلاء العبيد والفقراء الذين اتبعوا محمدًا الجنة على سبيل الفرض فلنسبقنهم إليها: لأنهم لو كانوا أصحاب منزلة عند الله كما يقول لهم محمد لما جعلهم فقراء.وجعلنا أكثر منهم أموالا وأولادًا. فيرد عليهم سبحانه وتعالى تارة بما فى الآية (٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، وأخرى بقوله هنا: (فما للذين كفروا)... إلخ. والمعنى أى شىء حصل لعقول هؤلاء الكفار حتى جعلهم يسرعون إلى مجلسك ويحيطونك يمينًا وشمالاً جماعات جماعات، ثم يستهزءون ويقولون نحن أحق بالجنة من هذا وأتباعه إن كان هناك جنة كما يدعى. فسفه سبحانه عقولهم بقوله: أيطمع... إلخ. أى هل حصل لهؤلاء جنون حتى صار كل منهم يطمع أن يدخل جنة النعيم؟ فليرتدعوا عن هذا التبجح لأن أصلهم الذى خلقناهم منه شىء حقير يستحى من ذكره. فإذا لم يكملوا أنفسهم بالإيمان والطاعات ومكارم الأخلاق فلن يكونوا أهلا لمقام الكرامة ومساواة عبادنا الصالحين. بل يكونوا أتعس حظًا من البهائم فضلاً عن استحقاق كرامة رب العالمين، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢ . ثم هددهم سبحانه بإفنائهم إذا لم يرجعوا فقال: (فلا أقسم برب المشارق)... إلخ.


وَالْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٤٤)

(٧١) سورة نوح مكية وآياتها ثمان وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ

المفردات: ﴿نبدل خيرًا منهم﴾: انظر الآية (٣٨) من سورة محمَّد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨ ﴿بمسبوقين﴾ : انظر الآية (٦٠) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦، والمراد: بعاجزين عن عقابهم.

﴿ذرهم يخوضوا﴾: أى يدخلوا فى الباطل، كما تقدم فى الآية (٨٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥، وانظر الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣ .

﴿الأجداث﴾: جمع جَدَث بفتح أوله وثانيه وهو القبر.

﴿سراعًا﴾:أى مسرعين إلى المحشر، انظر ما تقدم فى الآية (٤٤) من سورة ق صفحة ٦٩٢ .

﴿نصب﴾: لفظ مفرد معناه العلامة المنصوبة للدلالة على الطريق.

﴿يوفضون﴾: مأخوذ من (أوفض) أى أسرع؛ والمراد: يسرعون إسراع مَنْ ضل الطريق إذا رأى علامة تهديه.

﴿خاشعة أبصارهم﴾... إلخ: تقدم فى الآية (٤٣) من سورة القلم صفحة ٧٦٠

المعنى: لا أقسم بمدبر مطالع الكواكب ومغاربها على ما يأتى؛ لأنه واضح لا يحتاج إلى يمين، ثم بيَّن سبحانه المقسم عليه فقال: (إنا لقادرون)... إلخ. أى إنا لقادرون على أن نهلك كفار قومك أيها النبى دفعة واحدة كما فعلنا بغيرهم ممَّن مضى، ونأتى بخير منهم يعرفون حق ربهم وما نحن بمغلوبين إن أردنا ذلك، ولكن حكمتنا اقتضت عدم ذلك لأنك خاتم الرسل،

(١) المغارب. (٢) لقادرون. (٣) يلاقوا.
(٤) خاشعة. (٥) أبصارهم. (٦) يا قوم.

ربهم وما نحن بمغلوبين إن أردنا ذلك، ولكن حكمتنا اقتضت عدم ذلك لأنك خاتم الرسل، وأمتك آخر الأمم، لذلك تأخر عذابهم الأكبر ليوم القيامة.

وإذا كان الأمر كما علمت أيها النبى فأعرض عنهم، ولا تشغل نفسك بهم، واتركهم يخوضون فى باطلهم، ويلعبون بمتاع الدنيا كالأطفال الذين لايقدرون النتائج إلى أن يلاقوا اليوم الذى وعدناهم به وهو يوم القيامة، وعند ذلك يفيقون من غفلتهم. ولكن بعد فوات فرصة النجاة.

ثم بيَّن سبحانه بعض ما سيحصل فى هذا اليوم بقوله تعالى: يوم يخرجون... إلخ . أى يوم يخرجون من القبور عند النفخة الثانية المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ - حال كونهم - مسرعين من شدة الهول ظانين أن أمامهم طريق النجاة كأنهم قوم تاهوا فى صحراء ثم رأوا علامة الطريق فأسرعوا إليها، يخرجون من القبور كسيرة أبصارهم تغشاهم المذلة، ذلك اليوم الذى شاهدوا فيه هذه الأهوال هو اليوم الذى كانوا وهم فى الدنيا يوعدون بملاقاة شدائده ليحذروه، ولكنهم أنكروه فلم يعدوا له عدته. نسأل الله السلامة.

سورة نوح

المفردات: ﴿أن أنذر﴾... إلخ: ﴿أن﴾ مفسرة لما به الإنذار؛ أى قلنا له حذر قومك من العقاب إذا خالفوا أمر ربهم؛ وفى الألوسى ﴿أن﴾ تفسيرية لما فى الإنذار من معنى القول فهى تفسير ما به الإرسال.

﴿نذير مبين﴾: أى محذر مبين والمراد: موضح رسالة ربى. ﴿أن اعبدوا الله﴾: ﴿أن﴾ مفسرة أيضًا؛ أى أقول لكم اعبدوا ... إلخ.

المعنى: يقول سبحانه إنا أرسلنا نوحا إلى قومه. أى وقلنا له حذر قومك من عصيان ربهم من قبل أن يأتيهم عذاب شديد الألم فى الدنيا والآخرة. فنفذ أمر ربه وقال: يا قوم إنى لكم نذير مبين بما أرسلنى به ربى فأقول لكم وحدوا الله فلا تعبدوا غيره، وابتعدوا عن معاصيه، وأطيعونى فى كل ما أنصحكم به، إذا فعلتم ذلك يغفر الله لكم.

المفردات: ﴿من ذنوبكم﴾: ﴿من﴾ بمعنى (بعض). والمراد بهذا البعض كل الذنوب التى

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ
ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى
دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا
فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ
فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ
ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ
لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ
إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾
وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل
لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ
خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

ليس فيها حق لمخلوق. أما هذه فغفرانها متوقف على رد الحق لصاحبه. أو سماحه له فيه، وإلا بقى فى عنقه إلى يوم القيامة، فالكافر الذى اغتصب فى حال كفره مال غيره يعاقب على بقاء هذا المال فى ذمته عذابا زائدًا على عذاب الكفر ككل معصية تضم للكفر؛ انظر الآية (٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٨ ، والآية (٨٨) من سورة النحل أيضًا صفحة ٣٥٧، والآيتين (٦٨، ٦٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨، والآيتين (١٢، ١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢، والآيتين (٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١ والآيتين (٨، ٩) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤، والآية (١٠) من سورة البروج صفحة ٨٠١، ولعلك بعد هذه الأدلة لا تغتر بقول يخالفها.

﴿أجل مسمى﴾: ﴿مسمى﴾ أى معين عند الله، وهو أقصى ما قدر لهم بشرط الإيمان والعمل الصالح، وذلك أنه سبحانه اقتضت حكمته أن الأمة التى تؤمن وتستقيم تطول أعمارها ويبارك لها فيها، أما الأمة التى يغلب عليها الكفر والفساد فإنه يسرع إليها الفناء ولا يزيد عددها فى الغالب؛ والعبرة واضحة الآن فى الدولة الفرنسية فإنه مضى عليها عشرات السنين وعددها يكاد لا يزيد إلا قليلا.

﴿أجل الله﴾: المراد الأجل الذى قدره الله لهم إذا استمروا على الكفر والمعاصى؛ انظر شرح الآية (١٠) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣١ .

﴿ليلاً ونهارًا﴾: المراد: دائمًا من غير فتور أو تقصير.

﴿فرارًا﴾: أى بعدًا ونفورًا من الإيمان.

﴿جعلوا أصابعهم... إلخ﴾: كناية عن أنهم أصموا آذانهم عن سماع الحق.

(١) دعائى. (٢) أصابعهم. (٣) آذانهم. (٤) بأموال.
(٥) جنات. (٦) أنهارا (٧) سموات.

﴿استغشوا ثيابهم﴾: المراد: بالغوا فى جعل ثيابهم أغشية أى أغطية لوجوههم من شدة كراهتهم لرؤيته عليه السلام؛ انظر ما تفعله شدة كراهية الكافرين لأنبيائهم فى الآية (٥١) من سورة القلم صفحة ٧٦١ .

﴿وأصروا﴾: أى صمموا على الكفر. ﴿واستكبروا﴾: أى عن اتباعى.

﴿استكبارًا﴾: أى شديدًا غريبًا فى نوعه. ﴿جهارا﴾: المراد: مجاهرًا.

﴿السماء﴾: هى اسم لكل ما ارتفع كما فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥ ، وهى هنا السحاب، والمراد ما فيه من المطر.

﴿مدرارًا﴾: أى كثيرًا متتابعًا. ﴿ما لكم﴾: استفهام توبيخى.

﴿لا ترجون﴾: أى لا تُقدرون، بضم أوله وتشديد الدال المكسورة.

﴿وقارًا﴾: أى عظمة.

﴿أطوارًا﴾: جمع طور وهو (الحال)؛ أى خلقكم متنقلين من حال النطفة إلى العلقة.. إلى آخر ما فى سورة المؤمنين صفحة ٤٤٦ .

﴿ألم تروا﴾: تقدم فى الآية (٧) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٦،٧٢٥

﴿طباقًا﴾: أى طبقات بعضها فوق بعض، كما تقدم فى الآية (٣) من سورة الملك صفحة ٧٥٤

﴿وجعل القمر فيهن نورًا﴾: بما أن القمر نورًا فى السماء الدنيا فقط قال الفخر الرازى: المراد جعله فى جملة السموات لا فى كلها كما يقال (دخل الأمير العراق) فإنه لا يدل على أنه حل فى جميع أنحاء العراق بل فى بعضه فقط.

﴿نورًا﴾: تقدم فى الآية (٥) من سورة يونس صفحة ٢٢٦

المعنى: لما أرسل اللّه سبحانه نوحًا قال لقومه اعبدوا اللّه واتقوه وأطيعونى. إن فعلتم ذلك يغفر لكم بعض ذنوبكم. ويطل أعماركم وتتمتعوا بخيرات الدنيا لحين انتهاء أعماركم العادية. وإلا إذا بقيتم على كفركم فإنه سبحانه يعجل لكم الأجل الذى قدره لمَنْ يفسدون فى

الأرض. وهذا الأجل إذا جاء وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى لا يؤخر لحظة. فبادروا بالإيمان والاستقامة قبل حلوله لو كنتم من أهل العلم النافع لوجب أن تسارعوا إلى ما فيه الحياة السعيدة المديدة. وبعدما بلغ نوح رسالة ربه ولم يطيعوه توجه إلى ربه بالشكوى من عنادهم فقال: (رب إنى)... إلخ. أى يا رب إنى دعوت قومى إلى التوحيد والطاعة فى كل الأوقات ولم أتوان لحظة. فلم يزدهم دعائى إلا نفورا. وإنى كلما دعوتهم للإيمان بك لتغفر لهم أصموا آذانهم عن دعائى وغطوا وجوههم بثيابهم لئلا يرونى لشدة كراهتهم لى. وصمموا على الكفر. واستكبروا عن اتباعى استكبارا شنيعًا. وبعدما بيَّن أنه عمم أوقات الدعوة أراد أن يبين أنه عمم أحوالها فقال: (ثم إنى دعوتهم جهارا)... إلخ. و﴿ثم﴾ تشعر بأنه دعاهم أولاً سرًا لأنه ادعى لقبولهم لما فيه من التلطف معهم. فلما لم يقبلوا بعد محاولته بهذه الطريقة عشرات السنين انتقل إلى الجهر لأنه أشد ، فقد ينفع حيث لم ينفع اللين. واستمر كذلك سنين كما سيأتى. ولما لم ينفع أيضًا انتقل إلى الجمع بين الإعلان والإسرار.

هذا فى مقام وذاك فى مقام، وهذا فى ظرف وذاك فى آخر. وهذا لفريق وذاك لآخر. ظانا أن فى الجمع بينهما من الفائدة ماليس فى الأفراد. فالمراد من كل هذا أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين كما فى الآية (١٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ يدعوهم المرة بعد المرة على وجوه مختلفة. وأساليب متعددة. فلم ينفع معهم شىء.

ثم بيَّن بعض ما دعاهم به على وجه الترغيب فقال: قلت استغفروا ربكم. أى بالتوبة من الشرك والمعاصى يغفر لكم لأنه واسع المغفرة. ويرسل المطر كثيرًا بعد امتناعه عنكم حتى عم القحط ويزد فى أموالكم وأبنائكم. ويجعل لكم بساتين ويجعل لكم أنهارًا دائمة الجريان فلا تظمئوا أبدًا.

ثم انتقل إلى توبيخهم على جهلهم بقدر اللّه مع أنه صاحب الفضل عليهم، وخالق هذا النظام البديع، فقال: مالكم.. إلخ. والمعنى: أى شىء حصل لكم حال كونكم غير مقدرين للّه عظمته اللائقة به المقتضية الإيمان به وطاعته مع وضوح ما يوجب ذلك من أنه هو وحده الذى خلقكم على أطوار وأحوال مرتب بعضها على بعض، فمن طين، إلى نطفة إلى علقة، إلى آخر ما تقدمت الإشارة إليه. أليس من الجهل والغفلة أن لا تعلموا كيف خلق سبحانه هذه السموات بعضها فوق بعض وجعل القمر فيهن نورا فتعتبروا وتقطعوا بأن مَنْ يفعل ذلك يجب أن لا يعبد غيره ولايخالف أمره؟

ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا
فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن
لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا
كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ[1] وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا
سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا[4]
وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ[2] إِلَّا ضَلَٰلًا[3] (٢٤) مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ
أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ[5] دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ
وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ[6]

المفردات: ﴿الشمس سراجًا﴾: انظر الفرق بين السراج والنور فى شرح الآية (٥) من سورة يونس صفحة ٢٦٦ .

﴿أنبتكم من الأرض﴾: المراد: أوجدكم من عناصرها، كما يوجد النبات؛ انظر الآية (٢٨) من سورة البقرة صفحة ٧ والآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿نباتًا﴾: اسم مصدر معناه الإنبات، والمراد: نباتا عجيبا.

﴿يعيدكم فيها﴾: أى بعد الموت.

﴿يخرجكم﴾: أى عند البعث يوم القيامة.

﴿إخراجًا﴾: المراد: إخراجًا خاصًا لغرابته. (كتكليما) فى الآية (١٦٤) من سورة النساء صفحة ١٣١ .

﴿بساطا﴾: المراد: يسهل التنقل عليها كالبساط.

﴿تسلكوا﴾: تقدم فى الآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿سبلا﴾: أى طرقا.

﴿فجاجا﴾: جمع فج؛ وهو المذكور فى الآية (٢٧) من سورة الحج صفحة ٤٣٧ .

﴿واتبعوا﴾: أى اتبع عامتهم.

﴿مَنْ لم يزده ماله﴾: هم الرؤساء وأصحاب المال والجاه.

﴿خسارًا﴾: أى خسرانًا. ﴿ومكروا﴾: أى الرؤساء.

(١) آلهتكم. (٢) الظالمين
(٣) ضلالا (٤) خطيئاتهم.
(٥) الكافرين (٦) لوالدى.

﴿كبارا﴾: أى كبير جدا، حيث استعملوا كل أنواع الحيل فى صرف الناس عن نبيهم نوح عليه السلام.

﴿لاتذرن﴾: أصله لاتذروا. أى لا تتركوا، ولكنهم أكدوا النهى لأن هذه النون التى جاءت فى آخر الفعل تؤكد ما فيه من معنى الطلب.

﴿آلهتكم﴾: التى وجدتم آباءكم يعبدونها.

﴿ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا﴾: روى ابن جرير أن هؤلاء كانوا رجالا صالحين الأمم التى كانت بين آدم ونوح. وكان لهم أتباع يقتدون بهم. ولما ماتوا زين إبليس لأتباعهم أن يبنوا عليهم المساجد، ويصوروا لهم الصور، ليتذكروا بها صلاحهم، فيعملوا مثلهم. فلما طال الزمن ظن أكثر الناس أن آباءهم كانوا يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى الله ففعلوا مثلهم؛ انظر الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦؛ وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما رجعت بعض النساء المؤمنات من الحبشة بعد الهجرة إليها. قصصن على النبى ﷺ ما رأينه فى كنيسة بالحبشة فيها تصاوير فقال ﷺ هؤلاء قوم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا (المراد ما يشبه المسجد عند المسلمين وهو الكنيسة).

ثم صوروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة.

﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾... إلخ: ﴿من﴾ حرف تعليل يفيد أن ما بعده علة وسبب فى حصول الغرق، وإدخال النار. وتقول العرب: ضجرت من خبر جاءنى يريد بسبب خبر. ويقولون: إذا رأى الناس فلانًا غضوا أبصارهم من مهابته؛ و﴿ما﴾ حرف يؤكد هذا التسبب.

﴿فأدخلوا نارا﴾: المراد بالنار العذاب الذى يلاقونه بعد الموت، وهذا العذاب عذاب البرزخ الذى يبلغ من شدته أن ما يلاقيه كأنه النار، وعذاب يوم القيامة بنار الآخرة، انظر الآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤. كما أن مَنْ يموت مؤمنًا يتنعم كأنه دخل الجنة، انظر آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة يس صفحة ٥٨١.

﴿لا تذر﴾: أى لا تترك.

﴿ديارًا﴾: أى أحدًا.

المعنى: كيف غفلتم عن أن الله وحده هو الذى جعل القمر فى مجموع السمٰوات نورا. وجعل الشمس سراجا، يبصر أهل الدنيا فى ضوئها كما يبصر أهل البيت فى ضوء السراج

ما يحتاجون إليه. وأنه سبحانه هو الذى خلقكم من الأرض خلقًا عجيبًا، ثم يعيدكم فيها بعد الموت. ثم يخرجكم منها يوم القيامة كما أخرجكم منها أول مرة. وأنه سبحانه وحده هو الذى جعل لكم الأرض ممهدة كالبساط لتسلكوها متخذين منها طرقًا فسيحة. وبعد تعنتهم فى العصيان قال نوح شاكيًا إلى ربه عنادهم فقال: يا رب إن قومى عصونى واستمر عامتهم على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم. وكان ذلك سببًا لزيادة خسارتهم فى الآخرة وصاروا أسوة للأتباع وما شكى منه نوح شكى منه موسى عليهما السلام، انظر الآية (٨٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٩، ٢٨٠ . ومكر هؤلاء الرؤساء مكرًا كبيرًا.

ثم بيَّن بعض هذا المكر بقوله: (وقالوا لاتذرن)... إلخ. أى لا تتركوا عبادة آلهة عبدها آباؤكم. ثم أكدوا هذا النهى مع ذكر أشهر آلهتهم. فقالوا: (ولاتذرن ودا ولاسواعا)... إلخ. ثم قال نوح: وقد أضل الرؤساء بهذه الأصنام كثيرًا من العوام. ولما أوحى اللَّه سبحانه إلى نوح أنه لن يؤمن منهم إلا مَنْ آمن، كما فى الآية (٣٦) من سورة هود صفحة ٢٨٩ . دعا عليهم بقوله: لاتزد يارب هؤلاء الظالمين إلا بعدا عن الخير. وكان الترتيب الطبيعى أن يذكر ما سيأتى فى الآية (٢٦) وما بعدها وبعد ذلك يذكر ما فى الآية (٢٥)، ولكنه أراد المسارعة إلى بيان نهايتهم المؤلمة. وأن ما أصابهم من الإغراق والعذاب بعد الموت لم يحصل لهم إلا بسبب خطاياهم التى عددها سابقا.

وهذا هو المهم من العبرة بالقصة. ولم يجدوا لهم غير اللَّه مَنْ ينصرهم بدفع العذاب عنهم. ثم رجع إلى بيان دعاء نوح الذى كان سببًا لتعجيل هلاكهم فقال: وقال نوح رب لاتذر... إلخ. والمراد أن الذى عجل بإغراقهم هو يأس نوح وتضرعه إلى ربه بقوله: يارب لاتترك على وجه الأرض من الكافرين أحدًا لأنك إن تتركهم يستمروا على إضلال عبادك الناشئين، ولا يخرج منهم نسل إلا وهو متشبع بمبادئ الكفر والفجور.

ثم توجه إلى ربه بطلب المغفرة للمؤمنين الأقربين منه ولغيرهم فقال: (رب اغفر لى ولوالدى)... إلخ.

وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ[1] وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ[2] إِلَّا تَبَارَۢا ﴿٢٨﴾

(٧٢) سُورَةُ الجِنِّ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا[3] عَجَبٗا ﴿١﴾ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا[4] بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ[5] جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ[6] وَلَا وَلَدٗا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ

المفردات: ﴿تبارا﴾: أى هلاكا. انظر الآية (٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥.

المعنى: قال نوح يا رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات عامة إلى يوم القيامة. وهذا دعائى لمن آمن بك يا رب. وأما مَنْ ظلم نفسه وكفر بك فلا تزده إلا هلاكا.

﴿سورة الجن﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿استمع نفر من الجن﴾: تقدم مع تفصيل الحادثة فى الآية (٢٩) وما بعدها من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧٠، ٦٧١: والكلام هنا يشعر بأنه ﷺ ما كان يعلم باستماعهم له.

﴿الجن﴾: هو عَالَم أخبرنا اللَّه سبحانه أنه خلقهم من نار، كما فى الآية (٢٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠: ولولا خبره الصادق لما علمنا عنهم شيئًا يعتد به.

﴿عجبا﴾: العجب أصله مصدر، والمراد عجيبًا، أى لم نسمع له نظيرا من قبل فى حسن نظمه، ودقة معانيه، وغزارتها. وكانوا يعرفون شيئًا عن التوراة كما فى الآية (٣٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١. ﴿يهدى﴾: المراد يرشد ويدل.

﴿الرشد﴾: أى الصواب. ﴿وأنه تعالى﴾: (وأنه) الضمير يفيد معنى الحال الثابت، وما بعده تفسير له. أى أن الأمر الثابت المحقق هو ترفع عظمة ربنا.. إلخ. و(تعالى) أى ترفع وتنزه.

(١) المؤمنات. (٢) الظالمين. (٣) قرآنا.
(٤) فآمنا. (٥) تعالى. (٦) صاحبة.

﴿جد ربنا﴾: أى عظمته وجلاله. ﴿صاحبة﴾: المراد زوجة، انظر الآية (١٠١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩. ﴿ولا ولدا﴾: كما يقول المفسرون فى العزير والمسيح والملائكة، انظر الآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥ والآية (٥٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٢.

﴿سفيهنا﴾: أرادوا من السفيه جنسه، فيشمل كل جنود إبليس، والسفه هو الطيش وخفة العقل.

﴿شططا﴾: أصل الشطط البعد الشديد، ويقال اشتطت به الدار. أى اشتد بعدها. وأريد به هنا القول البعيد عن الصواب.

﴿أن لن تقول﴾: الأصل أنه لن.. إلخ. فهى مثل ما تقدم فى الآية (٣) هنا.

﴿كان رجال من الإنس﴾: أى فى الجاهلية.

﴿يعوذون﴾: أى يتعوذون ويطلبون الحفظ من المكروه.

المعنى: لما اشتد عناد كفار مكة أراد سبحانه أن يسفه عقولهم ويهددهم بأنهم ليسوا بأقوى من الجن إلى آخر ما سبق فى شرح ما فى سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠ فقال: قل أوحى.. إلخ. أى قل أيها النبى لأمتك إن الله أوحى إلىَّ أن عددًا من الجن أصغى لسماع القرآن فقالوا لقومهم عندما رجعوا إليهم يا قومنا إنا سمعنا كلامًا مقروءًا عجيبًا. أى ليس ككتاب موسى كما فى صفحة ٦٧٠. ثم بينوا بعض مزاياه فقالوا: (يهدى).. إلخ. أى يدل ويرشد إلى طريق الصواب، ويحارب الشرك بالله، فآمنا به، ولن نشرك بعد اليوم بربنا أحدًا من خلقه، بعدما سمعناه من أدلة التوحيد. ثم ذكروا بعض آثار تلك الأدلة التى تجلت لهم عند سماع القرآن؛ فقالوا: (وأنه تعالى).. إلخ. أى ونخبركم يا قومنا أن الحق الثابت هو ترفع عظمة ربنا عن اتخاذ الزوجة والولد لأنه غنى عن ذلك. وأن ما كان يقوله لنا سفهاؤنا من الشياطين على الله من نسبة الزوجة والولد إليه هو قول بعيد عن الحق. ثم بينوا أنهم كانوا مخطئين فى تقليد هؤلاء السفهاء من غير بحث؛ فقالوا: (وأنا ظننا).. إلخ. أى وكنا نظن أن لا يجرؤ على الكذب على الله أحد من الأنس والجن. وبعدما بينوا بعض جرائم سفهائهم فى إشاعة نسبة الولد والصاحبة إليه تعالى أرادوا أن يبينوا جريمة أخرى لهم أوقعت كثيرا من الأنس فى حبائل الشرك بوجه آخر. فقالوا: (وأنه كان رجال) إلى آخر ما سيأتى.

فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
اللَّهُ أَحَدًا ⑦ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا[1] مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ[2] لِلسَّمْعِ فَمَن
يَسْتَمِعِ الْآنَ[3] يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ⑨ وَأَنَّا لَا نَدْرِي
أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ⑩
وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ[4] وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ
قِدَدًا ⑪ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن
نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ⑫ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا[5] بِهِ فَمَن
يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ⑬ وَأَنَّا مِنَّا
الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ[6] فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا
رَشَدًا ⑭ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ[7] فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ⑮
وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا[8] عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم[9] مَّاءً غَدَقًا ⑯

المفردات: ﴿فزادوهم رهقا﴾: (رهقا) مصدر مأخوذ من فعل (رَهِق) بوزن فرح، ولهذا الفعل عند العرب استعمالات: منها أن يكون قاصرا، أى لا يتعدى لمفعول، كقولهم رَهِقَ فلان، أى سفه، وطاش، وخف عقله، وفعل القبائح، ومنها أن يكون متعديًا لمفعول واحد، كرهقه، أى غشيه، وستره، ومنه ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولاذلة﴾ الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠، ويقال أرهقه غيره شيئا (متعديا لمفعولين) ومصدره إرهاقا أى حمَّله إياه وكلفه فوق طاقته؛ ومنه ﴿ولا ترهقنى من أمرى عسرا﴾ الآية (٧٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩١ و﴿يرهقهما طغيانا وكفرا﴾ الآية (٨٠) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢.

و﴿سأرهقه صعودا﴾ الآية (١٧) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦.

وما هنا من المتعدى لمفعولين، والمعنى زاد الرجال العائذون من الإنس الجنَّ طغيانا وطيشا وجرأة على إضلال بنى آدم، تحقيقًا لوعد إبليس رئيسهم، حيث ظنوا أنهم أخضعوا الإنس لسلطانهم: انظر الآية (١١٨) وما بعدها من سورة النساء صفحتى ١٢٢، ١٢٣.

---

(١) فوجدناها.
(٢) مقاعد.
(٣) الآن.
(٤) الصالحون.
(٥) آمنا.
(٦، ٧) القاسطون.
(٨) استقاموا.
(٩) لأسقيناهم.

﴿وأنهم ظنوا﴾: أى أن كفار الأنس ظنوا كما ظننتم يا كفار الجن عدم البعث.

﴿أن لن يبعث﴾: (أن) أصلها أنه لن يبعث.. إلخ. ويقال فيها ما قيل فى مثلها فى الآية (٣) السابقة. ﴿لمسنا السماء﴾: أصل اللمس المس، وأريد به هنا القصد والتوجه إليها.

﴿حرسًا﴾: اسم جمع لحارس، نحو خدم لخادم. والمراد ملائكة يحرسونها فلا يقرب من جهتها شيطان كما كان سابقا. ﴿شديدا﴾: وصف للحرس باعتبار لفظه، ولكن المراد معناه أى أشداء. ﴿شهبا﴾: جمع شهاب. وقد تقدم فى الآية (١٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧.

﴿نقعد منها مقاعد﴾.. إلخ: أى نتخذ من بعض نواحى السماء مقاعد، أى أماكن صالحة لتسمع أخبار السماء من الملائكة، لخلوها من الحراسة.

﴿فَمَنْ يستمع الآن﴾: أى فَمَنْ يرد منا الاستماع الآن بعد بعثة خاتم الرسل.

﴿رصدا﴾: أصله مصدر، وأريد به اسم المفعول. أى مرصودا ومعدا لطرد المستمع.

﴿رشدا﴾: المراد صوابا وخيرا، بدليل مقابله هنا وهو (شرا)، انظر الآية (٢٤) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٢، ٣٨٤. ﴿الصالحون﴾: المراد الكاملون فى الصلاح.

﴿دون ذلك﴾: أى الأقل.

﴿طرائق﴾: جمع طريقة، والمراد: كنا أصحاب طرق مختلفة.

﴿قددا﴾: جمع قِدة بكسر القاف وهى الفرقة، والمراد: متفرقين إلى مذاهب مختلفة.

﴿أن لن نعجز الله﴾.. إلخ: (أن) كسابقتها والمراد: لن نفلت منه تعالى بالدخول فى الأرض أو الهرب فى السماء، انظر الآية (٣٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠.

﴿الهدى﴾: المراد القرآن الهادى الحق، انظر الآية (٢) من سورة البقرة صفحة (٣).

﴿بخسا﴾: نقصا فى الجزاء.

﴿ولا رهقا﴾: أى لا ترهقه الذلة يوم القيامة، كما تقدم فى الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠.

﴿المسلمون﴾: المراد المنقادون لأوامر الله، المؤمنون به.

﴿القاسطون﴾: من قسط الرجل، إذا جار ولم يعدل، والمراد الجائرون على أنفسهم بالكفر والمعاصى، أما العدل فيقال فيه أقسط الرجل أى عدل فهو مقسط، انظر نظير ذلك فى الآية (١٥) من سورة طه صفحة ٤٠٧. ﴿تحروا﴾: أصل التحرى طلب الأحرى أى الأحق والمراد قصدوا بأعمالهم، الرشد والهداية. ﴿رشدا﴾: المراد: طريق الرشد. والمراد به هنا: الهدى.

﴿ألو﴾: أصلها (أن لو)، وأصل (أن) أنه، ويقال فيها ما قيل فى الآية (٣) السابقة. وهذا من كلامه سبحانه معطوف على (أنه استمع نفر).. إلخ.

﴿الطريقة﴾: هى ملة الإسلام.

﴿غدقا﴾: أى كثيرا. والمراد: وسعنا عليهم الرزق؛ لأن الماء سبب كل خير وعدمه يجلب الجدب والخراب.

المعنى: قبل الكلام على معنى هذه الآية يجب أن نعلم شيئًا من محاولات إبليس فى تضليل الخلق تنفيذا لعزمه المذكور فى الآية (١١٧) من سورة النساء وما بعدها صفحتى ١٢٢، ١٢٣ حتى نستطيع الحكم على المسلمين اليوم هل هم على بصيرة من دينهم. أم أهملوه حتى حقق عليهم إبليس ظنه؟ كما فى الآية (٢٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٥، ورحم الله عمر بن الخطاب الذى قال: أتدرون متى يصاب الإسلام ويهدم لبنة لبنة؟ قالوا: لا، قال: إذا جهل الناس ما كان عليه الجاهلية. يريد أنهم يقعون فى ما كان عليه الجاهلية من حيث لا يشعرون، فيجب حينئذ أن نبين ما كان فيه أهل الجاهلية من الشرك حتى لا نقع فيه. قال ابن كثير فى تفسيره. روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى عن ابن السائب الأنصارى قال: خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة. وذلك أول ما تحدث الناس عن ظهور رسول الله ﷺ بمكة. فأدركنا الليل عند راعى غنم فى الصحراء فبتنا عنده. فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا (ولد شاة صغير) فوثب الراعى وهو يقول (يا حامى الوادى احم جارك) فسمعنا صوتًا لم نر صاحبه يقول: اترك الحمل يا ذئب. فرجع الحمل يجرى. فنزل فى مثل ذلك على رسول الله وهو بمكة قوله تعالى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن.. إلخ.

قال ابن كثير: وقد يكون هذا الذئب من شياطين الجن أراد أن يخيف الإنسى حتى يستجير به ثم يرده عليه ليضله ويخرجه عن دين الله. وورد عن كثير من السلف أن الرجل الضعيف الثقة بربه كان إذا نزل واديًا قفرًا تعبث به مردة الجن فيوسوس إليه الشيطان أن لكل واد رئيسًا من الجن لهؤلاء المردة. فإذا لجأ إليه الخائف وطلب حمايته فإنه يحميه. فكان الرجل فى الجاهلية يقول (أعوذ بسيد هذا المكان من سفهاء قومه) فيشعر بالأمن ويبتعدون عنه بعد أن يوقعوه فى الكفر. ولما جاء الإسلام عالج هذا الخطر فأمر ﷺ مَنْ يشعر بخوف فى مكان موحش أن يقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر كل ما خلق) فإنه لا يصاب بشر. وبعد فهل نجا المسلمون اليوم مما حذر منه الفاروق رضي الله عنه. نقول مع الحسرة الشديدة: كلا. فما على مَنْ يشك فى ذلك إلا أن يجوس خلال الديار، ويسأل البسطاء، بل وبعض من فوق البسطاء. فسيسمع منهم أن فلانا كان ليلة خائفًا فنادى يا سيدى فلان أغثنى فخرج له فارس ملثم وهو يقول: لا تخف. فإذا علمت أن الإسلام ينهى عن هذا، وأن رسول الله ﷺ قال: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)، وأن الشيطان يتمثل بشكل كل مخلوق إلا به ﷺ ولو كانت الاستغاثة بالأموات جائزة شرعًا لكان أعلم الناس بذلك الحسين بن على رضى الله عنهما ولطلبها من والده رضي الله عنه ولم يعرض نفسه للهلاك يوم قتل ظمآنا. إذا علمت كل ذلك تعلم أن محاولة إبليس رفعت رأسها ثانيا بعد أن ابتعد المسلمون عن نبع دينهم الصافى. وبعد تراخى العلماء فى التنبيه لمواطن الخطر، وكثرة الدخيل على تعاليم الإسلام حتى كاد يخفيها. نقول: إذا علمت كل هذا فهل يطمئن قلبك إلى أن المسلمين اليوم هم المؤمنون الذين تعهد الله تعالى بنصرهم أم هم شيء آخر؟ نسوا الله فنسيهم، فصاروا شرا ممن كانوا، فى الرخاء يلجأون لغيره تعالى وفى الشدة لا يلجأون إلا إليه سبحانه، ومع ذلك حكم عليهم سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم، انظر الآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣. والآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠، نسأل الله السلامة.

بقيت كلمة نهمس بها فى آذان مَنْ ركبوا رءوسهم وظنوا أن الرقى إنما هو فى إنكار كل مقدس مهما كان طريقه مقطوعًا بصحته، نقول لهؤلاء: إن كنتم مؤمنين بأن القرآن حق وأنه من لدن خالق الكون، العالم بأسراره التى ما علمتم منها إلا قليلا، وجب عليكم أن تصدقوا كل

ما جاء به من مثل ما فى الآية (٣٩) من سورة النمل صفحة ٤٩٨ و (١٢ إلى ١٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤، وإن لم تكونوا كذلك فللجدل معكم موطن آخر، والسلام على مَنْ اتبع الهدى. وبعد كل هذا. فالمعنى إن الجن أخبروا قومهم بأنه كان فى الجاهلية رجال من الإنس يتحصنون لدفع الأذى عنهم برجال من الجن، فزادهم هؤلاء الرجال من الإنس الرجال المستعاذ بهم من الجن طغيانا وسفهًا وجرأة على ارتكاب المنكر، والعبرة فى أن يقص سبحانه علينا قول هؤلاء الجن المؤمنين بعد سماع القرآن هى إعلامنا أن بعض الجن أدركوا خطأ الإنس فى هذا التعوذ، وأدركوا أيضًا سفه إخوانهم من الجن حيث فرحوا بتعوذ الإنس بهم، وظنوا أنهم بهذا صاروا أسيادا مسيطرين على أولاد آدم الذى فضله الله عز وجل على الجن. وأن بعض الإنس ظنوا كما ظننتم يا كفار الجن أن لن يبعث الله أحدا بعد الموت، أى أنكروا البعث كما أنكرتم. وأنا قصدنا جهة السماء لنسترق السمع فوجدناها ملئت حراسًا أشداء وشهبًا يرمى بها كل مَنْ يدنو منها، مع أننا كلنا قبل هذه الحالة نتخذ أمكنة منها تهيؤنا للتسمع. لكن طرأ أن من يحاول منا الاستماع الآن يجد له شهابا مرصودًا لمطاردته. وأنا لا ندرى بعد منع السمع هل هذا شر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم خيرا؟ وأنا كان منا الكاملون فى الاستقامة لغلبة الخير على طبائعهم، ومنا آخرون أقل منهم فى ذلك. أى والأكثرون كافرون كما يشعر به السابق واللاحق، فكنا على طرق مختلفة. وأنا علمنا بعد سماع هذا القرآن أنه لا يمكن أن نفلت من قبضة الله لا بالدخول فى جوف الأرض، ولا بالهرب إلى أعلا السماء، وأنا لما سمعنا القرآن الداعى إلى الهدى آمنا به لأنه من عند ربنا. ومَنْ يؤمن بربه وكلامه فلا يخاف نقص ثواب ولا إصابة ذلة وهوان. وأنا الآن بعد وجود هذا الرسول منا مَنْ آمن به. ومنا مَنْ جار وظلم نفسه بالكفر به. أما مَنْ أسلم فهؤلاء قصدوا بأعمالهم الوصول إلى الخير. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وهذا آخر كلام الجن. ثم بعد هذا البيان تحدث سبحانه عن كفار مكة فقال: وأن لو استقاموا.. إلخ. أى لو استقام الكافرون بعد سماع هذه العبر على الطريقة المستقيمة لعاشوا عيشة رغدا لا ضيق فيها، انظر الآية (٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨. ومَنْ أراد الوقوف على تفصيل استراق الشياطين للسمع من أول الخليقة وقبيل الإسلام وبعد نزول القرآن، فليرجع إلى شرح حديث رقم ٤٢٦ من كتابنا (صفوة صحيح البخارى).

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾
وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ
لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾
قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن
يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾
إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟
مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾
قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ
أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾
إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

المفردات: ﴿لنفتنهم فيه﴾: أصل الفتنة الاختبار. والمراد هنا: لنعاملهم معاملة المختبر. ليظهر للعيان هل يشكرون النعمة أم يكفرونها.

﴿ذكر ربه﴾: الذكر هنا هو القرآن، انظر الآية (١-٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٥.

﴿يسلكه﴾: أى يدخله، والأصل يسلكه فى عذاب، انظر الآية (٢٠٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢، والآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩. ﴿صعدا﴾: أصل الصعد: العقبة التى يصعب تخطيها، ويستعيره العرب لكل ما هو شاق، فالمراد هنا: عذابا شاقا: صعبًا تحمله.

﴿وأن المساجد لله﴾.. إلخ: أى وأن المساجد مختصة بعبادته تعالى وحده لا شريك له، فلا تدعوا غيره تعالى فيها. ﴿عبدالله﴾: هو النبى ﷺ. ﴿يدعوه﴾: أى يعبد ربه بالصلاة وقراءة القرآن. ﴿كادوا﴾: أى قرب الجن عند سماع القرآن منه ﷺ كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧٠، ٦٧١. ﴿لبدا﴾: جمع لبدة بكسر فسكون، بوزن نعمة. واللبدة هى الصوف أو الشعر الملتصق بعضه ببعض التصاقًا شديدًا، والمراد: جماعات متزاحمة، متلاصقة. تعجبًا مما سمعوا. ﴿ضرا ولا رشدا﴾: أى ضلالا ولا هداية.

﴿من دونه﴾: أى من غيره تعالى. ﴿ملتحدا﴾: أى ملجأ. انظر الآية (٢٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤. ﴿إلا بلاغا﴾: مستثنى من (رشدا) وما بينهما ذكر لتأكيد عجزه ﷺ عن شئون غيره ببيان عجزه عن شئون نفسه. والبلاغ هو التبليغ. والمراد: تبليغ ما أنزل من القرآن المأمور به من الله سبحانه وتعالى، انظر الآية (٦٧) من سورة المائدة صفحة ١٥٠. ﴿رسالاته﴾: المراد: وتبليغ رسالاته التى يوصيها إلىَّ سبحانه على لسان جبريل لتفصيل أنواع العبادات، وبيان كيفياتها، كالصلاة والزكاة والحج، وغير ذلك من كل ما تحتاج إليه الدعوة.

(١) المساجد. (٢) أدعو. (٣) بلاغا.
(٤) رسالاته. (٥) خالدين. (٦) عالم.

﴿ما يوعدون﴾: أى من العذاب: ﴿إن أدرى﴾: (إن) حرف نفى أى لا أدرى. ﴿أقريب ما توعدون﴾: أى هل العذاب الذى توعدون به قريب؟ ﴿أمدا﴾: المراد: زمنًا بعيدًا. ﴿يسلك﴾: أصل معنى يسلك: يدخل كما تقدم فى الآية (١٧) هنا، وأريد به هنا: يجعل. ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾: كناية عن كل جوانبه.

المعنى: يقول سبحانه لو استقام الكفار على ملة الإسلام لمتعناهم فى الدنيا متاعا حسنا لنعاملهم معاملة المختبر ليظهر استعدادهم هل يشكرون مَنْ أنعم عليهم أم ينكرون فضله ويكفرون به: فمن أقبل على الإسلام فاز بالسعادة. ومن يعرض عن القرآن وإرشاده يدخله سبحانه عذابا شديدا. وكان المشركون إذا دخلوا المسجد الحرام طافوا حول الكعبة وهم يتوسلون بأصنامهم فأراد سبحانه أن يوبخهم على ذلك، فقال: وأن المساجد.. إلخ. أى وقل لهم أيها النبى أنه أوحى إلىّ أن المساجد لله وحده فلا تدعوا فيها مع الله عز وجل أحدا غيره، وأوحى إلىّ أيضا أنه لما قام عبدالله ورسوله يعبد ربه بالصلاة وقراءة القرآن كاد الجن أن يطبقوا عليه كطبقات اللبد من شدة تعجبهم من القرآن، وقل لكفار مكة موبخًا: أنا لا أعبد إلا ربى ولا يصح أن أشرك به أحدًا من خلقه. وقل لهم: إنى لا أملك شيئًا من الضرر والنفع. وقل لهم إنى لا أملك لكم ذلك لأنى لا أملك لنفسى شيئًا منه؛ لأنه لن يجيرنى من الله أحد إن أرادنى بسوء، ولن أجد غيره ملجأ أتحصن به. قل لهم لا أملك لكم شيئًا من أسباب الرشد إلا تبليغكم ما أنزل إلىّ بأمر منه سبحانه، وإلا تبليغكم أيضًا رسالاته التى حملها إلى جبريل غير القرآن لبيان بقية العبادات وغير ذلك. وقل لهم إن الله يقول لكم إن الفريق منكم الذى يعصى الله فيما جاء فى كتابه، أو يعصى رسوله فيما أمر به فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا.

ولما كان كفار مكة يعتزون بكثرة الأنصار والأولاد قال سبحانه: حتى إذا رأوا.. إلخ. أى أعرض عنهم أيها النبى ودعهم فى غفلة عن الهول الذى ينتظرهم حتى إذا رأوا ما وعدهم الله به من العذاب الأكبر فسيعلمون حينئذ من أضعف ناصرًا وأقل عددًا، هل هم أم جند الله؟ ولما قالوا على سبيل الاستهزاء: متى هذا العذاب الذى تعدنا به يا محمد قال سبحانه: قل لهم لا أدرى هل ما وعدكم الله به من العذاب قريب أم يجعل له ربى زمنًا طويلاً لا علم لى به، ثم بيَّن أن وقت هذا العذاب من الغيب الذى اختص الله به فقال: (عالم الغيب).. إلخ. أى هو ربى وحده الذى يعلم الغيب فلا يطلع على غيبه أحدًا من خلقه إلا الرسول الذى يرتضيه لحمل رسالته لخلقه. ولقصر علم الغيب على هذا الرسول فإنه سبحانه يجعل حوله حرسًا ساعة إطلاعه على الغيب الذى يتعلق برسالته.

المفردات: ﴿رصدا﴾: تقدم معناه فى الآية (٩) من هذه السورة صفحة ٧٧١ وانظر مدلول ذلك فى الآيات (٢١٠، ٢١١، ٢١٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢ والآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٢٨.

﴿ليعلم﴾: أى الرسول المرتضى.

﴿أبلغوا﴾: المراد جملة الوحى من الملائكة ومن معهم من الحرس.

﴿أحاط بما لديهم﴾: المراد: علم سبحانه جميع أحوال هؤلاء الملائكة.

﴿أحصى كل شىء عددا﴾: المراد: شمل علمه سبحانه عدد كل شىء مما كان وما سيكون من كبير وصغير.

خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ
وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

(٧٣) سُورَةُ المُزَّمِّلِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا عِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ
أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ
تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ
ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ
سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ
تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

المعنى: أنه سبحانه إذا أراد إطلاع رسول من رسله على بعض الغيب الذى يتعلق برسالته فإنه يحيط هذا الرسول بحرس شديد من الملائكة والشهب حتى يحفظ هذا الغيب من تلاعب الشياطين فلا يتسرب إليه دخيل، كما تقدم فى شرح الآيات من (٧ إلى ١٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧. ومن أهم هذا الغيب ما نزل من القرآن. وقد تكفل سبحانه بحفظه حتى لايتطرق إليه ما تطرق إلى غيره، انظر الآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٢٨. والمعنى أخبر سبحانه بكل هذا الحرس الشديد ليعلم الرسول الذى ارتضاه علما قاطعاً أن رسل الوحى من الملائكة قد أبلغوه رسالات ربهم كما هى من غير تخليط. والحال أنه سبحانه قد علم بما لدى رسل الوحى. وكيف لا يعلم أحوالهم وهو الذى أحصى عدد كل شىء مما كان وما سيكون من كبير وصغير، انظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١ والله تعالى أعلم.

(١) رسالات. (٢) الليل. (٣) القرآن. (٤) الليل.

﴿سورة المزمل﴾

المفردات: ﴿المزمل﴾: أصل المتزمل، وهو الملتف بثيابه. والمراد هنا: المعتكف حزنا مما يقول المشركون. ﴿قم الليل﴾: اتفق العلماء على أن هذه هى أول صلاة فرضت على النبى ﷺ وعلى من آمن معه بمكة، كما سيأتى بيان ذلك فى آخر السورة، فكان ﷺ يصلى هو وأصحابه فى بيوتهم اتقاء لشدة إيذاء قريش وستعلم رفع هذا الغرض عن الأمة فيما بعد.

﴿نصفه﴾: بيان للقليل، كأنه قال: هذا القليل هو النصف. وإنما سماه قليلا للإشارة إلى أن الزمن الذى يخلو من ذكر الله قليل مهما كان كثيرًا، بل يستحق أن يكون لا شىء، وأن العامر بالعبادة بمنزلة الأكثر بل بمنزلة الكل؛ وفيه حث للمؤمن على أن يشغل أوقاته بذكر ربه.

﴿انقص منه﴾: أى من النصف العامر بالعبادة. ﴿زد عليه﴾: أى أيضًا على هذا النصف العامر بالعبادة حتى يكون أكثر من النصف، وما سيأتى فى الآية (٢٠) من هذه السورة يدل على أنه ﷺ لم يقم هو والمؤمنون مقدارًا من الليل يصل إلى الثلثين. ﴿رتل القرآن﴾: أى اقرأه على مهل فإن ذلك يساعد على التدبر. ﴿قولا ثقيلا﴾: هو القرآن.. لما فيه من التكاليف الشاقة على النفوس. ﴿ناشئة الليل﴾: أى العبادة التى تنشأ فى الليل. ﴿أشد وطأ﴾: أصل الوطء وضع القدم على الأرض فى ثبات. والمراد: أشد ثباتا ورسوخًا فى النفوس من عبادة النهار. ﴿أقوم قيلا﴾: القيل هو المقال، وأريد به هنا القرآن المقروء، وأقوم أى أحسن وأفضل؛ لأن السكون يساعد القلب على استحضار المعانى. ﴿سبحًا﴾: المراد تحركا فيما يشغلك من المهام. ﴿تبتل﴾: أصل التبتل الانقطاع، والمراد: جرد نفسك لمراقبة ربك متوجهًا إليه بقلبك. ﴿المشرق والمغرب﴾: أى مشرق الشمس ومغربها، انظر الآية (٤٠) من سورة المعارج صفحتى ٧٦٥، ٧٦٦ والمراد: رب العالم كله.

المعنى: روى البخارى وغيره من كتب السنة أن أول ما نزل من القرآن بعد ﴿اقرأ باسم ربك﴾ هو أول سورة المدثر إلى آخر الآية (٥)، انظر ما تقدم فى شرح الآية (١٠) من سورة النجم صفحة ٧٠١، وبعدما أعلن ﷺ رسالته، اجتمع صناديد الكفر من قريش وتآمروا فيما يمنعون الناس به من أتباعه ﷺ فقالوا نقول عنه إنه ساحر، أو كاهن، أو شاعر.

ولما بلغ ذلك النبى ﷺ حزن حزنًا شديدًا من مقابلة قومه وعشيرته له بهذا الافتراء. ودخل بيته والتف بثيابه ونام يفكر كما يفعل المهموم. فأتاه جبريل وهو على هذه الحال وبلغه قوله تعالى: (يا أيها المزمل).. إلخ. وإنما ناداه سبحانه بهذا الوصف تأنيسًا له وملاطفة كما هى عادة العرب إذا أرادوا تخفيف هم واحد منهم وملاطفته فإنهم ينتزعون له اسمًا من حالته التى هو عليها.

ومن ذلك قوله ﷺ لعلى بن أبى طالب لما دخل عليه ووجده نائمًا على التراب: (قم يا أبا تراب) ومن هذا تعلم أن قول بعضهم إن المدثر نزلت بعد المزمل إنما يصح إذا كان يريد أن بقية المدثر بعد الآيات الخمس الأولى هو الذى نزل.

والمعنى: يا أيها الملتف فى ثيابه ألما من قومه، قم وصل لربك نصف الليل، أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث، أو زد على النصف قليلا، والمراد لا حرج عليك إذا صليت مقدار ما مما ذكر، فقدر ظروفك، ولا تُحمِّل نفسك ما لا طاقة لك به بشرط أن لا تنقص عما حددنا لك أنت وأمتك من هذا الزمن، ثم خفف سبحانه عنهم بما سيأتى فى آخر السورة من قيام مقدار مّا من غير تحديد بزمن معين، إلا أن هذا القيام حتى مع التخفيف كان فرضا عليه ﷺ ومندوبا لأمته، رفع سبحانه فرض قيام الليل عن الأمة وأوجب صلاتين عليها وعليه ﷺ، صلاة العصر وصلاة الصبح، وكل صلاة كانت ركعتين، كما ستعلم آخر السورة.

وروى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: إن الله عز وجل افترض على النبى ﷺ قيام الليل فى أول سورة المزمل فقام الليل هو وأصحابه مدة من الزمن ثم خفف عنه فى آخر السورة. وقال ابن عباس بما قالت به عائشة.

وقال سعيد بن جبير: مكث ﷺ يقول هو وأمته هذا المقدار من الليل مدة ثم نزل آخر السورة بالتخفيف عنهم وبقى الفرض عليه ﷺ وحده من آية (ومن الليل فتهجد به نافلة لك..) الآية (٧٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥ كما سيأتى آخر السورة؛ واقرأ القرآن فى صلاة الليل على مهل فإن ذلك يساعدك على تدبره. وإنما أمرناك بذلك لأن الصلاة تساعدك على تحمل المشاق كما فى الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠، ونحن سنلقى عليك قرآنا ثقيل التكاليف على النفوس. فعود نفسك ومَن آمن معك على ذلك؛ لأن العبادة التى ينشئها أى يوجدها العابد فى الليل أشد تأثيرا فى النفس من عبادة النهار، والقراءة فيها أفضل من قراءة النهار، لأن انقطاع الأصوات وحضور القلب فيها متوفر، وإنما رغبناك فى قيام الليل لأنك فى النهار مشغول بمهام الرسالة الأخرى، ومهام أسرتك، وداوم على ذكر ربك ما استطعت على أى

فاتخذه وكيلا ﴿٩﴾ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا
جميلا ﴿١٠﴾ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم
قليلا ﴿١١﴾ إن لدينا أنكالا وجحيما ﴿١٢﴾ وطعاما ذا
غصة وعذابا أليما ﴿١٣﴾ يوم ترجف الأرض والجبال
وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴿١٤﴾ إنا أرسلنا إليكم
رسولا شاهدا(١) عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ﴿١٥﴾
فعصى فرعون الرسول فأخذناه(٢) أخذا وبيلا ﴿١٦﴾
فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان(٣) شيبا ﴿١٧﴾
السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴿١٨﴾ إن هذه
تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴿١٩﴾ * إن ربك
يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل(٤) ونصفه وثلثه
وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل(٥) والنهار

وجه، وبأى ذكر. وجرد نفسك لمراقبته سبحانه. لأن فى ذلك طمأنينة القلب، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥، ٣٢٦، ثم بيَّن سبحانه ما يؤيد وجوب الاعتماد عليه وحده فقال: رب المشرق.. إلخ، أى ربك أيها النبى هو رب الكون كله، لا إله إلا هو.

المفردات: ﴿هجرا جميلا﴾: هو مالاعتاب معه.

﴿ذرنى والمكذبين﴾: أى اتركنى وإياهم، والمراد: أرح نفسك منهم فإنى قادر فإنى قادر على عقابهم.

﴿أولى النعمة﴾: أى أصحاب التنعم بالأموال والأولاد. وهم صناديد الكفر كما تقدم، وفيه إشارة إلى سبب تكبرهم.

﴿مهلهم﴾: أى اتركهم برفق وعدم مبالاة.

﴿قليلا﴾: أى زمنًا قليلا.

﴿لدينا﴾: أى عندنا من العذاب ما أعددناه لهم إذا استمروا.

﴿أنكالا﴾: جمع نكل بكسر فسكون. وهو القيد الثقيل، انظر المادة فى الآية (٦٦) من سورة البقرة صفحة ١٣.

﴿جحيمًا﴾: أى نارا شديدة التوقد.

﴿ذا غصة﴾: الغصة اسم لما يقف فى الحلق فلا يخرج ولا ينزل فى الجوف، كالعظم

(١) شاهدا.
(٢) فاخذناه.
(٣) الولدان.
(٤، ٥) الليل.

والشوك، والمراد: طعاما مصحوبا بشىء بشع يوقفه فى الحلق، فيحدث ألما شديدًا. ونظيره فى قوله تعالى (يتجرعه ولا يكاد يسيغه..) الآية (١٧) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، وانظر الآية (٦٢) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ والآية (٤٣) وما بعدها من سورة الدخان صفحة ٦٥٩ والآية (٦) وما بعدها من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.

﴿ترجف الأرض﴾: أى تضطرب وتتزلزل عند النفخة الأولى، انظر الآية (١) من سورة الحج صفحتى ٤٣٢، ٤٣٣، والآية (١) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٧، والمراد هنا: وحذرهم هول يوم ترجف الأرض. وتخويف المشركين فى عهد الرسول ﷺ بقيام الساعة معهود فى القرآن.

﴿كثيبًا﴾: الكثب هو الكومة من الرمال. ﴿مهيلا﴾: أى متناثرا.

﴿شاهدا عليكم﴾: انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

﴿وبيلا﴾: أى ثقيلا شديدًا، انظر الآية (١٥) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢.

﴿السماء منفطر به﴾: أى متشققة كما فى الآية (١) من سورة الإنفطار صفحة ٧٩٥ والآية (١) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩.

﴿به﴾: أى بسبب هول هذا اليوم، وإنما جاء بصيغة المذكر، ولم يقل (منفطرة) لأن السماء تذكر باعتبارها سقفا، كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣.

﴿وعده﴾: المراد ما وعد به سبحانه من حوادث يوم القيامة.

﴿مفعولا﴾: أى حاصلا لا محالة.

﴿هذه﴾: أى آيات القرآن المتقدمة.

﴿تذكرة﴾: أى تذكير وموعظة.

﴿يقدر الليل﴾: أى يعلم مقاديره ويحصيها بدقة.

﴿وطائفة من الذين معك﴾: (من) فى قوله (من الذين معك) بيانية لا تبعيضية أى طائفة هم الذين آمنوا معك، ومثلها (من) فى قوله تعالى ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ الآية (٣٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٧، وكل الأوثان رجس، وفى قوله ﴿الذين استجابوا لله والرسول من

بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ الآية (١٧٢) من سورة آل عمران صفحة (٩١) والذين استجابوا كلهم محسنون متقون.

المعنى: افعل المطلوب منك أيها النبى، وفوض أمورك لربك فإنه يكفيك كل شىء. واصبر على ما يقول الكفار من الباطل. واهجرهم هجرًا جميلا حتى لا تمكنهم من العنف. وأرح نفسك من هؤلاء الذين أغراهم التنعم الكثير على تكذيبك. ومهلهم زمنا قليلا وترى بعده ما يحل بهم. إنا أعددنا لهم فى جهنم قيودًا ثقيلة توضع فى أرجلهم وهم فى الجحيم. وإن عندنا لهم طعاما معه ما تقف فى حلوقهم فلا يخرج ولا ينزل فلا يستريحون. وفوق ذلك عذابا شديد الألم لا يعلمه إلا هو سبحانه. لدينا كل هذا سنعذبهم به يوم ترجف الأرض والجبال عند النفخة الأولى. وتصير الجبال كالرمل المتناثر. ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧.

ثم وجه سبحانه الخطاب للمكذبين أصحاب النعيم ليذكرهم بما حصل لمن كذبوا رسولهم من الماضين فقال: إنا أرسلنا إليكم أى يا أهل مكة رسولا سيكون شاهداً عليكم يوم القيامة كما أرسلنا إلى فرعون رسولا هو موسى. فعصى فرعون رسوله فعاقبناه عقابا شديدا. وإذا كان الأمر كما ذكر فخبرونى بأى شىء تتقون - إن بقيتم على الكفر - هول يوم يجعل الولدان شيبا. أى كل واحد منهم يكون من الهم كالرجل الأشيب، السماء تتشقق من هوله. وكان ما وعد به سبحانه لابد من حصوله، إن ما ذكر من هذه الآيات تذكير وعظة، فمَنْ شاء النجاة منكم ومن غيركم يسلك طريقًا يوصله إليها وليس إلا الإيمان والعمل الصالح. وبعد ذلك أراد سبحانه أن يخفف عنه ﷺ وعن أصحابه الذين قاموا الليل مثله، وذلك أنهم كانوا لجهلهم مقادير الليل لا يعرفون النصف والثلث بالتحديد، فكان الواحد منهم ربما قام إلى قبيل الفجر محتاطا وفى هذا من الشدة ما فيه.

قال ابن جرير روى سعيد بن جبير أنه قال: لما أنزل الله سبحانه على نبيه (يا أيها المزمل) مكث ﷺ يقوم الليل كما أمره ربه مدة من الزمن، ويقوم كما تقوم طائفة هى كل من آمنوا بالله عزوجل معه ﷺ، فأنزل سبحانه بعد ذلك: إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى أى أقل من ثلثى الليل ولكن فوق النصف، وتقوم أيضًا نصفه، وثلثه؛ وتقوم معك طائفة هم المؤمنون، والله وحده هو الذى يعلم مقادير الليل والنهار بالتحديد.

عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ[1] عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ[2] يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ[2] يُقَاتِلُونَ[3] فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ[4] وَآتُوا[5] الزَّكَاةَ[6] وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

(٧٤) سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سِتٌّ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾

المفردات: ﴿أن لَّن﴾: تنطق أَلَّن والمراد: أنكم لن تحصوه، انظر الآية (٣) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩.

﴿لن تحصوه﴾: أى لن تستطيعوا إحصاء أجزاء الليل بدقة. وبهذا تقعون فى مشقة لو طلب منكم قيام مقدار محدد منه.

﴿فتاب عليكم﴾: المراد: خفف عنكم، بأن تفعلوا ما تيسر لكم.

﴿فاقرءوا ما تيسر لكم﴾: المراد: صلوا قارئين القرآن فى صلاتكم بدون تحديد بزمن معين، انظر الآية (١١٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩.

﴿أن سيكون﴾: (أن) أصلها أنه وهى مثل سابقتها.

﴿يضربون فى الأرض﴾: أى يسافرون للتجارة، انظر الآية (١٠٦) من سورة المائدة صفحة ١٥٨. ﴿يبتغون﴾: أى يطلبون. ﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾: ذكره ثانيًا لأنه هنا مرتب على أسباب أخرى للتخفيف غير السبب الأول، وهى المرض، والسفر، والجهاد.

﴿أقيموا الصلاة﴾: هذه هى الصلاة التى فرضت بعد تخفيف قيام الليل وكانت ركعتين فى العصر ومثلها فى الصبح، روى مسلم فى صحيحه عن جرير بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: إن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها يعنى العصر والفجر، ثم فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء كما هو موضح هناك.

﴿آتوا الزكاة﴾: كانت الزكاة مفروضة بمكة من غير تحديد مقدار معين، انظر شرح الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤. ﴿وأقرضوا الله قرضا حسنا﴾: تقدم فى الآية (١١) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠. ﴿من خير﴾: (من) تدل على أن (خير) بعدها بيان لـ (ما) قبلها.

---

(١) القرآن. (٢) آخرون. (٣) يقاتلون.
(٤) الصلاة. (٥) آتوا. (٦) الزكاة.

المعنى: والله وحده هو الذى ضبط جميع أجزاء الليل والنهار بغاية الدقة فى كل لحظة. وعلم سبحانه أن الحقيقة الثابتة هى عجزكم عن ضبط ساعات الليل بالدقة. ولهذا أوقعكم الاحتياط فى مشقة. وإذا كان الأمر كما ذكر فإنه سبحانه خفف عنكم، ولم يلزمكم بقيام المقادير المبينة أول السورة، فصلوا واقرءوا القرآن فى صلاتكم ما تيسر لكم من أجزاء الليل بدون تحديد. وروى أن قيام الليل بالمقدار المبين أولا كان فرضا عليه ﷺ وعلى مَنْ آمن معه. وكان بعضهم يصليه معه وبعضهم يصليه فى بيته. ثم خففه بالنسبة للمؤمنين بالاكتفاء بصلاتين. وبقى قيام الليل على أنه سنة.

أما بالنسبة له ﷺ فإنه بقى فرضا عليه ﷺ. لكن بدون تحديد زمن معين، انظر الآية (٧٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥. وبعد ما بيَّن سبحانه أن سبب التخفيف هو صعوبة ضبط الأوقات على المؤمنين. الأمر الذى أوقعهم فى مشقة أراد سبحانه أن يبين سببا آخر للتخفيف فقال: علم أن سيكون.. إلخ. أى علم سبحانه أن الحال الثابت وقوعه فى المستقبل هو وجود مرضى منكم، ومسافرون للتجارة يطلبون من فضل الله ربحًا، ومقاتلون فى سبيل الله. وإذا كان الأمر كذلك، فاقرءوا ما تيسر من القرآن فى صلاة الليل. وأقيموا الصلاة التى فرضت عليكم قبل طلوع الشمس وقبل الغروب كما تقدم. وآتوا الزكاة، وأنفقوا بعد ذلك فى وجوه الخير يجازيكم عليه سبحانه أجرًا مضاعفًا. وكل خير تقدمونه لأنفسكم فى حال صحتكم مما ذكر سابقا وما لم يذكر تجدون ثوابه عند الله يوم القيامة خيرًا مما وصيتم بإنفاقه بعد الموت. ثم بيَّن بعض وجوه هذه الخيرية، فقال: وأعظم أجرا، أى يضاعفه سبحانه أضعافا كثيرة ولما كان الإنسان لا يخلو من تفريط. أرشده سبحانه لكثرة فى جميع الأحوال. والله يغفر لمن يستغفره لأنه سبحانه كثير المغفرة، واسع الرحمة.

سورة المدثر

المفردات: ﴿المدثر﴾: أصلها المتدثر، أى لابس الدثار؛ والدثار بكسر الدال هو ما يغطى الجسم؛ وقد بيَّنا سبب تدثره فى شرح الآية (١٠) من سورة النجم صفحة ٧٠١، وحكمة مناداته بهذا الوصف فى الآية (١) من سورة المزمل صفحة ٧٧٣.

﴿أنذر﴾: أى حذر وخوف عشيرتك الأقربين أولاً ثم جميع الناس ثانيًا، أى من عذاب الله إن لم يؤمنوا.

المعنى: قد علمت فى شرح الآية (١٠) من سورة النجم صفحة ٧٠١ أن الوحى كان قد انقطع عنه ﷺ مدة ثلاث سنين حتى حزن حزنًا شديدًا. وفى يوم كان وحده على جبل حول

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن
تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨)
فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ[1] غَيْرُ
يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا
مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤)
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا[2] عَنِيدًا (١٦)
سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ
قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا
سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ
سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ[3] مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨)
لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا

مكة فرأى جبريل بصورته الحقيقية. فرجع خائفا وقال لخديجة رضى الله عنها: دثرونى دثرونى. فنزل عليه جبريل بقول الله تعالى: يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر. أى وخص ربك بالتكبير والتعظيم ونزهه عما يفتريه الكافرون.

المفردات: ﴿ثيابك فطهر﴾: قال ابن عباس: ذلك كناية عن تطهير الباطن من العيوب، يقول العرب: فلان طاهر الثياب، نقى الذيل. إذا كان بعيدا عن كل عيب.

﴿الرجز﴾: بضم الراء وكسرها، قال مجاهد: المراد بالرجز هنا الصنم الذى يعبد، وله معان أخرى، منها ما فى الآية (١١) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٨.

﴿ولا تمنن﴾: من المن، وهو الإنعام، أى لا تعط غيرك شيئا لتأخذ أكثر منه، بل أجعله لوجه الله.

﴿تستكثر﴾: جملة تستكثر حال من فاعل (تمنن) وهو النبى ﷺ أى لا تعط غيرك شيئًا حال كونك طالبا أكثر مما أعطيت.

﴿فإذا نقر فى الناقور﴾: (إذا) ظرف منصوب بفعل مستفاد من معنى جملة (فذلك يومئذ) إلخ. وتقدير هذا الفعل: أشتد الهول فى وقت النقر. و(نقر): أصل النقر الضرب على شىء يحدث صوتا وأريد به هنا النفخ فى الصور الذى يحدث الصوت الذى يخرج الناس من القبور كما فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ و(الناقور) أصله مكان النقر، وأريد به الصور المشار إليه سابقا.

﴿فذلك﴾: أى فذلك الزمن الذى ينفخ فيه فى الصور، وهو مبتدأ وخبره (يوم عسير) الآتى (يومئذ) بدل من (ذلك) المتقدم. ﴿غير يسير﴾: المراد: لا يمكن أن ينكشف عسره حتى يرجع

(١) الكافرين. (٢) لآياتنا. (٣) أدراك.

يسيرا كما هو حال العسر فى أحوال الدنيا، انظر الآية (٥) من سورة الشرح صفحة ٨١٢.

﴿ذرنى ومن خلقت﴾: المراد: لا تشغل نفسك به واترك لى عقابه، انظر الآية (١١) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤.

﴿وحيدًا﴾: أى فريدًا فى كل أحواله من مبدأ ميلاده كما فى الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨. ثم بعد ذلك جمع من الصفات ما لم يوجد فى غيره. فمن صفات الذم ما فى الآيات (١٠ - ١٥) من سورة القلم صفحة ٧٥٨. ومن مظاهر الدنيا ما ذكر هنا فكان أوجه العرب فى عصره حتى لقبوه (بالوحيد) وهو الوليد بن المغيرة، وهو أحد الرجلين اللذين تمنى المشركون أن يكون الرسول واحدًا منهما، انظر شرح الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

﴿مالا ممدودًا﴾: أى مبسوطا كثيرا. فكان له بين مكة والطائف من الإبل والغنم والعبيد والبساتين ما ليس عند غيره.

﴿وبنين شهودا﴾: أى حضورا فى المحافل معه بمكة، يتمتع بهم لا يشغلهم عن ذلك شىء. وكانوا أكثر من سبعة. ما تواكلهم على الكفر مثله إلا ثلاثة فإنهم أسلموا منهم (خالدبن الوليد) رضي الله عنه. القائد المشهور المظفر فى جميع مواقعه.

﴿ومهدت له تمهيدا﴾: أى هيأت وبسطت له من المال والرئاسة جاهًا عريضًا حتى كانوا يلقبونه (ريحانة قريش).

﴿كلا﴾: أى زجرا له عن هذا الطمع.

﴿إنه كان﴾: علة الزجر. ﴿لآياتنا عنيدا﴾: أى شديد المعاندة للقرآن. حتى قال فيه ما سيأتى فى آيتى (٢٤، ٢٥) هنا.

﴿سأرهقه صعودا﴾: (أرهقه) أى أحمله شدائد، انظر شرح الآية (٦) من سورة الجن صفحتى ٧٧٠، ٧٧١. وأصل الصعود العقبة التى يصعب تخطيها. ويستعار لكل شاق. فالمراد سأحمله مشقة من العذاب. (إنه فكر): بيان لسبب تعذيبه، والمراد فكر فى شىء يطعن به فى القرآن بعد ما سمعه.

﴿قدر﴾: أى قدر الذى يمكن أن يقال. ﴿فقتل﴾: دعاء عليه.

﴿كيف قُدِّر﴾: استفهام مراد به لفت النظر للتعجب من شناعة حالة استهزاء به.

﴿ثم قتل﴾: مبالغة فيما سبق.

﴿ثم نظر﴾: أى فى وجوه القوم وهم ينتظرون رأيه.

﴿عبس﴾: أى قطب ما بين عينيه متألما من عدم العثور على مطعن.

﴿بسر﴾: أى تغير شكل وجهه. وقبح منظره بتقلص شفتيه وبروز أسنانه من شدة الكرب، انظر الآية (٢٤) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠.

﴿إن هذا﴾: أى ما هذا القرآن.

﴿يؤثر﴾: أى يروى ويتعلم عن أهل بابل بالعراق، انظر الآية (١٠٢) من سورة البقرة صفحة ٢٠.

﴿إن هذا إلا قول البشر﴾: تأكيد لما قبله.

﴿سأصليه سقر﴾: سأدخله جهنم.

﴿وما أدراك ما سقر﴾: تقدم المراد من هذا التركيب فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

﴿لا تبقى﴾: أى على شىء مما يطرح فيها بل تحرقه.

﴿لا تذر﴾: أى لا تتركه يخرج منها. بل كلما أراد الخروج أعيد فيها، انظر الآية (٢٠) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧.

﴿لواحة﴾: أى شديدة التسويد للجسم. من قولهم لوحته الشمس بحرها: إذا سودت جلده.

﴿للبشر﴾: اسم جمع لبشرة. كبقر وبقرة. والبشرة ظاهر للجلد.

﴿تسعة عشر﴾: لا ندرى هل هم رؤساء ملائكة العذاب أو أنواع منهم والذى يهمنا أنهم جنود من جنود الله الذين سخرهم لتعذيب أهل النار، انظر الآية (٣١) الآتية من هذه السورة.

المعنى: وابعد أيها النبى قلبك ونفسك وأعمالك عن كل عيب من العيوب الباطنة والظاهرة كالحقد والحسد والبخل والرياء وغير ذلك حتى لا يمسك شىء من عيوب المشركين. ولا تعط خيرا لأحد منتظرا منه أكثر، بل اعط ابتغاء وجه الله وحده وإلا كنت متاجرا، فاصبر على إيذاء المشركين ومشاق التكاليف لتنال أجرا بغير حساب، انظر الآية (٢٢) من سورة الرعد

صفحتى ٣٢٤، ٣٢٥ والآية (١٠) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧، وسيلقى أعداؤك عاقبة كفرهم يوم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية. فذلك اليوم يوم عسير على الكافرين، لا ينفرج كربه أبدا. وكان الوليد بن المغيرة أكبر صناديد الكفر بمكة، ولما سمع القرآن هجم عليه الحق وكاد يؤمن، ولكنه لما رأى حزن قومه من ذلك استكبر وأصر على العناد. وقد ورد أنه لما سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ عند الكعبة انصرف وقال: ما هذا الذى يقوله محمد كلام أنس ولا جن، وأنه لا يعلو عليه كلام قط. فلما سمعت بذلك قريش شملهم الحزن خوف أن يؤمن فيتبعه العرب. فذهب كبارهم إلى بيته وعلى رأسهم أبو جهل وسألوه. فقال: لا يصح أن نقول إن محمدا مجنون. لأنا لم نره يخنق نفسه، ولا كاهن؛ لأنا لم نره يتعاطى الكهانة.

فقالوا فماذا تقول أنت فيه؟ ففكر كثيرا إلى آخر ما سيأتى. فنزل قوله تعالى: (ذرنى ومَنْ خلقت).. إلخ. أى أرح نفسك أيها النبى واتركنى وأنا أكفيك شر هذا الذى أوجدته فريدا فى كل أحواله، ليس له مال ولا جاه ولا شىء مما سيأتى ذكره. ثم جعلت له مالا كثيرا. وبنين وجهاء يملأون المحافل. وهيأت له من كل ذلك جاها عريضا. ثم بلغ من تكالبه على الدنيا أنه يطمع فى المزيد منها. كلا لن أزيده بعد اليوم. بل سأنقصه لأنه مستمر على شدة المعاندة للقرآن مع علمه بأنه حق. وكفر العناد أفحش أنواع الكفر. سأحمله من مشاق عذاب الدنيا والآخرة مالا يقدر على حمله. وقد حصل أنه زال عزه ومات حقيرا. ثم بيَّن سبحانه سبب تعذيبه فقال: (إنه فكر).. إلخ. أى فكر لعله يجد شيئًا يطعن به فى القرآن. وقدر فى نفسه الذى يمكن أن يموه به على الضعفاء. قاتله الله كيف يقدر هذا الباطل، ثم نظر فى وجوه القوم وهم ينتظرون منه ما يزيل خوفهم من إيمانه، ثم قطب جبينه ألمًا من صعوبة العثور على منفذ. ثم أسرع إلى وجهه شكل قبيح. ثم تمادى فى الإعراض. وبالغ فى الاستكبار عن الخضوع للحق. وقال ما هذا الذى أتى به محمدًا إلا سحر تعلمه من غيره. ألا ترونه فرق بين الرجل وزوجه وولده فصار أحدهما يتبعه والآخر ثابت على دين آبائه؟ ثم أكد ما سبق فقال: ما هذا إلا قول البشر من رجال السحر فتأمل كيف حمله العناد على إنكار ما قرره أولاً بأن البشر لا يقدر على هذا الكلام. ولذا قال سبحانه: سأصليه.. إلخ. أى سأدخله سقر. ولا تدرى أيها السامع ما أهوال سقر. إنها لا تبقى على سلامة من يدخلها. ولا تتركه يخرج منها. تسود الجلد تسويدا شديدا. يشرف على تعذيب من فيها تسعة عشر.. إلخ.

أَصْحَابَ[1] النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً[2] وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ[3] وَيَزْدَادَ
الَّذِينَ آمَنُوا[4] إِيمَانًا[5] وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ[6]
وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ[7]
مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ
إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ[8] إِذْ أَدْبَرَ (٣٣)
وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا
لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ[9] الْيَمِينِ (٣٩)
فِي جَنَّاتٍ[10] يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ
فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ

المفردات: ﴿أصحاب النار﴾: المراد بهم هنا الموكول إليهم تعذيب من يدخلها.

﴿إلا ملائكة﴾: لما فيهم من الصفات المذكورة فى الآية (٦) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢.

﴿وما جعلنا عدتهم﴾: العدة العدد، والمراد: وما أخبرنا عن جعلنا لهم بهذا العدد.. إلخ. انظر نظير ذلك فى تقدير (الإخبار) فى الآية (٢٩) من سورة الحديد صفحة ٧٢٤ والآية (١٢) من سورة الطلاق صفحتى ٧٥٠، ٧٥١.

﴿فتنة للذين كفروا﴾: المراد من الفتنة هنا الامتحان الذى تظهر به طبيعتهم.

وقد روى أن أبا جهل لما سمع عددهم قال: يا شجعان قريش، هل يعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد من هؤلاء التسعة عشر؟ وهذا شأن المضللين مع ضعاف العقول، انظر نظير ذلك فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ والآية (٦٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢ والآيتين (٦٢، ٦٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠. ﴿ليستيقن﴾: أى ليكتسب اليقين بصدق الرسول وكتابه. ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾: من اليهود والنصارى لأنه موافق لما فى دينهم. ﴿ولا يرتاب الذين﴾.. إلخ: المراد: ولا يطرأ عليهم بعد اليقين وزيادة الإيمان شك فى المستقبل أبدًا. ﴿مرض﴾: هو النفاق، كما فى الآية (١٠) من سورة البقرة صفحة ٤. وبما أن النفاق لم يظهر إلا فى المدينة فيكون هذا من إخبار القرآن بالغيب المستقبل، وقد حصل فعلا وأشد منه. (ماذا.. إلخ): استفهام قصدوا به الإنكار. ﴿بهذا﴾: أى بعدد ملائكة النار.

(١) أصحاب. (٢) ملائكة. (٣) الكتاب. (٤) آمنوا. (٥) إيمانا.
(٦) الكتاب. (٧) الكافرون. (٨) الليل (٩) أصحاب. (١٠) جنات

﴿مثلا﴾: المراد بالمثل هنا الشىء المستغرب، وهوحال من اسم الإشارة، انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧.

﴿جنود ربك﴾: المراد بالجنود هنا المخلوقات التى سخرها سبحانه لما يريد ومنها الملائكة، انظر الآية (٤) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨ والآية (٧) من نفس السورة صفحة ٦٧٩. ﴿وما هى﴾: أسم سقر المتقدمة فى الآية (٢٦) من هذه السورة صفحة ٧٧٦. والمراد ما الحديث عنها إلا ذكرى.. إلخ.

﴿ذكرى﴾: أى تذكير وتنبيه. ﴿كلا﴾: حرف يدل على زجرهم من الاستهزاء المفهوم من قولهم (ماذا أراد الله).. إلخ. ﴿والقمر﴾: أى وحق القمر.

﴿إذ﴾: حين. ﴿أدبر﴾: مضى. وهو كناية عن ذهاب الليل، انظر آيتى (١٧، ١٨) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤. ﴿أسفر﴾: أى أضاء وظهر.

﴿إنها﴾: أى سقر. وهذا هو المحلوف عليه. ﴿لإحدى﴾: أى واحدة من الكُبَر. ﴿الكبر﴾: جمع الكبرى وهى الداهية الكبيرة.

﴿نذيرا﴾: النذير هنا بمعنى الإنذار كما فى الآية (١٧) من سورة الملك صفحة ٧٥٦.

﴿لمن شاء﴾.. إلخ: بدل من (للبشر) بدل مفصل من مجمل.

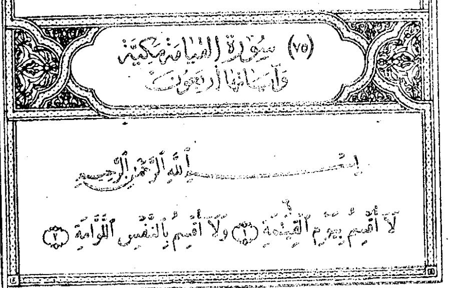
﴿أن يتقدم﴾.. إلخ: أى يتقدم إلى الإيمان والخير، أو يتأخر إلى الكفر والشر. انظر الآية (١٨) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧ والآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. ﴿رهينة﴾: من الرهن أى الحَبس، أى مرهونة فى النار بقدر عملها، والهاء فيها للمبالغة كالهاء فى (فلان علامة. أى كثير العلم).

﴿أصحاب اليمين﴾: المراد بهم هنا المؤمنون الكاملون. فإن كثرة حسناتهم تفك رقابهم من النار. ﴿يتساءلون﴾: أى يسأل بعضهم بعضًا عن حال المجرمين الذين كانوا معهم فى الدنيا وما حل بهم، نظير ما فى الآية (٥٠) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٠.

﴿المجرمين﴾: هم الكافرون، كما فى الآية (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿ما سلككم﴾.. إلخ: أى ما هو الذنب الذى أدخلكم فى سقر.

المعنى: يقول سبحانه: وما جعلنا المشرفين على تعذيب أهل النار إلا ملائكة. لشدتهم وطاعتهم وقدرتهم على كل ما يؤمرون به. وما جعلنا عدتهم.. إلخ. المراد وإنما أخبرنا عن عدد ملائكة جهنم بهذا العدد الذى تسبب فى بروز فتنة الكافرين لحكمة سامية هى اكتساب أهل الكتاب يقينًا بصحة نبوته ﷺ لأنهم يعرفون هذا العدد من دينهم. وزيادة إيمان المؤمنين عندما يعلمون تصديق أهل الكتاب لذلك. ويظهر ذلك واضحًا بعد إيمان بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود وكثير من النصارى المشار إليهم فى الآية (٨٢) وما بعدها من سورة المائدة صفحة ١٥٣، وأيضًا لئلا يعترى أهل الكتاب والمؤمنين شك بعد ذلك أبدا. ومن حكم الإخبار بهذا العدد أيضًا ظهور تضليل المنافقين والكافرين فى المستقبل فيقولون على سبيل الإنكار: ما الذى أراده الله تعالى بهذا العدد المستغرب ولم لم يجعل الملائكة آلافا حتى يمكنهم تعذيب هذا العدد الضخم. فمرادهم لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد القليل. كهذا المذكور سابقًا من إضلال المنافقين والكافرين لإعراضهم عن النظر فى البراهين وهداية المؤمنين لإخلاصهم. يضل الله مَنْ يشاء إضلاله، ويهدى من يشاء هدايته على النظام الذى اختاره لهذه الحياة، انظر بيان ذلك فى شرح الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ والآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ثم سفههم سبحانه على ما يقولونه فقال: (وما يعلم جنود ربك).. إلخ. المراد إنكم لا تعلمون شيئًا عن حقيقة هذه التسعة عشر وعن قوة بطشهم، فضلا عن كل جنود الله التى لا حصر لها. وما الحديث عن سقر وصفاتها إلا تذكير وتنبيه للبشر. فانزجروا عن هذا الاستهزاء وحق القمر حين مضى وذهب ضوؤه والليل إذا ولى. والصبح حين ظهر ضوؤه إن سقر لهى إحدى الدواهى الكبيرة التى أعدها سبحانه لمن يكفر به. أى فلهم عنده سبحانه بلايا غير محصورة. أخبرناكم بها لإنذار البشر لمن شاء منهم أن يتقدم للخير أو يتأخر عنه. وهذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

ثم بيَّن سبحانه المآل لكل عامل فقال: (كل نفس).. إلخ، أى مرهونة فى النار بقدر عملها، فمنهم من يخلد، ومنهم من يخرج بعد استيفاء جزائه، إلا المؤمنين الصادقين فإنهم لا يدخلون النار أبدا، بل هم من أول الأمر فى جنات يتساءلون عن حال الكافرين الذين كانوا يعرفونهم فى الدنيا. وعندما يرونهم فى جهنم يقولون لهم ما الذى أدخلكم سقر؟ يقولون لم نك فى الدنيا من المصلين للفرائض ولم نك نطعم المحتاج. والمراد لم نعبد ربنا ولم نحسن إلى خلقه.. إلخ.


(الجزء التاسع والعشرون)
٧٧٨

ٱلۡمِسۡكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ[1] (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا[2] ٱلۡيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ[3] ٱلشَّٰفِعِينَ[4] (٤٨) فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ (٥٠) فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ (٥١) بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ (٥٢) كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ[5] (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥) وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ (٥٦)

(٧٥) سُورَةُ القِيَامَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا أَرْبَعُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ[6] (١) وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢)

المفردات: ﴿نخوض﴾: أى ندخل فى كل باطل. انظر الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣.

﴿يوم الدين﴾: يوم القيامة.

﴿اليقين﴾: المراد: الموت. انظر الآية (٩٩) من سوره الحجر صفحة ٣٤٥.

﴿التذكرة﴾: أصلها بمعنى التذكير، وأريد به هنا: القرآن مبالغة فى قوة تذكيره حتى كأنه هو التذكرة نفسها.

﴿حمر﴾: جمع حمار. والمراد به هنا حمار الوحش: لأنه هو المعروف عند العرب بشدة النفور.

﴿مستنفرة﴾: تقول العرب: نفرت الدابة إذا شردت شرودًا عاديًا. واستنفرت إذا شردت بقوة، كعجب واستعجب.

﴿قسورة﴾: أى أسد.

﴿بل يريد كل امرئ﴾.. إلخ: عطف على مقدر مفهوم من السياق والأصل لا يكتفون بتلك التذكرة، بل يريد.. إلخ.

﴿صحفا منشرة﴾: أى منشورة غير مطوية ولا مغلقة حتى يقرأها كل من يراها، انظر نظير هذا التعنت فى الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ والآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧.

﴿كلا﴾: أى فلينزجروا عن اقتراح المعجزات تعنتا.

(١) الخائضين. (٢) أتانا. (٣) شفاعة.
(٤) الشافعين. (٥) الآخرة. (٦) القيامة.

﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من تعنتهم إلى بيان سببه، وهو إنكار يوم القيامة.

﴿لا يخافون الآخرة﴾: المراد: ينكرونها. فلذلك لم يبالوا بالتعنت.

﴿كلا﴾: زجرا لهم عن إنكار الآخرة.

﴿إنه﴾: أى القرآن وما فيه من الأدلة والعبر.

﴿تذكرة﴾: أى تذكير بليغ لمَنْ تيقظ ضميره، وأراد الاتعاظ به مخلصًا. فإن الله تعالى يسهل له ذلك.

﴿إلا أن يشاء الله﴾: انظر ذلك فى شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ والآية(١٠٤) وما بعدها من سورة الأنعام أيضًا صفحة ١٨٠.

﴿أهل التقوى﴾: أى أهل لأن يتقى غضبه، وعقابه، فلا يعصى.

﴿أهل المغفرة﴾: أهل لأن يغفر لمن رجع إليه بالتوبة.

المعنى: يقولون فى بيان سبب دخولهم جهنم إنا كنا نمنع الخير عن المساكين. وكنا ندخل فى كل باطل مع المبطلين. وكنا مع ذلك من المكذبين بيوم القيامة. وبقينا فى غفلتنا حتى أتانا الموت.

ثم بيَّن سبحانه حالهم بعد ذلك فقال فما تنفعهم شفاعة الشافعين. لو فرض وشفع فيهم أحد وهو مستحيل لما سبق فى شرح الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦. وإذا كان هذا الذى سيحصل قطعًا فما الشىء الذى دهاهم حال كونهم معرضين عن القرآن مع توافر الأدلة على صدقه.

ثم صور قبح إعراضهم أبشع صورة فقال: كأنهم.. إلخ. أى ينفرون من سماع القرآن نفور حمير الوحش من الأسد الذى يريد افتراسها وهذا منتهى البله حيث خافوا مما هو منشأ الأمان.. ومن العجب ألا يرضى هؤلاء بهذا القرآن الذى أعجز الإنس والجن.

بل يريد كل واحد منهم أن يأتيه من الله كتاب مفتوح عند كل تكليف يكلفه به. وروى عن السلف أنهم قالوا له ﷺ: إن أردت أن نتبعك فأت كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها: من رب العالمين إلى فلان بن فلان. وفيها الأمر من الله بما يريد. فلينزجر هؤلاء عن اقتراح

المعجزات؛ لأن المانع لهم ليس قلة الأدلة بل المانع الحقيقى هو كفرهم بالآخرة، ولذلك لا يبالون بالأدلة.

فلينزجروا عن الإعراض عن الأدلة وعن عدم الإيمان بالآخرة؛ لأن القرآن تذكير بالغ النهاية فى الكفاية، فمن شاء أن يتذكره بإخلاص سهل عليه سبحانه تذكره. وما يتذكرون فى حال من الأحوال إلا فى حال مشيئة الله تعالى على النظام الذى وضعه لهذا العالم. هو سبحانه أهل لأن يتقى غضبه تعالى بالإيمان به وبرسوله. وأهل المغفرة ذنوب عبده إذا رجع إليه بالتوبة الخالصة.

(سورة القيامة)

المفردات: ﴿لا أقسم﴾.. إلخ: المراد: إن بعثنا الخلائق يوم القيامة لا يحتاج فى ثبوته وتحققه إلى قسم، ونظيره فى الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧. فالمحلوف عليه هو أنكم ستبعثون يوم القيامة وحذف ما يعلم شائع فى كلام العرب، ومنه فى القرآن ما فى الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١، والآية (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦، والآية (١٠) من سورة النور صفحة ٤٥٨.

﴿اللوامة﴾: أى التى تلوم نفسها دائما، إن قصرت فعلى التقصير، وإن أحسنت فعلى عدم الزيادة فيه. فهى يقظة دائما أما ينفعها.

المعنى: لا أحلف بيوم القيامة. ولا بالنفس المؤمنة به على أنكم ستبعثون فيه، لأن ثبوته أوضح من أن يحتاج إلى حلف.

المفردات: ﴿أيحسب﴾: أى هل يظن، والاستفهام للتوبيخ على هذا الظن.

﴿الإنسان﴾: المراد به هنا: الكافر المنكر ليوم القيامة، فهو جمع فى المعنى.

﴿أن﴾: الأصل (أن. لن)، انظر الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٤، ٧٧٥.

﴿نجمع عظامه﴾: انظر إنكارهم فى الآية (٤٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١ والآية (٧٨) من سورة يس صفحة ٥٨٦ والآية (١١) من سورة النازعات صفحة ٧٨٩.

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ
عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ
أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ
ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ
وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾
كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾
يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾
لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ
وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ
عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾
وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا

﴿بلى﴾ : حرف يفيد إبطال ظنهم، وإثبات نقيضه، انظر الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿قادرين﴾ : حال من فاعل الفعل المقدر بعد (بلى) والمراد: نجمعها حال كوننا قادرين على جمع أدقها، وهو البنان، كفمام وغمامة.

﴿نسوى﴾ : أى نوجدها مستوية كما كانت.

﴿بنانه﴾ : اسم جمع واحده بنانة وهى طرف الأصبع.

﴿بل يريد﴾ : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر.

﴿ليفجر﴾ : اللام بمعنى (أن)، انظر نظير ذلك فى الآية (٨) من سورة الصف صفحة ٧٣٩.

﴿أمامه﴾ : أصل الأمام: اسم المكان المقابل للوجه، واستعمل هنا فى الزمن المستقبل، والمعنى: ليدوم على فجوره، ولا يتقيد بشريعة.

﴿أيان﴾ : متى. ﴿برق البصر﴾ : أى لمع من شدة شخوصه، كأنه البرق. انظر الآية (٤٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦، والكلام كناية عن شدة الحيرة والخوف.

﴿جمع الشمس والقمر﴾ : المراد: اختل نظام سيرهما المشار إليه فى الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢، فيجمعهما الفناء.

---

(١) الإنسان. (٢) قادرين.
(٣) الإنسان. (٤) يسأل.
(٥) القيامة. (٦) الإنسان.
(٧) ينبأ. (٨، ٩) الإنسان.
(١٠) قرآنه. (١١) قرأناه.
(١٢) قرآنه. (١٣) الآخرة.

﴿كلا﴾ : زجرًا لهم عن تمنى الفرار.

﴿لاوزر﴾ : أى لا ملجأ يحتمى به. ﴿قدَّم﴾ : أى من عمل حسن، أو من أثر حسن تركه فى الناس بعده يعملون به.

﴿أخَّر﴾ : من أعمال مطلوبة منه لم يعملها، أو من أثر سيئ تركه فى الناس بعده يعملون به، انظر الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠.

﴿بل الإنسان﴾ : بل للانتقال على وجه الترقى أى لا يحتاج إلى مَنْ ينبؤه بل هو شاهد على نفسه.

﴿بصيرة﴾ : أى حجة واضحة، أى أن جوارحه شاهدة عليه، كما فى الآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥ والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢.

﴿ألقى﴾ : أى قدم.

﴿معاذيره﴾ : جمع معذرة، أى أعذاره، انظر الآيتين (١٠٦، ١٠٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥ والآيات من (٩٧ إلى ١٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ والآية (١٢) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦.

﴿لا تحرك به﴾ : أى بالقرآن المفهوم من السياق كما فى الآية (١) من سورة القدر صفحة ٨١٥ ولا حق الكلام.

﴿جمعه﴾ : المراد حفظه فى صدرك أيها النبى.

﴿قرآنه﴾ : القرآن هنا معناه القراءة والمراد إقدارك على قراءته متى شئت.

﴿قرأناه﴾ : المراد: أتممنا قراءة ما نريد إنزاله على لسان جبريل ﴿فاتبع قرآنه﴾ : أى فاتبع قراءة جبريل على مهل، ولا تسرع فى ملاحقته.

﴿كلا﴾ : اعلم أن (كلا) لم تذكر إلا فى السور المكية، وفى النصف الثانى من القرآن فقط فى (٣٣) موضعًا، أولها فى الآية (٧٩) من سورة مريم صفحة ٤٠٤، وآخرها فى الآية (٤) من سورة الهمزة صفحة ٨٢١. وكلها تفيد معنى الزجر عما قبلها إلا فى خمسة مواضع. فإن

دعوى الزجر فيها تكلف. الموضع الأول هنا والثانى فى الآية (٩) من سورة الانفطار والثالث والرابع فى الآيتين (٧، ١٨) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧ والخامس فى الآية (٦) من سورة العلق صفحة ٨١٤. ولذا قال ابن هشام إنها فى مثل هذه المواضع الخمسة بمعنى (ألا) بفتح الهمزة الموضحة فى الآية (١٥١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥، فهى حرف يفيد تنبيه السامع لأهمية ما يلقى بعده ويسمونه (حرف استفتاح).

﴿بل تحبون﴾: (بل) للانتقال من حال يوم القيامة إلى سبب مصيبة الكفار الحقيقية، (وتحبون) خطاب للكفار المفهومين من (الإنسان) فى الآية (٣) السابقة.

﴿العاجلة﴾: المراد متاع الدنيا. ﴿تذرون الآخرة﴾: أى تهملون اعتبار يوم القيامة، انظر الآية (٢٧) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣.

﴿ناضرة﴾: بهجة مشرقة، انظر الآية (٢٤) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨، والآيتين (٣٨، ٣٩) من سورة عبس صفحة ٧٩٣.

المعنى: هل يظن كل كافر باليوم الآخر أن الواقع هو عدم جمع الله لعظامه. ظنهم باطل؛ لأننا سنجمعها حال كوننا قادرين على أن نوجد أطراف أصابعه كما كانت، وهى أدق من عظامه صنعًا، أى ومن قدر على ذلك فهو على إعادة العظام أقدر. ثم انتقل من توبيخهم على هذا الظن الفاسد إلى بيان انهماك الكافر فى ملذات الدنيا. فقال: بل يريد الإنسان.. إلخ. أى أن الكافر مصمم على مداومة الفجور فيما يستقبله من الزمان.

لا يتركه ولا يتوب؛ ولهذا فإنه يسأل استهزاء متى يكون يوم القيامة. فرد سبحانه ببيان بعض ما سيكون فى يوم القيامة، وما سيقابلونه من الأهوال فقال تعالى: ﴿فإذا برق البصر﴾..إلخ. أى إذا اشتد لمعان البصر فزعًا، وذهب ضوء القمر، وشمل الفناء الشمس والقمر، إذا حصل هذا يقول الإنسان فى هذا اليوم هل هناك طريق للفرار؟ فيزجر عن هذا التمنى، ويقال له: لا ملجأ لك اليوم ينجيك من الحساب والعقاب؛ لأن مستقر جميع الخلائق راجع إلى الله وحده. فيحاسبهم ويجازيهم. وفى هذا اليوم يخبر الله سبحانه الإنسان بكل ما قدم من عمل خير أو من أثر حسن تركه فى الناس بعده يعملون به، وبكل ما أخر من أعمال

مطلوبة منه لم يعملها أو من أثر سيئ تركه فى الناس بعده يعملون به. ولا تظن أن الأمر محتاج إلى أدلة تثبت للإنسان ذلك. بل أعضاؤه خير شاهد عليه إذا أنكر. ولو أتى بكل عذر بعد ذلك فإنه لا يقبل منه، بل فى نهاية الحساب يزجر عن الاعتذار كما فى الآيتين (٣٥، ٣٦) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥، وشرح الآية (٢٤) من سورة النور صفحة ٤٦٠، ولما كان ﷺ فى أوائل عهده بالوحى شديد الحرص على حفظ ألفاظ القرآن مخافة أن يفلت منها شىء. فكان ﷺ يحرك لسانه بحروف الكلمات فى أثناء سماعها من جبريل، فنزلت الآية الآتية والآية (٦) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٣ وذلك لزيادة تطمينه ﷺ على عدم ذهاب شىء منه.

وقال عامر الشعبى: إنه ﷺ كان تارة يقرأ مع جبريل الجملة من شدة حبه له وحلاوته على لسانه فأراد سبحانه أن ينبهه إلى أنه بعد أن تكفل له بحفظه فما عليه إلا أن يرغب فى الاستزادة من علم أسراره، ونزل فى ذلك الآية (١١٤) من سورة طه صفحة ٤١٧. ولعله ﷺ حصل منه تحريك لسانه بحروف الكلمات عندما كان يتلقى ما سيحصل يوم القيامة فى هذه السورة. فأمر سبحانه جبريل أن يبلغه ما ذكر هنا، ثم يتابع الكلام مع الكفار ثانيا. ولعل مما حَسَّن وضعها هنا أنها تلوح بتقريع الذين يحبون العاجلة، كأنه يقول أنتم يا بنى آدم مخلوقون من عجل فصرتم تحبون كل شىء عاجل، فإذا كان ﷺ يُمْنَع من العجلة حتى فى الشىء النافع فكيف يكون حال مَنْ يستعجل الشىء الزائل. والله تعالى أعلم.

وقد قال تعالى هنا: لا تحرك به لسانه.. إلخ. أى لا تحرك أيها النبى بقراءة القرآن لسانك لتأخذه على عجلة خوف أن يفوتك منه شىء لأنا ضمنا لك جمعه محفوظا فى صدرك، وضمنا لك أيضًا سهولة قراءتك له. وإذا كان الأمر كذلك فإذا قرأه عليه جبريل. فاتبع قراءته على مهل، ثم إن علينا بعد ذلك أن نبين لك ما أجمل من معانيه لتوضحه للناس، انظر الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١.

وبعدما أرشد سبحانه نبيه إلى كيفية تلقى القرآن. رجع إلى الكلام عن الكفار وبيان الباعث على جهالتهم فقال: (كلا بل).. إلخ. أى انتبهوا أيها الغافلون فإنكم لا تتكرون البعث والحساب لدليل قام عندكم بل حبكم لمتاع الدنيا هو الذى جعلكم تهملون النظر فى الآخرة وما فيها من المخاطر. ثم بيَّن حال الناس فيها فقال تعالى: (وجوه)..إلخ. أى فى هذا اليوم تكون وجوه المؤمنين بهجة مستبشرة، إلى ربها ناظرة.

نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن
يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾
وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ
السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾
فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾
ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ(١) أَن يُتْرَكَ
سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ
عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ
الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ(٢) عَلَىٰ أَن
يُحْيِيَ(٣) الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

المفردات: ﴿باسرة﴾: أى قبيحة المنظر، انظر الآية (٢٢) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦.

﴿تظن﴾: المراد من الظن هنا: اليقين، كما فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠.

﴿فاقرة﴾: أى داهية عظيمة، تكسر فقار الظهر أى عظامه، و(فقار) بفتح الفاء جمع فقارة بفتح الفاء أيضًا، وهى الخرزة الواحدة من خرز العمود الفقرى بالظهر.

﴿كلا﴾: هنا زجر للكافر على تفضيل العاجلة على الآخرة.

﴿بلغت﴾: أى الروح المفهومة من سياق الكلام، انظر الآية (٨٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧. ﴿التراقى﴾: جمع ترقوة بفتح فسكون فضم ففتح، وهى العظام المحيطة بالنحر فى أسفل العنق. ﴿مَنْ راق﴾: (من) اسم استفهام، أى مَنِ الذى يرقيه، والمراد: هل يوجد طبيب يشفيه بالرقية. ﴿ظن﴾: المراد تيقن المحتضر المفهوم من سياق الكلام.

﴿أنه﴾: أى ما حل به. ﴿الفراق﴾: أى مقدمات فراق الدنيا. ﴿التفت الساق بالساق﴾: أى عند وضعه فى كفنه. ﴿المساق﴾: أى المرجع. ﴿فلا صدق﴾: فلا تصدق وأخرج زكاة ماله.

﴿يتمطى﴾: أى تبختر افتخارا غير مقدر للعاقبة. ﴿أولى لك فأولى﴾: أصل (أولى) أفعل تفضيل من الولى، بفتح الواو، وسكون اللام بمعنى القرب. يقال هذا يلى هذا، أى قريب منه، ثم غلب استعماله فى قرب الهلاك ثم صار يستعمل دعاء بالهلاك، وأريد به هنا [illegible] الدعاء عليه بالهلاك وذلك كتحذير من مثل عمله، وكرره للتأكيد، انظر الآية (٢٠) من سورة

(١) الإنسان. (٢) بقادر. (٣) يحيى.

محمد صفحة ٦٧٥. ﴿سدى﴾: أى مهملا بلا تكليف، ولا حساب، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦ والآية (٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٠.

﴿يمنى﴾: أى يراق فى الرحم. ﴿علقة﴾: قطعة دم متماسكة تعلق فى أعلى الرحم، انظر الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦. ﴿فسوى﴾: أى جعل أعضاءه سوية سليمة مناسبة لما يراد. ﴿فجعل منه﴾: أى من الإنسان المذكور. ﴿الزوجين﴾: تقدم فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠. ﴿الذكر والأنثى﴾: بيان للزوجين. ﴿أليس﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، وبدخوله على (ليس) المفيدة للنفى أيضًا صار المعنى مثبتًا، فالمراد أنه قادر. (بقادر): الباء للتأكيد ثبوت ما بعدها لما قبلها.

المعنى: أن وجوه المؤمنين يوم القيامة مشرقة ناظرة إلى وجه ربها الكريم على حالة لا تدركها عقولنا الآن. ووجوه الكافرين قبيحة المنظر تتيقن أنه سيقع بها داهية. فارتدعوا أيها الكفار عن كفركم وتنبهوا لما سيلاقيكم عند الموت الذى من أهواله أنه إذا بلغت الروح الحلقوم وقال من بجوار المحتضر: هل من طبيب ينقذه؟ وتيقن هو أن ما حصل له هو مقدمات فراقه للدنيا التى كان يحبها، ووضع فى كفنه بعد موته. إذا حصل كل هذا تقول الملائكة: لا مرجع لك اليوم إلا إلى ربك ليجازيك على عملك، ثم بيَّن سبحانه ما كان عليه الكافر فى الدنيا. فقال: فلا صدق.. إلخ، أى لم يزك مالاً، ولم يصل ولكن كذب القرآن والرسول وأعرض عن عمل الخير، ثم ذهب إلى أهله تبختر؛ لأنه مادام لا يؤمن باليوم الآخر لا يهمه إلا شهواته، انظر الآية (٢١) من سورة المطففين والآيتين (١٣، ١٤) من سورة الانشقاق صفحتى ٧٩٩، ٧٨٠. وبعدما بيَّن سبحانه غفلة الكافر عن العاقبة وجه إليه الخطاب بالتهديد فقال: (أولى لك).. إلخ، أى قولوا أهلكك الله أيها المتبختر هلاكا فوق هلاك، ثم رجع إلى توبيخه على غفلته فقال: (أيحسب الإنسان).. إلخ، أى هل يظن الكافر أن الله سيتركه هملا، لا يكلفه بما فيه صلاح العالم، ولا يبعثه ويحاسبه. لا يصح له أن يظن ذلك لأن الله الذى خلقه من نطفة مكونة من منى وضع فى الرحم، ثم صار علقة، فخلقه فسواه إنسانا كاملا فجعل منه زوجين ذكرا وأنثى، الإله الذى يقدر على كل ذلك أليس قادرا على إحياء الموتى؟ نعم يقدر قطعا على إحيائهم للحساب والجزاء. نسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿هل أتى﴾: ﴿هل﴾ حرف بمعنى ﴿قد﴾ الدالة على تحقيق ثبوت ما بعدها، والمراد: قد أتى... إلخ.

﴿الإنسان﴾: المراد به هنا جنس الإنسان لا شخص معين.

﴿حين﴾: مقدار من الزمان محدد، قليلاً كان أو كثيرًا؛ انظر الآية (١٠٦) من سورة المائدة صفحة ١٥٨ والآية (٢٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣.

﴿الدهر﴾: هو الزمن الممتد غير المحدد بنهاية. ﴿لم يكن شيئًا﴾: انظر الآية (٦٧) من سورة مريم صفحة ٤٠٣.

﴿نطفة﴾: إذا لاحظت أنه سبحانه أخبرنا فى الآية (٣٧) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ أن النطفة من المنى، وأن هذا المنى يمنى أى يتدفق فى الرحم يظهر لك أن النطفة من الرجل، وأن المقصود منها هو ما يسمى فى العصر الحديث (الحيوان المنوى) كما تقدم تفصيله فى شرح الآية (١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

ويؤيد هذا ظاهر قوله ﷺ: (تخيروا لنطفكم ولا تضعوها فى غير الأكفاء)، انظر شرح الآيتين (٦،٧) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢.

(١،٢) الإنسان. (٣) فجعلناه.
(٤) هديناه (٥) للكافرين.
(٦) سلاسل (٧) أغلالاً.

(٧٦) سُورَةُ الإِنسَانِ مَدَنِيَّة وآياتها إحدى وثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا
مَّذْكُورًا ① إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ② إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وَإِمَّا كَفُورًا ③ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا
وَسَعِيرًا ④ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا
كَافُورًا ⑤ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا ⑥ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُسْتَطِيرًا ⑦ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا

﴿أمشاج﴾: تقول العرب مشجت الشىء بالشىء كخلطته وزنا ومعنى، والناتج من هذا الخلط يسمى مشيجًا وجمعه أمشاج.

فالمشيج هو المكون من عناصر مختلفة باختلاف مواد الغذاء التى تكونت منها النطفة، انظر آيتى (١٢،١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

﴿نبتليه﴾: الابتلاء: الامتحان بالتكليف. والمراد: خلقناه مريدين ابتلاءه بالعبادة، انظر الآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦.

﴿هديناه﴾: المراد: وضحنا له.

﴿السبيل﴾: المراد: طريق الخير وطريق الشر، انظر الآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨.

﴿اعتدنا﴾: أى أعددنا وهيأنا.

﴿سلاسل﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٧١) من سورة غافر صفحة ٦٢٧.

﴿الأبرار﴾: جمع ﴿بر﴾: بوزن (رب). وهو المطيع المتوسع فى أعمال الخير.

﴿كأس﴾: أصله اسم للإناء إذا كان فيه شراب، وقد يطلق على الإناء وحده أو على الشراب وحده، والمراد به هنا الشراب بدليل ما بعده.

﴿مزاجها﴾: أى ما يمزج بها. كالحزام لما يتحزم به.

﴿كافورا﴾: اسم ماء فى الجنة لا نعلم حقيقته، والذى نقطع به أنه لا يخطر على قلب بشر لجودته وهو يشبه الكافور فى رائحته وبياضه. والعرب كانت تتلذذ من رائحته، انظر الآية (٤٦) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩.

﴿عينا﴾: بيان للكافور، ولا تنس أن ابن عباس قال: ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء. أما الحقيقة فلا تخطر على قلب بشر.

﴿يشرب بها﴾: المراد: يشربون ليرتووا بها.

﴿يفجرونها﴾: المراد: يصرفونها كما يريدون تصريفًا عجيبًا.

﴿مستطيرًا﴾: أى منتشرًا غاية الانتشار، انتشارا مخيفًا.

﴿على حبه﴾: أى مع حبه، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤، والآية (٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٨، أما إنفاق المكروه فهو مذموم، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣ .

المعنى: قد أتى على جنس الإنسان طائفة محدودة من الزمان الممتد لم يكن فيها شيئًا معروفا بأنه إنسان. وإنما كان شيئًا آخر هو عناصره التى تكون منها فيما بعد. ثم شرع سبحانه فى بيان كيف أوجده بعد ذلك فقال: إنا.. إلخ. أى إنا خلقنا هذا الإنسان من نطفة خليط من عناصر مختلفة، مريدين امتحانه بالتكاليف بعد كمال عقله.

لهذا جعلناه سميعًا لكل ما يرشد للحق، بصيرًا لكل الأدلة الدالة على وجودنا ووحدانيتنا، ولم نكتف بذلك بل بيَّنا له طريق الخير ليسلكه، وطريق الشر ليجتنبه، انظر الآية (١٠) وما بعدها من سورة البلد صفحة ٨٠٨ . هديناه لذلك ليتبين فيما بعد هل هو شاكر لنعمة ربه مؤمن به مختار لطريق النجاة، وإما شديد الكفر معرض عن إرشاد ربه فاستولت عليه شهواته فسلك طريق الشر، انظر آيتى (١٨، ١٩) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، والآية (٤) وما بعدها من سورة الليل صفحتى (٨١٠، ٨١١).

وقد تقدم بعض ذلك فى شرح (٢) من سورة التغابن صفحة ٧٤٥، ثم بيَّن سبحانه مصير كل من الفريقين فقال: إنا أعتدنا للكافرين سلاسل يسحبون بها، وأغلالاً فى أعناقهم. ونارًا مستعرة. أما عباد الله الأبرار فإنهم يشربون فى الجنة من خمر ممزوجة بماء لذيذ الطعم جميل اللون.

ثم بيَّن أن هذا الماء المسمى كافورًا كثير فقال تعالى: عينًا يشرب بها أى يشرب ليرتوى بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا غريبًا فتجرى أو تصعد إليهم حيث شاءوا.

ثم بيَّن سبحانه ما لأجله استحقوا هذا الجزاء فقال: (يوفون)... إلخ. أى أنهم كانوا فى الدنيا يوفون بنذرهم إذا نذروا. ويخافون يوما يكون شره منتشرًا ويطعمون الطعام - مع حبهم له وحاجتهم إليه - المحتاجين من المساكين وغيرهم ابتغاء رضاء الله عزوجل.

وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا
يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ
وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟
جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ
فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا
وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ
مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن
فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ
مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾
* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ
لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا

المفردات: ﴿يتيمًا﴾: المراد هنا طفلا جمع بين الفقر وفقد الوالد. فهو من عطف الخاص على العام، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤ .

﴿أسيرًا﴾: لأنه لا يملك حيلة يكتسب بها.

﴿عبوسًا﴾: أصله شديد العَبوس، كالأسد عندما يريد الهجوم على فريسته. والمراد هنا: مخيفًا .

﴿قمطريرا﴾: أى شديد العَبوس والكرب.

﴿وقاهم الله﴾... إلخ: أى نجاهم من شره.

﴿لقاهم﴾: المراد أعطاهم.

﴿نضرة﴾: أى بهجة يظهر أثرها على الوجوه، كما فى الآية (٢٤) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨ .

﴿الأرائك﴾: تقدم فى الآية (٣١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥ .

﴿لا يرون فيها شمسًا﴾.. إلخ: المراد لا يشعرون فيها بحر، ولا برد، بل بجو يشبه الظل الدائم، انظر الآية (٣٥) من سورة الرعد صفحة ٣٢٧ .

﴿ودانية عليهم ظلالها﴾: انظر شرح الآية (٤١) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٦ .

﴿ذللت﴾: المراد: جعلت سهلة التناول.

(١) فوقاهم. (٢) لقاهم.
(٣) جزاهم. (٤) ظلالها.
(٥) بآنية. (٦، ٧) قوارير.
(٨) ولدان.

﴿قطوفها﴾: تقدم فى الآية (٢٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ .

﴿آنية من فضة﴾: هى الأباريق المملوءة بالشراب، انظر الآية (١٨) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ .

﴿كانت قوارير﴾: ﴿كانت﴾: أى وجدت ﴿قوارير﴾: جمع قارورة وهى إناء رقيق من زجاج يوضع فيه الشراب. وهو منصوب على أنه حال من ضمير ﴿كانت﴾ العائد على الأكواب. والمراد: وجدت تلك الأكواب حال كونها رقيقة.

﴿قوارير﴾: بدل من الأول.

﴿من فضة﴾: الكلام على التشبيه. أى تشبه الفضة فى البياض.

﴿قدروها﴾: المراد قدر الخدم ما فيها على مقدار طلب الشارب تقديرا دقيقًا. وهذا ألذ له.

﴿كأسًا، مزاجها﴾: تقدما فى الآية (٥) من هذه السورة صفحة ٧٨١ .

﴿زنجبيلا﴾: المراد: شراب يشبه الزنجبيل فى بعض خواصه التى كان العرب يتلذذون بها، وانظر ما قيل فى ﴿كافورا﴾ سابقًا.

﴿سلسبيلا﴾: السلسبيل هو السهل الانحدار فى الحلق.

﴿ولدان مخلدون﴾: تقدم فى الآية (١٧) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ .

﴿ثَمَّ﴾: أى هناك فى الجنة.

المعنى: إن عباد اللّٰه الأبرار يحسنون إلى المحتاجين الذين لا يستطيعون الحصول على قوتهم - سواء أكان المحتاج مسكينًا أو يتيمًا أو أسيرًا .

قال ابن عباس: كان أسراؤهم من المشركين، وقال قتادة: أمر اللّٰه سبحانه بالإحسان إلى الأسرى، وكانوا يومئذ من أهل الشرك، وقال ابن كثير: ويشهد لهذا أن رسول اللّٰه ﷺ أمر

أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام، واختار ابن جرير أن الأسرى هنا يشمل كل ممنوع من التمتع بحريته كالمساجين من المسلمين، و الأسرى من المشركين - قائلين بلسان حالهم إنما نطعمكم رجاء رضاء اللّٰه وثوابه.

لا نريد منكم مكافأة. ولا أن تشكرونا عند الناس؛ لأننا نخاف من ربنا فى يوم شديد الكرب مخيف. هو يوم القيامة. فلإخلاصهم هذا دفع اللّٰه سبحانه عنهم شر ذلك اليوم، وأعطاهم حسنًا فى الوجوه. وفرحًا فى القلوب. وجزاهم سبحانه بسبب صبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرمات جنة يدخلونها. وحريرًا يلبسونه حال كونهم متكئين فى الجنة على السرر المزينة. لا يشعرون بحر مزعج، ولا ببرد مؤلم، بل جو واحد معتدل.

ونعيمها ورفاهيتها قريب منهم فى كل لحظة. وقطوف فاكهتها سهلة التناول ويطوف عليهم الخدم من الولدان الآتى ذكرهم فى الآية (١٩) من هذه السورة بأباريق من فضة ملأى بالشراب. وأكواب أوجدها اللّٰه تعالى حال كونها جامعة بين صفاء الزجاج وشفافيته. وبياض الفضة ونقائها. يأتى الخدم بما فيها من الشراب على قدر حاجتهم. ويسقونهم فيها خمرًا ممزوجة بماء يشبه الزنجبيل.

ثم بيَّن الكأس بأنها عين تسمى سلسبيلا أى غاية فى السلاسة. وسهولة الشرب.

ثم ذكر سبحانه أوصاف الخدم وهم يطوفون على مجالس أهل الجنة فقال: ويطوف عليهم ولدان خالدون لا يموتون. إذا رأيتهم أيها النبى فى انتشارهم لقضاء حوائج سادتهم، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، ورشاقة أجسامهم وحسن ثيابهم. ظننتهم لؤلؤا منثورًا. وإذا رأيت ما هناك فى الجنة وسعتها رأيت نعيما عظيمًا لعباد الرحمن. وملكا أى مملكة للّٰه كبيرة.

ومع كل هذا الإطناب فى الترغيب فى نعيم الآخرة فكثير من الناس غلبت عليه شقوته.

كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ[1] ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ
وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ[2] رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ[3] تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا[4] أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ
رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ[5] فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ[6] وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا
شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ[7] تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن
يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ[8] أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

المفردات: ﴿عاليهم﴾: أى مستعليا عليهم. والمراد: لابسين. وهو منصوب على أنه حال من الضمير المنصوب. أى على المقيمين من أهل الجنة فى ﴿يطوف عليهم ولدان﴾ ... إلخ: والمراد: لابسين ثياب سندس ... إلخ. كما تقول ﴿وباب حديد﴾: أى باب من حديد.

﴿إستبرق﴾: معطوف على ثياب بتقدير مضاف، أى وثياب إستبرق.. إلخ.

(سندس. إستبرق): تقدما فى الآية (٣١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥ .

﴿حلوا﴾ ... إلخ: أى حلاهم ربهم بأساور.. إلخ.

﴿من فضة﴾: هذا لبعضهم وللآخرين من ذهب كما فى الآية (٣٣) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦ : لأن جزاءهم فى اللبس يختلف باختلاف أعمالهم كما اختلف فى نوع المأكول وغيره. كما فى الآية (١٥) وما بعدها إلى الآية (٣٤) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٤، ٧١٥، وشرح الآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧ .

(١) عاليهم.
(٢) سقاهم.
(٣) القرآن.
(٤) آثما.
(٥) الليل.
(٦) خلقناهم.
(٧) أمثالهم.
(٨) الظالمين.

﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾: هذا شراب آخر غير النوعين السابقين فى آيتى (٥، ١٧) من هذه السورة صفحتى ٧٨١، ٧٨٢ . الممزوجين بالكافور والزنجبيل وهذا أعلاها، ولذا أسند سبحانه سقياهم منه لنفسه.

و﴿الطهور﴾: معناه شديد الطهارة فهو طاهر فى نفسه مطهر لغيره.

﴿تنزيلا﴾: أى مخصوصًا مقسمًا على ٢٣ سنة لحكم بيَّن بعضها فى الآية (١٠٦) من سورة الإسراء، والآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤ .

﴿لحكم ربك﴾: أى لقضائه.

﴿ولا تطع منهم﴾: انظر بيان ذلك فى شرح الآية (٨) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ .

﴿آثمًا﴾: هو الفاجر المداوم على الإثم، وفسره ابن كثير بالمنافق، انظر الآية (٤٨) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٧ .

﴿أو كفورا﴾: ﴿أو﴾ بمعنى الواو أى ﴿ولا كفورا﴾ يقول العربى: لا تقرب (القتل أو السرقة) يريد لا تقرب القتل ولا السرقة، و﴿كفورا﴾ أى شديد الكفر.

﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾: المراد: كن دائمًا فى نهارك على ذكر من ربك؛ لا تتصرف فى شىء إلا تحت مراقبته سبحانه، والبكرة أول النهار، والأصيل ما بين العصر والمغرب. والمراد: دائمًا.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾: المراد: وصل لربك بعض الليل على ما هو مبين فى الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٤، ٧٧٥ .

﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾: المراد: واجعل جزءًا كبيرًا من الليل مشغولا بتسبيح ربك وتقديسه، وكل هذا ليساعده ﷺ على تحمل إيذاء قومه.

﴿هؤلاء﴾: هم كفار مكة.

﴿العاجلة﴾: أى الدنيا.

﴿يذرون﴾: أى يتركون.

﴿وراءهم﴾: المراد أمامهم، انظر الآية (٧٩) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢ والآية (١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤ .

﴿يومًا ثقيلاً﴾: المراد: شديد الهول.

﴿شددنا﴾: أى قوينا.

﴿أسرهم﴾: الأسر فى الأصل الشد والربط، وأطلق على ما يشد به كما هنا والمراد به الأعصاب التى تربط المفاصل.

﴿بدلنا أمثالهم﴾: انظر الآية (١٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٥ والآية (١٩) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢ .

﴿هذه﴾: أى الآيات القرآنية المتقدمة.

﴿تذكرة﴾: أى تذكير وعظة.

﴿وما تشاءون﴾... إلخ: انظر بيان ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ .

﴿والظالمين﴾: منصوب بفعل يدل عليه ما بعده مثل (أهان): أو (توعد): وتوعد الظالمين وأعد لهم... إلخ.

المعنى: إن لباس أهل الجنة الحرير، ومنه سندس هو الرفيع الذى يلبس على الجسد مباشرة. ومنه الإستبرق وهو السميك الذى له بريق يلبسونه فى الظاهر كما هو المعهود. وحلاهم ربهم بأساور تارة من فضة وأخرى من ذهب. وسقاهم ربهم شرابا شديد التطهير لبواطنهم من عيوب الدنيا كالحسد وغيره. انظر الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ وشرح الآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧، ويقول لهم

ربهم: إن هذا جزاء على أعمالكم الحسنة. وكان سعيكم مشكورا عند الله، فجازاكم على القليل بالكثير.

وبعدما بيَّن سبحانه أن الإنسان منه الطائع والعاصى، وبيَّن ما أعده لكل منهما. أراد أن يقوى قلب رسول الله ﷺ، ويخفف عنه تألمه من عناد قومه، فقال:إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا، أى تنزيلا محكما حسب الوقائع ومقتضى الحاجة.

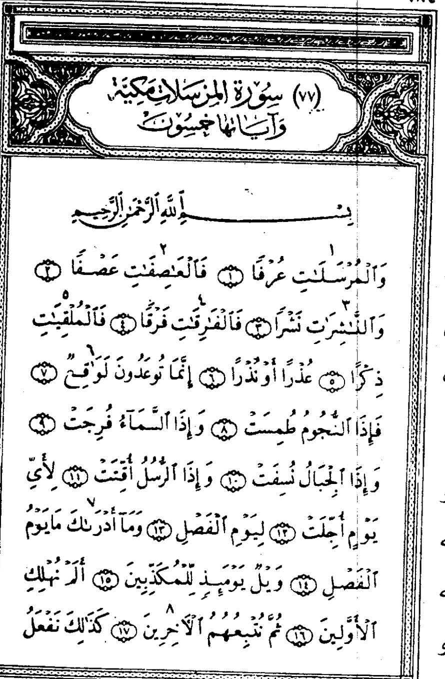
وإذا كان الأمر كما ذكرنا فاصبر أيها النبى لحكم ربك. ولا تطع منهم آثما ولا كفورا إذا حاولوا صرفك عن تبليغ ما أنزل إليك. وداوم على ذكر اسم ربك فإنه أعون لك على الصبر، قال الطيبى: إنه سبحانه لما نهى حبيبه ﷺ عن طاعة الآثم والكفور وحثه على الصبر على أذاهم وشدة عداوتهم أراد سبحانه أن يرشده إلى الإعراض عنهم بعد ذلك، فأمره تعالى باستغراق أوقاته من صلاة وغيرها بما يطيق.

ثم شرح له طبيعة كفار مكة فقال تعالى: (إن هؤلاء)... إلخ. أى إنهم فتنوا بحب الدنيا وانهمكوا فى لذاتها وتركوا الخوف من يوم شديد الأهوال سيلاقيهم فلم يعملوا ما ينقذهم من أهواله.

ثم وبخهم على الكفر به مع أنه هو الموجد لهم على أحسن حال، فقال: (نحن خلقناهم)... إلخ. أى نحن خلقناهم لاغيرنا. وأحكمنا ربط أجزاء أجسامهم بعضها ببعض.

ثم هددهم فقال: (وإذا شئنا)... إلخ. أى وإذا شئنا أهلكناهم وجئنا ببدلهم خيرا منهم، إن هذه الآيات المتقدمة تذكير وعظة لمن كان له قلب يفقه. فمَن شاء منهم أن يسلك طريقًا يوصله إلى ربه سبحانه وتعالى فليفعل. وما تشاءون ذلك إلا على الحال التى شاءها الله ووضع لها نظامها كما سبقت الإشارة إليه. إنه سبحانه عليم دائمًا بما يستحقه كل واحد. حكيم فيما يفعل ويشرع. يدخل مَنْ يشاء فى رحمته بالتوفيق للطاعة متى تنبه لإرشاداته سبحانه، ويهين الظالمين الذين أغمضوا أعينهم عن أدلة الحق بأنه يُعد لهم سبحانه وتعالى عذابا أليمًا. نسأل الله السلامة.

سورة المرسلات


(الجزء التاسع والعشرون) ٧٨٤

(٧٧) سورة المرسلات مكية وآياتها خمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ② وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ③ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ④ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ⑦ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ⑩ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ⑪ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑬ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ⑭ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑮ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ⑯ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ⑰ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿المرسلات﴾: المراد بها: الرياح، انظر الآية (١٦) من سورة فصلت صفحتى ٦٣١، ٦٣٢، ولا تنس ما تقدم فى القسم بالمخلوقات فى سورة الصافات صفحة ٥٨٧.

﴿عرفا﴾: أصل العرف فى الخيل: هو الشعر الذى فوق أعناقها والعرب تشبه به الشىء المتتابع، وكثر ذلك حتى صار كأنه حقيقة فيه، فالمراد هنا: متتابعات. وهو منصوب على الحال من المرسلات، انظر الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢ .

﴿العاصفات﴾: هى الرياح القوية التى لها صوت شديد، انظر الآية (٢٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآية (١٦) من سورة فصلت صفحتى ٦٣١، ٦٣٢، وآيتى (٢٤، ٢٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠، وآيتى (٤١، ٤٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥، فعطف العاصفات على المرسلات من قبيل عطف الصفة على موصوفها.

﴿والناشرات﴾: هذا مقسم به آخر، ولذا جاء قبله بواو القسم وعطف صفاته عليه بالفاء كالسابق، والمراد: الملائكة التى تنشر أجنحتها فى الجو عند نزولها بالوحى نشرًا عجيبًا، انظر الآية (١) من سورة فاطر صفحة ٥٧١ .

(١) المرسلات. (٢) العاصفات. (٣) الناشرات. (٤) الفارقات.
(٥) الملقيات. (٦) لواقع. (٧) أدراك. (٨) الآخرين.

﴿الفارقات﴾: المراد: الحاملات ما به الفرق بين الحق والباطل، حملاً أمينًا لا يتسرب إليه شك، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة الجن صفحتى ٧٧٢، ٧٧٣ .

﴿الملقيات﴾: أى على الأنبياء والمرسلين.

﴿ذكرا﴾: أىْ وحيًا من كتب، وحكمة، وغير ذلك من كل ما يذكر بالله.

﴿عذرًا﴾: أى لأجل إعذار الصالحين والمحقين، أى قبول أعذارهم ومحو سيئاتهم.

﴿نذرًا﴾: أى لأجل إنذار المبطلين، وتخويفهم من عقاب الله.

﴿إنما توعدون﴾: أى ما وعدكم الله به من قيام الساعة والبعث والجزاء، وهذا هو جواب القسم.

﴿طمست﴾: أى محقت وذهب نورها.

﴿فرجت﴾: أى انشقت، كما فى الآية (١) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩ .

﴿الجبال نسفت﴾: أى انتقلت من أماكنها بسرعة، انظر الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ .

﴿أقتت﴾: أى عين لها وقت تجتمع فيه للشهادة على أممها، انظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩ والآية (٦٩) من سورة الزمر صفحتى ٦١٥، ٦١٦ .

﴿لأى يوم أجلت﴾: أى لأى يوم أجلت تلك الأمور السابقة، وهذا أسلوب فيه تخويف وتهديد.

﴿ليوم الفصل﴾: الأصل أجلت ليوم الفصل. أى بين الخلائق.

﴿وما أدراك﴾ ... إلخ: انظر المقصود من ذلك فى شرح الآية (٢٧) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ .

﴿ويل﴾: أى هلاك وعذاب.

﴿ألم نهلك﴾: المراد من هذا الاستفهام هو التقرير كما فى الآية (٤٠) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ .

﴿الأولين﴾: كقوم نوح.

﴿الآخرين﴾: كعاد وثمود، انظر الآيات (٥٠، ٥١، ٥٢) من سورة النجم صفحة ٧٠٣ .

المعنى: أقسم سبحانه على وقوع يوم القيامة بشيئين من خلقه للحكم المشار إليها فى أول سورة الصافات. فأقسم بالرياح المتتابعة التى تعصف بكل شىء تأتى عليه. وفى هذا تحذير لمَنْ يكفر به. وأقسم ثانيًا على سبيل الترقى بأشرف من القسم الأول وهم الملائكة، الناشرات أجنحتها وهى هابطة بالوحى تحمل ما به الفرق بين الحق والباطل فتلقيه على مَنْ اصطفاهم الله من خلقه. يفعل سبحانه ذلك لمحو إساءة المحقين الذين أحسنوا الرجوع إليه. ولتحذير المبطلين من عذابه إذا استمروا على باطلهم. يقول سبحانه أقسم بكل ما ذكر على أن ما وعدتكم به من قيام القيامة لابد واقع.

ثم شرع فى بيان مقدماته فقال تعالى: (فإذا النجوم طمست). أى ذهب نورها. وإذا السماء انشقت مقدمة لمورها كما فى الآية (٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل عين لها وقت اجتماعها للشهادة على أممها وحضرت فيه، مقولاً فى كل تلك الأمور السابقة للتهويل: لأى يوم أجلت تلك الأشياء.

ثم بين بأنها أجلت ليوم يفصل فيه بين الخلائق. ولا يستطيع أحد أن يدرك ما الحال فى هذا اليوم لشدة ما سيكون فيه من الأهوال. إذا حصل كل هذا يتجلى الأمر ويتضح جرم المكذبين بيوم القيامة. وعذاب وهلاك يومئذ للمكذبين. وبعدما حذر الكفار من عذاب الآخرة أراد أن يحذرهم أيضًا من عذاب الدنيا فقال: (ألم نهلك)... إلخ. أى يجب أن يعلم هؤلاء الكفار أنا أهلكنا أمثالهم ممَنْ سبقوهم أول الزمان. ثم أتبعنا مَنْ كفر بعدهم بهم فى الهلاك أيضًا. وبما أن طريقتنا فى جميع من كذبوا رسلنا واحدة سنفعل بكل مجرم يعمل عملهم مثل ما عملنا معهم أى وإذا استمر كفار مكة على كفرهم فسيَحل بهم القتل والعذاب أيضًا.

بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم
مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ[1] فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ[2] ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً
وَأَمْوَاتًا[3] ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ[4] شَامِخَاتٍ[5] وَأَسْقَيْنَاكُم[6]
مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ
مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ[7]
شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي
بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ[8] صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ
فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ
الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ[9] وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ

المنفردات: ﴿المجرمين﴾: كلهم وأنتم منهم يا كفار مكة.

﴿من ماء مهين﴾: أى من سائل يرى بالعين كأنه ماء قذر، ولا تنس ما تقدم فى الآية (٢) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ .

﴿قرار مكين﴾: هو الرحم المثبت فى مكانه بأربطة قوية فلا يتحرك أقل حركة. والمحاط بحوض من العظام متين جدًا من الخلف والجانبين، ومن الأمام بأجزاء سميكة من الجسم.

﴿إلى قدر معلوم﴾: أى إلى مقدار معلوم من الوقت، قدره سبحانه للولادة.

﴿فقدرنا﴾: قَدرَ بالتخفيف، كقَدَّر بتشديد الدال بمعنى واحد. أى فقدرنا ذلك تقديرا محكما. فنعم المقدرون نحن.

﴿كفاتا﴾: الكفات أصله مصدر كالقتال من كفت فلان الشىء بوزن ضرب: إذا جمعه وضمه، وأريد به هنا: اسم الفاعل، أى كافتة وجامعة لهم.

(١) فجعلناه.
(٢) القادرون.
(٣) أمواتا.
(٤) رواسى.
(٥) شامخات.
(٦) أسقيناكم.
(٧) ثلاث.
(٨) جمالة.
(٩) جمعناكم.

﴿أحياءً وأمواتًا﴾: الأصل تكفتكم أى تضمكم فى حال حياتكم على ظهرها، وفى حال موتكم فى بطنها.

﴿رواسى شامخات﴾: أى جبالا عاليات.

﴿فراتا﴾: أى شديد العذوبة، انظر الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦ .

﴿ظل﴾: المراد به شىء يخرج من جهنم شديد السواد والحرارة، انظر الآية (٤٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥ .

﴿ذى ثلاث شعب﴾: قال المفسرون: إنه يتشعب لعظمته كما هو شأن الدخان العظيم، ويجوز أن يكون المعنى أنه يحوطهم من أعلاهم وأسفلهم وجوانبهم فتكون الآية (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨ تعرضت للأعلى والأسفل، والآية (٢٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤ تعرضت للجوانب، وهذه الآية التى معنا تعرضت للجميع. والله تعالى أعلم.

﴿لا ظليل﴾: أى لايدفع حر ذلك اليوم كما يدفع ظل الدنيا حر الشمس.

﴿إنها﴾: أى النار التى يخرج منها هذا الظل.

﴿جمالة﴾: جمع جَمَل كحجارة جمع حجر.

﴿صفر﴾: جمع أصفر. ويطلقه العرب غالبا على ما يخالط صفاره سواد.

﴿لا ينطقون﴾: أى بعد أن يحاسبوا ويجادلوا عن أنفسهم.. كما فى الآية (١١١) من سورة النحل صفحة ٣٦١ وبالاعتذار الباطل... كما فى الآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١ وبالإنكار مرة أخرى... كما فى الآية (٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، ثم بعد ذلك يختم سبحانه على أفواههم كما فى الآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥ .

﴿لا يؤذن لهم﴾: أى فى الاعتذار إذا طلبوه بعد ثبوت جرائمهم، انظر الآيات ١٠٦،١٠٧،١٠٨ من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥ .

﴿كيد﴾: المراد حيلة للخلاص من العذاب.

المعنى: كما أهلكنا المكذبين فيما مضى نهلك كل مجرم مكذب مثل كفار مكة. والويل يومئذ للمكذبين. وبعدما هددهم سبحانه بما حصل لأمثالهم أراد أن يذكرهم بما يدل على أنه وحده هو المنعم عليهم وعلى أنه قادر على إحيائهم يوم القيامة لأن القادر على الابتداء يقدر على الإعادة، فقال: ألم نخلقكم... إلخ.

أى يجب أن تقروا بأنى خلقتكم من ماء مهين. فجعلناه أول وجوده فى مكان حصين وحفظناه فيه إلى المدة التى قدرناها لبقاء الحمل تقديرًا محكمًا. فنعم المقدرون نحن.

ثم بعد ذلك تنكرون فضلنا وتنكرون قدرتنا على بعثكم. ويل لكم أيها المكذبون. ألم تروا أنا جعلنا الأرض جامعة لكم أحياء على ظهرها. وأمواتا فى بطنها. وجعلنا فيها جبالا عاليات كما فى الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧ . وأسقيناكم ماءً شديد العذوبة. ويل يومئذ للمكذبين. ثم انتقل سبحانه لبيان ما سيحصل لهم يوم القيامة فقال: انطلقوا... إلخ. تقول لهم الملائكة توبيخًا: انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون به فى الدنيا من عذاب الآخرة.

ثم بيَّن بعضه فقال تعالى: انطلقوا..... إلخ. أى اذهبوا إلى كتل من جهنم تشبه الدخان تتشعب حولكم. لا تدفع الشمس ولا تمنع لهب جهنم. إن النار التى يخرج منها هذا الظل ترمى بشرر كالبناء العظيم فى ضخامته وكالجمال الصفر فى لونه وكثرته وانتشاره.

ويل يومئذ للمكذبين، هذا اليوم الذى هو يوم القيامة لا ينطقون فيه بعد الختم على أفواههم، وظهور كذبهم، وإذا أرادوا الاعتذار لا يسمح لهم به..... ويل يومئذ للمكذبين.

هذا هو يوم الفصل بين المحسن والمسىء. جمعناكم يا مكذبى خاتم الرسل مع الأولين مكذبى رسلهم الذين كنتم تقتدون بهم. فإن كان لكم جميعًا حيلة فى دفع العذاب فافعلوها.....

فكيدون ﴿٣٩﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٤٠﴾ إن المتقين
في ظلال[1] وعيون ﴿٤١﴾ وفواكه[2] مما يشتهون ﴿٤٢﴾ كلوا
واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ﴿٤٣﴾ إنا كذلك نجزي
المحسنين ﴿٤٤﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٤٥﴾ كلوا وتمتعوا
قليلا إنكم مجرمون ﴿٤٦﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿٤٧﴾
وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴿٤٨﴾ ويل يومئذ
للمكذبين ﴿٤٩﴾ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴿٥٠﴾

(٧٨) سورة النبأ مكية
وآياتها أربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

عم يتساءلون ﴿١﴾ عن النبإ العظيم ﴿٢﴾ الذي

المفردات: ﴿فكيدون﴾: أى فاحتالوا علينا حتى تفلتوا من عقابنا، إن استطعتم.

﴿فى ظلال﴾: جمع ظل. وهو عند العرب جو المكان الذى لا شمس فيه سواء أكانت تطلع عليه الشمس فى بعض الأوقات أم لا. ومن الثانى ظل الجنة وظل الغار الذى يكون فى باطن الأرض، ويعبر العرب بالظل أيضًا عن الحفظ والعز والرفاهية فيقولون: فلان فى ظل فلان أى فى كنفه وعزه. وفلان فى ظل النعمة، أى فى غضارة عيش ورفاهية. وما هنا من هذا الأخير.

﴿كلوا وتمتعوا﴾: هذا خطاب تهديد منه سبحانه لكفار مكة ومَنْ على شاكلتهم.

﴿اركعوا﴾: أى اخضعوا لأوامر الله تعالى، انظر الآية (٤٣) من سورة البقرة صفحة ٩ والآية (٥٥) من سورة المائدة صفحة ١٤٨.

﴿بعده﴾: أى بعد القرآن الذى هو أحسن الحديث، كما فى الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

المعنى: يقول سبحانه وتعالى لجميع الكفار يوم القيامة توبيخًا وتعجيزًا إن كان عندكم جميعًا حيلة تدفعون بها العذاب عنكم فاحتالوا بها اليوم علينا إن كنتم تستطيعون. ولن يكون ذلك. والويل لكم الآن لأنكم كذبتم بهذا العذاب.

(١) ظلال
(٢) فواكه

ثم بيّن سبحانه نعيم المتقين بعد بيان شقاء المكذبين فقال: إن المتقين منعمون فى رفاهية من العيش بين عيون تجرى من تحت قصورهم. وفواكه مما يشتهون. تقول لهم الملائكة كلوا واشربوا أكلًا وشربًا هنيئًا جزاء أعمالكم الصالحة. وإن من عدلنا أن نجزى كل محسن على إحسانه مثل هذا الجزاء. وهلاك يومئذ للمكذبين لوعدنا ولرسلنا.

ثم وجه سبحانه الخطاب لكفار مكة مهددًا فقال: كلوا... إلخ. أى كلوا كما تأكل الأنعام أيها الكافرون. وتمتعوا زمنًا قليلًا ينتهى حتمًا بموتكم لأنكم مستمرون على الإجرام بتكذيب ربكم. ويل يومئذ لكم من هذا التكذيب.

ثم بيّن بعض أسباب ما استحقوا به العقاب فقال: (وإذا قيل لهم).. إلخ. أى وإذا قال لهم ناصح اخضعوا لأوامر ربكم لا يخضعون بل يعرضون مستكبرين ويل يومئذ لهؤلاء المكذبين. فإذا لم يؤمنوا بهذا القرآن المعجز فبأى حديث غيره يؤمنون؟ المراد أنهم لشدة عنادهم لن يؤمنوا أبدًا انظر آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

سورة النبأ

المفردات: ﴿عمَّ﴾: أى عن أى شىء، وأصله ﴿عمَّا﴾: فحذفت ألف ﴿ما﴾ الاستفهامية تخفيفًا.

﴿يتساءلون﴾: أى يسأل بعضهم بعضًا: هل محمَّد رسول حقًا... إلخ؟

﴿النبأ العظيم﴾: الخبر المهم وهو هنا بعث الخلق يوم القيامة.

المعنى: لما بعث ﷺ كان الكفار يسأل بعضهم بعضًا هل محمَّد رسول الله حقا؟ وما حقيقة هذا الخبر المهم الذى جاء به من أنه سيأتى يوم يبعث فيه الموتى، ويحاسبون إلى غير ذلك؟ فحكى سبحانه وتعالى ما حصل منهم فى صورة استفهام أريد به تفخيم شأن ما يسألون عنه. ثم بيَّن المسئول عنه بأنه النبأ العظيم.

هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ
أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ
مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ
يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾
لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً

المفردات: ﴿هم﴾: أى كفار مكة.

﴿مختلفون﴾: فبعضهم يقطع بعدمه كما فى الآية (٣٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٠، وبعضهم يشك فيه كما فى الآية (٣٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤ .

﴿كلا﴾: تقدم الكلام عليها فى شرح الآية (٢٠) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ ، والمراد: انزجروا عن هذا التساؤل والتكذيب.

﴿سيعلمون﴾: أى بعد الموت لأن الميت يعلم بعد الموت كل شىء.

﴿كلا﴾: تأكيد للزجر السابق.

﴿سيعلمون﴾: عند البعث يوم القيامة أنه حق. ﴿ألم نجعل الأرض﴾: المراد من هذا الاستفهام حملهم على الإقرار بأن الذى خلق هذه الأشياء التسعة الآتية بهذا الإحكام قادر على البعث يوم القيامة، وأنه يستحق الشكر.

﴿مهادًا﴾: هو المهد، وأصله الفراش المهيأ لراحة الطفل. والمراد: أن فى الأرض راحتكم.

﴿أوتادًا﴾: أى كالأوتاد فى حفظ توازنها، انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧

﴿أزواجًا﴾: أى ذكرًا وأنثى ليبقى النوع بالتوالد.

﴿سباتا﴾ ﴿لباسا﴾: تقدما فى الآية (٤٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥ .

(١) مهادا . (٢) خلقناكم. (٣) أزواجًا.
(٤) الليل . (٥) المعصرات. (٦) جنات.
(٧) ميقاتا . (٨) أبوابا. (٩) للطاغين.
(١٠) مآبا . (١١) لابثين.

﴿معاشًا﴾: أصل معنى المعاش الحياة أو ما به الحياة والمراد به هنا: وقت تحصيل ما به الحياة، انظر بيان ذلك فى الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩ .

﴿سبعًا﴾: هى السموات. ﴿شدادًا﴾: أى قوية البنيان لا يتهدم منها شىء على طول الزمن مع أنها بلا عمد كما فى الآية (٢) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٠، ٣٢١ . ﴿سراجًا﴾: هى الشمس. ﴿وهاجًا﴾: أى شديد التلألؤ.

﴿المعصرات﴾: هى السحائب الممتلئة ماء، مأخوذة من قولهم أعصرت السحابة إذا حان وقت عصرها، أى نزول مائها، كقولهم: أحصد الزرع إذا جاء وقت حصاده. وأيسر فلان إذا جاء وقت يسره.

﴿ثجاجًا﴾: أى منصبًا بكثرة. ﴿حبًا﴾: أى لقوت الإنسان. ﴿نباتًا﴾: أى لقوت الحيوان، كالتبن والحشائش، انظر آيتى (٥٣، ٥٤) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿ألفافًا﴾: جمع لفيف، كشريف وأشراف. واللفيف تقدم فى الآية (١٠٤) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٨، ٣٧٩ والمراد هنا: ملتفة أغصانها بعضها على بعض لجودتها.

﴿ميقاتًا﴾: أى وقتا محددًا لجمع الخلائق فيه للحساب والفصل بينها. ﴿يوم ينفخ﴾: ﴿يوم﴾ بدل من ﴿يوم الفصل﴾ قبله ﴿أفواجًا﴾: أى طوائف كل أمة مع رسولها، انظر الآية (٧١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤.

﴿فتحت السماء﴾ ... إلخ: كناية عن تشققها قبل أن تمور وتفنى، انظر الآية (٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، والآية (٢٥) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، والآية (١) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩.

﴿سيرت الجبال﴾: انظر شرح الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧، والمراد: وكانت قد سيرت الجبال: لأن ذلك يحصل قبل النفخة الثانية، انظر كل ذلك فى الآيات من (١) إلى (١٤) من سورة التكوير صفحتى ٧٩٣، ٧٩٤. ﴿مرصادا﴾: أى موضعًا يرصد فيه خزنتها مَنْ يستحقونها، ويسحبونهم إليها. ﴿مآبا﴾: أى مرجعًا. ﴿لابثين﴾: أى ماكثين.

﴿أحقابا﴾: مفردها حُقب بضمتين، والحُقب جمع حقبة بكسر فسكون وهى مدة من الزمن غير محددة، فالأحقاب جمع الجمع.

﴿بردًا﴾: المراد هواء رطب يخفف حرها. ﴿حميمًا﴾: ماء شديد الحرارة. و ﴿غساقًا﴾: ما يسيل من صديد أهل النار.

المعنى: عن أى شىء يتساءل هؤلاء. ثم رد سبحانه بقوله: عن النبأ.. إلخ. على سبيل التوبيخ. أى هل عن النبأ العظيم المقطوع به يصح التساؤل والاختلاف؟ فلينزجر هؤلاء عن هذا التساؤل فسيعلمون عند الموت كل شىء. ثم سيعلمونه أوضح عند البعث من القبور. ألم يعلموا أننا نحن الذين جعلنا الأرض ممهدة راحة لهم. وجعلنا الجبال حافظة لتوازن الأرض كالأوتاد. وخلقناكم مزدوجين ذكرا وأنثى لبقاء النوع. وجعلنا نومكم قاطعًا لمتاعبكم، وجعلنا النهار وقت سعى على ما تعيشون به. وبنينا فوقكم سبع سموات قويات محكمات. وجعلنا فيها شمسا كالسراج، شديدة التوهج. وأنزلنا من السحائب ماءً كثيرًا لنخرج به حبا تقتاتون به. ونباتًا لأنعامكم وجنات متشابكة الأغصان لجودتها.

وبعدما بيّن سبحانه قدرته على هذه الأشياء العظيمة. شرع سبحانه فى بيان سر تأخير ما يسألون عنه. فقال تعالى: إن يوم الفصل... إلخ. أى إن يوم القيامة الذى يفصل فيه بين الخلائق كان فى علم الله محددًا بوقت لا يتقدم ولا يتأخر. انظر آيتى (١٠٣، ١٠٤) من سورة هود صفحة ٢٩٩ .

ثم بيّن ما سيحصل فيه. فقال: يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية فتحيون من القبور وتأتون للمحشر أفواجًا. ولما كان يوم القيامة يطلق على الزمن الطويل الذى يبدأ بالنفخة الأولى المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ والآية (١٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢، وينتهى بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.... نقول لما كان بهذا الطول فهو يشمل كل ما يقع فيه. فصح أن يقول سبحانه: وفتحت السماء. أى تأتون أفواجًا. والحال أنه فى هذا اليوم تشققت السماء ومارت وسيرت الجبال وتطايرت وفى هذا اليوم تكون جهنم موضعا يرصد فيه خزنتها مَنْ يستحقون دخولها ويسحبونهم إليها، ثم بيّن سبحانه من هم أصحابها. فقال: للطاغين مآبا، أى كانت مرجعا لكل مَنْ طغى وكفر. مقيمين فيها دهورًا لا نهاية لها. لا يذوقون فيها راحة الهواء البارد، ولا شرابا يطفئ ظمأهم، لكن يشربون ماء يغلى مخلوط بالصديد الذى يسيل من أجسام أهل جهنم. انظر الآية (٦٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩١ .

وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾
فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ
مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾
وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾
جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾
يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ
أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ
فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ
يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

المفردات: ﴿وفاقا﴾ أى موافقا لعملهم.

﴿لا يرجون حسابا﴾: أى لا يقدرون أن الله تعالى سيبعثهم ويحشرهم ويحاسبهم.

﴿كِذابا﴾: أى تكذيبا شديدًا مصحوبًا بالعناد.

﴿أحصيناه كتابا﴾: أى ضبطناه وكتبناه.

﴿كتابا﴾: مصدر مؤكد لـ ﴿أحصيناه﴾: من معناه، كما تقول قعدت جلوسًا، تريد قعدت قعودًا محققًا، فالمراد هنا كتبناه كتابة لاشك فيها بإحصاء دقيق، وحاصل المعنى: أحصيناه فى كتاب أعمالهم بكل دقة، انظر الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ . والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨.

﴿مفازا﴾: أى مكان فوز بالنعيم.

﴿كواعب﴾: جمع كاعب وهى الفتاة التى بدأ ثديها يستدير، ولم يزد على مقدار الكعب.

﴿أترابا﴾: جمع ترب بكسر فسكون، وهى مَنْ تساوى غيرها فى العمر. والمراد: متساويات فى العمر.

﴿دهاقا﴾: أى مملوءة، والمراد بما يشتهون.

(١) بآياتنا.
(٢) أحصيناه.
(٣) كتابا.
(٤) أعنابا.
(٥) كذابا.
(٦) السموات.
(٧) الملائكة.
(٨) مآبا.
(٩) أنذرناكم.
(١٠) يا ليتنى.
(١١) ترابا.

﴿كذابا﴾: المراد به هنا: مجرد التكذيب. فهو غير ما تقدم فى الآية (٢٨) من هذه السورة.

﴿عطاء حسابا﴾: المراد: كثيرًا كافيًا، تقول حسبك درهم. أى كافيك.

﴿لا يملكون منه خطابا﴾: المراد: لا يمكِّن سبحانه أحدًا من مخاطبته. ففى اليوم الذى يقوم فيه الروح، بطلب زيادة ثواب، أو إنقاص عقاب... إلخ. وهذا من قبيل قولهم: مَلَك فلان من محمَّد درهما أى أن محمَّدا ملَّك فلانا درهما. فالمعنى والله أعلم. أنه سبحانه مع واسع رحمته التى كان يجب عليهم أن يستجلبوها فإنه فى هذا اليوم الشديد الكرب لا يُملِّك سبحانه كلا الطائفتين السابقتين ﴿الطاغين﴾ و﴿المتقين﴾ خطابا يستطيعون به تخفيف العذاب أو زيادة الثواب. فالكلام استئناف مقرر لما دلت عليه الربوبية العامة من غاية العظمة الإلهية، وانفراده سبحانه فى ذلك اليوم بالجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحد من خلقه تَدَخُّل فيه. انظر الآية (١٠٥) من سورة هود صفحتى ٢٩٩، ٣٠٠.

﴿الروح﴾: هو جبريل عليه السلام. انظر الآية (١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١.

﴿الملائكة﴾: انظر الآية (١٧) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

﴿لا يتكلمون﴾: تأكيد لقوله تعالى: ﴿لا يملكون﴾ ... إلخ: لأن هؤلاء الذين هم أقرب الخلائق إلى الله تعالى، ولا يعصون له أمرًا، إذا لم يقدروا على الكلام إلا بإذنه سبحانه من شدة الهول. فكيف يكون الحال بالنسبة لغيرهم.

﴿مآبا﴾: أى أوبا ورجوعا إلى الله بالتوبة والطاعة.

﴿أنذرناكم﴾: أى حذرناكم.

﴿قريبًا﴾: أى قريبا حصوله، وهو عذاب يوم القيامة الآتى الذى لاشك فيه. فكل آت قريب.

﴿يا ليتنى كنت ترابا﴾: أى ياليتنى بقيت على حالتى الأولى فى الدنيا، ولم أصر إنسانًا مكلفا. ونظير هذا قول عمر بن الخطاب لكن فى مجال الخوف من الله: ليت أم عمر لم تلد عمر. انظر الآية (٣٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

المعنى: يجازى سبحانه الكفار بما سبق منهم جزاء موافقًا لأعمالهم، ثم فصل بعض أعمالهم هذه فذكر منها شيئين هما أفظعهما فقال: إنهم كانوا... إلخ. أى إن الذى جرأهم على الكفر والفسوق أنهم ما كانوا ينتظرون يوم الحساب. وأنهم كذبوا بجميع أدلة التوحيد وصدق رسولهم وكتابهم تكذيبًا شنيعًا، كانوا فى الدنيا فى غفلة، ونحن نحصى عليهم فى كتابهم الذى سيقرءونه يوم القيامة بأنفسهم كل شىء عملوه فى الدنيا ليجازوا به. انظر الآية (١٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦. ثم نقول لهم بعد دخولهم جهنم: وبما أن هذا عملكم فذوقوا جزاءه ولا تنتظروا أن نزيدكم إلا عذابا. انظر آيتى ٥٧، ٥٨ من سورة ص صفحة ٦٠٣.

ثم بين سبحانه جزاء المؤمنين فقال: إن للمتقين مفازا. وبيَّنه بأنه حدائق فيها كل فاكهة خصوصًا الأعناب. وأن لهم فى هذه الجنات زوجات ناشئات أبكارًا كلهن فى عمر واحد. ويشربون كأسا مليئة بما يشتهون. لا يسمعون فى الجنة كلاما لا فائدة فيه ولا تكذيبًا يؤلم كما هو المعروف عمَّن يشربون خمر الدنيا. جزاهم ربك أيها النبى بهذا وأعطاهموه جزاء وعطاء من فضله كافيًا وافيًا.

ثم وصف الرب المعطى سبحانه بأنه رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن، ومع ذلك فمن شدة الهول فى هذا الموقف فلن يقدر أحد من أهل السموات والأرض على الإقدام على مخاطبته فى زيادة ثواب أو تخفيف عقاب فى ذلك اليوم الذى يقوم فيه جبريل عليه السلام والملائكة جميعًا مصطفين فى انتظار أوامره سبحانه وتعالى. انظر الآية (٢٢) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧. لا يتكلم واحد منهم بكلمة واحدة إلا مَنْ أذن له الرحمن فى الشفاعة بشرط أن تكون شفاعته فى محلها. انظر تفصيل ذلك فى الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦. ذلك اليوم المعد للفصل بين المحققين والمبطلين هو الحق الثابت حصوله ممَن شاء أن يتقى شره فليتخذ طريقًا يرجعه إلى ربه عز وجل. ثم رجع سبحانه إلى تهديد المعاندين فقال: إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا ستجدون مقدماته بعد الموت مباشرة وأهواله تجدونها يوم ينظر الإنسان ما قدمت يداه. فيسر المؤمن، ويندم الكافر ندمًا شديدًا، حيث لا ينفع الندم، ويتمنى لو كان ترابًا لم يخلق. أو يصير بعد البعث ترابًا. كالبهائم. نسأل الله تعالى السلامة فى الدنيا والآخرة.

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿والنازعات﴾: انظر الحلف بمثل ما هنا فى صفحة ٥٨٧ . والنازعات هى الكواكب التى تجرى من قولهم نزع الفرس، أى جرى.

﴿غرقًا﴾: أى نزعًا ذا غرق، أى إغراق وهو المبالغة فى الشىء، والمراد نزعًا شديدًا.

﴿الناشطات﴾: هى الكواكب المتنقلات من برج إلى برج من قولهم نشط الرجل، إذا خرج من بلد إلى بلد.

﴿السابحات﴾: هى الكواكب التى تسير فى الجو سيرًا هينًا.

(٧٩) سورة النازعات مكية
وآياتها ست وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢)
وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ
أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)
قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ
أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا
نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦)

﴿السابقات﴾: هى الكواكب التى تتم دورتها فى مدة أقل من غيرها، كالقمر الذى يتم دورته كل شهر، مع أن الشمس تتمها كل عام.

﴿المدبرات أمرًا﴾: المراد: المتسببات فى حدوث الأمور المترتبة على سيرها، من اختلاف الفصول ومعرفة عدد السنين وحساب مواقيت العبادات والمعاملات بين الناس، انظر الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦ .

﴿يوم ترجف﴾: هذا متعلق بجواب القسم المحذوف للعلم به من المقام كما فى آيتى (٢،١) من سورة القيامة صفحة ٧٧٨، والأصل: أقسم بهذه الأشياء التى تدركون منافعها، أن كل الأموات سيبعثون (يوم ترجف)... إلخ و﴿ترجف﴾: أى تهتز وتتزلزل.

(١) النازعات. (٢) الناشطات. (٣) السابحات. (٤) السابقات. (٥) المدبرات.
(٦) أبصارها. (٧) خاشعة. (٨) أئنا. (٩) أئذا (١٠) عظامًا.
(١١) واحدة. (١٢) آتاك (١٣) ناداه.

﴿الراجفة﴾: هى الأرض عند زلزلتها. انظر الآية (١٤) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤ .

﴿الرادفة﴾: هى السماء التى تتبع الأرض فى اضطرابها وتشققها. ﴿واجفة﴾: شديدة الانزعاج. ﴿خاشعة﴾: أى ذليلة كسيرة. ﴿يقولون﴾: أى الكفار فى الدنيا. على وجه الإنكار للبعث. ﴿فى الحافرة﴾: أصل الحافرة: هى الطريق المحفورة بتكرار المشى فيها. يقولون: رجع فلان فى حافرته أى فى طريقه التى جاء منها. والمراد هنا: الحالة الأولى. وهى الحياة التى كانوا عليها فى الدنيا. ﴿نخرة﴾: بالية جوفاء تمر فيها الرياح. فيسمع لها صوت. ﴿كرة﴾: أى رجعة. ﴿خاسرة﴾: المراد خاسر أصحابها كقوله ﴿عيشة راضية﴾ أى راض صاحبها. ﴿هى﴾: أى الرجعة إلى الحياة. ﴿زجرة﴾: الزجرة النفخة فى الصور والمراد: أن الرجعة إثر تلك الزجرة. ﴿فإذا هم﴾: الفاء تدل على سرعة حصول مابعدها مرتبًا على ما قبلها.

﴿الساهرة﴾: هى الأرض البيضاء، سميت بذلك؛ لأن السراب يجرى فيها، من قولهم: (عين ماء ساهرة) أى ماؤها جار لا ينقطع، أى فهى أرض فضاء شاسعة. ﴿هل أتاك﴾: تقدم المراد من مثل هذا فى الآية (٩) من سورة طه صفحة ٤٠٦ . ﴿الواد المقدس طوى﴾: تقدم كذلك فى الآية (١٢) من سورة طه أيضًا صفحة ٤٠٧ .

المعنى: يقول سبحانه وتعالى أقسم بأنواع من الكواكب، والنجوم والشمس، والقمر. إظهارا لعظم شأنها، وإتقان نظامها، وكثرة منافعها، وأنها مسخرة لخالقها، وخاضعة لأمره، أن كل الأموات سيبعثون بعد الموت، يوم ترجف الأرض وما عليها. وتتبعها السماء وما فيها. يومئذ تنزعج قلوب الكفار، وتخشع أبصارهم. ثم ذكر سبحانه بعض ما استحقوا به ذلك فقال تعالى: يقولون... إلخ. أى يقول كفار مكة استهزاء وإنكارا للبعث. هل نحن حقًا مردودون للحياة بعد الموت كما يقول محمَّد؟ ثم بالغوا فى ذلك فقالوا: هل نرد للحياة بعد أن نكون عظاما بالية لو لمست لتفتت؟ هذا لا يكون. وزادوا فى الاستهزاء فقالوا: تلك الرجعة - إن صح مايقول محمد - رجعة خاسر أصحابها. فرد سبحانه عليهم استبعادهم البعث بقوله: فإنما هى... إلخ. أى لاتظنوا أن رجوعكم صعب على اللَّه بل هين لأنه لا يحتاج إلا إلى صيحة واحدة لا ثانى لها. فإذا الناس جميعًا أحياء مجتمعون على وجه الأرض الخلاء وبعدما رد عليهم سبحانه أراد أن يهددهم بعذاب الدنيا أيضًا. ويخفف على رسوله تألمه منهم فذكر الجميع بقصة موسى مع فرعون. وقد كان لفرعون من الجبروت ماليس عند كفار مكة، ومع ذلك أهلكه اللَّه، ونصر نبيه. فقال تعالى: هل أتاك حديث موسى؟ إذ - أى حين - ناداه ربه بالوادى المقدس الذى هو طوى؟

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ
أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩)
فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ
أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ
ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ (٢٥)
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ (٢٦) ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ
ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ
لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠)
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢)
مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ
ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥)
وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧)

المفردات: ﴿هل لك﴾.. إلخ: الاستفهام مراد منه الطلب بلطف لتخفيف حدة جبروت فرعون. أى هل لك ميل إلى أن تتطهر مما أنت فيه، وهذا هو (القول اللين) المذكور فى الآية (٤٤) من سورة طه صفحة ٤٠٩ .

﴿تزكى﴾: أصلها (تتزكى) أى تتطهر من الكفر والعناد والمعاصى.

﴿الآية الكبرى﴾: هى المعجزة العظمى وهى العصا. انظر الآية (٣٢) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨١، ٤٨٢ .

﴿أدبر﴾: أى أعرض عن الإيمان.

﴿يسعى﴾: أى فى محاربة الحق والكيد لموسى وإبطال دعوته.

﴿فحشر﴾: أى أرسل من يجمع له السحرة. انظر آيتى (١١١، ١١٢) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠ .

﴿فنادى﴾: أى فأعلن فى الجمع قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾: تقدم المراد من هذا القول فى شرح الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١ .

﴿فأخذه اللّٰه﴾: أى عاقبه.

﴿نكال﴾: النكال بمعنى التنكيل وهو التعذيب المقصود به منع الغير من الوقوع فى أسبابه. انظر الآية (٦٦) من سورة البقرة صفحة ١٣. وهو منصوب على أنه مفعول لأجله، أى عاقبه اللّٰه لأجل عقابه فى المرة الأولى والآخرة عبرة لغيره.

(١) فأراه. (٢) الآية. (٣) الآخرة
(٤) أانتم (٥) بناها. (٦) فسواها.
(٧) ضحاها (٨) دحاها (٩) مرعاها
(١٠) أرساها (١١) لأنعامكم (١٢) الإنسان.

﴿الآخرة﴾: أى الحاصل فى الآخرة بعذاب جهنم، وهو عبرة من جهة أن اللّٰه تعالى أخبر بأنه سيقع قطعًا، ونظير ذلك ما فى الآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧ .

﴿الأولى﴾: الحاصل فى الدنيا وهو إغراقه، انظر الآية (٩٠) من سورة يونس صفحة ٢٨٠ .

﴿ءأنتم﴾... إلخ: استفهام أريد به تقريع وتوبيخ منكرى البعث.

﴿خلقا﴾: أى إيجادا.

﴿سمكها﴾: أصل السمك إقامة الشىء. والمراد جعل مقدار اتجاهها إلى جهة العلو مرتفعا

﴿فسواها﴾: أى فعدلها بوضع كل جزء فى موضعه، وجعلها سليمة من الشقوق. انظر الآية (٣) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ .

﴿أغطش ليلها﴾: يقال غطش الليل بوزن ضرب أى أظلم، وأغطشه اللّٰه أى جعله مظلمًا.

﴿وأخرج ضحاها﴾: الضحى ضوء الشمس أول النهار، ويطلق على زمنه. انظر الآية (٥٩) من سورة طه صفحة ٤١٠ والآية (١) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩، والمراد: أبرز نور شمسها.

﴿دحاها﴾: تقول العرب: دحا يدحو. كدعا يدعو. ولهذا اللفظ عندهم معنيان: الأول البسط، والثانى الدفع أى التحريك.

يقولون: دحا المطر الحصا عن وجه الأرض، أى دفعه عن مكانه، وجرفه إلى مكان آخر ومنه (المِدحاة) بكسر فسكون، وهى خشبة يلعب بها الصبيان فى دحو الحجر مثلا. ليقع فى حفرة. والمعنيان جاءا فى القرآن. فمن الأول ما فى الآية (١٩) من سورة نوح صفحة ٧٦٩، ومن الثانى ما يفهم من عموم (كلٌّ) فى الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢، لأن المعنى كل شىء مما ذكر فى هذه الصفحة من أرض وشمس وقمر... إلخ.

﴿مرعاها﴾: أصل المرعى مكان الرعى، وأريد به هنا كل ما تنتجه الأرض من قوت الناس والحيوان.

﴿متاعا لكم﴾: أى لأجل أن تتمتعوا به أى تنتفعوا.

﴿أنعامكم﴾: تقدم فى الآية (١٤٢) وما بعدها من سورة الأنعام صفحتى ١٨٦، ١٨٧.

﴿الطامة﴾: هى الداهية التى تطم أى تعلو على سائر الدواهى.

﴿الكبرى﴾: أى أكبر الطامات وهى القيامة التى تبدأ بالنفخة الثانية. انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ وهى المعبر عنها بالصاخة فى الآية (٣٣) من سورة عبس صفحة ٧٩٣، وانظر بقية أسمائها فى الآية (١) من سورة الحاقة ٧٦١.

﴿يوم يتذكر﴾: ﴿يوم﴾ ظرف بدل من ﴿إذا﴾ فى إذا جاءت.

﴿ماسعى﴾: أى الذى عمل، والمعنى يتذكر أعماله.

﴿برزت الجحيم﴾: أى أبرزها الله لأعين الكافرين لزيادة إزعاجهم. انظر الآية (١٠٠) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤.

المعنى: قال سبحانه لموسى اذهب إلى فرعون لإصلاحه لأنه تجاوز الحد فى الكفر والفساد. وقل له متلطفا هل لك ميل إلى أن تتطهر مما أنت فيه. وأدلك على طريق معرفة ربك الذى خلقك فتخافه وتمتنع عما أنت فيه فتنجو من العذاب؟ فلما سمع موسى ذلك من ربه ذهب إلى فرعون وبلغه كما أمره ربه. فلم يصدقه فرعون وطلب منه دليلا. فأراه موسى المعجزة الكبرى فاستمر على التكذيب. وعصى رسول ربه. كما فى الآية (١٦) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤.

ثم أعرض عن الإيمان وهو يسعى فى الكيد لموسى ومحاربته. وكان مما فعله أنه أرسل مَنْ حشر أى جمع له السحرة والأتباع. فنادى فيهم قائلاً: أنا ربكم الأعلى. أى فلا تسمعوا قول موسى. فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ليجعل تعذيبه فى الآخرة بالإحراق وفى الدنيا بالإغراق عبرة لمَنْ تحدثه نفسه بمثل عمله. إن فى هذا الذى حصل لفرعون وجنوده عبرة عظيمة. ينتفع بها مَنْ يخشى الله. ثم رجع سبحانه إلى توجيه الخطاب لكفار مكة المنكرين للبعث بأسلوب فيه تقريع وتسفيه فقال: (ءأنتم)... إلخ. أى هل أنتم أيها المغرورون أصعب على الله إيجادا أم السماء التى هى أكبر منكم بالمشاهدة كما فى الآية (٥٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٥.

ثم بيّن كيف أنشأ سبحانه السماء ونظمها فقال: بناها. أى جعلها عالية البناء سليمة من كل نقص، وجعل ليلها مظلما ونهارها مضيئًا. للحكمة المشار إليها فى الآية (٧١) وما بعدها من سورة القصص ٥١٧.

وبعد ذلك دحى الأرض أى جعلها تسبح فى فلكها كما تقدم لتحصل الفائدة المترتبة على ذلك مما هو معروف عند علماء الهيئة. أو مهدها وجعلها صالحة للسكنى فأخرج منها الماء والمرعى وأرسى فيها الجبال لتمنعها من اختلال توازنها. انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧. فعل سبحانه كل ما ذكر لتنتفعوا بما فيها أنتم وأنعامكم التى يتوقف عليها نظام حياتكم.

وبعد هذا فهل يصح أن يكون القادر على ذلك كله غير قادر على بعثكم أيها الكفار ويليق باله حكيم أن يخلق هذا العالم على هذا النظام ثم يتركه هملاً بدون محاسبة ومجازاة المحسن والمسيىء، انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦.

وإذا كان لابد من الحساب فاعلموا أنه إذا جاءت القيامة بأهوالها الكبرى وحينئذ يتذكر الإنسان عمله خيرًا أو شرًا. والمعنى يتذكر كل واحد ما عمله بأن يشاهده مدونًا فى صحيفته بعد أن كان نسيه من شدة غفلته، أو قسوة ما لقى من هول القيامة.

قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد﴾ الآية (٦) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٥. وتبرز الجحيم ليراها الغاوون كما فى الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥. وإذا حصل كل هذا انقسم الناس إلى شقى طاغ، وإلى سعيد يخاف الله، كما فى الآية (١٠٥) من سورة هود صفحتى ٢٩٩، ٣٠٠. فأما مَنْ طغى... إلخ.

(تنبيه) قد يتوهم الناظر العابر أن ظاهر الآية (٣٠) هنا يختلف مع ظاهر الآيات (٢٩) من سورة البقرة صفحة ٧ و(٩:١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١. حيث يدل ظاهر الآية الأولى على تقدم خلق السماء وما فيها على خلق الأرض وما عليها وعلى العكس ما فى الآيات صفحات ٦٣١،٦٣٠،٧. ولكن الخبير بأساليب العرب لا يتسرب إليه هذا الوهم لأنه يدرك أن قوله سبحانه هنا (بعد ذلك) ظاهر فى تقدم خلق السموات على الأرض وهو ما اختاره

المحققون من العلماء. وأن الآيات الأخرى جاء فيها ذكر خلق السماء معطوفا (بثم) وحرف (ثم) يأتى فى كلام العرب كثيرًا لإفادة الترتيب فى الذكر والحكاية لا فى الوجود: فيقول أحدهم. أنا أحسنت لفلان بكذا وكذا، ثم أنقذته من كذا. يريد بالعبارة الأخيرة ذكر نوع آخر من الإحسان ولو كان سابقا فى الوجود على ما قبله. فهو على معنى قولهم فى بعض الأحيان (وغير ذلك فعلت معه كذا) وجاء هذا المعنى فى القرآن فى الآية (١٥٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠ بعد آيات ١٥١:١٥٣ صفحة ١٨٩؛ لأن إيتاء موسى الكتاب كان قبل أمره سبحانه لخاتم الرسل ﷺ بما ذكر فى تلك الآيات.

ولكنه عندما أراد الإخبار أخره فى الذكر فقط، كأنه يقول أمرتك بكذا ثم أخبرك بكذا. وكذلك ﴿ثم﴾ فى الآية (١٧) من سورة البلد صفحتى ٨٠٨، ٨٠٩ بعدما فى الآيات (١١، ١٦) فإن الأعمال الصالحة التى فى هذه الآيات لا تعتبر إلا إذا سبقها الإيمان مع أنه مذكور بعدها معطوف ﴿بثم﴾ وليس التأخير إلا فى الإخبار فقط، إذا فما الحكمة فى تقديم الأرض فى بعض الآيات والعكس فى البعض الآخر؟ الحكمة أن ذلك يختلف باختلاف المقامات. فإن كان المقام للامتنان على الإنسان بتعداد النعم فإنه يحسن تقديم ذكر أقرب مصادر النعم إليه وهى الأرض التى يعيش فوقها.

ولكن إذا كان المقام لبيان كمال قدرته تعالى على الانتقام من الكافرين أو على بعثهم يوم القيامة. فإنه يحسن تقديم ما يدل على ذلك وهو خلق السموات وما فيها. وهى أعظم من الأرض. وإن كان المقام يصلح للاعتبارين صح تقديم كل منهما. انظر مقام بيان القدرة فى الآية (١٠٧) من سورة البقرة صفحة ٢١ والآية (١١٧) من سورة البقرة أيضًا صفحة ٢٣ والآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣ والآية (٩٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨ والآية (٨١) من سورة يس صفحة ٥٨٦، والذى يهمنا فى هذا المقام هو العلم بأنه سبحانه خلق هذا العالم بالتدريج الذى لا يعلم حقيقته غيره تعالى كما فى الآية (٥١) من سورة الكهف صفحة ٢٨٨ . وإنما ذكر لنا ما يدل على كمال قدرته وعظيم حكمته. أو يدل على سابغ فضله وحكمته. ولم يرد سبحانه سرد التاريخ لتكوين العالم بالترتيب، كما تفعل كتب التاريخ؛ لأن هذا ليس من مقاصد الدين الأصلية. وإنما مقاصده كلها ترمى إلى الهداية والإرشاد إلى الصواب. والله تعالى أعلم.

وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ
مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
مُنتَهَىٰهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ
يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ

المفردات: ﴿آثر الحياة﴾: أى اختارها وفضلها.

﴿المأوى﴾: أى المكان الذى يأوى إليه ويستقر فيه.

﴿مقام ربه﴾: تقدم فى الآية (١٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢ والآية (٤٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ .

﴿الساعة﴾: المراد بها القيامة عند النفخة الثانية كما فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ .

﴿أيان﴾: أى متى وفى أى وقت.

﴿مرساها﴾: المرسى معناه الإثبات، انظر الآية (١٨٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣ ، ومنه الجبال الرواسى انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧ والمراد: متى يوجدها الله يقولون ذلك استهزاء وإنكارًا لها.

﴿فيم أنت﴾....إلخ: الأصل ﴿فى. ما﴾ و﴿ما﴾ اسم استفهام إنكارى يفيد النفى والمعنى: فى أى شىء من العلم أنت أيها النبى حتى تذكر لهم وقتها؟

(١) أثر.
(٢) الحياة.
(٣) يسألونك.
(٤) مرساها.
(٥) ذكراها.
(٦) منتهاها.
(٧) يخشاها.
(٨) ضحاها.

أى لا علم لك به؛ لأنه مما لا يعلمه غيره سبحانه، والمراد: أن السؤال عما لا يعلمه إلا الله لا يكون إلا من متعنت لا يريد الحق.

﴿إلى ربك منتهاها﴾: المراد منتهى علم وقت حصولها موكول إلى ربك وحده.

﴿منذر﴾: أى محذر من هولها.

﴿لم يلبثوا﴾: أى لم يمكثوا فى الدنيا، وفى القبور.

﴿عشية﴾: هى طرف النهار الأخير.

﴿ضحاها﴾: أى ضحى تلك العشية، والضحى أول النهار.

المعنى: أما مَنْ طغى وفضل متاع الحياة الدنيا وانهمك فى لذاتها ولم يفكر فى آخرته فإن جهنم هى مقره ولا مقر له سواها وأما مَنْ راقب جلال ربه، ومنع نفسه عن شهواتها، وضبطها بالصبر على الشدائد، فإنه لا مسكن له إلا الجنة.

ثم انتقل سبحانه إلى تسفيه كفار قريش على إنكارهم القيامة، وكان من أساليب إنكارهم، أنهم يسألونه ﷺ عنها استهزاء.

فقال سبحانه: (يسألونك)... إلخ. أى يسألك كفار قومك عن القيامة قائلين متى يوجدها الله؟ فى أى شىء أنت من ذكر وقتها لهم حتى يسألونك عنه، والمراد ليس هذا من شأنك؛ لأن مرجع علم وقتها إلى الله وحده، فهو ليس من وظيفتك. إنما وظيفتك أنك تحذر من أهوالها مَنْ يخشاها ويخافها فيتقى ربه.

ثم بيَّن سبحانه شدة هولها فقال: كأنهم يوم يرونها.. إلخ. أى أنهم عندما يشاهدون كربها وشدائدها، يظنون أن جميع الأزمان التى قضوها فى الدنيا أو فى القبور ما هى إلا لحظة كعشية أوضحىَ يومها، انظر الآية (٥٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١، والآية (١١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، والآية (٥٥) من سورة الروم صفحة ٥٣٨، والآية (٣٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧١، ٦٧٢ .

سورة عبس

المفردات: ﴿عبس﴾: أى قطب وجهه ﷺ متألمًا؛ لأنه كان مشغولاً بهداية كبار القوم.

﴿تولى﴾: أى أعرض بوجهه.

﴿أن جاءه﴾: أى لأجل أن جاءه.

﴿الأعمى﴾: هو عمرو بن قيس بن أم مكتوم، جاء للنبى ﷺ يسأله عن علم يزداد به إيمانًا.

﴿يزكى﴾: أى يتطهر. والمراد: يزداد طهرًا من آثار الماضى.

﴿أو يذكر﴾: أى يتعظ.

﴿فتنفعه﴾: بنصب الفعل جواب (لعل) كقوله تعالى: ﴿فاطلع إلى إله موسى﴾ الآية (٣٧) من سورة غافر صفحتى ٦٢٢، ٦٢٣ .

المعنى: وسبب نزول هذه السورة، أن عمرو بن قيس بن أم مكتوم، جاء يومًا إلى النبى ﷺ فى وقت كان عنده فيه صناديد قريش يحاول هدايتهم للإسلام، فقال: علمنى يا رسول الله مما علمك الله.

وكان اهتمام النبى ﷺ بهداية مَنْ فى مجلسه شديدًا، فلم يلتفت إليه، فصار عمرو يكرر قوله، وهو لا يشعر بتشاغله ﷺ بالقوم. فكره ﷺ أن يقطع كلامه فعبس وأعرض عنه. وبعد انصراف القوم ورجوعه ﷺ إلى بيته نزل الوحى بقوله تعالى: (عبس وتولى)... إلخ.

فكان ﷺ لا يراه بعدها إلا ضمه إليه ويقول: مرحبًا بمَنْ عاتبنى فيه ربى، وذكر لفظ الأعمى للإشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلامه صلوات الله عليه مع القوم وللإشارة إلى أنه أحق بالرفق، وقوله: (وما يدريك) ... إلخ. معناه أى شىء يدريك حال هذا الأعمى، والمراد أنت لا تعلم حاله حتى تعامله هذه المعاملة؛ لأنه قد يزداد بإقبالك عليه تطهرًا من آثار الماضى بما يتعلمه منك، أو يتعظ بما يسمعه منك فتنفعه الموعظة. فالذى يرجى منه الانتفاع تعرض عنه. أما الذى استغنى عنك... إلخ.

أَسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا
يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾
فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ
ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾
بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ
مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ
خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ
فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ
مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ(١) إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا
صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً(٢) وَأَبًّا ﴿٣١﴾

المفردات: ﴿استغنى﴾: أى عن الإيمان بك، وعما جئت به من العلوم والفضائل والخير.

﴿تصدى﴾: الأصل تتصدى، وحذفت إحدى التائين تخفيفًا. والمعنى تتعرض للإقبال عليه.

﴿وما عليك﴾: أى ليس عليك لوم فى أن لا يتزكى.

﴿يزكى﴾: أى يتطهر بالإسلام من دنس الشرك.

﴿يسعى﴾: أى يسرع لطلب الخير.

﴿تلهى﴾: الأصل تتلهى، والمراد: تتشاغل عنه بالحديث مع غيره.

﴿كلا﴾: أى لا تفعل مثل ذلك. ﴿إنها﴾: أى آيات القرآن.

﴿تذكرة﴾: أى فيها تذكير بالحق وعظة.

﴿ذكره﴾: أى ذكر القرآن المشار إليه بالآيات والمراد: تذكره واتعظ به.

﴿فى صحف﴾: أى أن تلك الآيات القرآنية مثبتة فى صحف ... إلخ.

﴿مكرمة﴾: أى عند الله تعالى. ﴿مرفوعة﴾: أى فى القدر والمنزلة.

﴿مطهرة﴾: أى منزهة عن كل عيب.

﴿سفرة﴾: جمع سافر، بمعنى سفير، كجمع كاتب على كتبة، قال ابن عباس: هم الملائكة الموكول إليهم تبليغ وحيه سبحانه إلى أنبيائه، انظر الآية (٢) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ .

---

(١) الإنسان.
(٢) فاكهة.

﴿بررة﴾: جمع بار أى كثير الخير.

﴿قتل الإنسان﴾: أصل معناها الدعاء والمراد أنه استحق الهلاك، فالإنسان هنا يراد به الكافر.

﴿ما أكفره﴾: أى ما أشد كفره بربه الذى غمره بإحسانه. انظر ما سبق فى الآية (١٧٥) من سورة البقرة صفحة ٣٣ .

﴿من أى شىء خلقه﴾: استفهام أريد به التحقير، انظر شرح الآية (٣٩) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦ .

﴿من نطفة خلقه﴾: بيان لهذا الشىء الحقير.

﴿فقدره﴾: أى قدر وجوده على أدوار مرتب بعضها على بعض، كما فى الآيات (١٣ وما بعدها) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ .

﴿السبيل يسره﴾: المراد يسر له معرفة طريق الخير والشر ليسلك الأول ويجتنب الثانى، انظر الآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨ .

﴿فأقبره﴾: أى ألهم الأحياء أن يقبروه، وذلك لمواراة جيفته تكريمًا له، ولم يتركه على وجه الأرض يستقذر منه الناس، انظر الآية (٣١) من سورة المائدة صفحة ١٤٢ .

﴿أنشره﴾: أى أحياه يوم القيامة، تقول العرب (أنشره ونشره) بمعنى واحد، انظر الآية (٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠ .

﴿كلا﴾: زجر للإنسان عن الكفر.

﴿لما يقض﴾.. إلخ: ﴿لما﴾: حرف يدل على عدم حصول الفعل بعده إلى وقت التكلم، أى إلى الآن لم يفعل الإنسان ما أمره به ربه، انظر ﴿لما﴾ فى الآية (٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨ .

﴿إلى طعامه﴾: أى إلى تدبير وجود طعامه. ﴿أنا صببنا الماء﴾: بيان للتدبير.

﴿قضبًا﴾: أصل القضب مصدر لفعل قضب الشىء أى قطعه بوزن ضرب ومنه كلام مقتضب. ويطلق العرب القضب على كل نبت يقطع بعضه وهو أخضر ليؤكل ويخرج مكانه غيره، كالكرات، والنبات المعروف فى مصر (بالبرسيم) الذى تعلف به الدواب.

﴿غلبا﴾: جمع غلباء بفتح فسكون. كحمر جمع حمراء، والغلباء هى الحديقة الضخمة الأشجار الملتفة الأغصان. ﴿أبّا﴾: قيل هو المرعى الذى ينبت بدون تدخل زارع من البشر - والله تعالى أعلم - ولا يهمنا إلا أن نعلم أن لله نعمًا كثيرة يجب شكره عليها.

المعنى: أما من انشغل عنك أيها النبى واستغنى عما جئت به فأنت تخصه بالاقبال عليه. ولما عليك لوم فى بقائه بدنس الغرور، وأما من جاءك مسرعًا يطلب زيادة ما يقربه الى ربه وهو يخشى الله تعالى ويخاف الضلال، فأنت تجعل تشاغلك قاصرًا عليه. لا تعد لمثل ذلك أيها النبى ولا تشق نفسك مع من يظهر العناد والغرور؛ لأنه لا ينتظر منه رجوع عما هو عليه. وروى أنه ﷺ ما عبس بعد ذلك فى وجه ضعيف أبدًا. ولا اشتد اهتمامه بغنى. ولما كان مبعث شقاء من استغنى هو إعراضه عن القرآن، بيّن سبحانه أنه لو تأمل هذا القرآن لنجا. فقال: إنها تذكرة أى إن آيات القرآن موعظة عظيمة، لو أراد الهداية لانتفع بها، فمَنْ شاء الوصول للحق تذكرة تذكر اعتبار وهذه الآيات مثبتة فى صحف مكرمة عند الله، مرفوعة القدر والمنزلة، منزهة عن كل نقص، بأيدى ملائكة سفراء بين الله تعالى وأنبيائه، كرام عليه تعالى كثير خيرهم. وبعدما أرشد سبحانه إلى طرق الهداية، وكان الكافر فى غفلة عنها. قال سبحانه: قتل الإنسان. أى هلك الإنسان ما أشد كفره بربه الذى غمره بإحسانه.

ثم بيّن بعض أسباب استحقاقه للدعاء عليه فقال: من أى شىء خلقه؟ أى ألم يعلم أنه خلق من ماء مهين. ثم جعله فى أطوار مختلفة حتى صار خلقًا كاملاً . ثم بيّن له طريق الخير ليسلكه وطريق الشر ليجتنبه.

ثم لما أماته كرمه، ولم يتركه جيفة قذرة تأكلها سباع الطير والوحوش. ثم إذا شاء إحياءه للحساب والجزاء أحياه فى الوقت الذى قدره زجرًا لهذا الإنسان عن غفلته: لأنه إلى الآن لم يفعل شيئًا مما أمره به ربه مما فيه نجاته. وبعد ما عدد سبحانه على الإنسان نعمه فى أصل وجوده شرع فى بيان نعمه عليه لحفظه وبقائه فقال: (فلينظر)... إلخ. أى وإذا كان الإنسان فى غفلة عن فضل ربه عليه فى أصل وجوده فهل يصح أن لا ينظر إلى تدبير طعامه وكيف وصل إليه؟ ثم بيّن ذلك فقال سبحانه: أنّا صببنا الماء صبا، أى منظمًا على قدر الحاجة ولم نغرقهم كما حصل لقوم نوح. ثم شققنا الأرض شقا لائقا بكل نبات صغيرًا كان أو كبيرًا، وشكلا، فأنبتنا فيها حبًا وعنبًا ونباتا يأكله الإنسان والحيوان. أخضر طريًا، وزيتونًا ونخلاً. وحدائق ضخمة الأشجار. ثم خص الفاكهة بالذكر لأنها خاصة بالإنسان. وأخرج منها أيضًا مرعى لا يكلف الإنسان عناء.

مَتَٰعًا لَّكُمْ[1] وَلِأَنْعَٰمِكُمْ[2] ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ[3] وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

(٨١) سُورَةُ التَّكْوِيرِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾

المفردات: ﴿متاعًا لكم﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٣٣) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠ . (إذا جاءت): جواب إذا مفهوم من معنى الجملة الآتية فى الآية (٣٧) .

﴿الصاخة﴾: أصل معنى الصَّخِّ الضرب بالحديد مثلاً على كل جسم صلب مثله. فيحدث صوتًا مزعجًا.. والمراد هنا: هذا الصوت المزعج الناتج عن النفخة الثانية فى الصور المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥: جاء فى مختار الصحاح الصاخة. هى الصيحة التى من شأنها أنها تصم الآذان لشدتها وهى المعبر عنها بالطامة فى الآية (٣٤) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠ .

﴿يوم يفر﴾: ﴿يوم﴾: بدل من ﴿إذا﴾: السابقة كما قيل فى مثلها فى الآية (٣٥) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠ . ﴿صاحبته﴾: أى زوجته. ﴿شأن﴾: أى حال. ﴿يغنيه﴾: أصل معناه: يكفيه لتوجيه جميع قواه لنفسه، والمراد: لا يشغله إلا نفسه. ﴿مسفرة﴾: مضيئة، متهللة. ﴿مستبشرة﴾: أى متمكن منها البشر والسرور عندما ترى النعيم. ﴿ترهقها قترة﴾: أى تغشاها غمامة سوداء انظر الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠ . ﴿الفجرة﴾: جمع فاجر، وهو المعلن للفسق، والخروج على الشرع، وأصل معنى ﴿الفجرة﴾ الشق ومنه الفجر وهو أول النهار لأنه يشق ظلمة الليل بضوئه.

المعنى: خلق سبحانه كل ما تقدم ليتمتع به الإنسان والأنعام التى خلقت له. انظر الآية (٥) من سورة النحل صفحتى ٣٤٥، ٣٤٦ . وبعدما بيّن سبحانه مبدأ خلقهم وما به معاشهم شرع فى بيان أحوالهم يوم القيامة فقال: فإذا جاءت الصاخة. أى ما تقدم فيما تفضل به عليكم فى الدنيا، فإذا جاءت الداهية التى تصم آذانكم بضجتها فى يوم القيامة - فى هذا

(١) متاعًا. (٢) لأنعامكم. (٣) صاحبته

اليوم يفر المرء من أخيه لا يسأل إلا عن نفسه، بل يحاول أدهى من ذلك، انظر الآية (١٠ إلى ١٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥ ، بل يزيد به الكرب حتى يفر من أخيه وأمه وأبيه، بل حتى من زوجته التى هى ألصق الناس به، وقد كان يضحى فى الدفاع عنها بحياته. بل ويفر من بنيه الذين كان يشقى فى الدنيا ليسعدهم. ذلك كله لأن لكل واحد ممَّنْ يشاهد هذا الهول ويخاف مناقشة الحساب شأنا يشغله عمَّنْ سواه. وهذه الجملة الأخيرة هى المشعرة بجواب ﴿إذا﴾ فى قوله ﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ والأصل فإذا جاءت الصاخة ورآها الإنسان الذى كان فى الدنيا غافلاً عنها فإنه يحاول الفرار من كل عزيز عليه فى الدنيا، ظانًا أن ذلك ينجيه. ثم قسم سبحانه أهل الموقف بعد الحساب إلى قسمين فقال: وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة. وهى وجوه الأتقياء. ووجوه يومئذ عليها غبرة تعلوها ظلمة، أصحاب هذه الوجوه القبيحة هم الذين جمعوا بين الكفر بالله والفجور والمعاصى. نسأل الله تعالى السلامة.

سورة التكوير

المفردات: ﴿كورت﴾: أصل التكوير لف الشىء بعضه على بعض، والمراد هنا: اختفى ضوءها، انظر الآية (٥) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦ .

﴿انكدرت﴾: أسرعت فى الزوال وتناثرت، انظر الآية (٢) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥ . ﴿الجبال سيرت﴾: تقدم بيان ذلك فى الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ . ﴿العشار﴾: جمع عُشَراء بضم العين وفتح الشين. وهى الناقة الحامل إذا بقى على وضعها شهران فقط وهى أحب الأموال عند العرب. ﴿عطلت﴾: أى تركت بلا راع ولا مرعى من شدة الهول، وقال القرطبى: هذا كناية عن انشغال الإنسان بنفسه فينسى كل ما يملك.

المعنى: ذكر سبحانه اثنى عشر حدثا ستحصل يوم القيامة من أول النفخة الأولى إلى انقضاء الحساب وإعلان الجزاء فيدخل فيه ما بعد النفخة الثانية، وقد يسمى كل هذا الزمن يوم القيامة تسامحًا؛ لأن أصل زمن القيامة هو ما بعد النفخة الثانية، التى يقوم فيه الناس من القبور، آخر هذه الأحداث فى الآية (١٣)، فقال تعالى: إذا الشمس كورت أى طويت وذهب ضياؤها، وإذا النجوم تناثرت، وإذا الجبال سيرت بعد نسفها ثم صارت هباء، وإذا النوق الحوامل أهملها أصحابها من شدة الهول..

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦)
وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ[1] سُئِلَتْ (٨)
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠)
وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢)
وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤)
فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦)
وَاللَّيْلِ[2] إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ
مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ
بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ[3] بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى
الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ[4] رَجِيمٍ (٢٥)
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[5] (٢٧) لِمَن

المفردات: ﴿الوحوش حشرت﴾: المراد أن الوحوش مع شدة نفرتها فى الدنيا من الإنسان، وشرودها فى الصحارى والغابات واحتراس ضعيفها من قويها. فإنها فى هذا اليوم من شدة الهول يختلط بعضها ببعض، ولا تخاف من بنى ادم، بل تسرع إلى مكان التجمع طلبا للحماية.

﴿سجرت﴾: أى امتلأت نارًا، كما فى الآية (٦) من سورة الطور صفحة ٦٩٧ .

﴿النفوس زوجت﴾: أى زوجت الأرواح بأبدانها بعد النفخة الثانية فتعود إليها الحياة.

﴿الموءودة﴾: هى الطفلة التى كان يدفنها والدها تحت التراب وهى حية حتى تموت، خوفا من الفقر أو العار. وفعلها (وأد، يئد)، انظر الآية (٥٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٢، ٣٥٣ .

﴿سئلت﴾: أمام والدها لتبكيته كما يسأل عيسى عليه السلام أمام النصارى فى الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١ .

﴿الصحف نشرت﴾: انظر الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ .

﴿كشطت﴾: المراد أزيلت.

﴿سعرت﴾: أى اشتد تأججها.

---

(١) الموءودة
(٢) الليل
(٣) رآه
(٤) شيطان
(٥) للعالمين

﴿أزلفت﴾: أى قربت، انظر الآية (٣١) من سورة (ق) صفحة ٦٩٠ .

﴿علمت نفس﴾: هذا هو جواب ﴿إذا﴾ فى أول السورة و﴿إذا﴾ تدل على زمان ممتد من أول النفخة الأولى إلى انتهاء الحساب والمراد: كل نفس، انظر الآية (٣٠) من سورة آل عمران صفحتى ٦٧، ٦٨ .

﴿ما أحضرت﴾: المراد: ما عملته فى الدنيا وكانت سببًا فى وجوده حاضرًا أى مسجلاً فى صحيفتها وقت الحساب، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧.٣٨٨ .

﴿فلا أقسم﴾: انظر الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ .

﴿الخنس﴾: جمع خانسة من خَنَس الشىء، إذا تأخر ورجع، والمراد بها: النجوم التى تجرى مع الشمس فى النهار دون أن ترى. فإذا غابت الشمس وظهرت صارت كأنها تأخرت عن الشمس، ورجعت عن السير معها. فهذا الخنوس يترتب عليها ظهورها ليلاً .

﴿الجوار﴾: أصلها (الجوارى) جمع جارية.

﴿الكنس﴾: جمع كانسة، وأصلها الظبية التى دخلت فى كناسها بكسر الكاف، وهو بيتها الذى تتخذه من أغصان الشجر؛ والمراد النجوم التى تختفى عند طلوع الشمس. فالأوصاف الثلاثة للنجوم باعتبار حالاتها المختلفة. وأقسم سبحانه بها لما فيها من هذا النظام البديع الدال على قدرة مدبرها، انظر شرح الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢ .

﴿عسعس﴾: أى أقبل ظلامه.

﴿تنفس﴾: أصل التنفس إخراج النفس من الجوف فيستريح صاحبه. والمعنى أن أول النهار كأنه شخص مهموم من ضغط الليل عليه. فإذا ذهب الليل تنفس مسرورًا وأشرق وجهه، والكلام كناية عن ظهور ضوئه.

﴿إنه﴾: أى القرآن ﴿لقول رسول... إلخ﴾: الرسول هنا جبريل عليه السلام، والمراد أنه سبحانه أجراه على لسانه عند تبليغه لمحمَّد عليه الصلاة والسلام.

﴿ذى قوة﴾: تقدم فى الآية (٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٠ .

﴿ذى العرش﴾: هو الله سبحانه وتعالى.

﴿مكين﴾: صاحب مكانة وشرف.

﴿مطاع ثم﴾: ﴿ثم﴾: أى هناك، أى مطاع فى جميع مَنْ فى الملأ الأعلى.

﴿أمين﴾: أى على الوحى وكل ما يسند إليه.

﴿صاحبكم﴾: المراد به النبى ﷺ.

﴿بمجنون﴾: تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٨ .

﴿رآه﴾: أى رأى النبى ﷺ جبريل وهو بالأفق المبين.

﴿الأفق﴾: تقدم فى الآية (٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٠ .

﴿المبين﴾: الموضح لما فيه.

﴿وما هو﴾: أى وليس النبى ﷺ.

﴿الغيب﴾: المراد به: كل ما يجىء به عن ربه من أخبار يوم القيامة، ودقائق الوجود التى تخفى على كثير.

﴿بضنين﴾: أى ببخيل، والباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها.

﴿بقول شيطان﴾: أى كما يقول المشركون. انظر الآية (٢١٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢ .

﴿رجيم﴾: مرجوم باللعنات إلى يوم القيامة.

﴿فأين تذهبون﴾: استفهام أريد به بيان ضلالهم عن طريق الحق.

﴿إن هو﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما.

﴿ذكر﴾: تذكير وعظة.

المعنى: إذا حصل ما تقدم. واجتمعت الوحوش مع غيرها. وغفلت عن عادتها من شدة الهول. وغلت مياه البحار. وردت الأرواح إلى أبدانها. وسئلت الطفلة المقتولة ظلمًا أمام قاتلها

توبيخًا له. فيقول لها الله سبحانه وتعالى: بأى ذنب قتلك والدك؟ وفى هذا تقريع لا تتحمله الحجارة الصلدة.

وقد بلغ من قوة قلوب بعض العرب فى الجاهلية أن أحدهم إذا بلغت ابنته السنة السادسة من عمرها يقول لأمها زينيها لأزور معها أقاربها بعد أن يكون قد حضر بئرًا فى الصحراء. فإذا بلغ البئر يقول للطفلة انظرى ما فى هذا البئر فإذا نظرت دفعها من الخلف ثم يهيل عليها التراب حتى يسوى البئر بالأرض. ولا سبب لهذه الوحشية إلا خوف الفقر أو العار كما يزعمون، فانظر كيف حارب الإسلام ذلك فى مواضع من كتابه الكريم غير ما هنا مثل ما فى الآية (١٥١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩ والآية (٣١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨ حتى تحولت تلك القلوب المتحجرة إلى قلوب إنسانية مرهفة مفعمة بالرحمة. يتقرب أصحابها إلى الله سبحانه بالإحسان إلى البنات وإجادة تربيتهن. وذلك بتوجيه الرسول الأكرم. فقد قال ﷺ: ﴿مَنْ رزق من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن وأجاد تربيتهن كن له سترًا من النار﴾ فشكرا لك يا ربى على نعمة الإسلام.

وإرسالك رسولك الذى بعثته رحمة عمت الأطفال حتى الحيوان. وإذا نشرت صحف الأعمال ورأى كل مكلف عمله. وكشطت السماء عن مكانها. وسعرت الجحيم. وقربت الجنة للمتقين. عند ذلك تعلم كل نفس ما عملته لأنها تجده حاضرًا.

ملاحظة: قال المرحوم الشيخ محمد عبده فى معنى ﴿السماء كشطت﴾ هنا: أنه سبحانه ذكر فى هذه السورة (١٢ حدثًا) من أحداث يوم القيامة ٦ منها مما يحدث بعد النفخة الأولى. التى يحصل بها خراب هذا العالم وآخرها ما فى الآية (٦) . وذكر (٦) مما يكون بعد النفخة الثانية التى بها بعث الأموات من القبور وآخرها ما فى الآية (١٣)، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

ولما ذكر سبحانه ﴿السماء كشطت﴾: وسط الأحداث التى تكون بعد النفخة الثانية فلابد أن يكون لها معنى يناسب وضعها. وبما أن القرآن يفسر بعضه بعضًا فيحسن تفسير ما هنا بما جاء فى سياق ذكر تلك الأحداث من سورة ﴿ق﴾ صفحة ٦٩٠، ٦٩١ من أول الآية (٢٠ إلى ٣٥) . فيكون كشط السماء هنا هو كشف الغطاء هناك، وذلك لأن من معانى السماء (السقف). كما فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥ .

ومن شأن السقف أنه يحجب ما فوقه. ويكون المراد بالسماء هنا الغطاء الذى كان يحجب الإنسان عن حقيقة أعماله. وبكشفه يظهر لكل نفس عملها فتبصر ما حجبتها عنها الغفلة من تفصيل كل كبيرة وصغيرة منه. انتهى.

وقال صاحب تفسير «روح البيان» ما يفيد أن المراد من كشط السماء هنا لازمه. وهو ظهور ما وراءها من الجنة والعرش وغير ذلك مما كان محجوبًا بها. فاختر لنفسك ما يروقها. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

وبعدما حذر سبحانه كفار مكة من أهوال يوم القيامة أقسم لهم أن ما جاء به النبى حق وأنه تلقاه من أمين الوحى جبريل عليه السلام فقال: فلا أقسم.. إلخ. أى أقسم لكم قسمًا مؤكدًا بهذه النجوم التى تهتدون بها وهى تجرى على هذا النظام البديع. انظر الآية (٩٧) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨ والآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ . وأقسم لكم بالليل إذا أظلم. وبالنهار إذا أضاء وما فى ذلك من النعم عليكم كما فى الآيات (٧١:٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧.

أقسم لكم بكل ما تقدم أن ما يقوله النبى هو قول تلقاه بإذننا من جبريل رسول الوحى. الكريم علينا. صاحب قوة على تنفيذ ما يؤمر به. صاحب مكانة عند ربه. مطاع الكلمة فى الملأ الأعلى. أمين على كل ما يوكل إليه. وأقسم لكم أن محمدًا الذى صاحبكم مدة طويلة. وعرفتم خلقه. ليس مجنونًا كما يفترى بعضكم. وأنه يعرف جبريل حق المعرفة فهو واثق بما يلقيه إليه.

ولقد رآه فى صور مختلفة حتى فى صورته الحقيقية سادا الأفق من عظمه. وأنه ﷺ ليس حريصًا على ما عنده من الغيب بخلاً به. فيستحيل عليه أن يكتم عنكم منه شيئًا طمعًا فى أخذ أجر منكم كما يفعل الكهان، وليس الذى جاء به رسولنا قول شيطان ملعون. كما يقول بعضكم.

وإذا كان الأمر كما ذكر فأى طريق تسلكونه بعدما أحاط بكم البرهان من جميع جهاتكم، واعلموا أن ما يتلوه رسولنا عليكم ليس إلا تذكيرًا وعظة للعالمين. ثم بيَّن مَنْ ينتفع من هؤلاء فقال تعالى: (لِمَنْ شاء)... إلخ.

المفردات: ﴿وما تشاءون﴾... إلخ: تقدم مثلها ومرجعها فى شرح الآية (٣٠) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣ .

المعنى: إن هذا القرآن تذكير ينتفع به منْ وجّه إرادته لأن يستقيم على طريق الحق. أما منْ صرف نفسه عن ذلك، ولم يرد إلا الاعوجاج فإن القرآن لا يؤثر فيه لغفلته عنه. وما تشاءون .. إلخ. أى إن إرادتكم مخلوقة له تعالى ولو شاء لسلبها وأجبركم على الطاعة فكنتم كالملائكة. لا تكليف ولا جنة ولا نار إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه فى صفحة ٧٨٣ .

شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ[1] ﴿٢٩﴾

(٨٢) سُورَةُ الانفِطَارِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعَ عَشْرَةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ[2] مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ[3] فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ[4] ﴿١٠﴾

سورة الانفطار

المفردات: ﴿انفطرت﴾: أى انشقت انظر الآية (١٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢، والآية (١) من سورة الإنشقاق صفحة ٧٩٩ ﴿فجرت﴾: أى شققت جوانبها فزال ما بين الملح والحلو من الحواجز، انظر الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦ .

﴿بعثرت﴾: يقول العرب: بعثر فلان متاعه وبعثر أى فرق وبدد، والمراد بعثر ما فى جوفها، أى خرج على ظهرها، انظر الآية (٩) من سورة العاديات صفحة ٨١٨.

﴿علمت نفس﴾: هذا هو جواب ﴿إذا﴾ انظر ما قيل فى مثلها الآية (١٤) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤.

﴿ما قدمت وأخرت﴾: تقدم فى الآية (١٣) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ .

(١) العالمين. (٢) الإنسان. (٣) فسواك. (٤) لحافظين.

﴿يا أيها الإنسان﴾: خطابه بهذا العنوان للإشارة إلى أنه عاقل مفكر فلا يليق به ما ذكر بعده. ﴿ما غرك بربك﴾.. إلخ: المراد: أى شىء خدعك وجرأك على عصيان ربك؟

﴿فسواك﴾: أى سوى أعضاءك وجعلها معدة لمنافعها.

﴿فعدلك﴾: أى جعلك معتدل القامة متناسب الخلقة. لا كالحيوان الذى يمشى على وجهه.

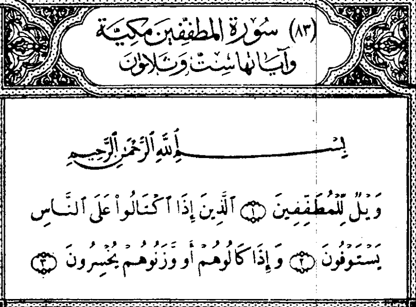
﴿فى أى صورة ما﴾... إلخ: ﴿فى﴾: متعلق بـ ﴿ركبك﴾ و﴿أى﴾ لإفادة التعميم فى ﴿صورة﴾ و﴿ما﴾ لإفادة تفخيم الصورة. والمراد: ركبك فى صورة فخمة بديعة، اقتضتها مشيئته تعالى وفق حكمته من الصور المختلفة فى الطول والقصر واللون ومراتب الحسن وغير ذلك.

﴿كلا﴾: حرف يفيد تنبيه السامع لأهمية ما يذكر بعده، انظر ما سبق شرحه فى الآية (٢٠) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ . ﴿بل﴾: حرف يفيد الانتقال من موضوع إلى موضوع.

﴿الدين﴾: أى الحساب والجزاء يوم القيامة، تقدم فى الآية (٤) من سورة الفاتحة صفحة ٢.

﴿حافظين﴾: هم الملائكة الذين يحفظون العبد، أى يسجلون على العبد كل شىء عمله، ويكتبونه فى صحيفة أعماله، انظر الآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ .

المعنى: يقول سبحانه: إذا السماء انفطرت. أى تصدعت، وإذا الكواكب تناثرت، وإذا البحار تصدعت حواجزها فاختلط حلوها بمالحها. وإذا القبور ظهر ما فى باطنها على ظهرها. إذا حصل كل هذا تعلم كل نفس عند الحساب ما قدمت وأخرت من عمل صالح وغيره. وبعدما بيَّن سبحانه ما سيكون يوم القيامة وجه الخطاب للإنسان الغافل عما فيه الخطر فقال: يا أيها الإنسان... إلخ. أى يا أيها العاقل المفكر أى شىء خدعك وجرأك على عصيان ربك الكريم الذى كان مقتضى كرمه أن تقابله بالشكر والطاعة. وإلا عرضت نفسك لأشد العقوبات: لأن ربك كما أنه كريم فهو أيضًا عدل حكيم لا يسوى بين المؤمن والكافر والصالح والفاجر، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠ وآيتى (٣٥، ٣٦) من سورة القلم صفحة ٧٥٩. أى فكان حق كرمه أن يزجرك عن عصيانه ويدعوك إلى المبالغة فى طاعته. ربك الذى من آثار كرمه أنه جعلك مخلوقا سويًا. وعدلك وفى أحسن صورة ركبك. تنبه أيها السامع واعلم أن السبب الأصلى فى اغترار الإنسان الجاهل أنه يكذب بيوم الحساب والجزاء. والحال أنه عليكم أيها الناس ملائكة يحصون كل ما تعملون.


(الجزء الثلاثون) ٧٩٦

كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ
الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ
يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

(٨٣) سورة المطففين مكية
وآياتها ست وثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ
يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)

المفردات: ﴿كاتبين﴾[1]: لكل صغيرة وكبيرة تصدر عنكم، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨.

﴿الأبرار﴾: تقدم في الآية (٥) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١.

﴿الفجار﴾: تقدم فى الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠.

﴿يصلونها يوم الدين﴾: إذا رجعت لما قيل فى شرح الآية (٥٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦ تعلم أن المراد هنا بقوله تعالى ﴿يصلونها يوم الدين﴾ هو الحكم عليهم يوم الدين.

﴿بغائبين﴾[2]: الباء للنص على عموم نفى ما بعدها عما قبلها.

﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾[3]: تقدم المراد من ذلك فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

المعنى: أنه سبحانه جعل الملائكة مراقبين عباده يكتبون أعمالهم عن علم بكل ما يفعلون. وتكون نتيجة هذا التسجيل أن يظهر العباد قسمين. أبرار كثير خيرهم، وفجار كثير شرهم. فيدخل الأبرار دار النعيم. ويدخل الفجار دار العذاب المحرقة. يقاسون حرها يوم الحساب الذى كان كثير منهم يكذب به. ويهمل العمل الذى ينجيه من هوله. وما هم عن جهنم بغائبين لحظة. بل هم خالدون فيها أبدا. ثم فخم سبحانه أمر ذلك اليوم فقال: وما أدراك ... إلخ. أى منْ الذى أعلمك أيها الإنسان حقيقة ما يجرى فى هذا اليوم وشدة هوله. ثم أكد التهويل بقوله: وما أدراك ما يوم الدين. ثم بيَّن شيئًا من هوله فقال: (يوم لا تملك نفس)... إلخ. أى

(١) كاتبين. (٢) بغائبين. (٣، ٤) أدراك.

اذكر أيها النبى لهم يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا. أى فلا تحمل عنها ذنبا ولا تخفف عذابا، والأمر يومئذ لله وحده. لا ينازعه التصرف فيه منازع، نسأله تعالى السلامة فى هذا اليوم.

سورة المطففين

المفردات: ﴿ويل﴾: أى عذاب وهلاك. ﴿المطففين﴾: أصل المطفف هو الذى يأخذ الشىء الطفيف أى القليل التافه بغير حق.

﴿الذين إذا اكتالوا﴾.. إلخ: صفة موضحة لحال المطففين الذين استحقوا به العذاب.

﴿اكتالوا على الناس﴾ تقول العرب: كلْتُ فلانا طعامًا وكلت له طعامًا. كل منهما بمعنى أعطيته طعامًا مقدرًا بالكيل، وتقول اكتلت عليه الطعام مثلاً أى أخذته منه مكيلاً. فكال تقال فى جانب المعطى. واكتال تقال فى جانب الآخذ. ولما كان المطففون إذا كان لهم شىء عند الغير يعتقدون أنه حق لهم لذا قال: على الناس أى أخذوا الذى كان لهم على الناس، ولكنهم لا يشعرون بذلك إذا كان للغير حق عندهم. فاستحقوا بهذه التفرقة الهلاك والعذاب، وإذا توعد سبحانه بالهلاك مَنْ يأخذ حقه كاملاً ويعطى غيره ناقصًا فكيف يكون حال الذين إذا اكتالوا على الناس يأخذون أكثر من حقهم، وإذا كالوهم أنقصوهم. لا ريب سيكون عذابهم أشد ولهم ويلان. ويل على ما أخذوه أكثر من حقهم وويل على ما أنقصوه من حق غيرهم.

﴿يستوفون﴾: أى يأخذون حقهم كاملاً وافيًا. ﴿كالوهم أو وزنوهم﴾: أى كالوا لهم أو وزنوا لهم. تقول العرب: وزن محمَّد خالدًا الطعام أى أعطاه له مقدرًا بالوزن، ويقولون: اتزن محمد الطعام من زيد أى أخذه منه مقدرًا بالوزن. ﴿يخسرون﴾: أى يوقعونهم فى الخسارة، والمراد: ينقصونهم حقهم. فكيف بمَنْ هو أخسر حالاً من هؤلاء، ممَنْ إذا أخذوا زادوا لأنفسهم. وإذا أعطوا أنقصوا حق الغير؟ أولئك لهم ويلان لا ويل واحد نسأل الله السلامة.

المعنى: هلاك وشقاء للمطففين الذين إذا كان لهم حق على الناس فى شىء يكال أو يوزن وأرادوا أخذه منهم فإنهم لا يأخذونه إلا تامًا وافيًا. وإن كان للناس عندهم حق فى مكيل أو موزون أعطوهم إياه ناقصًا. وألحقوا بهم الخسارة. واكتفى فى مقام الاستيفاء بذكر الكيل لأنه لا شىء عليهم فى الاستيفاء، فاكتفى بذكر نوع من المعاملة فيه. ولما كان الجرم إنما يقع منهم عندما يعطون غيرهم فإنه فصل فيه لأنه أبشع. فكأنه يقول: كان الواجب عليهم ما داموا يحرصون على الاستيفاء أن يكونوا منصفين، فيوفوا غيرهم، لكنهم بلغ بهم من الجرم أنهم كانوا إذا كالوا للغير أو وزنوا له فإنهم يظلمونه. وهذا هو مجل الذم.

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾
يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ
ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ
مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾
كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾
كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ
تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ
ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ

المفردات: ﴿ألا يظن﴾: ﴿ألا﴾: مركبة من همزة الاستفهام المقصود بها التوبيخ و﴿لا﴾ النافية. والمعنى هل لا يظن... إلخ.

﴿ليوم عظيم﴾: المراد لحساب يوم.. إلخ.

﴿يوم يقوم الناس﴾: ﴿يوم﴾ بدل من ﴿يوم﴾ قبله باعتبار محله وهو النصب ﴿يقوم الناس﴾: أى من قبورهم للحساب أمام رب العالمين.

﴿كلا﴾: حرف تنبيه مثل ما تقدم فى الآية (٩) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥.

﴿كتاب﴾: جاء لفظ كتاب فى القرآن على أربعة معان: أولها المصدر أى الكتابة وهى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالقلم كما فى الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة (٧٠) والآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١ .

وثانيها: المكتوب فى الصحف كما فى الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١ والآية (٣) من سورة البينة صفحة ٨١٦.

وثالثها: الصحف كما فى الآية (٧٨) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ .

ورابعها : الصحف المكتوب فيها، كما فى الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ والآية (٢٩) من سورة النمل صفحة ٤٩٧ . والمراد هنا: المعنى الثانى، أى المكتوب من أعمال الفجار.

﴿الفجار﴾: تقدم فى الآية (١٤) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٦.

---

(١) العالمين. (٢) كتاب. (٣) أدراك. (٤) كتاب.
(٥) آياتنا. (٦) أساطير. (٧، ٨) كتاب. (٩) الأرائك.

﴿سجين﴾: اسم للصحف التى سجلت فيها أعمال الفجار، وهو لفظ يشعر بالتسفل، فى حين أن مقابله الخاص بالأبرار يشعر بالعلو.

﴿وما أدراك﴾: تقدم المراد منه فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

﴿كتاب مرقوم﴾: ﴿كتاب﴾: هنا من القسم الثالث فيما سبق شرحه.

﴿مرقوم﴾: المراد: معلم بعلامة تدل مَنْ يراه من أول وهلة على أن ما فيه كله شر.

﴿معتد﴾: أى متجاوز حدود العقل والشرع.

﴿أثيم﴾: أى كثير الآثام، أى الذنوب.

﴿أساطير الأولين﴾: أى أكاذيب كما تقدم فى الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦، والآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١ .

﴿كلا بل﴾: ﴿كلا﴾ هنا حرف يفيد الزجر عما قبله، و﴿بل﴾: حرف يفيد الانتقال من كلام إلى آخر.

﴿ران﴾: أى غطى ومنع التيقظ لأسباب الهداية.

﴿كلا إنهم﴾: ﴿كلا﴾: مثل سابقتها.

﴿صالوا الجحيم﴾: أى داخلو جهنم.

﴿كلا إن﴾: ﴿كلا﴾: هنا مثل ما فى الآية (٧) السابقة.

﴿كتاب الأبرار﴾: ﴿كتاب﴾: هنا من القسم الثانى فيما سبق شرحه، ﴿الأبرار﴾ تقدم فى الآية (٥) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١.

﴿عليين﴾: اسم للصحف التى سجل فيها أعمال الأبرار، وهو لفظ يدل على العلو والشرف.

﴿وما أدراك﴾: تقدم المراد منه، ﴿مرقوم﴾: المراد: معلم بما يدل على أن مافيه خير رفيع.

﴿يشهده﴾: أى يحضر كتابته.

﴿المقربون﴾: أى الملائكة الذين لهم عند ربهم منزلة خاصة وشرف كبير والمقصود من ذلك تشريف الأبرار، انظر الآية (١٧٢) من سورة النساء صفحتى ١٣٢، ١٣٣ .

﴿الأرائك﴾: هى السرر، كما تقدم فى الآية (٣١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥ .

المعنى: إن مَنْ يختلس أموال الناس لا يكون إلا شخصًا لايظن أنه سيبعث يوم القيامة ويحاسب. ولوظن لما فعل خوفًا من بعثه فى يوم عظيم الهول، يوم يقوم الناس لانتظار حكم رب العالمين وقضائه.. ولما كان العبد يعرض عليه كتابه فى الموقف نبه لخطر ذلك فقال: كلا... إلخ. أى تنبه أيها العبد فإن ما يكتب على كل فاجر من أعماله مسجل فى كتاب يسمى ﴿سجين﴾. ولا يوق أحد شر ذلك الكتاب. يعرف صاحبه خطره من أول نظرة إليه كما فى الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨ . هلاك عظيم فى ذلك اليوم لكل مَنْ يكذب به. وما يكذب به إلا كل متجاوز حد العقل والشرع كثير الآثام بلغ من جرمه أنه إذا يتلى عليه القرآن يقول هذا من أكاذيب الأولين، وليس من عند الله. فلينزجر هؤلاء عن هذا الفحش فإن القرآن حق كالشمس. ولم يمنعهم عن الإيمان به شك فيه، بل الذى منعهم هو أعمالهم السيئة التى طمست كثرتها على قلوبهم فأعمتها عن نظر الحق. فلينزجروا فإنهم إن استمروا فسيحرمون من النظر إلى وجه رب كريم. وهذا هو أعلى نعيم فى الجنة كما فى شرح الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠ .

ثم إنهم لداخلون الجحيم يحرقون فيها. تقول لهم الملائكة تقريعًا هذا العذاب الذى أنتم فيه هو ماكنتم فى الدنيا تكذبونه. تنبهوا أيها الناس للفرق بين حال الفجار والأبرار. واعلموا أن كتاب الأبرار لفى عليين ولا يعرف شرف يعلو عليه، وهو كتاب معلم بما يدل على سعادة صاحبه، يحضر كتابته تشريفًا لصاحبه ملائكة مقربون عند الله تعالى.

وبعدما بيَّن حال كتاب الأبرار شرع سبحانه فى بيان محاسن أحوالهم فى الجنة فقال: إن الأبرار لفى نعيم متكئين على الأسرة كما يجلس الملوك.

يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي
ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا
مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ
ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾
فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

المفردات: ﴿ينظرون﴾: أى إلى ما أعد لهم من النعيم.

﴿تعرف﴾: أى يا مَنْ تراهم فى ذلك الوقت. ﴿نضرة النعيم﴾: أى بهجة التنعم، انظر الآية (٢٢) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ والآية (١١) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢ . ﴿رحيق﴾: اسم لأجود أنواع خمر الجنة. ﴿مختوم﴾: المراد مغلقة أو انية بغطاء كما هو شأن الشىء النفيس. ﴿ختامه﴾: قال الراغب: أى خاتمة شربه تعطى رائحة المسك فى الطيب، والمراد: بيان كمال نفاسته. وإلا فما فى الجنة شىء لا يدرك أهل الدنيا حقيقته.

﴿وفى ذلك﴾: المشار إليه هو النعيم السابق؛ والمراد: فى طريق الوصول إليه يجب أن يتنافس ... إلخ. ﴿يتنافس﴾: أى يتسابق فى الوصول إليه، ونظير ذلك ما فى الآية (٦١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ . ﴿مزاجه﴾: أى ما يمزج به، انظر الآية (٥) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ . ﴿تسنيم﴾: أى ماء يأتى من مكان مرتفع. ﴿عينا﴾: تفسير للتسنيم. والأصل: أريد بالتسنيم عينًا... إلخ. فكأن عينًا بيان للتسنيم. ﴿يشرب بها﴾: المراد: يرتوون بسببها، انظر الآية (٦) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ . ﴿الذين أجرموا﴾: المراد بهم بعض صناديد الكفر كأبى جهل، والوليد بن المغيرة. ﴿الذين آمنوا﴾: المراد بهم فقراء المؤمنين كبلال، وعمار بن ياسر. ﴿يتغامزون﴾: أى يغمز بعضهم بعضًا، ويشيرون إليهم بالجفن والحاجب استهزاء. ﴿انقلبوا﴾: أى رجع هؤلاء المجرمون... إلخ. ﴿فكهين﴾: أى متلذذين باستهزائهم بالمؤمنين، انظر الآيات (١٠٨: ١١١) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥ . ﴿هؤلاء﴾: أى المؤمنين مطلقًا.

(١) ختامه. (٢) المتنافسون. (٣) آمنوا
(٤) حافظين (٥) آمنوا. (٦) الأرائك.

﴿لضالون﴾: أى بعيدون عما كان عليه الآباء والأجداد. ﴿وما أرسلوا عليهم﴾: جملة حالية من ضمير. ﴿قالوا﴾. ﴿حافظين﴾: أى موكلين بهم. محكمين فى تصرفاتهم.

﴿فاليوم﴾: أى يوم القيامة، وبعد دخول المؤمنين الجنة. ﴿على الأرائك ينظرون﴾: أى متكئون على السرر ينظرون إلى صنع الله بمَنْ كان يستهزئ بهم.

﴿هل ثوب الكفار﴾: إلخ. التثويب المجازاة. يقال ثوبه بتشديد الواو. وأثابه أى جازاه. واشتهر فى المجازاة بالخير. ويكون استعماله فى مجازاة الكفار على سبيل التهكم كما فى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ الآية (٢١) من سورة آل عمران صفحة ٦٦ . والجملة الاستفهامية مسبوقة بقول مقدر وقع حالا من ضمير ﴿ينظرون﴾ والأصل يجلسون على الأرائك فى حال قوله تعالى لهم لزيادة سرورهم: هل جازينا أعداءكم بما كانوا يفعلون بكم؟

المعنى: إن الأبرار يجلسون على الأرائك إلى نعيم الجنة. تعرف فى وجوههم بهجة النعيم يا مَنْ تراهم فى ذلك اليوم. يسقيهم الخدم خمرًا مختومًا على آنيتها بالمسك. وفى طريق هذا النعيم العظيم ينبغى أن يتسابق المتسابقون وما يمزج به هذا الخمر هو ماء عين فى مكان عال تشريفًا لها. يشرب منها المقربون من ربهم. وبعدما بيَّن سبحانه ما أعد للفجار فى الآخرة. وما أعد للمتقين. أراد أن يبين ما حصل من الفجار فى الدنيا بالنسبة للمتقين. وما سيجازون به على عملهم هذا.

فقال تعالى: إن الذين أجرموا. أى من صناديد كفار قريش وأغنيائهم كانوا يضحكون من حال الفقراء الذين آمنوا استهزاء بهم. وإذا مر هؤلاء المجرمون بالفقراء المؤمنين يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم إليهم احتقارا لهم. وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى بيوتهم تفكهوا بحكاية ما يعيبون به المؤمنين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء الذين تبعوا محمدًا لأنهم تركوا دين آبائهم. يقولون ذلك والحال أن الله تعالى لم يرسلهم مراقبين لحال المؤمنين ويحكمون بصحة أعمالهم أو عدمها: لأن هذا من وظائف الرسل. هذا ما كان منهم فى الدنيا فإذا جاء يوم القيامة صار الذين آمنوا يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلولين فى السلاسل يسحبون إلى جهنم. يضحك الذين آمنوا وهم جالسون على الأرائك كالملوك ينظرون إلى صنع الله بمن كان يستهزئ بهم. فى حال قوله تعالى لهم لزيادة سرورهم هل جازينا هؤلاء الكفار بما كانوا يفعلونه معكم؟ الجواب: نعم يا ربنا. صدق وعدك. فلك الحمد والشكر الجزيل.

(٨٤) سُورَةُ الانشِقَاقِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾
وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ[1] إِنَّكَ كَادِحٌ
إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ[2] ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ[3]
بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو[4] ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ
سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿انشقت﴾: انظر الآية (٢٥) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣ والآية (١) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥.

﴿أذنت لربها﴾: تقول العرب: أذن فلان لفلان، بوزن علم إذا سمع كلامه وانقاد له. والمراد: حصل ما أراده سبحانه منها من الانشقاق، نظير ما فى الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١.

﴿وحقت﴾: أى حق لها أن تمتثل لأنها فى قبضة قدرته سبحانه وتعالى.

﴿مدت﴾: المراد أنها بعد دكها كما فى الآية (١٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢ وذهاب جبالها، تمتد كما يمد الجلد، فيقل سمكها، فتقذف جميع ما فى جوفها إلى الخارج ولهذا قال سبحانه بعده ﴿وألقت ما فيها﴾.. إلخ. ﴿وتخلت﴾: أى خلت خلوًا تامًا مما كان فى جوفها.

﴿كادح إلى ربك﴾: يقول العرب: كدح فلان بوزن قطع، إذا سعى بجد واجتهاد، والمراد: إنك ساع بجد فى أعمالك سائر إلى لقاء ربك بالموت.

﴿فملاقيه﴾: الهاء ضمير يعود على الكدح المفهوم من (كادح)، والمراد: فملاق جزاء كدحك. أى عملك من خير، أو شر. ﴿ينقلب﴾: أى يرجع. ﴿إلى أهله﴾: المراد: من يسره وجودهم معه فى الجنة. انظر ما قيل فى الآية (١٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

﴿وراء ظهره﴾: المراد: يأخذه بشماله من وراء ظهره، انظر الآية (٢٥) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣، والكلام يشعر بكراهته لتناوله لأنه حجة عليه.

---

(١) الإنسان. (٢) فملاقيه. (٣، ٤) كتابه. (٤) يدعو.

﴿يدعو﴾: أى يطلب. ﴿ثبورا﴾: أى هلاكًا ليستريح، انظر الآية (١٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧١، والآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

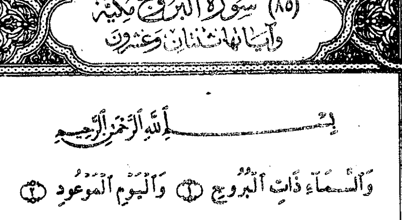
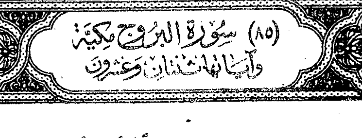
﴿يصلى سعيرا﴾: أى يدخل نارا مستعرة. ﴿مسرورًا﴾: أى غارقًا فى سروره بالشهوات، حتى نسى ما أعد للغافلين.

﴿ظن أن﴾: (أن) هذه كالتى تقدمت فى الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٤.

المعنى: أراد سبحانه أن يصور للمشركين هول يوم القيامة وما سيلاقيه الكافر والمؤمن لعلهم يتعظون فقال: (إذا السماء).. إلخ. أى إذا السماء تصدعت واختل نظامها وانقادت لتأثير قدرة ربها، وهى حقيقة أى جديرة بالانقياد؛ لأن قدرة الرب لا يتعاصى عليها شىء.

وإذا الأرض مدت وقل ثخنها وطرحت ما فى جوفها وتخلت عنه فأصبح على ظهرها وانقادت لتنفيذ قدرة ربها وحق لها ذلك. إذا حصل كل هذا تعلم كل نفس ما قدمت وأخرت، كما تقدم فى الآية (٥) من سورة الإنفطار صفحة ٧٩٥. ثم أراد سبحانه أن يوقظ الإنسان من غفلته عما سيلاقيه فقال: (يا أيها الإنسان).. إلخ. أى يا أيها الإنسان الذى من شأنه كثرة الغفلة عن نهايته تنبه إلى أنك لست بخالد فيما أنت فيه. بل أنت مسرع إلى الموت. فكل خطوة تخطوها فى عملك هى خطوة إلى نهاية أجلك. ثم تلاقى بعد ذلك جزاء عملك خيرًا أو شرًا. وأول علامات ذلك أخذك كتاب أعمالك. فمن أخذه وهو مقبل عليه بيمينه فسوف يحاسبه ربه حسابا سهلا، ويرجع إلى من يسره رؤيتهم فرحًا بالنجاة من العذاب والفوز بالسعادة، والذى يأخذ كتابه بشماله كارهًا له مدبرًا عنه فإنه يتمنى الهلاك ليستريح، وسيقاسى حر نار شديدة؛ لأنه كان فى الدنيا بين أهله مسرورا بما هو فيه غارقًا فى الشهوات لا يراقب ربا ولا يخاف حسابا. وظاهر الكلام يفيد أن المذكور فى القسم الأول إنما هم المؤمنون الكاملون الذين غلبت حسناتهم سيئاتهم كما فى الآية (٦) من سورة القارعة صفحة ٨١٩. والقسم الثانى هم الكافرون. وأنه لم يتعرض للعصاة الذين غلبت سيئاتهم على حسناتهم فى هذا المقام؛ لأن لهم أحوالاً خاصة فإنهم بعد الحساب يعذبون على قدر ذنوبهم، ثم يخرجون من النار إلى الجنة، انظر الآية (١٠٥) وما بعدها من سورة هود صفحتى ٢٩٩، ٣٠٠، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

(٨٥) سُورَةُ البُرُوجِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾

المفردات: ﴿لن يحور﴾: أى لن يرجع إلى الله للحساب يوم القيامة.

﴿بلى﴾: حرف يفيد إبطال المظنون قبله. وإثبات نقيضه. أى لابد أن يرجع. انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿فلا أقسم﴾: انظر شرح الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧.

﴿بالشفق﴾: هو الحمرة التى ترى فى الأفق بعد غروب الشمس.

﴿وما وسق﴾: (ما) اسم بمعنى الذى. و(وسق) أى جمع. والمعنى: وكل الذى جمعه الليل وستره فى ظلامه.

﴿اتسق﴾: أى تم نوره. ويكون ذلك فى ثلاث ليال. تبتدئ من ليلة ١٣ من كل شهر قمرى.

﴿لتركبن﴾: المراد بالركوب هنا: الملاقاة. أى لتلاقن.

﴿طبقًا عن طبق﴾: الطبق فى الأصل ما يطابق غيره مطلقًا. والمراد هنا الحالة التى تطابق غيرها فى الشدة من موت بعد حياة. ثم حياة فى الآخرة. ثم سوق إلى المحشر. ثم وقوف للحساب إلى آخر ما سيكون مما لا يعلمه غيره سبحانه. و(عن) بمعنى (بعد) أى حالة بعد حالة. تقول العرب: فلان عظيم أبا عن جد. أى بعد جد.

﴿يوعون﴾: المراد: يحفظون ويضمرون فى صدورهم ضد الإسلام ورسوله ﷺ.

﴿فبشرهم بعذاب﴾: المراد: أخبرهم محذرًا لهم. وعبر بالبشارة تهكمًا بهم. انظر الآية (٢١) من سورة آل عمران صفحة ٦٦ والآية (١٣٨) من سورة النساء صفحة ١٢٦.

﴿غير ممنون﴾: تقدم شرحه فى الآية (٨) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠.

(١) الليل. (٢) القرآن. (٣) آمنوا. (٤) الصالحات.

المعنى: إن من أسباب استحقاق العبد العذاب إنكاره العرض على ربه للحساب يوم القيامة. والحق أنه لابد من عرضه عليه سبحانه ليحاسبه على ما فعل فى الدنيا؛ لأنه سبحانه هو ربه الذى خلقه وهو العليم بأحواله دائمًا. وأنه لم يميزه عن سائر الحيوانات بالعقل والفكر إلا ليمتحنه. فإذا أصلح جازاه خيرا. وإذا أفسد عاقبه. ولو لم يحاسبه لكان تمييزه بهذه الصفات عبثًا. والله سبحانه منزه عن العبث. انظر ما قيل فى شرح الآية (٣٦) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠. وأقسم لكم بالشفق الذى لا يدرى الإنسان ما سيكون وراءه. وبالليل وكل شئ شمله ظلامه. وبالقمر إذا تكامل نوره أنكم ستلاقون حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا. تطابقها فى الشعور والإدراك واللذة والألم على وجه العموم وتتنقلون فيها من بعث من القبور إلى حشر فى الموقف إلى حساب إلى ما لا يعلمه غيره سبحانه وكلها مواقف يشابه بعضها بعضا فى الهول. أى أنها حياة حقيقية. وإن خالفت فى بعض أحوالها الحياة الأولى. وإذا كان الواقع أن للإنسان حياتين. وأنه سبحانه أقام الأدلة على ذلك وأقسم عليه فأى شئ حصل لكفار مكة جعلهم لا يؤمنون بذلك. وإذا قرئ عليهم القرآن وهو منبه لهذا لا يذعنون (وبعد قراءة - لا يسجدون - يسجد السامع والقارئ المتطهران). ثم انتقل سبحانه من بيان عدم خضوعهم للقرآن إلى بيان أنهم يكذبونه صراحة فقال: بل الذين كفروا يكذبون. ثم هددهم فقال: والله أعلم بما يوعون. أى يضمرون فى صدورهم من الكفر والعناد للحق. وإذا كان ربك أيها النبى يعلم ما يخفون من الكيد لك وللإسلام، فبشرهم من الآن بعذاب أليم. لكن من آمن بالله ورسوله وعمل صالحًا فله أجر دائم من نعيم الجنة.

سورة البروج

المفردات: ﴿البروج﴾: هى البروج الاثنا عشر التى تنتقل فيها الشمس فى مرأى العين، ولها صور وأشكال سماها بها علماء الهيئة وهى: (١) الحمل بفتحتين. (٢) الثور. (٣) الجوزاء. (٤) السرطان. (٥) الأسد. (٦) السنبلة. (٧) الميزان. (٨) العقرب. (٩) القوس. (١٠) الجدى. (١١) الدلو. (١٢) الحوت. وهى مقسمة على فصول السنة الأربعة الربيع - الصيف - الخريف - الشتاء. فالشمس تمر على الثلاثة الأولى فى فصل الربيع. والثلاثة الثانية. فى فصل الصيف وهكذا. (اليوم الموعود): هو يوم القيامة.

المعنى: أقسم سبحانه بالسماء صاحبة البروج البديعة الصنع. وباليوم الموعود به وهو يوم القيامة.. إلخ.

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾
ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ
عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ
إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟
فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ

المفردات: ﴿شاهد ومشهود﴾: المراد: كل شاهد، فيشمل كل الرسل. وكل مشهود، فيشمل كل الأمم التى يشهد عليها رسلها يوم القيامة، انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (٨٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٧، ٣٥٨.

﴿قتل﴾: هذا هو جواب القسم، والأصل لقد لعن الله أصحاب الأخدود، وأذاقهم بجرمهم أشد الأنواع، والمراد: فاحترسوا يا كفار قريش أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿أصحاب الأخدود﴾: الأخدود لفظ مفرد جمعه أخاديد، وهو الشق المستطيل فى الأرض، وأصحاب الأخدود هم قوم كفار كانوا باليمن.

﴿النار﴾: بدل من الأخدود، أى أصحاب النار التى فى الأخدود. ﴿ذات الوقود﴾: المراد من هذه الصفة بيان شدة النار وطول مكثها. ﴿إذ هم﴾: (إذ) ظرف بمعنى (حين). والمراد الزمن الذى بدأ فيه استحقاقهم العذاب، فهو منصوب بـ (قتل) و(هم) ضمير المراد به رؤساؤهم المشرفون على تعذيب المؤمنين. ﴿عليها قعود﴾: جمع قاعد. والمراد جلوس على حافة الأخدود. ﴿وهم على ما يفعلون﴾: (على) بمعنى مع: ﴿شهود﴾: جمع شاهد بمعنى حاضر، والمعنى: وهم مع ما يفعله أتباعهم بالمؤمنين حاضرون يشاهدون ولا يرق لهم قلب.

﴿وما نقموا منهم﴾: أى وما كرهوا منهم، انظر الآية (١٢٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١١.

﴿فتنوا المؤمنين﴾: أى عذبوهم ليرجعوا عن دينهم. ﴿عذاب الحريق﴾: المراد: العذاب شديد الإحراق، انظر الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤. ﴿بطش ربك﴾: هو الأخذ بشدة كما تقدم فى شرح الآية (١٦) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧. ﴿يبدئ ويعيد﴾: أى ينشئ الخلق أولا، ثم يعيده يوم القيامة بعد فنائه، انظر الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤.

(١) أصحاب. (٢) السموات. (٣) المؤمنات. (٤) آمنوا.
(٥) الصالحات. (٦) جنات. (٧) الأنهار. (٨) أتاك.

﴿الودود﴾: شديد المحبة لمن أطاعه. ﴿هل أتاك﴾: انظر شرح الآية (٩) من سورة طه صفحة ٤٠٦. ﴿الجنود﴾: المراد: الجماعات التى جندت أنفسها لمحاربة رسل الله. ﴿فرعون﴾: بدل من الجنود على حذف المضاف، والأصل جنود فرعون وثمود.

المعنى: يقول سبحانه: أقسم بما تقدم وبكل رسول يشهد على أمته يوم القيامة وبالأمم المشهود عليها. وفى هذا تحذير لكفار قريش من هذا اليوم. أقسم بكل ما ذكر أنه سجل اللعنة على أصحاب الأخدود. وهم قوم كفار كانوا ببعض بلاد اليمن. وكان بجوارهم نصارى نجران عندما كان دينهم على التوحيد الخالى مما حدث فى النصرانية بعد البعثة المحمدية. فأراد الكفار إرغام نصارى نجران على ترك دينهم الحق. فلم يقبلوا. فحفروا لهم خنادق فى الأرض. وملئوها بالوقود وأضرموا فيها النار. وصاروا يأتون بالمؤمن أو المؤمنة ويقولون إما أن ترجع أى إلى الوثنية وإما أن نطرحك فى النار. فكان المؤمنون يفضلون النار على الكفر. فكانوا يرمونهم فيها. وهم جلوس حولها. وهم مع ما يفعله أتباعهم بالمؤمنين من التعذيب الشنيع حاضرون يشاهدون. ولا تتحرك قلوبهم شفقة على المساكين المعذبين لتمكن القسوة منها. وليس للمؤمنين عيب عندهم يقتضى هذا التعذيب إلا أنهم آمنوا بالله الغالب الذى لا يفلتون من عقابه. المحمود على كل حال. ثم بيَّن سبحانه أنهم لن يفلتوا من عقابه بقوله: الذى له ملك السموات والأرض، أى فلن يخرج شىء من سطوته. وهو شاهد على كل شئ. فلا يخفى عليه شىء من أعمالهم. ثم بيَّن سبحانه حكمه العام فى كل من يفعل مثل ما ذكر فقال تعالى: إن الذين.. إلخ. أى إن كل ما يعذب مؤمنا أو مؤمنة ليرده عن دينه وفيهم كفار مكة الذين عذبوا آل ياسر وصهيب وبلال وغيرهم. ثم لم يتوبوا من جرمهم هذا فلهم عذاب جهنم بكل أنواعه. ولهم على الخصوص عذاب اللهب المحرق. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار. ذلك النعيم هو الفوز الكبير. ثم هدد سبحانه كفار مكة مخاطبًا رسوله ﷺ فقال: (إن بطش ربك لشديد) شدة فى منتهى الخطورة. ثم برهن سبحانه على سعة قدرته فقال: (إنه هو يبدئ).. إلخ. أى إنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده يوم القيامة للحساب والجزاء. وهو واسع المغفرة لمن رجع إليه بالتوبة كما فى الآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣. وهو سبحانه قوى المحبة لمن أخلص له العمل. ومن آثار محبته كثرة إحسانه. وهو سبحانه صاحب العرش العظيم. وهو فعال لكل ما يريده. لا يعجزه شىء. ثم بيَّن بعض ما يدل على شدّة بطشه وأنه فعال لما يريد فقال: (هل أتاك).. إلخ. أى هل بلغك أيها النبى قصص أولئك الجنود الأشداء الأقوياء من جنود فرعون.. إلخ.

وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم[1] مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ[2] مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

(٨٦) سُورَةُ الطَّارِقِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سَبْعَ عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ[3] مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ[4] مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ[5] ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ[6] ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا

المفردات: ﴿ثمود﴾ هم قوم نبى الله صالح عليه السلام. انظر الآية (٦١) وما بعدها من سورة هود صفحتى ٢٩٣، ٢٩٤.

﴿بل﴾: حرف يدل على إبطال أسباب تكذيبهم. وإثبات ما هو حق.

﴿مجيد﴾: أى شريف رفيع المنزلة.

﴿فى لوح محفوظ﴾: أى محفوظ من كل ما يمس قدسيته. وهو المشار إليه فى الآيات (٣٩) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨ و(٧٨) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ و(١٣، ١٤) من سورة عبس صفحة ٧٩٢.

المعنى هل أتاك أيها النبى خبر ما حصل لمن جندوا أنفسهم لمحاربة رسلنا وهم جنود فرعون وثمود. وكلهم أشد قوة من كفار قومك، ومع ذلك أهلكهم الله ونصر رسله. فهل اعتبر بذلك كفار مكة؟ كلا بل لجوا فى العناد حتى غرقوا فى لجة تكذيب كل ما جاء به رسولنا. وبذلك لن يفلتوا من العقاب؛ لأن الله تعالى محيط بهم بعلمه وقدرته. وتكذيبهم القرآن بقولهم عنه أنه أساطير الأولين سفه وحماقة منهم، بل هو قرآن شريف كريم فى لوح محفوظ من كل ما يمس صدقه وشرفه.

﴿سورة الطارق﴾

المفردات: ﴿الطارق﴾: هو اسم لكل ما يطرق أى يأتى ليلا. ﴿وما أدراك ما الطارق﴾: انظر معنى هذا التركيب والمراد منه فى الآية (٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١. ﴿النجم الثاقب﴾: الذى يثقب بضوئه ظلمة الليل. ﴿إن كل نفس﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما). وهذا أول جواب القسم ﴿لما عليها﴾: (لما) حرف بمعنى (إلا) الاستثنائية كما تقدم فى الآية (١١١) من سورة هود صفحة ٣٠٠. ﴿حافظ﴾: المراد به هنا جند من جنود الله، كالملائكة تحفظ

(١) ورائهم. (٢) قرآن. (٣) أدراك. (٤) الإنسان. (٥) الترائب. (٦) السرائر.

الإنسان من كل ما يريد الله أن يحفظه منه. كما يحصى عليه أعماله. انظر الآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥. ﴿مم خلق﴾: أصلها (من. ما) أى من أى شىء خلق؟ انظر الآية (١٧) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٢. ﴿ماء﴾: هو المنى الذى توجد فيه النطفة، انظر الآية (١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦. فخلقه من هذا الماء مراد به خلقه مما يحمله بداخله من النطفة. ﴿دافق﴾: بمعنى مدفوق، انظر الآية (٥٨) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦ ونظير ذلك (الحافرة) فى الآية (١٠) من سورة النازعات صفحة ٧٨٩. ﴿الترائب﴾: جمع تريبة وهى الواحدة من عظام الصدر بوزن صحيفة وصحائف. ﴿رجعه﴾: أى إرجاعه. انظر الآية (٨٣) من سورة التوبة صفحة ٢٥٥. والمراد: إرجاعه حيا. ﴿تبلى السرائر﴾: أصل البلاء الاختبار. وأريد به هنا كشف ما كان مستترا، والسرائر جمع سريرة، والمراد بها ما خفى من العقائد والنيات والأعمال، وكل ما استتر على وجه العموم، فيظهر طيبها من خبيثها.

﴿من قوة﴾: (من) للنص على عموم نفى ما بعدها.

المعنى: أقسم سبحانه بالعالم العلوى وما فيه خصوصًا النجم الذى يخترق ضوؤه ظلمة الليل فيهتدى به السائر فى ظلمات البر والبحر كما فى الآية (٩٧) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨. أقسم سبحانه بذلك على أن كل نفس عليها رب رقيب على جميع أحوالها حتى ينتهى أجلها. ثم ذكر الدليل على ذلك فقال تعالى: (فلينظر الإنسان).. الخ. أى إذا أراد الإنسان أن يعلم أنه تحت حفظ الله ومراقبته فلينظر إلى نفسه من أى شىء خلق؟ وسيعلم أنه خلق من ماء يصبه الرجل فى رحم المرأة بعد خروجه من أصوله الموجودة بين صلب الرجل وعظام صدره: وهى الشرايين التى تغذى الأجزاء المعدة لإفراز منى الرجل. ويصبه فى الرحم واختلاطه ببويضة المرأة يتكون الجنين. وإنما قلنا ذلك، لأن العلماء المختصين اتفقوا على أن الماء الذى يوصف بأنه دافق إنما هو ماء الرجل، أما ماء المرأة الذى يحمل بويضاتها فإنه مجرد إفراز ورشح يسيل كما يسيل اللعاب من الفم، وليس له تدفق أبدا. وإذا علم الإنسان ذلك يعلم أن الذى أنشأه من ماء لاصورة فيه ولا تنظيم ثم جعله إنسانا سويا سميعا بصيرا كما فى الآية (٢) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ قادر على أن يرجعه حيا بعد الموت فى اليوم الذى يظهر الله فيه كل ما خفى من العقائد والنيات والأعمال، ويحاسب ويجازى على حسبها. وفى هذا اليوم لا يكون لأحد قوة على الخلاص من العقاب إن كان مسيئا ولا يجد من ينصره فيحميه من العذاب.

نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

(٨٧) سورة الأعلى مكية وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ

المفردات: ﴿الرجع﴾: هو المطر. سمى بذلك لأنه يرجع المرة بعد المرة.

﴿الصدع﴾: أصلة الشق فى الشىء الجامد. والمراد به هنا: تشقق الأرض عند خروج النبات منها بعد نزول المطر عليها.

﴿إنه﴾: أى القرآن.

﴿فصل﴾: أى بالغ الغاية فى الفصل بين الحق والباطل حتى كأنه هو الفصل نفسه.

﴿بالهزل﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها.

﴿إنهم﴾: أى كفار مكة.

﴿يكيدون﴾: أى يعملون تدابير خفية لمحاربة الإسلام وإخفاء نوره.

﴿وأكيد كيدا﴾: المراد: أقابل تدبيرهم بتدبير أقوى منه يبطله. انظر الآية (١٨٣) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

﴿فمهل الكافرين﴾: المراد: لا تستعجل هلاكهم فكل لحظة يزداد فيها جرمهم يزداد عذابهم.

﴿أمهلهم﴾: أمهل هنا مثل (مهل) السابقة بتشديد الهاء معناهما واحد. فهو تأكيد لزيادة تصبيره ﷺ على إيذائهم.

﴿رويدا﴾: مصغر (رُود) بضم فسكون. بوزن عود. وهو التمهل وتقول العرب: فلان يمشى على رود أى على مهل، ويصغرونه على رويد. فهو اسم مصدر لأمهل من معناه كما تقول: (تجلس قعودا). فالمعنى هنا: أمهلهم إمهالاً خاصا وهو القليل.

المعنى: بعد ما بيَّن سبحانه فيما سبق أصلين من أصول عقائد الإسلام: الأول: وجود إله يراقب كل نفس. والثانى: أن هناك يوما آخر يحاسب فيه الناس. شرع فى إثبات الركن الثالث

(١) الكافرين.

وهو الرسالة مؤكدًا له بالقسم على صدق القرآن الذى جاء به خاتم الرسل، فقال تعالى: (والسماء ذات).. إلخ. فأقسم سبحانه بالسماء التى تفيض عليهم بمائها والأرض التى تخرج لهم معاشهم. وأيضًا فى الماء الذى منه كل شىء حى إشارة إلى حياة الإنسان الأولى. انظر الآية (٣٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣، وفى خروج النبات من الأرض إشارة إلى خروج الموتى من القبور يوم القيامة. فيكون القسم على صحة الرسالة متضمنًا تنبيه الأذهان إلى دليل من أدلة البعث جاء التصريح به فى مواضع أخرى منها ما فى الآية (٣٩) من سورة فصلت صفحة ٦٣٥ والآية (٩) وما بعدها من سورة ق صفحة ٦٨٩، أقسم سبحانه بما تقدم على أن القرآن قول فاصل بين الحق والباطل، وليس فيه شىء من رائحة الهزل واللعب. بل كله جد، فمن حقه قطعًا أن تخضع له الجباه، ويهتدى به الطغاة. وبعد ما بيّن سبحانه أركان عقائد الإسلام الثلاثة، وهى الألوهية والبعث والرسالة، شرع فى بيان حال الكفار فقال تعالى: إنهم.. إلخ. أى أن كفار قومك أيها النبى يكيدون لك وللإسلام كيدًا عظيمًا وأنا أمكر بهم مكرًا لا يشعرون به وإذا كان كيدى أقوى فلا تشغل نفسك بهم، وانتظر قليلا حتى آمرك بقتالهم. وهناك ستكون الخسارة عليهم والنصر لك. والله تعالى أعلم.

﴿سورة الأعلى﴾

المفردات: ﴿الأعلى﴾: أى البالغ النهاية فى العلو والرفعة.

﴿فسوى﴾: أى جعل المخلوق مهيأ لما أعده له.

﴿قدر﴾: أى كل شىء بقدر معين يصلح به حاله. انظر الآية (٤٩) من سورة القمر صفحة ٧٠٨.

﴿فهدى﴾: أى وجه سبحانه كل مخلوق إلى ما ينبغى له، انظر الآية (٥٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٩، ٤١٠.

﴿المرعى﴾: هو ما يرعاه الدواب. ﴿غثاء﴾: أى يابسًا. ﴿أحوى﴾: أى مائلا للسواد.

﴿سنقرئك﴾: قال الزمخشرى: إن السين إذا دخلت على فعل محبوب أفادت أنه واقع لا محالة، وبيان ذلك أن من معانيها إفادة الوعد بحصول الفعل المذكور بعدها، ودخولها على ما

يفيد الوعد يقتضى تأكيده، وتثبيت معناه خصوصًا إذا كان الوعد صادرًا عن القادر الذى لا يخلف الميعاد، ومن ذلك قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ فى الآية (١٣٧) من سورة البقرة صفحة ٢٦.

﴿فسيكفيكهم الله﴾: وفى الآية (٧١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣.

﴿أولئك سيرحمهم الله﴾: فهذا يدل على أن كفاية الله ورحمته حاصلان بلاشك.

المعنى: نزه أيها النبى كل ما يدل على ذات ربك البالغ النهاية فى العلو والترفع عن كل ما يليق بجلاله من الشبه بالمخلوقات فى ذاته أو صفاته. ربك الذى خلق كل شىء فجعله مهيأً لما خلق لأجله والذى قدر الأشياء بتقدير محكم فسخر كلا منها لما أعد له. وهو الذى أخرج المرعى لأنعامكم، فجعله بعد خضرته يابسًا أغبر يتكسر فيكون هشيمًا فترابًا كما كان. وفى ذلك إشارة إلى أن زخرف الدنيا سريع الزوال، انظر الآية (٢٤) من سورة يونس صفحتى ٢٦٩، ٢٧٠، والآية (٤٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧. وبعد ما أمر سبحانه نبيه بأن ينزه كل ما يتصل به سبحانه عن مشابهة الحوادث، لتتعلم منه أمته. شرع فى وعده بأنه سيقرئه القرآن الذى فيه كمال تنزيهه تعالى وما يجب أن يعرف من صفاته. كما وعده بأنه لن ينسى منه شيئًا أبدًا، فقال تعالى: (سنقرئك).. إلخ، أى سنقرئك ما نوحى به إليك على لسان جبريل ونعدك بأن نحفظه لك فى قلبك فلا تنسى منه شيئاً أبدًا. ولما كان الوعد السابق بعدم النسيان جاء بأسلوب التأبيد القاطع، وذلك ربما يوهم أنه سبحانه لا يقدر على غيره، أراد سبحانه أن قدرته لا يقف فى طريقها شىء من الممكنات. وأن ما وعد به نبيه ﷺ إنما هو فضل صدر منه سبحانه بمحض اختياره، لكل هذا قال إلا ما شاء الله. والمراد أنه إذا أراد أن ينسيك أيها النبى ما وهبه لك فإنه لا يمنعه من ذلك مانع، أى فكن دائم المراقبة لربك قائمًا بواجب شكره، انظر نظير ذلك فى آيتى (٨٦، ٨٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. ثم تمم ما سبق بقوله تعالى: (إنه يعلم الجهر).. إلخ. أى أن الذى وعدك بما تقدم وفى قدرته أن يفعل ما يشاء عالم بجهرك وسرك. فلا يخفى عليه شىء من أحوالك وخطرات قلبك. ويفعل بك ما يناسب ما عندك. فاحرص على رضى الله تعالى يوف لك ما وعد. ثم طمأنه ﷺ بأنه سيوفقه للشريعة السمحة فقال تعالى: (ونيسرك).. إلخ.

لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ
مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى
النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾
قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾
بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ(1) الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ(2) خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾
إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ(3)
وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

(٨٨) سُورَةُ الْغَاشِيَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سِتٌّ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ(4) حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(5) ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(6) ﴿٢﴾

المفردات: ﴿لليسرى﴾: مؤنث اليسر، وهو السهولة. يقال أخذ الأمر في يسر أي في سهولة، وقد يراد به الأمر السهل كما هنا. ومنه الدين يُسر أي سهل، فالمراد باليسرى الشريعة السمحة التي لا عسر فيها، انظر الآية ٧٨ من سورة الحج صفحتي ٤٤٤، ٤٤٥.

﴿الذكرى﴾: أي التذكير: انظر الآية (٤٥) من سورة ق صفحة ٦٩٢، والآية (٤٥) من سورة النازعات صفحة ٧٩١.

﴿ويتجنبها﴾: أي يهمل الذكرى ويتركها جانبًا.

﴿الأشقى﴾: أي أشد الناس شقاء وهو الكافر، ومن سار على طريقه. ﴿يصلى النار﴾: أي يدخلها ليحترق بها.

﴿الكبرى﴾: أي العظمى، وهي نار جهنم قال ﷺ: (ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم)، ومراده ﷺ تهويل أمر نار الآخرة.

﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾: أي لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة.

﴿أفلح﴾: الفلاح الفوز بالسعادة في الدارين.

﴿تزكى﴾: المراد: تطهر من دنس الكفر والمعاصي.

---

(١) الحياة.
(٢) الآخرة.
(٣) إبراهيم.
(٤) أتاك.
(٥) الغاشية.
(٦) خاشعة.

﴿وذكر اسم ربه﴾: المراد تذكر ولاحظ بقلبه صفات ربه العلية فاطمأن قلبه، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتي ٣٢٥، ٣٢٦. ﴿فصلى﴾: المراد فخشع كما في الآية (٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧، وإنما عبر عن الخشوع بالصلاة لأنه خلاصتها والمقصود منها. وهي بدونه شبح لا روح فيه، انظر الآية (٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥.

﴿تؤثرون﴾: أي تفضلون. ﴿إن هذا﴾: أي ما ذكر من قوله: ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾.

المعنى: نوفقك أيها النبي للشريعة السمحة التي يسهل على النفوس قبولها، ولا يصعب على العقول فهمها، ونظير هذا قوله ﷺ: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له). وإذا كان الأمر كذلك فذكر إن نفعت الذكرى، وإنما قال (إن نفعت) مع أنه ﷺ مأمور بتذكير الناس كافة لتقوم الحجة على من لم يؤمن، الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠ والآية (٢١) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥. إنما قال ذلك لأنه ﷺ عند نزول هذه الآية كان قد أفرغ جهده في تذكير الجميع، ولم يترك حيلة في هداية قومه إلا فعلها، ولا طريقة إلا سلكها، حرصا منه على إيمانهم، ومع ذلك فما كان يزيد بعضهم إلا عتوا واستكبارا، وتمردا وفسادا، انظر الآيات (١، ٢، ٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، بعد ذلك خفف سبحانه عن نبيه ما يلاقيه من عناء تعنتهم حتى كاد من شدة حزنه أن يقتل نفسه، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ والآية (٢) من سورة طه صفحة ٤٠١ والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩.

فأمره أن يوجه عنايته إلى تذكير من يظن أنه ينتفع بالتذكير انظر الآية (٥١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠ والآية (١١) من سورة يس صفحة ٥٨٠ والآية (٤٥) من سورة ق صفحة ٥٩٢ والآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ والآية (٤٥) من سورة النازعات صفحة ٧٩١. أما من قطع بأن <u>التذكير لا يزيده إلا كفرا</u> وعنادا أو أخبره سبحانه أنه من أصحاب النار كأبي لهب في سورة المسد صفحتي ٨٣٦، ٨٣٧، والوليد بن المغيرة المشار إليه في الآية (١٠) وما بعدها من سورة القلم صفحة ٧٥٨ والآية (١١) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧١ فقد أمر ﷺ بالإعراض عنهم حتى لا يضيع وقته الثمين عبثا، انظر الآية (٥٤) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ والآية (٢٩) من سورة النجم صفحة ٧٠٢.

فالمعنى هنا فذكر فى المجال الذى تنفع فيه الذكرى، فسيتعظ من فيه استعدادًا للخوف من الله تعالى. ويهمل الذكرى أشد الناس شقاءً وهو الكافر بربه، وسيدخل نار جهنم التى لا تعد نار الدنيا بجانبها شيئًا. ثم يبقى فى عذابها لاميتا فيستريح ولا حيًا حياة طيبة، انظر الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، وبعدما توعد سبحانه الأشقياء أراد تعالى أن يبين مآل أهل الخشية فقال: قد أفلح.. إلخ. أى قد فاز بالسعادتين من طهر نفسه من خبائث الكفر والمعاصى، وتذكر ربه دائمًا فى كل أعماله وانقاد لأوامره وخشع لهيبته، ومن مظاهر ذلك الصلاة وما فيها. وبعد كل هذا فهل أنتم أيها السامعون لهذا الإرشاد عاملون به؟ كلا بل أنتم فى غالبكم تفضلون زخارف الحياة الدنيا والحال أن نعيم الآخرة أفضل وأدوم. ثم أراد سبحانه أن يؤيد الحق الذى جاء به ﷺ بأنه هو بعينه الذى جاء به إبراهيم وموسى، وإنما خصهما عليهما السلام بالذكر دون باقى الرسل لأن إبراهيم عليه السلام صاحب ملة خالدة وإمام للناس، انظر الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤ والآية (١٣٠) من نفس السورة صفحة ٢٥ والآية (١٢٥) من سورة النساء صفحتى ١٢٣، ١٢٤ والآية (١٢٣) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، وموسى صاحب شريعة كما أن خاتم الرسل ﷺ صاحب شريعة وموسى أيضًا صاحب كتاب جاء مقترناً بالقرآن فى مواضع عدة، انظر آيتى (٩١، ٩٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ وآيتى (٤٨، ٤٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤ والآية (٣٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١.

﴿سورة الغاشية﴾

المفردات: ﴿هل أتاك﴾: انظر شرح الآية (٩) من سورة طه صفحة ٤٠٦.

﴿الغاشية﴾: هى الداهية التى تغشى الناس، أى تغمرهم بأهوالها، والمراد بها: القيامة.

﴿وجوه﴾: المراد بالوجوه أصحابها كما يدل عليه ما سيأتى خصوصًا الآية (٩).

﴿خاشعة﴾: أى ظاهر عليها الذل والخزى؛ لأنها أدركت بطلان عملها فى الدنيا.

المعنى: هل سمعت أيها النبى قصة يوم القيامة وما يقع فيه من الأهوال التى تغمر الناس؟ فى هذا اليوم ينقسم الناس إلى فريقين: فـفريق يظهر على وجوههم الذل والخزى لأنهم يعلمون أنهم من أصحاب النار. وفريق المؤمنين مسرورون كما سيأتى. نسأل الله تعالى السلامة.

عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ
وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾
لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا
لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ
مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾
وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ
نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ
إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا
مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

المفردات: ﴿عاملة﴾: قيل: مستمرة فى جهد ومشقة، لا ترى راحة أبدا. والله أعلم بحقيقة هذا العمل، وقد يكون منه ما فى الآية (٧١) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ والآية (٤٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٨ والآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١.

﴿ناصبة﴾: أى متصفة بالنَصَب بفتح النون والصاد. وهو التعب من كثرة العمل. يقال نَصِب فلان بكسر الصاد. ينصَب بفتحها نصبًا بفتحها أيضًا. إذا عمل حتى تعب انظر قوله تعالى: ﴿فانصب﴾ الآية (٧) من سورة الشرح صفحة ٨١٣ مع الآية (٤٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. وهذا مبدأ جملة أخرى، والأصل: هى عاملة ناصبة أى فى الدنيا: والمعنى أن خشوعها وذلها سببه أنه ظهر لها أنها كانت جادة فى العمل فى الدنيا بلا فائدة. فيزداد ألمها. وأما الوجوه المؤمنة فإنه يظهر لها أن سعيها فى الدنيا كان سبب خير لها. فهى له راضية كما سيأتى.

﴿تصلى نارا﴾: تقاسى حرّها. ﴿آنية﴾: شديدة الحرارة. انظر الآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١. ﴿ضريع﴾: هو اسم لنوع من الشوك ترعاه الإبل إذا لم تجد غيره. لا يكسبها لحما ولا شحما. والمراد هنا طعام ردئ لا يعلم مقدار رداءته إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿ناعمة﴾: المراد: متنعمة فى بهجة وحسن. انظر الآية (٢٤) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿لسعيها راضية﴾: اللام بمعنى الباء، إى راضية بما عملت فى الدنيا عندما ترى ثوابه.

﴿لاغية﴾: أى نفسا تقول لغوا. كما تقول سمعت المقرئ تريد قراءته: لأن كلام أهل الجنة الحمد والتسبيح والتسليم. انظر آيتى (٢٥، ٢٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤. وانظر وزن

(١) آنية. (٢) لاغية. (٣) بمسيطر.

﴿خائنة﴾: فى الآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٨. ﴿أكواب﴾: جمع كوب وهو إناء لا عروة له. ﴿موضوعة﴾: أى بين أيديهم فيسهل تناولها عندما يشتهون ما فيها. ﴿نمارق﴾: أى وسائد، جمع نمرقة بضم النون. ﴿زرابى﴾: بسط فاخرة، مفردها (زَرْبِيَّة) بفتح فسكون فكسر، مع تشديد الياء المفتوحة.

﴿مبثوثة﴾: أى مفروشة فى أنحاء القصور. ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل﴾: أى نظر اعتبار وتأمل يدرك بها من أسرار صنع الله فيها. ﴿الإبل﴾: اسم جمع لا مفرد له من لفظه، وإنما يقال فى مفرده جمل أو ناقة. ﴿بمسيطر﴾: أى الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها، و(مسيطر): أى متسلط، تجبرهم على ما تحب، انظر الآية (٤٥) من سورة ق صفحة ٦٩٢.

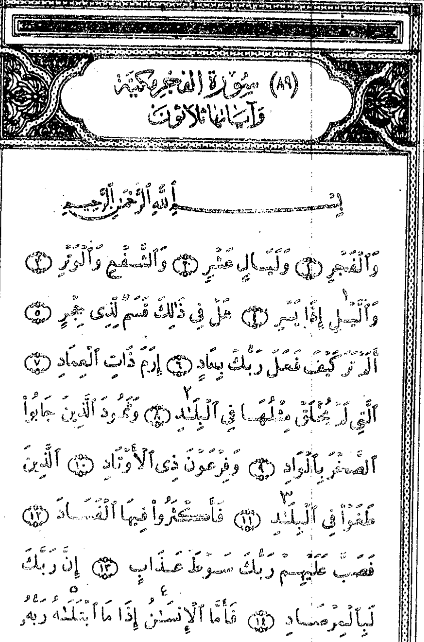
﴿إلا من تولى﴾: المراد: لكن من أعرض. ﴿العذاب الأكبر﴾: هو عذاب الآخرة، انظر الآية (٢١) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧. ﴿إيابهم﴾: أى رجوعهم يوم القيامة. ﴿علينا حسابهم﴾: المراد: إن حسابهم وعد قطعناه على أنفسنا، ولن نخلفه.

المعنى: إذا جاء يوم القيامة، وانجلت الحقائق ظهر لبعض الناس أنهم كانوا فى الدنيا مجتهدين فى عمل أتعبوا أنفسهم فيه، وذهب فى هذا اليوم هباء؛ لأنه غير مسبوق بالإيمان بالله ورسوله على الوجه الصحيح؛ والإيمان شرط قبول الأعمال، انظر شرح الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، وهؤلاء هم أهل الكتاب الذين كفروا به ﷺ، والمشركون الذين أجهدوا أنفسهم فى خدمة الكعبة لكنهم أحاطوها بالأصنام لتشفع لهم عند الله، انظر الآيات (١٧، ١٨، ١٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٢، ٢٤٣. وكذا يدخل فى هؤلاء كل مبتدع فى دين الله. روى ابن كثير ان عمر بن الخطاب لما زار الشام رأى راهبًا خاشعًا فبكى، وقيل: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت هذا فتذكرت قوله تعالى (عاملة ناصبة تصلى نارا حامية): فبكيت لغفلته عما هو صائر إليه، انظر شرح الآيات (١٠٣ إلى ١٠٦) من سورة الكهف صفحتى ٣٩٤، ٣٩٥ والآية (٣٩) من سورة النور صفحة ٤٦٤ وآيتى (٣٦، ٣٧) من سورة الزخرف صفحتى ٦٥٠، ٦٥١. يسقى هؤلاء الضالون من ماء يجرى من عين شديد الحرارة، وإذا أحسوا بالجوع فلا يقدم لهم طعام إلا من أخبث مالا تتصوره العقول، لا يفيدهم قوة ولا يدفع عنهم جوعًا. وأما الفريق الثانى فهم المؤمنون الصادقون فهم فى بهجة وسرور وقد ظهر لهم حسن أعمالهم فى الدنيا ففرحوا بثوابها على عكس الضالين. فهم أى المؤمنون. فى جنة عالية،

انظر آيتى (٥٤، ٥٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٨. لا يسمعون فيها لغو نفس لاغية بفحش القول. فيها عين جارية. تسر بمنظرها النفوس. فيها سرر مرفوعة. وأكواب مليئة بالشراب تحت أيديهم. ووسائد مرتبة وبسط فاخرة موزعة فى أبهاء القصور. ثم أراد سبحانه أن يقرر ما سبق من القيامة والبعث بأسلوب فيه توبيخ للكفار على غفلتهم عن أدلة ما ذكر فقال تعالى: أفلا ينظرون.. إلخ. أى هل عميت بصائرهم حين ينكرون البعث ويستبعدونه على قدرة الله. فلا ينظرون نظر اعتبار وتأمل إلى الإبل التى عليها جل منافعهم. وهى أنفس أموالهم. ولذا لم يقبلوا دية المقتول إلا منها - كيف خلقت هذه الإبل خلقًا بديعًا دالا على دقة صنع خالقها وحسن تدبيره حيث جعلها صالحة لحمل الأثقال إلى مسافات بعيدة، انظر الآية (٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٦ والآية (٢٢) من سورة المؤمنون، وسهل الحمل عليها مع ارتفاع قامتها حيث جعلها تبرك عند الحمل. وجعلها طويلة الأعناق لمصالح يدركها أرباب العقول المفكرة، منها تسهيل المرعى عليها فكما تأكل من حشائش الأرض تأكل من أوراق أعالى الشجر، ومنها أن طول عنقها يسهل لها النهوض من مبركها بأثقل الأحمال التى تتركز على ظهرها أقرب إلى مؤخر جسمها، فلولا أنها تمد عنقها إلى الأمام. وبه الرأس التى تعادل مع طول العنق ما على ظهرها من الأحمال لما استطاعت القيام، ومن عجائب الله تعالى فى الإبل أيضًا أنها تتحمل الجوع والعطش فوق الخمسة عشر يومًا، وذلك أنه جعل لها مخزنًا من الشحم فوق ظهرها محدبًا ليكون أقوى تحملا مما لو كان مسطحا إلى غير ذلك من العجائب التى تدل على سيد حكيم. وإلى السماء كيف رفعت بلا عمد. وإلى الجبال كيف نصبت حفظًا للأرض من الاضطراب كما فى الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧ وهداية للسارى فى الصحارى فلا يضل الطريق. انظر الآية (١٦) من نفس السورة صفحة ٣٤٧. وإلى الأرض كيف سطحت ليتيسر للناس العيش عليها والمشى فى مناكبها. وإذا كان الأمر كما ذكر فذكرهم أيها النبى لعلهم يتنبهون إلى أن القادر على كل هذا قادر على إعادتهم أحياء يوم القيامة. ذكرهم بهذا ولا تكلف نفسك فوق ذلك لأنك لست إلا مذكرا فقط. وليس لك سلطان تجبرهم به على الهداية، لكن من أعرض عن التذكر وكفر، أى جحد الحق المعروض عليه، فسيعذبه الله العذاب الأكبر، ثم أكد هذا الحكم وهو أنه سيعذبهم فقال: إن إلينا.. إلخ. أى رجوعهم فى الآخرة إلينا وحدنا، وحسابهم قطعنا به وعدا علينا، فلن يتخلف أبدا. نسأل الله تعالى السلامة.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم



(٨٩) سورة الفجر مكية وآياتها ثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

والفجر ① وليال عشر ② والشفع والوتر ③
والليل إذا يسر ④ هل في ذلك قسم لذي حجر ⑤
ألم تر كيف فعل ربك بعاد ⑥ إرم ذات العماد ⑦
التي لم يخلق مثلها في البلاد ⑧ وثمود الذين جابوا
الصخر بالواد ⑨ وفرعون ذي الأوتاد ⑩ الذين
طغوا في البلاد ⑪ فأكثروا فيها الفساد ⑫
فصب عليهم ربك سوط عذاب ⑬ إن ربك
لبالمرصاد ⑭ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه

المفردات: ﴿الفجر﴾: المراد به والله أعلم فجر يوم الأضحى الذى يصلى الحاج بعده الصبح بمزدلفة، ويقف عند المشعر الحرام يذكر ربه كما فى شرح الآية (١٩٨) من سورة البقرة صفحة ٣٩.

﴿ليال عشر﴾: هى العشر الأولى من شهر ذى الحجة المشغولة بتكبير الله وحده وتحميده. وقد ورد أن العمل فيها أفضل من العمل فى غيرها، فتنكيرها للتعظيم.

﴿الشفع والوتر﴾: المراد: الزوج والفرد من أيام تلك الليالى العشر. فيكون سبحانه أقسم بجميع أفرادها وأجزائها من ليل ونهار؛ لأنها كلها مشغولة بذكر الله وبالاعتبار بمواقف إبراهيم أبى الأنبياء المشار إليها بأعمال الحج وأماكنه.

﴿والليل إذا يسر﴾: أصل (يسر): (يسرى)، وحذفت الياء تخفيفًا كما فى الآية (٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٥، والمراد بالليل هنا: هو آخر ليلة من الليالى العشر، وخصها بالذكر ثانيا لأن بمسراها - أى ذهابها - يتم الحاج فى صباحها أعمال حجه الذى يخرج به من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

﴿هل﴾: حرف استفهام يفيد تقرير وتفخيم شأن القسم بهذه الأشياء.

﴿فى ذلك﴾: أى فى القسم بهذه المذكورات.

---

(١) الليل. (٢، ٣) البلاد. (٤) الإنسان. (٥) ابتلاه.

﴿قسم لذى حجر﴾: الحجر: العقل؛ لأنه يحجر أى يمنع عما لا ينبغى، والمعنى هل فى القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لصاحب العقل، أى فهو قسم عظيم، نظير ما فى الآية (٧٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧.

﴿ألم تر﴾: الاستفهام كالسابق و(تر) أى تعلم، والجملة إشارة لجواب القسم، والمعنى: أقسم بكل ما تقدم أن لابد أن أنتقم من كفار قومك يا محمد كما انتقمت من طغاة تلك الأمم.

﴿بعاد﴾: هم عاد الأولى، قوم نبى الله هود عليه السلام، انظر الآيات (٦٥ إلى ٧٢) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤ والآيات (٥٠ إلى ٦٠) من سورة هود صفحات ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، والآية (٥٠) من سورة النجم صفحة ٧٠٣.

﴿إرم﴾: هو لقب من ألقاب (عاد).

﴿ذات العماد﴾: أى صاحبة العماد، والعماد ما يعتمد عليه كالعمود، والمراد أنهم كانوا بدوًا رحَّلًا أهل خيام وعمدان، ينتقلون وراء الغيث والمرعى.

﴿ثمود﴾: هم قوم نبى الله صالح عليه السلام، انظر الآية (٦١) وما بعدها من سورة هود صفحتى ٢٩٣، ٢٩٤.

﴿جابوا الصخر﴾: أى قطعوا الصخر ونحتوا منه بيوتًا، انظر الآية (٧٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤ والآية (٨٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ والآية (١٤٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩.

﴿بالواد﴾: الأصل بالوادى، والمراد به وادى القرى بكسر القاف، المسمى بالحجر المذكور فى الآية (٨٠) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، وهو بين المدينة المنورة والشام.

﴿فرعون﴾: المراد به حاكم مصر الذى كان فى عهد موسى.

﴿ذى الأوتاد﴾: جمع وتد بكسر التاء، والمراد بها هنا المبانى العظيمة التى تشبه الجبال فى الثبات، انظر شرح الآية (١٢) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

﴿الذين طغوا﴾: صفة لكل مَنْ تقدموا من عاد ومَنْ بعدهم. ﴿فصل عليهم﴾: المراد: أنزل عليهم بكثرة وبدون انقطاع حتى هلكوا. ﴿سوط عذاب﴾: أصل السوط هو الخلط والمزج، ثم

سموا به الجلد المضفور الذى يضرب به المذنب؛ لأن ضفائره مختلط بعضها ببعض، والمراد هنا: أنواع من العذاب مختلفة، انظر الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦.

﴿المرصاد﴾: هو المرصد بوزن المقعد، وهو المكان الذى يراقب فيه الحراس ما يريدون مراقبته، والكلام كناية عن أنه سبحانه رقيب على أعمال عباده، مجاز عليها.

﴿إذا ما﴾: (ما) لتأكيد الربط بين شرط إذا (ابتلاه) وجوابها (فيقول).

﴿ابتلاه ربه﴾: أصل الابتلاء الاختبار، والمراد: عامله معاملة المختبر بالخير والشر، انظر الآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤ والآية (٤٠) من سورة النمل صفحة ٤٩٩.

المعنى: بعدما قال سبحانه فى السورة السابقة ﴿إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ أراد أن يطمئن نبيه ﷺ بأنه لابد معاقب كفار قومه، فأقسم له بالفجر وما بعده لما فيها مَنْ الذكريات والعبر. كما تقدم فى شرح صفحة ٥٨٧: ثم أكد هذا القسم بأنه عظيم فيه كفاية لكل ذى عقل. أقسم سبحانه على أنه لابد أن يعاقب كفار قريش كما عاقب مَنْ قبلهم عندما عملوا عملهم. ثم أشار سبحانه إلى جواب القسم بقوله: ألم تر كيف فعل ربك.. إلخ. أى يجب أن تعلم أيها النبى ما فعله ربك بعاد الملقبة بإرم صاحبة الخيام والعماد التى لم يخلق الله فى البلاد قبيلة مثلها فى عظم الأجسام والقوة. ولذا كانوا يفخرون بذلك ويقولون (من أشد منا قوة) انظر الآية (١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ وما فعله بثمود الذين بلغوا من القوة وسعة التفكير فى أمور الدنيا مبلغا مكنهم من أن ينحتوا لأنفسهم بيوتًا فى الجبال ليأمنوا الهدم والغرق. وما فعله بفرعون الذى كان يفخر بأنه بنى على الأرض بناءً خالدًا خلود الجبال. هؤلاء جميعًا لما طغى كل منهم فى قومه، أى تجاوز حد الاعتدال فى معاملة الناس، وسخروا قوتهم لهضم حقوق الغير وأكثروا الفساد بنشر الكفر والظلم. فأنزل عليهم ربك عذابا متنوعا بتنوع جرائمهم كما سبقت الإشارة إليه. وذلك لأن ربك أيها النبى القائم بتدبير أمرك رقيب على عباده، لا يفلت أحد من جزائه. هذا هو شأن ربك أيها النبى مع الإنسان، لا يهمل تنبيهه إلى ما ينفعه، وتحذيره مما يضره، لحمله على العمل للحياة الخالدة، وأن لا يجعل همه إلا السعادة الدائمة. أما شأن الإنسان فى أغلب أفراده، فإنه لا يهتم إلا بالحياة الفانية، فإذا امتحنه ربه بالخير ليظهر استعداده هل يشكر أم يكفر؟

فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا
مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾
كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ
طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾
وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ
دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾
وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ
لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ
أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ
رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾
وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

المفردات: ﴿فأكرمه﴾: بيان لما به الابتلاء. والمراد أكرمه بالمال والجاه. ونعمه أى مكنه من التنعم بما أكرمه به.

﴿أكرمن﴾: أصلها أكرمنى. وحذفت الياء تخفيفاً أى أكرمنى عن استحقاق. يريد أنه أهل لذلك. وبهذا الغرور نسى شكر المنعم. كالعطف على اليتيم والمسكين. انظر آيتى (٧٧. ٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨ والآيات (٤٩. ٥٠. ٥١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٦. ٦٣٧.

﴿فقدر عليه رزقه﴾: أى ضيقه. انظر الآية (٣٦) من سورة سبأ.

﴿أهانن﴾: أصلها أهاننى. والمراد: يشغله الحزن عن فضيلة الصبر. انظر الآيات (١٩. ٢٠. ٢١) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥. ﴿كلا﴾: حرف يدل على زجرهم عن هذا الزعم الخاطئ من أن الإكرام عن استحقاق، والتضييق عن إرادة إهانة.

﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من كلام لآخر. ﴿لا تحاضون﴾: أصله تتحاضون أى لا يحض ولا يحث بعضكم بعضا. ﴿طعام المسكين﴾: (طعام) اسم مصدر بمعنى الإطعام كالعطاء بمعنى الإعطاء. ﴿تأكلون﴾: المراد تأخذون. انظر شرح الآية (١٨٨) من سورة البقرة صفحة ٣٧.

﴿التراث﴾: أصله (الوراث) من الوراثة والعرب تجعل الواو تاء لتخفيف النطق والمراد به هنا: الميراث الذى كانوا يأخذونه ~~من حق النساء والأطفال~~. انظر الآية (٢) من سورة النساء صفحة ٩٧ والآية (٦) من نفس السورة صفحة ٩٨ والآية (١٠) من نفس السورة صفحة ٩٩. أى لا يفرقون بين ما جمع من حلال، أو من حرام، مما يتعلق به حق الغير.

(١) ابتلاه (٢) أهانن (٣) تحاضون (٤) جىء
(٥) الإنسان (٦) ياليتنى (٧) عبادى

﴿لمّا﴾: أصل (اللم) الجمع بين الأشياء المتفرقة ووصف به الأكل للمبالغة فى الشر والذى يعميهم عن التفرقة بين حلاله وحرامه. ﴿جما﴾: أى كثيرا. والمراد مع حرص وشره.

﴿كلا﴾: أى ارتدعوا عن هذا العيب. ﴿دكت الأرض﴾: تقدم فى الآية (١٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢. ﴿دكًا دكًا﴾: المراد: دكا متتابعا. يستوعبها. ولا يبقى منها شيئًا: كما تقول علمته الحساب بابا بابا أى كله. ﴿وجاء ربك﴾: علماء الخلف يرجعون مثل هذا إلى نظيره فى الآية (٩٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨ والآية (٣٣) من سورة النحل صفحة ٣٤٩: فيقولون: جاء أمره بدعوة الخلق للحساب. وعلماء السلف يقولون: جاء مجيئًا نؤمن به ولا نبحث عن حقيقته. ونؤمن بأنه سبحانه ليس كمثله شىء من خلقه. ويقولون: إنما الذى يهمنا علمه من هذا الكلام هو أن سلطانه سبحانه سيكون هو المتحكم فى هذا اليوم.

﴿والملك﴾: المراد به: جنس الملك. فيشمل جميع الملائكة. ﴿صفا صفا﴾: المراد: مصطفين استعدادا لتلقى أوامر الملك القهار. ﴿وجىء يومئذ بجهنم﴾: المراد: برزت وظهرت. انظر الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥ والآية (٣٦) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠.

﴿يتذكر الإنسان﴾: أى يتعظ عندما يرى قبح أعماله. ﴿وأنى له الذكرى﴾: (أنى) اسم استفهام تفيد معنى من أين. والمراد من الاستفهام هنا النفى، و(الذكرى): العظة والعبرة انظر الآية (٣٧) من سورة ق صفحة ٦٩١ والمعنى: ومن أين له التذكر الآن، أى لا ينفعه.

﴿لحياتى﴾: أى لأجل حياتى الخالدة. ﴿لا يعذب عذابه أحد﴾: أى لا يعذب أحد تعذيبًا مثل تعذيب الله فى الشدة لهؤلاء الطغاة. ﴿ولا يوثق﴾: أى لا يربط بالسلاسل والأغلال.

﴿وثاقه﴾: الوثاق يطلق على الرباط الذى يوثق أى يربط به كما فى الآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢، ٦٧٣. ويطلق على الإيثاق بمعنى الربط كما هنا، فالمراد لا يربط أحد مثل ربط الله لهؤلاء فى القوة. ﴿المطمئنة﴾: أى بذكر الله تعالى، الراضية بقضائه سبحانه، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥، ٣٢٦.

﴿ارجعى إلى ربك﴾: أى إلى دار كرامته تعالى فهو نظير ما فى الآية (٥٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٨. ﴿راضيّة﴾: أى بما نالت، ﴿مرضية﴾: أى عنده تعالى. ﴿فادخلى فى عبادى﴾: المراد: وقد جعلتك فى زمرة عبادى المقربين.

المعنى: ومن طبع بعض أفراد الإنسان أنه إذا امتحنه ربه بإعطائه ما يحب ليظهر هل يشكر ويعطف على الضعفاء أم يجحد الفضل ويبخل. فإنه لا يلتفت لذلك بل بدل أن يشكر

يتبجح ويقول: ما أعطانى الله هذا إلا لأنى أستحق الكرامة عنده. ومن كان كذلك لا يهمه شىء. ولا يعاب عليه عمل. ويجهل أنه سبحانه قد يغدق الخير على كافر فتنة له لا لكرامته عنده. انظر شرح الآية (٣٣) وما بعدها من سورة الزخرف صفحتى ٦٥٠، ٦٥١، وآيتى (٣٥، ٣٦) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨. وأنه إذا امتحنه بتضييق الرزق ليظهر قوة صبره فإنه يفعل ذلك أيضًا ويظن أن ما حصل إنما هو إهانة منه تعالى له. فيسخط على القضاء ويستولى عليه الجزع فيحرم فضيلة الصبر كما تقدمت الإشارة إليه فى الآية (٥) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥. ولما كان هذا هو شأن أغلب أفراد الإنسان زجرهم سبحانه بقوله: كلا. أى لم أبتلهم بالغنى لكرامتهم عندى، ولا بالفقر لهوانهم علىّ. بل ذلك لحكمة عالية. ثم انتقل سبحانه من ذم أفراد الإنسان على القبيح من الأقوال إلى ذمهم على الأقبح من الأفعال فقال سبحانه: (بل لا تكرمون).. إلخ. أى قل لهم أيها النبى ليس عيبكم مقصورًا على ما تقدم بل لكم أفعال أشد قبحًا مما تقدم تدل على تهالككم على المال. فمع إعطائكم الكثير منه فإنكم لا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالإحسان إليه، ولا يحث بعضكم بعضًا على إطعام المساكين. وفى الكلام إشارة إلى أن بخلهم زاد حتى أنه لم يقف عند البخل بالبذل بل تجاوزه إلى البخل حتى بكلمة نصح. فالمراد لا تبذلون ولا تأمرون غيركم به. وبلغ من فتنتكم بالمال أنكم تستولون على الموروث منه بشره لا تفرقون بين حقكم وحق غيركم، ولا بين ما جمع من حلال أو من حرام مما يتعلق به حق الغير. ثم بيّن سبحانه سبب ذلك فقال: وتحبون المال حبا جما. ثم زجرهم عما تقدم بقوله: كلا. ثم علل الزجر بما فيه تهديدهم فقال: (إذا دكت الأرض).. إلخ أى إذا قامت القيامة وتجلى ربك على الخلائق واصطفت الملائكة انتظارا لأمر الواحد القهار، وبرزت جهنم للعيان فى هذا الوقت ينكشف الغطاء عن الغافل فيتعظ، ولكن لا تنفعه هذه الموعظة لفوات وقتها. عند ذلك يندم ويقول: يا ليتنى قدمت عملا صالحا لأجل انتفاعى به فى حياتى الخالدة. فيوم يحصل كل ما سبق لا يعذب أحد مثل عذابه تعالى لمن كفر به فى الشدة، ولا يربطه بالسلاسل والأغلال أحد مثل ربطه تعالى لهم، والمراد أن عذابه تعالى فى هذا اليوم لمن كفر به لا تتصور العقول شدته، وبعد ما حكى سبحانه ما سيحل بمن كفر به وشغله حب المال عن واجب الشكر أراد أن يبين حال من اطمأن قلبه بذكر ربه ولم يفرط فى حق من حقوقه فقال تعالى: يا أيتها النفس.. إلخ، المراد أنه سبحانه يوجه خطابه للمخلصين ويقول لكل منهم: (يا أيتها النفس) التى كانت فى الدنيا لا تغفل عن ذكر ربها ارجعى اليوم إلى حظيرة رضا ربك حال كونك راضية بما نلت، مرضية عنك منه تعالى فادخلى فى زمرة عبادى الذين اصطفيتهم وادخلى فى جنتى. اللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك.

سورة البلد

(٩٠) سورة البلد مكية وآياتها عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢)
وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ(١) فِي كَبَدٍ (٤)
أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا
لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ
عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ(٢) النَّجْدَيْنِ (١٠)
فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ(٣) مَا الْعَقَبَةُ (١٢)
فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ(٤) فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤)
يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿لا أقسم﴾: تقدم بيانه فى الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ والآية (١) من سورة القيامة صفحة ٧٧٨.

﴿بهذا البلد﴾: هى مكة.

﴿حل﴾: أى حلال كما فى الآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦، والمراد: أن كفار مكة استحلوا إيذاءه ﷺ وقتله، فالكلام إشارة إلى تقريعهم على ذلك، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١.

﴿ووالد وما ولد﴾: المراد: كل والد، وكل مولود من الموجودات التى تتوالد؛ لأن بهذا التوالد بقاء النوع. فضلاً عما يكابده الوالد فى المحافظة على ولده مما يشير إليه جواب القسم الآتى ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾: و(الكبد) هو المشقة والتعب.

﴿أيحسب﴾: تقدم معنى ذلك فى الآية (٣) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩.

﴿أن لن﴾: تقدم معنى ذلك فى الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٤، ٧٧٥.

﴿لبدا﴾: جمع لُبدة بوزن غُرَف وغُرفَة، وأصله الصوف المتلبد الملتصق بعضه ببعض والمراد به هنا كثيرا، يقول ذلك إظهارا للتفاخر بكثرة المال والإنفاق، انظر المادة فى الآية (١٩) من سورة الجن صفحة ٧٧٢.

﴿أن لم﴾: أن كسابقتها.

(١) الإنسان. (٢) هديناه. (٣) أدراك. (٤) إطعام.

﴿ألم نجعل له﴾: المراد من الاستفهام حمل المخاطب على الإقرار بما بعده.

﴿عينين﴾: أى يبصر بهما.

﴿ولسانا﴾: يبين به ما فى ضميره.

﴿شفتين﴾: يستر بهما فمه، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب وغير ذلك.

﴿وهديناه﴾: أى أرشدناه ووضحنا له.

﴿النجدين﴾: أصل النَّجد بفتح فسكون: الطريق الذى فيه ارتفاع والمراد هنا: طريق الخير ليسلكه وطريق الشر ليجتنبه.

﴿فلا اقتحم﴾: قال ابن هشام فى المغنى: إن (لا) النافية كما هنا إذا دخلت على فعل ماض فلا ينطق العربى الفصيح بها إلا مكررة نحو (فلا صدق ولا صلى) الآية (٣١) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠، وهى هنا مكررة تقديرًا وسهل ذلك تعدد معنى العقبة هنا. فالمراد فلا هو فك رقبة ولا أطعم مسكينًا.

﴿اقتحم﴾: أى تخطى.

﴿العقبة﴾: أصلها الطريق الصعب فى الجبل. والمراد بها هنا: التكاليف الشاقة كفعل الطاعات، وترك المحرمات. والمراد من اقتحامها: فعلها.

﴿وما أدراك ما العقبة﴾: تقدم المراد من ذلك فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

﴿فك رقبة﴾: أى تخليصها من الرق، وهذا شروع فى بيان أهم أفراد العقبة التى يقتضيها هذا المقام.

﴿فى يوم ذى مسغبة﴾: (المسغبة) المجاعة. ويوم ذو مجاعة أى جاع الناس فيه. يقول العرب: (يوم ذو صيام) أى صام الناس فيه.

﴿يتيمًا﴾: مفعول (لإطعام).

﴿ذا مقربة﴾: أى صاحب قرابة لأن فيه صلة رحم وجبر خاطر اليتيم، فهو أولى بالإحسان، انظر الآية (٢٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨.

﴿ذا متربة﴾: (المتربة) مصدر لفعل (ترب) بفتح فكسر، أى افتقر، وأصله من قولهم: ترب الرجل، أى التصق بدنه بالتراب.

﴿ثم كان﴾: (ثم) هنا للترقى فى الرتبة، فالمراد: ثم كان قبل كل ما تقدم مؤمنا.. إلخ؛ لأن شرط قبول الأعمال الصالحة أن يسبقها الإيمان.

المعنى: لما اشتد إيذاء المشركين للنبى ﷺ مع أنه مقيم معهم فى مكة التى جعلها الله بلدا آمنا كل من فيه حتى الحيوان، انظر الآية (٦٧) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠، وكان من أشدهم إيذاء له ﷺ وانتهاكا لحرمة مكة رجال منهم أسيد بن كلدة الجمحى. وكان شديد الاغترار بقوة جسمه، ومنهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وغيرهم ممن كان ينفق المال الكثير لمحاربة دعوته ﷺ، ولطلب الجاه عند الناس فأراد سبحانه وتعالى أن يخفف عن نبيه ﷺ ويحثه على الصبر، كما تشير إليه الآية (١٧) الآتية من هذه السورة.

وينبه الغافل المفتون بقوته أو بكثرة نفقاته رياء، ليرجع إلى نفسه فيرى أنه فى تعب فكرى أو جسمانى مادام فى هذه الحياة. فمن أسف على فوات رغبة إلى مرض عزيز أو موته إلى غير ذلك. فقال تعالى: (لا أقسم).. إلخ، أى لست بحاجة إلى القسم بهذا البلد الأمين، والحال أن الكفار من أهله استحلوا إيذاءك أيها النبى الكريم، ولا إلى القسم بكل والد وولده لما لهم من الأهمية فى بقاء الأنواع التى بها عمار الكون.

ثم ذكر المقسم عليه فقال: لقد خلقنا.. إلخ، أى إنا خلقنا الإنسان فى هذه الحياة يكابد مشاقها ومتاعبها، فالموفق مَنْ صبر وتخلص من شرورها، أما مَنْ يغره ربه لحظات فيفخر بقوته فإنه جاهل لظنه أنه أصبح من القوة بحيث لا يقدر على إيلامه أحد، مع أن ما هو من مكابدة مشاق الحياة كاف لإيقاظه لعجزه، ويفخر بما ينفقه فى وجوه الشر والرياء، فهل يظن أنه لم يره أحد وهو ينفق ذلك مما رزقه به مَنْ يقدر على محاسبته وعقابه، إن ظن ذلك فهو مخطئ؛ لأن الله تعالى يراه ويراقب تصرفاته، وسيحاسبه ويجازيه عليها، ثم أراد سبحانه أن يبين لهؤلاء جميعًا أنه هو وحده الذى منحهم ما يتمتعون به من البصر، والنطق، والعقل المميز بين الخير والشر. وهو القادر على سلب كل ذلك منهم.

ومع ما وهبه لكل منهم من هذه النعم فلا هو تخطى العقبة فحرر رقبة من الرق، ولا هو تخطاها بإطعامه يتيمًا قريبًا له، أو مسكينًا ليس عنده ما يقتات به فى زمن اشتدت فيه المجاعة. ثم كان قبل كل ذلك مؤمنًا بالله ورسوله.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

(٩١) سُورَةُ الشَّمْسِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسَ عَشْرَةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ
إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ
وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ

المفردات: ﴿المرحمة﴾: أى التراحم بينهم بأن يرحم قويهم ضعيفهم، وغنيهم فقيرهم.

﴿الميمنة والمشأمة﴾: تقدما فى آيتى (٨، ٩) من سورة الواقعة صفحة ٧١٣.

﴿بآياتنا﴾: أى القرآنية، كما فى الآية (٣١) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، والكونية كما فى الآية (٣٩) من سورة فصلت صفحة ٦٢٥.

﴿مؤصدة﴾: أى مغلقة عليهم من قولهم (أصدت الباب) بمد الهمزة أى أغلقته.

المعنى: إن من يتخطى العقبات هو الذى يفعل الصالحات ويسبق ذلك بكونه من المؤمنين الذين لا يكتفى أحدهم بأن يكون صابرا رحيما فقط، بل ويأمر غيره بهما، هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم أصحاب اليمين الناجون من هول يوم القيامة. أما الذين يكفرون بآيات الله المنزلة أو غيرها كما تقدم فهم أصحاب الشمال الذين تغلق عليهم أبواب النار فلا يخرجون منها أبدا.

﴿سورة الشمس﴾

المفردات: ﴿والشمس﴾: انظر شرح صفحة ٥٨٧. ﴿وضحاها﴾: المراد ضوءها أول النهار.

﴿تلاها﴾: أى تلا الشمس بعد غروبها بضوئه طول الليل، وذلك فى الليالى البيض وهى (١٣، ١٤، ١٥) من كل شهر قمرى.

(١) آمنوا.	(٢) أصحاب.	(٣) بآياتنا.	(٤) أصحاب.
(٥) المشأمة.	(٦) ضحاها.	(٧) تلاها.	(٨) جلاها.
(٩) الليل.	(١٠) يغشاها.	(١١) بناها.	(١٢) طحاها.
(١٣) سواها.	(١٤) تقواها.	(١٥) زكاها.	(١٦) دساها.

﴿جلاها﴾: أى جلى الشمس وأظهرها ساطعة، وهذا قسم بضوء الشمس فى صورة أخرى.

﴿يغشاها﴾: أى يغطى ضوءها. ﴿وما بناها﴾: أى ومن بناها وهو الله سبحانه وتعالى، والعرب تعبر بـ (ما) عن الذات المصاحبة لوصف عظيم كما فى ﴿بما وضعت﴾ فى الآية (٣٦) من سورة آل عمران صفحة ٦٨ و﴿ما طاب لكم﴾: الآية (٣) من سورة النساء صفحتى ٩٧، ٩٨ والمعنى هنا والقادر العظيم الذى بنى السماء دالة على وجوده وكمال قدرته.

﴿وما طحاها﴾: أى ومن بسطها وجعلها صالحة للإقامة عليها، انظر الآية (٢٢) من سورة البقرة صفحة ٦. ﴿وما سواها﴾: أى من عدل أجزاءها وجعل كل جزء صالحا لما أريد منه، انظر الآية (٧) من سورة الانفطار. ﴿فألهمها فجورها﴾.. إلخ: المراد أفهمها قبح الفجور وحسن التقوى ببيان طريق الشر وطريق الخير، انظر الآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨.

﴿قد أفلح﴾: جواب القسم. ﴿زكاها﴾: أى طهر نفسه من دنس الذنوب والبخل، انظر أصل معنى الزكاة فى الآية (٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥. ﴿دساها﴾: أصل معنى (دسى) أخفى، والمراد أخفى مزايا إنسانية بالجهل والفسوق. ﴿كذبت ثمود﴾: اقتصر فى العبرة على ثمود من باب التنبيه بالأقل جرمًا على الأكثر، أى فغيرهم من باب أولى. وذلك أن عادا وقوم لوط وقوم فرعون مثلا جمعوا مع الكفر جرائم أخرى أفظع بكثير من جرائم ثمود.

المعنى: يقول سبحانه أقسم بالشمس وضوئها، وبالقمر حين يتبعها فيظهر ضوءه بعد ذهاب ضوئها عند الغروب ويمكث طول الليل، فيبقى الضوء ليلا ونهارا وبالنهار حين يجلى ويظهر قوة ضوء الشمس، وهذا قسم بضوء الشمس فى صورة أخرى وبالليل حين يغطى كل ضوء للشمس بظلمته، فلا يكون على وجه الأرض أثر للضوء مطلقًا، وذلك لا يحصل إلا فى ليال قليلة فى الشهر، ولقلة ذلك جاء فى الكلام عنه بالفعل المضارع (يغشاها) الدال على أنه طارئ قليل الزمن؛ وأقسم سبحانه بالسماء ومن بناها، وبالأرض ومن جعلها فراشا، وبكل نفس ومن عدل خلقها وجعلها صالحة للحياة. وبعد ذلك أرشدها وبيَّن لها طريق الفجور لتتجنبه وطريق التقوى لتسلكه. أقسم سبحانه بكل ما ذكر من تلك الأمور العظيمة على أن من طهر نفسه من أدناس الفجور قد فاز بكل خير، وأن من دفن نفسه تحت أقذار الكفر والمعاصى قد خاب وخسر كل خير. ثم ذكر سبحانه مثلاً من الأمم السابقة التى أفسدت نفوسها فخسرت ليكون ذلك عبرة لكفار مكة فقال: (كذبت ثمود).. إلخ.

بِطَغْوَاهَا[1] ⑪ إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَاهَا[2] ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا[3] ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّاهَا[4] ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا[5] ⑮

(٩٢) سُورَةُ اللَّيْلِ مَكِّيَّة
وآياتها إحدى وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ[6] إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ⑥ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ⑦ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ

المفردات: ﴿بطغواها﴾: أى بسبب طغيانها.

﴿انبعث﴾: تقول العرب: بعثت فلانا للأمر فانبعث، أى كلفته بأمر فذهب لقضائه، والمراد هنا: فذهب لعقر الناقة.

﴿أشقاها﴾: أى أشقى رجل فى قبيلة ثمود.

﴿رسول الله﴾: هو نبى الله صالح عليه السلام.

﴿ناقة الله﴾: أى لا تقربوا ناقة الله بإيذاء، انظر الآية (٧٣) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤.

﴿وسقياها﴾: هو شربها فى يومها، أى لا تمنعوها منه، انظر الآية (١٥٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩ والآية (٢٨) من سورة القمر صفحة ٧٠١. قال الراغب: السَّقى والسُّقيا أن تعطى غيرك ما يشربه، والمراد به هنا نصيبها من الماء، والمعنى: لا تقربوا سقياها فى يوم شربها.

﴿فعقروها﴾: المراد: قتلها الأشقى بأمرهم فكانوا جميعا مشتركين فى القتل، انظر شرح الآية (٢٩) من سورة القمر صفحة ٧٠٦.

﴿دمدم عليهم﴾: يقال دمدم عليه القبر إذا أطبقه عليه، فالمراد أهلكهم هلاكًا كليًا لم يبق لهم أثرًا على ظهرها.

﴿فسواها﴾: المراد فسوى القبيلة بالأرض فصاروا لا وجود لهم على ظهرها.

(١) بطغواها. (٢) أشقاها. (٣) سقياها.
(٤) فسواها. (٥) عقباها. (٦) الليل.

المعنى: كذبت ثمود رسلها بسبب طغيانها وتجبرها على الحق وتجلى طغيانها حين بعثوا أشقى رجل فيهم ليقتل الناقة التى قال لهم فيها رسولهم: لا تمسوا ناقة الله بسوء ولا تمنعوها عن شربها فى يومها الذى أمركم ربكم بتركه لها وإلا حل بكم عذاب عظيم. فكذبوه فى تهديده، فانتنوا على قتلها. فقتلها الأشقى بموافقتهم. فأهلكهم ربهم عن آخرهم بسبب ذنبهم ولم يجعل لهم أثرا على ظهر الأرض. فعل سبحانه بهم ذلك والحال أنه سبحانه فى عزته وجبروته لا يخاف عاقبة هذه الفعلة كما يخاف الذين يقدمون على عمل خطير كهذا. والكلام كناية عن أنهم أذلاء حقراء لا يشعر بهم أحد. كما فى الآية (٢٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨.

﴿سورة الليل﴾

المفردات: ﴿يغشى﴾: أى يغطى النور بظلمته. ﴿وما خلق الذكر﴾: أى وحق الإله القادر الحكيم الذى خلق.. إلخ. ﴿إن سعيكم﴾: هذا أول المعطوف عليه. ﴿شتى﴾: جمع شتيت أى متفرق ومتنوع وبذلك يتفاوت جزاؤه. ﴿صدق بالحسنى﴾: المراد: وصدق بكل عقيد حسنى كتوحيد الله، وصدق رسوله، وحصول اليوم الآخر.. إلخ. ﴿فسنيسره﴾: المراد نسهل عليه، ونهيئه. ﴿لليسرى﴾: أى الطريقة السهلة، والمراد لسلوكها، انظر الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، والآية (٢٠) من سورة عبس صفحة ٧٩٢ والآية (٨) من سورة الأعلى صفحتى ٨٠٣، ٨٠٤. ﴿واستغنى﴾: أى استغنى بماله عن طلب ثواب الله عن الناس، فلم يرحم ضعيفًا ولا يغيث محتاجا.

المعنى: يقول سبحانه أقسم بالليل حين تغطى ظلمته النور، وبالنهار إذا ظهر ضوؤه ثم ترقى فى القسم فأقسم بنفسه، فقال: وبالقادر الذى خلق الذكر والأنثى إن سعيكم أيها الناس فى هذه الحياة لمتفاوت تفاوتا يترتب عليه آثاره، وأجازى كل واحد بعمله. ثم بيّن سبحانه اختلاف أعمال الناس، وما رتبه على كل عمل. فقال: فأما من أعطى أى من أعطى أصحاب الحقوق حقوقهم وأولهم الفقراء والمحتاجين، واتقى الله، ففعل ما أمره به وابتعد عما نهاه عنه، وصدق بكل قضية حسنها العقل والشرع، وأولها ما يجب اعتقاده فى الله وصفاته واليوم الآخر. من فعل كل ذلك فسنسهل له طريق الخير. وأما من بخل فمنع ذوى الحقوق حقوقهم ولم يعطف على فقير واستغنى بماله عن طلب ثواب الله وعن الناس فلا يرحم ضعيفا ولا يغيث محتاجا. (وكذب بالحسنى).. إلخ.

بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ
مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ⑪ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ⑫ وَإِنَّ
لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ⑬ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ⑭
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑮ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑯
وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ⑱
وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ⑲ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ⑳ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ㉑

(٩٣) سُورَةُ الضُّحَىٰ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا إِحْدَىٰ عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

المفردات: ﴿بالحسنى﴾: و﴿نيسره﴾: تقدما فى آيتى (٦، ٧) من هذه السورة صفحة ٨١٠ وانظر الآية (٢) من سورة محمد صفحة ٦٧٢.

﴿للعسرى﴾: أى الطريقة التى كلها عسر ومشقة لخلوها من طمأنينة القلب، انظر الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ والآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥، ٣٢٦.

﴿وما يغنى عنه ماله﴾: المراد لا ينفعه ماله.

﴿إذا تردى﴾: أى إذا وقع فى حفرة القبر، والمراد إذا مات.

﴿إن علينا للهدى﴾: أى أوجبنا على أنفسنا بيان طريق الهدى من طريق الضلال وذلك بمقتضى عدلنا وحكمتنا، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ والآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨. ﴿فأنذرتكم﴾: أى حذرتكم يا كفار مكة. ﴿تلظى﴾: أصلها تتلظى، أى تتوقد وتلتهب. ﴿لا يصلاها﴾: المراد: لا يدخلها دخولا مؤبدًا إلا الأشقى؛ أى أشد الناس شقاء وهو الكافر. ﴿كذب﴾: أى برسوله. ﴿وتولى﴾: أى أعرض عن طاعة ربه.

﴿وسيجنبها﴾: أى يبعد عن النار مطلقا. ﴿الأتقى﴾: أى شديد التقوى والخوف من الله، فيتقى كل ما يغضبه، أما ضعيف التقوى فإنه تحت المشيئة، فقد يدخلها ليستوفى ما عليه ثم يخرج منها. ﴿يتزكى﴾: المراد: قاصدا تطهير نفسه من دنس الشح فلا رياء عنده.

﴿عنده﴾: أى عند هذا الذى أعطى شيئا من ماله للمحتاج. ﴿من نعمة﴾: (من) للنص على عموم نفى ما بعدها. ﴿تجزى﴾: المراد يجازى صاحبها عليها. ﴿إلا﴾: حرف معناه هنا: لكن.

(١) للآخرة. (٢) يصلاها. (٣) الليل.

﴿ابتغاء وجه ربه﴾: أى لكن يفعل ما يفعل طلب رضاء ربه فقط، لا رياء.

﴿ولسوف يرضى﴾: أى والله لسوف يعطيه ربه ثوابا حتى يرضى. انظر الآية (٥) فى السورة الآتية صفحة ٨١٢.

المعنى: أما من بخل بماله. وعد نفسه مستغنيًا عن غيره. وكذب بكل ما يجب اعتقاده فسنهيئ له الطريقة العسيرة. فلا يرى راحة قلب المؤمن. ولا ينفعه ماله الذى بخل به شيئًا حين يتردى فى قبره.

ثم أراد سبحانه أن يبين أنه لا يعاقب أحدا إلا بعد أن يرشده إلى الصواب ويخالف فقال تعالى: وإن علينا.. إلخ. أى أوجبنا على أنفسنا بمقتضى عدلنا وحكمتنا أن نبين للمكلفين طريق الهدى من طريق الضلال. أى وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه. ثم هدد بأن المصير إليه فى آخر الأمر فقال تعالى: وإن لنا للآخرة.. إلخ. أى التصرف التام فى الآخرة وفى الدنيا لنا وحدنا فنسير للخير ونثيب من أعطى واتقى وصدق.. إلخ. ونعاقب غيره. وبما أن الأمر فى الآخرة لنا فاحذروا يا كفار قريش من أن أدخلكم نارا تتلظى لا يدخلها خالدًا إلا الكافر. الذى كذب رسوله وأعرض عن طاعة ربه. وسيبعد عنها فلا يدخلها أبدا أشد الناس تقوى. وهو الذى يعطى المساكين ماله حال كونه قاصدًا بذلك تطهير نفسه من دنس الشح والمعاصى. أى ولم يعطه رياء ولا ردًا لمجاملة لأحد سبق أن أسدى إليه نعمة فاراد أن يجازيه عليها. لكن فعل ما فعل طلبا لرضاء ربه رفيع المنزلة. ومثل هذا والله لسوف يعطيه ربه ثوابا فى الجنة حتى يرضى. والله أعلم.

﴿سورة الضحى﴾

المفردات: ﴿الضحى﴾: وقت ارتفاع الشمس أول النهار.

﴿سجى﴾: أصل سجا الشيء سكن، والمراد: سكون الناس فيه للراحة. انظر الآية (٩٦) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨.

﴿ما ودعك ربك﴾: ودع فلان فلانا كتركه وزنا ومعنى. وودعه بتشديد الدال أى بالغ فى تركه والبعد عنه. والمراد ما تركك، ولا أهملك. كما يقول المفترون.

المعنى: يقول سبحانه أقسم بالضحى وبالليل وقت سكون الناس فيه. وفى كل ذلك من الحكمة ودليل القدرة ما سبقت الإشارة إليه فى شرح صفحة ٥٨٧. أقسم بما ذكر على أن ربك أيها النبى ما تركك بعدما اختارك.. إلخ.

وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ(١) خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ(٢) ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا(٣) فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ(٤) فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

(٩٤) سُورَةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

(١) للآخرة. (٢) فاوى.
(٣) عائلا. (٤) السائل.

المفردات: ﴿وما قلى﴾: يقول العربى: قليت الرجل أقليه. بوزن رميت، أى أبغضته. فالمعنى: وما كرهك.

﴿وللآخرة﴾: أى ولنهاية أمرك.

﴿الأولى﴾: أى بداية أمرك.

﴿ألم يجدك يتيمًا﴾: الهمزة أصل معناها الاستفهام الذى يفيد طلب المتكلم من المخاطب أن يفهمه شيئا خفى عليه علمه. لكنها هنا مستعملة فى الإنكار الذى معناه النفى. وبما أن ما بعدها وهو حرف (لم) يفيد النفى أيضًا. ونفى النفى إثبات. فيصير مضمون الكلام ثابتًا. ويكون قصد المتكلم بهذا التركيب هو حمل المخاطب على الاعتراف بما بعد النفيين. ويكون المعنى اعترف أيها النبى أن ربك سبحانه وتعالى وجدك يتيما فآواك لتكون بذلك شاكرا له عز وجل. ﴿ويجدك﴾: المراد به يعلمك.

﴿فآوى﴾: أى فآواك وضمك إلى من يكفلك، وهو عمك أبو طالب.

﴿ضالا﴾: قال الراغب: الضلال العدول عن الطريق المستقيم، ضد الهداية. قال تعالى: ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾. ويطلق الضلال عن كل عدول عن الطريق المستقيم عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا. وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمدا كان أو سهوًا، قليلاً كان أو كثيرًا صح أن يستعمل لفظ الضلال فى فعل كل مخطئ خطأ ما. ولذا نسب الضلال للكفار، وللأنبياء وإن كان بين الضلالين بون بعيد. فقال لخاتم الرسل ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾ أى غير مهتد لما سبق إليك من النبوة. وفى يعقوب

﴿إنك لفى ضلالك القديم﴾ الآية (٩٥) من سورة يوسف صفحة ٢١٧؛ وعن موسى ﴿فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾ الآية (٢٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١؛ وقوله تعالى ﴿أن تضل إحداهما﴾ الآية (٢٨٢) من سورة البقرة صفحتى ٦٠، ٦١، والمعنى أن تنسى. والضلال من وجه آخر نوعان: ضلال فى العلوم النظرية كالضلال فى معرفة الله سبحانه وتعالى ومعرفة النبوة ونحو ذلك. المشار إليه بقوله سبحانه وتعالى ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ الآية (١٣٦) من سورة النساء صفحة ١٢٦، وضلال فى العلوم العملية كعدم معرفة الأحكام الشرعية؛ والضلال البعيد إشارة إلى ما هو سبب كفر؛ والضلال فى سورة الضحى هنا بمعنى البعد عن معرفة الصواب نتيجة الحيرة المستحكمة الناشئة عن عدم معرفة تفاصيل حقائق الواقع المستتبع للحيرة بين عقله ﷺ وبين ما عليه كبار قومه. انظر الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦.

﴿عائلا﴾: أى فقيرا. ﴿السائل﴾ المراد به هنا: المستفهم عن علم ينفعه، قلنا ذلك ليتحقق التناسب بين الثلاثة التى أمر بها ﷺ وبين ما كان عليه هو قبل النبوة من الأحوال الثلاثة المذكورة سابقا.

﴿بنعمة ربك فحدث﴾: المراد بالتحدث بالنعمة هنا: شكر الله سبحانه عليها المستتبع للعطف على الفقراء. وبهذا يتحقق التناسب كما تقدم. ووجه ذلك أن البخيل إذا وجد بين محتاجين فإنه يحاول إخفاء ما عنده، بل قد يظهر الشكوى من الفقر والحاجة، حتى لا يطلب منه أحد شيئًا.

المعنى: أنه ﷺ بعدما ذاق من حلاوة الاتصال بربه سبحانه وتعالى عن طريق الوحى كان إذا فتر الوحى زمنًا غير معتاد يشتد شوقه صلوات الله عليه إليه. وشدة الشوق قلما تخلو من قلق وخوف. وقد علمت فى شرح آخر صفحة ٧٠٠ كيف حزن ﷺ حزنًا شديدًا عندما فتر عنه الوحى. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كان ﷺ يعانى هو وأصحابه من شدة إيذاء المشركين حتى استبطأ بعضهم نصره سبحانه وتعالى لهم كما تشير إليه الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢. لكل هذا ربما يتوهم حديث عهد بالإسلام أن الله سبحانه ترك رسوله ﷺ لاسيما أنه قد روى أن بعض المشركين أذاع عندما علم أن الوحى قد أبطأ أن رب محمد ﷺ قلاه، أى كرهه. فلهذا أراد سبحانه أن يلقى الطمأنينة فى نفسه ﷺ ويطمئن أصحابه فأخبره بما يطمئنه مؤكدا له بالحلف عليه فقال: والضحى.. إلخ. أى أقسم بالضحى

والليل حين يسكن الخلق فيه ما تركك ربك أيها النبى منذ اختارك. ولا أبغضك منذ أحبك. فلا تخف من شىء، فكل لحظة تقبل عليك ففيها خير لك مما فى سابقتها. ووالله لسوف يعطيك ربك كل ما فيه خير لك. من ظهور دينك، وسعادة أمتك، وجزيل نعمه عليك فى الآخرة حتى ترضى بما يسرك أما حكمة التسويف فى قوله تعالى ﴿ولسوف يعطيك﴾، فالتسويف يقتضى التراخى، فقد بينه المرحوم الشيخ محمد عبده بقوله: لما اشتد ألمه ﷺ لتأخر الوحى بعد نزول أول آية وهى ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾.. إلخ. ومرت فترة طويلة قدرها بعضهم بثلاثة أعوام، وأشاع المشركون أن الله سبحانه وتعالى ودّع محمدا أى تركه وأهمله، وقلاه أى كرهه، وكان ﷺ يجد فى نفسه أن للأمر تتمة لم تأت، وهو شغفٌ بحصولها، فلم تكن نفسه راضية دون أن يبلغ ما أعد له من إكمال دينه، فأكد سبحانه له الوعد بأنه سيعطيه، ويعطيه. ويعطيه، ولا يزال يعطيه حتى يرضى بإكمال دينه ﷺ. وكان ذلك فى أكثر من ثلاث وعشرين سنة حتى نزل قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم..﴾ الآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥؛ ثم أراد سبحانه أن يعدد نعمه على رسوله فيما مضى ليطمئنه على أنه سيزيد نعمه عليه فى المستقبل. فقال تعالى: ألم يجدك.. إلخ. أى يجب أن تقر أيها النبى أن ربك علم يتمك فضمك إلى عمك أبى طالب فرباك فى كنفه؛ لأن إقرارك بذلك نوع من الحمد لله الذى طلبه منك سبحانه وتعالى، ووجدك ضالا.. إلخ. من المقطوع به فى كل كتب السير والتاريخ أنه صلوات الله عليه لم يسجد لصنم طول حياته قبل البعثة. وأنه كان طاهر النفس لم يرتكب فاحشة قط. ولم يكذب أبدا حتى لقب بالصادق الأمين. وإذا كان هذا هو الواقع فلا يكون الضلال هنا معناه الانحراف فى العقيدة. والعمل الذى يطلب العبد من ربه البعد عنه، كما فى الآية (٧) من سورة الفاتحة صفحة ٢. بل معناه الحيرة. وذلك أنه ﷺ قبل نزول الوحى عليه كان قاطعًا بفساد ما عليه قومه من الشرك، وكان يسمع عن النصرانية واليهودية، ولكنه كان يشك فى سلامتها من التحريف. وكان فى حيرة أيضًا هل يستطيع أن يجهر بما يعتقد وسط فحول الشرك وصناديد الكفر ثم يسلم منهم، ثم كان فى حيرة أيضًا من معرفة ما يصح أن يتقرب به العبد إلى ربه وما لا يصح. وما هو الحال بعد الموت. ولما استولت عليه تلك الحيرة كان ينفر من الجماعات وينفرد فى غار حراء يفكر ويتلمس الهداية والخروج من ظلمة الحيرة. فإذا هداه ربه بنزول الوحى عليه إلى الصواب فى كل شىء فهل هناك نعمة فى الحياة تدنو من هذه النعمة؟ ووجدك فقيرًا لم يترك لك أبوك غير ناقة وجارية، فأغناك بربح التجارة وبما وهبتك زوجتك خديجة رضى الله عنها. ثم أراد سبحانه أن يرشد نبيه إلى العطف على

كل إنسان صادفته حالة من الحالات الثلاث التى مرت به ﷺ فقال: (فأما اليتيم).. إلخ. أى إذا علمت مرارة اليتم فلا تذل يتيما بل كرمه بالأدب وهذبه بمكارم الأخلاق ليكون عضوا فى جماعتك نافعا. وبما أنك عانيت آلام الجهل المورث للحيرة فلا تنهر من يسألك علما يزيل حيرته. وبما أنك عانيت مشقة الفقر فابذل مالك فى إغاثة المحتاج. هذا هو المراد من التحدث بالنعمة، أما ذكر الثروة باللسان فقط فإن هذا من مظاهر التفاخر لا من مقاصد الشرع.

﴿سورة الشرح﴾

المفردات: ﴿ألم نشرح﴾: الاستفهام هنا كالمتقدم فى (ألم يجدك) وشرح الصدر كناية عن السرور وانبساط النفس، بإخراجه ﷺ من الحيرة، المتقدم ذكرها فى السورة السابقة.

﴿ووضعنا عنك﴾: المراد أسقطنا عنك.

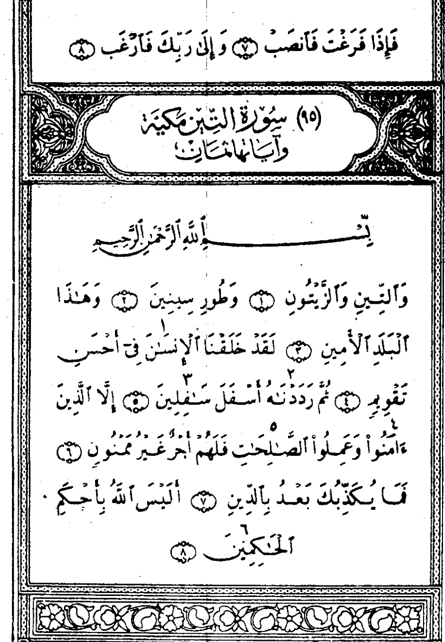
﴿وزرك﴾: الوزر أصله الحمل الثقيل، والمراد به اهتمامه الشديد بهداية قومه. ودفع إيذائهم عنه.

﴿أنقض ظهرك﴾: أى أثقله.

﴿فإن مع العسر يسرا﴾: المراد أن كل شدة يعقبها فرج بسرعة حتى كأنه معها.

المعنى: إذا تنبهت لما ذكر فى السورة السابقة تعلم كمال المناسبة بينه وبين ما هنا، فقوله: ألم نشرح لك. إلخ. معناه اعلم أيها النبى فضل ربك عليك لما شرح صدرك بإخراجك من الحيرة وأنار لك طريق الصواب وأزال عنك حمل الاهتمام الشديد بهداية قومك الذى كان يثقل كاهلك. ورفعنا لك ذكرك فى العالمين إلى يوم القيامة. وهل نال إنسان ما نلت أنت من رفع الصوت عاليا بذكر اسمك بعد ذكر اسم الله كل يوم على المنابر عدة مرات فى جميع أنحاء الأرض. وغير ذلك من مواطن الصيت العالى كثير.

ثم أكد سبحانه استمرار الفرج فقال تعالى: (فإن مع العسر يسرا).. إلخ. أى أن بعد كل شدة يعانيها المؤمنون الآن من فقر أو ضعف مع قوة العدو فرجًا بالخروج منها والوقاية من شرها. مادام العبد يسعى جهده فى أسباب الخروج منها وإن مع كل شدة تصادفكم فى المستقبل من جنس ما تقدم أو غيره فرجًا يزيلها حتى تنتصروا وتعلوا كلمتكم بشرط الأخذ فى أسباب إزالة تلك الشدة. والله تعالى أعلم.



المفردات: ﴿فرغت﴾: أى من عملك الخاص بك وبأهلك وأصحابك.

﴿فانصب﴾: أصل معناه فاتعب من النصب بفتح النون والصاد. وهو التعب كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، والآية (٣) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥، والمراد هنا: فاجتهد فى كل عمل يقربك من ربك. ﴿وإلى ربك فارغب﴾: أى ولا توجه رغبتك إلى غير ربك سبحانه وتعالى.

المعنى: إذا علمت أيها النبى أن مع العسر يسرا فليكن كل وقتك بعد تمام فراغك من شئون الدنيا مشغولاً دائمًا باجتهادك فى عبادة ربك وكل ما يقربك إليه سبحانه؛ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنى أكره أن أرى أحدكم فارغًا، لا فى عمل الدنيا ولا فى عمل الآخرة. ولا توجه رغبتك فى شىء إلى غيره سبحانه وتعالى: فلا تطلب عونًا إلا منه جل شأنه.

﴿سورة التين﴾

المفردات: ﴿والتين﴾: هو الشجر المعروف صاحب الورق المذكور فى الآيتين (١٩، ٢٢) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٤، ١٩٥ والآيتين (١٢٠، ١٢١) من سورة طه صفحتى ٤١٧، ٤١٨. والقسم به إشارة إلى عهد آدم كما سيأتى.

﴿والزيتون﴾: هو أيضًا الشجر المعروف. والقسم به إشارة إلى عهد نوح كما سيأتى.

﴿وطور سنين﴾: هو طور سيناء المذكور فى الآية (٥٢) من سورة مريم صفحة ٤٠١، والآية (٢٠) من سورة المؤمنون صفحة (٤٠)، والآية (٢٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧، والقسم به إشارة إلى عهد شريعة موسى عليه السلام. ﴿وهذا البلد الأمين﴾: هى مكة المكرمة. والقسم بها إشارة إلى أول عهد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ و(الأمين): أى الآمن من أهله من

(١) الإنسان. (٢) رددناه. (٣) سافلين. (٤) آمنوا. (٥) الصالحات. (٦) الحاكمين.

كل مكروه، انظر الآية (٤) من سورة قريش صفحة ٨٢٣. ﴿فى أحسن تقويم﴾: أصل التقويم: التثقيف والتعديل. وأريد به هنا أثره. وهو الاعتدال حسًا ومعنى. ﴿رددناه﴾: المراد: عاقبناه لما لم يشكر نعمة ربه عليه برده إلى أسفل سافلين. ﴿أسفل سافلين﴾: أى أسفل وأحط من المنحطين بحسب الخلقة الأصلية وهى البهائم، انظر الآية (١٦٦) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٩، ٢٢٠. ﴿غير ممنون﴾: أى مقطوع، تقدم فى الآية (٨) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠.

﴿فما يكذبك﴾: الاستفهام للتوبيخ والمعنى: أى شىء يجعلك أيها الإنسان الكافر تكذب؟

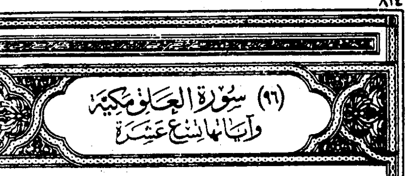
﴿أليس الله﴾: الاستفهام والنفى بعده للتقرير كما تقدم فى الآية (٦) من سورة الضحى صفحة ٨١٢. ﴿بأحكم﴾: الباء لتأكيد ربط ما بعدها بما قبلها وأحكم أى أتقن تدبيرا.

﴿الحاكمين﴾: المراد: المدبرين.

المعنى: (والتين).. إلخ. قال المرحوم الشيخ محمد عبده: أقسم سبحانه بهذه الأشياء الأربعة ليذكرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل من أول نشأته إلى بعثة خاتم الرسل صلوات الله عليه. فالتين إشارة إلى عهد أبى البشر حين كان يستظل فى الجنة بورق التين. وعندما بدت له ولزوجه سوءاتهما وصارا يضعان عليهما من ورقه. والزيتون إشارة إلى عهد نوح (آدم الصغير) عليه السلام. حين كان فى السفينة. وأراد أن يعرف هل ارتفع غضب الله على أهل الأرض. وانقطع نزول الماء. فبعد البحث رأى طيرًا يحمل ورقة زيتون خضراء فعلم أن الأرض قد ظهر بعضها. فالقسم بذلك يذكرنا وفق ما تقدم بأول من عمر الأرض بعد خرابها بالطوفان. وطور سينين إشارة إلى عهد شريعة موسى عليه السلام التى بقيت آثارها إلى عهد نبينا ﷺ وهذا البلد الأمين إشارة إلى عهد خاتم الرسل ﷺ. أقسم سبحانه بكل ما ذكر على أنه خلق الإنسان على أحسن صورة حسا ومعنى فجعله سويًا. يمشى على رجليه. ويأكل بيديه.. إلخ. وجعله صاحب عقل ساد به كل ما على وجه الأرض. ومن كان هذا شأنه يكون عارفًا وجوه الخير. ساعيًا إليها. ويعرف وجوه الشر فيبتعد عنها. ولما أفسد فطرته التى فطرنا عليها كما فى الآية (٣٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. صيرناه أحط من الحيوانات التى هى فى الأصل أحط منه عندما كان إنسانًا كاملاً. وذلك أنه لما أهمل عقله وغفل عما ينبغى لسعادة المجموع انقلب أرذل من الحيوان الذى لا يعرف كيف يتفنن فى إيصال الشر للغير إلا الذين آمنوا بمدبر الكون الذى وضع الشرائع لسعادة البشر وبأنه يجازى فاعل الخير بالخير. ويجازى غيره بما يستحق وسارعوا إلى عمل الصالحات. فهؤلاء قد حفظوا منزلتهم من الإنسانية. وحافظوا على الاعتدال الذى خلقهم الله عليه. فيجازيهم ربهم بأجر غير مقطوع فإذا كنت أيها الإنسان ترى كل ذلك فأى شىء يجعلك تكذب بالدين الذى من تعاليمه

ما علمت. وكلها تدعو لما فيه سعادة البشر. ويجب أن تقر بأن الله الذى هذا صنعه هو أتقن تدبيرًا من كل مدبر. والله تعالى أعلم.

المفردات: ﴿اقرأ باسم ربك﴾: هذا أول قرآن نزل عليه ﷺ إلى آخر آية رقم (٥). وكان ﷺ عند نزول هذه الآيات الخمس يتعبد فى غار حراء. انظر تفصيل ما حصل عند ذلك وبعده فى الحديث الطويل رقم (٣) فى كتابنا (صفوة صحيح البخارى).


(الجزء الثلاثون)
٨١٤
(٩٦) سورة العلق مكية وآياتها تسع عشرة
بسم الله الرحمن الرحيم
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا

سورة العلق

﴿خلق﴾: أى خلق سبحانه كل شىء.

﴿خلق الإنسان﴾: أعاد الفعل مع بعض أفراد المخلوقات لشرفه ولأنه المقصود بنزول هذا القرآن. ﴿علق﴾: جمع علقة وهى القطعة المتماسكة من الدم، انظر الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

﴿اقرأ﴾: أعاده ثانيًا وذلك لتأنيسه ﷺ وتأكيد أنه يسير عليه سبحانه أن يجعله قارئًا.

﴿وربك الأكرم﴾: الذى يفوق كرمه كل كريم؛ لأنه يعطى بلا مقابل وينعم حتى على من عصاه، قال أبو السعود: هذه جملة استئنافية جىء بها لإزالة ما أظهره ﷺ من العذر عن عدم القراءة بقوله ﴿ما أنا بقارئ﴾ أى أنا أمى فكيف أقرأ؟ فقيل له: اقرأ وربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم.. إلخ. والمراد: أنه لما اعتذر ﷺ بأنه لا يعرف القراءة، قال له: اقرأ وأنت واثق من أن ربك أكرم من كل كريم، فيسير عليه أن يفيض عليك نعمة القراءة، بدون معالجة أسبابها.

﴿علم بالقلم﴾: انظر كيف نقل الإسلام العرب من الأمية إلى العلم فى شرح الآية (٢) من سورة الجمعة صفحة٧٤١.

(١، ٢، ٣) الإنسان.
(٤) رآه.
(٥، ٦، ٧) أرأيت.

﴿كلا﴾: هذا الحرف يفيد هنا تنبيه السامع لما بعده لأهميته، انظر شرح الآية (٢٠) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩.

﴿الإنسان﴾: المراد غالب جنس الإنسان، فقليل منه هو الذى يشكر ولا تطغيه النعمة، انظر الآية (١٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤.

﴿يطغى﴾: أى يتجاوز حدود الله بكثرة معاصيه.

﴿أن رآه استغنى﴾: أى لأجل أنه رأى نفسه صار غنيًا.

﴿الرجعى﴾: مصدر كالبشرى. معناه: الرجوع إليه تعالى يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿أرأيت﴾: أى أخبرنى أيها السامع العاقل عن: ﴿الذى ينهى﴾: وهو أبوجهل.

﴿عبدا﴾: هو النبى ﷺ؛ أى هل هو محق فى نهيه هذا؟ ﴿أرأيت إن كان﴾.. إلخ: أى أخبرنى أيها السامع عن حال هذا الرجل، هل هو على هدى عندما منع عبدا من طاعة ربه، أو هو أمر بالتقوى عندما أمر غيره بعدم إطاعة خالقه؟ والمراد: إنه لم يكن لا هذا ولا ذاك.

﴿أرأيت إن كذب﴾.. إلخ: أى أخبرنى أيها السامع عن حاله عندما كذب رسولنا، وأعرض عن طاعة ربه، فهل يظن أنه يفلت من عقابنا؟ كلا.. ﴿ألم يعلم﴾.. إلخ: استفهام تقريرى معناه: يجب أن يقر بأنه يعلم أن الله يرى أعماله ويحصيها عليه وعبر ﴿بأن الله يرى﴾ لأن العرب تزيد الباء فى المفعول لتقوية ربط الفعل به بقوة. ومثل ذلك قوله تعالى ﴿وهزى إليك بجذع النخلة..﴾ الآية (٢٥) من سورة مريم صفحة ٣٩٨. ومثله ما فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥ والآية (٢٥) من نفس السورة صفحتى ٤٣٦، ٤٣٧.

﴿كلا﴾: حرف يفيد هنا الزجر عما قبله، أى يجب أن ينزجر.

﴿لنسفعًا﴾: تنطق فى حال الوصل: (لنسفعن): بنون التوكيد أما عند الوقوف عليها فإنها تنطق ألفا كما هى، و(السفع): القبض على الشىء وجذبه بشدة والمراد: لنقبضن على ناصيته ونرميه فى النار.

المعنى: اقرأ أيها النبى مستعينًا باسم ربك، لا باسم غيره. ربك الذى خلق كل شىء خصوصًا الإنسان المقصود بهذا الشرع. خلق أفراده من علق. ولما كانت القراءة غريبة عليه ﷺ. كرر سبحانه الأمر بها. فقال: اقرأ وليكن فى علمك أن ربك هو الأكرم من كل كريم، فيتيسر عليه سبحانه أن يفيض عليك نعمة القراءة. ثم أراد أن يزيده ﷺ اطمئنانا لهذه

الموهبة الجديدة. فوصف معطيها سبحانه وتعالى بأنه هو الذى علم بالقلم. أى جعل القلم واسطة التفاهم مع البعيد. كما أن اللسان واسطة علم للقريب، كما تقدم فى شرح الآية (٤) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩.

وبما أن القلم آلة جامدة لا حياة فيها. وجعلها سبحانه واسطة علم فمن اليسير عليه سبحانه أن يجعل لسانك مفهمًا للغير ما عندك من العلم. ثم أراد سبحانه أن يزيل شبهة استغراب القراءة من الأمى فقال: علم الإنسان.. إلخ. أى الذى أمرك بأن تكون قارئًا هو الذى علم سبحانه الإنسان جميع ما عنده من العلم بعد أن كان فى أول خلقته لا يعلم شيئًا. انظر الآية (٧٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٦. ثم بعد ما بيَّن سبحانه فضله على الإنسان أراد أن ينبه إلى جحود بعض أفراده لهذا الفضل.

وبيان ذلك أن بعض صناديد الكفر بمكة كأبى جهل حملته شدة غروره بغناه وقوته على أن يحلف: لئن رأى محمدا يصلى عند الكعبة ليطأن عنقه برجله ويعفرن وجهه الشريف بالتراب حتى يمتنع عن ذلك. فقال سبحانه فى ذلك ما معناه. تنبه أيها السامع لبشاعة صنع بعض أفراد الإنسان الذى يتجاوز الحد فى العصيان بسبب شعوره بأنه غنى يرى نفسه فوق الجميع من هم أقل منه مالا. وهذه رذيلة محطمة لبناء الجماعة، انظر شرح الآية (٨) من سورة الليل صفحة ٨١٠. ثم هدده سبحانه بأن ما بيده زائل وأنه سيموت ويرجع إليه تعالى ويحاسبه ويجازيه أشد جزاء.

ثم ذكر مثلاً من أمثلة طغيان هذا الإنسان فى أسلوب الاستغراب والتبشيع، وأعقبه بتهديده فقال: (أرأيت الذى ينهى).. إلخ، أى أخبرنى أيها السامع عن حال عقل هذا الذى ينهى عبدًا عن الصلاة. والمراد: ما أسخف عقل من يطغيه الكبر حتى يجرؤ على نهى عبد من عباد الله عن الصلاة لربه إذا رآه يصلى. أخبرنى أيها السامع عن حال هذا الرجل هل هو على هدى عندما منع عبدًا من عبادة ربه. أو هو أمر بالتقوى حينما أمر غيره بعدم طاعة خالقه؟ الجواب: كلا ثم ترقى سبحانه فذكر بشاعة أخرى فقال: (أرأيت إن كذب).. إلخ. أى كذب بما جاء به الرسول وأعرض عن الطاعة، فهل يظن أنه يفلت من عقابنا؟ هذا جهل منه. ألم يعلم بأن الله يطلع على أعماله ويحصيها عليه؟ يجب أن ينزجر هذا الطاغية وينتهى عن جرمه. والله لئن لم ينته لنقبضن على ناصيته ونقهره ونذله.

بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ[1] خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ
نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ
وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾

(٩٧) سُورَةُ القَدْرِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ[2] فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ[3] مَا لَيْلَةُ
الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ
الْمَلَائِكَةُ[4] وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾
سَلَامٌ[5] هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

المفردات: ﴿بالناصية﴾: هى شعر مقدم الرأس. وتطلق أيضًا على الجبهة.

﴿ناصية كاذبة﴾: المراد: كاذب صاحبها، كما فى (راضية) فى الآية (٢١) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

﴿خاطئة﴾: أى خاطئ صاحبها أيضا.

﴿فليدع ناديه﴾: أصل النادى: المكان الذى يجتمع فيه القوم، كما يطلق على القوم المجتمعين فيه. وهذا هو المراد هنا، والمراد: فليجمعهم عنده، وليحارب المؤمنين إن استطاع.

﴿سندع﴾: أصلها (سندعو) وحذفت الواو تخفيفا، كما فى الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥.

﴿الزبانية﴾: جمع زابن. مأخوذ من الزبن بفتح فسكون وهو الدفع بشدة. وأصل استعمال الزبانية فى الجنود أعوان الولاة. ويطلقه العرب على كل قوى شديد البطش. والمراد بهم هنا الملائكة المشار إليهم فى الآية (٦) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢.

﴿كلا﴾: كسابقتها.

﴿لا تطعه﴾: المراد: استمر على عدم طاعته فيما يريده من ترك الصلاة.

﴿واسجد﴾: أى داوم على صلاتك.

---

(١) كاذبة.
(٢) أنزلناه.
(٣) أدراك.
(٤) الملائكة.
(٥) سلام.

﴿واقترب﴾: أى أجتهد فى القرب منه سبحانه بكثرة الطاعة.

المعنى: يقول سبحانه والله لئن لم ينته هذا الطاغية عن طغيانه لنذلنه ونقهرنه لكذبه فى زعمه أن صاحب المال أعلا منزلة من الفقير ولخطئه فى تجاوزه الحد فى الطغيان.

ثم هدده بالفشل والخزى فقال: (فليدع ناديه).. إلخ. أى فليجمع أنصاره ويحارب المؤمنين إن أستطاع. وإن حدثته نفسه بذلك فقد تعرض لنقمتنا لأنا سندعو لمحاربته من جنودنا من لا طاقة له بهم فيهلكونه فلا تهتم به أيها النبى. وداوم على عدم طاعته واستمر على صلاتك، واجتهد فى كل ما يقربك من الله سبحانه وتعالى، والله أعلم.

﴿سورة القدر﴾

المفردات: ﴿أنزلناه﴾: الضمير يرجع للقرآن الذى بلغ من الشهرة واشتغال الناس به حدا جعله حاضرا فى كل ذهن. انظر نظير ذلك فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿القدر﴾. المراد به العظمة والشرف. يقال لفلان قدر عند فلان. أى شرف ومنزلة رفيعة.

﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾: تقدم المراد من هذا الاستفهام فى الآية (٣) من سورة الحاقة.

﴿خير من ألف شهر﴾: المراد: ألف خالية من ليلة مثلها. فالخير فى هذه الليلة عميم، والعمل الصالح فيها شكرا لله على نعمة إنزال القرآن الكريم الذى فيه سعادة الخلق.

﴿تنزل الملائكة﴾.. إلخ: أصلها تتنزل أى تنزل تباعا ملائكة الرحمة وكبيرهم جبريل، بإذن ربهم لهم بذلك على العابدين الشاكرين.

﴿الروح﴾: هو جبريل عليه السلام كما تقدم فى الآية (١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١. ﴿من كل أمر﴾: من بمعنى الباء أى بكل أمر.

﴿سلام هى﴾: أصل السلام هو السلامة من كل مكروه وأريد به هنا أنها سبب تام للسلامة والنجاة حتى كأنها هى السلام نفسه.

﴿حتى مطلع الفجر﴾: أى إلى وقت طلوع الفجر.

المعنى: إنا بدأنا إنزال القرآن فى ليلة الشرف والرفعة. وهل هناك شرف وعلو منزلة لزمن من الأزمان مثل شرف ليلة أنزل فيها سبحانه أجل نعمة تضىء طريق الهداية للناس كافة إلى يوم القيامة؟ ولذا قال سبحانه: وما أدراك.. إلخ. أى إن معرفة منزلة هذه الليلة باعتبار ما حصل فيها فوق مستوى قدرة البشر، ولا يعلم حقيقة شرفها إلا علام الغيوب جلة قدرته. وإنما قلنا بدأنا إنزاله لأن القول بإنزال القرآن كله فى تلك الليلة لا يستقيم إذا علمنا أن هذه السورة جاءت مخبرة عن إنزال القرآن. فلو كان المعنى إنزاله كله تكون هذه السورة ليست منه؛ لأنه لا يصح أن تكون مخبرة ومخبرًا عنها فى آن واحد. وبعدما شوق سبحانه النفوس لمحاولة إدراك فضلها، أراد أن يبين شيئًا مجملا منه فقال: ليلة القدر خير من ألف شهر. أى إن خيرها عميم، والعمل الصالح فيها - شكر الله على نعمة إنزال هذا القرآن - خير من العمل فى ليال كثيرة غيرها. ثم ذكر سبحانه ما يشعر بشىء من فضلها فقال تعالى: تنزل الملائكة.. إلخ. أى تتنزل ملائكة الرحمة وكبيرهم جبريل عليه السلام على العابدين الشاكرين فيها بأمر ربهم لهم بذلك، تنزل بكل أمر فيه خير للطائعين من التسليم عليهم والاستغفار لهم والدعاء. كما يفعل حملة العرش لهم، انظر آيات (٧، ٨، ٩) من سورة غافر صفحة ٦١٨.

وطاعة الله فى هذه الليلة فيها سبب للسلامة والنجاة من كل مخوف فى الدنيا والآخرة. ويستمر نزول الملائكة على العباد فوجًا بعد فوج إلى طلوع فجرها. ومن يعلم أنه سبحانه أمرنا بصيام شهر رمضان شكرا له على إنزال القرآن فى ليلة من لياليه كما فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٣٥، ٣٦. يعلم سبب عناية الرسول ﷺ بالبحث على قيامها، وأنه هو الشكر على هذه النعمة التى لا تساويها نعمة أخرى. وقد عرف عنه ﷺ حرصه على شكر ربه على كل نعمة حتى ما كان منها على من سبقه من إخوانه الأنبياء. فقد جاءت الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء لأن الله تعالى نجى فيه موسى عليه السلام من الغرق. فقال ﷺ. نحن أحق بموسى منهم. وأمر أصحابه بصيامه.

المفردات: ﴿أهل الكتاب﴾: المراد بهم كل من كانوا يدعون أنهم أهل كتاب وأنهم أتباع نبى من الأنبياء كاليهود، والنصارى، والصابئين، انظر الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣، والآية (٦٩) من سورة المائدة صفحة ١٥١.

(٩٨) سورة البينة مدنية وآياتها ثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ
مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ
يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا
تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ
الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ
وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والمشركين﴾: المراد بهم هنا كل من عبد غير الله كالأصنام أو النار، ولم يكن لهم كتاب.

﴿منفكين﴾: أى متروكين هملا بدون أن نرشدهم للحق، ونقيم عليهم الحجة؛ انظر الآيات ١١٥ من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦ و(٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٧ و(٣٦) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠.

﴿حتى تأتيهم البينة﴾: أى إلى أن تأتيهم الحجة والمعنى: لا نتركهم إلا بعد أن نقيم عليهم الحجة لنقطع عليهم العذر يوم القيامة، وانظر معانى البينة فى الآية (٥٧) من سورة الأنعام صفحة ١٧١.

﴿رسول من الله﴾: بيان للبينة، باعتبار ما جاء به ﷺ من القرآن المعجز، انظر آيتى (١٣٣، ١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩.

﴿يتلو صحفًا﴾: المراد: يقرأ قرآنًا يصير فيما بعد مكتوبًا فى صحف.. إلخ. ﴿مطهرة﴾: أى منزهة عن الباطل والتحريف.

﴿فيها كتب﴾: المراد من الكتب هنا: الآيات المكتوبات فى الصحف، انظر ما تقدم فى الآية (٧) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧.

﴿قيمة﴾: أى مستقيمة لا عوج فيها، انظر آيتى (١، ٢) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠.

﴿وما تفرق﴾.. إلخ: أى وما اختلفوا وصاروا شيعًا وأحزابًا، انظر الآيات (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢ و (١٠٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٠ و (١٦، ١٧، ١٨) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٢، والمراد: أن هذا هو شأنهم دائما. ﴿إلا ليعبدوا الله﴾: اللام بمعنى (أن) والمراد إلا أن يعبدوا الله.. إلخ. انظر شرح الآية (٨) من سورة الصف صفحة ٧٣٩.

(١، ٢) الكتاب. (٣) الصلاة. (٤) الزكاة. (٥) الكتاب. (٦) خالدين.

﴿حنفاء﴾: جمع حنيف، وهو البعيد عن الباطل، المائل إلى الحق: انظر شرح الآية (١٣٥) من سورة البقرة صفحة ٢٦، والآية (٣١) من سورة الحج صفحتى ٤٢٧، ٤٣٨.

﴿دين القيمة﴾: أى دين الأمة المستقيمة على طريق الحق.

المعنى: كان الناس قبل مبعث النبى ﷺ ما بين مشركين يعبدون غير الله، وأهل كتاب غلب عليهم ظلام الجهل بما يجب اعتقاده لله سبحانه، وما يجب عمله تقربا إليه، ونسوا كثيرا من شرائع أنبيائهم كما فى الآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٨ واعتمدوا فيما يعتقدون ويعملون على تقليد الآباء. وكان آباؤهم أدخلوا فى شرائعهم ما ليس منها لسوء فهم أو لاستحسان بدع يتوهمونها خدمة للدين مع أنها أشد ضررًا عليه انظر شرح الآية (١٠٤) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥. وبعملهم هذا خفى الحق فى ظلام الباطل.

• وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد تقتضى الحكمة الإلهية إرسال رسول يوضح للناس طريق الحق ويزيل منه ما وضع فيه من أشواك شوهت جماله. فى كل هذا يقول سبحانه: لم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين، أى متروكين على ما هم عليه هملا، المراد لا نتركهم إلا بعد أن تأتيهم منها حجة تبين لهم طريق الصواب، وتلك الحجة هى الرسول المؤيد بأدلة صدقه خصوصًا ما معه من القرآن الذى يتلوه عليهم. فإذا فعلنا ذلك نتركهم وشأنهم. فمن شاء فليؤمن. ومن شاء فليكفر. انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. ثم أراد سبحانه أن يوبخ أهل الكتاب - على الخصوص - على إعراضهم عن الإيمان به ﷺ فقال: (وما تفرق الذين).. إلخ.

المراد أنه لما جاءهم الرسول المؤيد بالمعجزات كان الواجب عليهم أن يهتدوا. ولكنهم لم يستفيدوا منه كما هى عادتهم السابقة مع أنبيائهم فإنهم لم يبالغوا فى التفرق إلى شيع وأحزاب إلا بعد ما جاءتهم البينة على ألسنة رسلهم. فهذا شأنهم أيضًا مع خاتم الرسل ﷺ. مع أنهم لم يؤمروا على ألسنة الرسل مطلقًا إلا بأن يعبدوا الله مخلصين له الطاعة بعيدين عن جميع العقائد الباطلة. ويقيموا الصلاة على أصولها. ويؤتوا الزكاة لمستحقيها. وهذا هو المذكور هو دين الأمة المستقيمة على طريق الصواب، ثم أراد سبحانه أن يبين حال الفريقين - الكافرين والمؤمنين - فى الآخرة فقال تعالى: (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها).. إلخ.

أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا[1] وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[2] أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ[3] عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[4] خَالِدِينَ[5] فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨

(٩٩) سورة الزلزلة مدنية وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ[6] مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ

المفردات: ﴿البرية﴾: أى الخليقة.

﴿جنات عدن﴾: أصل معنى (عدن) الإقامة، ثم استعمل اسما من أسماء الجنة؛ لأن الإقامة فيها خالدة.

﴿رضى الله عنهم﴾: فأحسن ثوابهم.

﴿ورضوا عنه﴾: أى رضوا عن جزائه لهم، وسروا به.

﴿ذلك لمن خشى ربه﴾: أى وهذا الجزاء المتقدم لا يناله إلا من خاف مقام ربه، عند كل تصرف.

المعنى: الذين كفروا ويدخلون جهنم يوم القيامة هم شر الخليقة؛ لأنهم بإهمالهم لعقولهم أوقعوا أنفسهم فى العذاب الدائم فهم أضل من الأنعام كما فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. والذين آمنوا بالله تعالى ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وعملوا الصالحات أولئك هم خير الخلائق. جزاؤهم عند ربهم بعد انتهاء الحساب يوم القيامة جنات عدن تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار خالدين فيها أبدًا. رضى الله عنهم فأحسن ثوابهم. ورضوا عن جزائه لهم. ولما كان ربما يظن قصير النظر أن مجرد الإيمان الوراثى الذى لم يقترن بالبرهان القطعى وأداء بعض العبادات كحركات الصلاة وإمساك الصوم مثلا - يظن أن مجرد ذلك يكفى فى نيل هذا الجزاء العظيم، ولو مع خلو القلوب من خشية الله تعالى التى توجب البعد عن المعاصى - لما كان ربما يظن هذا، أراد سبحانه دفع ذلك ببيان أن هذا الجزاء لا يناله إلا من ملأت خشية الله قلبه. فلا يصلى إلا خاشعًا، كما فى الآية (٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥، ولا ينفق إلا لوجه الله. ولا يقرب معصية أبدا. وإذا وقع فيها سارع إلى التوبة منها. والله الموفق.

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) جنات. (٤) الأنهار. (٥) خالدين. (٦) الإنسان.

﴿سورة الزلزلة﴾

المفردات: ﴿إذا زلزلت﴾: أى اضطربت، انظر الآية (١) من سورة الحج صفحتى ٤٣٢، ٤٣٣؛ وإذا علمت أن (إذا) هنا ظرف لزمان يوم القيامة، الممتد من النفخة الأولى إلى دخول دار الجزاء (الجنة أو النار) تعلم أن المعنى: إذا تحركت الأرض حركة عنيفة عند النفخة الأولى و﴿أخرجت﴾ أى عند النفخة الثانية.

﴿زلزالها﴾: المراد: الزلزال المخصوص بها فى تلك الحالة، وهو زلزال شديد لا يعرف مقدار شدته إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى.

﴿وأخرجت الأرض﴾: أظهر ذكر الأرض ثانيًا، ولم يكتف سبحانه بضميرها فيقول (وأخرجت أثقالها) للإشعار بأن الأرض عند إخراج ما فيها تكون على حالة مغايرة لما كانت عليه عند الزلزلة، فهى أرض أخرى، انظر (يوم تبدل الأرض).. إلخ الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧.

﴿أثقالها﴾: جمع ثقل، بكسر فسكون. والمراد ما يثقلها من كل ما فى جوفها من أموات، وكنوز، وغير ذلك. انظر الآية (٤) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩.

﴿وقال الإنسان﴾: المراد بالإنسان هنا: الكافر لأنه هو الذى يفاجأ بما كان ينكره.

﴿مالها﴾: أى شىء حصل لها؟ والمراد: التعجب من شدة الهول.

﴿تحدث أخبارها﴾: أى تحدث الناس بلسان حالها، كما فى (قالتا أتينا طائعين) الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١.

﴿بأن ربك أوحى لها﴾: الباء للسببية. أى بسبب إيحاء الله لها. أى أمره لها بأن يحصل منها ما حصل والمراد: الأمر التكوينى المشار إليه فى الآية (٨٢) من سورة يس صفحة ٥٨٦.

المعنى: إذا تحركت الأرض حركة عنيفة عند النفخة الثانية، وأخرجت الأرض كل ما فى جوفها مما كان يثقلها. ويقول الإنسان لما دهاه من المفاجأة: أى شىء حصل للأرض حتى لفظت ما فى بطنها، إذا حصل كل هذا ينادى لسان حال الأرض بما يفهم منه إن ما حدث لم يكن بسبب من الأسباب العادية المعهودة فى الدنيا. بل ذلك بسبب أن الله قال لها: كونى مضطربة مخرجة ما فى جوفك، فكان ما أمر به سبحانه.

يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ۝٦ فمن يعمل
مثقال ذرة خيرا يره ۝٧ ومن يعمل مثقال ذرة
شرا يره ۝٨

(١٠٠) سورة العاديات مكية
وآياتها إحدى عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

والعاديات ضبحا ۝١ فالموريات قدحا ۝٢
فالمغيرات صبحا ۝٣ فأثرن به نقعا ۝٤ فوسطن
به جمعا ۝٥ إن الإنسان لربه لكنود ۝٦ وإنه
على ذلك لشهيد ۝٧ وإنه لحب الخير لشديد ۝٨
* أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ۝٩ وحصل

المفردات: ﴿يصدر الناس﴾: تقول العرب: صدر فلان عن المدينة أى سافر منها وتركها وانتقل لغيرها؛ والمراد هنا: يخرجون من القبور.

﴿أشتاتا﴾: أى متفرقين، تقدم فى الآية (٦١) من سورة النور صفحتى ٤٦٨، ٤٦٩، وانظر الآية (٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ والآية (٤) من سورة القارعة صفحة ٨١٩.

﴿ليروا أعمالهم﴾: المراد ليريهم الله جزاء أعمالهم. تقول العرب: عاش فلان حتى رأى عمله. أى ثمرة عمله.

﴿مثقال ذرة﴾: تقدما فى الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧ والآية (٦١) من سورة يونس صفحتى ٢٧٥، ٢٧٦.

المعنى: فى يوم القيامة عند النفخة الثانية المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ يخرج الناس من القبور متفرقين لا يسأل أحد عن أحد من شدة الهول. ثم يساقون إلى المحشر ليريهم الله جزاء أعمالهم ثم فصل ذلك بقوله تعالى: (فمن يعمل).. إلخ. أى فمن كان عمل فى الدنيا عملا من الخير بوزن أصغر شىء فى الوجود فإنه يرى جزاء عمله لا فرق فى ذلك بين مؤمن وكافر لأن صريح نص الآية (٤٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥ يقتضى ذلك. والآيات التى تفيد بطلان عمل الكافر وعدم نفعه له المراد منها أنه لا ينفعه فى رفع الخلود فى النار. فلا يمنع أنه يخفف عنه بعض عذاب الذنوب الأخرى غير الكفر بمقتضى عدل الله سبحانه، أما الكفر نفسه فلا يخفف عنهم من عذابه شىء. ويؤيد هذا ما جاء فى الأحاديث

(١) أعمالهم.
(٢) العاديات.
(٣) فالموريات.
(٤) فالمغيرات.
(٥) الإنسان.

الصحيحة من قوله ﷺ أن حاتم الطائى يخفف عنه العذاب لكرمه وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بمولده ﷺ حتى أنه أعتق جاريته (ثويبة) عندما بشرته بذلك. وأن أبا طالب عمه ﷺ لا تمس النار إلا قدميه وإن كان يغلى منها رأسه. لتفانيه فى دفع أذى قريش عنه ﷺ. ومما يدل على أن عذاب جهنم يتفاوت ما جاء فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، والآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤، وانظر شرح الآية (٤٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩ و (٣٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ ومما يدل على انتفاع الكافر بعمل الخير ما نقلناه عن الحافظ ابن حجر فى شرح حديث رقم ٣٢٧ فى كتابنا صفوة صحيح البخارى وهو فى باب المزارعة (من زرع زرعا فيأكل منه طير أو.. إلخ إلا كان له ثواب).. إلخ ومن يعمل وزن ذرة من الشر ير جزاءه شرا، لا فرق كذلك بين مؤمن وكافر، إلا إذا تاب منه المؤمن نسأل الله تعالى السلامة.

﴿سورة العاديات﴾

المفردات: ﴿والعاديات﴾: جمع عادية. من العدو وهو الجرى. والمراد: الخيل الجاريات.

﴿ضبحا﴾: الضبح هو صوت أنفاس الخيل عند جريها، وأريد به هنا اسم الفاعل الواقع حال من العاديات، أى والعاديات حال كونها ضابحات أى مرتفعات أصوات أنفاسها.

﴿الموريات﴾: جمع مورية من الإيراء. وهو إخراج النار من الحجر بالزناد مثلا انظر الآية (٧١) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦.

﴿قدحا﴾: أصل القدح هو الضرب على الحجر لإخراج النار. والمراد: حال كونها قادحات أى ضاريات بحوافرها على حجارة الأرض فتخرج النار.

﴿المغيرات﴾: جمع مغيرة، من أغار على العدو إذا هجم عليه.

﴿صبحا﴾: أى وقت الصبح والعدو فى غفلة.

﴿أثرن﴾: الإثارة هنا هى التهييج وتحريك الغبار.

﴿نقعا﴾: أى غبارا.

﴿وسطن به جمعا﴾: (به) أى بالصبح. أى دخلن وتوسطن فى وقت الصبح داخل جمع العدو.

﴿إن الإنسان﴾: هذا أول المحلوف عليه. والمراد: أغلب أفراد الإنسان. وإلا فمَنْ عصمه الله لا يكون هكذا، انظر الآية ٢ من سورة العصر صفحة (٨٢٠). (لكنود): أى كفور. يقال فلان كند النعمة أى جحدها ولم يشكر عليها، والمراد: لكثير جحود النعمة.

﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾: أى إن أعماله تشهد بأنه كفور لنعم ربه، فهى شاهدة بلسان الحال، وهى أصدق من شاهدة اللسان، انظر نظير ذلك فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة (٢٢١) والآية (١٧) من سورة التوبة صفحة ٢٤٢.

﴿الخير﴾: المراد به هنا: المال الكثير. انظر الآية (١٨٠) من سورة البقرة صفحتى ٣٤، ٣٥.

﴿بعثر﴾: أى نثر، كما تقدم فى الآية (٤) من سورة الإنفطار صفحة ٧٩٥.

﴿حصل﴾: أى جمع من صحف الملائكة، وأبرز ما انطوت عليه الصدور من نيات حسنة أو سيئة.

المعنى: . أقسم سبحانه بالخيل التى تجرى فى سبيل الله حال كونها ضابحات من شدة الجرى. وبتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدمها للأرض الحجرية. والتى يهجم بها فرسانها على العدو فى وقت الصباح ليأخذوه على غرة. والتى يكون من شدة جريها أنها تثير غبار الطرق فى وقت الصباح. فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته. ومع ملاحظة أول شرح صفحة ٥٨٧ تعلم حكمة قسمه سبحانه بالخيل صاحبة تلك الصفات. وهى تنبيه المؤمنين للعناية بكل ما يعلمهم الكر والفر ومقاومة شر الأعداء. ليكونوا دائمًا على أهبة الاستعداد فيها بهم مَنْ تحدثه نفسه بأضعافهم، انظر الآية (٦٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٦. ثم ذكر سبحانه المحلوف عليه فقال تعالى: إن الإنسان.. إلخ. أى إن طبع الإنسان الذى يظهر فى أغلب أفراده أنه شديد الكفر لنعم ربه، فلا يؤدى حق شكرها بالإحسان إلى المحتاجين والصرف فى مصالح الأمة، وأن تصرفاته فى جمع المال والتسابق بشره عليه تشهد عليه بذلك؛ لأن الذى يتهالك على جمعه لا يسهل عليه بذله فى وجوه الخير. ثم ذكر سبحانه الباعث للإنسان غير الموفق على ذلك فقال: وإنه لحب .. إلخ. أى وأنه لشديد الحب للمال الكثير - ثم هدد سبحانه مَنْ كان هذا شأنه بقوله أفلا يعلم، أى هل جرفته الغفلة فصار لا يعلم ما سيلاقيه حين يخرج الموتى من القبور للحشر والحساب. وحين يجمع من صحف الملائكة ويبرز ما انطوت علية الصدور من النيات الحسنة والسيئة وغير ذلك؟

٨١٩

مَا فِي الصُّدُورِ ⑩ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ⑪

(١٠١) سُورَةُ القَارِعَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ⑤ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ⑩ نَارٌ حَامِيَةٌ ⑪

المفردات: ﴿يومئذ لخبير﴾: هذا كناية عن مجازاتهم على أعمالهم فى هذا اليوم. وإلا فهو سبحانه يعلم أحوالهم فى هذا اليوم وفى غيره، كما تقول مهددًا شخصا: سأعرف لك عملك هذا تريد سأجازيك؛ ومنه قوله تعالى ﴿سنكتب ما قالوا﴾ الآية (١٨١) من سورة آل عمران صفحة ٩٣ . أى سنجازى عليه لأن الكناية حصلت بمجرد النطق بها.

المعنى: إن رب هؤلاء الناس عالم بأحوالهم؛ والمراد أنه سيجازيهم فى هذا اليوم على ما عملوا. والله أعلم.

سورة القارعة

المفردات: ﴿القارعة ما القارعة﴾... إلخ: انظر المراد بهذا الأسلوب فى شرح الآيات (٣،٢،١) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

و﴿القارعة﴾: اسم من أسماء القيامة كالحاقة فى صفحة ٧٦١، والطامة فى الآية (٣٤) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠، والصاخة فى الآية (٣٣) من سورة عبس صفحة ٧٩٣، والغاشية فى الآية (١) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٤، وسميت قارعة لأنها تقرع القلوب، أى تزعجها بأهوالها.

﴿يوم﴾: هذا اليوم يبتدئ من النفخة الأولى إلى انتهاء الحساب، انظر ما تقدم فى ﴿إذا زلزلت﴾ صفحة ٨١٧.

(١) ادراك. (٣،٢) موازينه. (٤) ادراك

﴿الفراش﴾: هو الطير الصغير الذى يترامى على ضوء السراج ليلا؛ ويضرب به المثل فى الحيرة، والجهل بالعاقبة.

﴿المبثوث﴾: أى المنتشر، انظر الآية (٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ .

﴿وتكون الجبال كالعهن﴾: العهن الصوف، انظر التفصيل فى الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧.

﴿ثقلت موازينه﴾: المراد: كانت حسناته أكثر من سيئاته، فكان له عند ربه اعتبار، انظر شرح الآية (٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣.

﴿عيشة راضية﴾: تقدم فى الآية (٢١) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

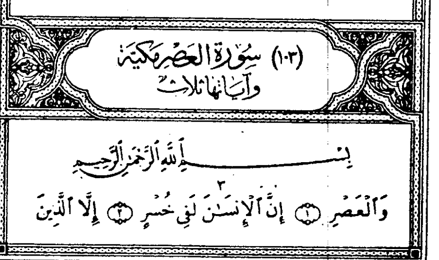
﴿خفت موازينه﴾: المراد: كانت سيئاته أكثر من حسناته فالويل لمَنْ لم تكن له حسنات.

﴿أمه﴾: المراد مرجعه الذى يأوى إليه كما يأوى الطفل إلى أمه، وهذا تهديد شديد، وأنه لن يجد مكان راحة حتى ما كان يظن أنه راحة فهو نار حامية، والكلام هنا من قبيل التهكم، كما فى قوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿هاوية﴾: هى المكان المنخفض كثيرًا الذى لا يرجع من سقط فيه. وفسرها هنا بالنار.

﴿ماهية﴾: أصلها (ما هى) والعرب تزيد هاء ساكتة على آخر الكلمة، ويسمونها هاء السكت، كما سبق فى قوله تعالى ﴿اقرءوا كتابيه﴾ فى الآية (١٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

المعنى: القارعة وما حقيقتها؟ شىء هائل. ولا شىء يدريك حقيقتها لشدة أهوالها. هذه القارعة تقرع الأسماع فى اليوم الذى يكون الناس فيه كالفراش المبثوث فى الكثرة والانتشار والاضطراب والطيش والضعف. وتكون الجبال كالصوف المنفوش فى الخفة والتطاير فى الهواء ثم الفناء. وعند عرض الخلائق على الحساب فى هذا اليوم ينقسمون إلى من رجحت كفته عند ربه فيجازيه بعيشة هنيئة يرضى عنها غاية الرضا. وإلى مَنْ سقطت قيمته عند ربه لكثرة سيئاته فيجازى بإسقاطه فى هاوية سحيقة لا يخرج منها. وتلك الهاوية هىَ نار شديدة



الالتهاب. نسأل الله تعالى السلامة.

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿ألهالكم﴾: أى شغلكم.

﴿التكاثر﴾: أى التسابق فى تكثير الأموال والأولاد والتفاخر بهما، انظر الآية (٢٠) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢.

﴿زرتم المقابر﴾: المراد: حتى متم ودفنتم فى القبور. والتعبير بالزيارة لإفادة أن المكث فى القبور قليل سيعقبه سريعا حساب ثقيل، وقال ﴿زرتم﴾ مع أن المخاطبين لازالوا أحياء جريا على عادة القرآن فى نسبة عمل الآباء لأبنائهم الذين ساروا فى طريقهم، فكأنه يقول شغلتكم الدنيا كما شغلت آباءكم الذين ماتوا. ومن ذلك خطابه سبحانه لبنى إسرائيل الذين كانوا فى عهده ﷺ بما حصل من آبائهم فى عهد موسى، انظر آيتى (٤٩، ٥٠) من سورة البقرة صفحة ١٠ وآيتى (٥٥، ٥٦) من سورة البقرة أيضًا صفحة ١١.

﴿كلا﴾: زجر لهم عما تقدم. ﴿سوف تعلمون﴾: أى بعد الموت. ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾: أى عند البعث من القبور علم مشاهدة جزاء أعمالكم.

﴿كلا﴾: كرر سبحانه زجرهم وذلك لتمكن شهوة المال من نفوسهم.

﴿لوتعلمون علم اليقين﴾: أى علمًا يقينيًا، انظر ما تقدم فى الآية (٩٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٨، وجواب ﴿لو﴾ مقدر، أى لصرفكم ذلك عن التكاثر من المتاع الزائل، ولدفعكم إلى السعى فيما به السعادة الخالدة.

﴿لترون الجحيم﴾: المعنى: والله لترون الجحيم وهى بارزة لكم. غير بعيدة، كما فى الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥ والآية (٣٦) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠.

---

(١) ألهاكم. (٢) لتسألن. (٣) الإنسان.

﴿ثم لترونها﴾: أى بعد ذلك بدخولكم فيها وذوقكم عذابها. ﴿عين اليقين﴾: أى عيانا، وانظر ما تقدم أيضًا فى الآية (٩٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٨. ﴿ثم لتسألن﴾... إلخ: ﴿ثم﴾ للترتيب الإخبارى؛ لأن السؤال فى موقف الحساب قبل رؤية جهنم.

المعنى: شغلكم أيها الضالون التسابق فى تكثير الأموال والأولاد والتباهى بهما، وصرف إلى ذلك اهتمامكم حتى غفلتم عما سيلاقيكم من المخاطر. وبقيتم فى هذه الغفلة حتى دفنتم فى القبور، انزجروا عن هذا التكالب، وإلا سوف تعلمون بعد الموت خطأكم. ثم انزجروا خيرًا لكم فسوف تعلمون عند البعث من القبور علم مشاهدة جزاء أعمالكم. لو تعلمون علمًا يقينيًا لصرفكم ذلك عن التكاثر من المتاع الزائل. ولدفعكم إلى السعى فيما فيه السعادة الخالدة. ثم أكد سبحانه ما تقدم مع تهديدهم فقال: لترون... إلخ. أى والله لترون الجحيم وهى بارزة لكم غير بعيد، كما فى الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥ والآية (٣٦) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠. ثم لترونها بعد ذلك بدخولكم فيها وذوقكم عذابها؛ ثم ختم السورة بما فيه توبيخ لهم فقال: ثم لتسألن يومئذ عن النعيم أى الذى كنتم تتكالبون عليه. هل رأيتم فيه حقوق الله. وراعيتم أحكامه فى الحصول عليه والتمتع به. فإن لم يكن كذلك كان ما تنعمتم به سببًا لأبشع شقاء فى دار البقاء. نسأل الله السلامة.

سورة العصر

المفردات: ﴿العصر﴾: المراد به عصر النبوة مدة حياته ﷺ فإنه أشرف العصور. أقسم به سبحانه لأهمية ما حصل فيه، كما أقسم بالتين والزيتون وطور سيناء لما حصل فيها. فيكون سبحانه أقسم ببلده ﷺ باعتبارين. اعتبار توبيخ الكفار على انتهاك حرمته كما فى الآية (١) من سورة البلد. واعتبار شرفه لمبعثه فيه كما فى الآية (٣) من سورة التين صفحة ٨١٣. وأقسم هنا بعصره الذى عاش فيه لأنه أشرف العصور لما فيه من إنقاذ للبشرية من الشرور وعموم الرحمة، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢.

﴿الإنسان﴾: المراد به هنا: المكلف، ﴿لفى خسر﴾: أى لفى خسران فى تجارته التى جعلها مع الشيطان انظر الآية (١٦) من سورة البقرة صفحة ٥.

المعنى: وحق عصرك أيها النبى الذى كان خيرًا وبركة على العالمين إن الإنسان لفى خسارة عظيمة فى تجارته التى جعلها مع الشيطان فيقدم له عصيان ربه لينال حظًا فانيًا فما ربحت تجارته، انظر الآية (١٦) من سورة البقرة صفحة ٥، لكنه لو تاجر مع الله كما أرشده لربح ربحًا عظيمًا، انظر الآيات من (١٠ إلى ١٣) من سورة الصف صفحتى ٧٣٩، ٧٤٠.

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ③

(١٠٤) سُورَةُ الهُمَزَةِ مَكِّيَّة وآياتها تسع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ③ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ④ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ⑥ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ⑨

المفردات: ﴿وتواصوا بالحق﴾: أى بكل ما هو حق.

﴿وتواصوا بالصبر﴾: هو من عطف الخاص على العام. وخصه بالذكر لأهميته ولأنه كما قال الحديث، نصف الإيمان. والمراد: الصبر على مشاق كل ما يرضى الله.

المعنى: والذين آمنوا بكل ما يجب الإيمان به. ومنه تصديقهم بما يجلب الخير ويبعد الشر. واعتقادهم الفرق بين الفضيلة والرذيلة وكان إيمانهم هذا حاملاً لهم على أن يعملوا الأعمال النافعة لهم ولقومهم فى الناس كافة ومن بين تلك الأعمال عملان مهمان هما أصل الفلاح، أولهما أن يوصى بعضهم بعضًا باتباع الحق وهو كل ما يقره الشرع والعقل السليم. فكل مَنْ لم يأخذ على نفسه حمل غيره على الحق المقطوع بنفعه فهو من الخاسرين بمقتضى هذا النهى الصريح. وثانيهما أن يوصى بعضهم بعضًا على الصبر على مشقة العمل الطيب. واحتمال آلام المصائب بدون جزع. ولا يمكن حمل الغير على شىء من ذلك إلا إذا كان الأمر به قائمًا بالواجب عليه، ولجلال هذه المبادئ وعموم نفعها قال الشافعى رضى الله تعالى عنه: لو لم ينزل من القرآن غير هذه السورة لكفت الناس.

سورة الهمزة

المفردات: ﴿ويل﴾: أى هلاك. ﴿همزة﴾: أى كثير الهمز، أى العيب فى غيره. والتاء فيه للمبالغة فى الصفة، كما تقول فلان ضحكة أى كثير الضحك وقد تقدم معناه فى الآية (١١) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ .

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) أدراك.

﴿لمزة﴾: أى كثير اللمز. وهو الطعن فى الغير خفية. بالإشارة باللسان أو العين مثلا، وقد يطلق على الطعن مطلقا، ولو بغير هذه الكيفية، كما فى الآية (٥٨) من سورة التوبة صفحة (٢٥٠) والآية (١١) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٦ والتاء هنا كسابقتها.

﴿جمع مالا﴾: هده إشارة إلى ما جعله يهزأ بالناس ويحط من أقدارهم ويسخر منهم، انظر الآية (١٤) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ والآية (١٢) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ .

﴿وعدده﴾: أى صار يعده المرة بعد المرة، شغفًا به وتلذذا بإحصائه. ﴿يحسب﴾: أى يظن. ﴿أخلده﴾: أى جعله خالدًا لا يموت، والمراد: عمل كعمل مَنْ لا يظن الموت. ﴿كلا﴾: زجر له عن هذا العمل؛ أى فليرتدع عن هذا الظن.

﴿لينبذن﴾: أى والله ليطرحن. ﴿فى الحطمة﴾: كثيرة التحطيم والتكسير لكل ما يلقى فيها. (وما أدراك)... إلخ: المراد من هذا التركيب تهويل الأمر وقد تقدم مثله فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١ . ﴿الموقدة﴾: أى الملتهبة التهابا شديدًا.

﴿تطلع على الأفئدة﴾: الأفئدة هى القلوب والمراد: أن هذه النار تصل إلى أعماق قلوبهم، انظر ما تقدم فى الآية (٧٢) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ . ﴿مؤصدة﴾: أى مغلقة كما تقدم فى الآية (٢٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٩ .

﴿فى عمد﴾: العمد اسم جمع، واحده عمود، كما تقدم فى الآية (٢) من سورة الرعد صفحة ٣٢٠ و﴿فى﴾: بمعنى الباء. أى مغلقة أبوابها بعمد... إلخ. ﴿ممددة﴾: المراد: طويلة لشدة إغلاقها، وإشعارهم باليأس من الخروج منها.

المعنى: . هلاك شديد لكل مَنْ يعيب غيره. أو يطعن فى عرضه أو يسْخر منه. الذى يحمله على ذلك كثرة جمعه للمال، وتلذذه بتعداده لأنه لا يرى شرفا إلا به. فكلما نظر إلى كثرة ما عنده انتفخ وظن أن كل مَنْ عداه دونه، وهو بعمله هذا يعمل عمل مَنْ يظن أن المال الكثير يخلد صاحبه فلا يموت. وبعدما هدد بالويل إجمالاً، فصل بعض تفصيل فقال تعالى: كلا... إلخ. أى فليرتدع عن هذا الظن وإلا والله ليطرحن فى النار حقيرًا ذليلاً. هذه النار التى تصل إلى أعماق القلب الذى يملؤه بحب المال وبالنيات السيئة والمقاصد الخبيثة. إن هذه النار تغلق عليهم ويوضع على أبوابها عمدان طويلة لشدة غلقها وتأكيد يأسهم من الخلاص منها، وهل هذا كناية عن عدم تمكينهم من الخروج من النار؟ أو هو حقيقة؟ الله أعلم بأحوال الآخرة. انظر الآية (٢٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ .. نسأل الله الهداية والسلامة.

(١٠٥) سُورَةُ الفِيلِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ[1] ٱلْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِى تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم
بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)

(١٠٦) سُورَةُ قُرَيْشٍ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ[2] قُرَيْشٍ (١) إِۦلَٰفِهِمْ[3] رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ

المفردات: ﴿ألم تر﴾: الاستفهام هنا للتقرير، مثل ما فى الآية (١) من سورة الشرح صفحة ٨١٢ و﴿تر﴾: أى تعلم.

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أصحاب الفيل﴾: هم قوم من الحبشة كانوا يحكمون بلاد اليمن.

﴿ألم يجعل﴾: الاستفهام كالسابق.

﴿كيدهم﴾: أى تدبيرهم السيئ.

﴿تضليل﴾: أصل مادة الضلال تفيد معنى ضياع العمل عبثًا. انظر الآية (٢٥) من سورة غافر صفحتى ٦٢١،٦٢٠ ، والمراد هنا: أنه سبحانه أبطل كيدهم.

﴿طيرًا﴾: الطير اسم لكل ما يطير سواء أكان كبيرًا أم صغيرًا، فيشمل الذباب والبعوض، وغيرهما من جنود الله المهلكة التى لا يعلمها إلا هو سبحانه.

﴿أبابيل﴾: جمع إبالة بكسر الهمزة وتشديد الباء. وأصلها حزمة الحطب الكبيرة. شبهت بها جماعات الطير فى تضامها والتصاقها، والمراد: أنها كثيرة جدا.

﴿ترميهم﴾: الأصل رمتهم ولكنه جاء بالفعل المضارع لاستحضار الصورة العجيبة.

﴿سجيل﴾: الطين المتحجر كما تقدم فى الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦ .

﴿عصف﴾: أى تبن كما تقدم فى الآية (١٢) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩ .

---

(١) بأصحاب.
(٢) لإيلاف.
(٣) إيلافهم.

المعنى: تشير هذه السورة لحادث الفيل المشهور عند العرب حتى أنهم جعلوه مبدأ تاريخ فيقولون: حدث كذا عام الفيل أو بعد عامين من عام الفيل مثلا، وهو العام الذى ولد فيه النبى ﷺ. وحاصل هذا الحادث أن قائدا حبشيًا يقال إن اسمه (أبرهة) - من قواد ملك الحبشة الذى كان متغلبًا على بلاد اليمن فى ذلك الحين - بنى كنيسة فى (صنعاء) وأراد أن يرغم العرب على الحج إليها بدل الكعبة.

ولما لم يقبل عليها أحد أراد أن يهدم الكعبة حتى لا يجد العرب غير تلك الكنيسة فجهز جيشًا كبيرًا وتوجه إلى مكة واستصحب معه فيلاً ضخمًا ليرهب به قريشًا. وسار يقهر من يلاقيه فى طريقه حتى قرب من مكة، فعسكر خارجها، وأرسل إلى أهلها يخبرهم بأنه لا يريد حربهم، وإنما جاء ليهدم الكعبة، فإذا تركوه يفعل ما يريد فإنه لا يمسهم بسوء، فخافه أهل مكة وفروا إلى الجبال.

وفى هذا الحين أصيب جيش أبرهة بما ألقى فى قلوبهم الرعب ومات منهم أكثرهم شر ميتة. وفى ذلك يقول سبحانه: ألم تر كيف... إلخ. أى ألم تعلم أيها النبى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟.

أم يجعل تدبيرهم فى ضياع فلم ينجحوا فيه؟.

ثم بيَّن كيف أضاعه فقال: فأرسل أى فسلط عليهم طيرا فرقا يتبع بعضها بعضا. حتى لا يمكنهم التحفظ منها. وكانت هذه الطير تحمل شيئًا يشبه الطين المتحجر فألقته عليهم ففتت أجسامهم حتى صارت كالتبن الذى أكلته الدواب. والله أعلم.

هل كان منشأ هلاك هذا الجيش هذه الحجارة نفسها أو ما علق بها من مخلوقات فتاكة لاتدركها الأبصار؟. فقدرة الله واسعة وما يعلم جنوده إلا هو. انظر الآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٧،٧٧٦ . وتكون العبرة أعظم كلما كان الطير أصغر، ليعتبر مَنْ يغتر بقوته. كالحبشى الذى اغتر بالفيل وضخامته. وقال بعض علماء التابعين: إن ما أصاب هذا الجيش كان مرض الجدرى.

وقال إن هذا كان أول جدرى حصل فى بلاد العرب. وكان شديدًا حتى تساقط منه لحم مَنْ أصيب به. والله تبارك وتعالى أعلم.

﴿سورة قريش﴾

المفردات: ﴿لإيلاف﴾: متعلق بآخر السورة السابقة، أى جعلهم كعصف أى مفتتين هالكين لأجل إيلاف قريش. وإيلاف مصدر آلفت الشىء بمد الهمزة إيلافا.[1] أى تعودته وأنست به فهو من الإلف والعادة.

﴿قريش﴾: اسم للقبائل العربية المتفرعة من النضر بن كنانة، انظر ما تقدم فى الآية (١٣) من سورة الحجرات صفحتى ٦٨٦، ٦٨٧.

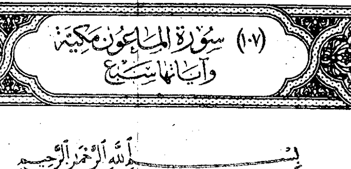
﴿إيلافهم﴾: بدل من إيلاف الأولى وإنما جاء به مطلقًا بدون تقييد أولاً لتشويق النفوس للقيد الذى سيذكره بعد ذلك فى المرة الثانية.

فإذا ذكر بعد ذلك كان أوقع وهذا القيد هو قوله: ﴿رحلة الشتاء﴾ ... إلخ.

و﴿رحلة الشتاء﴾: كانت إلى اليمن للتجارة.

المعنى: كانت لقريش رحلتان. رحلة لليمن فى فصل الشتاء، والأخرى للشام فى فصل الصيف. يجلب تجارها فيهما الأقوات لأن مكة ليست بلاد زرع ولا صناعة مشهورة، ولأنهم خدام بيت الله، كانت قوافلهم معروفة عند العرب محترمة فى نفوسهم. فكانوا آمنين فى أسفارهم، على الرغم مما كان شائعًا عند العرب من كثرة النهب والسلب. فكان للبيت واحترامه فضل عليهم فى أمنهم وفى أسفارهم حتى ألفوا تلك الأسفار، ولم ينفروا منها كبقية العرب.

وسخر الله لهم حادث الفيل فزاد من احترام العرب لهم. لكل هذا قال سبحانه: (لإيلاف قريش)... إلخ. أى أهلك سبحانه جيش الحبشة لأجل دوام إلف قريش رحلة الشتاء وزيادة اطمئنانهم باحترام العرب جميعًا لهم.


وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم[1] مِّنْ خَوْفٍ ۝

(١٠٧) سُورَةُ الْمَاعُونِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سَبْعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ[2] الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝

المفردات: ﴿والصيف﴾: أى إلى الشام للتجارة أيضًا.

المعنى: فعل ربك ما فعل بأصحاب الفيل لأجل زيادة احترام الناس لقريش خدام بيته فيزيد إلفهم وأنسهم لرحلتهم شتاءً وصيفا التى بها يرزقون قوتهم ويربحون فى تجارتهم. وإذا كان هذا من فعل رب البيت الذى كان سبب أمنهم فيجب عليهم أن يعبدوه وحده لأنه هو الذى أطعمهم فأنقذهم من جوع مهلك وأمنهم من خوف مقلق فى وسط قبائل مشهورة بالسلب والنهب، انظر الآية (٦٧) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠

سورة الماعون

المفردات: ﴿أرأيت الذى يكذب﴾: الاستفهام هنا مقصود به حمل المخاطب على التعجب من صنع هذا المكذب، مع وضوح الأدلة على صحة هذا الدين. والرؤية هنا بمعنى المعرفة.

﴿بالدين﴾: المراد به هنا: كل العقائد والتعاليم التى جاء بها الرسول ﷺ. وفى مقدمتها أنه سيأتى يوم يحاسب فيه الله عباده على أعمالهم، ويجازيهم عليها.

﴿يدع اليتيم﴾: أى يطرده بجفوة وخشونة، ويزداد قبح ذلك إذا كان هذا الطرد لمنع حق من حقوقه، انظر الآية (١٣) من سورة الطور صفحة ٦٩٧.

﴿ولا يحض﴾: أى لا يحث غيره. ﴿على طعام﴾: أى على إطعام. ﴿فويل للمصلين﴾: أى هلاك وعذاب شديد لهم.

﴿ساهون﴾: أى غافلة قلوبهم عما يقولونه ويفعلونه فى الصلاة حتى صارت خالية من الخشوع. فحرموا الفوز انظر آيتى (٢،١) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥، وإذا كان هذا هو جزاء المصلى الساهى. فالويل الأشد للتارك كليًا. نسأل الله السلامة.

(١) وآمنهم. (٢) أرأيت.

﴿يراءون﴾: أصل معنى المرائى: هو الذى يعمل أمام الناس يرونه وهو يعلم أنهم يرونه، والمراد: الذين يتظاهرون بأنهم محسنون ليمدحهم الناس لا لطلب رضاء الله سبحانه.

﴿الماعون﴾: هو كل ما يستعان به فى فك كربة، أو قضاء حاجة.

المعنى: هل عرفت أيها السامع مَنْ هو المكذب بالدين فلم يعمل له حسابا، إن لم تكن عرفته فاسمع أعرفه لك، هو الذى يدع اليتيم. أى أن من علاماته أنه يجفو على اليتيم إذا طلب منه شيئًا احتقارا له لأنه فقد النصير. وليس له مجير. ومَنْ يفعل هذا مع اليتيم لضعفه يستهين بكل ضعيف ويحتقر كل محتاج. ومن علاماته أيضًا أنه فضلا عن بخله على المحتاج فإنه لا يحث غيره على الإحسان إليه. والكلام توبيخ له على البخل بأسلوب بليغ. أى أنه كان الواجب عليه أن لا يكتفى بأن يكون محسنًا بل عليه أيضًا أن يرغب غيره فيه. ولما كانت هذه الصفات القبيحة من أظهر علامات الشخص الذى لا يخاف الله حذر منها سبحانه فى القرآن بأساليب مختلفة، انظر الآيتين (٣٣، ٣٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣، والآيات من (٤٢ إلى ٥٣) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٧، ٧٧٨ والآيتين (١٧، ١٨) من سورة الفجر، ولما كان من آثار الصلاة الصحيحة أنها تنهى صاحبها عن المنكر كما فى الآية (٤٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧ يسهل علينا أن نعلم أن الذى لا تنهاه صلاته عن إيذاء اليتيم والبخل على المسكين لم يصل الصلاة المطلوبة بينما أجهد نفسه فى حركات وأقوال جوفاء لم تصل إلى أعماق نفسه، ولذا قال سبحانه: (فويل للمصلين)... إلخ. أى إذا علمت أن الكذب بالدين هو الذى أقفر قلبه من الرحمة بالضعيف والمكرمة مع المحتاج فاعلم أن الله قدر الهلاك للمصلين الذين يقومون بحركات وقلوبهم غافلة عما يقولون ويفعلون. وعن الحكمة التى أرادها الله منها. فصلاتهم شبح لا روح فيه. لا تجلب خيرًا ولا تدفع شرا. لذلك تراهم يراءون الناس ولا يشعرون بروح العبادة. ويمنعون كل مساعدة للغير ما دام ليس فيها نفع لهم فى الدنيا، وإذا كان هذا هو عقاب الله للمصلى الساهى فى صلاته فياهول مَنْ تركها وأغلق دونها قلبه ومنع منها جوارحه. وبعد علمنا أن من علامات المصدق بالدين الرحمة وبذل المعونة. فإنه يجب على كل مسلم قرأ هذه السورة أن ينظر نفسه فى أى الفريقين؟ ليبتعد عن الخطر، ويستزيد من الخير، ويشكر الله عليه، وإلا كان ممَنْ يصدق عليهم قوله سبحانه فى أشقى الناس ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ الآية (٢٤) من سورة محمد صفحة ٦٧٦ نسأل الله السلامة..

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٠٨) سُورَةُ الكَوْثَرِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ (٣)

(١٠٩) سُورَةُ الكَافِرُونَ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سِتٌّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ (٦)

المفردات: ﴿الكوثر﴾: هذا اللفظ من صيغ المبالغة فى الكثرة، ومعناها الخير البالغ النهاية فى الكثرة.

﴿فصل لربك﴾.. إلخ: المراد لا تصل إلا لربك ولا تنحر إلا له. والحصر فى اللغة العربية تارة يفهم بذكر الأداة الدالة عليه كما فى قوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ الآية (١١٠) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥، و﴿لا إله إلا الله﴾، وتارة يفهم بلفظ يذكر بعد الجملة المراد منها الحصر كما فى قوله تعالى ﴿لا شريك له﴾ بعد قوله تعالى ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾ الآيتين (١٦٢، ١٦٣) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، وتارة يفهم من مقام الكلام كما هنا وكما فى قوله تعالى ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ أى اعبده وحده الآية (٩٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٥.

وكقوله سبحانه ﴿قد أفلح مَنْ تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾ الآيتين (١٤، ١٥) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤ أى صلى لله وحده.

وكقوله ﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أى لله وحده، الآية (١٣٢) من سورة طه صفحة ٤١٩.

﴿شانئك﴾: أى مبغضك.

(١) أعطيناك.
(٢) الكافرون.
(٣، ٤) عابدون.

﴿الأبتر﴾: المراد: المنقطع الذكر الحسن، فلا ينافى أن بعضهم بقى له الذكر السيىء وهو خالد معهم حتى فى جهنم، انظر الآيات (١٦١، ١٦٢) من سورة البقرة صفحة ٣١ و(٥٠، ٥١) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠ و (١) من سورة المسد صفحة ٨٢٥ .

المعنى: اشتملت هذه السورة على ثلاث آيات، ردت كل آية منها على مشركى مكة ما صدر عنهم من قول زائف، وعمل باطل، فقد كانوا إذا رأوا فقر المسلمين وضعفهم يظهرون الاستخفاف بهم ليوهموا الناس أن الفقر والضعف دليل على بطلان دين محمد ﷺ؛ لأنه لو كان رسول الله حقا لجعله غنيا فيغدق على أصحابه كما فى آيتى (٧، ٨) من سورة الفرقان صفحة٤٧١ .

ولما كان بعض الضعفاء من قريبى العهد بالإسلام ربما تمر بنفوسهم بعض خواطر السوء خصوصًا عندما تشتد عليهم حلقات الضيق ويكثر تضليل المشركين، لما كان كل هذا أراد سبحانه أن يطهر قلوب المؤمنين من وساوس الشيطان، ويغيظ الكافرين فأخبر نبيه عليه الصلاة والسلام خبرًا مؤكدًا بأنه هو صاحب الخير الكثير فى الدنيا والآخرة، فقال تعالى: (إنا أعطيناك)... إلخ. أى إنا قضينا بإعطائك الخير الذى لا تجد له غاية من سعادة الدنيا بالنصر، والذكر الذائع، والصيت الرفيع، وسعادة الآخرة من كل وجه، انظر شرح آيتى (٤، ٥) من سورة الضحى صفحة ٨١٢ .

ولما كان مشركو مكة يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله وينحرون ذبائحهم باسمها فقد ردت الآية الثانية عليهم إلى أنه بعد ما أعطاه الله هذا الخير الكثير فإنه يجب عليه الشكر على ذلك، وأفضل الشكر إخلاص العبادة لله وحده وعدم التوسل إليه بشىء كما كان يفعل المشركون، فقال تعالى: (فصل لربك).. إلخ. أى اجعل صلاتك لربك وحده، وانحر ذبيحتك له وحده وباسمه، ولا تفعل كما يفعل كفار قومك من التوسل بالأصنام والذبح لها، انظر الآيات من (١٦١ إلى ١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ ، و (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥ .

ولما كان المستهزئون من كفار قريش كالعاص بن وائل وأبى لهب وغيرهما إذا رأوا أبناء النبى ﷺ الذكور وهما القاسم وعبدالله الملقب بالطاهر يموتان وهما صغيران

يقولون: بتر محمد، أى قطع نسله، فلن يبقى له مَنْ يحى ذكره، لاعتقادهم أن الذى يبقى ذكر الرجل هم أبناؤه، وكانوا يصورون لضعاف العقول أن ذلك عيب من عيوبه ﷺ لينفروا الناس من أتباعه، ردت عليهم الآية الثالثة ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ أى إن عدوك هو الخائب المقطوع الذكر.

سورة الكافرون

المفردات: ﴿ماتعبدون﴾: ﴿ما﴾ اسم موصول بمعنى الذى. أى الإله الباطل الذى تعبدونه.

﴿ما أعبد﴾: أى الإله الحق الذى أعبده أنا. والله سبحانه وتعالى يصح أن يعبر عنه بـ ﴿مَنْ﴾ كما فى الآية (١٦) من سورة الملك صفحتى ٧٥٥، ٧٥٦، وأن يعبر عنه أيضًا بـ ﴿ما﴾ كما هنا، وكما فى الآيات (١٣٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٥، ٢٦ و (٥، ٦، ٧) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩ .

﴿ما عبدتم﴾: ﴿ما﴾ هذه مصدرية تجعل ما بعدها فى معنى المصدر. أى ولا أنا عابد عبادتكم الباطلة، وكذا ﴿ما﴾ التى بعدها.

المعنى: تقدم فى شرح الآية (٦٤) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ سبب نزول هذه السورة وأمثالها، وهو طمع كفار قريش فى تحويله ﷺ عما هو عليه، فقطع سبحانه أطماعهم بقوله لنبيه: قل يأيها الكافرون... إلخ. أى لا أعبد الإله الذى تزعمون أنكم تعبدونه لأنه فى تصوركم يتوسل إليه بالأصنام كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦ ويستشفع إليه بها كما فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ . ويتخذ ولدا كما فى (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣ فإذا تحولتم عن هذا المعبود الذى تصورتموه ورجعتم إلى الإله الحق فإنى معكم. ولا أنتم عابدون لشدة عنادكم الإله الذى أعبده أنا الذى لا يقبل شفاعة إلا من الأتقياء فيمن يرضى عنهم. وهذا الإله أنتم لا تعبدونه، بل تعصونه وتخالفون أمره، وتعبدون إلهًا خياليًا لا وجود له، ثم أكد البعد عنهم والبراءة منهم بقوله: ولا أنا عابد عبادتكم الباطلة. ولا أنتم عابدون عبادتى الصحيحة، أى فلا معبودنا واحد. ولا عبادتنا واحدة. فلكم وحدكم دينكم، لايتعداكم شره إلى غيركم، ولا دينى - أى لا يصلكم خيره. أى إنى برىء منكم، وأنتم بريئون منى، انظر الآية (٤١) من سورة يونس صفحة ٢٧٣ والآية (٢١٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣ .

سورة النصر

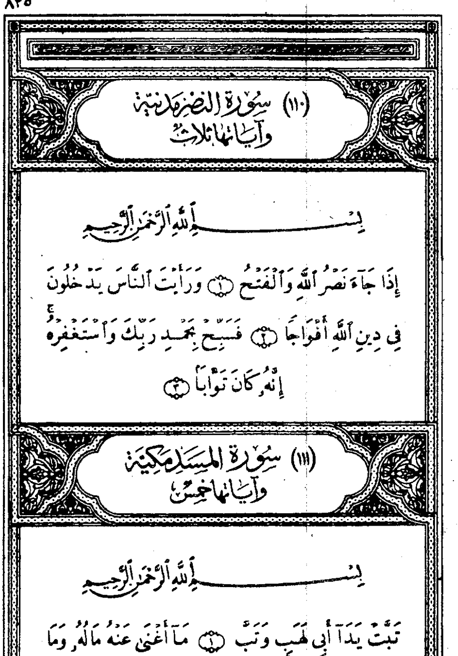
بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿نصر الله﴾: أى لك أيها النبى ولدينه وللمؤمنين على أعدائكم.

﴿والفتح﴾: هو فتح مكة.

﴿أفواجًا﴾: أى جماعات كثيرة.

﴿واستغفره﴾: مما كان يضيق به صدرك، ويشتد له حزنك من شدة إيذاء قومك، وعدم إيمانهم، انظر الآيات (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧ و (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤ و(١٢) من سورة هود صفحة ٢٨٥ و (٨،٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧١، ٥٧٢ وانظر ما تقدم فى الآية (١٩) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٥، والآية (٢) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨ .



المعنى: إذا جاء نصر الله لك أيها النبى على أعدائك. وفتحت لك مكة المكرمة التى أخرجك منها أعداؤك. ورأيت الناس يدخلون فى دين الله الحق الذى جئت به حال كونهم طوائف كثيرة كأهل مكة جميعًا وأهل الطائف وهم أقوى العرب. وكذا سائر القبائل حتى الذين فى اليمن. فسبح بحمد ربك شكرًا له، واستغفره أنت والمؤمنون معك مما يكون قد يجول فى نفوسهم من استبطاء نصر الله، وتوبوا إليه من هذه الهفوات فهو يقبلها منكم لأنه كثير القبول للتوبة.

سورة المسد

﴿تبت يدا﴾: التب والتباب والتتبيب كلها بمعنى الخسران والهلاك، انظر الآية (١٠١) من سورة هود صفحة ٢٩٩ والآية (٣٧) من سورة غافر صفحتى ٦٢٢، ٦٢٣، والعرب تقول: تبت يدا فلان أى خسر وهلك، كما فى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، أى لا تعرضوا أنفسكم لها، انظر الآية (١٩٥) من سورة البقرة صفحة ٣٨ . وقوله تعالى ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ الآية (١٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٤، والجملة دعاء على أبى لهب لقنه سبحانه للمؤمنين ليقولوه إلى يوم القيامة.

﴿أبى لهب﴾: هو عبدالعزى بن عبدالمطلب، عم النبى ﷺ، وكان أشد الناس عداء له ﷺ، وكنى بأبى لهب لشدة احمرار وجهه فذكره سبحانه بهذه الكنية تهكما به، كما تهكم بأحد زعماء الكفر فى الآية (٤٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩ .

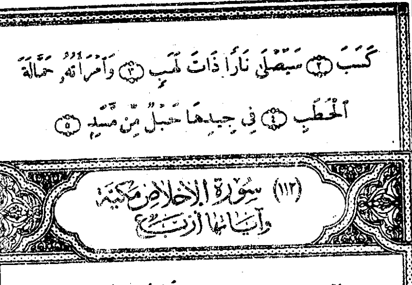
﴿وتب﴾: الواو حرف عطف.

و﴿تب﴾: أى هلك وهذا إخبار منه سبحانه بأن هلاكه مقطوع به، حتى كأنه قد حصل.

﴿ما أغنى عنه ماله﴾: أى لم ينفعه ما جمعه من المال شيئًا.

المعنى: روى البخارى وغيره أنه لما نزل عليه ﷺ قول الله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الآية (٢١٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣ . وقف ﷺ على جبل الصفا ونادى بأعلى صوته، يا معشر قريش فلما حضروا قال: أرأيتم لو أخبرتكم الآن أن عدوا يريد أن يغير عليكم هل تصدقونى أم لا، فقالوا جميعًا: نصدقك. والله ما جربنا عليك كذبا، فقال: إنى رسول الله إليكم أحذركم من الشرك به. فانصرفوا عنه فى سكون إلا أبا جهل فإنه قال: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله قوله: (تبت يدا أبى لهب).. إلخ. أى اطلبوا منى أيها المؤمنون أن أهلكه وقد قضيت بهلاكه. وسيحصل قطعًا.

وقد تحقق الوعد الإلهى، وأصيب أبو لهب بورم يشبه الطاعون، فلما مات به خشى الناس القرب منه حذر العدوى حتى كادوا يهملون دفنه. ثم واروه التراب بطريقة مهينة. وكان ذلك بعد غزوة بدر بسبع ليال. وما نفعه ماله الذى كان يفخر به وينفقه فى محاربة النبى ﷺ.



(الجزء الثلاثون) ٨٢٦

كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝

(١١٢) سُورَةُ الإِخْلَاصِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا أَرْبَع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

(١١٣) سُورَةُ الفَلَقِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا خَمْس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ

المفردات: ﴿وما كسب﴾: أى لم ينفعه ما كسبه من الأعمال السيئة فى محاربته ﷺ، بل باءت كلها بالفشل، انظر الآية (٣٦) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢ .

﴿سيصلى نارا﴾: أى سيدخلها ليحترق بها. ﴿ذات لهب﴾: أى صاحبة توقد وشدة حرارة.

﴿وامرأته﴾: أى ستصلاها أيضًا زوجته واسمها ﴿أروى بنت حرب﴾ أخت أبى سفيان وهى عمة معاوية وكانت تكنى أم جميل، ولأنها كانت عوراء، قال ابن العربى: هى العوراء، أم قبيح.. وكانت من سادات نساء قريش، وكانت تشجع زوجها على الكفر، ومحاربة النبى ﷺ، والوقوف فى وجه دعوته، وبلغ من كرهها له صلوات الله تعالى وسلامه عليه، أنها كانت تضع القاذورات فى طريقه، وهو ﷺ، ذاهب إلى الكعبة.

﴿حمالة الحطب﴾: حمالة منصوب بفعل مقدر مفهوم من السياق يشعر بذمها، والأصل أقصد بهذه المرأة الشقية حمالة الحطب... إلخ.

﴿وحمالة الحطب﴾: كناية عن أنها كانت تمشى بين الناس بالنميمة والوشاية توقد نار الفتنة والعداوة بين الناس، انظر الآية (٦٤) من سورة المائدة صفحتى ١٤٩، ١٥٠ . ﴿فى جيدها﴾: أى فى عنقها.

﴿حبل من مسد﴾: هو ما فتل من الحبال فتلا شديدا ويكون من الليف وغيره، والمراد من جملة ﴿فى جيدها حبل من مسد﴾: تقوية الكناية السابقة، وإظهارها بصورة مستبشعة، انظر نظير ذلك فى الآية (٣٠) وما بعدها من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ .

المعنى: ولم ينفع أبا لهب ما كسبه من أعماله الشريرة طول حياته فى إبطال نشر الإسلام بل باءت كل مساعيه بالفشل. ثم هدده سبحانه مصيره النهائى فقال: سيصلى نارا ذات لهب أى شديدة التوقد والحرارة، ستصلاها معه زوجته. أقصد بهذه الخبيثة حمالة النميمة والوشاية توقد بها نار العداوة بين الناس. وتحرق بها ما بينهم من الروابط. ولزيادة تبشيع صورتها قال تعالى: (فى جيدها)... إلخ. والمراد والله أعلم أنها فى تكليف نفسها المشقة للإفساد بمنزلة مَنْ يحمل على ظهره حطبا مشدودًا فى عنقه بحبل خشن. والمراد: لم كل هذا العناء؟ ويا ليتها صرفته فى صالح الناس.. ومن إعجاز القرآن أنه أخبر قبل موت أبى لهب وامرأته بأنهما من أصحاب جهنم، وكان يمكن أن يؤمنا، ولكنهما ماتا على الكفر فدخلا جهنم فعلاً، وصدق الله العظيم.

سورة الإخلاص

المفردات: ﴿أحد﴾: أى واحد فى ذاته وصفاته، وأفعاله، ليس أجزاء ولا ثان أما الواحد فإنه يقال له ليس له ثان ولذا لا يقال أحد فى الإثبات لغير الله فلا يقال محمد أحد فى الدار، وإنما يقال واحد فى الدار أى ليس معه ثان فيها. والمراد: منفرد بتصريف العالم. ﴿الصمد﴾: هو السيد الأعلى الذى لايقصد فى قضاء الحوائج غيره. ﴿كفوا﴾: أى مكافئا ومماثلاً.

المعنى: قل أيها النبى وعلم أمتك أن تقول: الله هو الواحد فى كل صفات الكمال. وهو المقصود وحده فى قضاء كل ما يحتاجه المخلوق. فلا يصح التوجه فيما وراء الأسباب إلى غيره. وهو الذى لم يلد ولدا لأنه غنى عنه. ولم يلده أب لأنه قديم أزلى. والمولود حادث. والنتيجة أنه ليس له نظير أبدًا. كما قال سبحانه عن نفسه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير. الآية (١١) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

سورة الفلق

المفردات: ﴿الفلق﴾: هو الصبح الذى يفلق ضوءه ظلمة الليل.

المعنى: قل أيها النبى أعوذ وأتحصن برب الصبح الذى يزيل الظلام، فيفرج كرب الأنام، أى ومَنْ قدر على ذلك يقدر على أن يحفظك من شر كل مخلوق.

غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ[1] ④
وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

(١١٤) سُورَةُ النَّاسِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا سِتّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ④ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ⑤ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ⑥

المفردات: ﴿غاسق﴾: أصل معنى الغَسَق بفتح فسكون ﴿السيل﴾: يقال غسقت العين إذا سال دمعها، والمراد من الغاسق هنا الليل إذا جرت ظلمته فى الكون. ﴿وقب﴾: أى دخل دخولاً محمقًا. ﴿النفاثات فى العقد﴾: العقد جمع عقدة، وهى فى الحبل معروفة، وتستعمل العقدة مجازا فى كل علاقة بين اثنين أحكم ربطهـا . كـالرباط الذى بين زوجين، انظر الآية (٢٣٥) من سورة البقرة صفحة ٤٨ . والنفث هو: النفخ الخفيف، وقد يكون معـه رشاش من ريق الفم. والنفاثات جمع نفاثة، النفاثة من صيغ المبالغة كالعلامة بتشديد اللام، الفهامة يستعمل فى الذكر والأنثى: أى كثير العلم والفهم؛ وفسر بعضهم النفاثات بالنفوس الشريرة التى تعالج السحر لتفسد به بين الناس ويفسرها آخرون بالنفوس النمامة التى تقطع روابط الألفة بين الناس بالنميمة.

﴿حاسد﴾: هو الذى يتمنى زوال نعمة المحسود.

﴿إذا حسد﴾: إذا نفذ مقتضى حسده بالسعى فى إزالة نعمة المحسود.

المعنى: تحصن بالله واطلب منه الحماية من شر الليل إذا دخلت ظلمته. فإن هذا الوقت يحرك فى النفوس الشريرة عوامل الفساد لسهولة استتارها بلباس الليل. فقد يؤخذ البرىء من حيث لا يدرى. أو يسلب متاعه إلى غير ذلك. وأعوذ برب الفلق، أى من شر نوع آخر من أنواع النفوس الشريرة وهى التى تسلك للشر طريقًا خبيثًا تفسد به الروابط، وتقطع العلائق. فيحل العداء بين الناس محل الصفاء. ومن شر نوع ثالث ملأ قلبه الحقد وكراهة نعمة الله على غيره. فصرف همه فى زوالها. نسأل الله تعالى السلامة.

---

(١) النفاثات.

سورة الناس

المفردات: ﴿ملك الناس﴾: أى حاكمهم ومدبر أمورهم. ﴿الوسواس﴾: أصل الوسوسة الصوت الخفى، والوسواس الذى يوسوس كثيرًا، بوزن الثرثار الذى يتكلم كثيرًا، والمراد: الذى يدس الشرور فى النفوس، ويغرى عليها بطرق خفية.

﴿الخناس﴾: الذى من عادته أن يخنس أى يختفى، ويرجع كلما رأى مانعًا، انظر المادة فى الآية (١٥) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤ .

﴿يوسوس فى صدور الناس﴾: المراد يلقى فى قلوبهم بأسلوب ماكر قد لا يشعرون به.

﴿من الجنة والناس﴾: ﴿من﴾ بيانية لما بعدها بيانٌ للوسواس. والجنة أصلها كل ما استتر عن العيون، ويطلق على الملائكة كما فى الآية (١٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦، وعلى الجن المعروف كما فى الآية (١١٩) من سورة هود صفحة ٣٠١ .

المعنى: قل أيها النبى وعلم أمتك أن تقول: أعوذ أى أتحصن وأطلب الحماية من خالق الناس ، وحاكمهم ومدبر أمورهم ومعبودهم الحق. من شر نوع آخر من الخلق وهو الذى يدس الشرور ويغرى على المفاسد بطرق خفية. وقد يلبس فاعل ذلك ثوب الناصح للتغرير والتضليل. ولهذا إذا أدرك أن الموسوس له يتيقظ لمكره سرعان ما يختفى وراء معاذير أخرى أو يتوارى نهائيًا فيرجع خائبا. وهذا النوع المفسد تارة يكون من العالم الخفى الذى ترى أثره ولا تراه وتارة يكون من الناس الظاهرين للعيان. ومثل هذا النوع الشرير لا يفترس إلا مَنْ كان غارقًا فى لجج الغفلة عن الله سبحانه. أما العبد المتيقظ فإنه إذا أحس بخطر هذا النوع فإنه يسرع إلى حماية ربه يتحصن بها، فيحفظه ويقيه شرهم. وهو سبحانه خير الحافظين وملجأ اللاجئين.

سبحانك ربى لا أحصى ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك. سبحانك ربى ما أكرم نعمتك على عبادك المفرطين. وما أوسع رحمتك بعبادك المذنبين. نتوجه إليك ضارعين أنا تعيذنا من وساوس الشيطان الرجيم ومكايده. وأن توفقنا لدوام مدارسة كتابك الكريم بفهم أسراره. فهو متعة أرواح المؤمنين. وريحانة نفوس المتقين. واجعل ياربى عملنا هذا خالصًا لوجهك الكريم. يا نعم المولى ويا نعم المجيب.

وقد كان الفراغ من هذا العمل المتواضع بالقاهرة عاصمة الديار المصرية فى صبيحة غرة شهر الله المحرم أول سنة سبع وسبعين بعد الثلثمائة والألف من هجرة خاتم النبيين ﷺ وعلى آله وصحبه الأبرار وسلم إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.

خاتمة الطبعة الثالثة

طبعت الطبعة الأولى من هذا التفسير عام ١٩٥٧م ونفدت بالكامل ولقد شهدت هذه الطبعة عدة إضافات وتعديلات وزيادة فى الشرح والتحليل سواء فى شرح المفردات أو المعنى الكلى للآيات. وقد انتهى فضيلته من هذه التعديلات قبل لقاء ربه بعامين وكان الفضل بعد المولى عز وجل فى إخراج هذه الطبعة كوكبة من العلماء الأفاضل الذين يجب علينا أن نقدم لهم عظيم الشكر والعرفان ونخص بالذكر الأستاذ الدكتور محمد هداية الذى قام متطوعا بإضافة التعديلات والإضافات التى أعدها فضيلته والتى استغرقت أكثر من عشر سنوات، وفضيلة الشيخ محمد عبدالجليل عيسى الذى تولى المراجعة للتحقق من كافة التعديلات والإضافات.

كما نتقدم بأطيب آيات الشكر لفضيلة المرحوم الإمام محمد متولى الشعراوى الذى قدم لنا صادق العون والمشورة والتى كان لها عظيم الأثر فى خروج هذا العمل بهذه الصورة.

شكر لجنة المراجعة بالأزهر

نتقدم بوافر الشكر لفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، وفضيلة الشيخ مدير عام الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة، والسادة العلماء الأفاضل الذين قاموا بالمراجعة.

شكر الهيئة المصرية العامة للكتاب

نتقدم بوافر الشكر والتقدير للهيئة المصرية العامة للكتاب ونخص بالشكر السيد الأستاذ الدكتور ناصر الأنصارى رئيس الهيئة والسيد الأستاذ الدكتور وحيد عبدالمجيد نائب رئيس الهيئة. والسادة المراجعين الذين بذلوا جهودا صادقة حتى يخرج هذا العمل بهذه الصورة

الرائعة مؤكدين هدف الهيئة السامى بنشر الثقافة الدينية ميسرة للعامة - بجانب الثقافة التاريخية والأدبية والفنية.

أهم مميزات هذا التفسير

١ - إعانة القارئ العادى على قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة

٢ - اليسر والسهولة ووضوح الأسلوب فى إيصال المعنى للقارئ.

٣ - البعد عن القصص والإسرائيليات.

٤ - البعد عن التعمق فى المسائل النحوية والبلاغية والفقهية وغير ذلك مما يخرج التفسير عن جوهره.

وأجد أنه من الضرورى أن أشير هنا إلي قيام الدكتور أحمد عشماوى زيدان المدرس بكلية أصول الدين (جامعة الأزهر - المنوفية) بإعداد رسالة دكتوراه فى منهج الشيخين: عبدالجليل عيسى وحسنين مخلوف فى تفسيرهما للقرآن الكريم.

وقد نال درجة الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى بتاريخ ١١ سبتمبر ٢٠٠٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف فى سطور:

نبذة مختصرة عن السيرة الذاتية للمرحوم - بإذن الله - فضيلة الأستاذ الشيخ/ عبدالجليل عيسى أبو النصر شيخ كليتى اللغة العربية وأصول الدين بالأزهر الشريف سابقا وعضو مجمع البحوث الإسلامية

- ولد فضيلته بقرية الرملة التابعة لمركز الخادمية بمحافظة كفر الشيخ فى سنة ١٨٨٨ ميلادية.
- حفظ القرآن الكريم بكُتَّاب القرية، ثم التحق بمعهد الجامع الأحمدى بطنطا سنة ١٩٠٣.
- ثم التحق بالجامع الأزهر حيث نال شهادة العالمية ١٩١٤.
- ثم عُيِّن مدرسا بمعهد أسيوط ثم مدرسا بالقسم الثانوى بالأزهر الشريف سنة ١٩٢٣.
- ثم عُيِّن مدرسا بمعهد دمياط سنة ١٩٢٥.
- ثم عُيِّن مدرسا بالقسم العالى بالأزهر الشريف سنة ١٩٢٦.
- أحيل للمعاش بالأمر الملكى سنة ١٩٣١ مع جمهرة من علماء الأزهر لمواقفهم الوطنية احتجاجا على قيام سلطات الاحتلال الإيطالى بليبيا بإعدام المجاهد عمر المختار.
- أعيد إلى العمل سنة ١٩٣٥ مدرسا بكلية الشريعة بالأزهر فى عهد المرحوم الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى.
- ثم عُيِّن فى نفس العام سنة ١٩٣٥ مفتشا بالمعاهد الأزهرية.
- وفى سنة ١٩٣٧ صدر المرسوم الملكى بتعيينه شيخا لمعهد دسوق الدينى.
- وفى سنة ١٩٣٨ صدر المرسوم الملكى بتعيينه شيخا لمعهد شبين الكوم الدينى.
- وفى سنة ١٩٤٦ صدر المرسوم الملكى بتعيينه شيخا لكلية أصول الدين.
- وفى سنة ١٩٤٧ صدر المرسوم الملكى بتعيينه شيخا لكلية اللغة العربية.
- ثم عُيِّن عضوا بمجمع البحوث الإسلامية - وعضوا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف والمجلس الأعلى للثقافة.
- لقى ربه فى يوم الجمعة أول رمضان الموافق ٢ يوليو ١٩٨١ عن عمر يناهز ٩٣ عاما.

أعماله للخير ابتغاء مرضاة الله:

١ - بناء مسجد الرملة - مسقط رأسه - من ماله الخاص وأوقف مساحة ٢ فدان وثمانية قراريط للصرف من ريعها على هذا المسجد.

٢ - أوصى فى وصيته بأن تهدى مكتبته العامرة بكتب التراث الإسلامى والمراجع وأمهات الكتب النادرة فى الفقه والسنة إلى معهد كفر الشيخ الدينى ليستفيد بها طلاب العلم بالمعهد وأبناء محافظة كفر الشيخ.

مؤلفاته العلمية:

١ - صفوة صحيح البخارى سنة ١٩٣٥ حيث قام باختيار ٧٠٠ حديث صحيح، وطبع هذا الكتاب فى أربعة أجزاء وتقرر تدريسه بالقسم الثانوى بالأزهر الشريف من ذلك التاريخ وذلك بتكليف من المرحوم الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر.

٢ - اجتهاد الرسول ﷺ كتبه فى سنة ١٩٤٨ وتم طباعته ونشره عن دار البيان بدولة الكويت سنة ١٩٦٩.

٣ - تيسير التفسير، صدر فى سنة ١٩٥٨ وهو تفسير باللغة الميسرة لسهولة قراءته وفهمه للطبقة العادية من القراء.

٤ - المصحف الميسر - تفسير للقرآن الكريم مختصر عن السابق.

٥ - ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين وهو كتاب يبين فيه أن هناك أساسيات فى بعض المسائل الدينية والشرعية التى لا يجوز فيها للمسلمين أن يختلفوا فيها سواء أكانت فى العقائد أو العبادات.

٦ - سلسلة مقالات تحت عنوان (إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) نشرت فى مجلة منبر الإسلام. وذلك على سنوات طويلة كذلك نشرت هذه السلسلة فى مجلة الوعى الإسلامى بدولة الكويت.

الإنعامات والجوائز والأنواط الحاصل عليها:

١ - كسوة التشريفة الملكية من الدرجة الثالثة أثناء عمله مفتشًا بالأزهر الشريف عام ١٩٣٥.

٢ - كسوة التشريفة الملكية من الدرجة الثانية أثناء عمله شيخا لمعهد شبين الكوم. عام ١٩٣٧.

٣ - جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى فى أكتوبر سنة ١٩٨٠ من السيد الرئيس محمد أنور السادات وكان بذلك أول شخصية أزهرية تنال هذه الجائزة.

٤ - نوط الامتياز من الطبقة الأولى فى إبريل سنة ١٩٩١ من السيد الرئيس محمد حسنى مبارك باسم المرحوم فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ عبدالجليل عيسى أبو النصر.

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
الادارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
or Research, Writting & Translation

السيد /

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ...

تفيد الادارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة بأنه لامانع لديها من طبع [illegible] المكتوب بالخط [illegible] طبع مطبعة [illegible] ...

على أن يقدم للإدارة عشر نسخ بعد الطبع للمراجعة بلجنة مراجعة المصاحف مراجعة نهائية تمهيداً للتصريح بالتداول ولايجوز توزيع هذا المصحف ونشره الا بعد الحصول على تصريح التداول من الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة مع الزامكم بوضع صورة من تصريح التداول بكل نسخة من نسخ المصحف قبل نشره وعرضه للجمهور .

والله ولى التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

مدير عام البحوث والتأليف والترجمة	الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية